مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الأول - السنة السادسة والثلاثون - المحرم سنة ١٣٨٤ هـ - يونيو ١٩٦٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الأدب الحرام

بقلم : أحمد حسن الزيات

الأدب عطر النفس الزكية وشعاع الروح اللطيف : ينفح الحس فيزكيه ، ويضيء العقل فيهديه ، وهو الجزء الروحي من كل نفس ، والقبس الإلهي في كل قلب ، والخصيصة التي تميز بها آدم من كل حي ، بلغت رسالات الله إلى خلقه بلسانه ، وانجلت عمايات النفوس بنوره ، وهدهدت آلام الخليقة بأنغامه ، ورسمت المثل العليا للناس بوساوس أحلامه .

ولولا خلال سنها الشعر ما درى
بناة المعالي كيف تبنى المكارم

على أن هذه الملكة اللطيفة قد تنحرف باختلال العقل أو انحلال الخلق فتصبح فنا لا أدبا ، وهوى لا عقلا ، وغريزة لا خلقا وصناعة لا طبيعة ، وحينئذ تنزل إلى دنيا الواقع ، فتصور المباذل بريشة الفنان ، وتصف الرذائل بقلم الأديب ، ولا يبتغي الفنان والأديب من وراء ذلك إلا لذة القارئ لا إفادته ، وإثارة السامع لا إنارته .

هذا الانحراف الأدبي قد فشا في أوربا بعد الحربين العالميتين فنشأ عنه نوعان من الأدب أحدهما أدب اللذة وأمره يسير ، والآخر أدب المجون وأثره خطير . فأما أدب اللذة وهو ما يسميه الفرنسيون اليوم : (اللذة الأدبية) (لاد لكتاسيون ليتريز) La délectation littéraire

فهو أدب يلذ ولا يفيد ، ويسوغ ولا يغذى ويشغل ولا ينبه ، كالذى تقرأه فى أكثر الصحف وبعض القصص مما يجذبك عرضه ويلذك تصويره ويلهيك موضوعه فإذا فرغت من قراءته لا تجد له وجعا فى نفسك ولا حاصلا فى ذهنك

طغى هذا الأدب على الأقلام فى أوربا بعد الحرب فهزم الكتاب النافع ، وطرد البحث المفيد ، فثارت ثائرة أقطاب الكتابة وأنحوا بالفكر على معالجيه ومروجيه ، وحاولوا أن يفتحوا أعين الناس على أخطاره بما نشروا وأذاعوا ، ولكن العلة كانت أفدح مما ظنوا . فإن الأعصاب التى أوهنتها الحرب بفظائعها وفواجعها وتوابعها لم تعد قادرة على معاناة الجد واحتمال التقصى . فرجعوا يتحاورون ويتشاورون ويطلب بعضهم إلى بعض أن يدسوا الفائدة فى اللذة ، ويمزجوا المرارة بالحلاوة تهوينا على الأعصاب المنهكة وتسكينا للنفوس القلقة .

ذلك هناك ، أما هنا فالأمر مختلف . لا أعصابنا موهونة من حرب ولا نفوسنا قلقة من ضيق ، إنما هى الثقافة الضحلة والأمية الفاشية والتربية المهملة والصبر الفارغ والطبع السئوم والوقت المضيع والحياة الهازلة .

خير ما فى المدرسة الألعاب ، وخير ما فى المجلس النكت ، وخير ما فى الكتاب الأفاكيه ، وخير ما فى الصحيفة الصور ، وخير ما فى النزهة التهريج .

فإذا كان الناس فى أوربا قد انصرفوا بعد الحرب من أدب المنفعة إلى أدب اللذة فإن ذلك وإن طال عرض سيزول ، لأن ثقافة النفس فى الغرب أصيلة وحب المعرفة فى أهله طبيعة .

أما عندنا فإن القراء يعكفون على هذا الأدب لأنه رضا السطحية الغالبة وهوى العامية العريقة ، فهو الأصل ، وما جاء على أصله لا يسأل عن علته ولا يتعجب من وجوده .

وأما أدب المجون فيختلف عن أدب اللذة فى الدواعى التى تدعو إليه ، وفى الدواهى التى تنجم منه ، فمن دواعى أدب اللذة عامية الذهن أو سطحية الفكر أو سآمة الجد ، وهى أعراض طارئة مصيرها إلى الزوال ، وانحراف عن الطبيعة مآله إلى الاعتدال ، ومن دواهيه أنه يلفظ أهله على ساحل الحياة فلا يخوضون العباب ولا يغوصون على الجوهر ، ويدفعهم إلى هامش الوجود فلا يكون لهم فى متنه مكان يرمق ولا شأن يذكر .

ولكن دواعى أدب المجون التنفيس عن رغبة مكظومة والتعبير عن عاطفة جائشة والتحرر من التزامات مقيدة .

وهى خواص فى طبع الإنسان تلزم لزوم

البكاء والضحك، وتدوم دوام الهزل والجد وأقل دواعيه أن تزول الحدود بين المعروف والمنكر، فلا يكون فارق بين حلال وحرام ولا بين فوضى ونظام ولا بين إنسان وحيوان.

أدب المجون إذن خاصة تلزم لا عرض ينفك. ذلك لأن حياة الإنسان من لوازمها الحياء والوقاحة والعفة والفجور والاحتشام والتبسط والتصون والتبذل، والأدب المطلق صورة لهذه المتناقضات جميعا فالفنان الشاعر أو الكاتب أو المصور لابد أن يعبر بطريقته الخاصة عن كل ما يجول فى نفسه أو يقع تحت حسه. وكلما كان هذا التعبير صادقا كان أدخل فى باب الفن وأوغل فى طريق الكمال. من أجل ذلك كان أدب المجون ثابت الوجود فى أدب العالم كله، وهو فى الأدب العربى عريق الأصل. ظهر منذ قال العرب الشعر ورووا منه لامية امرىء القيس ودالية النابغة ورائية بشار [1] وغزوات بن أبى ربيعة وفواحش أبى نواس ومنديات ابن إياس ومخازى ابن سكرة وأحماض ابن حجاج، وظل الأدباء فى كل زمان ومكان ينظمون المجون وينثرونه ولا تزال ذواكر المعاصرين تعى ما تلقفته الأفواه من مجون حافظ والرصافى وإمام العبد والهراوى مما لم تسجله صحيفة أو يدونه كتاب.

على أن هؤلاء جميعا كانوا ينشئونه لأنفسهم لا للناس، ويتناقلونه فى السر لا فى العلن، ويتفكهون به فى المجالس الخاصة لا فى المجامع العامة، ولو كان لهم ما لنا اليوم من طباعة تنشر وصحافة تذيع وجمهور يقرأ لتحرجوا من أكثر ما قالوه. فإن الناس منذ بث الله الحياء فى أبويهم آدم وحواء فخصفا على جسديهما العاريين من ورق الجنة شعروا أن للجسم عورات لا يجوز أن تظهر، ولما هذبهم الدين وثقفهم العلم وصقلهم التحضر شعروا كذلك أن الفكر عورات لا يليق أن تنشر، فهم بحكم الحرية والاستقلال والانطلاق يقولون ويفعلون فى خلواتهم ومباذلهم ماشاءوا، ولكنهم بحكم الدين والقانون والعرف يسترون سوءاتهم ونزواتهم ما استطاعوا، فلا يقولون كل حق ولا يصورون كل حالة ولا يظهرون كل مضمر، مراعاة لشعور الجماعة ومحافظة على كرامة الإنسان.

أدب المجون يجوز إذن أن يقال، ولكن لا يجوز أبدا أن يعلن، والرقيب على هذا الأدب ضمير الكاتب وكرامة القارىء. فما دام الكاتب ضمير يحييه الدين القويم والخلق

---

(١) من هذه القصيدة التى قالها بشار فى مراهقة خلا بها هذان البيتان :

ماذا بأس إذا رأت شفقى
أو كان منك الحديث يشتهر
قولى لها بقة لها ظفر
إن كان فى البق ماله ظفر
(والبق من أسماء البعوض)

الكريم فانه يتسكرم عن الهبوط إلى حضيض القوادين الذين يزينون الفحش ، والمهربين الذين يروجون المخدر ، وما دام للقارىء كرامة يقويها الحس الصادق والطبع السليم فانه يتنزه عن سماع الهجر ورؤية المنكر ، والناس فى الشرق والغرب ، وفى القديم والحديث كانوا كذلك قبل أن تقوم قيامة الحرب العامة التى أهلكت فيما أهلكت تراث الإنسانية والمدنية من كريم الشمائل وحر الحلال .

هتك بشار فى بعض شعره ستر الحشمة فنقم الناس منه ذلك وتمنوا موته صونا للعذارى وغيرة على المخدرات حتى قال مالك ابن دينار : « ما شىء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى الملحد » وانتهى المجون ببشار إلى أن أمر به الخليفة المهدى فضرب بالسوط حتى هلك ! واستهتر أبو نواس فى الغزل واسترسل فى الفجور حتى حبسه الخليفة الأمين ، ولم يكد يخرج من ظلام الحبس حتى دخل فى ظلام الرمس !

وألف الشاعر الرومانى « أوفيد » كتابه (فن الحب) فرأى فيه القيصر أغسطس إفساداً للناس فنفى المؤلف إلى (سرماسيا) وقال لطيباريوس حين سأله العفو عنه : « لا أنكر أن أوفيد شاعر ميزته الآلهة بالذكاء البارع والقريحة النافذة ، ولكنه أفسد بكتابه شباب روما فحق عليه أن يموت فى سجن سرماسيا » .

وكتب فلوبير القصصى الفرنسى قصة (مدام بوفارى) فوجد الناس فى أسلوبها خروجا عن مذهب الحياء فرفعوا أمره إلى القضاء فحكم عليه بالكف عن معالجة هذا النوع من القصص .

ونظم (بودلير) الشاعر الفرنسى ديوانه (أزهار الشر) فثار على جرأته أهل الحفاظ والنخوة وساقوه إلى القضاء فحكم عليه بغرامة قدرها ثلثمائة فرنك وإعدام ست قصائد من مطولاته .

فلما زلزل الله أركان الأرض بالحربين العالميتين كما قلت انقلبت الأوضاع وتغيرت الطباع واختلت المقاييس وبرد الدم الحار وبلد الحس المرهف وغلظ الجلد الرقيق فشاع الإغضاء وساغ البذاء وقلت المبالاة وسكنت الحمية حتى صار الفجور دينا له أنبياؤه ومبشروه . فمن أنبيائه فرويد وجيد وسارتر ، ومن مبشريه لورنس وفكتور مرجريت . أما الأتباع فهم عبيد التقليد ومسوخ الفن ومشوهو الخلق من أمثال فلانة فى فرنسا وفلانة فى لبنان وفلان فى مصر .

ومن كبار الأدباء الذين راعهم هذا الدين فرنسوا مورياك فقد حزبه الأمر وأحزنته

الحال حتى ألقى ثلاثة أسئلة على صفوة من رجال العلم والأدب فى أوربا يرجو أن يجد فى الأجوبة عنها طبا لهذا الداء وكشفا لهذا البلاء ، قال :

١ — هل تجد فى انصراف الأدب إلى التعبير عن شهوات الجسد العارض خطراً على الفرد وعلى الجماعة وعلى الأدب نفسه ؟

٢ — من هم الأدباء الذين تقع عليهم التبعة فى انحطاط الأدب الحديث ؟

٣ — أى المذاهب قد ساعد على هذا الانحطاط ؟

فإذا فرضنا أن هذه الأسئلة ألقيت علينا كما ألقيت عليهم فبماذا نجيب عنها ؟

يسأل مورياك ثلاثة أسئلة عن أدب الفحش ، أولها عن نتائجه ، وثانيها وثالثها عن أسبابه . فأما سؤاله عن نتائجه فما أظن جوابنا عنه يختلف عن جواب زملائه الأوربيين فى شىء ، لأن خطر الأدب الفاضح على الفرد والجماعة وعلى الأدب فى نفسه لا يمارى أحد فيه لا منا ولا منه . وهل يمارى أحد فى أن البهيم الذى يساكن الإنسان فى جسده إنما يروضه ويكبحه الأدب القائم على العقل والدين والعلم ، تارة بالفطام واللجام ، وتارة بالسياسة والملاينة فإذا فسدت طبيعة هذا الأدب فانقلب القيد سوطا يلهب ، والشكيمة مهمازاً يحث ، أفلت البهيم من ربقته فافترس الإنسان الذى يعيش معه ، وحطم المجتمع الذى يضطرب فيه . والأدب الذى أطلق هذا البهيم بتمليق غرائزه . وتحريض شهواته سينتهى أمره لا محالة إلى أن يصير آفة تتقى وجرثومة تحارب ، لأن فى ابن آدم محكمة داخلية نسميها الضمير إذا تعطلت حينا فلن تتعطل أبد الدهر .

وأما سؤالاه عن أسبابه فالأمر بيننا وبينهم فى جوابيهما جد مختلف . إن أسبابه عندهم هى المرض وإن أسبابه عندنا هى العدوى . ولا أقصد بالعدوى عدوى حدوث المجون فإن المجون كما قلت أصيل فى كل نفس ، عريق فى كل أدب ، إنما أقصد بالعدوى عدوى نشره فى الصحف والكتب والتمثيل بنوعيه المحقق والمصور .

ليس على المرء من حرج أن يماجن صحبه الأدنين فى مجلسه الخاص . وليس عليه من حرج أن يعرى فى غرفة نومه أو فى حمام بيته ، إنما الحرج كله أن يماجن فى ملأ أو يعرى فى شارع . والذين يسمعونه مفحشا ولا يعترضون ، أو يرونه عاريا ولا يعرضون لا يقلون مجونا ولا جنونا عنه .

فالمسألة فى أدب المجون مسـألة ضمير فى الكاتب والناشر ، وكرامة فى القارىء والناظر ، فى وجودهما عدمه ، وفى عدمهما وجوده .

أحمد حسن الزيات

التطورات التشريعية للطلاق

للأستاذ محمد محمد المدني

— ٢ —

انتهينا فيما سبق إلى أن العالم قبل الإسلام، كان يتنازعه فى شأن الطلاق ميدآن :

أحدهما : عدم الاعتراف بمشروعيته إلا فى حالة واحدة هى حالة الزنا من أحد الزوجين .

والثانى : الاعتراف بمشروعيته على تفاوت فى تقرير هذه المشروعية ، بالنسبة لصاحب الحق فيه ، وللظروف التى يستعمل فيها هذا الحق ، والأسلوب الذى يكون به ، وأن هذا التفاوت قد وصل فى بعض المجتمعات إلى حد التعسف من قبل الزوج ، رغبة فى اضطهاد المرأة وإهدار كرامتها الإنسانية ، وحقوقها الزوجية ، بل إلى حد التلهى بالطلاق واتخاذه هزواً ولعبا .

الطلاق فى الإسلام :

فلما أشرقت شمس الإسلام ، وجاءت شريعة الفطرة والعدل والرحمة والتوسط الذى يأبى الإفراط ، ويتنزه عن التفريط ؛ شرع الله قانونا محكما للطلاق ، يقوم على المبادئ الآتية :

١ — الاعتراف بمبدأ الطلاق كنهاية حاسمة لحياة زوجية لم يعد من الممكن استمرارها .

ولا شك أننا نرى فى الحياة صوراً كثيرة تمثل ألوان الشقاء ، واستحكام العداء بين الزوجين ، فإذا ألزمناهما باستمرار هذه الحياة فى ظل ما يكابدانه من شقاء ، فقد أغمضنا العيون عن الواقع ، وفرضنا على الطبيعة البشرية ما لا تحتمله ، وليس هذا وذاك مما يتفق ومبدأ الإسلام فى واقعيته ومراعاته لحق الفطرة .

ان الزواج إنما هو شركة بين اثنين متحابين متعاونين ، يقصد بها أن يكون كل منهما سعيداً فى جوار صاحبه ، مطمئنا إليه ولذلك وصف الله الزواج بأنه سكن لكل من الزوجين ومودة ورحمة .

ولقد اعترف كثير من علماء الاجتماع فى العصر الحاضر ومنهم بعض العلماء الأوربيين بالمصلحة الحقيقية التى تكفلها إباحة الطلاق ، وقرروا أن كلا من الزوج والزوجة إذا شقى بصاحبه وعلم أنه لا سبيل إلى الخلاص منه ، فقد يتجه إلى المخادنة واتباع طرق غير

مشروعة ليرضى طبيعته فى السكون إلى من يبادله المحبة والمودة ، أو يعينه على تلبية رغباته البشرية ومن ثم ، تكثر المعاشرات المحرمة ، ويكون الانحـــلال بين الأسر واضطراب الإنسان ، وفساد المجتمع .

ولذلك كان من حكمة الله ورحمته أن شرع الطلاق لكى يمنح كلا من الزوجين فرصـة لاستئناف حياة زوجية أخرى لعلها تكون أكثر توافقا ، « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما » .

٢ — ولما كان التشريع الإسلامى يلتزم عادة جانب الوسط ، وجادة السبيل فى الأمور كلها ، أعلن الإسلام مع إباحته الطلاق أن الله يبغضه ، ولا يحب التعجل فيه ولا الإقدام عليه بدون مبرر قوى يستدعيه .

ففى الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أبغض الحلال إلى الله الطلاق) و (ما أحل الله شيئا أبغض إليه من الطلاق) و (لا تطلق النساء إلا من ريبة) (إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات) و (أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة) و (إن المختلعات هن المنافقات) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا علم بطلاق لم تراع فيه السنة - أى الطريقة المشروعة فى الإسلام - غضب وقال « أتلعبون بكتاب الله وأنا بين أظهركم » ، وذلك توجيه منه صلى الله عليه وسلم إلى قوله تعالى فى أثناء بيانه لبعض أحكام الطلاق : « ولا تتخذوا آيات الله هزوا ، واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم » ، وقوله عز وجل فى أثناء بعض أحكام الطلاق أيضا : « تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » .

وقد استنبط كثير من الفقهاء من هـذه النصوص قاعدة تقول : « إن الطلاق أصله الحظر والمنع ، ومن ثم لا يجوز الإقدام عليه إلا لسبب مشروع » .

وقال آخرون بل أصله الإباحة واستدلوا بقوله تعالى : « لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة » ، فقد نفى الله الجناح أى الإثم عن يطلق النساء وقد طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلق أصحابه ، ولو كان محظورا ما فعلوه .

والواقع أنه لا تلاقى بين الرأيين على نقطة واحدة ، وأن الذين يقولون بأن أصـل الطلاق الحظر لا يمنعون أنه مباح فى الحالات التى تنشأ عن سبب مشروع ، فهم لا يقولون أنه محظور دائما وفى جميع الحالات ، والذين يقولون بأنه مباح لم يبينوا أن الطلاق الذى وقع من رسول الله صلى الله عليه وسلم

أو على عهده كان بدون سبب يقتضيه أو يبيحه.

أما الآية التي استدل بها هؤلاء على الإباحة فهي في حالة خاصة لا تعم جميع صور الطلاق وهي حالة من أراد طلاق امرأته التي لم يدخل بها ولم يعين لها مهراً، وقد قرر لها فيها (المتعة) حقا للزوجة فقال: «ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين»، ثم عطف عليها حالة غير المدخول بها التي عين لها مهرا فقال: «وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح».

فالكلام إنما هو في تقرير ما تستحقه الزوجة في ما بين الحالتين، ولذلك قالوا: إن معنى رفع الجناح في هذه الآية عن الأزواج هو رفع التبعة المالية التي كان بمقتضى الزواج أن يحملها الزوج، وهي المهر، فبين الله تعالى أن غير المدخول بها التي لم يسم لها مهر، لا مهر لها ولا نصف مهر، ولكن لها المتعة حسب حالة الزوج وقدرته المالية.

وإذن فالكلام ليس في رفع الجناح عن المطلق من جهة إقدامه على الطلاق، ولكن في رفع تبعة المهر وتقرير المتعة بدله، حيث لم يتعين لها مهر.

وبذلك يتبين أن الرأي الأول الذي يقول بأن الأصل في الطلاق الحظر والمنع هو الرأي الراجح الذي ينبغي التعويل عليه والأخذ به.

ويترتب على ذلك مسلك فقهي في شأن الطلاق يتفق وروح التشريع الإسلامي في الحد منه ووضع العقبات دون إنهائه الحياة الزوجية ما دام في الوسع الإبقاء عليها وإصلاحها.

ذلك المسلك هو أن يقال: إن الزواج عقد يجب أن يلتزم به الطرفان كسائر العقود، بل إن الشارع يعطيه من العناية والتقدير قسطا أوفر، ويرغب في استمراره، وقد ترجح لنا مما تقدم أنه يعتبر إنهاؤه محظورا في الأصل، وليس من المباحات التي يجوز للمرء أن يقدم عليها دون أسباب تدعوه إليها، وإذن فيجب أن ينظر إلى الطلاق على أنه تصرف لا يجوز الإقدام عليه إلا في الحدود التي رسمها الشارع له، وأن كل تجاوز لهذه الحدود يبطل هذا التصرف، وينظر إليه على أنه غير قائم ولا نافذ.

وهذا يتمشى مع القاعدة العامة التي يقررها الحديث الثابت الصحيح: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» أي مردود، والتي يوحي بها في خصوص الطلاق قوله تعالى: «تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون».

وهذا المسلك الفقهي في شأن الطلاق قد سلكه على الجملة بعض الفقهاء، واشتهر به الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، وفي ذلك يقول الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنية العالم الإمامي اللبناني في كتابه: «الزواج والطلاق على المذاهب الخمسة» - وهو بصدد الكلام عن الطلاق السني والبدعي (١):

ومهما يكن فإن السنة والشيعة قد اتفقوا على أن الإسلام قد نهى عن طلاق الزوجة البالغة المدخول بها غير الحامل إذا كانت غير طاهر، أو في طهر واقعها فيه، ولكن أهل السنة قالوا: إن النهي للتحريم لا للفساد، وإن من أوقع الطلاق بدون تحقق الشروط يأثم ويعاقب، ولكن يصح طلاقه، وقال الشيعة: إن النهي للفساد لا للتحريم، لأن مجرد التلفظ بالطلاق غير محرم، وإنما القصد وقوع الطلاق لغو كأن لم يكن، تماما كالنهي عن بيع الخمر والخنزير، فإن التلفظ بالبيع لا يحرم، بل لا يتحقق النقل والانتقال.

ويقول: وهو بصدد الكلام على صيغة الطلاق (٢).

قال الإمامية: لا يقع الطلاق إلا بصيغة خاصة، وهي «أنت طالق» أو «فلانة طالق» أو «هي طالق»، ... ويشترط أن تكون الصيغة فصيحة غير ملحونة ولا مصحفة، وأن تكون مجردة عن كل قيد، حتى ولو كان معلوم التحقق مثل: إذا طلعت الشمس ونحو ذلك، ولو خير زوجته، وقصد: تفويض الطلاق إليها، فاختارت نفسها بقصد الطلاق لا يقع عند المحقق من الإمامية، وكذلك لا يقع لو قيل له: هل طلقت زوجتك؟ فقال: نعم - قاصدا إنشاء الطلاق - ولو قال - أنت طالق ثلاثا، أو أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق، تقع طلقة واحدة مع تحقق الشروط، ولا يقع الطلاق بالكتابة، ولا بالإشارة، إلا من الأخرس العاجز عن النطق، ولا يقع بغير العربية مع القدرة على التلفظ بها ... وكذلك لا يقع الطلاق عند الإمامية بالحلف واليمين، ولا بالنذر والعهد، ولا بشيء الا بلفظ (طالق) مع تحقق الشروط. قال صاحب الجواهر نقلا عن الكافي: «ليس الطلاق إلا كما روى بكير بن أعين، وهو أن يقول لها، وهي طاهر من غير جماع: أنت طالق، ويشهد شاهدين عدلين، وكل ماسوى ذلك فهو ملغى، ثم نقل صاحب الجواهر عن الانتصار إجماع الإمامية على ذلك.

وبالتالي، فإن الإمامية يضيقون دائرة الطلاق إلى أقصى الحدود. ويفرضون القيود الصارمة

(١) ص ١٤٤ من كتاب (الزواج والطلاق) المشار إليه.

(٢) ١٤٥، ١٤٦ من الكتاب نفسه.

على المطلق أو المطلقة وصيغة الطلاق وشهوده كل ذلك لأن الزواج عصمة ومودة ورحمة وميثاق من الله ... فلا يجوز بحال أن تنقض هذه العصمة والمودة والرحمة ، وهذا العهد والميثاق ، إلا بعد أن نعلم علما قاطعا لكل شك بأن الشرع قد حل الزواج بعد أن أثبته وأبرمه .

ولكن المذاهب الأخرى قد أجازت الطلاق بكل مادل عليه لفظا وكتابة ، وصراحة وكناية ، مثل : أنت على حرام ، وأنت بتة - من البتل وهو القطع والإبانة - وبرية : واذهبي فتزوجي ، وحبلك على غاربك ، والحقي بأهلك ، وما إلى ذلك ، كما أجازت أن يكون الطلاق مطلقا ومقيدا ، مثل : إن خرجت من الدار فأنت طالق ، وإن كلمت أباك فأنت طالق ، وإن فعلت أنا كذا فأنت طالق ، وكل امرأة أتزوجها فهي طالق - فيقع الطلاق بمجرد حصول العقد عليها - وما إلى ذلك مما لا يتسع له المقام وقد أجازت أيضاً المذاهب الطلاق بتفويضه إلى المرأة ، وإلى غيرها ، كما أجازت وقوع الطلاق ثلاثا بلفظ واحد . . . وقد أحسنت الحكومة المصرية بأخذها فى كثير من شئون الطلاق بالمذهب الإمامى ، هذا وإن المذاهب الأربعة لم تشترط الإشهاد بصحة الطلاق بخلاف الإمامية ، حيث اعتبروه ركنا من أركانه ، ا هـ .

هذا هو مذهب الشيعة الإمامية .

أما المذاهب الأخرى فسنتحدث عنها فى المقال الآتى إن شاء الله تعالى .

محمد محمد المدنى

وصية عبد الملك بن مروان لبنيه عند وفاته

« أوصيكم بتقوى الله ، فإنها عصمة باقية ، وجنة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل فى المعاد ، وهى أحصن كهف . وليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير ، مع سلامة الصدور ، والأخذ بجميل الأمور ، وإياكم والبغى والتحاسد ، فبهما هلك الملوك الماضون ، وذوو العز المكين » .

شهر الله المحرم

للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

يطلق اسم المحرم على الشهر الأول من شهور السنة العربية القمرية ، وقد كان لهذه الشهور فى أقدم عهود الجاهلية أسماء أخرى غير الأسماء المعروفة الآن ، وإن اختلف الرواة فى تحديد تلك الأسماء ، وأشهر ما ورد فى صدد المحرم أنه كان يطلق عليه اسم « المؤتمر » ؛ لأن العرب كانوا يعقدون فيه المؤتمرات للفصل فى أقضيتهم ، فيستفتحون السنة الجديدة بتصفية خلافاتهم فى العام السابق ورسم ماينبغى أن تسير عليه علاقاتهم فى العام الجديد ، وأما الأسماء التى تطلق الآن على الشهور العربية فالمشهور أنها وضعت فى عهد كلاب بن مرة أحد أجداد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان ذلك قبل الإسلام بنحو قرنين ، وقد اختلف فى تعليل تسميتها بهذه الأسماء وأشهر ما ورد فى صدد المحرم أن العرب سموه بهذا الاسم لحرمة القتال فيه .

وقد اشترك مع المحرم فى هذا الحكم ثلاثة أشهر أخرى ، وهى رجب ، وذو القعدة وذو الحجة ؛ فكانت هذه الأشهر الأربعة عند العرب أشهر سلام وهدوء يتفرغون فيها لأمور معاشهم و تنمية مواردهم وشئونهم الأدبية والثقافية والدينية ، وتقرر هذا النظام لديهم من قبل الإسلام بأمد طويل ، وكان لها حظ عظيم فيما وصل إليه العرب من رقى وحضارة قبل الإسلام ، بل يرجع إليها أكبر قسط من الفضل فى بقاء الجنس العربى نفسه ، فقد كانت العلاقات بين قبائلهم وبطونهم علاقات متوترة تسودها الإحن والعداوات ، ولم تتوافر لدى أمة ما أسباب التناحر والتقاتل والتطاحن بمقدار ماتوافرت لدى هذه الأمة فى جاهليتها ، وما كان أكثر دواعى الحرب ومقتضياتها عندهم ، وكان يكفى أن تنشب حرب بين قبيلتين أو بطنين لأتفه الأسباب حتى ينضم إلى كلتيهما حلفاء وأنصار من القبائل والبطون الأخرى ، وتظل الحرب مستمرة عدة سنين ، وتحصد آلافا من الفريقين المتنازعين ، فلولا نظام الأشهر الحرم لاستأثرت هذه الحروب بجميع مظاهر نشاطهم ، واستغرقت جميع أيامهم ،

ولوقف نموهم الاجتماعي والحضاري ، بل لفنى الجنس العربي نفسه .

وظل العرب أمدا طويلا محافظين كل المحافظة على حرمة هذه الشهور فى مواقيتها ، حتى إن الرجل منهم كان يلقى قاتل أبيه فيها فلا يمسه بسوء ، بيد أنه قد شق على بعضهم الكف عن القتال ثلاثة أشهر متواليات وهى القعدة والحجة والمحرم ، فأدخلوا على الأشهر الحرم تعديلا يتيح لهم تقصير هذه المدة ، والاعتداء على حرمة شهر المحرم بالذات ، وهو نظام النسيء (من نسأه إذا أخر أجله) وذلك بأن يراعوا حرمة شهرين متتابعين وهما ذو القعدة وذو الحجة ، بدلا من ثلاثة ويحلو القتال فى شهر المحرم ، على أن ينسئوا حرمته (أى يؤخروها) وينقلوها إلى شهر آخر كصفر مثلا ، فإذا جاء صفر واحتاجوا فيه للقتال أحلوه وحرموا ربيعا الأول ... وهكذا .

فأصبح المعتبر فى التحريم عندهم مجرد العدد لا خصوصية الأشهر الحرم ، وكانوا أحيانا يحلون شهرا آخر من الأشهر الحرم غير شهر المحرم ويؤخرون حرمته وينقلونها إلى شهر آخر من غير الأشهر الحرم .

وكانوا أحيانا يزيدون فى عدد شهور السنة فيجعلونها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ، ويجعلون أربعة منها حرما ، ليتسع لهم الوقت القتال ، ومن أجل ذلك اضطربت مواقيت حجهم ، فكان يجىء حجهم أحيانا فى غير ذى الحجة ؛ ويروى أن أبا بكر قد حج بالناس فى السنة التاسعة من الهجرة فى شهر ذى القعدة ، لأن اضطراب المواقيت عند أهـــل مكة قد تقدم بالحج فى هذا العام عن موعده .

وقد أقر الإسلام نظام الأشهر الحرم فى وضعه الأصيل ، وقضى على كل ما حدث فى هذا الوضع من تلاعب ، فقرر أن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا لا يصح نقصها ولا زيادتها وأنه لا يجوز أن يستبدل بشهر المحرم شهر آخر ، فيجعل المحـــرم من الأشهر الحلال وتنتقل حرمته إلى هذا الشهر الآخر ، وأنه لا يجوز أن يفعل ذلك فى أى شهر آخر من الأشهر الحرم ، وأن النسىء ضلال وكفر وتغيير لكلمات الله . وفى هذا يقول الله تعالى : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ذلك الدين القيم ... » ويقول : « إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله » (أى ليجعلوا عدد الشهور التى يحرمونها متفقا مع عدد الشهور التى حرمها الله ، فيعتبرون فى التحريم مجرد

العدد لا خصوصية الأشهر الحرم) « فيحلوا ما حرم الله ، زين لهم سوء أعمالهم ، والله لا يهدى القوم الكافرين » .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى خطبته فى حجة الوداع وهى الخطبة التى لخص فيها كثيرا من أحكام الشريعة الإسلامية وجعلها دستورا للمسلمين من بعده « أيها الناس ! إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم (أى من الأمور التى تعدونها صغيرة) . أيها الناس إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا — يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله . وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ، (وذلك أن الرسول عليه السلام قد أعاد حينئذ الشهور إلى أوضاعها الصحيحة ، فكانت حجة الوداع فى مواقيتها فى شهر ذى الحجة) وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات وواحد فرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان : ألا هل بلغت ؟ ! اللهم فاشهد ! » .

غير أنه يظهر أنه لم يكن لدى العرب حينئذ فكرة دقيقة عن مدة الشهر القمرى من الناحية الفلكية (وهو الوقت الذى تستغرقه دورة القمر حول الأرض دورة كاملة ، ومقداره تسعة وعشرون يوما واثنتا عشرة ساعة وأربع وأربعون دقيقة وثانيتان وتسع ثوانى) .

ولذلك كانوا يسيرون فى الغالب فى تقدير هذه المدة على طريقة تقريبية ، فيجعلون شهرا ثلاثين يوما ويجعلون الشهر التالى له تسعة وعشرين يوما ، إلا إذا ثبتت رؤيتهم لهلال الشهر الجديد فى ليلة غير الليلة المتفقة مع حسابهم التقريبى ، فيصححون بذلك حسابهم . وفى هذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : (إنا أمة أمية لا تكتب ولا تحسب الشهر هكذا وهكذا) وأشار فى الأولى إلى مجموع أصابع يديه ثلاث مرات ، وأشار فى الثانية إلى مجموعها مرتين وخنس الإبهام فى الثالثة . (أخرجه البخارى عن عبد الله ابن عمر) . فقد افتتح الرسول عليه الصلاة والسلام حديثه بقوله : (إنا أمة أمية لا تكتب ولا تحسب) ، يقصد بذلك أنهم لا يعرفون قوانين علم الفلك ، وبالتالى لا يعرفون مدة الشهر القمرى فى صورة دقيقة ، وأنهم لذلك يسيرون فى عدة أيام الشهر على طريقة تقريبية ، فيجعلون شهرا

ثلاثين يوما ويجعلون الشهر التـــالى له تسعة وعشرين يوما .

ولاتقاء ما عسى أن يكون فى الحساب التقريبى من خطأ أوجب الإسلام فى الشهور المرتبطة ببعض الشعائر الدينية (كشهر رمضان الذى تؤدى فيه فريضة الصوم وشهر ذى الحجة الذى تؤدى مناسك الحج فى أيام معينة منه ، وخاصة أهم ركن من أركانه وهو الوقوف بعرفة ، فإنه لا يصح أداؤه إلا فى مدة محددة من اليوم التاسع وليلة العاشر) أن يعتمد فيها على رؤية الهلال وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام فى شهر رمضان : (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما) .

* * *

والشهر المحرم فى الإسلام مكانة مقدسة خاصة . ولذلك سماه الرسول عليه الصلاة والسلام : « شهر الله » . ولم يندب عليه الصلاة والسلام إلى صيام شهر كامل على سبيل التطوع غير شهر المحرم ، وجعله أفضل صيام بعد رمضان . فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الصيام أفضل بعد رمضان ، فقال : « شهر الله الذى تدعونه المحرم » (رواه أحمد ومسلم وأبو داود) . ويظهر أنه كان له كذلك مكانة خاصة فى نفوس العرب فى الجاهلية ، بدليل أنه اختص من بين الشهور الأربعة الحرم بالاسم الذى يدل صراحة على حرمته ، وذلك قبل أن يعبثوا فى مدة الشهور وأوضاعها ويبتدعوا نظام النسىء الذى كان يتيح لهم فى الغالب انتهاك حرمة هذا الشهر بالذات .

* * *

ويسمى اليوم العاشر من شهر المحرم عاشوراء ، وقد يسمى التاسع كذلك تاسوعاء . والراجح أن هذه وتلك تسميتان عربيتان قديمتان . وليستا منقولتين من لغة أخرى . ويظهر أنه كان ليوم عاشوراء مكانة دينية خاصة عند قريش فى الجاهلية . فقد روى عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن « يوم عاشوراء كان يوما تصومه قريش فى الجاهلية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه . فلما قدم المدينة صامه وأمر الناس بصيامه . فلما فرض رمضان قال من شاء صامه ومن شاء تركه » ؟

دكتور على عبد الواحد وافى

هجرات فى سبيل الحرية

للأستاذ عبد المنعم النمر

لم تكن الهجرات التى هاجرها الرسول صلى الله عليه وسلم أو أمر بها أصحابه إلا تعبيرا صادقا وحازما للنزوع إلى الحرية والجد فى طلبها وبذل أغلى التضحيات التى تتحملها النفوس البشرية فى سبيلها .

والنزوع إلى الحرية أمر طبيعى فى الإنسان وقد يكون أيضا فى الحيوان ، لكنه فى الإنسان قوى عارم يتناسب مع شعوره بكيانه وكرامته وقيمته كإنسان كرمه الله وجعله خليفة له فى الأرض . . ثم يشتد به هذا الشعور حين يكون رجلا ذا رسالة يرى من الضرورى أن تتحقق له الحرية التامة فى التعبير عن رأيه وشعوره ومبادئه قولا وعملا حتى يستطيع أن يحقق للناس الإصلاح الذى جاء به عن طريق الاقتناع والإيمان .

ولقد مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم سنين عديدة فى مكة يدعو المجتمع المكى ومن حوله إلى تصديقه والإيمان بما جاء به من مبادئ التوحيد والعدل والمساواة ، ولكن أصحاب المصالح الذين قامت مصالحهم على أساس الوضع الراهن فى مكة خشوا على وضعهم هذا من الضوء الجديد الذى تبعثه الرسالة المحمدية فى النفوس ، وخافوا على مراكزهم التقليدية أن تنهار أمام دعوة التوحيد ...

وكان عمه أبو لهب يعبر عن نفسه وعن طبقة المسيطرين المنتفعين أمثاله حين قام ثائرا فى نهاية الاجتماع الذى جمعهم الرسول فيه وعرض عليهم دعوته السمحة وقال لمن حوله : خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، وكان ذلك بدء صراع عنيف بين هؤلاء وبين الرسول ودعوته الجديدة ، لقد بدءوا ينفذون فكرة أبى لهب أو خطته بكل الوسائل التى يستطيعونها حتى يحولوا بين الرسول وبين اجتماع العرب على دعوته واعتناقهم لها فيزول سلطان طبقة المنتفعين وتتغير أوضاعهم .

استعملوا أساليب الإغراء فلم تفلح معه واستعملوا أساليب التهديد فانهارت أمام تصميمه وقوله : (والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه) فلم يعد مفر أمامهم من

تنفيذ وعيدهم وبدءوا يسلطون أنواع العذاب والتنكيل على الرسول والقلة المؤمنة به، ودخلت الدعوة والمؤمنون بها في دور من الكفاح النفسي الرهيب كانوا دائما فيه يقاسون العذاب ولا يملكون دفعاه بقدر ما يملكون من الصبر عليه والاحتمال له.. كانوا قلة وضعافا لا يملكون وسائل الدفاع عن أنفسهم وحريتهم.. فاحتملوا العذاب صابرين فنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر.

ولكن إلى متى يظلون يتعرضون للعذاب والفناء.. صابرين على الكبت والاضطهاد وقد أصبح ما ينزل بهم شبه حائل بين الدعوة وامتدادها حتى كادت تختنق أو تتجمد؟ أليس لهم طاقة قد تبلغ حدها؟ ثم أليسوا كنزا؟ من الحكمة أن يدخر ويحتفظ به!

جاء خباب مرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة في ظل الكعبة فقال له: «يا رسول الله: ألا تدعو الله لنا! وأحس الرسول في هذا القول نغمة شكوى دفينة تنم عن طاقة بلغت أقصى ما عندها من تحمل فأقلقه هذا القول فقعد وقد احمر وجهه وقال لخباب يعطيه شحنة وطاقة جديدة من الإيمان والصبر والاحتمال: إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق، ما يصرفه ذلك عن دينه، ثم لم يتركه عند هذا الحد الجاد الصارم من القول، بل أضاف إليه شحنة من أمل في مستقبل مشرق لهذا الدين، وأصحاب الدعوات من المجاهدين لا يعيشون على الخوف والصبر وحده ولا على الأمل المشرق وحده، ولكن لابد لهما معا في نفوسهم حتى لا ييأسوا أو يتهاونوا ولذا أكمل له الرسول جانب الأمل فقال: (وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه).

ونزل القرآن يزيد من تثبيت الرسول للمؤمنين المضطهدين «الم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين».

ومع ذلك فقد فكر الرسول صلى الله عليه وسلم في حماية أصحابه القليلين من الفناء.. وقال لهم «تفرقوا في الأرض، ابتعدوا عن مكة. اتركوا هذا الجو الخانق.. واذهبوا إلى بلد أو بلاد أخرى.. وسألوه إلى أين. فقال: (إلى الحبشة فإن فيها ملكا لا يُظلَمُ عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم مخرجا مما أنتم فيه».

لماذا اختار الرسول أرض الحبشة وبينهم وبينها البحر، ولم يكن لهم بها عهد، وليس

لهم فيها قرابة ولا صديق ؟ . ولم يختر لهم أرضا عربية يسهل عليهم الوصول إليها ويمكنهم التخاطب مع أهلها ؟ .

لقد كانت مكة عاصمة الشرك الذى يحاربه الرسول ، والقبائل العربية كلها تسير فى ركاب مكة الدينى وتتخذ لها أصناما آلهة كالمكيين تماما فما كان ينتظر فى هذه الحالة أن يجد المؤمنون - وهم أعداء الشرك أينما وجد - حماية وأمنا لدى هؤلاء العرب المشركين فى أى مكان .. فلابد من التماس الأمان والحرية عند قوم لا يدينون بأصنام العرب ولا يتخذون مكة عاصمة الشرك والحج ، وليس لمكة نفوذ عليهم أى نفوذ .. حتى يكون المؤمنون بعيدين عن مناطق النفوذ المكى المشرك . ولا يكون ذلك إلا عند قوم لهم دين سماوى لا يقرون الأصنام .. وكان هؤلاء فى بلاد الروم وفى الحبشة . .

ولكن لماذا لم يوجههم الرسول إلى بلاد الروم . وربما كانت أقرب وأسهل مسلكا لهم من بلاد الحبشة ؟ .

هل كان ذلك راجعا إلى أنها كانت أكثر اتصالا بالعرب من الحبشة ، وربما يكون لذلك دخل فى التأثير على من يلجئون إليهم فيسلكون مسلكا عدائيا نحو هؤلاء المؤمنين .. أو كان ذلك راجعا إلى ما يعلمه الرسول عن النجاشى من صفات طيبة جعلته يثق به ويحسن معاملته للمؤمنين حين يلجئون إليه ، ولم يكن عند الرسول مثل ذلك من الثقة فى أمير أو ملك فى بلاد الروم .

وهذا هو الذى ينبئ عنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم حين أمرهم بالتوجه للحبشة : (فإن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد . إلخ) ولعل ذلك يرجع إلى الأمرين معا .

ولقد جاءت الحوادث بعد ذلك مصدقة لظن الرسول وتفكيره . فقد حاول سفيرا قريش إلى النجاشى أن يثيراه على المسلمين حتى يتخلى عنهم ويسلمهم إليهما ولكن باءت محاولتهما بالفشل ، وعاش المسلمون فى ظله آمنين ، وصدق الرسول (فإن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد) وإن كانت الغربة عن الوطن والبعد عن الرسول ومن بقى معه من المسلمين كانا يقضان مضاجعهم ويجعل الحياة مريرة قاسية عليهم .

ما الذى دفع هؤلاء إلى احتمال ما احتملوا من جهد ونصب فى ترك الوطن وركوب البحر والالتجاء إلى بلاد لا عهد لهم بها ؟ إنها الحرية التى يلتمسونها لهم ولدعوتهم .. الحرية التى دفعوا كل هذا ثمناً لها يؤدون فى ظلها شعائرهم ويجهرون بمعتقداتهم دون رهبة أو خوف .. عبرت عن ذلك إحدى المسلمات المهاجرات حين قالت : « لما ركبت بعيرى أريد أن أتوجه به إلى أرض الحبشة : إذا أنا بعمر بن الخطاب

- وكان من أشد الناس علينا - يقول لى : إلى أين يا أم عبد الله ؟ فقلت : آذيتمونا فى ديننا ، نذهب فى أرض الله حيث لا نؤذى ، فذلك هو التماس الحرية فى التعبير عن العقيدة والقيام بشعائرها ما دام المؤمنون بها لا يستطيعون التعبير عنها ولا القيام بالتزاماتها فى وطنهم الذى نبتوا فيه وكانت كل تضحياتهم من أجل هذه الحرية وثمناً لها . .

وهنا تقفز إلى الذهن فكرة الوطن وحبه والإخلاص له وتقدير مصالح الإنسان فيه فى كفة وحرية التعبير عما يعتقده الإنسان فى كفة أخرى . . أيهما يخلص الإنسان له ويضحى فى سبيله ويقدمه على غيره ؟

لا شك أن حب الوطن أمر طبيعى فى النفس. ولكن إلى أى حد يبقى الإنسان مرتبطاً بوطنه ؟ هل يبقى كذلك ولو لم يجد فيه حريته ، وهل يفضل الإقامة فيه ولو لم يستطع أن يشق فيه الطريق للتعبير عن رأيه وعقيدته ، ولو وجد من أهله تنكراً له وظلماً وقسوة عليه أو بعبارة أخرى ولو وجد فى هذا الوطن قتلا لمعنى الإنسانية فيه ، وإهداراً لكرامته ، وإرغاماً له على أن يقيم على الضيم الذى يراد به ؟

إن القرآن يجيب عن هذا فى صراحة قاطعة .

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

والقرآن بهذا يرتفع بحرية الإنسان وكرامته وإنسانيته فوق كل ما عداها من ارتباطات ومصالح تشد الإنسان وتلصقه بالبلد الذى ولد وعاش عليه وله فيه مال وأهل وأحباء ومساكن وذكريات . . ويهدد كل إنسان يتنكر لهذه القيم ويهدر كرامته وحريته وإنسانيته فى سبيل مصالحه وعواطفه . .

وما قيمة الأوطان لدى أناس من بنيه ، ماداموا لا ينعمون بنعمة الحرية فيه ، ويراد لهم أن يعيشوا فى ظله كالسوائم ترعى وتساق أو تقاد من خطامها إلى حيث يرادبها . .

إن الإنسان يعطى وطنه من حبه وإخلاصه وتضحياته بقدر ما يعطيه إياه من تكريم ، ويشتد تعلقه به كلما أحس نعمة الحياة والحرية فى ظله أو توقعها فيه ، فإذا رأى كرامته مهدرة وحريته مبددة ، وجهوده فى سبيله مضيعة ، ولم يستطع أن يقاوم تيار الظلم فيه ، أو يصلح من انحراف بنيه ، كان من الواجب

عليه أن يبحث عن متنفس له حيث يجد فيه حريته ويبث فيه آراءه ويجمع حوله أتباعه وأنصاره ، ولربما خفت حدة العناد له فى وطنه وازداد تفكير مواطنيه فيه وفى دعوته بعد رحيله ، فيتجهون إليه ، ويتنسمون أخباره ، ويقبلون آراءه ، ويجد منهم ومن غيرهم على مر الزمن أنصاراً يستطيع بهم أن يعود إلى وطنه ويصلح ما فسد فيه .

تلك هى نظرة الإسلام للحرية ، وذلك هو تقديره لها ، ودعوته للبذل فى سبيلها . .

ومن أجل هذا وجدنا القرآن يعيب على المستضعفين الذين يؤثرون الذل والإقامة فى وطن تهضم فيه حريتهم وتهدر كرامتهم ويتعللون بأهليهم ومصالحهم مضحين بالمعنى الكريم فى الإنسان وهى حريته فيتوعدهم بالعذاب وسوء المصير : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » ويكفى أن القرآن سماهم ظالمين لأنفسهم وأعد لهم بسبب تفريطهم فى حريتهم جهنم وساءت مصيرا . . وما ذلك إلا لأنهم رضوا بالحياة الذليلة واطمأنوا بها وضحوا بحريتهم فى إعلان ما يعتقدون أنه الحق . .

* * *

ولم تكن هجرة المسلمين إلى الحبشة هى التجربة أو التضحية الوحيدة فى سبيل حرية العقيدة ، بل كان للرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك تجربة وتضحية تحملها وحده ، ثم كانت له وللقلة المؤمنة به تجربة وتضحية ثالثة وأخيرة . .

فحين ضاقت به مكة وضيقت عليه الخناق ، واسترسلت فى إيذائه وإعناته بعد وفاة النصيرين : عمه أبى طالب وزوجه خديجة رضى الله عنها . فكر فى أن يجد له مخرجا وملتمسا فى الطائف . . وقوى أمله فى هذا ما كان بين ثقيف فى الطائف وقريش فى مكة من خلاف رجا أن ينفذ من خلاله إلى نفوس الثقفيين . .

وقد رأى أن يتحمل هذه التجربة وحده . دون أن يزج بمن معه فى مكة إليها - ولم يكن الطريق إلى الطائف قريباً ولا سهلا ميسورا كما قد يظن بعض الناس فقد سلك طريق جبال « الهدا » وقطع ما يقرب من مائة كيلومتر سيرا على الأقدام فى ضوء النهار وفى ظلمة الليل ، يسير حينا ويريح جسمه المكدود حينا آخر ، وهو لا ينفك عن التفكير فيما عساه تسفر عنه هذه التجربة هل تقبل ثقيف على دعوته فيتخذهم أنصارا له ، ويعيش بينهم فى الطائف ، وتنطلق الدعوة منها حرة إلى جميع البقاع حولها ، أم أنهم سيردونه ويغلقون قلوبهم فى وجه دعوته ؟

كان الأمل ينير له طريقه ويجدد قواه لتحمل المشقات والأعباء، ويجعله ينسى كل ماحوله من مخاوف حينا، ثم يراوده الخوف حينا آخر من سوء لقائهم له. فتزداد متاعبه وتثقل خطاه، ولكنه كان يلتمس الحرية له ولدعوته، وفى سبيل ذلك تهون الشدائد، وكانت السماء وحدها ترعاه وتتابع وتقدر خطاه... وهو ينتقل من صخرة إلى صخرة أخرى، وهو يعلو فوق الجبل وهو يهبط منه فى الوديان، وهو يقظان، وهو نائم يستريح إن كان النوم قد وجد طريقه إليه وهو مثقل بالتفكير فى المستقبل الذى يواجهه بعد ساعات.

حتى بلغ الطائف والتقى معزعمائها وتحدث إليهم وهو يرجو أن تلين له قلوبهم، ولكن خاب رجاؤه فيهم، وتلقى الصدمة منهم قاسية ثقيلة.. تلقاها وهو يفكر فى الشامتين من ورائه فى مكة. بعد أن لجأ إلى أعدائهم يلتمس النصرة فيهم فلم يجيبوه ولو أنه قد وصل إلى غايته لكانت نكبة المكيين وحسرتهم شديدة قاصمة، فاذا يكون موقفهم إذن منه حين يعلمون برحلته وغايته منها وماكان من نتيجتها!!

فتقدم الرسول إلى هؤلاء الزعماء يرجوهم فى لطف، أن يكتموا أمره ما داموا لم يستجيبوا له. وهو يستثير فيهم معانى الشهامة والإنسانية. ولكنهم لم يقفوا حتى هذا الموقف الإنسانى وكأنهم انتهزوها فرصة للتنكيل به فأغروا به سفهاءهم وصبيانهم فلاحقوه بالطوب والصياح والسباب حتى دميت قدماه. ودمعت عيناه.

فداك الدنيا كلها يا رسول الله. يا مصطفاه..

لقد أفعم قلبه بالحزن وهو يفكر كيف يدخل مكة - يرجع إلى وطنه وماذا سيلقاه من أهلها المشركين العتاة ولم يعد فيها النصيران عمه وزوجه.. فتحرك قلبه قبل أن يتحرك لسانه متجها إلى الله بهذه المناجاة الحزينة وهذه الشكوى المريرة التى لم يشكها طوال حياته فى أى موقف من المواقف الشديدة الكثيرة التى مرت به «اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين.. أنت رب المستضعفين وأنت ربى. إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى . إلخ».

وعاد إلى مكة حزينا، وتصور كيف عاد، وكيف قطع إليها الطريق، ومنظر الشامتين به المعتدين عليه لا يفارق خياله، ثم دخلها ولكن فى حماية أحد المشركين.. وما أقسى هذا على النفس.. لا يستطيع الرسول دخول بلده إلا فى حماية رجل من أعدائه.. حملته النخوة العربية على حمايته استجابة له:

فى سبيل الحرية حرية الدعوة والداعى وأتباعه خرج الرسول إلى الطائف وتحمل ما تحمل فيها وفى عودته إلى مكة لم يكن يريد إكراه أحد ولا كان يملك وسائل الإكراه وإنما كان الذى يلتمسه ويبحث عنه هو الجو الحر لدعوته وللمؤمنين بها يؤدون شعائرهم دون أن يصادر أحد حريتهم أو يعتدى عليهم . ولكنه مع الأسف لم يجد ما يريد فى الطائف وعاد إلى مكة ليشتد عليه الضغط وتدخل الدعوة فى عنق الزجاجة كما يقولون ويبدو للمشركين أنهم ناجحون فى خنقها والقضاء على أتباعها . . وقد خلا الجو لهم ليفعلوا ما يشاءون .

ولكن هل يستسلم الرسول لهذا ؟ كلا إنه لم يستسلم وما كان له أن يفعل ذلك وهو صاحب رسالة من الله ، إن الظلام الذى يشتد دائما حول أصحاب الرسالات يحملهم على الجد فى التماس النور . والعقبات التى تكتنف حياتهم وتوعر الطريق أمامهم تحفزهم للتغلب عليها واجتيازها وهكذا ا كان الرسول صلى الله عليه وسلم .

فقد أخذ يتلمس متنفسا حرا فى عرض دعوته على رجال القبائل فى موسم الحج . لم يثنه عن ذلك تتبع قريش وسفهائها له والناس كلما رأوا أهله وعشيرته يكذبونه ويسفهون آراءه أعرضوا عنه ، ورفضوا الاستجابة له ..

لكن القدر كان يدخر له أناسا من هؤلاء الحجيج وجدوا فى دعوة الرسول إنقاذا لهم مما يعانونه ، فأقبلوا عليه وآمنوا به وكانوا قليلين . وجاء الموسم الذى بعده ليزداد عدد المؤمنين به زيادة حملت الرسول على أن يفكر فى الهجرة إليهم ، وقد صاروا فى مدة وجيزة أكثر عددا ممن آمنوا بمكة فى أكثر من عشر سنوات .. إنها إذن أرض خصبة للدعوة .. وإنها الفرصة التى طالما بحث الرسول عنها ففى وسط هؤلاء يستطيع أن يبشر بدعوته فى حرية وأمان بعد أن تعهدوا بحمايته وحماية دعوته .

وتوفرت كل المقدمات لهجرة الرسول وأصحابه المكيين إلى حيث يقيم هؤلاء إلى « يثرب » وكانت هذه الهجرة مفتاح النصر الذى وعد الله رسوله .. وأصبحت هجرة كل مسلم من بلد الشرك والكبت ومصادرة الحريات ضرورة لازمة . وعلامة مميزة لإسلامه ، وبعبارة أخرى أصبح طلب الحرية وإيثارها على الكبت والضغط والمصالح الشخصية عنوان الإسلام فى كل شخص يعتنق الإسلام . . حتى إذا آذن الله بفتح مكة ودوت فى أرجائها كلمة التوحيد وزال عنها كابوس الاستبداد . وسرى فى جوها نسيم الحرية لم

يعد للهجرة مكانها السابق فى الإسلام . حيث لم تعد المدينة وحدها قلعة الحرية التى يلجأ إليها الأحرار . . وأعلن الرسول صلى الله عليه وسلم ألا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه .

* * *

تلك هجرات ثلاث قام بها الرسول وصحابته فى سبيل البحث عن الحرية وكان لكل هجرة تضحياتها وآثارها . . ولو ذهبنا نقوم هذه الهجرات بتضحياتها ومرارتها وقسوتها لكانت هجرة الحبشة أشدها مرارة على أصحاب الرسول . . وكانت هجرة الطائف أقساها على رسول الله .. ثم كانت الهجرة الى المدينة على ما فيها أخفها مرارة وقسوة عليه وعلى أصحابه فهم قد هاجروا إلى أرض عربية فيها إخوان لهم فى العقيدة تعهدوا بحمايتهم وقاسموهم حظوظهم فى الحياة واستقبلوهم أكرم استقبال . . ومع ذلك كانت أبعد هذه الهجرات أثرا فى نشر الإسلام وإعلاء كلمته ؛ ومن أجل هذا كان لها الأثر العظيم فى نفوس المسلمين وكانت بدءا للتاريخ الهجرى الإسلامى الذى يجب أن يعتز به المسلمون اعتزازهم بدينهم وبأثر هذه الهجرة فى انتصاره وانتشاره حتى أصبحوا بفضل الله مسلمين .

عبد المنعم النمر

أدب الحديث والاستماع

قال بعض الحكماء لابنه : تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الحديث ، وليعلم الناس أنك أحرص على أن تسمع منك على أن تقول ، فاحذر أن تسرع فى القول فيما تحب الرجوع عنه بالفعل ، حتى يعلم الناس أنك على فعل ما لم تقل أقرب منك إلى قول ما لم تفعل .

العبرة من الهجرة

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

للهجرة معنى مادى هو الخروج من بلد إلى آخر أو أرض إلى أخرى . وهذا المعنى هو الأصل ، وليس ما يدعو إلى البعد عنه واصطناع تأويل غريب ، من مثل ما يقال إن الهجرة ترك الخصال المذمومة ، أو العزلة عن الخلق والاتصال بالنفس ، أو الهجرة إلى الله .

إن طبائع الحيوان مختلفة ، منها ما يلتصق بالأرض ويألف المكان لا يبرحه . ومنها ما يألف حيواناً آخر أو إنساناً ، ليصحبه أينما ذهب ، أو حل وارتحل . ومنها ما يهاجر مسافات شاسعة مثل بعض الطيور فى مواسم معينة ، وبعض الأسماك ، ولكن الإنسان يألف المكان ، ويستقر بالأرض يتخذها له وطنا ، ويشق عليه الارتحال عنها ، فإذا هاجر كان الدافع إلى ذلك الاضطرار ، ويشتد به الحنين إلى الأوطان ، وبخاصة إذا ترك موطنه كبيراً . وإنما كان فراق البلد عزيزاً شاقا لأن المهاجر يبتعد عن الأهل والأصحاب والرفاق والأحباب ، وفى رحابهم يجد الأمن ويلتمس فى قربهم الراحة والحنان .

ومن الظواهر النفسية أن الصبى إذا شعر بانعدام الحنان فى الأسرة ، سواء لأن والده يضربه بغير ذنب واضح ، أو يكون قد تزوج امرأة غير أمه تسومه سوء العذاب ، فإنه يخرج من بيت الأسرة هائما على وجهه ، يهجر أهله وموطنه . وهذا الفعل من الصبى أشبه أن يكون بغير تدبير أو شعور . وكلما شب الصبى عن الطوق ، ودخل فى طور الرجولة ثم الكهولة ، يصعب عليه الهجرة وترك الموطن ، بحكم الاعتياد ، وجمود العادة مع طول الزمان .

وأكبر الظن أن حب الوطن ، والدفاع عنه ، إنما نشأ عن هذه العاطفة التى صورناها ، والتى تشبه أن تكون من الطبائع الثابتة . لذلك كان إخراج شخص من داره ، أو موطنه ، أو بلده ، أمراً عظيم المشقة على النفس ، يكاد يكون عقوبة من أقسى العقوبات .

ومن أجل ذلك كانت هجرة الرسول والذين معه ممن أسلموا حدثا نفسانياً شديد الوقع إذ الطبيعة البشرية تقضى بحب الدار والبلد والوطن . ونحن نعلم أن كثيراً

من الناس إذا واجهوا ظروفاً مثل تلك الظروف التى واجهها النبى عليه السلام والذين آمنوا، يقبلون الضيم ولا يتمسكون بالعقائد الصحيحة التى ورثوها، مؤثرين البقاء فى أرض الوطن على الغربة عنه، والابتعاد منه؛ ابتغاء الحرية الصحيحة للنفس، وقد صور الشاعر هذه النزعة المتحررة التى ترجع إكرام النفس وإعزازها وإعلاء شأنها بقوله:

«وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى».

ولقى النبى والذين آمنوا من المشركين ألواناً من الإيذاء والتعذيب. وكان بعض أوائل الذين أسلموا يجدون فى قبائلهم من يجيرهم؛ أما المستضعفون، ممن سبقوا إلى الإسلام ولا عشائر لهم تمنعهم، ولا قوة لهم يمتنعون بها، فإن المشركين جعلوا يحبسونهم، ويضربونهم، ويعذبونهم بالجوع والعطش، ورمضاء مكة، والنار، ليفتنوهم عن دينهم الجديد، فمنهم من يفتتن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من يبقى صامداً صابراً فى انتظار فرج الله ورحمته، ومنهم من يتراجع ويتحول بتأثير الخوف والإرهاب.

ومن هؤلاء المستضعفين الأوائل بلال ابن رباح الحبشى، كان مولى لأمية ابن خلف، فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه فى الرمضاء على وجهه وظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتلقى على صدره، ويقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى. رآه أبو بكر يعذب، فقال لأمية بن خلف: ألا تتقى الله فى هذا المسكين؟ فقال أنت أفسدته فأبعدته. قال أبو بكر: عندى غلام على دينك أسود، أجلد من هذا، أعطيكه به. قال أمية: قبلت، فأعطاه أبو بكر غلامه، وأخذ بلالا فأعتقه، فهاجر، وشهد المشاهد مع الرسول.

ومنهم عمار بن ياسر الذى نزلت فيه الآية: «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان»، ذلك أن المشركين اشتدوا فى تعذيبه، وقتلوا امرأته، ولما شددوا عليه العذاب، وقالوا له: لا نتركك حتى تسب محمداً وتقول فى اللات والعزى خيراً. اضطر أن يفعل كما أمروه فلما تركوه ذهب إلى النبى يبكى وقص عليه ما وقع له. قال الرسول: فكيف تجد قلبك؟ قال: أجده مطمئناً بالإيمان. فقال يا عمار، إن عادوا فعد، فأنزل الله تعالى: «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان».

والصبر على الأذى أول عبرة نستفاد من الهجرة.

وهو أقل مشقة من الهجرة. لأن

الهجرة تنزل بالخارجين من ديارهم على قوم لا أحـــد يدرى أيقبلون هؤلاء النازلين الطارئين عليهم أم لا ، فضلا عما يحسونه من غربة بين ظهرانيهم . وقد رفض كثير من القبائل أن يجيروا المهاجرين .

فلما ضاق أصحاب النبي بما هم فيه من بلاء ، رأى النبي أن يهاجروا إلى الحبشة ، فقد كانت متجر قريش ، يلتمسون فيها سعة فى الرزق من التجارة ، ولهم بها حرفة ، وكان فيها ملك لا يظلم ، فكانت تلك الهجرة أول هجرة فى الإسلام ، غير أنها لم تكن بدء التاريخ ، ولا حدثاً يماثل هجرة الرسول إلى المدينة . ولم يكن عددهم كثيراً ، قيل عشرة رجال وأربع نسوة ، ومعهم عثمان ابن عفان وزوجه رقيـة ابنة الرسول ، والزبير بن العوام ، وغيرهم .

أخذت دعوة الإسلام تنتشر ، ويزيد عدد المسلمين واحداً بعد واحد ، وازدادت قوة بإسلام رجال من ذوى المكانة والشرف مثل عمر بن الخطاب ، وكان النبي آمنا إلى حد كبير فى حياة عمه أبى طالب ، فلما توفى ، كما توفيت زوجه السيدة خـــديجة قبله ببضعة وثلاثين يوما ، عظمت المصيبة على النبي ؛ إذ لم يمنع المشركين من إيقاع الأذى به أحد ، حتى لقد بلغ بهم مبلغ نثر التراب على رأسـه عليه السلام ، وكان بعضهم يطرح عليـه ما فى أمعاء الشاة وهو يصلى . فلما اشتد عليه الأذى خرج ومعـه زيد بن حارثة يلتمس من ثقيف النصر ، فأبى سادتهم وسخروا منه . فلما يئس ، وطال به العذاب ، توجه إلى الله قائلا : (اللهم إليـك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على النـاس . اللهم يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أو إلى عدو ملكته أمرى ...) .

والمغزى من هـــذه الشكوى يتفق مع الحقائق النفسية التى أوضحناها من قبل ، فهو واقع بين أمرين أحلاهما مر ، إن بقى فى أرضه عذبه قومه واعتدوا عليه ، وإن خرج عن أرضه وهاجر إلى قوم غرباء يتجهمون له . فكيف المخرج من هذا المأزق؟ أخذ النبي يعرض نفسه على القبائل ، فيتعقبه أبو لهب ويصدهم عنه . ثم عرض نفسه ـ لمـا أراد الله إظهار دينه وإنجاز وعده ـ على بعض قبائل يثرب فى الموسم الذى لقى فيه بضعة نفر من الخزرج ، فأسلموا ، وعادوا إلى المدينة يدعون قومهم إلى الإسلام ، وزاد عـدد المسلمين فى الموسم الثانى وفشا الإسلام بين الأنصار . وبذلك مهد الأمر

للهجرة، وأعدت لها الظروف الملائمة. فلا يكفي أن تكون الهجرة مجرد أمل في الخيال، بل ينبغي أن يعرف المهاجر أين ينزل، وكيف يستقبل، وهل يجد أهلا بأهل، ويكون آمناً مطمئناً، ومتفقا في الآراء والمعتقدات مع القوم الذين سيهاجر إليهم.
وهذا ما فعله النبي مع الأنصار إذ اجتمع في بيعة العقبة الثانية أكثر من سبعين من الأنصار، خرجوا ليلا مستخفين يتسللون حتى اجتمعوا بالعقبة، وجاءهم النبي ومعه عمه العباس، وهو مشرك ولكنه أحب أن يستوثق لابن أخيه، فتكلم فقال لهم: إن محمداً منا حيث قد علمتم في عز ومنعة، وإنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم، فإن كنتم ترون أنكم تفون بما دعوتموه إليه، ومانعوه، فأنتم وذلك، وإن كنتم مسلموه فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة».

فهذه هي العبرة الثانية من الهجرة، أن يكون المهاجر على بينة وبصيرة وتدبير.

ثم أمر النبي أصحابه بالهجرة إلى المدينة وتتابعوا واحدا إثر آخر حتى لم يبق إلا النبي وقلة قليلة، منهم علي بن أبي طالب وأبو بكر. وقد حذرت قريش خروج النبي، فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون، وانتهى رأيهم إلى أن يجتمعوا على قتله فيضيع دمه. وفي ليلة الهجرة نام علي بن أبي طالب في فراش النبي واتشح ببردته، وخرج النبي مع أبي بكر، كما هو مذكور في كتب السيرة، ومسجل في كتاب الله من سورة التوبة، حيث يقول سبحانه وتعالى: «إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم».

ونستخلص من الهجرة عبرتين حتى الآن، عبرة من سببها النفسي الذي يقضي بعزة النفس وعدم قبول الضيم، ولعمري إن الإسلام دين العزة والكرامة. وعبرة ثانية بأنه إذا عقد المرء العزم على الهجرة وصحت نيته فينبغي أن يعد لذلك العدة، ويتخذ لها الأهبة، ويدرس الأرض التي سينزلها، والقوم الذين سيعاشرهم حتى لا يخرج من نكبة إلى نكبة أشد.

والعبرة الثالثة نستخلصها بعد الهجرة.

لقد هاجر النبي من جماعة لها تقاليدها إلى جماعة أخرى تختلف تقاليدها وطباعها عن أهل مكة. والاندماج في الجماعة الجديدة يحتاج إلى سياسة فطن لها النبي بنفاذ بصيرته وبالغ حكمته وتأييد الله وهدايته له. وفي التاريخ أمثلة كثيرة لجماعات نزلت في مجتمعات ولم تندمج فيها على الرغم من مرور زمن طويل يبلغ أجيالا وأجيالا، وتظل كل جماعة محتفظة بمقوماتها وشخصيتها وتقاليدها وروحها، وذلك كالحال في الزنوج

بالولايات المتحدة ، أو القبارصة الأتراك واليونانيين ، وغير ذلك .

وقد عالج النبي عليه السلام هذه المشكلة بأمرين أساسيين ، الأول المشاركة فى العقيدة ، والثانى التزاوج . ذلك أن الإسلام نفسه كان جديداً على أهل مكة وأهل المدينة ، والدعوة إليه هى الدعوة إلى نبذ عبادة الأصنام والشرك بالله والابتعاد عن الرذائل التى كان أهل الجاهلية ينغمسون فيها . وقد أشرك النبي معه المؤمنين من المهاجرين والأنصار فى نشر الدعوة لهذا الدين الجديد ، بأن يعلم المسلم غيره مبادىء الإسلام ، ويتلو ما حفظه من آيات الله التى كان يتوالى نزولها على النبي قرآنا ، ويعلم هذا القرآن غيره ، كما يعلمهم الصلاة ، ويلتزم الجميع أداءها فى أوقاتها .

وكان أول ما عمله النبي بالمدينة أن قام ببناء مسجد للصلاة ، تعاون المسلمون ومعهم النبي فى بنائه . وكان قبل ذلك يصلى حيث أدركته الصلاة . وأصبح المسجد منذ ذلك الحين مكان العبادة ، وملتقى المسلمين ، وندوة أمور دينهم ودنياهم ، وفيه يتشاور وإياهم فى الشئون التى تهمهم فى الدنيا والآخرة . وفيه يتلقى المسلمون الجدد تعاليم الدين . وعلى الجملة أصبح المسجد رابطة العقد ، والبوتقة التى ينصهر فيها المهاجرون والأنصار عن طريق الفكر والعقيدة ، والقلب والروح.

أما التزاوج فإنه السبيل إلى الاندماج وإذابة الجماعات المتنافرة عن طريق الجسد والمادة . ولما كان الإسلام دين مساواة ، لا فرق فيه بين أعجمى ولا عربى إلا بالتقوى ، ولا فرق بين أسود وأبيض ، ولا بين سيد وعبد فلم يكن المسلم يأنف من الزواج بزنجية ، أو حبشية ، أو مولى ، لأن الكل فى نظر الله سواء . إن الامتناع عن التزاوج يحمل فى طياته ضرباً من التعالى والطبقية ، ولقد انتشر الإسلام فى ربوع الأرض شرقا وغربا حين كان المسلمون الأوائل لا يتحرجون من الاندماج ، مع غيرهم بطريق الزواج ، اتباعا لما سنه الرسول عليه السلام بعد الهجرة للتأليف بين المهاجرين والأنصار .

وهل قنع النبي والمهاجرون بعد الهجرة إلى المدينة بالاستقرار فيها ، والاطمئنان إلى حياتهم الجديدة ؟ كلا ، فما زال حنينهم إلى ديارهم مشتعلا فى جوانب قلوبهم ، حتى تحقق أملهم بفتح مكة . ولقد فتحت مكة أبوابها تستعيد إليها ابنها البار الذى ارتفع اسمه نبيا ورسولاً فى أرجاء شبه الجزيرة العربية إيماناً بالحق لا خضوعا للسيف . وطهر النبي مكة من الأصنام ، ونشر فيها ديانة التوحيد ، وأعلى كلمة الله ، ولاتزال عظة الهجرة باقية على مدى التاريخ شاهدة على العزة والكرامة ، والصمود فى سبيل الحق ، والاستماتة طلباً لتحرير النفس.

دكتور أحمد فؤاد الأهوانى

الموطأ للإمام مالك

للأستاذ الفاضل بن عاشور

— ٢ —

شاع ذكر مالك بن أنس فى عصره فملأ العالم الإسلامى ما بين المشرق والمغرب وتحدث الناس بعلمه وفقهه، وتذاكروا تأليفه الموطأ، وعجيب تصنيفه له وعظيم تحريه فيه، وأحل هذا الثناء، مالكا منزلة سامية من الإجلال رفعه إلى قنتها، فاشتهر بثباته على الحق الذى يراه، وقلة اكتراثه بما يناله فى سبيل ذلك الثبات، وأشرقت هذه التزكية بشريف نسبته إلى الحرم المدنى الأنور فوصف بفقيه الحجاز وعالم المدينة وإمام دار الهجرة.

وسرعان ما ضربت الناس إليه أكباد الأبل، يسألونه الفتيا، ويطلبون عنده العلم، ويتخرجون بين يديه فى الفقه وهو فى ذلك المجلس الرهيب المهيب كما قيل فيه :

يأبى الجواب فلا يراجع هيبة
والسائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار وعز سلطان التقى
فهو المهيب وليس ذا سلطان

كان مجلس مالك غاصا بالمستفتين والراوين والمستفقهين بين المقيمين منهم والعابرين وبذلك كثرت الرواية عنه واختلفت أوجهها وكان كتاب الموطأ نظام ذلك العقد، وقطب تلك الدائرة فقد كتب مالك الموطأ بيده، ثم وكل به كاتبا له اسمه حبيب، فنسخه له، وكان يقرأه حبيب للناس فى حلقته بين يديه وهو على منصته يسمع ورواد الحلقة يكتبون، وأحيانا يقرأ من كتب من إملاء حبيب لتصحيح ما كتب بسماع مالك إياه وإقراره عليه، وفى هذه القراءة يعرض التوقف، ويتحرك التطلع، ويثور السؤال ويقتضى البيان، ليكون ما اتصل بالقراءة فى كل مجلس من مسائل وبيانات — غير ما اتصل بالقراءة فى مجلس آخر، فلذلك كان طالبو التخرج على مالك، والتكون الفقهى به يلازمون مجلسه ويسمعون الموطأ كله عليه فى مجالس متعاقبة بحسب ما يقتضيه الإتيان على الكتاب كله من عدد مجالس، ثم يستمرون ويعيدون سماعه مرات عديدة، لأنهم زيادة على متعة ذلك السماع وفائدة رسوخ الرواية

بالتكرار ، يجدون من مثار المسائل وتكرر الاستيضاحات والاستكشافات ، ما يمكن لهم فى طريق الدربة والمران ، على النظر الفقهى ما يكلهم فى ما يريدون من تحصيل ملكة الفتيا والاجتهاد .

هذا علاوة على أن لمالك مجلسا آخر ، غير مجلس رواية الحديث ، هو مجلس المسائل الذى يهرع فيه إليه المستفتون ، ويقبل بين يديه طالبو التخرج فى الفقه على تقرير الصور واستيضاح الأحكام ، وبحث الأدلة ، وطرق الاستنباط ، وإن تصور هذه المجالس على اختلافها ايصور لنا كثرة الراوين عن مالك ، واختلاف صفة روايتهم ، وتفاوت مقدارها ، فرب رجل جلس بين يديه فاستفتاه فى مسألة وسمع جوابه فيها ، ثم انصرف ولم يلقه بعد فحدث بما سمع من مالك فعد راويا عنه ، ورب رجل آخر أتى المدينة زائرا قصد مجلس مالك ما اتسع له مقامه فى المدينة فحضر أياما سمع فيها من الموطأ ، ومن غير الموطأ من الأحاديث والمسائل ما أصبح به من الرواة عن مالك ، بله الذين أتوا قاصدين مالكا لسماع الموطأ سماع رواية كاملة متقنة مضبوطة محققة حريصين على استعادة الرواية وتكرارها ، أو الذين أتوه طالبين الفقه متتلمذين له فيه حريصين على مواصلة العمل بالدربة والمران حتى يأنسوا من أنفسهم ويأنس هو منهم رسوخ الملكة الفقهية والتأهل لممارسة الاجتهاد ، كما هو الشأن فى التخرج العلمى الأعلى بين يدى الأساتيذ ، لمن يريد الالتحاق بصفهم وهذا يوضح لنا ، أن رواة الموطأ عن مالك بن أنس ليسوا عامة الذين سمعوا منه ورووا منه ، ولا خصوص أصحابه ، من أتباع مذهبه المتفقهين بفقهه القائمين بعده بالتفريع الفقهى على طريقته ، فلقد روى الموطأ عن مالك كثير ممن لم يتقلد مذهبه ، ولا أخذ بأصوله الفقهية لتحصيل ما فى الموطأ من الأثر الصحيح ، والحديث الموثوق به ، فاتحا وراء ذلك الباب للنظر فى ما فى الموطأ من فقه مستنبط وأحكام مجتهد فيها ليوافق ذلك أو يخالفه .

وقد عقد القاضى عياض فى المدارك فصلا طويلا لإحصاء الرواة المشاهير عن مالك من غير الفقهاء على مذهبه ، وغير الذين ترجمهم فى المدارك باعتبارهم مالكية ، اشتمل ذلك الفصل على أكثر من ألف ليس فيهم ما لكى ترجم له فى المدارك من بعد ، وقال عقب ذلك تركنا كثيراً ممن لم يشتهر بذلك أو جهل ولم يعرف من هو أو لم يذكر له عنه رواية إلا حكاية حال ، أو وصف قصة ، أو ذكر فى رواية ولم تصح روايته عند أهل المعرفة بالأثر .

وهذا يفصح من كون رواة الموطأ ليسوا من المالكية التزاما، وأنهم رواة حديث كان اختلافهم بين مالكية وغير مالكية، وبين موافقين على ما فى الموطأ من فقه، ومخالفين آية ذيوع وانتشار للموطأ، ما كانت لتتحقق لو اقتصرت روايته على رجال مذهب فقهى واحد، وقد عنى الخطيب البغدادى فى القرن الخامس بإحصاء رواة الموطأ فبلغوا قريباً من الألف، وقال القاضى أبو بكر بن العربى روى الموطأ عن مالك من أصحابه ألف أو يزيدون.

وهذه الروايات على كثرتها، منها - وهو الغالب - ما لا يعرف عنه إلا الذكر، ومنها ما بقى أثر الرواية عنده والوقوف عليه، فى القرون الماضية، ولا توجد عينه اليوم ومنها - وهو الأقل - مالم تزل نسخه موجودة إلى الآن تامة أو ناقصة، شهيرة أو خفية، فمن روايات الموطأ التى بقى أثرها بالذكر والرواية فقط رواية عبد الله بن يوسف التنيسى الذى روى عنه الإمام البخارى، والذى اندرج من طريقه أكثر أحاديث الموطأ فى صحيح البخارى، وهو الذى يقول فيه البخارى. حدثنا عبد الله بن يوسف قال حدثنا مالك، ومن الروايات المعروفة ذكراً فقط أيضا، ما وقف عليه الحافظ أبو عمر بن عبد البر وذكره فى كتاب التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد، مثل رواية الإمام الشافعى، ورواية سعيد ابن عفير، وأما ما هو موجود من روايات الموطأ كلا أو بعضا، فأقصى ما بلغ إلى علمنا من ذلك تسع روايات أقدمها وأجلها رواية على بن زياد التونسى وهو أول من روى الموطأ عن مالك بتونس فى حياة مالك ولا يعرف من هذه الرواية إلا قطعة يسيرة محفوظة بالمكتبة العتيقة بجامع عقبة بالقيروان ورواية عبد الرحمن بن القاسم العتقى المصرى، وتوجد منها قطعة ذات بال برواية الإمام سحنون عنه هى أيضا، مما اشتملت عليه مكتبة الجامع الأعظم بالقيروان، واهتم الإمام أبو الحسن القابسى القيروانى فى القرن الرابع بتلخيص الأحاديث النبوية من هذه الرواية من مرفوع وموقوف فى كتاب سماه الملخص يوجد كاملا فى المخطوطات، ورواية عبد الله بن وهب وهى فى كتابه الذى شمل روايته عن مالك وغيرها ويعرف بجامع ابن وهب وتوجد منه قطعتان بالمكتبة العتيقة بالقيروان وقد كان طبع منه جزء أن بالتصوير عن نسخة قديمة جدا وجدت بالصعيد المصرى، ورواية أبى مصعب الزهرى يوجد منها جزء بالقيروان أيضا، ورواية عبد الله بن مسلمة القعنبى توجد قطعة منه ببعض المكاتب الخاصة بتونس، فهذه خمس روايات

فى الموطأ لا نعرف منها إلا نسخا ناقصة هى على بن زياد وابن القاسم وابن وهب وأبو مصعب والقعنبى. وهناك أربع روايات أخرى توجد تامة منها ثلاث طبعت وواحدة مخطوطة لم تطبع أما التى لم تطبع فهى رواية سويد بن سعيد الحدثانى وهى موجودة بالمكتبة الظاهرية فى دمشق، وعندنا بتونس نسخة منقولة منها وأما التى طبعت من روايات الموطأ: فهى رواية يحيى بن يحيى الليثى المصمودى الأندلسى ورواية الإمام محمد بن الحسن الشيبانى صاحب الإمام أبى حنيفة، ورواية يحيى بن البكير. فرواية الإمام محمد هى أوضح مثل لمن روى عن مالك من غير أتباع مذهبه وفيها يبين محمد ما خالف فيه مالكا من الفقه وينبه على ماليس من رأى أهل العراق وهو مطبوع بالهند وأما رواية يحيى بن البكير فقد طبعت بالجزائر عن نسخة أصلية لها نظير بمكتبة القرويين بفاس رواها عبد المؤمن بن على عن المهدى بن تومرت بسنده إلى يحيى بن عمر الكنانى دفين سوسه عن يحيى بن بكير وقد اتبع المهدى بن تومرت كلام مالك بخلاف ووفاق، واعتبر روايته مسايرة للموطأ، أما رواية يحيى بن يحيى الليثى فهى المشهورة المتداولة التى اتصلت بها الأسانيد وكتبت عليها الشروح.

كان يحيى بن يحيى، أندلسى مصموديا من سلائل البربر الذين دخلوا شبه الجزيرة، فى الفتح الإسلامى، مع العرب. وكان ذكر مالك بن أنس وموطأه قد اشتهر، والرحلة إلى المدينة لرواية الموطأ قد عمت، ويحيى بن يحيى لم يزل فى مبتدأ طلبه العلم بالأندلس، فأخذ من علم مالك وفقهه عن الذين كانوا سافروا إليه، فى المدينة، من فقهاء الأندلس وخاصة عن زياد بن عبد الرحمن. وروى يحيى الموطأ عن زياد فى قرطبة وكان زياد قد سمعه من مالك بالمدينة. فامتلأ يحيى إعظاما لمالك وشغف بعلمه وفقهه وهديه. وأشار عليه شيخه زياد بالرحيل إلى مالك وأخذ الموطأ منه، ما دام حيا. فاتبع يحيى بن يحيى مقتضى همته السامية، وامتثل لإشارة شيخه. فخرج من الأندلس يشد الرحلة إلى المشرق، وانتهى إلى المدينة فلقى مالكا، وأقبل على ملازمته إقبالا عجيبا، على نحو ما كان له من شوق إليه وتعلق به عن ظهر الغيب.

وكان اتصال يحيى بمالك قد تقرر واستمر حتى السنة الأخيرة من حياته وبذلك اجتمع من شدة اهتمام يحيى بالرواية وإتقانها، وحسن إقباله على مالك وكثرة ملازمته له، إلى كونه آخر الرواة عنه أخذا للموطأ، بعد كل ما تعاقب على الموطأ من تهذيب وتنقيح

متواصلين طيلة حياة مالك رضى الله عنه، مما جعل رواية يحيى للموطأ أم الروايات وأجدرها بالقبول. فاعتبرت أوثق روايات الموطأ وأثبتها، وأجلها وأوعبها. ورجع يحيى إلى الأندلس بهذا الكنز الفريد من العلم، وعرف الناس فضل ما فاز به يحيى فتلقوا رواية الموطأ عنه، وطلبوه من طريقه حتى أصبحت أكثر الأسانيد في رواية الموطأ مقتصرة على رواية يحيى بن يحيى، وأغلب ما كتب على الموطأ مبنيا على رواية يحيى. وبذلك فإن الموطأ، بعد أن كان مشرقيا مدنيا بوضعه، أصبح أندلسيا مغربيا بمأخذه وانتشاره؛ إذ علا صيت موطأ يحيى فأقبل الناس عليه حتى انقطعت سلاسل الإسناد بالروايات الأخرى واتصلت برواية يحيى، إلا ما يرجع إلى موطأ الإمام محمد بن الحسن وموطأ ابن القاسم، من طرق غير مشهورة ولا منتشرة.

وكانت الطرق التي ترجع بالأسانيد في الموطأ إلى يحيى بن يحيى منتهية كلها إلى قرطبة؛ لأن الموطأ لم يؤخذ عن يحيى في غيرها.

ومرجع هذه الطرق كلها إلى ثلاث هي:

طريق عبد الله بن يحيى بن يحيى.

وطريق محمد بن وضاح، وطريق محمد العتبي.

ومن كل طريق من هذه الطرق تعددت سماعات وتفرعت أسانيد. وعن كل أصل كتابي من أصول هذه الطرق أخذت نسخ، وقوبلت وحققت، وانتقلت بالمناولة واشتهرت ثم عورض بعضها ببعض، وضبط ما بينها من اختلاف وتفاوت، في نسخ متقنة مدققة، كتبت بخطوط أعلام الرواة، وأئمة العلماء فأصبحت مرجعاً للناس ومعولا يطمئنون بها إلى النقل الصريح، والضبط الصحيح وتدور بها الروايات على محور من التثبت عماده الخط وثقافة السماع ثم تحلق إلى أفق الفهم، والبحث والكشف للمعاني والنقد، والترجيح مما جعل كتاب الموطأ أصلا لخزانة كاملة جليلة من كتب الفقه والحديث تعتمد كلها على رواية يحيى بن يحيى، إما إفرادا لها في الأكثر، وإما جمعا لها مع غيرها في الأقل.

وتكاد هذه العناية بدراسة الموطأ، وتمحيصه، وضبط نسخه تئول في معظمها إلى الإمام الفقيه المحدث أبي عمر بن عبد البر القرطبي المتوفى سنة ٤٦٣ فلقد اهتم بضبط رواية يحيى بن يحيى من طريق ولده عبد الله، وكتب نسختها بخط يده وصححها بالمقابلة فكانت أصلا عظيما للروايات الموثوق بها والنسخ المعتمدة ثم كان ابن عبد البر في طليعة الخائضين فصار الشرح والتخريج والمجلى في ذلك الميدان بما كتب على الموطأ من

ناحيته الفقهية والحديثية فقد كتب عليه شرحا للفقه والمعانى سماه (الاستذكار) وألف كتاباً فى ما فى الموطأ من الأحاديث المسندة والمرسلة رتبه على أسماء الرواة سماه (التقصى) وألف كتابا جامعا الناحيتين معا سماه (التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد) فكتاب الاستذكار لا نعرف عنه إلا الذكر وإلا تلخيصاً يجمع بينه وبين المنتقى لأبى الوليد الباجى تصنيف ابن زرق الأشبيلى من رجال القرن السادس وتوجد نسخة خطية منه بتونس وكتاب التقصى مطبوع وسمى غلطا باسم التمهيد وكتاب التمهيد هو من الموسوعات الجليلة وتوجد منه نسخة كاملة فى أحد عشر مجلداً باستانبول .

على أنه إذا كان فضل ابن عبد البر فى خدمة الموطأ نصا ومعنى قد قلد مزيته رقاب أهل القرون التالية له من القرن السادس فما بعده ، فإن هذا لا يغطى على ما للمتقدمين على ابن عبد البر والمعاصرين له من فضل ، تقلده ابن عبد البر وغيره وإن كان غير ابن عبد البر قد قل أن يجمع ما لابن عبد البر من أثر فى خدمة الموطأ على اختلاف نواحيه فهذا القاضى عياض فى المدارك يذكر شروحا للموطأ وكتبا تفسر غريبه وترتب الرجال المتقدمة على ابن عبد البر بله المعاصرة له .

إلا أن أكثر ما ذكر من ذلك لا تعرف له اليوم عين .

وإن أهم ما يضاوع صنيع ابن عبد البر متقدما عنه أو معاصرا له إنما يظهر فى تصنيفين جليلين على الموطأ .

الأول فى الناحية الحديثية وهو كتاب مسند حديث الموطأ واختلاف لفظه وتفسير غريبه وتسمية رجاله وتاريخهم وعدد من فيهم من الصحابة من الرجال والنساء وما لكل من الأحاديث ومن التابعين ، تصنيف أبى القاسم الغافقى المصرى من رجال القرن الرابع وهو كتاب عجيب توجد منه نسخة فريدة فى استانبول .

والكتاب الثانى كما يذكر إلى جانب كتب ابن عبد البر هو معاصر له فى الوضع وهو شرح على الموطأ لمعانيه وأحكامه بالتعليق على لفظ الموطأ صنفه أبو الوليد الباجى الأندلسى المتوفى سنة ٤٧٤ وسماه (المنتقى) لأنه لخصه من شرح أوسع سماه الاستيفاء وكتاب المنتقى مطبوع فى سبع مجلدات .

أما الذين تتابعوا على خدمة الموطأ بعد هذين الإمامين ابن عبد البر والباجى ، فيأتى فى مقدمتهم القاضى أبو بكر بن العربى بشرحيه الاثنين اللذين جعل أحدهما إملاء على الأبواب وجمعا لما فيها من الآثار وسماه (القبس على موطأ مالك بن أنس) وهو موجود فى المخطوطات ونسخه متعددة وشرحه الآخر

الذى جعله تتبعا للألفاظ وبيانا لمعانيها وتوضيحا لأحكامها وسماه (ترتيب المسالك على موطأ مالك) وهو من المخطوطات النفيسة النادرة وتوجد منه نسخة - فيما عرفنا - بتونس .

ولعل انصراف الفقهاء إلى التفريع وانصرافهم عن الأصول هو الذى حال بينهم وبين الاهتمام بشرح الموطأ إذ عنى فقهاء المالكية بالمدونة والمختصرات وأقبل أهل الحديث على صحيحى البخارى ومسلم وإن بقى ذكر الموطأ شائعا بالرواية والإسناد والرجوع إليه وإلى شروحه فى تأصيل المباحث الفقهية .

فكان الشيخ محمد بن هارون الطائى القرطبى ثم التونسى مشهورا برواية الموطأ وعلو الإسناد فيه ، وهو الذى كان يعقد مجلسه لذلك بجامع الزيتونة الأعظم فى القرن السابع .

وكان تلميذه الرحالة الشهير محمد بن جابر البادياشى التونسى الذى حدث به عنه فى المغرب والمشرق وإليه ترجع معظم أسانيده وأصلاها ، ومن طريقه يرويه الحافظ ابن حجر المصرى فى القرن التاسع عن بن عرفة وابن خلدون .

وباهتمام ابن حجر تحركت همة رجال الحديث من المصريين والشاميين للاعتناء بالموطأ ، فألف الامام الكبير جلال الدين السيوطى على الموطأ ثلاثة تآليف فى القرن التاسع ، شرح سماه (كشف الغطاء) وآخر سماه (تنوير الحوالك) وهو مطبوع وكتاب فى رجال الموطأ وضبط أسمائهم ومختصر تراجمهم سماه (إسعاف المبطأ) وهو مطبوع أيضا . وألف الشيخ زين الدين الشماع الحلبى فى القرن التاسع أيضا شرحا اختصره من المنتقى لأبى الوليد الباجى .

ومع ذلك فإن هذا الاعتناء لم يكتب له الذيوع الكامل حتى إن العلامة محمد بن عبد الباقى الزرقانى الأزهرى فى صدر القرن الثانى عشر لاحظ أن الموطأ مهجور بمصر وأن شروحه عزيزة فانصرف إلى تدريسه بالأزهر الشريف وإلى كتابة شرح نفيس عليه طبع مرات متعددة هو الذى أحيا به الموطأ بعد الاندارس . وعليه اعتمدت دراسات الموطأ إلى اليوم وبه زاد استقرار الموطأ على رواية يحيى لأنها الرواية التى بنى عليها الإمام الزرقانى شرحه كما بنيت عليها الشروح السابقة .

الفاضل بن عاشور

تونس

نفحات القرآن

من موازنات القرآن
بين المنافقين وأهل الإيمان

للأستاذ عبد اللطيف السبكي

« المنافقون والمنافقات : بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف » ٦٧ توبة « والمؤمنون والمؤمنات : بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ٧١ توبة .

١ - فى حديثنا اليوم نجد للقرآن تشخيصا غير هين للمنافقين : فيما بينهم من تشابه فيما هم عليه من النقائص .

ونجد له فى مقابلة ذلك تشخيصا كريما للمؤمنين فيما ينتظمهم من الولاء الحميد ، وما هم عليه من فضائل مشكورة .

ونود أن تكون نظرتنا فى الجانبين نظرة تفقه ، وموازنة ، واعتبار . لا مجرد نظر قصصى فى شئون نزعمها بعيدة عنا ، أو لا تتصل بنا .

فإن كتاب الله لا يتجه بنا إلى مجرد الحكاية بل وجهته فى كل ما يبديه هى إفادتنا بلفت نظرنا إلى ما جرى ، أو يجرى على غيرنا ، فإنه القرآن ، يهدى للتى هى أقوم .

وقد سار بنا القرآن فى حديثه عن المنافقين أشواطا بعيدة ، وذكر لنا من مخازيهم قدرا غير ضئيل .

وهو الآن يقول عنهم « المنافقون ، والمنافقات بعضهم من بعض » فهم فى حكم شىء واحد ، لا يختلف فى جنسه ، ولا فى شكله ، ولا فى آثاره الناجمة عنه .

فهم على وضع واحد فى تخلفهم عن الخير كله ، وفى ميزان أعمالهم ، وهم على قدم واحدة فى الوعيد ، وسوء الجزاء عند ربهم .

هم يأمرون بالمنكر الذى يأباه الله ، ورسوله ، ويتحرج منه العقل الراجح وهم يكذبون ، ويغدرون ، ويفجرون ، وهم يراءون ، ولا يتناصحون بالخير ، ويمسكون أموالهم عن الإحسان ، ويقبضون أيديهم عن الجهاد ، وعن كل معروف .

كل ذلك لفساد ميولهم ، وإعراضهم عن جانب الله ، وزهادتهم في مرضاة ربهم حتى كأن هذه القربات ونحوها غير مشروعة أو منسية في حسابهم .

فالله تعالى يتركهم لأنفسهم ، ويعاملهم بمثل ما فعلوا ، وكأنهم منسيون عنده ، فلا يفتح لهم باب رحمته ، ولا يمنحهم شيئا من ثوابه ، لأنهم جنوا على أنفسهم بالخروج على دين الله ، فهم الفاسقون باختيارهم ، وإصرارهم ، وهم خير أهل لمرضاة الله ، فحقت عليهم لعنة الله ، وهددهم بوعيده المزعج أن يكونوا مع الكفار في نار جهنم خالدين فيها ، وهي جزاء يليق بهم ، وعذابها كفاية لهم جميعا ، بل لهم مع هذا العذاب عذاب آخر يقيم معهم : كالندم الذي يساورهم ولا ينفعهم ندمهم هذا لفوات وقته . . وكالطمع في تخفيف العذاب عنهم ، وهم لا يظفرون بهذا التخفيف ، فتشتد عليهم الحسرة .

ولم يكن هذا ، ولا بعضه مفاجئا لهم ... بل أخبرهم الله به على لسان رسوله وحذرهم من النفاق ، ومن الوقوع في مهواته .

وكم ضرب لهم الأمثال بالسابقين في الكفر وفي النفاق : كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وقوم لوط الذين أخذهم جميعا عذاب الله في الدنيا ، فضلا عما يستقبلونه في الآخرة ...

هؤلاء جميعا استمتعوا بحظهم في دنياهم على ما شاءت لهم نفوسهم ، وأهواؤهم وخاضوا في الباطل بقدر ما كان لهم من قوة ، ومال ، وأولاد ومع هذا الطول من أسباب اللهو الذي فاق ما اغترت به قريش ومنافقو اليهود والنصارى في عصر الإسلام فقد حاق بهم ما حاق من هلاك ، وتدمير وذهاب من الدنيا .

وحبطت أعمالهم كلها ، فما كان منها دنيويا فقد باء بالخسارة عليهم ولم يبق له أثر ينتفعون به كما توهموا بقاءه ، بل كان ضرره عليهم أكبر من نفعه لهم حيث صرفوا همهم في ملذات ثم كانت وبالا وعذابا .

وما كان من عملهم خيرا فقد بطل ولم يكن قربة لهم ؛ لأنه رياء ، وناقص ، وتكلف وهذا خسران لا يدرك ، وحرمان لا يطاق وانتهى به أمر أولئك الجبارين السالفين .

فمنافقو قريش ومن إليها من أعداء الإسلام لا يكون حالهم عند الله خيرا من أولئك . « أكفاركم خير من أولئكم ، أم لكم براءة في الزبر – الكتب – أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ... » في دنياهم ، وآخرتهم .

وكما فعل الله بمن سلف ، سيفعل مع من خلف من المنافقين والكافرين ، فسنة الله قائمة ، وجارية على مقتضى علمه وحكمته .

وهذا كله من جناية الناس على أنفسهم ، وعدم تبصرهم قبل أن تطويهم الأيام ، وتذهب آمالهم أدراج الرياح ، وما كان الله ليظلم عباده ، ولكن كانوا هم الظالمين ؛ بسوء اختيارهم ، واستسلامهم لكواذب الأماني ، أو لطمعهم فى طول الحياة حتى تكون لهم فرصة الاختيار على مهـل من الأيام .

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ... »

وفى هذه الآيات مقابلة بين المؤمنين والمنافقين ، وهى مقابلة بين الضدين فهذا مقام التزكية للمؤمنين ، وتبشيرهم بالنعيم وذلك موقف التشنيع على المنافقين والحط من شأنهم ، وإزعاجهم بما يستقبلونه من غضب الله ، وعذابه .

هذا مقام الحديث عن الأصفياء الذين جمعهم الله فى إطار المحبة وربط بينهم بالولاء لا بالتعصب فى الباطل .

وفرق بين خبث الشيطان ، وانضواء المفسدين وراءه وبين هداية الله ، واعتصام الأخيار بحبل الله .

فأولئك حزب الشيطان .

وهؤلاء هم حزب الله وفرق بين من وصفهم الله بأنهم هم الفاسقون وهم الخاسرون وهم الظالمون ، وبين من جمع الله من مناقبهم الحسنى ما جمع ، حتى أكد أنهم فى رعايته ، وأنهم هم المفلحون .

وما ظنك بقوم وصفهم ربهم بأنهم أولياء بعض فى جانب الحق ، وأنهم على وجهة رسمها الله لهم ، وأنها الوجهة الهادفة إلى الصلاح والنجاح فى الأولى والآخرة ، وذكر الله عنهم من المحاسن ما ينبىء عن فضلهم ، ورفعة شأنهم .

فقال فيهم « يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ... فهم فى جانب الدين ، وفى جانب العقل ، وفى طريق الإنسانية الرشيدة .

وهم يقيمون الصلاة فى ارتياح إليها وغبطة بالمثابرة عليها : فرضا ، ونفلا ، ولا يقومون إليها كسالى كما يفعل المراءون بها نفاقا وتكلفا .

وفى الصلاة مناجاة لله ، وتجديد للعهد معه فى كل وقت ، وفيها استيحاء لروح الإخاء الإنسانى فى اليوم الواحد مرات عديدة ، فتكون الصلاة استعانة على الخير ، وتضامنا فى الإخاء ، ومقاومة لوساوس الشيطان عند الفرد ، أو بين الجماعة ... كما علمنا الله فى قوله : « واستعينوا بالصبر والصلاة ... » .

والمؤمنون يؤتون الزكاة ، ويبذلون فى سبيل الله فلا يقبضون أيديهم كما قبضها المنافقون ، ولا ينسون أنفسهم فى عمل الخير كما نسيها المنافقون .

والشأن فيمن يصلى ، ويبذل المال عن طيب نفس أن يكون مراعيا للأمانة الدينية كلها ، وأن يكون متخلقا بالنزاهة عن الذبذبة فى شخصيته المعنوية .

وهؤلاء جديرون من الله بالبشرى الحقة فى قوله تعالى: «أولئك سيرحمهم الله» وهذا على النقيض من وعيد الله للمنافقين باللعنة ، والغضب وحبوط العمل ، والخلود فى النار ، وفى العذاب الآخر المقيم معهم فى جهنم ، ولا يفارقهم ، ولا يخفف عنهم .

وحسب المؤمنين أن يشهد لهم الله بالطاعة وأن يعدهم بالرحمة .

وأن يكرر لهم ذلك الوعد تفصيلا فيقول سبحانه : «وعد الله المؤمنين ، والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ، أى فى أرفع مكان من الجنة .

ثم يضفى عليهم فوق ذلك شأنا فوق كل شأن ، فيقول: «ورضوان من الله أكبر» .

فإن يكن الجزاء تفضلا وعدلا من الله على الأعمال الصالحة ، وإن تكن الجنات هى مقر النعيم فى درجاتها المتفاوتة فإن مقام الرضوان عند الله روحى يفوق تلك المقامات الأولى شأوا ومتاعا ، ولا يدرك كنهه غير الله تعالى .

وبهذا المقام تكمل السعادة فى رحاب الله لمن اكتمل إيمانه وصلح عمله فى إخلاص .

وإن يكن الجزاء على العمل الصالح فضلا وعدلا من جانب الله ، فإن الله قد أبى على نفسه أن يقف بنا عند مجرد الجزاء بالمثل فحسب .

بل توسع فى فضله حتى بلغ عطاؤه مضاعفة الجزاء الحسن إلى عشرة أمثال بل إلى سبعمائة مثل ، بل زاد عن ذلك إلى قدر لا يعلمه غيره جل ثناؤه .

كما قال ـ عز سلطانه . «والله يضاعف لمن يشاء» .

وكما قال : «للذين أحسنوا : الحسنى وزيادة» .

وكما قال : «ورضوان من الله أكبر» .

ثم قال : «ذلك هو الفوز العظيم» ، نعم : هذا هو الفوز العظيم ! ! .

فذلك كله تدليل حق على أن فضله لا يقف عند حـــد ، وأنه لا يحجبه عن يستحقه فى تقدير الله ، وفى حكمته .

وكفى بهذا بيانا من جانب الله ، وتشجيعا على التماس فضله فى سعة من فيضه .

وهل هذا العطاء كله أو بعضه منوط بالعمل الروحى بما يعتد فى العرف عبادة كالصلاة والصوم والزكاة مثلا .

إن الله لم يحظر علينا أن نأخذ حظنا من الدنيا فيما أباح .. ولم يحتم علينا أن نتحاشاها زهدا فيها ، أو كراهية لها .

ولم يجعل حياتنا كلها ركوعا ، وسجودا وعكوفا على المعابد والمحاريب بل فرض من ذلك كله قدرا محدودا . ثم بسط لنا مجال العمل الدنيوى فى كل جانب تعمر به الدنيا وتتسع به الأرزاق ، وتتجلى به الحضارة الإنسانية ظاهرة فى نعم الله على عباده .

بل جعل الله كل عمل يراد به الخير داخلا فى نطاق التدين ، متى صحبته نية الخير .

واشترط على خلقه أن يعقلوا دين الله ، ويؤمنوا حق الإيمان بما دانوا به : ليكون عملهم مأجورا فى الآخرة إلى جانب نفعه فى الدنيا .

ومع وجود الإيمان والقيام بما ، افترض الله من عبادات وهى بحمد الله غير مسئمة يكون عمل الإنسان فى حرز من النفاق ، أو الإضرار بالغير ، ويكون خيرا محضا ، وإذا لم يكن إيمان فهو عمل للدنيا وحدها وربما تعرض عمل الدنيا للخسران كأعمال المنافقين ، ليذهب المرء فى طغيانه ، ويخرج من حياته ، ومشاغله ، وأهله وماله وجاهه وسلطانه ، وهو خاسر للدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ، والعياذ بالله .

عبد اللطيف السبكى

واجب وأوجب

سئل الإمام الشافعى رضى الله عنه ، عن ثمانية أمور :

واجب وأوجب ، وعجيب وأعجب ، وصعب وأصعب ، وقريب وأقرب : فأجاب بقوله :

من واجب الناس أن يتوبوا	لكن ترك الذنوب أوجب
والدهر فى صرفه عجيب	وغفلة الناس عنه أعجب
والصبر فى النائبات صعب	لكن فوات الثواب أصعب
وكل ما ترتجى قريب	والوقت من دون ذاك أقرب

غزوة أحُد
بين القرآن والشعر

للأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوي

— ١ —

لم يهدأ المشركون بعد ما أصابهم فى « بدر » من هزيمة منكرة ، وأخذوا يعدون العدة لجولة أخرى يثأرون فيها لمن قتل منهم ، فأرسلوا رسلهم إلى العرب يستنفرونهم ؛ فاستجابت لهم جموع من قبائل شتى ، وهيئوا المال للإنفاق على هذه الحرب ؛ فقد مشى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية وغيرهم ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم فى غزوة بدر ، وكلموا أبا سفيان ومن كانت له تجارة فى تلك العير التى كانت سبب هذه الغزوة ، وسألوهم أن يعينوهم بذلك المال على حرب الرسول ؛ ففعلوا ، وأخذ القوم يتجهزون .

واستطاع الأعداء أن يجمعوا ثلاثة آلاف رجل على رأسهم أبو سفيان ، ومضوا حتى نزلوا قريباً من المدينة ؛ فلما سمع بهم الرسول جمع المسلمين يستشيرهم ؛ وكان رأيه أن يقيم بالمدينة ، ويتركهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن دخلوا المدينة قاتلهم الرجال فى وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا ؛ ولكن جماعة من المتحمسين أخذوا يلحون على الرسول أن يخرج إلى القوم حتى دخل بيته ، ولبس لأمته ، مستعدا للمعركة ، وخرج ومعه ألف من أصحابه ، فلما كان ببعض الطريق انخذل عنه عبد الله بن أبى ابن سلول بثلث الناس قائلا : ما ندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس ، وقال لمن نصحه بالعودة إلى معسكر الرسول : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال .

ومضى الرسول فى سبعمائة مقاتل ، حتى نزل الشعب من أحد ، وجعل ظهره إلى الجبل ، وقال : (لا يقاتلن أحد منكم ، حتى نأمره بالقتال) .

ولكى تزيد قريش من روحها المعنوية ولكيلا يفر المقاتلون من الميدان ، استصحبوا بعض نسائهم معهم ، يضربن بالدفوف ، ويحثن الرجال ، ويحرضنهم بالشعر على القتال .

وبينما كان فى الأعداء سبعمائة دارع ومائتا فرس ، لم يكن فى المسلمين سوى مائة دارع وفرسين .

وتعبأ الفريقان للقتال ، وأمر الرسول على الرماة الخمسين عبد الله بن جبير ، قائلا له : « أنضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، فاثبت مكانك ، لا نؤتين من قبلك » .

وحمل المسلمون حملة صدق على أعدائهم ، زلزلوهم من مكانهم ، ودخلوا عسكرهم ينهبون ما فيه غنيمة لهم ، ومضى المشركون منهزمين وهربت النساء مصعدات فى الجبل لا يحول شىء دون أسرهن ؛ فلما رأى بعض الرماة هزيمة عدوهم قالوا : إنه لا معنى لمقامهم فى مكانهم ، وأقبلوا يريدون أن يشاركوا فى نهب المعسكر المهزوم ، فرأى ذلك خالد ابن الوليد ، وكان على ميمنة خيل القرشيين ورأى قلة من بقى من الرماة ، فحمل عليهم ، وقتلهم وحمل على أصحاب الرسول من خلفهم فلما رأى المشركون خيلهم تقاتل تبادروا فشدوا على المسلمين فهزموهم ، وخلص العدو إلى رسول الله ، يريدون الفتك به فأصابه عتبة بن أبى وقاص بالحجارة حتى وقع على جانبه ، وأصيبت رباعيته ، وشجه عبد الله ابن شهاب الزهرى فى وجهه ، فجعل الدم يسيل منه ، وجرحت شفته ، كما جرح ابن قمئة وجنته ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر [١] فى وجنتيه ، ووقع الرسول فى حفرة من الحفر التى صنعها العدو ، ليقع فيها المسلمون ، وهم لا يعلمون .

ومضى أبى بن خلف يريد قتل الرسول ، ولكن رسول الله طعنه بحربة فى عنقه ، نكص بعدها على عقبيه ، وكانت سبب موته ، وهو فى الطريق إلى مكة .

ولما رأى المسلمون الرسول ، وكان قد أذاع بعض أعدائه أنه قتل ، أقبلوا يحيطون به ، ويقتلون من دونه .

وانجلت المعركة عن خمسة وستين قتيلا من المسلمين ، سقطوا فى الميدان دفاعا عن دينهم ، كان منهم حمزة عم رسول الله ، وقد مثلت بجثته هند امرأة أبى سفيان أبشع تمثيل . ولم يفقد العدو سوى اثنين وعشرين رجلا .

وأشرف أبو سفيان بن حرب على الجبل ، وصرخ بأعلى صوته ، فقال : أنعمت فعال ، إن الحرب سجال ، يوم بيوم ، أعل هبل ؛ أى أظهر دينك ؛ فقال رسول الله : قم ياعمر فأجبه ؛ فقل : الله أعلى وأجل ، لا سواء ؛ قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار .

ثم نادى أبو سفيان : إنه قد كان فى قتلاكم مثل ، والله ما رضيت ، وما سخطت ،

(١) ما يجعل على الرأس وقاية لها فى الحرب .

وما نهيت ، وما أمرت ؛ إن موعدكم بدر للعام القابل .

وكان يوم أحد يوم السبت النصف من شوال من السنة الثالثة للهجرة .

وعاد الرسول إلى المدينة ، وقفل العدو إلى مكة ، ثم بدا للمشركين أن يعودوا ثانية ؛ ليستأصلوا شأفة المسلمين فى زعمهم ، ولكن أبا سفيان اتجه إلى مكة ثانية . ولم ينفذ ما عزم عليه ، مع أن الرسول عندما سمع نبأ عودته خرج إليه مع صحبه ممتلئين رغبة فى الجهاد .

أما الآيات القرآنية التى تناولت تلك الغزوة فترمى كلها إلى أن تزيل عن قلوب المؤمنين ما مسها بعد الهزيمة من ألم وما قد يصيبها من وهن ، لقد أقرت الآيات الكريمة ما فعله الرسول فى تلك الغزوة ؛ من مشاورة صحبه ، وعدم الانفراد برأيه ، ولين الجانب معهم ، وعدم التردد بعد التصميم والعزم ، وذلك إذ يقول سبحانه : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ؛ إن الله يحب المتوكلين » .

ولكن القرآن يقوم عزم الرسول إذا احتاج إلى تقويم ، فقد روى أن رسول الله حين التمس عمه : حمزة بن عبد المطلب ، فوجده ببطن الوادى ، قد بقر بطنه عن كبده ومثل به فجدع أنفه وأذناه ، قال : لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن ، بثلاثين رجلا منهم ؛ ولما رأى المسلمون حزن رسول الله وغيظه على من فعل بعمه ما فعل ، قالوا : والله لئن أظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب .

قال ابن إسحق . حدثنى من لا أتهم عن ابن عباس أن الله عز وجل أنزل فى ذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول أصحابه : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون » ، فعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصبر ونهى عن المثلة [1] .

وتناول القرآن أسباب الهزيمة وحكمتها ، فلقد كان النصر للمؤمنين فى أول المعركة ، ثم انقلب هذا النصر هزيمة ، لاختلافهم وعصيانهم أمر الرسول ، ورغبة بعضهم فى الظفر من الغنيمة بنصيب ، فقال : « ولقد صدقكم الله وعده ، إذ تحسونهم [2] بإذنه ، حتى إذا فشلتم ، وتنازعتم فى الأمر وعصيتم

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ١٠١ ، ١٠٢ .
(٢) الحس : الاستئصال .

من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ، ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين » . ويبدو فى الآية الرفق الذى عوملوا به ، عند ما تؤكد لهم أن الله قد عفا عنهم .

وأشارت الآية إلى حكمة هذه الهزيمة وهى اختبار قوة إيمان المسلمين ، وامتحانهم بتلك الشدة ، ليتبين الصادق الإيمان ويتميز من مزعزع العقيدة ، وتناولت الآيات بيان هذه الحكمة فى غير موضع ؛ فمرة تقول : « وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم : تعالوا ، قاتلوا فى سبيل الله ، أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم ؛ هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون » .

ومرة تقول : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليـــه ، حتى يميز الخبيث من الطيب » .

وأخرى تقول : « وليمحص الله الذين آمنوا ، ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ويعلم الصابرين » .

فالقرآن يقرر فى كل هذه المواضع حكمة هذه الهزيمة ، وهى معرفة مدى عمق العقيدة فى النفوس ، ففى الشدائد تتجلى أغوار القلوب ويبدو هؤلاء الذين اطمأنوا إلى الإيمان ، واستقرت ضمائرهم عليه ، لا تغيرهم شدة ، ولا تزعزع عقيدتهم مصيبة تنزل بهم وهؤلاء هم الذين يمكن الاعتماد عليهم والوثوق بهم . أما أولئك المنافقون الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم فأولى أن ينكشف أمرهم حتى يأمن الناس شرهم .

ويصف القرآن هزيمتهم ، ولكنه يأخذهم بالرفق ، ويدعوهم إلى الثبات فى الشدة ، فإذا كان الغم قد ملأ قلوبهم ، لما نزل بهم ، فقد ملأ الغم من قبل ذلك قلب عدوهم ، ومع ذلك أقبل هذا العدو يريد الأخذ بثأره ؛ فلا ينبغى إذاً الحزن على نصر قد فات ، وهزيمة نزلت .

وكان الله رفيقا عندما أنزل على المؤمنين منهم النعاس تأمن به قلوبهم ، ويفارقها به شبح إخوانهم صرعى فى ميدان القتال . ولكنه يضع طائفة أخرى تتلظى بنار الألم ، لأنها تظن بالله غير الحق ظن الجاهلية ، فيشتد حزنها على ما فات ، وتخفى فى نفسها الكفر والنفاق ؛ فيقول الله سبحانه : « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم فى أخراكم ، فأثابكم غما بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ، ولا ما أصابكم ، والله خبير

بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا ، يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ، ظن الجاهلية يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ؟ قل : إن الأمر كله لله ، يخفون من أنفسهم مالايبدون لك » .

وهؤلاء الذين تولوا منهزمين ، مع أن الشيطان هو الذي دفعهم إلى ترك ميدان القتال يعلن القرآن عفوه عنهم ، حتى لا يسد الطريق عليهم فى مستقبل الأيام . بل يفتح لهم مجال العمل ، ويشعرهم بالعطف والرحمة إذ يقول : « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ، إنما استزلهم [1] الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حليم » ، وهكذا نرى الرفق الذى يأسو الكلوم ويفتح باب الأمل .

وكذلك نرى الرفق فى الحديث عن طائفتين من جيش الرسول همتا بالفشل ، فيقول عنهما « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

وكان هدف القرآن أن يمحو عن القلوب أثر تلك الهزيمة ، وأن يرفع من روحهم المعنوية ، وأن يثبت إيمانهم بالله . وكان لذلك وسائل شتى .

منها أنه لاينبغى الاستسلام إلى الألم فإنهم لم ينفردوا بالهزيمة ، وإذا كانوا قد أصيبوا اليوم فقد أصيب عدوهم بالأمس : « إن يمسسكم قرح [1] ، فقد مس القوم قرح مثله » ؛ ولا سيما أنهم هم الذين كانوا سبب هذه الهزيمة بتنازعهم ، وخلافهم أمر رسول الله : « أولما أصابتكم مصيبة ، قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا ؟ ! قل : هو من عند أنفسكم » .

ومنها أن كثيراً ما حدث لأصحاب الرسل أن أصيبوا فى سبيل الله ، ومع ذلك لم يضعفهم ما نزل بهم ، ولم يجعلهم مستكينين للذل ، بل اعتقدوا أن ذلك يعود إلى عيب فى أنفسهم ، فابتهلوا إلى الله أن يغفر لهم ذلك العيب ، وأن يمنحهم من لدنه قوة وثباتا ، فاستجاب الله لهم ، ومنحهم خير الدنيا والآخرة : « وكأين من نبى قاتل معه ربيون [2] كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا ، وما استكانوا ، والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا ، اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين » .

ومنها وعد بالانتصار فى قابل المعارك ، تقول إحدى آيات الغزوة : « ولا تهنوا

---

(١) جعلهم ينحرفون .

(١) القرح : أثر السلاح فى البدن .

(٢) ربيون : جماعات .

ولا تهنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين». وتقول آية أخرى : «سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، ومأواهم النار ، وبئس مثوى الظالمين» .

وإذا كان الله سيلقى الرعب فى قلب العدو فإن قلة عدد المؤمنين ينبغى ألا تحدث وهنا فى نفوسهم ، ولهذا كان المقام مناسبا للحديث عن غزوة بدر ، ونصر الله لهم فيها ؛ ليرفع من روحهم المعنوية فيقول : «ولقد نصركم الله ببدر ، وأنتم أذلة ، فاتقوا الله ، لعلكم تشكرون» . وتمضى الآيات متحدثة عن تلك الغزوة المباركة ، مؤكدة لهم أنه : ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم وإذا فلا دخل للعدد فى النصر ، ومن الواجب الإخلاص لله وطاعته ؛ لأن النصر بيده : «إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون» .

وتناولت الآيات الكريمة حديث الموت الذى أثار الحزن فى النفوس ، وكان منفذاً ، استطاع منه المنافقون أن ينفثوا سمومهم ، وقد أخبرنا القرآن عنهم بقوله : «الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا» .

وقد عالج القرآن ذلك علاجا حكيما ؛ فصور أن هذا الخاطر مصدر ألم فى نفوس المنافقين ، يؤرقهم ، ويجعل حياتهم بؤسا وشقاء : «يأيها الذين آمنوا ، لا تكونوا كالذين كفروا ، وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى : لو كانوا عندنا ما ماتوا ، وما قتلوا ؛ ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ، والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير» .

وقد رد القرآن على هؤلاء بألوان من الرد :

منها أن الموت محدد بوقت لا سبيل إلى تقديمه أو تأخيره : «وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا» ، ولهذا التحديد قال القرآن عندما كانوا يقولون : «لو كان لنا من الأمر شىء ، ما قتلنا ههنا قل : لو كنتم فى بيوتكم ، لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم» . ويتحداهم أن يدفعوا عن أنفسهم الموت إذا كان فى استطاعتهم ، كما زعموا ، أن يؤجلوه : «قل فادرءوا عن أنفسكم الموت ، إن كنتم صادقين» .

ولا يقف عند هذا الحد ، بل يؤكد أن القتل فى سبيل الله مستدع رحمة الله وغفرانه وذلك أفضل من كل ما تجمعه هذه الحياة : «ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون» .

بل يؤكد القرآن أن هؤلاء الشهداء أحياء لا يموتون ويصف حياتهم السعيدة عند ربهم وصفا يحبب الشهادة إلى النفوس ، ويبعد عنها خوف الموت من الجهاد وذلك إذ يقول: « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » .

وهى آيات مشرقة بالأمل فى حياة سعيدة ينالها الشهيد ، فيقدم المؤمن على القتال بقلب مطمئن ، لا يخشى الموت ، ولا يرهب الجهاد .

هكذا رأينا آيات هذه الغزوة ، رفيقة رحيمة تفتح للمؤمنين باب الأمل والعمل وتبعد عنهم شبح الخوف من موت تنتهى به الحياة .

ويسجل القرآن فضل أولئك الذين لم يرهبهم تهديد المشركين بالعودة لاستئصال أصحاب الرسول بعد معركة أحد . كما سبق أن ذكرنا ؛ وقد بينا أن أصحاب أبى سفيان لم ينفذوا عزمهم ، بل انقلبوا إلى مكة ، وعاد المسلمون لم يمسسهم كلم ، فسجل القرآن ذلك إذ قال : « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا ، أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ، فاخشوهم ، فزادهم إيمانا ، وقالوا : حسبنا الله ، ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ، فلا تخافوهم ، وخافون ، إن كنتم مؤمنين » .

وتصوير الهرب من ميدان القتال بأنه خوف من الشيطان يدفع نفس المؤمن إلى أن تبعد هذا الخوف بكل ما تملك من قوة .

ويظهر من التأمل فى آيات هذه الغزوة أن بعض ضعاف النفوس قد أصغى واستجاب إلى كلام المنافقين الذين أرادوا أن يزلزلوا عقائد المؤمنين ، وأن يشككوهم فى أمر الرسول الكريم بسبب هذه الهزيمة ؛ نفهم ذلك من آيات هذه الغزوة التى تقول : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ؛ إنهم لن يضروا الله شيئا ، يريد الله ألا يجعل لهم حظاً فى الآخرة ، ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ، ولهم عذاب أليم . ولا يحسبن الذين كفروا أن ما نملى لهم خير لأنفسهم ؛ إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ، ولهم عذاب مهين » .

ومن الواضح أن القرآن لا يلتزم جانب الرفق مع هؤلاء المنافقين ، الذين أبدوا

من ضعف العقيدة ما يستحقون من أجله ذلك التهديد . وبيان أن ما ناله الكفار من نصر إنما هو إملاء لهم ، لكى يزدادوا إثما ، ولكن ينتظرهم العذاب المهين .

ولذلك يحذر الله من طاعة الكفار ، ويجعل عقبى هذه الطاعة الخسران : « يأيها الذين آمنوا ، إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم ، فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين » ويوازن بين المطيع والعاصى « أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ، ومأواه جهنم ، وبئس المصير » .

وفى آيات تلك الغـــزوة مسألة عرضها القرآن ، وهى أمر الدين الذى جاء به الرسول الكريم ؛ فقد بينت تلك الآيات أن هذا الدين لا يرتبط بشخص الرسول ، وإنما هو دين يجب اعتناقه ، والثبات عليـــه ، والدفاع عنه ، سواء أبقى محمد أم مات ، لأنه ليس دعوة شخصية ، وإنما هو شريعة إذا اقتنع المرء بها ثبت عليها إذ يقول سبحانه : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين » .

وفى ختم الآية بالحديث عن الشكر وجزائه دلالة على ما ينبغى أن يقابل به إرسال الرسول من شكر على هـــذه النعمة التى أخرج الله الناس بها من الظلمات إلى النور ، وقد صرح القرآن بذلك فى آيات تلك الغزوة فقال : « لقد من الله على المؤمنين ، إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » ؛ وإذا كان الرسول قد أخرجهم من الضلال المبين ، وعلمهم الكتاب والحكمة ، فمن خطل الرأى أن ينكصوا على أعقابهم إذا مات ، فيرجعوا إلى ما كانوا فيه من جهالة جهلاء . (يتبع)

دكتور أحمد أحمد بدوى

هى النفس

قال الربيع بن ضبيع الفزارى :

لقد عزفت نفسى عن اللهو جملة ... وإن نهلت من لهوها ثم علت
رأيت قرونا من قرون تقدمت ... فلم يبق إلا ذكرها حين ولت
هى النفس ما منيتها تاق شوقها ... وإلا فنفسى إن يئست تسلت

شعائر الله من تقوى القلوب

للأستاذ على العمارى

فى أسبوع واحد قرأت مقالين فى موضعين مختلفين من صحفنا ومجلاتنا ، وكان المقالان عن (الحج) وكلا الكاتبين أدى فريضة الحج هذا العام ، وأخذ كل منهما يتحدث عن الآثار التى تركتها مشاهدة الأماكن المقدسة فى نفسيهما وهما يدور بخاطر كل منهما مما يتعلق بمناسك الحج وغيرها من شعائر الإسلام .

وقد آلمنى أشد الألم أن كلا من الكاتبين تعرض لمسائل دينية ، ولمسها لمسا عنيفا دون أن يكلف نفسه الرجوع إلى المصادر الأساسية ليتزود منها ما يعينه على التحدث فى أمور خطيرة . بل إن أحدهما لم يكتب الآيات القرآنية التى جاءت فى مقاله كتابة صحيحة ، ومع ذلك سمح لنفسه بأن يصف بعض ما ثبت فى السنة الصحيحة بأنه (أساطير) .

وكان السر فى اندفاع الكاتبين إلى ما تناولاه كما قال أحدهما ـ هو أن (الغموض ، وعدم الاقتناع يحيط بكثير من المناسك ، مناسك الحج طبعا ، حتى تبدو كأنها طقوس بوذية ، يلزمها فى عصرنا الحالى الإقناع ، والتحليل العلمى والمنطق الذى قام على أساسه الدين الإسلامى كله) . وعلى ذلك فهو يرى أن من الواجب على العلماء أن يتكلموا ، ويوضحوا الغموض بأسلوب متطور مقنع حتى لا يكون الحج ـ كما قال الكاتب أيضاً ـ مناسك آلية يؤديها الفرد ، ويعود يحمل لقب (حاج) دون أن تؤثر فى معنوياته .

والشعيرة الأولى التى أثارت الكاتبين هى الذبائح التى يقدمها الحاج شكرا لله على ما وفق من أداء الفريضة ، أو جبرا لما فات من أعمال واجبة حتى يكون الحج تاما كاملا ويحدثنا أحدهما بأسلوب لا يخلو من سخرية فيقول عن (رجم الشياطين) إن العلماء يؤكدون أنه من المناسك ، وأن الذى لا يفعله عليه أن يزيد اللحوم المتعفنة بذبيحة جديدة .

أما الآخر فيسهب فى هـــذا النسك ، ولا ينسى الكلام عن الحالة الاقتصادية التى تحتم أن يقتصد الحاج فى الذبائح ، أو أن يوضع بديل من هذه الذبائح ، ولنترك الدكتور مصطفى الديوانى يحدثنا كما نقل عنه رئيس تحرير صحيفة الأخبار فيقول : « وما زلت أذكر كيف صحونا لجرذات يوم لنؤدى فريضة

الصلاة بالحرم المكى ، وبعد أن عدت إلى الفندق مع الدكتور سعد الدين التاودى قابلنا عند الباب المستشار محمود عبد اللطيف ، والدكتور عبد الحميد بدوى يتأهبان للذهاب إلى المذبح لاختيار الهدى لنفتدى به تمتعنا أى التحلل بعد العمرة بكل تفاصيلها من طواف حول الكعبة إلى السعى بين الصفا والمروة ، وكان علينا أن نشترى شاة لكل منا ، وهنا حالت الأزمة المالية القاسية التى كنا نقاسى منها دون ذلك ، فاشترك سبعة منا فى عجل بلغ ثمنه ثمانية عشر جنيها ، وتنفسنا الصعداء لهذا الحل السعيد ، فوقف رائدنا المستشار محمود عبد اللطيف يساوم ويجادل محاولا الحصول على تنزيل آخر .

ولما لم يوفق سار بنا فى طابور جنائزى وراء العجل المسكين الذى كان ينظر إلى الأرض بعناد ، وخبث ، محاولا غرس حوافره فى طينها الممزوج بدماء زملائه الذين سبقوه إلى تعس المصير ، ولاح ضعفى نحوه فخيل إلى أنه ثبت نظراته على معاتبا وأنا لا أملك من أمرى شيئا ، فقائدنا محمود عبد اللطيف طالما أصدر أحكاما بالإعدام على بنى البشر ، فما أسهل عليه أن يقود عجلا إلى الجلاد ، وزملائى يقبلون أيديهم ظاهراً وباطناً ، ويهتفون من أعماقهم ، بينما تقطع سكين الجلاد رقبة العجل قائلين : (الحمد لله . الحمد لله . لقد صحت حجتنا) وأنا أقول لنفسى ، وأنا أتأمل بركة الدماء من حولى : (ربى ، أما لهذه المآسى من آخر؟ ، وكيف يوضع حد لأقسى عملية لإبادة الثروة الحيوانية على ظهر البسيطة ؟ وهل تصل هذه اللحوم إلى الفقراء حقا ، أم تترك حتى ينتابها العفن؟)

وإنما نقلت هذه الفقرات كاملة ليتبين القارئ ما يشيع فيها من تبرم وضيق ، وسخرية بنسك هو من أعظم مناسك الحج فقد كان الكاتب ورفاقه فى ضيق شديد حين هموا بشراء النسك ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ؛ لأن ثمنه فوق ما يحملون من نقود ، فلما وفقوا لشراء عجل بثمانية عشر جنيها تنفسوا الصعداء هكذا ، كأن الكابوس الذى كان يجثم على صدورهم قد زال . أو لعله قد خف ؛ لأن ثمن العجل لا يزال بالطبع - على ما يستفاد من عبارات الكاتب - يحز فى نفوسهم ، ثم هذا التصوير الدرامى لعملية (الإعدام) التى يساق إليها العجل !

أما سار الكاتب هو ورفاقه فى طابور جنائزى ؟ ! أما ساقوا العجل إلى الجلاد ؟ ! أى إلى ساحة الإعدام ، أما آلمهم واستنزف دموعهم هذا العجل المسكين ، وهو يقدم رجلا ، ويؤخر أخرى فى طريقه إلى مصيره المحتوم ؟ !

إن الذى يقرأ هذا التصوير يظن أن هذا الكاتب لم يعش فى بلد تذبح فيه العجول ، وأنه رجل نباتى لا يتغذى بشىء من لحوم الحيوان ، والطير ، وأن أبا العلاء المعرى بعث من جديد فى شخص هذا الكاتب ، ولكنه لم يظهر فى كل بلد حل فيه الكاتب وإنما ظهر فى (منى) فقط حيث تذبح عجول القربة إلى الله تعالى ، أما المجازر التى تنتشر فى كل البلاد ، والتى رأى الكاتب الكثير منها طبعا - فالعجول فيها ليست مساكين ، والناس لا يسيرون خلفها فى طوابير جنائزية بل يسوقونها وهم فرحون مستبشرون لأنهم سيربحون من وراء ذبحه مالا ، ولأنهم سيأكلون منها لحما أحله الله .

وخاتمة المطاف عند الكاتب أن هذه الشعيرة من شعائر الله مأساة من المآسى ، وهو يسأل الله تعالى ، ويدعوه ، ويناجيه أن يجعل لها آخرا ، وأن عملية إبادة الثروة الحيوانية الجائزة التى رآها يجب - فى رأيه طبعا - أن يوضع لها حد ، كأن الثروة الحيوانية لا تتعرض لأى نوع من أنواع الإبادة فى مكان آخر غير الحرم ، فالناس يحجون من قديم الزمان ، ويذبحون القرابين ولم يظهر فى عام من الأعوام أزمة فى اللحوم حتى فى مكة نفسها بعد موسم الحج ، وأكثر الذبائح تؤكل لحومها ، ويقل منها ما يترك حتى يتعفن ، ولو كان صحيحا أن أكثر هذه الذبائح يتعفن لكان المنطق يقتضى أن يتجه الكاتب - كما اتجه غيره - إلى اقتراح حل لهذه المشكلة ، أما أن يسوق الحديث هذا المساق الذى تشيع فيه السخرية والتبرم بهذه الشعيرة فهو ما يتنافى مع أبسط مبادىء الإخلاص لله فى أداء ركن عظيم من أركان الإسلام .

إن الله تعالى يقول فى سورة الحج : « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ، لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » .

وقد فسر بعض العلماء (الشعائر) فى قوله تعالى : « ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب . لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ، ثم محلها إلى البيت العتيق » فسرها بالبدن التى تقدم قرابين شكراً لله تعالى .

والمتأمل فى هذه الآيات يجد كلمة (التقوى) مقترنة بكل منها ، وهذا دليل على أن امتثال أوامر الله ، وأداء شعائره على أكمل وجه ناشىء من الإخلاص لله ، وخوف التفريط فى جانبه .

والقضية ليست قضية منطقية ، وإنما هى (من تقوى القلوب) تلك القلوب التى تشعر

بجلال الله ، وعظمته ، وتحس بالهيبته ، وربوبيته ، تتوجه خلصة إلى أداء شعائره ، وتجد من تمام أدائها أن تختار أحسن مايقدم ، وألا تساوم فيها ، أو تجادل فى ثمنها ، فإن الذى يقدم لعزيز عليه هدية لا يغليه الثمن مهما بلغ ، ولا يظل يتردد على حوانيت التجار ليختار منها الأدون والأرخص ولكن ليختار الأعلى والأغلى ، وهذا شئ تدركه القلوب المحبة ، أوضح إدراك وأتمه ، ولن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم .

ومهما قال العلماء من تعليلات مقبولة لهذه المناسك فمرجعها جميعاً إلى (تقوى القلوب) فى امتثالها لأمر الله ؛ ذلك أن العقل البشرى لا يمكن أن يصل - بصفة قاطعة - إلى سر بعض التكاليف الدينية ، فهو - مثلا - فى أبرز ركن من أركان الإسلام ، وهو الصلاة ، يقف حائراً أمام تفسير عدد الركعات ، وأمام السر فى أن هذا العدد لم يذكر فى القرآن مع ماله من مكانة فى تكاليف الدين .... وهكذا ، فى كثير من مناسك الحج .

وقد أوضح العلماء أسرار الشريعة فى كثير من التكاليف ، وبينوا ، ولا يزالون يبينون - فى كل مناسبة - حكمة مشروعيتها ، ولكن الشيء الوحيد الذى لا يمكن إغفاله هو إحساس القلوب ، وتقواها ، ومدى تقبلها لأوامر الله ونواهيه .

وإذا كانت الأخلاق والفضائل واضحة الأهداف ، فإن بعض العبادة لا يظهر فيه غير هدف واحد هو اختبار المؤمنين لمدى امتثالهم لأوامر الله ، وإن قيل ما قيل فى سر مشروعيته ، وعلى ذلك فلا وجه لما قاله الكاتب الآخر عن (رمى الجمرات) بأنه أمر غامض ، بل إنه يجاوز حدود اللياقة والأدب الدينى حين يشبه هذه الشعائر بالطقوس البوذية ، وقد يصح قوله إن رمى الجمرات مسألة غير مقنعة للكثيرين لو كان تفسير هذه التكاليف يرجع إلى المنطق وحده ويتحكم فيها العقل دون سواه . ولكن كما قلت - المسألة ترجع إلى (تقوى القلوب) أما المنطق وأما التفسير العقلى فهما أمر بعد ذلك ، وما لم تستشعر النفوس الخشية من الله ، وما لم يكن فيها ما يحملها - دون اعتراض أو تبرم على امتثال أوامر الله - فإن منطق العقل لا يغرس الإيمان فى النفوس .

وليس معنى هذا أن الدين الإسلامى جاء بتكاليف تناقض والعقل ، ولكن معناه أن العقل إذا لم يتوصل إلى الحكمة الحقيقية لبعض التكاليف ، فلا ينبغى أن يحمل ذلك أحداً على أن يرمى هذه التكاليف بمنافاتها للعقل ، وما دام الدين الإسلامى

قد ثبت بكل الطرق المقنعة أنه الدين عند الله، وما دامت طريقة ثبوت هذه التكاليف صحيحة لا غبار عليها، فما على المؤمنين بهذا الدين إلا الخضوع والامتثال، والتأدب حين يتحدثون عن هذه التكاليف.

ثم نعود إلى الدكتور مصطفى الديوانى ونسأله: لماذا كان ضائق الصدر هو وزملاؤه بثمن ما يذبحون؟ إن الدكتور لو كلف نفسه سؤال أحد العلماء - وقد كانوا بحمد الله كثيرين فى هذا الموسم - لأفتاه بأن (الدم) لا يجب إلا على القادر.

وفى القرآن الكريم آية صريحة تحكم فى بعض هذه الدماء، وهى قوله تعالى فى سورة البقرة: «وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى، ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله، فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك، فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم، تلك عشرة كاملة، ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام، واتقوا الله، واعلموا أن الله شديد العقاب».

وأحب أن ألفت نظر القارئ فى هذه الآية أيضا إلى جملة: (واتقوا الله) لأؤكد له أن جميع أعمال الحج مصدرها التقوى، والتقوى هى العاصمة من كل شك قد يطوف بالمؤمن فيحيد به عن سواء السبيل فى العمل أو فى الاعتقاد.

ويؤيد ما قلته قول الله تعالى بعد هذه الآيات: «الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج، وما تفعلوا من خير يعلمه الله، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، واتقون يا أولى الألباب».

نعم، التقوى هى الباعثة على كل عمل صالح، وهى أيضاً نتيجة لكل عمل صالح، ولكن كثرة دورانها فى آيات الحج يدلنا على أن هذه الشعائر يفقهها المتقون، ويقدرونها حق قدرها، والتقوى تعصمهم أن يزلوا فى فهمها، أو فى أدائها.

بقى أن الدكتور الديوانى فى لحظة من لحظات الحماس، والتبرم رمى بعض ما جاءت به السنة الصحيحة بأنه من (الأساطير)، ولنتركه يتحدث، فيقول بعد أن يذكر ما قاسوه من العذاب الشديد فى طواف العمرة، وأن الناس جميعا كانوا سواسية حتى لكأن فى هذا اليوم بيوم الحشر الذى تروى الأساطير أن الشمس سوف تكون فيه دانية من الرءوس والجو شديد الحرارة حتى ليتمنى الناس أن يقضى بينهم على أى شكل، فإما إلى يمين، وإما إلى يسار) ونحن لن نتكلف فى الرد

(البقية على صفحة ٦٠)

معاهد التنصيص

رسالة الكتاب ومنهجه الأدبي

للأستاذ محمد رجب البيومي

يقابل بعض القراء هذا الكتاب بقليل من الترحيب قبل أن يلموا به لأن اسمه من جهة وعصر مؤلفه من جهة أخرى لا يوحيان بكثير من البشاشة والإقبال ، فاسم الكتاب « معاهد التنصيص على شواهد التلخيص » يلقى ظلا قاتما يثيره ما عرف عن متن التلخيص من تقعيد وتعقيد ، وظهور المؤلف في القرن العاشر الهجري - وهو زمن تدهور فيه الفن الأدبي تدهوراً لا يؤذن بالإجادة الرائعة والتفوق الناضج - مما يشي بضآلة نفعه ، وقلة جدواه ، والحق أن الكتاب عظيم النفع كثير المحاسن ، وسأحاول أن أشير إلى مزاياه من قريب .

ونحن نسأل أولا عن رسالة هذا الكتاب ؟ فإذا اتضحت على وجهها الصحيح برزت مزيته بجلاء ، وحسبنا أن نعلم أنه كان خطوة أولى في طريق النهوض بعلوم البلاغة ، والخروج بها من دائرتها الضيقة إلى أفق التذوق والاستمتاع ، وهي خطوة موفقة سارة ، إذا نظر إليها كعمل مبدئي تضافرت بعده الجهود المتتابعة حتى كتب للبلاغة بعد أجيال أن تنهج نهجها القويم ! أما كيف برزت هذه الخطوة المبدئية فذلك ما أخصه بالحديث !

لقد كان عمل السكاكي في محيط البلاغة بالقرن السادس الهجري وأوائل القرن السابع حداً فاصلا بين ازدهار البلاغة وارتكاسها ، إذ أنه نظر إليها بعين المنطق والفلسفة ، وأكثر من التعريفات والتفريعات إكثاراً سيطرت عليه المصطلحات والحدود ، وضاعت بجواره فائدة النصوص الأدبية فلم تعد البلاغة فناً جمالياً يتجه إلى الأسلوب الجيد والمعنى الرائع ، ولكنها أصبحت رسوما وقواعد تحوطها التعليلات الذهنية ، والاعتراضات المنطقية ، وجاء الخطيب القزويني فلخص هذه التعريفات والرسوم تلخيصاً جافا أحال البلاغة إلى ألغاز ذهنية ورسوم منطقية ، وأسمى عمله هذا (متن التلخيص) ومن المؤسف حقا أن هذا المتن قد لقي الحظوة والإقبال لدى من عرفوا بين الناس بعلماء البلاغة فيما بعد القرن السادس فكتبت له الشروح ووضعت عنه

الحواشي والتقارير وأصبح مركز الدائرة في كل ما يقال عن بلاغة الأسلوب وفصاحة التركيب وقوة التشبيه وجودة الاستعارة ، ونقد المحسنات والموازنة بين السرقات ، واشتهرت شروح التلخيص اشتهاراً جعلها صاحبة الكلمة الأولى في المضمار البلاغي ، وأصبح عالم البلاغة بمنأى عن النصوص الشعرية والآثار الأدبية ، ولكنه يجيد تعريف الفصاحة كما رسمه السكاكي مع ما قيل في الاعتراض عليه ، ويفتن في إرجاع الضمائر ، وإخراج المحترزات ، فإذا سألته أن يحكم على نص أدبي على مثال ما كان يصنع عبد القاهر والجرجاني والآمدي ضاق مجال القول أمامه ، وعجز حتى عن فهم ما فاض به مؤلفو دلائل الإعجاز والوساطة والموازنة بل عد ذلك بمنأى نازح عن علم البلاغة الأصيل ، وقد ذكر الأستاذ عبد العزيز البشري أنه يعرف زميلا يحفظ جميع شروح التلخيص ثم يعجز عن كتابة رسالة أخوية لا تتجاوز ثلاثة أسطر ! ولئن كانت هذه نتيجة دراسة التلخيص وشروحه فيا لهول المأساة !

أدرك مؤلف معاهد التنصيص ما تورط فيه البلاغيون من بعد عن النص الأدبي والإلمام بحيوات قائليه من الشعراء والكتاب ، فألف كتابه ليذكر كل نص من شواهد التلخيص فيشرح معناه ويذكر مناسبته وجزءاً كبيراً مما قبله وبعده من الأبيات الشعرية ، ثم يتجه إلى سرد كثير من الأبيات التي تشير من قريب أو بعيد إلى معنى النص ليتسع مجال الموازنة الأدبية على مر العصور بين السابق واللاحق !

وإذا عرفنا أن المؤلف قد عاش في القرن العاشر الهجري فألم بأكثر دواوين الشعر العربي من لدن العصر الجاهلي إلى زمنه ثم استخرج منها ما يشابه بيت الشاهد أو يناقضه ، وسرد ذلك كله بمناسبته ، إذا عرفنا ذلك أدركنا قيمة هذه الذخيرة الثمينة التي قدمها المؤلف في كتابه ، وقد يكون غيره من المتقدمين قد سبقه إلى ذلك في القرن الرابع أو الخامس أو السادس مثلا ، فانتفع بآثارهم المدونة ، ولكن تأخره الزمني أتاح له أن يتابع الشعراء المحدثين فيجمع ما قالوه من الشوارد ، ويقدم سجلا حافلا متناقضاً حيث يجمع شعر الطبع والصنعة ويقرن الغث بالسمين متيحاً لصاحب الملكة الأدبية أن يستمتع بالجيد الرائع وأن يحكم على الغث المرذول !

هذا العمل وحده في تتبع معنى النص على مر العصور يحيي حاسة التذوق الأدبي ، ويدعو إلى الارتقاء البلاغي صياغة وتفكيراً فإذا أضاف إلى ذلك كله ترجمة حافلة لصاحب

النص تبين خطوات حياته وترسم بيئته ومؤثرات إنتاجه وتلم بزبدة ما قيل عنه نقد خدم الملكة الأدبية خدمة راقية ، وأعان على التذوق البلاغي إعانة مسعدة مسعفة ، وما ظنك بمائتين وخمسة وعشرين من الأبيات هي كل شواهد التلخيص يكتب المؤلف حولها ألفاً وثلاثمائة وخمسين من الصفحات يخرجها الأستاذ محي الدين عبد الحميد في أربعة أجزاء كبار هي ما يعرف بمعاهد التنصيص ! أى أن النص الواحد قد استغرق أكثر من ست صفحات ! وليس ذلك مطرداً بطبيعة الحال ، ولكنه إحصاء تقريبي يوقف على مدى جهد المؤلف الكبير ! !

أما نصيب البلاغة الرسمية من هذه الموسوعة فلا يتجاوز بضعة أسطر تلحق بكل نص وقد تصل في كثير من الأحيان إلى سطر أو سطرين ! ألا يدرك القارئ مدى مبلغ ضيق المؤلف بمماحكات البلاغيين ونزوعه إلى السمو بهذا الفن إلى أفقه الأوسع باذلا جهده الأكبر في خدمة النص والتعريف بظروف قائله إذ هما لباب اللباب ! وإن مؤلفاً يخطو هذه الخطوة في القرن العاشر الهجرى حول متن التلخيص مع جبروته العلمى إذ ذاك لصاحب رسالة في مضمار البلاغة الأدبية دون نزاع ، وقد أشار الرجل في مقدمة كتابه إلى عمل مشابه لم يكمل بل لم يخرج عن حيز المسودات قام به الجلال السيوطى ، وليس لدينا الآن مجهود الجلال حتى نحكم عليه ، ولكننا نعرف نزعته العلمية الفقهية من خلال كتبه الكثيرة ، وبعيد جداً على عالم فقيه مفسر لغوى متكلم محدث مؤرخ أن يبرع في الأدب الخالص براعة صاحب المعاهد ، أو يوفق توفيقه الفنى في دراسة الدواوين الشعرية والتنقيب عن حيوات الشعراء بالذات ! لذلك نعد كتاب المعاهد خطوة بلاغية جديدة كتب لها الذيوع والبقاء .

وقد ذكر الأستاذ محمد محي الدين عبدالحميد أن « كتاب معاهد التنصيص على شرح شواهد التلخيص ، كان من سمار الأستاذ الإمام محمد عبده مفتى الديار المصرية الأسبق وأنه كان كثير القراءة فيه والمعاودة له ، وكان رحمه الله إذا أراد أن يختبر طالبا ممن يتقدمون إليه لبث شكاية أو رجاء شفاعة قدم إليه هذا الكتاب وطلب أن يسمعه قطعة منه ثم أمره أن يبين ما يقرأ ، فإن أجاد القراءة والفهم والإبانة توسم فيه الخير وقضى حاجاته ، وهذا غير مستغرب من الأستاذ الإمام فقد نشأ في عهد سيطرت فيه حواشى التلخيص على دروس البلاغة بالأزهر وأراد الشيخ أن يسلك بالطلاب واديا آخر فأخذ يقرأ عليهم كتابى عبد القاهر ، ولعله حين اطلع على

معاهد التنصيص وجده خطوة للتخلص من هذه المناقشات الذهنية الجامدة فأخذ يعرضه بطريقته الخاصة على الطلاب ليذيع أمره ويرقى به الأزهريون إلى مستوى البلاغة الفنية بعد أن هبطت بها الشروح والحواشى الضافيات.

أما مؤلف الكتاب الشيخ عبد الرحيم ابن أحمد العباسى المتوفى سنة ٩٦٣ هـ فلم أجد ما يعرفنى به أكثر من كتابه، وأثر المرء دليل عليه، إذ أن ما كتبه عنه معاصرو عهده من أمثال الشهاب الخفاجى قد غرق به فى بحر من السجعات الذائبة فهو «حسيب طرز كم المجد وأعاد برقة شمائله نسمات نجد، وله رايات فضل عليه، نمنمت الأقلام بسواد أنفاسها العباسية، إلى أمثال ذلك مما يمكن أن يقال لكل أديب، وقد عرف عنه أنه من أبناء بنى العباس الذين تفرعوا بمصر من شجرة الخلافة العباسية التى أحياها سلاطين المماليك على يد الظاهر بيبرس، حتى إذا انتهى مجدهم الروحى بدخول مصر تحت حكم الأتراك بقى أحفادهم فى وادى النيل وقد اندمجوا فى الشعب المصرى وأصبحوا بعض أفراده، ومن بينهم عبد الرحيم مؤلف الكتاب، إذ سلك سبيل أنداده فى تحصيل الأدب والعلم فقرأ علوم عصره، وروى عنه شرح كبير للبخارى، وحين ألف معاهد التنصيص رحل به إلى بلاد الروم قاصدا القسطنطينية عاصمة الخلافة العثمانية واتصل بكبرائها وأئمة العلم من رجالها فأتيح له من يقدر كتابه ويذيع فى الآفاق حديثه ويثيبه عليه، والحق أن الشعور العام فى مصر والشام كان منحرفا عن الدولة العثمانية حين احتل سليم الأول مصر عدوانا وبغيا فأشعل حربا طاحنة بين ممالك الإسلام خسرت بها مصر مجدها السياسى ونفوذها الحربى وتقدمها العلمى والحضارى، ولكن زوال سليم وتولية سليمان القانونى من بعده قد استطاعا أن يخمدا روح العداء فى النفوس فأطفأ ما كان يشتعل بها من غيظ نحو أبيه، إذ استطاع أن يقود الجيوش الإسلامية من نصر إلى نصر فى أوربا، وقهر ملوك المجر والنمسا وألمانيا وفرنسا والروسيا، وثار له دوى رنان فى بلاد الإسلام وتحدث أنه حامى الشريعة ورجل الملة وخاقان المسلمين! وأصبح من عادة العلماء والأدباء أن ينتجعوا حاضرة الخلافة العثمانية، رغم أنها لا تقاس فى مجدها العلمى بالقاهرة! وكان عبد الرحيم أحد هؤلاء، ولا ريب أنه كان يكتم فى نفسه حسرة كاوية حين توجه إلى من استلبوا جلال الخلافة من آبائه وأجداده.. على أنه كان فى شظف من العيش كما يلوح من بعض قوله، وبما وجهه إلى زملائه الأدباء فهو يقول مثلا:

أرى الدهر يكرم جهاله
وأعظم قدراً به الجاهل
وأنظر حظى به ناقصاً
أيحسبني أنني فاضل !

ويقول عنه صديقه الشهاب بن محمود النابلسي « حين قعدت به الأحوال وقامت الأهوال » كما عبر عن نفسه :

عبد الرحيم أضاعوا
بدولة ضعيفته
ما فيه لو ولا
ليت إنما أدركته !

فالرجل كان مساقا إلى انتجاع القسطنطينية لظروف عيشه وقد وفقه الله فقضى حاجة فى نفس يعقوب !

ومن يقرأ شعره يلمس به ارتفاعاً عن مستوى عصره فالرجل لا يتكلف الشعر فى المناسبات العامه ولا يحشوه حشواً ببهارج المحسنات وزخارف البديعيات ، بل يعبر عن ذات صدره ، وما أثر من مقطوعاته ينطق بتجاريبه الذاتيه ، ويدل على اهتمامه بالمعنى على عكس أقرانه من شعراء العصر ومحترفى النظم والتشطير والتخميس ! ولى أن أزيد على ذلك فأزعم أن وحى الخبرة العاقلة يلوح فى خطراته فيأتى بما يوقفك على الحقيقة المرة حين يتحدث عن ضعف الشيخوخة فيقول :

قد كنت أمشى ولست أعيا
فصرت أعيا ولست أمشى

وتارة يكشف لك عن الحقيقة النفسية فى قضايا الود والصداقة فيقول قول الحكيم عن تجربة :

لست عن ود صديقى سائلا
غير قلبى فهو يدرى وده
فكما أعلم ما عندى له
فكذا أعلم ما لى عنده

وهما بيتان نفيسان من ناحية المعنى ومدلولها الباطنى صحيح إلى حد بعيد ولكن صياغتهما أقرب إلى المنطق منه إلى الشعر ، وقد يلجئك إلى الابتسام حين يتهكم ببعض الناس فيقول فى سخرية :

رأيت لئيم قوم فى عسر
وبين يديه أشخاص لئام
فلم من جهالته ابتداء
فقلت له متى كسد السلام؟

ووجود هذا الطراز من الشعر فى القرن العاشر الهجرى معجب رائق ، على أن الشاعر بحكم بيئته وثقافته مهما سما بروحه عن الإسفاف اللفظى والعبث الزخرفى لا بد أن يجذبه محيطه إلى مداره ، فينجذب أحيانا إلى ما تورط فيه سواه مما شاع وعم من أصباغ البديع ، وهو إذا تورط فى ذلك لا يهوى مهوى الناضب البليد ، ولكنه يحافظ

إلى حد ما على مكانته الفنية صياغة ومعنى . فهو مثلا يسرد بيتا للبحترى فى الاستخدام البديعى ج ٢ ص ٢٦٩ :

فسقى الغضا والساكنيه وإن همو
شبوه بين جوانح وقلوب

ثم يذكر لنفسه من هذا الوادى ص ٢٧٠ :

تمر الصبا صفوا على ساكنى الغضا
وفى أضلعى نيرانه تتسعر
فتذكرنى عهد العقيق وأدمعى
تساقطه والشىء بالشىء يذكر
ويورث عينى السفح حتى ترى به
معالم بالأحباب تزهو وتزهر

فهذه الأبيات الثلاثة تضمنت ثلاثة أمثلة للاستخدام فى كلمات الغضا والعقيق والسفح ، ومع سبق الشاعر بما ألم به ، وتورطه فى مجاراة عصره فقد بدا فى نظمه تماسك قوى لا يفقده الرونق والبهاء ، وقد يضعف قليلا عن هذا المستوى فى بعض ما استشهد به لنفسه فى صفحات الكتاب ؟ ولكن من الذى يخلق دائماً من فحول الشعراء حتى نحاسب أديباً مثله على بعض الهنات !

وشخصية العباس تظهر واضحة فى مؤلفه فهو لا ينقل نقلا دون تمحيص ولكن يقف من المنقول وقفات ناقدة قد تقصر وقد تطول ، ونقد الروايات الأدبية يحتاج إلى خبرة ذهنية ونفسية ، ويكشف عن عقلية صاحبه ومنازعه ، لا سيما إذا اتجه النقد إلى أخبار متواترة ترويها الكتب على مر العصور كاتبا بعد كاتب ، فالرجل يرفض مثلا ما تعورف عن أبيات أبى تمام :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم
فى حلم أحنف فى ذكاء إياس
لا تنكروا ضربى له من دونه
مثلا شرودا فى الندى والباس

ويرى أن القصيدة قيلت فى أحمد بن المعتصم لا فى أمير المؤمنين حتى تنسب إليه الأقاويل ، كما ينفى ما حكاه الرواة من أن العباس بن الأحنف مات مع الكسائى فى يوم واحد ، وقد صلى عليهما الخليفة مبتدئا بالعباس دون الكسائى ، ويستند فى نفيه إلى أرقام التاريخ إذ أن الكسائى قد توفى قبل العباس ببضعة سنوات ، وقد ظهرت براعته النقدية فى نسبة الشواهد إلى أصحابها ، فهو ينقل آراء كثيرة للعلماء ثم ينقضها أو ينفيها بالدليل ، وقد يرجع إلى ديوان الشاعر فلا يجد الشاهد فينص على ذلك فى أكثر من موضع مما يوجبه التحرى الدقيق ، على أنه رغم شفافيته الأدبية ، واستكمال حاسته النقدية لم يستطع الخلوص مما درسه من أقوال السابقين ، فوقع فى بعض ما وقعوا فيه من أخطاء فهو مثلا يروى قول أبى تمام :

أعوام وصل كاد ينسى طيبها
ذكر النوى فكأنها أيام
ثم انبرت أيام هجر أردفت
نجوى أسى فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام

ثم يقول عقب روايتها . ولابن الفارض رحمه الله فى هذا المعنى مع الاختصار المعجز :

أعوام إقباله كاليوم فى قصر
ويوم إعراضه فى الطول كالحجج

وهذا تعقيب من يفضل بيت ابن الفارض على أبيات أبى تمام لعلة واحدة وهى الاختصار ! وذلك ترديد لما تعورف لدى بعض الناقدين من أن البلاغة هى الإيجاز فى كل موقف كان ! مع أن الإيجاز بليغ حقا عند مقتضاه ، أما أبو تمام فيستعرض ذكريات يروق له أن يفصلها ويطيل الحديث عنها ليردد كل لفظ منها صدى يجول فى أطوائه ، وليوحى انبساط القول من الظلال ما يرسم شعوره المختلف فى الوصل والهجر ولن يؤثر فى نفس قارئه حين يرى بالعبارة الموجزة فلا تحمل أصداء نفسه المتاوجة فأخذ يستعرض تقلبات ماضيه استعراض من عانى التجربة وتلذذ بنعيمها ثم انقبض لبأسائها ، فأتى هذا الإسهاب الجيد على ما فى نفسه من الشجون ، ولن يستطيع قول ابن الفارض على إيجازه أن يبلغ مبلغ أبى تمام !! وفى رأيى أن نقد ابن الأثير لمثل قول أبى نواس :

أقمنا بها يوما ويوما وثالثاً
ويوماً له بعد الترحل خامس

ورميه بالتطويل الممل ، وإلحاح من قبله ومن بعده على تفضيل الإيجاز دون التفات إلى ظلال الألفاظ وإيحاء الصور .. كل ذلك قد جار على الصواب وقاد صاحب معاهد التنصيص وكثير من نظرائه إلى ما نأباه !

ويلحظ من يطالع هذا الكتاب كثرة أشعار المجون به بدون داع ملح فليس فى أكثر ما ذكره من رائع المعانى وجميل الصور، وحلاوة الفكاهة ما يشفع فى تدوينه ، بل يرتطم الناظر بألفاظ نابية صيغت فى أبيات منظومة ، ويدعى قوم أنها من الفن الأدبى مهما انحدر اتجاهه ، ولسنا ممن نرى هذا الرأى لأن ذكر الألفاظ المستهجنة فى أبيات عارية فاضحة لا تعد فنا ما دام قد خلا من الصورة الموحية ، والمعنى البارع ، واللفتة الساخرة المتندرة ! وأكثر ما جرى هذا المجرى فى معاهد التنصيص كلام إذا نثرت أبياته كان حديث الساقطات والساقطين فى ملاهى التهتك والفسوق ! ولا كذلك الفن الأدبى بحال ، وقد يكون الثعالبى فى يتيمة الدهر رائده السباق إذ أربى على من قبله

من رواة الأدب فى تسجيل هذه المنتديات! والغريب أن عبد الرحيم العباس يستشعر بعد الإكثار الممل من هذه الفضائح بعض الخجل فيستغفر الله، ويشهد القارىء أنه راوية فقط، ولو شاء ما ارتكب ذنباً يوجب الاستغفار، وفى كلامه عن سماهم بالملاحدة كابن الراوندى وأشباهه بعض ما كان الأولى طيه، أو إتباعه بالنقد مع سهولته وقربه، ولكن الرجل يذكر الآراء الكافرة دون تعقيب نقدى، وكل ما يختم به الحديث لا يخرج عن مثل قوله (حـ ١ ص ١٥٧) «ولو ذهبت أورد ما ذكره هذا الملعون وتفوه به من الكفر والزندقة والإلحاد لطال الأمر، والاشتغال بغيره أولى وأنا أعوذ بالله من هذا القول، وأستغفره مما جرى به قلبى مما لا يرضاه ولا يليق بجنابه وجناب رسوله وكتابه الحكيم»، ولعل ما يشفع له أن أحال إلى مرجع لابن الجوزى فى نقض أمثال هذه السقطات.

لقد جاء كتاب المعاهد سجلا حافلا، ومرشدا هاديا، وثمراً مستطابا وقد رأيت أن أسجل خواطرى عنه ليجد من الإقبال لدى الجمهور ما وجده من اهتمام الخاصة من مقدرى الكتب وعارفى الرجال.

محمد رجب البيومى

المدرس الأول بدار المعلمات بالفيوم

(بقية المنشور على صفحة ٥٢)

عليه أكثر من أن نكتب له الحديث الصحيح الذى يروى هذه القضايا التى رماها حضرته من الأساطير:

(روى المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، قال سليم بن عامر: فوالله ما أدرى ما يعنى بالميل. أمسافة الأرض، أم الميل الذى تكتحل به العين، قال: فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما، قال: وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى فيه).

اللفظ فى هذا الحديث للإمام (مسلم) وللبخارى حديث فى معناه، وكتابا البخارى ومسلم هما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى.

فالأحاديث التى فى هذا المعنى صحيحة، ثابتة، وليس لمسلم أن يقول إن ما تضمنته من القضايا هو من رواية الأساطير.

والله يعصمنا من الخطل والزلل، ويهدينا إلى الفهم الصحيح لأسرار شريعته.

على العمارى

ماذا تعرف عن "بوذا" وفلسفته

للأستاذ محيي الدين الألوائي

وجدت الفلسفة البوذية منذ بدايتها أرضا خصبة فى أرض الهند ، وتوطدت أركانها ، وترعرعت أغصانها ، وأثمرت ثمارها فى عهد الامبراطور العظيم « أشوكا » واستطاع الباحثون أن يكتشفوا مدى انتشار الفلسفة البوذية ونفوذها من الأضواء التى ألقتها المنحوتات الأثرية والتماثيل التاريخية التى يرجع عهدها إلى عصر « أشوكا » وعهود ملوك « تشولا » فى جنوب الهند . ومن المعلوم أن « بوذا » لم يضع كتابا خاصا أو دستورا جامعا واضح المعالم يحتوى على تعاليم دعوته ، ومبادىء فلسفته ، ولكنه بث فلسفته بطريق الخطب التى ألقاها حينا فآخر بين أتباعه وتلامذته ، فقام عدد منهم بتأليف كتب تضم القواعد والمبادىء الدينية التى بشر بها « بوذا » فى مواعظه ، والحكم والكلمات السديدة التى لقنها فى مختلف المناسبات ، وتجلت منها بوضوح الأهداف المنشودة من هذه الفلسفة ومبادئها الجوهرية ، ووصف « بوذا » مرة فى إحدى خطبه طريقته ، بطريق سوى ، مبنى على البصيرة والتعقل والمعرفة ، ويبعد الإنسان عن الدناءة والقوى البهيمية ، والملذات السخيفة ، وينهى عن إرهاق النفس وإيذائها وتعذيبها ، وهذه هى الطريقة الوسطى المركبة من ثمانية مبادىء جوهرية ، أى العقيدة الصحيحة ، والأهداف النبيلة ، والكلام الحق ، والعمل الصالح ، والوسائل الشرعية للحياة ، والسعى الحسن ، والعزيمة الصادقة ، والفكر الصائب ، وهذه هى المبادىء العليا التى تنير الطريق ، وتؤدى إلى المعرفة والبصيرة ، وتبعث على الطمأنينة والنجاة السرمدية » .

وقد وردت عن « بوذا » أقوال مأثورة عن معظم العناصر للإنسان وحياته ، ويقول عن النفس الأمارة أى « مارا » : إن النفس لا تنقاد بسهولة لأنها ميالة إلى مختلف الجهات ، وطائرة فى شتى الآفاق ، وأما النفس المنقادة فهى التى تجلب الطمأنينة وسلامة الضمير والسعادة لصاحبها ، ويجب على العاقل أن يراقب أفكاره ويكبح جماح ذهنه ، وأن يذلله له ، وإن أفكارنا مثل سمك أخرج من الماء وألقى على الأرض ، يرتجف ليتخلص منها ، وكذلك الفكر الصحيح يجد ويسعى ليتخلص من إمرة النفس الأمارة بالسوء . إذا كانت الأفكار مركوزة ، والذهن مستقرا ، والقلب غير مشغول بأمور دنيئة فلا ينبغى للإنسان أن يخشى من شىء . والجسد

سريع العطب مثل إناء من الفخار ، والأفكار قوية متينة مثل القلعة الحصينة ، ولذا وجب عليه أن يقاوم النفس (مارا) بسلاح المعرفة والتنور ، ويراقبها بكل دقة وعناية ، والضرر الذى يلحقه التفكير غير الصائب بصاحبه أدهى وأمر من الذى يبلغه العـــدو لعدوه والحاسد لمحسوده ، والإيمان المستقيم والعلم بالشرائع الحقة والقلب المطمئن لهو السبيل الوحيد إلى المعرفة الكاملة .

وفى معرض الكلام عن الفكر يقول بوذا : إن العقل المتدبر لا تنفذ إليه الشهوات البهيمية ، وهو مثل الدار ذات السقف المتين الذى لا تجد الأمطار إليها سبيلا ، وأما العقل العاطل فيتسرب إليه الوهن والحزن مثلما ينفذ المطر إلى داخل البيت غير المسقف ، والذى طهر نفسه من الآثام فيتمسك بالحق ويستقيم فى سلوكه له الحق الكامل لارتداء الرداء الأصفر (الذى يدل على الورع والتقى والتنسك) ، وأما الشخص الذى يرى الباطل حقا ، والحق باطلا ، لن يفوز بإدراك الحقيقة أبدا ، ويجر أذياله وراء الأهواء الباطلة حتى يأتيه حق اليقين ، ولسنا إلا صنائع افكارنا ، ونسيج اخيلتنا ، وقلوبنا ينابيع سعادتنا ورفاهيتنا ، والذى يسعى ويعمل بنية حسنة ينال السعادة الأبدية مثل ما يتبع الظل صاحبه فى جميع الأحوال ، والحب يقضى على العداء والبغضاء ، وأما العداء والبغضاء فلا يجلبان إلا العداء والبغضاء .

وأما الذى يعمل ويسعى بنية سيئة فينال الألم ، وإذا عرف شخص حقيقة الحياة فى هذا العالم ، ويعتقد بأن مصيره إلى نهاية محتومة فلا يجرؤ على التكالب والتشاجر والتقاتل ، والذى ينشـــد ملذات الدنيا ومتعها فقط لضعيف لا يكون له سند قوى من الأخلاق الفاضلة ، وتقتلع نفسه من مستقرها كما تقتلع الشجرة الواهنة بالعاصفة من أصولها ، والذى يعيش قابضا على زمام جماحه ، ومقتصدا فى مطعمه ومشربه ، وصادقا فى أعماله وأقواله فنفسه مستقرة لا تتزحزح عن سبيلها وتكون متوطدة فى مكانها مثل الجبل الشامخ .

والذى يحمل الأفكار الصالحة يسعد فى الدنيا والآخرة ، والذى يحمل الأفكار الفاسدة يشقى فيها ويتعذب كلما يفكر فى سوء أعماله وأقواله ، وإذا هجر الكذب والأخلاق الفاسدة ينال المعرفة والضمير السليم ، ويثلج قلبه كلما يفكر فى أعماله الحسنة ويتقدم بنفسه إلى الفضيلة والخصال الحميدة .

ويقول عن العاقل بأنه يجتنب هذه الحياة المظلمة الطائشة ويختار سبيل الزهد والورع والتقى ، ويصير المرء العاقل دائما فى احتراس

وحذر في جميع أقواله وأفعاله ، فلا يتحدث بشيء لا يرضاه لذاته ، ويكون ذا عقل رشيد معتدل ويصبح رصينا ، ويقول بوذا مخاطبا الشخص العاقل : إن وجدت رجلا يدلك على الخير وينهك عن الشر فهو صديق عاقل يستحق الصحبة ، ومثله كالذى يدلك على كنوز ثمينة مكنونة ، فاقبل نصائحـــه ، واستمع إلى توبيخه ، وأطع أوامره . ويجب على العاقل أن يصاحب الصالحين ، ويبتعد عن الأشرار ، وأما الشريعة بنفسها السعادة ، والذى يحبها ويعمل بها يحيا حياة سعيدة مطمئنة ، والعاقل لايفقد اتزانه العقلى أمام مدح المـــداح وذم العاتب ، والمغفل الذى يعرف أنه مغفل فهو شبه العاقل والذى لا يعترف بحمقه فهـو الأحمق المطبق ، وإن عاش مع العاقل مئات السنين فلا يحس بلذة العقل ، وأما الذكى فإذا عاش مع العاقل فيدرك طعم العقل ويشعر بلذة الحق ، والأحمق هو أكبر أعداء نفسه لأنه يأتى بأعمال تجلب له الأضرار الجسيمة ، وأما الإثم فربما لاتبدو نتائجه فوراً ويظل خامداً تحت الرماد مثل الجمرة فتلتهب مرة بدون سابق إنذار ، وإذا أظهر يفتضح صاحبه ويجلب له العار والحزن ويقضى على سروره وسعادته ، والمغفل المغرور يحاول دائما ليكسب الشهرة والسيادة على المجامع ومحافل الناس بدون طائل .

ويقول بوذا متحدثا عن الحزن والسرور : بأن الذى أتم سفره وجدد نفسه من الروابط الدنيوية التافهة وكسر قيود نفسه وحطم سلاسلها لا يشعر بألم ولا حزن ولا كآبة ، وينعم بأفكاره الهادئة ويعيش على الغذاء المشروع بدون التهرب وراء لقمات العيش ، ويجعل نفسه منقادة له مثل الفرس الذى يربت صاحبه يده على زمامه ويتجرد من الزهو والخيلاء ويتحرر من الجوع ، ويرى متواضعا تواقا إلى النجاة الأبدية ، والمعرفة الحقة تجلب على صاحبها الهيبة والوقار وهو مكرم فى أعماله وأقواله وحركاته وسكناته .

والرجـــل العظيم لا يتسرع بالتصديق وينبذ الرغبات النفسية الطائشة والأهـواء ويدرك الحق ولا ينشد لذة مادية بل سعادة خالدة ، وكلمة واحـدة من الحكمة خير من ألف كلمة لا تنفع ولا تجـدى نفعا ، وقال بوذا مرة : إن كلمة ينتفع بها الغير خير من ألف شعر لا ينفع الآخرين ، وأن تقهر نفسك خير من أن تقهر الناس كافة .

وأما عن الخير والشر فيقول بوذا : يجب على الإنسان أن يسعى إلى الخير ، ويتنكب عن أفكار الشر . وإذا وقع منه الإثم مرة فلا ينبغى له أن يعود إليه مرة أخرى لأن تراكم الآثام شقاء ، وإذا كان عملك هذا خيراً فعد إليه دائما لأن تراكم الخير سعادة وأما الشر فلا تستخف به أبدا فهو مثل الماء

الذى يتقاطر فى الإناء فيمتلىء به تدريجا مهما كان كبيرا ؛ لأن قطرات صغيرة من الماء تتجمع فيصبح شيئا كبيراً . وكذلك الخير فلا تستخف به فإن الأعمال الصادرة من الخير مهما صغرت — عند الاجتماع تكون خيراً كثيراً . فلا يجد الإنسان — لا فى أكناف الأرض ، ولا فى أعماق البحر ولا فى الجبال مكانا يفر إليه من مغبة الإثم الذى ارتكبته يداه فشأنه فى ذلك شأن الموت الذى لا ينجو منه أحد بأية حيلة بشرية ، ويبعث الناس مراراً بعد الممات فالأخيار يدخلون الجنة والأشرار يدخلون النار . فإذا حاول شخص إيصال أذى لآخر فيرجع على رأسه عائدا مثل الغبار الذى يعود على من يثيره من الأرض . ويجب على الإنسان أن يجتنب جميع أنواع الشر بكل جهد واجتهاد مثل التاجر الحذر الذى يجتنب طريق الخطر فى تجارته بكل الوسائل الممكنة .

ويخشى الناس كلهم العذاب والعقاب قبل الممات وبعده وعليك أن تعتبر نفسك واحدا منهم فلا تصب أذى أو ألما للآخر فلا تقتل النفس ، ولا تسفك دم إنسان مهما كان ؛ لأن الجميع يحبون الحياة مثلك ويهدفون إلى التمتع بنعم الحياة . وإن الذى يقتل شخصا أو يؤذيه لا ينال السعادة بعد موته وكذلك لا تشتم أحـــدا فيكيلك بنفس المكيال والناس يعاملونك معك كما تعاملهم أنت معهم وإذا حفظت لسانك من عيب الآخرين فالنجاة مضمونة لك . ولا تكن مثل الأحمق الذى لا يعرف مدى الخطايا التى ارتكبها والشرير الذى يلتهب قلبه بآثامه والذى يصيب ضرراً أو أذى لفريق من الخلق يبتلى بإحدى هذه البلايا العشرة الكبرى : الآلام الشديدة . والجروح الجسدية ، والخسائر الفادحة ، والأحزان والهموم المضنية ، والجنون ، وسخط الملك ، والتهم الفظيعة الشنيعة ، وإفلاس الخزائن ، وانعدام الأقرباء ، وتنزل الصاعقة على داره فيحترق ثم يدخل جهنم ويبقى فى عذاب جهنم .

وإذا لم يحاول الإنسان أن يسيطر على جماح نفسه فلا يلومن إلا نفسه ، وعليه أن يرتدع من الآثام والخطايا خوفا من العار الذى سيلحقه مهما كان معروفا أو مشهوراً بين الناس وإذا لم يتمكن بنفسه من السيطرة على نفسه الأمارة فلا ينقذه شىء . ولذا يجب عليه أن يكون نقيا سديداً فى أعماله وأقواله .

وقال بوذا عن سبيل النجاة والخلود المعروف « بنر وإناء » : إن الراهب الذى يجد السعادة والطمأنينة فى أفكاره وأعماله ولا يحيد بمقدار حبة عن الطريقة المستقيمة ينال الخلود النفسى والنجاة الأبدية ، وإن الراسخين فى المعرفة والجد المتواصل مع العلم الصحيح لهم العقلاء المفكرون الفائزون بالخلود والسعادة السرمدية . وضرب بوذا

مثلا الجادين والكسالى إذ قال : إن الذين يسعون ويجدون لا يموتون وإن تغيبوا عن أعين الناس فى هذه الدار ، وأما الكسالى قصار التفكير فنى حكم الأموات وإن كانوا يمشون على الأرض على قيد الحياة .

وإن المفكر النشيط يرتفع بنفسه إلى درجة الكمال فيستمر فى رفعة بعد رفعة وعلى كل مغفل أن يتعظ باعتدال العاقل وصبره وجده .

وأما العاقل فيخلق لنفسه - بفضل مساعيه القديمة وتفكيره السديد - جزيرة محصنة لا تصل إليها السيول الجارفة والزوبعة العنيفة ، ولا العواصف المزعجة لأن دعائمها متينة وتربتها قوية وحدودها موطدة المعالم وأما السفيه المغرور فينخدع بملذات العيش وسفاسف الأمور بينما يرى العاقل أغلى المواهب الكامنة فى نفسه ويرتفع إلى درجات الكمال وينظر من فوق رتبته العليا إلى الأرض وأهلها مثل الواقف على قمة جبل شامخ ينظر إلى السهول الممتدة تحت سفحه . وفى مكنة العاقل المفكر أن يتحرر بنفسه من الأحزان والطيش وملاذ العيش الدنىء والهوى فينال السعادة العظمى فى أصح معانيها وأكمل وجوهها .

وقال بوذا العظيم فى إحدى خطبه القيمة : إن الطرق الخمس للتشبث بالوجود أنواع من الألم فالولادة ألم والشيخوخة ألم والإصابة بالمرض ألم والوفاة ألم ، واتصال الأمور المحزنة ألم ، ثم بين الطريقة المفضية إلى إزالة الألم ، والتحرر من آثاره والابتعاد عن قبضته ، وهذه الطريقة هى الوسطى المشتملة على الأمور الثمانية المذكورة من العقيدة السليمة والأهداف الطيبة - والكلام الحق والعمل الصالح والوسائل الشرعية للحياة والسعى الصالح والعزيمة الصادقة والفكر الصائب .

والآن أرى من المناسب أن نبين القوانين العشرة التى وضعها بوذا بنفسه لكل مريد من أتباعه وأوجب عليه دراستها والمحافظة عليها بكل دقة وإخلاص حتى يدرج فى سلك التلامذة النساك المخلص وهى كما يلى : التزام الحيطة فى أخذ متاع الدنيا والتصرف فيه ، والابتعاد عن التقرب إلى غير مسموح به ، وتجنب الكذب والزنا وشرب الخمور وسائر المسكرات . وأن يتناول الطعام فى غير الظهيرة من الأوقات وألا يقرب الملاهى والرقصات والأغانى واستعمال العطور والورود وغيرها من الأشياء الخلابة التى هى من أدوات الزينة الظاهرية المحضة ، وعدم استخدام السرر أو المقاعد الفاخرة المرتفعة وتجنب الذهب والفضة ، وينبغى لكل تلميذ من أتباع بوذا أن يتدبر جيداً فى هذه الآداب الجوهرية .

وإن للبوذية بحوثا قيمة فى تحليل الذات وعناصرها وهى أولا تقسمها إلى العناصر

الخمسة : الأول الجسد ، وهو غير الذات فى نظر البوذيين لأنه لو كان هو ذاتا لما كان يتأثر بالمرض ولا يمكن أن يقال بأن جسد فلان كذا وكذا . والثانى الحس وهو غير الروح والذات وهو صالح للتأثر والألم وما إلى ذلك من الآثار الإنسانية ، والثالث الفهم ، والرابع الشعور وهو أيضا غير الذات وإلا لما أمكننا أن نقول : شعورى كذا ولا يكون كذلك ولا يخضع أيضا للأعراض المرضية . والخامس المعرفة ، وكل واحد من هذه العناصر يتغير حسب تقلبات المواقف الذهنية ونظام التركيب فى الذات الإنسانية .

ولا نجد البوذية بحوثا متعمقة منفصلة عن نظرية خلود العالم وعدمه أو نهايته أو لا نهايته . وتقول الطائفة البوذية بأن هذه من النظريات التى تتيه فيها العقول ولا يصل التأمل فيها إلى شاطىء الطمأنينة والإقناع . ولكن بوذا يقول فى حق الخالق الأكبر بأنه : الأعلى المهيمن . الصانع . الصمد . العليم . البصير . المالك . الرب . وأحسن الخالقين . والذى يتبين من بعض خطب السيد بوذا وبيانات كبار طائفته ، أن البوذية تنكر العقيدة الشائعة لدين الهندوس بأن العالم يدور فى دورات من السكون إلى الحركة ثم ينتهى أخيراً إلى السكون ، ويعده البراهمـ - خالق السكون طبقا لمعتقداتهم - إلى الدوران ، وتقول البوذية بأن العالم ظل زائل وتغض النظر عن البحث فى بداية العالم وفيمن يدير دفته ومن هو علة التغير والتطور .

وأما البراهمة فتقول بخلود الروح والعالم ثم تفرق بين الاصطلاحين المعروفين لها إذ تقول : فإن الروح التى تطلق عليها بالجوارح الإنسانية مثل العين والأذن والأنف واللسان وسائر عناصر الجسد فهذه غير خالدة وقابلة للتغير ، وأما التى تطلق عليها بالفكر والعقل والشعور دائمة خالدة وغير متغيرة .

وعلى هذا قالوا بخلود الروح من ناحية ، وعدم خلودها من أخرى . وهذه نظرية عسيرة المنال ، والإدراك ولا يدرك كنهها إلا أولو العلم والبصيرة الوقادة . وطبقا للبوذية بأن العناصر تتولد من الجهل ومنها يتولد الشعور ثم الصورة والجسم والفكر والحواس الخمسة ، ومن الحواس الخمسة العلاقة الوثيقة بين العناصر الجسمية والذهنية ثم يتولد الحس ، ومن الحس الشهوة وهى مصدر التشبث بالوجود والرغبة فى الوجود وتجدد الحياة .

وإذا نالت الإنسانية درجة الوجود وتجدد الحيـــاة يأتى بعدها الهم والألم واليأس والشيخوخة والموت . وعلى هذا المبدأ إذا زال الجهل تفنى العناصر المادية فتفنى الحواس الخمسة وتمحى القوى الشهوانيـة والتشبث بالوجود والرغبة فى الوجود وتجدد

الحياة فيزول الألم والحزن والقنوط ويتحرر العقل الأول من فساد الشهوة الحسية والروابط الدنيوية الفانية .

وألقى بوذا عدة خطب قيمة تدور حول المبادئ عن الحياة والفكر والنجاة وما إلى ذلك فنقلنا فيما سبق مقتطفات منها ولعله من المناسب أن ننقل الآن آخر موعظة ألقاها بوذا بين النساك قبل أيام لوفاته . ونجد فيها وصايا ومبادئ تتعلق بالفلسفة البوذية وكانت تلك الموعظة الأخيرة - كما قيل - فى حضور آخر تلميذ لبوذا « سدهودن » فقال : إن كان منكم أحد لم يطمئن قلبه بالإيمان أو فى قلبه الشكوك فى بوذا أو رسالته أو المبادئ التى دعى إليها فليسألنى الآن . ولا تقولوا بعدى بأننا نأسف على عدم الاستفسار لبوذا عن مسألة كذا وكذا وكان بيننا حيا ، ولما ظل الحاضرون جميعا صامتين بعد أن كرر السؤال ثلاث مرات متتالية قال :

لعلكم لا تسألون احتراما لى فليتحادث بعضكم إلى بعض ... وبقى النساك صامتين وكأن على رءوسهم الطير فقال التلميذ الوقور « آنندن » يا سيدى المحترم ! إنى لعلى يقين تام بأنه لا يوجد بيننا أحد يشعر فى نفسه ريبة أو شكا فى بوذا أو فى مبادئه وتعاليمه . ثم قال بوذا : إن الله يعلم بأن هذه الجماعة لا تحتوى على أحد يساوره الشك فى بوذا أو فى مبادئه ، والتفت إلى الحاضرين فقال : إن الأشياء المركبة كلها فانية وجاهدوا بأنفسكم ، وقال بوذا فى موضع آخر : إن الحياة لأمر مرتاب ، والموت لواقع محتوم فلا منجى لأحد من لقاء الموت وعليكم أن أن تفكروا فى الموت دائما واذكروه فى جميع الأحوال ، ومن لم يعود نفسه على ذكر الموت فيكون مثله كمن تفاجئه حية سامة فيتولاه الذعر والخوف بهذه المفاجئة الأليمة ، وأن الذى عود نفسه على ذكر الموت دائما مثل رجل ذى بصيرة عن حقيقة رأى حية بجواره فرفعها بعصاه ورماها إلى الوراء بدون خوف ولا مفاجأة ولا يفزع بلقائه الموت لأنه كان مستعدا له من أعماق قلبه من قبل ، وعليكم أن تذكروا الموت فى جميع الأحوال بدون انقطاع » .

وتحدث بوذا مرة عن حقيقة العالم وتطوراته فقال : سيأتى حين من الدهر حيث يتطور هذا العالم ، وتكون علامة بداية ذلك التطور أن تحيد الموجودات جميعا إلى عالم إشعاعى فتظفر بنعمة الوجود وتفرح وتمرح فى أرجائه فى مجد وجلال وتستمر هذه الحالة إلى مدة طويلة ثم ينعدم العالم بأجمعه ويقفر ويسود العدم على السكون ، وجميع المخلوقات فى العالم ستزول عنها حالة التشخص ، والمركبات الحادثة كلها فانية تتولد فتموت ، وكل مخلوق خاضع التنزع فلا بد أن يفارق الدنيا الفانية

ولا ينبغي لأحد أن يعتمد على الأشياء المركبة القابلة للتغير ومصيرها الزوال ، ولا يجوز لأحد أن يتمنى الخلود أو البقاء في هـــذا العالم الزائل .

وفي نهاية هذا البحث السريع عن المبادئ الجوهرية للفلسفة البوذية أرى من المستحسن أن نلقي نظرة خاطفة حول مولد بوذا الذي كان من المفروض أن يجلس على العرش الملكي ويحكم الدنيا وعن الظروف التي أدت إلى تزهده في الدنيا وانغماسه في التأمل حتى نال مرتبة الكمال وأصبح مرشدا روحيا وزعيما دينيا لملايين الناس ، وكان أبوه أميراً على قبيلة « سكياس » ويرجع تاريخ ولادته حسب حساب أهل جزيرة السيلان إلى ستمائة وأربعة وأربعين قبل الميلاد فكانت وفاته عام خمسمائة وأربعة وأربعين قبل الميلاد بعد أن عاش ثمانين عاما وكان اسمه «جوتم» وقيل بأن معنى كلمة « بوذا » هو « العارف » وتطلق لفظة «جوتم» على القبيلة التي انحدر منها «بوذا» وقد سمى نفسه أيضاً باسم « سدهارتها » أي الذي نال مناه وكانت والدته الملكة «مهامايا» وتقول الأساطير البوذية بأنه إذ حان موعد وضع طفلها هذا شعرت بحنين في قلبها إلى أهل أبيها ورجت من الملك أن يأذن لها بالذهاب إلى موطن أسرتها فقبل الملك طلبها وأصدر الأمر بتعبيد الطرق المؤدية إلى مدينتها وتزيينها بالشجيرات والرايات والأقواس .

فجلست الملكة في هودج ذهبي حمله ألف رجل من رجال البلاط الملكي وكانت الطرق مزدانة بالأشجار الباسقة والخمائل المتمائلة مع أغصانها والطيور تغرد في طرب وسرور ولما نظرت الملكة إلى هذا المنظر الخلاب أرادت النزول والتنزه في الخمائل . وقربت الملكة إلى إحدى الأشجار واشتهت إلى أخذ غصن منها فإذا هو يحنو أمامها ويدنو منها من ذات نفسه فمدت يدها وتناولته وشعرت حينذاك بالمخاض وأسدلوا ستارا حولها فوضعت حملها وهي ممسكة بذلك الغصن وتقدم إليها بعض النساك البراهمة فقالوا حاملين للمولود : أبشري أيتها الملكة ! إن طفلك سيكون له شأن عظيم في مستقبل حياته .

وأما الملك فمنذ أن سمع من كبار البراهمة بأن ابنه سيكون له شأن عظيم بدأ يهتم به كثيرا وشيد ثلاثة قصور فخمة واتخذ كل التدابير اللازمة لإبعاده عن آلام الدنيا ومخاوفها وعاش بوذا الطفل في تلك القصور في هدوء وطمأنينة ، وفي يوم من الأيام أراد بوذا أن يتنزه في الحديقة الواسعة الأرجاء في عربة ملكية مزينة فاخرة مركبة بالجواهر والأعلام الملكية وركب فيها وتوجه إلى الحديقة المذكورة بكل أبة وبهجة . وبينما كان يتجول في الحديقة الفاخرة رأى شيخا

هرما طاعنا فى السن واهنا عظامه واشتعل رأسه شيبا وكان يمشى مرتعشا متكئا على عصاه وكان المنظر محزنا يبعث على التدبر فى أحوال الدنيا .

وقال بوذا يتفطر قلبه ، حزنا وكآبة : يا للويل للولادة التى تمهد الطريق للشيخوخة الفانية إلى بنى آدم فلا خير فى نعم لا تدوم ورخاء يزول فى طرفة عين . ثم عاد الأمير فورا إلى القصر ولما علم الملك نبأ عودته قبل الموعد سأل الحاشية عن السبب المؤدى إليها فقالوا : إنه رأى فى الطريق شيخا هرما وقد احدودب ظهره ووهن عظمه وسقطت أسنانه ، ونخاف أن يزهد فى الدنيا بعد رؤية ذلك المنظر المحزن . وقال الملك : لا ينبغى لابنى أن يفكر الآن فى الزهد عن الدنيا مادام موفور الحظ ثم عين الملك المراقبين فى أنحاء المدينة ليقوموا بإبعاد كل شىء مزعج عن عين الأمير . وبعد فترة من الزمن خرج بوذا مرة أخرى للتنزه فرأى شخصا مصابا بالداء العضال بحيث يعافه الناس وفى منظر كريه جدا . وازداد حزنا وتعمقا فى التفكر عن آلام الدنيا وتفاهة العيش فيها وفى المرة الثالثة رأى الأمير رجلا أنيقا فى ملبسه زاهدا فى الدنيا عنه فسأل عنه سائق العربة الملكية التى كان يتنزه فيها الأمير بوذا فأجاب بقوله : هذا رجل ورع زاهد فى الدنيا ووصف فضائل الزهد والتقى ، وتمكنت فكرة الزهد فى قلبه ولم يعد إلى القصر بل مضى فى سبيله إلى الغابات ونال فيها العرفان .

وهذه إحدى الأساطير الواردة عن زهد بوذا ونيل العرفان . وبعد أن قضى بوذا زمنا طويلا فى التفكر فى مصير الدنيا والحياة فيها واستكمل عرفانه وتبين له أن الخلق يموت ويبعث ويتجدد فى حياته فمن صلحت دنياه صلحت أخراه ، ومن فسدت دنياه فسدت آخرته . وهكذا عزم بوذا على بث دعوته المبنية على المبادئ الجوهرية التى سبق ذكرها ، ووصفها بالطريق السرى للنجاة الأبدية .

ورفض بوذا فى خطبته الأولى التى ألقاها بين تلامذته فكرتى إرهاق النفس وإيذائها وترك الدنيا تركا كاملا .

والتشبث بملذات الدنيا وشهواتها وأهوائها ودعا إلى طريق البصيرة والمعرفة التامتين .

وبين هذه الطريقة بمبادئ ثمانية ويتجلى مما سبق أن البوذية لا تعترف بنظرية اتحاد الذات والجسد وبقاء الإنسان بعد الموت ، أو بخلود العالم ولذلك لا تبحث فى بداية العالم وكون « براهم » العلة الأولى للخلق والتطور وتختار طريقا وسطا بين الإفراط فى التمسك بالدنيا وملذاتها ، والتفريط فى هجرانها والزهد فيها .

محي الدين الألوائي

المجتمع الاشتراكى فى ظل الإسلام

للأستاذ عبد الرحيم فوده

٨ — أطيب وجوه الكسب

---

١ — سئل النبى صلى الله عليه وسلم : أى الكسب أطيب . ؟ فقال : عمل الرجل بيده . وكل بيع مبرور ، ويعنى بالمبرور من البيع ما يحصل به للبائع بر وخير ، كأن يبيع السلعة التى يمتلكها بثمن معقول مقبول يحقق له فائدة معقولة مقبولة ، ويحقق للمشترى مع ذلك مصلحته فى اقتناء السلعة والانتفاع بها ، فالكسب عن طريق البيع والتجارة حلال مشروع كما يفهم من هذا الحديث وكما يفهم من قول الله تعالى: « وأحل الله البيع وحرم الربا » وقوله سبحانه : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » .

أما العمل فهو خير وسائل الكسب كما يفهم من قول النبى صلى الله عليه وسلم : (ما أكل أحد طعاما قط خيراً من أن يأكل من عمل يده . وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده) .

٢ — غير أن العمل الذى يسوغ به الكسب وتطيب به الحياة . هو كما يفهم من القرآن الكريم « عمل الصالحات » ومعناه يسع كل ما يحقق مصلحة عامة ، أو خاصة لا تضر بمصلحة عامة ، ومن ثم قرنه الله بالإيمان وقيده بالوصف الدائم اللازم له وهو الصلاح حتى لا ينشأ عنه شر أو ضرر بالغير ، فقال تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . وقال سبحانه : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » ، فالحياة الطيبة - ومعناها يسع كل ما تطيب به النفس مرهونة بهذين الأمرين كما يفهم من هاتين الآيتين وهما الإيمان والعمل الصالح ، وقد رتب الله عليهما حسن الجزاء وحسن المآب : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » « يوم يقوم الناس لرب العالمين » .

٣ — فإذا فقد العمل ركنه الأساسى وهو الإيمان كان كما يقول الله فيه : « والذين

كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا » وكما يقول فيه « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد » فهو كما يفهم من الآية الأولى سراب يتخيله الناظر إليه ماء وهو مجرد خيال لا ينقع غلة ولا يروى ظمأ ، وهو كما يفهم من الآية الثانية رماد تعصف به الريح فإذا هو هباء طائر فى الفضاء لا ينفع صاحبه بشىء ولا يبقى لصاحبه منه شىء وقد مثل الله حال الذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى بحال الذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر وذكر أن عمله كتراب على حجر أملس يقع عليه المطر فلا يبقى منه شيئا . وذلك حيث يقول سبحانه : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا » .

فالكافر مهما يكن شأنه ومهما يكن عمله لا وزن له ولا قيمة لعمله عند الله ، وذلك بعض ما يفهم من قوله تعالى : « والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » .

٤ — لهذا كان طبيعيا ومنطقيا مع التوجيه الإسلامى الراشد أن تقاس الأعمال بالباعث عليها والدافع إليها كما يفهم من قول النبى صلى الله عليه وسلم : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) ومن ثم كان حسن النية شرطا لابد منه لصحة العبادات وصلاح الأعمال ، وكانت التقوى وتوخى الصدق والحق فى كل ما يقال سبيلا إلى صلاح الأعمال وحسن الحال والمآل كما يفهم من قول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » .

٥ — على أن طاعة الله وطاعة الرسول إنما هى استجابة للدعوة إلى الحياة الحقيقية العظيمة كما يفهم من قول الله تعالى : يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » .

فالإسلام هو الحياة بكل ما تتسع له كلمة الحياة من معانى الحركة واليقظة والعمل والقوة والعزة والكرامة ، بل إن الحياة فى نظر الإسلام هى المرحلة الوحيدة الفريدة التى يجب أن يستثمرها الإنسان بالعمل الصالح ،

ويتزود منها بما ينفعه فى الدنيا والآخرة لأنها فترة الامتحان والاختبار كما يفهم من قوله تعالى : « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » .

٦ — والمتأمل فى القرآن يجده فى كثير من الآيات يلفت نظر الإنسان إلى أن كل ما حوله مسخر له . ميسر لمصلحته . وأنه هو الذى آثره الله بالخلافة فى الأرض وفضله على كثير ممن خلق وزوده بكثير من المواهب والقوى لينتفع بها فى تعمير هذه الأرض واستثمارها ، والاستمتاع بما فيها من أقوات وخيرات وذلك بعض مايفهم من قوله تعالى: « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . وقوله سبحانه : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » ، وقوله جل شأنه : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » ، وقوله : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » . وقوله : « وفى السماء رزقكم وما توعدون » .

٧ — ثم إن كل ما نرى من مظاهر العمارة والحضارة والعلم ينطق بحكمة الله فى الإنسان إذ اصطفاه واجتباه وجعله فى الأرض خليفة ، فقد خلقه نزاعا بفطرته إلى المزيد من الطيبات فهو دائما يأمل ويعمل ويستخدم عقله فى توجيه عمله إلى الغاية التى يتحقق بها أمله وهو ما دام يحيا ويعيش يشعر بحاجات تتجدد فى نفسه وتتزايد أمام عينيه .

وهذه الحاجات تدفعه إلى العمل وتحفزه إلى النشاط ، ومن عجيب صنع الله فيه أن يكون شعوره بحاجته هو مصدر ما نرى من مظاهر قوته ، فشعوره بالحاجة إلى الغذاء والكساء والمأوى دفعه إلى استثمار الأرض وبناء البيوت والقصور ، واختراع أدوات الزراعة وآلات الصناعة ، وشعوره بالحاجة إلى السرعة فى قطع المسافات البعيدة دفعه إلى اختراع السيارات والقاطرات والطائرات ، وشعوره بالحاجة إلى قوة تصونه أو يعظم بها سلطانه دفعه إلى اختراع الأسلحة الفاتكة المهلكة ، وكل ما نرى من مظاهر المدنية ووسائل الحياة يمثل نشاط الإنسان وعمله حتى ليمكن أن يقال : إن الحياة هى العمل والعمل هو الحياة .

٨ — ولا شك أن الإسلام - وهو دين الفطرة - يدعو إلى العمل ويعد بالثواب عليه ، بل يجعل العمل هو الثمرة الطبيعية للإيمان والنتيجة الحتمية له . كما يفهم من اقترانه به فى كثير من الآيات . ومن قوله تعالى: « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من

يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » .

ولا فرق بين عمل يطلق على القائمين به اسم عمال ، وبين عمل يقوم به غيرهم من المواطنين والتجار ومديرى المصالح والشركات لأن العمل الصالح يطلق ، ويصدق على عمل هؤلاء وهؤلاء ، بل إن كلمة العمال بمعناها الطبقى المعروف فى غير بلادنا لم يكن لها وجود فى المجتمع العربى والإسلامى ، وإنما كانت على العكس من ذلك تطلق على الولاة والحكام .

٩ — والمؤمن الصادق لا يأنف من العمل مهما يكن نوعه ما دام يحقق له مصلحة أو يجد فيه خيرا . فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وهو أفضل من أقلته هذه الأرض وأظلته هذه السماء ، يرعى الغنم ويسافر للتجارة ، ويعمل مع المسلمين فى حفر الخندق فيقطع الصخور ويحمل التراب ، وكان نوح يصنع السفن ، وداود ينسج الدروع ويأكل من عمل يده وهؤلاء وغيرهم من الأنبياء هم الذين يقول الله فيهم : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » فليس الدين تواكلا وتكاسلا وسلبية وإنما هو إيمان راسخ يعمر القلب ، وعمل متصل يعمر الحياة وثقة تامة بأن الله كما يقول سبحانه : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » وقد قال صلى الله عليه وسلم : (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يحسنه) وقال تبارك وتعالى : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

عبد الرحيم فوده

لا تغلو فى دينكم

تزوج عبد الله بن عمرو بن العاص ، وكان شابا تقياً نزاعا إلى العبادة والصيام والقيام ، فذهب أبوه عمرو يسأل زوجه عن حاله معها ، فقالت فى أدب : نعم الرجل عبد الله ، لم يطأ لنا فراشا منذ جئناه ، فشكا عمرو ابنه إلى الرسول فقال له عليه الصلاة والسلام : ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل فقال : بلى يا رسول الله . فقال له : إن لزوجك عليك حقاً ، ولزورك عليك حقاً ، ولجسدك عليك حقاً ، صم صوم داود نبى الله فإنه كان أعبد الناس فقد كان يصوم يوماً ويفطر يوماً . (أو كما قال)

العقّاد: في الدّراسات اللّغويّة

للدكتور كمال بشر

---

(١) أظن أن الجانب اللغوى عند العقاد لم ينل ما نالته جوانبه الفكرية الأخرى من البحث والدراسة ؛ بل قد نضيف إلى ذلك أن هذا الجانب لم يحظ حتى الآن بدراسة واعية جادة . ومن ثم كان دورنا فى هذا المجال شاقا عنيفا . ومما يزيد فى هذه المشقة وتلك الصعوبة أمران مهمان : أولهما يتعلق بمادة البحث ، وثانيهما يتعلق بالاتجاه الفكرى العام عند الراحل الكريم نفسه .

فالمادة اللغوية التى خلفها لنا العقاد كثيرة متنوعة ، تقتضى من الدارسين أناة وصبرا بالغين . وتحتاج فى عرضها ومناقشتها إلى وقت أوسع وأفسح مما يحتمله هذا المقام . وهذه المادة - بالإضافة إلى ذلك - موزعة بين آثاره العديدة ، ومتناثرة هنا وهناك فى بطون تلك الآثار .

أما الاتجاه الفكرى عند العقاد فصعوبته توحده وتفرده ؛ فهو اتجاه أو - بالأحرى - منهج خاص بالرجل وحده ، تلمس فيه بوضوح شخصيته وعقليته ؛ شخصية قوية لا تلين فى غير حق ، ولكنها دائما تعنف فى سبيل هذا الحق . وعقلية جبارة تنفذ إلى أعماق النفوس والأشياء ، فتكشف عن أسرار لا يدرك مغزاها أو معناها المتعجلون السطحيون . ومن ثم يسمون أعماله تارة بالصعوبة والتعقيد ، وتارة أخرى بالإغراق فى تحليل الجزئيات دون النظر فى الكليات ، أو دون القيام بعملية تجريد لهذه الجزئيات ، والوصول منها إلى قضايا كلية .

كل هذه الصعوبات قد وعيناها وتدبرناها منذ شرعنا فى التفكير فى هذا الموضوع . غير أن هذه الصعوبات لم تمنعنا مطلقا من تتبع أعمال الرجل ومحاولة تقويمه من وجهة النظر اللغوية الحديثة . وأظنه ليس من الإنصاف فى حق العقاد أو فى حق نفسى على سواء أن أدعى أنى آت الآن بدراسة تفصيلية أو شبه تفصيلية لآثاره اللغوية . إن الذى أستطيعه فى هذا المقام لا يعدو أن يكون تخطيطا لدراسة أشمل ، ولا يجاوز أن يكون رسماً لإطار عام لبحث أوسع وأكثر استيعابا .

---

(١) حصل بالجزء الذى نشر من هذا المقال خطأ فى التصحيف ونعيد نشر المقال بأكمله بدلا من نشره على مرتين .

وعندنا أن قيم البحوث اللغوية تقاس بثلاثة مقاييس مجتمعة غير منفردة . هذه المقاييس هى : —

أولا : منهج البحث الذى يتبعه الباحث .

ثانياً : مجالات الدراسة .

ثالثاً : الأغراض أو الأهداف التى يرمى إليها اللغوى المعين .

أما من حيث المنهج ، فالرأى عندنا أن العقاد يتبع منهجا معينا نستطيع أن نسميه بالمنهج المعيارى - الوصفى وهو منهج يبدو متناقضا لأول وهلة ؛ إذ أن الدراسة اللغوية الوصفية تعنى أولا وآخرا بوصف الحقائق اللغوية كما هى ، دون فرض أية قاعدة أو قانون على المتكلمين . ولا يهمها بعد ذلك أن يكون كلامهم متمشيا - أو غير متمش - مع قواعد الفلسفة أو المنطق . وإلى العكس من ذلك تماما تذهب الدراسة اللغوية المعيارية ، تلك الدراسة التى تهتم قبل كل شىء بفرض مجموعة من القوانين والقواعد العامة التى يجب على المتكلم أن يتبعها فى كلامه . وأصحاب الدراسة المعيارية يصلون إلى قوانينهم وقواعدهم هذه عن طريق النظر الفلسفى أو المنطق من قياس وتحليلات فرضية ، أو تأويلات وتعليلات .

على أن الباحث المدقق لا يستطيع أن يحكم بهذا التناقض فى أعمال العقاد اللغوية ، بل لا تسمح له طبيعة البحوث ذاتها بهذا الحكم بحال من الأحوال . ذلك أن العقاد فى بحوثه اللغوية يمثل مدرستين منفصلتين وغير مختلطتين ، وقد لاحظ ذلك هو نفسه ؛ فخصص لكل حالة بحوثا وقضايا لغوية معينة ، تتمشى طبائعها وخواصها مع المنهج المعين الذى سلكه . فالعقاد - بوصفه لغويا - باحث ومعلم معاً . فهو حين يبحث ويناقش القضايا الكلية والمشكلات ذات الصفة الأكاديمية ينحو نحواً وصفيا صرفا أو يكاد ، مهملا المعيارية وتوابعها من فلسفة ومنطق . أما حين يستلزم الأمر أن يكون معلما - ومعلما من طراز القادة المصلحين والرواد المجددين - إنه حين يقف هذا الموقف يعرج على الفلسفة والمنطق قصداً إلى التحليل غير المتعجل وإلى الكشف عن أسرار الحقائق اللغوية ، كى يصل بذلك كله إلى إقناع المتعلمين أو الشاكين أو إلى إفحام المعارضين المعاندين بغير حق أو معرفة .

والعقاد فى كلا المنهجين يعد مثالا للدقة فى الشرح والتحليل والتطبيق ، وفى كلا النوعين من بحوثه يؤكد لنا عمقه وسيطرته على المادة وطرائق البحث كذلك ويتمثل الاتجاه الأول (وهو الاتجاه الوصفى) فى أعمال له كثيرة أهمها بعض ما سجله فى كتابه

« أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب » وبعض فصول كتابه الآخر « اللغة الشاعرة » أما الاتجاه المعيارى فيتضح بوجه خاص فى مناقشة المشكلات الخاصة باللغة العـــربية . والسر فى ذلك واضح ، وهو أن العقاد فى هذا المجال يريد أن يقنع المنحرفين والمتعصبين ضد اللغة العربية بالدليل المادى الواضح .

وإذا كان لنا أن نربط منهج العقاد بمناهج لغوية أخرى غربية أو شرقية ، انصرف الذهن إلى العالم اللغوى الجليل أو تويسبرسن وليسبرسن منزلة خاصته ومكانة ممتازة لا ينكرها عليه أحد من اللغويين المحدثين ذلك أن الرجـــل قد أسهم بنصيب كبير فى إرساء قواعد البحث اللغوى، وإليه يرجع الفضل فى تقريب مبادىء هذا البحث وأسسه إلى أذهان الدارسين ، على أن هناك فارقين كبيرين بين الرجلين ، أولها أن العقاد كان أسعد حظا من صاحبه فقد نجح فى عمله ولم يخلط بين منهجيه فى بحوثه، وإنما أفرد لكل منهج بحوثا من لون خاص ، أما يسبرسن فكلنا يعلم أنه لم ينج من هـذا الخلط الذى يعد من أكبر عيوبه فى الدراسات اللغوية . أما الفرق الثانى بينهما فهو أن يسبرسن لغوى فقط، أما صاحبنا فهو مفكر وباحث يضرب بفكره الكبير إلى أعماق العلوم الإنسانية كلها وعلى مستوى واحد من حيث الإجادة والدقة ، فبعد الفرق بينهما واستوى العقاد عملاقا على قـــة الفكر الإنسانى الواسع العريض ، واكتفى يسبرسن ببضاعته اللغوية التى لا تمثل إلا جانبا واحدا من جوانب الثقافة الإنسانية .

فإذا ما انتقلنا إلى المقياس الثانى من مقاييس الحكم على أعمال اللغويين (وهو مجالات الدراسة ، ألفينا العقاد يصول ويجول فى مجالات البحوث اللغوية الحديثة كلها .

لقد جرى العرف بيننا نحن اللغوين أن نقسم علم اللغة إلى الفروع التالية .

(١) علم الأصـــوات ، وهو نوعان أحدهما عام phonetics وثانيهما نسمية نحن بعلم الأصوات التنظيمى phnology .

(٢) الصرف morphology .

(٣) النحو sytax .

(٤) المعجم lexican .

(٥) السيانتيك semantics أو ما نسميه نحن بعلم المعنى [1] .

هذا بالإضافة إلى مجالات لغوية أخرى عامة ، كدراسة بعض القضايا اللغوية على

---

(١) علم المعنى يدرس معانى الكلمات والجـمل والعبارات فى الكلام الحى المنطوق على مستوى اجتماعى صرف، وهو فى ذلك يتفق مع المعجم فى شىء ويختلف عنه فى أشياء ، كما أن علم المعنى يخالف ما يسمى بعلم المعانى عند علماء العربية، فالأول أعم إذ الثانى يمثل جزءا من بحوث الأول عند بعض المدارس اللغوية ، أما عند البعض الآخـر فهما علمان مختلفان ولكل منهما مجالاته الخاصة .

مستوى تاريخى فلسفى ، وكدراسة بعضها الآخر على مستوى اجتماعى .

فإذا ما انتقلنا إلى بحوث العقاد وجدناها تمثل هذه الفروع كلها خير تمثيل ، فقد كتب فى الأصوات وموسيقى الكلام ، على نحو مما يفعله المتخصصون الآن ، وعرج آنذاك على دراسة هى فى المرحلة الوسطى بين الأصوات والمعانى ، ونقصد بذلك دراسة الأصوات وعلاقتها بمعانيها من حيث المواءمة والانسجام أو النفور والنشاز ، على شاكلة تلك الدراسة القيمة التى أبدع فيها علماء العربية القدامى كابن سنان الخفاجى وضياء الدين بن الأثير وغيرهما . ولم يقنع العقاد فى هذا كله بالدرس السطحى أو الإشارة العابرة ، وإنما عكس عقليته الجبارة على هذا المجال الصعب الدقيق .

ولم تقل بحوثه الصرفية والنحوية عن سابقتها فى العمق والقوة والوضوح والجلاء ونهج فى بعض القضايا النحوية فى اللغة العربية منهجا يشبه ما سار عليه ابن جنى المفكر العربى العريق ، من حيث فلسفة الأمور وتحليل المسائل تحليلا فلسفيا منطقيا . وفى بعض القضايا الأخرى نلمح فيه روح عبد القاهر الجرجانى من حيث الاهتمام بنظم الكلام وتأليفه .

ولم يجف قلم الراحل العظيم قبل أن يعرض كذلك لدراسة الألفاظ ومعانيها على مستوى المعجم والسيمانتيك معا . ولم يفته أن يفرق بين المنهجين وهو شىء لم يستطعه كثير من اللغويين المحدثين ، ويكفى أن نشير هنا إلى أن العقاد هو صاحب المصطلح « السيمية » الذى اختاره مجمع اللغة العربية ليكون علما على الدراسة السيمانتيكية .

أما البحوث اللغوية العامة فلم ينس العقاد — رحمه الله — أن يوليها شيئا من عنايته بالدرس والتحليل ، فكتب فى أصل اللغة الإنسانية ، وفصائلها وعلاقتها بعضها ببعض هذا من الناحية التاريخية أو التاريخية الفلسفية ، أما من الناحية الاجتماعية فقد ناقش العقاد قضية قديمة حديثة وحديثة قديمة ، وهى مشكلة الفصحى والعامية كما كتب عن الأبجدية : أصولها وتطورها ومنزلة الأبجدية العربية أو السامية بين أبجديات لغات العالم ، ولنا مع هاتين المسألتين الأخيرتين عودة بعد قليل .

أما عن المقياس الثالث وهو مقياس الأهداف التى يرمى إليها الباحثون من دراساتهم ، فليس شىء أصعب على النفس من الوصول إلى حقيقة أهداف العقاد من بحوثه دون دراسة مستفيضة لآثاره كلها اللغوية وغير اللغوية منها على سواء . ولكننا مع ذلك نستطيع أن نقف على بعض المعالم الكبرى لهذه الأهداف من أعماله اللغوية

وحدها ، إنه فى بحوثه ذات النهج المعيارى يستهدف التعليم والتثقيف اللغويين لذوى الجهالة وأشباههم ، أو الإرشاد والنصح لمن عميت بصائرهم فلم يدركوا سر ما فى العربية من قوة وعظمة ، واكتفوا بالتافه السطحى من قواعدها ، هروبا من دقائقها ولطائفها الدفينة فيها ، أما بقية أهدافه وأغراضه فى بحوثه التى ينصب الكلام فيها على اللغة العربية ومشكلاتها فتتركز فى شىء رئيسى واحد ، تلسه من قرب أو بعد فى كل هذه البحوث ، ذلك هو خدمة الثقافة العربية وعمادها اللغة .

ويتمثل ذلك بوضوح فى قضيتين خطيرتين يثيرهما بعض الناس ، عامدين مضللين أو مخدوعين واهمين . هاتان القضيتان هما مشكلة الفصحى والعامية ومشكلة الأبجدية العربية وصلاحيتها للكتابة .

لقد طلع علينا نفر ممن يدينون ببعض المذاهب العقائدية المنحرفة ينادون بوجوب استخدام العامية فى الكتابة وأغراضها الأدبية المختلفة بدلا من الفصحى ، على أساس أن الأولى لغة الشعب فيجب اتباعها ، أو لغة الفقراء فيجب تفضيلها حرصا منا على كرامتهم . ومن الطبيعى أن يعرف العقاد خبث هذه الدعوة الظالمة ، ويعلم أهداف الداعين إليها ، فيأتيهم من خلفهم ومن فوقهم ، ويكشف عن نفاقهم وخداعهم ويبين لهم فى قوة وعنف خطل هذا الرأى وضلال هذا المذهب . يقول رحمه الله : « العامية قبل كل شىء هى لغة الجهل ، وليست بلغة الفاقة أو بلغة اليسار . وبين الأغنياء كثيرون لا يحسنون الكلام بغير العامية التى لا جمال لها ولا طلاوة . وبين الفقراء من يحسنون التعبير بالفصحى أو يعبرون بالعامية تعبيراً يزينه جمالها وتبدو عليه طلاوتها .

فإذا عطفنا على العامية فإنما نعطف على الجهل ونستبقيه ونستزيده ، ولا نخفف وطأة الفقر ذرة واحدة بتغليب عبارات الجهالة على العبارات التى تصاغ بها آراء المتعلمين والمهذبين » ، ويتساءل العقاد بعد ذلك عن سر التواضع فى الكلام دون التواضع فى مظاهر الحياة الأخرى . فيقول : « إننا لم نسمع أن أحدا تواضع حبا للفقير فخلع حذاءه ليمشى حافيا أو يلبس أرخص النعال . فما بال أناس يتواضعون فيخلعون لغة المعرفة والثقافة لأنها - كما يزعمون - لغة لا يفهمها الفقراء » ؟ .

ويختتم العقاد كلامه بمثل ما أسلفنا من أن هذه الدعوة « دعوة مغرضة روجها مذهب عقائدى ملحد ، يحقد على الفصحى لحقده على كل امتياز وارتفاع ، وغرام أصحابه بكل

ما يهبط إلى مرتبة الصعاليك ، ثم هم لا ينسون أن القضاء على العربية الفصحى فيه قضاء على دين المسلمين الذى يحاربونه كما يحاربون كل دين » ، ويرى العقاد « أن تغليب لغة الجهل كارثة على الأمة العربية وعلى العقل الإنسانى ، لا تقل عن كارثة الفقر وسوء العيش ، وأن علاج مسألة الفقر لن يتوقف فى وجه من وجوهه على ترك الكلام الفصيح وتقديم الجهالة الكلامية » .

أما عن الأبجدية العربية ومدى صلاحيتها للكتابة فلم تقل حجج العقاد فى هذا الشأن عما قدمه لنا بشأن القضية السابقة ، والحق أن الدعوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية دعوة لا تقل فى خطورتها عن الدعوة إلى العامية فنى هذا المسلك البغيض مسخ لقوميتنا وضياع لشخصيتنا ، وإهدار لمكانة أمتنا بين أمم العالم ، ولا نقول هذا الكلام انسياقا وراء عاطفة أو مجاملة لمناسبة ، وإنمـا نقول نتيجة لدراسة علمية أعانناها وسجلناها أكثر من مرة منذ زمن طويل .

وينبغى أن يعلم أصحاب هذه الأساطير أن هاتين الدعوتين تنبعان كلتاهما من مصدر واحد منحرف وتستهدف هدفا واحدا ، هو بلبلة الخواطر وإثارة الشكوك فى تراثنا والعودة بنا إلى الفوضى التى يغرمون بالعيش فيها ، حيث تتاح لهم فرصة الكسب الحرام والانتهازية .

تلك صورة مجملة لخطط على قصدنا به إلى تحديد المكانة اللغوية للرجل ، وإلى إلقاء الضوء على جوانب التفكير اللغوى عنده ، ونأمل أن تكون لنا عودة إلى شىء من التفصيل لما أوجزناه وأجملناه هنا فى المستقبل القريب بإذن الله .

دكتور كمال بشر
أستاذ علم اللغة المساعد بكلية دار العلوم

التيسير فى تعليم الشريعة

قال الإمام الشاطبى : إن تعليم الشريعة وبيان أمور الدين يجب أن يكون بما يليق بجمهور الناس دون اللجوء إلى التعمقات الفلسفية العويصة . فإذا قيل : ما الملَك ؟ قيل : خلق من خلق الله يتصرف بأمره ، أو معنى الكوكب ؟ قيل : هذا الذى نشاهده بالليل ، وعلى هذا وقع البيان فى الشريعة ، كما قال عليه السلام : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » ، ففسره بلازمه الظاهر لكل أحد . . . . .

(مقدمة كتاب الموافقات)

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

للأستاذ عبد الله كنون

من الشعارات الإسلامية الخالدة التى نادى بها الكتاب ورددتها السنة وتلقتها الأمة بالقبول ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ولقد كان هذا الشعار وما يزال عنوان الديمقراطية الحق التى جاء بها الإسلام ، ومعيار سلامة المجتمع من الآفات والعلل التى أريد له بمقتضى تعاليم الدين الحنيف أن يتجنبها ولا يقع فيها .

أما كونه عنوانا للديمقراطية الحق فلأنه أشرك الأمة فى الحكم بفرض رقابتها على الجهاز الحاكم وتخويلها حق الاعتراض على كل ما يخالف السياسة الشرعية وما ليس فيه مصلحة للعموم . وأما كونه معياراً للمجتمع السليم فلكون القيام عليه والعمل به يسد كل منفذ لتسرب المفسدين وانطلاق الأشرار إلى العبث بالأخلاق وتجاوز الحدود . وإن أمثل عصور تاريخنا وأمجدها وأعظمها ، لهى تلك التى كانت فيها راية هذا الشعار مرفوعة باليمين ، والحكومة وأهل الحفظ من الأمة ساهرون على إقامة الشعائر ونفوذ الشرائع ، وعـــدم انتهاك الحرم والإخلال بالآداب العامة . وبالعكس من ذلك نجد العهود التى انتكست فيها راية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، هى العهود التى ساد فيها الظلم والظلام ، ومرج أمر الأمة ، ولم تأت من الأعمال ما يرفع لها رأساً أو يعود عليها بنفع .

ولا نلقى صعوبة فى أخذ هذا المعنى من قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » . فقد أمرنا الله تعالى فى هذه الآية الكريمة أن نكون ، نحن المسلمين كافة ، أمة تدعو إلى الخير ، والخير اسم جامع لكل الفضائل بحيث يصح القول أن جميع القيم العليا تندرج تحته . وبالضرورة إننا لا ندعو إليه حتى نتصف به وذلك هو سر قرانه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فمدلول هذا الخطاب أننا بعد الاتصاف بالخير والدعوة إليه ، نقف بالمرصاد لكل من حاد عن

سبيله ولم ينته إلى معالمه ، نأمره وننهاه ، لكى يستوى على الصراط المستقيم . فإذا فعلنا ذلك كنا من المفلحين ، لأن الآية الكريمة حكمت لمن كان على هذه الصفة بالفلاح وهو فلاح عام فى الدين والدنيا ، بدليل أنها أعقبته بأمرين ، أحدهما : بما يقع فى الحياة الأولى وهو اختلاف الأمة وافتراق كلمتها عند تفريطها فى هذا الواجب الأكيد . وثانيهما : بما يقع فى الآخرة وهو العذاب العظيم لمن ضيع الأمر والنهى ولم يعمل بما كلف به من ذلك . فلا تستقيم أحوال الأمة ويكتب لها النجاح والفلاح إلا بامتثال أمر الله عز وجل ، والوقوف عند حدوده وعدم غض الطرف عن البدع والأهواء التى تنتشر فيها فتقودها إلى الهلاك والخسران .

ويؤيد ما ذكرناه أن الله تعالى خاطبنا فى الآية التى تأتى بعد هذه مباشرة ، بقوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » ، فجعل سبب الخيرية هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع الإيمان . وبذلك يعلم أن الأمة إذا تقاعدت عن هذا الوظيف لم تبق مستحقة لذلك الوصف ولو مع إيمانها ؛ لأن رسالة الإسلام ليست هى الإيمان المجرد بل العمل والتبليغ ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « بلغوا عنى ولو آية » . والمجتمع الإسلامى يجب أن يكون قدوة ومثالا فى حسن الأخلاق وصدق المعاملة ليكون دليلا على سمو هذا الدين ويقوم من سلوك أهله داعية إليه ، كما كان عليه الحال فى الصدر الأول ، فدخل الناس فى الإسلام أفواجا ، ولا يتحقق ذلك إلا بالرقابة الصارمة على سلامة هذا المجتمع التى هى المقصود من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فإن بطل ذلك لم يبق وجه للخيرية لأنها ليست ذاتية ، وإنما هى حكم يدور مع علته وجوداً وعدما .

ونلتفت إلى الحديث الشريف الذى إنما هو وحى يوحى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليبين للناس ما أنزل إليهم من الكتاب العزيز ، فنرى أنه يسير مع مضامين هذه الآيات الكريمة جنبا لجنب ، ويؤكد ما اشتملت عليه من حكم وأحكام يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم) . والتفسير الواقعى لهذا الحديث الذى ليست فيه شائبة ميتافزيقية ، هو أن الأمة مدعوة إلى القيام بهذا الواجب لضمان سلامتها من عوامل الانحلال وأسباب الاضمحلال ، فإن ضيعته فإن الأمراض

الاجتماعية ستستشرى فيها بسيطرة الأشرار عليها وتوجهها إلى المصير المظلم الذى تتردى فيه فلا تقوم لها قائمة ، ولا تنفعها بعد دعوة ولا دعاء . وهذا أمر مشاهد - مع الأسف - لا يمترى فيه أحد . وهو معقول المعنى إذ أن السكوت عن المنكرات ، بله تشجيعها ، بحجة احترام الحرية الشخصية ، قد أدى شيئاً فشيئاً إلى انتشارها بكيفية فظيعة حتى طغت على السنن المعروفة ، وقامت لها دولة وسلطان ، فلا يقدر أحد الآن أن يغيرها . والذى يدعو إلى ذلك يصير هزواً وسخرية بين الناس .

ولعل قائلا يقول كيف جعلتم الأمة كلها مخاطبة بهذا الأمر ، والآية إنما تقول : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » . وهلا ترون أن ذلك موقع فى الفوضى موجب لاختلال النظام ؟.

ونحن نجيب أن الآية جاءت على أسلوب التجريد ، وهو أبلغ فى الخطاب . والمعنى : اجعلوا منكم أمة هذه صفاتها . وقال كثير من المفسرين إن من فى قوله « ولتكن منكم » للبيان ، بمعنى كونوا أمة تأمرون . ألا ترى أنه تعالى قال فى الآية بعدها « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون » ولو جعلناها للتبعيض كما قد يتوهم ، وحكمنا بأن الأمر والنهى فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط الطلب عن الباقين ، لكان ذلك موقعا فى الحرج الدائم ، لأن المنكرات لا تفتأ تنبعث من كل مكان ، فى كل زمان ، وإذا لم تبادر الأمة بتغييرها وانتظرت حتى ينبرى لذلك من يتعين عليه ، انتشرت انتشاراً عظيما وأثمت الأمة كلها بسبب التفريط ، لا سيما إذا انعدم المحتسب الذى كانت الحكومة تقيمه مقام النائب عنها فى هذا الصدد ، كما هو الحال اليوم ، فصارت بلاد الإسلام مسرحا لارتكاب أنواع الفجور واقتراف ضروب الآثام .

وأما أن خطاب الأمة على سبيل العموم بهذا الواجب يوقع فى الفوضى ويوجب اختلال النظام ، فالجواب عنه أن الشارع الحكيم بين لكل طائفة من الأمة ما يجب عليها من ذلك ، وألزمها القيام به على سبيل الفرض والتعيين ، فقال كما فى الحديث المشهور : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان) . قال العلماء التغيير باليد لولاة الأمر ، وباللسان للعلماء ، وبالقلب لعامة الناس . وإنما اضطر العلماء إلى هذا التفصيل ، لما عم الجهل وكثر تجاوز الحدود من العامة وبعض الولاة . فانتظم بذلك الأمر ووقف كل عند ما حد له .

وهذا الحديث هو أيضاً مما يدل على أن الخطاب بهذا الواجب يتوجه إلى الأمة جمعاء ، ولا يخص طائفة منها دون طائفة . وتقييد العلماء له بما ذكر هو مما تقتضيه الأصول ، ولا تأباه النصوص . فإنهم يتفقون على أن المنكر الذى يجب تغييره هو ما علم من الشرع أنه منكر ، وكان تغييره لا يؤدى إلى منكر أشد منه . ومن ثم ورد الأمر بالسمع والطاعة للأئمة : (فإن عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم) . وهذا أمر لا يحققه إلا العلماء فإن قام غيرهم بالإنكار ربما وقع فى محظور عظيم كمن قتل شخصاً من أجل شربه للخمر ، وكالعامة الذين أنكروا على سيدنا عثمان رضى الله عنه أموراً لا تستوجب القتل وفتح باب الفتنة الذى لم يغلق منذ أن فتح . وهكذا فإن الواجب على العموم إذا رأوا منكراً مما لا خفاء به ، أن يرفعوه إلى الوالى وأن يقفوا فى ذلك موقف الجد والصلابة حتى يغيره ، فإن تهاونوا وقعوا فى الإثم الذى لا خلاص منه . وإن كان المنكر مما يخفى أمره ، فعليهم الرفع إلى العلماء ليبينوا حكم الله فيه . على أن العلماء يجب عليهم أن يكونوا بالمرصاد لكل المحدثات والبدع التى تخالف الدين ، فيبادروا بإنكارها وينبهوا الأمة على ما فيها من الضرر لتتجنبها . وعليهم أن يكونوا لسان الأمة الناطق ، والحارس الأمين على تعليم الدين . فيبلغوا إلى الولاة ما لم يبلغهم من الظلم والحيف الذى يقع على ضعفاء المسلمين ، ويطالبوهم بتغيير المنكر والضرب على أيدى المفسدين .

والولاة مطالبون حينئذ بإنصاف المظلوم وإحقاق الحق ونصرة الدين : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

وها هنا أمران لا بد من التنبيه عليهما .

الأول : هو أن بعض الناس يقولون المهم هو أن تستقيم أنت ولا عليك فى الغير ويستدلون بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ، وهذا هو ما يعبر عنه بعضهم بقوله : ليكنس كل واحد فناء داره كى تعم النظافة . ولكننا انتظرنا كثيراً فكانت النتيجة هى أن هناك من يحمل الأزبال ويضعها فى الأفنية المكنوسة . ولقد أثيرت هذه الشبهة فى الصدر الأول ، وأجاب عنها الصديق رضى الله عنه بالحديث الذى أخرجه الترمذى وغيره عن أئمة السنة عن قيس بن حازم قال قام أبو بكر خطيباً لحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم

تقرءون هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » وإنكم تضعونها فى غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه » .

والأمر الثانى هو ما شاع وذاع على ألسنة من يكبرهم الناس يصغون إليهم ، من أنه إذا وقع خلاف فى أمر ما يهم الأمة ويتوقف عليه مصيرها ، يجب رده إلى الشعب ليقول رأيه فيه . وهذا أيضاً من أعظم المنكر الذى يجب تغييره وعدم السكوت عليه ، وإلا أدى إلى ضياع الدين والوقوع فى المفاسد التى لا إفاقة منها أبداً . والله سبحانه وتعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » . والرد إلى الله والرسول يكون بالرجوع إلى كتاب الله العزيز وسنة نبيه المطهرة ، وهما بين أظهرنا - والحمد لله - قائمان حاكمان بالعدل والقسط ... فالإعراض عنهما والتماس الهدى من غيرهما ضلال مبين ، وزيغ عن الصراط المستقيم . كيف والشعب ما هو إلا مجموعة من الناس يخطئون كثيراً ولا يصيبون إلا قليلا ، ويتبعون الهوى ، وتتلاعب بهم القيادات المنحرفة . ولا كذلك الدستور السماوى المحفوظ بحفظ الله : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

وإنما سرى هذا الرأى القاتل إلى الأمة الإسلامية من إيغالها فى التقليد ، وترك ما عندها من الهدى والنور إلى المذاهب والنظم الأجنبية التى شتت شملنا وفرقت كلمتنا . ولا والله لا نعود إلى ما كنا عليه من مجد وسؤدد إلا إذا تمسكنا بديننا وجعلناه ، هو الحكم فى مشاكلنا . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ؟

عبد الله كنون
عضو مجمع البحوث الإسلامية
وأمين عام رابطة علماء المغرب

قال أبو تمام فى الحكمة :

وما لى عزاء عن شبابى علمته
سوى أننى من بعده لا أخلد

رسالة المسجد فى نشر الثقافة والحضارة

للأستاذ أحمد الشرباصى

— ٤ —

علوم وفنون :

هناك كثير من الناس يظنون أن التعليم فى المساجد اقتصر على العلوم الدينية ، وهذا غير صحيح ، فقد كان يتردد بين جنبات المساجد فى المشرق والمغـــرب أصوات المثقفين والمدرسين فى شتى العلوم والفنون ، فهذا مسجد الأنبار مثلا كان فيه مجلس للإمام « نفطويه » فى تدريس علوم العربية ، وهذا جامع قرطبة كانت تدرس فيه — كما يذكر المقرى صاحب نفح الطيب — علوم اللغة والنحو ، وفى مساجد البصرة والكوفة ازدهر علم النحو كما نعرف ، وكان هناك مثلا الخليل ابن أحمد الفراهيدى النحوى العروضى الموسيقى مدخل الحركات بدل النقط على الكلمات ، وكان يدرس فى مسجد البصرة ، وكان سيبويه إمام النحو تلميذا له هناك .

والكميت وحماد الراوية كانا يجتمعان فى مسجد الكوفة لتذاكر الأشعار وأيام العرب والمحاورة فى ذلك والمناقشة حوله ، ومسلم ابن الوليد كان يملى شعره فى مسجد البصرة ، وقد استمع إليه أبو نواس .

بل كان الطب وعلم الميقات يدرسان فى جامع ابن طولون بالقاهرة ، كما روى ذلك جلال الدين السيوطى فى كتاب « حسن المحاضرة » ويروى البغدادى أن الأزهر الشريف كانت تلقى فيه دروس فى الطب ، وقد نقل ذلك ابن أبى أصيبعة فى كتاب « عيون الأنباء » .
وكان منصور البهادرى المتوفى سنة أربع وعشرين وثمانمائة يعقد مجلسا لتدريس الطب بالمسجد الطولونى ، وعبد اللطيف البغدادى حضر إلى مصر فى أوائل سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، ويحدثنا عن نفسه أنه فى الفترة التى قضاها بمصر كان يدرس الطب وغيره بالجامع الأزهر الشريف من أول النهار إلى نحو الساعة الرابعة ووسط النهار ، حتى إذا جاء الليل حضر للإقراء قوم آخرون وذهب هو للقراءة والمطالعة مع نفسه . وكان محمد ابن عبدالله المصرى المتوفى سنة ثنتين وسبعين وسبعمائة أستاذا للطب بجامع ابن طولون كما جاء ذلك فى كتاب « الدرر الكامنة » لابن حجر العسقلانى .

وفى سنة ١٨٦٤ م أصدرت مشيخة الأزهر الشريف بيانا عن العلوم التى تدرس فيه ، فكان من بينها الحكمة الفلسفية ، والحساب ، والجبر ، والمقابلة ، والفلك ، والهيئة ، والهندسة ، والموسيقى !.

وهذا مثلا هو الشيخ عبدالمنعم الدمنهورى الذى كان أحد شيوخ الجامع الأزهر الشريف وتوفى سنة ١١٩٢ هـ، نطالع إجازته العلمية فنجد أنه قد تلقى فى الأزهر الشريف علوما كثيرة، وصارله فيها مؤلفات كثيرة، ومن هذه العلوم: الحساب والميقات والجبر وأسباب الأمراض والأعمال الرصدية وعلوم الحيوان والنبات والمعادن، وعلم المنحرفات، والهندسة والهيئة والزيج، وعلم الارتماطيقى. وعلم المزاول، وعلم استنباط المياه، وعلاج البواسير، وعلم التشريح، وعلاج لسع العقرب ... إلخ.

وكان العروض يدرس فى المساجد، ودراسة هذا العلم تستتبع دراسة الشعر أو إنشاده، ولقد روى الأصفهانى فى «محاضرات الأدباء» أن أعرابيا من البادية دخل مسجد البصرة، فرأى فيه حلقة من الأدباء يتذاكرون الأشعار والأخبار، فاستطاب كلامهم، فجلس إليهم وسمع منهم، ثم أخذوا بعد ذلك فى دراسة العروض وترديد التفاعيل وذكر بحور الشعر، فحسب الأعرابى أن هذه رموز فيما بينهم، وأنهم قد يأتمرون به، فخاف على نفسه، وبادر إلى الخروج من المسجد وهو يقول:

قد كان أخذهم فى الشعر يعجبنى
حتى تعاطوا كلام الزنج والروم
لما سمعت كلاما لست أعرفه
كأنه زجل الغربان والبوم
وليت منفلتا والله يعصمنى
من التقحم فى تلك الجرائم!

كما يروى التاريخ أن النيل المبارك كان فيما مضى يمر قريبا من جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط، وكان الصعود إلى سطح المسجد متعة فى ليالى الصيف، ولذلك كان العلماء والأدباء والشعراء يعقدون فى هذه الليالى ندوات علمية وأدبية فوق سطح الجامع، وتدور بينهم مناقشات ومحاورات ومعارضات شعرية، ومن أمثلة ذلك أن الشاعرين ابن المنجم وابن قلاقس جلسا على السطح يوما وقد غربت الشمس، وظهر عقبها هلال وليد، فأراد كل منهما أن يصور هذا المنظر بلغة الشعر، فقال ابن المنجم:

وعشاء كأنما الأفق فيه
لازورد مرصع بنضار
قلت لما دنت لمغربها الشمس
ولاح الهلال للنظار:
أقرض الشرق ضوء الغرب دينا
را، فأعطاه الزمان نصف سوار

وقال ابن قلاقس:

لا تظن الظلام قد أخذ الشمس
وأعطى النهار هذا الهلالا
إنما الشرق أقرض الغرب دينا
را، فأعطاه رهنه خلخالا

ولم تتسع ساحة المسجد الثقافية للشعر فى العصور المتأخرة فقط، بل اتسعت له فى صدر

الإسلام أيضا ، فقد سمع الرسول عليه الصلاة والسلام من شعر حسان وهو فى المسجد ، وكان حبر الأمة وعالمها عبد الله بن عباس ينشد الشعر فى المسجد ويستمع إليه ، ولقد دخل عمر بن أبى ربيعة المسجد يوما فأقبل عليه ابن عباس فيه يستنشده شعراً ، فأنشد ابن أبى ربيعة قصيدته التى أولها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر
غداة غد أم رائح فمهجر

فلما أتمها التفت نافع بن الأزرق إلى ابن عباس يقول له : الله يا ابن عباس ، إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد ، نسألك عن الحلال والحرام ، فتتثاقل عنا ، ويأتيك غلام مترف ، فينشدك :

رأت رجلا ، أما إذا الشمس عارضت
فيخزى ، وأما بالعشى فيخسر

فقال له ابن عباس مصححا : ليس هكذا قال ، إنما قال :

رأت رجلا ، أما إذا الشمس عارضت
فيخزى ، وأما بالعشى فيخصر

ولما تعجب ابن الأزرق من يقظة ابن عباس أسمعه ابن عباس القصيدة كلها من حفظه . وعاد ابن عباس إلى ابن أبى ربيعة يستزيده من شعره ، فأنشد عمر :

« تشط غدا دار جيراننا » . وسكت ، فقال ابن عباس : « وللدار بعد غد أبعد » . فقال عمر : كذلك قلت أصلحك الله ، أفسمعته ؟ قال ابن عباس : لا ولكن كذلك ينبغى .

وهذا نوفل ابن مساحق يقبل على سعيد ابن المسيب وهو فى مسجد الرسول فيسلم ويرد سعيد التحية ويقول : يا أبا سعيد : من أشعر : صاحبنا أم صاحبكم ؟ يريد عبد الله بن قيس وعمر بن أبى ربيعة فيسأله نوفل : حين يقولان ماذا يا أبا محمد ؟ . فقال له : حين يقول صاحبنا عمر :

خليلى ما بال المطايا كأنما
نراها على الأدبار بالقوم تنكص
وقد قطعت أعناقهن صبابة
فأنفسنا مما يلاقين شخص
وقد أتعب الحادى سراهن وانتحى
بهن ، فما يألو عجول مقلص
يزدن بنا قربا ، فيزداد شوقنا
إذا زاد طول العهد والبعد ينقص

ثم قال وحين يقول صاحبكم ما تشاء :

فقال له نوفل : صاحبكم أشعر فى الغزل ، وصاحبنا أفانين شعر ، قال سعيد : صدقت .

ثم أخذ سعيد يستغفر الله ويعقد بيده حتى أتم المائة . فقال قائل لنوفل ، أتراه استغفر من إنشاد الشعر فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فأجاب نوفل : كلا ، بل هو كثير الإنشاد والاستنشاد للشعر فيه ، ولكن أحسب ذلك للفخر بصاحبه .

ولقد كان اتساع نطاق العلوم المدروسة فى المساجد يخضع للحاجة والظروف ومطالب

المجتمع ، فنحن نرى مثلا أن نطاق المسجد الثقافى بدأ يتسع منذ طليعة القرن الثانى الهجرى ، لأن أسبابا طرأت على المجتمع ، فدعت إلى هذا التوسع الثقافى والعلمى ، فاللغة العربية الفصحى عرض لها مثلا اللحن والخطأ ، بسبب الاختلاط بين العرب والعجم ، فعنى المسجد بتقويم اللغة وتصفيتها وبيان قواعدها وضوابطها ، فجاءت من وراء ذلك علوم اللغة والنحو والصرف .

والعقيدة تطاول عليها مشككون ومعترضون فعنى المسجد بالدفاع عنها وتوطيد قواعدها ومبادئها وأصولها ، فجاءت من وراء ذلك علوم التوحيد والتفسير والفقه والحديث .

وعادات الجاهلية كالعصبية والطائفية والحمية حاولت العودة والسيطرة على المجتمع ، فعنى المسجد بمقاومتها ، كما عنى بالدعوة إلى عادات الإسلام وآدابه وأخلاقه لتكون حاجزا عاصما من هذه النزعة الجاهلية .

وهكذا أخذت العلوم تزيد بازدياد حاجات المجتمع ومطالبه وظروفه التى تقتضى هذا الازدياد .

ولقد جاء فى كتاب « تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى » تحت عنوان « ازدهار التعليم بالمساجد » هذه العبارة :

يمكننا أن نعتبر الفترة الواقعة فيما بين مطالع القرن الثانى الهجرى حتى نهاية القرن الثالث على وجه التقريب أزهى عصور التعليم المسجدى أو الجامعات العامة ، فقد كان لما وصل إليه المسلمون من الرقى الفكرى فى هذه الحقبة من تاريخ الإسلام فى شتى نواحى الفكر ، وما صاروا إليه من التقدم الاقتصادى والاجتماعى والعمرانى بعد الانقلاب العباسى أثر كبير فى إذكاء وتنشيط الحركة التعليمية بالمساجد .

وإن نظرة فاحصة إلى حلقات العلم فى المساجد الكبرى المشهورة فى ذلك الوقت ، وتلك المجموعات الممتازة من رجال الفكر الإسلامى المتصدرين للتعلم بها لكفيلة ببيان مدى ما اتصفت به حركة التعليم إذ ذاك من النشاط والحيوية والإنتاج الممتاز . ففى المسجد النبوى بالمدينة إمام دار الهجرة مالك ابن أنس الأصبحى صاحب (الموطأ) ، ومؤسس المذهب (٩٥ — ١٧٩ هـ) .

وفى جامع الفسطاط عالم قريش أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعى تلميذ مالك وصاحب المذهب المعروف باسمه (١٥٠ — ٢٠٤ هـ) . وفى الكوفة ثم بغداد أبو حنيفة النعمان ابن ثابت (ت ١٥٠ هـ) امام أهل القياس فى الفقه . وفى بغداد شيخ السنة الإمام الجليل أحمد بن حنبل الشيبانى (١٦٤ — ٢٤١ هـ) .

ومن رجال الحديث إمام المحدثين إسحاق بن راهويه أول من جرد كتب الحديث من مسائل الفقه والتفسير ، وكانت قبل ممزوجة ،

وتوفى سنة ٢٣٨ هـ ، وتلميذه الإمام محمد ابن إسماعيل البخارى صاحب « الجامع الصحيح » ، جمع فيه الأحاديث الصحيحة فقط (١٩٤ – ٢٥٩هـ) ، وتلميذه مسلم بن الحجاج النيسابورى صاحب ثانى الصحيحين ، وتوفى بنيسابور سنة ٢٦١ هـ .

والإمام أبو عيسى الترمذى صاحب الجامع فى الحديث (ت ٢٧٨ هـ) ، والإمام أبو داود سليمان الأشعث السجستانى صاحب (السنن) المنسوبة إليه (ت ٢٧٥ هـ) ، والإمام النسائى صاحب (السنن) أيضـــا ، توفى بالرملة سنة ٣٠٣ هـ . والإمام محمد بن يزيد بن ماجة (ت ٢١٣ هـ) ، وكلهم كما نرى من أهل القرنين الثانى والثالث .

وفى اللغة والنحو الخليل بن أحمد الفراهيدى واضع علم العروض وفن المعاجم فى العربية ، بقى طوال حياته بالبصرة متزهدا متعففا حتى مات بها سنة ١٧٤هـ . وتلميذه سيبويه الفارسى الأصل الذى تصدر للتعليم بعد وفاة شيخه الخليل ، فكان إمام البصريين فى النحو ، وتوفى سنة ١٨٠ هـ .

وفى الأدب سيد كتاب العربية أبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) وهو غنى بشهرته عن التعريف ، وكان من أهل البصرة والمقيمين بها .

وهناك غير هؤلاء كثيرون ، وكلهم امتازوا بالنبوغ والتفوق ، وخدمة العلم والتعليم ، ولكنا لم نذكرهم اكتفاء بمن قدمنا ، إذ غايتنا من ذكرنا التمثيل لا الإحصاء . وفى هذا بلاغ » .

ونستطيع أن نقول إن المساجـــد قد أسهمت بطريق غير مباشر فى تعليم اللغات ، فقد تحدث الجاحظ عن « القصاص » فى المساجد ، وذكر فيما ذكر أن موسى الأسوارى كان رجلا فصيحا بارعا فى العربية والفارسية ، وكان يعقد مجلسه المشهور فى مسجد البصرة ، ويقعد العرب عن يمينه ، ويقعد الفرس عن يساره ، ثم يقرأ موسى الآية من القرآن الكريم ، ويفسرها أولا بالعربية للعرب متجها إليهم ، ثم يتحول جهة الفرس ويفسر الآية نفسها بالفارسية ، فلا يدرى بأى لسان هو أبين ، وكان موسى حافظا للسير ، يقص فى فنون كثيرة من القصص ، ويجعل للقرآن الكريم نصيبا من ذلك .

ولا شك أن تكرار الكلمات العربية فى هذا المجلس على أسماع الفرس كان يجعلهم يلتقطون منها بعض الأيام ومرور الزمن ، فيقربهم هـذا من تعلم العربية ويصلهم بها ، ونستطيع أن نقول مثل هـذا عن العرب بالنسبة إلى اللغة الفارسية التى تتكرر ألفاظها على مسامع هؤلاء العرب .

وهم فى مجلس موسى الأسوارى ! .

أحمد الشرباصى

الملاحم والمطولات الإسلامية في الشعر العربي

للدكتور سعد الدين الجيزاوي

— ٦ —

لقد ظهرت ملاحم شعرية بعد محرم ، بعضها في نفس الاتجاه الذي سار فيه تسجل السيرة النبوية الكريمة ، وبعضها في اتجاهات أخرى ، منها ذات الصبغة الدينية ، ومنها ذات الصبغة التاريخية أو الاجتماعية ...

ومن هذه الملاحم :

ملحمة « أمير الأنبياء » :

للأستاذ عامر محمد بحيرى [1] ، وقد أنشأها عام ١٩٥٢ وهي تتألف من مائتين وألف بيت ، تتضمن حياة النبي عليه الصلاة والسلام من مولده ، إلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، وقد قسمها خمسة فصول :

الأول : عن الميلاد النبوي الكريم وما سبقه من مقدمات ، ثم نشأة النبي الكريم وما تقدم النبوة من إرهاصات .

الثاني : في نزول الوحي ، وإعلان الدعوة ، وما لقيه الرسول الكريم في ذلك من عناء ، ثم الإسراء والمعراج ، وشق القمر .

الثالث : في الهجرة وأحداثها .

الرابع : في جهاد النبي صلى الله عليه وسلم ، وغزواته .

الخامس . في حياته عليه الصلاة والسلام بالمدينة بعد الفتح ، ثم الوفود وحجة الوداع ثم مرض الرسول الكريم ، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى . وقد سار في نسج الملحمة جميعها على بحر واحد هو « الوافر » ، ولكن على قواف عديدة إذ جعل لكل عشرة أبيات رويا واحداً ، وقد يتكرر هذا الروي في عشرة أبيات أخرى مرة أو عدة مرات لأنه جعل ملحمته مقسمة عشرة عشرة من الأبيات .

وأعرض هنا بعض نماذج من هذه الملحمة لنرى كيف عالج الشاعر هذا الموضوع الدقيق بأسلوب الشعر .

قال في الفصل الثاني يصف بدء إعلان الدعوة ، وموقف قريش منها :

فقام على الصفا بين الصحاب ... ليدعوهم بآيات الكتاب

وجاءته القبائل مسرعات ... لتسمع عنده فصل الخطاب

فقال : « أئن ذكرت بأن خيلا ... بهذا السفح موشكة اقتراب

---

(١) مطبعة العلوم نشر مكتبة وهبة . الطبعة الأولى مايو سنة ١٩٠٤ — والأستاذ عامر محمد بحيرى شاعر معاصر وهو الآن رئيس قسم مراجعة التراث القديم بوزارة الثقافة والإرشاد .

أكنتم فى الحديث تصدقونى ؟ »
فقالوا : « لست معهود الكذاب »
فقال : « فإنى لكم نذير
مبين القول بين يدى عذاب
أجيبونى إلى التوحيد صدقا
ضمنت لخيركم يوم النصاب »
فقال له أبو لهب : « فتبا
لما تدعو به كل التباب »
فناوأ ، وسار القوم عنه
ولم يعطوه صالحة الجــواب
وأغروا ساقط الشعراء منهم
فجاءوا بالهجاء وبالسباب
فكان صنيعهم هذا نذيراً
بتجريد الأسنة والحراب

ونراه هنا يصور الموقف مع المحافظة التامة على المعانى بل على أكثر الألفاظ .

وهو فى العــرض التاريخى لم يستقص كل الدقائق كما فعل محرم مثلا فى الغزوات لم يذكر غير : بدر ، وأحد ، والخندق ، وفتح مكة ، وتناول بدراً فى ستين بيتاً فى حين أن « محرم » تناولها فى ثلاثة وخمسين ومائتى بيت فى تفصيل واف ، والأستاذ بحيرى قد لخصها تلخيصا جمع كل النقط تقريباً ولكن دون تفصيل ...

وهذا وصفه لقتلى القليب :

وقد سار النبى لهم بليل
فنادى القوم من خلف الكثيب :
بأن الله بلغنا الأمانى
ولم يك ذاك بالأمر العجيب
وأيدنا وأظهرنا عليكم
ظهور الحق للفطن اللبيب
هى الفئة القليلة قد حباها
بتأييد على العدد الرهيب
لتشهد هذه الدنيا جميعا
بنصر الله والفتح القريب
وجدنا وعده حقا ، فماذا
وجدتم منه يا أهل القليب ؟ ؟

وعند ما ننظر إلى هذه الملحمة من حيث موضوعها ، وطريقة عرضه نجد أن الشاعر قد أدى رسالة عظيمة للإسلام وتاريخ الإسلام ، وللشعر العربى ، إذ يسر تناول السيرة النبوية فى شعر سهل ، ووزن خفيف وأسلوب بعيد عن التعقيد .

ولا يضير الشاعر أن يضمن بعض أبياته تعبيرات مأثورة بل إن ذلك يعد براعة فنية بالنسبة لطبيعة الموضوع .

فشوقى فعل ذلك فى أرجوزة العرب الكبرى ، ومحرم فعل ذلك فى الإلياذة ، وبحيرى فعل ذلك أيضاً ، وينبغى أن نفرق بين الشعر الذى يطرق موضوعات معينة تضطر الشاعر إلى المحافظة على الهيكل التاريخى والمعلومات الخاصة ، ثم البعد عن الجنوح بالخيال جنوحا يمس العقائد ... وبين الموضوعات العامة التى يمكن أن يطلق فيها الخيال.

ومن الغريب أن النقاد (١) الذين تناولوا

---

(١) فى كتاب « محمد » فى الأدب المعاصر للأستاذ فاروق خورشيد والدكتور أحمد كمال زكى .

هذه الإلياذة بالتعليق قد ساروا فى نفس الاتجاه الذى سار فيه الدكتور شوقى ضيف[1] عند ما نقد إلياذة محرم .

فإن إلياذة بحيرى لا تدانى « صنيع هوميروس فى إلياذته ، لقد كان هوميروس يجعل آلهة الأوليمب تحارب فى صفوف الطرواديين ، ثم تنتقل إلى عون أعدائهم ، وبين تقلاتهم من هنا إلى هناك معارك رهيبة ومشاهد عجيبة ، وإثارات ومخاطرات ، ومفاجئات تثير الدهش وتمسك الأنفاس » .

يا سبحان الله !! هل كان الناقد يرجو أن يتخيل الأستاذ بحيرى أن الملائكة كانت فى غزوة بدر تقف إلى جانب المسلمين ، ثم إلى جانب الكفار أو أن الملائكة تقف إلى جانب المسلمين والشياطين تقف إلى جانب الكفار مثلا ؟ أو أن يقول إن الصراع كان بين إله الخير وإله الشر ، وتغلب أعوان إله الخير ؟ هذا مستحيل !!

وهل حقيقة أن من يقرأ إلياذة بحيرى يحس أنها « قد استحالت بين يديه إلى جمل نثرية مضغوطة ... معقدة ؟ » .

(١) لم ينقد الدكتور ضيف هذه الملحمة لأنها صدرت بعد كتابه « دراسات فى الأدب المعاصر » ولكن الغريب أن المنهج الذى نقد عليه إلياذة محرم هو نفس منهج النقد الذى سار عليه الدكتور أحمد كمال فى كتاب محمد فى الأدب المعاصر . من حيث اعتبار إلياذة هوميروس هى الميزان الذى يجب أن يقاس عليه وحسب .

ربما كان من العسير حقا أن نرفع هذه الملحمة وأمثالها إلى مرتبة الشعر الرفيع ، لا لأن الشعراء يعجزون عن ذلك ، ولكن تمشيا مع طبيعة الموضوع ، ولكن نعتقد أن ذلك لا ينزل هذا الشعر « إلى مجرد نظم أو شعر تعليمى » كما يقول الدكتور ضيف عن إلياذة محرم ولا إلى « جمل نثرية معقدة » كما يقول الدكتور أحمد كمال عن إلياذة عامر ولا سيما ونحن نسلم أن « الموضوعية » هى طبيعة شعر الملاحم القصصى .

وإذ قد اتفق ثلاثة من الشعراء الكبار المعاصرين : شوقى ومحرم وعامر بحيرى فى التزام الحدود التاريخية فى موضوعات بعينها على ما لهم من منزلة فى ميدان الشعر الرفيع فذلك دليل على أن سلوك الشعراء هذه السبيل هو مراعاة طبيعة الموضوع ، لا عجزهم عن التحليق فى أجواء الخيال .

أما ملحمة عامر « كانت محدودة الطاقات ، ينقصها خيال هوميروس ، أو شطحات دانتى أو تصوير المعرى » فإن ذلك لا يضيرها لاختلاف طبيعة الموضوعات .

وربما كان من الإنصاف أن نسجل الدكتور زكى - بعد أن هدم - أن هذه الملحمة « لا تعوزها مهارة الفنان ، ولا القدرة على الصياغة بل ربما تسمو فى كثير من أجزائها إلى مستوى شوقى إن لم تعده » (١).

(١) ينطبق هذا على شعر شوقى فى أرجوزة العرب . .

ولست أدرى كيف حكم الناقد بأن لعامر فضل السبق فى حين أن إلياذة محرم ظهرت قبلها بنحو حوالى خمسة عشر عاما »(١) .

والذى لا نشك فيه أن عمل عامر بحيرى هذا عمل مجيد ، وقد وضع لبنة إلى جانب اللبنة التى وضعها محرم فى الملاحم الإسلامية التى اتجهت نحو إحياء سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وإبراز أمجاد الإسلام .

ونرجو أن يتجه فى استكمال أحداث التاريخ الإسلامى ، ليدرك فى هذا المضمار مالم يتمكن محرم من استكماله .

والأستاذ عامر بحيرى ملاحم أخرى منها :

ا - « ملحمة آدم وحواء » «ملحمة شعرية فى نيف وألف بيت » ، تصور بدء الخليقة وقصة الحب والمعصية ، والفردوس المفقود والفردوس المستعاد الخ .. وهى لم تطبع بعد.

ب - إيزيس وأوزيرس « وهى أيضا فى نيف وألف بيت تصور مملكة أوزيرس ، وبحث إيزيس عنها ، وإعادته للحياة ، ومظالم تيفون ، وانتقام حوريس .

وهى ملحمة تاريخية ، وقد طبعت أخيرا .

(١) ذكر عامر فى مقدمة الإلياذة أنه غير مسبوق ، وقد تحادثت معه فى ذلك فعلمت منه أنه سمع عن إلياذة محرم ولكنه لم يطلع عليها ، وقد ذكر أنه أنشأ هذه الملحمة عام ١٩٥١ وقدمها للمجمع اللغوى فى حين أن الأستاذ زكى ظن أنها أنشئت عام ١٩٥٤ مع أن تاريخ إنشائها مذكور فى مقدمتها

(ج) مسرحية خالد بن الوليد فى حوالى سبعمائة بيت (١) .

(د) وفى مستهل عام ١٩٦٣ ظهرت للأستاذ عامر « ملحمة الجلاء » فى ثوب قشيب تصور الأحداث السياسية التى مرت بها مصر من ثورات الشباب فى عام ١٩٣٥ إلى انتصار مصر على العدوان الثلاثى فى عام ١٩٥٦ .

والحداثة هذه الملحمة الضخمة لم يتناولها النقاد بعد بالدراسة ولا سيما وأن الشاعر قد نهج فى نظمها نهجاً جديداً ، يجمع بين أهم ما ينادى به المجددون وبين المحافظة على عمود الشعر العربى من حيث مراعاة الأوزان والقوافى .

وأهم ما يلفت النظر فى طريقة نظمه الجديدة أنه جعل البيت خمس تفعيلات بدلا من ست كما هو مألوف فى بحر « الكامل » ، وبذلك تخلص من تجزئة البيت دون إثقال على السامع ولم يلتزم قافية واحدة فى القصيدة كلها بل جعل لكل بيتين أو ثلاثة قافية حسب إيحاء المعنى .

والملحمة تبلغ حوالى (٢٤٠٠) ألفين وأربعمائة بيت سارت جميعها على بحر واحد هو الكامل (خمس تفعيلات) وعدة قواف وموضوعها شائق طريف ويكفى أنه يرسم صورة لكفاح الأمة المصرية ممثلة فى شبابها الوثاب فى فترة من أهم فترات حياتها فى العصر الحديث ويسجل صورا كريمة من أمجاد ثورتنا المباركة .

(١) طبع الدار القومية يناير سنة ١٩٦٣ .

ملحمة الحرب المقدسة
فى فلسطين :
الشاعر محمود محمد صادق (١) .

لهذا الشاعر الكبير ميدان متسع الجوانب فى شعر الحماسة ، فقد عرف فى عام ١٩١٩ بأنه شاعر الثورة لما كان ينشده من أشعار تسجل فظائع الانجليز وتلهب حمية الوطنية المصرية.

وكان من أوائل الذين عنو بوضع الأناشيد الوطنية منذ أن كان طالبا بالحقوق ، وله شعر كثير فى أحداث مصر والعالم العربى فى خلال ما يزيد على ثلث قرن .

وعندما احتدم أوار المعارك فى فلسطين وقف هذا الشاعر يسجل ويصور ، ويستحث النفوس ، ويدعو إلى الوحدة والتضامن مبينا آثار الفرقة والتخاذل وقد سجل ذلك فى ملحمة كبرى نشر جزء منها صبيحة إعلان القرار الجائر بتقسيم فلسطين ، ومطلعه :

خطب السيف ، أسكتوا دسحبانا »
يا لقومى ، ودعوا حسانا
وخذوها من الطريق المؤدى
لا تطيلوا البيان والتبيانا
ساعة الفصل آونت ، والمنايا
دق ناقوسها ، ودوت أذانا

وهكذا يسير فى قوة وتدفق وحماسة ثم ينتقل إلى مخاطبة فلسطين الجريحة :

« يا فلسطين بعد ، أندلس ماذا
بريب الزمان مما دهانا ؟
درة الشرق ، مهبط الوحى ، مهوى
مهج العرب ، ملتقى أنبيانا :
إيه ياعار . ما كهولك عار
إن فقدنا ديارنا وحمانا
لأحلنا جبالها بركانا
وأسلنا أنهارها طوفانا

أما القسم الآخر فقد نشره فى عام ١٩٤٩ بعد أن قامت إسرائيل واعتبرت نفسها بين الدول ، وقد أبت الأمة العربية جميعها أن تعترف بها .

وقد سمى الشاعر هذا القسم : مرثية المراثى : « أحزان وإيمان » ، ويقول فى أوله

قضى الأمر أيها المشرقان
جللا بالسواد بيض الأمانى
واغربى ياشموس عن كل أفق
خرام يحفنا النيران

ثم يأخذ فى بيان أثر هذه النكبة التى تشبه نكبة الأندلس ، وينحى على العرب باللائمة لتهاونهم وتفرق كلمتهم وعدم تمسكهم بمبادئ أسلافهم ، ويذكرهم بماضى صلاح الدين وما كان للعرب من أمجاد ، ثم يدعو إلى مواجهة الأمر الواقع بحزم وقوة ونكتفى بعرض أبيات قليلة من ذلك الفيض الغزير الذى تناول موضوعات شتى من بينها ضرورة الإيمان بشرقيتنا قال :

(١) مطبعة المعارف سنة ١٩٥٠ .

هي حرب الدهاء والعلم والما ل
وحشد العقول والأذهان
وانطلاق القوى الكمي
نة في الشرق وإشراق جذوة الإيمان
وحدوا عالم المشارق صفا
مثلما اصطف عالم العدوان
لك عين بأندونسيا وأخرى
جمعت مضمر با بباكستان
صاعد طرفها لترك وفرس
هابط لحظها إلى السودان
وصلوا الروح والعقول فلن تك
في صلات الوريد والشريان

ولولا خوف الإطالة لنقلت الكثير من أبيات هذه الملحمة التي بلغت أبياتها ستة وستين وخمسمائة بيت من أجود ما أنشد في ميادين الحماسة وفي عصرنا الحديث ، وهي جديرة بالدراسة والإذاعة .

ولهذا الشاعر الكريم ملحمة أخرى بلغت أبياتها عشرة ومائتي بيت نشرها أيضا عام ١٩٤٩ بمناسبة مرور ثلاثين عاما على ثورة ١٩١٩ بعنوان « أرواح وأشباح » بين أشعة الذكرى الثلاثينية لثورة المصرية .

وقد صور في هذه الملحمة الأحداث السياسية التي مرت بها مصر خلال تلك الفترة وما شهدته البلاد من تطاحن الأحزاب والتهاون في حقوق الوطن جريا وراء المنافع الشخصية ثم رسم ما ينبغي أن تكون عليه حال البلاد وأشاد بما كانت عليه الروح العامة في عام ١٩١٩ ثم لخص نتائج تنكب الطريق وما أصاب البلاد بسبب تفرق الكلمة ثم ختم القصيدة بما كان يجيش في صدره من آمال وضاء في مستقبل باسم ، ونكتفي بذكر الأبيات التي ختم بها هذه القصيدة التاريخية الكبرى :

والحق أهون ما يكون لحاجة
فاربأ بحقك أن يطول جداله
ولتضحك الدنيا بشدقيها فما
حكم الزمان الجيل ، بل أجياله
لا بد من صنعا وإن طال المدى
وبدا بعين الشوط منك مناله
أو ليس في الإيمان ما يغني الفتى
إن كان هذا دهره وفعاله
أضرب بصدرك في السماء ولا تدع
برجا إذا استعصى عليك نواله
الله يقسم والعقيدة موئل
إن التقى سحر ، رقاك حلاله
من هام بالرحمن جل جلاله
لان الوجود له ، ودان محاله

سعد الدين الجيزاوي

العقّاد والفكر الإسلامي

للأستاذ رشاد محمد خليل

يندر من الرجال أو من الأحداث ما يكون علامة تحول ، أو بداية تاريخ أو نقطة انطلاق ؛ ذلك لأن عمليات التحول والتطور والانطلاق في حياة الأمم والمجتمعات تحتاج إلى نوع نادر من الطاقات الإنسانية التي تستطيع أن تضع روح الانطلاق في الحدث ، وأن تعطى التحول التاريخي مضمونه الإنساني والفلسفي .

وقد كان العقاد - رحمه الله - طاقة من هذه الطاقات الإنسانية النادرة التي استطاعت بعبقريتها وإرادتها أن تكون علامة من علامات التحول ، وبداية من بدايات الانطلاق في تاريخنا المعاصر .

ولم يكن العقاد طاقة ذات امتداد واحد ، أو نقطة انطلاق في اتجاه واحد ، وإنما كان قوة انفجار مشعة تنطلق من مركزها إلى دائرة المحيط بقوة متساوية في جميع الاتجاهات .

كان كذلك في السياسة عملا وفكراً :
وكان كذلك في الأدب والنقد هدما وبناء ،
وكان كذلك في الفكر الإنساني عامة والفكر الإسلامي خاصة ، منهجاً ودراسة ، منطلقاً وعقيدة .

لقد كان العقاد جزءاً من نسيج هذه الأمة الحي ، وعلامة بارزة من علامات تكوينه وتلاحمه ، عايش أزمتها وكفاحها ونهضتها معايشة الفعل والتدبير ! والفكر والتقدير ، وكان لها من عبقريته الخلاقة ، وقود معركة ونضال ، ومصباح هداية ورشد ، ودليل حركة وسعي ...

ثم مضى إلى ربه تاركا من ورائه سيرة نادرة أشبه بسير الأبطال في الأساطير تشع للأجيال المقبلة على مدى الطريق من صلابتها في الحق ، واستقامتها في التفكير ، وإيمانها بكرامة الإنسان وحريته أضواء تهدى خطاها في الطريق الطويل .

كما استودع الأجيال من بعده ؛ من فكره الأصيل ، وثقافته العميقة ، وتجاربه الناضجة ، تراثا غاليا تعتز به الأمة العربية في لغتها وثقافتها ؛ والأمة الإسلامية في عقيدتها وإيمانها ؛ ليس ذلك فقط بل تعتز به الإنسانية كلها في ثقافتها وحضارتها ومثلها العليا ! فقد عرف العقاد كرامة الفكر الإنساني أينما كان من شكسبير وفرنسيس بيكون إلى ابن الرومي وابن سينا .

ووفى للعبقرية الخلاقة والخلق الإنساني الرفيع حقهما من الكرامة والتقدير في شخص محمد نبي المسلمين عليه السلام كما في شخص غاندي زعيم المنبوذين . فقد كان هدى العقاد في كل ما كتب سواء في تراجمه لأعاظم الرجال أو في دفاعه عن قيم الإنسانية ، وعقائدها ومبادئها - كرامة الإنسان وحريته حيثما كان الإنسان ...

وكان في ذلك كله خير شارح في عصرنا

لقوله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

رحمه الله ، فما رأينا من عبقرى يفرى فرية فى تاريخنا القريب ...

لقد تناولت الأقلام العقاد من جوانبه المختلفة - سياسيا وأديبا وناقداً ومفكراً وإنسانا - والتقى الأنصار والخصوم على تكريمه وتقديره ، وما أشك فى أن دراسة العقاد من جوانبه المختلفة سوف تستهوى الكثير من الدارسين والباحثين ، وما أشك فى أن تراث العقاد الفكرى سوف يمضى عاملا فى ضمير الأمة ووعيها إلى أمد طويل .

ولكن الذى أخشاه حقا هو أن يزحف النسيان على الجانب الإسلامى من تراث العقاد الفكرى ، على الرغم من أن العقاد صرف إلى هذا الجانب الكثير من جهده ودراسته ، وترك لنا فيه ثروة حية خصبة ، وما كان العقاد ليضع فكره وقلمه فى خدمة الإسلام إلا لأن وجدانه كان ممتلئا بيقين راسخ فى أن الإسلام نقطة انطلاق أساسية فى حياة الأمة العربية والإسلامية ، وبر أمن وسلام للإنسانية الحائرة فى ضلالها البعيد .

إن هذا الجانب من فكر العقاد يجب أن يصان ، وأن يتخذ كبداية انطلاق رشيدة فى بناء الثقافة الإسلامية وتربية الضمير المسلم ؛ ولن يتأتى ذلك قط بالدعوات والتمنيات الطيبة ؛ وإنما يتأتى من استئناف السير فى الطريق الطويل الشاق الذى سار فيه العقاد خطوات موفقة ناجحة .

إن علينا أولا أن نتفهم منهج العقاد فى دراساته الإسلامية وأدوات هذا المنهج ونتائجه .

وعلينا ثانيا أن نهتم بالجانب الإسلامى من تراث العقاد فى نطاق الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر والمعاهد الدينية الأزهرية فلا أظن أننا نستغنى فى مجال تطوير الدراسة الإسلامية عن التعرف على التجربة الرائدة الأصيلة التى قدمها العقاد فى هذا الباب لقد استطاع العقاد أن يرسى دعائم منهج واضح فى دراساته الإسلامية التى شملت مجالات العقيدة والسياسة والاجتماع والأخلاق والفلسفة ونماذج الرجال ؛ ويمكن أن نطلق على ذلك المنهج اسم المنهج التكاملى لأنه يقوم أولا على أساس النص فى مجال الفلسفة والعقيدة والتشريع فهو يحترم المادة التاريخية فى هذا المجال ويضعها فى مكانها ثم يسلط عليها الأضواء بالدراسة التحليلية فى ظل الاعتبارات اللغوية والاجتماعية والسياسية التى تحيط بالنص وتحدد دلالته ؛ ثم يأخذ هذا النص فى إطاره التاريخى ليعرضه على عقل العصر الحديث وينظر إليه فى ضوء ثقافة العصر وظروفه التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية دون أن يفقد النص فى ميزانه دلالته أو ينزل به

على مقتضى الظروف المتغيرة التى تتغير وتتبدل بتغير وتبدل الزمان والمكان غير متجاهل فى نفس الوقت طبيعة المشاكل المعاصرة ، واختلاف الحاجات الإنسانية باختلاف الظروف ، فإن أخطر المشاكل الذى يواجهها الإسلام فى العصر الحديث هى أن يتبدد أو يشوه أو يتوه بين عناصر المحافظة التى تريد أن تحافظ على الإسلام فى إطار الوقائع والمشكلات والمفاهيم الخاصة بأجيال مضت وأزمنة انقضت ولن تعود ؛ وبين نزعة التحرر التى تريد أن تضع الإسلام فى خدمة الظروف والوقائع والمشكلات والمفاهيم التى تعيش فى واقع المسلمين المعاصر لا لكى يقوم الإسلام بدور الدليل ، ولكن بدور التبرير ؛ واختلاق المعاذير للواقع كما هو عليه .

لقد كانت أهم ميزة فى منهج العقاد هى أنه استطاع بكثير من النجاح أن يضع عناصر الثبات والتغير فى الإسلام فى مواضعها الطبيعية ؛ وقد أعانه على ذلك النجاح بجانب عبقريته التحليلية درايته الواسعة بتراث الإسلام القديم وظروفه التاريخية ، وإحاطته الواعية بالثقافة المعاصرة ، ومناهجها الحديثة.

وهو يقيم منهجه على أساس من الإدراك البصير للطبيعة الإنسانية ومن شمول النظرة إلى الحياة والكون والإنسان ؛ وإدراك الفارق بين الثبات والتغير ، وبين التغير والتطور ؛ فالجديد لا يلغى القديم لأنه جديد والقديم لا يستمد حقه فى الوجود والاستمرار من مجرد السرمدية والقدم .

وإنما الجديد يلغى القديم إذا توافر له من عناصر الصلاحية والجدارة ما يسلب القديم كل ميزة ويفقد وجوده كل معنى ثم يتفوق عليه فى مدى وفائه بحاجات الحياة المتجددة ، واستجابته للظروف المتغيرة ؛ كما حلت الأدوات المعدنية محل الأدوات الحجرية فى العصور القديمة ، وكما يلغى النموذج الجديد النموذج القديم فى الصناعات الحديثة .

وإنما يحتفظ القديم باستمراره على مدى العصور فلا يقال فيه قديم أو جديد وإنما يقال فيه فقط أنه موجود ، لأنه سنة من سنن الكون التى لا تتغير . مثل شروق الشمس وغروبها . ونمو الحياة وفنائها ، واختلاف الليل والنهار وانتظام الأفلاك .

أو لأنه سنة من سنن الهداية والتدبير ، كالحاجة إلى الإيمان والهداية والإعداد والتوجيه .

أو لأنه سنة من سنن البقاء . كالحاجة إلى الطعام والشراب والتناسل .

أو لأنه سنة من سنن البناء والعمران كالحاجة إلى التعاون والتنظيم ... ، سنة الله فى الكون والحياة : « فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

يقول الأستاذ العقاد : « لا يطلب من كتب العقيدة أن تطابق مسائل العلم كلما ظهرت مسألة منها لجيل من أجيال البشر » .

ويخطىء : « أولئك الذين زعموا أن

مذهب التطور والارتقاء ثابت من بعض آيات القرآن كقوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » ، أو قوله تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

لأن الآيتين تؤيدان تنازع البقاء ، وبقاء الأصلح ، ولكن مذهب التطور والارتقاء لا يزال بعد ذلك عرضة لكثير من الشكوك والتصحيحات بل عرضة لسنة التطور والارتقاء التى تنتقل به من تفسير إلى تفسير .

« كلا لا حاجة بالقرآن إلى مثل هذا الإدعاء ، لأنه كتاب عقيدة يخاطب الضمير ، وخير ما يطلب من كتاب العقيدة فى مجال العلم أن يحث على التفكير ولا يتضمن حكما من الأحكام يشل حركة العقل فى تفكيره ، أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم ، ما استطاع حيثما استطاع وكل هذا مكفول للمسلم فى كتابه ، كما لم يكفل قط فى كتاب من كتب الأديان .

فهو يجعل التفكير السليم ، والنظر الصحيح إلى آيات ما فى خلقه وسيلة من وسائل الإيمان بالله ... » [١] .

ولقد آمن العقاد بالعقل ، وآمن بأن الإسلام هو دين العقل والتفكير ، وكان آخر كتبه « التفكير فريضة إسلامية » .

إن إيمان العقاد بالعقل الإنسانى ، وكرامة التفكير الإنسانى هو الخط الأساسى الأول فى منهجه ودراساته وحياته كلها ؛ فالعقل هو المرجع الأول فى قضايا المعرفة وقضايا العلم وقضايا الإيمان ، ولكن الميزة التى تفرد بها العقاد بين مفكرينا المحدثين هى إيمانه بالعقل الإنسانى أى بالعقل فى حدوده الإنسانية إنه يؤمن بأن للعقل الإنسانى حدوداً فى مجال المعرفة ، ومجال العلم ، ومجال التجربة ؛ وأنه لا حرج عليه من التسليم خارج الحدود التى تنقطع وراءها كل وسيلة للعلم والمعرفة والتجربة ؛ والإيمان بالغيب المستور إيمانا يفرضه العقل نفسه : « وفرق بين أن يعرف العقل حدوده وبين أن يبطل عمله فإن العقل ليستطيع التفرقة بين عقيدة الشرك وعقيدة التوحيد ويستطيع التفرقة بين أدلة الإيمان وأدلة التعطيل ويستطيع التفرقة بين ضمير مؤمن وضمير عطل من الإيمان ويستطيع أن يبلغ غاية حدوده ثم لا ينكر ما وراءها لأنه وراء تلك الحدود ... » [١] .

إن العقاد لم يلتق بالإسلام التقاء المقلد أو المتحمس ولم يقف منه موقف المدافع المتعصب ، وإنما التقى بالإسلام خلال رحلة الشك والتمزق التى يقطعها كل مفكر وفيلسوف يريد أن يختار لنفسه بفكره وإرادته معتقده ومبدأه وأسلوب حياته ؛ ومن خلال رحلة الشك الطويلة ، ووقوفه

---

(١) الفلسفة القرآنية : عباس محمود العقاد .

(١) الله ــ عباس محمود العقاد

المستأنى أمام كل فكر وفلسفة فى القديم والحديث فى الشرق والغرب على السواء ، رجع العقاد من تجربته الثقافية والفكرية ليقول بأن إنسان القرآن هو إنسان القرن العشرين وأن « القرن العشرين ، منذ مطلعه ، يعرض العقيدة بعد العقيدة على الإنسان وعلى الإنسانية ، ولا نعلم أنه عرض عليها حتى اليوم قديما معاداً أو جديداً مبتدعا هو أوفق من عقيدة القرآن . وأوفق ما فيها أنها غنيت من الاختراع والامتحان ، وأنها على شرط العقيدة الدينية من بقية حية ، شملت ملايين الخلق وثبتت معهم وحدها فى كل معترك زبون . يوم خذلتهم كل قوة يعتصم بها الناس » .

« إن القرآن يعطى القرن العشرين إنسانه الذى ليس من إنسان أصح منه وأصلح لزمانه ، فإذا آمن هذا الإنسان بالله وبالنبوة فليس أصح ولا أصلح لعصر الوحدة الإنسانية من الإيمان برب واحد للعالمين ، وبنبوة تختم النبوءات ... بعد الإيمان بهذا الإله الواحد ، لتسلمه إلى عقله وضميره ، وتسأله عن إصلاح نفسه وإصلاح دنياه بما يدعوه إليه قوام الروح والجسد وطيب الحياة فى الدنيا والآخرة ... »[١] .

من أجل هذا نعتقد أن دراسات العقاد الإسلامية من أهم الدراسات فى القرن العشرين لتربية العقلية المسلمة المتفتحة الواعية التى تؤمن بالإسلام إيماناً ناضجاً على أساس من مناهج الفكر والعلم المعاصر .

ومن أجل هذا نعتقد أن دراسات العقاد الإسلامية يجب أن تكون فى مقدمة الدراسات التى يقدم الإسلام من خلالها إلى عقل القرن العشرين وضميره .

ومن أجل هذا وذاك نقترح أن تكون دراسات العقاد فى صلب مناهج الدراسة بالمعاهد الدينية والجامعة الأزهرية ، كما نقترح على مجمع البحوث الإسلامية أن يستهل نشاطه بترجمة دراسات العقاد إلى مختلف اللغات العالمية الحية فى مجال التعريف بالإسلام .

وإنا لنرجو أن تطلق جامعة الأزهر اسم العقاد على مدرج من مدرجاتها فالعقاد إمام من أئمة مدرسة الإصلاح والتجديد التى أرسى دعائمها السيد جمال الدين الأفغانى وحمل رسالتها تلميذه الشيخ محمد عبده ليسلمها من بعده إلى جيل المجددين والمصلحين الذين فجع العالم الإسلامى بالأمس القريب فى علمين من أعلامها الشيخ محمود شلتوت ثم عباس محمود العقاد ...

وفى هذا وفاء بحق الرجل الذى وفى للعظمة الإنسانية بكل صورها فى كل ما كتب ... رحمه الله ؟

رشاد محمد خليل

(١) الإنسان فى القرآن الكريم ، عباس محمود العقاد .

نظرات فى الأدب والتصوف :

الأدب الصوفى

للأستاذ محمد ابراهيم الجيوشى

الأدب فى أصل إطلاقه صفة من صفات النفس ، ثم تطور مع الزمن حتى صار متعارفا بما ينتجه الأديب والشاعر من شعر أو نثر يترجم به عن أحاسيسه وعواطفه .

والأدب الحى هو الذى يعطى صورة صادقة عن نفس الكاتب أو الشاعر ويترجم عن أحاسيسه وعواطفه بدقة وأمانة ، ولا بد للنص الأدبى حتى يكون فى درجة عالية ، أن يستكمل عناصر أربعة : الفكرة ، والعاطفة ، والخيال ، والأسلوب : وهذه العناصر هى التى تحقق للنص مكانا فنيا ممتازاً .

وطبيعى أن النص الذى يصور فكرة سامية ، ويهدف إلى غرض نبيل يكون أجمل وقعاً ، وأحسن تأثيا ، وأقوى أثراً ، وأدخل إلى النفوس وألصق بالقلوب .

والمهمة الأولى للأدب العمل على بث الصفات الكريمة والرقى بالأفكار ، والأخذ بأيدى الناشــئة حتى يبلغوا مبلغاً خليقاً بالرجولة والمروءة .

وكم حفظ الشعر الحى من مواقف كتبت أصحابها فى سجل الخالدين ، فهذا معاوية ابن أبى سفيان تحدثه نفسه بالفرار ، فيجيش خاطره بأبيات من الشعر تدفعه إلى الصبر وتحمل المشاق حتى ينال النصر ، وكان كلما طغت عليه موجة الضعف ، وغلبته طبيعة الحرص على البقاء استعاد هذه الأبيات فتعيده أبياً شجاعا جلداً صبوراً :

وإمساكى على المكروه نفسى
وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت
مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات
وأحمى بعد عن عرض صحيح

هــــذه هى الوظيفة الأولى للأدب ، ولا يغض من ذلك أن يذهب بعض الناس بالأدب إلى ناحية منحرفة عن هدفه الأسمى ، من وصف للصبوات وتصوير لشرات الجهالة .

ولننظر فى الآثار الصوفية على ضوء هذه الخطوط التى قدمناها لنرى ، هل أوفت بما اشترط الأدباء فى الأدب الحى ؟ وهل كان لها هدف معين تسعى إليه ؟ أم أنها

كانت شطحات لا تجمعها فكرة ، ولا تنديها عاطفة ، ولا يحلق بها خيال .

إن نظرة يلقيها الباحث على النتاج الصوفى فى الشعر والنثر ، وسياحة فى رياضه العبقة ، تجعله يقرر ، وهو مطمئن ، أن الصوفى أدب حى قد أوفى على الغاية من الجودة ، وبلغ الذروة فى الإتقان ، لما يحفل به من أخيلة بديعة ، وما يتواثب فيه من عواطف صادقة ، يكاد يحسها ويلمسها . ثم هو بعد ذلك يصور ما امتاز به الصوفية أنفسهم من خصوبة فى الخيال نادرة ، ونفوس مشرقة وأرواح شفافة ، جعلتهم يحسون إحساسا قوياً بما يقع فى قلوبهم من معان ، وما يلهمونه من أفكار ، حتى فاضت قرائحهم بأرق الصور الشعرية وأبدعها .

ذلك لأن الأدب الصوفى جزء من التصوف كما أن الأدب الماجن لون من المجون وبعض منه .

وقد يتساءل سائل : إذا كان للصوفية هذا الأدب الذى تغالى فى قيمته ، فلماذا لم يحظ من كتاب علماء الأدب ومؤرخيه بكلمة ترسل ، أو رأى يقرر ؟ وهذا أمر يدعو إلى العجب حقا .

ولعل السر فى ذلك أنه قد وقر فى أذهان الناس منذ القـــدم أنه لاصلة بين الأدب والدين ، والتصوف دعوى دينية متطرفة فلذلك انصرفت عنها أنظار الباحثين فى الأدب والمؤرخين لرجاله ، فكان هذا الإغفال ، واندفعوا يختارون ويدرسون الأدب الذى اتجه إلى الخدود والشفاه ، واستمدت ينابيعه من الكئوس والعيدان ، ولم يلتفتوا ناحية الأدب الصوفى ، على الرغم مما يحفل به من آثار قيمة لا تقل روعة ، إن لم تفق ما أثر عن فحول البيان والشعر كالجاحظ وابن العميد وبشار والبحترى والمتنبى .

ولنقرأ معا هذه المناجاة لذى النون المصرى ، ليتجلى لنا بما لا يدع مجالا للشك ، أن الأدب الصوفى فى القمة من الجودة :

« إلهى من ذا الذى ذاق طعم مناجاتك ، فألهاه شىء عن طاعتك ومرضاتك ؟ .

من ذا الذى ضمنت له النصر فى دنياه وآخرته ، فاستنصر بمن هو مثله فى عجزه وفاقته ؟ .

أم من ذا الذى تكفلت له بالرزق فى سقمه وصحته ، فاسترزق غيرك بمعصيتك فى طاعته ؟

أم من ذا الذى عرفته بآثامه ، فلم يحتمل منك مثونة فطامه ؟ » .

وهذا دعاء آخر لبعض الصالحين : « اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب قوى عليه بدنى بعافيتك ، ونالته يدى بفضل نعمتك ، وانبسطت إليه بسعة رزقك ، واحتجبت فيه عن الناس بسترك ، واتكلت فيه على

أناتك وحلمك، وعولت فيه على كريم عفوك». فهل ترى هذه النماذج تقل خطرا عن أروع ما أثر عن أعلام الكتاب فى أزهى عصور الأدب ؟

والغريب مع هذا أنه لم يحظ بتسجيل مؤرخى الأدب وناقديه ، ويقول الدكتور زكى مبارك مشيرا إلى هذا الإغفال . . لعل السر فى إغفال مؤرخى الأدب لهذا النتاج الرفيع ، مع ما يحفل به من أخيلة وصور ومعان أنهم لم يضعوا البلاغة الصوفية فى الميزان ، وذلك يرجع من ناحية إلى الصوفية أنفسهم ، وهو انحيازهم عن صحبة الأدباء وانقطاعهم إلى خلواتهم .

ومن ناحية أخرى إلى الأدباء أنفسهم ، ذلك أنهم أقبلوا على الصور الحسية إقبالا مشغلهم عن الأدب الذى يصور أحوال الأرواح والقلوب ، فحسبوا أدب الصوفية بعيدا عن مجال سبقهم : مجال الوصف والتشبيب والحماسة والعتاب ، ولو أن رجال الأدب وعلماء البلاغة والنقد نظروا إلى الأدب الصوفى نظرة مدققة لرأوا فيه ما يطلبونه من الشواهد الحية لما يبتغون من تشبيه ومجاز ، وكناية تبلغ الذروة ، وتجاوز حد الإتقان ، لما اشتملت عليه من طرافة الخيال وقوة الصور الشعرية .

ولوجدوا فيه نماذج حية تصلح لإصابة المعنى والغرض ، ولكنهم لانصرافهم عنه لم نجد فى مؤلفاتهم النقدية غير شواهد من كلام الشعراء والكتاب الذين سبقوا فى غير ميادين القلوب والأرواح ، (١)

والأدب الذى أثر عن الصوفية ، منه ما انفردوا بأغراضه ولم يسبقوا إلى طرق أبوابه ، ومنه ما شاركوا فيه غيرهم ، واتفقوا مع سواهم من الأدباء الآخرين .

وكلا النوعين قوى السبك، مشرق الديباجة، غزير المادة ، جيد المعنى وهذا موقف فى الرثاء ، قل نظيره فى الأدب العربى عامة لابن السماك يرثى داود الطائى ، يقول عنه الدكتور زكى مبارك ، وهو رثاء فريد ، عرف قائله كيف يحدد خصائص من بكاه ، قال ابن السماك :

« إن داود رحمه الله نظر بقلبه إلى ما بين يديه من آخرته ، فأغشى بصر القلب بصر العين ، فكان كأنه لا ينظر إلى ما إليه تنظرون ، وكأنكم لا تنظرون إلى ما إليه ينظر ، فأنتم منه تعجبون ، وهو منكم يعجب ، فلما رآكم راغبين مذهولين مغرورين ، قد أذهلت الدنيا عقولكم ، وأماتت بحبها قلوبكم ، استوحش منكم ، فكنت إذا نظرت إليه نظرت إلى حىّ وسط أموات » .

---

(١) التصوف الإسلامى ج ١ ص ١١٣

يا داود، ما أعجب شأنك بين أهل زمانك! أهنت نفسك وإنما تريد إكرامها، وأتعبتها وإنما تريد راحتها، أخشنت المطعم وإنما تريد لينه، ثم أمت نفسك قبل أن تموت، وقبرتها قبل أن تقبر، وعذبتها ولما تعذب، وأغنيتها عن الدنيا لكيلا تذكر، رغبت نفسك عن الدنيا - فلم ترها لك قدراً - إلى الآخرة، فما أظنك إلا وقد ظفرت بما طالبت ....

سجنت نفسك فى بيتك، فلا محدث لك، ولا جليس معك، ولا فراش تحتك، ولا ستر على بابك، ولا قلة يبرد فيها ماؤك، ولا صحفة يكون فيها غذاؤك وعشاؤك، مطهرتك قلبك.

داود: ما كنت تشتهى من الماء بارده، ولا من الطعام طيبه، ولا من اللباس لينه، بل، ولكن زهدت فيه لما بين يديك، فما أصغر ما بذلت، وما أحقر ما تركت فى جنب ما أملت، فلما مت شهرك ربك بموتك، وألبسك رداء عملك، وأكثر تبعك، فلو رأيت من حضرك عرفت أن ربك قد أكرمك، وشرفك، فلتتكلم اليوم عشيرتك بكل ألسنتها، فقد أوضح ربك فضلها بك».

فهذا رثاء فى درجة عالية من الجودة، جرى على لسان صوفى من هؤلاء الذين نحاول أن نكشف عن مدى أثرهم فى الأدب، ذلك الأدب الذى أغفله الناس من قبل.

وصفوة القول: إن الكتب الصوفية تفيض بالأخيلة، والصور والتعابير فى روعة وقوة، ويزيد فى جمال الأدب الصوفى أنه وثيق الصلة بعلم النفس، وأن له غاية نبيلة، هى غرس الخلق الشريف فى نفوس الرجال.

ذلك لأنه أدب أناس عرفوا الدنيا وأهلها، ثم ملوا المجتمع وانقلبوا عليه يصفون عيوبه، وتقاتله بأقلام تنضح بالسم الزعاف.

وقد تقدم أن الصوفية انفردوا بأبواب خاصة سلكوا دروبها الأدبية وحدهم، ولم يطرقها سواهم من الأدباء وساروا فى مسالك جديدة لم يتبعهم فيها غيرهم.

وربما سبق إلى الأذهان سؤال عن المظاهر الفنية الجديدة التى هدوا إليها.

والدارس لآثارهم يراها تدور حول ما يدينون به من مذاهب وما يعتنقونه من آراء، وما يأخذون به أنفسهم من سلوك فى حياتهم التى انتهجوها، ويمكن تلخيص هذه المظاهر فى الأغراض الآتية:

(ا) وصف الدنيا. (ب) المناجاة.
(ج) العشق الإلهى.
(د) المواقف والمخاطبات.
(ه) الأحزاب والأوراد.
(و) وحدة الوجود والمدائح النبوية.

محمد ابراهيم الجيوشى

من بحوث مجمع البحوث

الملكية الفردية وتحديدها فى الإسلام

للأستاذ على الخفيف

— ٢ —

الحمى :

أشرنا فيما مضى إلى أن الحمى من الأرض كان معروفا عند العرب قبل ظهور الإسلام وكان منه ما هو قاصر على منافع شخص معين ومنه ما كان لمنافع جماعة من الناس تجمعها صلة أو وحدة كأسرة أو قبيلة - ولم يكن هذا النوع من حيازة الأرض والاختصاص بمائها وكلئها إلا مظهراً من مظاهر ملكيتها إذ لم تكن للملكية عندهم يومئذ حدود معلومة مرسومة ولا معنى متميز إلا ما كان لهم من حق الاستئثار بها ومنع غيرهم من الرعى فيها بالقوة والغلب وما بقى فيها كلأ وماء فإذا نضب الماء ونفذ الكلأ تركوها أرضاً مباحة لا اختصاص عليها إلى أرض غيرها فيها الماء والكلأ .

وحين جاء الإسلام لم يقر هذه الحيازة وتلك الأثرة مستندا إلى القوة والجاه وإنما جعل ملك الأرض نتيجة لعمارتها وإحيائها أما هذا النوع من الحمى المبنى على السلطان والغلبة فقد حظره الإسلام ولم يجعله لشخص من الأشخاص وإنما جعله حقا لأمراء المسلمين ليحموا به أرضاً لمنفعة عامـــة للمسلمين .

روى الصعب ابن جثامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا حمى إلا لله ورسوله) والمعنى الظاهر لهذا الحديث أن الحمى إنما لمنفعة عامة لا تخص أحداً وذلك ما عبر عنه بأن الحمى لله ورسوله لأن ما لله هو للمسلمين وإنما نسب إليه سبحانه وتعالى لأنه أمر به ورتب عليه الجزاء وإلى هذا التأويل ذهب أبو عبيد فى كتابه : الأموال إذ قال : للإمام أن يحمى ما كان لله مثل حمى النبى صلى الله عليه وسلم وحمى عمر فهذا كله داخل فى الحمى لله وقد روى نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حمى النقيع لخيل المسلمين والنقيع موضع معروف بقرب المدينة ، وروى أن عمر رضى الله عنه حمى الربذة

والشرف لهذا الغرض وهما موضعان بين مكة والمدينة ، كما روى عن أسلم مولى عمر أن عمر استعمل مولى له يدعى هنيا على الحمى فقال له : يا هنى اضمم جناحك على المسلمين واتق دعوة المظلوم فإن دعوة المظلوم مستجابة وأدخل رب الصريمة ورب الغنيمة وإياى ونعم ابن عوف ونعم ابن عفان فإنهما إن تهلك ماشيتهما رجعا إلى نخل وزرع ، ورب الصريمة ، ورب الغنيمة إن تهلك ماشيتها يأتيان يقولان : يا أمير المؤمنين أفتاركهم أنا لا أبالك - فالماء والكلأ أيسر على من عزم الذهب والورق ، وأيم الله أنهم ليرون أنى قد ظلمتهم إنها لبلادهم قاتلوا عليها فى الجاهلية وأسلموا عليها فى الإسلام . والذى نفسى بيده لولا المال الذى أحمل عليه فى سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شيئا - رواه البلاذرى وقال أسلم : سمعت رجلا من بنى ثعلبة يقول لعمر : يا أمير المؤمنين حميت بلادنا قاتلنا عليها فى الجاهلية وأسلمنا عليها فى الإسلام يرددها عليه مرارا وعمر واضع رأسه ثم رفع رأسه فقال له : البلاد بلاد الله وتحمى نعم الله يحمل عليها فى سبيل الله :

وظاهر من هذا الأثر أن حمى عمر كان فى أرض لأهلها فيها منافع ومرافق بسبب الجوار ولم يمنعه ذلك من حمايتها على أهلها حين دعت إلى ذلك مصلحة عامة .

وهذه الحماية من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حمى النقيع لخيل المسلمين لا تعدو أن تكون إقرارا للملكية الجماعية وإنشاء لها فى الإسلام إذ تصير الأرض بها ملكا لجماعة المسلمين فى سبيل منفعة عامة لهم هى جعلها مرعى لخيلهم التى يحملون عليها حين يجاهدون فى سبيل الله تعالى وفيها إلى ذلك دلالة على أن لإمام المسلمين أن يأخذ من أموالهم وأملاكهم ما تدعو إلى أخذه مصلحة عامة ذلك لأن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة ، وفى هذا يقول الشافعى فى الأم جزء (٣) صفحة (٢٧٠) : إن حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه صلاح لعامة المسلمين وإن الخيل المعدة لسبيل الله وما فضل من سهمان أهل الصدقات وما فضل من النعم التى تؤخذ من أهل الجزية ترعى فيه ، فأما الخيل فقوة لجميع المسلمين وأما نعم الجزية فقوة لأهل الفىء من المسلمين ومسلك سبيل الخير أنها لأهل الفىء المجاهدين وأما الإبل التى تفضل من سهمان أهل الصدقة فيعاد بها على أهل سهمان الصدقة فلا يبقى مسلم إلا دخل عليه من هذا صلاح فى دينه وفى نفسه ومن يلزمه أمره من قريب أو عامة من مستحق المسلمين إلى آخر ما قال ... .

الإباحة والملكية الجماعية والملكية الفردية

جميع ما فى الكون ملك لله تعالى فنى الكتاب العزيز: «وله ما فى السموات والأرض» النحل ٥٢ «قل لمن ما فى السموات والأرض قل لله» الأنعام ١٢ «ولله ملك السموات والأرض وما بينهما» المائدة ١٦ «ألا إن لله ما فى السموات والأرض» يونس ٥٥ «ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض» البقرة ١٠٦ وهذه الملكية ملكية تقوم على الخلق والتسلط والتسخير — وهى ملكية لاحقة بجميع الأشياء لا تنتهى ولا يغير من وضعها أية حيازة أو تصرف من الإنسان.

وقد خلق الله سبحانه وتعالى ما على سطح الأرض للإنسان ليكون له منه منافعه وثمراته فكانت منافعه وثمراته مباحة لجميع الأشخاص لكل إنسان منها حاجته. وفى قوله تعالى: «خلق لكم ما فى الأرض جميعاً» «البقرة ٢٩» دلالة على ذلك فهى تفيد أن جميع ما فى الأرض أو ما هو فى ظهرها قد خلق للإنسان ومعنى ذلك: أن للإنسان منافعه وثمراته وأن له أن ينتفع بكل ما يستطيع أن يحصل عليه أو يصل إليه من منافعه فكان الانتفاع به مباحا له لكل منه حظه الذى يسد حاجته وتقوم به حياته فى النطاق الذى تقره العدالة وتحدده نواميس العمران ومقتضيات الاجتماع، وذلك ما يدل على أن الأصل فى الأشياء الإباحة إلا ما دل الدليل على أنه محظور. وقد استند كثير من العلماء إلى هذه الآية حين رأوا هذا الرأى وذهبوا هذا المذهب ومنهم الحنفية والشافعية وأكثر المعتزلة ووجهه الإمام فى المحصول والبيضاوى فى المنهاج وقالوا: إن اللام فى الآية لام الملك والاختصاص، وإن العموم فيها البادى فى ضمير الخطاب وفى «ما» يدل على أن ما فى الأرض جميعاً خلق للناس جميعاً فلا اختصاص لأحد منهم «تفسير البيان ج ١ (١٩٨)»، وقد كان هذا الوضع فيما هو على ظهر الأرض فى الابتداء إلى أن وجد التزاحم وظهرت غريزة الإنسان فى حب الاستيلاء والادخار والاستئثار — وتلك هى عناصر الملكية — فظهرت الملكية بمعناها الواضح وتبلورت وتميزت.

والملكية كما قدمنا ملكية جماعية وملكية فردية، فإذا كان الانتفاع بآثارها لجماعة من الناس على أن يكون انتفاع الفرد بها قائماً على أنه فرد من تلك الجماعة دون أن يكون له به اختصاص كانت الملكية جماعية — وقد تكون عامة كملكية الدولة لأموالها ومرافقها العامة من طرق وقناطر وأنهار ونحو ذلك، وقد تكون خاصة بهيئة من الهيئات المتشعبة

من الأمة إذا كانت لها باعتبارها هيئة . وأما إذا كان الانتفاع بآثارها لشخص من الأشخاص على وجه الاختصاص والتعيين فإن ملكيته تكون ملكية فردية سواء أكان ملكه متميزا أم شائعا فى ملك غيره من الأشخاص .

وقد ذكرنا فيما سبق أن أسبق النوعين وجودا هو الملكية الفردية إذ أنها أثر من آثار غريزة من غرائز الإنسان وهو سابق فى الوجود على اجتماعه بغيره وارتباطه به ارتباطا يجعل منهما ومن غيرهما جماعة ذات شخصية وتميز بسبب ما يجمعهم ويضمهم من الصلات والروابط .

مجال الملكية الجماعية والملكية الفردية :

وإذ تبين أن أساس الملكية الفردية هو ماطبع عليه الإنسان من حب وميل إلى الاختصاص بما يسد حاجته الخاصة من طعام ولباس ودفاع عن نفسه وما إلى ذلك، كان مجالها منذ وجدت فى هذا النطاق وما يتصل به من الأموال المنقولة وكانت لذلك أكثر شيوعا وظهوراً فيها على مر السنين ثم تجاوزتها بعد حين إلى جميع الأموال من حيوان وعقار . ولم تستهدف فى بدايتها قبل أن تشيع فى العقار لكثير من الإنكار والاعتراض فظلت فى الأموال المنقولة متمتعة بإقرار أرباب المذاهب والآراء على اختلاف نحلهم وأنظارهم إلا من شذ منهم عن ذلك . فلم تواجه من الاشتراكيين على اختلافهم إنكاراً بل اتفقوا جميعاً على إقرارها فى الأموال المنقولة التى لم تتخذ مصدراً للإنتاج .

أما الملكية الجماعية فإن حياة المجتمعات المتطورة قد اقتضت أن تكون فى الأرض وقد تجاوزتها فى كثير من الأحوال إلى الأنعام كما وجدت كذلك فى الأموال المنقولة المخصصة لغرض عام ويرى الاشتراكيون وجوبها فى جميع وسائل الإنتاج ولذا يقولون بوجوب تأميمها .

وعلى أية حال فالملكية بنوعيها لا ينكرها مذهب من المذاهب الاجتماعية أو الاقتصادية المعتبرة لأنها كما علمت ظاهرة من ظواهر الحياة الإنسانية غير أن الاشتراكيين يذهبون إلى وجوب تحديد الملكية الفردية إذ وجدوا أنها فى حال إطلاقها قد أدت إلى تمزيق المجتمع وجعله طبقات متصارعة متعادية وذلك ما يودى بسلامته . فالاشتراكية المعتدلة تقتصر على تأميم وسائل الإنتاج من المصانع والمزارع ورءوس الأموال ، والمواد اللازمة للإنتاج ومن الاشتراكيين من يرى الاقتصار على تأميم العقار من مزارع ومنازل . (يتبع)

على الخفيف

الحرّية السّياسيّة والقيادة الجماعيّة في الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

تمهيد :

استقر الرأى عند علماء السياسة وفقهاء القانون الدستورى على أن الحرية السياسية هى أهم المبادئ التى تقوم عليها الجماعة السياسية الحديثة ، وأنها ـ بعبارة أخرى ـ حجر الزاوية فى بناء الدولة على أساس من ديمقراطية الحكم بمعنى أن يحكم الشعب نفسه بنفسه ، فلا تتمثل الحكومة فى فرد واحد يملك بين يديه جميع السلطات ويتصرف كيف يشاء دون معقب ، أو تتمثل الطبقة الحاكمة فى قلة من الممتازين أو غيرهم تعمل وفقا لمصالحها الخاصة ولا تعنى بتحقيق مطالب الشعب جميعا .

وتبدأ السلطة الحاكمة بمجرد نشأتها واستكمالها مقومات الدولة فى تنظيم الحقوق والواجبات بين الأفراد والجماعات على هدى الفلسفة التى تضعها لنفسها وتريد أن تنشئ عليها المجتمع فى سبيل تحقيق مقاصدها وبلوغ أهدافها . فإذا توافرت روح الديمقراطية فى القيادات العليا التى تستحوذ على هذه السلطة كانت الحرية السياسية إحدى الدعائم الرئيسية التى ينهض عليها نظام الحكم .

فالحرية السياسية تدور مع السلطة السياسية التى تشكل أهم عناصر الدولة وجوداً وعدما ولا يتصور قيامها فى ظل جماعة من الناس كالقبيلة أو العشيرة لتكوين دولة بالمفهوم الحديث .

فإذا كانت الحرية السياسية ـ وفقا لما أثبت التاريخ ـ إحدى الأصول الأولى التى قام عليه الإسلام منذ نشأته الأولى التى تؤرخ بالبعثة النبوية ، فإن معنى ذلك أن هذه الحرية قد نشأت قبل قيام السلطة السياسية فى الإسلام إذ تكونت أول دولة فى التاريخ الإسلامى بالمدينة برياسة النبى صلى الله عليه وسلم منذ هاجر إليها . فكيف يستقيم فى المنطق أن توجد حرية سياسية بغير سلطة سياسية ؟.

إن التناقض الذى يبدو بين هاتين الحقيقتين المشار إليهما سرعان ما يتهاوى إذا علمنا أن الإسلام ينفرد بين الديانات السماوية بأنه دين ودولة معا ، بمعنى أنه يضع بين يدى إمام المسلمين زمام السلطتين الدينية والسياسية معا ، إذ يتناول شئون الدين فينظم العبادات التى تصل المرء بخالقه ، كما يتناول شئون الدنيا فينظم أحكام المعاملات التى تربط الناس

بعضهم ببعض . فلا غرو أن يدعو الإسلام إلى الحرية السياسية منذ مهبط الوحى تحقيقا لرسالته فى تنظيم الجماعة وتوحيدها ، وأن يؤكد دعوته تلك بعد قيام دولته الأولى فى يثرب لدعم بنيانها وتثبيت قواعدها على على أسس سليمة دائمة لا يتطرق إليها الوهن على اختلاف الزمان والمكان .

ومن ثم كانت هذه الحرية من المبادىء الجوهرية التى أرساها التشريع الإسلامى وجعلها فى خـــدمة العقيدة والدولة ، بل الإنسانية جمعاء ، ذلك أن سيادة البشرية هى عليا الغايات فى الدعوة الإسلامية .

ولقـــد حرص الإسلام على تنظيم الحرية السياسية على نهج يكفل سلامتها ويمنع المغرضين من استغلالها والانحراف بها عن المعانى الحكيمة التى شرعت من أجلها وهى صلاح الفرد وصلاح المجتمع .

الحرية أساس القيم الإنسانية :

والحرية السياسية من الحقوق الطبيعية المقررة فى الإسلام وهى تنبع من جوهر عقيدته السمحة التى تدعو إلى السلام بين الناس أجمعين ، فالسلام هو الهدف الأكبر لهذه العقيدة ، وهو فى الوقت ذاته المنهاج القويم لنشر القيم الإنسانية الفاضلة وما يترتب عليها من طمأنينة الخلق وسعادتهم ولا يتحقق الأمن والسلام إلا فى ظل المساواة والتكافؤ بين الناس فى الحقوق والواجبات ، مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم وألسنتهم ، ومعتقداتهم . ومن ثم جاء الإسلام ليؤكد السلام على الأرض عن طريق الإيمان بالمثل الإنسانية العليا وهى الحق والخير والعدل .

والحرية هى المحور الذى ترتكز عليه هذه القيم ، فلا تقوم فضائل فى ظل العبودية ، بل تعصب للباطل ، وعزة بالإثم ، وعدوان على مقدسات الإنسان .

والعقيدة الإسلامية أساسها التوحيد ، وهو يحمل المعنى الحقيقى للحرية ، فما دام الله وحده هو الغنى ، وهو القوى الدير ، فليس لإنسان أن يستعلى أو يتجبر على آخر ، أو يسلبه حقا من حقوقه ، ولا إله إلا الله ، فلا سيطرة لفرد أو جماعة أو طبقة أو طائفة أو جنس على غيره ، فالناس سواسية ، وهم إخوة فيما بينهم وعباد لله وحده .

« يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم :

(لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى) .

وفى حجة الوداع يقول :

(أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن

أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض فضل إلا بالتقوى » .

وعلى هدى هذه المساواة قرر الإسلام الحقوق القانونية والسياسية والاجتماعية للفرد والجماعة ، وألزم الدولة مسئولية صونها وضمانها ، وتهيئة السبيل للمواطنين كى يمارسوها .

صور الحرية السياسية :

١ — نظام البيعة :

لا شك فى أن أهم الصور التى تتجلى فيها الحرية السياسية فى الإسلام هى نظام البيعة فلا يتم تنصيب خلف لرسول الله وإمام على المسلمين إلا من هذا الطريق ، فلا تعيين لرئيس الدولة ، بل اختيار له ممن يملكون حق الاختيار ، وهؤلاء هم الصفوة المختارة من الأمة ممن يطلق عليهم أهل الحل والعقد ، فإذا أجمعوا على ترشيح أحد المسلمين للخلافة بايعوه على السمع والطاعة والنصرة ، ثم يتبعهم الجمهور فى المبايعة ، أما إذا تعذر شرط الإجماع ، فيؤخذ بما ينعقد عليه رأى الأغلبية فى اختيار الرئيس الشرعى للدولة ، ويجوز أن يرشحه واحد أو يشترط فى ترشيحه اتفاق عدد من المسلمين تجوز لهم صلاة الجماعة ، إلا أن الاتفاق على عدد المرشحين لا يغنى عن المرجع الأخير ، وهو اتفاق الجماعة ، بلا خلاف ، أو اتفاقها على القدر الذى يرجح به الاختيار وتمتنع به الفتنة ، وتلك عليا مراتب الديموقراطية التى ارتضتها روح الإسلام ومبادئه ، وسار عليها المسلمون فى تاريخهم ، فقد تم اختيار أبى بكر رضى الله عنه رئيسا للدولة الإسلامية بأن بايعه المهاجرون والأنصار بيعتهم الأولى التى تسمى فى التاريخ الإسلامى بيعة السقيفة ، وبعدها بايعوه البيعة العامة ، فكانت تلك أول ممارسة عملية لحق اختيار رئيس الدولة الإسلامية ، أو بمعنى آخر للحرية السياسية فى الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلم تعقد الخلافة لأبى بكر بحكم الجاه أو المنصب أو النسب ، وإنما لأنه اختيار قام على قدم المساواة ممن يملك هذا الحق من عامة المسلمين ، وعلى هذا النهج كانت مبايعة سائر الخلفاء الراشدين ، أما تولى الخلافة بالوراثة ، وقد جاء به معاوية بن أبى سفيان لأول مرة فى الإسلام ، فهو أمر تأباه روح الإسلام وتعاليمه ، إذ أنه مثار خلاف بين المسلمين ، ويتنافى مع مبدأ الحرية السياسية بما دل عليه تاريخ التنازع على الحكم منذ عهد يزيد الذى عهد إليه أبوه معاوية بالخلافة من بعده تنفيذا لأغراض سياسية . (يتبع)

حسن فتح الباب

يُسر الدين الإسلامي وسماحته

للأستاذ عباس طه

تضمن الدين الإسلامي نهياً عن التشدد في تطبيق أحكامه تشدداً يوجب السآمة والملل، أو العجز عن أداء الواجبات، وحثاً على القصد والتوسط في أداء التكاليف الشرعية بدون إفراط أو تفريط. والتشدد في الدين في مفهومه العام هو التعمق في تطبيق قواعده الحكيمة السمحة، والإفراط في الأعمال والأقوال الدينية إفراطاً ضاراً. وذلك شر وبيل تجب مجافاته والفرار منه. فواجب على المؤمنين العاملين أن يزنوا قدرتهم على الاستمرار في أعمال الخير والبر بميزان الدين الصادق، فلا يرهقوا أنفسهم في عمل من الأعمال الدينية بدون حساب للقدرة على الاستمرار في أدائه بدون انقطاع، سواء كان ذلك العمل صلاة أو صياماً أو صدقة أو جهاداً أو غير ذلك من الأعمال التي لا بد منها لإصلاح الأفراد والجماعات. روى البخاري في كتاب الإيمان عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة ».

ولعل قائلا يقول: إن هذا الحديث وأمثاله إنما يناسب حال المؤمنين الأولين الذين كانوا يضحون بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، ويعبدون الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار بدون تؤدة أو هوادة، فاحتاجوا إلى تنبيه بأن دينهم يأمر بالرفق والتوسط في كل الأمور أما الآن فنحن في زمن قد هجر فيه كثير من الناس قواعد دينهم الأساسية، وأخلاقه الفاضلة، التي سعد بالاستمساك بها من كان قبلهم من المؤمنين حقاً، فما لهؤلاء وما للعظة التي تأمر بالتوسط في أعمال البر وتنهى عن المبالغة فيها خوفا من السآمة والملل أو العجز عن الاستمرار في أدائها. فترى الآن كثيراً من الناس يجاهرون بالفسوق والعصيان والإمعان في الشهوات الفاسدة الضارة بالأنفس والأموال، على عكس أسلافهم من المؤمنين الذين كانوا يرهقون أنفسهم في سبيل الله ومن أجل الله. والجواب أن هذا الكلام حق لا ريب فيه وأن الفساد الذي طرأ على الأخلاق أصبح داء عضالا، ولكن النظر في هذا الحديث وأمثاله فيه عظات وعبر لأولئك الذين هجروا العمل بقواعد دينهم الحكيمة. فلعل هؤلاء يخجلون من أنفسهم

ومن حسبانهم فى عداد المسلمين المؤمنين حقاً إذا علموا أن أسلافهم الأولين كانوا يجهدون أنفسهم فى أعمال البر ويبالغون فى طاعة ربهم مبالغة قد تضر بأنفسهم وأموالهم وأهليهم، فاحتاجوا إلى نهى عن الزيادة الضارة التى قد تكون سبباً فى العجز عن العمل عاجلا أو آجلا. لعل هؤلاء تؤثر فيهم الموعظة الحسنة ويدركون أن القدوة الصالحة تنقذهم وتنقذ أمتهم من فوضى الشهوات الضارة، وذل المعاصى المخزى، فيكفون عن الموبقات، ويعملون الصالحات التى تسعدهم فى دنياهم وآخرتهم.

ومع هذا فإنه يوجد فى زماننا كثير من الجهـلة يرهقون أنفسهم بالقيام بالأعمال المندوبة، من أذكار وأوراد ونحو ذلك فتشغلهم عن أداء الفرائض التى لابد منهـا لصلاحهم وصلاح المجتمع. ومنهم من يستمسك بعادات فاسدة فيرهق نفسه فى سبيل إحيائها باسم الدين ويترك ما هو واجب عليه اكتفاء بها فترى بعض الجهلة يتهالكون على الإنفاق فى إحياء الموالد المبتدعة التى نهى عنها الدين ويتركون زكاة المال وصلة الأرحام وإغاثة الملهوف. ومن هؤلاء الجهلة يتشدد فيما لا فائدة فيه أو فيما عفا الشارع الحكيم عنه، كمن يضره الوضوء أو الغسل فيغتسل، مع أن الشارع شرع له التيمم فى هذه الحالة، أو يضره الصيام فيصوم مع أن الشارع نهى عن الصيام فى هذه الحالة.

وقد وردت أحاديث كثيرة فى الدلالة على هذا المعنى، منها ما رواه مسلم: «كان أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل».

وروى البخارى ما معناه أن بعض المسلمين نزل ضيفا على صديق له فرأى إمرأته رثة، فسألها عن سبب ذلك فقالت له: إن أخاك منصرف إلى عبادة الله، فلما جن الليل وناما قام صاحب المنزل للصلاة فمنعه الضيف، ولم يزل به حتى قرب الفجر فقاما معا للعبادة ثم بعد ذلك نهاه عن مواصلة العبادة وقال له: إن لبدنك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا، فينبغى مراعاة هذه الحقوق كلها مع عبادة الله، وهذه هى قواعد الإسلام الذى جاء باليسر فى كل شأن من شئونه.

لم تكن سماحة الدين الإسلامى وسهولته مقصورة على رفع الحرج والمشقة فى العبادات والمعاملات المتعلقة بأهل هذا الدين فحسب بل سماحة الدين الإسلامى تتجلى فى معاملة أعدائه وخصومه بصورة لا مثيل لها فى الأديان الأخرى، حتى مع المشركين الذين كانوا يحاربون الله ورسوله بكل مايستطيعون من قوة وبأس، فإنه قد اتسع صدره لهم فى إبان قوته، مع شـدة خصومتهم، ومحاولتهم القضاء عليه بكل ما يستطيعون.

عامل الدين الإسلامي الكتابيين الذين جنحوا للسلم ورضوا بأن يدفعوا ما فرضه عليهم من ضرائب هينة معاملة أهله من المؤمنين حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) من الحقوق والواجبات المتعلقة بأمر الحياة ، وأباح لهم التمتع بعقائدهم وعباداتهم التي لا يقرها بدون حرج ، وكان يقتص للضعيف منهم كما يقتص للضعيف من المؤمنين بدون فرق . وكان صلى الله عليه وسلم يضرب للمسلمين أعظم الأمثال على هذه السماحة بنفسه فكان يعامل يهود المدينة ويشترى منهم ما يحتاج إليه من السلع الموجود مثلها عنده إلى حد أنه رهن درعه عند أحدهم مع سلطانه الواسع على جميع نفوس مواطنيه يومئذ ليكون هو نفسه مثلا لجميع المسلمين ، وليس أدل على شعور المسلمين نحو أهل الكتاب من قوله تعالى « ألم ، غلبت الروم ، فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين » وذلك أن الفرس حاربوا الرومان فى ذلك العهد فى أطراف الشام ، وهى أدنى أرض العرب فانهزم معه الروم وهم مسيحيون وغلبت فارس وهى يومئذ وثنية تعبد النار لحزن المسلمون لذلك ، وفرح المشركون وقالوا : إن هزيمة الروم الكتابيين وظهور الوثنيين عليهم فأل حسن للوثنيين . فنزلت هذه الآية الدالة على أن الروم ستظهر بالفرس وقد تحقق ما أخبر به القرآن وغلبت الروم الفرس بعد ذلك فى المدة التى ذكرها القرآن فى هذه الآية فهذا مثل واضح يدل على ما كان فى نفوس المسلمين من المودة لأهل الكتاب الذين لم يناصبوهم العداء ، ورضوا بأن يخضعوا للنظم الإسلامية .

ولم تقتصر معاملة المسلمين لأهل الكتاب على ما ذكرنا ، بل نص القرآن الكريم على أكثر من ذلك ، فأباح للمسلمين طعام أهل الكتاب الذى لا يختلف مع نصوصه القاطعة كما أباح أن يتزوج الرجل من نسائهم ، وإنما لم يبح للمرأة المسلمة أن تتزوج كتابيا حرصا على الولد لأن الشريعة جعلت للرجل سلطة التربية . فلو أباح للمسلمة أن تتزوج كتابيا لترتب على ذلك أن يكون الولد كتابياً وليس مسلماً .

أما المشركون فإن الإسلام كغيره من الأديان الأخرى كان شديداً عليهم ، فلم يقبل منهم جزية لأنهم كانوا يعبدون غير الله وكانوا لا ينفكون عن محاربة ما يقتضيه العقل من عبادة إله واحد منزه عن كل ما يليق به . ومع ذلك فقد قال بعض الأئمة : إنهم إذا دفعوا الجزية يعاملون معاملة أهل الكتاب . فهذه المعاملة لا نظير

(البقية على صفحة ١١٩)

الكتب

١ - تخريج الفروع على الأصول :
للإمام الزنجانى

قام بتحقيق هذا الكتاب والتعليق عليه الدكتور محمد أديب صالح الأستاذ بكلية الشريعة فى جامعة دمشق ، وقدم له الدكتور محمد سلام مدكور رئيس قسم الشريعة بكلية الحقوق فى جامعة القاهرة .

أما المؤلف فهو الإمام أبو المناقب شهاب الدين محمود بن أحمد الزنجانى ، أحد أئمة علماء القرن السابع الهجرى ، ولد بزنجان بالقرب من أذربيجان ، ثم استوطن فيما بعد بغداد ونشأ بها ، حيث درس علوم اللغة والدين ، كما درس بالمدرسة النظامية ، ثم المستنصرية ، وبرع فى الأصول واللغة وقد صنف فى تفسير القرآن واختصر الصحاح للجوهرى .

والإمام الزنجانى ولى القضاء ببغداد ووصل إلى نائب قاضى القضاة ، وقد استشهد أيام نكبة بغداد بالمغول ودخول هولاكو عام ست وخمسين وستمائة من الهجرة .

وأما الكتاب فهو - كما يذكر المحقق : محاولة منهجية ناجحة ، ونموذج رائع لخطط يرسم علاقة الفروع والجزئيات من أحكام الفقه ، بأصولها وضوابطها ، من القواعد والكليات ضمن إطار لتقييد الاختلاف بين المذهبين الشافعى والحنفى ، وبيان الأصل الذى ترد إليه كل مسألة خلافية ، وفى رد الجزئيات إلى الكليات ، وبيان الأصول التى ينتمى إليها الاختلاف ليعرف بأن الاختلاف فى جملته لم يكن من الاختلاف المحرم ، لأنه لم ينشأ عن عبث أو هوى ، وإنما كان فى حدود ما يحل الاختلاف فيه » .

لم يستوعب الكتاب كل أبواب الفقه ، وإن كان قد استوعب معظمها ، فقد عرض بعد أبواب العبادات للبيوع والغصب والنكاح والجراح ، والحدود ، والسير ، كما لوحظ أن الكتاب قد اقتصر على مذهبى أبى حنيفة والشافعى .

ويذكر المحقق أن المؤلف لم يقصد إلى أن يكون كتابه مصنفا فى أصول الفقه أو كتابا

فى القواعد أو الفروع وإنما أراده كتابا يجمع بين الأصول والفروع فى مسلك متميز .

ومنهج المؤلف يوضحه فى مقدمته وهو يقول « فبدأت بالمسألة الأصولية التى ترد إليها الفروع فى كل قاعدة ، وضمنتها ذكر الحجة الأصولية من الجانبين ، ثم رددت الفروع الناشئة منها إليها ، فتحرر الكتاب مع صغر حجمه حاويا لقواعد الأصول جامعا لقوانين الفروع » .

وكان من الإنصاف أن أشار المحقق إلى إلى أن أبا زيد عبيد الله بن عمر بن عيسى الدبوسى من أئمة الحنفية المتوفى عام ثلاثين وأربعمائة من السنة الهجرية قد سبق الإمام الزنجانى فى هذا الطريق ، فوضع كتابا فى اختلاف الفقهاء ، أسماه « تأسيس النظر » وإن كان الزنجانى لم يكن على علم بهذا الكتاب ، ثم عقد المحقق بعد ذلك مقارنة على جانب من الأهمية بين عمل الإمامين الجليلين .

كما كان من الأمانة العلمية أن أخذ الدكتور محمد سلام مدكور على المؤلف ، أنه خالف فى نقله المذهب الحنفى فى عدد من الأحكام الفقهية ، كما خالف فى النقل بالنسبة لبعض المسائل العلمية ، وذكر من هذا اثنى عشر مثلا .

ومن الإنصاف أن نذكر أن المحقق بذل جهدا مشكورا فى إخراج هذا الكتاب النادر من تراثنا الفكرى الإسلامى ، وأن كلية الشريعة بجامعة دمشق كان لها السبق فى الفضل عندما يسرت نشره لأول مرة ، فأضافته إلى المكتبة الإسلامية كتابا سد فراغا واسعا .

* * *

٢ — فى الإيمان والإسلام

الأستاذ أحمد حسين المحامى

يقع كتاب الأستاذ أحمد حسين فى مائتى صفحة ، وقد قسمه إلى سبعة فصول فتناول فى الفصل الأول الإيمان وأثره كغريزة أولا وكمصدر من مصادر الرقى والحضارة ثانيا ، ثم كينبوع للعظمة الشخصية ثالثا .

وتناول فى الفصل الثانى الإيمان ومحوره : تحدث عن الشك كسبيل إلى اليقين ، وعن وجود الله كبديهة عقلية، وعن الحياة كدليل الله الحى ، وعن العقل ومن أين جاء .

وتناول فى الفصل الثالث الإيمان فى صورة الأولى فعرض لتطور العقيدة من عبادة الأمهات إلى عبادة الحيوانات والنباتات والجمادات والكواكب إلى عبادة الخالق فى خليقته .

وتناول فى الفصل الرابع الحقيقة ، فعرض لنظرية الحلول حيث غمرت هذه

النظرية العالم فى مرحلته العقلية الثانية ، فلم تعد الكائنات المعبودة آلهة بذواتها ، بل مسكنا للآلهة وصوراً لها على الأرض ، كما عرض لفكرة التوحيد فى مصر الفرعونية والمجتمع الإغريقى وعند الفرس والهنود .

وتناول فى الفصل الخامس الأنبياء والمرسلين ، وما مروا به من امتحانات قاسية ، كما تناول الوحى المحمدى والانقلاب الذى أنشأه .

وتناول فى الفصل السادس العرب والوحى فعرض لعجز العرب عن محاكاة القرآن ، ولموقف القرآن من العلم ، وللوحى كذروة للإلهام ، ولنبوة محمد وأن ثبوتها ثبوت لكافة النبوات .

أما فى الفصل السابع والأخير فقد قدم المؤلف دراسة مقارنة بين الإسلام وسائر الأديان فى نطاق التوحيد ، ونطاق الانتشار ، وخرج من هذه الدراسة المقارنة بمميزات الإسلام على غيره ، منها التوحيد المطلق بما يتفق والتفكير السليم الناضج فى ذات الله الخالق ، ومنها أنه دين الأخوة العالمية ومنشىء التكافل الاجتماعى .

وقد ختم المؤلف دراسته القيمة ببحث عرض فيه آراء وشهادات بعض علماء الغرب للحضارة الإسلامية ، من أمثال غوستوف لوبون ، وويلز ، ولوثروب ستوارد الأمريكى ودرابر الأمريكى أيضاً .

ذكر المؤلف فى مقدمته أن هذا الكتاب كتبه على شكل رسالة منذ نيف وعشرين سنة ، ولم ينشر من بحوثها إلا القليل وهو يدفعها إلى المطبعة منذ شهور ، ثم يقرر فى هذه المقدمة أن حديثه وتفكيره موجه دائما نحو الإنسانية فى مجموعها على اختلاف أديانها وأجناسها وألوانها وقومياتها ، كما يقرر أن المادية هى الخطر المشترك ، وقد حان الوقت ليدرك كل صاحب عقيدة دينية أياً كان موضوعها ومحورها ، أن الخطر الذى أصبح يهدد عقيدته ليس ما يقول به دين آخر ، وإنما الخطر الذى أوشك أن يهدد العقائد كلها هو هذه المادية الطاغية المسعورة .

وبعد - فالحق الذى لا جدال فيه أن الأستاذ أحمد حسين - وهو أشهر من أن يعرف به فى صدق عقيدته ، وسعة أفقه واعتزازه بمبادئه - قد قدم دراسة منهجية فى كتابه اتسمت بالعمق والدقة ، وإن كان لابد من الوقوف فى بعض أفكار الكتاب ، فإن هناك بعضا من الملاحظات لا تنقص البحث شيئا من قدره .

فقوله عن الأنبياء : « هؤلاء الأئمة الهداة هم الذين أطلق عليهم البشر بعد أن أطلقوا على أنفسهم لقب الأنبياء والمرسلين ، والحقيقة أن الله هو الذى لقبهم بهذا اللقب فيما أوحى إليهم ، وما ورد على ألسنتهم فإنما

فى مجال التبليغ عن الله عز وجل ، وبذلك تزيل لبسا ، فربما يتراءى البعض أن النبوات مكتسبة وليست منحا من الله ، وحتى حديث المؤلف عن مراحل العقل البشرى ، يكاد يوهم القارىء بأن العقل وصل بإمكانياته إلى التوحيد المطلق ، والواقع أنه وصل فقط باستعداده إلى قبول هذا التوحيد المطلق الذى جاءت به رسالات السماء .

وذكر المؤلف أن حجة الإسلام الكبرى ومعجزته التى لا تفوقها معجزة هو أنه استطاع أن يوطد سلطان عقيدته سواء فى حياة الرسول أم بعد مماته ، والحق أن المعجزة الكبرى الخالدة هى القرآن وبقاء الإسلام ليس وثيقا إلا بخلود القرآن .

وبينما يؤكد المؤلف أنه من المستطاع أن يفسر القرآن على ضوء العلم الحديث ، ينسى قوله قبل ذلك أن القرآن ليس كتابا علميا بالمعنى الفنى ، والحق معه ، فالنظريات العلمية قابلة للأخذ والرد والمد والجزر وما أحرانا أن نسمو بالقرآن عن كل هذا ، وحسبه أن يكون كتاب هداية إلى خير الإنسانية فى شتى المجالات ومنها العلم .

إذا كان للأستاذ أحمد حسين قبل هذا الكتاب كتاب « الطاقة الإنسانية » فإن كتابه الجديد « هو الطاقة الدينية » وكلا الكتابين سدا فراغا فى مجال الفكر .

٣ — أحمد زكى الملقب بشيخ العروبة :
للأستاذ أنور الجندى

هذا الكتاب أحد أعداد سلسلة أعلام العرب التى تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، وهو ترجمة وافية عن حياة شيخ العروبة وآرائه وآثاره .

أبرز الأستاذ أنور الجندى معالم حياة أحمد زكى وجملها تتمثل فى :

١ - عمله من أجل إحياء الآداب العربية وتكوين « الخزانة الزكية » .

٢ - رحلاته .

٣ - تحقيقاته ومراجعاته فى الأدب والتاريخ والجغرافيا .

٤ - معاركه ومساجلاته .

٥ - عمله من أجل الكشف عن أمجاد العرب والإسلام .

٦ - اهتمامه البارز بالأندلس .

وبعد أن سرد وقائع حياة شيخ العروبة فى سطور وأشار إلى عمله الفكرى الذى بدأه بالترجمة وإحياء التراث ، والتأليف فيما يتصل بالتحقيق التاريخى واللغوى للأعلام والمدن وغير ذلك ، وكان أبرز أعماله فى هذه الفترة اختصاره حروف الطباعة وإدخال نظام الترقيم الغربى إلى الكتابة العربية .

وأشار المؤلف إلى أنه قد أتيح لأحمد زكى

أن يطوف بالعالم العربى فى رحلات متعددة إلى الشام شمالا ، وإلى اليمن والحجاز جنوبا وكان بعض هذه الرحلات من أجل البحث والاستقصاء العلمى والبحث عن المخطوطات والبعض الآخر من أجل العمل السياسى . كما أتيح له أن يرحل إلى الفردوس الإسلامى المفقود لزيارة آثار العرب فى الأندلس ، وكانت رحلته هذه ذات أثر بعيد بلغ أعماق نفسه .

كما أشار المؤلف إلى أن شيخ العروبة حضر أربعة مؤتمرات للمستشرقين ، كان فيها علما تسلط عليه الأضواء ، عقدت هذه المؤتمرات فى لندن عام ١٨٩٢ ، وفى جنيف ١٨٩٤ ، وفى هامبورج بألمانيا عام ١٩٠٢ ، ثم فى أثينا ١٩١٢ ، وفى كل هذه المؤتمرات كان حركة دائبة وموضع تقدير العلماء والباحثين ممن اشتركوا فيها .

والحق أن اختيار الأديب الأستاذ أنور الجندى المرحوم أحمد زكى شيخ العروبة لتقديمه ضمن سلسلة أعلام العرب لمسة وفاء نحو أحد أعلام العروبة قضى حياته كلها متفانيا فى خدمة العروبة والإسلام ؟

محمد عبد الله السمان

(بقية المنشور على صفحة ١١٤)

لها فى الأديان الأخرى لأن التوراة صرحت لموسى بإعدام المشركين على بكرة أبيهم ، ونصت على استرقاق بعضهم واعتبرتهم كالأنعام التى لا حرمة لها .

من هذا يدرك القارىء الحصيف أن مخالفة الدين الإسلامى الذى جاء بكل الفضائل ونهى عن كل الرذائل شر مطلق ، وأن المسلمين الذين هجروا دينهم ، واستهانوا بآياته الحكيمة وبقواعده الصالحة لكل زمان ومكان ، قد أضاعوا أنفسهم وأضاعوا كرامتهم وأضاعوا استقلالهم ، وأصبحوا أذلة بعد عزة ومنعة . فعليهم أن ينتهوا عما هم فيه من شهوات فاسدة ، وعليهم أن يذكروا أن الله أمرهم بالاقتصاد فى أموالهم والمحافظة على أبدانهم من الإفراط فى الشهوات وأمرهم بأن يعدوا لأعدائهم كل ما استطاعوا من قوة وبأس . فعليهم أن يذكروا كل هذا وأن يستمسكوا به لعلهم يفلحون ؟

عباس طه

أنباء وآراء

بين الدين والحياة

رد على تعليق

كتب الأستاذ محمد عبد الله السمان تقديما لكتابى «بين الدين والحياة» فى عدد ذى الحجة ١٣٨٣ هـ أشكره عليه . ولكن لفت نظرى ما جاء فى آخر كلمته حيث قال : «ولكن إذا حاولنا من جانب آخر أن نناقش الكتاب فى مجمله فلن نجد ارتباطا كاملا بين بين العنوان والأبحاث الداخلية فيه فبحوث : الدين والدنيا ، والإسلام وزينة الحياة الدنيا ، كيف نفهم الإسلام ، سنة الله فى رقى الأمم . هذه البحوث لها ارتباط وثيق بالعنوان . أما بحوث رمضان ونزول القرآن ، الصيام ، ذكرى بدر ، أعيادنا ، الحج بين الأمس واليوم الدعوة إلى الله بالحسنى ، الوعد الحق ، الهجرة . فهذه كلها لا ارتباط لها بموضوع الكتاب وإن كان كل منها يقوم دراسة مستفيضة جديرة بالاستيعاب ... إلخ» .

والأستاذ السمان يقدم الكتب منا منذ مدة كما أن له كتبا إسلامية حديثة ولم أكن أظن أدنى ظن أن تبقى نظرته للإسلام والحياة نظرة الانفصاليين الذين يفصلون بعض تعاليم الإسلام عن الحياة مع أن كل تعاليم الإسلام للحياة وخدمتها حتى العبادات من الصلاة والصوم والزكاة والحج لها أوثق الصلات بالحياة بل إن غايتها تنظيم السلوك وتهذيبه فيها ، وإيجاد المسلم المهذب المتعاون . وأمامه نصوص كثيرة من القرآن والسنة لا أدرى كيف غابت عنه «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه) إلى غير ذلك من النصوص وكل فاهم للإسلام دارس له ولو أدنى دراسة يفهم جيداً حقيقة الصلة بين الصيام ، والحج ، وبين الحياة وإلا فما قيمة هـــذه العبادات فى تهذيب سلوك الإنسان فى الحياة وإيجاد الروح التعاونية فيه ، وما معنى أن الحج مؤتمر عام للمسلمين وفرصة لتعارفهم وتعاونهم ، وما معنى أن الصيام يعلم المسلم العطف على أخيه ومساعدته كما يعلم الصبر على شدائد الحياة ؟؟!!

ثم غزوة بدر : واتخاذها درسا من الحياة يلقيه المسلمون الأول على من بعدهم ، وإبراز مواطن القوة التى تم بها النصر للمسلمين ولفت

نظر القارئ المسلم فى الظروف التى تمر بنا الآن - إلى موقف رائع لسلفه الصالح فى موقعة من المواقع الحربية تغير بسببها مجرى التاريخ الإسلامى - ليأخذ من هذا الدرس شحنة من الإيمان والقوة يجابه بها الأحداث التى تحيط به والتى ينتظر أن يخوضها ليصحح مجرى تاريخه . هل يعتبر هذا بعيدا عن الحياة ولماذا يقصها القرآن إذن ؟ ولماذا يدرسها العسكريون . . ولماذا . .

من الذى يقول إن لفت النظر إلى العبرة فى موقعة حربية انتصر فيها المسلمون مع قلتهم أمر بعيد عن الحياة ! ياسبحان الله . .

وأعيادنا : وهى مظهر من مظاهر الشخصية الاستقلالية للأمة ، ولماذا جعل الرسول لنا أعيادا خاصة ولم يرض لأمته أن تكون تابعة لغيرها فى أعيادها ، ثم كيف نحتفل بأعيادنا ، وكيف نتخذها فرصة للترويح عن النفس والأعياد وصلتها بالناحية الاجتماعية للأمة عامة . وإلى أى حد يجوز لنا أن نحتفل بأعياد غيرنا هل يعتبر مثل هذا بعيدا عن الحياة ! !

وبين الأمس واليوم : الذى جعلته عنوانا عن المنافقين فى الماضى والحاضر وأثرهم السيء فى الحياة وقلت كلما وجدت تصرفات المنافقين بالأمس تتغلغل اليوم فى أوساطنا الإسلامية وتتشرب بها نفوس كثير ممن ينتسبون للإسلام . أتساءل هل عرف هؤلاء موقفهم من الإسلام .

ثم إذا تحدثت عن أسلوب الدعوة التى سلكها الرسل حسب إرشاد الله لهم ثم قلت : « فهل نفطن فى هذا كله نحن الدعاة إلى الله الآن ورجوت أن نتخذ من آداب الرسل فى دعوتهم منهجا لنا فى دعوتنا الناس للخير أكون قد بعدت عن الحياة . . وهل مشكلة الدعوة الآن إلا من سوء أسلوب الدعاة ؟ !

والوعد الحق . الذى جعلته عنوانا لمشكلة تثور فى كثير من النفوس حين تقرأ « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » وغيرها من آيات تعد المؤمنين بالنصر ، ثم ترى واقعنا الآن ؟ وهم يظنون أننا مؤمنون وأردت تصحيح أفكار الناس وإزالة الشك من نفوسهم ووضع أيديهم على مواطن الضعف فى إيمانهم وتصرفاتهم ثم أدلهم على أسس العزة التى كتبها الله للمسلمين وأقول لهم : « إن العزة ليست عطاء ولا مائدة تنزل عليهم من السماء ولكنها ثمرة مجهود شاق من الأعمال التى ترتكز على الإخلاص وتنبعث من الإيمان .. الخ .

إذا قلت هذا لأدفع المسلمين إلى طرق الكفاح والعمل اللذين يحققان لهم العزة

والجد فى هذه الحياة يكون هذا القول والهدف منه بعيدين عن الحياة !

والهجرة . . التى جعلت عنوانها أيضا « أو الصراع بين العاطفة والعقيدة » واتخذت من هجرات الرسول وصحابته درسا عميقا يعلم المسلمين كيف يؤثرون عقيدتهم ومبادئهم دائما على عواطفهم ومصالحهم ، وما أكثر ما يتعرض كل واحد منا سواء أكان رجلا عاديا أم قائدا وداعيا - إلى الصراع بين عاطفته ومبادئه ، وما أحوج كل واحد منا كذلك إلى أن يتلقى فى حياته درسا عمليا من واقع حياة الرسول وصحابته فى هذه الناحية المهمة الحساسة فى الحياة هل يعتبر هذا بعيدا عن الحياة ؟ ! !

ومن العجب - ولا أقول أكثر من هذا لأنى لازلت أحسن الظن بالأستاذ الناقد من العجب أنه يذكر أربعة موضوعات لها صلة بالكتاب ثم يذكر تسعة موضوعات يقول « عنها إنها لاارتباط لها بموضوع الكتاب » ويهمل عمدا ذكر موضوعات أخرى مثل ، المترفون ودعوات الرسل والمصلحين الذى أخذ من الكتاب من ص ١٤ إلى ص ٤٣ وعلاقة المسلمين بغيرهم الذى أخذ عشر صفحات وحتى لوعد هذا وغيره لكان أكثر الكتاب فى رأيه بعيدا عن عنوانه ! !

والأمر بعد ما بنيت لا يعدو واحدا من اثنتين : إما أن الأستاذ الناقد لا تزال تشده إلى الفهم « الضيق العجائزى » أو الفهم الاستعمارى للإسلام رواسب أو روابط تشده إليه برغم ما يظهر به بيننا من فهم واع للإسلام .

واستيعابه لكل مناحى الحياة وعلاجه لكل مشاكلها ومظاهرها حتى عباداته جاءت لمعالجة مشاكلها والسلوك فيها ، وإما أن يكون حبه للظهور بمظهر الناقد قد أوقعه فيما وقع فيه . .

وكلا الأمرين لا نحبه لأخينا الأستاذ السمان . . وقد قلت من قبل إننى لازلت أحسن الظن به ولذلك لا أفترض أمرا ثالثا قد يفترضه الكثيرون . وهو سوء النية . .

فليقل لى الأخ الناقد : كيف يفهم الإسلام وصلته بالحياة . . مادام الصيام والحج لا صلة لها بالحياة وما دامت المعركة الحربية فى بدر والأعياد والنفاق والمنافقون ، والدعوة إلى الله وآدابها وكيفيتها لا صلة لهذا كله بشئون الحياة ؟ ! !

كم أحب له ألا يكتفى بقراءة العناوين إذا أراد أن ينقد أو يعلق وكم أحب له كذلك أن يقدر مسئولية الكلمة التى يكتبها . .

عبد المنعم النمر

فتاوى مختارة

تقديم : ابراهيم محمد الأصيل

خطبة العيدين والجمعة : وهل تصح بغير العربية ؟

السؤال :

فى بلدتنا بومباى بالهند مسجد كبير يصلى الناس فيه الجمعة والعيدين خلف إمام شافعى يخطب بالعربية فقط . وقد جرى التقليد فى صلاة العيدين بعد تمام الخطبة أن يقوم مترجم فيترجم الخطبة إلى اللغة الأردية (اللغة المنتشرة بالهند) ليدرك المصلون معناها .

فهل يجوز هذا فى مذهب الإمام الشافعى أم لا ؟ ولا بأس من بيـــان المذاهب الأخرى .

وهل يجوز للخطيب يوم الجمعة أن يخطب بالعربية ثم يترجمها إلى لغة أخرى (كالأردية مثلا) قبل الصلاة أم لا ؟

عبد القادر لملهى
بومباى — الهند

الجواب :

يجوز فى صلاة العيدين ترجمة الخطابة لغير العربية بعد أدائها بالعربية ، والمعلوم أن سماع الخطبة فى العيدين ليس واجباً وإنما هو سنة .

أما خطبة الجمعة فيجب أن تكون باللغة العربية فى المشهور من مذهب الشافعى .

واتباعا لمذهب مالك خلافا للحنفية إذ يجوز عندهم بغير العربية مطلقا ، ويجوز عنـــد الحنابلة لغير القادر الخطبة بغير العربية .

فإذا على المشهور من مذهب الشافعى يجب أن تكون خطبة الجمعة بالعربية ، كما يجب أن يسمعها أربعون وإن لم يعرفوا لغـة الخطيب أو لم يفهموا معنى الخطبـة إذ لا يشترط فهم معناها .

وعليه : فيقتصر على إلقائها بالعربية وإن شاء الخطيب ـ أو غيره ـ ترجمها للمصلين

بلغتهم بعد الصلاة لا قبلها ، محافظة على الموالاة بين الخطبة والصلاة .

فيعيد حينئذ ترجمة نصها أو يشرحها ويبين ما جاء فيها باللغـــة التى يفهمها الحضور .

المسبحة من عظم الفيل :

السؤال :

ما حكم المسبحة المصنوعة من سن الفيل أو من عظم الحيوانات غير مأكولة اللحم وذلك من حيث طهارتها من عدمه وهل يؤثر حملها — إن قلنا بنجاستها — فى صحة الصلاة ؟

آدم زوزور عبد الله
أريتريا

الجواب :

مذهب المالكية أن المسبحة المصنوعة من عظم الحيوان الذى يحرم أكله كالبغال ـ نجسة ، ولو ذكى الحيوان الذى أخذ منه العظم ؛ لأن الذكاة لا تفيد فى محرم الأكل . أما الفيل فيكره أكله . فإن ذكى لأكل لحمه طهر بالذكاة بجميع أجزائه ومنها العظم .

أما إذا ذكى للانتفاع بجلده فلا يطهر لحمه ، وإذا يكون عظمه نجسا ، ومتى كانت المسبحة مأخوذة من عظم حيوان محرم الأكل مطلقا ، أو مكروه الأكل إلا أنه لم يذك ، أو ذكى لأخذ جلده ، فهى نجسة ، والصلاة بها باطلة .

أما مذهب الشافعى فهو أن المسبحة المأخوذة من عظم الحيوان الذى يحرم أكله سواء ذكى أم لا نجسة ، ومن هذه الحيوانات المحرم أكلها الفيل . وإذاً فتكون الصلاة بهذه المسبحة باطلة ، ولا يجوز الدخول فيها شرعا بالمسبحة .

ومذهب الحنفية فى هذا أكثر تيسيراً فباستثناء عظم الخنزير يكون عظم الحيوان غير المأكول وكذا سن الفيل طاهر ؛ لأنه لا يحله الدم . وعلى ذلك ـ عملا بمذهبهم ـ تكون المسبحة المأخوذة من سن الفيل أو عظم الحيوان غير المأكول طاهرة والصلاة معها صحيحة .

تبنى المسيحى للطفل المسلم :

السؤال :

رجل يونانى مسيحى الديانة عثر على طفل حديث الولادة ، وفى قبضة يد الطفل ورقة

صغيرة مكتوب بها أن اسمه محمد جمعه ، فتقدم الرجل للشرطة وأخبرها بالحادث وأظهر رغبته فى تربية الطفل فأجيب إلى طلبه ، ثم تقدم بعد ذلك للقنصلية اليونانية بعد بلوغ الغلام خمسة عشر عاما بإقرار يثبت به أنه تبنى الغلام ، وأنه منحه اسم العائلة التى ينتسب إليها نظراً لعدم إنجابه وأنه قد جرده من الاسم الأصلى.

فهل هذا التبنى صحيح ، وهل للفتى المتبنى أن يطلب رده للإسلام ، الذى هو ميال بطبعه إليه ، وخلاصه من التبنى ؟

زاهر سعيد
لبنان

الجواب :

التبنى على الوجه المفهوم من السؤال لا يجوز فى نظر الإسلام ، ولا تثبت به بنوة الولد المتبنى لمن تبناه ، بل لا يزال هذا الولد أجنبياً منه ليس عليه ما يجب على الولد لأبيه من الحقوق ، وليس له على ما تبناه شيء من حقوق الأبناء على الآباء .

قال الله تعالى : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين » ، والخطاب هنا لعامة المسلمين أى فهم إخوانكم فى الدين، فادعوهم إخوانا لكم مادام لم يعرف لهم آباء ، والولد فى نظر الإسلام مسلم من حيث نشأته ، وعليه أن يتقدم إلى المحكمة ليسجل إسلامه فى سجلاتها حتى لا يكون لمن تبناه سلطان عليه ، وعلى المسيحى الذى تبناه أن يخلى سبيله .

بين الصحف والكتب

جريدة المسلمين السود بأمريكا

نحن المسلمين نؤمن بأن الإسلام دين البشر جميعا ، وأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو بنص القرآن رحمة للعالمين ، ولذلك نفرح كلما رأينا هداية الله تشمل فريقا من الناس فتخرجهم من ظلام الكفر إلى نور الإسلام .

ولقد زار بلادنا فى هذه الأيام الملاكم العالمى « كلاى » الذى أعلن إسلامه ، وسمى نفسه باسم « محمد على » ونحن نرجو له التوفيق والرشاد والتمكن من مبادىء الإسلام فهما وعلما وعملا ولكننا قد سمعنا أن جماعة المسلمين السود بأمريكا التى ينتسب إليها هذا الملاكم تفهم الإسلام فهما يحتاج إلى تصحيح وتوضيح ، حتى لا يكون هذا الفهم حجة علينا عند غير المسلمين فى أمريكا وغيرها ، فالإسلام لا يعرف نبياً بعد خاتم المرسلين محمد ، والإسلام لا يفرق بين الأسود والأبيض ، فإذا اهتدى الأسود بهداية الله دخل الجنة ، وإذا اهتدى الأبيض بهداية الله دخل الجنة والإسلام لا يعرف عصبية اللون ولا عصبية الجنس .

ونحن نرجو من المختصين فى بلادنا وبخاصة فى الأزهر الشريف — حصن الدين ومعقل الشريعة — أن يصححوا لجماعة المسلمين السود المفاهيم الإسلامية والأحكام الدينية حتى لا ينحرفوا عن سواء الصراط .

مجلة لواء الإسلام

التعليق : يظهر أن كلمة النبى فى حاجة إلى توضيح وتصحيح عند هؤلاء السود وغيرهم ، وقد سألت أحد هؤلاء السود من الأمريكيين الذين عرفتهم بالأزهر فأيد ما قيل من أن هناك مصلحا اجتماعياً يطلقون عليه اسم « نبى » ، ويؤمنون به ويلتفون حوله وأنه وهم معه يؤمنون بالقرآن ، ويؤدون صلاتهم به وقوفا ودون ركوع وسجود ، وقد سمعت الملاكم « كلاى » فى جمعية الشبان المسلمين يقول إنه سيحمل إلى إخوانه فى أمريكا صور الاحتفالات التى أقيمت له هنا والحفاوة التى قوبل بها فى بلاد المسلمين ليعلموا أن إخوانهم هنا يعترفون بإسلامهم هناك ويؤيدونهم فى مواقفهم من البيض وفى مطالبهم الإنسانية المشروعة ، ومن ثم

كانت الحاجة ماسة إلى تصحيح بعض المفاهيم عند هؤلاء .

فأولا : كلمة النبي معناها المنبئ عن الله أو المنبأ من الله فهي معنى النبأ المنزل من السماء ومن زعم أنه ينبأ من السماء ، ويوحى إليه فهو مارق من الإسلام مخالف لصريح القرآن فقد قال الله فيه « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » .

ثانياً : الصلاة المفروضة على المسلمين يجب أن تؤدى كما كان يؤديها رسول الله ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما رأيتموني أصلي » . . .

ثالثاً : أن الإسلام كما يمقت عصبية البيض لجنسهم يمقت عصبية السود لجنسهم إلا أن يكون فى التعصب قوة تمنع عنهم الظلم وتدفع عنهم العدوان .

رابعا : أن الإسلام يفرض على المسلم أن يؤمن بما أنزل إلى محمد وما أنزل من قبل من الكتب السماوية ، كصحف إبراهيم ، والتوراة والإنجيل والزبور ، وليس بعد القرآن كتاب منزل ولا بعد محمد نبي مرسل وذلك يفهم من قول الله فى أول سورة بعد الفاتحة : « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون » .

خامسا : أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد وأن القرآن جيء به مصدقا لها ومهيمنا عليها فكان جامعا لما فيها من الحقائق الثابتة زائدا عليها بما شاء الله زيادته ، وكان سادا مسدها ولم يكن شيء منها ليسد مسده » .

سادسا . أن الإسلام هو دين الله الذى ارتضاه بل هو المسيحية واليهودية قبل أن تمتد إليهما يد التحريف والتزييف وإن نسبة المسيحية إلى فرد وهو « المسيح عليه السلام » ونسبة اليهودية إلى جنس وهم اليهود يدل على الانحراف بالدين عن صراط الله المستقيم ، وذلك بعض ما يفهم من قول الله : « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما ، وقوله تعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » .

* * *

وهذه الحياة

الشيخ : وهذه الحياة ياحيران ، وما أدراك ما الحياة التى خلقها الله فى الصخرة الموات الصماء ، فأصبحت حية ساعية . مدركة واعية غاضبة راضية ، شاكرة شاكية ضاحكة باكية ليت شعرى ما هو خط المصادفة فى خلقها من التراب والماء يا حيران .

« أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون » .

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » .

« هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون » .

« يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه . منه ضعف الطالب والمطلوب . ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز » .

« فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب . بل عجبت ويسخرون ، وإذا ذكروا لايذكرون ، وإذا رأوا آية يستسخرون » .

هذا مايقوله القرآن فى خلق الحياة من (الطين اللازب) وهو نفس ما يقوله العلم ، فما هى هذه الحياة التى أجمع العلماء مع القرآن على أنها تتكون من الماء والطين ، ثم وقفوا على عتبة الخفاء من سرها حائرين ؟ .

إنهم عرفوا الشىء الكثير من فروعها وأصولها ، وعناصرها وطبائعها ، ونظمها ونواميسها وعلموا أن جميع الأحياء تتألف من خلايا ، وأن الخلية تتكون من النطفة الأولى (بروتوبلاسما) وعلموا أن هذه النطفة الأولى مكونة من الكربون والأوكسجين والهيدروجين والنيتروجين . وجربوا أن يخلقوا الحياة فى شىء فعجزوا ، ثم اعترفوا مع القرآن باستحالة خلق ذبابة .

ألا تذكر يا حيران قول بخنر (إن الكرية ذاتها ، على بساطتها ذات بناء وتركيب يمتنع معه صدورها من الجماد مباشرة ، بل إن ظهورها من الجماد ليعد فى نظر العلم معجزة ليست أقل بعدا عن العقل من ظهور الأحياء العليا من الجماد مباشرة .

حيران - كيف لا أذكره ... ؟

الشيخ - ألا تذكر قول توماس اكوتياس ما من عالم عرف حتى اليوم خلق ذبابة ؟ .

حيران - كيف لا أذكره ... ؟

الشيخ - ألا تذكر قول روجو باكون : أنه لا يوجد عالم من علماء الطبيعة يستطيع أن يعرف كل شىء عن طبيعة ذبابة واحدة ؟

حيران - كيف لا أذكره ... ؟

الشيخ - ولكن هذا القرآن الذى يقول للناس « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ... » قد سبقهم جميعا يا حيران ...

حيران - أتراهم قد اقتبسوا قول القرآن يا مولاى ... ؟

الشيخ - إن العقول السليمة تتلاقى على الحق يا حيران ، وكلما ازدادت علما كان تلاقيها على الحق أيسر وأقرب .

« من كتاب قصة الإيمان »

للأستاذ نديم الجسر - مفتى طرابلس

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » . قرآن كريم

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الثاني ـ السنة السادسة والثلاثون ـ صفر سنة ١٣٨٤ هـ ـ يوليو ١٩٦٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

البلاغة بين الإيجاز والإطناب

بقلم : أحمد حسن الزيات

جرى عرف البلاغيين على أن يجعلوا الأسلوب الوسط الذي تساوت فيه ألفاظه ومعانيه أصل الأساليب . فإذا زادت الألفاظ على المعاني كان الإطناب ، وإذا زادت المعاني على الألفاظ كان الإيجاز ، فالطرق المستقيمة عندهم ثلاثة : مساواة وإيجاز وإطناب . وأنا أرى أن البليغ الحق لا يكون من طبعه الطول ولا الفضول وإنما يسلك إلى تأدية معانيه إلى ذهن القارئ أو السامع أحد طريقين : طريق المساواة والتقدير ، أو طريق القصر والحذف . أما الإطناب أو الإسهاب فليس من طبيعة اللغة العربية ؛ لأنها لغة سامية وأول الفروق بين اللغات السامية واللغات الآرية أن الأولى إجمالية والأخرى تفصيلية . تجد ذلك واضحاً في هذه الجملة التعجبية : قتل الإنسان ! فإن الفعل في هذه الجملة دل بصيغته الملفوظة وقرينته الملحوظة على الزمن والمعنى والتعجب والدعاء وحذف الفاعل ، وهي معان لا تستطيع أن تعبر عنها في اللغات الأوربية وهي آرية ، إلا بأربع كلمات أو خمس . وطبيعة اللغات الإجمالية الاعتماد على التركيز والاقتصار على الجوهر والتعبير بالكلمة الجامعة والاكتفاء باللمحة الدالة . أما طبيعة اللغات التفصيلية فهي العناية بالدقائق والإحاطة بالفروع والاهتمام بالملابسات

والاستطراد إلى المناسبات والميل إلى الشرح . ولم تعرف العربية التفصيل والتطويل والمط وتعاقب اللفظ كلما أو جملا على المعنى الواحد إلا بعد اتصالها بالآرية الفارسية فى العراق والآرية الأوربية فى الأندلس . نشأ ذلك فى أسلوب عبد الحميد ، ثم زاد فى أسلوب ابن المقفع ، ثم فاض فى أسلوب الجاحظ ، ثم طغى فى أساليب من خلفوهم من ضعفة الكتاب وعبدة الصنعة فى عهود الوهن والانحلال حتى ليدهشك أن تجد فى كتب الدواوين ، وعهود السلاطين ، كتاباً أو عهداً يبلغ به كاتبه مائة صفحة يحشوها بالفقر والأسجاع ولا يعنى بها شيئاً !! . وهذا هو الإسهاب الذى تنكره العربية ولا يسيغه العرب . وهذه الزيادة اللفظية التى يسميها البلاغيون إطناباً قد اشترطوا فى بلاغتها أن تسلم من الحشو والتطويل وأن تدل على معنى جديد فى الجملة تقتضيه الحال كتفصيل المجمل أو توضيح المبهم أو تأكيد الإسناد أو دفع الإيهام أو تقوية الأسلوب وتوشيته بضروب البيان وألوان البديع ليؤثر فى الذهن والنفس من طريق الامتاع والإقناع . وما دامت هذه الزيادة قد جاءت لمعنى وسيقت لغرض فلا تخرج الكلام عن حدود المساواة . فقول زكريا عليه السلام فى مقام الاسترحام : « رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً » . أبلغ من قول القائل فى المقام نفسه : « رب إنى كبرت وشبت » .

لأن طول القول الأول قد أطال فى معناه ، وقصر القول الثانى قد قصر به عن مداه ...

والإيجاز بقسميه أصل فى اللغة العربية لأنها لغة أمة صافية الذهن دقيقة الحس سريعة الفهم تشعر بقوة وتعبر بقوة وتفهم بقوة . وقوة الروح والقلب ، وقوة العقل والإدراك تلازمهما قوة اللسان والقلم أى البلاغة ، والبلاغة الإيجاز . والإيجاز امتلاء فى اللفظ وشدة فى التماسك . ولا ترى التميع والتفكك والانتشار الا حيث ترى الضعف فى شىء من أولئك . وملاك الإيجاز غزارة المعانى ووضوحها فى الذهن ، وطواعية الألفاظ ومرونتها فى اللسان . وإنما يكون العى والثرثرة ومضغ الكلام من جدب القريحة أو قلة العلم أو سقم الذوق ، وقديما قالوا : « من ضاق عقله اتسع لسانه » .

لذلك كان الإسهاب أول ما يصاب به ناشئة الكتاب ؛ لأن جهدهم القليل يضيق عن شرح الفكرة فيدورون حولها مجمجمين بالكلم الفوارغ والجمل الجوف . وهو اليوم فاش فى أساليب الصحف لأن أكثر كتابها يؤثرون الكم على الكيف فيكبرون الصغير ويطولون القصير وينشئون من المعنى القليل مقالة ، ويجعلون من الخبر العادى قصة ... وقد كان أحد شيوخ الصحافة يكتب مقالا فى عمودين كل صباح ، فإذا نظرت فيه على أن تقرأ سطرين وتترك أربعة بلغت آخره وقد حصلت من ثلثه على ما كان فى ثلثيه ،

وكأنك لم تحذف شيئا ! ! وأكثر رواة الأخبار فى الصحف لا يكادون يختلفون عن ذلك الرجل الذى تحدث عنه ابن الأثير فى كتابه (المثل السائر) إذ يقول :

« جلس إلى فى بعض الأيام جماعة من الإخوان وأخذوا فى مفاوضة الأحاديث وانساق ذلك إلى ذكر غرائب الوقائع التى تقع فى العالم فذكر كل من الجماعة شيئا، فقال شخص منهم: إنى كنت فى الجزيرة العمرية زمن الملك فلان وكنت إذ ذاك صبيا صغيراً فاجتمعت أنا ونفر من الصبيان بالحارة الفلانية وصعدنا إلى سطح طاحون ابنى فلان وأخذنا نلعب على السطح فوقع صبى منا على أرض الطاحون فوطئه بغل من بغال الطاحون فخفنا أن يكون آذاه، فأسرعنا النزول إليه فوجدناه قد وطئه البغل فختنه ختانة حسنة لا يستطيع الصانع الحاذق أن يفعل خيرا منها » .

« فقال له أحد الحاضرين : والله إن هذا عى فاحش وتطويل كثير لا حاجة إليه، فإنك بصدد أن تقول إنك كنت صبيا تلعب مع الصبيان على سطح طاحون فوقع صبى منكم إلى أرضها فوطئه بغل من بغالها فختنه ولم يؤذه . ولا فرق بين أن تكون هذه الواقعة فى بلد نعرفه أو لا نعرفه . ولو كانت بأقصى المشرق أو بأقصى المغرب لم يقدح ذلك فى غرابتها . وأما أن تذكر أنها كانت فى الجزيرة العمرية فى الحارة الفلانية فى طاحون بنى فلان فإن مثل هذا كله تطويل لا حاجة إليه والمعنى المقصود يفهم بدونه » .

وأعود إلى الإيجاز لأسوق إليك بعض الأمثلة على قسميه ، فمن الأمثلة على إيجاز المساواة والتقدير قول الله تعالى فى آخر قصة طوفان نوح : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين » . وقول الرسول الكريم فى تقييد الحرية : « إن قوما ركبوا سفينة فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع فنقر رجل منهم موضعه بفأس فقالوا له : ما تصنع ؟ قال : هو مكانى أصنع فيه ما أشاء . فإن أخذوا على يده نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا » .

* * *

كان أمراء النثر العربى من أمثال جعفر ابن يحيى وسهل بن هارون يتوخون جانب القصد ويؤثرون طريق الإيجاز حتى قال جعفر للكتاب : إن استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا . ويريد بالتوقيعات ما يعلقه الوزير أو الرئيس على ما يقدم إليه من الكتب فى شكوى حال أو طلب نوال وكانت تجرى مجرى الأمثال فى الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة كتعليقته على كتاب رجل شكا إليه عاملا من عماله : « لقد كثر شاكوك وقل شاكروك فإما اعتدلت وإما اعتزلت » .

وقيل لإياس : لا عيب فيك إلا أنك تطيل قال : أخيرا تسمعون أم شرا ؟ قالوا خيرا . قال : فالزيادة فى الخير خير ، روى ذلك

الجاحظ وعلق عليه بقوله : « وليس الأمر كما قال إياس، فإن للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية ، وما فضل عن مقدار الاحتمال ، ودعا إلى الاستثقال والملال ، فذلك الفاضل هو الهذر ، وهو الخطل ، وهو الإسهاب الذى سمعت الحكماء يعيبونه » .

كذلك كان أقطاب النثر الفرنسى من أمثال (شاتوبريان) و(فلوبير) يتشددون فى الإيجاز ولا يتسمحون فى التكرار حتى حرموا على أنفسهم استعمال اللفظ مرتين فى صفحة واحدة. وقد أخذ فلوبير فى إحدى رسائله على شاتوبريان أنه كرر لفظا مرتين فى وصفه قدوم (أودود) إلى روما فى كتابه (الشهداء). ومن كلام (بوالو): «يجب أن تعرف كيف توجز لتعرف كيف تكتب».

ونفور نوابغ الكتاب من الإطناب منشؤه فيهم تلك القوة البلاغية التى تحدد الغاية وتريد أن تبلغها من أقصر طريق . فهم لا يلغون لأنهم يعلمون المعنى الذى يفيد ، ولا يحشون لأنهم يعرفون اللفظ الذى يدل ، ولا يخبطون لأنهم يبصرون الأمد الذى يرام . أما الذين لا يقدرون ما يقولون أو لا يدرون أين يقصدون، فهم كالماء الحائم على وجه المنحدر قصاراه زبد وجرجرة ، أو كاللسان المخبول نطقه لغط وثرثرة ، وثرثرة اللسان كقرقرة البطن ، أصوات تذهب مع الريح ! !

والإيجاز فى البليغ قوة وروية وجهد ؛ لأن الإيجاز غربلة ونخل ، وتصفية وتنقية ، وتصحيح وتركيز . وذلك لا يتهيأ لك إلا بدوام النظر وطول التعهد ، ومهما تقلب الجملة على وجوه البيان فإنك لا محالة واجد فيها عوجا تعدله أو نتوءاً تسويه أو فضولا تشذبه .

قيل الرئيس الأمريكى ولسون وكان من رجال الخطابة : كم تنفق من الزمن فى إعداد خطبة تلقى فى عشر دقائق ؟ فقال : أسبوعين فقيل له : فكم تنفق إذن فى إعداد خطبة تلقى فى ساعة ؟ فقال : أسبوعا . فقيل له : فإذا طلب إليك أن تلقيها فى ساعتين ؟ فقال : ألقيها على الفور !

والمزية الظاهرة للإيجاز أنه يزيد فى دلالة الكلام من طريق الإيحاء . ذلك لأنه يترك على أطراف المعانى ظلالا خفيفة يشتغل بها الذهن ويعمل فيها الخيال حتى تبرز وتتلون وتتسع ، ثم تتشعب إلى معان أخر يتحملها اللفظ بالتفسير أو بالتأويل . والقران الكريم معجزة الدهر فى هذا الصدد .

وليس بسبيل الإيجاز البلاغى من يقص أطراف الخيال ويطفىء ألوان الحس ويترك أسلوبه كأسلوب البرق شديد الاقتضاب والجفاف ، فإن للكلمة الموجزة سحرا يأخذ بالقلوب وشعراً يجرى فى الشعور . وقد قال فيها سيد البلغاء محمد بن عبدالله : (إن من البيان لسحرا) وسماها الكلمة الجامعة وقال فى مقام الفخر والشكر : أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا .

أحمد حسن الزيات

التطوّرات التشريعيّة للطلاق

للأستاذ محمد محمد المدنى

– ٣ –

تكلمنا فى المقال السابق عن مذهب الشيعة الإمامية فى الطلاق ، وبينا أنهم يحكمون بعدم وقوع الطلاق الذى لم تتحقق فيه الشروط التى اشترطها الشارع ، وبأن للطلاق صيغة خاصة يشترط أن تكون فصيحة غير ملحونة ، وأن تكون مجردة من كل قيد ، حتى ولو كان معلوم التحقق ، وأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد ، أو بتكرار الصيغة متتابعة ، لا يقع به مع تحقق الشروط إلا طلقة واحدة ، وأن الطلاق بالكناية لا يقع ، وكذلك الطلاق بالإشارة إلا من الأخرس العاجز عن النطق ، ولا يقع بغير العربية مع القدرة على التلفظ بها ، ولا بالحلف واليمين ، ولا بالنذر والعهد ... إلخ

هذا هو مذهب الشيعة الإمامية ، وهناك من العلماء المجتهدين من اتجه هذا الاتجاه على الجملة – أى فى بعض هذه الأحكام التى ذكرها الإمامية ، وفى مقدمتهم من فقهاء الحنابلة ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم ، فقد قررا أن الطلاق الثلاث بكلمة واحدة لا يقع به إلا واحدة ، قال ابن القيم : «وأفتى به بعض أصحاب مالك ، حكاه التلمسانى قولا لبعض المالكية فى شرح تفريع ابن الجلاب ، وأفتى به بعض الحنفية – حكاه أبو بكر الرازى عن محمد ابن مقاتل ، وأفتى به بعض أصحاب أحمد – حكاه ابن تيمية عنه ... وجاء فى نيل (الأوطار الشوكانى) أن ابن مغيث نقله فى كتاب الوثائق عن محمد ابن وضاح ، ونقل الفتوى به عن جماعة من مشايخ قرطبة ، كمحمد بن على ، ومحمد ابن عبد السلام ، وحكاه أيضا عن على وابن مسعود وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير ، ونقله ابن المنذر عن أصحاب ابن عباس كعطاء وطاوس وعمرو بن دينار ، كما حكاه صاحب البحر عن أبى موسى [١] .

وهناك أيضا من علماء السنة من يقول بعدم وقوع الطلاق فى الحيض ، جريا مع القاعدة التى ذكرناها ، واستدلالا ببعض الأحاديث الثابتة ، وفى مقدمتهم أيضا ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، ورجحه الشوكانى فى كتابه (نيل الأوطار) [٢] .

وقد سلك المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر

---

(١) راجع البحوث التى كتبها المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى عن أسانيد قانون الزواج والطلاق رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ ص ٧٤ .

(٢) ص ٢٢٦ ج ٦ من كتاب نيل الأوطار المطبوع بالمطبعة العثمانية فى سنة ١٣٥٧ هـ .

المصرى ، فى كتابه (نظام الطلاق فى الإسلام) مسلك ابن تيمية وابن القيم فى ذلك ، حيث يقول [١] :

١ — الزواج عقد بين الزوجين ، وهما طرفا العقد ، والقاعدة العامة فى العقود أنها تلزم كل طرف من طرفيها بما التزم به من حقوق فى العقد وأنه لا يملك أحد منهما الإخلال بشىء من حقوق التعاقد ، وأنه لا يملك أحدهما فسخ العقد أو إلغاءه أو إنهاءه وحده ، إلا أن يرضى الطرف الآخر ، وهذا بين بالاستقراء التام لا يحتاج إلى دليل .

٢ — وكان العرب فى الجاهلية يتزوجون كما كانوا يتعاقدون بأنواع أخرى من العقود فى المعاملة ، وكان العـــرب أيضا يطلقون الزوجات ما شاءوا من غير قيد ولا حصر ، وجاء الإسلام فأقر كثيرا من عقودهم ومعاملاتهم مع تشريع جديد دقيق ، هذب به طرقا جمة من طرق التعاقد بينهم ، وأقر فيما أقر عقود الزواج ، وشرط فيها شروطا لتهذيبها ، وجعلها مطابقة للعدالة التامة .

٣ — ثم شرع فى تهذيب الطلاق ، وهو حل لعقدة النكاح ، يقوم به أحد طرفى العقد وحده ، وكان القياس — أو طبيعة التعاقد يقضى بألا يملك حل هـذا التعاقد إلا طرفاه معا ، واقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يشرع لعباده الإذن للرجل بالانفراد بالطلاق دون المرأة ، لما فى ذلك من المصلحة الظاهرة فلو لم يأذن الله بذلك ، لكان الطلاق باطلا كله ، إلا أن يرضى الطرفان ، كما هو فى سائر العقود ، فمن طلق كما أذنه الله فقد صح طلاقه ووقع ، ومن طلق على غير ما أذن الله كان طلاقه باطلا غير صحيح ؛ لأنه لا يملكه وحده بطبيعة التعاقد ، وإنما يملك ما أذنه الله به وما ملكه أياه ، وكان عمله هذا داخلا تحت عموم قول النبى صلى الله عليه وسلم : (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) وهو حديث صحيح رواه الإمام أحمد ، ومسلم فى صحيحه من حديث عائشة رضى الله عنها .

٤ — وهذا المعنى قد أشار إلى ما يقرب منه حجة الإسلام أبو بكر الجصاص فى أحكام القرآن (ج ١ ص ٣٨٥) بعد أن ذكر أن آية (الطلاق مرتان) تضمنت الأمر بإيقاع الاثنتين فى مرتين ، فمن أوقع الاثنتين فى مرة فهو مخالف لحكمها ، ثم فسر بعض الآيات الأخرى فى أحكام الطلاق ثم قال : (وحكم الطلاق مأخوذ من هذه الآيات ، لولاها لم يكن الطلاق من أحكام الشرع ، فلم يجز لنا إثباته ، مسنونا إلا على هذه الشريطة وبهذا الوصف ، وهو كلام جيد لولا قوله (فلم يجز لنا إثباته مسنونا .. إلخ) لأن الآيات والأحاديث لم تدل على طلاق مسنون وطلاق غير مسنون وإنما دلت على طلاق بأوصاف خاصة وشروط معينة أذن به الشارع ، فمن أوقعه على غير هذه الشرائط والأوصاف كان قد تجاوز ما أذن له

(١) من صفحة ١٤ وما بعدها .

فيه ، وأتى بعمل لا يملكه إذ لم يؤذن به من الشارع ، فكان لغوا ، فلم يجز لنا إثباته أصلا إلا على هذه الشريطة ، وبهذا الوصف » اﻫ .

ومن الذين سلكوا هذا المسلك الفقهى فى شأن الطلاق ، المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر الأسبق ، وله فى ذلك بحوث جيدة ، طبعت بعنوان « بحوث فى التشريع الإسلامى وأسبابه وأسانيد قانون الزواج والطلاق رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ » وقد تكلم فيها عن كثير من مسائل الطلاق مؤيداً هذا الاتجاه .

وكذلك تكلم فى هذا الشأن تأييداً لهذا المسلك فضيلة المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر السابق ، كما نرى فى كتابه « الإسلام عقيدة وشريعة » ومما قاله فى هذا الكتاب (١) :

« وإذن فالطلاق الثلاث فى كلمة واحدة ، لا يقع إلا واحدة ، وكما رسم الإسلام فى الطلاق التفريق .. وجعل الجمع لغوا لا يقع به شىء - أى فوق الواحدة - كذلك رسم فيه أن يكون منجزا ، أى موقعا بالفعل ، ليس معلقا على شىء يفعل منه أو منها ، كأن يقول إن فعلت كذا ، فأنت طالق ، وكذلك رسم فيه ألا يتخذه يمينا على شىء يفعله أولا يفعله كأن يقول : على الطلاق أن هذه السلعة بكذا ، أو امرأتى طالق إذا لم تكن السلعة من نوع كذا ، وهكذا من الأيمان التى تجرى بين الناس وهم فى أسواقهم ومجتمعاتهم دون أن يكون لزوجاتهم شأن بها .

وكذلك رسم أن يكون الطلاق فى طهر لم يمسها فيه ، فإذا طلقها فى طهر مسها فيه ، فإنه يكون لغواً ولا تأثير له على الحياة الزوجية ، وكذلك إذا طلقها فى غير طهر ، وهكذا وضع الإسلام للطلاق الذى يقع قيودا بالنظر إلى لفظه ، وبالنظر إلى أهلية الزوج وبالنظر إلى حالة الزوجة ، وبذلك ضاقت الدائرة التى يقع فيها الطلاق ويكون له تأثير على الحياة الزوجية التى استقرت وأخذت حظها من الوجود . . ونريد بهذا العرض أمرين : أحدهما أن الطلاق فى جميع صوره التى يقع فيها ليس إلا نوعا من إعطاء فسحة للزوجين يتدبران فيها أمرهما ...

أما ثانى الأمرين فهو تحديد ما يقع به الطلاق وما لا يقع تحديداً بينا واضحا عن طريق الفقه المأثور عن أئمتنا ، وفيه من اليسر ورفع الحرج ما يحقق سماحة الدين ، ويسر الشريعة وسيجد المصلحون فيه متى حسن النظر والاختيار الوقاية الكافية من ظاهرة كثرة الطلاق التى يزعم بعض الناس بحسب ما يذكرون من أرقام — أنها كثرة تهدد حياة الأسر ، وليس للأسر ما يهددها فى ظل الفقه الإسلامى الواسع إلا التزمت والجمود على مذاهب معينة ، تتخذدينا يلتزم ، وقانونا يتحاكم إليه الناس فيما بينهم .

(١) ص ١٦٤ .

يتبين مما سبق أن الفقهاء في مختلف العصور كان لهم اتجاهان مبعثهما أساسا هو النظر إلى حكم الطلاق في الأصل على أنه هو الحظر أو الإباحة .

وقد ترتب على الاتجاه الأول إلى حد بعيد كل ما يؤدى إلى التضييق في اعتبار صحة الطلاق ونفاذه ، كما ترتب على الاتجاه الثانى إلى حد بعيد أيضا كل ما يؤدى إلى اعتبار صحة الطلاق ووقوعه .

ونقول في كل منهما : « إلى حد بعيد » لأن كلا من الاتجاهين لم يقم على مجرد كون الأصل في الطلاق هو الحظر أو هو الإباحة ولكن على دراسة النصوص الواردة في الكتاب والسنة وشرحها وتفسيرها على ضوء روح التشريع الإسلامى والمصالح التى يرعاها والتطبيق العملى الذى كان على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين من بعدهم .

والواقع أن مجموع ذلك كله قد كون نظاما دقيقا للطلاق يضمن تمكين الزوجين من التريث في شأنه وعدم الإسراع في الوصول إلى مرحلته النهائية التى بها تنفصم عرى الزوجية ، وذلك بإيجاد عدة فرص للتدبر وتقدير الأمر على ضوء المصلحة الحقيقية البعيدة عن التأثر بالمؤثرات الوقتية ، ومن هنا كان تشريع الرجعة في الطلاق مرة بعد مرة ، وكان تشريع الطلاق الموافق للسنة والنهى عن الطلاق الذى يخالفها ، وكان تشريع التحكيم بين الزوجين وغير ذلك من كل ما من شأنه تعويق الوصول إلى النهاية المكروهة ، مع محاولة الإصلاح ، واقتلاع أسباب الخلاف ، وكل الفقهاء والمجتهدين متفقون على ذلك ، وإنما الخلاف بينهم في بعض الأحيان فرعى ، أو راجع إلى اجتهاد فريق في الوقوف عند الحدود التى رسمها الشارع واعتبار الخروج عنها مبطلا للتصرف واحتياط فريق بالحكم بعدم بقاء حل الاستمتاع وقيام الزوجية ، باعتبار أن الزوج قد استعمل حقا من حقوقه المشروعة وهو مكلف قاصد ، فلا يعطل نفاذ تصرفه وإن كان آثما في فعله .

وإذا أردنا أن نتابع هذا النظام الدقيق الذى وضعه الإسلام للطلاق ، ونتابع التطورات التشريعية التى مرت بأحكامه ومبادئه ، على وجه التفصيل ، فإن ذلك يقتضى منا إعداد مؤلف ضخم ، ولكننا نكتفى بعرض بعض الموضوعات التى دار حولها الخلاف ، واتصل بها التشريع الحديث في قوانين الأحوال الشخصية ، لنبين كيف تناولها البحث وما الذى انتهى إليها الترجيح وقام عليه العمل قضاء وفتوى :

وموعدنا للبدء في ذلك هو العدد القادم إن شاء الله تعالى .

محمد محمد المدنى

من روافد الثقافة الإسلامية :

رسالة الأصول للإمام الشافعيّ رضي الله عنه

للأستاذ الفاضل بن عاشور

— ٣ —

فى منتصف القرن الثانى من الهجرة تماما ، سنة ١٥٠ هـ ، لما كان فقه العراق قد بلغ شأوه الأقصى ، واستقرت أصوله على نحو ما أقرها عليه الإمام أبو حنيفة ، رضى الله عنه ، فانتهى دور التأصيل ، وابتدى دور التفريع على يد أصحاب الإمام أبى حنيفة .

وكان الفقه الحجازى يشتد نحو غاية كماله ، قد سلك الناس فيه طريق الموطأ الذى شاع ذكره فى الآفاق ، وجلب إلى مجلس مالك روادا ، وأصدر عنه أدلة .

يومئذ استهلت البلاد الشامية فى إقليم فلسطين ، عن وليد كريم ، من سلالة قرشية ولد بمدينة غزة سنة ١٥٠ هـ هو الإمام محمد بن إدريس الشافعى .

ورجع الوليد المغترب ، بعد أن أتم الحولين ، إلى موطن آبائه من بنى عبد مناف ببطاح مكة حول المسجد الحرام .

وكان فى مكة ، كما فى غيرها من الأمصار ، بيئة فقهية تكونت بالنشأة المتسلسلة للفقهاء عن أسلافهم جيلا لجيلا فى مكة ، من عهد فقيهها فى العصر النبوى ، عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، ولتلك البيئة الفقهية المكية ، مثل ما لغيرها من البيئات الفقهية فى الأمصار ، من الخصائص الأصلية والمناهج التخريجية ، ما يعطى الفقه المستنبط فيها مظاهر مختلفة عن الفقه المستنبط فى غيرها ، مما يشعر به الفقهاء يومئذ ، من اختلاف طرائق التفقه باختلاف فقهاء الأمصار ، فنشأ الإمام الشافعى بالضرورة على منهج بيئته ، سالكا مذهبها ، منطبعا عليها ، حتى تخرج على ذلك المنهج تخرجه الكامل ، فأصبح فقيه مكة ومفتيها ، واشتهرت نسبته إليها حتى قيل فيه « المكى » وعظم صيته على شبابه ، وعلا نجمه ، وأصبح علم بيئة فقهية : هى البيئة المكية ، وكان الحرم الآخر وهو المدينة داراً لمنهج فقهى ، وبيئة اجتهادية هى التى يقوم عليها مالك بن أنس صاعداً بسلسلتها إلى فقهاء المدينة من الصحابة وخاصة عبد الله بن عمر ، فلم يلبث الشافعى أن نهض بعبء الطريقة المكية حتى اجتذبته الطريقة المدنية التى كانت رسالتها قد ألقيت إليه فى الحرم المكى بتلقيه الموطأ وروايته وحفظه ، من قبل أن يتصل بمالك ويعرفه ،

وخرج الشافعى من مكة إلى المدينة فلقى مالكا وتخرج بفقهه تخرجا جديداً ، وروى عنه الموطأ مباشرة واختص به ، حتى عد أحد أصحابه . وأقام فى ملازمته حتى توفى مالك سنة ١٧٩ ، وبعد عودة إلى مكة ورحلة إلى اليمن ، دخل الشافعى إلى بغداد ، فاتصل بالبيئة الفقهية الثالثة ، التى اتضح نهجها ، واستقرت أصولها بالإمام أبى حنيفة ، ثم قام عليها أصحابه من بعده ، وهنالك ، فى بغداد ، اتصل الشافعى بالإمام محمد بن الحسن الشيبانى صاحب الإمام أبى حنيفة ، ومدون مذهبه ، فامتزج كل منهما بالآخر امتزاجا وثيقا ، قرب به الشافعى من مذهب أهل العراق ، وازداد فيه محمد بن الحسن قربا من مذاهب أهل الحجاز ، فنشأت من هذا الامتزاج الكريم مناظرات عالية ، سما بها الفقه ، وتحاكت فيها مذاهب أهل النظر ، ومذاهب أهل الأثر ، ولقد طفحت كتب كل من الإمامين الشافعى ومحمد بآثار تلك المناظرات .

وهنالك فى بغداد أيضا اتصل بالشافعى شاب نير من أهل الفقه ، والحديث ، والزهد : هو الإمام أحمد بن حنبل ، فاختص أحمد بالشافعى ، وتخرج عليه ، وتفقه به ، وعد أول تلاميذه ، وأخص أصحابه ، واتصل بينهما حبل الوداد ، موثقا صلة الأستاذية ، وحتى كان أحمد يقول : « الشافعى كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن » ، واشتد تلازم الإمامين الشافعى وابن حنبل فى بغداد حتى يروى أن الشافعى قال فى ذلك :

قالوا يزورك أحمد وتزوره
قلت الفضائل لا تفارق منزله
إن زرته فلفضله أو زارنى
فبفضله فالفضل فى الحالتين له

هذه الاتصالات الثلاثة بمالك ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل ترينا أن الشافعى ، وإن يكن بمذهبه أحد أئمة المذاهب الأربعة المقتدى بهم من جمهور المسلمين ، فإنه كان محور المذاهب الأربعة جميعها . باتصاله المتين ، تخرجا وتخريجا بأئمتها ، وبما جمع بينه وبينهم من ود واختصاص ، على الاختلاف فى الأصول والتباين فى المذاهب .

وفى ذلك ما يوضح أن الشافعى بمجرد هذه الصلات ، بله ما تكون له بعدها من صلات أخرى ، ذات شأن فى هذا المقام ، قد كان على موقف من الاتصال بالمذاهب المختلفة ، والممارسة للأصول المتباعدة فى البيئات الفقهية المتعددة ، مكنه من أن يناظر ويقارن ويناقش ، حتى ينتهى إلى ما لا يمكن أن ينتهى إليه غيره من استنباط أوجه الترابط بين تلك الأصول ، وشعب التفرق فيما بينها ، فيخلص من استنباطه ذلك ، إلى طريقة من البحث تستولد الكليات من الجزئيات ، وتستخرج القواعد من المسائل ، وتسمو بالمراس العملى

إلى البرهان النظري ، وتلك هي طريقة وضع العلوم : بجميع جزئياتها العملية ، ووضع القواعد الجامعة لها ، فلقد قرب الشافعي بين المناهج المتباعدة في الفقه ، بجمعه بينها في نطاق معرفته إلى الحد الذي قال فيه أحمد بن حنبل : « كنا نلعن أصحاب الرأي ، ويلعنوننا ، حتى جاء الشافعي فزج بيننا » .

وفي هذه الاتصالات البغدادية التي قطعت بوجهة قصيرة إلى مكة ، أنهى الشافعي عمر القرن الثاني ، وخرج في مستهل القرن الثالث إلى مصر ، وكانت مصر كما كانت المدينة ومكة والعراق، بيئة فقهية ، لها أصولها الاجتهادية ، وطرائقها الفقهية ، التي تتمثل في فقيه مصر وإمامها الليث بن سعد . وكان الليث قد توفي قبل دخول الشافعي مصر ، بخمس سنين .

وقد بدأ فقهه يتضاءل لما كان يقوله الشافعي نفسه ، في ما ذكر ابن خلكان ، من أن أصحابه لم يقوموا به ، وكانت مصر قد أصبحت مركزا ذا بال من مراكز انتشار المذهب المالكي باستقرار طائفة عظيمة من أصحاب مالك هنالك وبثهم مذهبه ، وانتصابهم للتفريع على طريقته ، فهم ابن القاسم وأشهب وابن وهب وعبيد الله ابن عبد الحكم ، وقد اتصلوا كلهم بالليث ابن سعد ، وجمعوا ما أفادوا من علمه وفقهه ، إلى ما أفادوا قبل من علم مالك وفقهه .

وبهذا الاتصال الجديد زاد احتكاك الشافعي بالمذهب المالكي ، في أصوله وفروعه ، كما اتسعت دائرة اختلاطه بالمذاهب بما خلص إليه من المذهب المصري : مذهب الليث الذي توزع تراثه بينه وبين السابقين إليه . من إخوانه الأقدمين أصحاب مالك .

وعلى رأس القرن الثالث استقر الشافعي بمصر ، وقد صفى في نفسه نظرياته الفقهية ومحصها ، فثبت على شيء مما كان يقول به في الأدوار السابقة من حياته ، لاسيما الدور العراقي البغدادي ، ورجع عن أشياء كثيرة من مذاهبه الأولى إلى أقوال جديدة اطمأن إليها في الأربع سنين الأخيرة من حياته التي قضاها بمصر ، وهنالك دون مذهبه الذي أصبح يمثل البيئة الفقهية المصرية ، بعد انقضاء ممثلها الأصلي ، بوفاة الليث بن سعد ، ودروس مذهبه وليس الذي يتصل بموضوعنا من حياة الإمام الشافعي أقواله الفقهية لا العراقية منها ولا المصرية ، ولكن الذي يتصل بموضوعنا من ذلك هو مراسه للمذاهب الفقهية المختلفة واحتكاكه بها بما مكن له ميزته البارزة في أنه بسبب ذلك الاحتكاك ، كان أول من تكلم في أصول الفقه وهو الذي استنبط ذلك العلم برسالته التي تعد من روافد الثقافة الإسلامية .

الفاضل بن عاشور

(تونس)

نفحات القرآن

تفاوت المنازل عند الله

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

(ا) « والسابقون الأولون : من المهاجرين ، والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان » . آية ١٠٠ توبة

(ب) « وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة » . آية ١٠١ توبة

(جـ) « وآخرون اعترفوا بذنوبهم » . آية ١٠٢ توبة

هذا مقام من مقامات الدعوة إلى جانب الله ، والتوجيه إلى خير المسالك فى الدنيا ..

وأنت لا ترى فى هذا السياق أمراً ، ولا نهياً ، بل فيه قصص حق عن صنيع الله بشأن عباده الأولين ، والآخرين .

وربما كان القصص أقوى تأثيراً فى النفس ، وأشد إيقاظاً للوعى ؛ لأنه حكاية لما نفذ به القضاء فى شأن من سلف ، ومن خلف ، وفيه أن هذه عدالة الله فى خلقه ، سيقت فيهم أزلا ، وهى جارية عليهم أبداً .

فلتكن لنا عبرة من هذا الواقع ... والسعيد من وعظ بغيره .

(ا)

« والسابقون الأولون : من المهاجرين : والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان » .

فهذه طبقات ثلاث ... هى مجموع الأخيار من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم .

١ - طبقة أولى : سبقت إلى الإيمان من مطلع صبحه ، ثم إلى الهجرة نحو المدينة بعد هجرات إلى الحبشة ، يوم كان الكفار ذوى بطش على المؤمنين ، وكانوا يحاولون بجبروتهم أن يحاصروهم فى مكة ، يستذلوهم بها ، ولا يمكنوهم من تكثير سوادهم ، وتكوين جماعتهم بعيدين عن حوزة قريش .

وقد تحمل بوصف الهجرة من خرج إلى المدينة ، قبل النبى مستأذناً ، أو بعد هجرته - عليه السلام - ... وتعتبر الهجرة شرعا منذ بدايتها قبيل خروج النبى ... أى منذ بايعه أهل المدينة ، ثانياً ، عند العقبة سنة

اثنى عشرة من البعثة ، إلى فتح مكة فى السنة الثامنة بعد هجرته عليه السلام .

أما ما بعد فتح مكة فلا تعتبر هجرة ؛ لأن الكفار لم يعد لهم بأس فى أم القرى ، وأصبحت الشوكة للمسلمين فيها ، فلا حاجة إلى انصرافهم عنها ، وهم الآن فى بيئة إسلامية ... ولذلك يقول النبى - صلى الله عليه وسلم - لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ، وعمل .

هؤلاء المهاجرون هم الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى اعتناق الإسلام ، وفى نصرته وهم الذين يشيد بهم القرآن فى كثير من آياته ، وهم الصحابة الخلصاء ، ومنهم الخلفاء الراشدون ومنهم المبشرون بالجنة .

٢ — وطبقة ثانية من أولئك التابعين إلى الاستجابة للدعوة ... وهم أبناء المدينة الذين وفدوا على مكة فى موسم الحج ، والتقى بهم النبى ، وبلغهم رسالته ، وتلا عليهم قرآنا ، وصدقوه ، ثم بلغوا قومهم بالمدينة ، وعادوا إليه فى كثرة من الرجال بلغت سبعين رجلا ، وفيهم امرأتان فأسلموا جميعا وبايعوه على النصرة وافتدائه بالتضحيات التى يفتدون بها أنفسهم وأهليهم ، بل بما هو أعز عليهم من كل ذلك إن كان ، ثم كان من ورائهم فى الإسلام أهل المدينة من الأوس ، والخزرج .

وهؤلاء هم الذين أضفى عليهم ربهم لقب الأنصار . فكان امتداحهم بذلك مكافئا لامتداح الطبقة الأولى : بالمهاجرين ، وصار ذكرهم جميعاً عرفا مشهوراً ومشهوداً بالمهاجرين والأنصار .

هاتان الطبقتان هم الذين ربط بينهم الإسلام برباطه الوثيق ، وامتزج بأرواحهم ودمائهم على السواء ، فحملوا رايته ، وجاهدوا فى سبيله ، ثم بايعوا النبى تحت الشجرة عام الحديبية ، ومهدوا بهذه البسالة لفتح مكة بعد .

ولقد سجل الله فضلهم هذا ، فوصفهم جميعاً بالإيمان ، وأثبت لهم كريم وعده بالرضوان ، فقال : « لقد رضى عن المؤمنين ، إذ يبايعونك تحت الشجره ، فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا » .

٣ — وطبقة ثالثة ، لم يكونوا مهاجرين ، ولا أنصار ، ولكنهم كانوا على تمام القدوة بهؤلاء فى طريق العقيدة ، وصلاح العمل ، والتنزه عن لوثة النفاق حتى شهد الله بقوله : « والذين اتبعوهم بإحسان » ثم أضفى عليهم جميعاً فضلا يسعهم ، ورفع منزلتهم عنده إلى قمة المنازل بعد مقام النبوة رضى الله عنهم بالجزاء الكريم - ورضوا عنه بالغبطة لما منحهم ، والشكر على ما هداهم - وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين

فيها ، وذلك الفوز العظيم ، فهنا تزكية من الله للسابقين ، ولمن تابعهم بإحسان فى الدين والعمل .

وبهذه التزكية رفع الله شأن أصحاب محمد ، ولم يعد هناك مساغ لتجاهل فضلهم ، أو التشكيك فى مقامهم عند الله ، ولا فى سيرتهم يوم كانوا ، فضلا عما يحفل به كتاب الله من الثناء والتنويه . . . وليس على الله حرج فى أن يرفع شأن عبده إلى حيث يشاء .

ولا ينقص هذا القدر ، ولا يغض من إيماننا به أن المنافقين ملئوا دنياهم بالغمز فيمن زكاهم الله ، وكذلك لا ينتقص من هذا القدر ولا يغض من إيماننا به أن طوائف أخرى عميت عن هذا الحق الأبلج ، واصطنعت لنفسها عصبية ضالة ، فأنكرت هذا الفضل ، أو كثيرا منه على جماعة من السابقين الأولين .

وما ينبغى لمن يزعم الإسلام أن يقحم نفسه فى هذا المضمار الرهيب ، ويحسب أنه فيصل فى حكمه الجائر بين صحابة محمد ، وهم الذين تكفل الله بالثناء عليهم فى كتابه ، وعلى لسان رسوله الصادق ، المصدوق .

فلنترك هؤلاء المتشيعين فى تورطهم العصبية المتطفلة ، ولنحرص على توجيه القرآن نحو القدوة بأولئك السابقين الأولين ، لنكون ممن تبعهم بإحسان ، وعسى أن يتسع لنا فضل الله معهم فيما أعد لهم عنده من الفوز العظيم .

(ب)

٤ — ذكر القرآن فى مقابلة السابقين الأولين طائفة أخرى على النقيض مما عرفنا .

فقال تعالى : « وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة » .

يعنى أن هناك منافقين ينتشرون فى البوادى من الأعراب الجفاة ، وفى المدينة نفسها من أهل الحضر ، وهؤلاء مردوا على النفاق ، منذ ظهر الإسلام بجانبهم ، وصار نفاقهم متغلغلا فى طباعهم ، ومسالكهم حتى لم يعد ميسوراً للنبى — صلى الله عليه وسلم — أن يعلم شأنهم ، كما يعلم شأن منافقين آخرين ، وإنما يعلم الله شأن هؤلاء المغرقين فى النفاق المتأصل فيهم .

والله — سبحانه — لا يدعهم دون ابتلاء بالنقم . . فهم فى هم ناصب ، يساورهم دائماً من خوف الفضيحة لهم ، وخوف مايلاحقهم من مهانات لو تكشف حالهم بين المسلمين .

وهذا الهم عذاب فى الدنيا ، ويتصل به هوانهم عند الموت حينما تضرب الملائكة وجوههم ، وأدبارهم ويدفعون بأرواحهم إلى عذاب الآخرة فى جهنم ، وبئس المصير .

وهذا نفاق فى الدين : عرف سابقاً عن قوم لم يتجهوا نحو الاهتداء بدعوة الرسول وما تزال الدنيا مشغولة بمثل هذا ، وبغيره

من ألوان النفاق الباهتة ، وما يزال الناس يحسون بهذه الخسائس شائعة فيهم .. حتى فى المثقفين الذين يميزون بين الخبيث والطيب تراهم يعيبون النفاق ، وأكثرهم مغمور به ، أو مغموس فيه .

وإذا كان الحديث عن النفاق شغل جانباً فسيحاً فى سياق القرآن فالمسلم بحاجة إلى تطهير نفسه من تلك الشوائب ، والابتعاد عن مخطاقه جاهداً ما استطاع ، فلن ينفع المرء منا مجرد إسلامه مع تلوثه بلوثة النفاق فى قوله أو فى عمله .

(جـ)

٥ ـ ولدينا طائفة ثالثة ، تعتبر دون الأولى، وخيراً من الثانية . وهى طائفة مسلمة ، ولكنها فى قصور عن القدوة ، واللحاق بالأولين .

والله يقول فى هؤلاء « وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خلطوا عملا صالحا ، وآخر سيئا » فهؤلاء بين صلاح ، وطلاح .. وهم على أهبة النجاح ، أو الخسار ، والبوار .

والله ـ سبحانه ـ يطمعهم فى عفوه ، فقد يتوبون ، ويقبل الله توبتهم ، والله تعالى غفور رحيم ، وهو يفرح بتوبة عبده ، ويحب أن يفسح له فضلا بالإنابة إلى الله ، وليست حاجة فى تعذيب عبده ، وإنما هى عدالة تجرى على من أراد لنفسه سوءا ..

وهذا القدر كله جانب من القصص الواعظة قبل أن تضيع الفرصة بالموت المفاجىء .

عبد اللطيف السبكى

وصية عتبة بن أبى سفيان لمؤدب ولده

قال عتبة بن أبى سفيان لعبد الصمد مؤدب ولده :

« ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بنى إصلاح نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح عندهم ما استقبحت ، وعلمهم كتاب الله ، ولا تكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم روهم من الشعر أعفه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه ؛ فإن ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم ، وتهددهم بى ، وأدبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء ، وجنبهم محادثة النساء ، وروهم سير الحكماء ، واستزدنى بزيادتك إياهم أزدهم ، وإياك أن تتكل على عذر منى لك ، فقد اتكلت على كفاية منك ، وزد فى تأديبهم أزدك فى برى إن شاء الله تعالى » .

موقف الإسلام من نظامى التبنى والاعتراف بالولد

للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

يقصد بالتبنى أن يتخذ الإنسان فرداً غير منحدر من صلبه ولداً له ، فيعامل هذا الغريب معاملة أولاده أمام القانون والمجتمع وينعم بحقوقهم ، وتفسح عليه أعباؤهم وواجباتهم .

وقد عمل بهذا النظام كثير من الأمم فى العصور القديمة والوسطى بشروط وأوضاع تختلف باختلاف الأمم التى أخذت به ، وكان العرب فى الجاهلية يطبقونه فى نطاق واسع ؛ حتى لقد كان يندر أن يوجد من بين سراتهم وأوساطهم من ليس له ولد أو أولاد بطريق التبنى . ولقد تبنى الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه قبل رسالته ـ جرياً ـ على عادة العرب زيد بن حارثة مع أنه كان حينئذ معروف الأب والأم (فأبوه حارثة ابن شراحيل كما فى « أسد الغابة » أو ابن شرحبيل كما فى سيرة ابن هشام ، وينتهى نسبه إلى بكر وأمه سعدى بنت ثعلبة من بنى معن) . وأصل قصته أن أمه كانت قد خرجت به وهو طفل لم يتجاوز الثامنة من عمره لزيارة قومها بنى معن فأغارت عليها خيل بنى القين بن جسر « وسبوا ابنها وباعوه فى سوق عكاظ بيع الرقيق لحكيم بن حزام ، وكان السبى رافداً من روافد الرق فى الجاهلية ، ووهبه حكيم لعمته خديجة ، ثم وهبته خديجة لزوجها محمد بن عبد الله ، فأعتقه وتبناه قبل رسالته . ولذلك كان يدعى زيد بن محمد ، ثم زوجه بعد الإسلام بنت عمته (بنت عمة الرسول عليه السلام) زينب بنت جحش (فإن أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة الرسول عليه السلام) .

ولا يخفى ما يؤدى إليه نظام التبنى من اختلاط فى الأنساب ، وتوهين لحرمة القرابة ، وإضعاف لوشائج الدم ، وإفساد لمقومات الأسرة ، وإثارة لعوامل الفتنة والضغينة ، وإضرام لنار الشقاق والنزاع بين العشائر والأسرات .

ولذلك حرمه الإسلام تحريماً قاطعاً ، وأنكره القرآن فى عبارات قوية تنم على شدة تعارضه مع الدعائم السليمة التى ينبغى أن يقوم عليها نظام الأسرة الإنسانية . وفى هذا يقول الله تعالى : « وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ... وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول

الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » ٤ ، ٥ من سورة الأحزاب ، والمقصود بالأدعياء فى الآية الذين كان الناس يتخذونهم أولادا بطريق التبنى) .

ولحرص الإسلام على القضاء على هذا النظام وإزالة جميع آثاره ، ولقوة تأصله فى نفوس العرب ، لم يكتف بإلغائه بالقول بل رأى أن يمحوه كذلك بطريق عملى وبفعل الرسول نفسه ، فأوحى الله تعالى إلى نبيه أن يتزوج مطلقة زيد بن حارثة الذى كان قد تبناه قبل الرسالة (وهى زينب بنت جحش) ليبين الناس بطريق عملى أنه لا تبنى فى الإسلام ، وأن الدين الجديد قد قضى على هذه القرابة المصطنعة ومحا جميع آثارها ، وأحل ما كانت تحرمه ، ومن ذلك زواج الرجل بمطلقة من تبناه .

وذلك أن العرب فى الجاهلية ، لإنزالهم الدعى منزلة الابن من جميع الوجوه ، كانوا يحرمون على من تبناه أن يتزوج بمطلقته وبمن توفى عنها ، كما يحرم على الأب الزواج بمطلقة ابنه من صلبه وبمن توفى ابنه عنها . فجاء زواج الرسول عليه السلام بمطلقة زيد تقريراً عمليا لإلغاء هذا النظام وما كان يترتب عليه . وفى هذا يقول الله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ، لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً » (وعبارة « قضى زيد منها وطرا » الواردة فى الآية هى كناية عن طلاقه إياها) . ويقول فى آية المحرمات مؤكدا هذا المعنى : «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم ... وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » . أى أن الأبناء الذين يحرم على الآباء الزواج بمطلقاتهم أو بمن توفوا عنهن هم الذين يجيئون من أصلابهم لا الذين يجيئون عن طريق الادعاء والتبنى الذى ألغاه الإسلام .

هذا ، ويلاحظ أن ثمة فرقا جوهريا بين « التبنى » الذى نتحدث عنه و « الإقرار بالأبوة » الذى يعتمده الفقه الإسلامى ويعتبره دليلا على ثبوت الأبوة للمقر والبنوة للمقر له . وذلك أن « الإقرار بالأبوة » معناه أن يعترف شخص بأبوته لشخص آخر أى بأن هذا الشخص الآخر قد جاء من صلبه .

فنى هذه الحالة تثبت القرابة بينهما على الوجه الذى أقر به ويترتب عليها ما يرتبه الشرع على هذه القرابة من حقوق وواجبات ، على شرط ألا يقوم دليل على بطلان إقراره ، ولا يلقى اعتراضا من المقر له ولا من غيره ، وأن يكون الفرق بين سنيهما يجعل أبوة المقر للمقر له ممكنة من الناحية الطبيعية

أو كما يقول الفقهاء « أن يكون ممن يولد مثله لمثله » ، وأن يكون المقر له غير معروف له نسب آخر (انظر بدائع الصنائع للكاسانى الجزء السادس صفحة ١٩٨ وتوابعها والسابع ص ٢٢٨ وتوابعها) . على حين أن التبنى معناه أن يتخذ الإنسان فردا غير منحدر من صلبه ولدا له مع اعترافه بأنه غير منحدر من صلبه . ويذلل الإسلام وسائل الإقرار بالأبوة فى حالة اللقيط بوجه خاص ، فيقرر أن نسبه يلتحق بمن التقطه إذا أقر بأبوته له أى اعترف أنه ولده جاء من صلبه ، أو يلتحق بأى شخص آخر يعترف بذلك إذا لم يدعه الملتقط نفسه (وإذا اعترف ببنوته الملتقط وشخص آخر غيره فإن الملتقط يكون أولى به) وذلك على شرط أن يكون اللقيط غير معروف النسب ، وأن يكون ممن يولد مثله لمثل من اعترف بأبوته له .

فيصبح اللقيط بعد هذا الاعتراف من أولاد المعترف ويعامل معاملتهم من جميع الوجوه — ويلحق باللقيط كل شخص غير معروف النسب ، فإن الإسلام يذلل كذلك وسائل الاعتراف ببنوته ، ويقرها بالشروط السابق بيانها ـ وقد قصد الإسلام بذلك أن يشجع الناس على حماية اللقطاء ومجهولى النسب وأن يحقق لهؤلاء وأولئك من رعاية الأسرة وألفة القرابة والتنشئة الصالحة ، والحقوق المدنية ، مالا يمكن أن يتحقق لأمثالهم بدون هذا الإجراء .

* * *

وأما نظام « الاعتراف بالولد » فيقتضى ألا يلتحق نسب الولد بأبيه الشرعى إلا إذا اعترف به اعترافا صريحا ورضى أن يلتحق نسبه به . وكان هذا النظام سائدا عند كثير من الأمم فى العصور القديمة والوسطى فعند قدماء الرومان مثلا كان إذا ولد لعميد الأسرة أو لأحد أبنائه ولد من زوجه الشرعية وجب تقديمه للعميد ، وذلك بأن يوضع على عتبة حجرته ، فإن قام ورفعه إلى صدره كان ذلك اعترافا منه ببنوته ، وإذا تركه ملقى على العتبة اعتبر أجنبيا عنه وعن أسرته ، وكذلك كان شأن العرب فى الجاهلية ، فكانت البنوة فى كثير من عشائرهم لا تثبت لمن يجىء من الزوجة الشرعية إلا باعتراف صريح من الأب .

ولا يخفى ما ينطوى عليه هذا النظام من استهانة بحرمة الزواج ، واستخفاف بميثاقه ، واستبداد بشئون الأسرة ، وإخضاعها لأهواء الأزواج ونزواتهم ، ونيل من كرامة الزوجات ، وتعريض الأولاد للضياع ، وحرمانهم من أعز حقوق الإنسان وألزمها للحياة وتفرقة ظالمة بين الإخوة والأخوات

وزلزلة عنيفة لدعائم النظام العائلى ومقوماته على العموم .

ولذلك حارب الإسلام هذا النظام فى جميع مظاهره ، ولم يأل جهداً فى القضاء عليه ، وقرر أن « الولد للفراش » ، (وهذا نص حديث نبوى شريف) ، أى أن من يجىء من الأولاد ثمرة لفراش شرعى يلتحق نسبه بالزوج من غير حاجة إلى اعترافه به اعترافا صريحا ، وأخذت الشريعة الإسلامية بهذا المبدأ حتى فى الحالات التى يبدو فيها تعذر اتصال الزوج بزوجه ، كما إذا عقد مشرقى على مغربية ، وظل كل منهما مقيما فى بلده ، ولم يعرف بين الناس اتصاله بها ، ثم جاءت الزوجة بولد ، فإنه يثبت نسبه من الزوج بدون حاجة إلى اعترافه به اعترافا صريحا . (انظر بدائع الصنائع للكاسانى ، الجزء الثانى ص ٣٣٢) .

ولم تستثن الشريعة الإسلامية من ذلك إلا حالتين :

(الحالة الأولى) : إذا ثبت لدى الزوج أن زوجته قد خانت أمانته وعلقت من غيره أو جاءت بولد من غيره ، ووجه إليها هذا الاتهام صراحة ، ورفعت الزوجة أمرها للقضاء لقذفه إياها ، أو رفع هو أمره للقضاء ولم يكن له شهداء على ادعائه ، فى هذه الحالة يجرى القاضى بينهما « الملاعنة » المبينة إجراءاتها وصيغها فى أول سورة النور . (آيات ٦ - ٩ من سورة النور) فيطلب إليه أن يقسم أربعة أيمان يقول فى كل يمين منها « أشهد بالله أنى لمن الصادقين فيما رميتها به » ، ويقول فى الخامسة « لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به » ، ثم تشهد المرأة بعده على نفسها أربع مرات كذلك تقول فى كل مرة منها : « أشهد بالله أنه لمن الكاذبين فيما رمانى به » ، وتقول فى الخامسة « غضب الله عليها إن كان من الصادقين » ، وبعد أن يحلف كلاهما هذه الأيمان المغلظة ، وتجرى بينهما الملاعنة على هذا الوجه ، يفرق القاضى بينهما ويعتبر الولد الذى أجريت بسببه هذه الخصومة أجنبيا عن الزوج ويلحق بأمه وحدها .

وإن تأملا يسيرا فى هذا الإجراء ، وما يحيط به من مراسم وطقوس ، وفى صيغ الإيمان المغلظة التى يحلفها الزوج ، وتكرارها عدة مرات ، إن تأملا يسيرا فى كل هذا لكاف فى الدلالة على أن الإسلام ينظر إلى هذه الحالة على أنها حالة استثنائية شاذة لا يجوز للزوج أن يلجأ إليها إلا عند الضرورة القصوى حينما يقوم لديه الدليل القاطع على صدق دعواه ، ومن ثم يمكن اعتبار هذا الإجراء نفسه من بعض وجوهه وسيلة لحماية

الأنساب من الاختلاط وتخليصها من شوائب الريبة .

هذا إلى أن الإسلام قد أعطى الزوجة فى هذه الحالة فرصة لتبرئة نفسها إن كانت تعتقد براءتها ، ولتكذيب زوجها فيما اتهمها به ، ودرء العقوبة عنها ، وذلك بأن تقسم الأيمان الخمسة المبينة فيما سبق ، فينتهى الأمر فى نتائجه العملية إلى اعتبار كل منهما صادقا فيما يتعلق بمسئولياته والتزاماته : فلا يلحق الولد بالزوج ، ولكن لا تعد الزوجة آثمة ولا توقع عليها عقوبة ما .

(والحالة الثانية) هى حالة الولد الذى تجىء به الجارية غير المتزوجة فى بيت سيدها ، فإن نسب هذا الولد لا يلحق بسيدها إلا إذا اعترف به اعترافا صريحا ، والسبب فى ذلك أن صلة الجارية بمولاها ليست صلة زوجة بزوجها ، بل صلة مملوكة بمالكها ، وأن هذه الصلة ليست قائمة على ميثاق وتعاقد بل قائمة على ملك اليمين ، وأنه ليس مفروضا دائما أن يعاشر السيد جاريته ويستمتع بها كما هو شأنه حيال زوجته ، بل يجوز له ذلك ويجوز له أن يقصرها على شئون الخدمة والعمل ، ويجوز له أن يزوجها لرقيق مثلها أو لحر .

(وفى هذا يقول الله تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » آية ٣٢ من سورة النور . والفعل فى الآية من الرباعى أى زوجوهم . ويقول : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض ، فأنكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف . . . » آية ٢٥ من سورة النساء . والمراد بأهلهن فى الآية أسيادهن) :

فكان من العدالة إذن ألا يلتحق نسب ولدها به إلا بادعائه أى باعترافه اعترافا صريحا بمعاشرته إياها وبأن الولد من صلبه وقد كان السيد ملزما ديانة ، أى فيما بينه وبين ربه ، أن يعترف بالولد الذى يجىء من معاشرته لجاريته . على أنه إذا اعترف مرة بولدها فإن من تجىء به بعد ذلك يثبت نسبه منه بدون حاجة إلى اعترافه به اعترافا صريحا لأن الاعتراف الأول يعد دليلا على أنه قد اختار هذه الجارية لفراشه . هذا إلى أن ماذكرناه هو مذهب أبى حنيفة ؛ وفى مذاهب أخرى لا يشترط الاعتراف الصريح فى المرة الأولى ، وإنما يكفى أن يكون السيد قد اتخذها فراشا له وسكت عن الولد الذى جاءت به .

دكتور على عبد الواحد وافى

صداقة الفكرة بين شلتوت والرسالة

للأستاذ محمد رجب البيومي

يقول الدكتور البهي وزير الأوقاف السابق فى خطاب للأستاذ الزيات نشر بمجلة الأزهر جمادى الآخرة سنة ٨٣ :

« وإن مدرسة الرسالة لتمثل فى تاريخنا المعاصر تجديداً أدبياً فكريا وروحيا قوميا تلتمس جذوره وأصوله فى مدرسة الأستاذ الإمام » .

وهذه العبارة الموجزة تحدد لنا سر الصداقة العميقة التى نشأت بين الرسالة ، وزعماء الإصلاح الدينى فى مصر ، بل تفسر لنا سر الاهتمام الخاص المثابر بالأزهر على صفحات الرسالة حيث لا يكاد يخلو مجلد من مجلداتها الأربعين من نقاش متصل متتابع يدور حول الأزهر ، يبدؤه الزيات ثم تنفرج شقته إلى أبعاد مترامية ، حتى نشأ بين كتاب الرسالة رهط يصدق أن نسميه رهط الإصلاح الأزهرى ، وفى مقدمته الأساتذة محمود شلتوت ومحمد البهى ومحمد المدنى ومحمود الشرقاوى ومحمد يوسف موسى من رجال الأزهر ، عدا الآخرين من غير أبنائه وكثير ما هم ! وقد تحدث الأستاذ الزيات عن سر هذا الاهتمام البالغ بالإصلاح الأزهرى فقال : لعلك تقول لنفسك ما بال الرسالة لا تنفك تذكر الأزهر فى معرض الإصلاح والنهضة ، وما الأزهر فى رأى أكثر الناس إلا متحف آثار ومقبرة أفكار وطلل مذاهب ، وقولى فيما تقول : إن الشرق لا ينهض إلا بالدين وأن الدين لا ينهض إلا بالأزهر وأريد الأزهر الجديد الذى يضع لثقافة الشعب أساسا من الدين يقوى بقوة الله، ويثبت بثبوت الحق ، ويدوم بدوام الدنيا ثم يقيم عليه من القواعد والنظم والأوضاع ما يقره العقل ويؤيده العلم ، ويتقبله العصر ، الرسالة (٤٤٤) . وهذا الكلام الواضح تحديد مركز لما تبتغى الرسالة من دعوتها الأزهرية ، وهـــو يؤكد ما ذكره الدكتور البهى من انتماء هذه الدعوة إلى مدرسة الإمام ، وسنتحدث الآن عن دور الأستاذ شلتوت فى الإصلاح الأزهرى على صفحات الرسالة ، لنرى كيف جمعت صداقة الفكرة المخلصة بين إمام كبير هو الشيخ الراحل وكاتب هادف هو الأستاذ الزيات !!

كانت الرسالة فى مبدأ حياتها متبرمة بجمود شيخ الأزهر وعناده ، فلما تهيأ الأمر للأستاذ المراغى استقبلته فرحة مسرورة ، ونشرت صورته مع ترجمة موجزة لحياته ،

وما زالت توليه المودة والتقدير ، وتخصه بكتابة افتتاحيات الأعداد الهجرية الممتازة واثقة أنه سيواصل جهوده فى معركة الإصلاح ، إذ أن المراغى فى رأى الزيات إذ ذاك « إمام هذا العصر بإعداد من الله تجلى فى فهمه الدقيق لرسالة دينه وإدراكه الصحيح لحاجة عصره وعلمه الراسخ بطبيعة قومه ، وملكته السليمة فى أدب لغته وأفقه الرحيب لاقتران المشكلات الاجتماعية فيه تحت ضوء من الفكر الثاقب يبدد عنها ظلام الإشكال فترجع إلى طريقها الواضح من الدنيا أو الدين » الرسالة (٣٥٦).

وقد دافعت عنه بحرارة حين قدم بعض المغرضين عريضة شاكية إلى الدوائر المسئولة ، فكتب الأستاذ ابن عبد الملك بالعدد ٢٩٥ كلمة تؤيد الرجل فى مهب العاصفة وكان المظنون بالشيخ أن يمضى بالإصلاح إلى وجهته ولكن أموراً شائكة اعترضته وقد تحدث عنها الأستاذ الزيات فى معناه إذ قال :

« وكان الظن بالفقيد الكريم وقد ورث أكثر خصائص الأستاذ الإمام أن يؤدى رسالة الإصلاح على الوجه الذى يرتضيه العلم ، ويقتضيه العصر ، ويرتجيه الناس ولكن الأسباب المعوقة من مهادنة السياسة ومصانعة المعارضة ، وعاطلة الحزم ، واضطراب السلام فى الخارج ، وانقطاع الوئام فى الداخل حالت بين الشيخ وبين ما يريد » الرسالة (٦٣٤) .

لذلك كله نرى الرسالة تتجه إلى الأستاذ شلتوت، وتدفع به مع جماعة الشيخ عبد المجيد سليم إلى أداء الدور الهام فى معركة الإصلاح وإن الأستاذ الزيات ليعلن ذلك صريحا حين يقول بالعدد ٤٠٦ ص٥٣٣ ما نصه : « تعتقد الرسالة أن الأستاذ شلتوت لسان صادق من ألسنة الإصلاح الدينى فى هذا العصر فإذا أيد الرسالة فى دعوتها الإصلاحية بقلمه ولسانه كسبت منه ما كسبته الدعوة الكبرى من عمره ، ومنذ هذه الكلمة والأستاذ شلتوت يتسنم مكانه فى أوج الرسالة والزيات يتابع جهوده الإصلاحية بالتزكية والتعضيد وكان يمهد لمقالاته الأولى بالرسالة تمهيد الصديق المؤيد ، على قلة احتفاء الزيات بتقديم الكاتبين ! بما ربط بين شلتوت وصاحبه بأقوى رباط فى معركة الإصلاح والتجديد !

ومن السهل الميسور لمن يريد أن يؤرخ كفاح شلتوت فى نهضة الأزهر أن يرجع إلى أعداد الرسالة ، فقد سايرته فى دعوته مسايرة نشيطة ، وقسمت صفحاتها لمن يحللون مواقفه ، ويباركون حركته ، والحق أن الأستاذ محمد المدنى كان فى طليعة هؤلاء توقد حماسة ، وإذكاء غيرة ، إذ كان العضد الأول للشيخ فى دعوته يبسطها على صفحات الرسالة شارحا ، ويهاجم خصومها ناقدا ، مما تسجله له حركة الإصلاح بإعجاب وتقدير .

لقد تقدم الأستاذ شلتوت باقتراح إلى هيئة كبار العلماء بمجلته الرسالة بالعدد (٤٣٧) وهو يدعو إلى إنشاء مكتب على دائم للجماعة تكون مهمته ما يأتى :

(١) معرفة ما تهاجم به الأديان عامة والدين الإسلامى بخاصة فى عصرنا الحاضر مع الرد عليه .

(ب) بحث ما يحصل فيه الاختلاف بين علماء العصر من جهة أنه بدعة يجب تركها أو ليس كذلك ووضع الأصول الكفيلة بتمييز ما هو بدعة مما ليس بدعة .

(حـ) العمل على وضع مؤلف يحتوى على بيان ما فى كتب التفسير المتداولة من الإسرائيليات التى دست على التفسير وأخذها الناس على أنها من معانى القرآن .

(د) بحث المعاملات التى جدت وتجد فى العصر الحاضر من جهة حكم الشريعة فيها .

(هـ) تنظيم طرق الوعـــظ والإرشاد والاتصال بالهيئات المعدة لذلك .

(و) إحياء الكتب النافعة فى مختلف العلوم والإشراف على مجلة الأزهر وإصدار الفتاوى فى ما يطلب من الاستفتاءات » .

هذا ملخص الاقتراح ، وقد بسطته الأقلام بالرسالة بسطا واضحا ، حتى كتب عنه الأستاذ المدنى كلمتين مسهبتين والأستاذ السبكى مقالا جيدا ، وأشار الزيات إلى جدواه فى مقال افتتاحى ، وبدل أن يكون لذلك تأثيره النفاذ لدى المسئولين ، نرى بعض من يحرفون الكلم عن مواضعه يفسرون اقتراح الأستاذ شلتوت بأنه مهاجمة للشيخ المراغى ، وتدور الدسائس المغرضة مداراً يدعو الشيخ الأكبر إلى الإغضاء عنه فلا يمهد الأسباب لتنفيذه على ضرورته الملحة وخطره الكبير .

وكان من أثر مقالات الرسالة المتتابعة ، وجهود جماعة الشيخ عبد المجيد سليم على صفحاتها ما أوهم الأستاذ المراغى بأن الزيات يثير عليه الثوائر ، وبخاصة حين ظهرت الرسالة تحمل مذكرة شهيرة كان الإمام المراغى قد أعدها أثناء ولايته الأولى على الأزهر بسط بها وجوه الإصلاح كما يرتئيه .

ثم تولى الأمر بعد ذلك فنسى ما اقترح أو تناساه ، وقد مهد لها الأستاذ الزيات بمقدمة جريئة قال فيها الرسالة ٤١٢ « والأستاذ المراغى قد وضع هذه المذكرة لتكون برنامجه فى سياسة الأزهر ثم أقرتها الحكومة وارتضتها الأمة فلم يبق عليه إلا أن ينفذ ما وضع ، ويطبق ما شرح ، ولكن أزهر المراغى لا يزال كأزهر الظواهرى يغير فى الشكل ولا يغير فى الموضوع ، ويستعير هيكل الجامعة الحديثة ، ويحتفظ بروح الجامع القديم فهل يستطيع كاتب من الكتاب أن يبين الحوائل ويشرح الأسباب ؟

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة
فإن فساد الرأى أن تترددا

ومن ذلك الحين والرسالة سافرة الخطة تحتضن أنصار الإصلاح ، وتقيم بينهم علائق المودة على نهج واضح ومذهب مبين ! فلا غرو أن وقفت مع شلتوت وجماعته لا تحيد!

لقد كان أبرز مواقف الأستاذ شلتوت فى هذه الحقبة المجاهدة ، محاضرته الشهيرة عن السياسة التوجيهية العلمية فى الأزهر ، إذ كانت ثورة قوية على تردد الأستاذ الأكبر فى تنفيذ برنامجه الإصلاحى وقد احتشد لها من السامعين صفوة ممتازة يحتلون مراكز هامة فى الدولة من الأزهريين وغيرهم وفى مقدمتهم وكيل الأزهر ومفتى الديار المصرية وكان المحاضر الثائر يقاطع بالتصفيق الحاد والهتاف المدوى كما ذكر الأستاذ المدنى بالرسالة (٥١٢) إذ قال : « ولما انتهى منها هنأه فضيلة الأستاذ الكبير مفتى الديار المصرية وعانقه فضيلة الأستاذ الكبير وكيل الأزهر مقبلا بين عينيه على ملأ من الناس أجمعين ، وعلا التصفيق والهتاف لهذا المظهر الرائع وأبى الطلاب إلا أن يحملوا فضيلة المحاضر على أعناقهم إلى فناء الكلية ، فتم لهم ما أرادوا وكان يوما فى الأزهر عظيما !

أما عناصر المحاضرة فنشير إليها من نقاط سجلها الأستاذ المدنى بالرسالة (٥١٥) وأهمها « لم تزل كتبنا هى الكتب المعقدة التى لها طريقة خاصة فى التأليف ، لا يفهمها كل من يعرف اللغة العربية » .

« لم نحاول أن نقرب للناس ولا لأنفسنا هذه الكتب ، ولم نحاول أن نأخذ النافع منها لنعرضه عرضا يروج عند أهل العصر » .

« لم نزل نتفق أوقاتنا فى المناقشة اللفظية وفى خدمة نصوص المتون وعبارات المؤلفين ، ونحن لا نقرأ من المقررات إلا نسبا ضئيلة تافهة لا تكون ملكة ولا تعد تحصيلا » .

وإن العامل الذى وقف بالأزهر هذا الموقف لا يرجع إلى الطلاب ولا إلى الأساتذة ولا إلى المناهج وإنما يرجع إلى أن الإصلاح لم ينفذ بالروح التى وضع بها ، ولم يتعهد حتى يؤتى ثماره وإلى أن تحدث هذه الخطوة الجريئة سيبقى الأزهر فى عزلته عن الأمة لا يسعفها بحاجتها ولا تقدره فى وجوده ولو سن له ألف قانون) تلك نقاط من هذه المحاضرة التى أيدتها الرسالة ونشرت مقالات هامة فى تحليلها ، فنبهت القراء إلى ما يزال الأزهر يعلكه من المماحكات والقشور وأصبح الشيخ شلتوت من يومها فتى الإصلاح المرتقب تمتد نحوه الأعناق فى تطلع حتى أتيح له فيما بعد أن يتولى مشيخة الأزهر ويتم التطوير التجديدى على يده فيستريح .

وقراء الرسالة يذكرون للإمام الراحل — غير محاضرته السابقة — مقالتين رنانتين دوى صداهما دويا شديداً ، أولاهما مقالته عن رفع عيسى إذ نشر بالعدد (٤٦٢) فتواه السديدة بهذا الشأن مؤيدة بالحجج

والأسانيد وخلاصتها الموجزة تشير إلى أنه ليس فى القرآن الكريم ولا فى السنة المطهرة مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رفع بجسمه إلى السماء وأنه حى إلى الآن فيها وأنه سينزل منها آخر الزمان إلى الأرض .

إن كل ما تفيده الآيات الواردة فى هذا الشأن هو وعد الله عيسى بأنه متوفى ولم يصلبوه ولكن وفاه الله أجله ورفعه إليه .

إن من أنكر أن عيسى قد رفع بجسمه إلى السماء وأنه حى فيها إلى الآن وأنه سينزل منها آخر الزمان لا يكون بذلك منكراً لما ثبت بدليل قطعى فلا يخرج عن إسلامه وإيمانه بل هو مسلم مؤمن .

هذه الفتوى الجريئة لم تكد تظهر بالرسالة حتى هاج عليها من يدافعون عن الإسلام بالسباب والشتائم ، ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ، وقد تورط بعضهم فاتصل بعضو فى مجلس النواب ليثير المسألة فى البرلمان ! ووجه آخر خطاباً مفتوحاً إلى رئيس الوزراء لمحاكمة الأستاذ ! وقام شيخ إسلام تركيا السابق بما عرف عنه من تهجم وتجريح حتى حكم بالكفر والزيغ على الإمام المجتهد ! وأذكر من باب الفكاهة أيضاً أنه حكم على شخصى الضعيف بالكفر أيضاً لمقال نشرته بالرسالة عن الرصافى وزاد فألحق الأستاذ الزيات بى فى حكمه ، وذلك منشور مسجل فى كتبه الهادمة ! ! وما هاج هائج هؤلاء المتسرعين أن عالماً قاديانياً أفتى بما أفتى به الشيخ شلتوت ، فتوهموا هذه الموافقة مدعاة للريب الآفك والظن الآثم ! وفاتهم - وهم العلماء - أن صاحب الإفتاء يصدر عن اجتهاده دون نظر إلى موافق أو مخالف ، وقد اضطر الأستاذ شلتوت أن يدافع عن رأيه فى سلسلة من المقالات الفقهية الأصولية بالسنة الحادية عشرة من الرسالة فتحدث فى بحوث ضافية عن آيات الكتاب فى المسيح ، وعن الإجماع ومعناه وحقيقته وثبوته وعن السنة والاستدلال بها وعن آراء ابن حزم ومحمد عبده ورشيد رضا والمراغى فى هذا الموضوع ! وجاءت سلسلة بحوثه آية فى استواء المنطق ، وصحة الاستدلال وقوة التعليل ، وقد جمعها فيما بعد فى بعض كتبه التى طبعت أثناء مشيخته الأزهر ! بعد أن نشرها الزيات فى بضعة أعداد .

أما المقالة الثانية فبحثه الهام بها عن الهجرة وشخصيات الرسول بالعدد ٤٤٩ من الرسالة إذ ذهب فيه إلى أن للرسول شخصيات متعددة شخصية الرسول وشخصية الإمام العام وشخصية المفتى وشخصية القاضى وأعطى لكل شخصية حكمها فى منطق التشريع ! ومع استناد الرجل إلى أدلته الواضحة فإن خصومه المغرضين قد ملئوا المجلات الدورية بمهاجمته دون أن يفهموا كلامه على وجهه الصحيح ، ولغط

بعض خطباء المساجد عنه بما زينه له الجهل والغرور والادعاء. ولو كان لدى هؤلاء مسكة من عقل لعرفوا أن الشيخ مجتهد ! وله أن يبدى الرأى ولغيره أن يمحصه بالجدل السديد ! ولا أذكر من مجادليه فى هذا الموضوع عالما بحاثة ناقش الرأى بالرأى غير الأستاذ الأكبر محمد الخضر حسين فقد أفرد لمقالة الرسالة وحدها مؤلفا بمفرده وكان من النزاهة والحيدة مضرب المثل فى حجاج الراسخين من أولى العلم ، ولست أنا من القوة الفقهية بحيث أحكم لأحد الرجلين على صاحبه وكلاهما إمام كبير ، إنما أريد أن أقول إن الأستاذ شلتوت قد تقبل نقد صاحبه ببشر وارتياح ، وظن الصغار من الضعفاء أنه يحمل له حزازة حارة فى صدره ، وتوقعوا أن يقف فى وجهه حين تقدم لجماعة كبار العلماء ولكن الشيخ شلتوت قد أبدى ترحيبه السار وقال قولته الشهيرة : من أسقط الخضر فقد أسقط نفسه ! وياله مثلا رائعاً فى النزاهة والإنصاف ، لو اقتدى به العلماء !.

مضت الرسالة بعد ذلك فى دعواتها المخلصة للإصلاح الدينى ، وقد اتجهت إلى حل حاسم لمشكلة الأزهر نشر على صفحاتها بتاريخ ٨ إبريل سنة ١٩٤٦ وهو فى لبابه يقترب كثيرا من قانون الأزهر الجديد الذى تم به التطوير التقدمى أخيرا على يد الإمام الراحل ولا أريد هنا أن أوجز الحل الحاسم كما رسمه الأستاذ الزيات لأنى كتبت عنه مقالا مسهبا بالعدد (١٠٢٠) من مجلة الرسالة ١٩/١/١٩٥٣ ومن أراد أن يقف عليه فليرجع إليه : أو إلى مقالات الزيات نفسها فى الرسالة متتبعا ما دار حولها من نقاش طويل اشترك فيه الأساتذة العقاد والمدنى والغمراوى وغيرهم مما يعيه قراء الرسالة ولا يزالون يتحدثون عنه ذاكرين .

ولم ينقطع الأستاذ شلتوت عن التحرير فى الرسالة حتى توقفت ، بل إن الأستاذ الزيات قد دعى إلى تحرير مجلة الأزهر حين أسند الأمر إلى الشيخ عبد المجيد سليم فقام بواجبه ، وظهرت الرسالة إذ ذاك تبشر بالإصلاح وتتفاءل بالبعث ، وأخذ اهتمام الكاتبين بتجديد الأزهر يتزايد على صفحاتها أثناء ذلك ، لولا أن الشيخ الأكبر قد انسحب من الميدان فجأة على غير إرادته ، وترك الأستاذ الزيات مجلة الأزهر ، ليعود إليها من جديد وقد انقشعت السحب المتكاثفة ، وتمهد السبيل الواضح وأصبح الأستاذ محمود شلتوت شيخ الأزهر وداعية الاصلاح ورجل البعث الجديد ...

أما جهاد الأستاذ الزيات فى مجلة الأزهر فيبعد عن عنوان هذا المقال وإن دعا إليه اطراد الحديث .

محمد رجب البيومى

ذكرى وتحية :

شاعر الإسلام والقوة والتصوف

للأستاذ محمود الشرقاوى

فى ليلة من ليالى الربيع - ربيع القاهرة ذى النسيم الرقيق المنعش - اجتمع فى نادى خريجى الجامعات المصرية صفوة من المثقفين لإحياء ذكرى عظيم من عظماء الإسلام والشرق ، كانت صفوة قليلة العدد ولكنها كبيرة القيمة . وكان من أسماء الخطباء الذين دعينا لسماعهم اسم رجل من رجال الأزهر - الغير الرسميين - ولكنه لم يتكلم ولم يجىء . فافتقدنا بذلك عنصراً كان يجب أن يشارك فى تحية شاعر ظل طول عمره يتغنى بأمجاد الإسلام ويسعى لتجديد قوته والبعد بمعتقديه عن الخرافات وعن المذلة والهوان .

وقد كان سعادة سفير باكستان من شهود الحفل ، تقديراً لشاعر الإسلام العظيم .

* * *

حياة إقبال وثقافته :

فى سنة ١٨٧٣ ولد محمد إقبال لأسرة تعمل بالزراعة فى مدينة « سيلا كون » بولاية البنجاب فى الهند ، وكانت الأسرة تقيم قبل ذلك فى كشمير . وتلقى أول دروسه على أبيه ، ثم دخل « الكتاب » فحفظ القرآن وبعد ذلك دخل مدرسة أجنبية تتبع الإرسالية الأسكتلندية فى سيلا كون ، وكان يرعاه فى هذه المدرسة أستاذ قدير فى اللغتين العربية والفارسية وآدابهما ، وهو فى نفس الوقت صديق أبيه ، هو السيد / أمير حسن . وأتم إقبال دراسته فى هذه المدرسة الخاصة حتى تخرج منها بدرجة « ممتاز » والتحق بعدها بجامعة لاهور وكان من أساتذته فيها مستشرق كبير هو السير : « توماس أرنولد » . ومن هذه الجامعة حصل على درجتين عاليتين وانتقل بعد ذلك مدرساً للتاريخ والفلسفة فى الكلية الشرقية بلاهور ، ثم لتدريس الفلسفة واللغة الانجليزية فى الجامعة التى تخرج منها ، وفى سنة ١٩٠٥ انتقل إقبال إلى بيئة جديدة ودراسات جديدة مكملة لدراساته فى الهند : سافر إلى انجلترا فالتحق بجامعة « كمبردج » ، ثم إلى ألمانيا فالتحق بجامعة « هيدلبرج » ونال منها الدكتوراه فى الفلسفة عن :

« تطور الفكرة العقلية فى إيران » كما وضع رسالة فى القانون .

ثم دعى بعد ذلك لإلقاء محاضرات فى مدن الهند الكبرى : « مدراس » و « والله آباد » و « عليكرة » فتكون من هذه المحاضرات فكرته ودعوته لإصلاح أحوال المسلمين وتقويم المناهج لدراسة الإسلام وفلسفته . وهى المحاضرات التى نقلها إلى العربية المرحوم الأستاذ عباس محمود بعنوان : « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » .

ومن ذلك نعرف أن محمد إقبال « مزيج رائع من ثقافات مختلفة متباينة ، ووراثات مختلفة أيضاً أما الوراثات المختلفة التى شاركت فى تكوين شخصيته المفكرة القوية الشاعرة فقد جاءت من أصله السلالى الذى يرده إليه بعض دارسى حياته ، هذا البعض الذى يقول إن أجداده كانوا من البراهمة ، وإن بعض أجداده اتصل بصوفى مسلم صادق الإيمان فتلقى عنه الإسلام وأسلم على يديه ، فإقبال بأصله البرهمى ، ودينه الإسلامى ، ونزعة أسرته الصوفية ، ثم بدراساته المتنوعة بعد ذلك - كان عقلا خصباً مفكراً وقلبا شاعراً ذا نزعة إصلاحية خاصة ، كانت أبرز سماتها الجرأة والحذر معا . ولكنها ، فى كل حال ، عميقة الإخلاص .

وكانت ثقافته - كما رأينا - تجمع بين الدراسات الدينية الجادة ، والدراسات المدنية الجامعية .

نشاطه فى الإصلاح والسياسة :

كان لإقبال نشاط مزدوج ولكنه يكمل بعضه بعضا : نجد من تنوع نشاطه السياسى أنه كان أول داعية لفصل مسلمى الهند عن غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى فى دولة مستقلة ، وهى الفكرة السياسية الدينية التى دعا إليها بإيمان تام وناضل فى سبيلها نضال الأبطال ، وتلقفها من بعده الزعيم محمد على جناح حتى انتهت ، كما فصلم ، بتأسيس دولة « باكستان » مستقلة منفصلة عن الهند فى أغسطس سنة ١٩٤٧ ، وكان هذا أبرز عمل سياسى قام به ، وأعظم مشاريعه السياسية الناجحة ، بل هو من أعظم الأعمال السياسية التى تمت فى عالمنا الحديث .

ومن نشاطه السياسى أنه كان عضواً فى المجلس النيابى لولاية « البنجاب » ، ورئيسا لحزب مسلمى الهند - قبل إنشاء باكستان - ومراقباً لمؤتمر « الله آباد » ، ورئيسا لجمعية « حماية الإسـلام » التى كانت تشرف على طائفة من المؤسسات ، وأنه اشترك فى مؤتمر « المائدة المستديرة » الذى عقد فى لندن سنتى ١٩٣١ و ١٩٣٢ .

وكان نشاطه الإصلاحى قائما على تجديد الفكر الدينى وإيجاد « المسلم » الواعى القوى

العارف بحقائق عصره وأهدافه . وكان فى ذلك يدعو إلى «صوفية» بعيدة عن التراخى والتواكل والسلبية قائمة على «قوة النفس» وصلابة الإيمان وإقرار حرية الفرد وكرامته كما أمر القرآن ، وعدم الخضوع لمغريات الحياة : المال والشهوة والجاه .

كان تجديد الفكر الدينى عند إقبال - كما يقول الأستاذ الزيات فى الرسالة «العدد ١٠٦٣» : قائما على (فهم الإسلام على حقيقته التى أنزلها الله ، وعلى رسالته التى بلغها الرسول ، وعلى سياسته التى طبقها الصحابة ... فهمه على أنه عمارة الدارين بالعمل الصالح ، وسعادة الحياتين بالإيمان الحق ، وقوة المشرقين بالوحدة الجامعة) فقد كان إقبال من دعاة الوحدة الإسلامية الشاملة .

ومن هذا النشاط المزدوج ندرك أن الشاعر الفيلسوف محمد إقبال كان يمزج بين أهدافه السياسية لمسلمى الهند وبين الدعوة الدينية لهم ولبقية إخوانهم المسلمين جميعا . شأنه فى الجمع بين الدين والسياسة شأن الشيخ جمال الدين الأفغانى فى الشرق .

مزاجه الصوفى :

كان إقبال ذا مزاج صوفى ، ولكنه لم يكن صوفيا من المعتزلين الهاربين المستدبرين للحياة القانعين منها بالنصيب الأقل والمنزل الدون .

بل كانت صوفيته صوفية التطلع والاندماج وصدق الإدراك وسعة الشمول وعمقه . وهذا كله مزاج ليس غريبا عن الهند ، حيث ولد وعاش ، وطن الفلسفات القديمة والصوفية الشاملة والاندماج بالحس والروح فى الكائنات والحياة المتجددة . كما أنه ليس غريباً عن الإسلام : دين التطلع والبحث عن الإدراك والفهم والعمق .

وعلى هذا الأساس أقام دعوته الإصلاحية وفكرته لتجديد الفكر الدينى ، لم تكن دعوته تلك ولا فكرته هذه صوفية مطلقة ولا عملية مطلقة . بل كانت مزيجا من الاتجاهين حتى يبدو أحيانا - لبداهة النظرة الأولى - أن فى دعوته شيئاً من التناقض ، ولكنه عند التعمق لم يكن كذلك .

كان له فى فهم القرآن إدراك صوفى يختلف عن تفاسيره التى نعرفها للمتصوفة . امتزج فيها إحساسه الصوفى الرقيق الخاص وشفافية روحه بعقل العالم العصرى . وفى بعض هذه الآراء جرأة يسترها ذلك الثوب الشاعرى الرقيق الذى صيغت فيه ، كما يسترها الإخلاص الواضح للفكرة والعقيدة .

كان يرى تخلف الحياة الإسلامية المعاصرة عن مسايرة العصر والحياة العامة فى العالم ، ويرى تخلف المسلمين فى الهند وغيرها عن اللحاق بغيرهم من الذين سيطروا - بقوة

العلم، وقوة الخلق، وصلابة العزيمة - على الحياة الإنسانية الحاضرة كلها. فيجد أسباب هذا التخلف كلها أساسها سوء الفهم للعقيدة، ليس فى العقيدة نفسها ما يمكن أن يكون سبباً لتخلف أصحابها عن غيرهم.

ومع أنه معجب بالحياة الأوروبية وما فيها من نشاط وجرأة وتفوق، لا يرضى لأهل دينه أن ينتقلوا إلى هذه الحياة، أو ينقلوا إلى مجتمعهم هذه الحياة التى يدرك - كما يدرك كثير من الأوروبيين أنفسهم - ما فيها من شر وفساد وخطر على الحياة الإنسانية كلها. وما فيها كذلك من إهدار لقيمة الفرد وكيانه ومثله التى يحرص عليها، والتى تقوم - أو يجب أن تقوم - على التصافى بين البشر جميعا، والمودة بين الأجناس جميعا، والحرص على الحياة الروحية التى تدعو لها كل الأديان، والتى هى العاصم والملاذ للبشرية من نزوات الحضارة الأوروبية ومفاسدها. (وخاصة تلك التجربة التى تجرى وتستقر على مقربة من مسلمى آسيا).

ويحذر من أخطارها على الدين والحضارة والقيم الإنسانية جميعاً.

الحقيقة والجوهر :

ولكن هذا الدفاع الحار الصادق عن التدين والعقيدة لم يكن إقبال ينكر معه أن فى تفكير المسلمين الآن وعقولهم وقلوبهم كثيراً من الزيوف التى لا يقول بها الإسلام، بل هو ينكرها ويحاربها. وقد كان إقبال يحاربها بمثل هذا الصدق وهذه الحرارة وهذا الإخلاص، كان - كما يقول أستاذنا الزيات - :

(... يقطع الشعر حسرات على دين أحاله الجهل والضعف فى نفوس أهله إلى شعائر من غير شعور، ومناسك من غير نسك، وينعى على المصلين ألا تنهاهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر، وعلى المزكين ألا تطهرهم الزكاة عن الأثرة والشح، ويقول لأولئك الألوف الذين يذهبون كل عام إلى الحجاز وهم لا يدركون سر الحج ولا معنى الجماعة فى بيت من شعره الثائر الساخر :

أما يسأل أحد أولئك العائدين من حج البيت المحرم : ألم يجدوا هناك ما يهدونه إلينا غير قارورة من ماء زمزم ... ؟ !

فقد كان إقبال يحارب الأشكال والمراسم والطقوس التى لا توصل إلى نتيجة ولا ثمرة وكان يفهم الإسلام على أنه حقيقة وجوهر.

الفرد والمجتمع :

ودعوة إقبال لتجديد الفكر الدينى وتصحيح المفاهيم عن العقيدة والشريعة، وفكرته لإصلاح المجتمع الإسلامى عن طريق هذا التجديد للتفكير والتصحيح للمفاهيم، وهذه الدعوة لإصلاح المجتمع تقابلها - أو تسايرها وتسبقها وتكملها دعوة أخرى لتهذيب الفرد

وتربيته . وعنصرا هذه الدعوة الأساسيان هما : الشجاعة الذاتية فى مواجهة الحياة ، وحرية الفكر والاختيار والعمل . والمجتمع والفرد أساس حياتهما - كما يرى إقبال - يجب أن يكون قائما على الدين والعقيدة ، كما يفهمهما هو .

وحرية الفرد من أعظم ما يدعو إليه إقبال ويجعله أساساً لإصلاح المجتمع الإسلامى ، والحرية قرينة للاختيار رهينة به ملازمة له . ومن أجمل ما نقرأ لإقبال فى حرية الاختيار هذه الكلمات : (... وعمل الخير لا يمكن أن يكون قسرا ، بل هو خضوع عن طواعية للمثل الأخلاقى الأعلى خضوعا ينشأ عن تعاون الذات الحرة المختارة عن رغبة ورضى . والكائن الذى قدرت عليه حركاته كلها كما قدرت حركات الآلة لا يقدر على فعل الخير . وعلى هذا فإن الحرية شرط فى عمل الخير) .[1]

* * *

كان إقبال شاعر الإسلام : يرى أن فهما سليما عميقا جريئاً للإسلام - كما فهمه هو - يمكن ، بل يجب ، أن يحقق للفرد حياة سوية ، وللمجتمع حياة سعيدة متماسكة قوية . وكان شاعر القوة : يرى أن المسلم الحق يجب أن يكون قوياً فى خلقه ، وجسده ، وروحه ، وأن الدولة الإسلامية الكبرى يجب أن تكون قوة بين قوى العالم العظمى التى يقام لها حساب ووزن . وكان شاعر التصوف : يرى أن الصوفية التى يدعو لها الإسلام هى - كما أشرنا - صوفية الاستعلاء عن المغريات والاقتحام لتحقيق مثل أعلى والكفاح ، والصبر فى سبيل هدف كريم . صوفية إيجابية قائمة على خلق متماسك شجاع ، لا صوفية سلبية خائفة قانعة .

ثلاثة رجال :

ولا نستطيع أن ننهى هذا الحديث عن إقبال ودعوته دون أن نذكر ثلاثة رجال كان لهم فضل تقديمه والتعريف بدعوته فى المشرق العربى ، ولولا جهدهم المشكور لظل إقبال ودعوته محجوبين عنا نحن أبناء هذا الشرق : أول الثلاثة المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام الذى كان له فضل السبق والريادة فى تقديم إقبال وترجمة كتبه إلى العربية ، وبخاصة كتابيه : «رسالة الشرق» و « ضرب الكليم » وثانيهما المرحوم الأستاذ عباس محمود الذى ترجم له كتاباً من أجود كتبه هو : « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » . والثالث الأستاذ الشيخ الصاوى شعلان ، الذى نقل إلى اللغة العربية شعراً كثيراً من قصائد إقبال وتأملاته الصوفية .

محمود الشرقاوى

(١) الترجمة للمرحوم الأستاذ عباس محمود فى كتاب : « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام »

التفسير الباطني : نشأته وأسبابه

للأستاذ عبد الجليل شلبي

ظهر هذا اللون من التفسير في مصر في عهد الفاطميين ـ وكان غريبا على المصريين فلم يقبلوا عليه وقام الدعاة الفاطميون بنشره ولكنه مات في مصر بموت الدولة الفاطمية .

هذا المذهب الغريب بعيد عن ذوق المصريين ناب عن طبيعتهم ـ فهو يحمل اللفظ معنى خفيا غير الذي يدل عليه تركيبه ومعناه الوضعي ، ويسمى ذلك عندهم المعنى الخفي أو المعنى الباطن فالمعنى الذي يفهم من ظاهر النص معنى قريب يناسب العامة أما الخاصة فهم الذين يطلعون على المعنى الباطن ويدركونه .

ليس من شك أن هذا المذهب نشأ ونضج قبل أن يظهر على يد الفاطميين في مصر وهو أيضا ظل حيا ناميا في أماكن أخرى وعلى يد شيعة آخرين بعد أن انتهى عهدهم وعهده بها وأكبر الظن أيضاً أنه ناله بعض التهذيب في العهد الفاطمي ـ فالفاطميون أكثر اعتدالا في تشيعهم لم يؤلهوا عليا والأئمة كما فعل غلاة الشيعة ولم يقولوا بغيبة الإمام المنتظر الذي سيعود إلى الأرض ليملأها عدلا بعد أن ملئت جوراً وظلماً ... هذا الاعتدال في المذهب والعقيدة يسوغ لنا الظن بأنهم لم يغلوا في تأويل المعاني الباطنة كما فعل الشيعة الآخرون ، وليس من السهل علينا أن نستخرج من كتب التفسير الشيعية ما قال به الفاطميون دون غيرهم وما شاركوا فيه إخوانهم ووافقوهم عليه ـ وعمدة التفسير الشيعي الآن هو التفسير الذي كتبه القمي والناظر فيه وفي المجالس المستنصرية التي تحوي آراء داعي الدعاة يجد تباينا بعيداً في الآراء والمعتقدات .

ومن المعروف أن الشيعة جميعاً يشترطون الإيمان بإمام موجود ظاهر أو مستتر ويرون أن العمل بالشريعة وحدها لا يجدي ما لم يصحبه الإيمان بهذا الإمام كالإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام ولا يشذ عن هذا اسماعلية أو إمامية وكل ما هناك أن الفاطميين يقفون انتقال الإمامة على الأبناء دون الإخوة والإمام يعين خليفة من أبنائه قبل أن يموت واتخذوا جميعاً من الآية « وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون » مستنداً لهم بأن الله لا يخلي الأرض من إمام عادل من نسل علي وقد يكون ظاهرا مكشوفا وقد يكون

خفياً مستتراً - ومعروف أيضاً أنهم جعلوا علياً شبيها بالنبي وشريكا له فى الدعوة وأنهم قالوا بعصمة الأنبياء والأوصياء والأئمة ويخصون علياً بأنه صاحب تأويل القرآن فإن الله تعالى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم بلفظه الظاهر للناس ولكنه عرفه بجانبها أسراراً باطنية وهذه خص النبي بها عليا وحده ثم خص بها على أبناءه وخص أبناؤه بها ذريتهم وهكذا وعلى هذا الأساس حلوا الآية : « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك . . إلخ» معنى يخص عليا وذريته أما الآية « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات إلى قوله تعالى : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم » فقد فسروا فيها الراسخين فى العلم بأنهم الأنبياء والأوصياء والأئمة .

هذه الأسس من قواعد العقيدة الشيعية تهدينا إلى الطريق التى يؤولون بها آى القرآن ويضمنونها معانى تناسب هذه العقيدة - يضاف إلى ذلك أن كراهيتهم أبا بكر وعثمان وعمر وعائشة ومعاوية والأمويين بوجه عام وجهتهم إلى جعل هؤلاء هم المعنيين بألفاظ كثيرة جاءت وصفا للكفار فى القرآن الكريم - مثل الظالمين والمفسدين والفجار وما إليها .. فى الآية « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » فسروا الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمتقين ، بأنهم على وأصحابه أما المفسدون فى الأرض والفجار فهم أعداء على : أبو بكر وعمر وعثمان .. ومن النادر أن يذكروا بأسمائهم وإنما يكنون عنهم فيقولون حبتر وزريق ونعثل - وحبتر هو أبو بكر لقصره وزريق هو عمر لزرقة عينيه ونعثل هو عثمان لطول لحيته .

وفى الآية « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ... إلخ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه .. إلخ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .. » فسروا الظلمات بأنها معاوية وفتنته التى أثارها ضد على ، وفسروا النور بأنه الإمام من نسل فاطمة ومن لم يجعل الله نوراً يعنى إماما فى الدنيا فما له من نور أى ليس له إمام يهديه للجنة يوم القيامة .

وهناك آيات كثيرة جعلوا المراد منها تعظيم آل البيت وبيان مناقبهم وهى بعيدة كل البعد عما يقصدون ، وقد عنى ابن حجر بتفنيد رأيهم فى هذا كما رد باطنيتهم هذه كل من الغزالى وابن تيمية على ما بين الغزالى الصوفى وابن تيمية السنى من خلاف بعيد .

هذا التفسير ككل جوانب العقيدة الشيعية التى بنى عليها ليس وليد خرافة خالصة وإن كان يبدو فيه كثير من الخرافات . وإنما هو يرجع فى الأصل إلى ديانات وفلسفات وقديمة تغذى بها واستفاد منها ولكن الشيعة

جعلوا عليا وآل البيت مركزاً لتبلور فلسفاتهم وعبورا لكل ما استفادوا من الديانات السابقة ولما انتقلت نظرياتهم الفلسفية من الخاصة المفكرين إلى العامة السذج سادتها الخرافة وطغت عليها المبالغات .

وأشد أنواع الفلسفة تأثيرا فى المذهب الباطنى والعقيدة الشيعية هو فلسفة أفلاطون والأفلاطونية الحديثة والفيثاغورية ولهذا نجد نظريات المثل والقبض والإشراق والعدد تحتل جانبا واسعا من عقيدتهم وتفسيرهم . ونظرية المثل ... وإن كانت تنسب دائما لأفلاطون . أقدم منه بكثير ولكنه هو الذى وضحها وأشاعها فنسبت إليه .

يجعل أفلاطون هذه المخلوقات التى نحسها جميعا مثلا لحقائق أخرى لايصل إليها حسنا ويجعل الباطنيون لكل شىء ظاهرا وباطنا وهذه المخلوقات كلها إنما هى ظواهر لأخرى خفية تدل هذه عليها الظواهر ولا قيمة لها بدونها وكما أن أجسام الحيوانات لا قيمة لها بغير أرواحها كذلك هذه الظواهر لاقيمة لها بغير بواطنها . والسذج العوام يعنون بهذه الظواهر ويجهلون ماوراءها كما يعنون بأجسامهم ويغفلون تربية أرواحهم - أما خواص الناس ومفكروهم فهم الذين يعنون بما وراء الظواهر والقرآن كذلك بطبيعة الحال له ظاهره وباطنه .

إذا نحن رجعنا إلى الوراء وجدنا هذه الفكرة فى كثير من الديانات السابقة .

فمن قديم جداً فسر البراهمة وعلماء البوذيين نصوص الفيدا تفسيراً باطنا يعطى معنى غير المعنى الظاهر من الألفاظ - وفى مدرسة الإسكندرية ، وعمادها الفلسفات التى قام عليها مذهب الفاطميين - فسرت الكتب المقدسة هذا التفسير .

ففيلون اليهودى وكان وثنيا قبل أن يتهود فسر التوراة تفسيراً باطنياً وعلماء المسيحية أمثال أوغسطين وأرجينوس - فسروا الأناجيل تفسيراً باطنيا وذهب اكليمنطس فى هذا مذهبا أوسع فقد وضع شروطا للتفسير منها أن كل لفظ من الإنجيل لا بد أن يكون له معنى مجازى بجانب معناه الحقيقى.

وهؤلاء جميعا كانوا من مدرسة الإسكندرية ومن عنوا بالفلسفة اليونانية بوجه عام وبفلسفة أفلاطون بوجه خاص وعملهم هذا إنما هو تطبيق لنظرية المثل .

وليس بعيدا عن هذه النظرية ما تمسكت به الكنيسة المصرية من أن المسيح هو كلمة الله المتجسدة وأن له طبيعة واحدة هى الطبيعة اللاهوتية - وقد سببت هذه النظرية العداء المعروف بين الكاثوليكيين واليعاقبة وبين اليعاقبة والنساطرة ولقى المصريون بسببها سوء العذاب - وهى تعنى أن المسيح مع مظهره البشرى وتجسده أمام الناس هو فى واقعه روح الله واذن فبشريته مثل وراءه ممثول .

وقد استفادت الفاطمية من المسيحية ،

من غير شك، بل أن عقيدة الفاطميين مجموع من الديانات والفلسفات القديمة مزجت كلها ودارت حول محور معين كما قلنا، وقد ذكر المرحوم الدكتور محمد كامل حسين أمثلة مما استفادته من ديانات المصريين القدماء وعلوم اليونان وفلسفاتهم ومن والزرادشتية والعبرية والبابلية وغيرها .

ومن الأفكار المشتركة بينهم وبين اليهود والمسيحيين فكرة المنقذ المخلص من الشرور .

فاليهود ينتظرون المخلص من ذرية موسى أو طائفة اللاويين ، والمسيحيون يؤمنون برجعة المسيح ليملأ الأرض سلاما وعدلا والشيعة يؤمنون بالمهدى المنتظر .

وإذن فهذا اللون من التفسير سر لتلك الفلسفة والفاطميون ليسوا بدعا فى هذا - فالفكر الفلسفى فى كل مكان لون الأديان وترك فيها أثرا باقيا فى عقائدها وقوانينها ، وإنما الغريب لدى الفاطميين والشيعة أيا كانوا هو الغلو فى الفكرة وتحميل النص معانى بعيدة كل البعد عن ألفاظه ولا يمكن أن يحتمله تركيبها بوجه من الوجوه فالسير فى هذا الطريق يجعل القرآن غير عربى الأسلوب ويسمح لكل مفسر أن يضمن النصوص ما يشاء من المعانى من غير قانون ولا حساب .

ويبدو أن هذا التفسير، شأن كل المذاهب الأخرى ، بدأ مبسطا ساذجا خاليا من الغلو .

وهذه كلها ترد إلى نظرية المثل التى نادى بها أفلاطون ونجد لهذه النظرية ظلالا فى فلسفات الهند والصين وليس أفلاطون أول من نادى بها ولكنه هو الذى وضحها ووسع دائرتها وأشاعها حتى نسبت إليه .

وإلى وجود هذه النظرية فى بلاد شرقية قبل أفلاطون نجد أن بعض البراهمة والبوذيين فسروا الفيدا بمثل هذا التفسير فجعلوها ذات معانى ظاهرة وأخرى باطنة ، وقد حاول هذه المحاولة فيلون اليهودى وتلاميذه فى تفسير نصوص التوراة وليس من شك أن هذا نتيجة لدراستهم الفلسفية فى مدرسة الإسكندرية وكانت تقوم على الفلسفة الأفلاطونية والأفلاطونية الحديثة بنوع خاص .

وهذه الفكرة تبدو فى المسيحية بوجه أظهر فى جعل المسيح كلمة الله المتجسدة وقد أصرت كنيسة الإسكندرية على أن له طبيعة واحدة هى الطبيعة اللاهوتية فهو فى مظهره البشرى ليس إلا مظهرا - مجرد مظهر لسر لاهوتى ، أو بعبارة أخرى إنه مثال لممثول غير مرئى وهى نفسها نظرية أفلاطون .

وقد شاع عند الفاطمية والشيعة بوجه عام تطبيق الممثول والمثل . ولكننا لا نجد هذه الفكرة تظهر إلا فى وقت متأخر وتوضحها بوجه خاص كتب داعى الدعاة . ومال المرحوم الدكتور محمد كامل حسين إلى أنها لم تظهر إلا بعد عصر الترجمة فى عصر المأمون

فمنذ القرن الثالث الهجرى اطلع المسلمون على ثقافات وديانات كانت شائعة قبل الإسلام وكانت لا تزال لها بقايا فى البقاع التى فتحها المسلمون من ناحية ونقلتها اليهم الترجمة من ناحية أخرى ومع أن الإسماعيلية اتخذوا طريقة التأويل مذهبا لهم إمعانا فى شرف على وآل البيت لم يستطيعوا أن يخلصوا عقيدتهم من نظريات الفلسفات الأخرى فاعتمادهم عليها فى التأويل جعلها تدخل ضمن عقيدتهم ولهذا كانت عقيدة الفاطميين مزيجا من ديانات ومذاهب متعددة - ففيها أقباس من ديانات المصريين القدماء وفيها من علوم اليونان وفلسفاتهم أفلاطونية وأفلاطونية حديثة وفيثاغورية ورواقية كما نجد فيها زراد شتية وعبرية وبابلية وهكذا ... وقد ذكر الدكتور كامل أمثلة لهذا كله تؤيد فكرته وتوضح كلامه .

وإذن فهذا اللون من التفسير ظل لهذه الفلسفة - والفاطميون ليسوا بدعا فى هذا فالفكر الفلسفى فى كل مكان لون الأفكار الدينية وترك أثرا فى قوانينها وعقائدها ولكن الغريب لدى الشيعة هو الغلو فى الفكرة وتحميل النص معانى لا يمكن أن نجد بينها وبين الألفاظ أية صلة أو ارتباط . فالسير فى هذا الطريق يجعل القرآن غير عربى ويسمح لكل مفسر أن يضمن النصوص ما يريد من غير قانون ولا حساب . ويبدو أن شأن هذا التفسير كشأن كثير من الأفكار تبدأ ساذجة مبسطة ثم يدخلها الغلو والتعقيد فهو فيما يظهر قام فى أول أمره على فكرة تضمين النص .

ثم زاد غلوه وكثرت خرافاته - فالمذهب الشيعى نفسه كان أول أمره بسيطاً يقف عند حد المطالبة بحق على فى الخلافة ورمى الخلفاء الآخرين بالكفر لا يخرج المذهب إلى جانب بعيد عن الفكر الإسلامى وقد عفت طائفة الكيسانية المتفقة على رميهم بالتكفير .

ومنذ عصر الترجمة وبعد أن نقلت للمسلمين ألوان من التراث العقلى والدينى لم يكونوا قد اطلعوا عليها من قبل بدأ المذهب الشيعى يتعقد وتدخله آراء ونظريات بعيدة عن تفكير السنيين وغير السنيين من المسلمين - ولعل دعاة الفاطمية تقبلوا خرافات العامة استكثارا للأتباع وتأييداً للحكام وأغضوا عما فى هذه الخرافات من بعد عن سنة المسلمين - وقد انتقل الفكر الفاطمى إلى اليمن ولكنه تحور هناك وبعد كثيراً عما كان عليه دعاة الفاطميين .

وأهم مستند نعتمد عليه فى هذا هى محاضرات داعى الدعاة الباقية فى المجالس المؤيدية والمجالس المستنصرية وهى تباين ما عليه الزيديا من اليمنيين ؟

عبد الجليل شلبى

عضو المكتب الفنى بمجمع البحوث الإسلامية

غزوة أحد
بين القرآن والشعر

للأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوى

— ٢ —

أما الشعر فقد اشترك فى معركته من الفريقين زهاء عشرين شاعراً ، وكثيرا ما كان الشاعر يتحدث عما يجول بنفسه إزاء تلك الغزوة ، ثم ينهض شاعر يرد عليه من الفريق الثانى ، وأكثر ما كان ذلك من ناحية المشركين ، يفخرون بما أوتوه من نصر على المؤمنين ، فينهض من هؤلاء شعراء يردون على أولئك. وقد لعب الشعر فى هذه المعركة كثيراً من الأدوار .

فهو مرة يقوم بدور المحرض على حرب الرسول ، فهذا أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحى قد من عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، وكان فقيراً ذا عيال وحاجة ، وكان فى الأسارى ؛ فقال للرسول : « إنى فقير ذو عيال وحاجة قد عرفتها ؛ فامنن على فمن عليه الرسول ؛ فقال له صفوان بن أمية يا أبا عزة إنك امرؤ شاعر ، فأعنا بلسانك فاخرج معنا ؛ فقال : إن محمدا قد من على ، فلا أريد أن أظاهر عليه ؛ قال : بلى ، فأعنا بنفسك ، فلك الله على إن رجعت أن أغنيك وإن أحببت أن أجعل بناتك مع بناتى ، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر ، فخرج أبو عزة يسير فى تهامة ، ويدعو بنى كنانة ، ويقول :

إيها ، بنى عبد مناة الرزام
أنتم حماة ، وأبوكم حام (١)
لا تعدونى نصركم بعد العام
لا تسلمونى ، لا يحل إسلام

ومضى مسافع بن عبد مناف إلى بنى مالك ابن كنانة يحرضهم على حرب الرسول ويقول:

يا مال ، مال الحسب المقدم
أنشد ذا القربى ، وذا التذمم (٢)
من كان ذا رحم ومن لم يرحم
الحلف وسط البلد المحرم
عند حطيم الكعبة المعظم

وكان لهذا الشعر أثره ؛ فاستجابت له كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا مع قريش إلى أحد .

---

(١) الرزام : جمع رازم ، وهو : من يثبت ، ولا يبرح مكانه وحام : أى الحامى .

(٢) مال : مرخم مالك . وذو التذمم : من له ذمة وعهد .

ودعوة صفوان بن أمية لأبى عزة أن يساعد قريشا بشعره يدل على ماكان للشعر من قوة آسرة فى هذا المجال .

فلما التقى الفريقان كان للشعر أثره فى التحريض على القتال والاستماتة فيه ، فهذه هند بنت عتبة مع النسوة اللاتى معها يأخذن الدفوف ، ويضربن بها خلف الرجال وتنشئ هذا الشعر تحرض به ؛ فكان مما قالت :

ويهـــا ، بنى عبد الدار
ويهـــا ، حماة الأدبار
ضرباً بكل بتار (١)

وكان مما قالته أيضا :

إن تقبلوا نعانق
ونفرش النمارق (٢)
أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق (٣)

وإذا كانت فى الرجز الأول قد خصت بنى عبد الدار ، فلأنهم كانوا حملة لواء المشركين يوم أحد ، ولثبات حامل اللواء أثر كبير فى نفوس الجند ، وسوف نتحدث عن قصة هذا اللواء وماكان له من أثر فى شعر هذه المعركة .

وإذا كانت قد أغرت بنى عبد الدار فإنها قد عادت تغرى جنـــد المشركين جميعا ، وتصفهم بأنهم حماة قومهم ، وتحثهم على الزحف ، حتى يصلوا إلى عدوهم ، ويضربوه بسيوفهم الباترة .

وهى فى الرجز الثانى تغريهم بالقتال وتعدهم إن صدقوا فيه ، بهبة القلوب والأجسام ، أما إن فـــروا فلن يكون نصيبهم إلا البغض والفراق .

وكما كان الشعر يحرض المحاربين على القتال اتخذه الشعراء وسيلة لتحريض أنفسهم عليه ويتخذون من نغماته وموسيقاه ، ومن معانيه الحماسية مشجعا لهم على استقبال المـــوت لا يهابون ؛ فهذا أبو دجانة يخرج إلى القتال وهو يقول :

أنا الذى عاهدنى خليلى
ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر فى الكيول (١)
أضرب بسيف الله والرسـول

ولعل الخليل الذى عاهده هو سيفه ، ولعله ذكر النخيل هنا كأنه يجعله شاهدا على هذا العهد حتى لا يخيس به ، ولا ينقضه ، ولعل الفعل

(١) حماة الأدبار : من يحمون الجيش من التقهقر والبتار : القاطع .

(٢) النمارق : جمع نمرقة ، وهى : الوسادة الصغيرة .

(٣) الوامق : المحب .

(١) الكيول : آخر صفوف الجيش فى الحرب .

المضارع جاء هنا مجزوما ساكن الآخر دلالة على ما فى قلبه من الجزم والتصميم .

وهذا أبو زعنة بن عبد الله يقول يوم أحد:

أنا أبو زعنة يعدو به الهزم (١)
لم تمنع المخزاة إلا بالألم (٢)
يحمى الذمار خزرجى من جشم (٣)

وهذا الجندى شاعر بمرارة القتال ، ولكنه يقدم عليه ، ليدفع عن نفسه العار والخزى ، وإذا كان قد نسب نفسه إلى قومه وقبيلته فكأنه بذلك يجعل حماية الذمار ديدن هؤلاء القوم وشيمة تلك القبيلة .

وهذا لشرجز اعر آخر من المسلمين أيضاً يتحدث عن إقباله من بعيد يقطع المهامه والقفار ، بين السيوف والرماح ، يريد أن يحمى رسول الله ، فيقول :

لا هم ، إن الحارث بن الصمة
كان وفياً ، وبنا ذا ذمة
أقبل فى مهامه مهمة
كليلة ظلماء مدلهمة (٤)
بين سيوف ورماح جمة (١)
يبغى رسول الله فيا ثمه

وحديثه عن المهامه المظلمة المدلهمة ربما فهم منه أنه أقبل من بعيد ، ولم يكن من أبناء المدينة .

وكذلك يقول عكرمة بن أبى جهل ، من جنود المشركين فى ذلك اليوم ، يحث جواده على الإقدام ، ويصف نفسه بالرئيس العظيم ، وكأنه بهذا الوصف يشعر نفسه بما ينبغى أن يكون للرئيس من صفات الشجاعة والبسالة ، فيقول :

كلهم يزجره ، أرحب هلا (٢)
ولن يروه اليوم إلا مقبلا
يحمل رمحاً ورئيساً جحفلا (٣)

وعثمان بن أبى طلحة يحمل لواء المشركين ويقول:

إن على أهل اللواء حقاً
أن يخضبوا الصعدة (٤) أو تندقا

فهو يرى من واجب قومه أن يحاربوا حرب المستميت ، حتى يخضبوا الرماح بدماء أعدائهم ، أو يحطموها فى صدرهم .

وشداد بن الأسود يرى حنظلة بن أبى عامر يعلو أبا سفيان بسيفه يريد قتله ، فقتل شداد حنظلة ، وهو يقول :

---

(١) الهزم : الذى يسمع صوت جريه
(٢) يريد ان العار لا يرد إلا ببذل المرء جهودا مؤلمة
(٣) الذمار : كل ما يلزم المرء حمايته .
(٤) المهامه : جمع مهمه ، وهو : القفر ، وكليلة : لا يستطيع البصر أن يحقق ما يراه فيها ، ومدلهمة : شديدة الظلام .

---

(١) جمة : كثيرة
(٢) مما يزجر به الخيل .
(٣) رئيس جحفل : عظيم القدر
(٤) الصعدة : القناة المستوية المستقيمة .

لأحسين صاحبي ونفسي
بطعنة مثل شعاع الشمس

ولا بد أن يكون هناك رجز كثير غير هذا الذى حفظه التاريخ ، قاله كثير من الجند ، يقوون به روحهم المعنوية ، ويدفعهم إلى القتال دفعاً .

* * *

وكان نصر المشركين فى هذه المعركة مجال فخر شعرائهم ، يسجلونه ضمن ما يسجلون من مآثرهم ؛ فنرى هبيرة بن أبى وهب يعد بين ما يعد لقومه من المآثر أن كان لهم دور كبير فى معركة أحد ، إذ يقول :

نحن الفوارس يوم الجر (١) من أحد
هابت معد ، فقلنا : نحن نأتيها
هابوا ضرابا وطعنا صادقا خذما (٢)
مما يرون ، وقد ضمت قواصيها (٣)
ثمت رحنا كأنا عارض برد (٤)
وقام هام بنى النجار يبكيها

وضرار بن الخطاب يفتخر بشجاعة قومه يوم أحد ، فيقول :

وما انتميت إلى خور ولا كشف
ولا لئام غداة البأس أو راع (١)
بل ضاربين حبيك البيض إذ لحقوا
شم العرانين عند الموت لذاع (٢)
شم بهاليل ، مسترخ حمائلهم
يسعون للموت سعياً غير دعداع (٣)

وقد فخر عمرو بن العاص بانتصاره على أهل المدينة ، وتحطيم آمالهم :

تمنت بنو النجار جهلا لقاءنا
لدى جنب سلع (٤) ، والأمانى تصدق
فما راعهم بالشر إلا فجاءة
كراديس (٥) خيل فى الأزقة تمرق
أرادوا لكيما يستبيحوا قبابنا
ودون القباب اليوم ضرب محرق
وكانت قبابا أومنت قبل ما ترى
إذا رامها قوم أبيحوا ، وأحنقوا (٦)

وظهر فى فخر المشركين التشفى والفرح

(١) الجر : أصل الجبل .

(٢) خذم الشىء : قطعه بسرعة .

(٣) قواصيها : جمع أقصى ، وهو الأبعد . أى اجتمع فى الحرب ما تفرق .

(٤) العارض : السحاب . والبرد : ما فيه برد .

(١) الخور : الضعفاء ، والكشف : جمع أكشف ، وهو من ينهزم فى الحرب .

(٢) البيض : السيوف والحبيك : طرائقها . وشم : مرتفعة . والعرانين : جمع عرنين ، وهو الأنف . ولذاع : يضربون ضربا لاذعا .

(٣) البهاليل : جمع بهلول ، وهو : السيد . والاسترخاء حمائل السيف كناية عن طولهم ودعدع : إركض متباطئا .

(٤) سلع : اسم جبل .

(٥) كراديس : جمع كردوسة ، وهى : الطائفة العظيمة من الخيل

(٦) أحنقوا : أغضبوا .

بالانتقام ، والأخذ بثأر الذين قتلوا يوم بدر ، بل ظهر التشفي بالتمثيل بجثمان حمزة ، يقول عبد الله بن الزبعرى :

فسل المهراس من ساكنه
بين أقحاف وهام كالحجل (١)
ليت أشياخي ببدر شهدوا
جزع الخزرج من وقع الأسل (٢)
حين حكت بقباء بركها
واستحر القتل في عبد الأشل (٣)
ثم خفوا عند ذاكم رقصا
رقص الحفان يعلو في الجبل (٤)
فقتلنا الضعف من أشرافهم
وعدلنا ميل بدر ، فاعتدل

وابن الزبعرى في هذا الشعر يفتخر بكثرة من قتلوا من المسلمين ، ويشير إلى المهراس ، وما فيه من هام بترت عن الأجسام ، ويتمنى أن لو استطاع أشياخه الذين قتلوا ببدر أن يروا كيف أخذ بثأرهم في تلك المعركة التي قتل فيها الكثير من أشراف المدينة ، حتى انتقموا لمعركة بدر التي هزموا فيها ، وكان عليهم ، أن يغسلوا عن أنفسهم بأحد عار هزيمتهم في بدر .

(١) المهراس : اسم موضع والأقحاف : جمع قحف ، وهو : العظم الذي فوق الدماغ ، والهام : جمع هامة ، وهي : الرأس والحجل . طائر .
(٢) الأسل : الرماح
(٣) البرك : الصدر . واستحر القتل : اشتد .
(٤) رقص : اضطرب والحفان : صغار النعام .

ويقول ضرار بن الخطاب الفهري :

فياليت عمراً وأشياعه
وعتبة في جمعنا السورج (١)
فيشفوا النفوس بأوتارها (٢)
بقتلى أصيبت من الخزرج
وقتلى من الأوس في معرك
أصيبوا جميعاً بذي الأضوج (٣)
ومقتل حمزة تحت اللواء
بمطرد مارن مخلج (٤)
بأحد ، وأسيافنا فيهم
تلهب كاللهب المرهج (٥)

ويقول أبو سفيان :

وسلى الذي قد كان في النفس أنني
قتلت من النجار كل نجيب
ومن هاشم قرما كريما ومصعبا
وكان لدى الهيجاء غير هيوب (٦)
ولو أنني لم أشف نفسي منهم
لكانت شجاً في القلب ذات ندوب (٧)

(١) السورج : المتقد .
(٢) الوتر : الانتقام .
(٣) ذو الأضوج : موضع .
(٤) المطرد : الرمح المستقيم . والمارن : اللين في صلابة ومخلج : ضارب .
(٥) أرهج : أثار الغبار .
(٦) القرم : السيد العظيم ، والمصعب : الفحل . والهيجاء : الحرب .
(٧) الشجا : الحزن ، والندوب : جمع ندب ، وهو أثر الجرح .

ويريد بالقرم الكريم من بنى هاشم حمزة عم الرسول .

أما هند بنت عتبة وزوج أبى سفيان فقد اتخذت من آذان الرجال وآنا فهم خلخالا وقلائد ، وأعطت خلخالها وقلائدها وقرطها وحشيا قاتل حمزة ، وبقرت عن كبده فضغتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها ؛ ثم علت على صخرة مشرفة فقالت :

نحن جزيناكم بيوم بدر
والحرب بعد الحرب ذات سعر (١)
ما كان عن عتبة لى من صبر
ولا أخى ، وعمه ، وبكرى
شفيت نفسى ، وقضيت نذرى
شفيت وحشى ، غليل صدرى (٢)
فشكر وحشى على عمرى
حتى ترم (٣) أعظمى فى قبرى

ويحس القارئ بأن شكرها الوحشى نابع من صميم فؤادها ؛ لأنها أدركت ثأرها على يديه ، فشفى نفسها ، وقضى نذرها .

وتتحدث عن تمثيلها بحمزة فتقول :

شفيت من حمزة نفسى بأحد
حتى بقرت (٤) بطنه عن الكبد
أذهبت عنى ذاك ما كنت أجد
من لذعة الحزن الشديد المعتمد (١)
والحرب تعلوكم بشؤبوب برد (٢)
تقدم إقداماً عليكم كالأسد

وهذا شعر يصورها مهتاجة العواطف ، متأججة الحزن ، حتى كأنما خرجت من طبيعة الإنسان إلى طبيعة الوحوش الكاسرة .

ماذا كان موقف شعراء المسلمين إزاء هذا الفخر والتشفى ؟

لقد حاول بعض شعراء المسلمين أن يقال من قيمة ما يدعيه المشركون من المفاخر ؛ وأظهر ما كان ذلك فى أمر لواء المشركين ؛ فإن التاريخ يروى أن أبا سفيان قائد جيش المشركين قال لأصحاب اللواء من بنى عبد الدار وكان لهم اللواء والحجابة ودار الندوة يحرضهم على القتال : يا بنى عبد الدار ، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر ، فأصابنا ما قد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلو بيننا وبينه فنكفيكموه ، فغضبوا ، وقالوا : ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع ؛ وهكذا نجح أبو سفيان فيما أراد .

« يتبع »

دكتور أحمد أحمد بدوى

(١) السعر : الجنون .
(٢) الغليل : الحقد وحرارة الحزن .
(٣) ترم : تبلى .
(٤) بقرت : شققت

(١) لذعت النار الشىء : أحرقته . والمعتمد : الذى يعمد إليه القلب .
(٢) الشؤبوب : الدفعة من المطر . والبرد : ذو البرد (بفتح الراء) .

من بحوث مجمع البحوث

ملكية الأفراد للأرض ومنافعها فى الإسلام

للأستاذ محمد السايس

موضوع البحث الذى تقدم به فضيلته المؤتمر فى دورته الأولى . وقد مهد له ببيان الحكمة من استخلاف الله الإنسان على الأرض وهى تعميره لها . الأمر الذى كان لا يمكن أن تقوم له قائمة بغير تعاون أفراد الجماعة الإنسانية على النهوض بأعبائه الثقيلة مع ما بين هؤلاء الأفراد من اختلاف فى القوى والميول والمشارب قضى بألا تستقيم حياة هذه الجماعة بغير دستور يحدد حقوق أفرادها وواجباتهم . فكان الدستور الإنسانى العام بمبادئه الخمسة . حفظ الدين والنفس والعقل والنسب والمال : الذى أقرته جميع الشرائع السماوية والوضعية . والذى من المبدأ الأخير فيه تولدت نظرية الملكية

ثم بين الملكية فى عرف اللغويين والقانونيين والفقهاء بما لا يخرجها عن كونها : اختصاص إنسان بشىء على وجه يمكنه من التصرف فيه دون غيره إذا لم يوجد مانع من ذلك : وهذا الملك كما يطلق على العلاقة النسبية بين الشخص وما يملكه كثيرا ما يطلق على الشىء المملوك .

وحصر ما يملك من الأشياء فى ثلاثة :

١ — الأعيان وهى الأشياء المحسة من عقار أو منقول .

٢ — المنافع وهى ما يقصد من الأعيان.

٣ — الحقوق المتعلقة بالمال كحق المرور مثلا أو بغيره كحق الحضانة . وقسم الأعيان بالنسبة لقابلية التملك إلى ما لا يقبل التملك أو التمليك بحال وهو ما كان خاصا بالمنافع العامة ما بقيت له صفة العموم وما يقبله بمسوغ شرعى كالعين الموقوفة إذا زادت نفقاتها على ما تغله . وما يقبله بلا قيد وهو ما عدا النوعين ثم قسم الملك إلى : تام : وهو ما يقع على الشىء ومنافعه جميعا : وإلى : ناقص : وهو ما يقع على أحدهما العين أو المنفعة ووضح خصائص النوع الأخير من كونه يقبل التقييد بالزمان والمكان والصفة . ولا يقبل التوارث الخ هذه

الخصائص كما وضح الأسباب التى بها ينتهى هذا النوع من الملك وذكر أن من الملك الناقص حق الارتفاق : وهو الحق المقرر على عقار لمنفعة عقار آخر مملوك لغير مالك العقار الأول : كحق الشرب والمرور وبين أيضا ما يثبت به هذا الحق . من الشركة العامة كما فى الطرق والأنهار . ومن النص عليه فى عقد المعاوضة إلى غير ذلك .

وختم هذا التمهيد ببيان خصائص الملك التام وأسبابه . وموقف الإسلام من حرية الملك عامة .

ثم انتقل بعد ذلك إلى بحث ملكية الأفراد للأرض ومنافعها فى الإسلام . فأورد النصوص القرآنية التى تثبت أن ملكية الأرض كانت موزعة بين الأفراد فى جميع العصور ولدى جميع الدول وفى الديانات المتعاقبة ، يتبادلون ملكيتها ويتوارثونها حسبما تقضى به شرائعهم ونظمهم . وأتبعه بإيراد بعض الأحاديث والآثار الدالة على أن الأرض كانت مملوكة للأفراد ينتفعون بها بكل وجوه الانتفاع . ثم ساق بعض نصوص فقهاء المذاهب الأربعة المتعلقة بهذا الموضوع.

* * *

وإليك جزء هذا البحث الخاص . بأسباب الملك التام وخصائصه . وبموقف الإسلام من حرية الملكية عامة وملكية الأفراد الأرض ومنافعها مع بعض ما أورده من الأحاديث والآثار التى تؤيد هذه الملكية .

الملك التام خصائصه وأسبابه :

١ — من تعريف الملك التام السابق يتبين للمالك مطلق التصرف فى العين ومنافعها بكافة التصرفات المشروعة من بيع وإجارة وإعارة وغيرها . وهذه الحرية المطلقة للمالك لا تتقيد إلا بأمرين : الأول عدم الإضرار بغيره فردا كان ذلك الغير أو جماعة ، الثانى أن يكون تصرفه فى نطاق الأوامر والقرارات التى تصدرها السلطات الحاكمة تحقيقا للمصلحة العامة ويشمل ذلك نزع الملكية للمنفعة العامة والاستيلاء المؤقت على العقار فى حالة حصول غرق أو قطع جسر والقيود المفروضة لصالح الأمن أو الصحة العمومية كالقيود المختصة بالتنظيم وإنشاء العزب والزرائب والمحلات المقلقة للراحة والمضرة بالصحة والخطرة وإقامة الآلات الرافعة وتركيب الآلات البخارية والقيود المفروضة لصالح الزراعة الملزم باتباعها مالكو الأرض المجاورة للترع والمصارف ونحوها .

والقيود الموضوعة لحفظ وإنماء الثروة الأهلية كالقيود الخاصة بالمناجم وحماية الآثار التاريخية وتحريم بعض المزروعات .

٢ ــ للمالك حق الانتفاع بالشيء المملوك بأي وجه من وجوه الانتفاع غير متقيد بزمان ولا مكان ولا بشكل معين ما لم يكن ذلك محرما شرعا كأن يجعل داره ناديا للقمار .

٣ ــ أن هذا الملك غير مؤقت ؛ فلا ينتهي إلا بهلاك العين المملوكة أو بانتقاله إلى غيره بالوراثة إذا مات المالك أو بتصرف شرعي ناقل للملكية كالبيع والهبة .

٤ ــ أن ملكية الأعيان لا تقبل الإسقاط لأنه لا سائبة في الإسلام .

أسباب الملك التام :

من المفيد هنا أن ننقل ما جاء في البحر نقلا عن كتاب الحاوي للقدسي ونصه :

الملك : الاختصاص الحاجز وأنه حكم الاستيلاء لأنه به ثبت لا غير إذ المملوك لا يملك لأن اجتماع المالكين في محل واحد محال فلا بد وأن يكون المحل الذي ثبت فيه الملك خاليا عن الملك والخالي عن الملك هو المباح والمثبت للملك في المباح الاستيلاء لا غير وهو طريق الملك في جميع الأموال لأن الأصل الإباحة فيها وبالبيع والهبة ونحوها ينتقل الملك الحاصل بالاستيلاء إليه فمن شرط البيع شغل المبيع بالملك حالة البيع حتى لم يصح في مباح قبل الاستيلاء ومن شرط الاستيلاء خلو المحل عن الملك وقته وبالإرث والوصية تحصل الخلافة عن الميت حتى كأنه حي لا الانتقال حتى ملك الوارث الرد بالعيب دون المشتري أي المشتري من المورث الذي مات . فالأسباب ثلاثة مثبت للملك وهو الاستيلاء وناقل للملك وهو البيع ونحوه وخلافه وهو الميراث والوصية ومن هنا نعلم أن أسباب الملك التام ثلاثة :

١ ــ الاستيلاء على المال المباح .

٢ ــ العقود الناقلة للملكية من بيع وهبة مثلا .

٣ ــ الخلافة : أن يقوم شخص مقام شخص فيما كان يملكه ويخلفه فيه كما في الإرث ولا تعتبر الشفعة وهي حق تملك العقار جبرا على المشتري بما قام عليه لأنها هي حق التملك وليست هي التملك .

وحقيقة التملك إنما تكون بالتراضي أو بقضاء القاضي ومرده إلى العقد بإقامة القاضي مقام الممتنع الجبر وكذلك لا يعتبر التولد من المال المملوك سببا جديدا لإفادة الملك في المتولد أو المستفاد من المملوك لأن من خصائص الملك التام كما قدمنا أن يكون المال بمنافعه وثمراته المتصلة والمنفصلة ملكا لصاحبه مقصورا عليه لا يشاركه فيها أحد فيكون ملك ما تولد ثابتا بالسبب الأول الذي ثبت به الملك في أصله فمن ملك حيوانا بعقد أو بإرث فإنه يملك ذاته وما ينتج منه

فى المستقبل لأن النتاج حين وجوده يكون كالجزء المنفصل فلا يحتاج إلى سبب جديد .

ثم إن لهذه الأسباب أوصافا مختلفة تنقسم باعتبارها ثلاثة تقسيمات ، فتنقسم أولا إلى اختيارية وجبرية أما الاختيارية فهى الاستيلاء على المال المباح والعقود ، والجبرية هى الخلفية التى تتحقق بالميراث فإن هذا السبب يثبت الملك فيه جبرا على كل من المورث المالك السالف والوارث الخليفة عن المورث فإن الشارع جعل الوارث يحل محل المورث فى ملكه المنتهى فالملك الجديد امتداد للملك القديم ولهذا لا يشترط قبوله ولو رده لا يرتد بالرد والذى يثبت فيه الملك بهذا السبب هو المال الباقى بعد تجهيز الميت وسداد ديونه وتنفيذ وصاياه وعلى هذا تكون الخلافة فى ملك الباقى فقط وليست خلافة فى كل شىء ؛ فلا يلزم الوارث بسداد دين الميت فى ماله الخاص إذا لم تف تركته بديونه .

وتنقسم ثانيـاً إلى ما هو منشىء للملكية وناقل لها من شخص إلى شخص آخر فالمنشىء للملكية هو الاستيلاء على المال المباح فإن المال المباح لا يوصف قبل الاستيلاء عليه بالمملوكية ويدخل فى هذا السبب الاستيلاء على الغنائم الحربية ؛ لأن أموال الحربيين تعتبر مباحة لأن المال المباح هو الذى لم يدخل فى ملك يحترمه الشارع ولم يوجد ما يمنع شرعا من تملكه ومال هؤلاء غير محترم فى نظر الإسلام فى حالة الحرابة .

والناقل للملكية هى العقود والخلفية فإن هذين لا يثبت بهما ملك الشخص إلا إذا كان المال الذى ورد عليه العقد أو الميراث مملوكا من قبل فالمال المباح لا يكون محلا لعقد من العقود كما لا يكون ميراثا لأحد .

وبهذا يظهر أن أول أسباب الملك وجوداً الاستيلاء على المباح ثم بعد ذلك يجىء النقل بالعقد أو الإرث . وتنقسم ثالثاً إلى فعلية وقولية واعتبارية شرعية — والاستيلاء سبب فعلى لا يتحقق إلا بالفعل ولهذا يصح من ناقصى الأهلية كالصبيان والمحجور عليه فإذا استولى صبي ولو غير مميز أو محجور عليه أو مجنون على مباح استيلاء حقيقياً صحيحاً ملكه مع أن العقود الصادرة من هؤلاء قد تكون باطلة أو موقوفة على إذن الولى .

والعقد سبب قولى فى غالب صوره لأن الأصل فيه أن يكون بالقول وقد يتحقق بالفعل نيابة عن القول كما فى الكتابة أو الإشارة وشرط إثباته الملك أهلية العاقد الكاملة .

والإرث يثبت الملك من غير فعل ولا قول من الوارث أو المورث فهو سبب

اعتبارى جعله الشارع موجباً للملك من غير أن يكون لأحد دخل فيه ، ولذلك يثبت للصغير والكبير والمميز وغير المميز بل يثبت للجنين فى بطن أمه .

هذا وموضوع البحث وهو ملكية الأفراد للأرض ومنافعها يقتضينا أن نخص السبب الأول وهو المنشئ للملكية بالبحث لأن نشأة الملكية للأرض منذ بدء الخليقة ترتبت عليه فإن الله سبحانه وتعالى امتن على عباده بأن جعل لهم الأرض جميعاً أى الأرض وما فيها بأن يراد بالأرض ناحية السفل بدليل المقابلة بالسماء «ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات» واللام للملك والاختصاص وقال تعالى : «ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون» .

وقد استدل العلماء بالآية الأولى على إباحة الأشياء قبل ورود الشرع والملك فى الحقيقة لله سبحانه ولكن الله الغنى تفضل على عباده المحتاجين للانتفاع بمخلوقاته من الأرض وغيرها بإباحتها لهم وتمليكها لهم إن أحيوها واستولوا عليها على ما يشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم : (الأرض أرض الله والعباد عباد الله من أحيا أرضا مواتا فهى له) والإحياء يكفى أن يكون وحده سببا للملك بدون حاجة إلى إذن السلطة الحاكمة ، لأن الأرض الغير مملوكة لأحد مباحة والمباح لا يحتاج فى تملكه إلى إذن من الإمام . ولأن الحديث الذى بين الطريق التى تملك بها الأرض المباحة لم يقيد ذلك بالإذن . ولفظه كما جاء فى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (من أعمر أرضا ليست لأحد فهى له) .

ويرى أبو حنيفة أن الملك لا يثبت بمجرد الإحياء بل لابد من إذن الإمام أو نائبه . لأن الأرض وإن كانت مباحة إلا أنه قد يتزاحم الناس عليها فتقع الشحناء بينهم . فمنعا لهذا يشترط إذن الإمام ، لأنه بما له من الولاية العامة يستطيع قطع أسباب الخصام فلا يأذن إلا بما ليس فيه ضرر . ويشهد له حديث : ليس للمرء إلا ما طابت به نفس الإمام .

والخلاصة أن الاستيلاء على الأرض المباحة كاف للتملك إن لم تكن هناك مظنة تنازع أو تزاحم ولم يكن هناك منع عام من الإمام وأنه لا بد من إذن الإمام إن خيف التنازع والتخاصم . وعلى ذلك فليس فى مصر الآن أرض موات بالمعنى الذى عناه الفقهاء ، لأن أراضيها غير المملوكة للأفراد أو الشركات والموقوفة مملوكة للدولة ولها وحدها حق تمليكها لمن تشاء بعوض أو بغير عوض . ونسوق بعد ذلك كلمة فى احترام الشارع للملكية بوجه عام وتقريره لحريتها وحرمتها .

حرية الملكية :

من الضروريات الخمس التي أجمعت الشرائع السماوية على وجوب حفظها وقررت احترامها وحرمتها المال ، ففي الحديث : كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه - لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب من نفسه .

وقد كفل الإسلام حرية الملكية بأحكام شرعها :

فأولا : جعل التراضي والرضا أساسا للمبادلات المالية فكل ما شرعه الله من التصرفات التي تفيد نقل ملكية العين أو منفعتها من بيع وإجارة وإعارة جعل أساس صحته ونفاذه حرية المتصرف ورضاه واختياره قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » .

ثانيا : نهى الله ورسوله في مواضع عدة عن التعدي على مال الغير وأخذه من مالكه بغير حق قال تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » . وقال : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » .

ثالثا : ضمانا لحرية الملكية وتأمينا للناس على أموالهم قررت الشريعة عقوبة السارقين وتضمين الغاصبين . قال تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » .

وفي الحديث (لا يحل لأحد أن يأخذ متاع أخيه لاعبا ولا جادا فإن أخذه فيرده عليه) وفي حديث آخر على اليد التي أخذت أن ترد .

ومما يؤيد حرمة الملكية قوله صلى الله عليه وسلم لمن كان يغبن في البياعات إذا بايعت فقل : لا خلابة ولي الخيار ثلاثة أيام. ونهيه صلى الله عليه وسلم عن بيع الغرر ، فإن في شرعية الخيار والنهي عن بيع الغرر ضمانا لتحقيق رضا المالك بالتبادل وعدم خروج الملك من مالكه وفي نفسه شبهة قهر أو خداع له وكذلك تقرير حق الشفعة دفعا للضرر عن الجار أو الشريك ، مما يؤيد احترام حق الملكية وإحاطة المالك بما يدفع عنه الضرر ، وتقرير حقه في الانتفاع بملكه على أحسن الوجوه ، وصيانته مما يتوقع من إضرار .

وقد آن لنا أن ننتقل بعد هذا التمهيد إلى بحث ملكية الأفراد للأرض ومنافعها في الإسلام .

(للبحث بقية)

محمد السايس

الملكية الفردية وتحديدها في الإسلام

للأستاذ علي الخفيف

— ٣ —

موقف الشريعة الإسلامية من النوعين :

لعلنا فيما مضى من بيان قد تبينا أن الإسلام حين ظهر بجزيرة العرب أقر الملكية بنوعيها الفردية منها والجماعية فأما إقراره الفردية منها فهو مما يصح أن يقال فيه إنه مما يعلم من الدين بالضرورة ومعنى ذلك أن إقراره أياها يتجلى فيما نزل من آيات وفيما فرض من فرائض وفيما ندب إليه من صدقات وهكذا على وضع يزول معه كل شبهة وريبة وأما إقراره الملكية الجماعية فهو ظاهر في المساجد إذ جعلها لله تعالى وليس معنى ذلك إلا أنها لجماعة المسلمين يؤدون فيها عباداتهم وشعائرهم وظاهر في الوقف حين شرعه لتوجه غلاته ومنافعه إلى سبل الخير العام أي إلى مصلحة عامة لجماعة المسلمين ، وظاهر فيما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من قسمته غنائم خيبر نصفين جعل أحدهما للنوائب والوفود التي تفدعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق . وظاهر فيما حماه صلى الله عليه وسلم من الأرض لخيل المسلمين التي يحملون عليها حين يغزون في سبيل الله . وقد أشرنا فيما مضى إلى أنه صلى الله عليه وسلم قد حمى النقيع لهذا الغرض فكان للمسلمين عامة وكذلك أشرنا إلى أن هذا الأثر يدل على أنه كان لجماعة المسلمين من الخيل التي يحملون عليها ما اقتضت المصلحة أن يحمى لها من الأرض . وكذلك كان شأن الملكية في الفيء والغنائم قبل قسمتها في الناس إذ كان الملك فيها حينئذ لجماعة المسلمين مما كان يسوغ لبعض الصحابة أن ينعته بأنه مال الله وليس يريد إلا أنه مال المسلمين جميعا وهذا هو المعنى الذي تمسك به أبو ذر رضي الله عنه وحمل معاوية بن أبي سفيان وهو أمير الشام يومئذ من قبل عثمان رضي الله عنه على إظهاره وذلك حين سمعه يقول : إن المال مال الله فقال له : لا تقل ذلك وما الذي يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟ فقال له معاوية يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله والمال ما له ؟ فقال أبو ذر : لا تقل ذلك [١] وأصر على رأيه مخافة أن يتخذ قول معاوية ذريعة إلى احتجاز هذا المال عن أصحاب الحقوق فيه من المقاتلة والجند وإلى استبداد ولي الأمر بالتصرف والتدبير فيه بحسب

(١) الطبري ج ٣ (٣٢٠) .

رأيه دون مساءلته فى ذلك من أحد وليس الأمر كذلك بل المال مال المسلمين لكل منهم فيه حق وله أن يسأل الخليفة أو ولى الأمر عنه بناء على هذا الحق . وذلك ما كان عمر رضى الله عنه يقرره إذ كان يقول: ما أحد من المسلمين إلا وله فى هذا المال حق أعطيه أو منعه (١). ويقول من أراد أن يسأل عن ذلك المال فليأتنى فإن الله تبارك وتعالى جعلنى له خازنا وقاسما (٢) .

وهذا مايدل على أن الإسلام حين أقر هذه الملكية الجماعية إنما أقرها على أساس أنها ملكية لجماعة مكونة من أفراد تتعلق بمال لكل منهم حق فيه يخول له ضربا من القيام عليه يظهر فى طلب المحاسبة عليه قسمة ورعاية وحفظا كما يفرض عليه أن يقوم على رعايته وحفظه ما وجد إلى ذلك سبيلا . ولذا كان عمر رضى الله عنه يوصى رجاله الذين أقامهم على حفظ هذا المال أن يلاحظوا أنه مال المسلمين لكل منهم فيه حق ويقول فيما رواه زيد بن أسلم عن أبيه : لا يترخص أحدكم فى البرذعة أو الحبل أو القتب فان ذلك للمسلمين ليس أحد منهم إلا وله فيه نصيب فإن كان لإنسان واحد رآه عظيما وإن كان لجماعة المسلمين ارتخص فيه (٣) بهذا يحذرهم

(١) الأموال لأبى عبيد (٢٢٣) .

(٢) الأموال لأبى عبيد (٢١٣) .

(٣) الأموال لأبى عبيد (٢٦٨) .

من أن تكون رعايتهم لهذا المال قائمة على أنه مال الجماعة أو مال الله دون ملاحظة حق لكل فرد فيه - وهذا ما يجلى معنى الملكية الجماعية فى نظر الإسلام وأنها للأفراد مشتركين لا للهيئة بوصف أنها هيئة لها شخصية اعتبارية ولها ملك هذا المال ولها حقوقه . ولم تجعل الشريعة الإسلامية لكل من هذين النوعين نطاقا لا تتجاوزه بل كان كل مال فى نظرها صالحا لأن يكون ملكا لفرد أو ملكا لجماعة وذلك ما تدل عليه الآثار التى أوردناها فيما سبق وقد استثنى من ذلك الماء والكلأ والنار وكذلك الملح وذلك لحديث أبى خراش أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (المسلمون شركاء فى ثلاثة فى الماء والكلأ والنار) رواه أحمد وأبو داوود ورواه ابن ماجة من حديث ابن عباس وفى رواية (الناس شركاء فى ثلاثة فى الماء والكلأ والنار) وقد دل على أن الناس شركة فى جميع أنواع الماء من غير فرق بين المحرز وغيره ولكن هذا العموم مخصوص بالإجماع إذ قد قام الإجماع على أن الماء المحرز ملك لمحرزه وكذلك دل على شركة الناس فى الكلأ وهو النبات رطبه ويابسه وشركاء فى الاستضاءة بالنار والانتفاع بلهبها وأما الشركة فى الملح فلحديث بهية عن أبيها أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشىء الذى لا يحل منعه فأجابه : (الملح) رواه أحمد وأبو داود (١)

(١) نيل الأوطار حـ ٥ (٢٥٧) ، (٢٥٨) .

وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت يارسول الله ما الشىء الذى لا يحل منعه قال : (الملح والماء والنار)، رواه ابن ماجة وألحق الشافعى رضى الله عنه بذلك ما يوجد فى الأرض مما ترى منفعته بادية وفى متناول من يطلبها دون جهد منه أو عمل من كل معدن ظاهر كالذهب والتبر وغيرهما والنبات والماء مما لا يملكه شخص معين ولا يحتاج فى إظهاره وإدراكه إلى مئونة فإن الناس جميعا يكونون فى ذلك سواء لا يختص به واحد من الناس بإحياء أو اقطاع من ولى الأمر بل يكون شأنه شأن الماء والكلأ والنار والقاصد إليه شريك فيه كشركته فى الماء والكلأ الذى ليس فى ملك أحد - قال الشافعى ومثل هذا كل عين ظاهرة كنفط أو قار أو كبريت أو حجارة ظاهرة فى غير ملك لأحد فليس لأحد أن يحتجزها دون غيره ولا لسلطان أن يمنعها لنفسه ولا لخاص من الناس (١) .

ويرى المالكية فى أشهر أقوالهم أن ليس شىء من المعادن فى محالها ، مناجمها ، مالا مباحا حتى يتملكها من يستولى عليها وإن كان استيلاؤه عليها لم يحدث إلا بعمل قام به أو بنفقة أنفقها فى سبيله وإنما هى ملك للمسلمين جميعاً نتيجة قيامهم على ما وجد فيها من الأرض قيام ولاية وحماية ولا تعد تابعة لأرضها مملوكة لصاحبها نتيجة لتملك أرضها إذ ليس لمثل هذا طلبت الأرض أو ملكت وعلى ذلك يكون أمرها إلى الإمام يستغلها بعماله لمصلحة المسلمين إن رأى المصلحة فى ذلك أو يقطعها من شاء إقطاع انتفاع مؤقت بمدة أو بحياة من أقطعها نظير مال يصرف فى مصالح المسلمين فاذا انتهت المدة رد الأمر فيها إلى الإمام لا فرق فى ذلك بين ما يوجد فى أرض مملوكة وما يوجد فى أرض غير مملوكة ولا بين نوع ونوع وجاء فى منح الجليل للشيخ عليش أن أساس هذا الحكم هو المصلحة العامة إذ أنها تقتضى ذلك .

أما ما يحتاج إلى عمل ومئونة فى إظهاره واستخراجه فان منفعته تكون لمن كان ذلك منه بما استحدثه من ماله ، الأم ح٣ص٢٦٥).

ومن هذا يتبين أن مجال الملكية الجماعية فى الأموال لا تحده حدود فى الشريعة الإسلامية وأن مجال الملكية الفردية بناء على ما ذكره الشافعى رضى الله عنه لا يتناول من الأموال ما كان قائما فى محله باديا لكل من قصد إليه بحيث لا يتطلب فى الحصول عليه نفقة ولا جهدا ولا عملا ومنفعته عامة تتطلبه مصالح المسلمين .

ويجب أن يلاحظ مع هذا أن عدوان إحدى الملكيتين على الأخرى محظور محرم فلا يجوز أن يتملك الفرد ما كان ملكا للجماعة مخصصا للمنافع العامة إلا إذا خرج عن ذلك بالاستغناء عنه فعند ذلك يجوز تملكه بعوضه على أن يقوم بهذه المبادلة ولى الأمر متحريا

(١) الأم ح ٣ (٢٦٥) ومابعدها إلى (٢٦٦) .

ألا يكون فيه غبن كما لا يجوز لولى الأمر أن يعتدى على ملك فرد من الأفراد فليس له أن يجعله فى منفعة عامة علوكا لجماعة المسلمين إلا إذا تطلبت مصلحة المسلمين ذلك فيأخذه الإمام عن رضا أو عن قهر يبدله دون غبن على صاحبه وذلك لأن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة وذلك ما حدث فى توسعة المسجد الحرام حين ضاق على الناس فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد كانت دور الناس محدقة به من كل جانب عدا فتحات يدخل منها الناس إليه فاشترى عمر دورا منها وأبى عليه أصحاب الدور الأخرى فأخذها منهم قسرا ووضع قيمتها بخزانة الكعبة وأدخل الجميع المسجد وظلت القيمة بالخزانة إلى أن أخذها أصحابها ثم كثر الناس فى عهد عثمان وضاق عليهم المسجد مرة أخرى فأراد توسعته فاشترى من قوم وأبى عليه آخرون فأخذ دورهم جبرا وعزرهم ، لأنه ليس للمالك أن يأبى حين يدعوه إلى بيع ملكه داعى المصلحة العامة فاذا أبى كان إباؤه ظلما فيدفع.

وليس يجوز أن يؤخذ ملك إنسان بلا عوض لمصلحة عامة بل يجب تعويضه من بيت مال المسلمين فإن لم يكن فيه ما يقوم بذلك كان لولى الأمر أن يفرض على القادرين من الوظائف المالية ما يقوم بحاجة الدولة ويدفع ما نزل بها بالقسطاس المستقيم فيعم بذلك جميع القادرين كلا بقسطه ولا يقصره على بعضهم وبذلك يشترك كل قادر فى دفع ما ألم بالأمة مما يجب دفعه .

الملكية وظيفة اجتماعية:

جاء القرآن الكريم بما يدل على أن لله ما فى السموات وما فى الأرض له ملك ما فيهما ونص على ذلك فى آيات كثيرة نذكر منها قوله تعالى : « ألا أن لله ما فى السموات والأرض » (يونس ٥٥) وقوله : « قل لمن السموات والأرض قل لله » (الأنعام ١٢) وقوله : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » البقرة (١٠٧) فدل بذلك على أنه سبحانه وتعالى مالك لجميع مصادر الثروة ومالك للثروة نفسها ومالك لما على ظهر الأرض من مال أيا كان نوعه . ولم يخلقه ويملكه لحاجته إليه فالله هو الغنى عما سواه وإنما خلقه وجعله للإنسان قال تعالى : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » (البقرة ٢٩) وقال : « ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره » (الحج ٦٥) وقال : « ألم تر أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » (لقمان ٢٠) فكان للناس جميعهم كل منافعه وكان فيهم سداد عوزهم وقيامهم وكان اختصاص الإنسان به وانتفاعه بثمراته صورة تمثل الملكية العامة الشائعة التى أسس عليها عمل الفرد فيه وانتفاعه به

فانتفع الناس به جميعاً فى البداية بلا اختصاص وكان انتفاع الفردية على هذا الوضع . ثم ظهرت بعد ذلك الملكيات الفردية فأقرها المجتمع ولم يعارضها إذ كانت أمراً شائعا فى الناس دعت إليه حاجتهم وغريزتهم وكان قيام أصحابها بها بعد الإباحة العامة برضا الناس وإقرارهم قيام خلافة ونيابة عن المجتمع بهذا الاعتبار وكان الفرد على هذا الأساس عاملا فى مال الجماعة نيابة عنها وقد كلفه الله سبحانه وتعالى بالعمل فيه قال تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » (التوبة ١٠٥) ولهذا التكليف وجب عليه أن يعمل فى نطاق إرادته ومواهبه وقوته وكان سلطانه فى عمله هذا وولايته فيه ممتداً بامتداد مواهبه وقدرته وكانت ثمرة عمله بحكم ذلك ثمرة استخرجها من مال الجماعة فكان له فيها حق كما أن تلك الثمرة من ناحية أخرى هى لله تعالى آتاه إياها واستخلفه فيها بدليل قوله تعالى : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (الحديد ٧) وفى بيان معناها يقول الزمخشرى : يعنى أن الأموال التى فى أيديكم إنما هى أموال الله بخلقه وإنشائه لها وإنما مولكم إياها وخولكم الاستمتاع بها وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها فليست هى بأموالكم فى الحقيقة وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب فأنفقوا منها فى حقوق الله وليهن عليكم الإنفاق كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن فيه وقوله تعالى : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (النور ٣٣) وقوله تعالى « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » (آل عمران ١٨٠) وقوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون » (البقرة ٣٠) وكان بناء على ذلك نائبا فى ملكه أميناً فيه خازنا لثمراته جعل له التصرف فيه فى الحدود المشروعة وهى حدود قصد بها خيره ونفعه ومصلحة مجتمعه فليس له أن يتجاوزها فإذا تجاوزها كان ذلك خروجا منه عن خلافته وولايته واستوجب بذلك الجزاء بالحجر عليه وغل يده ومن دلائل هذه النيابة رجوع مال من يتوفى عن غير وارث إلى بيت المال باعتباره خزانة لأموال المجتمع فإليه كل مال لا يظهر له مالك .

ومن ذلك يتبين أن الملكية وبخاصة الفردية وظيفة اجتماعية : المالك فيها أمين وخازن فيما يحوزه من مال الله تعالى أو من مال مجتمعه . فإذا ما تجاوز ما وضع له فى القيام عليه من حدود فتلك جرثومة الفساد ومصدر ما يأتيه الناس فى أموالهم من مظالم

وطغيان وفساد ـ وأن هذا المعنى ليسمو عند بعض الأفراد ويستولى على النفس حتى يرون حرجا فى تخير ما ينفقون وفى تقدير ما يبذلون كما حدث ذلك لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفقوا يسألونه ماذا ينفقون ، بما أشار إليه القرآن الكريم فى أكثر من موضع مثل قوله تعالى «ويسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل» البقرة (٢١٥) وقوله تعالى : «ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو» البقرة (٢١٩) .

ونيابة الفرد فى هذا القيام على ماله نيابة تقوم على أهليته لذلك العمل بما منحه الله فيه من عقل ونظر كما قدمنا ، فوجب أن يكون عمله فيه موجها إلى الخير ووضعه موضعه وإنفاقه فى وجوهه وإنمائه بالطرق المشروعة ، ولذا جاءت الشريعة بإخراجه من هذه الولاية وغل يده إذا أساء التصرف فيها لسفه أو غفلة أو أصابته آفة أعجزته أن يقوم بذلك . وفى ذلك نزل قوله تعالى : «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما» (سورة النساء ٥) ولهذا المعنى أضاف القرآن الأموال فى حديثه عنها إلى الله سبحانه وتعالى وإلى جماعة المخاطبين كما يرى فيما ذكرنا من الآيات سابقا ، وكما يرى فى قوله تعالى : «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون» (البقرة ١٨٨) وقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم» (النساء ٢٩) وقوله تعالى : «وأكلهم أموال الناس» (النساء ١٦١) وقوله : «وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى» (سبأ ٣٧) وقوله: «واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة» (الأنفال ٢٨) وغير هذه كثير وعلى هذا الأساس حاج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من حاجه فى الحمى قائلا : حيث بلادنا قاتلنا عليها فى الجاهلية وأسلمنا عليها فى الإسلام فقال عمر : «البلاد بلاد الله وتحمى لنعم الله يحمل عليها فى سبيل الله» الأموال لأبى عبيد ٢٩٩ .

إقرار الملكية الفردية وحمايتها :

المواطن مختلفة اللسان متغايرة فى العادات والتقاليد منقطعة الصلة فيما بينها فى بعض الأحوال مما يدل على أنها كانت أثرا لطبيعة من طبائع الإنسان وغريزة من غرائزه وأنها نظام قد دام دوام فطرته وساير تطوره واتسق مع ما انتهت إليه مجتمعاته من أوضاع ونظام وتقاليد .

ولقد استمر قيام هذا النظام وانتشاره وشموله إلى أن ظهر الإسلام فكان له من نظره ما كان لغيره من الأناظيم والعادات والتقاليد التى واجهها الإسلام عند ظهوره وهو نظر

يهدف فى واقعه العام وفى غرضه الأساسى إلى الإصلاح والتهذيب لا إلى الهدم والنقض إلا أن يكون الشر خالصا والخبث غائر الجذور والفساد لا يشوبه صلاح فعند ذلك يعمد إلى النقض والهدم والتحريم والمنع .

ولم تكن الملكية الفردية مع كفالتها بتوفير الحاجات وموافقتها لسليم الطباع ومع تأسيس النظام القائم عليها وبقائها على مرور الزمن وانقضاء العصور دعامة من دعائم الحياة الاجتماعية بالأمر الخير الذى لا يخالطه شر ولا بالشر المحض الذى لا يرى فيه خير بل كانت كغيرها من النظم نظاما فيه النفع وفيه الصلاح وفيه الشر والإثم إذ قد يؤدى فى أحوال إلى تمزيق المجتمع بقسمته إلى طبقات متصادمة كما قد يتخذ ذريعة إلى شرور وفساد وتمال واستعباد وإهدار الحقوق واكتناز للأموال .

لذلك عمد الإسلام إلى أن أقرها مع الإصلاح والتهذيب بما يحول دون أن تتخذ مصدر لاضطراب وفساد وتنازع وصدام ، وسبيلا إلى جعل المجتمع طبقات متنازعة متنافرة ودون أن تتخذ ذريعة إلى إشباع الشهوات والانغماس فى الترف والملذات وطريقا إلى التسلط والطغيان . وذلك بما سنه لها من نظام وشرعه لها من أحكام ودعا إليه فيها من فضائل وحض عليه من بذل ومواساة ، وعمد الإسلام إلى إقرارها مع الإصلاح لأنها كانت هى النظام العام الذى قامت عليه حياة المجتمعات على تعددها واستقرت عليه نظمها الاقتصادية على اختلافها . ولم يكن من إقرارها بد حتى يستمر للحياة الإنسانية سيرها ويستقر لها وضعها واتجاهها إلى غايتها وحتى يحصل الناس منها على ما يبغون من منافعها ويسعون إليه من ثمراتها وحتى تطمئن نفوسهم ويمضون بحماس إلى أهدافهم بجميع مالهم من قوة .

من هذه الناحية كانت الملكية الفردية ضرورة اجتماعية أقرها الإسلام لذلك وأضفى عليها حمايته ثم كان فى غنى عن أن يأمر بها وأن يحض على التزامها وعلى الاستمساك بنظامها وأن يجعلها واجباً دينياً يجب إليه السعى قصداً فتركها على ما هى عليه أمراً مباحا تهدى إليه الطبائع البشرية ولا بد أن يوجد ويقوم نتيجة للغرائز التى فطر الإنسان عليها فمنها يحصل الإنسان على ما يقيم به حياته والحصول عليه واجباً تجنباً للهلكة وبعداً عن الفناء . ولقد أمر الله سبحانه وتعالى فى كتابه بالعمل فقال : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » التوبة ١٠٥ ، وأمر بالسعى فقال : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » (الجمعة ١٠) ، وقال : «هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها

وكلوا من رزقه وإليه النشور » (تبارك ١٥) والأمر يتجنب الهلكة أمر بما به تجتنب ولا طريق إلى تجنبها فى مجال الاقتيات إلا بالملكية الفردية فكان ذلك أمراً بها فى هذا النطاق أى فى سبيل المحافظة على الحياة وضروراتها — عليه تكون هذه الملكية واجباً بقدر ما به يدفع الضرر وهو ما يعرف فى الإسلام بمراعاة الضروريات ووجوب المحافظة عليها لأن الوسيلة إلى الواجب تعد واجبة بوجوبه أما الوسيلة إلى غيره فلها حكم ما تقضى إليه من مندوب أو مكروه أو محرم. وعلى ذلك تكون الملكية الفردية بالنظر إلى ما سبق مما يعتريه الأحكام الشرعية وهى الوجوب والندب والإباحة والكراهة والتحريم وذلك بحسب ما تقضى إليه من ذلك شأن كل مباح يفضى إلى شىء من ذلك .

ولقد أضفى عليها الإسلام حمايته كما أشرنا إلى ذلك آنفا فصانها من العبث بها إذ حرم اتخاذها وسيلة للترف الممقوت والفسق البغيض والملذات الرخيصة والإسراف المرذول والاعتداء الظالم والأكل بالباطل.

فنى سبيل تحريم الترف جعله القرآن سبباً لنزول العذاب بأصحابه وحرمانهم من نصر الله فجاء فيه قوله تعالى : « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذاهم يجأرون لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون » (المؤمنون ٦٤، ٦٥) وقوله تعالى : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . فى سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم . إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » (الواقعة ٤١ إلى ٤٥) كما جعله باعثا على الظلم والإجرام فجاء فيه قوله تعالى : « واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين » (هود ١١٦) .

وفى سبيل تحريم التبذير والإسراف جاء قوله تعالى : « ولا تبذر تبذيرا . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً » (الإسراء ٢٦ ، ٢٧).

وفى تحريم الاعتداء جاء قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » (النساء ٢٩) وقوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم » (البقرة ١٨٨) وأمر بقطع يد السارق فقال : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » (المائدة ٣٨) وبذلك وأمثاله صينت الملكية الفردية من أن تمس إلا بحق فيها أو بواجب فرضته الشريعة الإسلامية فى أموال الناس لتطهرهم وتزكيهم وتدفع عنهم وتقويهم بما يرهب أعداءهم .

(البحث بقية)

على الخفيف

الحرية السياسية والقيادة الجماعية في الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

— ٢ —

٢ — نظام الشورى :

وهو الصورة الثانية التى تجسدت فيها الحرية السياسية فى الإسلام ، ويقصد به مشاورة رئيس الدولة ذوى الرأى والثقة فى كل ما يجل أو يدعو إلى السؤال .

ولقد نص على هـذا النظام الديموقراطى فى قوله تعالى :

« وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله » .

« وأمرهم شورى بينهم » .

وهذه الشورى هى ما يعبر عنه فى مصطلحنا الحديث بالقيادة الجماعية ، وهى أسمى مدارج الديمقـراطية التى انتهى إليها المشرعون المعاصرون لما تحققه من حرية سياسية للأفراد فى ظل المساواة ، وما يترتب عليها من تقدم ورخاء للمجتمع ، وصـلاح للعالم بأسره .

شواهد وبينات .

ويحفل الكتاب الكريم والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامى بأروع الآيات والصفحات فى تطبيق هذا النظام ، الذى جاء به الإسلام ليعمل به قادته وأئمته ضمانا لسلامة العقيدة وسياجا للأمة يحميها من شر انفراد الحاكم بالسلطة ، وإساءة استعمالها أو تجاوزه الحدود التى بينتها الشريعة ، فتصان حرية الشعب وينطلق فى تحقيق آماله فى الحياة الحرة الكريمة .

وترتكز تلك القيادة الجماعية على روح الوحـدة والجماعة التى بثها الدين الحنيف فى نفوس المؤمنين ـ قادة ومواطنين ـ عملا بقوله تعالى : .

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

« هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(يد الله مع الجماعة) .

(عليكم بالجماعة ، وإياكم والفرقة ، فإن الشيطان مع الواحد ، وهو مع الاثنين أبعد من أراد بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة) .

والهدف الذى يتوخاه الإسلام من حث

أبنائه على التمسك بروح الجماعة هو كبح جماح الأنانية البغيضة ، وتربية عادة التشاور الحميدة ، ذلك أن تبادل الرأى هو الطريق إلى المعرفة الصحيحة من خلال استعراض وجهات النظر المختلفة وتحليلها ، واختيار الأصلح منها للعمل به ، وهو الضمان الحقيق من خطأ الفرد عن قصد أو حسن نية والأمان من الزيف والانحراف .

« والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

ويقول النبى الكريم :

(الدين النصيحة .. قالوا : لمن يارسول الله ، قال : لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم) .

ولقد اتبع الأنبياء قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - مبدأ المشاورة ، فاستعانوا فى إبلاغ رسالتهم بمن توسموا فيهم الحكمة وصواب الرأى ، ومنهم موسى عليه السلام إذ يقول كما جاء فى القرآن الكريم : « واجعل لى وزيرا من أهلى . هارون أخى ، أشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيرا ، ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا » .

واستجاب الله سبحانه لهذه الدعوة .

« قال قد أوتيت سؤلك ياموسى » .

وفى فضل المشاورة الصادقة والمناصحة الأمينة يقول الرسول :

(إذا أراد الله بالأمير والحاكم ، خيرا جعل له وزير صدق ، إن نسى ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نسى لم يذكره ، وإن ذكر لم يعنه) .

روح الجماعة فى العبادات :

كما تتجلى روح الوحدة والجماعة فى الفرائض الإسلامية ، فمن المكروه فى الصلاة أن يؤم المصلين رجل لا يحبونه ، فإذا أمهم رجل مختار وجب عليه أن يلتزم بالشروط المتفق عليها للصلاة ، والتى يؤمن بها الكافة ، ولو زاد الإمام فى الصلاة أو نقص ذكره المصلون قائلين له :

« سبحان الله ... »

وإذا توقف الإمام فى تلاوة التنزيل الحكيم فتح عليه أحد المصلين بالآية التى توقف فيها ، وإذا نسى آية ذكره بها أحدهم ، وإذا أخطأ فى آية صححت له ، وإذا اضطر الإمام إلى ترك الصلاة أو ضعف عنها استخلف فى الإمامة من ينوب عنه من المصلين ، وهكذا كما شرعه الله .

والحج إلى بيت الله ، هو المؤتمر الذى تتبلور فيه الروح الجماعية فى الإسلام ، إذ يتشاور فيه أبناؤه فيما بينهم فى مسائل الدين والدنيا .

كذلك تبدو تلك الروح فى فريضتى الصوم والزكاة ، فيلتقى المسلمون فى مواقيت واحدة فى صيامهم وإفطارهم وتوزع الزكاة على المستحقين كما يجمع عليهم أهل الشورى .

ومن ثم يتجلى الدور الرئيسى الذى تقوم

به العبادات فى إرساء القيادة على أساس التخطيط الجماعى الذى يصهر الأفراد والجماعات معاً فى قالب واحد ويجمعهم على شعار واحد وغاية مشتركة ، فلا سمعة ، ولا رياء ، ولا جاه ، ولا سلطان . بل الواحد للكل والكل للواحد.

ولقد أرشد النبى المسلمين بالقول والعمل فى حياته إلى أصول الحكم الصالح الذى يقوم على جماعية القيـــادة ، حتى تتأصل فيهم الديموقراطية السليمة ، وتكون لهم نبراساً فى مستقبل تاريخهم يرسون فى ضوئه قواعد حضارتهم الإنسانية السامية ، بل إن اختيار الله سبحانه وتعالى لرسالته الخالدة ، رجلا من أبناء الشعب عرف اليتم وذاق مرارة الفقر ، لهو أروع مثل يضربه للناس أجمعين كى يقتدوا به فى تصريف شئون حياتهم ، وليست سياسة الحكم إلا منحى من مناحى الحياة المختلفة ، وفى ذلك يقول النبى لرجل أصابه وجل عند لقائه :

(رويدك ياهذا ، إنما أنا بشر : أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد) .

وكانت الأمثلة التى ضربها المعلم الأعظم فى الأخذ بالمشورة الصالحة آية فى عظمة القيادة ونضج السياسة ، فمن الحكمة أن ينتفع القائد الرشيد مهما بلغ من قدرة على رسم الخطط بتجارب الخبراء من أتباعه ، وأن يشحذ لرسالته ما استطاع من سداد الرأى وكمال الإدراك .

ومن ذلك أنه عليه السلام ، لم يأنف ـ على ما حباه الله من رجاحة الفكر ـ أن يأخذ برأى الحباب بن المنذر فى غزوة بدر حين أشار إلى مكان غير الذى نزلوا فيه أول الأمر ، ثم بتغوير الآبار وبناء حوض للشرب لا يصل إليه المشركون ، فقد قبل الرسول هذه المشورة ، وكذلك الأمر حينما نصح سلمان الفارسى بحفر الخندق عند المنفذ الذى خيف أن يهجم منه الأعداء على المدينة ، فأمر النبى بحفر الخندق وشارك المسلمين فى ذلك.

والأخذ بمشورة الأتباع المخلصين من الرعية من أسس القيادة الحكيمة ، مما يطلق عليه فى ميثاقنا الوطنى العودة إلى القواعد الشعبية لاستطلاع رأيها . وبفضل هذا المبدأ تتحقق ديمقوقراطية الحكم وتنشأ قيادة من التفكير الجماعى القادر على صد نزعات التحكم الفردى واستبداده .

وقد اقتدى بالرسول الكريم فى هذه السياسة أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فجرت خطتهما على الإصغاء إلى النصح والعمل بالقويم من الآراء ، وآية ذلك أنه استشهد كثير من حفاظ القرآن فى حروب الردة وخيف على من بقى منهم أن تأتى عليهم حروب أخرى ، فأشار عمر رضى الله عنه على الخليفة أبى بكر أن يجمع القرآن ، فتردد فى بادئ الأمر وهو يقول : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ ثم انشرح صدره لما أشار به عمر ، وأمر بجمع القرآن وتدوينه فى المصاحف .

على أن مبدأ الشورى - كسائر المبادئ - ليس مبدأ مطلقا فى الإسلام ، فللخليفة حق الاستقلال بالرأى حين تكون التبعة فيه تبعته هو دون غيره ، وحين تختلف وجهات النظر فيطالب منه الرأى الفصل ، ومثال ذلك استقلال أبى بكر برأيه فى اختيار الخليفة من بعده بعد أن شاور الصفوة من المسلمين ففوضوه فى الأمر ، وذلك أنه جمع إليه نخبة من أهل الرأى ليختاروا من يشاءون ، وقال لهم فيما قال : (... وقد أطلق الله إيمانكم من بيعتى ، وحل عنكم عقدتى ، ورد عليكم أمركم ، فأمروا عليكم من أحببتم ، فإنكم إن أمرتم فى حياة منى كان أجدر ألا تختلفوا من بعدى) . . فلم يجمعوا على رأى وعادوا إليه يقولون : (إن الرأى يا خليفة رسول الله رأيك) فاستمهلهم حتى (ينظر لله ولدينه ولعباده) ، ثم استقر رأيه على استخلاف عمر بعد مشاورة عبد الرحمن بن عوف وعثمان ابن عفان وسعيد بن زيد وأسيد ابن الحضير.

وأملى أبو بكر كتاب العهد على عثمان ابن عفان فكتبه وختمه وخرج به مختوما ونادى فى الناس : أتبايعون لمن فى هذا الكتاب ؟ وقيل إن أبا بكر أشرف من كوته فقال : يا أيها الناس إنى قد عهدت عهدا أفترضونه ؟. فقالوا : رضينا يا خليفة رسول الله . فكانت البيعة التى أجمع عليها المسلمون .

(٣) مبدأ الإجماع :

ومن خلال الممارسة العملية لنظام الشورى نشأ مبدأ الإجماع فى الإسلام ، وقد توطد هذا الركن الأساسى من أركان السياسة الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين .

فقد كان أبو بكر إذا احتكم إليه المتخاصمون نظر فى كتاب الله ، فإن وجد فيه ما يقضى به بينهم قضى به ، وإن لم يجد فى الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك سنة قضى بها ، فإن أعياه خرج فسأل المسلمين وقال : أتانى كذا وكذا ، فهل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فى ذلك بقضاء ؟ » فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر فيه عن رسول الله قضاء ... فإن أعياه أن يجد فيه سنة عن رسول الله جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فإن أجمع رأيهم على شئ قضى به .

وكذلك كان يفعل عمر رضى الله عنه ، فإن أعياه أن يجد فى القرآن أو السنة نظر هل كان فيه لأبى بكر قضاء ، فإن وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به ، وإلا دعا رءوس الناس فإذا اجتمعوا على أمر قضى به .

وفى قول آخر : إن عمر كان يستشير الصحابة على فقهه ، حتى كان إذا رفعت إليه حادثة قال : ادعوا لى عليا ، وادعوا لى زيدا ... فكان يستشيرهم ثم يفصل بما اتفقوا عليه .

كما روى عنه أنه كانت ترفع إليه القضية

فربما تأمل فى ذلك شهراً ويستشير أصحابه . وفى ذلك يقول عمر لأحد ولاته : (أن أقض بما استبان لك من أئمة المسلمين ، فإن لم تعلمه فاجتهد برأيك ، واستشر أهل العلم والصلاح) .

وليس أدل على إعمال الخليفة الثانى لمبدأ الإجماع برغم ما اتصف به من الفطنة والحكمة ، من أنه كان يمارض الرأى فى بعض الأمور ، ولكنه حين يعلم أن مصدره الإجماع يعدل عن معارضته ، اعتقاداً منه أن الخير فى رأى الجماعة ، وآية ذلك أنه علم أن جيش المسلمين بالشام قرر الانتقال من حمص إلى دمشق فكتب إلى قائده أبى عبيدة الجراح يقول :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبى عبيدة بن الجراح ، وإلى الذين معه من المهاجرين والأنصار ، والتابعين بإحسان ، والمجاهدين فى سبيل الله ، سلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد : فإنه بلغنى توجهكم من أرض حمص إلى أرض دمشق وترككم بلاداً قد فتحها الله عليكم ، وخليتموها لعدوكم وخرجتم منها طائعين ، فكرهت هذا عن رأيكم وفعلكم ، وسألت رسولكم : أعن رأى من جميعكم كان ذلك ؟ فزعم (قال) إن ذلك كان من رأى خياركم وأولى النهى (العقل) منكم وجماعتكم ، فعلمت أن الله عز وجل لم يكن ليجمع رأيكم إلا على توفيق وصواب ورشد فى العاجلة والعاقبة ، فهون ذلك على ما كان دخلنى من الكراهية قبل ذلك لتحولكم ، وقد سألنى رسولكم المدد لكم ، وإنى ممدكم قبل أن يقرأ عليكم كتابى هذا .... .

وقد روى عن الخليفة على بن أبى طالب قوله : « قلت يا رسول الله ، الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه القرآن ولم تمض فيه عنك سنة ، قال : اجمعوا له العالمين أو قال العابدين من المسلمين فاجعلوه شورى بينكم ولا تقضوا فيه برأى واحد » .

صفوف القادة :

وبفضل هذه الآيات البينات والمثل الرفيعة ثبت مبدأ القيادة الجماعية فى نفوس المسلمين ، فنفروا من الفردية والاستبداد ، وتمرسوا بالتفكير الجماعى فألفوه وأفادوا منه فى دينهم ودنياهم ، وتكون فى ظل هذا التفكير صف ثان من القادة ، ثم صف ثالث ، وهكذا توالت الصفوف مؤمنة بعقيدتها معبرة عن إرادة الأمة الإسلامية مناضلة فى سبيل سيادتها وتحقيق أهدافها الإنسانية .

وكان الصف الأول من قادة الإسلام - فى عهد الرسول وبعده - يتألف من مجموعة من وجوه الصحابة وصفوة المسلمين الذين أطلق عليهم « أهل الحل والعقد » ، وهم الذين صاروا موضع الثقة ومبعث الخبرة بما قدموه

من آيات الصدق والوفاء والتفانى فى سبيل الصالح العام وما تحلوا به من مناقب الذكاء والسداد .

ومما يجدر بالذكر فى هذا المقام قول الباحث الإسلامى الهندى أبو الأعلى المودودى عن هؤلاء القادة :

فما كان أهل الحل والعقد فى عهد الخلافة الراشدة منقسمين إلى أحزاب متفرقة ، وما كانوا متقيدين من الضوابط البرلمانية بمثل ما تكون المجالس التشريعية متقيدة فى هذا الزمان ، وما كانوا يحضرون مجالس الشورى بعد أن يعقدوا مؤتمراتهم الحزبية ويضعوا لها خطة العمل والسياسة ، بل كانوا كلما دعوا للشاورة يأتون المجلس بقلوب ملؤها الإخلاص ، وكان الخليفة بينهم يعرض عليهم الأمر ، ويدلى كل واحد منهم برأيه ، إما مؤيداً أو معارضاً له ، حتى تصير جميع نواحى المسألة متجلية واضحة . ثم يوازن الخليفة بين الحجج الموافقة والمعارضة ، ويعرض عليهم ما عنده من الدلائل ويبين رأيه ، وكان هذا الرأى فى عامة الأحوال رأيا يسلم به أعضاء المجلس كلهم » .

وكان الرسول يقصر مشورته على هذه الصفوة من المسلمين ، أو يوسع الدائرة حتى تشمل السواد الأعظم وفقا لمقتضى الحال وفى هذا المعنى جاء فى (تفسير المنار) عن ركن الشورى فى الإسلام :

(أقام النبى صلى الله عليه وسلم هذا الركن فى زمنه بحسب مقتضى الحال ، من حيث قلة المسلمين واجتماعهم معه فى مسجد واحد فى زمن وجوب الهجرة التى انتهت بفتح مكة فكان يستشير السواد الأعظم منهم ، وهم الذين يكونون معه ، ويخص أهل الرأى والمكانة من الراسخين بالأمور التى يضر إفشاؤها » .

وقد جاء فى كتاب « عبقرية الصديق » الأستاذ عباس العقاد فى شأن هذه الصفوة من أولى الرأى : (وقد آثر أبو بكر أن يبق عنده نخبة الصحابة فى المدينة ، فلا يقصيهم فى الولايات ولا يفرقهم بين الأقطار ؛ لأنهم أحق الناس أن يستشيرهم ويرجع إليهم ويشركهم معه فى رقابة العمال والولاة ، وسئل فى أهل بدر لم لا يوليهم عملا فقال : أكره أن أدنسهم بالدنيا ، ولعله يريد بالتدنيس تعرضهم لفتنة الدنيا وشهوة الحكم وغواية المال والمتاع .

ولا ندرى على التحقيق أى الصاحبين - أبو بكر وعمر - كان صاحب الفكرة الأولى فى هذه السياسة التى اتفقا عليها ولم ينحرفا عنها قط فى عهديهما ، إلا لضرورة نادرة . ونعنى بها سياسة الإقلال من إسناد الأعمال إلى كبار الصحابة » .

جماعية القيادة فى الميثاق :

ينص الميثاق على القيادة الجماعية كمبدأ

أساسى للديموقراطية ، لا غنى عنه فى تثبيتها والانطلاق بها لتحقيق أهداف الشعب فى ظل الدفع الثورى ، وضمان وطيد يحول دون إساءة استعمال السلطة أو استغلالها لتحقيق أهواء ذاتية أو أغراض نفسية أو الانحراف بها نحو الحكم المطلق والاستبداد بمقدرات الأمة .

وقد جاء فى الباب الخامس من الميثاق ـ الخاص بالديموقراطية السليمة :

(إن جماعية القيادة أمر لا بد من ضمانه فى مرحلة الانطلاق الثورى . إن جماعية القيادة ليست عاصما من جموح الفرد فحسب وإنما هى تأكيد للديموقراطية على أعلى المستويات ، كما أنها فى الوقت ذاته ضمان للاستمرار الدائم المتجدد » .

وفى تحليل حتمية القيادة الجماعية بوصفها تجسيدا لروح الثورة واستجابة لشعبيتها ، وعاصما من الجموح ، وسبيلا لتحقيق إرادة الجماهير فى بناء الاشتراكية ، يقول الميثاق :

« إن الثورة ليست عمل فرد ، وإلا كانت انفعالا شخصيا يائسا ضد مجتمع بأكمله ، والثورة ليست عمل فئة واحدة ، وإلا كانت تصادما مع الأغلبية ، وإنما قيمة الثورة الحقيقية بمدى شعبيتها وبمدى ما تعبر به عن الجماهير الواسعة ، وبمدى ما تعبئه من قوى هذه الجماهير لإعادة صنع المستقبل ، وبمدى ما يمكن أن توفر لهذه الجماهير من قدرة على فرض إرادتها على الحياة » . ويقول :

« إن الديموقراطية هى توكيد السيادة للشعب ووضع السلطة كلها فى يده ، وتكريسها لتحقيق أهدافه » .

وفى سبيل خلق صفوف من القادة ينبثقون من القاعدة الشعبية ليلتفوا حول قيادة القمة فى سبيل العمل الوطنى المشترك عن طريق القيادة الجماعية يؤكد الميثاق .

إن حركة النضال الثورى قد استوجبت من العمل الثورى أن يمتد نطاق القيادات الشعبية من القاعدة إلى القمة حول القيادة الطليعية » .

ويقرر فى فصل (الديموقراطية) أيضا :

« إن الديموقراطية السياسية إذ تقوم على مبدأ سيادة مجموع الشعب لا يمكن أن تتحقق فى ظل سيطرة طبقة بذاتها من بين طبقات المجتمع » .

ويقول أيضا :

« وتمثل القيادة الجماعية الشعبية ـ على جميع مستوياتها ، ضمانا آخر لدعم الديموقراطية السليمة ، فهى إذ تعصم من الانحرافات الفردية ، تؤكد التفاعل الديموقراطى بحكم قيامها على المناقشة وتبادل الرأى » .

حسن فتح الباب
ماجستير فى العلوم السياسية

الذوق الأدبى

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى

— ١ —

ما أكثر ما يرجع الأديب والناقد إلى حكم الذوق الأدبى ، أو يستدل به فى قضايا الأدب والنقد ، أو يجادل به حكم المخالفين لرأيه وقضائه فى مشكلات الفن والنقد ... إن مرجع الأحكام فى الأدب إنما هو إلى ذوق الناقد ، فالنقد هو فن دراسة النصوص الأدبية ، والتمييز بين الأساليب المختلفة ، وأداة التمييز هو الذوق الأدبى الذى يميز بين نص ونص ، وأسلوب وأسلوب ، ولفظة ولفظة ...

فما هو هذا الذوق الأدبى ؟

لقد رجع النقاد العرب إلى هذا الذوق فى الحكم على النصوص وعلى الأدباء ، وإن كانوا لم يستطيعوا تحديده . يقول ابن سلام الجمحى البصرى الناقد المتوفى عام ٢٣١ هـ فى مقدمة كتابه « طبقات الشعراء » : قال قائل لخلف الأحمر (توفى عام ١٨١ هـ) : إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته ، فما أبالى ما قلت فيه أنت وأصحابك ، فقال له خلف : إذا أخذت أنت درهما واستحسنته فقال لك الصراف إنه ردىء ، هل ينفعك استحسانك له ؟

ومعنى ذلك أن الحكم الأدبى مرجعه إلى ذوق الناقد الخبير البصير بأساليب الكلام ، ولفظة « النقد » توحى إلى ذلك كله ... وفى ذلك يقول ابن سلام أيضاً : الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات [1] . ويؤكد ابن سلام ضرورة المران والدربة فى تكوين الذوق فيقول[2] : « إن كثرة المدارسة لتعدى على العلم » . والذى قرره ابن سلام هو ما انتهى إليه الغربيون فى حقيقة النقد الأدبى ، يقول « لانسون » عميد النقد الموضوعى فى فرنسا : « إذا كان النص الأدبى يختلف عن الوثيقة التاريخية ، بما يثير لدينا من استجابات فنية وعاطفية ، فإنه يكون من الغرابة والتناقض أن ندل على هذا الفارق فى تعريف الأدب ، ثم لا نحسب له

---

(١) مقدمة كتاب « طبقات الشعراء » لابن سلام ص ٥ .

(٢) المرجع السابق .

حساباً في المنهج ، ففي الأدب لا يمكن أن يحل شيء محل التذوق ، (١) .

وسار الآمدي (المتوفى عام ٣٧١ هـ) في كتابه « الموازنة إلى ما ذهب إليه بن سلام ، فقرر أن مرجع الأمر في الأدب إلى الذوق وهذا الذوق يتكون بالدربة ودائم التجربة وطول الملابسة ، وبهذا يفضل أهل الحذاقة بكل علم وصناعة من سواهم ممن نقصت قريحته ، وقلت دربته ، وحكى إسحاق الموصلي ، قال ، قال لي المعتصم : أخبرني عن معرفة النغم وبينها لي ، فقلت له : إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤديها الصفة (٢) ، ويذكر الآمدي أن الناقد لا يستطيع أن يأتيك في النقد بعلة قاطعة ولا حجة باهرة (٣) وهذا هو رأى لانسون أيضا حيث يقرر أننا نكون أكثر تمشيا مع الروح العلمية بإقرارنا بوجود التأثرية في دراستنا ، وما دامت التأثرية هي المنهج الوحيد الذي يمكننا من الإحساس بقوة المؤلفات وجمالها فلنستخدمه في ذلك صراحة (٣) ، وهو يعني استخدام الذوق الأدبي في أحكامنا على الأدب ، وإذا كان حكم الذوق أو النقد التأثري هو المنهج الوحيد في الحكم الأدبي كما يرى الآمدي

(١) ١٣٠ في الميزان الجديد للدكتور مندور .
(٢) ١٧٦ الموازنة للآمدي
(٣) ١٣١ في الميزان الجديد

ولانسون ، فإن صبغ النقد بالأحكام العلمية باقتباس النظريات المختلفة له من علم الجمال وعلم النفس والاجتماع أمر لا يمكن أن يؤدي إلى عناية ، وفي ذلك يقول « لانسون » أيضا : إن التجربة قد حكمت بفشل تلك المحاولات (١) وإذا فكرنا في مناهج العلوم فيجب أن يكون ذلك لإثارة ضمائرنا أكثر من أن يكون لبناء معارفنا (٢) فالنقد إذن شيء مستقل عن كل علم آخر لأن قوامه الذوق ومنهجه هو التأثرية ، وليس شيئا موضوعيا على الراجح يكون مرجعه نظريات العلوم المختلفة وأقدر الناس على النقد هم الأدباء والشعراء لا العلماء ولقد سأل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر (توفي عام ٣٠٠ هـ) الشاعر البحتري (توفي عام ٢٨٤ هـ) : مسلم أشعر أم أبو نواس ؟ فقال : بل أبو نواس ، فقال له عبيد الله : إن أبا العباس (أي ثعلبا المتوفى عام ٢٩١ هـ) لا يوافقك على هذا ، فقال البحتري : ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ، ممن يحفظ بالشعر ولا يقوله وإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقه (٣)

(١) ١٣٢ المرجع السابق
(٢) ١٣٣ المرجع نفسه
(٣) ٤ و ٥ رسالة الكشف عن مساوىء شعر المتنبي للصاحب بن عباد

ورأى ابن سلام والآمدى فى الذوق هو رأى القاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى صاحب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » (المتوفى عام ٣٩٢ ﻫ على أرجح الآراء) حيث يرى أن الذوق هو مرد الحكم فى الأدب وأنه يكتسب بصحة الطبع وإدمان الرياضة [١] ، وكذلك صنع ابن طباطبا (المتوفى عام ٣٢٢ ﻫ) فى كتابه (عيار الشعر) فذهب إلى أن الذوق إذا استحسن أو استهجن فلأسباب فى نفس الكلام والشعر [٢] .

ويقول المرزوقى (م ٤٢١ ﻫ) فى شرحه على الحماسة : إن ما يختاره الناقد قد يتفق فيه ما لو سئل عن سبب اختياره إياه وعن الدلالة عليه لم يمكنه فى الجواب إلا أن يقول :

هذا يوافق طبعى ، أو ارجع إلى غيرى ممن له الدربة والعلم بمثله فإنه يحكم بمثل حكمى [٣]

ومثل ذلك يقول عبد القاهر الجرجانى (م ٤٧١ ﻫ) : « أعلم أنه لا يصادف القول فى هذا الباب موقعا من السامع ، ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما يومئ إليه من الحسن واللطف أصلا ، وحتى يختلف الكلام عليه عند تأمل الكلام ، فيجد الأريحية تارة ، ويعرى منها تارة أخرى [١] » ، فعبد القاهر يرى أن النقد يجب أن يكون فنا طليقا ، لا يخضع إلا لحكم الذوق الأدبى السليم والملكات الفنية الخالصة ، وقد سبق عبد القاهر بمذهبه فى النقد مدرسة الرومانتيكيين فى فرنسا التى حاربت نظرة الكلاسيكيين إلى النقد كعلم له أصوله ومناهجه وقواعده ، ورجعت إلى الشعور والعاطفة والنفس فى أحكام النقد ، وإلى هذا نادى « سانت بيف » فى قوله : « ليس هناك قواعد تخلق الكاتب الكلاسيكى » ، وقوله : « النقد لا يمكن أن يصبح علما موضوعيا وسيبقى فنا دقيقا فى يد من يحاولون استخدامه » ، ويقول جول ليمتر : « إننا نحكم بالجودة على ما نحب » ، أى أننا نرى حسنا ما نحب » ، أما تين الناقد الفرنسى فكان يعتبر النقد الأدبى علما يسير على مناهج مدروسة ، وهو فى ذلك يشبه قدامة من بين النقاد العرب . . ويقول عبد القاهر أيضا فى ذلك وفى الذوق الأدبى وأهميته فى الحكم على الأدب والأدباء [٢] : إن المزايا

---

(١) ص ٣١٠ الوساطة بين المتنبى وخصومه .
(٢) ص ١٤ عيار الشعر .
(٣) ص ١٠ ج ١ شرح ديوان الحماسة للمرزوقى .

(١) ٢٢٠ دلائل الإعجاز .
(٢) ٢٤٢ و ٢٤٤ دلائل الإعجاز .

التى تحتاج أن تعلمهم مكانها ، وتصور لهم شأنها أمور خفية ، ومعان روحانية ، أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها ، وتحدث له علما بها ؛ حتى يكون مهيئا لإدراكها ، وتكون فيه طبيعة قابلة لها ، ويكون له ذوق وقريحة ، يجد لها فى نفسه إحساسا بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة ، ومن إذا تصفح الكلام وتدبر الشعر ، فرق بين موقع شىء منها وشىء . .

وعبد القاهر يبدأ بنظرية فلسفية فى اللغة ثم ينتهى إلى الذوق الشخصى الذى هو المرجع الأخير فى دراسة الأدب (١) وكذلك يعتمد ابن الأثير صاحب كتاب المثل السائر (المتوفى عام ٦٣٧ هـ) على الذوق ، حتى ليرى أن مدار علم البيان على حكمة ، الذى هو أنفع من ذوق التعليم (٢) .

أما ابن خلدون فيفسر الذوق بحصول ملكة البلاغة للسان ، ويقول إنه قد استعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق (٣) . ويؤكد ابن خلدون (المتوفى عام ٨٠٨ هـ) أن هذه الملكة إنما تحصل بالممارسة والاعتبار والتكرير لكلام العرب .

(١) ١٦١ فن الميزان الجديد لمندور .
(٢) ص ٣ المثل السائر .
(٣) ص ٦٤٣ المقدمة لابن خلدون مطبعة التقدم .

٢ — هذا هو رأى القدماء فى الذوق وتحديدهم لمعناه أما المعاصرون فيذهبون إلى أن الذوق قوة يقدر بها الأثر الفنى وهو ذلك الاستعداد الفطرى المكتسب الذى تقدر به على تقدير الجمال والاستماع به ومحاكاته (١) .

ويذهب أحمد ضيف إلى تحكيم الذوق العام واطراح الذوق الخاص فى الحكم الأدبى (٢) ويقسم طه حسين (٣) . الذوق إلى خاص وعام ويقول : إن هذين الذوقين هما اللذان يقضيان فى المسائل الأدبية ، وإن الحياة الفنية مزاج من هذين الذوقين .

والذوق ملكة هى مزيج من العاطفة والعقل والحس (٤) والدرس ينميه .

٣ — ويختلف الذوق باختلاف البيئة والثقافة والعصر ومقدار التمرس بكلام العرب وبلاغتهم ، وبالموهبة الأدبية عند الناقد .

وقصة على بن الجهم الشاعر العباسى (م ٢٤٩ هـ) مع المتوكل معروفة ، حين جاء من البادية يمدح الخليفة بمثل قوله :

أنت كالكلب فى حفاظك للود
وكالتيس فى قراع الخطوب

(١) ٣٤٧ فى علم النفس لحامد عبد القادر .
(٢) ص ٩٢ مقدمة لدراسة بلاغة العرب .
(٣) حافظ وشوقى لطه حسين .
(٤) ١٢١ أصول النقد الأدبى للشايب .

ولما عاش فى بغداد وتأثر بحضارتها عاد إليه ينشده قصيدته :

عيون المها بين الرصافة فالجسر
جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

وبتأثير العصر قدر الناس الصفة البديعية فى القرن الثالث الهجرى ، كما قدرها بعضهم الجانب الفكرى فى الشعر فى هذا القرن أيضا ، حتى انبرى البحترى للرد عليهم فقال :

كلفتمونا حدود منطقكم
فى الشعر يغنى عن صدقه كذبه

ومما يدل على أثر التمرس بكلام العرب وبلاغاتهم فى الذوق وأحكامه النقدية قصة بشار ، حين أنشد بيته :

بكرا صاحبى قبل الهجير
إن ذاك النجاح فى التبكير

فقال له خلف الأحمر : لو قلت مكان « إن ذاك النجاح بكرا فالنجاح » كان أحسن وأليق بصنعة المحدثين .

فأجابه بشار : إنما بنيتها إعرابية وحشية فقلت ما قلت ، ولو قالت : بكرا فالنجاح ، كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ، ولا يدخل فى معنى القصيدة (١) .

٤ — وباختلاف الذوق تختلف أحكام النقد اختلافا كثيرا ، فترى ابن قتيبة (المتوفى عام ٢٧٦ هـ) يعيب فى كتابه الشعر والشعراء أبيات كثير :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المطايا رحالنا
ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

وكذلك صنع أبو هلال العسكرى أما ابن جنى فى الخصائص وعبد القاهر فى أسرار البلاغة فيرفعان من منزلتها فى البلاغة .

ومن مثل الاختلاف فى الحكم على الشعر قول الشاعر المصرى إبراهيم ناجى (توفى فى ٢٥ مارس ١٩٥٣) وذلك من قصيدة له بعنوان « قلب راقصة » (١) .

أمسيت أشكو الضيق والأينا
مستغرقا فى الفكر والسأم
فمضيت لا أدرى إلى أينا
ومشيت حيث تجرنى قدمى

فقد أعجب أبو شادى والسحرتى بالقصيدة وبالأبيات إعجابا شديدا (٢) ، ولكن الدكتور طه حسين يرى أنها من الكلام المألوف الذى شبع منه الناس (٣) ، وينقد البيت الثانى لأنه

---

(١) ٤٥ الإيضاح للقزوينى .

(١) ٣٦ ديوان وراء الغمام لناجى .
(٢) ٢٠٤ الشعر المعاصر للسحرتى .
(٣) ١٧١ حديث الأربعاء .

لا يعجبه أسلوب « تجرني قدمي » لأن المرء لا يجر قدمه وهي لا تجره ، ويرد السحرتي على هذا بأن العبارة تصوير شعري بديع للسأمان المتحير الذي تجره قدمه لشرود عقله حتى تصبح قدمه هي المسيرة له ، ويتابع عبد الوهاب حمودة طه حسين في نقد العبارة ويرد على دفاع السحرتي السابق بأنه كيف يستقيم الاستغراق في الفكر مع السأم ، ويقول : أول ما يصادفك من هذه الألفاظ الابتذال والسوقية ، ثم انظر إلى هذه الصورة التي لا تلائم شعرا ولا لغة ، فالقدم لا تجر صاحبها وإنما تحمله ، وإنما يجر صاحب القدم قدمه(١) ، ويدافع السحرتي عن القصيدة بأنها رائعة في عواطفها وانفعالاتها المتنوعة وفي جمال صياغتها وخفة أسلوبها ، ويقول : إن الدكتور طه تجاهل ما يشع في هذا الشعر من عاطفة رائعة وانفعالات وثابة وأسلوب فني وموسيقى ارتكازية (٢) .

والخلاف الأدبي حول مذاهب الكلاسيكيين والرومانتيكيين ومناهجهم في التعبير والأساليب والتصوير كثيرة ومتناقضة .

٥ — واختلاف أحكام النقد التي كتبت حول الشعراء المحدثين والمعاصرين ، وتباين أذواق النقاد تباينا شديدا في منازلهم الأدبية أمر ظاهر الوضوح . . ومن مثل اختلاف النقاد حول أدبائنا وشعرائنا اختلافهم في شوقي وحافظ اختلافا كثيرا ، فطه حسين يقول عنهما : إنهما لم يبلغا من التفوق ما كنت أحب لهما ، وأتمنى للشعر العربي الحديث ، ولكن لا ينبغي أن تلومهما في ذلك فلم يكونا إلا مرآتين صادقتين للعصر الذي عاشا فيه ، وقد أديا ما ألهمهما هذا العصر فأحسنا الأداء ، وكان يفضل (مطران) عليهما . . والعقاد يرى أن الشعر يقاس بمقاييس ثلاثة : أولها أن الشعر قيمة إنسانية قبل أن يكون قيمة لفظية أو صناعية ، فيحتفظ الشعر بقيمته الكبرى إذا ترجم إلى جميع اللغات ؛ وثانيها أن الشعر تعبير عن نفس صاحبه ؛ فالشاعر الذي لا يعبر عن نفسه صانع وليس ذا شخصية أدبية ،

وثالثها أن القصيدة بنية حية وليست أجزاء متناثرة يجمعها الوزن والقافية . وحكم العقاد هذه المقاييس الثلاثة في شاعرية حافظ وشوقي ، ونفى عن شوقي الشاعرية ، ورأى أن حافظا أشعر ولكن شوقيا أقدر (١) .

وذهب بعض النقاد إلى أن شوقي في العصر الحديث مثل المتنبي في القرن الرابع : وفضله

(١) ١٣٥ التجديد في الأدب المصري الحديث .
(٢) ٢٠٤ و ٢٠٥ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للسحرتي .

(١) ٢٨ : ٣ قصة الأدب المعاصر .

بعضهم على جميع الشعراء المعاصرين .

٦ — ويصر أهل كل فن على أنه هناك حاسة سادسة تولد مع الطفل بها يدرك ما فى الصورة من جمال، وما فى الموسيقى من سحر، كما يتذوق بها ما فى الشعر من حسن الخيال، وجودة التصوير وهم مع هذا يرون أن التجارب الخاصة وتأثيرات البيئة ، مما قد يساعد على نمو هذه الحاسة وإرهافها ، وللمسألة فى رأيهم ناحيتان ؛ الأولى فطرية نشترك فيها جميعا إلى حد كبير ، والناحية الثانية مكتسبة وهى تلك التى تتكون فينا كأثر مباشر لتجاربنا الخاصة فى البيئة .

وهناك فريق آخر من أهل الفن يرون أن الإحساس بالجمال أمر اعتبارى شخصى تختلف فيه اختلافا بينا ، ولا نكاد نصل فيه إلى مقاييس مشتركة ، وجعل الأمر فى الاحساس الفنى بالجمال راجعاً إلى الدربة والذكاء العام أكثر من أى شىء آخر ، لا إلى مايسمونه بالغريزة والفطرة أوجح(١).

وأحكام النقاد على الجمال تختلف ، ولا بد أن تختلف كما يقول « برك » مادامت الأذواق والثقافات مختلفة (٢) .

والشعور بالجمال يعلله علماء النفس بعلل كثيرة ، فبعضهم يرجعه إلى التأثير النفسى السيكولوجى الذى تحدثه ألوان الجمال فينا ، وعبد القاهر الجرجانى فى الأسرار والدلائل يميل إلى ذلك ؛ والبعض الآخر يرجعه إلى ما تحدثه ألوان الجمال من الأثر فى النفس من ذكريات ومسرات وأشجان عميقة من تداعى المعانى فى العقل ؛ وآخرون منهم ينفون ارتباط الفن بالجمال لأنه مرتبط بالتعبير عن الانفعالات ، وآخرون يقفون نحو ألوان الجمال موقفا عقليا نقديا أكثر منه انفعاليا (١) .

وبعد فإن الذوق منحة إلهية فى نفس الأديب وموهبة متحيزة فى وجدانه ، وبه يستطيع التمييز والتفضيل والتقييم؛ وهو وحده القاضى فى مسائل الأدب ومشكلاته ، وبدونه يتعسر الفهم ، بل يتعذر الحكم .

وحتى اليوم لا نستطيع أن نحدد هذا الذوق الأدبى تحديداً دقيقا متميزا ، لأن أثر الله فى الإنسان طالما يعجز الإنسان عن فهمه وتصوره وإدراكه .

محمد عبد المنعم خفاجى

---

(١) ص ٥ وما بعدها موسيقى الشعر لابراهيم أنيس

(٢) فيض الخاطر لأحمد أمين ٧ : ٢٥٩ — ٢٦٢ ، مجلة الثقافة السنة السابقة (١٩٤٥) العدد ٣٤٥ .

(١) ص ٦ التجديد فى الأدب المصرى الحديث عبد الوهاب حمودة :

الملاحم والمطولات الإسلامية في الشعر العربي

للدكتور سعد الدين الجيزاوي

– ٧ –

ملحمة « نبي الحرية »

للأستاذ محمود حسن إسماعيل [١] وقد تضمنت عدة قصائد ذات صبغة دينية قصة ظلام ، جنازة الشرك ، العنكبوت ، الفارس المندحر ، نشيد الغار ، النور المهاجر ، وقد لخص في الأولى تاريخ العقائد السابقة إلى أن انبثق النور المحمدي فأضاء الكون ، وأدار في الثانية حديثاً طريفاً بين الأوثان ثم صور في الثالثة نسج العنكبوت على فم الغار وتعشيش الحمامتين ، وفي الرابعة صور خيبة سراقة في إدراك النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي الخامسة نشيد على لسان غار حراء . أما السادسة فقد صور فيها قصة الهجرة .

ومما جاء في هذه القصيدة الأخيرة : —

سار على البيد ، هز الكون مسراه
صلى عليه ، وحيا نوره الله
شق الصحارى ، خيته سباسبها
وأوشكت برياض الخلد تلقـــاه

* * *

سرى محمد تطوى الشمس رايته
في موكب ، قبل هـذا ما سمعناه
يمشي وصاحبه الصديق وحدهما
في مهمه تفزع الأيام لقياه
عقيدة جنبها الإيمان يملؤها
صفواً ، وتملأ بالبشرى حناياه
ويخطفان الثرى رطبا إلى بلد
لا خيب الله من يسعى لمغناه

ثم يختمها بما يدور في نفسه من أمان في تحقيق آمال الشرق :

بحق من جاء يا رباه يبلغه
للخافقين ، ومن للحق أداه :
ترعى خطانا ، وتحدو القوم في سفر
للشمس ينشد فيه المجد شطاه
وتنفح الشرق هديا في مسالكه
فصيحة الحق دوت في حناياه

ومجموعة هذه القصائد متسلسلة في فكرتها ، ولذلك تعتبر عملا أدبيا واحدا بعنوان واحد هو : « نبي الحرية » ، كما فعل محرم في إلياذته الكبرى وعامر بحيرى ، وقد أنشئت هذه القصائد بعد عام ١٩٥٢ ماعدا الأولى منها :

---

(١) ديوان نار وأصفاد ـ الأنجلو ١٩٦٠ .

وفى ديوان الشاعر مدحة نبوية أخرى كبيرة بعنوان «هادى الظلم» وقد علمت منه أن له ملحمة جديدة ذات اتجاه صوفى بعنوان «رياح المغيب» ما تزال تحت الطبع أيضا وله ملحمتان أخريان إحداهما بعنوان «العودة إلى الله» وأخرى بعنوان «شاطىء التوبة» وقد حدث للشاعر هذا الاتجاه ورجوت أن تتاح الفرصة للانتفاع بمثل هذه الأشعار ..

ملحمة السموات السبع :

للأستاذ كامل أمين [1] وهى ملحمة من نوع آخر جمعت «قصة خلق الإنسان الأول، وصراعه فى الحياة وتدرج البشرية بين الحرب والسلم والخير والشر، وتروى قصتها كفاح - الأنبياء من أجل الخير والسلام، وكفاح الأبطال من أجل خير وطنهم، وتقف وقفة طويلة عند حروب «صلاح الدين» مع الصليبيين، وحروب الظاهر بيبرس مع التتار والصليبيين معا» [2].

وقد اشتملت على افتتاحية وأربعة فصول : وتناولت الافتتاحية تصوير حالات الشاعر النفسية التى يحس بها حيال المجتمع وما يلقاه من عناء وعدم تقدير بدأها بقوله :

الله . باسم الله جل جــلاله
نور على نور أرود سمائى
باسم السماء نشرت قصتها وباسـ
ـم الله سرت بها على الغبراء
إنى سأكتب قصة فى هذه السحـ
ـب التى كالصفحة البيضــاء
وأقول - أول ما أقول - وفى يدى
قلمى، وفى تلك الدواة دمائى :
ما خطه قلم السماء على الثرى
لن يمحى أبداً من الأحيــاء

ثم يقول :

ما حيلتى إن لم أجد لسفينتى
ريحا لتدفعها برغم كفاحى
وقفت سفينتى رغم نشر قلوعها
كركود جسمى رغم نشر جناحى
إن كان للملاح قلع سفينة
فالريح ليست فى يد الملاح
حقا لقد ملكت دفة زورقى
لكن رياح الجو لسن رياحى
وأنا امرؤ حاولت فهم طبيعتى
فعجزت عجز فمى عن الإفصاح
ورأيت نفسى رغم أنى كائن
ما زدن عن شبح من الأشباح ..

---

(١) مطبعة الشبكشى بالأزهر سنة ١٩٥٨ فى ١٦٠ صفحة والأستاذ كامل أمين شاعر معاصر وأكثر شعره ذو صبغة إسلامية - وهو الآن موظف بوزارة الأشغال .

(٢) ص «ل» من المقدمة .

ارتاد من خلف الجسوم نقوشها
وأضل حول سواحل الأرواح ..
من شاء يدرك روح إنسان يحا
ول نزح ماء البحر بالأقداح

وبعد أن يسير فى انفعال يصور عزة نفسه، وكيف أنه لو احترف حرفة، أو سمح لنفسه بأن يكون ذيلا للكبراء .. لأثرى ولكنه يؤثر الكرامة مع الفقر ويقول:

يا من يراع من الذباب إذا علا
ويعيب قلة حيلة العنقاء
ما عاقنى إلا جناحا باشق
لم تتسع لهما الثرى كفضائى
فطواهما ضيق الدروب، وهكذا
يعلو البغاث على فتى الغبراء
كل له أجواؤه، وأنا الذى
قعدت بى الأقدار عن أجوائى

وقد تناول الفصل الأول (النور القديم): قصة خلق آدم، وما صار من أمره هو وحواء فى الجنة حتى خرجا إلى الأرض.

وتناول الفصل الثانى (معبر الأجيال): قصة بدء الخليقة على الأرض ومولد التاريخ، وصراع الأنبياء مع أممهم عبر التاريخ، وتوالى الأحداث إلى الحروب الصليبية ولكن فى اختصار وإشارات ملخصة.

وتناول الفصل الثالث تفصيل الحروب الصليبية وبطولة صلاح الدين ...

وتناول الفصل الرابع تفصيل حروب التتار وبطولة الظاهر بيبرس ...

وقد استغرق الفصلان الأخيران أكثر من نصف الملحمة التى بلغت أبياتها ألفان وثمانمائة بيت.

وقد نسجت هذه الملحمة جميعها على بحر واحد هو «الكامل»، وجعل لكل مجموعة من أبياتها حرف روى يختلف من مجموعة لأخرى، وقد يتكرر حرف الروى فى بعض المجموعات، كما فعل عامر بحيرى فى ملحمة أمير الأنبياء غير أنه لم يقسم الأبيات مثل عامر عشرات عشرات.

وقد بدأ الفصل الأول بتصوير خلق آدم فى صورة شعرية رائعة[1]:

كانت قديماً خلف أسوار السما
من قبل أن يحيا التراب ويعلما
من قبل أن يرد الوجود خطيئة
ويرى بعينيه مدامع والدما
نفس أراد الله أن تحيا لأمر ما
لتسعد فيه أو تتألما

* * *

حتى إذا قضت المشيئة ما قضت
فيه، وشاء الله. أصبح آدما

ثم يأخذ فى تصوير الجنة وما فيها من نعيم، وملائكة، ثم خلق حواء وفرح آدم بها،

(١) ص ٧.

ثم إغواء الشيطان لهما حتى خالفا أمر الله ، وكان ما كان من خروجهما .

والذى لفت نظرى فى هذا التصوير دقة الشاعر ، وسعة إطلاعه . . عندما عالج نقطة المخالفة ، وكيف أن المسئول هو الإنسان ، ولا ينبغى أن يحتج بالقضاء والقدر فى الخطيئة وهى من مسائل « التوحيد » الدقيقة .

فبعد أن صور تأثير الشيطان على حواء ، ومحاولتها أخذ موافقة آدم على أكل التفاحتين أدار بينهما هذا الحوار[1]:

قالت: أرى الدنيا تضيق ، فقال: كيـ
ـف تضيق ، ماذا جد فى دنياك؟
الجنة الخضراء حولينا وعين اللـ
ـه ترعانى كما ترعاك
عجبا أتنكر عينك الدنيا وكل
سمائها ونجومها عيناك
قالت له : يوم يكرر نفسه
فى عمرنا قال : اشكرى مولاك ...
ما كنت شيئاً ما ، فصرت بفضله
شيئاً وأعطاك الذى أعطاك
قالت : ولكنى أخاف من الفنا
ء ، فقال : هذا شأن من أحياك
إن شاء أحيانا هنا ، أو شاء أفنانا هنـ
ـا ، أو شاء أغلق فاك

إن كان حقاً ما تقول ، فكيف تملك
قدرة التقدير ، قال : كفاك
الله قدر ما أراد لأنه
قد كان يعلم قبل أن ألقاك
ما سوف يحدث منك أو منى ،
فحذرنا من الشيطان والإشراك
واختص هذا الفرع من شجر الخطيـ
ـئة ، حيث تختارين سبل خطاك
فإذا أطعنا أو عصينا كان ذا
ما قدمته يدان لى ويداك
ولذاك كان الله يعلم ما ورا
ء الغيب سوف يكون حين نهاك
ما كان من خير فمنه ، وكل شركا
ن منا ليس من مولاك
إن اختيار المرء بين الخير والشر
اختيار العقل والإدراك ...
وبقدر ما تقوى وتستهدى العقول
تجيء بالفساق والفساك

ثم يأخذ تصوير تدخل إبليس فى إقناع آدم إلى أن يقول على لسان آدم الذى يصر على مخالفة إبليس :

فالشىء كان ، وكان قبل وجودنا
فى علمه الأزلى كالموجود
يدرى متى سيكون وقت حدوثه
فينا ، وكيف تكون فيه جهودى

---

(1) ص ٢٢٢١ .

ومتى سيفنى ، شأنه شأنى وشأ
نك فى وجودى هاهنا ووجودى
ولكى يحدد خيره من شرنا
مستقبلا فينا ، أتى بقيود
فأباح أشياء وحرم غيرها
بالحق ، والناموس ، والتأييد
حتى إذا ما حان يوم خطيئة
وقعت حيال الشرع ، دون سدود
فإذا اجترأت على حدود الله كا
ن على حق جزائه الموعود

* * *

فالاختيار هنا اختيار فى حدو
د الحق بين العبد والمعبود
ليس اختيار رغائب الإنسان مطلة
ة ، ولكن أطلقت بقيود
من شاء أن يختار، فليختر ولكن لي
س يوم حسابه ببعيد

ولكن قوة آدم هذه سرعان ما تنهار بعد حوار وتفكير وإغراء من الشيطان حتى وافقاه ، وظنا الخلود فى تناول هذا المحرم :

وتناول الشيطان من أثمارها
تفاحتين اليهما متهللا
وتلفتا حولهما كالسارقي
ن الخائفين ، وقال إبليس : كلا
الخلد بين يديكما ، فتأهبا
والكون فى فكيكما ، فتقبلا
وتهكمت ضحكاته فى القضية الأولـ
ى وقال : الأرض تحتكما انزلا
ثم اختفى ، وكأنه لما اختفى
قال : الشقاء دعاكما فتفضلا
ومضى اللعين إلى الظلام مباعدا
من بعد ما أغراهما وتسللا

ثم يصور الشاعر الهبوط إلى الأرض فى صورة شعرية موسيقية بديعة ، وما كان من حوار الجن فى عالم الأرض عند استقبال آدم ، ثم تصوير قواعد الشر ، ووصايا إبليس لجنوده فى طرق إغراء بنى آدم .

ويبدأ الفصل الثانى بقوله :

قف بى ، فهذا مولد التاريخ فى
أرض الفناء ، ومذود الأزمان
الليل ملتطم العباب كأنه
شط الظلام على الوجود الثانى
والدهر يبدأ فى طفولة عمره
شيخا يمد يدا لكل زمان
يضع البرايا فى ضمير الغيب (التـ
وراة) و (الإنجيل) و (القرآن)
ويكدس الأيام فى (أرشيفه)
لمعارك الإنسان والشيطان

* * *

فإذا الزمان يقول ـ أول ما يقو
ل من الحياة بصوته الرنان
بدأت حياة الأرض باسم الله إنى استعيـ
ذ به من الشيطان

وتناول القلم العتيق وخط أول صفحـ
ـة ، ويداه ترتعشـــان
كتبت يداه : إن هذى قصة الدنيا
وتلك إرادة الرحمن
كانت حياة الناس أول مرة
إنسانا تبكى على إنسان
بدأ الحياة بغربة ، وتلاقيا
فى غربة ، فوق التراب الفانى

وهكذا يسير فى تصوير استقبال الأرض الناس ، ثم رحيلهم إلى باطنها جيلا بعد جيل ، وقصة قابيل وهابيل ، ثم انتشار بنى آدم وحياتهم الأولى ، وكيف بدأ الإنسان يتخذ الأوثان باغواء إبليس الذى أغوى آدم من قبل . . ثم يصور ظهور الديانات وما دار حول المسيحية من خلافات بتفصيل يختمه بقوله :

وإذاً يكون المنطق المعقول : أن الله ،
قل : سبحانه وتعالى صمد ، وفرد لم يلد
أحداً ، ولم يولد ، ولم يخلق له أمثالا .

وبعد أن ينتقل إلى وصف حياة العرب فى الجاهلية وصور الفوضى التى كانوا يعيشون فيها يقول مشيرا إلى بعثة محمد عليه الصلاة والسلام :

هذا « محمد بن عبد الله » يعبد فى حراء
ودونه جبريل .

ثم يأخذ فى تصوير موقف قريش من دعوته وهجرته ... ثم ينتقل إلى الإشارة إلى فتنة مقتل عثمان ، وقيام دولة بنى أمية ثم العباسيين ، إلى عهد صلاح الدين .

ثم يبدأ قصة الحروب الصليبية فى الباب الثالث وموقف صلاح الدين وبطولته فى تفصيل شامل ، ويصور هزيمة « ريكارد » قلب الأسد ملك الانجليز ، وهنا نراه يربط بين الماضى والحاضر ، ويصور موقف حكام الأردن من القضية العربية ، ثم يشيد ببطولة جمال عبد الناصر فيقول :

هذه الرسالة من (صلاح الدين) ما
زالت تمـــد لنا الشعاع الهاديا
(بجمال عبد الناصر) انطلقت فنا
د به (صلاح الدين) فينا ثانياً
لن تستطيع قوى الصليبيين أن
تثنيه عن أن يستعيد الماضيا
إن الخرائط بين أيدينا تر
ينا كيف ظل الغرب فينا باقياً
فلتجمع العرب الصفوف وراءه
وليرتفع علم العروبة عاليـا
أرقى الشعوب هى التى إن رددت
تاريخها مهـــرت عليه الغاليا
واستلهمت أحداث ماضيها لتأ
خـذ منه عبرتها وتسعد ثانيـاً

* * *

وينتقل إلى الفصل الرابع حيث يذكر

حروب التتار وبطولة الظاهر بيبرس ويسجل معركة عين جالوت وأثرها ...

وهو هنا مصور بارع لبعض ألوان الحياة المصرية فى تلك الفترة وما يدور فى الموالد من حلقات المتصوفة ومناظر الباعة ... ويصور كذلك موقف بيبرس من الصليبيين وهزيمة لويس التاسع وأسره بالمنصورة .

وبعد فهذا عرض سريع لهذه الملحمة ، ونلاحظ أن الروح الصوفى يشيع فى كثير من أجزائها كما أنها تدل على معلومات الشاعر وفهمه التاريخ فهماً واعياً ، وحرص شديد على إبراز الشخصية الإسلامية والدعوة إلى القيم الإنسانية .

ونجده فى ختام الملحمة يشير إلى أن صور البطولة تتكرر فى أشخاص وصور الخيانة تتكرر فى أشخاص عبر التاريخ وأن هذا التغير ظاهرى فى الأجسام أما الأرواح فهى متناسخة ، فالبطولة التى مثلها «صلاح الدين» «وبيبرس» يمثلها اليوم «جمال عبدالناصر» وطغيان قيصر يمثلها اليوم «إيدن» «ونورى السعيد» :

تتناسخ الأرواح ، والأجسام كالأشـ
ـباح ، لا تخفى ولا تتحور

فهل كان الشاعر يؤمن بعقيدة التناسخ أو أنه يذكر التناسخ على أنه يريد «التشابه؟؟؟» .

أما من حيل الصياغة فإن السهولة بادية عليها فى جميع أجزائها وللشاعر مقدرة عجيبة على تطويع المسائل الدقيقة وبسطها كما رأينا فى عرض مسألة القضاء والقدر والمسئولية الشخصية ، وكذلك على قوة التصوير ، وربما اضطرته السهولة التى تتوخاها أن يضمن أبياته كلمات عامية مثل :

وإذا (بأسطى) قال فى أذن الأمـ
ـير : نخاف من عثمان حين يثور
أنظر إليه تجده يفتل شعر شا
ربه (وزقلته) هناك تشير

* * *

يا قوم هذا ما جرى من أمر بيـ
ـبرس ، ويبقى بعده عثمان
عثمان سار بأهل (بولاق) و (طو
لون) وما حشدت له (الجدعان)

* * *

كانت قيادتهم تمثـل كل ما
فى الشعب من فوضى ، فهم ألوان
الشيخ ، والتربى ، والنجار ، والحجـ
ـار ، والقروى ، والعجان
هذا بسكين وذاك (ببلطة)
وأشد ما ادرعوا به الإيمان
ومضت جموع الشعب فى خمسين ألفـ
ـا من رعاع قادهم عثمان

ربما اضطر الشاعر إلى هـذا النزول

(البقية على صفحة ٢٠٨)

ليلى الأخيلية الشاعرة
المثل الأعلى في الوفاء

للأستاذ أحمد أبو الخضر منسي

لم تؤت المرأة نظم القريض . ما كان الشعر سليقة لها وفطرة الشعراء من الرجال جم عديدهم ، ومن النساء أقل من القليل عدا ، ولا سيما المشهورات النابغات . ومن فلتات الطبيعة وشذوذها ما أذاقنا طعم حلاوته أدب العرب من منظوم شعراء الجاهلية والإسلام ، إذ نحن نتلو فيه شعراً كعقود اللآلىء ، ونفيس الجوهر لشاعرتين عربيتين مطلقتين قد أوتيتا شعراً ، وجاءتا بالمطرب المعجب ، والجزل الرصين هما الخنساء وليلى الأخيلية .

ومن ليلى نحن محدثوك . إنها المرأة التي امتازت بخليتين ، وطار ذكرها بوصفين : النبوغ في الشعر ، والوفاء ما مثله وفاء ، للزوج الذي تعاشره ، وللرجل الآخر الذي استهان بحبها وفاء العفة والطهر ما مستها فيه ريبة ، ولا لحقتها لائمة .

هي ليلى الأخيلية بنت عبد الله بن الرحال من بني الأخيل ، من المتقدمات في الشعر ، جوالة فيه صوالة تبذ الرجال ، لا يتقدم عليها في نظم إلا الخنساء . فإذا ما تلجلج الشعر في صدرها وطاع بها ، أسمعتك منه الرائع المتين ، والناصع الرفيع .

كانت ذات بعل وأحبها . توبه بن الحمير (بضم ففتح وياء مشددة) شاعر إسلامي أحد عشاق العرب المدلهمين المشهورين بذلك . أحبها حباً كان له بين جوانحه اشتعال . فنظم فيها الشعر الرقيق العذب كنظم الدر وتغريد البلابل ، فما بلغ منها وطراً ، ولا ظفر أحدهما من صاحبه بمطمع أو منال ، ولكنه كان الحب العف الخالص بين الروحين . في معتصمه بالإخلاص لزوجها ، مارث وفاؤها له لحظة عين ؛ وتوبة العاشق العبد المستهام لم يخلع في هواه عذارة ولا رام منها قرباً ووصالا . وهو القائل فيها :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت
على ودوني جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا
إليها صدى من جانب القبر صائح
وأغبط من ليلى بما لا أناله
ألا كل ما قرت به العين صالح

وهو القائل :

يقول أناس لا يضيرك نأيها
بلى كل ما شف النفوس يضيرها
أليس يضير العين أن تكثر البكا
ويمنع منها نومها وسرورها

وكانت ليلى قدمت على الحجاج وقد أسنت ، فذكرت ما كان بينها وبين توبة ، وكيف كان حبه لها طاهراً نزيها . ثم قالت : غير أنه قال مرة قولا ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر فقلت :

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها
فليس إليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه
وأنت لأخرى صاحب وخليل

فذلك كان وفاؤها لزوجها .

وكان توبة فارساً صنديداً . وكان قتل من بنى عوف فارساً وابنه فقتلوه . فقالت ترثيه بقصائد من مختار الشعر الجيد يدل على إخلاصها ووفائها بعهده . فمن ذلك قولها :

وتوبة أحيا من فتاة حيية
وأجرأ من ليث بخفان خادر
ونعم فتى الدنيا إذا كان فاجراً
وفوق الفتى إن كان ليس بفاجر
فتى كان للمولى سناء ورفعة
وللطارق السارى قرى غير قاتر

ومن قولها فيه من قصيدة طويلة :

أيا عين بكى توبة من حمير
يسبح كفيض الجدول المتفجر
لتبك عليه من خفاجة نسوة
بماء شئون العبرة المتحدر

ومرت ليلى وقد أسنت بفتية حضريين يتعاطون الراح فعاجت عليهم التماسا للراحة ، فسقوها من خمرهم ، فلما نال منها الشراب وتمشت حميا الكأس فى أعطافها قالت أيشرب نساؤكم هذا الشراب ؟ قالوا : نعم . قالت : لقد زنين إذن ورب الكعبة .

وقدمت ليلى على الحجاج فأنشدته :

إذا ورد الحجاج أرضا مريضة
تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها
غلام إذا هز القناة سقاها

فقال لها : لا تقولى غلام . قولى همام . ثم قال لها : أى نسائى أحب إليك أن أنزلك عندها الليلة ؟ فقالت : ومن نساؤك أيها الأمير ؟ قال : أم الجلاس بنت سعيد ابن العاص الأموية ، وهند بنت أسماء ابن خارجة الفزارية ، وهند بنت المهلب ابن أبى صفرة العتكية . فقالت : القيسية أحب إلى ، تريد هند بنت أسماء ، وإنما اختارتها لأنها على ما رواه الأصفهانى فى أغانيه ، ابنة عمها .

فلما كان الغد دخلت عليه فقال : سلى يا ليلى تعطى . قالت : أعط فثلك أعطى فأحسن . قال لك عشرون . قالت : زد فثلك زاد فأجمل . قال : أربعون . قالت : زد فثلك زاد فأكمل . قال : ثمانون . قالت : زد فثلك زاد فتمم . قال : مائة : واعلمى أنها غنم . قالت : معاذ الله أيها الأمير ، أنت أجود جوداً ، وأمجد مجداً ، وأورى زنداً من أن تجعلها غنما . قال : فما هى ويحك ياليلى ؟ قالت : مائة من الإبل برعاتها . فأمر لها بها ، ثم قال : ألك حاجة بعدها ؟ قالت : تدفع إلى النابغة الجعدى . فإنه كان يهاجيها .

وكانت ليلى طويلة حسنة القوام دعجاء العينين ، حسنة المشية ، حسنة الثغر ، وكما رأيت كانت آية فى الأمانة والإخلاص لزوجها ، لقد لجأت إلى ركن ، وثيق من فضلها وعفتها حتى تنجو من المآثم ، ويسلم الشرف والعرض ، كما زانها الوفاء لتوبة الذى تيمته بحبها ولعج قلبه بها ، فبقيت تلهج بذكراه ولا تنسى حبه بعد أن أمسى جثة هامدة ولا تبرح تمر بقبره وتقول : السلام عليك ياتوبة حتى ماتت : تحقيقا لما قاله توبة فى شعره فيها :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت
على ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا
إليها صدى من جانب القبر صائح

أحمد أبو الخضر منسى

(بقية المنشور على صفحة ٢٠٥)

بالأسلوب لأنه يصور ثورة حينما استعد لقتال الصليبيين ، ولكى تكون الصورة صادقة فلا بد أن تلون بالألوان الطبيعية المناسبة ، ولكن مقاييس الشعر الرفيع لا تعترف بهذا .

ولئن كانت الملحمة تنقصها قوة السبك أحيانا ، أو يؤخذ عليها هذا التساهل فى بعض الألفاظ والتعبيرات ... فإن قوة العاطفة ، ودقة التصوير وشيوع روح الإيمان وإبراز الوطنية المصرية فى صورة قوية واضحة ، ثم هذه الروح المرحة فى تصوير المجتمع المصرى فى عصر المماليك . كل ذلك يستهوى قارئ هذه الملحمة ويجعله يحس فيها بحيوية وتجاوب مع نفسيته .

ولولا خوف الإطالة لنقلت الكثير من النماذج فإنها متسعة الجوانب .

دكتور سعد الدين الجيزاوى

المجتمع الاشتراكى فى ظل الإسلام

للأستاذ عبد الرحيم فوده

٩ — طرق الكسب والتملك

١ — أشرنا فى مقال سابق إلى أن أطيب وجوه الكسب هى عمل الرجل بيده والبيع الذى يعود على البائع والمشترى بالبر والخير ويدخل فى معنى العمل اكتساب الخبرة واستخدامها فيما ينفع الفرد وينفع المجتمع . ولا شك أن مستوى الدخل يتفاوت بتفاوت الخبرات ويختلف باختلافها ، لأن تقدير الأجور يتوقف إلى حد كبير على قيمة ما يبذل فى الأشياء المخترعة أو المصنوعة من حذق ومهارة ، فالدخل أو الربح الذى يحصل من وراء ذلك حلال مشروع مالم يصطدم بمصلحة عامة أو يؤدى إلى ضرر محقق . أو يكون ثمرة لعمل محرم ، وهناك إلى ذلك طرق أخرى للكسب الحلال ، يلاحظ فيها مظهر احترام الملكية من جانب ، ومظهر الاشتراكية العادلة الفاضلة من جانب آخر .

٢ — فالميراث إذا نظرنا اليه من جانب نجده عبارة عن نقل ملكية المتوفى إلى أقرب الناس اليه ، وإذا نظرنا اليه من جانب آخر وجدنا فيه اشتراكية لا سبيل إلى إنكارها ، لأن التركة فيه شركة بين الأقربين يأخذ كل منهما بالقدر الذى فرضه الله له فيها « للرجال نصيب مما ترك الوالدين والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً » ولا شك أن الميراث بالوضع الذى نراه فى الإسلام حق وعدل ، إذ ليس مما يستقيم مع المنطق السليم أن يعمل الإنسان ما وسعه الجهد ليعول أهله وأبناءه ، ويهيء لهم عيشا رغدا وحياة طيبة ، ثم يكون مآل ما له إلى غـــير أهله وأبنائه بعد موته ، بل إن ذلك - إذا حدث - يعطل النشاط ، ويضعف العمل ، ويغرى بالكسل اليائس والخمول البليد ، أما إذا وثق الإنسان بأن عمله لنفسه ولأهله وللمجتمع من حوله . فإنه يضاعف نشاطه ، ويعبىء قواه ، وتغريه الآمال بعظائم الأعمال ، ومن ثم يكثر الخير ويعظم الإنتاج ويعم الرخاء وإذا كان الولد يرث عن أبيه بعض ذاته وصفاته الجسمية والعقلية والنفسية ، وكان الأولاد كما يقول الشاعر :

وإنمـــا أولادنا بيننا
أكبادنا تمشى على الأرض

فكيف يستقيم مع منطق الفطرة ومنطق الحق ، ومنطق المصلحة حرمانهم من ثمرات جهود آبائهم . لهذا كانت الملكية عن طريق الإرث مبدأ مقررا تمليه شريعة الله ، وطبيعة خلق الله .

٣ — والوصية كذلك طريق من طرق الكسب والتملك ، ومعناها نقل ملكية عين أو منفعتها إلى الموصى له بعد موت الموصى بها ، فهى من جانب مظهر من مظاهر احترام الملكية . ومن جانب آخر لون من ألوان الإشتراكية التى تقوم على دعائم البر والخير ، أما مظهر احترام الملكيه فيها فلأنها تتيح للمالك حرية التصرف فى بعض ما يملك ، ثم هى إلى ذلك نقل ملكية لا إلغاء ملكية ، وأما مظهر الاشتراكيه فيها فلأنها تدخل مع الورثه شركاء فى التركة ، وقد اشترط لصحتها الا تكون لوارث حتى لا يشعر أحد الورثة بظلم أو غبن وذلك لأن إيثار بعضهم على بعض بشىء من التركة يثير بينهم الشعور بالحسد والعداوة والبغضاء ، وذلك مما يكدر صفاء جو الأسرة ويوهن عراها ، ثم إن الوصية مع ذلك لا تصح فى أكثر من ثلث المال أو التركة ، وإلا كان فى ذلك جور على حق الأقربين ، فقد روى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أنه قال : جاءنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى عام حجة الوداع من وجع اشتد بى ، فقلت يا رسول الله : قد بلغ بى الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ، ولا يرثنى الا ابنة لى واحدة ، أفأتصدق بثلثى مالى . ! قال : لا قلت : أفأتصدق بشطره يارسول الله ؟ قال : لا ، (الثلث والثلث كثير ، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس) .

هذا إذا كان المالك غنيا يملك الكثير ، فإذا كان فقيرا لا يملك إلا القليل كان عليه أن يدع ماله لأهله وورثته دون سواهم ، وقد فهم هذا من قوله تعالى : « إن ترك خيرا » ، وروى عن عائشة رضى الله عنها أن رجلا أراد الوصية وله عيال وأربعمائة دينار فقالت : ما أرى فيه فضلا .

٤ — والهبة كالوصية فى أنها طريق من طرق الكسب والتملك المشروع وتختلف عنها فى أن الملكية تتم للموهوب له فى حياة الواهب بخلاف الوصية فإن الملكية فيها تنتقل للموصى له بعد وفاة الموصى ، ولا يشترط فى الهبة ما اشترط فى الوصية من أنها لا تكون لوارث ولا تتجاوز ثلث المال ، لأن للمالك حرية التصرف فيما يملك مادام رشيدا سليما متمتعا بقواه العقليه ، فله أن يهب لغيره ماله كله أو بعضه ، سواء كان وارثا أو غير وارث ، ولا يحق له أن يرجع فى هبته ، لأن ذلك يثير الشعور بالمرارة فى نفس الموهوب له ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : (العائد فى هبته كالعائد فى قيئه) وما يرى من مظهر احترام الملكيه ومظهر الاشتراكية فى الوصية يرى فى الهبة فإن فيها هذين الجانبين كذلك .

٥ — ومن طرق الكسب والتملك المشروع الإقطاع : ومعناه فى العرف الإسلامى لا فيما عرف الناس من الإقطاع الظالم الآثم فى أوربا وغيرها - تمليك الإمام أو ولى الأمر أرضاً لا مالك لها لإنسان يقوم بتعميرها واستغلالها ، والغرض من ذلك هو التشجيع على العمل والتعمير واستثمار الأرض لخير الفرد والمجتمع ، فإذا أهمل المالك فى ذلك ، فأغفل استثمارها وتعميرها نزعت منه وأعطيت لغيره ، ولا شك أن هذا الإقطاع على طرف النقيض من الإقطاع الذى عرفه الغرب فى القرون الوسطى وعرفته مصر وبعض الشعوب الشرقية فى العصور الحديثة القريبة ، فإن الإقطاع الغربى كان لوناً من ألوان استعباد الإنسان لأخيه الإنسان ، إذ كان السيد يملك الأرض الواسعة ومن عليها من الفلاحين وما عليها من الحيوان ، وكان يباح له مطلق التصرف فيها وفى من فيها وما فيها دون قيد أو شرط ، أما الإقطاع الذى عرفته مصر وبعض الشعوب الشرقية فظهر الانحراف فيه سوء الاستغلال ، وطغيان رأس المال ، والتحالف مع الاحتلال الأجنبى على مصلحة الأكثرية الكادحة الشقية ، ولا شك أن هذا الانحراف يجب أن يقاوم ويقوم لتسلم البلاد من شروره وشرور القوى التى تحميه وتطغيه. وهذا ما كان فى الجمهورية العربية وما سيكون بإذن الله فى جميع الشعوب التى تدين بالإسلام .

٦ — بقى بعد ذلك أحياء الأرض الموات فإنه كذلك طريق من طرق الكسب والتملك والأصل فى ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : (من أحيا أرضاً ميتة فهى له وما أكلت العافية منها فهى له صدقة) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : (من عمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها) ، وقد اشترط أبو حنيفة لذلك إذن الإمام ، ومعنى إحياء الأرض جلب الماء إليها إن كانت خالية منه . وتخفيفها إن كانت مغمورة به ، وزراعتها أو البناء عليها . أو العمل فيها بما يجعلها صالحة للاستثمار ، ولا يتسع المقام لتفصيل كل ماقيل فى صفتها وصحة ملكيتها ووسائل إحيائها ، وشروط تملكها ، فليرجع إليه من شاء فى كتب الفقه .

وهناك إلى ذلك وسائل أخرى من وسائل الكسب والتملك كالقرض واستثماره فيما يحقق كسباً ومنفعة . وكالقراض . والعارية . وهى كلها مع دلالتها على احترام مبدأ الملكية تقوم على نزعات إشتراكية أصيلة فى نفوس المؤمنين وفى المجتمع المؤمن المتدين الذى يتعاون أعضاؤه على البر والتقوى ويبدو كما وصفه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) ، وقوله : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى) ؟

عبد الرحيم فوده

الذّوق الأدبى
كما يراه ابن خلدون

للأستاذ على العمارى

— ١ —

تكاد تتفق كلمة علماء البلاغة ، وعلماء النقد الأدبى على أن الحكم الفيصل فى جودة الكلام ورداءته ، والعامل الأول على تأليف كلام بليغ ، إنما هو الذوق السليم ، بل لقد ذهب كثير منهم إلى أن إعجاز القرآن لا يدرك حق الإدراك إلا عن طريق الذوق ، حتى لقد قال أبو يعقوب السكاكى - وهو الذى قيد مسائل البلاغة فى قوانين جافة - حين كان يتحدث عن وجوه الإعجاز فى القرآن ، فذكر أربعة أوجه عقب عليها بقوله : يخمسها ما يجده صاحب الذوق السليم ، ثم قال : ولا استبعاد فى إنكار هذا الوجه عن ليس معه ما يطلع عليه ، فكم سحبنا الذيل فى إنكاره ، ثم ضممنا الذيل ما إن ننكره . ويقول فى موضع آخر : ومدرك الإعجاز عندى هو الذوق ليس إلا .

وحتى قال الإمام الخطابى : ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن أوجه الإعجاز فى القرآن من جهة البلاغة لكن صعب عليهم تفصيلها ، وصغوا فيه إلى حكم الذوق [1] . ثم جاء عبد القاهر الجرجانى إمام البلاغيين فهاله أن يتحدث العلماء عن صعوبة إدراك أسرار الإعجاز ، وأن يستنيموا إلى حكم الذوق وحده ، فوضع كتابه (دلائل الإعجاز) ليلخص الصفة حتى يزداد السامع ثقة بالحجة ، واستظهارا على الشبهة ، واستبانة للدليل - كما يقول - .

ولكنه - كغيره - صغا إلى حكم الذوق ، وصعب عليه فى بعض الأحايين أن يدرك سر حسن الكلمة الواحدة فى موضع ، وقبحها فى موضع آخر ، وكان يدلل ويعلل ، ولكنه أخيرا يستنجد بالذوق ، ويحيل عليه ، وقد جاءت آخر عبارات فى كتابه هكذا : (ومن الباب قول النابغة) :

نفس عصام سودت عصاما
وعلمته الكر والإقداما

لا يخفى على من له ذوق حسن هذا الإظهار ، وأن له موقعا فى النفس ، وباعثاً للأريحية ، لا يكون إذا قيل : نفس عصام سودته : شىء منه ألبتة) . فتراه يحيل على الذوق ، والأريحية ، والموقع فى النفس.

وتلقف ابن خلدون أقوال العلماء السابقين ، ونسج على منوالها ، وكتب فى الذوق الأدبى ،

(١) انظر رسالة صغيرة عنوانها (حول إعجاز القرآن) من وضع صاحب هذا الحديث .

ولكنه فصل حديث الملكة ، ووصل إلى بعض النتائج التى ستكون محل نظر فى حديثنا هذا .

وابن خلدون لم يذكر لنا فى مقدمته ، ولا فى كتابه (التعريف) ثبتا بالكتب التى درسها فى البلاغة والنقد والأدب ، ولكن يبدو واضحا فى مقدمته أنه أعجب بكتابين عظيمين ، فأثنى عليهما ، وأشاد بهما ، أولهما كتاب (العمدة) لابن رشيق القيروانى ، ومن قوله فيه ، وهو يتحدث عن صناعة الشعر : « وهو الكتاب الذى انفرد بهذه الصناعة ، وإعطاء حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ، ولا بعده مثله » .

وثانيهما كتاب (الأغانى) لأبى الفرج الأصفهانى ، فقد ذكر فى كتاب (التعريف) أنه حفظ طائفة من أشعار هذا الكتاب ، ثم أشاد به فى المقدمة فقال : إنه كتاب العرب ، وديوانهم ، وفيه لغتهم ، وأخبارهم ، وأيامهم ، وملتهم العربية ، وسيرتهم ، وآثار خلفائهم وملوكهم ، وأشعارهم وغناؤهم ، وسائر معانيهم ، فلا كتاب أوعب منه لأحوال العرب .

وفى كل ما كتب ابن خلدون فى هذا البحث نجد أثر ابن رشيق ، وأثر العلماء السابقين ، كما نجد ذهنية الرجل الفلسفية ، ونظرته العقلية ، ومنطقه العلمى .

رأى ابن خلدون — كما رأى غيره من السابقين — أن الذوق هو الحاكم الذى لا يرد حكمه فى فهم بعض وجوه الإعجاز فردد ما قيل من أن ثمرة علم البيان إنما هى فى فهم الإعجاز فى القرآن وهذا الإعجاز — كما يقول — تقصر الأفهام عن إدراكه ، وإنما يدرك بعض الشىء منه من كان له ذوق ، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه ، ولهذا — كما يقول أيضا — كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاما فى ذلك ، لأنهم فرسان الكلام وجهابذته ، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه .

ورأى أن صاحب الذوق السليم لا يكاد يخرج فى أسلوبه عن طريق البلاغة العربية ، ومتى سمع كلاما مخالفا لكلام العرب أعرض عنه ، ولم يستسغه ، وربما فكر فى رفض هذا الكلام ، بل ربما رفضه بمجرد أن يسمعه دون فكر أو روية ، بل رأى أن صاحب الذوق العربى محكوم بهذا الذوق ، فلو أراد أن يحيد عن بلاغة العرب ، وطريقة نظم كلامهم أعوزه ذلك ، وصعب عليه ، وخانه لسانه ، وقلبه ، لأنه لم يتعود أن ينحو غير منحى العرب ، وقد ذكر فى كلام ابن خلدون هذا ببيت لأحد شعراء العصر :

من ساد ساد لأنه
لم يستطع ألا يسود

وهو دائم الاحتكام إلى الذوق حين يفصل فى قضية أدبية ، ولكن :

ما الذوق ؟ وكيف يتكون ؟ وماذا رتب ابن خلدون من نتائج على آرائه فى الذوق ؟ .

هذه أسئلة نجيب عنها في هذا البحث مع التعقيب ببعض ما يعين لنا ، مؤمنين سلفا بفضل هذا العالم الكبير على العلم [١] .

* * *

يعرف ابن خلدون الذوق بأنه حصول ملكة البلاغة للسان ، ويشرح هذا التعريف فيقول :

فالمتكلم بلسان العرب ، والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب ، وأنحاء مخاطباتهم ، وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده ، فإذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه ، وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب [٢] .

ويعود فيقول : إن ملكة البلاغة عندما تستقر وترسخ تسمى ذوقا ، فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل ، ويعلل تسمية ملكة البلاغة هذه باسم الذوق فيقول : .

وإنما هو - يعني الذوق - موضوع لإدراك الطعوم ، ولكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لإدراك الطعوم استعير لها اسمه

(١) كنت نشرت مقالا في العدد (١٠٤٩) من الرسالة عرضت فيه لبعض آراء ابن خلدون في الذوق الأدبي ، وهذا البحث تكملة لذلك .

(٢) المقدمة ص ٥٦٢ .

وأيضا فهو - أي الذوق - وجداني اللسان كما أن الطعوم محسوسة له ، فقيل له ذوق [١] .

ويمضي ابن خلدون يتحدث طويلا عن الملكة التي تنتهي عندما تستقر وترسخ إلى الذوق :

وأول ما نلاحظه أنه جعل لكل فن ملكة ولكل صناعة ملكة ، فللبلاغة ملكة ، واللغة ملكة ، وللنجارة ملكة وللخياطة ملكة ، وهكذا بل جعل لكل فرع من فروع الكلام ملكة ، فللشعر ملكة ، وللنثر ملكة .

وثاني ما نلاحظه أنه تنبه إلى أن الملكات لا تزدحم ، فعنده أنه لا تتفق الإجادة في فني المنظوم والمنثور معا إلا الأقل ، والسبب في ذلك عدم ازدحام الملكات وذلك أن اللسان إذا سبقت إليه ملكة قصرت به عن تمام الملكة اللاحقة ، لأن تمام الملكات وحصولها للطبائع التي على الفطرة الأولى أسهل وأيسر فإذا تقدمت ملكته كانت منازعة للملكة الجديدة في المادة القابلة ، وعائقة عن سرعة القبول فتقع المنافاة بين الملكتين ، وهذا مشاهد في الملكات الصناعية كما هو مشاهد في ملكات اللغات .

ويترتب على ذلك أن الأعجمي الذي سبقت له لغة لا تتحقق له ملكة كاملة باللسان العربي عن طريق التعليم ، وذلك هو السبب في أن من طلب العلم من أهل هذه الألسن يقصر في معارفه عن الغاية والتحصيل ، وكل

(١) المصدر السابق ص ٥٦٣ ط التجارية .

الذى قاله ابن خلدون مشاهد معروف ، وقد زاد هو تعليله تعليلا علميا ، فنحن لا نعرف فى العربية -مثلا- أديبا كانت إجادته فى الشعر كفاء إجادته فى النثر ، وهــذا ما عبر عنه سهل بن هارون قديما فى قوله : اللسان البليغ والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان فى واحد ، وأعسر من ذلك أن تجمع بلاغة الشعر وبلاغة الكلم .

كما أننا نشاهد كل يوم الطلاب الوافدين من البلاد التى لا تتكلم العربية فلا ترى فيهم واحدا نبغ فى اللسان العربى ، ولا فى علومه كمثل زميل له من الأعاجم نشأ وربى بين أهل اللسان العربى .

ولا يفوت ابن خلدون أن يستدل على حكمه بالواقع المشاهد فأهل إفريقية والمغرب - على عهده - لما كانوا أعرق فى العجمة ، وأبعد عن اللسان الأول قصروا فى حصول ملكة اللسان العربى بالتعليم ، وكانت أشعارهم نازلة عن الطبقة ، ولهذا ما كان بافريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق ، وابن شرف وأكثر ما يكون الشعراء طارئين عليها

ويسجل ابن خلدون فى هذا الفصل كتابا لطيفا يستدل به على قصور ملكات أهل المغرب فى الكتابة ، وهو من بعض كتاب القيروان إلى صاحب له ، ونصه : « يا أخى ، ومن لا عدمت فقده ، أعلمنى أبو سعيد كلاما أنك كنت ذكرت أنك تكون مع الذين تأتى ، وعاقنا اليوم فلم يتهيأ لنا الخروج ، وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين ، فقد كذبوا هذا باطلا ليس من هذا حرفا واحدا ، وكتابى إليك وأنا مشتاق إليك إن شاء الله » .

ووجه الغرابة فى هذا الكتاب أنه من بعض الكتاب ، ومن كتاب مدينة هى من الحواضر . ثم إنه لابد أن يكون كاتبا مشهورا معروفا حتى يتصل خبره بابن خلدون وليس العيب فى الكتاب فى الخطأ المعنوى فحسب ، ولكنه أيضا فى هذه الركة ، واضطراب التراكيب .

ولو عاش ابن خلدون إلى أوائل القرن التاسع عشر ، ورأى بنفسه لغة الكتابة فى مصر ، والرسائل الديوانية التى كانت تصدر عن قصر الوالى لأضاف كثيرا من الكتب والرسائل والمقالات إلى هذا الكتاب الذى ذكر ، فهل كان السبب فى ذلك هو أن المصريين فى ذلك التاريخ كانوا (أعرق فى العجمة) ؟ .

وكذلك ينفى حصول ملكة البلاغة عن الأعاجم الداخلين فى اللسان العربى ، الطارئين عليه ، المضطرين إلى النطق به لمخالطة أهله كالفرس والروم والترك بالمشرق ، وكالبربر بالمغرب ، وقصاراهم بعد طائفة من العمر أن يعتنوا بما يتداوله أهل مصر بينهم فى المحاورة من مفرد ومركب .

علی العماری

رسالة المسجد فى نشر الثقافة والحضارة

للأستاذ أحمد الشرباصى

— ٥ —

مراحل الثقافة وطرقها :

نحن نعرف للتعليم والتثقيف ثلاث مراحل أساسية ، هى المرحلة الأولى الابتدائية ، والمرحلة الثانية الثانوية ، والمرحلة الثالثة الجامعية ؛ والمسجد عرف خلال تاريخه الطويل هذه المراحل الثلاث ، فقد كان للصبيان معلمون فى بعض المساجد ، وهذا التعليم للصبيان يقابل المرحلة الابتدائية ، وكان الطالب بعد أن يشدو جانباً من التعليم ، بأن يعرف القراءة والكتابة ، ويحفظ مايستطيع من القرآن الكريم ، يحضر حلقة تدرس بعض الكتب السهلة مع شىء من التوسع فى الإفهام أو الشرح ، وهذه المرحلة تقابل المرحلة الثانوية فى الدراسة النظامية .

وبعد هذه المرحلة ينتقل الطالب إلى دراسة كتب واسعة مبسوطة ، فيها تحليل وتفصيل واعتراضات ومناقشات ، ويدرس كل كتاب منها عالم متخصص فى مادته ، ومتخصص أحياناً فى دراسة كتاب بعينه ، وهذه المرحلة تقابل المرحلة الجامعية فى الدراسة النظامية .

ونستطيع أن نقول بتعبير آخر : إن التلميذ فى المسجد كان يحفظ المتون فى المرحلة الابتدائية ، ويطالع الشروح فى المرحلة الثانوية ، ويدرس الحواشى والأمهات فى المرحلة الثالثة الجامعية ! .

* * *

وقد عرف المسجد أنماطاً عدة من طرق التدريس ، ومنها طريقة « الحلقة » ، أى تحلق الطلاب أو التلاميذ حول شيخهم ومدرسهم ، ونظام الحلقة كان معروفاً على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد روت لنا كتب الحديث الأمهات عن أبى واقد الليثى أن النبى صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس فى المسجد ، والناس معه ، إذ أقبل ثلاثة نفر (رجال) فأقبل إثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذهب واحد .

أوقف الإثنان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما أحدهما فرأى فرجة (مكاناً خالياً) فى الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهباً ، أى رجع ولم يجلس معهم ، فلما فرغ الرسول من حديثه قال : (ألا أخبركم من النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم فأوى إلى الله (لجأ إليه)

فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه) ، رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

ولقد اشتهر نظام « الحلقة » في المساجد ، وهو نظام ثقافي ديمقراطي عميق ، فالحلقة تضم الجميع بلا تفرقة ، وكل مكان منها صالح لأن يجلس فيه أي طالب دون أن يصد عنه ، وفي الحلقة معنى البساطة والتواضع ، فالكل جلوس على الأرض ، والأستاذ على مقعد أو مكان مرتفع قليلا ، أو يجلس مثلهم على الأرض ، وهو يمثل واسطة العقد بينهم ، فالأنظار متجهة إليه ، والأسماع مصغية نحوه ، والقلوب معلقة به ، والعقول تفكر فيما يقول .

وإذا كان نظام الحلقة مشهوراً في مختلف المساجد التعليمية الكبرى في تاريخ الإسلام فإنه أكثر شهرة وذيوع صيت في تاريخ الجامع الأزهر الشريف ، حتى كان المسلم يتمنى أن يولد له ولد ، وأن يتعلم ثقافة الإسلام حتى يصير عالما ، ويغدو صاحب « عمود » وصاحب « حلقة » في الأزهر الشريف ، أي يصير مستحقاً لأن يستند إلى عمود من أعمدة الأزهر الشريف ، وتلتف حوله حلقة الطلاب ليدرس لهم ، فذلك مجد عريق ومكان ملحوظ ! .

كان الطلاب ينتظمون في الحلقة قبل مجئ الشيخ ، فإذا أقبل بدا عليهم سرورهم بمجيئه وألقى عليهم السلام فردوا التحية بأحسن منها ، ثم أخذ في درسه ، فهو إما أن يملى ويلقى ، وإما أن يشرح ويفسر ، وإما أن يصحح ويقوم ، وإما أن يجيب على الأسئلة وإما أن يسأل ويناقش ، وإما أن يطالع الكتاب بعد الشرح وإما أن يطالع فقرة فقرة ويشرحها ، وإما أن يسمع من طلابه يطالعون .

والطالب يعرف الدرس الذي يتلقاه اليوم ولذلك هو يطالعه في الكتاب قبل مجيئه إلى الحلقة ، ويحاول بمفرده أو مع بعض زملائه أن يفهم منه ما يستطيع وقد يطالع الطالب كتابا آخر في الموضوع فوق الكتاب المقرر أو المدروس ، والشيخ المدرس يعلم هذا ، ويعلم أن من طلابه أذكياء ، وأنهم طالعوا الدرس قبل مجيئهم ، وأخذوا عنه فكرة عامة ومنهم من يكون قدفهم فيه أشياء كثيرة ، ومنهم من يكون قد طالع أكثر من كتاب .

فلابد للشيخ إذن من الاحتيـــاط والاستعداد وكثرة التحصيل ، ولا بد له أن يرجع إلى كتب أكثر من الكتب التي رجع إليها الطلاب قبل سعيهم إلى الدرس ، أو إلى الكتب التي رجعوا إليها على أقل تقدير ، ولا بد له أن يتذكر جيداً

أن الطلاب سيسألون وسيناقشون وسيوجهون اعتراضاتهم بحسن نية غالبا ، وبسوء نية فى بعض الأحيان ، كأن يريد أحدهم أن يتعالم أو يعاند ، أو يعاكس ... الخ

ويمضى الشيخ فى درسه ، ويشرح النقطة الأولى أو العنصر الأول منه ، فإذا اطمأن إلى أنه قد بلغ من هذا الشرح مبلغا يحسن السكوت عليه والانتقال منه إلى عنصر آخر يقول للطلاب مستفهما أو متأكدا : « مفهوم » ؟ . فإذا ردوا قائلين : « مفهوم » جاز للشيخ الانتقال والاكتفاء بما قال ، وإذا قيل من قليل منهم أو كثير : « غير مفهوم » ، عاد الشيخ إلى شرح المسألة مرة ثانية وثالثة حتى يفهم الجميع ! ! . .

وهذا نمط فى التدريس والتعليم والتثقيف وتوسيع الأفق وتمحيص المسائل نادر المثال !

وكان الأستاذ فى الحلقة يستند عادة إلى أحد أعمدة المسجد ، وهو على وضوء ، ويستقبل القبلة ، ويتطيب تكريما لمجلس العلم ، وقد يسبق الدرس تلاوة جانب من آيات القرآن الكريم ، ويبدأ الشيخ درسه بالبسملة والحمدلة والصلاة والسلام على الرسول والآل والصحابة والتابعين ، ويدعو لشيوخه وطلابه ونفسه ، وإذا انتهى من الدرس ختمه بمثل هذا الدعاء ، وقد يقرأ فاتحة الكتاب ، ويعين لطلابه موطن الدرس التالى ، ثم ينهى مجلسه بالكلمة العظيمة : « والله أعلم » ! .

وفى نظام الحلقة كان بعض الشيوخ يختص ببعض الأعمدة المعينة ، حتى يشتهر به ، فيقال : « هـــذا عمود فلان » ، أو « فلان صاحب العمود الفلانى فى الجامع » وقد يجلس الشيخ إلى عمود واحد طيلة حياته لا ينتقل عنه ، كما حدث من إبراهيم ابن نفطويه الذى جلس فى مسجد الأنباريين إلى عمود معين فيه طيلة خمسين سنة ! ! . .

وإذا تعود شيخ الجلوس إلى عمود معين كان أولى به من غيره . ولذلك يورد الماوردى فى « الأحكام السلطانية » هذه العبارة : « وإذا ارتسم بموضع بجامع أو مسجد فقد جعله مالك أحق بالموضع إذا عرف به ، والذى عليه جمهور الفقهاء أن هذا يستعمل فى عرف الاستحسان ، وليس بحق مشروع ، وإذا قام عنه زال حقه منه ، وكان السابق إليه أحق » . .

وجاء فى الجزء الثانى من كتاب « تاريخ التمدن الإسلامى » هذه الجملة : « كانوا يسمون التلامذة المجتمعين حول أستاذ يتلقون علما من علوم (حلقة) ، وتفرعت العلوم بتوالى الأعوام ، واتسعت دوائرها ، حتى أصبح للعلم الواحد عدة حلقات .

والغالب أن تنسب الحلقة إلى أستاذها ،

فيقولون مثلا : حلقة أبي إسحاق الشيرازى فى جامع المنصور ، أو نحو ذلك » .

• • •

ومن طرق التدريس فى المساجد « الرواية » وهى إلقاء المدرس أو الأستاذ لما يحفظه من ذاكرته ، سواء أكان هذا المحفوظ حديثا أو فقها أو أدبا أو شعرا ، والرواية لها شأنها الجليل فى تاريخ الإسلام عامة وتاريخ المساجد خاصة ؛ ولا ننسى أن العرب هم أمة الإسلام الأولى ، وهى أمة تعتمد فى أول تاريخها على الحفظ والرواية ، لا على التقييد والمطالعة ، حتى إنه كان لكل شاعر مشهور راوية ، ثم كان للحديث النبوى رواة ورواة ، وكان لأيام العرب وقصص السابقين رواة ، وهكذا وشهدت ساحات المساجد ألوانا وأنماطا من روايات هؤلاء الرواة .

ووضعوا للرواية قيودا وشروطا ونظما ، ويروى أن محمد بن شهاب الزهرى المتوفى سنة أربع وعشرين ومائة للهجرة ، والذى جمع حديث النبى بأمر خامس الراشدين الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز — كان أول من قرر شروط الرواية ، وتبعه شعبة ابن الحجاج المتوفى سنة ستين ومائة ، إذ كان أول من تحدث عن « الجرح والتعديل » فى الرواية .

وكذلك صار من لوازم الرواية « الإسناد » ، وهو تبيان نسبة الأقوال إلى أصحابها بدقة وأمانة ، ولذلك يقول الإمام السيوطى فى كتاب « التدريب » هذه العبارة :

« حقيقة الرواية نقل السنة ونحوها ، وإسناد ذلك إلى من عزى إليه بتحديث وإخبار وغير ذلك ، وشروطها تحمل راويها لما يرويه بنوع من أنواع التحمل : من سماع أو عرض أو إجازة ونحوها ، وأنواعها الاتصال والانقطاع ونحوهما ، وأحكامها القبول والرد ، وحال الرواة العدالة والجرح ... » إلخ .

وبعد أن كانت الرواية شبه مقصورة على الحديث النبوى والنصوص الدينية امتد سلطانها إلى اللغة وبقية الكلام ، ولعل السبب فى ذلك أنهم كانوا ينظرون إلى هذه العلوم على أنها خادمة الدين ، فيجب أن تحظى بمزيد من العناية والتحقيق

ومن طرق التدريس فى المساجد « السماع » ، وكان السماع فى الماضى طريقاً أساسياً من طرق التثقيف لقلة الكتابة ، وندرة الورق ، وصعوبة التقييد ، وعدم الطباعة ، فكان المؤلف إذا أراد نشر مؤلفه بين مجموعة من الناس أسمعهم إياه ، وإذا حدث وسجل السامع شيئاً من كلام الشيخ دون على ما يسجله اسم الشيخ وتاريخ السماع ، ويسمى ما يكتبه « سماعا » !

وأول ما حدث نظام السماع خلف الأحمر ، إذا سعى إلى حماد الراوية وطلب منه أن يسمعه - وكان حماد ضنيناً بأدبه - ففعل حماد ، واستمع إليه خلف .

ومن طرق التدريس في المساجد « الإملاء » والإملاء نتيجة طبيعية للإسماع ، لأن من سمع شيئا وأعجبه عنى بتسجيله ، والتسجيل يكون عن طريق الإمـــلاء . ويختلف الإملاء عن السماع ، بأن المدرس في أثناء إسماعه تلاميذه لا يحرص على أن يكتبوا ما يسمعه لهم ، ولكنه عند الإملاء يحرص على تقييدهم ما يملى ، ولذلك يضبط المدرس كل كلمة يمليها والتلميذ يقيد كل كلمة يسمعها .

وإذا رجعنا إلى تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى وجدناه يعنى ببيان طرق التدريس في هذا المجال ، وينقل أوصافا لمجالس إملاء مختلفة فالنووى مثلا في كتابه « التقريب » يقدم إلينا صورة لمجلس من مجالس إملاء الحديث النبوى وآداب هذا المجلس فيقول :

يستحب للمحدث العارف عقد مجلس الإملاء للحديث ، فإنه أعلى مراتب الرواية ويتخذ مستمليا محصلا متيقظا ، يبلغ عنه إذا كثر الجمع على عادة الحفاظ ، ويستملى مرتفعا وإلا قائما ، وعليه تبليغ لفظه على وجهه ، وفائدة المستملى تفهيم السامع على بعد ، أما من لم يسمع إلا المبلغ فلا يجوز له روايته عن العملى إلا أن يبين الحال ...

ويستنصت المستملى الناس بعد قراءة قارئ حسن الصوت شيئاً من القرآن ، ثم يبسمل ويحمد الله تعالى ، ويصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتحرى الأبلغ فيه ، ثم يقول للمحدث من : (أو ما ذكرت رحمك الله ، أو رضى عنك) ، وما أشبهه .

وكلما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، قال الخطيب : ويرفع به صوته ، وإذا ذكر صحابيا رضى عليه ، فإن كان ابن صحابى قال : رضى الله عنهما ، ويحسن بالمحدث الثناء على شيخه حال الرواية بما هو أهله ، كما فعله جماعات من السلف ، وليعتن بالدعاء له فهو أهم ولا بأس بذكر من يروى عنه بلقب أو وصف أو حرفة أو أم عرف بها .

ويستحب أن يجمع في إملائه جماعة من شيوخه مقدما أرجحهم ، ويروى عن كل شيخ حديثا ، ويختار ما علا سنده وقصر متنه ، والمستفاد منه ، وينبه على صحته ، وما فيه من علو وفائدة وضبط مشكل ، وليتجنب ما لا تحتمله عقولهم وما لا يفهمونه .

ويختم الإملاء بحكايات ونوادر وإنشادات بأسانيدها ، وأولاها ما في الزهد والآداب ومكارم الأخلاق ، وإذا قصر المحدث أو اشتغل عن التخريج للإملاء استعان

ببعض الحفاظ ، وإذا فرغ الإملاء قابله وأتقنه » .

وهذا هو السيوطى فى كتاب « المزهر فى علوم اللغة » يصف لنا طريقة إملاء اللغة ، فيقول :

« يكتب المستملى أول القائمة : مجلس أملاه شيخنا فلان فى جامع كذا فى يوم كذا . ويذكر التاريخ ، ثم يورد المملى بإسناده كلاماً عن العرب والفصحاء فيه غريب يحتاج إلى التفسير ، ثم يفسره ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ، ومن الفوائد بإسناد وغير إسناد ما يختاره » .

ومجموع ما يمليه الأستاذ يسمى « الأمالى » أو « المجالس » وتاريخنا الأدبى يعرف « الأمالى » لأبى على القالى التى أملاها بمسجد الزهراء بقرطبة ، و « الأمالى » للشريف المرتضى ، كما يعرف « مجالس ثعلب » فى اللغة وغيرها .

ومن طرق التدريس « القراءة » ، وهى أن يطالع الأستاذ أو المدرس شيئاً علمياً من عمل غيره ، وهى الطريقة التى تسمى عند المحدثين بطريقة « العرض » ، وقد يقرأ الأستاذ وقد يقرأ الطالب ، وقد أدت هذه الطريقة إلى ذيوع الصيت لبعض الكتب التى نالت رواجا عند قراءتها ، حتى بلغ الأمر بالمربين أن يعدوا قوائم بأسماء الكتب التى يطالعها الطلاب فى مراحل دراستهم المتوالية ، وهذا نظام فيه فوائد من جهة ، ولكن فيه مضرة الاقتصار على كتب بعينها ، كما أن الكتب المقروءة كانت فى أول الأمر واسعة مبسوطة ، فتقاصرت عنها همم البعض فعمدوا إلى تلخيصها فى ملخصات ومختصرات فيها بتر حيناً ، وغموض حيناً آخر .

وهذه الملخصات والمختصرات تذكرنا بأمر آخر يتصل بمادة الدروس فى المساجد ، فقد كانت هذه المادة تتنقل فى مراحل تبدأ من الصغير وتنتهى إلى الأكبر ، وقد تعود فتنتهى من الأكبر إلى الأصغر .

قد تكون مادة الدرس أحد « المتون » التى تمتاز بالاختصار والتركيز ، ثم يأتى شخص فيفسر هذا المتن ، ويفك عبارته ، ويوضح معانيه ، فيسمى هذا الإيضاح « شرحا » ، ثم يقبل شخص ثالث فيزيد فى هذا الإيضاح ، ويوسع فى ذلك الشرح ، ويسمى هذا التوسيع « الحاشية » ، وقد يقبل رابع فيكتب زيادات على هذه الحاشية بالموافقة أو المراجعة أو التمحيص ، فتسمى هذه الزيادات « تقريراً » ، وقد يقبل خامس فيتناول هذا « التقرير » بشىء من النظر أو البحث ، ويسمى ذلك « تعليقاً » ! ...

أرأيت ؟ ... لقد بدأت السلسلة من أقل شىء وهو المتن ، ثم جاء الشرح للمتن ،

ثم جاء « شرح الشرح » وهو الحاشية ، ثم جاء « شرح شرح الشرح » وهو التقرير ، ثم جاء « شرح شرح شرح الشرح » وهو التعليق .

وقد يقبل شخص على الكتاب الواسع الضخم فيلخصه ، وقد يقبل بعده ثان فيختصره ، وقد يقبل ثالث فيزيده اختصارا وقد يقبل رابع فيزيد فى الاختصار ، وهكذا حتى يبلغ الكتاب الكبير الضخم بعد توالى الاختصار والتلخيص مرتبة « المتن » .

قد يكون فى هذه التنقلات عيوب ولكنها مهما قيل فيها — تقتضى حركة ذهنية ومرانا عقليا ، وتعرض الطالب لألوان من مواد الدراسة تثير فيه نزعة الحفظ حينا ونزعة الشرح حينا ثانيا ، ونزعة الاعتراض حينا ثالثا ، ونزعة التعليق والحكم حينا رابعا ... الخ

ولقد شهدت المساجد كذلك وسائل مختلفة لتحصيل العلوم والمعارف ، فكانت هناك طريقة « الحفظ » التى تعتمد على اختزان النصوص فى الذاكرة ، وطريقة « الدراية » أى الفهم ، وهى الطريقة المقابلة لطريقة « الرواية » فى التدريس ، فاذا اعتمدت « الرواية » على الحفظ ، فإن « الدراية » أساسها الفهم والإدراك ولذلك كانوا يعدون الجمع بينهما غاية سامية لا يبلغها إلا عمالقة الرجال ، فإذا بلغها أحدهم قالوا فى تمجيده إنه « يجمع بين الرواية والدراية » .

ولقد قال الزمخشرى المفسر المشهور : « العلم مدينة أحد بابيها الدراية ، والثانى الرواية » ، وأشاد أبو حيان التوحيدى بمكانة القاضى أبى حامد المروذى فقال عنه : « كان غزير الرواية لطيف الدراية » . ولقد قال أبو بكر الحافظ لأبى زكريا بن الخطيب : « أنت تريد منى الرواية ، وأنا أريد منك الدراية » .

ومن وسائل التحصيل التى عرفتها المساجد وسيلة السؤال والمناقشة لأن الحقيقة بنت البحث ، ولأن السؤال مفتاح لباب أساسى من أبواب العلم .

ومن الوسائل أيضاً « المناظرة » ، لأن كلا من المتناظرين يحرص على الانتصار ، ولذلك لا يدخر وسعاً فى إقامة الدليل وتبيان الحجة ، مما يؤدى إلى غزارة العلم وسعة المعرفة .

أحمد الشرباصى

الحقيقة الضائعة

للأستاذ محمد محمد خليفة

إنها حقيقة النفس المسلمة التي كانت تمتزج بروح الإسلام فتتكشف لها أسراره، ثم تتفاعل بتلك الروح مع مجتمعها، وتمتد فيه منسابة بفضائلها كما تنساب الغدران الرقراقة في الوديان المجدبة فتحمل فيها وتنفى عنها ماشاب تربتها حتى تبدلها بعد حين إلى جنات أكلها دائم وظلها.

تلك هي حقيقة النفس المسلمة حقيقة هادية للمجتمع تبث فيه من إشراق فضائلها إشعاعات تبدد ظلمات الرذائل التي تضطرب في المجتمع أمواجها.

وهي مع ذلك حقيقة محاربة تحارب في المجتمع ما كان يعيش فيه ويعيش له من مادية كانت تستذله، وغرائز كانت تستبد به وأطماع كانت تنتهب ضعافه.

حقيقة النفس المسلمة التي عرفها فجر الإسلام كانت تعيش في قلب الراعي إيماناً بكل حقوق الرعية وإحساساً بمشاعرها فإن عض الجوع فقيراً في بادية العراق انتفضت خوفاً من الله روح الراعي في المدينة، وكانت تعيش في قلوب الرعايا قوى خلاقة بناءة لا تخمد عزماتها عن التفاني في بناء المجتمع، ولا تتوانى عن الكدح في توطيد جوانبه حين يدعوها العمل.

كانت حقيقة المسلم تزحف مع القائد عقلا يفكر، ورأيا يدبر، وحكمة تسيطر، وقوة تقاتل الشر لتنقذ الخير وهي لا تطغى حين تظفر، ولا تستغل حين تغنم، ولا تتذأب حين تحكم، ولكنها تنشر شريعة الإنسانية، وتنشد في ظلها خير تلك الإنسانية فلا يلبث الذين كانوا ينكرون الإسلام حين يعرفون حقيقته إلا أن ينسلخوا من باطلهم وباطل دنياهم لينعموا في ظلال الإسلام بحقيقته التي تربط أرواحهم وأسرهم ومجتمعهم كله برباط تعجز يد الشيطان عن حل عروته أو صدع وحدته.

وكانت تلك الحقيقة تعيش في قلوب المحاربين قوة وعزة ونكراناً لذات الفرد وحسبه ونسبه، وعصبيته القبلية، وبأسه في الجلاد، وسبقه في الإسلام، ومكانته من الرسول.

فكبار المهاجرين والأنصار جنود يعملون تحت إمرة أسامة بن زيد لا تضجرهم أمارة الأسود، ولا تزعزع نفوسهم حداثة سنه.

وخالد بن الوليد يتلقى عزله من إمارة الجيش وهو يقود المعركة العاتية فيتحول راضياً إلى جندى يحارب بالروح التى كان يقود بها المعركة دون أن يمس هوى السلطان قلبه الكبير فينثنى أو يتوانى عن الكفاح فى سبيل المجد الذى يعمل له كل مسلم .

وكانت حقيقة النفس المسلمة فى قلوب الحكام رقة تتجاوب دموعها مع دموع اليتامى والأرامل ، وتدرأ عن المظلوم بطش الظالم وكانت أملا يلبي البائس فى هدأة الليل ، وخوفا من الله يتدفق دموعا فى الأسحار ، وقضاء يقيم موازين العدالة فى الضحى ، وعلما يهدى إلى الحق وإلى صراط العزيز الحميد فى الأصائل وهى بين كل هذا للناس ومع الناس لا تحجبها عنهم الأستار ، ولا تصدهم عن لقائها الأسوار .

وكانت حقيقة النفس المسلمة فى البيت رحمة حكيمة ينشرها الأب ، وحنانا صادقا تبثه الأم بالقسطاس بين بنيها فشاعرها نحوهم تتدفق ولا تفرق حتى لا يحقد كبير على صغير ، ولا يشمخ صغير بنصيبه من الحنان على كبير ، وهم جميعاً يعملون حين يقدرون ، يؤلف بينهم حب لا تكدر صفوه الأنانية ، وكفاح فى سبيل العيش لا يعرف التواكل ولا الإعياء بالأعباء ، ولا يفسد قلوبهم الاستئثار بما هيء من المهود أو المضاجع يؤثرون بعضهم على نفوسهم ولو كان بهم عرى أو خصاصة .

فإذا دوى النفير تزاحموا على الموت بالمناكب يتمنون الشهادة فى ظلال السيوف ، وهم حين تضمهم جوانح البيت قلوب مؤتلفة ونفوس نظمها الحب والوفاء والاحترام .

وكانت حقيقة النفس المسلمة فى الأسواق لا تعرف الاحتكار ولا يطغيها الشره فى ساعة العسر بل هى حينذاك أكثر ما تكون جودا تؤدى الزكاة المفروضة من خير ما تملك ، وتخرج غير المفروضة من طيبات ما كسبت ، لا تصيخ إلى ما يعدها به الشيطان من الفقر وإنما تصيخ إلى ما وعدها الله به من الفضل ، وهى تخرج عن نصف ما ملكت أو كل ما ملكت للدولة فى الحرب تعبىء به الجيوش وتشترى به السلاح والخيل والرواحل ، فليس للنفس المسلمة مال حين تفتح لهاتها رحى القتال ، وإنما كل ما تملك لله وفى سبيل الله .

وكانت حقيقة النفس المسلمة فى المجتمع أخوة تبتسم لأخوة وحبا فى الله يعانق حبا لوجه الله وصدقا فى الصداقة يقابل الأخلاء بوجه ليس كجلد الحرباء .

ولم تكن حقيقة تلك النفس فردا يعيش لنفسه أو لأسرته الصغيرة بل إنسانا سمت

إنسانيته عن الذاتية الفردية والعصبية الإقليمية ، وانطلقت تعمل فى مجال الإنسانية الواسع لتحقق لها الكمال الذى آمنت بمعانيه فى نفوس الرسل والأنبياء .

ولم تكن تلك الحقيقة مظهرا وصوراً تعيش بين العمائم واللحى أو تسابيح وتهاليل ترتعش لها الشفاه ولا تأخذ طريقها إلى القلوب لتربطها بخالقها فاطر السموات والأرض ، وإنما حقيقة النفس المسلمة فكر يسبح فى ملك الله وإيمان يصل الأرواح برب الأرواح .

أين المصلحون وأين رجال الدين والتربية والاجتماع والأخلاق والصوفية ينشدون فى هذا الوجود حقيقة النفس المسلمة التى ضاعت فى متاهات الزمن ، واجتاحتها عواصف الهوى والشيطان فعاش المسلمون فى وجودهم هياكل إسلامية جوفاء وصورا تتحرك بين المحاريب فى ركوعها وسجودها وليس فيها روح الحقيقة المؤمنة العاملة . ؟

أين هؤلاء وأولئك تتضافر عقولهم وأقلامهم وألسنتهم ، ليبعثوا للناس تلك الحقيقة ويوجهوهم إلى السبل التى تنتهى إليها لعل بين الناس من لم تطغ على بصيرته غشاوة المادة ، فيراها فى نفسه إشراقا وتفاعلا وامتزاجا ، ونراها نحن فيه مرآة تعكس إلينا الماضى البعيد الحبيب ، وقوة فيها معنى الشمس فى الهداية والانتشار ، والحرارة التى تنفع وتحرق ؟ ليتنا نجد فى دنيانا بين المحاريب أو الأكواخ أو ضجيج المصانع ، أو أزير النواعير أو بين المعاهد والمدارس أوابين إلى الله ، يعيشون بحقيقتهم المسلمة فوق حقيقة دنيانا الزائفة ، ويجذبون إلى عالمهم الطاهر السامى عالمنا المتحلل من القيم الروحية .

وليس على الله بعزيز أن يعيد تلك الحقيقة الضائعة إلى وجودنا فى نفوس ملايين من المسلمين ليقودوا الدنيا كما قادها أسلافهم إلى خير الإنسانية والسلام ؟

محمد محمد خليفة

النقود التاريخية
فى عهد حكم المسلمين فى الهند

للأستاذ محي الدين الألوائى

النقود التاريخية لها قيمة عظمى ، ومكانة كبرى فى البحث التاريخى والوصول إلى أنباء الماضى وأخبار الأمم السالفة كالتماثيل ، والمنحوتات ، والمخطوطات سواء بسواء . ونرى من خلالها أنباء الأمبراطوريات المنهارة وآثارها الثقافية . وتنير الطريق إلى اكتشاف بقايا الآثار القديمة والعثور على تراث الأمم الماضية والمعالم التاريخية لحوادث الكبرى التى غيرت مجرى التاريخ البشرى وأول من بدأ سك النقود واستعمالها هم القدماء اليونانيون . وكان ملك بابل المعروف باسم نابانيسيس يحتفظ فى مكتبته بنقود الملوك القدماء . وكان من هواة جمع النقود الأثرية فوق أن كان مؤرخا كبيرا . وهو الذى اكتشف تاريخ اعتلاء الملك اليونانى المشهور « سارغون » على عرشه بعد أن كان مثار مناقشات عديدة واختلافات شديدة بين المؤرخين والباحثين . وكان ذلك الاكتشاف بطريق النقود التاريخية التى كان يحفظها فى مكتبة قصره ويتمكن علماء الآثار أن يعثروا على نقود تاريخية بطريق الحفر والتنقيب فى عواصم الأمم السالفة مثل أثينا ، ومصر ، وبابل ، والهند وغيرها .

أما النقود التى عثر عليها فى « مصر » فى منتصف القرن الثامن عشر فأصبحت نقوشها وصورها وثائق تدل على كيفيات وأشكال حكومات قدماء المصريين . واستطاع المؤرخون الوقوف على مجريات العصور الوسطى للتاريخ البشرى والتطورات العالمية بفضل النقود الأثرية .

وأما النقود التى عثر عليها الباحثون فى « يورشيلم » فهى التى ساعدت علماء الآثار على معرفة لهجات ولغات الفينيقيين وكذلك العادات والطقوس المنتشرة فى عهد استيلاء الآريين على اليونان . وكما أن النقود الأثرية التى وجدت فى حفريات هارباوموهنجودارو قد فتحت دورة جديدة فى تاريخ الهند الحديثة ومنها النقود التى تدل على ثقافات « سيندوا » التى كانت لها أدوار هامة فى خلق تاريخ الهند وأصبحت هذه التحف التاريخية نبراسا للباحثين عن الثقافة الآرية ودورها فى صفحات تاريخ العالم عامة وتاريخ الهند خاصة . والأستاذ

« كيل هون » الذى بذل مجهودات جبارة فى سبيل اكتشاف تاريخ الهند بطريق النقود التاريخيـــة والمنحوتات الأثرية والصفائح النحاسية يقول : إن النقود القديمة لمرآة الماضى. ويحتوى شعارها وتاريخها وأرقامها على أنباء الماضى . وأنها لسان حال الأمم القديمة وحكوماتها الغابرة . وتخاطب هـذه النقود أبناء المستقبل عن أجيال العهد البائد بلسان طلق لا غموض فيه ولا خفاء . وتحمل هذه النقود الصغيرة الأحجام فى طياتها صورا لثقافات عظيمة وحكومات جبارة وأمم قوية التى طوتها الأزمان فى زواياها . وهذه النقود الأثرية لنعمة كبرى للعصر الحديث لأنها تعطينا فكرة عامة عن الحروب والسلم والنزاع والنضـــال فى مختلف الأزمنة والأمكنة بين الأمم والشعوب . ولا يجد الباحث العلمى شيئاً أقوى وأحسن من هذه النقود لتحقيق أمنيته والوصول إلى مأربه الخاص . ويجب أن يجد علم النقود مكانته اللائقة فى علم التاريخ ولدى المؤرخين ».

ويقول « كرنل تاد » العلامة فى تاريخ النقود : « إن النقود العشرية المصنوعة من النحاس كانت منتشرة فى الهند قبل عهـد الامبراطور « أشوكا » . وقد عثر علماء الآثار على النقود التاريخية الجارية فى عهدى أشوكا وجندركبتا . وكذلك عثروا على النقود المشهورة فى جنوب الهند منذ القرن الثالث للميلاد . ونقشت عليها الحروف البرهمية . واستطاع المؤرخون بفضل هـذه النقود أن يكتشفوا عدة أمور عن الثقافتين : «الآرية» و « الدراودية » ، اللتين لهما صفحات مليئة بالأحداث العظام والتطورات الهامة فى تاريخ الهند القديمة . واكتشفوا أيضا كيفيات الحكم وأنواع الحكومات القائمة فى شتى أنحاء الهند خلال الفترات الماضية بين القرن الرابع قبل الميلاد والثالث بعده ، هذا بواسطة حوالى ثلثمائة عملة تاريخية عثروا عليهـــا فى مختلف أنحاء الهند .

وبدأ الهنود البحث عن النقود الأثرية فى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى . وكان من ضمن الآثار التاريخية التى اكتشفت فى عاصمة كيرله القديمة أى مدينة كدنغلور قبل سبعة قرون عدد من النقود السائرة فى أنحاء البلاد فى العصور الغابرة . وأهدى ملك كدنغلور نقودا أثرية نقشت عليهـا الحروف الروميـــة إلى الأجانب الكبار على سبيل التكريم . وساعدت المؤرخين مساعدة كبيرة على التكهن عن عهود الملوك الهنود تلك النقود الأثرية المكتشفة فى راجبوتانا التى يبلغ عددها أكثر من ألفى قطعة ذهبية . وإنما عرفت العظمة المدفونة تحت التراب والهيبة المخفية تحت الأنقاض

بعد نبش القبور لعظماء الملوك وفحص القلاع لجبابرة الحكام فى بنغال ، وراجبوتانا ، وباتنا وغيرها من المدن التى كانت عواصم الأباطرة العظام . وتنبه كثير من الحكام الانجليز إلى أهمية النقود التاريخية وبدءوا يدرسونها بدقة وتعمق للوصول إلى ما أخفته الأيام من عبر وعظات وسير وحكم تنير الطريق إلى بناء مستقبل موطد الأركان ومدعم الأساس . وأدرك المؤرخون الكبار مثل كننغهام بأن النقود الأثرية لهى مفتاح البحث التاريخى ونبراس علماء التاريخ !

وانهمك آر . دى . بانرجى فى بحث النقود التاريخية ، واكتشف عظمة الهند التى حكمها موهن جودارو وتيكشيلا . وقدم أمام العالم كله ثقافات الهند القديمة وحضاراتها العريقة وتقاليدها القيمة فى مختلف الميادين مستدلا بنقوش تلك النقود الأثرية ومستنيرا بتلك التوقيعات والحروف المسجلة فى جنباتها ، وقال : « إن بلادنا الهند بلاد الساسة المهرة والعلماء المفكرين . وفيها حضارة تفوق حضارات جاراتها وشقيقاتها من البلدان والأمم » .

وبذل القائمون بالإشراف على الهيئة الأسوية مجهودات جبـــارة فى النهوض بقسم النقود الأثرية الهندية . وقام « تيوبولد » بدراسة المعادن التى ضربت بها النقود ومزاياها وخاصيتها بينما انهمك « ولسن أسمت » فى دراسة طبيعة نقوشها وحروفها . وقضى العالم الأثرى سبونر عدة سنوات فى وضع قائمة خاصة منظمة للنقود التاريخية التى عثر عليها فى نواحى رجبوتانا وتكشيلا . والشىء الذى أتعب جميع المؤرخين الباحثين هو تحديد التواريخ بدقة ووضوح . وأما العثور على بضعة نقود فألقى النور على عدة قرون فى تاريخ الهند بعد أن كانت فى غياهب الظلام وقام دركا برشاد وردى بمساعى جليلة فى سـبيل اكتشاف تواريخ ملوك بلوا وحكوماتهم وعاداتهم وطقوسهم من هوامش النقود الأثرية . ولهم صفحات مجيدة فى هذا المضمار الخطير ، ولا يزال العلماء الأثريون يحاولون أن يكتشفوا مزيداً من المعلومات من تلك المجموعة القيمة من النقود التى عثرت عليها فى تكشيلا ، وليفهموا تلك الحروف والنقوش التى عليها . ومن ضمن تلك المجموعة نقود على شكل مربع وعلى جانب منها حروف رومية قديمـــة وعلى الآخر حروف اللغة الدراويدية السائدة فى جنوب الهند من الزمن القديم . ومنها استنبط بعض المؤرخين بأنه كانت فى الهند حضارة مزدوجة وثقافة مخلوطة فى تلك الأيام ثم تطورت وتقلبت حسب تقلبات الزمن . وقال المؤرخون الكبار : كوديليان ، وأغسطين ، وبانتى فى كتبهم :

أن النقود الرسمية كانت شائعة فى الهنــد منذ عهود « يجورويد » وقد حاول الحكام نقش صور ثلاثة وثلاثين من الآلهة التى جاء ذكرها فى رجوويد على صفحاتها. وكذلك جاء ذكر علم النقود وفنها فى الملاحم الهندية القديمة مثل أرتهشا ستترم ، روبشا بدام ، وراجترمكنى ، وأشتدهام وغيرها من الملاحم الهندية المشهورة . ويتضح من الكتب العلمية بأن ضرب النقود كان شائعاً فى الهند منذ عهود بالغة فى القدم .

ويعرف فى اللغة البالية نوع من النقود باسم كاشى بنم . ويستعمل الباحثون الجدد النقود المعروفة باسم « بنج ماركى » فى بحوثهم التاريخية . ويهتم الأثريون فى جميع بقاع الأرض بهذا الصنف من النقود وكان الملوك فى جنوب الهند يهتمون جداً بضرب النقود الحكومية فى عدة أشكال . واستعملوا الفضة والنحاس لهذا الغرض بتوسيع بالغ وتحدث الدكتور ج . ن . سوكار عن مساهمة نقود جنوب الهند فى فن النقود والبحث التاريخى حديثا مستوعبا فى محاضرات ألقاها فى دراسة النقود الهندية القديمة .

وأما النقود الجـــديدة فكانت تأتى إلى الأسواق العامة فى المناسبات الخاصة وفى عهد الملوك « بلوا » خصوصا بمناسبة الاعتلاء على العرش والتتويج لملك جديد . وكانت لقبيلة شاخن وقبيلة هون يد طولى فى نشر النقود العديدة .

ومن أهم المراكز لضرب النقود ، مدينتا مكدها وبتالى بترا . وتسربت تطورات بسيطة إلى هيئات النقود وأشكالها بعد الفتح البوذى . وكذلك أدخل الأمبراطور أشوكا عدة تعديلات فى النقود لتسهيل التبادل الخارجى مع البـــلاد التى كانت تتاجر مع الهند .

وانتشرت الدنانير فى جنوب الهند منذ قدوم الفرس إليه والتجارة فيه ، كما انتشرت النقود الرومية مع مجىء التجار الروم إليه . فيختلف ختم الدولة على النقود باختلاف صور الحكم فيها وعقلية الحكام وتقاليدهم . ومعظم النقود فى ذلك الزمن كان ممزوجا من عدة معادن . وكانت للوزن قيمة تذكر أكثر من جمال الشكل وحسن المنظر . وأصبح كل هذا وذاك منذ الدخول إلى خفايا تلك الدول وخباياها ، كما أنه معيار قيم الوقوف على مدى حضارتها ، ومدنياتها ، وعصورها ، وبيئاتها . ويوافق المؤرخ الأثرى الكبير بهناركر على رأى الدكتور سوكار فى هذه المسألة موافقة كاملة .

ويوجد نقش التاريخ فى ناحية ، وشعار الدولة فى الناحية الأخرى فى جميع النقود الشائعة فى عهد كنفك . وكانت لجان خاصة

فى عهود ملوك كبتا تقوم بمهمة ضرب النقود وتحديد أشكالها . وتحتوى تلك اللجان على أشخاص بارزين من الساسة والأدباء والفنانين ، لأنها أخطر اللجان فى تقرير مصير اقتصاديات البلاد .

وكانت النقود التى شاعت فى عصر فلكامترن من المعادن التى لا تتكسر أبدا ولا يعلوها البلى والتلف بطول الأمد وقدم الأزمان . وتوجد صور الثور والأشجار فى النقود المكتشفة فى مقاطعة بنجاب وشمال الولايات الحدودية . ويظهر من النقود الأثرية أن أيام حكم جندر كبتا كانت أيام الغنى والرخاء فى البلاد كلها . وضرب ستون نوعا من النقود الذهبية فى ذلك العهد فى أشكال مختلفة ومقاييس متعددة ونقشت فى إحدى نواحى تلك النقود علامات الثرى والهناء . وأشاع وشنو كبتا نقودا تحمل صورة قرينته المحبوبة واسمها . ودخلت تغيرات عديدة فى النقود الهندية أيام حروب جنكيز خان . وضربت النقود بقطع من الحديد الخفيفة . ونقشت مناظر الأنهار الجارية وحروب الفرسان على النقود التى ضربت فى عهد هونس مع أنها كانت خفيفة الأوزان .

وفى عهد حكم المسلمين انتشرت فى الهند نقود ضربت على الأشكال المعروفة فى بلاد الشرق الأوسط ثم بدأت الهند نفسها تضرب نقودها على ذلك الطراز . وتقدمت الهند تقدماً ملحوظا فى هذا الميدان فى عهد السلطانة رضية . وعثر الأثريون على عدة أنواع من النقود الرضية ، ومن ضمنها نقود ذهبية خالصة . وكانوا يستعملون النقود فى نشر دعوة التوحيد ، وفى ناحية منها كتبت وصايا السلطانة . ووزع السلطان محمود غزنوى حوالى أربعة عشر نوعا من النقود الرسمية ، وكتبت فى ناحية منها ألفاظ ما معناها : الله أحد ، والذين لا يذكرون الله القوى المتين هم الخاسرون . واتبع الامبراطور همايون ، والامبراطور شاهجهان النظم الفارسية فى ضرب النقود وتحديد أشكالها واختيار كيفياتها ونحت الامبراطور أكبر شعار مذهبه الجديد « دين إلاهى » أى الدين الإلهى على نقود دولته . وكان الامبراطور جهانكير يهدى نقوده التى تحمل توقيعه الخاص إلى الأمراء وأعيان المملكة . وقام كل واحد من الحكام المغول بالنهوض بمصلحة النقود الحكومية ، وأدخلوا تعديلات خاصة فى هيئاتها وطرازها إن النقود التى ضربت فى عهد المغول لمن أغلى النقود قيمة ، وأحسنها شكلا ، وأروعها منظراً فى تاريخ النقود الهندية . واكتشفت عدة أنواع من النقود المغولية ويبلغ تعدادها أكثر من ألف نوع .

وللمستر «كننغهام» بيان رائع فى كتابه (الهند المغولية) عن ذاك العهد المغولى الذى له دور خطير فى تغيير مجرى التاريخ الهندى فيقول : ابتدأ العصر الذهبى فى الهند بعد أشوكا فى أيام حكام المغول . ونرى قوة خيال المغول ومقدرتهم الفنية من خلال الأحجار الأثرية والمعادن المنقوشة والأبنية التى تبهر العقول ، وتبهج القلوب ، وإذا استثنينا بعض الأخطاء الشخصية من بعض السلاطين المغول فنجد أن عصرهم فى الهند هو العصر الذهبى فى تاريخها المجيد ، وحكمهم لمن أعدل الأحكام وأنصفها وأخلدها أثراً فى صفحات التاريخ الهندى ، وتدل شعائر نقودهم والنقوش المنحوتة فيها على مظاهر الحب الخالص والمودة الصادقة والإخلاص المتين ، كما أن المجلس العلمى لامبراطور أكبر ومجلس الدولة لجهانكير كان يهتم اهتماما بالغا بمسألة نقود الدولة ورسومها وأشكالها وأهدافها ، وتتجلى من صفحات هذه النقود موهبة المغول الفنية وشغفهم بالفنون الجميلة وجمال الطبيعة ، ونحتوا وصايا الحق والعدل والصدق فى النقود باللغة الفارسية والسنسكرتية وأثبتوا شعار المحبة والمساواة فى جنباتها فى هاتين اللغتين ، ونرى الآن قلوب سلاطين المغول الصافية ، وصدورهم الواسعة وعقولهم المتنورة من خلال هذه النقود الأثرية .

أما النقود الأجنبية فلها انتشار واسع فى بلاد الهند منذ القدم لأن العملة الأجنبية كانت تستعمل للتبادل التجارى بينها وبين البلاد الخارجية ، فتطارقت النقود الرومية ، والصينية ، والتونسية ، والفارسية إلى المراكز التجارية فى الهند ، ويتضح هذا جيداً من كتابات السواح الصينيين والمؤرخين البرتغاليين .

ويسجل المؤرخ المشهور الإيطالى بيترود بلاولى (١٦٢٧-١٦١٤) فى مذكرات رحلاته بأن النقود الرومية ، والعربية ، والصينية كانت شائعة ومستعملة بتوسع كبير فى سواحل الهند الغربية .

أما السلطان لارى الذى كان يحكم بلاد الشرق الأوسط سنة ١٥٣٢ م ، أرسل النقود اللارية للأغراض التجارية إلى جنوب الهند وجزيرة سيلان وحاول نشرها فى تلك البقاع . والنقود اللارية هى التى كانت تقود الحركات التجارية فى ذلك الزمن . وفى أيام غارات البرتغاليين كانت النقود اللارية تستعمل بكثرة فى موانىء كاليكوت وكوتشين وفى الأسواق التجارية الكبيرة . وكثر استعمالها أيضا فى التبادل التجارى .

وأما النقود التى كانت شائعة فى ولاية ترافنكور بجنوب الهند إلى عهد قريب باسم جكرم فهى صورة مشوهة لنقود لارى

إذ هى لا تختلف منها إلا اختلافا بسيطا يتعلق بالرموز والحروف . والمماثلات المالكة فى جنوب الهند مثل جولا ، وبانقيا نقود خاصة . وفيها الفيل ، والسمك والنمر ، والقوس ، والترس ، وغيرها . ووصلت إلى مليبار نقود سنهالية خفيفة الوزن خلال أعوام ما بين ٨٥٠ — ٩٦٠ ، وفى نفس الوقت كانت تجرى فى ترافنكور نقود خاصة مثل جندوا كتش ، وايزووكاش وغيرها. وفى ولاية مليبار كانت تلكن بتن ، وسلطان ولى ، ورروماشلى وغيرها من النقود الشائعة — (مليبار للدكتور شمس الله قادرى) وجاء ذكر هذه النقود فى الأغانى الشعبية والقصص المحلية .

وبدأت النقود الانجليزية تنتشر فى الهند شيئا فشيئا منذ تأسيس شركة الهند الشرقية ، وأنزل أمراء الولايات نقوداً خاصة خفيفة الأوزان لمبالغ صغيرة إلى جانب النقود الانجليزية ، واستطاع الانجليز توحيد النقود نوعا ما ، ولكن لم يدخلوا تعديلات تذكر فى تلك النقود .

وبعد أن تحررت الهند من نير الاستعمار الأجنبى ، تطرقت تعديلات خاصة إلى النقود الحكومية وها هى الآن نفذت الهند النظام العشرى فى النقود الرسمية أسوة بالنقود السائرة فى البلدان الأخرى ، وتسهيلا للمعاملات الاقتصادية وفوق هذا وذاك أن هذا النظام العشرى ليزيل عن عامة الشعب التكاليف التى يتحملها فى الحسابات وفى التبادل التجارى خصوصا مع البلاد الخارجية والعملة الأجنبية ؟

محيى الدين الالوائى

« لا تتعجل بالحكم »

قال الشعبي : كنت جالسا عند شريح القاضى ، إذ دخلت امرأة تبكى بكاء شديداً وتشكو زوجها ، وكان غائباً ، فقلت أصلحك الله ، ما أراها إلا مظلومة ، قال : وما أعلمك ؟ قلت : لبكائها ، قال : لا تقطع بظلمها ، فإن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون ، وهم ظالمون ...

تصنيف العلوم عند الغزالى

للأستاذ فوزى عرفه

يعد موضوع تصنيف العلوم من الأمور الهامة فى كل فكر إنسانى إذ بحسب قدرة العقل على جمع شتات الموضوعات يتحدد منهجه لدراستها وطريقته للتحدث عنها ، وقد عرف عن المسلمين شديد عناية بإحصاء العلوم ويشتهر لديهم فى هذا المجال كتاب « إحصاء العلوم » للفارابى ، والفهرست لابن النديم ، ومقدمة ابن خلدون وغير ذلك من المجلدات الضخمة التى تستوعب بطون الحكمة وتجمع بين دفتيها فنون المعارف وشتى العلوم .

وقد لجأ الغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » إلى مثل هذا الضرب من التصنيف للعلوم إلا أن ما يعطى لتصنيفه أهمية فى تاريخ الفكر أنه مشتق من روح التصوف وينبوع الباطن . الأمر الذى يجعل لتصنيفه طعما خاصا ومذاقا يختلف عن غيره من التصانيف ، ونحسب أن الحديث فيه يطلع القراء على لون إسلامى طريف مبدع ، ويفتح عيونهم على منحى جديد من مناحى التصانيف والإحصاء .

يقدم الغزالى لتصنيفه بمقدمة يراها ضرورية لتوضيح المذهب الذى سيسلكه فيقول : « فضيلة العلم مشتقة أساسا من الفضل وهى الزيادة ، فإذا تشارك شيئان فى أمر واختص أحدهما بمزيد يقال فضله ، وله الفضل عليه مهما كانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشئ كما يقال : الفرس أفضل من الحمار بمعنى أنه يشاركه فى قوة الحمل ويزيد عليه بقوة الكر والفر وشدة العدو وحسن الصورة ، والعلم فضيلة فى ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة فإنه وصف كمال الله سبحانه وبه شرف الملائكة والأنبياء » على أن القاعدة « العلم فضيلة » لا تدل على تفاضل بين العلوم فقط ، وإنما مفهومها الصحيح أن يوجد ذلك التفاضل الذى يترقى فى مدارج حتى يصل إلى ما هو أرفع وأشرف ، ودليل ذلك نظرة الغزالى إلى الفضيلة إذ يقول : « الفضيلة نسبية واستحقارنا للصيارفة عند قياسهم بالملوك لا يدل على حقارتهم إذا قيسوا بالكناسين فلا تظن أن ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر » ومعنى هذا أن العلوم يمكن أن تتدرج من أدنى إلى أعلى مع اشتراكها جميعا فى الفضل إلا أن هناك ما هو أكثر فضلا من غيره ، ودليل ذلك - فيما يرى - أن الشئ النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى :

(١) ما يطلب لغيره .

(٢) ما يطلب لذاته .

(٣) وإلى ما يطلب لغيره ولذاته جميعا .

وما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره .

ثم ينظر الغزالى فى مقاصد الخلق ليرتبها فى درجات يعلو بعضها على بعض وتتفاوت فى الأهمية وإجابة المطالب حتى يربط بينها وبين تصنيف العلوم فيرى أن هذه المقاصد مجموعة فى الدين والدنيا ، ولا ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين التى تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

(١) قوام العالم : وهى الزراعة والحياكة والبناء والسياسة .

(٢) خدم السابقة : كالحدادة التى تخدم الزراعة والحلاجة والغزل ... الخ .

(٣) تتميم الأصول : كالطحن والخبز والعصارة والخياطة وهى التى تتم بها سابقتها .

هذا بالإضافة إلى قوام أمر العالم الأرضى وهى ثلاثة أيضا :

(١) الأصول : كالقلب والكبد والدماغ من الإنسان .

(٢) والخادمة : كالمعدة والعروق والشرايين والأعصاب والأوردة .

(٣) والمتممة للأصول : كالأظافر والأصابع والحاجبين .

وأشرف هذه الموضوعات السياسة التى تنقسم إلى أربع مراتب وهى :

١ — السياسة العليا : وهى سياسة الأنبياء فى حكمهم على ظاهر العامة والخاصة وباطنها .

٢ — سياسة الخلفاء والملوك والسلاطين : وحكمهم على الخاصة والعامة جميعا ولكن على ظاهرهم لا على باطنهم .

٣ — سياسة العلماء بدين الله : وهم ورثة الأنبياء ولهم الحكم على الباطن فقط عند الخاصة .

٤ — سياسة الوعاظ : وحكمهم على بواطن العوام فقط .

هذه المقدمات أساسية فى النظر إلى العلوم فالعلوم — على هذه التقسيمات — تنقسم إلى نوعين : علوم محمودة ومذمومة ، وعلى الرغم من تواتر الآراء بين عشرين رأيا حول معنى العلم إلا أنه يرى أن العلم ينقسم إلى علم معاملة وعلم مكاشفة ، والعلم المفروض على المسلمين فى قول الرسول (طلب العلم فريضة على كل مسلم) : هو علم المعاملة الذى ينقسم إلى ثلاثة : اعتقاد ، وفعل ، وترك .

والاعتقاد يبدأ بإقرار الشهادتين ، والفعل بأن يتعلم الطهارة والصلاة والزكاة والحج .

والترك . فيكون بحسب ما يتجدد من الحال .

والعلم الذى هو فرض كفاية : هو كل علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا كالطب والحساب وما إلى ذلك ، والمذموم منه هو علم السحر والطلسمات والشعبذة والتلبيسات والمباح هو علم الأشعار التى لا سخف فيها ، أما العلوم الشرعية فكلها محمودة إلا ما يتلبس بها ويظن أنها شرعية ، والعلوم المحمودة منها هى :

أولا : الأصول . وهى كتاب الله وسنة الرسول وإجماع الأمة وآثار الصحابة .

ثانياً : الفروع . وتنقسم إلى :

(١) ما يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقهاء والمتكفل به الفقهاء .

(ب) ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب .

ثالثاً : المقدمات . مثل علم اللغة والنحو وهى تسهل فهم الأصول .

رابعاً : المتممات . وهى :

(ا) القراءات ومخارج الحروف فى القرآن من حيث اللفظ .

(ب) ما يتعلق بالمعنى كالتفسير .

ونستطيع أن نلاحظ على هذه القسمة للعلوم ما يأتى :ـ

١ ـ ألحق الغزالى الفقه بعلم الدنيا لأن الفقه يقوم الدنيا بما فيها من شهوات ويقضى على كبوات السلطان « فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات ـ ولعمرى أنه متعلق أيضا بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا فإن الدنيا مزرعة الآخرة ولا يتم الدين إلا بالدنيا والملك والدين توأمان فالدين وأصل السلطان حارس » . ولكن ليس معنى هذا أن علم الفقه يشبه أى علم آخر يتعلق بالدنيا وإنما هو يمتاز عليها جميعاً لثلاثة أمور . أولها : أنه علم شرعى . وثانيها : لا يستغنى عنه أحد من سالكى الطريق إلى الآخرة . وثالثها : أنه مجاور لعلم طريق الآخرة أى علم المكاشفة .

٢ ـ أنه ينعى على الفقهاء إهمالهم لعلم الباطن على الرغم من تواتر الأحاديث بفضل علماء الباطن ويصح ذلك عند ترتيبه للعلوم بأنها علوم الأبدان والأديان ثم الباطن ، والأولان مقدمة ومدخل تدريجى لعلم الباطن .

٣ ـ أنه يجعل العلم مقدمة للتصوف ويستدل على ذلك بقول الجنيد رحمه الله : قال لى السرى شيخى يوما : إذا قمت من عندى فمن تجالس ؟ قلت : المحاسبى ، فقال : نعم خذ من علمه وأدبه ودع عنك تشقيقه الكلام ورده على المتكلمين ، ثم لما وليت سمعته يقول : جعلك الله صاحب حديث صوفيا ولاجعلك صوفيا صاحب حديث . أشار إلى أن من حصل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح ، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه » .

٤ ـ أنه لم يذكر من هذه العلوم ـ علم الكلام والفلسفة لأن ما يشتمل عليه علم الكلام مذكور فى القرآن والأخبار مشتملة عليه وما عدا ذلك فهو مشاغبة وبدع مذمومة وأما الفلسفة فليست علما برأسها وإنما هى :

١ ـ الحساب والهندسة وهما مباحان .
٢ ـ المنطق وهو داخل فى علم الكلام .
٣ ـ الإلهيات وهو داخل فى علم الكلام أيضاً .
٤ ـ الطبيعيات وبعضها مخالف للشرع والدين الحق .

فوزى عرفة

التكبير عند ختم القرآن

للأستاذ أحمد على منصور

أرسل الله الصادق الأمين ، بالهدى ودين الحق ، بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا ، وأنزل عليه القرآن العظيم من فوق سبع سموات ، بلسان عربى مبين ، فى صورة بلاغية يعجز عنها الخلق ، وأقوى حجة تخضع لها العقول النيرة ، وضمنه من القواعد والأحكام ما يكفل سعادة الناس فى الدنيا والآخرة ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بأذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ».

وفى صدر الإسلام تأخر الوحى عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مدة من الزمان فكان لذلك أثر بالغ فى نفسه ، وقال قائل من كفار مكة زورا وبهتانا : إن رب محمد ودعه وقلاه قد حض الله مفترياتهم ، وكذب قولهم ، وأنزل على رسوله الكريم قوله عز علاه « والضحى والليل إذا سجا ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى » وما أن أتم أمين الوحى جبريل هذه السورة الشريفة ، أمام خير الورى ورحمة الله للعالمين ، حتى قال « الله أكبر » شكر الله على ما أولاه ، من نزول الوحى بعد انقطاعه عنه حينا من الدهر وردا على ادعاءات المشركين ، واغتباطا بنعم مولاه عليه ، وسرورا بهذا الوعد العظيم ، الذى تضمنه قول الله تبارك وتعالى فى هذه السورة الجليلة « ولسوف يعطيك ربك فترضى » وصدر عنه ، صلى الله عليه وسلم ، الأمر بالتكبير من الضحى مع نهاية كل سورة ، حتى يختم التنزيل الحكيم تعظيما للعلى القدير ، وقياما بشكر أنعمه ، وفرحا بختم كتابه الحكيم .

ولقد روى هذا التكبير عن الرسول الأعظم ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعن الصحابة والتابعين ، وذهب رجال الحديث إلى أن حديث التكبير رفعه البزى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورواه غيره موقوفا على ابن عباس ومجاهد . وهذا التكبير عام داخل الصلاة وخارجها ، قال البزى قال لى الإمام الشافعى رضى الله عنه : إن تركت التكبير فقد تركت سنة من سنن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

وروى السخاوى عن أبى محمد القرشى ، إنه صلى بالناس التراويح خلف المقام بالمسجد

الحرام ، فلما كانت ليلة الختم كبر من خاتمة والضحى إلى آخر القرآن فى الصلاة فلما سلم إذا بالإمام محمد بن إدريس الشافعى قد صلى وراءه ، وقال للقرشى لقد أحسنت وأصبت السنة . والأفضل أن يكون التكبير فى الصلاة سرا ، سواء أكانت الصلاة سرية أم جهرية ، حتى لا يسبق إلى أذهان العوام فى الجهرية أن التكبير من القرآن العظيم .

وصيغة التكبير عند الجمهور « الله أكبر » ويرى بعض العلماء زيادة التهليل قبله والتحميد بعده ، فتصير صيغته على هذا لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد ، وجرى عمل الشيوخ والقراء قديما وحديثا ، على الأخذ بذلك ، لأن المقام مقام إطالة وتلذذ بذكر الله جلت حكمته ، عند ختم قرآنه الكريم . وابتداء التكبير عند الأكثرين من أول سورة والضحى ، وانتهاؤه على رأيهم عند أول سورة الناس . وذهب فريق إلى أن ابتداءه من آخر والضحى ، وانتهاءه عند آخر الناس .

وسبب هذين الرأيين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « الله أكبر » عند فراغ جبريل عليه السلام من قراءة سورة والضحى عليه ، كما مر فى صدر مقالنا هذا ، ثم قرأها صلوات الله وسلامه عليه ، ولا يعلم إلا الله سبحانه ، هل كان تكبير نبيه لقراءة نفسه ، أو لختم قراءة أمين الوحى جبريل ؟ والذى عليه الأكثرون أن تكبيره عليه الصلاة والسلام كان لختم قراءة جبريل ، فذهبوا إلى أن بدءه من ختام الضحى إلى ختام الناس .

ويرى هذا الفريق أن تكبير الرسول صلى الله عليه وسلم كان لقراءة نفسه ، فبدء التكبير عندهم من أول الضحى ونهايته أول الناس .

وبعد : فينبغى العمل بهذه السنة المأثورة عن أشرف الورى ، وتلاوة التنزيل الحكيم بترتيل وخشوع ، والتدبر فى آياته ، والعمل بأحكامه ، وتسريح النظر طويلا فى رياضه ، والإلمام التام بالمتشابه من آيه ، حتى لا ينسى شىء منه ، ولا يلحن فى بعض سوره ، والرغبة إلى الله جل جلاله ، أن يوفقنا لما يرضيه ، ويبعدنا عما يغضبه ، ويهدينا الصراط المستقيم .

أحمد على منصور

العوامل الضرورية في بناء الجماعات وإقامة المدنيات

للأستاذ عباس طه

يخيل لمن لا بصيرة له فى العلوم الاجتماعية أن تقليل الحاجات المادية فى الأمم يحفظ عليها مالها ويكفل لها استقلالها ويجعلها أقل احتياجاً إلى سواها ، فترى كل همه متجهاً إلى مكافحة ما لا فائدة له فى نظره من الكماليات رجاء أن ينشىء شعباً لا تتعدى مطامعه ما يقيم صلبه ، ويكسو جسمه ، لينصرف بكليته إلى الكمالات الروحية ، والترقيات المعنوية - وهذا خطأ بين يقع فيه كل من يتصدر صفوف الجماعات ويعلو منابر التوجيه والإرشاد . لقد تسببت هذه النظرة العابرة التى لم تبن على قواعد علمية اقتصادية واجتماعية خلال العصور فى إهلاك جماعات دانت لهذه النظرة الخاطئة والرأى الفطين فلم تلبث أن انحلت روابطها وفنيت فى أجساد أمم أخرى ومنها جماعات لم تصادف مزاحماً لها فى الحياة بقيت على ما كانت عليه قروناً كثيرة فى حالة تخلف وجمود .

لذلك - حفزنا أن نكتب فى هذا الموضوع عن الحاجات الإنسانية وأثرها فى بناء الجماعات وإقامة المدنيات نقتبسه من صميم النظريات الاقتصادية الكلاسيكية والحديثة مسترشدين بهدى الفرقان الذى أنزل هدى للإنسان حتى لا يندهؤلاء الذين يعلون المنابر فى المساجد والجماعات ناصحين بما يخالف الدين ويخرج عن سنن النظريات الاقتصادية والاجتماعية فى إنهاض الشعوب من ربقة الأفكار البالية .

العوامل الباعثة لحركات الجماعات :

(القوى الديناميكية)

الحاجة الحيوية التى يشعر بها الإنسان هى العامل الوحيد الباعث للحركة الماشية فى العالم وهى بهذا الوصف أساس علم الاقتصاد السياسى .

كل كائن حى لأجل أن يصل إلى كماله الشخصى مضطر لأن يستعين بالعالم الخارجى وأن يستمد منه عناصر يحيا بها حياته المقدرة له . وهو مضطر لبذل جهود للحصول على حاجاته لأن حصوله عليها يدفع عنه ألماً والحرمان منها يوقعه فى أذى .

ولحاجات الإنسان طبائع مختلفة عظيمة الخطر ، ولكل طائفة منها قوانين اقتصادية خاصة بها تتلخص فيما يلى :—

أولا : الحاجات الإنسانية غير محدودة العدد. وهذا مما يميز الإنسان عن الحيوان، وهو فى الوقت ذاته الباعث على المدنية بأوسع معانيها.

وحاجات النوع الإنسانى تتدرج فى نوعها وقيمتها بقدر تقدمه فى الحضارة. وحياته من هذه الناحية كحياة الطفل من نوعه. فإنه فى المهد لا يتطلب أكثر من الغذاء المناسب ثم يتدرج فى توفير حاجاته من الأغذية المختلفة والملابس والألاعيب المروضة، ولا تكاد تمضى عليه سنة حتى تنشأ له حاجات جديدة. كذلك الحال فى الجماعات البشرية، فإننا اليوم وقد قطعنا أشواطا فى المدنية نجد أنفسنا فى حاجة ماسة إلى كل ما يتعلق بالصحة والنظافة والتعلم والسياحة وتلك لم تكن معروفة لأسلافنا. ومما لا مشاحة فيه أن أحفادنا سيشعرون باحتياجهم لأكثر منها، ولو أتيح لنا أن نقف على خبر كائن فى بعض الكواكب لآنسنا عنده احتياجات جمة لأمور لم نتخيلها نحن الآن ولا تمر فى خاطرنا.

لكن ما الحكم على الأمم التى تقنع بالقليل من الحاجات ولا تمد مطامعها إلى ما يبعد عن الدائرة التى حصرت نفسها فيها؟ هذه الأمم إذا بقيت مكتفية من الغذاء بشىء من الفاكهة والخضر واللبن، ومن المأوى بجدار يقيها لفح الشمس، فبشرها بالجلاء العاجل عن هذه الأرض التى لم تستطع الاستفادة منها مع ما منحت به من القوى والقدرة التى تبلغ بها أرقى مراتب الوجود المادى والمعنوى.

ههنا يمكن أن يقول قائل: هل ترقى الإنسان فى الاحتياج خير له أو شر عليه؟

الجواب: إن الحاجات التى تنشأ للإنسان هى عوامل تحفزه للعمل، وتظهره الابتكار والاختراع وهذا يدفعه للترقى فى العلم فإذا أردنا أن نعمل على تقليل هذه الحاجات كنا دافعين إلى خوف هذه العوامل فتقل الجهود العقلية ويهبط مستوى الثروة العامة وهذه الحاجات الاقتصادية ليست مجردة من نتائج أدبية عالية وذلك أن كل حاجة منها هى بمثابة رابطة جديدة تزيد انضمام الناس بعضهم إلى بعض لأن نيلها لا يتأتى إلا باشتراك مجموعهم فى إيجادها.

ومن هنا ينمو فى البشرية الشعور بالتساند والترافد، فالرجل القليل الحاجات لا يحتاج لغيره، ولكن يكتفى بنفسه، وهو ما لا يجب أن يكون بين النوع الإنسانى الذى عليه ترقى أفراده على التعاون الاجتماعى.

ثانيا: الحاجات الإنسانية محدودة فى مقاديرها. وهذه من الأصول الهامة التى تركز

عليها النظريات الحديثة فى علم الاقتصاد السياسى . ومقدارها أن لكل حاجة يشعر بها الإنسان مقدارا خاصا لا تتجاوزه الرغبة مثال ذلك أن الإنسان يحتاج إلى المواد الغذائيه ولكن احتياجه إليها يقف منها عند حد لا تتجاوزه خلافا لحاجاته الصناعيه أى الإجتماعية ، فلا تكاد تجد لها حدا تقف عنده فإنك لا تستطيع أن تدرك مقدار المال الذى يشبع نهمة الرجل المتمدن .

ثالثا : الحاجات الإنسانية متعارضة ، ومعنى ذلك أن الحاجة من الحاجات لا تحصل إلا بملاشاة حاجة أخرى أو امتصاصها ، وهذا مبدأ اقتصادى يقوم عليه إمكان إصلاح الأمة عن طريقه وذلك بأخذ احتياجات مالية للأمة لتبيد إحتياجاتها المنحطة الرديئة ـ وقد شوهد أنه يمكن الإستعاضة عن عادة مادية بعادة عقلية ، فيمكن إحلال التردد على النوادى محل التردد على الملاهى العامة ،

رابعا : الحاجات الإنسانيه متآلفة . هذا الناموس يبدأ بادىء ذى بدء منافيا للتقدم وليس هو كذلك فالناس من ناحية العمل أليسوا متزاحمين ومتآلفين فى وقت واحد؟ فالتخالف يوجد بين الحاجات التى تطلب لغرض واحد ، لا بين الحاجات التى تطلب لحاجات متعددة وأغراض شتى .

فحاجة الإنسان للتغذى من الأغذية تتعادى وحاجته لنوع آخر منها ، ولكنها تأتلف مع حاجته للخوان والكرسى والمنشفة والسكين الخ .

خامسا : ميل الحاجات الإنسانية إلى عادات راسخة ، وكما يقال طبيعة ثانية . وهذا له أثر كبير بالنسبة للأجور — ذلك أن الإنسان متى إرتفع إلى مستوى من العادات صعب عليه أن ينحدر فجأة عنه . فلقد مضى ذلك الزمن الذى كان لا يلبس فيه العامل الملابس البيضاء ولا ينتعل حذاء ، ويتعاطى القهوة والتبغ ولا يأكل اللحم وخبز القمح ، ولكنه الآن أصبح أسير هذه الحاجات بحيث يهلك إذا لم يستطع توفيتها . فضلا أن العادة متى مر عليها فى الأمة أجيالا متعاقبة رسخت فى الأعقاب فشعرت الحواس بضرورتها الأمر الذى لا يمكن الاستغناء عنها أو التقليل منها .

سادساً : زوال العادات وظهور عادات على أنقاضها أرفع أو أخطر منها . هذا ناموس طبعى فى ترقية الأمم بإنشاء حاجات جديدة لها خصال سامية وأغراض شريفة وتقويتها بحيث تصبح فيها عادة أو طبيعة ثانية ومتى تم ذلك سارت الأمة إلى أوج الكمال والشرف مدفوعة بعوامل وبواعث ذاتية لا أثر للتصنع فيها وكان حظ الجماعة من ورائها عظيم الغاية .

بسطنا هذه البدهيات التى يغفل عنها هؤلاء الذين يخلعون على أنفسهم ألقابا فى التوجيه والإرشاد فلا يقدرون مدى العلاقة الوثيقة بين الحاجات الاقتصادية وبين الشئون الاجتماعية ، فالذى ينتدب لترقية نفسية آمنة لا يجوز له أن يقوم بهذه المهمة إلا إذا ألم بأطراف هذه الأصول المقررة لئلا تكون تعاليمه ضارة بالمجتمع الذى يعيش فيه فالملاحظ على أكثر دعاة الاصلاح فى هذه الأيام كما تسميهم الصحف أنهم يسعون لتقليل حاجات الأفراد وتبسيط معيشتهم توهما منهم أن ذلك يحفظ على الشعب صحتـــه وأبدانه ويحصر همته فى وجهة واحدة هى الترقى ماديا وأدبيا . فلو قدرنا لهؤلاء المصلحين نجاحا رأينا أنه قد إبتنى عليه فساد اجتماعى كبير تظهر آثاره فى تدهور الصناعات وانحطاط الفنون والنتيجة الطبيعية لهذا قلة الأعمال وانتشار البطالة واشتداد الفاقة على الطبقة الأخيرة من الأمة ومتى جاءت انصرفت إلى التلصص والسلب وارتكاب الجرائم .

من هنا يدرك الناس حكمة الإسلام فى إباحته متع الحياة ما دامت فى حدود الاعتدال بعيدة عن المآثم والعدوان ، قال تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » . وفى الحديث (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده) .

وقد آنسنا اعتراضا من بعض الجماعات على هذه الرخصة زاعمة أن مهمة الدين الحث على الزهادة والاخشيشان ، وتكريه الناس فى متع الحياة ولذاتها فكيف يبيحها الإسلام إلى حد أن ينزل فيها قرآنا وإنى لأظن أن القراء قد فقهوا الآن بعد ذكرنا لمكان الحاجات من شئون الاجتماع أن هذا التنويه وراءه حكمة ما لا يستطيع أن ينكره إلا متعنت ، فلو كان الإسلام قد سام أهله الاخشيشان فى المعيشة والقناعة من المصنوعات بما يسد الحاجة منها وزهدهم فى الدنيا حتى كرهوا كل متعها ولذاتها لما قامت لهم جماعة ولا انتظمت لهم حياة ولا ازدهر لهم علم ولا تلألأت لهم مدنية ، ولكنهم كانوا يجلون من الأرض بعد جيل أو جيلين من قيامهم غير تاركين وراءهم إلا ما تتركه كل جماعة لم تنتفع بوجودها ولم يستفد من مواهبها .

لذلك علم الله ما سيقال فى ترخيصه فى نعيم الحياة وزخرفها وزينتها من الاعتراضات التى مثارها قصر النظر فذيل الآية بما يشعر بأن هذا الأمر سوف يدركه الذين يعلمون الحقائق ويذيعونها بين الناس مضيفين به إلى معجزات القرآن معجزة جديدة فقال تعالى : « كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » .؟

عباس طه

من وحى الهدى "قصيدة"

للأستاذ حسن فتح الباب

ألا ليتنى يوما شددت رحاليا
ووفيت نذرى أن أزورك جاثيا
فأقضى حقوقا ند عنى قضاؤها
وأرخص دمعاً فى رحابك غالياً
وأروى غليلا من حنين ولهفة
إليك وأشفى من شجونى ما بيا
واستشفع الذات الكريمة خاشعا
لغفران ذنب قد تجنته ذانيا
أفى كل يوم أرتجيك لزورة
أعود وأشواق إليك كما هيا ؟
وكيف وإنى فى رحابك آمن
وفى ظلك الممدود أحدو رجائيا ؟
عفوت عن الجانى وإنى موحد
أدين بإيمانى وما كنت جانيا
وقفت على التوحيد عليا قصائدى
وأرسلتها فى العالمين سواريا
فهل لى فى الغفران آمال ضارع
وهل أرتجى لى مقعدا منك دانيا؟
فأنت إذا هز العزاء عزائيا
وإنك نور فوق أفق حياتيا

* * *

أحن إلى آل النبى وصحبه
ويسبق تحنانى إليهم دعائيا
أغنى بهم هيمان مستلهما هوى
عفيفا شريفا صادق العهد وافيا
وينصرهم بين الورى لى مقول
لعلهم أن يرتضونى مواليا
أغنى بمدحيهم وأشدو بذكرهم
وأستلهم المعنى الرفيع القوافيا
وأجهد أن أزجى إليهم روائعا
لعلى ملاق بعض ما كنت راجيا
روائع من ذوب الفؤاد بديعها
أمين بما يوحى إليه فؤاديا
صناع إذا صاغ المعانى أبية
مطاع إذا راض القوافى عواصيا
بحبهم فى الكون هام مفرداً
وأطلق آيات المدائح شاديا

شفى من سقام النفس وروحا مريرة
ونضر قلبا كان بالأمس ذاويا
وقوم معقولا وسدد نهية
وناصر مخذولا وأيقظ غافيا
فكانت ترانيم أجدت مباهجى
وكان نعيم رد عنى شقائيا
نبى الهدى عمت بشائرك الدنى
رياضا جنيات وبيدا فيافيا
طلعت على الأيام كالنور غامراً
وأشرقت فى الليلات كالبدر هاديا
فهلت على وجه الوجود أئتلاقة
كما غمرت شمس الوجود الروابيا
ورفت على ثغر البرية بسمة
تفيض شعاعات حسانا زواهيا
ترقرق كالأمواه فى كل جدول
تدفق من قلب الروابى هواميا
وتهفو على الآفاق أجنح نشوة
توامى شجياً أو تسامر خالياً
وشاعت بأعطاف الطبيعة هزة
ترد الحزين الجهم جذلان ساليا
وشعت بأرجاء السماء كواكب
تقبل بالنور العيون الجواريا
وأقبلت الغبراء أنضر ما بدت
تضاحك فى الزرقاء شهبا دراريا
نضت من قتام الشجو عنها غلائلا
كما غيض الشاجى دموعا هواميا
أفاءت عليها طلعة البشر رونقا
فرفت جبينا واستضاءت حواشيا
وأقبلت الأيام غرا حميدة
على الدهر تزهى ضحوة ولياليا
لها ـ ماسرت فى الكون ـ خفقة ملهم
يحن إلى الآتى ويذكر ماضيا
بشائر من فيض السماء تتابعت
فصهرت الدنيا عيونا روانيا
وأشرق فى الأكوان يدعو إلى الهدى
رسول قلبت كلهن المناديا
إذا خير اختار الجهاد رسالة
فقد رجحت شمسا وبدرا تساميا
إذا وضعا فى راحتيه لينثنى
عن العزم منه كان للنور قاليا
فقد وهب النور الذى هو ساطع
على النور فانجاب الدجى عنه عانيا

* * *

رسول الهدى ما أطيب الذكر مصعداً
وما أروع الإيمان للشعر هاديا

(البقية على صفحة ٢٤٨)

الكتب

١ — إعجاز القرآن :

للأستاذ عبد الكريم الخطيب

هذا الكتاب الأول فى الموضوع الذى اختاره المؤلف لدراسته من إعجاز القرآن ، ويقع فى زهاء خمسمائة صفحة من القطع الكبير ، وقد قصر البحث فيه على الإعجاز فى دراسات السابقين . المؤلف فى مقدمته يكشف عن منهجه فى البحث ، فهو يذكر أن بحثه لايعدو أن يكون نظرات فى كتاب الله تتمثل فيها مفاهيم المسلمين للقرآن على اختلاف وجهات نظرهم وتغاير أزمانهم وثقافاتهم .. كما يذكر أنه ربما كان من عيوب هذا البحث أو من حسناته ، أنه لم يواجه الموضوع مواجهة مباشرة ، بل جعل يطوف حوله ، ـ مدانيا ومباعدا ـ تطوافا طويلا ، استنفد كثيراً من الوقت ، وكثيراً من الجهد ، الأمر الذى ربما يكون قد تحيف الموضوع الأصلى وأدخل الضيم عليه .

وقد قسم المؤلف البحث أربعة أقسام ، بعد أن قدم بمدخل كان بمثابة طرقات خفيفة استفتح بها الباب الذى يصل القارئ بكتاب الله ، ويهيئ كيانه للوقوف على موارده .

كان الباب الأول « نظرة فى كلام الله وكلام الناس » وكان الباب الثانى « المعجزة » ما هى ؟ لماذا تعددت واختلفت ؟ وهل المعجزة لازمة للرسول ؟ موقف الناس من المعجزات، المعجزة الخالدة ، زمان المعجزة ومكانها ، ثم وقفة مع الشعر الجاهلى ، وموقف الإسلام منه ، وكان الباب الثالث « مباحث وآراء فى الإعجاز » استعرض آراء الجاحظ والخطابى والباقلانى وعبد الجبار ، والجرجانى ، والقاضى عياض وابن عطية والرافعى وأبى حيان التوحيدى ، والراغب الأصفهانى والسكاكى ، والفخر الرازى وفريد وجدى . أما الباب الرابع فكان « شبهات ودعاوى ومفتريات » ناقشها المؤلف ، منها خلق القرآن ، والنسخ فى القرآن ، ومعارضة القرآن .

الحق أن هذا الموضوع شائك للغاية ، وليس فى حاجة ـ وحسب ـ إلى سعة اطلاع ، ودقة تفكير ودرجة كبرى ، من الاستيعاب ، بل إنه فى حاجة أيضا إلى جرأة فى الرأى ،

وقد أعجبني رأى المؤلف مثلا في المعجزة ، فبعد أن أورد كلام السيوطى في الإتقان وملخصه أن أكثر معجزات بنى إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم ، وأكثر معجزات هذه الأمة الإسلامية عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم ، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة ، خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر ـ بعد أن أورد المؤلف رأى السيوطى هذا عقب بقوله : ونحن نقول : إن معجزة الرسول هى القرآن ، وليست له معجزة غيرها ، وإن كان كل آية من آيات القرآن معجزة ، بل معجزات ..

هذا رأى المؤلف ، ولكن القليلين من المثقفين من يقنعهم هذا الرأى ، وما أجدره لو أنه قال رأيه فى المعجزات المادية المنسوبة إلى الرسول فى الأحاديث الصحيحة التى ارتبطت بأذهان العامة من المسلمين عقيدة فى صدورهم ، وناقشها مناقشة علمية ، ولا أظن أن قوله فيما بعد أنها لو صحت لا تكون شيئا إلى منزلة الرسول ولا تقاس إلى القرآن الكريم ، لا أظن أن مثل هذا القول وحده يحدد موقفه من القضية .

وعلى العكس فرأى المؤلف فى قضية النسخ واضح وقائم على استيعاب لشعاب القضية ، فهو ينفى أن يكون قد وقع نسخ فى القرآن ، ولا يرى التعارض بين الآيات التى تختلف أحكامها فى الأمر الواحد ، إذ كل حكم له حال تخصه ، وعلة تدور معه وجوداً وعدما ، فكل أمر يجب امتثاله فى وقت ما لعلة توجب ذلك الحكم ، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر ، وليس بنسخ ، إذ أن النسخ معناه الإزالة ، حتى لا يجوز امتثاله أبدا .

الواقع أن الأستاذ عبد الكريم الخطيب كتب دراسة على جانب من الأهمية والخطورة معا ، فجاءت جديرة بما تليق به من تقدير .

* * *

٢ — مختصر سياسة الحروب :

للهرثمى صاحب المأمون

هذا الكتاب من التراث الإسلامى ، حققه الأستاذ عبد الرءوف عون ، وراجعه الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وقد اعتمد المحقق على نسخة مخطوطة فريدة ، حصل عليها من معهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية من مكتبة « كوبريللى » بالآستانة .

وواضح أن الكتاب مختصر لكتاب آخر ، أما هذا الكتاب الآخر فهو « الحيل فى الحروب » للهرثمى أيضا ألفه للخليفة المأمون ، ولا وجود له الآن ، ويرى المحقق أنه ربما فقد فيما فقد من الكتب أيام نكبة بغداد بالغزو التترى المعروف .

كما يذكر المحقق فى مقدمته أن المرثمى هو أبو سعيد الشعرانى كما فى فهرست ابن النديم وليس بالمراجع التى رجع إليها شىء من ترجمة للمؤلف، ولكن يبدو أن المرثمى قد يكون منسوبا بالولاء إلى هرثمة بن أعين الجيلى الذى كان من أبرز قادة الرشيد وقائد جيوش المأمون بعد ذلك، وكانت وفاته فى عصر الخليفة المتوكل.

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب صغير فى حجمه، إلا أنه تضمن أربعين بابا، استوعبت على وجه التقريب كل ما يتصل بسياسة الحروب على ضوء الإسلام وتعاليمه، فنظام الأمر فى الحرب تقوى الله والعمل بطاعته، ومقتضيات الحرب تتطلب حسن سياسة الرئيس أصحابه، والحذر وسوء الظن، والأناة والرفق، والاستشارة وترك الاستبداد بالرأى، والتعبئة عند وقوع الخوف فى المسير، والتحرز عند النزول والمقام، وهكذا يتناول الكتاب أساليب الحرب وفنونها وجدارتها، وأموراً شتى من أحوالها فى عبارات موجزة أشبه ما تكون بالاصطلاحات والمواد القانونية أو الدستورية. وإذا كان المؤلف - منعا للإسهاب - كثيراً ما يتجنب الاستشهاد بالآية القرآنية أو بالحديث النبوى، أو بالكلمة المأثورة عن السلف، إلا أنه من الواضح أنه كان يتمثل كل هذه وهو يسجل أفكاره التى هى على جانب من الأهمية.

* * *

٣ — قاهر التتار

للأستاذ لبيب البوهى.

هذا الكتاب الجديد للمؤلف نشرته الدار القومية ضمن سلسلة الكتاب الماس وصفحاته تزيد على ثلثمائة صفحة من القطع الكبير.

والمؤلف ممن أحرزت مؤلفاتهم القصصية وغيرها كثيرا من الجوائز فى وزارة التربية وزارة الثقافة والمجلس الأعلى للفنون. وكتابه هذا قصة طويلة من التاريخ فى أسلوب قصصى يمثل جزءا ذا أهمية فى تاريخ العروبة والإسلام، مليئا بالآلام والمفاخر، ويقصد المؤلف بقاهر التتار الأمير قطز فى معركة عين جالوت ويذكر فى مدخل بحثه أن القصة تصور فترة حاسمة من الفترات التاريخية التى تمت فيها الوحدة فى تاريخ النضال العربى فغارات التتار التى حطمت بغداد وأحرقتها بقيادة هولاكو، ثم احتلت الشام وأخذت تهدد مصر، لم يردها على أعقابها ناكصة، ولم يوهنها ويحطم قواها، ويكسر شوكة غرورها إلا وحدة بين شعوب العالم العربى بزغ إشعاعها يومذاك من القاهرة.

القصة فى ثلاثين فصلا، بدأت منذ أن

تولى الأمير قطز مهام منصبه الجديد ـ منصب نائب السلطان فى القاهرة والسلطان يومئذ صبي لم يتخط الخامسة عشرة من عمره . إنه المنصور على بن عز الدين أيبك التركمانى ، الذى تولى السلطة بعد مقتل أبيه وانتهت هذه الفصول بعودة قاهر التتار إلى القاهرة بعد انتصاره فى موقعة عين جالوت ، ولكن البطل المنتصر لم يقدر له أن يصل إلى القاهرة لأن بعضا من المماليك هاجموه فى مدينة الصالحية وأرادوه على الاعتراف بالملك لبيبرس ، ولم ينته الجدل إلا بقتله ليعود بيبرس إلى القاهرة ملكا متوجا على مصر .

الحق أن القصة بفصولها الثلاثين تصوير دقيق لفترة حاسمة من تاريخنا ، نجح المؤلف فى ابراز صور الخيانة التى تسللت إلى كثير من أحداثها ، وفى إبراز الشجاعة الأدبية لبعض العلماء وفى مقدمتهم العز بن عبد السلام وقد حرص المؤلف على أن يتنقل بنا من بغداد إلى الشام إلى القاهرة حيث تقع أماكن القصة ، ولكن دون مراعاة للترتيب الزمنى للأحداث نفسها ، حتى لتكاد القصة تبدو فى الفصول العشرين الأولى منها مفككة الأوصال .

كما أن المؤلف أهمل قليلا الدين كأقوى عامل من عوامل الانتصار ، وهذه الوحدة التى حققتها الحاجة بقيادة قطز الرشيدة ؛ إنما دعا إليها علماء الدين باسم الإسلام .

واعتمد المؤلف فى مدخلى قصته على الرؤيا والنبوءة ، وهما عنصران يجب أن لا يعول عليهما فى أحداث التاريخ .

ويمكن أن نقول بعد ذلك : إن المؤلف كتب قصة تاريخية قيمة ، بعث من خلال صفحاتها الحياة فى كل شخصياتها ، وجعلنا نعيش مع كل أحداثها .

* * *

٤ — مول الغالط والفصيح على ألسنة الكتاب :

للأستاذ أحمد أبو الخضر منسى

هذا الكتيب ـ على صغر حجمه ـ بعيد الأثر ، وعلى الرغم من أنه بضعة بحوث نشرت فى الصحف منذ عام ١٩١٥ م إلى عام ١٩٥٠ ، إلا أن لضم هذه البحوث فى كتاب له قيمته ، فنحن محتاجون دائما إلى أن نستدرك أخطاءنا اللغوية فى حياتنا الأدبية على الأقل .

المؤلف يذكر فى مقدمته أنه يسلك مسلك العلامة اللغوى الشيخ إبراهيم اليازجى الذى أنشأ إذ استوطن مصر عام ١٨٩٤ م مجلة البيان ، ثم أخرج بعدها مجلة الضياء عام ١٨٩٨ م ، فكتب بحوثا متتالية تحت عنوان « لغة الجرائد » .

كما يذكر المؤلف أن منهجه فى كتابه هو تعقب الأخطاء الواردة على ألسنة الكتاب إما جهلا وإما سهوا ، وتقييد شاردها وواردها وتمييزه شطرين : منها ما هو خطأ لا ريب فيه ، ومنها ما ذكره بعض النقاد على خطأ وليس بخطأ .

الحق أن تصويب أخطائنا اللغوية أمر ليس بالعسير ، لو صدقت نياتنا ، كما أورد كتاب الأستاذ مفتى مثلا من الأخطاء المشهورة :

تعرفت بفلان ـ عضوة فى مجلس كذا ـ بالرغم عن ـ تخرج من جامعة كذا ـ جاء فى البند الأول ـ مهازل .

ولا نظن أن تصويب مثل هذه الأخطاء مما يشق علينا فقلنا : تعرفت إلى فلان ـ عضو فى مجلس كذا ـ على الرغم من أو على رغمه ـ تخرج فى جامعة كذا ـ جاء فى الشرط الأول ـ مهازل أو مقابح .

وبعد ـ فإن القضية أكبر من أن نستهين بها مادمنا نرى أن لغتنا العربية من أبرز مقومات عروبتنا ، وإذا كانت الصحافة أصبحت مصدر هذه الاستهانة بلغتنا العربية اليوم ، فمن عن طريقها يمكن أن تستقيم لغتنا ، ولكن حين يوكل أمرها إلى كتاب أدباء ، وليسوا من محترفى الكتابة الصحفية ، أو من المشتغلين بحرفة الأدب دون اهتمام باللغـــة الفصحى وهى عصب الأدب نفسه ؟

محمد عبد الله السمان

(بقية المنشور على صفحة ٢٤٣)

طلعت على الصحراء أظلال رحمة بسطت على الأكوان كف سماحة
فقرت قفاراً واستكانت بواديا فنضرت مجرودا وزينت حاليا
وآسيت محروما وأغنيت معدما تأبيت أن تجثو لأصنام مكة
وبعدت مغموراً وأرشدت غاويا وكنت لمن شاد السموات جاثيا
جلوت عن المكروب آثار كربه وكنت عن الأقذاء والفكر قاصيا
ورويت صديان الجوانح ظاميا فأصبحت من عرش المهيمن دانيا

حسن فتح الباب

أنباء وآراء

حروب الإسلام حروب فتح

ليقل من شاء ما شاء فإن الإسلام سيظل دين الإنسانية الخالد ولن ينال منه الطاعنون فى أصــوله ، أو فى سلوكه حيال الأمم التى أنعم الله عليها بنشر تعاليمه فيها ، إلا ما ينال النمل من أركان ثهلان على حد قول الشاعر .

ومن واجبنا أن ندفع عن الإسلام كل طعن يوجه إليه ، وأن نكشف كل شبهة تحوم حوله ، وأن نرشد كل قلب يريد أن يهتدى إلى الحق .

ولكن علينا أن نحذر مجاراة أحد أو تملق الأفهام والعقول القاصرة ، فإن شريعتنا ليست فى حاجة لأكثر من بيان تعاليمها على وجهها الصحيح .

وربما تجذبنا بهارج المعاصرين ، وتحملنا اصطلاحاتهم التى يتشدقون بها على أن نجارى تفكيرهم القاصر رغبة فى ردهم عن عداوتهم للإسلام ، أو طمعا فى أن نقر فى نفوسهم المزعزعة تعاليم الإسلام ، ولكن ذلك التهاون لن يجئ بخير لا للإسلام ، لا لهؤلاء .

ذكرت كل ذلك حين سمعت فضيلة الشيخ محمد الغزالى يذيع فى التليفزيون فيقول فى حدته المعروفة ، وفى إخلاصه المعهود ، إن حروب الإسلام لم تكن حروب فتوح ، وإنما كانت حروبا لتحرير الشعوب من ظلم المستعمرين وطغيانهم ، وضرب مثلا لذلك . بحروب الإسلام فى مصر والشام وشمال أفريقيا ، وقال : إن كل هذه الحروب كانت لتحرير هذه الشعوب من طغيان الرومان الذين استعمروا هذه البلاد زهاء ستة قرون .

وهذا كلام قد يستهوى العامة ، وأشباه العامة ، ولكنه لا يرضى الحقيقة ، ولا يرفع من قدر الإسلام .

الإسلام حارب فى كل بلد دخله لغاية نبيلة هى نشر دعوته فى هذا البلد ، فحارب فى مصر لينشر الإسلام فى مصر وحارب فى فارس لينشر الإسلام فى فارس .

ولا عيب على الإسلام ، ولا تلحقه أية مذمة أن يكون قصده نشر دعوته ، فالمسألة كلها ترجع إلى حقيقة واحدة ، متى سلم بها كل ذى عقل كان كل ما يأتى تبعا لها طبيعيا : « إن الدين عند الله الإسلام » هذه هى القضية ، فإذا كانت صحيحة - وهى لا شك صحيحة نتيجة الأدلة الحاسمة التى قامت على صحتها - كان كل تصرف بعد ذلك يهدف

إلى سيادة الإسلام تصرفا صحيحاً وواجباً . وإذ قلنا : إن الإسلام حارب فى البلاد التى كان يستعمرها الرومان لتحريرها من طغيانهم ، فماذا نقول عن حروبه فى الأندلس وفى فارس وفى غيرهما من البلاد التى لم تكن مستعمرة لأحد ؟ .

هل أراد أن يحرر الفرس من حكم القياصرة مثلا ؟ لو كان غرض الإسلام هذا كان عليه أن يرحل من هذا القطر بمجرد القضاء على نفوذ هؤلاء الحكام ، ولكن الإسلام لم يفعل ذلك - كما هو معروف - بل أقام فى كل بلد فتحه ، وعمل على نشر تعاليمه ، ونشر لغته ، وظل فيها إلى يومنا هذا .

وليس معنى ما أقول أن الإسلام انتشر بالسيف ، وأن العرب المسلمين أكرهوا الناس على قبول دينهم ، لأن الإسلام كان يفتح البلاد ، ويترك أهلها على دينهم إذا أرادوا ، ويدعوهم إلى الإسلام ، ولا يرغمهم على قبوله ، بل كان يحمى كنائسهم وبيعهم ، ويعاملهم فى عامة شئونهم كما يعامل المؤمنين به ، وإنما معناه أن السيف كان ضروريا لحماية الدعوة الإسلامية ، ولتبليغها ، والتبشير بها ، ورد كيد أعدائها .

وكيف تنفى كلمة الفتح عن حروب الإسلام والله سبحانه وتعالى يخاطب رسوله الكريم فى سورة من سور القرآن : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، وقد وردت كلمة (الفتح) فى آيات من القرآن بمعنى الإنتصار فى الحرب والإستيلاء على البلد المحارب : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى » . « الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » . « إذا جاء نصر الله والفتح ... » إلى غير ذلك من الآيات .

وجاءت كلمة الفتح فى وصايا كبار رجالات الإسلام ، وهم يودعون جيوشهم ويوصونهم أو يكتبون لهم ، كما جاءت على ألسنة الرسل الذين كانوا يجيئون من لدن الجيوش يبشرون المسلمين فى عاصمة الخلافة بفتح قطر من الأقطار ، أو بلد من البلاد ، ولا أذكر - على قدر ما قرأت فى كتب التاريخ الإسلامى - أن كلمة التحرير جاءت فى وصية أو كتاب .

ونحن نفخر بشريعتنا التى كان من أهم أهدافها أن تنشر دعوتها السليمة الصحيحة النافعة فى كل أقطار الأرض ؛ فهى لم تحارب لتكسب مالا أو جاها ، أو لتستعبد شعوبا وإنما حاربت لتكون كلمة الله هى العليا .

على العمارى

فتاوى مختارة

تقديم : ابراهيم محمد الأصيل

(الجواب مقارنا بأجوبة مماثلة للأستاذين الراحلين الشيخ محمود شلتوت ، ويوسف الدجوى)

طروء الأفكار والوساوس على المصلى أثناء الصلاة :

السؤال :

تطرأ على فى الصلاة وساوس وأفكار فى شئون الدنيا وينتابنى بعد هذا الهم والحزن خشية أن يذهب هذا بثواب الصلاة ؟ فأرجو توضيح حكم هذا على صفحات المجلة .

عبد العزيز عيد
كلية طب القصر العينى

الجواب :

طلب الله من المؤمنين الصلاة ، وحث فيها على الخشوع ، وكمال التوجه إليه سبحانه : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » .

وفسرت الصلاة الوسطى بالصلاة الفضلى ، وهى ذات الخشوع والتوجه الكامل إليه سبحانه ، وربط الله بالصلاة ذات الخشوع فلاح المؤمنين : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون » .

والصلاة لا تثمر ثمرتها من النهى عن الفحشاء والمنكر ، واقتلاع بذور الشر من النفس إلا إذا كانت ذات خشوع وتوجه كامل .

والله العليم بطبائع ما خلق ، علم عسر الخشوع القلبى على الإنسان ، وعلم أن شرود الفكر عنده ، غالب عليه ، فاجتزأ منه فى صحة الصلاة ، وخروجه من عهدتها ، أن يؤديها تامة الشروط والأركان ، وأن يتجه إليه بالتكبير قاصداً وجهه ، مستشعراً عظمته . ثم رغب إليه أن يحارب ما يغلب عليه من الشواغل القلبية والخطرات النفسية التى تحول بينه وبين الشعور بلذة الصلاة الروحية ، وأعلمه على لسان رسوله بأن اشتغال الفكر أثناء الصلاة بغير جلال الله ، من وسوسة الشيطان وزعزعة النفس ، وعدم الصبر فى مكافحة هذه الخطرات .

وقد صور الرسول هذا المعنى أبلغ تصوير ليس فى الصلاة فقط ، بل فيها وفى تلبية ندائها ، والإسراع إليها وذلك فيما

روى عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا نودى بالصلاة أدبر الشيطان وله خصاص - كناية عن النفرة التي تصم الآذان - حتى لا يسمع الآذان ، فإذا قضى الآذان أقبل ، فإذا ثوب بالصلاة ، أقيمت ، أدبر ، فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه ، يقول : أذكر كذا ، أذكر كذا ، لما لم يكن يذكر حتى يضل الرجل أن يدرى كم صلى ، فإذا لم يدر أحدكم أثلاثا صلى أم أربعا فليسجد سجدتين وهو جالس » يريد سجدة السهو » .

وقد أرشدنا الحديث إلى أن حديث النفس في الصلاة بما يصرف القلب عن الموقف عمل من عمل الشيطان عما يجب على المسلم مكافحته في صلاته وفي حياته . وأرشدنا رحمة بنا ، نظراً لمسرة الموقف إلى صحة الصلاة التي استوعب التفكير جزءاً منها . فعلى المسلم إذن أن يذكر إذا وقف بين يدى الله وكبر للصلاة أن الشيطان واقف له بالمرصاد فليعتصم بذكر الله ، وليتدبر مايجريه على لسانه من تكبير إذا قام أو ركع وتسبيح وحمد إذا رفع أو سجد ، وقراءة إذا قرأ . عليه أن يروض نفسه على ذلك . المرة بعد الأخرى حتى يسد على نفسه مسالك تلك الوسوسة التي تسلبه إذا استمرت روح الصلاة ، وتجعلها صورة جافة لا تصعد بالنفس ، ولا تزكى الروح .

هذا وقد علم أن من خواص النفس البشرية أنها لا تتجه في وقت واحد إلا إلى شيء واحد ، وأنها إذا حصرت في دائرته لا يصل إليها غيره ، وأن الحواس متى ربطت بمواقع معينة تبعها التفكير وانحصر في دائرتها .

ومن هنا قال العلماء الذين حاربوا الوسوسة فغلبوها : ينبغى المصلى أن ينظر إلى موضع سجوده وهو قائم وإلى قدمه وهو راكع ، وإلى أرنبة أنفه وهو ساجد ، فيربط حواسه بهذه المواقع ، ويحصر فكره في تدبر ماينطق به من تكبير وتسبيح وقراءة ، وبذلك تكمل للمسلم صلاته ويحظى فيها بلذة السمو الروحى ، وقرة العين التي كان يجدها الرسول في الصلاة .

حكم إمامة من يزاول مهنة تلوث ملابسه ، ومن هناك من هو أعلم منه ، ومن يبغضه الناس :

السؤال :

ما حكم : إمامة من يعمل في مهنة تلوث ملابسه كالدباغة ؟

عبد الوارث أحمد

الورديان — اسكندرية

تقدم للإمامة رجل وفى القوم من هو أعلم منه فما حكم الصلاة وراءه ؟

متولى إسماعيل - سوهاج

فى قريتنا شخص ذو لجاجة يبغضه فيه الناس فهل تصح الصلاة وراءه وفى نفسى منه شىء ؟

غانم أحمد غانم - درشابة

الجواب :

عن الأول أن الدباغ ونحوه من أصحاب المهن التى لا تخلو عن مباشرة النجاسة يعفى عما يصيب ثيابهم منها متى كانوا يجتهدون فى درئها لعسر التحرز ، وقد يشهد لذلك قوله تعالى : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » وقوله عليه الصلاة والسلام : (بعثت بالحنيفية السمحة) ويستحب لهم إعداد ثوب خاص للصلاة به . وعلى ذلك فصلاة الدباغ بثيابه التى يباشر فيها المهنة صحيحة والنجاسة معفو عنها . وأما إمامته فمكروهة لمن ليس مثله ، أما مثله من ذوى الأعذار المقتضية للعفو عن النجاسة فلا يكره أن يكون إماما له ، وأما رائحة ثيابه فهى مانعة من حضوره الجماعة متى كانت تؤذى غيره . فعليه أن يخلعها قبل الذهاب إلى المسجد وإلا حرم عليه دخوله فضلا عن أن يكون إماما للناس ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (لا ضرر ولا ضرار) .

وعن الثانى إمامة الجاهل فيها تفصيل : فإن كان جهله يؤثر فى صحة صلاته بأن كان لا يحسن قراءة الفاتحة أو لا يحسن الوضوء أو الاغتسال من الجنابة ، أو ترك فرضا من فروض الصلاة كالطمأنينة فصلاته باطلة فضلا عن إمامته ، وإن كان جهله لا يؤثر فى صحة الصلاة فصلاته وإمامته صحيحتان ولو لم يميز الفرائض من السنن إذا كان يعتقد أن فى الصلاة فرائض وغير فرائض ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (صلوا كما رأيتمونى أصلى) فمتى كانت الصلاة مستوفية لجميع ما يعتبر فى صحتها شرعا فهى صحيحة والاقتداء أيضا صحيح نعم الفقيه أحق بالإمامة من الجاهل الذى تصح إمامته .

وعن الثالث . إمامة من يكرهه أهل بلده فيها تفصيل أيضا : فإن كانت الكراهة لأمر دينى فإمامته مكروهة حيث كرهه النفر اليسير الذين ليسوا من ذوى الفضل والعلم فإن كرهه أهل البلد كلهم أو أكثرهم أو كرهه أهل الفضل وإن قلوا حرمت إمامته لقوله صلى الله عليه وسلم : (لعن الله من أم قوما وهم له كارهون) .

بين الصحف والكتب

للأستاذ عبد الرحيم فودة

مكانة النبي

صلى الله عليه وسلم

---

١ — لا شك أن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - هم القمم العالية في المجتمع والمنائر الهادية أمام الناس، والمنابر الداعية إلى الحق والخير، وقد جعلهم الله في مقدمة الذين أنعم عليهم كما يفهم من قوله تعالى: «فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً» (١)، وكما يفهم من قوله سبحانه بعد أن ذكر زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم وإسماعيل وإدريس: «أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا» (٢)، ثم إن كلمة النبي في أصل وضعها تشير إلى شرف وضع الأنبياء فإن كانت من النبأ - وهو الخبر المفيد لما له شأن مهم - كان معنى النبي ... المنبيء عن الله أو المنبأ من الله وإن كانت من النبوة أو النباوة - وهي المكان العالي - كان معنى «النبي» الرفيع المكانة العظيم الشأن. ولا شك أن وضع النبي بين قومه كوضع الربوة العالية الحالية بالعشب والشجر والزهر والثمر فهم يتلقون من الله فيوض الوحي كما تتلقى الربوة فيوض الغيث فتهتز وتنبت وتزهر وتثمر.

٢ — والنبوة كما قيل: (هبة الله لا تنال بالكسب)، لكن حكمة الله وعدله قاضيان بأن تمنح للمستعد لها القادر على حملها: «والله أعلم حيث يجعل رسالته». ومحمد صلى الله عليه وسلم أعد لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه، أحمره وأسوده إنسه وجنه، وأعد لأن يحمل أكمل رسالة وأكمل دين، ولأن يختم به الأنبياء والرسل، وليكون شمس الهداية وحده إلى أن تنفطر السماء، وتنكدر النجوم، وتتبدل الأرض غير الأرض

(١) ٦٩ النساء. (٢) ٥٨ مريم.

والسموات »(١)، وتظهر عناية الله بإعداده وتربية استعداده لحمل رسالته العظمى فيما يفهم من قوله له: «ألم يجدك يتيما فآوى، ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى»(٢)، فإنه يفهم منه أنه سبحانه هو الذي آواه وهداه وأغناه كما يفهم من قوله له: «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما»(٣)، أنه كما قال فيه القائل:

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة
فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

٣ — أما مكانته صلى الله عليه وسلم بين الأنبياء فتبدو واضحة جلية فى قول الله فيهم وقوله فيه: «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً، يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا»(٤)، فإنه مع ما يفهم من قوله: «ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء»(٥)، وقوله فيه وفى أمته: وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون

(١) الشيخ المراغى فى مقدمة كتاب محمد.
(٢) ٦، ٧، ٨ الضحى.
(٣) ١١٣ النساء.
(٤) ٤١، ٤٢ النساء.
(٥) ٨٩ النحل.

الرسول عليكم شهيداً »(١) يدل على أن مكانته بين الأنبياء كما يقول فيه القائل:

كيف ترقى رقيك الأنبياء
يا سماء ما طاولتها سماء

فإن معنى قوله تعالى: «أمة وسطا»، أن أمته خير أمة، لأن خير الأمور الوسط، وذلك يفهم صراحة من قوله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس»(٢)، وقوله سبحانه: «هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل، وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس»، فإذا كان المسلمون شهداء للأنبياء على الناس، وكان صلى الله عليه وسلم شهيداً على هؤلاء. كانت منزلته بمثابة السماء التى لا تطاولها سماء، ولعل ذلك بعض ما يفهم من عهد الله إلى الأنبياء حيث يقول الله: «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين»(٣).

٤ — هذا إلى أن عموم رسالته للناس، وبقاء معجزته على الزمن وسعة الدين الذى بعث به لكل نواحى الحياة، واستجابته

(١) ١٤٣ البقرة.
(٢) ١١٠ آل عمران (٣) ٨١ آل عمران.

لكل حاجات البشر فى كل زمان ومكان ، مما يفسر به قول الله فيه « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» وقوله فيه « إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا »[1] وقد بشرت التوراة والأنجيل به وبالنور الذى أنزل معه كما يفهم من قول الله : « ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون »[2] .

٥ — بل أن المتأمل فى دعاء إبراهيم وابنه اسماعيل حين كان يرفعان قواعد البيت ويقولان ما يحكيه القرآن « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التوب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم »[3] ثم قول الله فيه « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة »[1] يشعر أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان استجابة الله لهذه الدعوة المباركة ، وأن مولده كان فجرا يرتقب الوجود ظهوره ونوره .

٦ — أما مكانته اللائقة به بين المؤمنين فلا يرقى إلى تصويرها غير قول الله فيه : النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وقوله تعالى « إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » ، وقوله سبحانه : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » وقوله جل شأنه « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعون يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » .

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم محمدا وآل محمد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت ورحمت وباركت على إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد ؟

عبد الرحيم فوده

من مجلة لواء الإسلام

(١) ٤٥ ، ٤٦ الأحزاب .

(٢) ١٥٧ الأعراف .

(٣) ١٢٨ ، ١٢٩ البقرة .

(١) ٢ الجمعة .

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الثالث ـ السنة السادسة والثلاثون ـ جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ هـ ـ أكتوبر ١٩٦٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المذاهب الأدبية المنحرفة

بقلم : أحمد حسن الزيات

ما دام المنطق قانونا للفكر، واللغة أداة للبيان، والوضوح طبيعة للأسلوب، والذوق حاكما على الفن، فإن الكاتب يكتب ليصيب والقارئ يقرأ ليفهم، والناقد يبحث ليجد، ولا يجرى الأمر على خلاف ذلك إلا إذا فسدت الطباع وانقلبت الأوضاع فيصبح المنطق خطلا وفهاهة، واللغة لغوا وثوثرة، والكتابة معاياة وشعوذة، والفن كله هيثا ومهزلة.

ولقد كان الأدباء: كتابهم وشعراؤهم على سواء الطريق حين كانوا يسيرون فى ضوء العقل، ويهتدون بأعلام الحق، فيجددون إذا اقتضت الحال التجديد، ويطورون إذا فرضت الطبيعة التطوير، ويدلون بركب الخليقة فى طريق الحياة المبهم إلى الغاية التى حددها الفن والأدب والعلم بالجمال والخير والحق.

كان الأدباء العالميون ينهجون هذا النهج القويم حتى أصاب العالم فى النصف الأول من هذا القرن حربان عامتان زلزلتا الأرض وبلبلتا الأنفس ودمرتا الحضارة وخلفتا الشك والتهمة فى القيم والمبادئ، وأشاعتا الخوف والقلق فى الفرد والجماعة، وكان من أثر ذلك فى الأدب أن ظهرت فئة من الكتاب ضلوا السبيل فأنكروا العقل وجافوا البيان وعارضوا الواقع وزعموا

أن الحياة المجردة سخف وعبث ، وأن القيم المقررة إفك وزور ، وأن محاولة فهم الحياة أو تفسيرها عناء وباطل ، فما عليهم إلا أن يعيشوها على علاتها ، ولا عليهم أن يعالجوها بإصلاح فاسدها وحل مشكلاتها . ثم جعلوا مسرحياتهم صورا لهذه الحياة التي تخيلوها ، فلا عقل يقيد ولا منطق يعصم ولا علم ينير ولا خلق يربط ولا دين يهدى ولا حق يقنع ولا شرف يراعى ولا غرض يرمى ، ولا أمل يحفز ولا مطمع ينال ولا لغة تعبر ، حطموا كل أولئك لحطموا معه الإنسان نفسه .

بدأ ذلك الانحراف بعد الحرب الأولى الفوضويون والداديون والسرياليون ، وتبعهم بعد الحرب الثانية اللامعقوليون ؛ فبلغ « بيكت » و « أونسكو » و « آدموف » بالعبث المسرحى الغاية التي يختلط عندها حوار الممثلين بهذيان المحموم وكلام النائم ، وإذا شئت مثلا على ذلك فاقرأ « لعبة النهاية » لصمويل بيكت ، و « الكراسى » لاوجين أونسكو ، و « ياطالع الشجرة » لتوفيق الحكيم .

نشأت المذاهب الأدبية القوية عند العرب والفرنج إما مرحلة لتطور مذهب تقدم به مبتدعوه ، وإما رد فعل لمذهب غلا فيه متبعوه ، فمذهب عبد الحميد بن يحيى كان الطور الأول للأسلوب العربى الضيق الموجز دعت إليه مقتضيات المجتمع الجـــديد من تشعب أطراف الدولة وبدو ثمار الحضارة ودنو العربية من الفارسية ، ومذهب ابن المقفع الذى ظهر فى فجر الحضارة العربية كان طوره الثانى دعا إليه اتساع الخلافة وتنوع الثقافة وشدة اختلاط العرب بالفرس .

ثم كان طوره الثالث مذهب الجاحظ الذى اقتضاه نقل العلوم الأجنبية وازدهار المدنية العباسية وانتشار المقالات الإسلامية وتعقد الحياة الاجتماعية واقتباس الآراء الفلسفية .

ثم أترف المسلمون وتقلبوا فى أعطاف النعمة وتأنقوا فى مظاهر العيش فظهر طوره الرابع فى مذهب ابن العميد المسجوع المنمق .

وإلى هنا كان التطور فى النثر الفنى تطورا طرديا يسير من الضيق إلى السعة ومن الجزالة إلى الرقة ومن الترسل المتوازن إلى الصنعة المطبوعة . فلما ضعفت الخلافة وصار الأمر إلى غير أهله جرت على الكتابة أعراض الفساد والوهن ، فكثر الزيف وانتشرت الصنعة وكان من ذلك مذهب القاضى الفاضل وهو الطور الخامس من أطوار الأسلوب العربى غلا فيه أصحابه حتى أفسدوا الفكرة وشوهوا الصورة ، ومن هنا كان رد الفعل بظهور مذهب ابن خلدون إذ رغب عن السجع وزهد فى البديع وسار باللفظ وراء المعنى ، ثم تطور هذا المذهب بتأثير الحضارة الأوربية ونقل الآداب الأجنبية إلى الأسلوب الذى يكتب به الكتاب الموهوبون اليوم .

* * *

كذلك كانت نشأة المذاهب الأدبية في أوربا ففي فرنسا مثلا كانت اللغة وآدابها خاضعة لسلطان الإغريقية واللاتينية على أثر انبعاث الروائع اليونانية والرومانية في إيطاليا ، فالألفاظ يكثر فيها العامى والدخيل ، والتراكيب يطغى عليها هوميروس أو فرجيل والنظم والنثر يجريان على المحاكاة الشكلية ، والموضوعات تؤخذ من الأساطير الوثنية ، فكان لا بد لهذه العبودية الأدبية من محرر يكفكف شرتها وينظم فوضاها ، فظهر المذهب الاتباعى في أوائل القرن السابع عشر وهو يقوم على تقليد اليونان والرومان تقليد التلميذ لمعلمه لا تقليد المصور لمثاله ، ثم طهروا اللغة من الدخيل والعامى ، ووسعوا دائرتها بالوضع والاشتقاق ، وجعلوا للعقل السلطان المطلق على الأدب ، فلا يكادون يلقون بالهم إلى الخيال والعاطفة ، ثم قيدوا الفنون الشعرية والقصصية بقيود من القواعد الصلبة وأخذوا أنفسهم بها حتى انفرجت الحال بينهم وبين العامة ، وانقطع السبب بينهم وبين الطبيعة ، وكان رد الفعل الطبيعي لذلك ظهور المذهب الابتداعي الذى عزف عن المحاكاة الأجنبية ، واستمد موضوعاته من أسرار المسيحية وعهود الفروسية ، وقدم الخيال على العقل والشعور على المنطق والفردية على الجمعية والذاتية على الموضوعية .

ثم أطلق الفن من القيود التى كبله بها الاتباعيون فأمعن الشعراء في الخيال وأوغل الكتاب في الحرية واتحد الفن بالطبيعة وهبط الفنان إلى الشعب حتى كان من أثر الاستخفاف بالقواعد والإسراف في معاداة الواقع والاتكاء على عمل المخيلة والالتجاء إلى أثر الحساسة أن قل الوضوح وأعوزت الدقة وأبعد الخيال وطغى الشعور ، ومن ثم كان للاتباعية رد فعل من جهتين : جهة الإفراط في الخيال نشأ عنه المذهب الواقعى وجهة الإفراط في الحس نشأ عنه المذهب البرناسى وهو رجعة إلى الاتباعية من بعض نواحيها ، ولكنه لا يعنى عنايتها بالخوالج النفسية ، ولا يصطبغ صبغتها بالألوان الأرستقراطية ، وإنما يلاحظ الطبيعة وينقلها نقلا موضوعيا محايداً أمينا لا يتدخل الفنان بشعوره الشخصى فيه ، ولا يحفل بإظهار السمات الجمالية به ، ولا يقصد إلى استنباط المغزى الخلقى منه . فهو بهذا الاعتبار مذهب علمى يعتمد على الحقائق والوثائق لا على الفروض والأخيلة .

وأما المذهب البرناسى فيبغض الشعر العاطفى ويحب الجمال المصنوع ، ويغنى الصورة على حساب الفكرة ، ويؤثر جانب الصنعة على جانب الطبيعة ، ويشتد في طلب القافية المحكمة والفقرة الموقعة والتعبير الفخم والتركيب الجزل والوصف النادر والوشى العجيب ، فشعره أشبه شىء بالتماثيل المنحوتة من جميل المرمر ، فيها الصقل والبروز وتبين الملامح وتعيين الحدود ولكن فيها كذلك الصلابة والجفاف والعى والبرود .

ومن إسراف البرناسيين في الوضوح والصراحة والتعيين والتبيين حدث رد الفعل الذي نشأ منه المذهب الرمزي وهو يدعو إلى التعبير بالإيماء والإيحاء والتكنية والهمس والميوعة ليدع للقارئ نصيبا إيجابيا في تكميل الصورة وتوسيع الفكرة وتقوية العاطفة بما يضيفه إلى المعاني من توليد فكره وتحديد شعوره. قال الشاعر « مالرميه » زعيم الرمزية الثاني : « إن البرناسيين يتناولون الشيء كله ويظهرونه كله فيفقدون بذلك سحر الخفاء ويسلبون الذهن نشوة الطرب التي ينشئها فيه اعتقاده بأنه يخلق . إن الشاعر إذا سمى الشيء باسمه فقد أفقد القصيدة ثلاثة أرباع المتعة ، وما هذه المتعة إلا أثر السعادة التي يشعر بها القارئ وهو يضرب رويدا رويدا في أودية الحدس ، وذلك هو الحلم » ؛ فالشعر الرمزي ينكر الواضح وينفر من المحدد ويطلب المتخيل ويبحث عن المشقة ويحملك على أن تحلم لا على أن تفكر ، فالألفاظ عند الرمزية لم تعد تدل على الأفكار أو الصور التي وضعت لها وإنما تدل كما تدل الرموز على مناسبات بعيدة ومشابهات مبهمة .

وقد وقع الرمزيون فيما وقع فيه البرناسيون فأخذوا من الموسيقى الغموض والاختلاط ، كما أخذ أولئك من النحت الوضوح والتحديد .

٭ ٭ ٭

فأنت ترى أن المذاهب الأدبية الأوربية كانت سلسلة متصلة الحلقات من ردود الفعل ، كما رأيت أن المذاهب الأدبية العربية نشأ أكثرها من أثر التطور وأقلها من رد الفعل . ولذلك لا نجد في منطق الأشياء ولا في واقع الأمر ما يسوغ لأحد أن يسمى هذا الانحراف الذي أصاب الأدب في الغرب والشرق مذهبا جديدا من مذاهب الكتابة ، لأنه لا يكون كذلك إلا إذا كان نتيجة لتطور أو أثراً لرد فعل ؛ ومن المحال أن تكون السريالية أو اللامعقولية وأمثالها من أعداء العقل واحداً من هذين ؛ لأن التطور يقتضى أن يكون هناك تخلف وهذه استعجاله ، أو نقص وهذه استكماله ، ورد الفعل يستلزم أن يكون هناك جور وهذه قصده ، أو فساد وهذه صلاحه ؛ وهذا لا نسلم به إلا إذا سلموا أن العلة خير من الصحة ، والخطل أولى من المنطق ، والسلب أجدى من الإيجاب ، والهدم أنفع من البناء والعدم أصلح من الوجود ، والقبح أحسن من الجمال ، والعجمة أفصح من البيان ، والعامية أبلغ من الفصحى ، والثرثرة أفضل من الفن ، وهم لن يسلموا ببعض ذلك إلا إذا سلبوا ملكة التمييز وحرموا نعمة العقل . فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

أحمد حسن الزيات

التطورات التشريعية للطلاق

للأستاذ محمد محمد المدنى

— ٤ —

موضوع هذه المسألة قول القائل لزوجته : أنت طالق ثلاثا ، وفى حكمه أيضاً من قال لها : أنت طالق اثنتين أو أربعاً أو أكثر ، ولذلك يعبر عنه بعضهم بقوله : « الطلاق المقترن بعدد » .

وقد اختلف العلماء فيه من قديم :

١ — فنهم من يقول : لا يقع به شيئاً أصلا [١] ، وذلك تمشياً مع القاعدة التى تقرر أن كل طلاق خالف ما رسمه الشارع لا ينعقد ولا يقع به شىء ، وهذا قد خالف قوله تعالى : « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » ، كما أنه ينطبق عليه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » .

٢ — ومنهم من يقول : « لا يقع به إلا واحدة رجعية » [٢] ، واستدلوا بقوله تعالى : « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون . فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » .

(الآيتان ٢٢٩ ، ٢٣٠ من سورة البقرة)

قالوا : دلت الآية على أن الطلاق المشروع بعد الدخول نوعان :

١ — الطلاق الذى لا يملك الرجل فيه الرجعة ، وهو ما دل عليه قوله تعالى : « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » .

٢ — والطلاق الذى يملك الرجل فيه حق الرجعة ، وهو ما سبق هذه الطلقة ، وقد شرعه الله مرتين ، ولا يفهم العرب من كلمة (مرتين) ونحوها إلا الحصول متعاقباً دفعة بعد دفعة [١] .

وقال ابن القيم بعد أن ذكر أن الله تعالى جعل الطلاق مرة بعد مرة :

---

(١) ذهب إلى ذلك بعض الإماميه ، وحكى عن بعض التابعين وعن ابن عليه ، وهشام بن الحكم ، وبه قال أبو عبيدة ، وبعض أهل الظاهر .

(٢) ذهب إلى ذلك الزيدية من الشيعة ، وابن تيمية وتلميذه ابن القيم من الحنابلة وغيرهم من فقهاء المذاهب والصحابة والتابعين — انظر كتاب مقارنة المذاهب للأستاذين الشيخ محمود شلتوت ، والشيخ محمد السايس ص ١٠٦ .

(١) ص ١١١ من مقارنة المذاهب للأستاذين: شلتوت والسايس

« وما كان مرة بعد مرة لم يملك المكلف إيقاع مراته جملة واحدة كاللعان [1] ، فإنه لو قال : أشهد بالله أربع شهادات أنى لمن الصادقين ، كان مرة واحدة ، ولو حلف فى القسامة [2] وقال : أقسم بالله خمسين يمينا أن هذا قاتله كان ذلك يمينا واحدة ، ولو قال المقر بالزنا : أنا أقر أربع مرات أنى زنيت ، كان مرة واحدة ، فن يعتبر الأربع لا يجعل ذلك إلا إقراراً واحداً ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر . فلو قال : سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يحصل له هذا الثواب حتى يقولها مرة بعد مرة ، وكذلك قوله : من سبح الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، وحمده ثلاثا وثلاثين ، وكبره ثلاثا وثلاثين » ، الحديث لا يكون عاملا به حتى يقول : « ذلك مرة بعد مرة ، لا يجمع الكل بلفظ واحد ... » [3] .

(١) هو ما يحدث حين يتهم الزوج زوجته بالزنا وليس له بينة على دعواه ، ولا تصدقه الزوجة باعترافها على نفسها ، وهو المقرر بقوله تعالى : « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين » الآيات ٦ – ٩ سورة النور .

(٢) هى الأيمان التى تتوجه على المتهم بالقتل فى حالات خاصة مذكورة فى الفقه .

(٣) أعلام الموقعين لابن القيم ص ٢٧ ج ٣ .

وقد كرر ابن القيم هذا المعنى فى كتبه الأخرى مستدلا به على أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع به إلا واحدة [1] .

واستدلوا أيضاً بما رواه طاوس عن ابن عباس قال : « كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر : طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر بن الخطاب : إن الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم فأمضاه عليهم .

قالوا : « إن عمر رضى الله عنه فعل ذلك اجتهاداً منه وقد وافقه عليه كثير من الصحابة منهم ابن عباس – على رواية – وسبب هذا هو ما وجدهم عليه من مخالفة الكتاب ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يغضب لهذه المخالفة ويقول : « أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم » ، فحرم عليهم الرجعة إلا بعد زوج آخر ، والرجعة مباح من المباحات ، وليست بواجبة ، فهو لم ينه الناس عن واجب ، وإنما نهاهم عن مباح للمصلحة ، وهى ردهم إلى ما كان عليه الناس زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم – أى ألزمهم بالثلاث حتى يردهم إلى ما كان عليه الناس فى عهد رسول الله

(١) انظر (زاد المعاد – لابن القيم ص ٥٥ ج ٤) و (إغاثة اللهفان) له أيضا ص ١٥٨ .

صلى الله عليه وسلم من تحاشى الإقدام على هذه الصيغة غالباً (١) .

وهناك أدلة أخرى استدل بها أصحاب هذا الرأى واسنا بصدد الاستقصاء .

٣ — وجمهور الفقهاء يقول بوقوع الطلاق ثلاثا فى لفظ واحد ثلاث طلقات ، فتبين الزوجة به بينونة كبرى ، ولا يحل لها أن تعود إلى زوجها إلا بعد أن تنكح زوجا غيره .

وعلى هذا الرأى أئمة المذاهب الأربعة المشهورة وغيرهم فى مختلف العصور ولهم أدلتهم على مارأوه :

ومنها من القرآن أن آيات الطلاق وردت مطلقة لم تفرق بين الواحدة وغيرها ، وأن غاية ما تدل عليه آية « الطلاق مرتان » أن الطلاق الذى يكون الرجل فيه أحق برد زوجته ما كان مرتين ، فإن طلقها الثالثة فليس أحق بها ، وهذا لا يقتضى أن الطلاق الثلاث بكلمة واحدة لا يقع أصلا أو يقع به واحدة ، وإنما يرجع فى ذلك إلى السنة .

وتكلموا فى حديث ابن عباس :

واستدلوا بعدة أحاديث منها حديث فاطمة بنت قيس « طلقنى زوجى ثلاثا ، فلم يجعل لى رسول الله سكنى ولا نفقة » .

قالوا : فلو أنه لم يقع أصلا ، أو وقع واحدة رجعية لما حرمها السكنى والنفقة ، الى غير ذلك .

وقد جرت بين الفريقين مناقشات كثيرة ، ومن أشهر الكتب التى عنيت بذكرها وتفصيلها كتب ابن القيم : (أعلام الموقعين) و (زاد المعاد) و (إغاثة اللهفان) وإلى هذه الكتب غالبا يرجع كل من كتب فى هذا الموضوع ممن ألفوا حديثا .

وقد استعان بها واضعوا « القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ » بتعديل بعض أحكام الأحوال الشخصية فى مصر ، والقوانين المماثلة التى شرعت فى البلاد العربية الأخرى .

ما أخذت به القوانين الحديثة للأحوال الشخصية فى مصر وغيرها من البلاد العربية فى طلاق الثلاث :

كانت المحاكم الشرعية بمقتضى القوانين السابقة على القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ المشار إليه ، تحكم فى مسألة الطلاق الثلاث فى لفظ واحد ، بمذهب الجمهور ، أى بإيقاعه ثلاثا ، وكذلك فيمن قيد الطلاق باثنتين فإنها تحكم فيه بوقوع اثنتين .

وذلك أن القضاء كان يجرى على الراجح من مذهب الحنفية إلا فيما نص فيه بمقتضى القوانين على غير ذلك .

ثم إنه صدرت قبل قانون سنة ١٩٢٩

(١) ص ٨٣ من « بحوث فى التشريع الإسلامى وأسانيد قانون الزواج والطلاق » للمغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى .

قوانين تشتمل على أحكام كثيرة عدل فيها عن مذهب أبي حنيفة ، مثل قانون (يوليو سنة ١٩٢٠) الذى أخذ كثيرا من مذهب مالك ، وقانون ١٩٢٣ الذى حدد سن الزواج بثمانى عشرة سنة ، بالنسبة للزوج وست عشرة سنة بالنسبة للزوجة ،وقد أخذ فيه برأى ابن شبرمة ،وعثمان البتى وأبى بكر الأصم من غير فقهاء المذاهب الأربعة .

ولكن موضوعات الطلاق ظلت فى هذه القوانين خاضعة لأحكام الفقه السائد على مذاهب الجمهور ، ثم جاء القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ فأخذ فى الطلاق الثلاث برأى الشيعة الإمامية وابن تيمية وابن القيم ولم ير الإبقاء على ما حكمت به المذاهب الأربعة فى هذا الشأن .

وفى ذلك يقول المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى :

« لقد كثرت المفاسد فى هذا الزمان من القول بوقوع الثلاث بكلمة واحدة ، فمن الناس من يلجأ إلى القول بفساد العقد (أى فيتحايل لمن ينطق بالطلاق ثلاثا بكلمة واحدة ، حتى لا يفارق زوجته وأولاده ، بأن ينظر إلى العقد الذى تم بين الزوجين فلعله يرى أنه لم يكن عقدا صحيحا ، وبذلك يقول : إن الزواج الذى وقع بين هذا الرجل وهذه المرأة لم يقع صحيحا ، وإنما وقع فاسدا لتخلف شرط من شروط العقد ، وإذن فالطلاق الثلاث الذى نطق به هذا الزوج قد ورد على نكاح فاسد ، فلا عبرة به، وهذه حيلة للتخلص من إيقاع الثلاث والتفريق بين الزوجين) ـ ومنهم من يلجأ إلى «المحلل» وهما أمران أحلاهما مر ، ومفاسد التحليل لا تخفى على أحد ، وقد كتب فيها ابن القيم وشيخه فصولا طوالا ، فإذا رد الناس إلى ما كان عليه الأمر زمن النبي صلى الله عليه وسلم كما يفيد حديث ابن عباس تزول هذه المفاسد أو تقل ، وقد راعت الشريعة الإسلامية منتهى الحكمة فى جعل الطلاق على ثلاث دفعات ، وذلك ليجرب الرجل نفسه بعد المرة الأولى والثانية ، ويروضها على احتمال الصبر والأذى ، حتى إذا لم تفده التجارب ووقعت الثالثة علم أنه ليس فى البقاء خير ، وأن الانفصال البات بينهما أحق وأولى ، والقول بوقوع الثلاث دفعة واحدة مبطل لهذه الحكمة . »[1]

* * *

ولهذا جاء فى المادة الثالثة من القانون المصرى رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ ، ما يأتى :

(الطلاق المقترن بعدد لفظا أو إشارة لا يقع إلا واحدة) .

---

(١) المصدر السابق ص ٨٣ .

وجاء فى مدونة الأحوال الشخصية المراكشية ما يأتى :

(الطلاق المقترن بعدد لفظاً أو إشارة أو كتابة لا يقع إلا واحداً) .

وجاء فى المادة الثانية والسبعين من قانون حقوق العائلة الأردنى ما يأتى :

(الطلاق المقترن بعدد لفظاً أو إشارة لا يقع إلا واحدة) .

وجاء فى الفقرة رقم (١) من المادة السابعة والثلاثين من القانون العراقى للأحوال الشخصية رقم ١٨٨ لسنة ١٩٥٩ مثل هذا النص أيضاً .

وكذلك الأمر فى قانون الأحوال الشخصية السورى .

* * *

وبذلك نرى أن القانون المصرى حسم الخلاف فى هذا الأمر ، منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وأن أكثر البلاد العربية قد أخذت بما أخذ القانون المصرى فى ذلك ، بل ذكر الأستاذ علاء الدين خروفة قاضى مدينة البصرة فى كتابه (شرح قانون الأحوال الشخصية العراقى) : أن كافة القوانين العربية قد أخذت بما أخذ به القانون المصرى ، ولم يخالف منها أحد (انظر ص ٤٥٥ من الجزء الأول من الكتاب المشار إليه) .

* * *

ويرى بعض العلماء المعاصرين أن هذه المادة وإن كانت فتحاً جديداً ، وقد رفعت عن الناس كابوس الطلاق الثلاث ، لكنها لم تمنع حيل المحتالين المتحايلين من المأذونين فى إثبات الطلاق الثلاث بالإشهادات التى يكتبونها ، فيتحيل المأذون بأن يكتب على لسان المطلق أنه اعترف بأن هذا الطلاق مسبوق بطلقتين قبله ، ثم يكتب وبذلك بانت منه بينونة كبرى ، لأن بعض المأذونين لا يقتنع بصحة هذه المادة من القانون ، ويعتقد أن الطلاق وقع ثلاثا باللفظ الواحد ويتدين بوجوب التحيل لإثباته ، ويقدم بذلك على جريمة التزوير ، ثقة منه بأن إثباتها عليه غير يسير[١] .

ويقترح لإصلاح ذلك أن ينص على ما يأتى :

(المعتدة لا يلحقها الطلاق) .

(وذلك لأن الأدلة الشرعية قائمة على بطلان الطلقتين التاليتين للطلقة الأولى فى العدة) .

محمد محمد المدنى

---

(١) راجع ص ١١٤ وما بعدها من كتاب (نظام الطلاق فى الإسلام المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر)

حول أزمة الإيمان

للأستاذ محمد الغزالي

معرفة الله والخضوع له، والإعداد للقائه والرهب من عقابه، هي لباب الدين وروح شرائعه.

نعم؛ في تعاليم الدين نظم خلقية واجتماعية كثيرة، تتناول الحياة الخاصة والعامة من القاع إلى القمة.

لكن هذه التعاليم كلها بناء دعامته العقيدة. أو هي أعمال غايتها وجه الله؛ فإذا انهارت الدعامة، أو اختفت الغاية فقدت هذه النظم الخلقية والاجتماعية طابعها المميز، وقيمتها النفسية وصارت شيئاً آخر له قيمة أخرى. كما تفقد الأوراق المالية قيمتها إذا فقدت رصيدها الذهبي.

الدين قبل كل شيء: «شعور بوجود الله. واعتراف بحقه في حكم عباده، ووضع المبادئ التي ينطلقون منها، والحدود التي ينتهون إليها».

ومقتضى هذا الشعور الباطن، والاعتراف الظاهر، أن نفعل ما يوصينا الله به، لا على أنه خير فقط، بل على أنه «انقياد لله وقيام بحقه ... إلى جانب ما فيه من خير ذاتي» ...

إن الوجودي قد يرى الصدق فضيلة في المعاملات التجارية وغيرها ...

ولكنه لايعبد الله حين يصدق مع غيره؛ فهو لا يعرف الله، ولا يؤمل فيما عنده !!.

أما المؤمن، فالصدق عنده طاعة لله الذي قال: «يأيها الذين آمنوا اتقوا الله، وكونوا مع الصادقين».

فهو يصدق أولا إيماناً بالله، ثم هو يرتفع بإيمانه هذا إلى فضيلة الصدق ...

إن الأعمال الصالحة كلها، نفسية كانت أو اجتماعية عند ما تكون جزءاً من تعاليم الدين، أو جزءاً من سلوك المؤمنين، تأخذ طريقها في الحياة مقترنة بهذا اليقين السماوي، أو مصطبغة بهذه الصبغة الإلهية، فيكون الإيمان بالله هو الباعث على العمل، وتكون تقواه جل شأنه إحساساً دائماً مصاحبا.

ونحن بهذا الكلام نلفت الأنظار إلى خطورة ما شاع من مسالك بشرية مجردة تجعل الناس يتواضعون على أعراف وتقاليد قد تكون حسنة أو لا تكون، ثم يرون في الوفاء لهذه الأعراف والتقاليد الخير والفضيلة.

مع أن صلتها بالإيمان مقطوعة، بل ربما لم يفكر صاحبها في الله لحظة ...

وهذا الفريق من الناس قسم الدين قسمين: فما كان من عقائد وعبادات طرحه جانباً أو ازورعنه.

وما كان من معاملات ونظم احتفى به وروجه وأكثر من الحديث عن قيمته !!

وقد علمت أن أى عمل أمر الله به ، فإنما الجدوى من فعله ابتداء طاعة الله والقيام بحقه. أما إتيانه دون نظر إلى وجه الله فلا قيمة له، وإن صلحت به إلى حين بعض شئون الدنيا.

إن الإيمان بالله ليس نافلة قط فى المجتمع المؤمن . إن تسبيحه وتحميده جل جلاله ، يجب أن يكونا شغلا للناس ، وشارة لحياتهم بالغدو والآصال .

وقد يضحك البعض من الحديث عن الآخرة ، والجنة والنار ، ويظن ذلك كلاماً فات أوانه ، أو كلاماً يتهامس به بعض الوعاظ فى مواكب الموت .

والحق أن الدين يذوب ويتلاشى يوم يكون الحديث عن الآخرة بحوثا أو لغواً

إن قوافل الأحياء يجب أن تعى بلباقة وجد ، أن عقيدة الجزاء الأخير ليست هزلا ، وأن البعد بنشاط الحياة عن الإيمان بالله واليوم الآخر ، بعد عن الصراط المستقيم . وجرى وراء سراب خداع ...

ونحن المسلمين ، يجب أن نشوب نشاطنا كله بمعالم هذا الإيمان الحق ، وألا تجرفنا تيارات الحضارة المادية التى تسود الشرق والغرب ، تلك الحضارة التى ذهلت عن الله، وتجاهلت وحيه ، وآثرت أن تحيا وفق هواها ، وأن نأخذ من دينه ما لا يصادم هذه الأهواء ... ثم تطرح جانباً أم شعب الإيمان .

* * *

المعروف فى دراستنا النظرية أن الدين عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات ، وأن الصلة بالله هى القائد الأول لبقية الشرائع ، وأن صحة هذه الصلة ضمان للنجاة وإن قلت حظوظ المرء من بقية التكاليف الشرعية ...

ونريد أن نتوقف قليلا لنناقش هذا التفكير ، فلا نجور على أصل الإيمان ، ولا نجور على مجموعة الأعمال المرتبطة به ، والناشئة عنه .

من حق علمائنا الأقدمين أن يهدروا كل خير يصنعه الكافر ، وأن ينوهوا بثقل كلمة التوحيد فى ميزان الصالحات .

إن وجهة نظرهم واضحة فإن الذى يرتكب فى عصرنا جريمة الخيانة العظمى ، تعصف جريمته بكل خير فعله من قبل .

ويوم يقال : فلان خان وطنه وباعه للأعداء فلن ترى إلا الازدراء والمقت والإجماع على استحقاق أقسى العقاب .

ولو قيل : إن هذا الشقى كان براً بأمه ، أو كريما مع خدمه ، أو لطيفا مع أصدقائه ؛ فإن هذه الخصال جميعا تطوى فى صمت ، وتزم دونها الشفاه !! ولا تغنى عن حكم الموت المادى والأدبى الذى يستحقه هذا الخائن .

والواقع أن سلفنا نظروا إلى الكافر بالله نظرة العصر الحاضر إلى الخائن لأمته ، ورفضوا الاعتراف أى خير يفعله ، أو الإقرار بأى ميزة له .

والكافر ـ فى نظرنا ـ أهل لهذا الهوان .

والجاحد لوجود الله ، الخائن لنعمته ، المنكر لقائه ، يرتكب بهذه الخلال أشنع جرائم الخيانة العظمى ، وليس له ما يدفع عنه ، مهما صنع : « ومن يهن الله فماله من مكرم » .

إلا أن هذه الحقيقة تولد عنها خطأ شائع ، ألحق بالإيمان وأهله ضرراً بليغا .

فقد فهم العامة أن حسن الصلة بالله — وهو فضيلة بيقين — قد يجبر النقص فى بقية الواجبات المفروضة .

ثم تدرج هذا الفهم إلى أن هذه الواجبات يمكن أن تتلاشى ويبقى الإيمان المجرد عنها .

وانضم إلى هذا الوضع أن الذين انحرفوا عن الإيمان الحق ، ونسوا الله ، أتقنوا طائفة من الأعمال الإنسانية ، والفنون الحيوية وسبقوا بها سبقا بعيدا .

وعندما قام فى العالم هذا التناقض ، اهتزت قضايا الدين ، وتخاذلت صفوف المؤمنين وتجمعت فى أرجاء الدنيا فتن عاصفة .

والأمر بحاجة إلى أولى الألباب يتداركونه بصدق الفهم ، ولطف العلاج .

وعلينا معشر المؤمنين أن نصلح شأننا قبل أن نطالب غيرنا بتغيير نفسه وفكره إن الإيمان أعظم الفضائل فى هذا الوجود ، وهو عنصر غال ، ما دخل فى شىء إلا زانه ، ولا نزع من شىء إلا شانه ...

بيد أن الإيمان الذى يستحق هذه النعوت له نواحى عديدة ، فهو صلة بالله قائمة على الخشوع والإخبات ، وهو صلة بالنفس قائمة على التأديب والضبط ، وهو صلة بالمجتمع قائمة على العدل والرحمة ـ وهو صلة بالكون قائمة على السيادة والارتفاق .

ذلكم هو الإيمان الجدير بالإعظام وحسن المآب وهو إيمان غلاب منتصر لا يثبت الإلحاد أمامه فى معركة ولا يقاس به فى مفاضلة .

إنما يزرى بالإيمان أن يكون علاقة مفتعلة برب العالمين لا تبعث على كمال ولا تصون من نقص تدارى هوانها بصور العبادات المفروضة ، ولا تحقق فى صاحبها ولا فيما حوله خلقا عظيما ، أو سلوكا ناضراً .

ومثل هذا الإيمان الصورى ـ وما أشيعه بين الناس ـ لا يرفع رأساً ولا يكسب نصراً .

وهل انتفخ الإلحاد ، وتحركت وساوسه إلا فى ميدان لقى فيه هذا الإيمان الزائف ؟

وهل رفع رايته وفرض شارته إلا بين مؤمنين من هذا الطراز المهين .. ؟

إننا نرفض رفضا باتا أن تعيش الخليقة بغير دين يصلح بالها ، ويزكى أحــوالها ؛ ونرفض كذلك أن تعيش الخليقة بدين تأوى إليه الخرافة وتنهزم فيه الخصائص الإنسانية العليا ، وتتأخر فى ظله الحياة الدنيا ، وتذبل ملكات الابتكار والإبداع والتجمل !.

إن المعنيين بالتربية الدينية قد يسيئون إلى الإيمان حين يتصورونه منديلا يمسح فيه الخطاءون عيوبهم ، فهم يعثرون والإيمان يغفر ، ويكسرون والإيمان يجبر .

وكثير من أتباع الأديان السماوية ظنوا التمسك بأصل الدين كافيا فى النجاة مهما صنعوا.

وقالوا : « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، تلك أمانيهم ... » .

وقد فند القرآن الكريم هذه المزاعم ، ورسم طريق النجاة الحقيقى ، وهو مزيج من الإيمان الحى ، والإحسان فى العمل والإخلاص لله . « قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى ، من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وبعض الوعاظ القصار النظر قد يقمون على آثار دينية محدودة المعنى والمجال ، فيسيئون فهمها وتطبيقها ، ويتجاهلون بها جملة الكتاب والسنة ، بل طبيعة الإيمان نفسه .

تلك الطبيعة التى تخلق من الموات حياة ومن الفوضى نظاما .

خذ مثلا ، حديث البطاقة الذى رواه الترمذى عن عبد الله بن عمرو من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله تعالى سيخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعون سجلا ، كل سجل مثل مد البصر . ثم يقول : أتنكر من هـــذا شيئا ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يارب) .

فيقول تعالى : بلى ؛ إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقول : يارب ، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ! فقال : فإنك لا تظلم .

فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله شىء) ...

هذا حديث مثير الدلالة ، وهو لو أخذ على ظاهره يضع عن الناس شتى التكاليف الإلهية ويبطل قوله تعالى : « إن الله لا يصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته ، ولو كره المجرمون » .

وعندى أن هذا الحديث ـ إن استقام سنده ـ إنما يصح فى شخص مشرك ، قضى حياته فى الفساد ، ثم آمن قبل أن يحين أجله بقليل ، فلم يستطع بعد إسلامه أن يبقى مدة يصلح فيها ما مضى ، والحديث بهذا ينوه بما للخاتمة الإيمان من قيمة ، وما للتوحيد الله من منزلة .

أما إطلاق هذا الحديث وأشباهه بين العوام أو بين الناشئة دون وعى فهو هدم للدين كله ، وهو الأساس لتكوين طوائف من المتدينين ، تحط من قدر الإيمان وأثره . .

إن العالم اليوم فقير إلى الإيمان الذى يصله بربه صلة وفاء وبر ، ويربطه بالحياة رباط إنتاج وجد ، وإلا فالمستقبل حافل بالنذر .

محمد الغزالى

من روافد الثقافة الإسلامية :

رسالة الأصول للإمام الشافعيّ رضي الله عنه

للأستاذ الفاضل بن عاشور

— ٤ —

كانوا قبل الإمام الشافعي يتكلمون في مسالك أصول الفقه ، ويستدلون ويعترضون ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة ، وفي كيفية معارضاتها وترجيحاتها فاستنبط الشافعي علم أصول الفقه ووضع للخلق قانونا كليا ، يرجع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع ، فثبت أن نسبة الشافعي ، إلى علم الشرع ، كنسبة أرسطاطاليس ، إلى علم العقل » .

بهذا الوصف الدقيق الضابط كشف الإمام فخر الدين الرازي في كتابه مناقب الشافعي عن ماهية العمل الذي قام به الإمام محمد ابن إدريس في وضع علم أصول الفقه . فلم يكن الشافعي في رسالته معلما الفقهاء قواعد الاجتهاد ولا موجههم إلى مسالك الاستدلال ولكنه وجدهم يتفقهون ، ويجتهدون ويستدلون ، فتتبع عملهم ، واستقرأ مناحي نظارهم ومسالك اجتهادهم ، ونظر بين بعض تلك المناحي والمسالك وبعض ، حتى خلصت له من الاستقراء والتنظير ، نتائج علمية موضوعية صورت له ، في وضوح معنى عمل المجتهد ، في استنباط الحكم من دليله ، فتوصل بذلك التصور الواضح الذي حصل له من الاستقراء والتنظير أن يتبين صور الأدلة وأصنافها ومراتبها ، وأن يتعرف إلى اختلاف طرق سلوك الفقهاء للاستدلال بسبب اختلاف مراتب الأدلة وأصنافها ، ثم بحسب اختلاف مذاهب المجتهدين ، وهذا الوصف الموضوعي هو الذي كان نتيجة المراس القوي للشافعي ، بالمذاهب المختلفة والبيئات الفقهية العديدة ، وهو العمل الذي ما كان ليصدر عن غير الشافعي في عميق دراسته للمذاهب ، وشديد اتصاله بأئمتها السابقين والتالين ، وبذلك كانت رسالته في أصول الفقه وضعا لعلم أصول الفقه ؛ لأنه وجد عملا في الاستدلال والاستنباط ، يأخذ به الفقهاء ومنهجا يسيرون عليه بدون أن يبحثوا عن ماهيته ، ولا أن يضبطوا اختلاف عوارضه ، وتعدد صوره وأصنافه فجاء هو يبحث عن ماهية العمل ويضبط اختلاف صوره ، وتعدد أصنافه وتفاوت مراتبه فكان بذلك واضع علم جديد ، لا مكونا للواقع الذي يتعلق ذلك العلم بوصف جواهره وأعراضه ، فكما أن واضع النحو لم يعلم أهل اللغة كيف يركبون كلامهم ، ولكنه وصف ذلك الكيف ، وعدد أعراضه

وضبط صوره ، وأن واضع علم الاجتماع لم يكون فى البشر روح المدنية الذى به يترابطون ، ولكنه كشف بالتعبير عن حقيقته ، ما كان الناس يعيشون به ولا يجدون للتعبير عن وصفه طريقا ، وكذلك واضع كل علم ، ليس إلا واصفا لواقع ، ومسجلا لظواهر ومعمما بالحكم الكلى ، صور الجزئيات الداخلة تحت الاستقراء. حتى قيل فى شأن واضع علم العروض قد كان شعر الورى صحيحا من قبل أن يخلق الخليل ، وكذلك كان الفقهاء قبل الشافعى فى أمصار الإسلام ، يسير كل منهم على طريقة فى الاجتهاد تتفق مع الطريقة التى يسير عليها غيره فى أشياء ، وتختلف فى أشياء أخرى ، وكانت الأحكام الفقهية الناشئة عن تلك الطرائق تتفق وتختلف وتتقارب وتتباعد ، والفقهاء يدركون ما بين الأحكام التى تقررت باجتهاد هذا ، والتى تقررت باجتهاد ذاك ، ويشعرون بأن مرجع ذلك الاختلاف إلى اختلاف فى الطرائق ، فكان أهل الأثر يشعرون بما بينهم وبين أهل الرأى من اختلاف منهجى ، وأهل الحجاز يشعرون بما بينهم وبين أهل العراق من اختلاف ليس حاصلا فى الأحكام الفرعية فحسب ، ولكنه راجع إلى اختلافهم فى ما تتفرع عنه تلك الأحكام فى أصول إجمالية

فلقد كانوا يعرفون الأفراد من الفقهاء خصوصياتهم فى المناهج الاجتهادية ، ويعرفونهم بها ، حتى لقب ربيعة ابن أبى عبد الرحمن فقيه المدينة ربيعة الرأى ، وكانوا يعلمون حتى العلم أن ما يقوم دليلا عند واحد من المجتهدين على إثبات حكم شرعى ، لا يقوم دليلا عند غيره ، حتى تناظروا فى حجية أنواع من الأدلة ، كما تناظر مالك والليث بن سعد فى حجية عمل أهل المدينة على ما يرى مالك ، وعدم حجيته على ما يرى الليث بن سعد ، فى الرسالتين اللتين دارتا بينهما وأثبت نصهما العلامة ابن القيم فى كتاب أعلام الموقعين .

وأمام هذا العمل العميق الغور ، البعيد المدى ، الذى يضطلع به الفقهاء ، كانت طائفة من أهل الأثر الذين عرفوا بالعلم ولم يعرفوا بالفقه تقف حائرة مبهوتة من سبب اختلاف هؤلاء الفقهاء ودرجة تصرفهم فى ما يستخرجون وما لا يستخرجون من الأدلة وما يقبلون وما يردون من الأخبار ، وكان الشافعى قد نشأ بين هؤلاء العلماء ، ثم فارقهم فاتصل برجال الفقه ومارس أساليبهم وتخرج باجتهاداتهم وتميز بالفقه بعد أن تميز قبل بالأثر . فكان من الضرورى أن هذه الطائفة من أهل العلم والحفاظ التى كانت مستشرفة إلى ما يفعل هؤلاء الفقهاء ، حريصة على فهم

ما يتصرفون به فى الأحكام وأدلتها ، تجد فى وبيها الذى انتقل من حجر العلم إلى حجر الفقه ، مرجعا تستكشف دخيلة هذا العمل الذى يستغرق فيه الفقهاء ويسمونه «اجتهادا».

وعلى ذلك نجد أن علماً من أعلام رجال الحديث ، وحافظا من مشاهير الحفاظ ، هو عبد الرحمن بن مهدى ، اتجه إلى الشافعى بعد أن اتصل الشافعى بالمذهبين الحجازى والعراقى وخبرهما ، فكتب إليه من بغداد، وكان الشافعى فى مكة ، على ما يظهر فى عودته إليها قبل سفره عنها إلى مصر ، يرجوه أن يضع له كتابا فى معانى القرآن وقبول الأخبار وحجة الإجماع والناسخ والمنسوخ ، فأجابه الشافعى بكتاب يتضمن ما يريد ، وجهه إليه من مكة إلى العراق ، ولذلك سمى هذا الكتاب «رسالة» لأنه صنف جوابا ، عن سؤال ورد بالمراسلة ، وصدر عن مكان إلى مكان موجها ومرسلا به .

ومن هنا يدرك الناظر فى رسالة الشافعى وجه ما ابتدأها به من التنويه بشأن رجوع الأحكام الشرعية كلها إلى كتاب الله ، وأن الانتهاء إلى ما هو راجع إليه مما يظن أنه غير راجع إليه على حسب تفاوت طبقات الناس فى العلم به ، والغوص على معانيه ، إذ يقول : «فليست تنزل بأحد من أهل دين الله، نازلة إلا وفى كتاب الله الدليل على سبل الهدى فيها» . ويقول : «وكل ما أنزل الله فى كتابه جل ثناؤه ، رحمة وحجة ، علمه من علمه وجهله من جهله ، لا يعلم من جهله ولا يجهل من علمه ، والناس فى العلم طبقات موقعهم من العلم بقدر درجاتهم فى العلم به» .

ومن هنالك ابتدأ يقسم أصناف معانى البيان للأحكام فى القرآن العظيم بما يرجع إلى ما هو مسمى الآن عند علماء الأصول بأقسام الدلالة ، ثم أفاض فى الكلام على نسبة الأدلة بعضها من بعض بين القرآن والسنة بما يرجع إلى المجمل والمبين ، والناسخ والمنسوخ ، سالكا فى ذلك مسلك العرض التحليلى والوصف الموضوعى ، متنكبا طريق النقاش والجدال .

أقبل الشافعى ، فى رسالته إلى عبد الرحمن بن مهدى يبين أن مرجع استفادة الأحكام الشرعية إلى القرآن ، من طريقتين : هما طريق النص ، وطريق الاستنباط ، قائلا . «إن من أدرك علم أحكام الله فى كتابه ، نصاً واستدلالا ، ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه . فاز بالفضيلة فى دينه ودنياه ، وانتفت عنه الريب ، ونورت فى قلبه الحكمة ، واستوجب فى الدين موضع الإمامة .»

ثم أخذ يشرح اختلاف طرق الاستفادة من القرآن : نصاً واستدلالا فسمى إفادة القرآن ذلك «البيان» وابتدأ بعنوان : «باب

كيف البيان ، فقال : إن البيان اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول ، متشعبة الفروع ، وبين أن وجوه البيان عديدة ، وعقد لكل وجه منها باباً : مما جاء بيناً بنص القرآن فلم يحتج إلى بيان ، وما احتاج فيه بيان القرآن إلى ما يكمله من السنة ، أو ما يبينه ، أو ما انفردت ببيانه السنة ، وما فتح فيه القرآن باب الاجتهاد والقياس بما يتوقف عليه ذلك من معرفة ، وعلى الأخص بفنون اللغة العربية ، عقد بعد ذلك أبواباً متتابعة لاختلاف الدلالة بالعموم والخصوص ، وضعاً واستعمالا وأصالة ولحوقاً ، منتهياً إلى أن السنة تخصص ما جاء فى القرآن عام الدلالة ، ومتخلصاً من هنالك إلى ما للسنة من أثر فى تبيان الأحكام ، مفيضاً فى هذا المعنى بياناً واستدلالا وبسطاً لمسألة علاقة السنة بالقرآن ، من حيث الناسخ والمنسوخ والمجمل والمبين ، والمخصص ، بضرب الأمثال لذلك من عديد أبواب الفقه . وبعد أن بلغ الشافعى هذا المبلغ من البيان ، على طريقة من البسط ، والبيان المطرد ، بدون استحضار نقاش ، ولا افتراض جدال ، ولا إجراء للكلام مجرى الجواب والسؤال ، ابتدأ بعد ذلك يتعرض للسؤال والاعتراض والاستكشاف على طريقة الافتراض والتقدير : بقوله : فإن قال قائل وابتدأ هذا الأسلوب أولا بالسؤال عن الوجه والتطلب للدليل ، إيجازاً واقتضاباً ، يتبعه ببيان طويل الكشف عن وجه السؤال . ثم لما وصلت نوبة الكلام إلى علل الأحاديث ووجه الأخذ ببعضها وترك بعض ، واعتبار بعضها راجحاً وبعضها مرجوحا ، هنالك أصبح يذكر الأسئلة على وجه الوقوع والثبوت ، لا على وجه التقدير والافتراض ، فيقول « قال لى قائل » ولا يقول كما كان يفعل فى أول الكتاب « فإن قال قائل » . ثم يفيض فى بيان ذلك القول مطنبا فى أدلته ووجوه توقعه ، ثم يجيب عنه مبتدئا بقوله « قال الشافعى » ويطرد فى البيان والتفصيل والتعليل وضرب الأمثال ثم لا يقطع سياق المحاورة فيستمر مورداً أسئلة المعترض واستكشافاته من قوله « وما هو » وقوله « فمثل لى كل صنف مما وصفت مثالا تجمع لى فيه الإتيان على ما سألت عنه » ، وقوله « فهل عن النبى رواية بما قلتم » ، وهكذا يستمر فى هذه الطريقة من الحوار الجدلى المسترسل ، يورده أولا بين طرفين ، ثم كأنه يصف دخول ثالث فى الحوار ، إذ ينصرف عن قوله « قلت فقال » أثناء الموضوع بعينه ، فيقول فقال لى قائل ويستمر يجيب القائل الثانى : ثم يعيد أسئلة القائل الأولى مبتدئا استئنافها بقوله قال الشافعى : « قال » يعنى السائل

الأول. حتى ينتهي إلى منقطع الحديث ليستأنف جدلا آخر حول استدلال آخر . وهكذا يستعرض على هذا النحو مباحث النسخ ، والتخصيص والأمر ، والنهي ، وأخبار الآحاد ، على منهج يتجه إلى بيان أن للسنة أثراً في وضع الحكم الشرعي بالاستدلال، على نسبة من القرآن ، يختلف باختلاف الصور والأماكن . ثم لما أفضت نوبة الكلام إلى الأصول الأخرى ، غير الكتاب والسنة : وهى الإجماع والقياس جعل الحجاج دائراً على أن دلالة الكتاب والسنة هى المثبتة على الإجمال لحجية الأصلين (الإجماع والقياس) مع كونهما أصلين منفصلين عن المسموع من الكتاب والسنة ، لكن فى الكتاب والسنة ما يشهد للإجماع والقياس : بأن كلا منهما عامل فى استنباط الأحكام الشرعية .

ولما أثار البحث فى القياس بحثا فى أنه يخطىء ويصيب ، وقد يكون حقا فى الظاهر والباطن وقد يكون حقا فى الظاهر فقط ، فيكون حقه مقصوراً على قائله دون غيره وينشأ من ذلك الاختلاف بين القائلين ، مع سقوط الحرج والاثم عن كل منهم ، أثار البحث على ذلك الوجه فى حجية القياس ، مسألة الاجتهاد .

فإذا المحاور يسأل عن أصل تجويز الاجتهاد والشافعى يجيب بالإثبات متمسكا بما جاء فى القرآن العظيم . مما يقتضى إعمال الدلائل لأداء أصناف من العبادات ، مع أن تلك الدلائل قد تصيب وقد تخطىء ، وقد يعرف بها إنسان غير ما يعرفه غيره ، فيبنى كل منهما على ما عرف وإن اختلف ما أتى به كل منهما عما أتى به الآخر . ويلح المحاور فى طلب الدليل على جواز الاجتهاد من الحديث ، فيروى الشافعى له حديث : « إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » فيجرى الحوار حول الصواب والخطأ وتنهض حجة الشافعى على ما أراد بأن الأجر على الخطأ يقتضى على الأقل أنه يسع الإنسان أن يخطىء فى الاجتهاد غير آثم ، ويلخص حجته فى الاجتهاد ، بقوله :

« إن الله جل ثناؤه من على العباد بعقول فدلهم بها على الفرق بين المختلف وهداهم السبيل إلى الحق : نصا ودلالة » ولما سأله صاحبه مثالا على ذلك ، ضرب له المثل باستقبال القبلة وما خلق الله للناس من أدلة كونية يهتدون بها إلى جهة البيت الحرام قائلا : « وكان عليهم تكلف الدلالات بما خلق لهم من العقول : التى ركبها فيهم ليقصدوا قصد التوجه العين التى فرض عليهم استقبالها . فإذا طلبوها مجتهدين بعقولهم وعلمهم بالدلائل ، بعد استعانة الله والرغبة اليه فى توفيقه ، فقد ادوا ما عليهم » .

الفاضل بن عاشور
تونس
(للبحث بقية)

نفحات القرآن

العهد : مسئوليّة دينيّة
والوفاء به : غاية حتميّة

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

(ا) « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ، ولنكونن من الصالحين .
(ب) فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، وتولوا ، وهم معرضون .
(ج) فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ، بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » .

(ا) وردت هذه الآيات فى رجل من المسلمين ، كان فى طليعة الصحابة ظاهراً وكان يلازم الرسول فى حضور الجماعات بالمسجد ، ثم فتنته الدنيا فخرج من الإسلام كما خرج إبليس من الجنة ... وتبين للناس من قصة حاطب بن ثعلبة هذا أن الوفاء بالعهد شعبة من شعب الإيمان الحق ، فالآخذ بعهده واصـــل إلى جنات ربه ، والناكث بعهده فإنما ينكث على نفسه .

كان حاطب هذا يخرج من صلاة الجماعة خلف الرسول مهرولا إلى بيته ، كالكاره البقاء فى موضع الصلاة . أو فى معية الرسول عليه السلام .

فقال له صلى الله عليه وسلم : يا حاطب !! إنى أراك تعمل عمل أهل النفاق !! فقال : يا رسول الله : إن لى ثوبا واحدا يصلح الصلاة ، وأنا أسرع إلى زوجتى لتلبسه ، وتدرك به الصلاة فى أول وقتها .. فادع الله لى أن يرزقنى مالا ...

فاستشف النبى ببصيرة النبوة أن العسر خير لهذا الرجل من اليسر ، وقال له : يا حاطب قليل يكفيك خير من كثير يطغيك .

فأعاد الرجل سؤاله مرة ، ومرة : وفى كل منهما يسمع نفس الجواب ، ثم قال معاهدا ربه أمام رسول الله وأصحابه : لئن آتانى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه .

وكان فى هذا العهد جاهلا بحقيقة نفسه ، وظانا أنه يغلب الدنيا ، فلا تنال من دينه ، ولا تفتنه عن عهده .

ومن شأن النبي صلى الله عليه وسلم — أن يحكم بالظاهر، ولا يتعلق بالغيب فى شأن كهذا لا يعتبر حكما تشريعيا ينتظر فيه الوحى، أو يجتهد فيه.

فدعا ربه لحاطب أن يرزقه مالا ...

ومن هنا جرى على حاطب قدر من الله لم يكن يتخيله، ذلك أن ماله كثر وكثر.

حتى ضاقت المـــدينة، وضاق ربضها بالأغنام، والأبقار، والإبل لحاطب صاحب الثوب الواحد.

وكان كلما كثر ماله يتخلف عن الرسول وعن الصلاة معه شيئا فشيئا، حتى انقطع لماله دواما.

ولما افتقده النبى، وسأل عنه أخبروه بشأنه، وانقطاعه لماشيته بعيدا فى جنبات الوادى، فأرسل إليه الرسول عامل الصدقات يجىء منه بزكاة أمواله التى كانت مصداق عهده، وكانت دعوة الرسول إلى ربه.

فاستبدت به الدنيا، وغلبته على عهده، ونسى ما كان يدعو إليه من قبل، وراوغ مع عامل الصدقات مرة وأخرى .. ثم قال له أخيرا: ما هذه إلا جباية .. يريد أن الزكاة تحصيل للمال بالإكراه ودون استحقاق مشروع.

فانظر إلى الرجل: ما بين عشية وضحاها، يتمرد على دينه، ويكفر بنعمة ربه، ويتبجح فى وجه الوافد عليه من جانب الرسول، صلوات الله عليه وسلامه.

تزعزع يقينه بإغراء المال له واستعبدته دنياه، فقطعته عن صحبة الرسول، وأصحابه إلى عشرة الأغنام، والإبل، والأبقار.

ثم نفث من حقده على الدين ما كان خافيا عليه من أمر نفسه، حينما تعلق بالمال، وألح بسؤاله للرسول أن يدعو له باليسر بدل العسر.

وكأن طغيان دنياه أنساه أن الله الذى أعطاه قادر على أن يسلبه هذا العطاء، أو يسلبه ما هو فيه من هذا العطاء، وإن تضاعف حظه.

وقد كان فى هذا شقاؤه، وكانت نعمته نقمة عليه .. إذ نزل فيه قول الله سبحانه: «ومنهم من عاهد الله» الآيات السابقة.

وحين نزولها أخبر بها الرسول أصحابه، وقال لهم: أتدرون فيمن نزلت هذه الآيات؟ نزلت فى حاطب بن ثعلبة التميمى.

ففزع الصحابة لذلك الحدث، ولما أصاب حاطبا من مروقه من الدين، وبغيه على نفسه وفزع إليه أخوه، وأخبره بما نزل فى شأنه من نذير القرآن.

وهنالك تقشعت ضلالته، وعظمت ندامته وبادر إلى الرسول يعتذر، ويستعتب، ويستأذن فى تقديم زكاته التى ضن بها على العامل وتنكر له طاعنا فى تشريع الله.

(ح) ولكن النبي أبى أن يقبل منه شيئا، بعد أن حكم الله فى قضية هـذا المارق «والله يحكم لا معقب لحكمه».

ولماذا لم يقبل الله توبة هـذا الخاطىء؟ ولم يقبل الرسول منه معذرته وزكاته؟ مع أن الله غافر الذنب، وقابل التوب.

يبدو أن طوية هذا الرجل من أول أمره كانت غير مظهره، وشاء الله أن يكشف له حقيقة نفسه ويكشف للرسول وللمؤمنين ماخفى عليهم فى واحد من أقرب الناس إليهم.

وليضرب الله المثل به فى فضيحة المتصنعين للإسلام، وأن فى الناس من يعبد الله على حرف، حتى إذا أصابته فتنة انقلب على وجهه وخسر دنياه وآخرته.

ولعل من حكمة الله فى رفض المعذرة، والإعراض عن توبته لدى الرسول أنها لم تكن توبة من قلبه، وإنما هى كذلك مخادعة أمام القوم، حتى تخف عنه اللائمة والمذمة نوعا، ولا يكون معرة لذويه، كما يكون الحال فى شأن من لم يحاول تدارك خطيئته، ولو رياء.

وفى هذا عبرة للمؤمنين الصادقين ليتحاشوا غرور الدنيا، ويكونوا على شكر الله أحرص من التعلق بالمال، والضن به فى سبيل الله، الذى يهبه لمن يشاء، ويمنعه عمن يشاء.

حاول الرجل فى عهد أبى بكر أن يقدم زكاة أمواله، فلم يقبلها منه، وقال له: ما كان لى أن أقبل شيئا لم يقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم حاول كذلك فى عهد عمر، فقال له مثل ما قال أبو بكر ... وانتهت حياة حاطب ابن ثعلبة، وخلف دنياه لغيره، وخرج منها على نفاق أرداه فى جهنم خالدا فيها مع الخالدين المعذبين.

ولو أن الرجل كان وفيا بعهده لله لكان فى مقام غير هذا.

ولكن الله أعقبه نفاقا فى قلبه إلى يوم يلقى ربه بسبب ما كان من خلفه لوعد الله، ومن كذبه على رسول الله، فيما عاهده عليه!

فانظر إلى قيمة الوفاء بالعهد، وإلى خطر الغدر فيه!!

* * *

هذا - وقديما عرف التاريخ عن العرب أكثر مما عرف عن سواهم فى صيانة العهد من الخيس فيه، حتى لو اقتضاهم الوفاء بالعهد تضحية بالأموال، والأنفس.

غير أن العرب فى جاهليتهم أسرفوا فى تشبثهم بالوفاء، إذ توسعوا فى مفهومه، حتى جعلوا منه عصبية للقبيلة، أو للحليف فى غير اعتدال، واستباحوا إراقة الدماء، وفاء بالعهد كما - زعموا - ولو دون سبب للقتال.

وكانوا يفاخرون بذلك فى ندواتهم ، وفى قصيدهم ، وخطبهم .

ولما جاء الإسلام متكفلا بصلاح دنيانا ، وتهذيب أخلاقنا كان طبيعيا أن يختار من معانى الوفاء مايلائم وجهته ، ويندمج فى منهجه وأن يعتبر هذا الوفاء المعتدل بالعهد النافع أصلا من أصول الأخلاق .

بل ركنا من أركان العقيدة ، ينهض عليه قوام الدين الحق .

فإن إيمان المرء بالله ، وبما أنزل على رسله لايعدوا أن يكون وفاء بما عهد الله إلى عباده من توحيده ، والأخذ بأحكامه ، وأخلاقه ، وسائر توجيهاته فى حياتنا الدنيا . وتركيزا لمبدأ الوفاء بالعهد بين شعب الإيمان .

عنى القرآن كثيرا بذكر العهد ، وبالدعوة إلى صيانته من الغدر به ، وبالثناء المستطاب على الموفين بعهدهم إذا عاهدوا .

وانظر تجد للقرآن بسطة فى بيان العهود التى يعنيها ، ويقرها فى تشريعه .

١ - فعهد أزلى ، أخذه الله عباده ، حين كانت الإنسانية فى عالم الأرواح ، أن يدينوا له وحده بالربوبية ، ويذكرهم به بعد وجودهم ليكونوا على علم بما سلف ، وعلى وفاء بما علموا وهم فى عالم الأشباح « وإذ أخذ ربك من بنى آدم : من ظهورهم ، ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين » !!

فيكون من مقتضى الفطرة الإنسانية المعتدلة أن نستجيب لما ذكرنا الله به ، وأن نفى به حبا فى الله ، وتقديراً لفضله ، وخشية منه ، والتماسا لرضوانه ، ومؤازرة لدعوة رسله .

٢ - ولكن الإنسان ظلوم لنفسه ، جهول بمسئوليته « إنا عرضنا الأمانة » تكاليف الدين « على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها » .

لم تتهيأ تلك المخلوقات العظيمة لقبول التكاليف ، وقصرت طبيعتها مع ضخامتها عن الصلاحية لحمل أمانة الدين .

وكأن هذا إباء وخوف من التقصير فيما عهدالله به إليها ، « وحملها الإنسان » بفطرته المتهيئة ، ومواهبه المستعدة ، وبما عرفه من طريق الرسالات النبوية ، ثم تخلف عن تمام الوفاء بهذا العهد ، فكان ظلوما لنفسه ، جهولا بمسئوليته .

٣ - وعهد ثالث - قطعه الله على نفسه للمجاهدين فى سبيل الله - بأموالهم وأنفسهم : ما استطاعوا - أن يكون جزاؤهم الجنة فى سعة من محبة ربهم « يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح - عناء الجهاد -

ومتاعب الطاعة - للذين أحسنوا منهم ، واتقوا ، أجر عظيم » . « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به - بعهدكم ، ووفائكم مع الله بما عهد إليكم - وذلك هو الفوز العظيم » .

« لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة - فى بيعة الرضوان يوم الحديبية سنة ست من الهجرة - فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا » .

فتلك عهود بين الله وعباده ، والله يتعهد لخلقه فيها بالوفاء ، جزاء على وفائهم .

وفى مجموعها يقول الله تعالى : « وأوفوا بعهدى ، أوف بعهدكم ، وإياى ، فارهبون » .

وقد اتسع مفهوم العهد المنشود فى تشريع الله حتى جعل منه كل عهد صالح نلتزمه فيما بيننا « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » . « وأوفوا بالعهد ، إن العهد كان مسئولا » .

وكذلك تقرر سنة النبى صلى الله عليه وسلم أن من علامات الإيمان فى المؤمن إذا وعد أو فى وأن من علامات النفاق فى المرء أنه إذا وعد أخلف . وأنه لا عهد لمن لا وفاء له : أى أن الناكث للعهد لا يعتبر من أهل العهود ، يريد أهل الإيمان .

وقد تعهد الله فى تشريعه لنا أن يأخذ كل ناقض العهد بجريرته ، كما صنع مع اليهود فيما عرف عنهم كثيرا حتى بجل عليهم لعنته ، وكرر تهديدهم بغضبه « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم ، وجعلنا قلوبهم قاسية » .

إلى كثير من آياته التى تثير الرعب لدى كل ذى قلب يعى « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » . « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » .

ومع ما تبين من شأن العهد وخطاره عند الله فإن بعض الأئمة يفرق بين العهد ، والوعد وينظر إلى ما فى العهد من توثيق والتزام كعقود المعاملات مثلا وإلى ما فى الوعد من هوادة لا تبلغ مبلغ التوثيق والاستيثاق ، وجعلوا إنجاز الوعد مستحبا لا واجبا ، وخلف الوعد مكروها لا محرما .

فإذا وعدت صديقك بالزيارة فالوفاء بمثل هذا مروءة تليق بالمسلم ، والخلف دون لا يبلغ مبلغ الإثم ... وهذا كلام مقبول فيما يكون نادرا وغير متعمد .

أما إذا كان دأبا للمرء أن يخلف وعده فهذه هى نقيصة المنافق التى حذرنا منها الرسول فى قوله - وإذا وعد أخلف .

وليس من العهد المطلوب وفاؤه ، ولا من

الإسلام ... وما يُفْتىَ عليه

للأستاذ عبد الكريم الخطيب

هناك ظاهرة تكاد تكون حقيقة واقعة، وهى أن القضايا التى تتحكك بالدين، وتتمسح بشريعته وأحكامه، يدخل عليها كثير من الضعف والوهن، على حين يقدر أولئك الذين يذهبون بها هذا المذهب، فيلقون عليها ظلالا من الدين، ويضعون بين يديها « جواز مرور » مختوم بخاتم الدين، موسوم بأحكامه وتعاليمه ـ هؤلاء يقدرون أن ذلك شفيع لا يرد عند الناس، وأنها بهذا الشفيع ستغزو القلوب، وتمسك الناس من مقاودهم! ولكن الأمر يجىء أبداً بعيداً عن هذا التقدير، بل وآخذا اتجاها مضاداً له فى أغلب الأحوال... وذلك أن للنفس البشرية نفرة بطبيعتها من كل أمر يلقاها

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

الوعد المقتضى للصدق أن يكون فى باطل، أو إضرار بالغير كالتعهد بالعدوان على الغير أو التحالف على مساس بالوطن أو الاتفاق على ارتكاب جريرة خلقية أو المشاركة فى أى نقيصة ينكرها الدين، أو يأباها عرف الناس، ومروءتهم.

والأرذلون من الناس يحسبون التعاهد على شىء من هذه المنكرات يقتضيهم الوفاء به فى عرف الأبطال والرجولة، والصداقة.

وهذا خلط كخلط أهل الجاهلية فيما سلف وهى خصائص دنيئة، يأباها الإسلام على أهله وغير أهله... كما يحرص على الوفاء الجدى بين أهله، ومع غير أهله وأنت ترى فى قصة حاطب التى تعلقت بها آيات الموضوع أخذا له بالشدة، وحرمانا من قبول الرجل فى عداد المسلمين، وتسجيلا لبشاعة موقفه وتلاعبه بما وعد الله ورسوله ليكون الوفاء بالعهد وبالخير دائما نصب أعيننا وسياجا لحياتنا ومظهرا إنسانيا لجماعة المسلمين أكثر من سواهم، فهم أولى بذلك الكمال، كما قرر الرسول فى قوله إنا قوم لا يصلح فى ديننا الغدر.

حتى لو شئنا نقض عهد مع غير المسلمين وجب أن نخبرهم من قبل وإلا نأخذهم على غرة، فإن ذلك من تمام الوفاء واحترام العهد، حتى فى ساعة نقضه لسبب ما. وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ـ فاطرح لهم عهدهم على علم ـ إن الله لا يحب الخائنين.؟

عبد اللطيف السبكى

على غـــير الوجه الذى ، وترقبه منه .. فهى مثلا .. تنفر من الهزل فى مواقف الجد، و تتقزز من الجد يلقاها فى مواطن الهزل .. !

وليس كالهزل بالدين ـ وأمره كله جد ـ حين تجرى بين يديه تفاهات الحياة كلها ، وحين يتحرك على مسرحه صغير الأمور وسفسافها .

صنيع أولئك الذين يعرضون الدين فى كل سوق ، ويبيعونه بكل عرض ، وبأى ثمن !

وحسن أن يلتفت الناس إلى الدين ، وأن تعلق أبصارهم وقلوبهم به ، وأن يعرضوا أنفسهم وأعمالهم عليه ، وأن يردوا موارد أمورهم ومصادرها عليه . . فهذا من شأنه أن يقيم فى النفوس وازعا ، وأن يجعل للدين فيها سلطانا ، فتعتصم به من أن تضل ، أو تضعف ، أو تسقط .. إذا نازعتها شهوة ، أو تسلطت عليها فتنة !

ولكن ماذا يرد إلى الدين من أمور الناس ؟ وماذا يستفتى فيه الدين من شئونهم ؟

ولك أن تأخذ الجواب على هذا من نفسك حين تسألها هذا السؤال : ماذا ترد من أمورك أو تعرض من شئونك على ذوى الرأى والنصيحة من ثقاتك وخلصائك ؟

أتراك تجىء إليهم فى صغير أمرك وكبيره ؟ وأتطلب الرأى عندهم فى ظاهر شئونك وخفيها ، وفى جليلها وحقيرها ؟ أم تراك تواجه الحياة برأيك ، وتصحبها بما يدلك عليه عقلك وقلبك .. حتى إذا طرقك أمر ضل معه عقلك ، أو حار فيه رأيك ، طلبت الرأى والنصيحة عند من تتوسم فيه الرأى والنصيحة ؟ فأى الحالين حالك ؟ وأى الواقعين واقعك ؟ وانظر أى الرجلين أنت .. وتفقد وجودك ، وتعرف على ذاتيتك فى كلا الحالين هذين !.

وليست بك حاجة إلى من يدلك على أنك تنظر فى الرجل الأول إلى إنسان آلى ، منزوع الإرادة ، مسلوب التفكير ، ضائع الشخصية ، يعيش فى ظل غيره ، ويتحرك بإرادة سواه .. وهيهات أن يكون فى الناس إنسان على تلك الصفة ، وإن يكن هناك كثير من الناس على اللون الغالب فيها .. فإن أدنى الناس شأنا ، وأقلهم عقلا ، له رأى ، وله إرادة ، على أية صورة من صور الرأى والإرادة .. فإن يكنه فهو إنسان فقد وجوده ، وأهدر آدميته ، ودخل فى عداد المجانين والمعتوهين !

أما مع الرجل الآخر فإنك منه فى حضرة إنسان يحمل مسئولية الحياة كإنسان ، ويتحمل تبعاتها كرجل .. إنسان جدير بأن يؤثر أثره فى الحياة ، وأن يكون أهلا لإرث هذا اللقب الكريم : « خليفة الله » فى هذا الكوكب الأرضى! ثم إنه لا فرق بين أن يكون ذلك السلطان الذى يملك وجود الإنسان ، ويشل إرادته ـ سلطانا دينيا ، أو اجتماعيا ،

أو سياسيا ، ما دامت آثارها واحدة ، فى ضمور الشخصية ، وفى اغتيال ذاتية الإنسان ، وقتل المعالم الأصيلة فيه .

وليس هناك من سلطان أقوى وأقدر من سلطان الدين فى أخذ النفوس إليه وحملها على الولاء له ، والانقياد لحكمه ، والاستسلام لسلطانه .. ومن هنا كان الدين ، رسالة الأنبياء ، الذين تخيرهم الله من عباده ، واصطفاهم لأداء هذه الرسالة الكريمة الخطيرة ، التى لو لم تمسك بها يد حكيمة موجهة بحكمة الله وقدرته لتحول نورها الوضيء إلى نار ، لا تبقى ، ولا تذر .. فما أكثر ما أحرقت الديانات السماوية - بله غير السماوية - أهلها ، بعد أن ذهب رسولها ، وقام عليها من بعده أقوام لا تتسع نفوسهم لحقيقة الدين ، ولا ترتفع مداركهم إلى مطالع جلاله ، وبهائه وحكمته ، حيث تتمثل حقائق الدين فى خواطرهم ، وتتشكل فى عقولهم ، أمساخا شائهة من القوى المستبدة المتألهة ، مضروبة بالجهل والهوى ، أو مدموغة بالكيد والتضليل ، وبهذه الحبال المفتولة باسم الدين ، والمصنوعة على حسابه يمسكون بخانق الناس ، ويفرضون عليهم باسم الدين سلطانا قاهراً مستبداً ، يحصى عليهم أنفاسهم ، ويسلبهم إرادتهم ، ويشل حركات عقولهم ، فلا يملكون - مع الدين - من أمرهم فتيلا ، ولا قطميراً !

وإذا ذكرنا أن الديانات - والديانات السماوية خاصة - إنما جاءت لتفك الإنسان من أسر العبودية بجميع صورها وأشكالها عبودية - الأوهام والخرافات - عبودية الجهل والهوى - عبودية الجبابرة والطغاة من ملوك وسلاطين - عبودية الفقر والحاجة - وذلك لتقيم فى الحياة إنسانا سوى الإنسانية - حر الإرادة ، مستنير العقل ، سليم الوجدان ، صحيح العقيدة ، مستقيم الطريقة - إذا ذكرنا ذلك من أمر الدين ، ومن رسالته فى الحياة ، ومقامه فى الناس - كان لنا أن ننكر كل ما يحمل إلى الناس باسم الدين ، ليسوقهم سوق الأنعام إلى مغارات وكهوف ، رطبة مظلمة ، لا يرون فيها إلا قطع الظلام ، تتحرك فى أحشائها المفزعات من الأشباح والخيالات !

وإذا صح ما يقال من أن القانون للإنسان ، وليس الإنسان للقانون . . أو كما يقول السيد المسيح : « إنما السبت للإنسان ، وليس الإنسان للسبت » - فإنه يصح - بل يجب - أن يقال : إن الدين للإنسان ، وليس الإنسان للدين . . فما الدين - فى صميمه - إلا قانون سماوى ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . تنزيل من حكيم حميد . . غايته حماية الناس من أنفسهم ، ومن عدوان بعضهم على بعض . . فهو الرحمة الراحمة

التى تتنزل من السماء كما يتنزل الغيث على الجديب فيهتز ويربو ، وينبت من كل زوج بهيج .

والإسلام - بحق - هو دين الإنسان ... الإنسان فى أكمل كمالاته ، وأكرم منازله ..

والإنسان عقل وإرادة . وتعاليم الإسلام كلها قائمة على العقل والإرادة معاً ... عقل الإنسان العاقل ، وإرادة الإنسان المريد ... فعلى مقاييس العقل السليم ، وعلى منطقه جاءت أحكام الإسلام ، وأحكمت تعاليمه ، وعلى الإرادة الحرة ، والاختيار المطلق قدرت أوامره ونواهيه ...

ومن أجل هذا كانت « النية » مقطع كل قول أو عمل ، يصدر من الإنسان المسلم ... وفى هذا يقول النبى الكريم : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى) .. فلا حساب فى الإسلام عن قول أو عمل إلا بالنية التى تصحبه ... وليس للنية منطلق إلا عن إرادة حرة مختارة ... وليست الإرادة إلا عن عقل يدرك ، ويقدر ... ولهذا يقول النبى صلوات الله وسلامه عليه : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه » ... وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة فى قوله تعالى ، وقد دعانا - سبحانه - إلى أن ندعوه به : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » ... فما أسقط الإسلام هذه الأعمال والأقوال التى تقع عن خطأ أو سهو ، أو إكراه ، وما أهدر آثارها إلا لأنها وقعت على غير إرادة الإنسان ، وإلا لأنها جاءت بعيدة عن مشيئته ، وعلى غير تقديره وتفكيره ! !

وسيرة نبى الإسلام كلها قائمة على بناء المجتمع الإسلامى على هذين الأمرين : العقل والإرادة ... العقل السليم ، المصفى من شوائب الهوى والضلال ، والإرادة الحرة المنطلقة من هذا العقل السليم المدرك ... فلقد عاش الرسول الكريم حياته كلها بين أصحابه بإنسانيته كلها ، وببشريته جميعها ، يستشير ويشار عليه ، وليس ذلك إلا ليقيم فى المجتمع الإسلامى هذه الحقيقة ، وهى أن يعيش الناس بعقولهم ، وبإرادتهم ، وألا يتخلوا عنهما لأحد . حتى ولا لنبى . فإن المسلم لمطالب حين ينزل على أمر النبى أن يصحب معه عقله وإرادته ، ليكون لتسليمه بما سلم به - مفهوم عنده ، وأثر عامل فى كيانه ، ليقوم لهذا الأمر بما ينبغى له من احتفاء ووفاء ! .

وموقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى صلح « الحديبية » أشهر من أن نذكر به .

* * *

نقول هذا القول فى وجه تلك الوجوه التى تقف بساحة الدين ، مستجدية ، ملحة فى الاستجداء ، لتحمل عليه كل أمر من أمور الحياة ولتضع « بصماته » على كل شأن من شئون الناس ... !

فلقد استهوى هذا البدع كثيراً من النفوس الصغيرة، التي تحسب أنها بهذه «الوظيفة» تكون شيئا، وأنها بهذا التطفل تجعل لها سلطانا على الناس، وتقيم لها وزنا في الحياة، وحتى كأن الناس لا يتحركون إلا بإشارتهم، ولا يأخذون أو يدعون إلا عن أمرهم ... وهؤلاء لو علموا حقيقة وجودهم، وواقع حالهم لرأوا أنهم أهون هوانا من «تيم» .. تلك القبيلة التي رماها الشاعر بقوله:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم
ولا يستأذنون وهم شهود

فما كانت الحياة لتنتظر إشـــارتهم، أو تسمع لقولهم!.

ولا تحسبن أن هذه الظاهرة هي وليدة هذا العصر أو أنها عن دعوة من الأحداث الكثيرة التي نجمت فيه، بل هي قائمة في كل عصر وفي كل أمة، وفي محيط كل دين ... فلكل عصر أحداثه وجديده، ولكل عصر علماؤه وأدعياؤه وطفيليوه!!.

ولكن الذي يلفتنا من هذه الظاهرة اليوم هو أنها قد اتسعت دائرتها، وكثر المتنافسون فيها، والمتهالكون عليها ... من كل جماعة ومن كل قبيل! فما يبزغ في أفق الحياة شيء إلا تداعى له الأدعياء، وإلا تلقاه منهم بالفم وباليدين - من يحسن ومن لا يحسن ... كل يحاول أن يجره إلى الدين جرا، وأن يجيء له من الدين بشاهد ودليل ... وإذا بالدين ينطلق من بين أيديهم في كل اتجاه وينبدفع في كل سبيل ... وإذا به يلهث وراء رواد الفضاء من روس وأمريكان، وإذا به يتعلق بأذيال المراكب المصعدة إلى الكواكب، يفتي سكانها فيما أحل الله وما حرم ... وكأن الأرض قد ضاقت فلم تتسع لعلمهم فراحوا يبذلونه - بلا مقابل - لسكان السماء.

* * *

وبلية ليس بعدها بلية أن يزج بالدين في هذه الشئون التي هي من خاصة شأن الناس، وخالصة أمورهم، والتي هي داخلة في اختصاص «الوظيفة» الإنسانية، بل في صميم هذا الاختصاص، الذي لا يسمح الدين لنفسه أن يتدخل فيه، أو يغتصب شيئا منه.

فلقد خلى الدين - والإسلام بصفة خاصة - بين الناس وبين الحياة، يعالجون شئونها بما عندهم من ذكاء واستعداد، وليس للدين في هذا المجال الفسيح الذي يسع الحياة كلها إلا قولة واحدة: هي أن يتحرك نشاط الناس في غير بغي ولا عدوان.

وعن هذا الإيمان بحق الإنسان في الاستقلال بوجوده، والحياة مع ذاته، وفي الانتفاع الكامل بعقله، وخبراته، وتجاربه - عن هذا الإيمان كان قول الرسول الكريم لصحابته من أهل المدينة: (أنتم أعلم بشئون دنياكم):

وكان صلوات الله وسلامه عليه قد أشار عليهم بتأبير النخل على صورة رآها ، فامتثلوا أمره فيه ، وكان ذلك جاريا على غير عادتهم ، وكانت نتيجة هذا أن جاء الثمر دون ما اعتادوا وفرة ، وجودة

وما نحسب هذا الحدث إلا عن تدبير من السماء ، ليتأكد حق الناس فى ضروب من الاستقلال فى التفكير والعمل ، ليخطئوا حينا ويصيبوا أحيانا ، وهم فى خطئهم وصوابهم ممسكون بزمام الحياة ، ماثلون أيديهم منها ، ومن وجودهم فيها .

وفى كل مرة كان يدخل الدين فيها على الناس من غير بابه ، وفيما ليس له كان يقع البلاء ، وتعظم الفتنة ، وتتحول أحوال الناس ، وتنقلب أوضاعهم ، ويضطرب تفكيرهم ، وإذا هم فى وجه عاصفة هوجاء ، وعلى ظهر حيرة لايدرون معها ما يأتون وما يذرون .

وتاريخ الإسلام يحدثنا حديثاً طويلا حزينا عن تلك المعارك التى أشعل فتيلها أصحاب الأهواء والفتن ، باسم الدين ، وشبوا ضرامها تحت رايته ، فأكلت ما أكلت من قوى المسلمين ، المادية والمعنوية ، وخلفت وراءها دخانا كثيفاً ، ظل منعقداً فى سماء الإسلام قرونا عدداً ولا تزال بعض آثاره قائمة إلى اليوم .

وفى هذه المعارك جميعها كان يساق الدين إليها قسراً ، ويقحم فيها إقحاما ، دون أن يكون له فى كثير منها ناقة ولا جمل - كما يقولون:

وقل أن كان الدين يدخل معركة من تلك المعارك ثم يخرج منها سليما معافى ، بل كان دائما أبداً يخرج مثخنا بكثير من الجراح ، فلا يراه الناس - فى غبار تلك الفتن ، إلا شائه الوجه ، مغبر الأديم . . إذ يرون ما يبنيه الدين بأيدى رجاله المحسوبين عليه ، يهدمه الدين بأيدى رجاله والمضافين إليه أيضاً ! حيث يتجه به بعضهم يمينا ، على حين يتجه به آخرون شمالا ، وبينما يذهب به بعضهم شرقا، يذهب به آخرون غربا ، أو شمالا ، أو جنوبا. وبين هذه الاتجاهات المختلفة يعيش المسلم زائغ البصر ، كثير التلفت ، لا يدرى أى اتجاه هو الصحيح . . القائم على سمت الشريعة ، المستقيم مع وجهة الدين !

وتعظم المصيبة ، ويتضاعف البلاء حين ينجلى غبار هذه المعركة ، بعد زمن - طويل أو قصير - ثم يتلفت الناس فلا يجدون للدين مكانا فيما نشب فيه الخلاف ، ودار حوله القتال . . إذ لم يكن للدين موقف تقتضيه طبيعته ، وتستدعيه شريعته فيما اختلف فيه المختلفون ، وتقاتل عليه المتقاتلون ، وإنما هى أمور من حساب الحياة خاصة ، ومن شئون الناس خالصة لهم !

ولمن لا يعرف حقيقة الدين ، ولا يعلم

حدوده، وهو يحسن الظن بحملة «البخور» في محاريب الدين، وينظر إلى هذه القضية من جميع أطرافها — له أن يدهش ويعجب ثم لا عليه إذا هو اختنق بهذه المقولات المتناقضة في أمر واحد، وضاق بها صدره ثم لا عليه إذا هو جعل يسأل نفسه أو يسأل الناس: أي دين هذا الذي تقوم فيه المتناقضات، وتعيش في ظله المتضادات؟

ما هذا؟ وماذا يفعل المتدين في مثل هذا الموقف إذا هو أراد أن يأخذ بأمر دينه، ويستقيم على شريعته.. في أهله وولده؟..

إنها حيرة. أو قل كانت حيرة في يومها، انتهت بكثير من الناس إلى أن يغضوا البصر عن الدين في هذه القضية لا يأخذون بحلاله أو حرامه فيها. لا استخفافا به، وإنما هو إسقاط لتلك الحجج المتضاربة، وعدم التعويل على أي منها بل لقد اندفع بعض الناس إلى أكثر من هذا فصرفوا النظر عن الدين في كل أمر، وفي كل شأن، ولو كان من صميم الدين إذ تزعزعت عقيدتهم فيه، وساء رأيهم في موازين أحكامه، حين امتحنوه في هذا الأمر لجاء إليهم «المفتون» بهذه المتناقضات المتدافعات من الآراء!!.

هذه جزئية صغيرة من جزئيات الحياة، كان لها هذا الأثر المزلزل المدمر في الحياة الروحية للمجتمع الإسلامي، ولا زال كثير من الناس وفي قلوبهم مرض منها إلى اليوم! إنها - على صغرها - أشبه بالجرثومة الخبيثة تندس في جسم سليم فتهدمه هدما، وتأتي على بنيانه بين عشية وضحاها!.

وهل تفعل هذه الجرثومة فعلها في هذا الكائن العظيم إلا لأنها غريبة عنه، مناقضة لطبيعته؟ كذلك تلك الهنات الصغيرة من عوارض الحياة حين تندس على الدين، وتتحرك في كيانه. إنها أشد فتكا به، وتضييعا له من تلك الجراثيم الخبيثة، التي تتسلط على الأجسام الحية القوية، فتفسد نظامها، وتبطل عملها!.

وانظر قضية السفور التي اضطرب المفتون فيها كثيرا وأمر الدين فيها لا يخرج عن الدعوة إلى العفة، وعدم التبذل، والظهور في مظهر الفتنة والإغراء...

وليست قضية السفور وحدها هي التي صدعت رءوس المسلمين زمانا، وأصابهم منها ما أصابهم من دوار، وذهول عن الدين وتخوف منه، بل إن لهذه القضية أخوات كثيرات، ولدن في هـــذا العصر، حيث كثرت واردات أوربا وأمريكا من مخترعات العلوم، ومحدثات الفنون... فكان هناك

فى دائرة الدين أحاديث كثيرة متشعبة عن كل جديد . . فى « السينما » و « الراديو » ، وفى التصوير والنحت والتمثيل وغيرها حتى ما يتصل بألوان الطعام والشراب وأدواته ، والزى وأشكاله . . فنى كل شىء من هذه الأشياء وأمثالها كان لأصحاب « الفتيا » وقفة حادة صارمة ، تدفع الناس دفعا عن هذا البدع الجديد . . ثم لا يلبث التيار الجارف أن يكسر هذا السد الوهمى ، ويغمر السهول والوديان ، ويجرف فيما يجرف هؤلاء « المفتون » بغير علم ، ويدخل عليهم ديارهم من كل باب ونافذة !

وتصور المسألة على أن معارك قد كانت بين الدين وبين هذه الأمور . . ثم قدر بعد هذا ما يبقى فى قلوب الناس وفى مشاعرهم من جلال الدين وهيبته ، بعد أن يشهدوا راياته تسقط واحدة بعد أخرى فى كل معركة يخوضها مع الحياة !

أمران لا ثالث لهما يمكن يفسر عليهما هذا الوضع بين الدين وبين الحياة ! .

إما أن يكون الدين شىء ، والحياة شىء آخر . . كل منهما يسير فى اتجاه ، لا يلتقيان فيه أبدا . . وإذن فلا بد من أن يستمر بينهما هذا الصراع إلى أن ينتصر أحدهما ، فيبتلع الدين الناس ودنياهم معا ، أو أن يجلى الناس الدين من هذه الدنيا ، ويعيشون مع دنياهم بلا دين !

وإما أن يكون الدين - كما قلنا - إشارة مضيئة من السماء تكشف للناس معالم الطريق وتقيمهم على الجادة ، فلا يتصادم الناس فى موكب الحياة ، ولا يتقاتلون ! وفى هذه الحال يمكن أن يجتمع الدين والدنيا على وفاق ، وأن تهتف الحياة بالدين حين تعمى على الناس السبل ، فتجد فى أضوائه الهدى والنجاة ! .

* * *

ثم ماذا ؟

لا شىء إلا كلمة ألقى بها فى آذان أولئك المتهافتين المتهالكين على التحكك بالدين ، الضاربين فى وجهه بكل شىء - أن دعوا الناس والحياة ، فهم أعلم بشئونهم ، ولا تزحموا طريقهم إلى دين الله الخالص وإلى حقائقه المشرقة الصافية بهذا الغثاء الذى تسوقونه إليهم باسم الدين ، وتحملونه على ظهره ... فهم بفطرتهم أهدى سبيلا ، وأقوم طريقاً إلى دين الله ، وإن يكن منكم فى هذا المقام خير تقدمونه لهم فهو الصمت ، والصمت الطويل ... ورحم الله امرأ قال فغنم ، أو سكت فسلم ؟

عبد الكريم الخطيب

المرونة في اللغة العربية

للأستاذ عبد الحميد حسن

سأعرض في هذا الموضوع بإيجاز لخصائص اللغة العربية وما فيها من مرونة ومسايرة للتجديد . وأتابع في هذا العرض مراحل اللغة العربية في نشأتها ونموها واتساع نطاقها وتسجيل قواعدها وتدوين كلماتها .

(المرحلة الأولى) في العصر الجاهلي :

وقد نشأت اللغة العربية ، في هذه المرحلة ، في كنف الفطرة وفي رحاب الصحراء الممتدة الآفاق ، وتابعت الخطا في النمو والتهذيب والاستقرار في حرية وبعد عن القيود التي تحد من حركة الفكر ، أو تقيد الجهاز الصوتي في انطلاقه ، مع تجنب ما عسى أن يعترض النطق من وعورة الحروف أو تزاحمها بسبب تقاربها أو تباعدها ، فقد أرسل العرب منطقهم على سجيته فتغلب على هذه الصعاب بشتى الظواهر اللغوية . ولذا نجد في اللغة العربية الإدغام والإعلال والإمالة وامتزاج الحروف المتماثلة أو المتقاربة والنحت والتقريب بين الحركات في مثل (الحمد لله) بضم الدال أو كسرها ، ونجد أيضاً ذلك البحث المعروف في علم الصرف باسم (رد الأبنية بعضها إلى بعض) أي تغيير ضبط الكلمة كما في عنق وشعير ورغيف بكسر الراء ، ونجد غير ذلك من مظاهر المرونة اللفظية .

وإلى جانب ذلك نجد مرونة معنوية كالتضمين والتغليب ونيابة حروف الجر بعضها عن بعض والمجاز والاستعارة وغير ذلك .

وهناك ظاهرة أخرى في اللغة نشأت عن اختلاف لهجات القبائل ، فقد تفاعلت هذه اللهجات وامتزجت ونشأت عنها مرونة لغوية تتسم بألوان من النطق وأنواع من الضبط الإعرابي وتحديد صيغ الكلمات وضبط حروفها في الفعل الثلاثي ومضارعه ومصدره ، وفي جموع التكسير ، ويشيع فيها أن يكون للكلمة الواحدة ألوان من المعاني التي قد تتباعد إلى حد واضح . والذي ساعد على كل ذلك هو اختلاط القبائل بعضها ببعض وتجمعها في مواسمها وأسواقها الخاصة والعامة . وقد نشأ من هذا التجمع امتزاج اللهجات واستقرار أسلسها نطقاً

وأسهلها مأخذاً وأخفها على الألسنة والأسماع. وينجم عن ذلك مايشبه اللغة المشتركة التى حوت كثيراً من خصائص اللهجات عما اتخذ منه العلماء فيما بعد معايير اتسمت بالمرونة فى ضبط الكلمات والعبارات ضبطاً نحوياً وصرفياً وفى تحديد معانيها لغوياً.

ونجد فى إطار هذه المرونة مرونة أخرى تختلف درجاتها فى الشيوع والكثرة والقلة، ولكنها جميعاً مما ارتضاه العرب أو فريق منهم، أو مما ورد على لسان أحدهم. ولقد كان للعلماء الذين دونوا اللغة وقعدوا لها القواعد فى هذه الناحية، مواقف تشعبت فيها آراؤهم واختلف موازينهم وتباينت طرائقهم.

وإن الخصائص التى نراها فى هذه المرحلة هى المرونة والتنوع فى الكلمات والعبارات لفظاً ومعنى، ولكنها تلتقى جميعاً عند غاية واحدة هى التى تتحكم فى كل ذلك، وهى المعنى والوصول إليه، فالعربى يقصد إلى المعنى أولا، ولا يضيره أن يختلف النطق أو تتنوع الوسائل أو تتشعب الطرائق فى الضبط والتعبير.

* * *

(المرحلة الثانية) بعد الإسلام ونزول القرآن الكريم:

وفى هذه المرحلة نجد استقرار الأوضاع اللغوية وإقرار الصافى من لهجات العرب، فقد نزل القرآن الكريم مسايراً لما شاع فى هذه اللهجات من مظاهر، وذلك تيسيراً على الناطقين حتى نجد كل قبيلة ما يطاوع لسانها. وفى الحديث الشريف (أن القرآن أنزل على سبعة أحرف) والمراد بالأحرف أوجه مختلفة من الأداء تساير ما درج عليه العرب، وتتجلى فيها خصائص اللغة العربية ولهجات العرب وأساليبهم فى النطق وفى طرائق التعبير، وهى التى نجدها فى وجوه القراءات التى سجلتها الروايات الصحيحة المتواترة عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وهى مطابقة لقواعد اللغة العربية، فإن هناك شروطاً ثلاثة يجب أن تتحقق فى القراءات القرآنية وهى:

١ — أن توافق اللغة العربية ولو من وجه.

٢ — وأن توافق رسم أحد المصاحف العثمانية.

٣ — وأن يصح سندها.

فالقراءات إذن سجل للغة العربية الصحيحة التى يمكن أن نحتذيها. وهنا يبرز سؤال وهو: هل لنا أن نقيس على وجوه القراءات القرآنية فى أى وجه من شيوعها؟ وسنرى الرأى فى هذا حينما ننظر فيما وصل إليه علماء اللغة من أصول القياس وقواعده حينما سجلوا للغة وقواعدها ومفرداتها وطرائق الاشتقاق

وتفرع الكلمة إلى صيغ مختلفة . وحسبنا هنا أن نقول : إن قراءات القرآن الكريم هي صورة صادقة من لهجات العرب ومن مظاهر المرونة التي نستطيع أن نتخذ منها أساساً للتيسير التطبيقي في اللغة ، وسنداً لما ننشد من سعة في الذخر اللغوي ومرونة في التعبير .

وهناك حقيقة ثابتة ولها دلالتها في استعداد اللغة العربية لشكل جديد يوافق ما وصل إليه العلماء من آراء ، وهي أن الإسلام قد امتدت رقعته ، وشملت أقطاراً واسعة ، وأن العرب بعد الإسلام قد خرجوا من جزيرتهم إلى آفاق فسيحة واختلطوا بشعوب لها طرائقها في التفكير وفي مظاهر الحياة ، ومع ذلك كله لم تقف اللغة جامدة أمام هذا الجديد، بل سايرت الحياة مسايرة طبيعية ، واتسعت للمعاني الجديدة الشرعية والفقهية وللاصطلاحات اللغوية والنحوية وغيرها ، ونظرة عابرة في اللغة بعد الإسلام توضح هذا .

* * *

(المرحلة الثالثة) وهي مرحلة التعليل والقياس والاستنباط والتسجيل :

وقد بدأت هذه المرحلة حين اهتم الباحثون بدراسة القرآن وتعرف أساليبه والعناية بضبط كلماته وعباراته وتفسيرها . وقد دعاهم هذا إلى أن يتتبعوا كلام العرب في شعرهم ونثرهم وأن يتبينوا خصائصه وما يمكن أن تخضع له من قواعد وأصول صرفية ونحوية ولغوية .

وحين نظروا في هذا التراث اللغوي وجدوا أنه يختلف في خصائصه كثرة وقلة : فمنه المطرد والغالب والكثير والقليل والأقل، والنادر والشاذ . وقد وقفوا أمام كل هذا يقلبون وجوه الرأي ، وكانوا في ذلك طوائف ، فمنهم:

١ — البصريون الذين يتشددون في القياس ولا يجيزون قاعدة إلا إذا توافرت الشواهد التي تدعمها ، وكانوا لهذا يؤولون الشواهد التي تحيد عما اطرد أو كثر ، أو يخطئونها .

٢ — ومنهم الكوفيون الذين كانوا يكتفون بالشاهد الواحد فيستنبطون منه القاعدة ، ويجيزون اتباعها والقياس عليها . وكان بعض رجال هاتين الطبقتين البصرية والكوفية يؤيدون رجال الطبقة الأخرى في آرائهم في كثير من المسائل .

وقد استمرت هذه الطبقات تستكمل القواعد النحوية والصرفية واللغوية ، ويضيف اللاحق إلى ما جاء به السابق ، حتى أتمت الطبقتان مباحث على النحو والصرف ، وكان ذلك في نهاية القرن الثالث الهجري ، والذين

جاءوا بعد ذلك لم يضيفوا إلى هذا التراث جديدا فى أصوله الأساسية .

وفى خلال تدرج هذه الطبقات البصرية والكوفية ظهر المذهب البغدادى حين أنشئت بغداد فى صدر الدولة العباسية ، وأصبحت مقرا لخلفائها ، وعكف رجال هذا المذهب على البحث فى اللغة وقواعدها ، وعلى النظر فى آراء البصريين والكوفيين وترجيح بعضها على الآخر ، وكانت لهم فى ذلك آراء كونوا منها مذهبا أخذ مكانه بين غيره من المذاهب.

وفى خلال ذلك أيضا نشأ مذهب رابع فى ذلك القطر العربى الجديد فى الأندلس وإلى جانبه المغرب ، وكان لعلماء هذين القطرين كذلك آراء فى اللغة وقواعدها لها وزنها والاعتداد بها .

وبهذا كان التراث اللغوى الذى خلفه علماء هذه المذاهب اللغوية تراثا حافلا بأنواع كثيرة من الآراء التى تنطق بالمرونة وتثبت دعائمها ، وقد سجل الباحثون فيه كل صغيرة وكبيرة ، ولم يتركوا رأيا إلا سردوه مفصلا تفصيلا دقيقا وذكروا منه ما اتفق فيه العلماء وما اختلفوا فيه وما انفرد به أحدهم وما يتراوح بين القبول والرفض أو بين الإجازة والمنع .

والكتب التى بحثت فى اللغة وقواعدها لا حصر لها ، ومنها ما أتت عليه أحداث الزمن ومسته أيدى الضياع ومنها ما لا يزال فى زوايا المكتبات فى أنحاء العالم ، ومنها ما تنبه الباحثون والعلماء فى نهضتنا الحاضرة إلى قيمته ومكانة مؤلفيه فشرعوا فى إعداد العدة لتحقيقه ونشره ، وسيكون لهذه الكتب شأن فى التحقيق والتمحيص ، وربما كان لها أثر فى التغيير والتعديل .

والذى أريد أن أبرزه فى ميدان البحث هو أن هذه الكثرة من آراء علماء اللغة هى سند قوى لما ننشد من مرونة تساعد على التوسع والتجديد ، ولما نتطلع إليه من تيسير يعين على فك الأغلال عن كثير من الكلمات والعبارات ، وعلى رد الاعتبار لطائفة من مفردات اللغة تعيش على حافة الحياة اللغوية أو بمنأى عنها وهى تلتمس القبول وترقب أن يطلق سراحها ويرخص لها بالدخول فى الإطار اللغوى ، لكى تأخذ طريقها فى خدمة الفكر والثقافة ، وتكون دليلا على مرونة لغتنا العربية التى أثبتت على توالى الأحقاب وتباين الناطقين بها ، أنها وسعت صدرها للجديد الذى يوافق ذوقها وتعززه الأشباه والنظائر من كلام العرب ، وتساندة خصائص اللغة وآراء علمائها ولهجات قبائلها ؟

(للبحث بقيـــة)

عبد الحميد حسن

جماعة إخوان الصفا

للأستاذ محمد غفرانى الخراسانى

أثرهم فى تطوير القصة على لسان الحيوان

تمهيد :

أولا : قبل أن نتحدث عن الدور الذى لعبه إخوان الصفا فى تطوير القصة على لسان الحيوان فى اللغة العربية وإخراجها من المضامين الأخلاقية والاجتماعية التى تتمثل فى حكايات كتاب « كليلة ودمنه » إلى مضامين فلسفية فى كتابهم « رسالة الحيوان » نقف برهة لنلقى نظرة عابرة على تاريخ نشأة هذه الجماعة والأهداف التى كانت تدعو إليها عن طريق نشر رسائلها فى البيئة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى تلك الرسائل التى أحدثت دويا هائلا فى توجيه التيار الفكرى الإسلامى مدة هذه الحقيقة من التاريخ .

١ — أصل اسم « إخوان الصفا » وهل اقتبس من « كليلة ودمنه » :

وقد وردت لفظة إخوان الصفا فى اللغة العربية من قديم فى شعرها ونثرها ، فن العصر الجاهلى ورد شعرا قول أوس بن حجر يذم طفيل بن مالك الملقب بملاعب الأسنة :

لعمرك ما آسى طفيل بنفسه
بنى عامر إذ ثابت الخيل تدعى
وودع إخوان الصفا بقرزل
يمر كمريخ الوليد المقزع

ومن ذلك أيضا قول أبى حناك البراء بن ربعى الفقعسى :

أبعد بنى أمى الذين تتابعوا
أرجى الحياة أم من الموت أجزع
بثمانية كانوا ذؤابة قومهم
بهم كنت أعطى ما أشاء وأمنع
أولئك إخوان الصفاء رزئتهم
وما الكف الا إصبع ثم إصبع

وقد روى أبو حيان فى كتابه « الأدب والإنشاء فى الصداقة والصديق » البيت الأخير وجعله ثالثا لبيتين آخرين لم يذكرها أبو تمام ولم يذكر أبو حيان كذلك اسم الشاعر فقال : وقال شاعر :

لعمرك إنى بالخليل الذى له
على دلال واجب لمفجع

وإنى بالمولى الذى ليس نافعى
ولا ضائرى فقدانه لممتع
أولئك إخوان الصفاء رزئتهم
وما الكف إلا إصبع ثم إصبع

وجاءت كلمة إخوان الصفا أيضا فى نصوص غير جاهلية شعرا ونثرا فن الشعر ما أنشده الزيدى :

إلا أن إخوان الصفاء قليل
فهل لى إلى ذاك القليل سبيل
فس الناس تعرف غثهم من سمينهم
فكل عليه شاهد ودليل

وورد نثرا قول عبد الله بن المقفع فى باب الحمامة المطوقة من كتاب كليلة ودمنه : « قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف حدثنى أن رأيت إخوان الصفا كيف يبتدئ تواصلهم ويستمتع بعضهم بعضا ، قال الفيلسوف : إن العاقل لا يعدل بالإخوان شيئا فالإخوان هم الأعوان على الخير كله والمؤاسون عند ما ينوب من المكروه » ومن هنا اختلف الباحثون فى صلة هذه التسمية بـ « كليلة ودمنه » لابن المقفع فذهب فريق ومنهم المستشرق الانجليزى « جولد زيهر » إلى أن هذا الاسم قد اقتبس مما جاء فى قصة الحمامة المطوقة .

وفريق آخر ومنهم الباحث العربى أديب عباسى ينفى أن يكون ورود هذه الكلمة فى قصة الحمامة المطوقة سببا فى تسمية جماعة إخوان الصفا فإن إخوان الصفا جرت عادتهم على أن يأتوا بالمثل لكل فكرة يعالجونها ويعرضون لها بالبحث فى رسائلهم ويفسر هذا سر اهتمامهم بقصة الحمامة المطوقة التى سردوها فى الرسالة الثامنة من القسم الثانى من رسائلهم ، وإنى أؤيد هذا الفهم إذ أن التركيب (إخوان الصفا) قديم وقد سبق الشعراء الجاهليون ابن المقفع إلى استعمال التركيب (إخوان الصفا) كما أسلفنا وكل ما هنالك أن جماعة إخوان الصفا حينما نقلوا قصة الحمامة المطوقة فى رسائلهم وتصرفوا فى مغزاها استأنسوا بهذا التعبير الذى ورد فى هذه القصة فاتخذوه رمزا للاتحاد والتعاون والاتفاق .

تلك المفاهيم التى كانت تربط بعضهم ببعض برباط وثيق من المحبة والإخاء وتحوطهم بسياج متين من السرية والكتمان وإذا قلنا إن تركيب إخوان الصفا فى قصة الحمامة المطوقة هو الذى أوحى لهم باختياره اسما لجماعتهم فعلينا إذن أن نلتمس لكل تركيب يرادف هذا التركيب فى المعنى أصلا اقتبست منه كلمات إخوان الصدق وإخوان الوفاء وإخوان الحفاظ وكلها وردت فى اللغة العربية نثرا وشعرا غير أنه لم يقل أحد بذلك ومهما كان من أمر فإن ما ذكرته فى هذا

المجال ما هو إلا مجــرد فروض علمية على دراستي لرسائل إخوان الصفا وخلاصة ذلك كله أن التركيب (إخوان الصفا) معروف فى اللغة العربية من العصر الجاهلي ولكن اتخاذ هذا التركيب اسما لجماعـــة معينة لها أهداف خاصة هو الجديد فى الأمر وهــذا لا يعنى أنه غير مألوف فى التعبير اللغـوى ولا أنه مقتبس من مصـــدر معين مثل كليلة ودمنه .

٢ — سر تسمية إخوان الصفا :

لفظ الصفا فى اللغة العـــربية يدل على التصافى والمودة والمحبة وجاء فى لسان العرب الصفو والصفاء بالمد نقيض الكدر وصفوة كل شيء خالصه من صفوة المـال وصفوة الإخاء والصفوة بالكسر خيار الشيء وخلاصته وما صفا منه » وعلى ضوء التخريج اللغوى يكون إخوان الصفا هم الأصـــدقاء الذين تجمعهم المودة والإخاء ويقول المستشرق الانجليزى « جولد زيهر » : (إن أخا الصفا حسب الاصطلاح العربى تعنى الذى صفت نفسه وخلصت سريرته كقولهم « يا أخا المروءة وهو رأى محتمل وإن كان ليس قاطعا ويقول المستشرق الفرنسى « دى فوهـا » لهذه التسمية صلة بكلمة « فيلسوف » التى ترد فى اصطلاح الفيثاغوريين فكلمه « أخ » تقابل الشطر الأول من كلمة « فيلسوف » وهو « فيلو » وكلمـة « صفا » تقابل الشطر الثانى من الكلمة وهو « سوفيا » وعلى ذلك يكون معنى الاسم (محبو الحـــكمة) وهو رأى يقوم على الحـــدس والخيال ويقول الباحث العربى أديب عباسى معلقا على رأى المستشرق دى فو : « إن هناك رأيا آخـر لإخوان الصفا أنفسهم فى أصل التسمية فقد جاء فى الجزء الرابع من رسائلهم ما يأتى :

« وإنما سمينا رسالتنا هذه رسالة السحر ليستدل إخـــواننا على الأسرار الخفية وليكونوا إذا بلغوا معالى العلوم ذوى غنى عن الحاجة إلى من سواهم فى جميع ما يحتاجون إليه من أمر معيشة الدنيا فإذا وصلوا إلى هذه المرتبة صح لنا أن نسميهم بإخوان الصفا » .

ويقول أديب عباسى « فإخـــوان الصفا كما يعرفون أنفسهم فى رسائلهم هم جماعة حذقوا علوم الدين والدنيا معا واستغنوا بها عن الحاجة إلى من سواهم » وهذا الرأى قد يكون أقرب إلى الحقيقة وتؤيده نصوص كثيرة وردت فى رسائل إخـوان الصفا فمنها قولهم « ينبغى أن نبين كيف يكون تواصل إخوان الصفا وكيف تكون معاونة بعضهم بعضا فى طلب معيشة الدنيا ومنها أيضـا قـولهم فهكذا ينبغى أن يكون تعاون إخـوان الصفا فى طلب صـلاح الدين والدنيا وذلك أن معاونة الأخ ذى المـال للأخ ذى العلم

بماله ومعاونة الأخ ذى العلم للأخ ذى المال بعلمه فى صلاح الدين والدنيا جميعا كمثل رجلين اصطحبا فى الطريق فى مفازة أحدهما بصير ضعيف البدن معه زاد ثقيل لا يطيق حمله والآخر أعمى قوى البدن وليس معه زاد فأخذ البصير بيد الأعمى يقوده خلفه وأخذ الأعمى ثقل البصير فحمله على كتفه وتواصيا بذلك الزاد وقطعا الطريق ونجوا ومحور هذا الرأى أن الصفا من صفاء السريرة ونفوذها إلى دقائق العلوم والحكم والآداب ومختلف ألوان الثقافات ونستنتج من هذه النصوص أيضا أن مذهب جماعة إخوان الصفا كما يدل عليه اسمهم بنى على المواساة والأخوة وتعاون بعضهم مع بعض فى أمر المعاش والمعاد.

٣ — « نشأة إخوان الصفا »

أجمع المؤرخون على أن جماعة إخوان الصفا قد نشأت فى أواخر القرن الرابع الهجرى فى مدينة البصرة ويقول أديب عباسى « الغريب أن ابن تيمية دون باقى المؤرخين الذين وقفنا عليهم يذكر أن رسائل إخوان الصفا صنفت قريبا من بناء القاهرة فإذا صح هذا الزعم فإنه يرجح أن يكون مركز هذه الجماعة القاهرة وتكون جماعة البصرة فرعا منها ».

ويبدو أن الباحث العربى قد التبس عليه لفظ البناء فتوهم أنه بمعنى المكان فى حين أن ابن تيمية يقصد من قوله « قريبا من بناء القاهرة » قرب الزمان لا قرب المكان إذ من المعروف أن مدينة القاهرة قد بدأ فى بنائها جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى فى عام ٣٥٨ هـ « فتكون جماعة إخوان الصفا قد قامت قبل ذلك أو بعد ذلك بقليل ».

٤ — زعماء إخوان الصفا.

اختلف المؤرخون فى أسماء مؤسسى هذه الجماعة. وقد ذكر أبو حيان التوحيدى فى كتابه « الإمتاع والمؤانسة » أسماء خمسة منهم وذلك فى معرض الحديث عن سيرة زيد بن رفاعة وهو أحد زعماء هذه الجماعة فيقول: « وقد أقام بالبصرة زمانا طويلا وصادف بها جماعة جامعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستى ويعرف بالمقدسى وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى وأبو أحمد المهرجانى والعوفى وغيرهم فصحبهم وخدمهم ».

وعلى الرغم من ذلك فإن الغموض لا يزال يكتنف شخصية زعماء « إخوان الصفا » بحيث كان من الصعب الوصول إلى معرفة أسمائهم والاهتداء إلى معرفتهم.

٥ — طبقات جماعة إخوان الصفا:

تتكون جماعة إخوان الصفا من أربع طبقات وهى فى ذلك ذات صبغة صوفية واضحة

الطبقة الأولى :

وهى تتألف من شبان تتراوح أعمارهم ما بين خمسة عشرة سنة وثلاثين سنة تنشأ نفوسهم على الفطرة وهم الذين يدعون فى الرسائل بالإخوان الأبرار حيث إنهم فى مرحلة النشأة والتعـــليم ويجب عليهم الانقياد لأساتذتهم والانصياع لأوامرهم دون مناقشة أو جدل .

الطبقة الثانية :

وهى تتألف من رجال أعمارهم بين الثلاثين والأربعين يتلقون الحكمة ومهمتهم رعاية الإخوان ومساعدتهم وهم الذين يطلق عليهم فى الرسائل بالإخوان الأخيار الفضلاء .

الطبقة الثالثة :

وهى تتألف من أفراد يتراوح سنهم بين الأربعين والخمسين ويسمح لهم بمعـــرفة النواميس الإلهية وشرائع العالم المقدسة معرفة تطابق درجتهم وأنهم أصحاب الأمر والنهى وهم الذين يسمون فى الرسائل بالإخوان الفضلاء الكرام وكان لهم الدور الرئيسى فى تأليف الرسائل والعمل على نشرها .

الطبقة الرابعة :

وهم الذين تزيد أعمارهم على الخمسين وهى أعلى مراتب السلوك التى يمكن الوصول إليها إذ يعتقد إخوان الصفا أن الرجل إذا نيف على الخمسين من عمره ينخرط فى سلك الموجودات المجردة ، ويرتقى إلى مقام العليين وعالم الشهود فيرى حقائق الأشياء على ما هى عليه كالملائكة المقربين وفى هذا المقام يكون الإنسان فى رأى جماعة إخوان الصفا قد بلغ فوق الطبيعة والشريعة والناموس .

٦ ــ نظام جماعـــة إخوان الصفا فى مجالسهم :

كان إخوان الصفا يعقدون اجتماعاتهم سرا لا يعرف مكان انعقادها ولا زمانه إلا أعضاء الجماعة فقط ويقولون فى ذلك « ينبغى لإخواننا أيدهم الله حيث كانوا من البلاد أن يكون لهم مجلس خاص يجتمعون فيه أوقات معلومة لا يداخلهم فيه غيرهم يتذاكرون فيه علومهم ويتحاورون فيه أسرارهم وينبغى أن تكون مذاكرتهم أكثرها فى علم النفس والحس والمحسوس والعقل والمعقول والنظر والبحث فى الكتب الإلهية ويستفاد من كلام إخوان الصفا أنهم كانوا لا يسمحون للغير بالدخول فى محافلهم إلا بعد التأكد من أحواله وسيرته وذلك عن طريق الاختبار ويقولون فى ذلك ما نصه :

« ينبغى لإخواننا أيدهم الله حيث كانوا فى البلاد إذا أراد أحدهم أن يتخذ صديقا

بجدداً مستأنفاً أن يختبر أحواله ويتعرف أخباره ويجرب أخلاقه ويسأله عن مذهبه واعتقاده ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودة وحقيقة الأخوة أم لا ؛ لأن الناس أقوام طباعهم متغايرة خارجة عن الاعتدال وعاداتهم رديئة مفسدة ومذاهبهم مختلفة جائرة .

٧ — أهداف إخوان الصفا :

اختلفت الآراء وتضاربت الأقوال حول مذهب إخوان الصفا والهدف الذى كانوا يرنون إليه من دعوتهم بين قادح ومادح وليس هنا مجال استعراض تلك الآراء ومناقشتها وإنما نشير إلى بعضها لنعطى القارئ صورة إجمالية عن جماعة إخوان الصفا وأهدافهم والغاية التى أنشأوا جماعتهم من أجلها .

وقد كشف أبو حيان التوحيدى عن غاية إخوان الصفا بقوله : « كانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته . وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة علمياً وعملياً وأفردوا لها فهرستا وسموها رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء وكتموا أسماءهم وبثوها فى الوراقين وذهب قوم إلى أن إخوان الصفا ينحدرون من نسل على بن أبى طالب عليه السلام وكانوا يدعون إلى مذهب التشيع وقال آخرون إنهم من متكلمى المعتزلة فى العصر الأول إلى غير ذلك من الأقوال التى لا تزال مثاراً للبحث والنقد لدى الباحثين ولكل دليل يؤيد وجهة نظره على ضوء ما استنبطه من آراء إخوان الصفا فى رسائلهم ويقول المستشرق بارتولد فى وصف هذه الجماعة : إن إخوان الصفا جماعة من المفكرين الأحرار ظهروا فى البصرة فى القرن الرابع الهجرى وأن اتحادهم يشبه بالجمعية الماسونية .

وقد قوبلت دعوة إخوان الصفا بهجوم عنيف من قبل مخالفيهم من المفكرين المسلمين من أمثال أبى سليمان محمد بن بهرام المنطق السجستانى من معاصريهم الذى يصفهم بقوله : « تعبوا وما أغنوا ونصبوا وما أجدوا وحاموا وما وردوا وغنوا وما أطربوا ونسجوا فهلهلوا ومشطوا ففلفلوا ... ومن أمثال الإمام الغزالى الذى جاء بعدهم وطعن فى مذهبهم ، وغيره من الفلاسفة والعلماء ؟

محمد غفرانى خراسانى
المدرس بجامعتى الأزهر والإسكندرية

من بحوث مجمع البحوث

ملكية الأفراد للأرض ومنافعها في الإسلام

للأستاذ محمد السايس

مما لا يمترى فيه أحد أن الأرض كانت ملكيتها موزعة بين الأفراد، فى جميع العصور، مع اختلاف الدول والديانات، يتوارثونها ويتبادلون الملك فيها، حسبما تقضى بذلك شرائعهم ونظمهم التى يسيرون عليها.

ففى سورة الكهف: «واضرب لهم مثلا رجلين: جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا».

وفى سورة نون: «إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين».

وفى سورة الأحزاب: «وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم».

وفى سورة سبأ: «لقدكان لسبأ فى مسكنهم آية: جنتان عن يمين وشمال».

وفى سورة الشعراء فى شأن عاد: «واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون. أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون».

وفى شأن ثمود: «أتتركون فيما ههنا آمنين. فى جنات وعيون. وزروع ونخل طلعها هضيم».

وفى سورة الدخان فى شأن فرعون وقومه: «كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوما آخرين».

فلما كان الفتح الإسلامى ودخل الناس فى دين الله أفواجا لأنهم وجدوا شريعة سمحة مصدقة لما بين يديها من الشرائع السماوية بانية لا هادمة فأقرت نظام الملكية وضمنتها واحترمتها بما شرع من الأحكام التى جاءت لحفظ الأموال وحماية الملكية وأصبحت الأرض بعد الإسلام بخصلة من خصال.

إما أرض أسلم عليها أهلها فهى مبقاة على ملكهم الأول لا ينازعهم فيها أحد وإما أرض فتحت صلحا فهى على ملك أهلها وعليهم دفع ما تقضى به شروط الصلح فى رقابهم وأرضهم.

وإما أرض فتحت عنوة ومن على أهلها بها فى أرض مكة فهى باقية على ملكهم.

وإما أرض فتحت عنوة وقسمت بين الفاتحين فهى ملك لهم خاصة بهم وبذراريهم من بعدهم كأرض خيبر.

وإما أرض فتحت عنوة ولم يقسمها الإمام بين الفاتحين بل استبقاها ملكا للدولة أو لبيت المال كما فعل عمر بسواد العراق فى رأى أئمة من الفقهاء .

وإما أرض فتحت عنوة وتركت بأيدى أهلها ملكا لهم كما كانت من قبل على أن يدفعوا خراجها لبيت المال كسواد العراق على رأى الحنفية .

وإما أرض بقيت بأيدى ملاكها من المشركين الذين هم فى ديارهم لم يظهر المسلمون عليهم فهى على ما تقضى به نظمهم وقوانين دولهم التى تحكمهم والمتتبع للأحاديث والآثار وما دونه الفقهاء على اختلاف مذاهبهم تسعفه النصوص الكثيرة التى تشهد بأن الأرض ومنافعها مملوكة للأفراد ويخرج منها بإجماع عملى وقولى لم يشذ عنه أحد على مر العصور واختلاف الأمم والديانات وسنجتزىء ببعض ذلك حتى لا يطول بنا المقام ونخرج عن القصد .

الأحاديث والآثار الواردة فى هذا الصدد :

نكتفى هنا بالنقل من كتاب منتقى الأخبار وشرحه نيل الأوطار لأنه مبوب على أبواب الفقه فيسهل الرجوع إليه .

جاء فى كتاب المساقاة والمزارعة ص ٢٣١ جزء خامس من نيل الأوطار : وعن طاوس أن معاذ بن جبل أكرى الأرض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان على الثلث والربع فهو يعمل به إلى يومك هذا رواه بن ماجه قال البخارى وقال قيس بن مسلم عن أبى جعفر قال ما بالمدينة أهل بيت هجرة الا يزرعون على الثلث والربع وزارع على عليه السلام وسعد بن مالك وابن مسعود وعمر بن عبد العزيز والقاسم وعروة وآل أبى بكر وآل عمر قال وعامل عمر الناس على أنه إن جاء عمر بالبذر من عنده فله الشطر وإن جاءوا بالبذر فلهم كذا ﻫ قال الشوكانى وقد ساق البخارى فى صحيحه عن السلف غير هذه الآثار ولعله أراد بذكرها الإشارة إلى أن الصحابة لم ينقل عنهم الخلاف فى الجواز خصوصا أهل المدينة ثم قال وأجابوا عن الأحاديث القاضية بالنهى عن المزارعة بأنها محمولة على ما إذا اشترط صاحب الأرض ناحية منها معينة ـ وهو ما يدل عليه الحديث الآتى : ـ

ص ٢٣٣ منه عن رافع بن خديج قال : (كنا أكثر الأنصار حقلا فكنا نكرى الأرض على أن لنا هذه ولهم هذه فربما أخرجت هذه ولم تخرج هذه فنهانا عن ذلك وأما الورق فلم ينهنا أخرجاه) وفى لفظ كنا أكثر أهل الأرض مزدرعا كنا نكرى الأرض بالناحية منها تسمى لسيد الأرض قال فربما يصاب ذلك وتسلم الأرض وربما تصاب الأرض ويسلم ذلك فنهينا فأما الذهب والورق

فلم يكن يومئذ . رواه البخارى . وفى لفظ قال إنما كان الناس يؤاجرون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بما على الماذيانات وإقبال الجداول وأشياء من الزرع فيهلك هذا ويسلم هذا ويهلك هذا ولم يكن للناس كرى إلا هذا فلذلك زجر عنه فأما شيء معلوم مضمون فلا بأس - وفى نيل الأوطار (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المحاقلة والمزابنة وقال إنما يزرع ثلاثة : رجل له أرض ورجل منح أرضاً ورجل أكترى أرضا بذهب أو فضة) أخرجه النسائى وأبو داود باسناد صحيح عن أبى رافع فى ص ٢٢٦ منه عن سعد بن أبى وقاص بأن أصحاب المزارع فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يكرون مزارعهم بما يكون على السواقى وما سعد بالماء مما حول النبت فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختصموا فى بعض ذلك فنهاهم أن يكروا بذلك وقال اكروا بالذهب والفضة رواه أحمد وأبو داود والنسائى وما ورد من النهى المطلق عن المخابرة والمزارعة يحمل على ما فيه مفسدة كما بينته هذه الأحاديث أو يحمل على اجتنابها ندبا واستحبابا فقد جاء ما يدل على ذلك فروى عمر بن دينار قال قلت لو تركت المخابرة فانهم يزعمون أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عنها فقال أن أعلمهم يعنى ابن عباس أخبرنى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم ينه عنها وقال لأن يمنح أحدكم أخاه خير له من أن يأخذ عليها خراجا معلوما رواه أحمد والبخارى وابن ماجه وأبو داود وعن بن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يحرم المزارعة ولكن أمر بأن يرفق بعضهم ببعض رواه الترمذى وصححه - وعن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من كانت له أرض فليزرعها أو ليحرثها أخاه فان أبى فليمسك أرضه) أخرجاه وبالإجماع تجوز الإجارة ولا تجب الإعارة فعلم أنه أراد الندب .

ومن باب الإجارة ص ٢٤٨ من الجزء الخامس من نيل الأوطار :

وعن أنس لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء فكانت الأنصار أهل الأرض والعقار فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم نصف ثمار أموالهم كل عام ويكفوهم العمل والمؤنة - أخرجاه - قال البخارى وقال ابن عمر أعطى النبى صلى الله عليه وسلم خيبر بالشطر فكان ذلك على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وصدر من خلافة عمر ولم يذكر أن أبا بكر وعمر جددا الإجارة بعد ماقبض النبى صلى الله عليه وسلم .

قال الشوكانى وحديث أنس فيه دليل على جواز إجارة الأرض التى هى مملوكة لأفراد

لأنصار كما هو نص الحديث) بنصف الثمرة الخارجة منها فى كل عام .

ومن كتاب إحياء الموات ص ٢٥٥ وما بعدها من نيل الأوطار جزء خامس :

عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من أحيا أرضا ميتة فهى له) رواه أحمد والترمذى وصححه وفى لفظ : (أحاط حائطا على أرض فهى له) رواه أحمد وأبو داود ولأحمد مثله من رواية سمرة وعن سعيد بن زيد قال قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أحيا أرضا ميتة فهى له وليس لعرق ظالم حق) رواه أحمد وأبو داود والترمذى - قال العلماء - (والعرق الظالم من غرس ، أو زرع أو بنى أو حفر فى أرض غيره بغير حق ولا شبهة) وعن أسمر بن مضرس قال أتيت النبي فبايعته فقال: (من سبق إلى مالم يسبق اليه مسلم فهو له) قال : فخرج الناس يتعادون يتخاطون رواه أبو داود قال الشوكانى الأرض الميتة هى التى لم تعمر شبهت عمارتها بالحياة وتعطيلها بالموت والإحياء أن يعمد شخص إلى أرض لم يتقدم ملك عليها لأحـــد فيحيها بالسق أو الزرع أو الغرس ، أو البناء فتصير بذلك ملكه كما يدل عليه أحاديث الباب وبه قال الجمهور وظاهر الأحاديث أنه يجوز الإحياء سواء كان بإذن الإمام أو بغير إذنه وقال أبو حنيفة لا بد من إذن الإمام وعن مالك يحتاج إلى إذن الإمام فيما قرب عما لأهل القريه إليه حاجة من مرعى ونحوه ويمثله قالت الهادية .

ومن باب الناس شركاء فى ثلاث وشرب الأرض العليا قبل السفلى إذا قل الماء أو اختلفوا فيه ص ٢٥٨ وما بعدها من نيل الأوطار . جزء خامس .

عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا يمنع الماء والنار والكلأ) رواه ابن ماجة وعن أبى خراش عن بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المسلمون شركاء فى ثلاثة الماء والكلا والنار) رواه أحمد وأبو داود ورواه ابن ماجه من حديث ابن عباس وزاد فيه وثمنه حرام .

وما سقناه من الأحاديث والآثار يدل أبلغ الدلالة على أن الأرض ومنافعها مملوكة للأفراد ينتفعون بها بكل وجوه الانتفاع يزرعونها أو يزارعون أو يعيرون حتى كان لهم أن يعطلوها وإن كان ذلك مكروها لما ورد من النهى عن إضاعة المال . كان ذلك فى عصر النبوة ووقع عليه إجماع الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار فى جميع العصور ؟

محمد السايس

حقّ الفقراء فى أموال الأغنياء

للأستاذ الدكتور ابراهيم اللبّان

هذا البحث تقدم به سيادته لمؤتمر المجمع فى دورته الأولى ، وضح فيه موقف الإسلام من مشكلة الفقر والطريق الذى سلكه فى علاجها ، ومدى ما كان لذلك من تأثير على تفكير الأمم الأخرى بالنسبة لعلاج هذه المشكلة فى العصور التى تلت ظهور الإسلام إلى عصرنا الحاضر .

استهله ببيان نشأة مشكلة الفقر كنتيجة طبيعية لوجود طبقتين فى المجتمع الإنسانى ، إحداهما تحيا فى بحبوحة النعيم ، والأخرى يكاد يقضى عليها شظف العيش ، الأمر الذى دفع النـاس منذ أقدم العصور إلى التفكير فى حل لهذه المشكلة كانت بعض صوره قاسية أما أغلبها فـكان يحمل طابعا إنسانيا قوامه شـعور الرحمة الذى لم يخل ذمة الغنى من التطوع لانتشال الفقير من هوة البؤس والفاقة . إلى أن جاء الإسـلام فطور هذا الحل بحيث جعل له من المقومات والأسس ما يكفل له النجاح فى علاج هذه المشكلة .

ومما ذكره فى توضيح ذلك قوله : إذا كانت كلمة التطور تعنى الانتقال من حال إلى حال ، فلكى نتصور تطوير الإسلام لعلاج مشكلة الفقر ، نبدأ من فـكرة الإحسان التى استخدمتها الأديان السماوية كعلاج لهذه المشكلة عصورا طويلة قبل ظهور الإسلام فهى على سموها لم تستطع استئصال الفقر من جذوره بل لم تنهض بجموع المعوزين إلى مستوى الحياة الإنسانية الكريمة ، نظراً لأن فكرة الإحسان لم ترتفع فى عصر من عصورها إلى درجة الإلزام ، بل بقى الأمر فيها موكولا إلى شعور الأغنياء فى أداء ما يقضى به هذا الشعور حيال الفقراء . وهو شعور يعارضه الحب الطبيعى للمال والنفور من بذله ، مما كان سببا فى عجز الإحسان عن النهوض بحل مشكلة الفقر ، فلما جاء الإسلام وفرض الزكاة ، حقا ثابتاً لازم الأداء من أموال الأغنياء للفقراء اعتبر ذلك تطورا فى علاج مشكلة الفقر ، لوحظ فيه تلافى أسباب النقص التى قعدت بالإحسان عن حلها ، فقد غدت الزكاة فى المجتمع الإسلامى حقا مطالبا به لأصحابه ، وأصبحت الدولة مسئولة عن تحصيله وتوزيعه ، وأصبح هذا الحق محددا معلوما . آثاره فى علاج مشكلة الفقر ليست وقفا على المسلمين بل تتعداهم إلى من يستظلون براية الحكم الإسلامى من غير المسلمين .

ثم يبين أثر الزكاة فى تطور التشريع الاشتراكى فى الغرب ، فذكر أن الغربيين أدركوا عدم كفاية الإحسان فى حل مشكلة الفقر وجوهر التشريع الإسلامى للزكاة فى مواردها ومصارفها ، فلجأوا إلى محاكاته ، بفرض ضريبة اجتماعية مقدرة على حسب المستويات تقوم الدولة على جبايتها وتوزيعها على المستحقين وتقوم هذه الضريبة على أساس الاعتراف بحق الفقراء فى أموال الأغنياء ، وبمرور الزمن طورت فكرتها بظهور ضريبة الدخل بمعناها الواسع وقدرتها على مجابهة جرثومة الفقر ، فهذا التشريع الضريبى الذى ظهر فى بريطانيا وتجاوز حدودها حتى وصل إلى أمريكا والذى يبدو فى أساسه الاقتباس من تشريع الزكاة الإسلامى ، يمكننا القول بأن فرض الزكاة فى الإسلام لم يكن تشريعا خاصا وإنما كان تشريعا لتطوير الأوضاع الاجتماعية التى تتصل بالفقر فى محيط الإنسانية ، ظهر فى البيئة الإسلامية ثم لم يلبث أن تخطاها إلى العالم بأسره فأضاء نوره للمفكرين الطريق إلى الأوضاع الاشتراكية الحديثة ، وبذا يكون الإسلام قد أحدث ثورة اشتراكية كبرى تأسى بها كثير من أمم الأرض فى علاج مشكلة الفقر.

وتكلم عن ضريبة الدخل فى الإسلام . فذكر أن الزكاة لما كانت محدودة ترتبط بمقدار رأس المال قلة وكثرة والدولة لا تملك رفع مقاديرها حتى تظل كما كانت على كفايتها فى سد حاجات الفقراء المتطورة . كان لا بد من التفكير فى مورد آخر يساند الزكاة فى مهمتها الاجتماعية . وخاصة بعد تدفق الأموال على كبريات المدن الإسلامية على أثر اتساع نطاق الفتح وظهور طبقة الأغنياء أصحاب الملايين فى الوقت الذى لم يخل فيه المجتمع الإسلامى من طبقة أخرى لا يغطى دخلها كل حاجاتها. وتوجهت أنظار كثير من مفكرى المسلمين إلى أموال الأغنياء للأخذ منها زيادة على الزكاة القدر الذى يساعد على دفع غائلة الجوع والحرمان عن الفقراء. بل رأى فريق منهم بزعامة أبى ذر الغفارى أن يؤخذ من هذا المال الزائد عن حاجة أصحابه لكى ينفق هذا القدر فى سد حاجات الفقراء والمعوزين . وصدع أبو ذر بالدعوة لهذه الفكرة فى خلافة عثمان بن عفان ، وبذل كل ما يملك من جهد فى سبيل نشرها ؛ فاعتبرت دعوته لها أول حركة اشتراكية إسلامية . ثم جاء من بعده ابن حزم ، فحدد فكرتها تحديداً وافياً بحيث جعلها صالحة لأن تكون تشريعاً منظماً قادراً على البقاء، واعتبر ذلك منه تشريعا لضريبة الدخل فى الإسلام

ثم عرض فى كلامه لشخصية ابن حزم ومنهجه فى البحث المتميز عن منهج الفقهاء.

الآخرين بفهمه للنصوص فى حدود الطاقات الإنسانية لأنه يرى أن هذه النصوص ما جاءت إلا لتنظيم الحياة الإنسانية ، وهو حين يقرأ النص لاستخلاص حكمه تكون عينه مفتوحة على ما تعج به البيئة الإنسانية من فقر وبؤس أو غنى ويسر وغير ذلك مما له ارتباط بهذا النص . وفى ضوء هذا المنهج كانت محاولته إيجاد حل إسلامى يقضى نهائياً على مشكلة الفقر . فعمد إلى تحديد مظاهر هذه المشكلة وحصرها فى الجوع والعرى وفقد المأوى (ولكل عصر مستواه) . ثم استخلص من النصوص تشريعاً يجبى بمقتضاه من أموال الأغنياء فوق الزكاة ما يساعدها على اختفاء هذه المظاهر من حياة المجتمع . وجعل تنفيذ هذا من الواجبات التى تضطلع بها الدولة بحيث يصبح من مهمتها فى الإسلام :

١ — توفير الغذاء الكافى للفقير .

٢ — تحقيق المسكن الضرورى له .

٣ — ضمان حصوله على اللباس الذى يقيه برد الشتاء وحرارة الصيف . وقد أحاط هذا التشريع بكل ما يكفل له النجاح من إلقاء تبعة تنفيذه على الدولة ومن تحديد مورده المالى وأبواب إنفاقه . ثم تقدم به فى شجاعة لا تبالى بما كان متوارثا من أنه لا يجب فى مال الأغنياء حق سوى ما أوجبته الزكاة . وأيده بالأدلة التى تثبت صحته ، فهو قبل كل شىء فقيه ومحدث .

وإليك نصوص هذه الأدلة من الكتاب والسنة والآثار مع تعقيب السيد الباحث عليها ورأيه فى التجديد الذى أتى به ابن حزم وأثر هذا التجديد فى العصر الحاضر . ثم النتيجة التى انتهى إليها فى بحثه من أن الضريبة التى تلجأ إليها الدولة لمكافحة الفقر وتوفير المال اللازم للخدمات الاجتماعية ، تعتبر ضريبة إسلامية ، مكملة للزكاة فى سد حاجات الفقراء المتنوعة . وفرض هذه الضريبة وتحصيلها من صميم دعوة ابن حزم التجديدية .

الأدلة :

ويمكن أن تنقسم الأدلة التى استند إليها ابن حزم إلى قسمين رئيسيين :

القسم الأول : الأدلة المستمدة من الكتاب والسنة .

والثانى : الآثار المروية عن كبار الصحابة والتابعين الذين يرون هذا الرأى .

الكتاب الكريم :

يقول ابن حزم مستدلا على صحة رأيه السابق الذكر : (برهان ذلك قول الله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ») .

وقال تعالى : « وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل » .

فأوجب الله حق المساكين وابن السبيل وما ملكت اليمين مع ذى القربى .

وافترض الإحسان إلى الأبوين وذى القربى والمساكين والجار وما ملكت اليمين ـ والإحسان يقتضى كل ما ذكرناه . ومنعه إساءة بلا شك .

وقال تعالى : « ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين » . فقرن تعالى طعام المسكين بوجوب الصلاة .

وينبغى أن تنتبه إلى أسلوب ابن حزم فى فهم الكتاب والسنة فهو لا يقبل الفهم الضيق ويصر على أن نفهم الكتاب والسنة فهما متحرراً غير مثقل بالقيود والشروط التى قد تضيق الأفق وتخنق روح الشريعة أو تحول دون تحقيق مقاصدها

وبهذه الروح يتجه ابن حزم إلى الحديث يستخلص منه الأدلة التى تظاهر دلالة الكتاب الكريم .

السنة :

يروى ابن حزم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من لا يرحم لا يرحم) ويعقب على هذا بقوله : (ومن كان على فضلة من المال ورأى أخاه جائعاً عريان ضائعاً فلم يغثه فما رحمه بلا شك) .

ويروى أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم قال : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) ، ويقول معلقاً على هذا : (من تركه يجوع ويعرى ـ وهو قادر على إطعامه وكسوته ـ فقد أسلمه) .

ثم يروى مرة أخرى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له) .

قال أبو سعيد الخدرى فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل .

ويعقب ابن حزم على هذا بقوله : (وهذا إجماع من الصحابة يخبر بذلك أبو سعيد) . ثم يردف معلقاً فيقول : (وبكل ما فى هذا الخبر نقول) .

ولا بد لنا هنا أن نذكر أنفسنا بحقيقة هامة لا بد منها لفهم روح ابن حزم لم يهمل الجو العام الذى تولده الأحاديث والآيات القرآنية ، بل ربما كان هذا الجو العام هو المؤثر الأول فى تفكيره والعامل الأساسى فيه . فالواقع أن مجموع الآيات والأحاديث إذا ضم بعضها إلى بعض تلقى فى روع من يقبعها أن واجب المسلم أن يسام بكل ما يستطيع فى تقديم ما لا بد منه لإنقاذ أخيه من حياة الفقر والعوز وتمكينه من الحياة الإنسانية الكريمة .

الآثار :

لهذا النوع من الأدلة قيمة خاصة بالنسبة لنظرية ابن حزم فهو يدل على ان ابن حزم

لم ينفرد برأيه أن فى حق الفقراء فى أموال الأغنياء يتجاوز حدود الزكاة وأنه (بعد استنفاد الزكاة) يشمل كل المال الضرورى لرد عادية الفقر عن المسلمين بل الواقع أن ابن حزم إنما بنى على أساس وضع فى عهد الصحابة والتابعين وأثره فى الأمر لا يعدو التفريع والتحديد والتدعيم .

ولن نورد هذه الآثار كلها وإنما نجتزئ منها بما له أثر بين تدعيم هذه النظرية وتوضيح معالمها .

وأول ما ينبغى أن نلاحظه أن بعض هذه الآثار يقرر المبدأ فى صورة مجملة فقد روى ابن حزم عن ابن عمر أنه قال : (فى مالك حق سوى الزكاة) ، ثم قال (وصح عن الشعبى ومجاهد وطاوس وغيرهم كلهم يقول فى المال حق سوى الزكاة) ثم أردف هذا بقوله : (ما نعلم عن أحد منهم خلاف هذا إلا عن الضحاك ابن مزاحم فإنه قال : (نسخت الزكاة كل حق فى المال) .

ثم أعرب ابن حزم عن رأيه فى الضحاك فقال : (وما رواية الضحاك حجة فكيف رأيه) .

ولا ينبغى أن يفوتنا أن نلاحظ أن بين هذه الأسماء صحابياً جليلا وهو ابن عمر وبقيتهم من التابعين .

وهذه الآراء كلها مجملة كما قلنا من قبل فهى تقرر المبدأ فى صورته العامة ولكن ابن حزم يورد بعدها رأياً مفصلا يحدد المقدار الواجب والغاية التى يستخدم فيها وصاحب الرأى هو على بن أبى طالب رضى الله عنه فقد روى عنه ابن حزم أنه قال : (إن الله فرض على الأغنياء فى أموالهم بقدر ما يكفى الفقراء فإن جاعوا أو عروا فبمنع الأغنياء حق على الله أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه) .

المال المفروض إذن هو ما يكفى الفقراء لا الزكاة وحدها والذى يكفى الفقراء يتناول ما يسد حاجة الجوع والعرى ويوفر لهم الغذاء والكساء .

هذا هو الرأى الذى يقرره ابن حزم وابن حزم فى الواقع لم يقرر إلا ما قرره على بن أبى طالب ولم يزد على بن أبى طالب عما روى عن غيره إلا التفصيلات التى لم تظهر فى كلامهم ، أما المبدأ العام فمشترك بين الجميع .

قيمة هذا التجديد :

وتظهر قيمة هذا التجديد إذا فكرنا فى الهدف الذى ترمى إليه شريعة الزكاة وفى مدى ما تستطيع أن تحققه الزكاة من هذا الهدف .

ولعله من الواضح أن الزكاة شريعة اجتماعية يقصد بها القضاء على الفقر وشروره فى المجتمع الإسلامى .

ولكن هل تستطيع الزكاة وحدها فى كل الظروف والأحوال أن تقضى على الفقر . وهل فى طبيعتها ما يكفل ذلك . وإذا كانت تعجز فى بعض الظروف عن الوفاء بهذه المهمة فهل فى الشريعة الإسلامية وسيلة أخرى تساعد على ذلك وتتمم عمل الزكاة فى هذا الميدان ؟

والحقيقة الواضحة أن الزكاة وإن كانت تهدف إلى مكافحة الفقر فإن مقاديرها لم تقم على هذا الأساس مباشرة . فالزكاة الواجبة لا تحدد على أساس حصر الفقراء وتقدير احتياجاتهم ثم تحصيل ما يسد هذه الحاجات ولكنها وضعت على أساس آخر . فهى نسبة معينة من رأس المال تزيد إذا زاد رأس المال الذى تجب عليه الزكاة وتنقص إذا نقص . دون اتجاه مباشر إلى توفير المقدار الدقيق الذى قد يحتاج إليه الفقراء ، ومن ثم كان من المتوقع أن تجد أحوال لا تفى فيها الزكاة بكل حاجات الفقراء . وإذا تذكرنا أن هدف الشريعة فى هذا الميدان هو محو الفقر والعوز من المجتمع كان من الطبيعى أن نتوقع أن الشريعة الإسلامية لا يمكن أن تقف فيما تفرضه للفقراء عند حد الزكاة . فمعضلة الفقر تحتاج إلى مورد آخر متمم للزكاة وضمين لها على أداء مهمتها .

وواضح أن هذا المورد الذى يتخطى حدود الزكاة يجب أن يكون مرنا قابلا للزيادة والنقص حتى يستطيع أن يواجه جميع الظروف ويكفل للفقراء سد حاجاتهم الضرورية ولا يعجز عن الوفاء بها إذا ما زاد عدد الفقراء فى المجتمع . يجب فى الواقع أن تقدر هذه الضريبة الجديدة على أساس إحصاء الفقراء وتحديد احتياجاتهم وتقدير قيمتها المالية حتى تستطيع الضريبة الجديدة منضمة إلى حصيلة الزكاة أن تسد حاجات جميع الفقراء فى المجتمع كله .

وهذا فى الواقع هو أساس هذه الفكرة التى ظهرت فى عهد الصحابة والتابعين ثم تبناها بعد ذلك ابن حزم فالمقصود تأسيس ضريبة مرنة تنضم إلى الزكاة وتتعاون معها على تحقيق الهدف الإسلامى العظيم وهو محو الفقر من المجتمع .

مغزى هذه الفكرة فى العصر الحاضر .

يجب أن نلاحظ أن ابن حزم لم يزد على أن قرر أن الحاكم بل عليه أن يضرب ضريبة أخرى غير الزكاة تتعاون وإياها على محو الفقر . ولكن ابن حزم لم يبين لنا كيف تضرب هذه الضريبة فهل تضرب على رأس المال كالزكاة أم تضرب على نحو آخر .

والذى يبدو لنا أن المهم هو ضرب الضريبة لتحقيق الهدف أما طريقة فرضها على الأغنياء فأمر ثانوى وليس ثمة ما يمنع من ضربها على الأرباح ما دامت حصيلتها كافية لتحقيق الغرض . وطبيعى أن تتدرج صاعدة مع مقدار الربح .

وقد آن لنا هنا أن نكشف الستار عن طبيعة النتيجة التى انتهى إليها البحث . وهذه النتيجة هى أن الطريقة الحديثة التى تلجأ إلى ضريبة الدخل لمكافحة الفقر والقيام بالخدمات الاجتماعية المختلفة هى طريقة إسلامية . فإنها هى الطريقة التى نادى بها ابن حزم منذ عهد بعيد ومرة أخرى ضريبة الدخل التى تعرض لمكافحة الفقر والقيام بالخدمات الاجتماعية هى صميم دعوة ابن حزم ودعوته التجديدية .

تبقى بعد ذلك نقطة هامة تتصل بطريقة تقدير هذه الضريبة ليست ضريبة مستقلة ولكنها ضريبة تكميلية تسد النقص الذى يتخلف عن ضريبة الزكاة ، ومن ثم كان من الطبيعى أن نتساءل كيف تقدر ؟ .

والذى يبدو أن الوضع الإسلامى والمعقول هو :

١ — أن نبدأ فنقدر تقديرا إجماعيا عدد الفقراء وحاجاتهم .

٢ — ثم نقدر قيمة الزكاة الواجبة على المسلمين فى المجتمع ونوازن بينها وبين قيمة احتياجات الطبقة الفقيرة .

٣ — تحدد ضريبة الدخل الإسلامية على أساس الفرق بين قيمة الزكاة وقيمة احتياجات الطبقة الفقيرة .

وربما كان من الخير أن توضع ضريبة واحدة للقيام بحاجات الفقراء وخدماتهم .

وفى هذه الحالة تتكون هذه الضريبة المتحدة الغرض من قسمين .

القسم الأول الزكاة :

والقسم الثانى ضريبة الدخل المتممة لها .

وغنى عن البيان أن هذا يتطلب العودة إلى الوضع الأساسى الأصلى وهو أن تجبى الدولة الزكاة وتقوم بتوزيعها على المستحقين .

ابن حزم والعصر الحاضر

ونحب أن نختم كلمتنا هذه بملاحظة خاصة عن مستوى الحياة الذى اقترحه ابن حزم فقد وضعه تحت تأثير الجو الفكرى للعصر الذى كان يعيش فيه ، وقد تغيرت الأفكار الآن بالنسبة لمستوى الحياة الضرورى الذى يجب أن يبلغه كل فرد فى المجتمع فاتسع مداه وانفسح مجاله ، وأصبح يشمل عناصر أخرى كانت من قبل تعد من الكماليات فصارت تحسب الآن من الضروريات ، وذلك كالتعليم والعلاج وغيرهما فمن الخير أن ندخل كل ذلك فى نطاق مستوى الحياة الذى تطلبه الفقير فى العصر الحاضر ، وأن نقدر ضريبة الدخل الإسلامية على أساس هذا المستوى الجديد ، وبهذا نصل إلى حل إسلامى لمعضلة الفقر أسمى مما وصل إليه التفكير لحلها فى أمريكا وأوروبا فى الوقت الحاضر .

ابراهيم اللبان
عضو مجمع البحوث

الملكية الفردية وتحديدها في الإسلام

للأستاذ على الخفيف

تقييد الملكية الفردية وتحديدها :

إن حب التملك والرغبة فيه غريزة فطر الإنسان عليها وهى فى قوتها واندفاعها تفوق غيرها من الغرائز إلا غريزة حب البقاء والحياة وسر الحركة الدائبة فى هذه الحياة ومصدر النشاط الذى تتمثل فيه صورة الوجود وبه قيامه وهى القوة الدافعة فى كل ميدان من ميادين الفكر والعمل إلى حيث الأمل المرجو والغاية المطلوبة والإنسان مطبوع على الاستجابة لغرائزه وإشباعها بالعمل لها والحصول على ما يرغب فيه ولذلك يرى كادحا ساعيا إلى جمع المال — والاستكثار منه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو كان لابن آدم واديان من المال لابتغى ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم ، إلا التراب) رواه مسلم ج ٣ ص ٩٩ ويقول: (يهرم ابن آدم وتشب معه اثنتان : الحرص على المال والحرص على العمر) رواه مسلم ج ٣ ص ٩٩ وإلى هذا لا يرى فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ما يدل على تقييد الملكية الفردية بحد تنتهى إليه فلا تتجاوزه بل أباح للناس أن يتملكوا ما وسعهم أن يتملكوا وأن يمضوا فى تملكهم الأموال إلى حيث يشاءون ما دام ذلك فى غير ما حرم الله لأن ذلك هو ما يتفق مع ميولهم التى يجب أن يحسب لها حسابها فى إقامة نظام المجتمع ومع مصلحة الجماعة فى إغراء أفرادها على بذل أقصى جهودهم لتحسين أحوالهم وتنمية أموالهم وفى ذلك صلاح المجتمع وثراؤه — ولذا كان لهم الخيرة فى مقدار ما يملكون — ولقد كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان واسع الثراء إلى درجة تجاوزت ثراء غيرهم من الصحابة بمسافات بعيدة وبمقادير كبيرة ولم تكن ثرواتهم هذه مع عظمها مثار إنكار عليهم من الرسول صلى الله عليه وسلم أو من أصحابه ولا مصدرا لاتهامهم بأنهم قد خالفوا عن أمر الله تعالى ومن هؤلاء : عبد الرحمن بن عوف والزبير ابن العوام وعثمان بن عفان وغيرهم — ولقد يرى فى حديث القرآن الحكيم عن المهر فى قوله تعالى : «وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم أحداهن قنطارا

فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا » (النساء ٢٠) إشارة إلى إباحة التملك لا إلى حد لأنه إذا جاز أن يكون المهر يصدقه الزوج لزوجته قنطارا فكيف يكون مقدار ثروته وقد كانت هذه الإباحة متسقة مع النظام القائم المنتشر فى المجتمعات يوم ظهور الإسلام ولا تتعارض والإصلاح المأمول والتطور المنتظر .

هذا وللمال منافعه التى لا تخفى فى إقامة حياة الإنسان وحياة أسرته وتوفير هناءته وسعادتهم وإنفاقه فى سبل الخير المتعددة المختلفة ولذا آثامه فى اكتنازه مع الشح به وفى إنفاقه فى مطالب الهوى والشهوات ومجالى الترف والفسوق ومظاهر العلو والتفاخر والطغيان وهو مع ذلك أداة طيعة خاضعة لمشيئة الإنسان إن شاء كان له نعمة وفضلا ينال به الطيبات ويبتغى به الدار الآخرة دون أن ينسى نصيبه من الدنيا وإن شاء كان نقمة يبغى بها الفساد فى الأرض ويبغى فيها على قومه وعلى نفسه غير أن ميل النفوس إلى رغائبها وملذاتها أشد وتوليها إلى هذه الوجهة أقوى فكانت كثرة الأموال أقرب أن تتخذ وسيلة إلى الآثام منها إلى المنفعة والخير العام يقول الله تعالى : « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » سورة اقرأ ويقول : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد » الحديد » .

ويقول : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » (آل عمران) ، ويقول : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » (التغابن ١٥) ، وتكاد تكون غريزة حب التملك وراء كل بغى وعدوان فيما بين الأفراد والأمم فما رأينا أكثر الخصومات بين الأفراد إلا نتيجة خلاف على مال أو نزاع فيه وما كانت الحروب منذ القدم فى غالب الأحوال إلا طلبا لزيادة التملك وسعة الملك والثراء .

هذا وليست الحاجات العارضة من مطالب الإنسان فى نطاق ما يقيم به حياته من طعام ونحوه هى التى تغرى الإنسان وحدها بطلب المال والاستكثار منه بل وراء ذلك آمال وأحلام تجيش بها الصدور وتتجه إليها الأنظار ويدفع إليها حب التنافس والتفاخر تلك أحلام التعالى وأمانى السيادة والسلطان ومطالبها لا تنتهى وفى سبيلها تهون الصعاب ، وللملكية الفردية سيئات عديدة تنتظمها الأحوال الآتية :

الحال الأولى : أن تجمع الأموال لا لإنفاقها فى سبلها المشروعة ، بل تضن بها النفوس ويقبض أربابها أيديهم أن ينفقوا منها فى سبل

الخير فلا يكون فيها مواساة فقير ولا سد حاجة محتاج ولا صلة لقريب ولا تفريج لكربه ولا مساهمة فى عمل بر فيتحلوا بها على الناس أو عليهم وعلى أنفسهم وفى مثل هذه الحال يقول الله تعالى : «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون» (التوبة ص ٣٥) .

وأرباب هذه الأموال هم البغيضون الممقوتون تسلقهم الناس بألسنة حداد فبدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر . وربما أدى ذلك إلى الثورة عليهم فسلبهم الناس أموالهم وأذاقوهم حتفهم .

الحال الثانية : — أن يكون المال وسيلة إلى تلويث صاحبه وتدنيس نفسه إذا ما مد له فى ملكه فاستكثر منه واتخذه وسيلة لنيل مآربه وملذاته وشهواته ومظاهر ترفه ولهوه وشيوع مثل هذا فى الأمة يمزق وحدتها ويوهن قوتها وفى ذلك يقول الله تعالى : «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا» (الإسراء ص ١٦) .

الحالة الثالثة - أن يسىء المالك استعمال حقوقه فيما يملك فيجاوز فيها الاستعمال المشروع تجاوزا يضر بغيره أو يكون من نتائج استعماله ضرر ظاهر بغيره حين يكون له من ذلك منجاة وسعة إذ لم يكن استعماله لحقه بالأمر الضرورى له الذى ليس له منه بد فى سبيل منفعة مشروعة مطلوبة له فى تركها ضرر يفوق ما يلحق غيرهم من ضرر .

الحال الرابعة - أن يسوء توزيع الثروة العامة فتحتاز الأموال ويختص بوافر الثراء فئة قليلة من الأمة دون باقى فئاتها فتنقسم الأمة طبقات متباغضة متنافرة متحاسدة يشيع فيها الاضطراب والتفرق والفساد فتشتعل نيران الفتن والثورات فيها ولقد راعى الإسلام ما للملكية الفردية من هذه المساوىء والأضرار إذا لم يكن الخلق الرشيد والضمير الخالص عليها قيام فخفف من سيئاتها وحد من غلوائها بما شرع لها من تنظيم ووضع لها من قواعد وأسباب تقوم عليها نشأتها واستقرارها واستثمارها واستعمالها وتوجهها وجهة صالحة تنفى خبثها وتزكى آثارها وينعم الناس بثمراتها - وبما قيدها به من قيود ووضع لها من أغلال تحول بينها وبين سوء استعمال وآثارها وحقوقها تفضى إلى الحد من تضخمها وبما حملها من حقوق لتسكين النفوس الثائرة وكبت الرغبات الحاقدة وتوجهها وجهة الخير والمصلحة الجماعية .

فى سبيل نشأتها واستقرارها واستثمارها بين أسباب اكتسابها واستثمارها واستهاعلى التراضى ومنها أن تقوم على باطل أو خداع أو غرر أو تدليس وأن يكون منها اغتصاب أو سلب أو أكل مال بلا عوض لاعن طيب نفس حتى لا يكون منها ما كان عن إكراه أو استغلال لضرورة محتاج أو ضعف عقل وتمييز وفى قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه» «البقرة ٢٦٧» دلالة على وجوب تجنيب الملكية كل ما فيه خبث يرجع إلى طريقة تملكه أو إلى فساد فيه إذ أن غايتها الانفاق منها وإذا امتنعت الغاية وحرمت لم يكن للوسيلة محل ولا اعتبار.

هذا وفى تحديد وسائل اكتسابها وسلامتها على الوضع الذى شرعه الإسلام حائل دون تضخم الثروات عادة إلا ببطء فلا تتسع الفوارق فيها بين الأفراد إلا قليلا وفى سبيل الحيلولة دون إساءة استعمالها قيدها بعدم الإضرار بالناس كافة وعدم الإضرار بالأفراد كالجار وغيره إلا إذا كان الضرر أقل مما يصيب المالك من منعه وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم (لا ضرر ولا ضرار) رواه احمد وابن ماجه وعلى ذلك إذا ابتغى المالك بملكيته منفعة يستغل بها غيره ضرب الشارع على يديه وبناء على ذلك منع احتكار الطعام وما فى معناه ومنع رفع أثمان الضروريات إلى حد إرهاق الناس فلا يجوز مجاوزتها حدود الاعتدال فى الربح وذلك بتسعيرها بالسعر الذى لا يضر ويحقق الربح المعتدل المعروف بين الناس على ما يراه كثير من الفقهاء كما منع مالك العقار أن يتصرف فيه تصرفا يؤذى جاره ويضره ضرراً فاحشا وأن يأبى عليه أن ينتفع بعقاره بما جرى به عرف الناس من غير ضرر به وكذلك منع المالك السلاح أن يبيعه لأهل البغى والفساد والفتنة ومنع الموصى فى ماله أن يضر بوصية ورثته وهكذا وبناء على ذلك قرر المبدأ القاضى بمنع صاحب الحق من إساءة استعمال حقه.

ومن أدل الآثار على ذلك ما روى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة فى جـــداره) رواه احمد وابن ماجه وما روى من قضاء عمر للضحاك بن خليفة الأنصارى بامداد الخليج فى أرض محمد بن مسلمة وذلك حين أراد الضحاك أن يشرع خليجا من العريض «واد بالمدينة» إلى أرضه لتروى منه فلم يقدر إلا أن يمره فى أرض محمد بن مسلمة فأبى عليه محمد ذلك فقال له الضحاك لا تمنعنى وهو لك منفعة تشرب منه

أولا وآخرا ولا يضرك فأصر على إبائه فرفع الضحاك أمره إلى عمر رضى الله عنه فدعا محمد ابن مسلمة فكلمه وأمره أن يخلى سبيل ابن عمه بمر الماء فأبى فقال له عمر: لم تمنع أخاك ما ينفعه وهو لك نافع تسق أولا وآخرا وهو لا يضرك؟ فقال محمد لا والله فقال عمر والله ليمرن، لو على بطنك وأمر عمر الضحاك أن يمر به ففعل) «الموطأ جـ ٦ جـ ٤٧ والخراج ليحيى بن آدم (١١١) وبمثل ذلك قضى عمر أيضا لعبد الرحمن ابن عوف فقد روى عمرو بن يحيى المازنى عن أبيه أنه كان فى حائط جده ربيع «ساقية» لعبد الرحمن بن عوف فأراد عبد الرحمن بن عوف أن يحوله إلى ناحية من الحائط هى أقرب إلى أرضه فمنعه صاحب الحائط فكلم عبد الرحمن بن عوف عمر فى ذلك فقضى لعبد الرحمن بتحويله غير آبه بمنع صاحب الحائط «البستان» إذ لم يرد بمنعه إلا الضرر «الوطأ جـ ٦ (٤٧)».

وفى سبيل الحد من ضخامتها وتسكين النفوس الحاقدة الثائرة لحرمانها والرغبات الطامعة المتطلعة إليها أوجب الصدقات والصلات فجعل منها ما هو واجب فى المال ومنها ما هو أمر مرغوب حض عليه ولم يصل به إلى مستوى الأمر الواجب المفروض - ففرض الزكاة وجعلها ركنا من أركان الدين وأوجبها فى النعم السائمة وفى الذهب والفضة وفى أموال التجارة على اختلاف أنواعها عقارا كانت أم منقولا وفى الثمار والزرع وأوجب الخمس فى الغنائم والإنفاق على الأهل والولد وذوى القربى وأوجب الخراج على الأرض الخراجية وأوجب المساهمة فى نفقات ما يعرض للأمة من ضرورات وما ينزل بها من نوازل وما تتطلبه من مصالح وما يجب لها من عدة للدفاع أو لحفظ الأمن والنظام والمساهمة فى إطعام الجائع وإغاثة الملهوف وفك الأسير وعلاج المرضى من الفقراء المعوزين إذا لم يكن فى بيت المال ما يكفى لذلك وقد أشير إلى هذا فى قوله تعالى: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة) «البقرة ١٧٧»، وكذلك أوجب قرى الضيف عند الحاجة على ما ذهب إليه بعض الفقهاء لآثار وردت فى ذلك «المحلى جـ ٩ ص ١٧٤»، وإلى ذلك كله حض على التصدق والإنفاق فى سبيل الله وكانت آيات القرآن فى هذه الفضيلة كثيرة العدد مختلفة الأساليب فمنها آيات آمرة مثل قوله تعالى: (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) «البقرة ١٩٥»، وآيات مرغبة مثل قوله تعالى: (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) «التوبة ٣٦»، ومثل قوله: (قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين)

(المدثر ٤٤) إلى غير ذلك من الأساليب .

ذلك ما يرجع إلى ما جاء به الكتاب العزيز أما ما جاء فى السنة فهو من الكثرة بحيث أن نشير إلى مثل قوله صلى الله عليه وسلم (يقول العبد مالى مالى وإنما له من ماله ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو أعطى فأقنى وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس) رواه مسلم .

وعلى الجملة فتوجيه الإسلام فى ذلك يرمى إلى عدم ترغيب الناس فى اكتناز المال وحبسه وإلى أن الخير لهم فى إنفاقه فى سبيل الله وفى ذلك ما رواه أبو ذر إذ يقول (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما نحو أحد وأنا معه فقال : يا أبا ذر قلت : لبيك يا رسول الله فقال : الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال كذا وكذا عن يمينه وعن شماله وقدامه وخلفه وقليل ما هم ثم قال يا أبا ذر ، قلت : نعم يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، فقال : ما يسرنى أن لى مثل أحد ذهبا أنفقه فى سبيل الله ، أموت وأترك منه قيراطين قلت : أو قنطارين يا رسول الله قال : بل قيراطين . ثم قال : يا أبا ذر أنت تريد الأكثر وأنا أريد الأقـــل) . رواه الشيخان . وهذا عندما يكون الانفاق حال الحياة . أما فيما يوصى به الإنسان بعد الوفاة فإن الخير له أن يبقى من أمواله لورثته ما يدفع عنهم أن يكونوا عالة على غيرهم . وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وقاص وهو مريض يريد الوصية : (الثلث والثلث كثير . إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس) رواه الشيخان ومما تقدم يرى أن الشارع حين أقر الملكية الفردية لم يقرها مطلقة فى آثارها بل أقـــرها مقيدة بقيود عديدة أريد بها تخليصها من شرورها وأخباثها وتوجيهها الوجهة السليمة التى تطيب معها فتكون خيرا محضاً لصاحبها وصلاحا لمجتمعه . وذلك ما يتسق مع ما قدمناه من أنها نوع من الخلافة يقوم فيها الفرد خليفة عن مجتمعه أو عن الله سبحانه وتعالى وذلك ما يستوجب مساءلته مساءلة الوكيل أمام موكله وإلزامه بألا يحيد عما قيد به وعما أوجبه عليه من واجبات أراد بها الخير لخلقه والصلاح لهم وذلك هدف الشريعة وغايتها كما يدل على ذلك مثل قوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (البقرة ١٧٥) وقوله تعالى : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم . وليتم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون » المائدة ١ وقوله تعالى قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق » (الأعراف ٣٢) ولهذا الغرض قيدت الملكية الفردية لتخلص من آثامها وسيئاتها وينعم الناس بخيرها .

(للبحث بقيـــة)

علي الخفيف

المجتمع الاشتراكى فى ظل الإسلام

للأستاذ عبد الرحيم فوده

الاستغلال الحلال للمال

— ١٠ —

معنى استغلال المال استخدامه فيما يعود على صاحبه بالصلة ، وهى المنفعة أو الثمرة أو الأجرة ، ومن حق المالك أن يستغل ماله وينميه بالطرق التى يرى فيها مصلحته مادامت لا تتعارض مع المصالح العامة ، ولا تؤدى إلى ضرر يحيق بغيره ، ولا تنحرف به أو ينحرف بها إلى مأثم أو محرم ، لأن حرية تصرف المالك فيما يملك هى معنى الملكية أو النتيجة الطبيعية لمعنى الملكية ، ولكن الحرية لا يقصد بها السفه أو البله أو إطلاق العنان لنزوات الشيطان ، أو تعدى حدود القصد إلى البغى والطغيان ، ولهذا أمر الله بالحجر على السفهاء كما يفهم من قوله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » وذكر أن المبذرين كما يقول سبحانه « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » .

ثم إن ملكية الإنسان للمال إنما هى ملكية نسبية ناقصة لا ملكية حقيقية تامة كما سبق بيان ذلك فى مقال سابق ، وهذا يستتبع أن تكون حرية التصرف فيه بالقدر المناسب الذى لا ينشأ عنه ضرر أو ضرار ، فقد قال صلى الله عليه وسلم لا ضرر ولا ضرار ، وقامت أحكام الإسلام كلها على هذه القاعدة الشرعية العامة المرعية ، ومن ثم كان حق الشفعة وحق الارتفاق ، وحق الفقراء فى أموال الأغنياء ، وحق ولى الأمر فى أن يفرض من الضرائب ما شاء ليحقق بها مصلحة عامة ، أو يسد بها حاجة مهمة للأمة كان ذلك كله ، وما إليه من مظاهر النسبية فى الملكية الفردية ، والنسبية فى حرية تصرف المالك ، ومعنى ذلك بعبارة أصرح وأوضح أن الملكية الفردية ليست مطلقة ، وأن حرية تصرف المالك فيما يملك ليست مطلقة ، وعلى هذا الأساس كان استغلال المال محدودا بالحلال ، ومعناه أن يكون بالطرق التى أحلها الله وبينها كتابه وسنة رسوله :

١ — فالتجارة طريق مشروع من طرق الاستغلال الحلال كما يفهم من قول النبى

صلى الله عليه وسلم : « الجالب مرزوق ، والمحتكر ملعون » ولكن التجارة في الإسلام مشروطة بالتراضي بين البائع والمشترى ، فإذا خرجت عن ذلك إلى استغلال الحاجة واختزان السلع ليشتد الطلب عليها ويرتفع سعرها ، وتباع بثمن مرتفع ، دخلت فيما يفهم من قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » ، ودخل أصحابها في مفهوم قوله صلى الله عليه وسلم : والمحتكر ملعون ، وقوله عليه السلام : لا يحتكر إلا خاطىء ، وقد بين صلى الله عليه وسلم حال المحتكر بقوله : (بئس العبد المحتكر إن سمع برخص ساءه وإن سمع بغلاء فرح) ومن ثم كان على الدولة أو ولى الأمر أن يتدخل لمنع الاحتكار والتلاعب بالأسعار ، تطبيقا لقاعدة لا ضرر ولا ضرار وتحقيقا لمصلحة المجموع التي تقدم على مصلحة الأفراد .

٢ — والقراض أو المضاربة من طرق الاستغلال الحلال ، وهو نوع من التعاون على أساس عادل بين العمل ورأس المال ومعناه أن يشترك صاحب المال بماله مع العامل بعمله أو بجزء من ماله وعمله في مشروع من المشروعات الصناعية أو الزراعية أو التجارية ، فإذا ربح المشروع الذى تعاقدا عليه اشتركا في الربح وإذا خسر اشتركا في الخسارة حسبما اتفقا عليه من نسبة كل منهما في الربح والخسارة ، النصف أو الثلث أو الربع أو أقل من ذلك أو أكثر أما الاتفاق على نصيب محدد مضمون لصاحب المال لا يزيد بزيادة الربح ولا ينقص بنقصه ولا يتحمل المال نصيبه في الخسارة إن أصيب المشروع بخسارة ، فهذا مما لا يبيحه الإسلام بل يجعل هذا النوع من الاستغلال الحرام ولا شك أن استغلال المال في هذا النوع السليم من المعاملة يفتح له مجالات واسعة ، في شركات الأسهم المتنوعة .

٣ — وإذا كان المال أرضا زراعية فلصاحبه أن يستغله بعدة طرق ، كأن يتعهدها بنفسه فيصلحها ويجلب الماء إليها ، ويتولى زرعها وسقيها ورعايتها حتى تخصب وتؤتى أكلها ، وله أن يعطيها لمن يزرعها بآلته وبذره وحيوانه على أن يكون له نسبة مما يخرج منها كالنصف أو الثلث أو الربع حسبما ينعقد عليه اتفاقهما ، وهذا النوع من الاستغلال يسمى مزارعة أو مساقاة أو مخابرة ، والأصل فيه عمل النبي صلى الله عليه وسلم كما ورد في الصحيحين ، فقد عامل أهل خيبر بشطر ما يخرج منها من زرع وثمر ثم عمل به الخلفاء الراشدون من بعده وعمل به أهل المدينة حتى قيل إنه لم يبق من المدينة أهل بيت إلا عمل به ، أما إجارة الأرض بنقد معين معلوم فقد أجازها كثير

من الفقهاء، ومنعها آخرون ولكل وجهة لا يتسع المقال للحديث عنها وتفصيل القول فيها، ولا شك أن أفضل الطرق التي تتبع في استغلال الأرض بصفة عامة هي منحها لمن يزرعها، فقد قال صلى الله عليه وسلم: من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه وعن جابر رضي الله عنه قال: كنا نخابر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنصيب من القصرى [1] ومن كذا، وكذا فقال النبي صلى الله عليه وسلم: من كانت له أرض فليزرعها أو ليحرثها أخاه وإلا فليدعها.

٤ — وإذا كان المال حيوانا. فاستغلاله بالتربية والتغذية لانتاج اللبن أو الصوف أو التسمين أو إنسال العجول حلال مشروع ويجوز كراء الدواب في مختلف الأعمال التي يحتاج فيها إلى الدواب من حرث أرض ونقل أمتعة وإدارة آلة كالساقية ونحوها، وقد قيل كلام كثير حول الشركة في تربية الحيوان والمواشي، ولم يجد بعض العلماء بأسا في هذه الشركة، إذا دفع أحد الطرفين ثمن الحيوان أو الماشية على أن يقوم الطرف الثاني بالنفقة عليها ورعايتها وينتفع في مقابل ذلك بلبنها أو عملها في حرثه ثم يكون الربح لهما والخسارة عليهما، وقد أجيز هذا النوع من الشركة بطريق القياس على الشيء المرهون فقد روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «الظهر يركب بنفقته إذا كان مرهونا، ولبن الدر يشرب بنفقته إذا كان مرهونا، وعلى الذي يركب ويشرب النفقة» وقد علق الأستاذ يوسف القرضاوي على هذا الحديث في كتابه القيم «الحلال والحرام» فقال: في هذا الحديث جعل النبي صلى الله عليه وسلم النفقة على الحيوان مقابل ركوبه إذا كان ذا ظهر يركب أو مقابل لبنه إذا كان ذا در يحلب، وإذا جاز هذا في الرهن لحاجة التعامل واستيثاق الناس بعضهم من بعض — مع أن قيمة النفقة على الحيوان قد تكون أقل أو أكثر من قيمة ما ينتفع به من ركوبها أو درها — فلا بأس أن نجيز مثل ذلك في شركة الحيوانات التي ذكرناها لحاجة الناس إليها وهذا الذي استنتجناه من هذا الحديث رأى خاص لنا، أرجو أن يكون سداداً.

وأما الاشتراك في العجول الصغيرة التي لا ينتفع فيها بعمل ولا لبن على أساس أن يكون الثمن من جانب. والنفقة من جانب. فإن قواعد الإسلام تأبى إباحة ذلك. لأن الطرف المنفق يغرم وحده دون مقابل يعود عليه من عمل أو لبن، والطرف

---

(١) القصرى بضم القاف أو كسرها ممدودا ما يبقى من الحب في قشره أو سنابله بعد الدوس أو الدوس.

الآخر هو المستفيد الغانم على حساب هذا ، وليس ذلك من العدل الذى يتحراه الإسلام فى كل صور المعاملات .

ويظهر أن الأستاذ غفل عن جانب من الصورة الأخيرة كان ينبغى ألا يغفله أو يهمله ، فإن صاحب المال قد يغرم المال كله إذا نفق العجل والعجول التى اشتراها ولا يتحمل الطرف الثانى من الغرم إلا ما أنفق أو بذل من عمل فى التربية والتغذية ، وقد تكون خسارته فى هذه الحال ضئيلة قليلة بالنسبة إلى خسارة صاحب المال ، ومع هذا فإنى لا أسمح لنفسى بالحكم على هذا النوع من الشركة . وقد يكون حكم الأستاذ الفاضل أقرب إلى الورع منه إلى العدل والإنصاف ، ولعلنا نسمع كلمة مجمع البحوث فى هذا الموضوع .

أما استغلال المال فى بناء المساكن والانتفاع بتأجيرها فلم يقل أحد بمنعه ، ولكن لولى الأمر - متى رأى جوراً فى الاستغلال - أن يتدخل لمنعه ورده إلى حده الذى يجب أن يقف عنده ولا يتعداه وهكذا نرى استغلال المال بالطرق التى ذكرناها حلالا لا إثم فيه ، وليس معنى ذلك حصر الاستغلال فى هذه الطرق ، فشراء الآلات الزراعية والصناعية والسيارات وما إليها واستخدامها فيما يحقق لأصحابها الخير والمنفعة ويجلب لهم مزيداً من الربح والكسب كل هذا حلال مشروع ما لم يخرج إلى أكل أموال الناس بالباطل واستغلال حاجتهم ، والثراء على حسابهم .

ويلاحظ مع كل هذا أن استغلال المال واستثماره فى الوجوه المشروعة النافعة قد رود الأمر به حتى لا تأكله الزكاة ، ثم هو إلى ذلك سبيل إلى أداء ما فرضه الله علينا من العبادات المالية ، وما أكثرها فى شريعة الإسلام وما أجدرها بأن تشرف بها القيم الفاضلة للاشتراكية العادلة ؟

عبد الرحيم فودة

وما المال والأهلون إلا ودائع
ولابد يوما أن ترد الودائع

« لبيد »

الذوق الأدبي
كما يراه ابن خلدون

للأستاذ علي العماري

— ٢ —

ويمضي ابن خلدون في حديثه عن الملكة فيرى أن كل ملكة تحتاج إلى أمور: ممارسة العمل، وتكرار هذه الممارسة، ثم طبع سليم يساعد على تكوين الملكة.

فلا بد لتكوين ملكة البلاغة من حفظ كثير من جيد الكلام العربي، شعره وخطابته، ورسائله، وتفهم هذا الكثير، ثم لا بد أن ينصرف المتأدب - بعد ذلك - في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم، وتأليف كلامهم، وما وعاه وحفظه من أساليبهم، وترتيب ألفاظهم، وكلما ازداد حفظه واستعماله ازدادت الملكة رسوخاً وقوة، على أنه يحتاج - مع ذلك - إلى سلامة الطبع، والتفهم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم في التراكيب، ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال.

وعندما يتحدث ابن خلدون عن علم الأدب لا يرى له ثمرة إلا تربية الذوق، ذلك الذوق الذي به يدرك إعجاز القرآن، فثمرته عند أهل اللسان الإجادة في فني المنظوم والمنثور فهم يجمعون من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالي الطبقة، وسجع متساو في الاجادة ... حتى مسائل اللغة والنحو، وأيام العرب، وأنسابهم، وأخبارهم العامة، كل ذلك قصد بدراسته الاستعانة على فهم كلام العرب، وأساليبهم ومناحي بلاغتهم؛ لأن الملكة - كما يقول ويردد - لا تحصل من حفظه إلا بعد فهمه، فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه.[1]

والملكة تتبع نوع المحفوظ؛ لأن النفس وإن كانت واحدة في جبلتها - تختلف في الناس بالقوة والضعف في الإدراكات، واختلافها إنما هو باختلاف ما يرد عليها من الإدراكات، فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر، وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع والكلام المرسل، والملكة العلمية تنشأ من مخالطة العلوم والإدراكات والأبحاث. والفقهية من مخالطة الفقهاء، وتنظير المسائل، وتخريج الفروع على الأصول ... وهكذا.

ولطرق تعليم الناشئة أثره في تربية الملكة أو تعطيلها، وعند ابن خلدون أن حفظ القرآن وحده لا ينشأ عنه - في الغالب - ملكة

(١) المقدمة ص ٥٥٣.

وعلل ذلك بأن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله ، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه ، والاحتذاء بها .

هذا رأيه ، وهـــذا تعليله . ولو أننا تغاضينا عن رأيه في صرف العرب عن الإتيان بمثل القرآن لأن هذا موضوع طويل الذيول لكان لنا أن نقول إنه ليس معنى الملكة الاحتـــذاء الكامل لأسلوب من الأساليب ، وإن أسرف ابن خلدون في التمسك بهذه النظرية ، وأكثر من ترديدها حتى عدّ المتنبي وأبا العلاء خارجين عن أصول الشعر العربي لأنهما لا يجريان على أساليب العرب في نظمهم ، وإنما معنى الملكة أن دراسة الكلام الجيد تمكن الكاتب صاحب الطبع الموهوب أن ينشئ كلاما جيداً ، ولا تلزمه أن يحتذى في كل خصائص الكلام ما درسه ، وتخرج عليه ، فليس بحتم — مثلا — لمن أطال النظر في كلام الجاحظ أن يكون أسلوبه كأسلوب الجاحظ حذو القذة بالقذة ، وإنما قد يساعده هذا على تكوين ملكة ، فيكتب بأسلوب لعله ما كان في العربية إلى عهد الجاحظ ، كما تشاهد ذلك في كثير من كتابنا الذين استقرت لهم أساليب عرفوا بها .

والذين حفظوا القرآن من شعراء العربية وخطبائها وكتابها لم يحتذوا أسلوب القرآن، وليس ذلك لأنه كان يلزمهم أن يحتذوا فصرفوا عنه ، وإنما ذلك لأن الاحتذاء الكل أثر أدبي احتذاء تاما يجعل عمل المحتذى ساقطا .

وابن خلدون يرى أن الذى يقتصر في حفظه على القرآن لا تنشأ عنده ملكة ، وبذلك يعلل قصور أهل أفريقيا والمغرب عن ملكة اللسان جملة باقتصارهم على دراسة القرآن ، ويقول إن أهل أفريقية أخف في ذلك من أهل المغرب ، لأن هؤلاء يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم ، وأما أهل الأندلس فقد أفادهم التفنن في التعليم ، وكثرة رواية الشعر والترسل ، ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي، وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث.

وقد وقفت طويلا عند هذه العبارات لابن خلدون ، فقد سبق هذا الكلام بقليل قوله : « وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو ، وهذا هو الذى يراعونه في التعليم ، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ، ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا في التعليم ، فلا يقتصرون لذلك عليه ، بل يخلطون في تعليمهم الولدان رواية الشعر في الغالب ، والترسل وأخذهم بقوانين العربية ، وحفظها » .

فرأيته - فيما بدا لي - يرجع عما قاله ، ثم رجعت إلى نفسي فقلت لعله أراد - أولا - من جعل القرآن أصلا ، ومن تعلم القرآن من حيث هو تحفيظه للولدان دون دراسة شيء من علومه كالتفسير والبلاغه والنحو ، وهو ما أراده في عبارته الثانية ، وأيا ما كان فأهل الأندلس - في الحقيقة ، وكما يرى ابن خلدون - أهل أدب بارع ، أو مقصر ، على حسب اختلاف الدراسة والطبع .

ويظهر من كلامه أن هناك تعليما أولا ، وهو تعليم الصبي ، وتعليما ثانيا ، وهو تعليم الولدان في عصر الشبيبة ، وربما فسر لنا ذلك بعض ما يتراءى من التناقض بين بعض عباراته .

ويسلمه المنطق ، والتحـــديد العلمي ، والخضوع إلى التعليلات النظرية البحته إلى قضية أبدى رأيه فيها بكل صراحة ووضوح .

فقد أصل هذا الأصل ، وهو أن جودة الملكة بجودة المحفوظ ارتفاعا وانخفاضا ، فهو يرى - مثلا - أن من كان محفوظه شعر حبيب أو العتابي ومن في طبقتهما ، أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هارون ومن في طبقتهما تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة ممن يحفظ شعر ابن سهل من المتأخرين أو ابن النبيه أو ترسل البيساني أو العماد الإصبهاني لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك (١) .

وعنده أنه تهيأ للإسلاميين من حفظ الكلام الجيد مالم يتهيأ للجاهليين، فالإسلاميون حفظوا من القرآن والحديث ومن كلام أهل الجاهلية في حين أن هؤلاء لم يحفظوا هذا كله ، ورتب على ذلك أن الشعراء الإسلاميين من أمثال عمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والأحوص وحسان بن ثابت وبشار أرفع طبقة في البلاغة من الشعراء الجاهليين أمثال النابغة وعنترة وزهير ؛ وكلام الإسلاميين في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة ، وأصفى رونقاً ، وأرصف مبنى ، وأعدل تثقيفاً من كلام الجاهليين ، ثم يحتكم أخيراً إلى الطبع والذوق فيقول : والطبع السليم ، والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة ، ويعود فيقول : وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والبصر بالبلاغة ، ويذكر أنه حدث بذلك شيخه أبا القاسم قاضي غرناطة لعهده ، وكان - كما يقول - شيخ هذه الصناعة ، استبحر في علم اللسان ، وجاء من وراء الغاية فيه ، قال : سألته يوماً ، ما بال العرب الإسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين ؟ ولم يكن ليستنكر ذلك بذوقه ، فسكت طويلا ، ثم قال لي : والله ، ما أدرى ،

(١) المصدر السابق ص ٥٧٨

فقلت : أعرض عليك شيئاً ظهر لى فى ذلك ، ولعله السبب فيه ، وذكرت له هذا الذى كتبت ، فسكت معجباً ، ثم قال لى : يافقيه[1] ، هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب ، وكان من بعدها يؤثر محلى ، ويصيخ فى مجالس العلم إلى قولى ، ويشهد لى بالنباهة فى العلوم .

وقبل أن نناقش هذا الرأى نحب أن نشير إلى بعض ملاحظاتنا على كلام ابن خلدون هذا .

فأول ما نلاحظه أن مدار البلاغة عند ابن خلدون على اللفظ ، فقد جعل وجه التفضيل بين الجاهليين والإسلاميين الديباجة الحسنة ، والرونق الصافى ، ويدخل فى هذا ما يشير به إلى الصنعة من مثل المبنى المرصوف ، والتثقيف المعتدل ، وهذه الكلمة الأخيرة واضحة الدلالة على أن ابن خلدون يؤثر الصنعة على الطبع ، فالتثقيف والتهذيب للشعر أعدل عند الإسلاميين .

وهو يصرح فى موضع آخر بأن فضيلة الكلام ترجع إلى اللفظ حيث يقول فى أول الفصل السابع والأربعين : (اعلم أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى ، وإنما المعانى تبع لها) ويقول بعد أن يسير قليلا فى هذا الفصل : (وأيضا فالمعانى موجودة عند كل واحد ، وفى طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى) وهو بالطبع تابع فى ذلك للفظيين من أمثال الجاحظ وأبى هلال وابن رشيق ، وقد ردد كلمة الجاحظ ، المعانى مطروحة فى الطريق ، يعرفها العجمى والعربى وإنما الشأن فى إقامة الوزن . . إلخ .

وثانى هذه الملاحظات أن آخر عباراته يدلنا على هذا الخلق الذى كان يسيطر على ابن خلدون ، والذى ظهر فى كثير من كتاباته عن نفسه ، وخاصة فى كتابه (التعريف) وهو خلق الإعجاب بالنفس ، فشيخه قاضى غرناطة أثنى ثناء مستطابا على رأيه هذا ، وكان بعد ذلك يؤثر محله ، وهو يلقى أول درس فى مصر بالمدرسة القمحية ، ويصف هذا الدرس ويقول فى ختام وصفه : وانفض ذلك المجلس ، وقد سبقتنى العيون بالتجلة والوقار .

وكذلك يقول حين يتولى كرسى الحديث فى مدرسة صرغتمش ، ويلقى أول درس فيها ، ويختم حديثه قائلا : وانفض ذلك المجلس وقد لاحظتنى بالتجلة والوقار العيون ، واستشعرت أهليتى للمناصب القلوب ، وأخلص فى ذلك الخاصة والجمهور .

وكان لهذا الخلق مظهر آخر تحدث عنه ابن حجر فقال : كان ابن خلدون يتمسك

(١) كان لقب الفقيه عند أهل الأندلس أعلى الألقاب العلمية .

بزيه المغربى ، ويأبى أن يرتدى زى القضاة لا لشىء سوى حبه المخالفة فى كل شىء .

قلت : ولعل رأيه فى الجاهليين والإسلاميين من هذا ، من حبه المخالفة فى كل شىء .

وثالث هذه الملاحظات أنه فضل الإسلاميين جملة ، هؤلاء الذين عاصروا النبى صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين ، والذين عاصروا الدولة الأموية ، وصدرا من الدولة العباسية ، على الجاهليين جملة ، فكل واحد من أولئك يفضل كل واحد من هؤلاء . فبشار - مثلا - أعلى طبقة فى البلاغة من أى شاعر جاهلى ... وهكذا .

ورابع هذه الملاحظات أن ابن خلدون اعتمد - فى حكمه - على شيئين ، طبقة الجودة فى المحفوظ وكثرته ، ثم الذوق السليم .

ثم نعود بعد هذه الملاحظات إلى مناقشة رأى ابن خلدون فنرى أنه وقع فى أخطاء .

أولها : اعتماده على ذوقه ، وهو ذوق أدبى متهم لأن الرجل خلط محفوظه من الشعر والنثر بكثير من قوانين العلوم ، فقد حفظ - كما حدث عن نفسه - قصيدتى الشاطبى الكبرى والصغرى فى القراءات ، وتدارس كتابى ابن الحاجب فى الفقه والأصول ، وجمل الخونجى فى المنطق ، وبعض كتاب التسهيل ، وشهد هو بأن ذلك المحفوظ من قوانين التعليم الذى امتلأت به ذاكرته قد خدش وجه ملكته ، تلك التى استعد لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب .

ولعل ذوق شيخه أبى القاسم لا يسمو كثيراً عن ذوقه .

وليس يقف المحفوظ مهما جاد وكثر أمام الطبع الصافى ، وقد اتفقت كلمة النقاد على أن أحسن أشعار الأمم ما قالته أيام بداوتها ، وأن السر فى ذلك هو صفاء الطبع وسلامته ، وقد قالها الناقد العربى الأصيل واضحة قوية ، ذكر الآمدى فى كتابه (الموازنة بين الطائيين) أن (الذى يورده الأعرابى ، وهو محتذ على غير مثال أحلى فى النفوس ، وأشهى إلى الأسماع ، وأحق بالزيادة ، والاستزادة مما يورده المحتذون على الأمثلة) . وقد أخذ هذا الكلام من الجاحظ حيث يقول : ليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا آنق ، ولا ألذ فى الأسماع ، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة من حديث الأعراب العقلاء الفصحاء والعلماء البلغاء [1] .

ومن عجب أن ابن رشيق - ولعل ابن خلدون نظر إليه - يفضل الصنعة على الطبع ، فيرى أن البيت المصنوع إذا كان فى جودة المطبوع كان أفضل ، ويقول : ولسنا ندفع أن البيت إذا وقع مطبوعا فى غاية الجودة ، ثم وقع فى

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٥ ط هارون.

معناه بيت مصنوع فى نهاية الحسن لم تؤثر فيه الكلفة ، ولا ظهر عليه التعمل كان المصنوع أفضلهما [1] .

وهو كلام غريب ، ولا يعتقده - فى رأيى - إلا الأدباء الذين غلبت الناحية العلمية على أذهانهم ، أما أصحاب الأذواق الأدبية الخالصة فلا يؤثرون على الطبع شيئاً ، فى أى فن من الفنون المسموعة أو المنظورة .

ويؤيد اتجاه ابن رشيق هذا أنه أورد ثلاثة أبيات لبعض الرؤساء يتشوق فيها إلى أهله ، وقال إن أحداً لن يزيد عليها شيئاً ولو كان أعرابياً يتشوق إلى نجد ، وكأنه شعر بأنه متهم فى حكمه ، ولكنه - أى ابن رشيق - رأى الحق فعرفه ، وهذه هى الأبيات :

ولى كبد مكلومة من فراقكم
أطامنها صبراً على ما أجنت
تمنتكمُ شوقاً إليكم وصبوة
عسى الله أن يدنى لها ما تمنت
وعين جفاها النوم واعتادها البكا
إذا عن ذكر القيروان استهلت

وقد أكثر شعراء العرب من الحنين إلى نجد ، وجاءوا فى ذلك بأشعار غاية فى الرقة والطبع ، ولن يسع صاحب الذوق السليم إلا أن تطربه هذه الأبيات التى زين بها ابن رشيق وحلى باباً من أبواب كتابه - كما يقول :

ولنأخذ على سبيل المثال بعض أبيات من قصيدة الصمة بن عبد الله القشيرى :

قفا ودعا نجدا ومن حلّ بالحمى
وقل لنجد عندنا أن يودعا
بنفسى تلك الأرض ما أطيب الرّبا
وما أحسن المصطاف والمتربعا
بكت عينى اليسرى فلما زجرتها
عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى
على كبدى من خشية أن تصدعا

فأين أبيات مولى ابن رشيق الساذجة من هذا الشعر الرائع المطبوع ، كبده مجروحة من فراق الأحبة ، وقد تمنتهم شوقا إليهم وصبوة ، عسى الله أن يحقق لها أمنيتها ، وعينه جفاها النوم ، واعتادها البكا ، وإذا حضر ذكر الوطن استهلت ، إن كل هذه المعانى البسيطة الساذجة لا تعدل كلمة واحدة من شعر الصمة ، وأين استهلال العين بالبكاء إذا ذكر القيروان مما أبدع به الصمة فى البيت الأخير ؟

أنا لا أتهم ابن رشيق بالتعصب لذاك المولى ، ولكنى أتهم ذوق ابن رشيق نفسه فى هذا الموضع على الأقل .

---

(١) العمدة ج ١ ص ٨٥ طبعة أولى .

وثانى أخطاء ابن خلدون أنه لم يعر المعنى أية عناية ، وجعل الشأن كله للفظ فى حين أنه لو نظر إلى المعانى ، وفاضل بين الجاهليين والإسلاميين فيها لوجد مجال القول أمامه متسعا ، فقد كان يمكن أن يقول — مثلا — إن الإسلاميين وجدوا من اتساع الحياة أمامهم ، ومن تغير نظام المعيشة ، ونظام الحياة السياسية والاجتماعية ما يسر لهم من المعانى ما لم يعرفه الجاهليون ، كان يمكن أن يقول شيئا مثل هذا فيجد من يصيخ إلى قوله ، ويؤمن على حكمه .

لكنه وقف عند اللفظ ، وجاء بتشبيه غير سليم حين شبه المعانى بالماء والألفاظ بالأوانى التى منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف ، فالجودة تختلف فى الأوانى المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء ، لأنه واحد ، وقاس على ذلك جودة اللغة وبلاغتها فى الاستعمال فإنها تختلف باختلاف طبقات الكلام فى تأليفه ، والمعانى واحدة فى نفسها .

وأنا ـ والله ـ ما أدرى ، كيف يذهب عن هذا العبقرى النابغة أن المعانى تختلف أيضا ، وأن الذى يوضع فى الأوانى ليس نوعا واحدا من السوائل ، وإنما يوضع فيها الماء والخمر والزيت والنفط ، وما إلى ذلك .

على أن المعانى الجاهلية فى دقتها ووضوحها لا تقل روعة عن المعانى اللاحقة بها ، ولأولئك فضل السبق حين يشترك المعنيان أو يتقاربان ، ولا نقول ـ فى المحدثين ـ كما كان يقول أبو عمرو بن العلاء : (ما كان من حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم ، ليس النمط واحدا ، ترى قطعة ديباج ، وقطعة مسح ، وقطعة نطع ...)[1] .

بل نقول : إن للشعراء فى كل عصر من المعانى الجديدة ما لا يخطر لمن سبقوهم على بال.

وقد وقف الشاعر عند معنى لأبى نواس ، وأشاد بشعر هذا الشاعر ، ووصفه بجودة السبك ، وجودة الطبع ، والحذق فى الصنعة ، وقال : إن الذى لا يخضع لعصبية يفضل أبا نواس ، فإن اعترضته العصبية لا يبصر الحق من الباطل .

والمعنى الذى وقف عنده الجاحظ هو وصف أبى نواس لكلاب الصيد بأنهن (يرفعن ما لم يقع ، وهو معنى جميل ـ ولاشك ـ ولكن الذى أعجب الجاحظ ـ كما هو واضح من كلامه ـ إنما هى الناحية اللفظية ، ولا اعتراض لنا على ما قاله فى أبى نواس ، ولكن ، أليس وصف امرىء القيس لفرسه بأنه (مكر ، مفر ، مقبل ،

(١) العمدة لابن رشيق حـ ١ ص٥٧ . ط أولى .

مدبر ، معا) لا يقل روعة ودقة ، وحسن أداء عن معنى أبى نواس ، وإن كانت كلمة أبى نواس ـ عندى ـ أحلى .

نعم ، للمحدثين معان كثيرة لا ترى لها شبها فى الشعر الجاهلى ، ويحضرنى منها الآن وأنا أكتب هذا البحث معنى جميل لإبراهيم ابن العباس الصولى فى وصف قصر ليلة من من ليالى السرور :

وليلة من الليالى الزهر
قابلت فيها بدرها ببدرى
لم تك غـــير شفق وفجر
حتى تولت وهى بكر الدهر

فقد تفنن الذين سبقوه فى وصف أيام السرور ولياليه بالقصر، ولكن واحدا منهم ـ فيما أعلم ـ لم يقع على هذا المعنى (لم تك غير شفق وفجر) .

وقد يكون هذا وجها من وجوه تفضيلهم على الجاهليين ، ولكن ابن خلدون وسلفه ومشايعه لا يرون لأحد فضلا عن طريق المعانى ، مع أن ابن خلدون انساق مع الطبقة حين حكم على شعر الربانيات والنبويات بأنه قليل الجودة لأن معانيها متداولة (١) .

والذى أريد أن أؤكده هنا أن الجاهليين أصدق طبعاً ، والطبع مقدم على الصنعة فى كل فن ، وأن لمعانيهم وقعا فى القلب ، ولهم فضل السبق بها ، وأن من جاءوا بعدهم ربما فضلوهم باتساع المعانى وجدتها ، وبذلك يبدو لنا ضعف الحكم الذى ذهب إليه ابن خلدون .

وسواء التفتنا إلى المعانى أم لم نلتفت إليها فان هذه المدرسة التى أنشأها الجاحظ ، وكان من تلامذتها العسكرى ، وابن رشيق ، وابن خلدون يرون أن المولد (أرق حوكا ، وأحسن ديباجة) .

وثالث أخطاء ابن خلدون أنه ذكر فى الشعراء الإسلاميين الذين فضلهم على الجاهليين سيدنا حسان بن ثابت ، والنقاد يكادون يجمعون على أن شعر حسان نفسه كان فى الإسلام أضعف منه فى الجاهلية ، فكيف يفوق حسان من سبقوه ، وهو لم يفق ـ وهو مسلم ـ نفسه ، وهو جاهلى .

رابع هذه الأخطاء أن ابن خلدون لم يجعل لغير المحفوظ دخلا فى المفاضلة ، وهو تحجير واسع ، لأن لنبوغ الشاعر وتقدمه أسباباً كثيرة غير نوع المحفوظ لعل فى مقدمتها ما منحه الشاعر من طبع ، وما يفاض عليه من أسرار ؟

على العمارى

---

(١) المقدمة ص ٥٧٥ .

غزوة أحد
بين القرآن والشعر

للأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوي

— ٣ —

حمل بنو عبد الدار اللواء ، وقد رأينا هند امرأة أبي سفيان تحرضهم على الثبات في الميدان ، ورأينا أحدهم يرتجز موطنا نفسه على صدق القتال .

وحافظ بنو عبد الدار على اللواء ، إذا سقط في المعركة قتيل ، قام مقامه آخر يحمل اللواء ، حتى قتل تسعة منهم ، قتل حمزة واحدا ، وقتل على آخر ، ويظهر أنهم كانوا مثال الثبات ؛ لدرجة أن قتل على لواحد منهم هو طلحة بن أبي طلحة دفع أحد الشعراء إلى مدح على بقوله :

لله أي مذبب عن حرمة
أعني ابن فاطمة المعم المخولا
سبقت يداك له بعاجل طعنة
تركت طليحة للجبين مجدلا
وشددت شدة باسل ، فتركتهم
بالجر إذ يهوون أجدل أجدلا

وكان آخر من حمل اللواء صؤاب ، وهو غلام لبني عبد الدار حبشي ، أخذ اللواء ، وقاتل به حتى قطعت يداه ، ثم برك عليه ، فأخذ اللواء بصدره وعنقه حتى قتل عليه ، وخر اللواء صريعاً حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية ، فرفعته لقريش ، فالتفوا به واجتمعوا حوله .

كان ذلك ، بدون ريب ، مجال فخر المشركين لهجاء حسان ، وحاول أن يجد منفذا يقلل به من شأن هذا الفخر ؛ فهو يعترف لبني عبد الدار بالشجاعة والشهامة والصبر على القتال حتى ماتوا ، ولكنه يعير قريشا بأنها لم تستطع حماية اللواء ولا حمله بعد أن سقط من يدى بني عبد الدار ، بل مضوا من الميدان يفرون في خفاء ؛ وقد كان ذلك في أول المعركة عندما كان النصر في جانب المسلمين ، واستمع إليه يقول متحدثا عن صبر بني عبد الدار ، وانهزام بني مخزوم :

ولي البأس منكم إذ حضرتم
أسرة من بني قصي صميم
تسعة تحمل اللواء ، وطارت
في رعاع من القنا مخزوم
لم يولوا حتى أبيدوا جميعاً
في مقام ؛ وكلهم مذموم

بدم عاتك ، وكان حفاظاً
أن يقيموا ، إن الكريم كريم
وأقاموا حتى أزيروا شعوباً
والقنا فى نحورهم محطوم
وقريش تلوذ منا لواذاً
لم يقيموا ، وخف منها الحلوم
لم تطق حمله العواتق منهم
إنما يحمل اللواء النجوم

وهكذا وجد حسان فى ترك اللواء ملقى لم يحمله رجل من قريش بعد أن سقط من يدى بنى عبد الدار مجالا للغض من قريش ، كما وجد فى هربهم فى أول المعركة مجالا للحط من شأنهم وإضعاف ما افتخروا به من الثبات حول اللواء .

وحينا يجد حسان فى حمل « صؤاب » للواء مجالا للذم لا للفخر ، إذ يقول :

فخرتم باللواء ، وشر فخر
لواء حين رد إلى صؤاب
جعلتم فخركم فيه لعبد
من الأم من يطا عفر التراب
أقر العين أن عصبت يداه
وما إن تعصبان على خضاب

أما الحارثية التى رفعت اللواء بعد « صؤاب » ففضلها عليهم لا ينكر ، فلولاها لأصبحوا أرقاء يباعون عبيدا فى الأسواق .

فلولا لواء الحارثية أصبحوا
يباعون فى الأسواق بيع الجلائب

وكان قتل أصحاب اللواء مجال فخر لكعب ابن مالك ؛ لأن حملة اللواء يكونون سادة الناس وأشرافهم ، إذ يقول :

أبلغ قريشاً ، وخير القول أصدقه
والصدق عند ذوى الألباب مقبول
أن قد قتلنا بقتلانا سراتكم
أهل اللواء ، ففيما يكثر القيل

أما فخر المشركين بمن قتلوا من المسلمين يوم أحد فقد قابله شعراء المسلمين بفخر مثله بمن أصابوا من المشركين يوم بدر ، فالحرب دول ، ويوم بيوم ، وإذا كانوا قد أصابوا يوم أحد من المسلمين ، فقد أصاب المسلمون منهم كذلك فى تلك المعركة ؛ فنسمع حسان يرد على فخر ابن الزبعرى ، ويقول له : إن هذا الفخر مصدره ما ذهب بلبه من وقعة بدر التى تفضل هذه المعركة ، وتدل على بسالة المسلمين وشجاعتهم ، ولقد كان النصر لنا فى أول المعركة ، حيث فررتم أمام قوة بأسنا قال حسان :

ذهبت بابن الزبعرى وقعة
كان منا الفضل فيها لو عدل
ولقد نلتم ، ونلنا منكم
وكذلك الحرب أحيانا دول
نضع الأسياف فى أكتافكم
حيث نهوى عللا بعد نهل
إذ تولون على أعقابكم
هربا فى الشعب أشباه الرسل

إذ شددنا شـــدة صادقة
فأجأناكم إلى سفح الجبل
برجال لستم أمثالهم
أيدوا جبريل نصراً فنزل
وعلونا يوم بدر بالتقى
طاعة الله ، وتصديق الرسل
وقتلنا كل رأس منهم
وقتلنا كل جحجاج رفل
وتركنا فى قريش عورة
يوم بدر ، وأحاديث المثل

ويتحدث عبد الله بن رواحة عن بدر ، وعمن سقط صريعا من رؤساء المشركين فيقول :

وقبل اليوم ما عرفوا ، وذاقوا
وقائعنا بهـا يشفى الغليل
نسيتم ضربنا بقليب بدر
غداة أتاكم الموت العجيل
غداة ثوى أبو جهل صريعا
عليه الطير حائمة تجـــول
وعتبة وابنه خـرا جميعاً
وشيبة عضه السيف الصقيل
ومتركنا أميـــة مجلعبا
وفى حيزومه لدن نبيل
وهام بنى ربيعة سائلوها
ففى أسيافنا منها فـلول

فاذا كان أبو سفيان وغيره من شعراء قريش يفتخرون على حمزة فهاهو ذا كعب يعدد بعض من أصابوه يوم بدر ، كما فعل حسان أيضا ، وهو يرد على أبى سفيان ، ويقول :

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم
ولست لزور قلته بمصيب
أتعجب أن أقصدت حمزة منهم
نجيبا ، وقد سميته بنجيب
ألم يقتلوا عمراً ، وعتبة وابنه
وشيبة ، والحجاج ، وابن حبيب
غداة دعا العاصى عليا ، فراعه
بضربة عضب بله بخضيب

ويفخر كعب بن مالك بأنهم قد انتصروا بالملائكة فى يوم بدر :

ويوم بدر لقيناكم لنا مـدد
فيه مع النصر ميكال وجبريل

ويذكر حسان أنهم فى معركة أحد أيضا قد قتلوا بعض صناديد الشرك ، كما قتل بعض صناديد المسلمين ، إذ يصف جند الرسول قائلا :

بأيديهم بيض إذا حمش الوغى
فلا بد أن يردى لهن صريع
كما غادرت فى النقع عتبة ثاويا
وسعداً صريعا ، والوشيج شروع
وقد غادرت تحت العجاجة مسندا
أبيا وقد بل القميص نجيع
بكف رسول الله حيث تنصبت
على القوم مما قد يثرن نقوع

أولئك قوم سادة من فروعكم
وفى كل قوم سادة وفروع

فكأنه يقول لهم : إن أصبتم منا فى معركة أحد فقد أصبنا منكم فيها .

وافتخر شعراء الإسلام بالصبر فى الحرب وبأنهم يتحملون نتائجها فى شجاعة وثبات ، فلا يستطيع شىء أن يفت فى عضدهم ، يقول كعب بن مالك مجيباً هبيرة بن أبى وهب :

ونحن أناس لا نرى القتل سبة
على كل من يحمى الذمار ويمنع
جلاد على ريب الحوادث لا نرى
على هالك عيننا لنا الدهر تدمع
بنو الحرب ، لا نعيا بشىء نقوله
ولا نحن مما جرت الحرب نجزع
بنو الحرب إن نظفر فلسنا بفحش
ولا نحن من أظفارها نتوجع

والشاعر بذلك يؤكد للأعداء أنهم يستقبلون الهزيمة من غير أن ينهار لهم عزم، أو تتضعضع لهم إرادة ، بل إنهم يستعدون لجولة جديدة ، مطمئنين إلى النصر فيها ، يقول عبد الله بن رواحة :

ألا من مبلغ عنا لؤيا
فبعد اليوم دائلة تدول
وقبل اليوم ما عرفوا وذاقوا
وقائعنا بها يشفى الغليل

وعنى شعراء المسلمين برد تهمة الهرب التى رماهم بها المشركون ، فهذا ضرار بن الخطاب يتحدث عن مصرع حمزة ، وأنه كان عند ما سقط فى الميدان كأنه :

حوار ناب ، وقد ولى صحابته
كما تولى النعام الهارب الشرد

وحسان يرد على ذلك بأن الحق سوف يتضح ، فتنهار أمامه هذه الدعوى الكاذبة ؟ لأن الأوس والخزرج ثبتوا فى الميدان ، ودافعوا دفاعا مجيدا ، وما كان منهم جبان ولا هياب ، وذلك إذ يقول :

وقل : إن يكن يوم بأحد يعده
سفيه فإن الحق سوف يشيع
فقد صابرت فيه بنو الأوس كلهم
وكان لهم ذكر هناك رفيع
وحامى بنو النجار فيه ، وصابروا
وما كان منهم فى اللقاء جزوع

ولذلك أكثر شعراء المسلمين من وصف شجاعتهم التى ورثوها عن آبائهم، وسيورثونها أبناءهم من بعدهم ، يقول كعب بن مالك :

فإن كنت عن شأننا جاهلا
فسل عنه ذا العلم ممن يلينا
بنا ، كيف نفعل إن قلصت
عوانا ، ضروسا ، عضوضا ، حجونا
ألسنا نشد عليها العصا
ب ، حتى تدر ، وحتى تلينا

ويوم له رهج دائم
شديد التهاول حامى الأرينا
تخال الكماة بأعراضه
ثمالا على لذة منزفينا
تعاور أيمانهم بينهم
كئوس المنايا بحد الظبينا
شهدنا ، فكنا أولى بأسه
وتحت العماية والمعلمينا
وعلمنا الضرب آباؤنا
وسوف نعلم أيضاً بنينا

لحديث شعراء المسلمين عن الشجاعة يدفعون به تهمة الفرار من ميدان القتال .

وظهر الفخر بالعقيدة الجديدة عند شعراء المسلمين ، فرأينا حسان بن ثابت يعترف بنصرة رسول الله ، ويعير قريشاً بكفرهم ، ويعلن أن الكافر والمسلم ليسا سواء ، فيتحدث عن الأوس والخزرج ، وأنهم :

أمام رسول الله ، لا يخذلونه
لهم ناصر من ربهم وشفيع
وفوا إذ كفرتم يا سخين بربكم
ولا يستوى عبد وفى ومضيع

كما يذكر لهم أن قتلى المسلمين فى الجنة ، وقتلاهم فى النار :

فلا تذكروا قتلى ، وحمزة فيهم
قتيل ثوى لله ، وهو مطيع
فإن جنان الخلد منزلة له
وأمر الذى يقضى الأمور سريع
وقتلاكم فى النار أفضل رزقهم
حميم معاً فى جوفها وضريع

ويقول كعب بن مالك :

وأشياع أحمد إذ شايعوا
على الحق ذى النور والمنهج
فما برحوا يضربون الكماة
ويمضون فى القسطل المرهج
كذلك حتى دعاهم مليك
إلى جنة دوحة المولج
أولئك ، لا من ثوى منكم
من النار فى الدرك المرتج

بل ظهر أثر العقيدة الجديدة فى الترحيب بالموت فى سبيل الله ، يقول :

إن تقتلونا فدين الحق فطرتنا
والقتل فى الحق عند الله تفضيل

ويقول أيضا مخاطبا المشركين :

فخرتم بقتلى أصابتهم
فواضل من نعم المفضل
فحلوا جناناً ، وأبقوا لكم
أسوداً تحامى عن الأشبل

فهو يرى القتل فضلا يمنحه الله من يستشهد فى سبيل دينه ، وذلك أثر العقيدة الجديدة التى جاء بها القرآن الكريم ؟

« للبحث بقية »

دكتور أحمد أحمد بدوى

رسالة المسجد في نشر الثقافة والحضارة

للأستاذ أحمد الشرباصي

(تتمة البحث)

بين المسجد والمدرسة :

تنقل التعليم فى المجتمع الإسلامى فى أماكن متعددة ، فهناك « الكتاب » أو « المكتب » الذى بدأ منذ عهد بعيد لتعليم القراءة والكتابة ، وتحفيظ القرآن الكريم ، وهناك قصور الخلفاء والأمراء ومنازل العلماء ، وهناك حوانيت الوراقين ، وهناك المساجد والجوامع والزوايا والخلاوى ، ثم كانت هناك المدرسة .

وقد بدأ التعليم فى المسجد ، ثم انتقل إلى المدرسة ، وذلك لمنع الضجيج الذى يحدث فى أثناء التدريس ، وللمحافظة على وقار المسجد وإبعاده عن حدة المحاورة والمناقشة ولكى يجد المعلمون فى المدارس وظائف يحترفونها ويرتزقون منها ؛ لأن التعليم فى المساجد يقوم على التطوع والاحتساب ، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يحتسب حين يعلم ويثقف الناس فى المساجد ، والصحابة اقتدوا به فى ذلك ، وكذلك التابعون وكان الصحابة يرون أن أخذ الأجر على تعليم القرآن أمر مكروه .

ومع أن تعليم المجموعات الكبيرة من الصبية أو الفتية قد انتقل من المسجد إلى المدرسة ، فقد ظل الارتباط بين المسجد والمدرسة قائما ، بحيث نجد العادة تجرى بأن تلحق بالمسجد مدرسة ، وظل التشابه بين المسجد والمدرسة قويا ، فهناك مدرسون يعينون فى المساجد ، وهناك أئمة أو مؤذنون يعينون فى المدارس ، فكأن المدرسة مسجد وكأن المسجد مدرسة .

يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى كتاب « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » هذه العبارة :

« إن التعليم عند المسلمين كان غريبا أمره يكاد يكون خفيا سره : مسجد أو مدرسة تابعة لمسجد ، يجلس فيها للتدريس الفقيه والمتكلم والمحدث والنحوى والمتأدب والفيلسوف والفلكى والمهندس ، ينتقل الطالب من بين يدى الفقيه ليجلس بين يدى الفيلسوف ، ومن مجلس الحديث إلى مجلس الأدب ، وإذا وقعت مذاكرة بينهم فى مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها فى الإقناع

والإلزام ، وسقطت قيمة الغلو فى التعبير ، وأخذ التسامح بينهم مأخذه » .

وينبغى أن نلاحظ هنا أن المدارس بصورتها النظامية قد تأخر إنشاؤها فى المجتمع الإسلامى ، وأول مدرسة منظمة - وهى المدرسة النظامية ببغداد المنسوبة إلى الوزير نظام الملك من السلاجقة - أنشئت وتمت سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، فكان المسجد طول هذه القرون السابقة لهذا التاريخ يقوم بواجب التثقيف والتعليم .

ولقد قلت : إن المدرسة كانت تقوم بجوار المسجد فى العادة ، وعلى ذلك عشرات من الأدلة والأمثلة فهناك « المدرسة المستنصرية » ببغداد التى أنشئت بين عامى ٦٢٥/٦٣١ هـ كان فيها إيوان لكل مذهب يوجد به المسجد وموضع التدريس ، وهناك « مسجد ديوريكى » ومدرسته فى تركية ، تم سنة ست وعشرين وستمائة ، ومعه مدرسة وتعلو جميع أروقة الجامع والمدرسة قبوات . وتقع المدرسة خلف جدار المحراب ، وبناؤها من طراز بناء الجامع .

وهناك « مدرسة صيرت جالى بقونية » بتركية ، أسست سنة أربعين وستمائة ، وتتألف هذه المدرسة من إيوان لبيت الصلاة ، به محراب تحف به قاعتان لكل منهما قبة . وهناك « مسجد إينجة » ومدرسته بقونية فى تركية ، وهناك « مدرسة وجامع قرامين » من العصر السلجوقى فى إيران ، تما سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة .

وهناك المدرسة القمحية التى أنشأها صلاح الدين سنة ست وستين وخمسمائة بجوار جامع عمرو . ومسجد الإمام الشافعى كان أصله مدرسة تسمى بالمدرسة الصالحية ، بناها صلاح الدين سنة خمس وسبعين وخمسمائة بجوار قبر الإمام الشافعى .

وهناك المدرسة الأقبغاوية الملحقة بالجامع الأزهر الشريف ، وقد أنشأها الأمير علاء الدين أقبغا سنة أربعين وسبعمائة ، وهناك المدرسة الطيبرسية الملحقة أيضاً بالجامع الأزهر الشريف ، أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندارى سنة تسع وسبعمائة . وهاتان المدرستان تشغلهما الآن دار المكتبة الأزهرية ، الموجودة على يسار الداخل من باب الجامع الأزهر الشريف ، ويقول كتاب « تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى » عنهما :

« وهاتان المدرستان تمثلان تطوراً فى حياة المسجد والمدرسة معاً ، فقد أصبحت المدرسة هى المعهد العلمى المفضل ، وهى تمثل أيضاً نوعاً جديداً من الجامعات يتحد فيها المسجد بالمدرسة ، وقد أكد هذا من صفة الأزهر العلمية ، وأصبح مسجداً تعليمياً دائماً ، تعاونه فى عمله كليتان ملحقتان به ، وهو أمر لم يكن معروفاً فى المسجد من قبل » .

ويحدثنا التاريخ عن المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق فى مصر ، وكذلك المدرسة القمحية وكانت خاصة بفقهاء المالكية والمدرسة الصرغتمشية الملاصقة لجامع ابن طولون بناها

الأمير سيف الدين صرغتمش الناصرى سنة سبع وخمسين وسبعمائة ، ومدرسة السلطان حسن كانت مدرسة وجامعا ، وهى التى تسمى الآن جامع السلطان حسن ، ومدرسة الظاهر برقوق ، كانت تستخدم كمدرسة وخانقاه ، ثم صارت تستخدم مسجدا للصلاة .

وهناك مدرسة الصهريج بفاس، بناها الأمير أبو الحسن بن أبى سعيد ، وموضعها غربى جامع الأندلس من حضرة فاس ، والمدرسة العظمى أو مدرسة العطارين بفاس ، بإزاء جامع القرويين ، أشرف على إنشائها الشيخ أبو محمد عبد الله بن قاسم المزوار ، والمدرسة العظمى بمراكش قبلى جامع ابن يوسف .

وهناك المدرسة المصباحية بفاس ، التى انشأها السلطان أبو الحسن سنة ثنتين وأربعين وسبعمائة ، وموضعها جوف جامع القرويين وسميت بهذا الاسم نسبة للفقيه أبى الضياء مصباح بن عبد الله الياصوتى الذى كان يتولى التدريس بها، وتسمى أيضا مدرسة الرخام .

ويتحدث كتاب « تاريخ الجامعات الإسلامية » عن المسجد الأقصى وتاريخه ، ثم يسرد المدارس التى أنشئت حوله بقوله :
« وفى العصرين الأيوبى ثم المملوكى أنشئت بداخله وحوله عدة مدارس أكدت صبغته العلمية ، وجعلت منه جامعة إسلامية كبرى ، أهمها المدرسة الشريفة السلطانية الأشرفية داخله ، بالقرب من باب السلسلة ، وسبب بنائها أن الأمير حسن الظاهرى من أمراء المماليك كان قد بنى المدرسة القديمة للملك الظاهر خشقدم ، ثم بعد وفاته سأل الملك الأشرف قايتباى قبولها ، فقبلها منه ونسبت إليه ، ورتب لها شيخا وصوفية وفقهاء ، وصرف لها المعاليم .

ثم حضر الملك الأشرف قايتباى إلى القدس فى سنة ٨٨٠ هـ فلم تعجبه ، وهدمها وأنشأ أخرى مكانها أوسع مساحة وأفخم بناء .

ومما أنشىء حول المساجد من المدارس المدرسة الناصرية التى سميت فيما بعد بالغزالية لإقامة الإمام أبى حامد الغزالى بها . وقد أعاد إنشاءها الملك المعظم عيسى الأيوبى ، وجعلها زاوية لقراءة القرآن ، ووقف عليها كتبا من جملتها إصلاح المنطق لابن السكيت ، وذلك سنة ٦١٠ هـ . قال مجير الدين القدسى : « وقد دثرت الزاوية المذكورة فى عصرنا ولم يبق لها نظام » وتوفى المقدسى هذا سنة ٩٢٨ هـ - فتلك إذن حالها فى مطالع القرن العاشر الهجرى .

والمدرسة النحوية على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب ، بانيها الملك المعظم عيسى الآنف الذكر ، وكان بناؤها سنة ٦٠٤ هـ .

والمدرسة التنكزية ، واقفها الأمير تنكز الناصرى نائب الشام فى العصر المملوكى ، وهى مدرسة عظيمة ليس فى المدارس أتقن من بنائها - كذا يقول المقدسى .

والمدرسة الكريمية ، بناها كريم الدين

عبدالكريم من رجال الدولة المملوكية بالقرب من باب يسمى باب حطة .

ولا شك أن ارتباط المساجد بالمدارس ، على هذا النحو الذى قدمنا له عشرات من الأمثلة ، يدل على ارتباط رسالة المساجد برسالة المدارس ، كما يدل على أن كلا من المسجد والمدرسة كان يؤثر فى الآخر ويتعاون معه ويكمل رسالته ، وبخاصة فى مجال التوعية والتوجيه والتثقيف الدينى والدنيوى .

ولقد كان للمسجد تأثير آخر فى لون من ألوان الحضارة وهو « المعمار » فإن المساجد قد اتخذت أشكالا وأنماطا من الهندسة والبناء والزخرفة والتصميم والتزيين ، وهذه الأشكال صارت قدوة عند الكثيرين فى الأبنية المختلفة وفى القرن التاسع للهجرة - كما يبين بعض المؤرخين - غلب تصميم المدرسة على المسجد فأنشىء على طرازها مساجد كثيرة ، ولكن تصميم المسجد ظل سائدا جنبا إلى جنب مع المدرسة ، وزيد على المسجد إلحاق « السبيل » و « الكتاب » به .

ونستفيد من هذا فائدتين : الأولى أن المسجد كان له تأثير حضارى من ناحية المعمار والزخرفة ، والأخرى أن المسجد كان يرتبط بالمدرسة حتى فى هذه الناحية ، مما يدل على أن المسجد كان يسير جنبا إلى جنب مع المدرسة ينشران الثقافة ويبثان ألوان الحضارة .

ويتصل بالموضوع الذى نعالجه أن المساجد عرفت نظام المكتبات منذ عهد بعيد ، والمكتبة منبع ثرار عظيم للثقافة والحضارة وقد جاء فى الجزء الثالث من كتاب « تاريخ التمدن الإسلامى » ما نصه : « وكانوا يجعلون فى كل جامع خزانة كتب للمطالعة أو الاستنساخ » .

ولو أردنا أن نأخذ صورة متكاملة عن رسالة المسجد فى نشر الثقافة والحضارة لكان من واجبنا أن نتتبع الجهود التعليمية التى صدرت عن المساجد الكبيرة المشهورة التى يعد كل منها جامعة وهى : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، والمسجد النبوى بالمدينة والمسجد الأموى بدمشق ، والمسجد الجامع بالبصرة ، والمسجد الجامع بالكوفة ، والمسجد الجامع بالفسطاط (جامع عمرو) وجامع الزيتونة بتونس ، والمسجد الجامع بالقيروان ، وجامع المنصور ببغداد ، والجامع الأعظم بقرطبة ، وجامع القرويين ، وجامع ابن طولون ، والجامع الأزهر الشريف ، وقبة على بالنجف بالعراق ، وغيره مما غاب عن الذاكرة .

إن هذا الموضوع طريف وواسع ونافع حين تتبعه وتجميع كل ما يتعلق به ، وإذا كنت وضعت على طريقه قنديلا متواضعا ، فإنى آمل أن تتتابع من خلفه قناديل وثريات تضىء وتنير ، وتمتع وتفيد ، وعلى الله قصد السبيل .

أحمد الشرباصى

نظرات فى الأدب والتصوّف :

مناجاة الخالق

للأستاذ محمد إبراهيم الجيوشي

المناجاة من الأغراض التى انفرد الصوفية بها ، ثم يطرقها غيرهم ، ولم ينهج سبيلها سواهم ، فهم فرسان حلبتها ، وآباء عذرتها وأبناء بجدتها ، لأنها تعبير عن إحساساتهم الرقيقة ، ومشاعرهم السامية ، وعواطفهم الراقية ، وأرواحهم الصافية ، وقلوبهم المتصلة بنور الله ، ترى عظمته فى كل موجود ، وتحس قدرته فى كل ما يقع بين أيديهم ، وتحت أبصارهم .

والأدب الحى وليد الإحساس المرهف ، وصدى الانفعالات النفسية الصادقة ، وبقدر ما يهيأ لهذه المشاعر والأحاسيس من صدق وتجارب مع ما تحس به ، بقدر ما يكون رقى الأثر الأدبى الذى يعبر عنها ، وما يمتاز به من علو ، وما يحفل به من رؤى شعرية سامية ، ونماذج فنية تكون قدوة تحتذى ، وأمثلة تراعى .

ومن أبدع ما أثر عن الصوفية من هذه الألوان مناجاتهم لخالقهم وتوسلاتهم لبارئهم ، فهى غنية بالقوى الجبارة ، والذخائر الحية ، وإن قوبلت بالإهمال ، ولم تحظ بما تستحق من تقدير ، وما تتمتع به من أثر فعال فى ترقية الأحاسيس ودفع النفوس إلى السمو والصفاء فى الخلق والروح .

وهذه هى الوظيفة الأصيلة الأولى للأدب ، وهل كان الأدب فى يوم ما إلا عاملا من عوامل سمو الخلق وعلو النفس ، وهذا هو الذى دفع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أن يقول : (رووا أبناءكم ما حسن من الشعر ، فإنه يدل على مكارم الأخلاق) وما روى عن خلفاء الأمويين فى هذا المعنى .

وقد يتبادر إلى الظن أن فى هذا تغاليا بقيمة الأدب الصوفى ، وإلباسه ثوبا فضفاضا ، ويكفى لدفع هذا الظن أن نقف على آثارهم ، ونرقب معا هذه النماذج العالية ، حين نلق بأسماعنا إلى هذه الترنيمة السماوية الرائعة ، ثم نتحسس نفوسنا حين تتلى لنرى إن كانت لا زالت على الأرض أو ارتقت إلى السماء ، يقول ابن عطاء الله فى حكمه مناجياً مستغيثاً .

إلهى : أنا الفقير فى غناى ، فكيف لا أكون فقيراً فى فقرى ؟

إلهى : أنا الجاهل فى علمى ، فكيف لا أكون جهولا فى جهلى ؟

إلهى : وصفت نفسك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى ، أفتمنعنى منهما بعد وجود ضعفى ؟

إلهى : منى ما يليق بلؤمى ، ومنك ما يليق بكرمك .

إلهى : إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ، ولك المنة على ، وإن ظهرت المساوى فبعدلى ولك الحجة على .

ها أنا أتوسل إليك بفقرى إليك ، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك ؟

أم كيف أشكو إليك حالى وهى لا تخفى عليك ؟

أم كيف أترجم لك بمقالى ، وهو برز إليك ؟

أم كيف تخيب آمالى ، وهى قد برزت إليك؟

أم كيف لا تحسن أحوالى ، وبك قامت ؟ (١)

ألا ترى معى أن هذه الفقرات معبرة أصدق تعبير عن الفكرة الصوفية القائلة بأن الخير كله فى نسيان الذات ، فهو يرى أن من العبث الشكوى إلى عالمها ، ثم يرى أن ماله من عمل لا قيمة له بجانب فضل الله سبحانه فيقول :

« إلهى : كلما أخرسنى لؤمى أنطقنى كرمك وكلما آيستنى أوصافى أطمعتنى مننك .

من كانت محاسنه مساوى ، فكيف لا تكون مساويه مساوى ؟

ومن كانت حقائقه دعاوى ، فكيف لا تكون دعاويه دعاوى ؟

إلهى : كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك ؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟

ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك ؟

إلهى : أمرت بالرجوع إلى الآثار ، فارجعنى إليها بالأنوار ، وهداية الاستبصار ، حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك مصون السر عن النظر إليها ، مرفوع الهامة عن الاعتماد عليها ، إنك على كل شىء قدير .

إلهى : منك أطلب الوصول إليك ، وبك أستدل عليك ، فاهدنى بنورك إليك ، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك » .

تراه فى هذه الفقرات يتلهف على الوصول إلى الله ، ثم يتحاور متفلسفا فيقول :

(١) غيث المواهب العلية على شرح الحكم العطائية ص ٨٧ ج ٢ .

إلهى : تقدس رضاك عن أن يكون له علة منك ، فكيف يكون له علة منى ؟

أنت الغنى بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك ، فكيف لا تكون غنياً عنى ؟

إلهى : إن رجائى لا ينقطع عنك ، وإن عصيتك ، كما إن خوفى لا يزايلنى وإن أطعتك .

(إلهى : هذا ذلى ظاهر بين يديك ، وهذا حالى لا يخفى عليك ، بك أستنصر فانصرنى ، وعليك أتوكل فلا تكلنى ، وإياك أسأل فلا تخيبنى ، وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى ، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى ، وببابك أقف فلا تطردنى) .

خبرنى بربك ، ماذا أنت شاعر به من المعانى والأحاسيس والانفعالات بعد أن تتلو هذا التوسل الفريد ؟ هل كنت ترى بعد هذا مجالا لإبداع ؟ أو تجد قولا لقائل ؟ اللهم لا . غير هؤلاء الصنف من الناس الذين سمت أرواحهم فأتت بهذا الضرب من الإعجاز فى البيان .

وإليك توسلا آخر لأبى العباس المرسى :

(إلهى : معصيتك نادتنى بالطاعة ، وطاعتك نادتنى بالمعصية ، ففى أيهما أخافك ؟ وفى أيهما أرجوك ؟ إن قلت بالمعصية قابلتنى بفضلك فلم تدع لى خوفا ، وإن قلت بالطاعة قابلتنى بعدلك فلم تدع لى رجاء ، فليت شعرى كيف أرى إحسانى مع إحسانك ؟ أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك (١)) .

إخالك بعد قراءة هذا الدعاء قد وثب إلى ذهنك الأثر النبوى الشريف ، المؤمن بين مخافتين ، وقد سبح فكرك كيف استطاع الصوفية أن يتغلغلوا إلى أعماق هذه الجوامع النبوية فيحللوها تحليلا فلسفيا أدبيا دقيقا رائعا يأخذ بالألباب ويستهوى الأفئدة .

وهذا توسل آخر لذى النون المصرى :

(إلهى : وسيلتى إليك نعمك على ، وشفيعى إليك إحسانك إلى) .

(إلهى : أدعوك فى الملا كما تدعى الأرباب ، وأدعوك فى الخلا كما تدعى الأحباب) .

(أقول فى الملا : يا إلهى ، وأقول فى الخلا يا حبيبى ، أرغب إليك ، وأشهدك بالربوبية مقرا بأنك ربى ، وإليك مردى ، ابتدأتنى برحمتك من قبل أن أكون شيئا مذكورا ، وخلقتنى من تراب) .

وقوله : (إلهى ، ما أصغى إلى صوت حيوان ولا حفيف شجر ، ولا خرير ماء ، ولا ترنم طائر ، ولا تنعم ظل ، ولا دوى ريح ، ولا قعقعة رعد ، إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك دالة على أنه ليس كمثلك شىء ، وأنك غالب

(١) التصوف الإسلامى ج ١ ص ١٠٧ .

لا تغلب ، وعالم لا تجهل ، وحليم لا تسفه ، وعدل لا تجور ، وصادق لا تكذب .

إلهي ، فإني أعترف لك اللهم ، بما دل عليه صنعك ، وشهد لك فعلك ، فهب اللهم طلب رضاك برضاى ، ومسرة الوالد لولده ، ووقار الطمأنينة ، وقطلب العزيمة إليك ، لأن من يشبعه الولوع باسمك ، ولم يروه من ظمئه ورود غدران ذكرك ، ولم ينسه جميع الهموم رضاه عنك ، ولم يلهه عن جميع الملاهي تعداد آلائك ، ولم يقطعه عن الأنس بغيرك مكانه منك كانت حياته ميتة ، وميتته حسرة ، وسروره غصة ، وأنسه وحشة .

إلهي ، عرفني عيوب نفسي ، وافضحها عندي ، لأتضرع إليك في التوفيق للتنزه عنها ، وأبتهل إليك بين يديك خاضعا ذليلا في أن تغسلني منها ، واجعلني من عبادك الذين شهدت أبدانهم ، وغابت قلوبهم تجول في ملكوتك ، وتتفكر في صنعك ، ترجع بفوائد معرفتك ، وعوائد إحسانك ، وقد ألبستهم خلع محبتك ، وخلعت عنهم لباس التزين لغيرك .

إلهي ، لا تترك بيني وبين أقصى مرادك حجابا إلا هتكته ، ولا حاجزاً إلا رفعته ، ولا وعرا إلا سهلته ، ولا بابا إلا فتحته ، حتى تقيم قلبي بين ضياء معرفتك ، وتذيقنى طعم محبتك ، وتبرد بالرضى منك فؤادى ، وجميع أحوالى حتى لا أختار غير ما تختاره وتجعل لى مقاما بين مقامات أهل ولايتك ، ومضطربا فسيحا فى ميدان طاعتك .

إلهي ، كيف أسترزق من لا يرزقنى إلا من فضلك ، أم كيف أسخطك فى رضى من لا يقدر على ضرى إلا بتمكينك ، فيا من أسأله إيناسا به ، وإيحاشا من خلقه ، ويا من إليه التجائى فى شدتى ورجائى ، ارحم غربتى وهب لى من المعرفة ما أزداد به يقينا ، ولا تكلنى إلى نفسى الأمارة بالسوء طرفة عين .

ابراهيم الجبورشى

يظلمني وأرحمه

قال أحد الشعراء :

إنى وهبت لظالمى ظلمى ... وغفرت ذاك له على علمى
ورأيته أسدى إلى يداً ... لما أبان بجهله حلمى
ما زال يظلمنى وأرحمه ... حتى رثيت له من الظلم

الهندوكيّة

للأستاذ محيي الدين الألوائي

الديانة الهندوكية ، أو الهندوسية ، أقدم ديانات الهند ويدين بها الآن ٨٠ ٪ من مجموع سكانها ، والهندوكية لا ترجع بأصلها إلى نبي معين ، ولا إلى كتاب واحد ، بل نمت على مر السنين ، واستندت إلى عدد من الكتب التي تجمل وتجمع فلسفة الحكماء القدامى ومعرفتهم وتعاليمهم ، التي تحتوى على أفكار عالية وقصص ذات عظات وعبر ، استلهموها خلال تأملاتهم العميقة المصحوبة بإنكار الذات والتفاني في سبيل معرفة الحق .

وأقدم الكتب التي تضم المبادىء الهندوكية وفلسفتها ونظامها « الفيدا (١) » ، وربما هو أقدم الكتب في الدنيا ، ومعنى كلمة « الفيدا » المعرفة لأنها تتضمن المعرفة التي نالها حكماء العصور القديمة والذين كانوا يسمون « ريشيس (٢) » و « مونيس (٣) » وقد كتبت في لغة سنسكرتية بالأناشيد والأغاني التي اعتاد الآريون القدماء أن يتغنوا بها ، ويعرف العصر الذي دونت فيه « الفيدا » بالعصر الفيدى ، وأولها أو أسبقها وجوداً هو ما سمى بـ « الركفيدا (١) » ، وهو أقدم الكتب من الآريين الذين نزحوا إلى الهند منذ أكثر من خمسة آلاف سنة ، وحاربوا سكانها الأصليين من الجنس الدرافيدى ، وقد غزوهم من الشمال ، واستقروا على مقربة من كشمير ، وأفغانستان أولا ثم أتوا إلى الجنوب ثم استمروا في الانتشار حتى بلغوا مقاطعات الهند الوسطى ، واستطاع بعضهم أن يعبروا الجبال والأنهار ويهبطوا إلى الجنوب ، أما كثرتهم فلم تستطع ذلك ، ولهذا بقى الجنوب في الغالب موطناً للدرافيدين ، سيما في منطقة مدراس .

بعد انتهاء العصر الفيدى بالهند ظهر ما يسمى بعصر الملاحم لأن الملحمتين الكبيرتين الهنديتين « الراماياما والمهابهاراتا » اللتين تقصان علينا وقائع الأبطال العظام ، والحرب العظمى قد كتبتا فيه ، وتفرع من الركفيدا ثلاث من الفيدات وهى « ساما » و « يجر » و « أثر » والتحقيق العلمى يدل على أن أطوار الركفيدا من مراحله الابتدائية إلى دور تكمله ، بعد أن توطدت أركان

---

(١) VEDA
(٢) RISHIS
(٣) MUNIS

(١) The RIGVEDA

الفيدات الأربعة كانت تتطلب قرونا عديدة ، وقد أكد كثير من العلماء الباحثين أن تاريخ الفيدا ، الذى يسبق البوذية بآلاف السنين ، لمن أقدم التواريخ المتعلقة بالجنس البشرى .

يحتوى الركفيدا على ثمانين ألف بيت مع أن خمسة آلاف منها مكررة ، ويقول الزعيم الهندى الراحل جواهر لال نهرو فى إحدى رسائله عن الهند القديمة : « لعل هذه الكتب لم تدون فى أول الأمر ، وإنما حفظت عن ظهر قلب ، وبقيت محفوظة فى صدور الحفاظ من حكماء تلك العصور ، يتناقلونها باللسان والمشافهة جيلا بعد جيل ، وبعد انتشار نظام الكتابة كتبت الفيدا الأربعة فى اللغة السنسكريتية الكلاسيكية وسمى المجموع « سمهتا » أى « الديوان المجموع » .

والفلسفة الهندوكية الفيدية تثبت وحدة العالم فى النهاية ، كمخلوق للخالق الواحد الذى ينتمى إليه جميع المظاهر المختلفة ، وإليه مصير الكون كله ، ويدعوه الروح الأعظم ، أو العلة الأولى . وتهتم كثيراً بالتقدم الفكرى والروحى ، ويبدو من الأدعية الواردة فى الركفيدا مثل الدعاء المسمى باسم « كياترى منترام » أنها تحث على عبادة الآلهة العديدة التى يرجى منها البركة والإحسان ، وتدعو إلى تقـــديم القرابين والتضحيات إلى الآلهة مع ترتيل الأناشيد الدينية ، والأدعية ، وربما تصحبها الرقصات والطقوس المعينة المبينة فى الركفيدا ، وتتحدث الفيدا عن نظام التشكيلات الإدارية ، والسياسية ، فى البلاد كما يلى :

١ — كرها (الأسرة) .
٢ — كرام (القرية) .
٣ — ديش (المقاطعة) .
٤ — جنا (الشعب) .
٥ — راشترا (الدولة) .

وأما الأسرة فوحدة تتألف من بضعة نفر يعيشون تحت رئيس عائلى ، إما هو الأب أو الأخ الأكبر ، فى مكان تحيط به مزارع الأسرة ومرعى مواشيها . والقرية عبارة عن مجموع عائلات تقطن فى منطقة معينة مع ما فيها من المزارع والبيوت والمواشى ، ويكون على رأسها كبير يشرف على شئونها . وأما المقاطعة فتتشكل عدة قرى مجاورة مع حدود معينة تفصلها عن شقيقاتها الأنهر أو الجبال أو الخطوط الوهمية المعلمة بعلامات ظاهرة .

وذكر الركفيدا بأن الدولة التى يحكمها ملك فى بلاد معينة ذات حدود ودفاع تدعى راشترا . وإذا لم يكن فيها ملك أو محافظ فيضطر الشعب لانتخابه من بينهم لمواجهة العدو تحت قيادة منظمة ، وعليه أن يقود

جيش الدفاع بنفسه فى وجه الأعداء ، معرضا نفسه للخطر . وكان يتلقى بمقابل خدماته طاعة الرعية والخراج والهدايا والتحف من القبائل، وأعيان البلد ، مكافأة على إشرافه على كرامة الدولة .

وحسب تعاليم الفيدا يرث الولد أباه ولا ترثه بنته إلا إذا كانت وحيدته ، وتعترف بحق الملكية ، وتبيح التمليك فى الممتلكات المتنقلة كالمواشى والخيول والذهب والحلى ، وينص دعاء من الأدعية المعروفة الهندوكية على أنه يجب لكل هندوسى أن يتذكر صورة وطنه دائما ، بل ويعبدها بصفة كونها مجموعة من الأنهر السبعة المقدسة ، وهى :

جنجا ، ويمنا ، وكوداورى ، وسراسوتى ، ونرمدا ، وسند ، وكاويرى ، ومجموع مساحة الأراضى الهندية مقسمة فيما بين هذه الأنهر السبعة الكبيرة . وكما أن دعاء آخر يفرض على الهندوكى أن يتصور موطنه مجموعا للمدن السبع المشهورة وهى :

أيودهيا ، ومتهرا ، ومايا ، وكاش ، وكنجى بورام ، وأوجين ، ودواركا ، والمطلوب من كل هندوسى أن يزور ولو مرة فى حياته ، هذه المدن المقدسة التى هى جزء من معتقداته . وما يزيد هذه الزيارة نفعاً أن هذه الأماكن واقعة فى مختلف أنحاء البلاد ، فالذى يقوم بها يتنقل من أقصى البلاد إلى أقصاها ، وورد فى بعض الكتب المقدسة الهندوكيين أن الهند أى بهارت بمثابة الجنة على الأرض بسبب بيئتها المحركة للروح . وتقول تلك المصادر أيضاً بأن الأم والوطن يفوقان الجنة فى العظمة .

والديانة الهندوكية تقسم حياة الفرد إلى مراحل مختلفة :

١ — براهما جارى : أى مرحلة طلب العلم .

٢ — كراهستا : أى الحياة المنزلية .

٣ — بايراستا : أى دور العبادة .

٤ — سنياسى : أى مرحلة ينصرف فيها المرء إلى التأمل والزهد فى الدنيا .

وعندهم أعمار خاصة لكل من المراحل المذكورة . فرحلة العبادة مثلا تبدأ والمرء فى الخمسين من عمره وهو العمر اللائق — فى نظر الهندوكية ـ لصاحب الأهل والبيت أن يتعزل قليلا عن متاعب الدنيا ، وينصرف للعبادة ، والمراد بالمرحلة السنياسية الاستعداد للانتهاء من علائق الدنيا الفانية

وكما يكون نظام المراحل فى حياة الفرد مطلوبا فى الطريقة الهندوكية ، أصبح المجتمع الهندوسى مقسما إلى أربع طبقات بحكم الولادة فى الحياة الاجتماعية وهى : البراهمة ، وتشتريان وويسيان ، وشودران وفى كل منها توجد طبقات وطوائف عديدة .

ويقول نهرو - ومن المعلوم أنه ينتمى إلى طبقة البراهمة من الهندوكية - فى معرض الكلام عن معتقدات الآريين فى الهند: «ولفظة الآرى تعنى الرجل الشريف أو إنسانا من نوع أرقى وأعلى، وكان الآريون يحبون الحرية والعزة، وعلقوا أهمية عظمى على الزراعة ومن ثم قدروا كل شىء من شأنه أن ينهض بالزراعة.

وقد رأوا أن الأنهار الكبرى أمدتهم بالماء ولهذا أحبوها ونظروا إليها نظرتهم إلى الأصدقاء والمحسنين الكبار، والثور والبقرة ساعداهم أيضا مساعدة كبيرة فى الزراعة وفى حياتهم اليومية، كما أعطتهم البقرة كذلك من لبنها غذاءاً. وقد اعتنوا بهذه الحيوانات وتغنوا ببركاتها عليهم.

ثم مر على ذلك العهد زمن طويل نسى فيه الناس فى الهند السبب الحقيقى فى عناية قدمائهم بالبقرة، ولهذا بدأوا يعبدونها كأن فى ذلك نفعا لهم.

وإعجاب الآريين بأنفسهم واعتزازهم بعنصرهم دفعهم إلى التخوف من الاختلاط بغيرهم من سكان الهند، ومن ثم سنوا من القوانين والقواعد ما يحول دون هذا الاختلاط وما يجعل زواج الآرى من غير عنصره أمرا متعذرا، وقد تطور ذلك فيما بعد إلى ما يسمى الآن بنظام الطبقات. ومما يضحك أن الاعتزاز الطبقى قد بلغ إلى درجة أن بعض الناس يخافون من لمس غيرهم أو مؤاكلتهم، وإنه لمن دواعى الغبطة أن هذه النزعة قد بدأت تقل وتخف حدتها شيئا فشيئا فى عصرنا الحاضر».

وله أيضا بيان طريف عن فكرة تقديس الأماكن فى الهند القديمة فيقول: «وكان الآريون مغرمين بهلال القمر ولهذا اعتبروا كل الأماكن التى على شكل هلال أماكن مقدسة. وكثير من مدنهم الكبرى مثل مدينة (بناراس) كانت على شكل هلال وأن نهر الجنج، المعروف يبدو عند مدينة الله آباد على شكل هلال حيث تلتقى الأنهر الثلاثة المقدسة لدى الهندوكيين وهى الجنج، ويمنا وسراسوتى.

وكانت الهند الآرية ممتدة من جبال الهمالايا إلى سلسلة جبال فيندهيا بشكل هلال، ومن ثم سموها فى كتبهم القديمة (آريا فارتا) أى أرض القمر، فلفظة الهند تعنى القمر، وهكذا كانت آريا فارتا أرض الهند».

ويقول الفيدا فى معرض بيان طريقة أداء القرابين للآلهة التى يرجى منها البركة والإحسان إن الحق واحد يتحقق بطرق شتى، فلا مانع من عبادة آلهة كثيرة، وتقديم التضحيات لها، بقصد التقرب إلى الروح الأعظم ولو اختلفت مظاهره، وأما أنواع القرابين التى يحث عليها الركفيدا المذكور فتقديم اللبن

والحبوب والسمن واللحوم، وكذلك أنواعا من المرطبات الممزوجة من عصير الفواكه والنباتات، إلى جانب ترتيل الأناشيد الدينية والأدعية الفيدية، تصحبها رقصات وحركات تعبدية.

والرقص جزء أساسى من الشعائر الدينية يستمد وحيه من التعبيرات والابتهالات التى تلازم الحفلات الدينية المقامة حسب التعاليم الفيدية والموسيقى الهندية شأنها فى ذلك شأن الرقص مصحوبة بحركات تعبيرية، من ثم كان الرقص الهندى الكلاسيكى خليطا من الفن والدين والفلسفة، بل وكانت نشأته الأولى فى المعابد الهندوكية، حيث يعتمد على حركات رمزية تعبيرية أمام الآلهة، ثم تدرج منها الرقص الهندى إلى الأسلوب القصصى والرمزى، يقص الحوادث والوقائع، ويرمز إلى مظاهر الحياة، ولذا نرى الهندوكية تنظر إلى الرقص الكلاسيكى الهندى نظرة تقدير وتقديس.

وتعتقد الفلسفة الهندوكية فى حياة بعد الممات فى عالم يسيطر عليه (ياما)، وتقول بضرورة انتهاء جميع العلائق بالمادة لتحقيق النجاة الأبدية، وبعبارة أخرى تقول الهندوكية: إن النجاة الأبدية . . . لا تتحقق إلا بالفناء الكلى، ولهذا تدعو الأفراد إلى القيام برياضات شاقة، مثل رياضة اليوجا والإمعان فى ترويض النفس على التقشف والزهد، والروحانية البالغة بدرجة لا تفقدها أى صلة مادية.

تقول الكتب المقدسة الهندوسية عن خلق العالم: إنه كان من قبل أن يوجد شىء ما، بيضة كونية تسميها الأساطير «براكرتى» أى الطبيعة، وتطورت هذه البيضة تطورات كثيرة فى مختلف الدهور حتى تحولت إلى بيضة ذهبية، واستكن سيد الكون فيها، وكانت البيضة عائمة فوق سطح البحر المحيط، ومن تلك البيضة خلق العالم الحاضر، وجاء فى أسطورة «تاراين» عن خلق الكون: أن الخليقة انبعثت من دموع (براجاباتى). فلما جاء (براجاباتى) إلى الوجود من العدم بكى، فلما سالت دموعه تحولت إلى الأرض وما مسها منها تحول إلى السماء، . وجاء فى ترنيمة تاراين المشهورة فى وصف إله الكون وحده وثنائه:

يا روح الأرواح! أنت الذى بسطت المكان فى جميع الجهات.

وبسطت الزمان الذى لا نهاية له، فأنت الموجود قبل وجود السماء والأرض، فأنت استويت على الأرض. إلى أن قالت:

ولكن لا أرى الآن شموسا، ولا عوالم، فإنى أرى الله فقط، وأحده فقط!.

وترد الأساطير الهندوكية وحدة الكون الى (كلبا) أى إلى يوم من زمن (براهما) الخالق فكان براهما يخلق فى الصباح العوالم

الثلاثة الأرض والجنة والنار، وتنتشر فى الليل هذه العوالم الثلاثة فتسير الأيام والليالى بأحداثها وتطوراتها، وتدل النظرية الهندوكية نحو الحياة على أنها نظرية الارتقاء التدريجى ثم إلى الانحطاط، وقد أوردت كتب «بوراناس» الهندوسية صورة أخرى عن كيفية انتهاء الكون فتقول: إن الإله «وشنو» سيظهر على صورة إله كالى، بطلا مسلحا وراكبا على حصان أبيض له جناحان محليان بالجوهرات محركا بيده من فوق رأسه حسام الدمار والخراب، حاملا فى يده الأخرى قرصا ضخما، ويرفع حصانه قدمه اليمنى الأمامية، والدنيا واقفة على رأس أفعى جالسة على ظهر سلحفاة وعندما يضرب الحصان بقدمه على الأرض تسقط السلحفاة فى الهاوية، وتتخلص من الثقل العظيم، ويهلك جميع خبثاء العالم، وورد فى كتاب كيتا عن نهاية العالم:

الغيوم تمتنع عن المطر لمدة مائة عام، فلا يجد الناس طعاما يأكلونه، فلما يشتد الجوع بهم يضطرون لأكل بعضهم بعضا، وهكذا يلقون بأيديهم إلى التهلكة والفناء.

وهناك وصف آخر عن نهاية العالم:

طوفان مخيف يحيط بالأرض، وشموس ملتهبة فى السماء تمتص مياه الطوفان، ثم تهب على الأرض ريح من نار تأكل جميع الأشياء وهكذا يحترق العالم بأسره.

وأما نظرية الفيدا عن العالم فتقول بوجود الأرض والسماء، ولكن لها آراء مختلفة عن هيئة الأرض الأصلية فمرة تقول إن الأرض إذا اتحدت بالسماء تكونا بهيئة كأسين وضعا وجها لوجه. ومرة أخرى شبهت الأرض والسماء بدولابين على طرفى محور، وتقول إحدى الأساطير الهندوكية: إن الأرض يحملها أربعة من العفاريت فوق أكتافهم، وأن الزلزال تقع فى الأرض حينما يعتريهم التعب وينقلونها من كتف إلى آخر.

وإذا ثبت من التاريخ أن البوذية ترعرعت فى الهند فى القرن السادس قبل الميلاد، فلابد أن تكون الحضارة البرهمية، والثقافة الهندوكية قد وطدت أقدامها فيها قبل البوذية؛ لأن الكتب القديمة البوذية تذكر عنهما، وكما أن الحضارة البرهمية قد اكتملت بعد مدة طويلة بعد العهد الفيدى، لأن الأدب البرهمى المتشكل من أربعة مصادر رئيسية: سوترا، وأرنياكا، وأبانيشد، وبرهمنا قد تم ترتيبه بعد الركفيدا بزمن طويل، يمكن أن يقال بصورة قاطعة إن تاريخ الثقافة الهندوكية المبنية على الفلسفة الفيدية يرجع إلى قرون عديدة قبل الميلاد.

محى الدين الألوائى

شوقي وتاريخ العرب والإسلام

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

— ١ —

كان شوقي صاحب بيان ، نضّر الله به صفحة الأدب ، ولغة العرب ، وحفظ به تراث الإسلام والمسلمين . كان صوتاً قوياً من أصوات العروبة ، وسيفاً مجلواً ينتضى للذياد به عن العرب ، والدفاع عن الإسلام . كان حبه كله لبلاده ، وإخلاصه كله لدينه . وقصائد شوقي وفرائده ، في الإسلام وتاريخه ومآثره ومفاخره ، وفي الاعتزاز بكتابه الخالد ، وبلغته المبينة الفصيحة ، ورسالته في القديم والحديث ، ظلت وستظل منهلاً عذباً ينهل منه الواردون والظامئون ، ويأخذ الحكمة منه السابقون ممن أتوا بعده واللاحقون ...

إن أمير الشعراء سبق جيلنا في الدعوة إلى بناء الحاضر الممتد لشعوب الإسلام على أساس قوي من تراث العربية وثقافتها وماضيها ؛ وفي المناداة بوحدة الشعوب الإسلامية والعربية وإخائها ؛ وفي تعظيم شأن العرب وقوميتهم ؛ وفي الدعوة إلى اشتراكية الإسلام السمحة ، بما تحتوي عليه من حب وعدل ومساواة وإخاء ومثل عالية رفيعة .

— ٢ —

وهنا نتحدث عن آراء شوقي وآياته الخوالد ، في كتابه « دول العرب وعظماء الإسلام » ، الذي نظمه في منفاه بالأندلس ، إبان الحرب العالمية الأولى ، والذي قصره على الحديث عن تاريخ الإسلام وبطولات أعلامه الخالدين ، وقد طبع الكتاب لأول مرة في القاهرة عام ١٩٣٣ بعد وفاة شوقي بعام ... وكله من بحر الرجز العذب المستساغ

يقول شوقي في مقدمة هذا الكتاب أو الديوان على حد سواء ، مشيراً إلى الحرب العالمية الأولى ، ويذكر تأليفه لهذا الديوان في منفاه :

لما رمى الله بهذي الحرب
على بني الشرق وأهل الغرب
تحركت سواكن الأقدار
واطردت عوامل الأكدار
وحكم الله بهجرة الوطن
وطالما ابتلى بها أهل الفطن
فكنت أستعدي على الهموم
بنات فكر ليس بالمذموم

حتى أراد الله أن نظمت
من سير الرجال ما استطعت
واخترت بحراً واسعا من الرجز
قد زعموه مركباً لمن عجز
يرون رأيا وأرى خلافه
الكاس لا تقــوم السلافة
وقيمة اللؤلؤ فى النحور
بنفسه وليس بالبحــور
شعر لوسع فيه ما لا يلزم
وتركه أليق بى وأحــزم

وهو هنا يشير إلى مجمل منهجه فى هذا الديوان من حيث الموضوع والشكل ؛ وإن كان لم يستطع الإفصاح كل الإفصاح عن قيمة أعماله الفكرية أو الأدبية ، أو الفنية على السواء . وقد يكون مبعث ذلك أن الشاعر غير الناقد ، وأن حديث الشاعر عن شعره قلما يكون ذا قيمة نقدية كبيرة وعلى الجملة فطلاوة ديباجة شوقى ، وعذوبة أسلوبه هنا أكبر من مغزى كلامه ومعناه .

— ٣ —

ولسوف نتناول بعض آراء شوقى فى هذا الديوان بالدراسة والتحليل والنقد ، لأهميتها ولأهمية الديوان معا ؛ إذ أنه من أروع ما يمكن أن يكتبه شاعر ليقرب التاريخ إلى عقول الناس ، وليتخذ منه مادة لأدبه ، وموضوعا لشعره .

شوقى واللغة العربية :

يحتوى الديوان على قصيدة عن العربية عنوانها « لغة العرب » ، نجد فيها شوقى لغة القرآن وعذوبتها وفصاحتها ، وأشار إلى أطوار تهذيبها ، ونزول القرآن بها ، وحملها لرسالته وثقافته وحضارته ، واستعارتها من فارس واليونان ما استعارته من معرب منقول ؛ ودعا الشباب العربى منها إلى التزود من ثقافات العرب والعربية بكل جليل ومفيد داعيا إلى ترك الزيف من دعوات الداعين لهدم تراثنا ، والانقضاض على قديمنا ؛ وإلى الأخذ بطرف من كل جديد مفيد ، وإلى الإقبال على القرآن والحديث إقبال المستفيد المسترشد لما فيها من حكمة وأدب وبلاغة .

يقول شوقى - فيما يقول - من هذه القصيدة :

اسائلك الأول فى الكتاب
ولغة الصبوة والعتاب
خض عباب فقهه وسره
وغص على صحيحه وحره
لا ترض منه مبلغ الرعاع
وحصة الأعمى من الشعاع
واقرأ علوم السلف الأعلام
فإنها معالم الكلام
رب قديم كشعاع الشمس
ابن غد واليوم وابن أمس

وخل ما زيفت الليالى
وما نفت مصارف الأجيال
ولا تضع من الجديد كله
يفتك وضع الشيء فى محله
ورب جديد عنده المعول
ورب كنز لم يثره الأول
إن طريق العقل لا يسد
ومذهب الأفكار لا يحد

وما أعظم ما رسم شوقى هنا من منهج قوى يحافظ على العربية ، وإن كان لا يتنكر للتجديد المقبول الذى يقره أئمتها سواء فى مفرداتها أو قواعدها ، إن شوقى فى هذه القصيدة كان يصدر عن عقل حصيف ، وتجربة حكيمة ، وفكر مضيء ... وقد دعا شوقى إلى تسجيل تاريخ العرب بالشعر ، وفضل الشعر التاريخى والنثر التاريخى على كتابات المؤرخين ، الذين يسجلون الأحداث فحسب ، وذلك فى قصيدة له فى هذا الديوان ، عنوانها « التاريخ » ، ويشير شوقى فى قصيدته الوطن إلى سيادة العرب والعربية بعد الإسلام ، فيقول :

وأنجز الله النبي وعده
وساد قومه الزمان بعده
فورثوا قيصر فى المشارق
وأخذوا الغرب بسيف طارق
وأمنوا الأمصار فاتحينا
وعدلوا فى العالمين حينا
واتخذوا كل القرى أوطانا
وحاسنوا الأهلين والقطانا
فحيث حل العربى حيا
من الملا قبيلة وحيا
وشاطر الأرض على التساوى
محاسن الأقوام والمساوى
حتى انقضى سلطانهم وزالا
وفضلهم باق ولن يزالا
وذلك اللسان باق لم يزل
يمضى عليه من جلا ومن نزل
لم يبق منهم سوى الأصوات
وعجب تكلم الأموات

البيت الحرام :

وقصيدة شوقى فى الديوان عن البيت الحرام تنبيء بحبه للعرب والعربية وللإسلام وكتابه ولغته وبيته العتيق ، وقد تحدث فيها عن قداسة البيت وعظمته وتاريخه وسدنته من قريش أبناء إسماعيل ، ومن العرب الميامين الذين انتشروا فى كل صقيع .

انتشروا قبائلا على الزمن
ملء الحجاز والشآم واليمن

ويختم القصيدة ببيان أهمية البيت الحرام وجلالته حتى فى الجاهلية ، حيث يقول :

لا ينطق الهجر به والإفك
ولا يحل للدماء سفك

وما أروع ما قال شوقى فى البيت الحرام .

شوقى والسيرة :

وإذا كان شوقى قد حلق فى قصيدته النبوية « البردة » فقد حلق هنا فى هـذا الديوان فى مطولته الرائعة « السيرة النبوية » التى تحدث فيها عن الرسول حديثا عجبا جامعا ، فى طفولته وشبابه ورجولته ، وفى بعثته ورسالته ودعوته وهجرته وغزواته ... صلوات الله عليه .

تاريخ الإسلام فى الديوان :

ويمضى شوقى فى الديوان فى تسجيل تاريخ الإسلام تسجيلا رائعاً فى قصائده : الخلفاء الراشدون ، خلافة أبى بكر ، خلافة عمر ، عمر وخالد بن الوليد ، مقتل عمر ، خلافة عثمان ، الخصمان ، أمير المؤمنين على ، معاوية ، عمرو بن العاص ، خالد بن الوليد ، دولة بنى أمية ، خلافة عبد الله بن الزبير ، البيعة للسفاح ، أبو مسلم الخراسانى ، الدولة العباسية ، أبو جعفر المنصور ، صقر قريش ، دولة الفاطميين .

ففى هذه القصائد يسجل تاريخ الإسلام وملوكه وخلفاء المسلمين ، تسجيلا صادقا واعيا ، ويصور الأحداث تصويراً فنياً عاليا ، وينطق الزمن حتى لكأن الزمن يتحدث عن بطولات المسلمين وتاريخهم وسير أعلامهم .

وهنا نشير إلى أن اتخاذ شوقى القصيدة العربية موضوعا لتسجيل التاريخ كما يبدو فى همزيته فى الجزء الأول من ديوانه ، وفى هذا الديوان ، كان عملا كبيراً فى تجديد الشعر وفتح الأبواب أمام الشعراء ، وإمداد الشاعر بطاقات كبيرة من المعانى والأفكار والأخيلة والحكم الأصيلة ، ولا شك أن ذلك كان خطوة من خطوات التجديد الشعرى عند شوقى ، وكان مقدمة لكتابة شوقى رواياته التاريخية التى عدت فتحا كبيراً فى الشعر العربى الحديث .

ونحن لا ننكر أن شعراء العربية القدامى سبقوا (شوقياً) فى هذا المضمار ، من مثل ابن المعتز (٢٤٧ — ٢٩٦ هـ) الذى نظم تاريخ الخليفة المعتضد العباسى (٢٧٩ — ٢٨٩) وكما فعل ابن عبد ربه (٣٢٨ هـ) فى نظم تاريخ الناصر الخليفة الأموى الذى حكم الأندلس خمسين عاما (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) ولكننا لا نتجاهل أن شوقيا قد جدد الشعر العربى بنظمه لأحداث التاريخ الإسلامى وبطولاته وسير أعلامه وجدد طريقة الأقدمين فى كتابة السيرة ، وتسجيل تاريخ الإسلام منذ بدأ فجره يضىء فى آفاق الدنيا وأرجائها .

رحمك الله يا شوقى فى الخالدين ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

توضيح وتصحيح لتفسير آية

للأستاذ عباس طه

يقول الله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم » .

يذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية وجهين :

أحدهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى فى نفسه شئونا أخروية فيخطر الشيطان بنفسه خواطر دنيوية ، ويسوقون للاستشهاد على ذلك حديث (إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله سبعين مرة) فنزلت الآية تعزية للرسول ، ويكون معناها على هذا : أنه ما من نبي ولا رسول إلا كان إذا اتجه بنفسه إلى شئون الآخرة أثار الشيطان فى نفسه خواطر الدنيا .

وثانى الوجهين : أن الرسول كان قد تمنى الا ينزل عليه من الوحى ما ينفر قومه من تحقير معبوداتهم ، وتسفيه أحلامهم ، ثم كان أول ما نزل بعد تردد هذه الأمنية بنفس الرسول سورة « والنجم إذا هوى » فلما بلغ فى قراءتها « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » أجرى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهم لترتجى . فنزل جبريل فأخبره الخبر ، فاغتم لذلك ، فنزلت « وما أرسلنا من قبلك من رسول » الآية ، ويكون معناها على هذا : ما من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى الا يكون من الوحى ما ينفر منه قومه ألقى الشيطان فى أمنيته : أى أجرى الشيطان على لسانه كلاما من تأليف الشيطان كالذى أجراه على لسان الرسول من قوله : تلك الغرانيق إلخ . هذا ما يقوله المفسرون فى سبب نزولها ، وفى تفسيرها .

وإنا قبل أن نناقشهم فيما يمس صميم الدين وأصوله من جراء هذا التأويل ، نناقشهم فى أمور دون ذلك .

وأول ما نناقشهم فيه من هذا هو أن ذلك التأويل يقتضى أن كل نبي قد تمنى الا يكون فيما يوحى إليه من ربه ما ينفر قومه كما يقتضى أن كل نبى أجرى الشيطان على لسانه غير ما أنزل إليه من الله ، فهل يمكن لأحد من الناس أن يثبت ذلك إثباتا صحيحاً أو قريباً من الصحيح ؟ إنا موقنون أن لا جواب لذلك سوى النفى البات .

وثانى ما نناقشهم فيه : أنه بناء على هذا التأويل فإن النسبة تنقطع كل الانقطاع بين الآية وبين ما سبقها من آيات ، إذ الآيات السابقة كلها عزاء للرسول صلى الله عليه وسلم بذكر ما كان من تكذيب الأمم السابقة لرسلهم ، وكما ترى ليس بين (أن كل رسول

قد سلط عليه الشيطان . وملك عليه لسانه فأجرى به ماشاء لا ماشاء الله ، وبين تكذيب الأمم (رسلهم) مناسبة ما .

وثالث ذلك : أنه إذا كانت أمنية رسولنا الكريم هى ألا يكون فى الوحى ما ينفر قومه لا يكون إجراء (تلك الغرانيق العلا) على لسان الرسول من قبيل الإلقاء فى الأمنية بل هو تيسير اسبيلها ، ومحاولة لتحقيقها .

أما ما نريد أن نناقشهم فيه مما يمس صميم الدين ويهدم أسسه وأصوله فأول ذلك : أنا نعلم أن أساس الرسالة هو دعوة الناس إلى توحيد الله بالإعظام والتقديس والرجاء ، وإفراده بالعبادة والدعاء ، فلا مناص - والأمر كذلك - عن حجاجهم فى معبوداتهم وبناء الأدلة والبراهين على بطلان عبادة غير الله ليخلصوا دينهم لله ، فلو جاز أن يكون مثل هذا المتمنى نبيا أو رسولا لكان معناه أننا نجيز على الأنبياء أن يجاملوا فى دينهم ويلاينوا فى رسالتهم ، وذلك الذى طالما عبناه على العادى من الناس فضلا عن الرسل والأنبياء .

وثانى ذلك : ما يستلزمه حديث الغرانيق من أن يكون للشياطين من السلطان المادى ما يصل فى قوته وهيمنته إلى حد أن يملكوا على الأنبياء ألسنتهم ، فيجروا عليها الكفر الصراح والشرك الهادم ، واللازم البين لذلك أن يكون ما يملكون على الناس من غير الرسل والأنبياء أكبر من هذا وأفظع ، وذلك ما ينكره الدين وينكره الواقع ، فإنه ليس للشياطين من صلة بالناس إلا أن يوسوسوا لهم بالكفر والفسوق والعصيان ، وحتى هذا أيضا نرى الله قد استثنى منه عباده المخلصين ، وليس من ريب فى أن الأنبياء الرسل هم صفوة المخلصين .

وثالث ذلك : ما يستلزمه حديث الغرانيق من اقتلاع الثقة من النفوس بكل ما جاء به رسول الله من أصول وأحكام ، فما من أصل ولا حكم إلا ويجيز مجيز أن يكون مما أجراه الشيطان على لسان النبى إن كان قولا ، وعلى جوارحه إن كان فعلا .

من هذا يتبين للقارىء أنه يجب وجوبا لامراء فيه أن يسلك فى تفسير الآية الكريمة وجهاً غير هذا الوجه ، وسبيلا غير هذا السبيل . وإليكم ذلك :

إننا نعلم أنه ليس للرسل والأنبياء من غاية فى هذه الحياة يحاولون تحقيقها ولا من أمل منها يتحملون من أجله أهول المشاق وأعظمها ، إلا شىء واحد هو : أن يستجيب لهم قومهم ويؤمنوا برسالتهم فتلك مهمتهم فى هذه الحياة وأمنيتهم التى لا يرجون سواها ، ولا يمكن أن يخطر ببالهم غيرها . نعلم إلى ذلك أيضا أنه ما من أمة دعيت على لسان رسول إلى خير ورشاد ، وإصلاح ونظام إلا صدهم الشيطان ووسوس إليهم وزين لهم الشر والكفر ، وقبح فى نظرهم الخير والإيمان ، وأثار حول أدلة الرسول وإرشاداته شبهات

وشكوكا مختلفة الألوان والاتجاهات، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وهذا الصد وتلك الوسوسة هو إلقاء الشيطان فى أمانى الرسل، فإنه بالصد والوسوسة وإثارة الشبه والشكوك كأنما يلقى الأشواك والصخور (فى طريق الأنبياء إلى غاياتهم التى هى استجابة قومهم لهم، وإيمانهم بهم. فيكون معنى الآية على هذا: إنه ما من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى إيمان قومه واستجابتهم للخير والرشاد، صدهم الشيطان عن الإيمان وعاق الرسل عن أمانيهم بما يثير من شبه وشكوك حول آيات الرسل وحججهم، وحول ما جاءوا به من أصول وأحكام، ثم ماهو إلا قليل حتى تنطفىء شقشقة الباطل، وينقشع دخان الشكوك والشبه التى أوحت بها الشياطين إلى نفوس المدعوين، ثم يبدوا الحق محكم البنيان، راسخ الأركان، باسق الفروع.

هذا هو التأويل الصحيح، والمعنى الحق الذى يجب أن تحمل عليه الآية.

أما أولا: فلأننا نتحاشى به باطلا لا يدانيه باطل، وفسادا لا يساويه فساد، ألا وهو مجاملة الأنبياء فى دينهم، وهيمنة الشيطان على ألسنتهم.

وأما ثانيا: فلأن الآيات السابقة قد ذكر فيها تكذيب الأمم الماضية لأنبيائهم مما يدل على أنهم جميعا قد عاقهم الشيطان عن غاياتهم بما زين للقوم، وأوحى إليهم من شبهات، وبذلك ترى بين الآية وبين الآيات السابقة صلة تامة واضحة.

وثالثا: ماتراه من العدول عن سلوك سبيل الحقيقة فيما أسنده إلى الشيطان، إذ لم يقل بدل (ألقى الشيطان فى أمنيته) عاق الشيطان أمانيهم بالوسوسة إلى قومهم، بل سلك سبيل المجاز فكان ماترى من إيجاز هو أكثر شمولا وفائدة مما فى أسلوب الحقيقة من تفصيل، ثم هو إلى ذلك الإيجاز قد أبرز وساوس الشيطان وما يوحى من شبهات فى صورة الأشواك والصخور تلقى فى الطريق المعبد فتقف بالسائرين عن مواصلة السير إلى غاياتهم: ذلك أن الإلقاء من خصائص الماديات، فلما أسند الإلقاء إلى الشيطان والشيطان لا يكون منه الا الوسوسة والتخييل، كان ذلك تصويرا للوساوس إلى السامعين بالأشواك والصخور والسدود مما يزيد فى نفور الناس من الشياطين ويضاعف الحذر منهم.

وهنا يقف بى بين مواكب الجلال والجمال ما يتجلى من روائع القرآن، ويلتمع فى ثنايا الأسلوب من دقائق تختلب القلوب، وتملك النفوس. فإنه تعالى لما أراد تعزية رسوله بما قص عليه من تفصيل ماكان للأنبياء والرسل من أقوامهم، وكان مهما أطال بذكر رسل وأنبياء. فإنه يبقى احتمال أن يكون هناك رسل وأنبياء لم تذكر أسماؤهم تكون قد تحققت لهم أمانيهم واستجابت لهم أممهم دون أن يعوقهم الشيطان عن سرعة تحققها فلا تتم التعزية مع

هذا الاحتمال ، لما كان كذلك تراه قد أجمل التسلية فى أسلوب شامل مستقص فى الأفراد ومستقص فى الأزمان ، حتى إذا أفلت واحد من عموم الأفراد فى قوله (من رسول ولا نبى) لا يفلت من عموم فى الأزمان قوله (من قبلك) لأن (من) الأولى فى الآية لا ستقصاء الأزمان ، والثانية لاستقصاء الأفراد ، وبذلك لا يبقى هذا الاحتمال ، فتتم تسلية الرسول حين يعلم أنه لم يشذ عما بينه وبين قومه نبى من الأنبياء .

وتراه ثانيا لم يذكر مفعول (تمنى) فلم يقل : إلا إذا تمنى هداية قومه ، لأن المفعول يشعر دائما بأنه قيد فى فعله وأن الفعل متعلق به هو دون غيره مما يصلح أن يتعلق به ذلك الفعل ، فذكره مفهم لا محالة أنه للاحتياط عما عداه من المفعولات .

فلو ذكر مفعول (تمنى) الذى هو هداية القوم ، لأشعر أن للرسل متمنيات غير هداية قومهم . وعلى هذا يكون إنما ترك للإيذان بانحصار تمنيهم فى ذلك المطلب العالى وتلك الغاية النبيلة ، وفى ذلك من لتنويه بشأن الأنبياء ما فيه : وكذلك الشأن فى (قوله ألقى الشيطان فى أمنيته) إذ لم يذكر المتعلق ، فلم يقل : ألقى الشيطان فى أمنيته العوائق من شبهات ووساوس ، لأن ذكر المفعول وهو – كما قلنا قيد فى فعله – ، يفهم أنه للاحتياط عن مفعول آخر ، وهذا يشعر بصحة تعلقه بذلك الآخر ، فيفيد أن الشيطان يصح أن يلقى غير الشر الذى هو الشبهات والوساوس ، وعليه فيكون عدم ذكر المتعلق للإيذان بانحصار ما تلقيه الشياطين فى الشر وأنه لا يكون عن طريقهم خير فمجرد ذكر الإلقاء مسنداً إليهم مفهم نوع ما يلقون إلى الناس ، وفى ذلك من تقبيح أمر الشيطان ما فيه .

وإلى هنا أستميح القارئ عذراً فى أن شغلت بروائع القرآن عما أنا بصدده والآن سأعود ثانية إلى موضوعنا الأصلى فأقول .
إنى بعد أن اهتديت فى تأويل الآية إلى ذلك المعنى راجعت تفسير الإمام الألوسى فوجدته بحمد الله قد أغفل حديث الغرانيق إغفالا ولم يعرض له غير أنه فسر قوله تعالى (تمنى) بقرأ وفسر ما يلقيه الشيطان بما يشبه المغالطات ، ولكنى على أى حال قد سرنى كثيراً سلوك الأستاذ الألوسى هذا المسلك المشعر بأنه يرى بطلان حديث الغرانيق ، والمشعر بوجوب صيانة القرآن الكريم عن الترهات والأباطيل وما يخدش قدس الرسل والأنبياء ، ولقد أيد لدى ما اهتديت إليه من تأويل فى الآية ما أخبرنى به أحد شيوخنا الأجلاء الذين ضربوا فى علوم التفسير بسهم أسد ورأى أشد وقد نحا هذا النحو إمام المحققين وقطب الواصلين سيدى عبد العزيز الدباغ أكرم الله مثواه ورضى عنه وأرضاه ؟

عباس طه

الملاحم والمطولات الإسلامية في الشعر العربي

للدكتور سعد الدين الجيزاوي

« المعلقة الإسلامية : أو معلقة الكعبة »

للأستاذ اليعربي محمد محمد توفيق ، وشرح الأستاذ محمد أمين التميمي وقد ذكر في المقدمة فكرة هذه المعلقة :

وقبل أن أفكر جديا في طبع هذه المعلقة عرضتها على كثير من شعراء العالم العربي وأدبائه ، فكان الإجماع على الإعجاب بها ، والطرب لها ، ووصفها بأنها أليانذة إسلامية ، وكانت الرغبة في طبعها حفظا لها من الضياع ، وكان السعي الحثيث لذلك ، حتى تم التوفيق بإخراجها إلى العالم الإسلامي بهذا الثوب القشيب .

فإلى أنصار المدرسة القديمة ، وإلى متذوق اللغة العربية ، وإلى عشاق الأدب العربي وإلى كل مسلم يهمه الإلمام بتاريخ الكعبة ، والمسجد الحرام ، حيث يولي وجهه خمس مرات كل يوم : أقدم هذه المعلقة الإسلامية .

وهي طراز آخر من الملاحم الشعرية الحديثة ، إذ اتجه الشاعر فيها إلى التاريخ لناحية هامة ، وعرض هذا التاريخ في شعر رصين يطرب له عشاق الأدب الكلاسيكي وتتطلع إليه قلوب المشتغلين بالتاريخ الإسلامي في مختلف مناحيه .

وهو لم يقتصر على سرد التاريخ بل أنه ضمن هذه المعلقة كثيرا من أحكام الحج ، وفضل العرب على غيرهم ، ومزايا الإسلام ...

وقد تضمنت هذه المعلقة :

١ — مقدمة :

وقد قدر لها أن تبقى ألفين من السنين ، وعلل لماذا سلك سبيل « المدرسة القديمة » ،

على جاهلي اللفظ بحرت آمنا
ومن لهجات العرب سقت الأحاسنا

أيمدح بيت الله بالغث إن يكن
سمين ؟ وقد بز المكان الأماكنا

وفي جاهلي من زمان ومسلم
حياة له تروى قديما وراهنا

وقال في « رنة الحج » :

حجاج بيت الله
لا ثروة لا جاه
الكل في أخراه
طوبى لكم حج

في ملبس الأحرام
دنيا من الأقوام
سام يؤاخي حام
والطـــرق ترتج

ذنب الورى مغفور
والنفس فيها نور
بيت هنا معمور
يعلو به العج

يا أيها الأبرار
صلوا على المختار
في جنة لا نار
يمضي بنا فج

٢ — المعلقة : وقد تضمنت العناوين الآتية :

إلمام الكعبة - هجرة الخليل بهاجر وإسماعيل - زمزم - رفع القواعد من البيت - أصنام إبليس ، عبد المطلب وإعادة حفر بئر زمزم - ذهب الكعبة والنذر - العروبة في جاهليتها - المعلقات على الكعبة - للبيت رب يحميه - إعادة بناء الكعبة - ظهور الإسلام وتحطيم الأصنام - تحويل القبلة - مناسك الحج - أحكام عامة وحرمات البيت - خاتمة . خادم البيت .

وقد تضمنت هذه العناوين قصائد تختلف طولا وقصراً بحسب طبيعة موضوعها وقد نظمت جميعها على بحر واحد هو « الطويل » ، وقد استطاع الشاعر أن يجعل لها جميعا قافيه واحدة جعل لها « الدال » رويا وقد بلغت مجموع أبياتها ثمانمائة وخمسين بيتا ما عدا الأخيرة « خادم البيت » فقد جعل لها رويا آخر هو « الراء » وأبياتها خمسة عشر ومائة بيت .

ولعل الذي يسر للشاعر ذلك هو اختلاف الموضوعات ، فهي وإن كانت متسلسلة في أحداثها إلا أن كل عنوان منها يمكن أن يعتبر موضوعا مستقلا ولكن كيفما كان الأمر فإن التزام قافية واحدة في هـذا العدد من الأبيات قد اضطر الشاعر إلى التكرار والتكلف .

ونعرض هنا نماذج قليلة منها :

يقول عند « ظهور الإسـلام وتحطيم الأصنام » :

ولما أراد الله إظهار دينه
تنزل فرقان على قلب أحمد
نبي الورى طه القريشي محتداً
وسيد أهل الأرض من سبط سيد

ثم يأخذ في وصف النبي الكريم وقبيلته ، ويبين عجزه عند إيفائه حقه مهما أوتي من فصاحة وبلاغة . ثم يبين كيف حطم النبي الأصنام . وينتقل بعد ذلك إلى معالجة موضوع دقيق وهو تحويل قبلة الصلاة

من بيت المقدس إلى الكعبة وما كان من موقف اليهود منها .

لقبلة دين الله خبء فصاحتى
وما عذر ما قيل فى نعت مسجد

وأرجو بها طبعا لدى الخلد حاليا
فقد مر من دنياى عيشى المعدد

تماجدت لما صغت فيها ، ولم أزل
أصوغ حديث الشاعر المتمهد

وفى جبهة ، والليل بالصبح حالم
بكيت ، ومن يشهد من الحب يكبد

إلى أن يقول :

ولله شرق من جهات ومغرب
ولكننا وجه الهدى فى التزود

بمكة صلى الناس ، ثم بيثرب
إلى القدس فى ساكوته المتهود

بميدانه أمجاد دين وحكمة
أطلت عليه فى علا متأبد

ومن سبل ما حوله من محافل
ويرفل فى زيتونه المتعمد

إليه سرى فوق البراق محمد
بعزم نبى وانبثاقة موجد

وبعد أن يصف بيت المقدس وأفضاله يقول :

على أن بيت الله أولى بأحمد
وإن يفس يبعث الله فى النسك يأمد

لديداء نور ، والثواب عطاؤه
ويقبس مـــد نوره المتفرد

وفى نهر مــــد النهار بأفقه
وثم غمام كالقطيع المنضد

إلى أم بشر سار طه وصحبه
وكانت أعدت من ثمار ومعقد

وحانت صلاة الظهر والشمس جذوة
وأطرافهم بلت بماء عهد

فنص أمين الله جبريل آية
إلى المصطفى فى لهفة المتنشد

بها صار بيت الله فى الدين قبلة
لكل قريب فى الصلاة وأبعد

وآخر صف صار للناس أولا
ومن يك ذا حرص على الوحى يأفد

وأطلق نعت القبلتين تيمنا
على مسجد فى يثرب الخير مفرد

فما ليهود ، والألى ضل وجههم
وقبلتنا ؟ بل وجههم فى التنقد

يقولون : ما ولاهم عن سبيلهم
وفيهم من البشرى وجيفة أكبد

ألا فليكن فيهم لهايا وغصة
تثوب وإن يسفخ عنها تزيد

١ — وقد حرص الشاعر فى هذه المعلقة على اختيار الألفاظ الفصحى وإن كانت غريبة غير متداولة مثل : ميداء ، متأبد ،

مؤجد ، يأمد ، لديداه ، يأفد ، وبه ، أكيد في هذه الأبيات القلائل .

٢ — والتزم قافية واحدة في ثمانمائة وخمسين بيتا ، وهذا قد اضطره إلى صوغ معانيه صياغة خاصة تغلب فيها الحرص على اختيار الألفاظ على السبك الشعرى الذى يحتاج إلى رنين الشعر المنبثق من الاهتمام بالمعانى ، فالرنين الموسيقى للفظة « قريب » يقابله لفظة « بعيد » لا « أبعد » كما قال : « لكل قريب فى الصلاة وأبعد » ولكنه حكم القافية .

ومن ثم فقد كان الشاعر مقيدا بأمرين يحولان دون انطلاقه فى ترقيق هذا الشعر وهما : وحدة القافية وما يتبع ذلك من الحرص على ألفاظ بعينها ، ثم إشاعة الكلمات العربية المهجورة .

وهو أمر يحمد عليه الشاعر إذا قصد تسجيل الألفاظ لإحيائها كما فعل المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب ، وكما فعل من قبله السيد البكرى وغيره ، وكما دعا إلى ذلك الأستاذ أحمد حسن الزيات فى كتابه « دفاع عن البلاغة » .

ولكن هذا الأمر يقرب هذه المعلقة إلى الشعر التعليمى ، ويجعل الإفادة منها مقصورا على الدراسة التاريخية واللغوية .

وكيفما كان الأمر فإنها عرضت لموضوع شائق ، يتصل بالعقائد الإسلامية ويسجل ناحية من أمجاد تاريخ العرب والمسلمين ، وأضافت إلى الدراسات الإسلامية سفرا جليلا ...

ملحمة عيد الغدير :

للشاعر اللبنانى بولس سلامة نشرها عام ١٩٤٨ ، متضمنة خلاصة لتاريخ العرب فى الجاهلية وبروز قريش بين قبائلها وظهور النبى عليه الصلاة والسلام ، ثم تاريخ الإمام على بن أبى طالب وتصوير المآسى التى وقعت لآل البيت على يد الأمويين .

وهذه الملحمة فى حوالى خمسة آلاف وخمسمائة بيت ، وكلها من بحر واحد هو الخفيف ولكنها قصائد متعددة القوافى ...

وقد ذكر فى التصدير أن اختلاف الدين لا يمنعه أن يتناول ناحية تاريخية تصور جزءاً من تاريخ العروبة ويتحدث عن بطل من رجالات العرب .

ومما جاء فى التصدير عن منهجه فى نظم هذه الملحمة قوله : « ومع الانطلاق الشعرى الذى حاولته ، فلقد بقيت مغلول الجناحين ، لا أستطيع أن أخلع على الواقعات من الفن إلا بمقدار ، ذلك لأن الملاحم تدور على الأساطير حيث يسبح الشاعر ولا رقيب عليه إلا ذوقه . وكنا فى هذا محوره التاريخ ، والتاريخ حرام على الخيال حتى فى الحوادث

العادية فكيف به عند ما يستند معظمه إلى الأحاديث النبوية :

ونكتفى هنا بذكر نموذج من شعر هذه الملحمة .

مما جاء فى وصف شجاعة على يوم الخندق وقتله عمرو بن ود :

ومشى حيدر يروم هصوراً
يلتوى الأخشبان قبل التوائه
أيها النسر ، دونه كل نسر
ليس غير النجوم فى أجوائه

« ملحمة الذكريات الإسلامية » :

« والرسالة النبوية المحمدية » :

لمنشئها « محمد البدرى محمدين » .

وأبيات هذه الملحمة خمسون وأربعمائة بيت ، وقد نظمها الشاعر على طريقة المربعات واختار لها بحراً واحداً هو الرمل ، وقافية موحدة للمربع هى الهمزة .

وقد تضمنت صورة لحياة الجاهلية ثم ذكرى مولد الرسول الكريم وبعثته والإسراء والهجرة ثم الغزوات وانتشار الإسلام فى أكثر بقاع العالمين :

وقد جعلها قصائد لكل منها عنوان ، وختم كل موضوع بهذا المقطع : جددوا الذكرى لخير الأنبياء . ماعدا آخر بيت فقد ختمه بقوله : « خلدوا الذكرى لخير الأنبياء » . قال فى المطلع :

جددوا الذكرى لخير الأنبياء
من لداء الشرك وافى بالدواء
وبدا فى ظلمات فأضاء
وبه الأرض استنارت والسماء

ومما جاء فى قصيدة انتشار دعوة الإسلام :

شمل الله البرايا بهداء
أيقنوا أن ليس معبوداً سواء
خضعوا للدين والكل اقتفاء
لم يعد فى العقل عن رشد غباء

* * *

وابتنى الدنيا بناء من جديد
فعلا الصرح ، وحاشا أن يميد
لبنات الحق أقوى من حديد
وبناء الله يعلو عن فناء

وتعتبر الملحمة تلخيصاً للسيرة النبوية وآثار الإسلام بأسلوب شعرى بعيد عن التعقيد اللفظى ، وطبيعى أن الشاعر مقيد فى خياله بالعقيدة الإسلامية كغيره من شعراء المطولات .

ملحمة الثورة :

للأستاذ على زهران وقد رأيت الإشارة إلى هذه الملحمة لأهمية موضوعها وطولها إذا تقع فى تسعين صفحة تسجل أعمال ثورتنا المجيدة من يوم قيامها إلى نهاية ١٩٥٧ .

وهى صورة لأدبنا الشعبى الجاد الذى ينبغى أن تعنى بنشرة الإذاعة والتليفزيون لأنه

أجدى من كثير مما يذاع من الأغانى العاطفية الرخيصة .

وقد نظمها مقطوعات زجلية ، ولذلك لم أر داعيا لعرض نماذج منها لأنها لا تدخل فى باب الشعر الفنى من حيث نسجها ولغتها . أما موضوعها وأفكارها فغاية فى الأهمية ونحن الآن قد اتجهنا إلى الاعتزاز بفنوننا الشعبية المختلفة ، ومن الإنصاف ألا نغفل منها الناحية الأدبية .

ملحمة الشعر التاريخية فى ثورة الجيش التحريرية :

للأستاذ محمد البندارى

وعلى الرغم من أن هذه « الملحمة » عبارة عن قصيدة واحدة من مائة وعشرين بيتا إلا أنها صورت فترة دقيقة من مراحل نهضة مصر الحديثة وأثبتت لرجال الجيش فضلهم .

وقد تضمنت لمحة عن أمجاد مصر السالفة وعظمتها فى التاريخ ثم تصويرا لما كانت عليه أحوال البلاد قبل الثورة ثم وثبة الجيش وعزل الملك ثم زوال عهد الأقطاع وتحديد الملكية والاتجاه إلى النهضة الكبرى ، واستنهاض همم أبناء العروبة .

وقد نظمها على بحر واحد هو البسيط وقافية واحدة فى شعر رصين يفيض حماسة بعيد عن غريب الألفاظ .

وما جاء فيها عن وثبة الجيش بعد تصوير العهد الغابر :

وما دروا أن فى مصر أشاوسة
هم معقل الأصل الباقى بواديها

هم الجنود : جنود الجيش قد نهضت
بالليل فى غسق الأسحار تحميها

والعدل ، والرفق ، والإحسان ديدنها
ورفع شأن الحمى أسمى مراميها

ومما جاء فى استنهاض همم العرب :

كم بالعروبة من أهوال أندلس
وكم مآسى تتالت فى أراضيها

فيا بنى العرب : ردوا العار واقتحموا
عرائن الأسد إن بانت عواديها

فى مسمع النجم عنكم كل صالحة
وفى يمين الملا منكم هواديها

وكم لكم يا حماة الضاد من نعم
على العباد تسامت فى مبانيها

سودوا البرايا كما سادت أوائلكم
فأنتم الأمن للدنيا ومن فيها

سعد الدين الجيزاوى

ما يقال عن الإسلام

مستشرق من اليابان
يكتب عن الله والانسان فى القرآن

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

كان عهدنا بالمستشرقين أنهم من أبناء الدول الغربية ، مثل ألمانيا وفرنسا وانجلترا وهولاندا وإيطاليا وأسبانيا ، وأقصى ما بلغه هؤلاء المستشرقون فى أوربا هو روسيا ، ولم يكن عددهم فيها كثيرا ، ولا بحثهم غزيرا أما أن يبلغ الاستشراق أقصى الشرق البعيد ، أو الشرق الأقصى حيث اليابان ، فهذا شىء جديد فضلا على دولة الاستشراق .

واليابان دولة عظمى ، ولها مصالح كثيرة مع الدول العربية بدأت قبل الحرب العالمية الأخيرة بزمن ، واستمرت بعدها حتى الآن وهى مصالح تجارية تبلغ الملايين من الجنيهات وقد كان الاستشراق فى الدول الغربية تابعا لهذه المصالح ، ثم انقلب إلى استعمار سياسى لم يكن يقدر له النجاح لولا المعرفة الوثيقة بتاريخ هذه الشعوب وجغرافيتها وآدابها ودياناتها ، وهذا ما فعله المستشرقون حين درسوا كل هذه النواحى دراسة منهجية عميقة ، وكان بعض هذه الدراسات علميا محضا ليس وراءه أغراض سياسية خفية ، وكان بعضها الآخر يخفى أغراضا خبيثة ، ويستهدف غايات استعمارية .

وقد أسهم اليابانيون أخيراً فى هذه الدراسات ، قام بها أصحابها باللغة اليابانية ، ولا سبيل لنا إلى معرفة حقيقة هذه الدراسات لأننا لا نعرف اللغة اليابانية ، كما أنها ليست لغة عالمية وقد تعلم فى مصر كثير من اليابانيين وبخاصة فى الأزهر ، والتحق قلة قليلة منهم بالجامعة ، وقد عرفت أحدهم وهو الأستاذ « أوداكا » الذى نقل مقدمة ابن خلدون إلى اليابانية .

وكتب بعض اليابانيين باللغة الإنجليزية ، فأصبحت آراؤهم معروفة ومنتشرة ، وهذا ما فعله الدكتور « طوشيهيكو إيزوتسو » Toshihiko tzutsu من اليابان ، ومن عاصمتها طوكيو ، والأستاذ بجامعتها كيو ، وكانت رسالته التى تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه عن : « المصطلحات الأخلاقية فى القرآن » ، طبعت الرسالة بالإنجليزية وصدرت فى طوكيو سنة ١٩٥٩ ، وقد تسنح

فرصة أخرى للتعريف برسالته ، أما حديثنا الآن فيتناول آخر ما نشره وهو كتاب : « الله والإنسان فى القرآن - دراسة سمنتية » وقد صدر هذا العام ، ونشر فى طوكيو أيضاً .

ولا سبيل إلى القيام بمثل هذه الدراسات على الوجه الأكمل إلا بعد تعلم اللغة العربية ، ولذلك أنشأت اليابان معهداً فى طوكيو لتعليم اللغة العربية وما يتصل بها من دين وأدب وتاريخ ، وفى هذا المعهد تعلم الأستاذ إيزوتسو العربية وقام بتقديم رسالته عن (الأخلاق فى القرآن) غير أن تعلم العربية وآدابها فى اليابان شىء ، وتعلمها فى موطنها شىء آخر ، وموطن العربية وقلبها النابض منذ القرن التاسع عشر بل قبل ذلك كان ولا يزال فى القاهرة ، حيث الأزهر الشريف أكبر جامعة إسلامية ، وحيث جامعة القاهرة ، وحيث المجتمع الذى يتحدث بلغة الضاد آناء الليل وأطراف النهار ، ولذلك نجد أن معظم النابهين المشهورين من المستشرقين كانوا يتخذون من القاهرة قبلتهم ، يتممون فيها تعليمهم ، ويفصحون لسانهم ، ويطلعون على أسرار العربية .

فعل الأستاذ إيزوتسو كما فعل كبار المستشرقين من قبل ، وفد إلى القاهرة حيث أمضى بها عاما أو نحو ذلك سنة ١٩٦٠ ، وتسنى له فى هذه الفترة التى قضاها أن يتصل بالثقافة الإسلامية والعربية فى منابعها ، وأن يطلع على أحدث ما أخرجته المطابع بالعربية ، وأن يقتنى لنفسه مكتبة غزيرة من نوادر الكتب فى شتى فروع العلوم الإسلامية ، والتقى بكثير من رجال الفكر واتصل بيننا حبل المودة ونعمت بصحبته وصداقته ، ورأيت أنه على خلق عظيم ، ولا غرو فهو يمت بصلة إلى الأسرة المالكة فى اليابان ، ثم هو إلى ذلك يجيد عدة لغات أوربية وشرقية خلاف الانجليزية التى يؤلف بها كتبه ، وهو الآن منتدب للتدريس بمعهد الدراسات الإسلامية بمونتريال فى كندا ، وقد عين عضوا مراسلا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة .

* * *

المنهج الذى يتبعه الأستاذ إيزوتسو فى أبحاثه هو : « السمنتية » أى علم المعانى أو تطور الدلالات ، ذلك أننا نعبر عن أفكارنا بألفاظ ، والألفاظ تدل على معان ، ويتغير المعنى بحسب السياق وبحسب التطور التاريخى . وقد اكتسب هذا المنهج فى العصر الحاضر أهمية خاصة ، وألف كثير من الكتب فى علم « المعنى » وفى تحليل المعانى بغية النفاذ إلى أعماق الفكر الذى تعبر عنه وقد حدد الأستاذ إيزوتسو هذا المنهج بقوله : « إنه دراسة تحليلية للمصطلحات الأساسية فى لغة ما للوصول إلى معرفة نظرة قوم من الأقوام عن العالم الذى يعيشون فيه حين يستخدمون هذه اللغة أداة لا للحديث

والتفكير فقط بل لتصور العالم الذى يعيشون فيه وفهمه . إن السمنتية على هذا النحو نظرة إلى العالم ، وهى إلى حد ما نظرة فلسفية والكتاب الذى نقدمه الآن وهو « الله والإنسان فى القرآن » يحمل عنوانا فرعيا آخر هو : دراسة سمنتية للقرآن ، أو بالضبط « دراسة سمنتية للنظرة القرآنية نحو العالم » يريد بذلك أنه سيدرس المصطلحات الأساسية التى وردت فى القرآن والتى يتألف من مجموعها نظرة معينة إلى العالم.

• • •

هذه المصطلحات التى نجد لها تحليلا فى الكتاب هى : عبد ، عبادة ، أجل ، الآخرة ، الله ، عقل ، عرب ، عجم ، آية وآيات ، بعث ، باطل وحق ، ضلال ، دهر دين ، دعاء ، الدنيا ، غيب ، حرية ، حنيف ، حشر ، هوى وأهواء ، حلم وحليم ، هدى إفك ، إلاه ، إلهام ، علم ، إيمان وإسلام ، جهنم ، جنة ، جهل وجاهلية ، الجن الكعبة ، كلام الله ، الكفر ، الخلق ، الكتاب ، نبى نجاة ، نعمة ، نزل وتنزيل ، قضاء وقدر ، رب ، رسول ، رأى ، صلاة ، شكر ، صراط ، سجود ، طاعة ، تقوى ، تصديق ، أمة ، وعد ، وحى ، وعيد ... الخ .

وقد رتب الكتاب على مقدمة وتسعة فصول ، الأول والثانى فى السمنتية بوجه عام ، وتطبيقها على المعانى الواردة فى القرآن .

الفصل الثالث فى التركيب الأساسى للقرآن ، تحدث فيه عن الله والإنسان ، الجماعة الإسلامية ، عالم الغيب وعالم الشهادة ، الدنيا والآخرة ، بعض السمعيات .

الفصل الرابع عن « الله » لفظة الله ، معنى هذا اللفظ فى الجاهلية ، وعند اليهود والنصارى ، وعند الحنفاء .

الفصل الخامس فى العلاقة الانطولوجية (الوجودية) بين الله والإنسان ، وتشتمل على مفهوم الخلق ، ومفهوم البعث .

الفصل السادس فى العلاقة الاتصالية بين الله والإنسان ، وفى هذا الفصل يبحث الاتصال بغير طريق اللغة ، أى آيات الله ، والهدى ، والعبادة سبيلا إلى الاتصال بالله .

وفى الفصل السابع يبحث الاتصال عن طريق اللغة ، كلام الله ، والوحى ، والصلاة .

الفصل الثامن عن الجاهلية والإسلام ، ويبحث عن الإسلام ومفهوم الطاعة والخضوع ثم الحلم الذى كان شعار الجاهلية فانتقل إلى الإسلام ، ثم مفهوم الدين باعتبار أنه الطاعة .

وفى الفصل التاسع يبحث عن العلاقة الأخلاقية بين الله والإنسان ، وعن إله الرحمة ، والوعد والوعيد .

• • •

وقبل أن نقدم نماذج لهذا البحث السمنتى نقول : إن المصطلحات القرآنية أو الدينية بوجه عام ، ليس من اليسير تحديدها تحديداً

دقيقاً كالحال فى المصطلحات العلمية . ذلك أن أى دين ، مثله فى ذلك مثل الفن يختلف عن « العلم » الذى يبحث فى الواقع ويمكن تحديد وقائعه بدقة وقياسها قياساً كميا .

أما الدين - وكذلك الفن - فإنه يعتمد على معان تعد من قبيل « القيم » . والقيم إنسانية أساساً ، تشيع حولها جواً يحس به المرء ولكن يصعب تحديده وقياسه . ولذلك يصعب القول مثلا بأن هذا الشخص أكثر إيماناً من ذاك ، بل يصعب القول عن الشخص الواحد إن إيمانه الآن أكثر منه قبل ذلك بوقت قليل وإذا نحن أردنا تحليل مصطلح كالصلاة مثلا ، فمن اليسير وصف الحركات الظاهرة ، ولكن يصعب إن لم يكن من المستحيل تحديد الإحساس الباطن الذى يغمر قلب المصلى وهو يقف بين يدى الله . فهذا الشعور أمر لا سبيل إلى تحديده بالألفاظ .

ومع ذلك فلا بد من اتخاذ طريقة للقياس ، أى طريقة ، وإلا تعذر البحث ، ولا بأس بطريقة تحليل المصطلحات الأساسية القرآنية ، فإن هذه الطريقة ليست جديدة مبتكرة ، وقد اتبعها كثير من علمائنا قديما ، كل ما فى الأمر أن الأستاذ إيزوتسو أضاف عند التطبيق ما وصل إليه علم السمنتية بعد تطور المنطق الحديث .

* * *

النظرية التى يذهب إليها المؤلف يمكن تلخيصها بإيجاز بأن الله والإنسان يكونان طرفين متقابلين أحدهما فى أقصى اليمين والآخر فى أقصى الشمال . وكان الإنسان فى الجاهلية هو المحور الذى تدور عليه جميع المعانى الأخيرة ، فهو مركز العالم ، حتى الأرباب التى كان يعبدها فهى تابعة له حتى إذا جاء الإسلام انعكست الآية . فأصبح الله هو مركز العالم ، وكل شىء آخر يتصل به . وهذه الصلة إما أن تكون وجودية ، فالله هو الخالق ، ووجود الإنسان مستمد منه . وإما أن تكون صلة ارتباط متبادل ، فهى من جهة الله وحى ، ومن جهة الإنسان دعاء ، ومعرفة الله تتم بالنظر إلى الآيات أو بالتجلى فى الصلاة . وإما أن تكون صلة ربوبية وعبودية ، فالله هو الرب والإنسان هو العبد . وإما أن تكون صلة أخلاقية ، من جهة الله الرحمة والعدل ، ومن جهة الإنسان التقوى والشكر ، والتقوى والشكر تابعان للإيمان ، وهما يقابلان الكفر .

ومن الطبيعى أن يكون بدء الحديث عن المجتمع الإسلامى ما هو ، وكيف نشأ ، وما وجه اختلافه عن المجتمعات السابقة عليه والمعاصرة له والمتأخرة عنه ، وما تركيب هذا المجتمع حقوقه وواجباته ؟

يرى المؤلف أن « المجتمع » الإسلامى لم يكن يسمى بهذا الاسم ، أو هذا المصطلح نعنى المجتمع أو الجماعة ، وإنما المصطلح

القرآني والذي يعد حجر الزاوية في نظره هو «الأمة» وما يتفرع عنه من: أمي، وأميون، وأمم.

والمؤلف بطبيعة الحال يرجع إلى القرآن لتأييد وجهة نظره. ففي سورة البقرة آية ١٢٨ يقول الله: «ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك». فالأمة المسلمة هي الجماعة المسلمة. هذه الجماعة تختلف في مبادئها وأسسها عن الجماعة في الجاهلية التي تقوم على أواصر الدم والقرابة، أما الجماعة الإسلامية - أو الأمة الإسلامية - فإن الروابط التي تصل بين أفرادها هي الإيمان الديني المشترك لا علاقة القرابة والدم. فالأصل في معنى «الأمة» أنها الجماعة، وفي الآية السابقة يخاطب إبراهيم ربه يطلب أن تكون أمته مسلمة لله، وكذلك أن يكون من ذريته «أمة مسلمة» لله.

ولما استقر الإسلام بعض الشيء، واستقرت فكرة الأمة الإسلامية رأى المسلمون أنهم مخالطون بجماعات أخرى دينية كانت موجودة من قبل ظهور الإسلام في جزيرة العرب، كاليهود والنصارى والصابئة، وهذه الجماعات يسميها القرآن «أهل الكتاب» وهكذا نرى أن القرآن يقسم عرب الجاهلية قسمين أساسيين هم:

١ — أهل الكتاب.

٢ — الأميون.

ويقابل بينهما، كما نرى في سورة آل عمران حيث جاء: «وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين»، والمقصود من الأميين في هذه الآية عبدة الأصنام، وهم الذين لم ينزل عليهم كتاب سماوي.

فإذا مضينا في تحليل مصطلح الأميين أكثر من ذلك، رأينا أنه يشمل ثلاثة أفكار متصلة به، أنهم بغير كتاب، وأن الله يرسل إليهم رسولا يحمل إليهم ما يوحى إليه، وأنهم قبل نزول الكتاب عليهم كانوا في ضلال، كما جاء في الآية الثانية من سورة الجمعة: «هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين».

فالعرب الذين كانوا أميين، أي غير ذوي كتاب سماوي، أصبحوا بعد الرسالة «أمة مسلمة»، وهذه الأمة المسلمة تتصف بالنسبة لأصحاب الديانات الأخرى بصفتين. أنها «خير أمة»، وأنها «أمة وسط» كما جاء في القرآن: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله». وفي قوله تعالى: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس».

الواقع كان أهل الكتاب في الجاهلية قد انحرفوا وضلوا بحسب ما يحكيه عنهم القرآن.

كانوا فى البداية متدينين بالدين الصحيح ، ويسيرون على الطريق المستقيم ، وأصل الدين كله هو « الحنيفية » التى كان يدين بها ابراهيم ، ثم انحرفت هذه الحنيفية كذلك . وليس الإسلام إلا الرجوع إلى الدين الأصلى المستقيم ، وتخليص الدين القائم من الشوائب التى أفسدته .

ولفظ « حنيف » من الألفاظ التى يصعب تحديدها ، وكشف الستار عنها تماماً . واللفظ يرتبط ارتباطا وثيقا بإبراهيم ، ففى سورة آل عمران يقول القرآن : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما » وقد وردت عبارة « ملة إبراهيم حنيفا » فى أكثر من آية . وهناك تقابل واضح بين الحنيفية التى تمثل الوحدانية وبين الشرك فى الآيات القرآنية .

ولا نزاع أن العهد كان قد بعد بين إبراهيم وديانته الحنيفية وبين الديانات التى ظهرت على مر التاريخ بعد ذلك من يهودية ونصرانية ولذلك يلوح - وهذا هو الأغلب - أن الحنيفية كانت قد انقرضت . ولو أن هذه الديانة كانت باقية فى الوقت الذى ظهر فيه محمد عليه السلام ، لسجل القرآن هذه الظاهرة ، والواقع ان القرآن ينص على عكس ذلك ، نعنى على أن الله « أوحى » إلى محمد باتباع ملة إبراهيم . ففى سورة النحل بعد قوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا » . إلى آخر الآية ، يقول بعد ذلك : « ثم أوحينا إليك - (أى يا محمد) - أن اتبع ملة إبراهيم ... » .

ولكن المستشرقين ، والأستاذ ايزتسو يتابع دراساتهم أو يلخصها عنهم ، فاتهم ذلك المعنى الذى أشرنا إليه وراحوا يتلمسون افتراض وجود جماعة من الحنفاء فى الجاهلية قبل الإسلام مباشرة ، وأن محمدا كان على صلة بهم ، وتعلم عنهم هذا الدين ، وذكروا من هؤلاء الحنفاء عدد من العرب فى الجاهلية منهم أو أشهرهم أمية بن أبى الصلت شاعر ثقيف فى الطائف . وتدور حول هذا الشاعر قصص كثيرة أقرب إلى الوضع منها إلى الحقيقة . فلما أعلن محمد النبوة غضب أمية لأنه كان يطمع أن يكون هو هذا النبى .

وهذه كلها مباحث طريفة ، ولكننا نقول إذا تعارضت الروايات التى نقلت ودونت عن الجاهلية مع ما جاء فى القرآن ، فلا شك أن النص القرآنى أثبت وأيقن ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والقرآن إلى ذلك مرآة صادقة للعصر الذى نزل فيه على محمد عليه السلام ، فهو إلى جانب أنه وثيقة دينية أى كتاب منزل سماوى ، فإنه وثيقة تاريخية أصدق من سائر الوثائق الموجودة بين أيدينا .

محمد فؤاد الأهوانى

من وحى القرآن "قصيدة"

للأستاذ حسن جاد

يا ساقى الأرواح من كاساته
روحى فداك فهات جامك هاته
واسكب غناءك فى مسامع مهجتى
يشدو الفؤاد على صدى رناته
رتله يا غـــرد السماء مفصلا
تعنو النفوس إلى بليغ عظاته
يا من نداماه القلوب وراحه
من كرمة البارى ومن جناته
عطر به الدنيا ، فأية نفحة
أندى من القرآن فى نفحاته ؟
وأشج القلوب به ، فأية نغمة
أشجى من القـــرآن فى نغماته ؟
واجل النفوس به فأية جلوة
أبهى من القرآن فى آياته
إن تسقها من كرمه تفتح لها
حجب السماء عن الإله وذاته

* * *

عين من الفصحى ونبع هداية
يشفى غليل الروح عذب فراته
السحر كالسحر فى ألفاظه
والجرس أحلى الجرس فى نبراته
أعيا العقول معانياً ومرامياً
ورمى فحول القول عن صهواته
حسب النبي به دلائل حجة
دكت صروح الشرك فوق مناته
من كل بالغ حكمة أصغى لها
سمع الزمان وزفها لرواته
أو كل ذكر من جلالة قدسه
وجل الفؤاد ولج فى دقاته
أو كل رائع قصة تأثيرها
راع الجحود وهز صلب قناته
أو كل موعظة بكى من وقعها
طرف العصى وتاه فى عبراته
اسمع لشدو النشء فى ترتيله
ينساب قدسياً على لهواته
تحسب عصافير الربيع ترنمت
فى الروض واجتمعت على دوحاته

* * *

قبس من الرحمن يهدي من سرى
في ظلمة الدنيا سنا مشكاته
يحيا به ميت القلوب بشاشته
كالجدب أحيا الغيث ميت نباته
تفنى دساتير العباد ، وإنما
دستوره ماض إلى غاياته
يا باعثا روح السلام يهديه
ضل الأنام عن السلام فهاته
الكون مضطرب الخواطر حائر
تتعثر الآمال في خطواته
صدفت عن النور البهي عيونه
فتخبطت في الوهم من ظلماته
يعدو القوي على الضعيف كأنه
ذئب ترصد في الخفاء لشاته
دنيا من الجشع البغيض ، وعالم
قد ضل بالأهواء في غمراته
لو أنه أصغى إلى القرآن لم
ير ما يطب لدائه كأساته
هو طهر هذي الأرض من أوضارها
وخلاص هذا الكون من آفاته
وزكاة ما في النفس من أوزارها
وشفاء ما في الصدر من علاته
ومشارع للحق والأخلاق في
آدابه تحميه من عثراته
عودوا إليه لتستقيم حياتكم
وخذوا الحقيقة من لسان دعاته
فأقل ما يدعو إليه سعادة
للعالم الملتاع من ويلاته

حسن جاد حسن

الكتب

عرض وتقديم : للأستاذ محمد عبد الله السمان

---

١ – أبو زكريا الفراء :

للدكتور أحمد مكى الأنصارى

أبو زكريا الفراء ومذهبه فى النحو واللغة هو موضوع الرسالة التى نال بها الدكتور أحمد مكى الأنصارى من كلية الآداب جامعة القاهرة درجة الدكتوراة فى الآداب بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى والتوصية بطبع الرسالة على نفقة الدولة تمجيدا وتقديراً وقد اهتم المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بنشرها ، وقام بطبعها فى ستمائة وخمسين صفحة

قسم المؤلف دراسته عن الفراء إلى بابين ، تناول فى الأول منهما عصر الفراء وحياته وآثاره ، كما تناول فى الباب الآخر مذهبه فى النحو واللغة ، وفى المقدمة الموجزة للدراسة ، أشار المؤلف إلى موضوع البحث وأهدافه ، ودوافعه ، ومنهجه ، ومصادره ، وفى الخاتمة ، لخص معالم البحث وأوضح الجديد فيه ، وأشاد بالعلماء والمحققين أن يتعاونوا على إخراج أكبر أثر للفراء ، وهو كتاب «معانى القرآن» ، كما دعا إلى إصلاح النحو العربى لتيسيره .

والباب الأول ثلاثة فصول : فى الفصل الأول عرض لعصر الفراء ، تناول الحياة السياسية حيث نشأ العصر الذهبى وقامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس وازدهرت الفتن والاضطرابات وتناول الحياة العقلية حيث حدث احتكاك الأفكار وامتزاج الثقافات ، وأخيراً تناول الحياة الاجتماعية ، حيث أطل عليها ترف وسرف وثراء ورخاء ، وامتزج الدم العربى بالدم الفارسى ، كما امتزج الصلاح والفساد والهدى والضلال ، وفى الفصل الثانى عرض المؤلف للفارابى حياة وعمانا ، لحقق اسمه ولقبه ونسبه ومولده ، ووفاته ، الموجود منها والمفقود ، جملة وتفصيلا ، كما عرض منهج

الفراء فى التأليف وعوامل تأثره بالمنهج الفلسفى .

أما الباب الثانى فقد كان فصلين ، عرض المؤلف فى الفصل الأول مذهب الفراء فى النحو ، باعتبارة المؤسس الحقيق للمذهب البغدادى ، وكشف عن مظاهر النزعتين الكوفية والبصرية عنده ، وأوضح آراءه فى النحو ، وأثره فى تيسيره . وعرض فى الفصل الثانى مذهب الفراء فى اللغة ، مظاهر النزعة البصرية فى مذهبه اللغوى ، ومظاهر استقلاله وجهوده فيه ، ولا سيما الثروة اللغوية التى رواها .

وفى الخاتمة لخص المؤلف المعالم الكبرى لنتائج البحث وبيان الجديد فيه . كما دعا إلى ضرورة مواصلة الجهود لإخراج أكبر أثر للفراء إخراجا كاملا إلى حيز الوجود ، وهو كتاب (معانى القرآن) وإلى التفكير الجاد فى إصلاح النحو العربى وتيسيره .

وبعد — فإن الجهد الذى بذله المؤلف الدكتور الأنصارى فى رسالته هذه ، استحق بحق تقدير اللجنة التى ناقشتها حين قالت : لقد أظفرنا هذا البحث بصورة واضحة المعالم عن حياة الفراء ، وتحقيق مفصل لطائفة من آثاره العلمية ، وقد أعانه استعداد أصيل عنده ومقدرة فائقة ، ثم صبر وثقوب فكر ومثابرة وجلد وغرام يوشك أن يكون هياما .

٢ — الغزو الفكرى :

تأليف : محمد جلال كشك

نشرت هذا الكتاب الجاد الهادف مكتبة دار العروبة بالقاهرة للأستاذ محمد جلال كشك.

والكتاب يقع فى أكثر من مائة وأربعين صفحة من القطع المتوسط . وهو فى إيجاز يناقش علاقة الإسلام بالثورة العربيـة ، ويفند المفاهيم المعادية للإسلام ، ويرى أن إسلامية الثورة الجزائرية هى الوضع الطبيعى للثورة العربيـة الشاملة ، ويتصدى لبعض النماذج المتأثرة بالغزو الفكرى الاستعمارى ، كما يكشف الستار عن الحملة الجديدة فى الحرب الصليبية الأبدية بين الغرب والشرق والغرب هو قائد هذه الحملة ، ومن بين السطور لم يفت الكتاب أن يهتك ستر حزب البعث ويعرى مفاهيمه التى لا مفهوم فيها .

فى مدخـل الكتاب يثير المؤلف قضيتين مهمتين . الأولى ، قضية وجودنا ، فيرى أن خروجنا للوطن العربى لم يكن رد فعل - حتى وإن بدا كذلك - بل حتمية تاريخية نابعة من وجـودنا ، جاءت فى توقيتها الطبيعى ، فنحن وبالتالى ثورتنا - ما دامت تعبر عنا - مصريون - عرب - مسلمون ، والعدوان الغربى على بلاد العروبة منذ الحروب الصليبية ليس إلا امتدادا لهـذه الحروب الطائفة ،

وكيف ننسى ما قاله اللورد اللنبي في عقب الحرب العالمية الأولى (لقد انتهت الحروب الصليبية الآن) بعد أن اطمأن إلى القضاء على آخر معقل للإســـلام ، وهو الخلافة الإسلامية ؟ بل وكيف ننسى أن وكالات الأنباء الاستعمارية خلال نضال الجزائر كانت تشير إلى أنه قتل من الجيش الفرنسي كذا ، ومن المسلمين كذا ، وأكثر من هذا - كما يذكر المؤلف - أن مقبرة خلال نضال بور سعيد عام ١٩٥٦ كتب عليها الفرنسيون (عشرون مسلما) . أما القضية الأخرى فهي الخلاف الحضاري ، وهو في رأي المؤلف خلاف حتمي بين حضارتنا والحضارة الغربية أساسه الخلاف العقيدي .

وأبرز ما في الكتاب وأعنفه معا مناقشة المؤلف لبعض النماذج التي رآها متأثرة بالغزو الفكري الاستعماري ، ومن هذه النماذج الدكتور مصطفى محمود لدأبه على النيل من الدين والتدين ، وعقدته شغفه بإغاظة المسلمين من جانب ، ومن جانب آخر لكي يبدو أمام القراء بمظهر الكاتب التقدمي ، ثم غالي شكري الذي لا يسلك الإسلام في عداد التراث الإنساني ، ولا يعتبر المسلمين عنصرا لا بد من إضافته في وضع قوانين عامة للجنس البشري ، ثم عبد الرحمن الشرقاوي الذي أن أهم ادعاء له بالثورية - وهي قصة الأرض - ليست إلا عملا رجعيا معاديا للثورة ثم مسرحيته جميلة التي لم يردها مأساة إسلامية مأساة اضطهاد صليبي استمر مائة وثلاثين عاما ومارسه كاثوليك وملاحدة وشيوعيون ، ولم يردها مأساة عربية مأساة شعب عربي يحرم عليه التطور بلسانه ، لكي تمحى قوميته وعقيدته معا ، بل أرادها مأساة جزائرية وكفى ...

أما الدكتور لويس عوض ، فقد سلط عليه المؤلف أضواء مشتعلة حين ناقشه في مسرحيته (الراهب) وكتابه (المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي) وفي رأيه أن المسرحية والكتاب ترفضان كل قيم الأدب العربي أو الفكر الإسلامي ، لأنهما يمثلان أوضح صور الغزو الفكري الاستعماري .

الحق أن في الكتاب جرأة وعنفا وتحديا وربما لجأ المؤلف أحيانا إلى السرعة في مناقشة بعض القضايا ، ولكنه على كل حال استطاع أن يهتك قناع كتاب يتقايأون في كتاباتهم أحقادهم على العروبة والإسلام ، باستثناء عبد الرحمن الشرقاوي وقد أصابه من المؤلف ما يشتم منه رائحة الغلو والإسراف .

والعجيب أن الأستاذ أنيس منصور تناول هذا الكتاب بقسوة واتهم المؤلف بأنه قاض ينطق بالأحكام وليس تحت يديه مستندات ، بينما مستندات الكتاب واضحة في كل قضاياه

وعيب الكتاب بعد ذلك عنايته بأمثال غالى شكرى ، وهو أضعف وأهون من أن يكون الرد عليه موضوعا فى كتاب ، إلا إذا جاز لناقد أن يصوب مدفعا رشاشا على ذبابة قطن فى مجالاتها ، وعيب آخر فى الكتاب كثرة الأخطاء اللغوية ، ولو أن هذا وذاك لم يفقد الكتاب قيمته الأدبية ، وهو يمثل وجهة نظر إسلامية وعربية معا .

* * *

فى صحبة العقاد

للأستاذ محمد طاهر الجبلاوى

هذا الكتاب الذى أصدرته مكتبة الأنجلو المصرية ـ يقع فى مائتين وعشرين صفحة من القطع المتوسط ، والمؤلف أقدر أصدقاء العقاد على الكتابة عنه . فقد صحبه كاتبا قوى الحجة ناصع البيان ، وشاعراً رقيق الحس رفيع الخيال ، وصحبه صديقا حميا ، ولازمه فى الغدوات والروحات نيفا وأربعين سنة ، وهو يقرر فى تمهيده للكتاب بأن كتابه لن يكون تعريفا بالعقاد كما قد يتبادر إلى الذهن ولا درسا لأدبه وحكمته ، ولكنه صفحات مطوية لعلها تنشر لأول مرة ، يسجل فيها ذكريات غاليات عن الحقبة التى لازم فيها العقاد .

يحدثنا الأستاذ الجبلاوى عن أول لقاء له مع العقاد وكان ذلك فى عام ١٩٢٢ ، بدار صحيفة الأخبار اليومية ، لينشر بها أبياتا نظمها الشاعر حافظ ابرهيم فى تقريظ ديوان صغير نظمه ، وقلب المرحوم المازنى بعض صفحات الديوان فزم شفتيه وهز رأسه ، ولم يكتف بأن الشعر لم يعجبه بل قال لا يستحق النقد ، وسنحت الفرصة مرة أخرى ليلقى العقاد فى قهوة متاتيا بالأزبكية ويعرض عليه نماذج من شعوه المخطوط ، وكانت نصيحته له : إن الشعر شىء آخر غير الديباجة الحسنة ، الشعر أن تحس وتعبر تعبيراً جميلا عما تحس ـ وكان مما أشار به عليه أن يقرأ كثيراً من الكتب ، ويعقب الأستاذ الجبلاوى بقوله : كان المازنى على حق ، ولكنه كان حقا سلبيا عيتا ، وكان العقاد على حق ، ولكنه كان حقاً إيجابياً مفيداً .

حدثنا المؤلف عن العقاد فى نشأته ، وفى المدرسة حيث كان فى حياته مدرستان : مدرسة التعليم الابتدائى ليتلقى التعليم على أيدى أساتذة مفروضين ، والمدرسة الأخرى مدرسة الكتاب وقد اختار أساتذتها بنفسه ، وقد كانوا جميعا من جلة المؤلفين المشهود لهم بالسمو وحدثنا عن العقاد فى الوظائف ، حيث اشتغل بوظائف الحكومة وبالتدريس ، فى المدارس الأهلية ، ولكن لم يطل أمد اشتغاله بأى منها ، فكان يرى فى وظائف الحكومة قيداً وخضوعا ،

وفى وظائف التدريس فوضى وخنوعا ، كما حدثنا عن العقاد رافع راية التجديد فى عصر اعتمد الشعر فيه على المحاكاة وتقليد المتقدمين فى استعراض الديباجة الحسنة والقوالب الرصينة قبل أن يستعرض المعانى والأحاسيس ، وعن العقاد الصديق ، ثم قدم نماذج من أشعار وأزجال تبودلت بين المؤلف والعقاد فى رسائل .

كما حدثنا المؤلف عن العقاد السياسى الذى اشتغل بالصحافة لأنها عمل وطنى يتيح لصاحبه أن يدافع عن وطنه ميدان السياسة ويذود عنها أعداء الحرية والاستقلال ، وعن العقاد فى بيته حيث عاش المؤلف معه فى بيته لاهيا ويوما صاحيا ، وراضيا عن أناس تارة وساخطا على أناس تارة أخرى ، أما المرأة فى حياة العقاد فيذكر الأستاذ الجبلاوى أنه حين سأل العقاد لماذا لم تتزوج ؟ فأجاب بأنه لا يكره الزواج ولا يأباه ، ولكنه طبع على أنه لا يشاركه أحد فى حياته لأنه لا يطيق هذه المشاركة . ومع ذلك فلم يخل قلبه من حب المرأة فقد شغل بالحب فى صباه الباكر وذاق عذوبة القرب ومرارة الحرمان ، وفى الفصل الأخير حدثنا المؤلف عن أخلاق العقاد عن شعره الذى ارتسمت فيه شخصيته وتبينت صفاته ، ومن أبرزها قوة شخصيته وصلابتها واحتمالها للشدائد .

كلمة واحدة أريد أن أقولها : ذكريات العقاد مع الجبلاوى أكبر عشرات المرات من هذا الكتاب ، وربما كان عذر المؤلف أنه ليس من اليسير أن يكتب كل أسرار العقاد ، ولكن أسرار العقاد أصبحت جزءا من تاريخ العقاد ، بل جزءا من تاريخ الأدب والسياسة فى مصر فى أكثر من نصف قرن .

كتب جديدة

رجال حول الرسول

للأستاذ خالد محمد خالد

دار الكتب الحديثة ـ القاهرة

اختار المؤلف عشرة من أصحاب الرسول السابقين إلى الإسلام ، وعرض شخصياتهم عرضا تحليليا فى أسلوب أدبى رفيع ، مسلطا الأضواء على مركز العظمة فى كل شخصية ، منهم مصعب بن عمير أول سفراء الإسلام ، وسلمان الفارسى الباحث عن الحقيقة ، وأبو ذر زعيم المعارضة ، وعبد الله بن عمر المثابر الأواب ، ومعاذ بن جبل أعلمهم بالحلال والحرام .

مى أديبة الشرق والعروبة

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

عالم الكتب ـ القاهرة

يقع الكتاب فى حوالى ثلثمائة وأربعين صفحة ، وهو دراسات عن مى زيادة الأديبة المعروفة ، ودورها فى ميدان الأدب ، وقد

(البقية على صفحة ٣٨١)

أنباء وآراء

الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر

صدر قرار جمهوري في الأسبوع الأخير من شهر يوليو الماضي بتعيين فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ حسن مأمون شيخا للأزهر ، ويعتبر فضيلته الشيخ التاسع والثلاثين في تعداد شيوخ الأزهر ، ومن الجدير بالذكر أن منصب شيخ الأزهر شاغر منذ ١٣ ديسمبر الماضي إثر وفاة فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت .

وفضيلة الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون من مواليد عام ١٨٩٤ بحي الخليفة بالقاهرة ، وظل يعمل في مناصب القضاء بمصر والسودان خمسة وأربعين عاما ، وفي عام ١٩٤١ عين قاضيا لقضاة السودان وظل في منصبه ست سنوات عاد بعدها إلى القاهرة ـ بعد موقفه الوطني المعروف ـ رئيسا لمحكمة مصر الابتدائية الشرعية ، ثم عضوا في المحكمة الشرعية العليا ثم نائبا لها ثم رئيساً ، وفي عام ١٩٥٥ عين مفتيا للديار المصرية خلفا لصاحب الفضيلة الشيخ حسنين مخلوف إلى أن أحيل إلى الاستيداع . وكان أن صدر القرار الجمهوري في أواخر شهر يوليو الماضي بتعيينه إماما أكبر وشيخاً للجامع الأزهر .

وينص قانون تطوير الأزهر الذي صدر في يونيو ١٩٦١ على أن شيخ الأزهر هو الإمام الأكبر وصاحب الرأي في كل ما يتصل بالشئون الدينية والمشتغلين بالقرآن وعلوم الإسلام ، وله الرياسة والتوجيه في كل ما يتصل بالدراسات الإسلامية ، ويرأس المجلس الأعلى للأزهر .

هذا ومجلة الأزهر إذ تهنئ الإمام الأكبر بهذا المنصب الكبير تسأل الله عز وجل أن يكتب له التوفيق في رسالته الإسلامية الكبرى ، فلم تزل الشعوب الإسلامية قاطبة تنظر إلى الأزهر الشريف باعتباره منارا للإسلام ورافعا لواءه وذائداً عن حماه ، والذي يجب أن يناط به وبعلمائه الأجلاء الوقوف أمام تيارات الإلحاد وموجات التبشير في معظم بلاد المسلمين ، ولإثبات وجوده للإسهام في إقرار السلام العالمي إزاء هذه القلاقل الموزعة بين أركان العالم تهدد السلام وتنذر بشرر حرب عالمية ثالثة .

أمد الله في حياة الإمام الأكبر وكتب للأزهر في عهده ما يرجوه من نهوض وتقدم يليقان بمكانته ؟

مدير جامعة الأزهر

كان لصدور القرار الجمهورى فى ١٤ يوليو الماضى بتعيين العالم الأديب فضيلة الشيخ احمد حسن الباقورى مديراً لجامعة الأزهر هزة سرور غمرت الأوساط الأزهرية وغير الأزهرية.

والذى لا شك فيه أن الجامعة الأزهرية فى تطورها الجديد ـ حيث أريد لها أن تدخل معترك الحياة فى شتى ميادين المعرفة ، كانت فى حاجة إلى عالم أديب كالشيخ الباقورى ، عرف عنه بالإضافة إلى علمه ، سعة أفقه ، ومرونة تفكيره ، وتمتعه بطاقة كبرى من الحيوية والنشاط .

ومجلة الأزهر إذ تهنئ الشيخ الباقورى بهذا المنصب الرفيع ، تهنئ جامعة الأزهر بابن من أبنائها ، سيهب لها كل يملك من طاقات وجهود فى سبيل النهوض بها .

* * *

مدير مجلة الأزهر

سافر فى الأسبوع الأول من شهر سبتمبر الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات مدير مجلة الأزهر إلى أسبانيا حيث يجرى له طبيب العيون العالمى الدكتور باراكير عملية جراحية فى عينه فى مستشفاه ببرشلونة .

والمجلة تسأل الله سبحانه أن ترافقه السلامة فى ذهابه وإيابه ، وأن يكلل العملية بالنجاح .

أهدم للدين أم تجديد له ؟

بمناسبة ما ينشره الدكتور محمد أحمد خلف الله مدير إدارة المجلات التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد تحت عنوان : « التجديد الدينى » أبعث بهذا إلى قادة الفكر الإسلامى مستفسراً عن مدلول عبارة « التجديد فى الدين » ، لأنها أصبحت تداعب اليوم تفكير عدد من الناس .

وهل يفهم من هذا التجديد تجديد رسوم الدين الذى أبلاه المبتدعون والمصابون بالخمول الذهنى فى عصور الانحطاط ، كما فعل حجة الإسلام الإمام الغزالى فى إحيائه المتدفق بالروح والريحان ، ومحمد إقبال فى محاولاته التجديدية ، أم هو محاولة لتفتيت الأحكام الشرعية ، المبنية على أسرار عظيمة لا يدركها إلا الذين امتزج إيمانهم بالإخلاص ؟

أظن ـ وليس كل الظن إثما ـ أن الحقيقة الناصعة لا ترتبط بالآخر ، الذى يتطاول به المتطاولون على الإسلام :

فانظر إلى الأخوين من أدناهما
شبهاً بوالده فذاك الماجد

أين الخدود من العيون نفاسة
ورياسة لولا القياس الفاسد

ومهما يكن من أمر فإنى أهيب بقادة الفكر الإسلامى أن يواجهوا هذا التطاول

على شريعة الإسلام ، وقد بدت بوادر طيبة نرجو لها المزيد .

صالح بن أحمد السنغالى
بالدراسات العليا - الأزهر الشريف

* * *

حاجتنا الى شباب جاد :

كما أن الأمة فى حاجة إلى حكمة الشيوخ ، هى فى حاجة أيضاً إلى فتوة الشباب ، ولقد كانت الأمة الإسلامية بشبابها الجاد مهيبة الجانب ، منذ فجر انطلاقها لنشر دعوة الحق ، والوقوف إلى جانب الشعوب المغلوبة على أمرها فى فارس وغيرها ، ولو شئنا أن نتساءل : ما السر وراء هذه الانتصارات المذهلة مع الفارق بين القوتين ، لأيقنت بأن من وراء هذه الانتصارات شبابا جاداً لم يعرف العبث فى حياته ، شبابا وهب كل حياته ووجوده لعقيدته وإيمانه ...

والعروبة اليوم تقف فى مفترق الطرق ، تتحدى قوى الاستعمار غير وجلة ولا هيابة ، وتصر على أن يحمل هذا الاستعمار عصاه ويرحل من كل شبر فى أرض عربية ، وربما اضطرت العروبة إلى مواجهة الاستعمار مرة أخرى كما سبق لها أن واجهته فى بور سعيد ، والواجب يحتم علينا أن نكون على أهبة الاستعداد ، وأن نهىء شبابنا إلى خوض المعركة ومعه رجولته وإيمانه .

ولكن المؤسف أن بعض صحفنا والأسبوعية على الأخص تعيش فى واد بعيد عن حاضرنا ومستقبلنا ، فلم تزل تواصل نشر الأدب المكشوف ، وتشجع الانحلال الخلقى باسم المدنية والحرية الشخصية .. ومثل هذا الأدب الحرام - كما أسماه أستاذنا الزيات - ينخر فى كيان شبابنا الذى نحن فى أمس الحاجة إلى رجولته وإيمانه إن لم يكن اليوم ، فلا بد أن يكون فى الغد القريب ...

محمد ربيع عبد الماجد
مدرس بأسوان

* * *

* انعقد مؤتمر القمة العربى الثانى بقصر المنتزة بالإسكندرية من ٥ - ١١ من شهر سبتمبر ١٩٦٤ ، وقد تحققت هذه الدورة إنجازات جديدة فى دعم التضامن والعمل العربى المشترك .

هذا وقد اتخذ المؤتمر القرارات الكفيلة بتنفيذ المخططات العربية ، وخاصة فى المجالين العسكرى والفنى ، بداية العمل الثورى فى المشروعات العربية باستغلال مياه نهر الأردن وروافده ، ومنها قيام منظمة التحرير الفلسطينية دعما للكيان الفلسطينى ، ومنها تصفية الجو العربى ، وتأييد كفاح الشعوب ضد الاستعمار ، وفى مقدمتها شعب الجنوب العربى ، ومن هذه القرارات أيضا تأليف مجلس عربى مشترك للبحوث الذرية للأغراض السلمية فى نطاق الجامعة العربية وإنشاء محكمة الدول العربية .

هذا وقد ووفق أن ينعقد مؤتمر القمة العربي في شهر سبتمبر من كل عام ، وسيكون انعقاده في العام القادم في المغرب العربي إن شاء الله .

• بدأ الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر دراسة المشروعات الجديدة في الخطة الخمسية الثانية مع كبار المسئولين في إدارة الأزهر وتبلغ تكاليف هذه المشروعات حوالي خمسة ملايين جنيه ، وفي مقدمة هذه المشروعات :

إنشاء مجمع جديد للأزهر على مساحة خمسة عشر فدانا بالدراسة يضم جميع الأجهزة الفنية والإدارية وإدخال التعليم الفني الأول مرة في الأزهر ، وإقامة مبنى جديد للمعهد النموذجي للبنين ، ومبنى آخر لمعهد القاهرة ، ولأول مرة كذلك تقرر إنشاء خمسة وعشرين مدرسة ابتدائية لقبول الأطفال من سن السادسة .

• • •

• تدرس وزارة الأوقاف حاليا مشروعا يهدف إلى مساعدة الطلبة على التقدم العلمي عن طريق تنظيم دروس إضافية لطلبة الكليات العلمية بالجامعات وطلبة الثانوية العامة تبلغ ، تكاليف المشروع نحو ٨٧ ألف جنيـــه ويستفيد منه ٣٠٠ طالب جامعي و٢٠٠ طالب ثانوي .

• • •

• قررت وزارة التربية والتعليم النهوض بمستوى تدريس مادة الدين في المدارس بتخصيص ٢٥ ٪ من النهاية الكبرى لدرجة الدين من النسبة المخصصة لأعمال السنة لسلوك الطالب في المجالات المدرسية المختلفة يقدرها رائد الفصل وتوفير مكان لائق في كل مدرسة لإقامة الشعائر الدينية وتزويد المكتبات المدرسية بما يحتاج إليه من كتب في شتى النواحي الدينية وتنظيم مسابقات بين الطلاب في الموضوعات الإسلامية .

• • •

• من الأخبار العلمية أن البحرية الأمريكية استطاعت أن تصمم منزلا كاملا لأربعة من العلماء يعيشون داخله في أعماق المحيط حيث اتجهت الأبحاث التي تجرى الآن إلى استغلال المساحات الشاسعة ، ومن الجدير بالذكر أن المحيطات في العالم تشغل ما يقرب من ثلثي المساحة الكلية للكرة الأرضية .

• أصدرت الأمم المتحدة منذ أسابيع كتاب التعداد السنوي ، وذكر أن تعداد سكان العالم يتزايد بحوالى ٦٣ مليون نسمة سنويا على الأقل نتيجة ارتفاع المواليد عن الوفيات ، هذا ويقدر عـــدد سكان العالم في الوقت الحاضر بحوالى ثلاثة آلاف وربع مليون نسمة وسكان الصين الشعبية وحدها يمثلون ٢٠ ٪ من سكان العالم .

السمراد

فتاوى مختارة

تقديم : ابراهيم محمد الأصيل

(الإجابة للجنة الفتوى بالأزهر)

قراءة القرآن لدى القبر - الوليمة - الأدعية - هل للصلاة سورة خاصة - البيع بالمسجد - كتابة القرآن والحديث بالحروف اللاتينية - التصوير - الاشتغال فى حانات الخمر ، وزراعة موادها الأولية .

السؤال :

١ - هل يجوز قراءة القرآن حول القبر ، ما حقيقة تلقين الميت بعد دفنه ؟

٢ - أيجوز للمسلم أن يولم كالإفرنجى ، أعنى اتباع نظامهم فى حفلات الزفاف ؟

٣ - هل توجد أدعية خاصة للشهور الأخرى كما فى نصف شعبان ورمضان ؟

٤ - أجعل الله سوراً من القرآن خاصة للصلاة من الصلوات الخمس ؟

٥ - أصبح من المألوف أن نرى بعض الباعة يزاولون عملهم فى بيوت الله ، ما الحكم فى هذا ؟ ولدينا الآن أوراق اليا نصيب تباع فى كل مكان فما حكم الإسلام فيها ؟

٦ - هل يجوز قراءة القرآن فى المآتم كما يفعل الناس الآن ، وهل ورد من السنة شيء فى هذا ، وهل يثاب الميت بالقراءة ؟

٧ - هل لصلاة التراويح دعاء خاص يدعوه المصلى بعدها ؟

٨ - هل يجوز كتابة القرآن أو الحديث النبوى بالحروف اللاتينية ؟

٩ - ما حكم التصوير ، والمصور فى الإسلام أحرام أم حلال ؟

١٠ - فى حياتنا الراهنة نرى بعض المسيحيين يساهمون فى بناء المساجد ويبادلهم المسلمون نفس الشعور ويساهمون فى إقامة الكنائس فما حكم الدين فى هذا ؟

١١ - المسلمون غزوا ميدان العمل واشتغلوا فى كل شيء حتى حانات الخمور مالكين لها أو عاملين فيها وتجاوزها البعض إلى زراعة مواد إنتاجها فما حكم الدين فى هذا ؟

إسحاق أجا كسوزى الأوغندى
(الرابطة الإفريقية بالزمالك)

الجواب :

عن الأول : نفيد بأن قراءة القرآن للميت جائزة شرعا ويكون ثوابها له متى كان القارئ قد وهبها له ، ويكون للقارئ ثواب على ذلك .

وسواء أكانت القراءة عند القبر أو بعيداً عنه ، وهذا عند كثير من الأئمة ، كما تنفعه الصدقة والدعاء له بإجماع العلماء .

ويجوز كذلك تلقين المريض فى حالة الاحتضار وتلقين الميت بعد دفنه كلمة الشهادتين وعقيدة الإيمان ويكون التلقين فى حالة الاحتضار برفق ، وتلطف حتى لا يسأم المريض فى هذه الحالة العصبية .

عن الثانى : نفيد بأن الوليمة فى العرس مستحبة شرعا ويدعى إليهـــا بلا تفرقة بين الأغنياء والفقراء ويجب ألا تشتمل الوليمة على شىء محرم كشرب ما يسكر أو اختلاط الرجال بالنساء أو الرقص أو نحو ذلك وإلا كانت حراما .

عن الثالث : نفيد بأن الدعاء مطلقا مشروع قال تعالى : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، وقال تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » وفى الحديث « الدعاء مخ العبادة » .

وقد وردت أدعية مأثورة فى بعض المواسم والأوقات لا مانع من استعمالها والأخذ بها متى ثبتت .

عن الرابع : نفيد بأن المطلوب قراءة السورة أو بعضها بعد الفاتحة آية سورة كانت من القرآن وتحصل بذلك السنة والأكمل أن يقرأ فى الصبح والظهر بطوال المفصل الذى أوله سورة الحجرات وآخره آخر النازعات وفى العصر والعشاء أواسط المفصل وأوله سورة عبس وآخره آخر والليل ، وفى المغرب قصاره وأوله والضحى إلى آخر القرآن كما أن الأفضل أن يقرأ فى صبح الجمعة بألم تنزيل وهل أتى ...

عن الخامس : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا لا أربح الله تجارتك وإذا رأيتم من ينشد فيه ضالة فقولوا لا ردها الله عليك ، وحسنه الترمذى ، من هـذا يعلم أن البيع والشراء وطلب الضالة فى المسجد حرام) قال تعالى : « وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ، فالمساجد بنيت للعبادة .

أما أوراق اليانصيب فإن بيعها من باب اللعب بالميسر يمنع مطلقا فإن حصل ذلك فى المسجد كان أغلظ ، فإن الله تعالى حرم الميسر بنص القرآن حيث قال : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب

والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

وعن السادس : نفيد بأن قراءة القرآن مطلقا عبادة يثاب عليها القارىء والمستمع فإذا كان ذلك فى المأتم كما يفعل الآن فلا مانع منه وينتفع الميت بالقراءة إذا قرأ بقصده أو قرأ عنده أو وهب ثواب القراءة له .

وعن السابع : نفيد بأن صلاة التراويح كغيرها من الصلوات يدعو الله تعالى بعدها بما يدعو به بعد غيرها من الصلوات .

وعن الثامن : نفيد بأنه لا تجوز كتابة القرآن بالحروف اللاتينية وكذا أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، صيانة للنصوص الشرعية عما لا يؤمن معه الخطأ فى مدلولها المقصود ولا مانع من تفسير القرآن والحديث وترجمة التفسير بغير اللغة العربية للاستفادة .

وعن التاسع : نفيد بأن التصوير لغير ذى الروح من الأشجار والأزهار والمبانى وغيرها جائز وكذا لذى الروح إذا كان بهيئة لا يعيش بها وإذا كان لغرض التثقيف كان أولى بالجواز فإن كان بهيئة يعيش بها كان حراما .

وعن العاشر : نفيد بأن بناء المساجد مشروع قال تعالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ... الآية » ومساهمة الكافر فى بنائها لا مانع منه ويخفف عنه بها من عذاب غير الكفر ، أما بناء الكنائس فحرام وأفظع فى الحرمة أن يساهم المسلم فى بنائها .

وعن الأخير : نفيد بأن صنع الخمر والاتجار بها بيعا أو شراء حرام شرعا يأثم عليه مرتكبه أما زراعة المواد التى يتخذ منها المسكر أو المخدر فإذا كانت لا تصلح إلا لذلك فزراعتها ممنوعة فإن صلحت لغير الإسكار كالعنب مثلا يتخذ للأكل كانت الزراعة مباحة .

حكم الزواج العرفى المستوفى لشروط العقد الصحيح

السؤال :

تزوج رجل بامرأة بعقد عرفى مستوف لجميع شروط عقد الزواج الشرعية فما حكم هذا الزواج ؟

عبد اللطيف حليم

الجواب :

حيث تم عقد الزواج بإيجاب وقبول شرعيين وبحضور شاهدين شهدا على ذلك فقد صح العقد شرعا ووجب الصداق وترتبت عليه آثاره من لزوم النفقة ولحوق النسب والتوارث بينهما - إذا مات أحدهما - إذا لم يقترن

ذلك بمانع شرعي غير أن عدم توثيق هذا العقد رسميا أمام المأذون أو فى محكمة الأحوال الشخصية يجعله عرضة للإنكار إن لم يكن من الزوجين فيما بينهما فقد يكون ممن يطلع على ذلك من غيرهما وإن كان قد كتب بذلك ورقة عرفية فهذه الورقة عرضة للضياع وعرضة لعدم الاعتراف بها أمام القضاء خاصة إذا مات الشاهدان اللذان وقعا على هذه الورقة هذا فضلا عما قد يقترن بذلك من احتمال إنكار الولد وضياع نسبه إن حصل إنجاب ولد بينهما .

حكم عقد زواج البكر إذا استؤذنت وأفادت بما يفهم منه القبول وظهر العكس .

السؤال :

بنت تبلغ العشرين من عمرها أراد والدها أن يزوجها لابن عم لها فأرسل إليها والدتها وبعض أقاربها النسوة ليخبرنها عن ذلك فكان ردها « الرأى فى ذلك لوالدى » غير أنها أبدت بعد ذلك انكماشا وأصبحت تبكى ليل نهار ، وقد حمل أهلها ذلك على أنها عادة تعودت البنات العذارى عليها عند ما يبلغ لهن مثل هذا الخبر .

ومضى الوالد وعقد لها على ابن عمها هذا ، وبعد انقضاء مراسم الزواج بعدة أيام ظهر لوالدها ما لم يكن يعلمه من قبل، ظهر أن هناك عداء وبغضا مستحكمين بينهما من الصغر ، فأسقط فى يده .

وأخيرا امتنعت عن تسليم نفسها لابن عمها كما أصر هو من جانبه على ألا يطلقها فما الحكم لاختلاف آراء العلماء فى جنوب الجزيرة العربية .

أبو بكر أحمد حسين الهيدروسى

الجواب :

العقد المسئول عنه فى هذا الاستفتاء صحيح فإن والد الفتاة له الحق فى تزويجها من غير استئذانها باعتباره والدها المجبر لها ، دون توقف على رأيها كما هو فى مذهب مالك والشافعى وأحمد رضى الله عنهم وفوق هذا فوالدها تابع السنة النبوية وأخبرها ، واستأذنها فى تزويجها من هذا الخاطب فأذنت بقولها « الرأى فى ذلك لوالدى » وذلك صريح فى الإذن والتوكيل كما هو المطلوب فى مذهب أبى حنيفة .

وبهذا صارت موافقة ، وصار العقد سليما من كل شبهة وعليها أن تسلم نفسها للزوج .

وأما ما يقال بعد ذلك من أنها على خلاف سابق منذ الصغر مع هذا الزوج فهو غير مانع من صحة العقد السالف لأن هذا كلام غير جدى فيما يظهر .

وعلى فرض صدقها فيه فقد أذنت ، وأذنها سابقا يسقط حقها فى الاعتراض بعد فوات أوانه .

تعليق :

العقد - من وجهة نظر الدين بالتفصيل الذى ذكرته لجنة الفتوى الموقرة - صحيح ما فى ذلك شك ، غير أنه يجدر القول هنا إن حكمة الأب عليها معول كبير ؛ إذ واجبه يدعوه لأن يدرس - مباشرة أو بسبب - ميول ابنته بتعمق ، فإذا وجد أن أسباب الكراهية مما يزول مع الأيام فليتطف معها بالقول الهادئ والنصيحة الأبوية الرقيقة عسى قلبها أن يتفتح لزوجها فتشاركه حياة لا ينقصها السعادة .

أما إذا تأكد لديه استحالة ذلك فدفعا للضرر وتجنبا لما قد يؤدى اليه مثل هـذا الزواج من مخالفات دينية أنصح بعدم إتمامه ودين الله يسر وما جعل عليكم فى الدين من حرج والخشية مما يصاحب فصم العقد من أقاويل تمس الزوج وتعقد حياته - الأمر الدافع على إصراره كما يبدو - هذه الخشية تدفعها خشية أشد من مصائب أنكى يأتى بها إصراره على التمسك بحياة زوجية لا تجاوب فيها والله الموفق .

ابراهيم محمد الأصيل

(بقية المنشور على صفحة ٣٧٢)

سبق للمؤلف أن أصدر كتابا عن (مى) عام ١٩٤٢ إلا أن الزيادات الكثيرة التى أضافها للطبعة الأولى جعلت كتابه الأخير هذا جديدا بحق.

يوم العروبة :

للأستاذ مصطفى نعمان البدرى

مكتبة دار العروبة — القاهرة

محاكاة شعرية فى تمثيلية تقع فى ثلاثة فصول قصيرة ، وهى تصوير لمهرجان الوحدة العربية ، وقد راجعها الأستاذ عادل غضبان .

وحى النهضة الوطنية :

فى الخطب المنبرية

للأستاذ الشيخ على رفاعى

مكتبة صبيح بميدان الأزهر

هذه هى الطبعة الثانية من الكتاب الذى امتاز بعرضه ألوانا من الخطب العصرية المتصلة بحياتنا السياسية والاجتماعية ، ثم بتقديمه نماذج لدروس الوعظ من التفسير والحديث .

الحب عند العرب :

للعلامة أحمد تيمور

لجنة نشر المؤلفات التيمورية

هذا الكتاب ينشر لأول مرة ، وهو من المخطوطات القيمة التى تتناول الحب فى أرفع معانيه وأسمى اتجاهاته ، من حقل الأدب العربى شعراً ونثراً وقصة .

محمد عبد الله السمان

في محيط العالم الإسلامي

يقدمه : محمد عبد الله السمان

بين أندونيسيا وماليزيا :

لم يزل النزاع بين أندونيسيا واتحاد ماليزيا على أشده ، حتى أوشك أن يهدد باندلاع ألسنة الحرب بينهما ، ولا سيما بعد تسلل فدائيين أندونيسيين إلى سنغافورة والملايو وهما عضوان في الاتحاد ...

وعلى الرغم من أن أمريكا نصحت بريطانيا بعدم العمل على إشعال حرب ، إلا أنه قد تحركت منذ أيام قوات وسفن وأسلحة بريطانية لمواجهة هجمات الفدائيين الأندونيسيين التي أصبحت تمتد الآن من بورينو إلى قلب الملايو .

إن سوكارنو رئيس جمهورية أندونيسيا يتهم الملايو بأنها كانت تشجع الثوار ضده في سومطره عام ٩٥٨ . ومن الجدير بالذكر أن إتحاد ماليزيا يضم ١٠ ملايين ، ويعتبره زعماؤه محاولة للوقوف في وجه الشيوعية ، وقد تعهدت بريطانيا في اتفاقيتها بالدفاع عن ماليزيا .

بين باكستان والهند :

سافرت في الأسبوع الأول من شهر سبتمبر إلى باكستان بعثة هندية غير رسمية برياسة نارايان . وهو زعيم سياسي مستقل عن الأحزاب ، للعمل على تحسين العلاقات بين البلدين ، وقد اجتمعت البعثة مع الرئيس الباكستاني أيوب خان .

ومن المعروف أن مشكلة المشكلات بين الهند وباكستان هي مشكلة كشمير .

قضية عمان :

بدأت لجنة التحقيق في تطورات عمان في أول سبتمبر مهمتها في الاستماع لآراء ممثلي عمان في الشرق الأوسط وهذه اللجنة الخماسية تابعة للأمم المتحدة برياسة عبد الرحمن بازواك مندوب أفغانستان ، وقد تنقلت من الدمام إلى الكويت إلى القاهرة هذا وقد رفضت بريطانيا السماح لأعضاء اللجنة بزيارة إمامة عمان نفسها ، مما اضطرها إلى عقد مؤتمرات في لندن .

ومن الجدير بالذكر أن مشكلة عمان عرضت أول مرة على الأمم المتحدة عام ١٩٥٧ عندما دعا مجلس الأمن لبحث العدوان المسلح الذى شنته بريطانيا ضد استقلال إمامة عمان ووحدة أراضيها، وقد صرح بازواك رئيس اللجنة، بأنه يجرى الآن إعداد دراسة كاملة لجميع المسائل المتعلقة بالقضية، حتى يمكن للجنة أن تستعرض الحقائق أمام الجمعية العامة فى ١٠ نوفمبر القادم. أما هذه اللجنة الخماسية فتتألف من أفغانستان والسنغال ونيجيريا ونيبال وكوستاريكا.

الجمهورية العراقية :

عثر فريق بريطانى أمريكى للآثار على أنقاض مدينة حصينة فى العراق يعود تاريخها إلى عام ١٨٠٠ قبل الميلاد، وذكر الدكتور فروليتش رينى رئيس متحف جامعة بنسلفانيا أن هذه المدينة تعرف باسم «تل الرماح»، وتقع إلى الشرق من الموصل بشمالى العراق. هذا وقد ترأس فريق الآثار المشترك المستر دافيد أوتس من مدرسة الآثار البريطانية فى العراق والدكتور كارثر من متحف جامعة بنسلفانيا.

وقد ذكر الدكتور رينى أن الفريق عثر على قلاع مرتفعة ودهاليز داخل المدينة المبنية من الطوب، كما عثر فى الجانب المكشوف من مدخل المدرسة على تمثال له شكل مارد جبار يعتقد أنه ذو أهمية دفاعية.

كشمير :

اعتقل باكشى غلام محمد رئيس وزراء كشمير السابق بتهمة تأييد المنشقين على الحكومة، كما اعتقل خمسة من كبار أعضاء البرلمان بمقتضى قانون الدفاع عن الهند.

وتواجه حكومة كشمير الحالية تهديدا بهزيمتها فى المجلس التشريعى للولاية، بعد أن اتخذ اثنان وأربعون من حزب المؤتمر القومى الحاكم قرارا بعدم تأييدها وقد اتخذوا هذا القرار — على حد قولهم — لأن حكومة غلام محمد صادق لا تستطيع إدارة البلاد بطريقة مناسبة.

ورئيس الوزراء المعتقل تولى رياسة وزارة كشمير لمدة عشر سنوات خلفا للشيخ عبد الله الذى اعتقل عشر سنوات لمناهضة سياسة الهند فى كشمير، ومن الجدير بالذكر أن كشمير ولاية يمثل المسلمون فيها ٨٠ ٪.

المملكة العربية السعودية :

قررت وزارة المعارف السعودية فتح ٨٠٠ مدرسة لمحو الأمية بالإضافة إلى المدارس الموجودة حالياً.

وقد صرح وزير المعارف أن الوزارة حريصة على رفع مستوى جميع المعاهد والكليات بالمملكة، وتطورها بحيث

تساير مناهجها التطورات العلمية الحديثة ، وأن الوزارة ستواصل الاستعانة بالمدرسين من الأقطار العربية الإسلامية والأجنبية .

أصبح من المنتظر أيضا أن تنتهى جميع أعمال الهدم القائمة بمكة المكرمة لإنشاء الميادين الخمسة حول المسجد الحرام .

أخبار سريعة :

• بدأ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ، محاولة ترجمة تفسير القرآن إلى اللغة الفلبينية ، وأسندت هذه المهمة إلى مجموعة من العلماء مع الشيخ أحمد بشير أحد زعماء المسلمين فى الفلبين ، وسوف يطبع من النسخة المترجمة عشرة آلاف ، فى الفلبين ثلاثة ملايين مسلم .

هذا وقد قرر المجلس منح المسلمين الزنوج بأمريكا عشرين منحة دراسية للطلاب المسلمين للتعليم بالأزهر الشريف خلال العام الدراسى الحالى .

• هاجمت بعض صحف نيجريا السيد / أحمد بللو رئيس وزراء نيجيريا الشمالية بسبب تأييده للعرب ضد إسرائيل ، لأنه خلال زيارته الشرق الأوسط دعا إلى إنشاء جبهة إسلامية تشترك مع العرب فى تحرير فلسطين .

• تكلفت بعثة الأمم المتحدة فى اليمن ٧٠٠ ألف جنيه ، وأعلن يوثانت سكرتير الأمم المتحدة أن الجمهورية العربية المتحدة والمملكة السعودية قد أسهمت كل منها بـ ٢٨٥ ألف جنيه .

• قال سوكارنو رئيس جمهورية أندونيسيا الإسلامية التى يمثل الإسلام بها أكثر من ٩٥ ٪ .

« أنا شيوعى ومتدين ووطنى » :

وذلك فى أثناء الاحتفال بضم وزيرين شيوعيين إلى حكومته التى يبلغ عدد أعضائها ٧٧ وزيرا .

يبلغ تعداد الحزب الشيوعى فى أندونيسيا مليونين .

• قررت وزارة الأوقاف إنشاء أول مؤسسة عربية إسلامية لنشر الإسلام وتعليم العربية فى آسيا وأفريقيا ، وسوف تبدأ هذه المؤسسة مهمتها بإنشاء عشرة مراكز فى عشر بلاد أسيوية وأفريقية ، واعتمد لهذه المراكز مبلغ ٨٠٠ ألف جنيه ، وسيضم كل مركز مسجدا ومدرسة ووحدة صحية علاجية .

• عثر طالب ألمانى يدعى هرمان تايزر فى جزيرة رويجين فى بحر البلطيق على قطعة من العملة العربية التى كانت مستعملة فى عهد هارون الرشيد .

• تساهم الكويت بمبلغ ٢٥٠٠٠ جنيه استرلينى فى بناء مركز إسلامى بلندن .

محمد عبد الله السمان

choses d'Islam en Particulier nous trouverons que de essais ont été faits au cours du xixe Siécle pour extraire les Préceptes morauxs du Koran. Mais le cadre de ces essais est souvent très restreint, et le contenu en est loin de répondre rigoureusement à la vraie doctrine Koranique.

Pour ce qui est du cadre, non seulement on a omis le côté théorique de la question : aucun savant Enropéen n'a encore essayé de dégager du Koran ses principes éthiques généraux. Mais en outre, nul d'entre eux n'a eu le souci de formuler ses règles pratiques et de les présenter sous la forme d'une loi complète. Tout leur effort réside dans ce fait qu'ils ont groupé et traduit litteralement un nombre plus ou moins grand de versets Koraniques relatifs au culte et à la conduite.

C'est Garcin de tassy qui nous semble avoir ouvert cette série des Extraits thématiques du Koran par un opuscule intitulé : "Le Korâan : Doctrines et devoirs" (Paris 1840). Il fut suivi par le fèvre qui publia en (1850) des morceaux choisis de la traduction de savary sous le titre : "Mahomet, lois morale, Civiles et Religieuses" puis par Barthélemy saint-Hilaire dans "Mahomet et le koran" (Paris Didier 1865).

Quant aux défauts de fond, ce la tient soit à une traduction incorrecte, sait à un mauvais compte-rendu, soit aux deux facteurs réunis. ceci se rencontre surtout chez Jules La Beaume dans son "Koran Analysé" (Paris maisonneuve 1878), qui est d'ailleurs l'œuvre analytique la moins incomplête.

Il nous a paru donc indispensable de reprendre le sujet et de le traiter suivant une méthode plus saine, en Vue de rectifier ces erreurs, de combler cette lacune dans la bibliothèque Européenne et de montrer aux savants occidentaux le véritable visage de la morale Koranique. et ce fut en réalité notre lut essentiel dans le présent travail.

(Suit)

INTRODUCTION

" Un ouvrage nouveau doit traiter exclusivement d'une des sept questions : une chose insolite à créer, incomplète à achever, confuse à éclaircir prolixe à resumer désordonnée à mettre un ordre, dispersée à révnir ou erronée à rectifier " (1)

Ce sage précepte d'un savant azharien du XVIIe siècle garde toujours sa valeur et requièrr de chaque écrivain qu'li se conforme à sa chate.

Not'e lecteur attentif aura l'occasion d'apprécier jusqu'à quel poir l'ouvrage que nous lui présentor aujourd'hui remplit ces conditions. Ce n'était pas pour perdre notre temps. Importuner nos l'ecteurs, charger nos bibliotéques, que nous avons entrepris ce nouvel ouvrage sur Le Korân ; et c'eût été le cas si notre œuvre n'apportait rien de neuf dans le monde oriental ou occidental.

I Etat antérieur de la question.

Un regard rapide sur les traités de morale générale, écrits par des savants occidentaux suffit pour y apercevoir un vide bien large et bien profond, dû à leur silence absolu sur la morale koranique ces traités nous entretiennent en effet plus ou moins longuement des principes moraux, tels qu'ils ont vus par le paganisme grec, puis par les religions suive et chrétienne mais une fois ces trois périodes parcourues, les voilà qui nous transmettent par un saut brusque aux temps modernes en Europe, laissant de côté tout ce qui touche la loi morale de l'Islam.

Et pourant l'apport koranique en ces matières est d'une valeur inestimable. l'histoire des doctrines éthiques y gagnera en étendue. en profondeur et en harmonie; et le problème moral lui-même n'en oura que des profits. Pour résoudre ses difficul és, tant nouvelles qu'éternelles.

N'est-ce pas une perte immense qu'une telle doctrine soit ainsi omise et passée sous silence ?

Il est vrai que si, au lieu de chercher dans ces troites de morale générale, nous consultons les ouvrages européens qui traitent des

(1) Chams Ed-Dine ell Bâbili mort en 1077 de l'hégire, cité par moulla El-Mohbbi, Khoulâssat el-Athr, fi Agâne el Karn El Hâdi achar T.IV.P. 41 (éd caire 1284 H)

Pourrais-je, après tout, brosser, par ce rapide aperçu, la biographie d'un homme dont les inoubliables vertus vaudraient d'être rapportées dans un livre plus détaillé où serait mis en lumière un passe glorieux d'efforts et de luttes ? Je sollicite de Dieu tout puissant l'aide dans la mise en œuvre d'un pariel projet afin que ce livre puisse voir le jour très prochainement. C'est une dette dont je veux m'acquitter et message que je me dois de repmlir.

C'est un grand honneur pour moi de présenter aux lecteurs de la revue "AL AZHAR", un ouvrage du grand maître et camarade, le regretté Dr. Mohamed Abdullah Draz. "La morale du Korân".

J'espère avoir l'occasion d'en faire un aperçu analytique, rendant ainsi d'hommage à l'oeuvre et à l'écrivain.

Il ne se laissa jamais décourager par les lourdes charges de sa famille dont chaque membre rêvait, un avenir digne et heureux. Il n'oublia point ses obligations envers son pays et envers l'Azhar, malgré les violentes cannonades et les vrombissements des bombardiers pendant toute la durée de la guerre mondiale.

Rien de tout cela ne l'empêchait de recevoir chez lui les membres des communautés musulmanes ou les visiteurs de passage venant des diverses parties du monde islamique. Il les accueillait avec aménité, les complait de prévenances et leur réservait la plus généreuse hospitalité.

Le jour où il obtint la licence, je me rappelle lui avoir posé cette question : "Quel profit avez-vous tiré de vos études à la Sorbonne?" "De la méthode dans l'enseignement et certains aspects de morale", rèpondit-il. "Quel serait le sujet de votre thèse ?" repris-je. "La morale, fit-il, et plus précisément la morale du Korân".

Ce fut alors que j'appris que notre moniteur s'était attelé à sa thèse dès le premier jour de son arrivée à Paris. Il ne cessait de réciter le Korân, en ma présence, et je le voyais s'arrêter à chaque verset comportant un point de morale. On eût dit qu'il le confrontait avec toute théorie ou tout système philosophique présentant une analogie en la matière.

Il croyait en la perplexité de la conscience morale dans la démonstration des diverses civilisations. Il assurait que le malheur de toutes les civilisations c'etait l'absence de l'élément fondamental et véritable de cette conscience, c'est à dire de la source dont elle puise sa raison d'être, son essence et son efficience. Car, que serviraient toutes les idéologies de l'histoire et tout le génie des historiens si le monde continuait à danser sur un volcan ? Et s'il était dangereux et effrayant de parler du destin, où donc trouverions-nous la sécurité morale, la tranquillité de l'esprit, la confiance en l'existence et l'optimiste foi dans la marche de l'univers ?

Il affirmait que le Korân est la source de toute éducation humaine et de toute morale pratique et théorique, et que nous devrions inéluctablement y puiser le système morale auquel aspire l'humanité pour réaliser ses idéaux et parfaire son bonheur durable.

Que les peuples égarés soient donc orientés vers les principes de morale contenus dans le Korâan et que les mécréants se plient à la parole révélée,, toute de vérité et de justice.

Dr. MOHAMAD ABDULLAH DRAZ

Par : Dr. AFIFI ABDEL FATTAH
Directeur des Recherches Islamiques

Descendant d'une lignée d'hommes lettrés connus par leur attachement aux préceptes de la morale, Mohamad Abdullah Draz fut, dans son enfance, entouré par les soins paternels les plus tendres et les plus attentifs, dans une famille dont le riche patrimoine de vertus s'était transmis de génération en génération.

Je l'ai d'abord connu par ouï-dire, grâce aux nombreux éloges dont le comblaient les érudits de son temps. Ensuite, j'ai eu l'occasion de le rencontrer, de temps en temps, au cours de ses leçons qui révélaient en lui un professeur modeste, indulgent, doux, d'esprit large, d'expression élégante et de pensée profonde, abordant avec tact et sagesse les problèmes les plus ardus, pour les clarifier, par la suite, sous la forme la plus nette et la plus agréable.

Rendant gloire à ces dons qui étaient le témoignage d'une faveur divine, je nourrissais alors un seul voeu : c'était de pouvoir, avec l'aide de Dieu, entrer en rapport plus étroit avec ce grand homme.

Repondant à mon désir, le destin voulut que nous fussions choisis tous deux comme membres de la mission de l'Azhar à Paris. Nous restâmes dans cette capitale une dizaine d'années au cours desquelles, Mohamad Draz fut pour moi et pour tous les membres de la mission, le dirigeant, le guide, le contrôleur et le protecteur. Les travaux de la mission furent, grâce à Dieu couronnés de succès et tous ses objectifs réalisés.

Avant son voyage en France, Mohamad Draz avait déjà une connaissance assez profonde de la langue française et de sa littérature. Il lui fut ainsi facile d'obtenir les titres universitaires. Cependant, animé par une curiosité pressante d'apprendre, il tint à entreprendre des études plus vastes et plus approfondies. Il se fit inscrire à la Faculté des Lettres où il suivit avec la plus grande persévérance les cours de philosophie. Il réussit à décrocher toutes les licences requises dans cette discipline, malgré les circonstances difficiles que traversaient alors les citoyens français eux-mêmes et, à plus forte raison, les étrangers vivant en France.

who would at times demand his assent to terms that were derogatory to his personal honour, even then He would accept them and act on them under all circumstances. Even before He had received the messengership, his integrity and impartiality had become proverbial. He was referred to by all, friends and foes, as "AL-AMIN", the Trust worthy. People would bring their disputes to him to be settled.

The Prophet was a living example for the spread of Justice and equality. Muslims or non-Muslims, friends or foes, high or low, all were, alike to him. Even in the treatment of his servants, everywhere he observed the same principles of equality and justice. It is reported that Anas was in the service of the Prophet Muhammad for about ten years. He said that during this long period he was not once repromanded by him

The Prophet of Islam enjoined the acquisition of knowledge upon all Muslims, both males and females. The Holy Qur'an says : "Whose ever is given knowledge is given in reality, much goodnes." The prophet says : "Acquire knowledge even if you must go to China to find it" He is reported to have said that the pen is mightier than the sword, and a drop of ink from the writer's quill is more sacred than the blood trickling from the wounds of a martyr." While the achivements of every great man are limited to a definite sphere, those of the Holy prophet cover the entire field of human life. He gathered to gether a people like the Arabs, split up into warring tribes, severed by generations of blood feuds. He lifted up a nation sunk solow, as were the Arabs, and made of them torch-bearers of a living culture and a great civilization. His greatness is to be found in a mighty and comprehensive personality. His words inspired and His personality radiated the hearts of His companions, whowere not persons of inferior standing or mental calibre, but men of high rank, wealth culture and Position. His life was the assemblage of all the virtues, human and divine. Sincerity, generosity, broadmindedness frimness and tenacity of purpose, His calmness in adversity. His meakness in prosperity, His humility in greatness, His modesty of character, His love for people, His care for animals, His bravery and magnanimity of spirit, His unbending sense of justice are the manifestations of his practical life. It would need volumes to describe the unique qualities of His Unique Personality.

MOHIADDIN ALWAYE

PROPHET MUHAMMAD

THE PERFECT EXAMPLE FOR HUMANITY

Prophet Muhammad (Allah's choicest blessings on him) belived in teaching his message by example more than by speeches and percepts. There is not a single order or rule from God that did not find complete manifestation in his own action. The Holy Prophet practised rather than preached. His actions were the virtual translation of the teachings of Quran. How can the percepts and principls, that are not practised by their own teachers, infuse into others any enthusiasm of any acceptance? The people are not to be guided by those who only preach.

The actions of teachers far more than words should entitle them to our allegiance. Muhammad was the perfect and complete example of Quranic Principles and rules. In His own life every phase of human morals and human values found complete manifestation. His whole life was an eloquent and practical commentary on the Holy Quran. Both the records and experiences satisfy all that could be demanded of a real great leader, who came to guide the humanity to the right path, that is the path of Allah.

From childhood, Muhammad climbed to the summit of glory. The most furious storm of hardship and calamities failed to move him an inch from his position and the mission which He prized above all things. He held fast to the verse of Quran: "Surely with difficulty Surely is ease." His spirits remained unmoved by the turns of fortune's wheel. The followings are Some of his great characters and noble qualities.

Sincerity and Simplicity were the key-notes of the character of the Prophet Muhammad. High morals were ingrained in his verynature. They were something which grew in him from his very child hood and they became the compelling feature of his character. He was not only peace-lover by nature but also a peace-maker. War was alien to his nature, He was by sheer force of circumstances, driven to take up arms. It was due to this intrinsic virtue in him that he preferred the "Peace of Hudaibiyya" to continued blood-shed, though according to terms of that Truce, the concessions obtained by Muslims were almost nil, and they were treated as conqured.

As a ruler also Muhammad entered into treaties with enemies,

it and adorned it, and there are no gaps in it. And the earth We have spread it out, and set thereon mountains standing firm, and produced therein every *kind of beautiful* things in pairs. To be observed and commemorated by every servant turning to God. And We send down from the sky rain charged with blessing, and We produce therewith gardens and grain for harvests. And tall palm-trees with shoots of fruit-stalks, piled one over another. As sustenance for God's servants ; and We give new life therewith to land that is dead : thus will be the Resurrection. "

The Holy Qur'an blames those who do not think and mind when it says :

" And how many Signs in the heavens and the earth do they pass by ? Yet they turn their faces away from them."

It is reported, also, that Bilal, the companion of the Prophet, went to call out for the Morning Prayer when he saw the Prophet crying. Upon asking him about the matter, the Prophet said :

" What, should not I cry ? God revealed to me this night this verse : Behold ! In the creation of the heavens and the earth, and the alternation of night and day-there are indeed signs for men of understanding." Then the Prophet added : " Woe to those who read this verse and do not think deeply about it ".

" Those who divided their religion, and turned into sects and groups, you have nothing to do with them, their matter is to God, Who will bring them to requital ".

QUESITON :

What is the meaning of the word "Faith" ?

ANSWER :

"Faith" is the belief in somthing with all yours heart with no dout or hesitation.

People are different in their faith according to whether the evidences of their faith are clear or ambiguous. Suppose, for example, that a person has heard from another truthful one that there is a country in the world called "Nigeria", the first will believe the latter, especially if he has heard about the same fact from other truthful men. If it happened that he saw the picture of the capital of that country, his belief about the existance of that country will be stronger. And if he went actually to Nigeria, his certainty will be quite aboslute, and he will harbor no doubt at all about that fact.

In this way, people are different in the grades of their religious faith. Some believe by imitation and inheritance, just because they were born to Muslim parents. Such faith is liable to doubt and suspicion. Some other acquire their faith through thinking and deliberation which make their faith stronger. Still some others combine their thought with their obedience to God in their search after truth until its light shines in their heart. Those are described in this Holy Verse :

"To those who recieve guidance, God increases the light of guidance, an bestows on them their piety and restraint from evil."

QUESTION :

What are the basic sources of faith in Islam ?

ANSWER :

Islamic faith is based upon the Holy Book of God and the Traditions or "Sunna" of the Prophet (peace be upon him). This faith is in complete harmony with reason and scientific facts.

Therefore, God, the Almighty, honoured the reason and directed His speech to it, made it the criterion of responsibility, and called it to think and search after truth. The Holy Qur'an says :

"Say : Behold all that is in the heavens and on earth. . . "

And :

" Do they not look at the sky above them ? How We have made

ANSWER :

The origin of all divine religions, as revealed from God, is one. Islam declared the unity of all these religions in their basic teachings. It has established, also, that the divine laws are based upon definite rules of faith and good work, that all the Messengers of God are inspired by Him; and that all divine books are revealed from Him. Islam announced moreover that the true believers of all nations are those sincere and faithful people, and that dissension in religion is a great sin. The Holy Qur'an laid down all these facts when it says :

"He prescribed for you of the Religion what He commanded to Noah and what We revealed to you, and what We commanded to Abraham, Moses, and Jesus : that you establish the Religion, and not be divided therein".

The Prophet Muhammed (paece be upon him) illustrated those meaning in his Tradition :

"My parable and that of other prophets before me is like one who built a good and beautiful house except that he did not lay one brick in one of its corners. People, when looking at his house admiring its architecture, would say : Could you not complete such wonderful house by just laying down one signle brick in this empty place ? Thus I am this brick, and I am the seal of all prophets."

A Muslim should believe in all prophets and all revelations, and should obey all divine legislation. The Holy Verse says :

" Say : We believe in God and what was revealed to us, and what was revealed to Abraham, Moses, Jesus, and what was revealed to prophets from their Lord; We do not make any distinction between any of them ; and to Him we submit ourselves in Islam."

God, the Almighty, laid a great stress upon the belief in all His messengers, in order to establish the unity of religions upon a strong basis, as He, the Abmighty, says :

"Those who do not believe in God, and His messengers, and maks a distinction between God and His messengers and say : we believe in some messengers and do not believe in others, wishnig to make a midway in between, are the real disbelievers. We have prepared for them an humiliating punishment ".

So, if people divide in the religion and act according to their emotional desires, then, Islam has nothing to do with them, as the Holy Verse put it in clear words :

because it is a complete obedience to God and His orders. In this meaning it is the religion of humankind since Adam till the end of this world.

Everything in this universe is subject to divine and immutable law. Man, animal, plant, inaminate objects, and stars-all are working according to difinte laws made by God. Therefore, all people and nations, and even all beings in the universe other than man, may be considered " Muslims " or " submitting " to God's laws and orders. The Qur'an declares this fact when it says :

" . . . All creatures in the heavens and on earth have, willing or unwilling bowed to His will, accepted Islam, and to Him shall they all be brought back."

QUESTION :

If all things and all men are subject to God's laws, why people are divided into Muslims and non-Muslims ?

ANSWER :

Man has two aspects in his life:

First : He is subject to the natural law, and created by his own nature to follow that law.

Second : Man on the other hand is endowed with mind, thought and free will.

According to the first aspect, man is created by necessity submitting to God's laws, and due to the other aspect he is at liberty to be a Muslim or non-Muslim. This free choice divides men to two kinds :

a - A man who knows his creator, believes in him, and obeys His orders willingly, after having been submitted to Him unwillingly.

b - A man who denies his natural powers, and neglects his human endowments, and, thus, lives in darkness and ignorance. Such one does not believe in God and denies his existence as the Holy Qur'an says:

" And when it is said to them : Come to what God has revealed, come to Apostle, they say : Enough for us are the ways we found our fathers following, What even though their fathers were void of knowledge and guidance ? "

This type of men who denies God and the mission of His messenger Muhammad can not be considered as Muslims or followers of the religion of Islam.

QUESTION :

We knew that Islam is the religion of humanity from eternity. What, then, is the difference between Islam and other previous divine religions ?

faith in the Angels, the Books of God, His messengers, the Day of Judgment, and the divine laws. The Quran says :

"The Apostle believes in what has been revealed to him from his Lord, as do the men of faith. Each one of them believes in God, His Angels, His Books, and His Apostles."

And :

" It is not righteousness that you turn your faces towards east or west; but it is righteousness to believe in God, the Last Day, and the Angels, and the Book, and the Messengers".

No one is considered a Muslim if he does not believe in the existence of God, His oneness, His being exalted above similarity to, or discendance in, others, His being distinguished by disposal and management of the Universe, and His being the only one deserving worship. He will not be counted among Muslims who does not believe in the messages of God to His servants through His messengers and Books, or does not believe in what is implied in these books, or makes a distinction between any of God's messengers and believes in some of them and disbelieves in some others. Nor is he a Muslim who does not believe in the life hereafter, and that the other life is the life of requital and eternity, or who denies the laws of God, His orders and His prohibitions.

QUESTION :

Why was Islam named by this word ?

ANSWER :

All other religions are named after a certain man or a certain nation. Christianity and Buddhism were named after their founders "Christ" and Buddha.

Zoroastrianism is ascribed to Zarathusrta, and so on.

Islam, however, is not ascribed to any person or nation. The word Islam, however, is not ascribed to any person or nation. The word "Islam" indicates that nobody or no nation established Islam.

It is the natural religion of all people from eternity, as the Holy verse says :

"... The pattern on which He has made mankind; no change in the creation of God. That is the standard religion. But most amon mankind understand not".

QUESTION :

What is the meaning of the word " Islam" ?

ANSWER :

" Islam " means " submission ",

Principles of Islam

By : Abdul Wadood Shalaby

What are the basic creeds of Islam ?

ANSWER :

The basic creeds which should be believed in by Muslims are : First : the existence of God, His oneness, His being distinguished by the disposal and management of the universe, His being exalted over partnership of others with Him in power and glory or His similarity to anything else in being or attributes, and His deserving of worship solely. No creator but He, no partner to Him, and nobody is asked for help or mercy save Him. The Holy Quran says :

" Say: He is God, the One and the Only. God, the Eternal, the Absolute. He begets not, nor is He begotten. And there is none like Him."

Second : to believe that God chooses from among His servants some messengers to convey His messages, through divine revelation, to His servants, and to call them to right faith and good action. Therefore, a Muslim should believe in all the prophets and Messengers of God from Noah down to Muhammad (peace be upon them all).

Third : to believe in the Angels who are the agents of God to carry His revelation to His messengers. And to believe in the divine Books of God.

Fourth : to believe in what is called for in the different missions of the messengers of God, such as the belief in the Day of Judgment, and the divine laws and legislation.

QUESTION :

How are these creeds realized by the one who wishes to be a Muslim ?

ANSWER :

These creeds are realized by the "shahada" or the witness that God is One and that Muhammad is His servant and His messenger. To witness that "There is no god but God and Muhammad is the Messenger of God" is the key of Islam.

The belief in the oneness of God demands complete faith in Him as the Only diety, and the sole Cherisher of humankind. Thus He is the Only One Who is distinguished by worship.

The belief in the messengership of Muhammad calls for complete

the female, and made you nations and tribes so that you may know each other, but the most righteous of you is the most respected before God."

"The members of the human family are similar to the teath of a comb and there is no superiority for the Arabs over the non-Arabs exept on the basis of piety."
"All of you from Adam, and Adam was from dust."

Islam declared a non-stop war against slavery which prevailed all over the world in those days and it gave equal statues to men and women in rights and duties.

Then Islam declared the freedom of belief. The Qur'an says: "There is no compulsion in religion the right has become evident from the wrong. If thy lord willed all those on earth would believe. Would you then compel the people to believe?" It Shows full respect to all religions and guarantees freedom of worship, peaceful life and justice.

Islam also declared the freedom of thinking and expression. It rejected blind faith, and despotic rule. Islam calls its followers to ponder the kingdom of the heaven and the earth and to adopt way of generosity liberality and forgiving. The law of Muhammad guarantees freedom to all minority communities for preaching their faith and ideas and teach them in schools tembles etc. without any kind of interefrence. It also approves the right of ownership with some suitable conditions in the general interest of the community and the state. These are the main natural rights which Islam guaranteed to all people without any Consideration of colour, race, language or religion. The prophet Muhammad declared these rights fourteen hundred years ago, at a time when everywhere ignorance, error and tyranny reigned supreme. Then Muhammad lit the tourch of truth before the erring humanity and showed mankind right path. And he freed them from the bonds of Fanaticism, selfishness and Materialism. Through this way he promised the world prosperity, peace and happiness

Alas! what a pity for the mankind of to-day who are misled by these hypocrites who are to-day preaching these human rights and at the same time they are continuing the colour war against the black skinned people and practicing the law of discrimination.

colour has its own value and every religion has its own place. But the test of weight and value depends on man's ability and his disability not on his humanity and dignity. While knowledge, wealth and power are the means of sovereignty, ignorance poverty and weakness will lead to slavery. Sovereignty is a fundamental unconditioned right. Incontrary slavery is a duty without any right.

Muslims alone can understand " man " in its true sense because they are followers of Muhammed. Muhammed declared human rights in its true form clearly and openly by the inspiration of God who sent him as the messenger of peace and mercy to the whole world.

God send him as the messenger of mercy to the persecuted people who face suppersion, or weakness and poverty in this world. He removed class distinction, established social justice, freed the slaves and declared the law of equality, and brotherhood between man and man

The message of Muhammed was not directed to a particular race, nation or country, but God sent him as His messenger of peace and mercy to the whole of humanity. In the law of Muhammad there is no distinction or preference between man and man on the basis of colour, language, race, religion, Social or political Considerations. This universal message brings together the people who dwell on the surface of this earth, under one law that is the law of God and one banner that is the banner of truth. Arabs, Romans, Turks, Indians, Chinese, Africans, Europeans and Negros stand side by side with equal statues before the law of Muhammad.

Islam honours no one on the basis of colour or Social position and it does not allow the sons of Adam, to bow their heads before any one save God Almighty as the Quran Says : " Indeed we have honoured mankind ".

The Jews pretended that they were the sons of God and His select people ; the Romans Said that they were his servants ; the Arabs were claiming that they were the masters of eloquence ; and the Hindus believe that God created the Brahmans from His head, Rajput from His hand and the untouchablar from His feet.

In one way or the other, the Social Statues of man was counted on the basis of race, creed, wealth or power, and this state of affairs continued until Muhammad came and declared before the world that "the believers are brethren". "O people ! God created you from the male and

MAN IN THE LAW OF MOHAMMAD

(in the context of Racial discrimination)

BY : A. H. EL-Zayyat

EDITOR - IN - CHIEF

The Learders of Europe and America pretended that they had proclaimed in December 1949, the charter of human rights in the United Nations Organisation and they promised to the people prosperity, happiness and peace.

Before that the leaders of French Revolution also had proclaimed these rights in 1789 and they made it a preface to their constitution consisting of 17 articles. The policy of discrimination prevailing in certain parts of America and Africa, the inhuman treatment which the coloured people are facing at the hands of the white men who have pretended that they are the pioneers of human rights has left one to ask himself what the Europeans and Americans mean by the word "human" and to whom they have proclaimed these rights ?

Whether he is some man whom God created from different races, lands, and colours or he is the white man who Comes from th Latins, Saxons or Tutons ? It appears from their present policy and behaviour that they mean only the white man, because black and red people have all duties but no rights.

The deprived existence of the people in the land of liberal democrats is the worst fib in the constitution of democracy in Washington and the biggest mockery of the statue of liberty in Newyork. But the coloured people of Asia and Africa in the eyes of Europeans are like the animals which are born to be trained to work or like the raw materials to be used in the industrial production. They are usually a matter of dispute during the time of peace and a bone of contention in war time among the big powers. Because of this fault in the interpretation of the word "man" the basis of rule and law has been disturbed and the principles of democracy and freedom are contradicted. Every race of the humam family has its own weight, and every

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الرابع ـ السنة السادسة والثلاثون ـ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٤ هـ ـ نوفمبر ١٩٦٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تمنى التبنى

بقلم : عبد الرحيم فوده

التبني عادة قديمة . ومعناه أن يتخذ الإنسان إنساناً آخر ابناً له ، ينفق عليه في حياته ويشركه في الميراث بعد مماته ، ويخلطه ببنيه وبناته ، ويجعل له من الحرمة والحقوق والواجبات ما للابن الحقيقي من حقوق وما عليه من واجبات ، فله أن يخلو بزوجته وبنته ، لأن زوجته أمه . وبنته أخته ، ويحرم عليه أن يتزوجهما في حياة أبيه المدعى أو بعد مماته ، لأنه يحرم على الإنسان أن يتزوج أخته أو أمه ، ويحرم على أبيه المدعى أن يتزوج امرأته إذا طلقها أو مات عنها ، لأنها من حلائل الأبناء التي تحرم على الآباء . وكل ذلك وما إليه مما يتجافى عن طبيعة الذوق والحق ويتنافى مع شريعة الإسلام . وللتبني قصتان مثيرتان في القرآن :

الأولى قصة يوسف مع امرأة العزيز ، إذ قال لها زوجها : « أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » فإنه لما بلغ أشده فتنت به ، وكان ما يحكيه القرآن إذ يقول الله فيه : « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء

إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم . قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .

والجانب الذى يجب ألا يغفل أو يهمل فى هذه القصة ، هو ما كان من امرأة العزيز نحو يوسف فإنها على الرغم من طول عهدها به وحدبها عليه لم تشعر نحوه بعاطفة الأمومة ، بل حاولت إغراءه وإغواءه ، وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، ولولا العصمة التى تعهد الله بها أنبياءه لوقع يوسف فيما كانت ترجوه وكان يخشاه كما يفهم من قوله تعالى : « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء » .

أما القصة الثانية فهى قصة زيد بن حارثة ، فقد سبى وهو صغير . ثم اشتراه حكيم ابن حزام لعمته خديجة ، فوهبته للنبى صلى الله عليه وسلم بعد أن تزوجته ، ثم علم أبوه به ، فطلبه هو وأخوه من النبى صلى الله عليه وسلم . ولما خير زيد أبى أن يعود مع أبيه وعمه . وآثر البقاء مع رسول الله فأعتقه ، وكان صلى الله عليه وسلم يغمره بعطفه وحبه ، فكان لذلك يدعى زيد ابن محمد ، وينادى بهذا الاسم والنسب قبل النبوة ، ثم نزل قوله تعالى : ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » .

وبهذا القول الفصل ظهر حكم الله فى هذا الأمر ، وكان ظهوره بهذه الصورة التى لا يرقى إليها الريب ، فكما لا يكون للرجل قلبان فى جوفه ، لا تكون الزوجة أما بقول زوجها أنت على كظهر أمى . ولا يكون الدعى ولداً لمن ادعاه وتبناه ، إنه ابن لرجل واحد إذا عرف يجب أن يلحق به وينسب إليه ؛ لأنه هو أبوه الذى انحدر من صلبه . كما يفهم من قوله تعالى : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » فإذا لم يعرف لم ينبذ من المجتمع ولم تنقطع صلته بمن يعيشون فيه ، بل هو لهم أخ وهم له إخوة كما يفهم من قوله تعالى : « فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين » وقوله جل شأنه : « إنما المؤمنون إخوة » .

وقد مضى الإسلام فى استئصال هذه العادة المستحكمة إلى مدى أبعد من الكلام ، فكان بده التجربة القاسية مع النبى صلى الله عليه وسلم إذ أمره الله أن يتزوج بزينب بنت جحش بعد طلاقها من زيد الذى كان يدعى باسم (زيد بن محمد) ليتأكد الحكم بالعمل بعد بيانه بالقول ، ولكيلا يكون على المؤمنين حرج فى الزواج بمطلقات الأدعياء الذين ادعوا أنهم أبناء . وذلك بعض ما يفهم من قوله : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » .

هذا هو حكم الله وأمره ، وهو صريح فى أن التبنى عمل غير مشروع ، ثم هو - مع ما فيه من الاستهتار بحرمة الأسرة فى أغلب الأحوال - يدخل ما لا حق له فى الميراث شريكا للمستحقين فيه . فيرث الغريب كالقريب ، وتختلط الأنساب الصحيحة بالأنساب الزائفة ، ويجد الشيطان مجال الإغراء والإغواء واسعا فسيحا فيعمل على إفساد الأسرة وإفساد المجتمع تبعا لفساد الأسرة ، ومن ثم لم أصدق ما نسبته بعض الصحف أو إحدى المحررات فى إحدى الصحف من حديث كان عنوانه بالخط العريض وزيرة الشئون تطالب بإباحة تبنى الأطفال وكان ختامه . إن أمنيتها أن تسمح الدولة بالتبنى على أن يحمل الطفل اسم الأسرة التى تتبناه ويكون له الحق فى الميراث ...

إن ذلك إذا صح لا يمكن أن يكون تعبيراً عن إرادة هذه الأمة التى تدين بالإسلام ، ولا عن روح هذه الثورة التى تستلهم هدى الإسلام وتقيم بناء الأسرة على أساس الدين والأخلاق ، ولو تذكر الذين يتصدون للكتابة او الحديث فى هذا الموضوع ما ذكره الرئيس فى مؤتمر القوى الشعبية ، وفى الجموع التى احتشدت حوله فى اليمن ، وفى الميثاق الوطنى والتقرير الذى جعل مذكرة مفسرة له لو تذكروا الجو الذى يعيشون فيه ، والبيئة التى تحيط بهم لترثوا فى إعلان هذه الأمنية الباطلة ولكننا نذكرهم جميعاً بقول الله فى هذه العادة القديمة المذمومة : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » ، وقوله جل شأنه : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .

عبد الرحيم فوده

حديث هام

لفضيلة الإمام الأكبر
الشيخ حسن مأمون
شيخ الأزهر

---

١ — الخلافة الإسلامية .
٢ — الإسلام والتطور .
٣ — دور المرأة المسلمة فى المجتمع المتطور .
٤ — موقف الإسلام من المسيحية واليهودية .

تقابل الصحفى الألمانى مانفردفون يوتر تشيشكا مندوب إذاعة « دويتش لاندفونك » فى ألمانيا الغربية بفضيلة الأستاذ الشيخ حسن مأمون شيخ الجامع الأزهر . وسأل فضيلته هذه الأسئلة :

١ ـ فضيلة الإمام الأكبر : توليتم فضيلتكم منصب الإمام الأكبر للجامع الأزهر العريق وهو منصب كان يتولاه الخلفاء فيما مضى . ويعتبر قمة فى التشريع الإسلامى . وبحكم منصبكم هذا نود أن نسأل سيادتكم : هل هناك تفكير فى عودة الخلافة فى المستقبل فى العالم العربى ؟

٢ ـ يقال إن الإسلام لم يكن يكيف نفسه فى الماضى مع التغيرات التى تطرأ على المجتمع فهو وثيق الصلة بالماضى . هل هذا صحيح ؟ كيف يكون من الممكن ـ فى رأى فضيلتكم ـ أن يأخذ الإسلام بأسلوب التطور الحديث ؟ هل هناك اتجاه نحو هذا ؟ وما الذى تم إنجازه فى هذا الشأن ؟

٣ ـ هل سيتأثر دور المرأة المسلمة فى المجتمع بهذا التطور ؟

٤ ـ كم يبلغ عدد طلبة الجامعة الأزهرية فى الوقت الحاضر ؟ وكم عدد الفتيات منهم ؟

٥ ـ هل تعتقدون أن أخذ الإسلام بأسلوب التطور الحديث سيجد تربة خصبة فى جميع البلدان العربية ؟ وهل سيكون هناك استثناء محتمل ؟

٦ ـ ماهو موقف الإسلام من المسيحية بمناسبة زيارة البابا بول السادس للأردن ؟ .

فى بداية هذا العام دار الحديث حول إيجاد علاقات أكثر قوة ووثوقا بين الإسلام والمسيحية : علاقات التعايش القائم على التسامح والمودة ـ ما رأى فضيلتكم ؟ وما رأيكم

فى اليهودية كدين؟ هل من الممكن التعايش بين العرب واليهود فى العالم العربى؟

٧ - ما دور الإسلام فى الجهود التى تبذل من أجل الوحدة العربية كما تراه سيادتكم؟

٨ - ما هى علاقة السنة بالشيعة؟ هل الخلافات (التناقضات) بينهما تقل تدريجيا؟ وهل تبذل الجهود لإيجاد تقارب أشمل بينهما مثل ما حدث فى المجلس الدينى بروما بين الرومان الكاثوليك والأرثوذكس المسيحيين؟

٩ - كيف ترون مجالات الإسلام للانتشار؟ هل هناك اتجاه لهذا؟ وأين سيكون مجاله؟

وقد أجاب فضيلة الأستاذ الإمام بما يلى:

الخلافة:

الخلافة التى يعرفها التاريخ لم تكن خلافة فى العالم العربى، ولكنها كانت خلافة فى العالم الإسلامى، وهذه الخلافة ليست مما يشغل المسلمين الآن، وإذا كانت الخلافة تعنى توحيد الأوطان الإسلامية تحت راية واحدة، فإن فى مبادىء الإسلام ما يغنى عنها وإن تعددت الشعوب، فقد ترك فينا الرسول صلى الله عليه وسلم ما إن تمسكنا به فلن نضل بعده كتاب الله وسنة رسوله، فهما إذن الجامعان لكلمة المسلمين وعلى مبادئهما تتحد الصفوف والأهداف فى خدمة الإنسانية كلها.

الإسلام والتطور

طبيعة الإسلام كدين سماوى ختم الله به الأديان وكدين عام فى الزمان والمكان تقتضيه أن يكون صالحا لكل عصر، ملائما لكل بيئة، وقد مر الإسلام زمن العباسيين فى عصور حضارية وأجناس متعددة فاتسع صدره لكل تطور صالح، وأرضت تعاليمه كل الأجناس التى حكمت به حتى إنهم تعشقوها وعرفوا بها النور بعد الظلام، والإنسانية بعد الوحشية.

وإذا كان فى أصول الإسلام ما لا يتغير أبدا، فإن فى فروعه ما يفسح الرأى أمام المجتهدين الذين يراعون ملابسات الحياة ومستجد الظروف وفى أبوابه - باب المصالح المرسلة - الذى لا يضيق بتطور معقول أو ارتقاء متزن ما دام لا يصادم حكما ورد فى الكتاب أو السنة.

المرأة المسلمة:

المرأة المسلمة أعطاها الإسلام ما لم تكن تحلم به فى عصور ما قبل الإسلام فقد أعطاها حق التملك والتعاقد والهبة والإرث، ورأيها معتد به فى كل الشئون الخاصة بها وأهمها رضاها بالزوج، وأعطاها حق التعلم وجعلها تسهم فى كل أمر لا يخرجها عن طبيعتها التى فطرها الله عليها.

وإذا كانت المرأة المسلمة قد منيت فى بعض العصور بمن يحرمها هذه الحقوق فإن ذلك راجع إلى جمود لا يعترف به الإسلام ولا

يقره ، ولهذا كان حظ المرأة من التطور الحديث أن تعطى هذه الحقوق فى حيطة تمنع من التحلل الممقوت وحزم يعوق عن الانطلاق الذميم .

إحصاء عدد طلبة الأزهر :

آخر إحصاء لطلاب الأزهر فى أقسامه المختلفة كما يأتى :

القسم الابتدائى جملته ٢٨٩٩٧ ، منه ٢٥٣٦٣ من البنين ، ٣٦٣٤ من البنات ، والقسم الإعدادى جملته ٢٢٧١٤ منهم ٢٢٤٨٩ من البنين ، ٢٢٥ من البنات ، والتعليم الثانوى جملته ١٢٣٥٧ منه ١٢٢٨٧ من البنين ، ٧٠ من البنات .

وفى الجامعة جملة الطلاب ٦٨٥١ منهم ٦٦٤٩ من البنين ، ٢٠٢ من البنات فيكون عدد البنين ٦٦٧٨٨ ، والبنات ٤١٣١ ، ومجموعهما ٧٠٩١٩ .

التطور الحديث :

التطور الحديث فى صوره الفاضلة التى تعمل على ترقية الحياة ، والسمو بالقيم ، واكتشاف أسرار الله فى الكون الذى سخره الله لخلقه ـ من صميم تعاليم الإسلام ، ولا أعتقد أن أمة إسلامية فاهمة لدينها تستطيع أن تتخلف عن التسابق فى هذا الميدان ، وعلى فرض أن أمة وقفت عند جمود ضار بالمصلحة العامة فيجب على كل مسلم أن يوعيها ويبصرها حتى تعرف أن الإسلام جاء لخير الدنيا والآخرة ، ومن فهم حقيقة الإسلام أن يعرف العالم كله أن الاستقامة على مبادئه تفتح على الناس بركات من السماء والأرض ، قال تعالى : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » .

سماحة الإسلام :

موقف الإسلام من الأديان الكتابية موقف واضح صريح يعتمد على التسامح الكريم فقد دعاهم إلى كلمة سواء « ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » وإذا كان الإسلام قد أحل لنا طعامهم ولهم طعامنا ، وأحل لنا أن نتزوج منهم وأمرنا إذا لم يقاتلونا فى الدين ولم يتعرضوا لنا فى ديارنا أن نبرهم ونقسط إليهم وجعل ذلك إحسانا يستوجب حب الله . إن الله يحب المحسنين فإن ذلك كله وغيره من الأحكام يولد معنى التسامح فى الإسلام .

وهذا يشمل المسيحية واليهودية التى تقف عند الحد المرسوم فى ذلك فإذا آثرت اليهودية طريق العدوان واستمرت فى سياستها الصهيونية التى تبيح إخراج الآمنين من ديارهم والاعتداء على حرماتهم ومقدساتهم ، فإن

الإسلام يطلب منا ألا نتولاهم ويطلب ردهم عن غوايتهم والعمل على إفساد مخططات سياستهم حتى يرجعوا إلى الحق ويثوبوا إلى الرشد ويردوا فعلا الأرض المغتصبة لأهلها أصحاب الحق الشرعى دون غيرهم فيها.

الوحدة العربية :

رأى الإسلام فى الجهود التى تبذل من أجل الوحدة العربية رأى صريح يفصح عنه القرآن الكريم فى أكثر من موضوع فقد بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم بلسان قومه ليفهمهم بدعوته وجعل الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم شهيداً عليهم وطلب من العرب أن يكونوا بعده شهداء على الناس فهم متحملون عنه العمل على نشر دعوته وإظهار كلمة الله وهذا أمر يقتضى أن يكونوا جميعا لا أشتاتا حتى يحققوا قول الله تعالى : «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا». فالدعوة إلى الوحدة إذن والعمل على إحقاقها من صميم تنفيذ ما أمر الله به من الاعتصام بحبله لنكون إخوانا تآلفت قلوبهم وتوحدت صفوفهم على منهج حق إلى هدف صدق.

علاقة السنة بالشيعة :

علاقة السنة بالشيعة علاقة الفرعين عن أصل واحد والخلاف أو التناقضات كما جاء فى سؤالكم هو فى الواقع خلاف المتطرفين من الفريقين والذى يجمع بين الشيعة والسنة هو الاعتدال فى الأخذ من مفهومات المتشابهات وقد زال والحمد لله فى هذا العصر هذا التطرف المتعصب وأصبح التفاهم على ما اختلفا فيه هدف العلماء من الجانبين وبذلك تصفى الخلافات القديمة ويرجع الجميع إلى فهم ملتق مع الأصول الإسلامية الثابتة.

مجال انتشار الإسلام :

إن مجالات الإسلام للانتشار مجالات واسعة تتمثل فى الشعوب التى لا تعرف عن الإسلام شيئا أو تعرف شيئا باهتا لا يمثل مبادئ الإسلام على حقيقتها. والمسلمون الفاهمون الواعون لا يقصرون إن شاء الله فى عرض دينهم على هذه الشعوب عرضا سمحاً لا يحمل فى طيه التواء ولا يتخذ له وسائل إكراه حتى تقبل هذه الشعوب على الإسلام إقبال رضا وحب حين يتبين الرشد من الغى.

حسن مأمون
شيخ الجامع الأزهر

وحدة الوجود

للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود

---

١ — نريد أن نبدأ مباشرة بملاحظة تزيل - بصورة غير متوقعة - حدة المناقشة في هذا الموضوع ؛ وذلك أننا بصدد «وحدة الوجود» ، ولسنا بصدد وحدة الموجود .

والموجود متعدد : سماء وأرض ، جبال ، وبحار ، أشجار وأناسي إلخ ، وهو يختلف صلابة وهشاشة ، لونا ورائحة وطعما ، متفاوت ثقلا وخفة إلخ .

ولم يقل أحد من الصوفيين الحقيقيين - ومنهم ابن عربي والحلاج - بوحدة الموجود .

وما كان لمؤمن ، ولا يتأتى لمؤمن ، أن يقول بوحدة الموجود - وما كان للصوفية وهم في الذروة من المؤمنين أن يقولوا - وحاشاهم - بوحدة الموجود .

وقد نتساءل : من أين إذن أتت الفكرة الخاطئة التي يعتقدها كثير من الناس : من أن الصوفية يقولون بوحدة الموجود ؟ !

وتفسير ذلك لا عسر فيه : إن فريقا من الفلاسفة في الأزمنة القديمة وفي الأزمنة الحديثة يقولون بوحدة الوجود ، بمعنى أن الله - سبحانه وتعالى عن إفكهم - هو والمخلوقات شيء واحد .

قال بذلك هيرقليطس في العهد اليوناني :

والله عنده نهار وليل ، صيف وشتاء ، وفرة وقلة ، جامد وسائل ؛ إنه - على حد تعبيره - كالنار المعطرة ، تسمى باسم العطر الذي يفوح منها ، تقدس سبحانه وتنزه عما يقول .

والله سبحانه وتعالى ، في رأي شلي ، في العصور الحديثة هذه البسمة الجميلة على شفتي طفل جميل باسم ، وهو هذه النسائم العليلة التي تنعشنا ساعة الأصيل ، وهو هذه الإشراقة المتألقة بالنجم الهادي في ظلمات الليل ، وهو هذه الورود اليانعة تتفتح وكأنها ابتسامات شفاه جميلة : إنه الجمال أينما وجد ، ولكنه أيضاً - سبحانه وتعالى - القبح أينما كان : وكما يكون طفلا فيه نضرة ، وفيه وسامة ، يكون جثة ميت ، ويكون دودة تغتذي من جسد ميت ، ويكون قبراً يضم بين جدرانه هذه الجثة وهذا الدود ، أستغفرك ربي وأتوب إليك .

ولوحدة الموجود أنصار في كل زمان .

ولما قال الصوفية «بالوجود الواحد» شرح خصومهم الوجود الواحد بالفكرة

الفلسفية عن وحدة الموجود ، وفرق كبير بينهما ، ولكن الخصومة كثيراً ما ترضى عن التزييف وعن الكذب فى سبيل الوصول إلى هدم الخصم ، والغاية تبرر الوسيلة كما يقولون .

وشيء آخر فى غاية الأهمية كان له أثر كبير فى الخطأ فى فهم فكرة الصوفية عن الوجود الواحد وهو أن الإمام الأشعرى رضى الله عنه رأى فى فلسفته الكلامية أن الوجود هو عين الموجود ، ولم يوافقه الصوفية على هذه الفكرة الفلسفية ، ولم يوافقه الكثير من مفكرى الإسلام وفلاسفته على رأيه .

وهو رأى فلسفى يخطىء فيه أبو الحسن الأشعرى أو يصيب ، وما مثله فى آرائه الفلسفية إلا مثل غيره فى هذا الميدان يخطىء تارة ويصيب أخرى .

ورأى مخالفوه : أن الوجود غير الموجود ، وأنه ما به يكون وجود الموجود ولما قال الصوفية بالوجود الواحد ، شرح خصومهم فكرتهم فى ضوء رأى الأشعرى ، دون أن يراعوا مذهبهم ، ولا رأيهم : ففسروا قولهم بالوجود الواحد على أنه قول بالموجود الواحد .

وهذا التفسير على هذه الطريقة يسحب الثقة فى آراء هؤلاء الخصوم .

وأمر ثالث ، يجب ألا نصيره أدنى التفات ، لأنه أتفه ـ فى منطق البحث ـ من أن نعيره التفاتا ، وهو هذه الكلمات التى تناثرت هنا وهناك ، مخترعة ملفقة ، مزيفة ضالة ، فى معناها ، تافهة فى قيمتها الفلسفية ، غريبة على الجو الإسلامى ، تنادى بصورتها ومعناها : أنها اخترعت تضليلا وافتئاتا .

إنها هذه الكلمات التى يعزونها إلى الحلاج ، رضوان الله عليه ، أو إلى غيره ، لا توجد فى كتاب من كتبه ، ولم يخطها قلمه ... لقد اخترعوها ، ثم وضعوها أساسا تدور عليه أحكامهم بالكفر والضلال .

ويكفى أن يتشبث بها إنسان فيكون فى منطق البحث غير أهل للثقة .

٢ — الوجود الواحد :

وهل فى الوجود الواحد من شك ؟ إنه وجود الله المستغنى بذاته عن غيره ، وهو الوجود الحق الذى أعطى ومنح الوجود لكل كائن . وليس لكائن غيره ، سبحانه الوجود من نفسه : إنه سبحانه الخالق وهو البارئ وهو المصور : هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء .

ومن بعض معانى هذا التصوير قوله تعالى « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا

المضغة عظاما. فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وصلة الله بالإنسان إذن : هى أنه سبحانه يمنحه الوجود الذى يريده له فى كل لحظة من اللحظات المتتابعة ، فتتشكل حياته فى كل لحظة بصورة أمده الله سبحانه وتعالى بها .

وصلة الله بكل كائن : إنما هى على هذا النمط : إنه سبحانه مثلا : « يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » إنه يمسكهما وجودا ، ويمسكهما تدبيرا ، ويمسكهما تماسكا وتناسقا... إنه يمسك فيهما الكيف والكم ، وإذا ما سحب إمداده عنهما تلاشتا كما وكيفا .

إن الله سبحانه وتعالى : محيط بالكون ، مهيمن عليه ، قيوم السموات والأرض قائم على كل نفس بما كسبت ، وقائم على كل ذرة من كل خلية ، وقائم على كل ما هو أصغر من ذلك وما هو أكبر بحيث لا يعزب عن هيمنته وعن قيوميته مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

هذه القيومية أخذ القرآن والسنة يتحدثان عنها فى استفاضة مستفيضة لهز الإنسان هزة عنيفة تجعله لا يخلد إلى الأرض ولا يتبع هواه ، وإنما يرتفع ببصره أو يستشرف بكيانه إلى الملأ الأعلى مستخلصا نفسه من عبودية المادة : ليوحد الله سبحانه وتعالى فى عبودية خالصة له ، وفى إخلاص لا يشوبه شرك من هوى، أو شرك من سيطرة المادة أو الغرائز .

٣ — ونريد الآن أن نصور بعض مواقف القرآن فى هذا الصدد :

إن الله سبحانه وتعالى : يوجه نظرنا فى سورة الواقعة إلى مسائل نحن عنها فى العادة غافلون .

« أفرأيتم ما تمنون ؟ ! أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ » ! . . . « أفرأيتم ما تحرثون ؟ ! أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ » ! ... « أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ ! أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ » ... « أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون » ؟...

وعلى العكس من ذلك : لو شاء الله لما وجد هذا الفرد ولجعل الزرع حطاما ، ولما أنزل الماء من المزن ، ولما أنشأ شجرة النار ، إنه سبحانه ، بيده الأمر سلبا وإيجابا ، وبيده الخلق إيجاداً وإعداما ...

أرأيت إلى هذه الرمية ترميها : إنك ما رميت ، إذ رميت ، ولكن الله رمى ...

أرأيت إلى الانتصار فى الجهاد ؟ إن هذا الانتصار من عند الله ، أما القتل : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » .

ورزق الإنسان هذا وطعامه « فلينظر

الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم ... » .

٤ — هذه الهيمنة ، وهذه القيومية : يمر بها قوم فلا يعيرونها التفاتا ، إنهم يمرون بها مرور الحيوانات بما لا تدرك ولا تعقل : إن الله سبحانه وتعالى : لا يحتل من شعورهم درجة أيا كانت ، وهمهم كل همهم مصبحين ممسين ، إنما هو ملء البطن ، أو كنز الذهب والفضة ، أو النزاع على جاه ، أو العمل لتثبيت سلطان : إنهم يمرون بآيات الله فلا يشهدونها ، وتحيط بهم آثاره ، فلا ينظرون إليها ، وتغمرهم نعماؤه وآلاؤه فلا يوجههم ذلك إلى الحمد ولا إلى الشكر ، إن الله سبحانه وتعالى : لا يحتل في قلوبهم ولا في تفكيرهم ، ولا في بيئتهم ، ولا في حياتهم ، قليلا ولا كثيرا . . . .

والطرف الآخر المقابل لهذا : هو هؤلاء الذين انغمسوا حقا في محيط الإلهية : سبحوا في بحارها ، واستنشقوا نسائمها الندية ، وغمرهم لألاؤها وضياؤها ، لقد بدءوا بحمد الله وشكره على نعمائه وآلائه التي تحيط بهم من جميع أقطارهم ، فزادهم الله نعما وآلاء :

« لئن شكرتم لأزيدنكم . . . »

لقد اتقوا الله حق تقاته فعلمهم الله :

لقد اكتفوا بالله هاديا ونصيرا ، فهداهم الله إلى صراطه المستقيم ، ونصرهم على أنفسهم وعلى أعدائهم ، وأخذوا شيئا فشيئا ، يحاولون تحقيق التوحيد : قولا ، وعقيدة ، وتذوقا ، وتحققا ، وأخذوا يرون في « أشهد ألا إله إلا الله » معان لا يتطلع إليها غيرهم .

وبدأ معنى الشرك يتضح لهم في صورة لا تخطر على بال اللاهين الذين شغلتهم أموالهم وأهلوهم ، وبدءوا يحطمون الشرك : يحطمون أصنامه وأوثانه : من النفس ، والهوى ، والشيطان ، ومن الغرائز الحيوانية ، والغرائز الإنسانية ، انهار الشرك حتى من همسات الفؤاد : لقد انهار الشرك الواضح والشرك الخفي وثبت في أذواقهم ، واستقر في أحوالهم ومقاماتهم : أن « لا إله إلا الله » « فأينما تولوا فثم وجه الله » .

وأينما كانوا فالله معهم ، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد ، وهو أقرب إليهم من جلسائهم ومما شربهم : إنه يغمر كيانهم : فلا يرون غيره سبحانه ، لا يرون غيره قيوم السموات والأرض ، ولا يرون غيره مصرفا للتافه من الأمور وللعظيم منها ، ولا يرون غيره مالكا للملك : يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء .

لقد أصبحوا ربانيين ، وأصبح الله في بصرهم وسمعهم وجوارحهم وفي قلبهم ،

من قبل ذلك ومن بعده : يشغله كله فلا يدع فيه مكانا للأغيار .

٥ — وأخذ هؤلاء الصوفية يوجهون أفراد القطيع من البشر إلى الله تعالى . : أخذوا في محاولة جاهدة مستمرة - لانتزاع الإنسان من الإخلاد إلى المادة ليتطلع إلى السماء :

لقد حاولوا أن يوجهوا نظر الناس إلى الله، عن طريق آلائه التي تغمرهم وعن طريق صنعه ، وقد أتقن كل شيء صنعا ، - سبحانه :

أخذوا يوجهون نظر الناس إلى الله تعالى : في الزهرة تتفتح ، وفي الزرع ينبت متجها إلى السماء . وفي الشمس تشرق ، وفي القمر يتألق ، وفي مواقع النجوم ومداراتها . . .

وفي كل هذا الإبداع السارى في الكون !

أخذوا يشرحون معنى تلك الآيات الكريمة

« تبارك الذى بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير » .

وكانت تعبيراتهم تعبيرات متذوقين ، وليست التعبيرات الجافة لعلماء الكلام أو الفلاسفة وهم - في تعبيراتهم - : يشرحون: أن الله سبحانه وتعالى ، هو الممد الوجود لكل موجود : إنه يمد القائم بالقيام ، ويمد الماشى بالمشى ، والمتحرك بالحركة . . .

إنه - على حد تعبير أهل السنة والأشاعرة : الذى يقطع ، وليست السكين هى التى تقطع ، وهو الذى يحرق، وليست النار هى التى تحرق ، وهو الذى حينما يريد ، يقول للنار كوني بردا وسلاما ، فتكون بردا وسلاما . . .

ومهما عبر الصوفية ، في هذا الميدان ، عن الوجود الواحد ، فقالوا في ذلك ، وأسرفوا ، واشتطوا ، فإنهم : سوف لا يبلغون المدى الذى بلغته الآية القرآنية الكريمة :

« هو الأول والآخر والظاهر والباطن » .

وهذه الآيات القرآنية التى ذكرناها إنما هدفها أن تدفعنا دفعا إلى الشعور بقيومية الله ، سبحانه وتعالى مهيمنة ، وهيمنته مسيطرة ، والشعور بتوجيهه سبحانه وتعالى للإنسان أن يفر إلى الله في كل أمر من أموره وأن يسمو بنفسه حتى يتحقق بأن :

« لا إله إلا الله » .

وما فعل الصوفية أكثر من ذلك إنهم مهتدون بهدى القرآن والسنة — يريدون الإنسان : أن يكون ربانيا ، فإذا ما استمر الكثير من الناس يخلدون إلى الأرض ، وينظرون دائما إلى أسفل ، فليس ذلك ذنب الصوفية ، فقد أدوا واجبهم نحو التوجيه إلى الله تعالى ، خير أداء .

أما إذا لم يكتف بعض الأفراد بالإخلاد إلى الأرض وبالنظر إلى أسفل ، وإنما أخذوا يهاجمون من يدعوهم للتطلع إلى السماء ، ويوجههم إلى الله ، تعالى ، فهؤلاء : إنما يحاربون الله ورسوله ، وجزاؤهم معروف .

٦ — وقد تتساءل : فيم إذن حوكم الحلاج وقضى عليه بالقتل ؟ !

إن أمر هذه القضية : قضية الحلاج : معروف سرها وما كان سرها خافيا في يوم من الايام :

لقد كان الحلاج قوة جارفة : كان مركز للجاذبية لا يضارع ، يلتف حوله الناس أينما حل ، ويسيرون معه أينما ارتحل .

وكان — ككل صوفي — : يحب آل البيت لأنه كان يحب الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وكان آل البيت إذ ذاك : يطمحون في أن تكون الدولة لهم ، وما كان بنو العباس يطمئنون إلى شخصية كشخصية الحلاج المحبة لآل البيت .

نسل رسول الله ، صلوات الله عليه ، ومادام الحلاج دعاية قوية تسير في كل مكان ، وتتجه إلى كل بلد ، فيجب ، حفظا على أمن الدولة وتحصينا لاستقرارها : أن ينكل بالحلاج .

وما كان مقتل الحلاج دينيا قط ، كلا ، وإنما كان سياسيا بحتا . ومن السهل على الملوك المستبدين أن يزيفوا القضايا ، وأن يأتوا بشهود الزور ، وأن يعدوا القضاة بالمال والترقية وأن ينفذوا أهواءهم ...

فكان ما كان من قضية ومن قتل .. والدين من كل ذلك براء والألفاظ التي ينسبونها إلى الحلاج ليست في كتاب من كتبه ، وكتبه : وبعضها موجود — لا تسندخصومه ولا تؤيدهم .

هذا ما كان من أمر الحلاج . وبقيت كلمة :

إن المنطق الصحيح : ألا يفتي المهندس في أبحاث الأطباء ، وألا يحكم الأديب — باعتباره أديبا — في أعمال المهندسين ...

ومن العدالة — على هذا الوضع — : ألا يحكم على هذه القمم الشامخة : ابن عربي ، الحلاج ، ابن الفارض . من لم يبلغ مداهم أو يقاربه .

لقد قيل مرة لأحد شيوخنا الصالحين الأجلاء : إن فلانا : ينتقد ابن عربي في المجلات ، فقال ، رضوان الله عليه : وهل من حق الخنافس أن تحكم على أعمال الأسد إن الخنافس لا تحكم على أعمال السباع وليس من حقها أن تتحدث فيما تفعله السباع ومنطقها دائما منطق الخنافس

لا بد أن يبلغ الإنسان المستوى ، أو ما يقارب المستوى ، وحينئذ سيقول كما قال أسلافنا الذين بلغوا المستوى أو قاربوه رضى الله عن سيدنا محيي الدين ، ورضى الله عن الحلاج ، وعن ابن الفارض ونفعنا ببركتهم هذا وبالله التوفيق :

عبد الحليم محمود
عميد كلية أصول الدين

بعد نجاح مؤتمر القمة العربي

هذا واجب العرب فأين واجب المسلمين؟

للأستاذ حسن جاد

أكد نجاح مؤتمر القمة العربي الثاني بعد المؤتمر الأول أن العرب مهما غامت سماؤهم بالسحب العارضة ، أو وهت علاقتهم بالدسائس الواغلة ، لا يتغير طبعهم العريق بعوارض الفتن ، ولا يتأثر جوهرهم الأصيل بغبار الأهواء ؛ يكشف الخطر الداهم عن أصالته ، وينم الليل الداجي عن لمعانه . فهم - كما عرفهم التاريخ - أنف أباة ، لا يقيمون على ضيم ، ولا ينامون على مذلة ، ولا يغضون على هوان .

هاهم أولاء وقد جدالجد ، بعدأن استفحل الخطب ، واستشرى الظلم ، وبلغت المأساة ذروتها فى فلسطين ، وطال الأمد على قضيتها الإنسانية ، التى هزت العوالم ، ووخزت الضمائر ، وفطرت القلوب ؛ يتسامون عن الجراح الصغيرة ، ويتلاقون على الآمال الكبار ، ويجتمعون على الخطب المشترك ، ويجمعون على الهدف الموحد ، ويقررون بالعزم الواثق ، والحزم المصمم ، أن يأخذوا بالعمل ما لم يأخذوا بالكلام ، وأن يستردوا بالقوة ما ضاع بالسلام ، وأن ينالوا بغضبة الكريم ما لم ينالوا بحلم الحليم ، وهم يتمثلون قول الشاعر :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه
إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم

وهكذا يبرز كيان فلسطين ، ويظهر لها جيش ، وتنظم لها جبهة تحرير ؛ وهكذا ينتفض الأسد العربى الرابض بعد جمام ، ويتحفز للوثوب بعد لبد ، ويزأر زأرته الغاضبة المجلجلة ، فيصم آذان إسرائيل ، ويذوب فى ضجته بغامها الحالم ، ومواؤها الضعيف .

وهكذا تتحرك الهمم الأبية الآخذ على يد العابثين بالنهر العربى ، فلا يعيثون فى مائه الطاهر ، ولا ينتفعون بورده النمير .

لقد تحول الأمل الواحد الحالم إلى عمل حازم حاسم ، وصفع العرب بالحقيقة خيال السلام ؛ وقاموا بواجبهم المقدس ، وهم يعلمون أن فلسطين قلب العالم العربى ؛ فهى بين القاهرة ودمشق ، وهى الجسر الذى يصل آسيا العربية بإفريقيا العربية ، وهى منفذ جزيرة العرب إلى البحر المتوسط ،

وشعب فلسطين شعب عريق فى العروبة ؛ تحدر من أصلاب القبائل العربية قبل الفتح الإسلامى وبعده ؛ فالخنجر المسموم الذى أصاب هذا القلب خليق أن يثير الألم فى نفس كل عربى ، ويستثير مشاعره ، ويقض مضجعه ، ويقلق وجدانه .

إن الصهيونية الآثمة ليست إلا حركة عدوانية مدمرة ضد العرب ، بل ضد البشرية كلها . فهى إلى ما استهدفته من اتخاذ فلسطين وطنا للدولة اليهودية التى فكرت أول ما فكرت فى إنشائها ، تستهدف تدمير الحكومات التى لا توالى اليهود ، وتريد السيطرة على الحكومات العالمية ، وتتوخى التأثير على الدول القوية مثل أمريكا .

وقد استطاعت بقسللها الخفى ، ووسائلها الدنيئة أن تحقق كثيراً مما تريد حتى رأينا استهلال الغدر البريطانى بوعد بلفور المشئوم عام ١٩١٧م ذلك الوعد الذى قطعه للمليونير اليهودى (روتشيلد) بتأسيس وطن قومى لليهود ، والذى تردد صداه فى شعرنا العربى فندد بهذا الذى يجود من جيب غيره :

ألا ليت بلفور أعطاكمو
بلاداً له لا بلاداً لنا
فلندن أرحب من قدسنا
وأنتم أحب إلى لندنا

ثم توالت حلقات الغدر فى ظل الانتداب الذى شجع اليهود على شراء الأرض المقدسة ، ومكنهم من التأثير على كثير من غير الفلسطينيين وقليل من الأسر العربية ، بالأثمان المغرية ، والعروض السخية ، ليبيعوا ما يملكون من الأرض لهذه الفلول الشتيتة من العصابات اليهودية :

باعوا البلاد إلى أعدائهم طمعا
بالمال ، لكنما أوطانهم باعوا
قد يعذرون لو ان الجوع أرغمهم
والله ما عطشوا يوما ولا جاعوا
يا بائع الأرض لم تحفل بعاقبة
ولا تعلمت أن الخصم خداع
لقد جنيت على الأحفاد والهفى
وهم عبيد وخدام وأتباع
وغرك الذهب اللماع تكنزه
إن السراب كما تدريه لماع
فكر بموتك فى أرض نشأت بها
واترك لقبرك أرضا طولها باع

وظلت بريطانيا تعمل على تحقيق وعد بلفورها الذى جاد بمالا يملك ، حتى اقترحت قرار التقسيم ، وعملت هى ومثيلاتها من الدول الاستعمارية التى ترتبط مصالحها بالصهيونية على إحكام الخاتمة للمأساة فى عام ١٩٤٨ م والجيوش العربية — إذ ذاك — تعصف بها رياح الخيانة ، وتفتك بها أسلحة الغدر ، فلا راية تجمعها ، ولا قائد يوحدها ،

ولا إخلاص من ورائها . فهى تقاتل بلا سلاح ، وتحارب فى غير ميدان والشاعر العربى يتفجع لهذا المصير ويهاجم المقصرين والخائنين :

أيعرب يدرى أن غدرتم أذلة
لعمرى لقد سودتمو وجه يعربا
بنى العرب قد برأت منكم محمداً
فما كان إلا ثابت الجأش أغلبا

لقد تدارك أبطال العروبة اليوم ما فاتهم بالأمس ، وتعلموا من هذه المحنة القاسية أعظم درس فهم يتلافون ما شجر من الخلاف ويطبون لما جنته الفرقة ، وينتفضون انتفاضة عملاقة تمسح عن جباههم الكريمة تراب المذلة ، وتحمل كواهلهم الشامخة واجب الشرف والكرامة ، وتثير فى نفوسهم العربية نخوة الإباء ، وحمية الأنفة ، لإنقاذ العروبة فى فلسطين .

ذلك واجب العرب نحو فلسطين العربية ، فأين واجب المسلمين نحو فلسطين المسلمة ؟ على ثراها الطاهر درج موسى والمسيح ، وفوق روابيها الخضر اتصلت الأرض بالسماء وإلى مسجدها الذى بارك الله حوله سرى خاتم الأنبياء ، وهو ثالث المساجد التى تشد إليها الرحال ، وتتعلق بها الآمال ، وتهفو المشاعر وتصبو القلوب

إن إسرائيل التى تحالف الاستعمار لتحقيق أغراضها ، وتستغل السياسة لبسط سلطانها ، تحاول جاهـــدة أن تنافق الدين بالتدليس الصريح ، وأن تتملق المسيحية بتهويد المسيح لتبرر وجودها الزائف وتدعم كيانها المزعوم فما بال المسلمين - ودينهم بتاريخه وذكرياته وقبلته ومناسكه يربطهم بهذه الأرض المقدسة ويشدهم إليها - لا ينهضون باسم الإسلام لنجدتها واستنقاذها ؟!

إن الحقيقة التى تهزم الباطل لتهيب بالمسلمين فى شتى بقاع الأرض أن يهبوا مع العرب لاسترجاع تلك البقعة السليبة من وطنهم الإسلامى .

وإن دينهم الذى شرع الله لهم ليفرض عليهم الجهاد المقدس لإنقاذ هذه الأرض المغصوبة ، فليكن منهم جيش إسلامى يقف مع جيش العروبة ، ولتكن لهم منظمة إسلامية تشد أزر منظمة التحرير العربية ، وليعلموا أنهم فى حق دينهم آثمون ، إن استناموا للضيم ، واستكانوا للذلة ، وأصموا آذانهم عن صيحات إخوة لهم مشردين ، أخرجوا من ديارهم بغير حق ، وغضوا أبصارهم عن أرض ترتبط بها مشاعرهم وفيها مقدساتهم ، تعيث فيها ذئاب اليهودية وتمرح بها كلاب الصهيونية ؛ وليتذكروا أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ؟

حسن حامد حسن
مدرس بكلية الدراسات العربية
جامعـــة الأزهر

الكيان الفلسطيني

للأستاذ محمد محمد خليفه

ولد الكيان الفلسطيني بعد ستة عشر عاما قضاها أحرار هذا الشعب في سجون الحسرة والألم تشويهم نار الغيظ ، وقضاها غير الأحرار ممن استعبدهم حب الحياة الوادعة غرباء عن قضيتهم ، منهم من نزح وراء العيش ومتاع الحياة إلى أرض عربية أو غير عربية ، وأكثر هؤلاء لا تربطهم بفلسطين غير أطياف من الذكريات البعيدة التي تعبر خواطرهم كلما ذكرت فلسطين ، وقد يعاودهم الحنين إليها في المنأى ، ولكن حنينهم لا يلبث أن تخمد جذوته أمام العيش الناعم والحياة المطمئنة في المهجر .

ومنهم من يعيش على أرضها وقد شغلته دنيا أسرته الصغيرة عن كيان شعبه الممزق ، أو استسلم لليأس فانطوى معه لا يهزه ضجيج الأحداث التي ترعد من حوله ومن أجله .

لقد ولد الكيان الفلسطيني ولكنه لن يقوى على مجابهة الأهوال والأنواء التي تواجهه إلا إذا أحس كل فلسطيني نازح أو مقيم بواجبه نحو هذا الكيان ، وآمن بأنه قوة تتفاعل وتتساند وتتفانى في دعم هذا الكيان وفي خلق جيش يحمل أعباء الأمانة التي ألقاها على كاهله مؤتمر القمة العربي .

وإن واجب الفلسطينيين الذين يعيشون في البلاد العربية في ظلال الجنسيات الممنوحة أن يتخلوا عن تلك الجنسيات ، وأن يرجعوا إلى حيث يخفق لواء فلسطين ليتجمعوا في ظلاله ويحسوا بالعزة التي غاب عنهم سلطانها والوطنية التي تاه عنهم مكانها .

وإن عشرات الألوف من المهاجرين والمهاجرات ليس مكانهم بعد ميلاد الكيان الفلسطيني في الأسواق والمتاجر ، ولا بين المدارس والمعاهد والجامعات ولا بين المزارع والحقول في فلسطين وفي غير فلسطين ، وإنما مكانهم معسكرات التدريب فيها وفي جاراتها ، وفي المصانع التي تصنع الموت لمن اغتصبوا منها الحياة .

وواجب كل ملك أو رئيس عربي أن يرغم على العودة إلى فلسطين كل من أنكر جنسيته الفلسطينية واستمرأ الضيافة ، أو استطاب الحياة في كنف الجنسية الموهوبة .

وإن منهج المعسكرات كما سيعنى بالتدريب يجب أن يعنى بالخلق والتربية والتهذيب خلق الإيمان بهذا الكيان ، وخلق الاستعداد لبذل الطاقات التي اختزنت ستة عشر عاما ، ثم تربية النفوس تربية صادقة يكون قوامها صاحب العمل

فى كل مجال يدعوهم إليه بناء الدولة الجديدة ونسيان الفردية التى كانت تعمل من قبل فى ظل الهوى الفردى ، ولا تلق لها وجودا فى مجال العمل الشعبى وتكوين الأخوة الشعبية التى أضعف التقسيم عراها فوهت على الزمن أقوى رابطة لا ينكر أثرها فى الخلق والقوة حتى ليكاد يحس ابن جليل أنه لا يرتبط بالعربى الحيفى أو الرملى برباط شعبى .

وأخيرا يجب أن يعنى بتهذيب تلك الطباع التى جعل منها التشريد والحرمان فى رأى الدعايات المفسدة طباعا حاقدة على الأصدقاء والأعداء على السواء إن طباع المغتربين والمقيمين أحوج ما تكون إلى الصقل والتثقيف وإزالة الرواسب التى غيرتها وربطها بالكيان العربى الكبير ، وخلق الإيمان بمستقبل الأمة العربية الكبيرة قبل أن تزحف تلك القوى إلى المعركة الفاصلة .

وهنا يبرز دور الهداة والمصلحين إلى جانب دور القادة والمدربين ، وقد يكون جهد المصلح أشق وأعتى من جهد المدرب لأن الوصول إلى طوايا النفوس واكتشاف خفاياها ، وإزالة ما فيها من شذوذ قد ينحرف بها عن صراط الحق وغرس الحب والوفاء والصدق والأمانة ، وتعهد كل ذلك بالإنماء فى ظل الأخوة العربية قد لا يتيسر كل ذلك أو بعض ذلك إلا لمن آتاه الله الحزم والعزم والإيمان والصبر وآتاه مع كل ذلك روح الطبيب الحاذق يشخص ويداوى بعد أن يلمس الداء .

ومن ثم يجب أن يختار إلى تلك المعسكرات صفوة منتقاة من الهداة والمصلحين الذين يؤمنون برسالتهم ويؤمنون بالعمل وبذل كل الطاقات لخير هذه الرسالة ، فحين ترسم القيادة وتخطط يجب أن يوضع فى حسابها أن الموقف يستدعى قيادات روحية دينية واجتماعية تصلح النفوس ، وتهيء الأرواح وتخلق فيها روح الفدائية والتضحية التى حملها الآباء العرب فى الماضى الأبعد والبعيد ، فحطمت كبرياء الفرس وإباء الروم ، وردت عن الشرق وحشية التتار .

تلك الروح المؤمنة العاملة الباذلة هى التى ترتقبها فلسطين الجريحة فى عهدها الجديد .

وتلك الروح هى التى يجب أن يتسلح بها الفلسطينى قبل أن يخوض المعركة وقبل أن يأخذ مكانه فيها .

وليس مكان الفلسطينى على الحدود ينتظر صيحة الانطلاق ، وإنما مكانه قلب يافا وحيفا وتل أبيب حيث ينقض صاعقة تحرق قبل أن تحترق وتدمر قبل أن تدمر ، وتقضى على الأخضر واليابس قبل أن تتحول إلى رماد وتحمل الفناء لمن حرمها البقاء ، وتهدى الموت لمن نزع منها الحياة ، وكل ذلك حين تدوى على الحدود صيحات الزحف ، فكأنه

فى معركة العودة قلبها لأن الأرض التى باعها أبوه بثمن بخس، والأرض التى اغتصبت من أبيه ، والأرض التى قدم لها أبوه روحه ودمه ثم طرد منها بنوه ، كل تلك الأرض خليق بالفلسطينى أن يستردها بكل ما يملك ليعرف ما بذل فيها حتى يكون حرصه عليها أشد مما لو أهدتها إليه الجيوش العربية بعد أن تشتريها بالمال والدم والأرواح .

وجيوش الأمة العربية كلها حين ترى الفلسطينى فى قلب المعركة لن تضن عليه بالمال ولا بالدم ولن تمن عليه يوماً بما بذلت لأن الأخوة الصارخة فى الدم تستحثها أبدا للعمل لحق العربى ويسعدها البذل فى رد هذا الحق وإن كان غاليا ، ويسعدها أن تصون له ومعه هذا الحق ، وإن عادت فى سبيل ذلك الدنيا وإن عرضت اقتصادها للاضطراب فكل غال هين بذله فى سبيل الأخوة .

وإن أسلحة الشعوب العربية فى معركة الكيان الفلسطينى مختلفة الألوان ولكنها متضافرة القوى، ستحارب إسرائيل فى أرض فلسطين بالمال والرجال والعتاد ، وتحارب الشعوب التى تقف وراء إسرائيل بسلاح الحرمان من البترول الذى تغله الأرض العربية ولهذا السلاح خطره على الغرب، وإن العرب ليرتقبون اليوم الذى يعلن فيه تنفيذ قرار حرمان الدول المنتصرة لإسرائيل من البترول ليجعلوه عيدا من أعيادهم القومية .

وإن أنصار الحق والحرية فى كل شبر من العالم سينتصرون للقضية التى مل الرأى العام العالمى شهودها .

ولن تستطيع الصهيونية العالمية التى تتجر بمصائر الشعوب أن تخرج من المعركة منتصرة لأن مالها الذى تشترى به العروش ، وتقيم به العروش لن يجدى شيئاً حين يغضب أنصار الحق للحق ، وحين تتكشف للدنيا الأصابع العابثة بالحكومات المتلاعبة بالرياسات . أيها الملوك والرؤساء العرب .

إن عشرات الملايين التى عاشت معكم أرواحها أيام مؤتمر القمة فترجمت مالاح فى وجوهكم وعيونكم من المعانى ، ثم رأت فى الجلسة الأخيرة إشراقات الأمل، وابتسامات المنى تشع على الوجوه وترتسم على الشفاه . هذه الملايين التى سرها اجتماعكم يسرها أبدا أن تراكم قلبا واحدا ورأيا واحدا وعزما واحدا وصفا واحدا تقف وراءه شعوبكم تنتظر إشارة الانطلاق إلى بناء مجد عربى موحد تلتقى فى بنائه الأيدى والقلوب والعقول والأموال وتعمل طاقات العرب جميعاً لخير العرب جميعاً وإن الكيان الفلسطينى هو أول عمل فى صرح المجد العربى الموحد فمتى ترى ملايين العرب ذلك الصرح المنشود يطاول السماء .

محمد محمد خليفة

وثنية بنى إسرائيل

للأستاذ على الخطيب

لم يكن يبدو أن الأكثرية من بنى إسرائيل راضية بحال عن موسى صلوات الله وسلامه عليه، ولم تكن - فى الوقت نفسه - تحترم فى شخصه جلال النبوة، أو ترعى لها أدبا. فكانت تصرح بسخطها منه وتقول لموسى: «... أوذينا من قبل أن تأتينا، ومن بعد ما جئتنا - الأعراف ١٢٩»، وكان هرون عليه السلام يشعر بعداوة فريق منهم له. وهذه الروح المتمردة فيهم لا ينكرها العهد القديم المتداول فقد سجل موقف هذا الفريق من موسى وهرون فى قولهم: «ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر. إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع، فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع - خروج ١٦ - ٢، ٣».

وتاريخ بنى إسرائيل مع أنبيائهم ناطق بهذا الجحود والنكران حتى أسفروا فى النهاية عن مقت شديد للنبوة فأعملوا فى أنبيائهم قتلا وتذبيحا. وفى القرآن الكريم أكثر من آية تصمهم بهذه الجريمة النكراء ضد قوم عزل لا يرفعون سلاحا، ولا يملكون إلا الكلمة الطيبة، والدعوة المخلصة دون أن يسألوا أجراً أو يطلبوا نفعا يقول تعالى: «لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون - المائدة - ٧٠».

فلم يكن المولى جل وعلا مطاعا فيهم، ولا كانت شريعته - وهى هدى ونور - سارية فى أوساطهم. خرجوا على الرب، وفسقوا على شريعته فالتمسوا إلها غير ربهم، ودينا يخالف شرعته وانحرفوا مبكرين إلى الوثنية، وموسى وهرون بين ظرانيهم.

وحسبنا أن نمر بالعهد القديم، ونطلع على وثنيتهم وتخطيطها حتى نتبين فى جلاء أن القوم لم تكن لهم فلسفة فى وثنيتهم. وذلك لسبب بسيط هو أنهم تلمسوا الوثنية من غيرهم، وطلبوها خارج حدودهم. فلم تكن للقوم وثنية تخصهم لذلك كان نزوعهم إلى هذه الوثنية يسجل عليهم قحولة الفكر، ونضوب الروح، وضيق الأفق الذى يستبدل بجلال الوحدانية، وسمو تكريمها للخلق عبادة بشر أو حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئا. فى نفس الوقت الذى

أعجبت بشريعتهم فيه أمم ودانت لها مختارة [1] . فما كانت هذه الوثنية فيهم إلا حبا للخروج على ربهم والضيق بشريعته ، ومخالفة أمره حتى لقبوا فى العهد القديم بالبيت المتمرد (حزقيال ٢ - ٩) .

وقد تمردوا من عهد موسى حتى ظهر فيهم المسيح عليهما السلام .

١ — فبعد أن عبر بهم موسى البحر ، ورأوا بأعينهم قدرة الله الخارقة ، وإعجازه المحيط ، مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم : « فقالوا : يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . قال : إنكم قوم تجهلون : إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين » - الأعراف ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٠ - .

وحين تركهم للقاء ربه الذى استغرق أربعين يوما ليتلق ألواح الشريعة استخلف فيهم هرون أخاه ، فاتخذ لهم السامرى عجلا جسداً له خوار ونادوا فيما بينهم : « هذا إلهكم وإله موسى » ولم يصغوا بنصح هرون ولا بقوله : « يا قوم إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى » - ٩٠ ، ٩١ - ، واستضعفوا هرون وهموا أن يقتلوه ، فخشى أن تتفرق كلمتهم ، وتذهب وحدتهم ، ويأتى موسى فيراهم ممزقين فانتظر بعد أن ذهبت جهوده سدى . وإذ رجع موسى ورأى ما فعلوه أخذه الغضب فألقى بالألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه وصاح فيه : « يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعنى أفعصيت أمرى قال يبنؤم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى » - طه ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ - .

« إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين » - الأعراف ١٥٠ - ، فناجى موسى ربه قائلا : « رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين » - الإعراف ١٥١ ، وقال تعالى فى أصحاب العجل : « إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين . الإعراف ١٥٣ .

٢ — ولما قضى موسى وهرون تمادى بنو إسرائيل فى العصيان ، وأمعنوا فى التمرد ، وجلبوا الأصنام ممن أحاط بهم من أمم ، وأقاموها فى أنحاء شتى بمدنهم : فى المرتفعات ، وعلى الطريق وأقاموا لبعضها كهنة ، وعكفوا عليها رجالا ونساء متناسين كل نعم

---

(1) انظر « المسألة الصهيونية فى نظر العلم » للدكتور محمد عوض محمد - من رسالات الجامعة العربية .

الله وأفضاله عليهم . وقام النسوة بحرق البخور لها ، وقدم الكثير منهم لها نذوراً ، وصرخ فيهم أنبياؤهم وهددوا بالإبادة دون جدوى وفى سفر حزقيال ورد الإنذار : « وأضع جثث بنى إسرائيل قدام أصنامهم ، وأذرى عظامكم حول مذابحكم ٦ - ٥ » ، لكنهم استمرأوا الزيادة والتوسع فى ألوان الوثنية فعبدوا النار : « وبنوا المرتفعات التى فى وادى ابن هنوم ليجيزوا بنيهم وبناتهم فى النار لمولك - إرميا ٣٢ - ٣٥ » ، ومولك - كما يبدو - هو من أوثان الفينيقيين الذى نقلوه معهم إلى « قرطاجنة - تونس » وكانت له ذراعان ممدودتان ذوا محور . توقد تحت نصبه النار . ويوضع الطفل فوق ذراعيه فتهبطان به فيها . فقتل بنو إسرائيل كثيراً من أطفالهم سفها وفيهم من ينذرهم بجرم ما يفعلون .

ولم يكتفوا بما نصبوا من أوثان فوق الجبال ، وبين الطرق فنقلوا رجسهم داخل بيت المقدس وملأوا بها مقاصيره حتى كان ببعض حجراته ... « كل شكل دبابات ، وحيوان نجس ، وكل أصنام بيت إسرائيل مرسومة على دائرة ، وواقف قدامها سبعون رجلا من شيوخ بيت إسرائيل - حزقيال ٨ - ١٠ » ، وفى مكان آخر بالبيت كان : « هناك نسوة يبكين على تموز حزقيال ٨ - ١٥ » ، وفى أحد أماكن الصلاة أعطوا ظهورهم للقبلة ، ووجوههم نحو الشرق وهم ساجدون للشمس حزقيال ٨ - ١٦ » .

٣ — وقد ختمت فرقة منهم وثنيتها بعبادة البشر فعبدت عزيراً - عزرا - كاتب الشريعة التقى الذى كان يحفظ التوراة عن ظهر قلب . فى القرآن الكريم : « وقالت اليهود عزير ابن الله . التوبة ٣٠ » ، وكان عزير فى أسرى بابل . وخرج بكثير منهم إلى بيت المقدس حين سقطت بابل تحت الحكم الفارسى . وقد تذلل العزير لربه أن يقبل توبتهم ويصفح عنهم ، فما كان من فرقة منهم إلا أن عبدته بنظرية الحلول . تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً . وعبدوا كوشان ملك آرام ، وعجلون ملك موآب (قضاة ٣) .

تلك صورة سريعة لوثنية بنى إسرائيل يبدو فيها قليل من كثير مما حواه العهد وصدقه القرآن ، وهى وثنية واسعة النطاق تمثل الصابئيـــة فى عبادة الكواكب ، والتوتمية فى تقديس الحيوانات . والمجوسية فى عبادة النار . وبذلك ضاع بينهم منهج التوراة ، ونقضوا عهد الله وحرفوا شرعته فضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضبه : « لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون » .

على الخطيب
مجمع البحوث الإسلامية

بمناسبة افتتاح العام الدراسى

مشاكل التربية الدينية والخلقية والاختلاط

للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

يكثر الحديث فى هاتين المشكلتين فى فاتحة كل عام دراسى ، ويذهب الناس فى شأنهما مذاهب شتى ، ولكنهم يكادون يجمعون على أننا لم نصل بشأنهما إلى حل سليم يرضى عنه نظامنا الدينى ، ويلائم تقاليدنا وعرفنا الخلقى وأوضاعنا الاجتماعية العامة . بل يكاد يجمع علماؤنا على أننا لم نصل فى صددهما إلى حل يتفق مع ما تقرره علوم التربية .

١ — أما فيما يتعلق بالناحية الدينية والخلقية فقد قامت النظم التى وضعت المدارس الابتدائية والثانوية فى عهد الاحتلال ، وهى التى وضعها دنلوب المستشار الإنجليزى لوزارة المعارف حينئذ وتعبد بها خلفاؤه من الإنجليز والمصريين ، قامت هذه النظم على إغفال ناحية الدين من التربية فى المدرسة بل على محاربته من وراء ستار ومحاربة ما يتصل به من شئون التربية الخلقية والاجتماعية ، وجريا على طريقتها الماكرة فى ستر سوءاتها وذر الرماد فى العيون ، فسحت السياسة الدنلوبية فى هذا الصدد مجالا يسيرا لبعض دروس فى الديانة ، ولكنها أمعنت فى التهوين من شأن هذه الدروس ، فوضعتها فى هامش المنهج الدراسى ، وأعفت التلاميذ من الامتحان فيها ، أو قررت فيها امتحانا رفيقا لا يترتب عليه أثر ما فى نجاح التلميذ ورسوبه ، أو يترتب عليه أثر ضئيل — وما كان ينتظر من "سياسة الدنلوبية أن تعنى بنواحى التربية الدينية والخلقية فى مصر ، وقد كان كل همها العمل على انحلال الشعب المصرى !

ثم أخذت المدرسة المصرية بعد أن تحررت من سيطرة الإنجليز توجه قسطاً من عنايتها إلى هذه النواحى ، ولكنها لا تزال إلى الوقت الحاضر مقصرة فى جنبها تقصيرا كبيرا ، ولا تزال بعيدة كل البعد عما ينبغى أن تكون عليه . ففى أحدث خطة للمدارس الثانوية التى يجتاز طلبتها مرحلة المراهقة والبلوغ ، وهى أدق مراحل الحياة جميعاً ، وأشدها حاجة إلى التربية الدينية والخلقية ، لا نجد إلا نحو ساعة واحدة فقط فى الأسبوع للدين والتهذيب ، بينما خصص فيها أكثر من ثلاثين ساعة أسبوعيا لمواد كسب الحقائق وحشو الذهن بالمعلومات .

والمدرسة المصرية إذ تقصر فى شئون التربية الدينية والخلقية إلى هذا الحد تعمل على إضعاف أهم دعامة من مقومات الحياة الإنسانية على العموم ومقومات الشعب المصرى بوجه خاص ، وتفسح المجال لعوامل القلق والاضطراب والانحراف فى التفكير والسلوك

هذا إلى أن دروس الديانة والتهذيب

بالصورة التي تدرس بها في مدارسنا لا تقوى وحدها على تحقيق الغرض من التربية الدينية والخلقية مهما كثر عددها، حتى لو وضعت في صلب المنهج الدراسي، وقرر فيها امتحان دقيق تترتب على نتائجه آثار ذات بال في نجاح التلميذ ورسوبه. فمهما بولغ في شأنها فإنها لا تعدو أن تكون مجرد مادة من مواد كسب المعلومات وحقائق تحشى بها أذهان التلاميذ، وليست التربية الدينية والخلقية بمواد تدرس، ولا حقائق تحفظ، وإنما هي مناهج للسلوك يؤخذ بها الطالب في مدرسته بوسائل تربوية سليمة حتى يألفها وتصبح محببة إليه وجزءاً من طبيعته، هي طرق عملية تنشؤه على الفضيلة وتزينها في قلبه، وتنفره من الرذيلة وتبغضه فيها، وتكون لديه الحس الخلقي السوي الذي يستطيع بفضله أن يميز بالبداهة الخير من الشر والخبيث من الطيب وفقاً للنظم التي يرتضيها دين أمته ويقرها عرفها الخلقي؛ هي قوالب يدرب الطالب في مدرسته تدريباً عملياً متواصلا على أن يصب فيها أعماله وأفكاره المتعلقة بشئون الأخلاق وبواجب الإنسان نحو ربه ونفسه وأسرته ووطنه والإنسانية جمعاء.

فبناء مسجد مثلا في فناء المدرسة، وإشراك التلاميذ في تشييده وتأثيثه وأخذهم بإقامة الصلاة فيه في مواقيتها، وتوزيع الأعمال اللازمة له عليهم من أذان وإمامة وخطابة وتعهد مرافق، وما إلى ذلك، وتمرسهم بهذه الأمور تمرساً عملياً تحت إشراف أساتذتهم، كل ذلك خير من ألف درس وموعظة تلقى عليهم في أهمية الصلاة وثواب فاعلها وعقاب تاركها يوم القيامة، وتكوين جمعيات من بين الطلبة لشئون الخدمة الاجتماعية والإصلاح الاجتماعي والإسعاف والنجدة والبر بالفقراء وشئون التعاون بمختلف فروعها، ومزاولتهم لهذه الأمور مزاولة عملية تحت إشراف أساتذتهم خير من ألف درس يلقى عليهم في فوائد التعاون والتواصي بالخير والتكافل الاجتماعي وواجب الإنسان نحو أخيه الإنسان.

وقد عني الإسلام وعني مفكرو الإسلام أكبر عناية بتكوين العادات الصالحة عن طريق القدوة الحسنة وعن طريق أخذ النشء بمزاولة الفضائل والواجبات الدينية مزاولة عملية. قال تعالى: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»، وفي الأثر الشريف: (مروا أولادكم بالصلاة لسبع، أي وهم في سن السابعة (واضربوهم عليها لعشر) أي اضربوهم على تركها إذا بلغوا العاشرة، ويقول عمرو بن عتبة لمعلم ولده: «ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح لديهم ما تركت»، ويرى الغزالي وجوب أخذ الطفل بمزاولة الفضائل والواجبات الدينية مزاولة عملية متى بلغ سن التمييز، وفي هذا يقول: «متى بلغ الطفل سن التمييز وجب

ألا يساع فى ترك الطهارة والصلاة وأن يؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان ».

ويؤسفنا أن نقول إن المدرسة المصرية فى الوقت الحاضر قد أضافت إلى تقصيرها فى تدريس الدين والتهذيب تقصيراً آخر فى أخذ تلاميذها بشئون السلوك الدينى والخلق فهى لا توجه إلى هذه الناحية العملية من الدين والأخلاق ما ينبغى أن يوجه إليها من عناية بل إن جوها لا يساعد كثيراً على بث العادات الصالحة فى النفوس.

٢ – وأما فيما يتعلق بالاختلاط بين الجنسين فى معاهد التعليم، فإنه يحدث لدينا فى مرحلتين: إحداهما مرحلة التعليم الابتدائى والأخرى مرحلة التعليم الجامعى، وكلا هذين النوعين من الاختلاط دخيل فى الشعوب العربية قد انتقل إليها من نظم التعليم فى أمم الغرب.

ويكاد الباحثون من العرب يجمعون على أنه لا خوف مطلقاً من اختلاط الجنسين فى المرحلة الأولى من التعليم، بل لا خوف أن يمتد هذا الاختلاط إلى بعض سنى المرحلة الإعدادية ما دام الأطفال دون الثالثة عشرة، أى قبل أن يبلغوا سن المراهقة وتبدو لديهم مظاهر الغريزة الجنسية بل يكادون يجمعون على أن للاختلاط فى هذه المرحلة آثاره الطيبة فى حياة الجنسين وائتلافهم ومحو النظرة الجنسية من نفوسهم

ولكنهم يختلفون فى نظرتهم إلى الاختلاط فى مرحلة التعليم الجامعى:

فبعضهم يرى أنه ضرورة من ضرورات الحياة الجديدة، وأن من شأنه أن ينمى من شخصية الفتاة ويشعرها بذاتيتها وكرامتها، ويزيد من تجاربها، ويغير من نظرتها إلى الجنس الآخر، كما أن من شأنه أن يكسب الفتيان شيئاً غير قليل من الحذر والحيطة والصقل والوداعة فى أخلاقهم وسلوكهم ومظاهرهم وحديثهم. ويذهب هذا الفريق إلى أن العثرات والانحرافات التى تحدث بسبب هذا الاختلاط هى من الندرة والتفاهة بحيث لا تستحق أن تثير فى نفوسنا أقل قلق، كما يدل على ذلك سجل الحوادث والعقوبات فى كثير من الكليات.

ويذهب الفريق الآخر إلى أن هذا الاختلاط قد أدى إلى أضرار خلقية بالغة، وأخذ يتهدد البيت العربى الإسلامى ويتهدد تقاليده ومقدساته بشر مستطير، وأن ما يصل من عثرات هذا الاختلاط ومخالفاته وانحرافاته إلى علم العمداء ورؤساء الأقسام وما يدون منها فى سجل الحوادث لا يعد شيئاً مذكوراً بالقياس إلى ما يحدث بالفعل ولا يصل شىء من أخباره إلى علم الرؤساء ولا إلى أوراق الملفات. بل إن ما يصل منها إلى علم الرؤساء وأوراق الملفات يتمثل معظمه فى أمور ملفقة كيدية يقصد بها إلى النكاية بالأبرياء لإشباع الأحقاد أو تحقيق

بعض المآرب . وإن نظرة إلى مظاهر التبرج والخلاعة والابتذال والميوعة التى تحيط بهذا الاختلاط لكافية فى الدلالة على مدى مخالفته لتعاليم الإسلام ومبلغ ما يكمن وراءه من شرور .

وكلا الفريقين قد حصر انتباهه فى الاختلاط بمعناه الحسى الجسمى ، وفيما يترتب عليه من نتائج من النواحى الجنسية والخلقية . وهذه ناحية تستأهل البحث بدون شك . وما يقوله الفريق الثانى بشأنها خليق بأن يستوقف نظر المشرفين على سياسة التربية الجامعية .

ولكن ثمة وجها آخر للموضوع أهم كثيراً وأجدر بالبحث ، وهو المتعلق بالاختلاط فى مناهج التربية والتعليم وفيما يترتب على ذلك من النواحى العقلية ونواحى الإعداد للحياة . فإذا كان من المقرر أن كلا الجنسين يختلف عن الآخر فى استعداداته الفطرية وقواه الجسمية والنفسية واتجاهات إدراكه ووجدانه ونزوعه ، وفى وظائفه الأساسية فى الحياة ، أفلا يكون من خطل الرأى أن نغض الطرف عما بينهما من هذه الفروق ، ونوحد منهجهما فى التربية والتعليم ، ونجمعهما فى معاهد واحدة يؤخذان فيها بطرق وأساليب متحدة ، ويعدان لمستقبل واحد؟!

هذه هى أهم مشكلة فى الموضوع . وقد أخذت الآن تشغل أذهان العلماء والباحثين والساسة فى شعوب أوربا وأمريكا ، وأخذت هذه الشعوب تقيم لها أكبر وزن فى الوقت الحاضر ، وأخذ كثير منها يصلح ما أفسده الاتجاه الأحمق نحو المساواة المطلقة بين الجنسين ، فأنشأ كليات خاصة للبنات يتلقين فيها مناهج تلائم طباعهن ووظائفهن فى الحياة ، وبطرق تتفق مع إدراكهن وما زودن به من استعداد .

وإذا كان للاختلاط بمعناه الحسى فوائد فى حياة الجنسين كما يذهب المتعصبون له ، فإن ثمة مواطن أخرى كثيرة غير معاهد التعليم يمكن أن يتحقق فيها هذا الاختلاط ويؤتى ما ينتظرونه منه من ثمرات . وفى ميادين الحياة العامة وحياة الأسرة متسع كبير لذلك

ولكن عيبنا أننا نقلد الغرب تقليداً أعمى فى كل شىء ، حتى فى الأمور التى يقوم الدليل العلمى القاطع على فسادها والتى يظهر للغرب نفسه خطؤه فى السير عليها ، ويحاول أن يهدئ من اندفاعه فى سبيلها

ويسعدنا أن نسجل أن مصر ، بعد أن قطعت فى سبيل الاختلاط الجامعى شوطاً كبيراً . قد فطنت الآن لهذه الحقائق وأخذت تتدارك بعض أخطائها ، فأنشأت كليات خاصة للبنات ملحقة بجامعة عين شمس وبجامعة الأزهر ، وإن كانت المناهج فى هذه الكليات الخاصة لاتكاد تختلف فى معظم نواحيها عن نظائرها فى الكليات الأخرى .

دكتور على عبد الواحد وافى

عناية الإسلام بالشباب

للدكتور محمد محمد أبو شهبة

الشباب هم محل عناية الأمم في حاضرها، وأملها المأمول في غدها، وعدتها وحصنها يوم يجد الجد، ويدعو داعي الجهاد، فيسارعون إلى تلبية النداء.

وعلى قدر إعداد الشباب وتربيته في كل أمة على قدر ما يكون مستقبلها، وتحقيق ما تصبو إليه من تقدم ورقي، ورفاهية ورخاء.

وقد شعرت الأمم في العصور الحديثة بأهمية الشباب، وإعدادهم إعداداً حسناً، وتوجيههم توجيها صالحاً حتى لقد أنشئت في معظم الدول وزارة تختص بشئون الشباب وهو اعتراف صريح بما للشباب من أثر فعال في تقدم الأمم أو تأخرها، وقوتها أو ضعفها، ورخائها أو فقرها، وشتان ما بين شباب قنع لا خير فيه، وشباب طموح إلى المجد ومعالي الأمور، لا يعرف الخنا والفجور، والميوعة والانحلال.

وقد عنى الإسلام بإعداد الشباب إعداداً دينيا وخلقيا ونفسيا ورياضيا كما عنى بغيرهم من الكبار وإذا كان أول من آمن من الرجال الصديق - رضي الله عنه - فأول من آمن من الصبيان أو الفتيان علي - رضي الله عنه - وكان يحضر مجلس النبي الكبار والصغار، وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - يحرصون على أن يحضروا أبناءهم مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم من صغرهم ليتلقوا عنه الإيمان والعلم والحكمة، ويتخلقوا بخلقه، ويتأدبوا بإرشاداته، وكان النبي يداعبهم ويلاطفهم، ويحاول ما استطاع أن يزيل أي حرج من نفوسهم، فهذا هو محمود بن الربيع وهو من أحداث الصحابة يقول: «عقلت من النبي صلى الله عليه وسلم مجة مجها في وجهي وأنا ابن خمس سنين». وكان الكثيرون من صغار الصحابة وشبابهم كالعبادلة الأربعة يحرصون على حضور مجلس الرسول مع الكبار من المهاجرين والأنصار، روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المسلم حدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسي أنها النخلة قال عبد الله فاستحييت فقالوا: يا رسول الله، أخبرنا بها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هي النخلة. قال عبد الله: فحدثت أبي بما وقع في نفسي فقال: لأن تكون قلتها أحب إلي من أن

يكون لى كذا وكذا ، ، وقد فسرتها رواية ابن حبان فى صحيحه : « أحب من أن يكون لى حمر النعم » ، وإنما استحيا لأنه كان أصغر القوم ولا سيما أنه كان بالمجلس الشيخان أبو بكر وعمر ولم يتكلما بالجواب .

وقد كان بعضهم كابن عباس يذهب إلى بيت خالته ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ويبيت عندها فيقتدى بالنبى فى وضوئه وصلاته وتهجده ، روى ذلك البخارى فى صحيحه ، وهكذا كان شباب الصحابة يحرصون على الاقتداء بالرسول فى قوله وفعله ، ويجدون فى التربية المحمدية الغذاء الروحى والنفسى .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلهب الحماس فى نفوس الشباب إلى حب الخير والاستزادة منه بما يلقيه عليهم من الهدى والوحى ، ويحيى فيهم التدين الصادق الأصيل والغيرة على الفضيلة والترفع عن الدنايا والأهواء والشهوات وقد وردت عنه صلى الله عليه وسلم لفتات كريمة فى ثنايا حديثه فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، الحديث .. فقد أشاد بمنزلة الشاب الذى نشأ وترعرع فى أحضان التدين ، وجعله فى المنزلة بعد الإمام العادل ، وفى الحديث الآخر « يعجب ربك من شاب ليست له صبوة » يعنى ميلا إلى الأهواء والانحرافات التى يقع فيها كثير من الشباب وفى الحديث الثالث أن الله سبحانه يباهى ملائكته بعبده الشاب الصائم فيقول : « أيها الشاب المفنى شبابه ، التارك شهوته لأجلى أنت عندى كبعض ملائكتى » وإنه لتكريم عظيم للشباب الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان ، وانشرحت صدورهم للإسلام ، واستقامت جوارحهم على العمل به ، وتثقفت عقولهم بمعرفة أصوله وفروعه ، وليس هذا التكريم بكثير على الشباب ، والشباب ـ كما قال الرسول ـ شعبة من الجنون .

ومن توجيهات النبى صلى الله عليه وسلم السديدة للشباب وإرشادهم إلى ما يصرفون به أنفسهم عن الوقوع فى الآثام ما رواه البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة ـ مؤن النكاح ـ فليتزوج فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء أى عاصم له من الوقوع فى الآثام ، والانسياق فى تيار الشهوات .

وقد نبه النبى صلى الله عليه وسلم بالصوم على العبادات التى من شأنها وصل القلوب

بالله وملء الفراغ بالأعمال النافعة التي من شأنها صرف الشباب عن التفكير السيء، والسلوك المشين وفي معنى الصيام ملء الفراغ النفسي والزمني بقراءة القرآن والأحاديث النبوية، وقراءة النافع من الكتب أو الاشتغال بالرياضات المفيدة، لا ملء الفراغ باللهو والمجون، وقراءة القصص والروايات الماجنة والاستماع إلى الأفلام المثيرة للغرائز الحيوانية الكامنة في الإنسان، والمنبهة لبواعث الشر والجريمة في النفوس.

ولم تمنع حداثة سن الشباب رسول الله عليه وسلم من اتباع مشورتهم وتنفيذ رغباتهم الشريفة في الحروب حتى ولو كان ذلك على خلاف رأيه فقبيل غزوة أحد كان المسلمون على فريقين. فريق يرى المقام بالمدينة والدفاع عنها وكان يميل إلى هذا الرأي الرسول وكبار المهاجرين والأنصار وفريق يرى الخروج إلى المشركين خارج المدينة ولقائهم بمنازلتهم وكان يمثل هذا الرأي غالب الشباب من الذين لم يحضروا بدرا والذين حضروها وتشوقوا إلى النصر في غيرها وقد رجح النبي صلى الله عليه وسلم آخر هذا الرأي، ودخل بيته فلبس درعه وبيضته وتقلد سيفه وخرج متهيئا للقتال حتى لقد خشي الذين كان رأيهم الخروج للقتال أن يكونوا قد استكرهوا النبي صلى الله عليه وسلم على الخروج فقالوا: «ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك فاصنع ما بدالك، وما كان لنا أن نستكرهك، والأمر إلى الله ثم إليك».

وهو أدب عال من أدب صحابة رسول الله الذين ضرب الله بهم الأمثال في التوراة والإنجيل وأشاد بفضلهم في القرآن يدل على أنهم ما أرادوا إلا الخير وحب الجهاد والاستشهاد في سبيل الله لا الانتصار للفكرة ولا الاستبداد بالرأي وكان جواب النبي صلى الله وسلم لهم أن قال: «ما كان لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه».

وبذلك طيب خاطرهم وأزال الحرج من نفوسهم.

كذلك لم تمنع حداثة السن عند الشباب الرسول صلى الله عليه وسلم من أن يكل إليهم بعض مهام الأمور وأخطرها ليتعلموا كيف يتحملون المسئولية، ويضطلعون بشئون القيادة والرياسة حتى ولو اعترض على ذلك بعض المعترضين فقد حدث الثقات من الرواة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بعد عودته من حجة الوداع بتجهيز جيش عرم إلى بلاد الشام كي يرهب أعداء الإسلام من أن ينتقصوا أرضه من أطرافها وأمر على هذا الجيش أسامة بن زيد بن حارثة مولاه، وكان في الجيش كبار المهاجرين والأنصار من أمثال الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وكان أسامة يومئذ شابا حدثا لا يكاد يعدو العشرين عاما

وقد فتح النبي - وهو المشرع الذى لا يصدر فى تصرفاته عن هوى - بهذا العمل الجليل الآفاق الواسعة أمام الشباب الصالح لمهام القيادة والرياسة ، وأنهم قد يكون عند بعضهم من الاستعداد الدينى والخلقى والنفسى والعقلى ما يجعله أهلا للتوجيه والقيادة حتى ولو وجد غيره من الكبار يغنى غناءه ، ويسد مسده .

وقد سار الصديق رضى الله عنه على منهج الرسول الكريم فى تكريم الشباب الصالحين الطامحين فكان أول عمل قام به أن أنفذ جيش أسامه لغزو الروم وأبى الصديق أن يستمع إلى مشورة من أشاروا بعدم إرسال الجيش فى هذه الظروف ، كما أبى أن يستمع إلى اعتراض بعض الصحابة الذين أشاروا عليه أيضا بتعيين قائد أسن من أسامه وأكثر منه حنكة ودربة فى الحروب ، وبالغ الصديق فى تكريم القائد الشاب فخرج يودعه ماشيا على قدميه وأسامة راكب فرسه فقال له أسامه: يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن ، فقال الصديق : والله لانزلت ولا أركب ! ! وما على أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله ثم يبالغ فى تكريم القائد الشاب فيطلب منه أن يعفى الفاروق عمر بن الخطاب من الذهاب معه فى الجيش ليبقى فى المدينة وزير صدق له .

وبذلك ضرب الصديق رضى الله عنه أروع الأمثال للمساواة فى الإسلام وأن لا تفاضل بالأنساب والألوان وإنما التفاضل بالتقوى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

كما ضرب أسمى ألوان العدالة والنزاهة ، والحزم والعزم ، والسياسة والكياسة وقد عرف الفاروق - رضى الله عنه - لبعض الشباب المؤمنين العاقلين العالمين منزلتهم فكان يدنيهم منه ويستشيرهم ويجعلهم فى منزلة كبار المهاجرين والأنصار ومن هؤلاء عبد الله ابن العباس رضى الله عنهما روى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس قال : « كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ - أى فى مثل سنه - فقال : إنه من حيث علمتم ،فدعاه ذات يوم فأدخله معهم فما رؤيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم قال ما تقولون فى قول الله تعالى « إذا جاء نصر الله والفتح » فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وسكت بعضهم فلم يقل شيئا فقال لى : أكذاك تقول يا ابن عباس . فقلت : لا . قال : فما تقول قلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له قال : « إذا جاء نصر الله والفتح » ، وذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ، فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول » .

وروى عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى

قال : قال المهاجرون لعمر : ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس فقال : « ذاكم فتى الكهول إن له لسانا سئولا ، وقلبا عقولا » .

وقد كان العباس عم النبي يعلم ذلك من عمر فقال له : « إن هذا الرجل يريد عمر - يدنيك فلا تفشين له سرا ، ولا تغتابن عنده أحدا ، ولا يسمع منك كذبا . ولا تبتدئه بشيء حتى يسألك عنه » وإنها لوصية كريمة من أب عاقل كريم .

لقد كان الشباب فى صدر الإســـلام ، وفى عصوره الأولى قلوبهم عامرة بالإيمان وعقولهم زاكية بالعلم : علم الدين والدنيا ، وأعمالهم وسلوكهم وفق الشريعة وأخلاقهم من أخلاق القرآن ، وأدب النبوة فلا عجب أن عزبهم الإسلام وأن حققوا خيرية هذه الأمة الإسلامية ، وأن كانوا مثلا صادقة للشباب المسلم المناضل المكافح ، وأن لم ينلهم الفراغ النفسى وتحصنوا ضد الانحرافات والأهواء المضلة ، والآراء الفاسدة .

وبعد : أدامت هذه الحال ؟ أم أصيب الشباب بالفراغ النفسى حتى أضحوا كالريشة المعلقة فى الهواء ؟ ذلك ما سأحدثك عنه فى المقال الآتى إن شاء الله ؟ .

الدكتور محمد محمد أبو شهبة

من عهد طاهر بن الحسين لابنه عبد الله

كتب طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما عهدا طويلا حكيما . ضمنه كثيرا من درر النصائح الغالية منها :

تفقد أمور الجند ، وأدرر عليهم أرزاقهم ، ووسع عليهم فى معايشهم ، ليذهب بذلك الله فاقتهم ، ويقوم لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً ، وأقم العدل فى القضاء والعمل تصلح الرعية ، وتأمن السبل ، وينتصف المظلوم ، واشتد فى أمر الله ، وتورع عن النطف (أى العيب والشر والفساد) وامض لإقامة الحدود ، وأقل العجلة ، وابعد من الضجر والقلق ، واقنع بالقسم ، ولتسكن ريحك ، ويقر حدك ، وانتفع بتجربتك ، وانتبه فى صمتك ، واسدد فى منطقك ، وأنصف الخصم ، وقف عند الشبهة ، وأبلغ فى الحجة ، ولا يأخذك فى أحد من الرعية محاباة ولا محاماة ولا لوم لائم ، وتثبت وتأن وراقب ، وانظر وتدبر ، وتفكر واعتبر .

نفحات القرآن

البذل في سبيل الله بيع رابح

للأستاذ عبد اللطيف السبكي

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » .

مر أعرابى مسلم على النبى صلى الله عليه وسلم - والنبى يتلو قول الله تعالى « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة - الآية » .

فقال الأعرابى : هذا بيع مربح - رابح - والله لا نقيله ، ولا نستقيله .. أى لا نرضى برفضه علينا من جانب الله ، ولا نعرض عن التمسك به والحرص على إنفاذه من ناحيتنا ! !

ثم نشط الأعرابى من ساعته إلى الجهاد غازيا مع الجيش حيث كان .

وقد صدق الله أمنية الأعرابى ، فاستشهد فى جهاده كما أحب ، وذهب من أهل الجنة كما وعد الله .

فطن الإعرابى إلى أن فى هذه الآية عهدا من جانب الله لعباده المؤمنين : أن من بذل نفسه وماله ، أو بذل أحدهما فى مقاتلة أعداء الله فكأنه باع ذلك المبذول لله بثمن مضمون ، مربح ، تتعلق به الرغبة .

ومن نوازع الفطرة أن البائع دائما يطامح إلى عوض تطيب له نفسه غاية ما يمكن .

والله تعالى يمثل هذه التضحية من جانب عباده فى صورة المبادلات المالية التى يقترن فيها المثمن بثمنه .

ويسوق ذلك فى صيغة مؤكدة ، ويبادرنا فيها بذكر الشراء من جانبه ، ليشعرنا بأن الرغبة فى هذه المعاوضة من ناحيته هو - سبحانه -

فهو يتطلب من عبده أن يستجيب لرغبة علوية أبدية له ، ويطمئن عبده على استحقاقه للعوض ، دون امتنان عليه بما هو حق يستوجبه عند ربه كاملا غير منقوص .

وصورة هذا فيما يجرى بيننا أن يتقدم الراغب فى شىء ، ويبتدر صاحبه بقوله :

أنا اشتريت منك هذا بكذا . يتفاءل صاحب الشيء بالرغبة فيما عنده قبل أن يعرضه للبيع، وتهش نفسه لرواج سلعته وارتفاع ثمنها .

فكذلك العبد المؤمن : حينما يسمع هذا التعبير من كتاب ربه يطمئن إلى التقدم بتضحيته ، ثم يستحق الجزاء الذى وعد به .

وهذا أسلوب من أساليب المعاهدة بين الله وعباده . . . والله يوفى الجزاء بغير حساب .

وهل يكون عهد الله مجازفة : وهو القادر على كل شيء ؟ ؟

أو يكون تفضله على عبده بما يشاء من جزيل العطاء أمرا مريبا ؟ ومن أوفى بعهده من الله ؟

إن الله خلق الناس ، وهو مالكهم ، ومالك أموالهم التى منحهم إياها .

وهو مع ذلك يدعوهم إلى ترضيته ببذل ما منحهم ... ويعدهم حقا بحسن العوض على هذه الترضية ، حتى كأنهم متفضلون : لا مدينون لله . .

فأى إشادة فوق ذلك الثناء ؟ وما عسى أن يكون الجزاء بعد هذا ؟ .

هو الجنة . والجنة غاية الغايات للطامحين .

وكل نعمة ترمقها العين فى الدنيا ، أو تهفو إليها النفس فى الحياة ، أو يسبح وراءها الخيال فهى وميض من ملامح الجنة، وقبس من نفحها ، ورمز تذكارى لما هناك فى عالم الرضوان والخلود .

أليس يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » صدق رسول الله .

هذه الجنة : هى مصداق عهد الله الذى رضى البيع والشراء مع المجاهدين من عباده المؤمنين الذين نهضوا إلى دعوة الله ، ووقفوا فى مصاف جنوده ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون العدو ، أو يقتلهم العدو .

فإذا كانت لهم الغلبة فقد نكلوا بمن كان يتبجح لله ، ويناوئ دعوته ، ويتطاول على جبروت ربه القادر .

وإذا ما كانت عليهم الغلبة من العدو فهذا بلاء من الله لإيمان المؤمنين : ثم ذلك فى حقيقته تنبيه وإشعار للعدو بأن لله جنوداً من عباده يرخصون أرواحهم ، ودماءهم فى نصرة دين الله ، مؤثرين الموت على الحياة فى نصرة حق الله على باطل أعدائه ، وفى سبيل تعبيد الطريق أمام كلمة التوحيد ، ليمتد صداها فى الآفاق .

فهؤلاء المجاهدون أنصار لله على كلتا الحالتين : حياة ، أو موتا .

ومن أجل هذا كان انتقالهم عن الدنيا إلى حياة أخرى عند ربهم . لا إلى خمود وفناء كغير المجاهدين ... ولا إلى عذاب

وجحيم كاقتتال الكافرين «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون» .

ذلك مقام الشهداء عند ربهم ، وهو عهد سجله الله على نفسه : فى التوراة ، والإنجيل والفرقان ... وليس أحد أصدق حديثا من الله ... ولا أوفى بعهده من الله ! !

وهذا — هو قول الله تعالى : «فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم» ...

غير أن البذل فى الجهاد قد يشوبه رياء أو يخالطه تردد ، فيكون جهادا فى ظاهره ، دون حقيقته ولا يكون الباذل لنفسه ، أو ماله ، معدوداً فى حساب المجاهدين عند الله كأناس أخذهم الغرور بالشجاعة ، أو استبد بهم الرياء أو كان همهم إدراك الغنائم فحسب فلم يكن لهم من فضل الجهاد نصيب .

ولقد كان فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم رجل مغوار ، عرف بين الصحابة بالبطولة النادرة ، إذا نزل إلى ساحة الجهاد أزعج الأبطال ، وفتك بالكثيرين .

وحينما بلغ النبى ما بلغه عن شجاعة هذا المجاهد قال : إنه من أهل النار .

فزع الصحابة لهذا النبأ ، وأخذهم الأسف والعجب لهذه المفاجأة ، وظلوا فى ارتقاب لشأن صاحبهم هذا .

ثم وقعت غزوة ، واشترك فيها البطل ، وأصيبت ذراعه ، وتدلت معلقة بجانبه ، فلم يطق ألمه ، وبادر بالتخلص من الحياة ، فغرس حربته فى الأرض على قبضتها ، وتحامل على شفرتها ببطنه فنفذت من ظهره ، ومات لساعته .

فكان أسف الصحابة ثانياً من قسوة لرجل على نفسه .

وذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه خبره ، فصاح الرسول فى نشطة ، وقال : (أشهد أنى رسول الله ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها .

وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)

ومن أول الحديث ظهر للصحابة أن صاحبهم كان مرائيا فى جهاده ، ولم يكن صادق الإيمان كما ظنوا ولو كان صادق النية ومحتسبا جهاده لله لصبر على بلائه ، كما صبر ويصبر غيره من المجاهدين .

وبسبب ذلك حبط عمله ، وصدقت نبوءة رسول الله فيه .

وعلى عكس هذا : من يكون بعيداً عن الطاعة ، ثم يزداد يقينه ويخلص فى عمله، فإنه يكون مقبولا ، ولو كان فى خاتمة المطاف من دنياه ، ولكل درجات مما عملوا ، .

لذلك بين الله لنا أن المجاهد الموعود بما سلف هو من كان متسما بسمات الإيمان الحق وهم المذكورون فى قوله تعالى : « التائبون العابدون — الحامدون — السائحون — الراكعون ـ الساجدون ـ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر — والحافظون لحدود الله ، ...

فحينما يكون المرء على هذه المناقب : من توبة مستمرة ، وعبادة خالصة ، وسياحة فى أفق العلم ، والتفكير فى صلته بربه وما بقى من المحامد المذكورة يكون جهاده ـ إن جاهد بنفسه وماله ـ جهادا حقاً ، ويكون هو المعنى بوعد الله على أكمل ما يتعلق أمله ...

ويزيدنا اطمئنانا إلى ما فهمنا : أن الله تعالى يختم هذه الآية كلها بتأكيد وعده ، ويجمل ثنائه فيقول : « وبشر المؤمنين » .

فماذا بقى من تأكيد وعـــد الله أكثر من ذلك .

وماذا بقى من ترغيب فى عطاء الله فوق ماحفلت به آية البيع المربح كما قال الأعرابى ؟

وبعـــد :

فقد تبين لنا أن سبيل الله فى هذه الآية هو خصوص القتال دفاعا عن الدين ، وكفا لأعداء الإسلام عن مقاومة الدعوة إلى الله ، وذلك هو قول الله « يقاتلون فى سبيل الله » ولكن كلمة ـ سبيل الله ـ تذكر فى القرآن وعلى لسان الرسول كثيرا .

فهل معناها قاصر على خصوص القتال دائما ؟؟

سبق إلى بعض الأذهان تخصيصها بالقتال حتى جعلوا هذا المعنى هو المراد فى كل مقام ، ومن ذلك صرف الزكاة فى سبيل الله ، أى فى الجهاد ، وما ذكر معه فى آية الصدقات من المصارف الأخرى كالفقراء ، والغارمين ، وابن السبيل . الخ .

واستشهدوا لذلك بما أثر لديهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى بيان هذا المصرف بأنه خصوص القتال ولكن تفسير سبيل الله عند جمهرة من العلماء يتسع لأكثر من هذا الحصر .

وإذا ترجح أن الزكاة الواجبة ـ خاصة ـ يجوز صرفها أو صرف بعضها فى الجهاد كبقية مصارفها المذكورة فى الآية ، فإن سبيل الله على لسان الشرع تصدق على كل عمل من أعمال الخير التى يرتضيها الدين ، ويصلح عليها شأن الأفراد والجماعة .

فإذا قرأنا مثلا « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة » كان

القصد أن المهاجر من بلد المعصية إلى بلاد متدينة والمهاجر فى تحصيل العلم ، والمهاجر فى طلب الرزق ، وفى نشر الثقافة النافعة ، أو بذل النفع لقوم آخرين : كل أولئك مجاهدون فى سبيل الله .

وإذا ذكر القرآن من مخازى الأحبار ، والرهبان أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ؛ فالقصد أنهم يمنعون الناس من إنفاق مالهم فى وجوه الخير عامة : لا خصوص القتال .

وإذا أنكر القرآن على الناس أن يكنزوا الذهب والفضة ولا ينفقوها فى سبيل الله كان القصد أنهم يبخلون بمالهم عن الزكاة ، وعن وجوه الخير عامة ؛ لاخصوص القتال .

وإذا أمرنا الله أن ننفق من أموالنا فى سبيل الله كان ذلك توجيها إلى كل ناحية من نواحى البر بالنفس ، وبالأهل ، وبالوطن وبكل ما يجلب نفعا أو يدفع ضررا .

وهذا هو سبيل الله - فى غير باب الصدقات الواجبة - على لسان الشريعة .

بل ذهب أكثر الفقهاء إلى أن سبيل الله فى باب الصدقات تشمل القتال وغيره على السواء . ولكننا نحتاط ، ولا ننفق الصدقات الواجبة إلا فى مصارفها المذكورة ونعتبر من بين المصارف خصوص القتال للكفار .

وقد أثر عن الصحابة كثير من العبارات يريدون فيها التعميم فى معنى سبيل الله ...

ومن ذلك أن أبا بكر رضى الله عنه حينما لدغته العقرب فى الغار يوم الهجرة - وكان يتحسس بيده على أرض الغار وقاية للرسول من الحشرات - كان يحمد الله على أنها لدغته هو ، ولم تلدغ النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان يقول راجزا فى خطاب إصبعه .

ما أنت إلا إصبع دميت
وفى سبيل الله ما لقيت

يريد أبو بكر أنها تضحية هينة فى سبيل وقاية النبى من أذى الحشرات .

وهذا تعميم تتسع له اللغة ، والشريعة .

فليكن عملنا للخير كله على أنه جهاد وبذل وبناء لمعالم المجد فى سبيل الله بمعناها الواسع ؟

عبد اللطيف السبكى

من أجمل ما قيل فى وصف السخاء قول زهير بن أبى سلمى :

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

المجتمع الاشتراكى فى ظل الإسلام

للأستاذ عبد الرحيم فوده

١١ — استغلال المال الحرام

ذكرنا فى المقال السابق الطرق المشروعة لاستغلال المال الحلال ، ورأينا من خلالها أنها كلها أو جلها يبدو فيها التعاون والتضامن بين العمل ورأس المال ، كما يلاحظ فى القراض والمزارعة والمساقاة وشركات الأسهم ، وما إليها من المشروعات الاقتصادية النافعة ، غير أنه يجب أن نذكر أن المال الذى يحق له ولصاحبه أن يسهم فى هذه المشروعات هو المال الحلال ، وهو الذى ينشأ من أصل صحيح وبوسائل صحيحة يعترف بها الإسلام ويقرها أساسا للتملك ، وهذه الوسائل فى جملتها ترجع إلى العمل ، فإنه السبب المباشر وغير المباشر فى الحصول على المال ، وعلى هذا يكون المال فى الأعم الأغلب عملا أو قيمة عمل يشترك مع عمل آخر فى الإنتاج ويتقاسمان الربح والخسارة بالنسبة التى ينعقد عليها الاتفاق ويتم بها التراضى بين صاحب العمل وصاحب رأس المال .. ومن ثم كان الربا حراما لأنه يجيء لصاحب المال قدراً من الربح المضمون المأمون يزيد به رخاؤه وثراؤه . ولا يحمله قدراً من الخسارة إذا أصيب المشروع بخسارة ، فإذا كان القرض بفائدة للاستهلاك لا للإنتاج كان الإثم أعظم ، لأن فيه - مع ذلك - استغلال الحاجة وانتهاز فرص الضائقات المالية التى تلم بالمعسرين لزيادة يسر الموسرين وعسر المعسرين ، وتلك وحشية لا تقرها إنسانية ، ولا تتفق مع ما يجب على الإنسان نحو أخيه الإنسان ، فإن عليه أن ينفس عنه كربه إذا نزل به كرب ، وأن يهون عليه خطبه إذا حل به خطب وأن يكون فى عونه ليكون الله فى عونه ، كما يفهم من قول النبى صلى الله عليه وسلم : (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه) .

١ — فالربا طريق من طرق استغلال

المال الحرام ، وهو - قليله وكثيره - مما نهى الله عنه وحذر منه ، وقد توعد الذين يصرون عليه بحرب لا قبل لهم باحتمالها ، فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » وقد بلغ اهتمام الإسلام بمحاربة هذا الاستغلال الحرام إلى حد لعنة كل من يشارك فيه حتى الغارم المحتاج إليه ، وحتى كاتبه وشاهده فقال صلى الله عليه وسلم : (لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه) وطبيعى أن يكون هذا موقف الإسلام من الربا ، لأن هذا النوع من الكسب الحرام يتجافى مع ما يدعو إليه من اشتراكية عادلة فاضلة تقوم على الزكاة ، وتجعل للفقراء حقا معلوما فى أموال الأغنياء ؛ فالربا زيادة يدفعها الفقير المعسر للغنى الموسر ، والزكاة زيادة يدفعها الغنى الموسر للفقير المعسر ، والفرق بينهما هو الفرق بين الرذيلة والفضيلة . والشر والخير ، بل هو الفرق بين مجتمع فاضل متكافل ومجتمع منحل مختل فإن الربا من العوامل التى تقسم المجتمع إلى طبقات يستغل بعضها بعضا ويستذل بعضها بعضا وكل ذلك وما إليه بعض ما يفهم من قوله تعالى: « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » وقوله سبحانه : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

٢ — والرشوة كذلك من طرق الاستغلال الحرام ؛ لأنها طريق إلى أكل أموال الناس أو المجتمع بالباطل ، ثم هى السبيل إلى شراء الذمم . وفساد الضمائر وشيوع الفساد . وخراب الأخلاق .

وليس بعامر بنيان قوم
إذا أخلاقهم كانت خرابا

وكل من الراشى والمرتشى آثم ظالم . كما يفهم من قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لعن الله الراشى والمرتشى) فإنهما قد اشتركا فى الجرم والظلم ، وقد قيل فى تفسير قوله تعالى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » لا يأكل بعضكم مال بعض بالوجه الذى لم يبحه الله ولم يشرعه كالسرقة ، والغصب ، والغش ولا تلقوا أمرها والحكم فيها إلى الحكام لتأكلوا عن طريق التحاكم إليهم بعض أموال الناس بما يستوجب الإثم كشهادة الزور وكاليمين الكاذبة وكالصلح أمامهم مع العلم بما ينطوى عليه من ظلم ، وفسر كذلك قوله تعالى :

« وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم » على معنى لا تلقوا بأموالكم إلى حكام السوء لرشوتهم وشراء ذممهم وضمائرهم لتصلوا عن طريق ذلك إلى أكل أموال الناس بالإثم .

٣ — ومن طريق الاستغلال الحرام الاحتكار، وقد أجملنا الحديث عنه فى المقال السابق ، وقلنا إن على الدولة أو ولى الأمر أن يتدخل لمنع الاحتكار والتلاعب بالأسعار تطبيقا لقاعدة لا ضرر ولا ضرار . وتحقيقا لمصلحة المجموع التى تقدم على مصلحة الأفراد ، وسواء كان الاحتكار من أفراد أو شركات فإن على الدولة أن تضع يدها على المواد المحتكرة لتخرجها إلى الناس بسعرها المناسب أو تتولى الإشراف على إنتاجها أو استيرادها لتيسر للناس ما تعسر عليهم فى ظل الاحتكار الآثم الظالم ، ولا عبرة بما قيل أو يقال فى المواد التى يحرم احتكارها هل هى الأطعمة دون غيرها أو هى الأطعمة وغيرها من السلع الضرورية اللازمة كالأدوية والأكسية ، فإن باب المصالح المرسلة واسع يفسح لولى الأمر أن يتدخل لمنع الضرر أيا كان شأنه ولونه وتحقيق المصلحة متى تحقق أنها مصلحة عامة ، صحيح أنه يجوز احتكار ما لا يضر الناس كأدوات الزينة وما إليها ولكن احتكار الضروريات وكل ما يحتاج إليه الناس ليرتفع سعرها مما يدخل فى مفهوم قول النبى صلى الله عليه وسلم : (من احتكر فهو خاطىء) وقوله عليه السلام : (يحشر الحاكرون وقتلة الأنفس فى درجة واحدة ، ومن دخل فى شىء من سعر المسلمين يغليه عليهم كان حقا على الله تعالى أن يعذبهم فى النار) .

٤ — أما الغش فى المعاملة فهو أسوأ أنواع الاستغلال ، والمستغل عن طريق الغش يدخل فى عداد اللصوص وفاقدى الشعور والضمير ، بل هو ممن برىء منهم النبى صلى الله عليه وسلم كما يفهم من قوله : (من غش فليس منا) والغش كما يكون من البائع فى السلعة يكون من المشترى فى الثمن « فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » كما يقول عليه الصلاة والسلام .

ويدخل فى معنى الغش أو يلحق به النجش وهو أن يتظاهر إنسان بالرغبة فى شراء السلعة المعروضة للبيع . ويعرض لها ثمنا أكثر من قيمتها ليغرى آخر بشرائها ودفع ثمن أكثر أو أكبر من ثمنها الطبيعى العادل ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (لا تناجشوا) فالكسب من هذا الطريق حرام يدخل فى معنى أكل أموال الناس بالباطل ، وقد احتكم خصمان إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال لهما قبل أن يحكم بينهما : (إنما أنا بشر ،

وأنتم تختصمون إلى ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذن منه شيئا فإن ما أقضى له قطعة من نار . فبكيا . وقال كل واحد منهما حقى لصاحبي . فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم اذهبا فتوخيا . ثم استهما . ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه) وقد أنكر الله على الذين يكنزون الذهب والفضة أنهم لا ينفقونها فى سبيل الله ، وأخبر أنهم سيعذبون بسبب ذلك عذابا أليما : « يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، ويقال لهم : « هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » فكيف بمن يحتالون على أكل أموال الناس ؟

إنهم كما يقول الله « إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » .

٥ ـ والتجارة فى الحرام من سوء استغلال المال كالتجارة فى الخمر . والخنازير . والمخدرات وكل ما حرمه الله ـ لقد أحل الله لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث ـ ففسر الطيب بالحلال والخبيث بالحرام ـ وبذلك يكون كل كسب حرام خبيثا . وكل كسب حلال طيبا ، وصدق الله إذ يقول : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » .

وصدق الشاعر الحكيم إذ يقول :

ينفع الطيب القليل من الرز
ق ولا ينفع الكثير الخبيث

عبد الرحيم فوده

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » .

قرآن كريم

« ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم »

زهير بن أبى سلمى

إلى أي مدى تتغير الأحكام الشرعية بتغير الأزمان؟

للأستاذ بدر عبد الباسط

مما لا شك فيه أن بعض الأحكام الشرعية تغيرت بتغير الأزمان والأحوال ؛ وذلك واضح فى الأحكام المبنية على العرف ، فإنها تختلف باختلاف العرف فى كل زمان ومكان ، والمطلوب هو بيان الحدود التى ينبغى أن تراعى عند الفتيا أو عند وضع تشريع يلزم الأمة العمل به أو عند القضاء بين المتخاصمين حتى لا تكون الأحكام الشرعية تابعة للأهواء والنزوات .

وقبل الدخول فى صميم الموضوع ينبغى أن نعلم أن الأهواء مختلفة ومقاييس العقول متباينة ، وليست هناك معايير ثابتة للحسن والقبح الموجبين للثواب والعقاب فلا بد إذن من مشرع منزه عن الأهواء والأغراض التى تحسن القبيح وتقبح الحسن ؛ وليس ذلك المشرع إلا الله سبحانه ـ ولو تركنا أمر تغيير الأحكام لعوامل الزمن من غير أن تكون هناك حدود ومعالم ينتهى إليها المفتون والقضاة والواضعون للتشريعات لكان الدين تبعاً للهوى يتلاعب به المغرضون ولزالت من النفوس قداسة التشريع الإلهى .

ولبيان هذه الحدود والمعالم لا بد أن تقسم الأحكام الشرعية التى جاء بها الإسلام إلى أحكام عقائدية وأخرى عملية .

فأما الأحكام العقائدية فليست محلا للتطور والتغيير ؟ كما أنها ليست محلا لاختلاف الآراء ؛ وإذا كان فى علم الكلام ـ وهو الذى يبحث عن العقائد ـ مسائل خلافية فليست من صلب العقيدة ؛ ولا يكفر فيها من أخذ بأى رأى متى كان لوجهة نظره حجة يعتمد عليها مهما يكن ولو كانت ضعيفة ؛ ولكن يخطأ رأيه بالحجة والبرهان .

وأما الأحكام العملية سواء كانت راجعة إلى العبادات أو المعاملات أو العادات فليست كلها قابلة للتطور والتغيير بتغير الأزمان والأحوال كما أنها ليست كلها ثابتة على مر الدهور ؛ ولابد من النظر إلى الدليل الذى استنبطت منه ؛ فالأحكام التى اعتمدت على دليل قطعى فى ثبوته كالقرآن والأحاديث المتواترة والإجماع الذى توفرت شروطه ونقل إلينا تواترا ، وقطعى فى دلالته على معناه بمعنى أن النص لا يحتمل إلا هذا المعنى

الواحد ؛ الأحكام التى اعتمدت على هذا الدليل أحكام ثابتـــة لا تقبل التغيير ولا التبديل مهما تعاقبت الأزمان وتغيرت الأحوال كقوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » ، وكقوله جل شأنه : « وأحل الله البيع وحرم الربا » فهذه الآية قائمة فى حل البيع وحرمة الربا ؛ ولكن ماهى البيوع التى أحلها الله وما هو الربا الذى حرمه الله فهذا مجمل تكفلت السنة ببيانه بما أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم من حق البيان ، ومثل ذلك ما أجمع عليه علماء الإسلام من أحكام كحرمة زواج المسلمة بغير المسلم وإن كان كتابيا وكتوريث الجد والجدة عند عدم الأب والأم إلى كثير من الأحكام التى أجمع عليها ونقل إلينا هذا الإجماع نقلا متواتراً .

وأما الأحكام التى استمدت من أدلة ظنية سواء فى ثبوتها كالأحاديث التى رويت آحاداً وكالقياس فإنه ظنى فى حجيته ، أو كانت ظنية فى دلالتها كبعض آيات الأحكام ؛ فإن هذه الأحكام هى محل اختلاف أنظار العلماء منذ الصدر الأول إلى اليوم ؛ ولا حرج على مسلم أن يأخذ بأى رأى من الآراء ولكنى لا أسمى هذا الاختلاف تطورا أو تغيراً لاختلاف الزمن واختلاف الأحوال ولكنه اختلاف ناشىء من تفاوت الأفهام والأنظار ؛ وكل ما يمكن أن يرد من هذه الأحكام إلى سنة التطور هو الأخذ ببعض الآراء التى قد تكون ضعيفة من حيث الدليل ولكن فيها تيسيراً على الناس أو أقرب إلى ما ألفوه ، على ألا يكون رأياً ساقطا لا اعتبار له فى نظر الشرع ؛ أو أن يكون فى الأخذ به إبطال لقاعدة شرعية مقررة ، وقد اتجه التشريع أخيراً إلى الأخذ بهذا المبدأ فى كثير من الأحكام . وعدم التقيد بآراء الأئمة الأربعة الذين التزم أكثر المسلمين منذ أعصار طويلة التقيد بآرائهم ، وذلك كعدم وقوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد وعدم وقوع الطلاق المعلق الذى أجرى مجرى اليمين ، كما ترك المذهب الحنفى الذى كان ملتزما العمل به فى القضاء أمداً طويلا فى مسائل كثيرة كالتطليق للإعسار والتطليق للإضرار إلى غير ذلك .

هذا ومن النصوص التى قد تخضع لقانون التطور تلك النصوص التى تدل على أحكام معللة بعلة منصوصة وجاء زمن لم توجد فيه هذه العلة فإن هذا الحكم لا يطبق فى ذلك الزمن حتى توجد العلة وذلك كآية مصارف الزكاة وهى قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » .

فإن هذه الآية علقت إعطاء الصدقات على وصف الفقر والمسكنة والعمل على جمع الزكاة وتأليف القلوب وفك الرقاب والغرم إلخ ، فإذا وجد وقت لم توجد فيه بعض هذه العلل لا يطبق هذا النص فى هذا الزمن ؛ إذ المقرر عند الأصوليين أن الحكم المتعلق بمشتق يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق ، وهو المصدر ؛ وقد سبق عمر رضى الله عنه إلى تطبيق هذا الأصل حينما منع المؤلفة قلوبهم من أخذ شئ من أموال الصدقات ؛ فإنه رضى الله عنه لم يعطل هذا النص برأيه وهواه بل طبقه أحسن تطبيق ، فإن علة التأليف لم تكن موجودة يومئذ ، فإن الدولة التى كانت تضرب كسرى وقيصر ـ وهما يومئذ سيدا عصرهما ـ لم تكن فى حاجة إلى تأليف أمثال الزبرقان بن بدر والأقرع بن حابس وأضرابهما ؛ وليس هذا تعطيلا للنص بالاجتهاد ولكنه تطبيق النص بمفهومه ودلالته ؛ ومثل هذا يقال فى زماننا بعدم دفع الزكاة إلى العاملين عليها ولا فى فك الرقاب لعدم وجود هذين المصرفين ؛ ولو عادت الحاجة إلى التأليف أو وجد العاملون على الصدقات أو وجدت الرقاب لعاد استحقاقهم فى الصدقات .

ومن النصوص التى تخضع لسنة التطور ولا حرج على المسلمين أن يراعوا فيها ظروف بيئتهم ومتطلبات زمانهم تلك النصوص التى وردت عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه بوصفه إماما لهذه الأمة وحاكما يرعى مصالحها ولم ترد عنه بوصفه رسولا ومبلغا عن ربه وذلك كتنظيم الجيوش واختيار الولاة واستقبال الوفود وعقد المعاهدات وتوزيع الجوائز على من أدى للدولة خدمة وإنشاء الوظائف التى تحتاج إليها الدولة ؛ فهذه الأحكام قابلة للتطور بما يتفق مع صالح الأمة فى كل عصر ومكان ؛ على أنه ينبغى الاحتياط كل الاحتياط فى التفرقة بين ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم بوصفه رسولا وما ورد عنه بوصف آخر غير الرسالة والتبليغ والقرائن والملابسات هى الفيصل بين هذين النوعين من الأخبار والآثار ؛ وشتان بين أن ينهى الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن أمر مما تقع فيه العامة ؛ وبين أن يضع خطة حربية أو يقابل وفداً على هيئة خاصة أو يعقد مع قوم عهداً خاصاً .

وأما الأحكام التى مردها إلى القياس فهى ـ كذلك ـ مجال اختلاف العلماء على مدى العصور ؛ بل منهم من منع القياس ورده ، وأياما كان ، فالذى أدين الله عليه أن القياس ـ متى تحققت شروطه ـ باب واسع من أبواب معرفة الأحكام الشرعية ؛ ولا أسمى اختلاف

العلماء فيه تطوراً فى التشريع بالمعنى الذى يتبادر إلى الأذهان ، ولكنى أسميه اختلاف نظر فى معرفة علة الحكم ؛ ويسع كل مسلم أن يأخذ من هذه الأحكام ما يتفق وظروفه ومتطلبات حياته .

ومما يمكن رده إلى القياس وهو قابل للتطور تطبيق بعض الحوادث والنوازل على قواعد شرعية ثم يتبين أن هذا التطبيق خطأ فى عصر دون عصر وذلك كقاعدة لا ضرر ولا ضرار فإن الفقهاء الأقدمين طبقوها على مسائل كثيرة فأفتوا بحرمتها أو كراهيتها ، ثم قامت الشواهد على أنه لا ضرر يعتد به أولا ضرر أصلا فينبغى أن ألا يقال بالحظر أو الكراهية وذلك كرأى بعض الفقهاء فى التوضؤ أو الاغتسال بالماء المشمس وقد ثبت الآن أن الطاقة الشمسية يمكن أن تستغل فى غلى الماء أو طهى الطعام من غير أن يكون هناك ضرر على الصحة وكرأى بعض الفقهاء فى تصرف الملاك فى ملكهم وما قد يصيب الغير من أضرار فأجازوا بعض التصرفات بحجة أنه تصرف فى خالص الملك وأنه لا ضرر يذكر يعود على الغير ومنعوا بعض التصرفات بحجة أنها ضارة بالغير ، فمثل هذه الأحكام قابلة للنظر وينبغى أن تخضع لناموس التطور فما غلب خيره على شره فهو جائز وما غلب شره على خيره فهو محظور ؛ والذى يقدر هذا قوم ذوو خبرة وأمانة يطمئن إليهم ولى الأمر ؛ وهو مسئول أمام الله عن اختيارهم وهم مسئولون أمام الله عن حسن نصيحتهم الأمة ؛ فإن ظهر عليهم أو على بعضهم انحراف أو تحكيم الهوى فعلى ولى الأمر أن يعزلهم ويستبدل بهم قوما غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم .

وأوسع الأحكام الشرعية قبولا لسنة التطور هى الأحكام المبنية على العرف أو المصالح المرسلة ؛ وتفصيل ذلك يحتاج إلى مقال آخر ؛ والله نسأل أن يكون هوانا تبعا لديننا وألا يكون ديننا تبعاً لهوانا والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ؟

بدر المتولى عبد الباسط
الأستاذ المساعد للفقه المقارن
بكلية الشريعة

« من وصية عبد الله بن الحسن لابنه »

كف الأذى ، وارفض البذا ، واستغن عن الكلام بطول الفكر ، فى المواطن التى تدعوك فيها نفسك إلى الكلام .

من روافد الثقافة الإسلامية :

رسالة الأصول للإمام الشافعي رضي الله عنه

للأستاذ الفاضل بن عاشور

« تتمة البحث »

بدأ محاور الإمام الشافعي يستكشفه من الأصول المختلف فيها بين الشافعي ، وبين غيره من أئمة المذاهب الفقهية ، فبحث عن ثلاثة من الأصول المختلف فيها هي : الاستحسان ، وعمل أهل المدينة ، وقول الصحابي . أما الاستحسان وقول الصحابي ، فهما من أدلة المذهب الحنفي ، وأما عمل أهل المدينة ، فهو من أدلة المذهب المالكي . وقد أفصح الشافعي بأنه لا يرى حجية واحد من هذه الثلاثة ، وأنه إذا كان يرى الاجتهاد ، ويرى حجية القياس ، فإنه إنما يحصر ذلك في الرجوع إلى أصل مسموع يجتهد المجتهد في القياس عليه ، بالشروط المقررة لذلك . وأخذ يورد مثلا من الأقيسة ليرى أن ما تأتى للمجتهد فيها من الرجوع إلى أصل يقيس عليه ، لم يتأت له في الاستحسان : قياساً على غير أصل . ويرد الشافعي على حجية قول الصحابي بأن حجيته ليست في ذاته وإنما نأخذ به إما لموافقته الكتاب أو السنة أو الإجماع وإما لكوننا نرجح ما بنى عليه قول الصحابي من القياس جاعلا مستنده في ذلك اطراد وجود مخالف من أقوال الصحابة لكل ما أخذ به الفقهاء من قول واحد منهم . فالحجية حينئذ فيما عضده ورجحه لا في ذاته . وفي الرد على حجية عمل أهل المدينة يسلك الشافعي مسلك إلزام محاوره بأن مالكا يريد أن يجعل عمل أهل المدينة آيلا إلى الإجماع مع أنه لا إجماع في ما يحكيه في ذلك بقوله « الأمر عندنا ، والأمر المجتمع عليه عندنا » لأن في كل ذلك مخالفين حتى من فقهاء المدينة . وهو يعبر عن مالك في هذا الحوار بقوله «صاحبنا» وهو حين يطرد في مخالفته الأئمة في تلك الأدلة يعود به محاوره إلى الاختلاف هل يجوز بين الفقهاء ؟ فيجيب بأنه جائز في غير المنصوص البين وهو يرد أمثالا كثيرة من الاختلاف القديم ، في عصر الصحابة وعصر التابعين

ومناقشته من الأمور النظرية ، وينتهى إلى أن تعدد الأصول واختلافها من طبيعته أن يحدث اختلاف الأقوال فى الأحكام .

إن ما سبق عرضه وتعليله ، من رسالة الإمام الشافعى ، فى أصل الفقه ، ليوضح أن أسلوب هذه الرسالة قد اختلف : بين بيان مبتدأ منسق ، فى غير حوار ولا جدال ، وبين نقاش مبنى على البحث والاستكشاف د ئر على السؤال والجواب بقصد الاحتجاج للأنظار ، والبرهان على المذاهب ، وفى ذلك الأسلوب المختلف ، ما يوضح ظروف تحرير تلك الرسالة وتأليفها ، وما دخل عليها ، فى تحريرها وتأليفها : من أطوار .

فلقد كانت الرسالة ، على حسب ما كنا رجحناه ، محررة فى مكة ، فى سنة ١٩٧ لما عاد الشافعى إلى مكة قبل سفره إلى مصر ، وكانت موجهة إلى عبد الرحمن بن مهدى فى العراق ، جوابا لطلبه .

ولكن كثيرا من الذين ترجموا حياة الإمام الشافعى . وأثبتوا ذكر كتبه يعدون هذه الرسالة رسالتين : الرسالة القديمة والرسالة الجديدة ، وقد ذكر الإمام فخر الدين الرازى : فى كتاب مناقب الشافعى : « أن الشافعى ، رضى الله عنه ، صنف كتاب الرسالة قبل استقراره بمصر ، ثم أعاد تصنيفه فى مصر ، والذى وصل إلينا ، وهو اليوم بين أيدينا ، من الرسالة ، إنما هو تصنيفها المصرى ، لأن المرجع فيها إلى أصلين خطيين أحدهما أهم بكثير من الآخر . فأحد هذين الأصلين هو أصل الربيع بن سليمان . من القرن الثالث ، وثانيهما نسخة حديثة نسبيا ، من القرن التاسع ، ترجع إلى الأصل الأول أصل الربيع بن سليمان ، وأصل آخر بما روى عن الشافعى ، بمصر أيضا ، هو أصل حرملة بن يحيى التجيبى ، من أصحاب الشافعى فى القرن الثالث .

أما أصل الرسالة التى وجهها الشافعى إلى بغداد ، وتلقاها عبد الرحمن بن مهدى فلم يصل إلينا ، ومن هنا يتمهد لنا طريق البحث عن سر الاختلاف فى الأسلوب ، الذى وجدنا عليه نص الرسالة الذى بين أيدينا . فإذا كان الشافعى قد أعاد تصنيف الرسالة فى مصر . حيث تلقاها عنه صاحبه الربيع ابن سليمان ، وغيره ، فإن معنى ذلك أنه بعد ان كان أصدر رسالة إلى عبد الرحمن بن مهدى جاء مصر وقد تكون عنده مدارك وأنظار جديدة فيما يرجع إلى ما اشتملت الرسالة عليه ، فأقبل عليه أصحابه بمصر ، يجعلون الرسالة ، السابق صدورها عن إمامهم ، مطلبا علميا ، يحيطونه بالبحوث والأسئلة والاستكشافات فجاء بذلك ما عبر عنه بالتصنيف الجديد ، المصرى ، للرسالة ، فهو إعادة لما كان كتب

الشافعى إلى عبد الرحمن بن مهدى : إما بإملائه من ذكره ، حكاية المعانى لا للألفاظ ، وإما بإيراد نصه عن أصل مكتوب ، وذلك هو الجزء الأول من الرسالة التى عندنا الآن أعنى الجزء المسترسل المتماسك ، الذى يسير فيه البيان متسلسلا متتحما ، موحد الموضوع وإن تعددت العناصر ، وإن كان فقيدنا العزيز ، الأستاذ المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر ، يرجح أن تقرير الرسالة فى مصر ، إنما كان إملاء من ذكر ، لا استحضارا للكتاب ، ويستدل على ذلك بما ورد فى أثنائها ، عند سرد أحاديث وإسنادها من الاعتذار بأن بعض كتبه غائب عنه . فإننا لا نرى وجها للترجيح الذى أخذ به الشيخ شاكر ، رحمه الله ، ولا نرى فى ما استدل به ما يثبت مدعاه فى الترجيح ، لأن الكتب التى اعتذر الشافعى بغيابها عنه ، لا يتعين كونها كتاب الرسالة ، بل يترجح أنها كتبه الأولى : التى هى دواوين الأحاديث التى سمعها بدليل أنه لا يورد ذلك الاعتذار إلا فى مقام الرواية والإسناد .

وكيفما كان الأمر ، فإن أصحاب الشافعى الجدد الأخيرين ، وهم أصحابه بمصر ، وأولهم الربيع بن سليمان المرادى . قد تلقوا عن الشافعى ما كان كتب به الشافعى إلى عبد الرحمن بن مهدى من مكة ، قبل مقدمه مصر ، ولما أعاد الشافعى ذلك الكتاب ، استتبع إيراده إياه ، استحضار ما سمع أو توقع أو جاش فى نفسه ، من أوجه توقف موارده على ما تضمنته رسالته ، فطفق يبحث ذلك ويرده من قوله « فإن قال قائل » ، وبفتحه باب البحث فى رسالته ، والتعليق عليها ، انفتح باب البحث لأصحابه ، بما أثار من مباحث جديدة ، ومواضيع لم تطرق فى الرسالة من قبل هى المتعلقة بمحل الاختلاف بين الشافعى والمذاهب الأخرى ، مما جاء تحت عنوان « العلل فى الأحاديث » والعناوين التى تلته مثل « خبر الواحد » و « والاستحسان » و « أقاويل الصحابة » ، وذلك من مجموع سابقه ولاحقه ، هو الذى تلقاه الربيع ابن سليمان ، وغيره من أصحاب الشافعى المصريين ، وكتبوه عنه ، شاملا لما كان كتبه ، فى الرسالة الأولى إلى عبد الرحمن ابن مهدى ، وما تفرع عن ذلك وتبعه : من نظر وبحث ، ويزيد هذا التقدير رجحانا ، أن الأبواب التى ذكر الخطيب : فى تاريخ بغداد ، اشتمال رسالة الشافعى إلى عبد الرحمن ابن مهدى عليها ، هى الأبواب التى اشتمل عليها المقدار الذى فرضنا ذلك فيه . من نص الرسالة الذى بين أيدينا : وهى أبواب معانى القرآن ، وقبول الأخبار فيه ، وحجة الإجماع ، وبيان الناسخ والمنسوخ .

فيكون الجزء الأول من الرسالة ، وهو الذى ليس فيه بحث ولا سؤال ، رسالة عبد الرحمن بن مهدى ، والذى تلاه هو ما علق بها فى مصر من بحث وتوسع ، وكذلك جاءت تجزئة الكتاب فى نسخته العتيقة ، التى هى أم الأصلين المشار إليهما آنفا ، وهى نسخة الربيع بن سليمان . فإن من أثمن الذخائر ، فى تراثنا العربى الإسلامى ومن أهم الأصول الخطية وأنفسها بلا نزاع : ذلك المخطوط الذى كتب فى منتصف القرن الثالث ، من رسالة الإمام الشافعى ، بمصر برواية الربيع بن سليمان المرادى عن الشافعى ، وسواء أصح أن النسخة بخط الربيع نفسه كما يذهب إليه الشيخ أحمد شاكر أو لم يثبت ذلك ، فإن على النسخة سطرين بخط الربيع ، فى الأجازة بنسخها بتاريخ سنة ٢٦٥ وبذلك يظهر ما لهذه النسخة من القيمة العديمة النظير . بل لعلها تكون أقدم مخطوط لكتاب كامل باللغة العربية اليوم .

وقد خرجت هذه النسخة من مصر إلى الشام وأقامت فى الشام قرونا ثم رجعت إلى مصر فى القرن الماضى ، وهى الآن درة فى تاج دار الكتب المصرية . وتقع هذه النسخة فى ثلاثة أجزاء ينتهى ثالثها بإجازة الربيع بن سليمان بخطه ولذلك قلنا إن النسخة الأخرى وهى نسخة ابن جماعة ، لا تذكر إلى جنب هذه حتى تعادلها ، وإن كانت ذات قيمة بما عليها من إسماعات ومقابلات وبخطوط وإجازات الأعلام الذين تعاقبوا عليها . وقد طبعت الرسالة بمصر ثلاث مرات سابقة طبعات عادية ، ثم أعيد طبعها رابعة منذ خمسة وعشرين سنة بشرح وتحقيق العلامة الشيخ أحمد شاكر طيب الله ذكراه . فجاءت بحسن تحقيقه وإتقان تعليقه ، واعتماده مباشرة على أصل الأصول ، وهى نسخة الربيع . آية يصدق فيها قول المثل « أتى الوادى فطم على القرى » .

محمد الفاضل بن عاشور

قال تعالى : « يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما » .

(النساء ١٧٤ ، ١٧٥)

الناحية العلمية من إعجاز القرآن

للأستاذ أحمد محمد الغمراوي

إعجاز القرآن متعدد النواحي والجوانب. لكن أهم نواحيه فى عصرنا هذا لمن يريد أن يدعو به إلى دين الله هى الناحية العلمية.

أما الناحية البيانية فقد عملت عملها وحققت الغرض منها بإسلام العرب أهل الفصاحة والبيان الذين أنزل فيهم القرآن. فلما زالوا لم يقدر هذه الناحية قدرها إلا أهل البصر باللغة والبصيرة فى الدين، حتى إذا قل هؤلاء بتطاول الزمن وضعف الدين فى نفوس أهله ابتلى المسلمون بمن اغتر بفصاحة ابتلاه الله بها فأنكر حتى الثابت الواضح من الإعجاز البيانى، مثل ابراهيم النظام فى القديم الذى ابتدع القول بالصرفة، وبعض أهل الأدب فى الحديث الذين توفاهم الله إلى حسابه، فأصبحت الناحية البيانية من إعجاز القرآن على نظر حتى بين المشتغلين بالأدب من شباب المسلمين، فكيف بغيرهم من مثقفى الشباب الإسلامى الذين ابتلوا فى هذا العصر بدعوة الإلحاد تدعوهم إليه الشيوعية، وبالشبهات ينقلها إليهم من ترجم عن خبثاء المستشرقين طعونهم فى الدين، من أمثال (جلدتسيهر) و (مرجليوث) و (ماسينيون)، بعد أن كانت عقاربهم محبوسة فى لغاتهم الأصلية لا تدب ولا تصل إلى جمهرة الشباب الذى ليس له من التربية الإسلامية والتبصير بالدين وقاية تحميه.

أما غير المسلمين من غير العرب فلن تغنى الناحية البيانية من إعجاز القرآن شيئاً فى إقناعهم بأنه كتاب الله الذى عليهم قبوله والإيمان به لينجوا من عذاب الله، وليدخلوا فى رحمته. وناحية الإعجاز التشريعى أو النفسانى أو التاريخى لم تلق بعد من الاهتمام ما يجليها ويظهرها بحيث تصبح منها حجة لله على الناس. ولو جليت وظهرت فإن الإقناع بها أصعب وأعسر من الإقناع بالناحية العلمية من إعجاز القرآن إذا جليت وأظهرت فى عصر العلم هذا بما ينبغى لها من الحيطة والدقة فى البحث والاستدلال

والحيطة والدقة لازمان فى كل بحث، لكنهما فى البحوث القرآنية ألزم وأوجب.

فالقرآن كلام الله سبحانه ، خاطب الله فيه البشرية على لسان رسوله النبي الأمي . فضمير المتكلم فيه هو ضمير الجلالة ، وضمير المخاطب فيه هو ضمير الرسالة . وتجد الضميرين كليهما ماثلين في الآيات الأولى من أول سورة فيه بعد الفاتحة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الم . ذلك الكتاب لاريب فيه ، هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » .

آيات ست ذكر الله كتابه الكريم في ثالثتها بأوصاف ثلاثة أو بالأحرى بأوصاف أربعة بالسمو والرفعة في اسم الإشارة للبعيد ، وبأنه الكتاب لاكتاب غيره ، وبأنه لا يعلق به ريبة ولا موضع فيه للشك ، وبأنه هدى لمن يتق . ومن التقوى الإيمان بالغيب ومن الغيب ما أودع الله في كتابه في آياته الكونية من أسرار الخلق وحقائقه التي كان يجهلها الناس حين أنزل القرآن ، والتي كشف العلم الحديث عن بعضها فكان كل كشف منها معجزة علمية ودليلا لاشك فيه على أن القرآن من عند الله فاطر الفطرة وخالق الكون .

وكما استوى القرآن والفطرة في أنهما من عند الله فهما أيضا سواء في وجوب الحيطة والدقة في تفهمهما ، والبحث عن أسرارهما . وليس وراء دقة الطريقة العلمية وحيطة علمائها في دراسة الفطرة ، وراء . ومن حيطتهم أنهم لا يقبلون فرضا ولا حدسا لا يمكن اختباره عن طريق التجربة العلمية واختبار الفروض والآراء عن هذا الطريق إن هو إلا احتكام إلى الفطرة وسنن الله فيها لينظر هل يتفق الفرض والرأى معها أو يخالفها .

والفرض ينبذ ويرفض من باب أولى إذا ظهر من الأول أنه يناقض حقيقة ثابتة أو قانونا عاما في علم من العلوم المتعددة في ميدان العلم الحديث . فمن الثابت مثلا استحالة توليد حركة دائمة بأى اختراع يخترعه الإنسان . فلو تقدم باحث ببحث يزعم أنه توصل إلى طريقة لتوليد تلك الحركة لحكم ببطلان البحث من عنوانه ، ولرفض من غير نظر فيه ، فهل هناك يا ترى طريق لمثل هذه الحيطة في دراسة القرآن ، كتاب الله المنزل ، لاكتناه أسراره والتماس غرائبه وعجائبه التي لا تنقضى كما جاء في الأثر الصحيح ؟ .

إن أول الطريق - ولعله آخره أيضا - العمل ببديهية استحالة التناقض بين بعض آى القرآن وبعض ، أو بينها وبين اليقيني

الثابت من قضايا العلوم الكونية التى جرى العرف بتسميتها بالعلوم الطبيعية، هذه البديهية آتية من أن التناقض مستحيل على الله فاطر الكون ومنزل القرآن. فكل فهم فى القرآن أو تفسير يؤدى إلى تناقض بين آياته، أو بينها وبين شىء من الحقائق الثابتة فى العلم، فهو فهم خاطىء، وتفسير باطل. ومعرفة الباطل والخطأ نصف الطريق إلى معرفة الحق والصواب. وهى على أى حال تقينا شر قبول شىء من الباطل على أنه حق، وهو شر مستطير. لأن القضية الخاطئة التى نتقبلها على أنها صواب تفسد علينا كل الحقائق المتصلة بموضوع القضية والتى لابد أن تتناقض أو تتخالف معها، ثم هى تؤدى بنا حتما إلى نتائج فاسدة فى كل قياس تكون تلك القضية إحدى مقدمتيه. فشرها لا يقف عند إفساد ما يتصل بموضوعها من الحقائق بل يستشرى فيفسد من الحقائق الأخرى ما يمكن أن يدخل معها فى قياس. ثم يتفاقم الشر بنفس الصورة عن طريق كل نتيجة نشأت عنها وقبلت علينا على أنها صواب. من أجل ذلك حذرنا الله فى كتابه من اتباع الظن فإن الظن لا يغنى من الحق شيئا، ومن أن نقفو ما ليس لنا به علم، وتفضل سبحانه فأرشدنا إلى الطريق الذى يمكن أن نعلم به ما نجهل، طريق إحسان استعمال السمع والبصر والفؤاد «ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا».

وسؤاله سبحانه إيانا عن السمع والبصر والفؤاد يوجب علينا استعمالها جميعا، وإحسان استعمالها، وتجنب إهمال ما يؤدى إليه ذلك الإحسان من نتائج. وهو نفس الطريق الذى هدى الله إليه أهل العلم الحديث فى ميادينه المختلفة، فأظهر على أيديهم من أسرار الفطرة ما أظهر، ليبتلى الإنسانية بها كيف تستعملها وليعين أهل القرآن على إظهار جانب عظيم من جوانب إعجاز كتابه، بإحسان المطابقة بين ما أنزل فيه من آيات كونية، وبين ما يتصل بكل منها، أو بمجموعات منها من تلك الأسرار. وليس من تلك الأسرار ما فى العلم من نظريات لا تزال محل النظر والاختبار، فهذه لا ينبغى المطابقة بينها وبين ما يتصل بها من آيات القرآن، اللهم إلا للحكم عليها مقدما: أصحيحة هى أم باطلة، حسب ما يظهر البحث من موافقتها القرآن أو مخالفتها إياه.

لكن البحث القرآنى له أخطاره التى ينبغى توقيها. وأول تلك الأخطار الخطأ فيه ولو عن حسن نية واجتهاد. إن حسن النية يشفع للمجتهد عند الله فلا يؤاخذه بخطئه فى الآخرة بل يثيبه على نيته. ولو كان المجتهد يؤاخذ فى الآخرة بخطئه فى اجتهاده لوقف

الاجتهاد خوفا من عذاب الله ، ولظلت عجائب القرآن فى التشريع وغير التشريع مدفونة ، لا يعتبر بها أحد ولا ينتفع بها الناس لكن الخطأ معناه مخالفة حكم من أحكام الله أو سنة من سننه ، ولذلك عاقبته السيئة فى الدنيا قبل الآخرة . فالحياة الدنيا مبنية على سنن لا تتخلف ، وأحكام الله فى الدين الذى أنزل ، على نبيه الذى أرسل ، هى تطبيق محكم لتلك السنن التى فطر الله عليها الإنسان ، وفطر عليها الكون . فمخالفتها ولو عن حسن نية لا يمكن أن تؤدى إلا إلى الضرر ، سواء فى ذلك السنن النفسية فى الفرد والمجتمع ، أو السنن الكونية فيما حول الإنسان . وحادث تأبير النخل وحديث أنتم أعلم بأمور دنياكم ليس إخراجا لأمور الدنيا من الدين ولكنه تشريع من الله وتبيين أن على الناس فى أمور الدنيا ، من زرع وغير زرع ، العمل بسنن الله فى تلك الأمور كما تبينها وتكشف عنها التجربة . ولو شاء الله لصدق ظن نبيه ولجعل النخل يثمر من غير تلقيح . فهذا أوضح مثل للإخلاص فى الاجتهاد لا يدفع عاقبة الخطأ فيه .

هاتان عاقبتان للخطأ إذن توجبان بذل الوسع لتوقيه خصوصا فى البحث القرآنى لما للقرآن من قداسة : سوء العاقبة عمليا ، وفساد التفكير المترتب على اعتبار الخطأ صوابا كما سبق التنبيه إليه . ولابد من التماس قواعد تعين ما أمكن على الإصابة فى البحوث القرآنية ، وتوقى الخطأ فيما نحن بصدده من تحقيق الناحية العلمية من إعجاز القرآن .

وأول تلك القواعد - بعد بديهية بطلان كل فهم وتفسير يؤدى إلى التناقض بين بعض الآى وبعض أو بينه وبين الثابت من الحق - هى قاعدة تحرى المنطق الصارم فى الفهم والاستنباط ، بالضبط كما يفعل العالم الطبيعى فى ميدان بحثه . لكن مهمة الباحث القرآنى أشق من مهمة أخيه الباحث العلمى الذى قلما يتأثر بالعاطفة فى بحثه ، وإن تأثر فسترغمه التجارب العملية على النزول على حكمها مهما خالف ميله وهواه لكن احتمال التأثر بالعاطفة عند المطابقة بين الآيات الكونية فى القرآن والحقائق التى كشف عنها العلم بعد نزول القرآن أمره عظيم قد يحمل الباحث على التراخى والتساهل فى النظر والاستدلال . رغبة فى إثبات التطابق التام بين العلم الحديث والقرآن . والعاصم من هذا بعد الاستعانة بالله هو التزام المنطق الصارم فى الفهم والاستنباط ، أى اتباع ما أمر الله به فى كتابه من مخالفة الهوى ، وتطلب البرهان .

والقرآن الكريم مادته لغوية بيانية لها خصائصها ومميزاتها ولابد فى تفهم آياته وتلمس أسراره من مراعاة تلك الخصائص

والمميزات التي جلاها علماء اللغة والبيان فيما قاموا به من دراسات لتبين وجوه إعجازه البياني من ناحية، ولتفقه أحكامه التشريعية من ناحية أخرى. ومن أجل تلك الدراسات قعدت قواعد اللغة العربية من نحوية وصرفية وبيانية، وجمعت مادتها اللغوية، وكل ذلك على أوسع نطاق وأدقه. فلابد من مراعاة ذلك كله عند دراسة إعجاز القرآن من الناحية العلمية.

لابد في الألفاظ القرآنية من مراعاة معناها حين أنزل القرآن، لا معناها الذى قد تكون اكتسبته بتطور اللغة في الاستعمال.

ولابد في الجمل القرآنية من مراعاة القواعد التي توصل إليها أئمة النحو عن طريق الاستقراء.

ولابد في التعابير القرآنية من مراعاة القواعد والأصول التي أصلها وقعدها أئمة البلاغة والبيان عن طريق الاستقراء أيضاً. خصوصاً تلك القاعدة الأساسية التي تقرر أن الألفاظ والتعابير لا تنتقل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت قرائن كافية في نفس الكلام تدل على أن المعنى المجازى هو المراد.

هذا هو التمهيد. والله المستعان على بيان ما وراءه من الإعجاز العلمى في القرآن.

محمد أحمد الغمراوى

جاء النبيون بالآيات فانصرفت
وجئتنا بحكيم غير منصرم
آيات كلما طال المدى جدد
يزينهن جلال العتق والقدم

« شوقى »

نحو حضارة مؤمنة راشدة

مع الفكر المؤمن

للأستاذ محمد الغزالي

في الحضارة الحديثة جوانب لا أجد بدأ من احترامها وتزكيتها ، بل أجدني مسوقا بدوافع من ديني إلى الإعجاب بها ، والتملي منها .

وأبرز هذه الجوانب إدمان النظر في الكون والبحث عن خواص الأشياء ، والتعرف على القوانين الدقيقة التي تسير عليها الحياة ، وانتهاج خطة بعيدة عن الحدس والتخمين في تقرير شتى الحقائق .

إن أي حضارة تقترب من الفطرة في بعض نواحيها ، أشعر باقترابها من طبيعة الإسلام في هذا البعض ... ولو كانت غريبة عني .

وإن أي حضارة تجنح إلى التكلف أو التخرص أشعر بانحرافها عن طبيعة ديني ولو كانت قريبة مني .

وفي تراثنا الثقافي كتابات عن عالم الغيب لم تعتمد على الوحي .

وكتابات عن عالم الشهادة لم تعتمد على التجربة والاستقراء .

كلتا الكتابتين واهية العلاقة بخطة القرآن في تكوين المعرفة الصحيحة .

فالمعرفة المادية ... لا سبيل لها إلا النظر الصائب في الكون وأسراره وقواه .

وصلة الإنسان بربه أو بأخيه الإنسان لا سبيل لها إلا توقيف الشارع الحكيم .

ومعنى هذا أن علوم الطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والطب والهندسة وما إلى ذلك تقوم على استقصاء الحقائق من الواقع وحده ، ولا مكان لفروض وهمية أو أوصاف شاعرية ، أو حدود تقليدية ، أو سلطات استبدادية .

المجال للعقل الحر الدءوب ، يداوم النظر ويتابع الجهد حتى يصل إلى ما يبغي دون ما قيد . وإني لأقرر في غير تحرج : أني كنت أطالع بعض البحوث العلمية التي هديت إليها الحضارة الحديثة ، فأشعر كأن مؤلفي هذه البحوث ، كانوا يستجيبون - سواء شعروا أو لم يشعروا - لقوله تعالى : « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » .

إنه نداء الفطرة الإنسانية على كل حال .

وقد صم عن هذا النداء من فتحوا عيونهم

دون تدبر ، أو من استعملوا ذكاءهم فى بحوث ما وراء المادة ، فعادوا منها بقبض الريح ، أو من كتبوا فى المادة نفسها فشطحوا مع الخرافات ونظروا فى كل شىء إلا فى الكون وآفاقه والعناصر وخصائصها .

إن القرآن الكريم جعل مجالى الطبيعة مدارس الإيمان ، وكلما استكثر المرء من حصيلة المعرفة الكونية وبايقينه ، وزادت بالله معرفته .

وإنك لتعرف الشخص الذكى بآثاره العملية ، ولا تفكر فى معرفة ذكائه بالكشف على تلافيف مخه .

فإذا كان التعرف على قدر إنسان تبصره لا يتم إلا بهذا الأسلوب . فكيف بالتعرف على من (لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ؟) .

إن ذلك لا يتم إلا بالتأمل فى آثاره ، ومطالعة صفاته فى أرجاء خلقه الوسيع .

ولعل درسا فى وظائف الأعضاء ، أو فى دوران الأفلاك ، يكون أنجح فى غرس الإيمان وأدنى إلى التعريف بعظمة الله من بعض القراءات النظرية ، أو المقدمات الجدلية .

فى الأيام الماضية مرت بى لحظتان مضيئتان :

أولاهما :

فى إحدى الحدائق وقد علقت عينى بزهرة لما يكمل تفتحها .

كانت دقيقة من أسفلها ، مستعرضة من أعلاها ، والغلاف الأخضر منحسر عن أغلبها .

إنها توشك - لو بقيت على ساقها يومين - أن تبرز بأوراقها وألوانها جميعا .

لكنى تعجلت فض الملفوف من كمها ، لأقف مشدوها أمام ما بدا لى منها .

كانت الأصباغ زاهية كأنما وضع المصور ريشته الآن من رسمها ، وكانت هذه الأصباغ موزعة فى نقوش تبرق جدتها ، ويستغرب المرء من أن الألوان المتناقضة المتجاورة لم يسح شىء منها على الآخر .

ونظرت إلى الأرض السبخة الهامدة ، وإلى الفلاح الساذج فوقها ، وقلت : من أبدع هذه الزخارف الرائقة واستخرجها من بين هذه الأكوام ؟ . من ؟ .

وانساب إلى قلبي شعور بالجمال الإلهى المتأنق فى ألوف مؤلفة من الأزهار والأثمار تزحم القارات الخمس . « والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد » .

أما اللحظة الأخرى :

فعلى شاطىء البحر الأبيض فى ليلة من ليالى العمل .

أوصلت طرفى إلى البحر الهادر ، وكنت أسمع ثوران الموج ولا أرى مده ، والماء فى لون الحبر ، والأفق معسكر فى أبعاد غير متناهية .

ولم يجر فى خاطرى قول العقاد الشاعر :

وهذا الظلام خير من النور

إذا كنت لا ترى وجه حر

ذلك لأنى لم أك مهتما بأحوال البشر وقتئذ ، فإن طنين الموج المستمر بقوى لا تهد مع مضى الوقت جعلنى أتساءل : أما لهذا الحراك من توقف ؟ .

وكان الجواب مزيداً من الهدير القادم من بعيد كلما تلاشى على رمال الشط حل محله آخر ، وهكذا دواليك .

إن البحر أضعاف اليابس على ظهر الأرض ، وهذا الخلق العجيب عالم وحده .

وغلبنى الكرى قليلا ثم عاودتنى اليقظة ، أو الأرق والموج الموار لا يزال يزأر .

إن الله الذى لا تأخذه سنة ولا نوم وكل إلى شعاع من قدرته أن يهز هذا الركام الهائل من المياه هزاً يشمل المشارق والمغارب . فالرقعة المنداحة التى نسميها نحن بحاراً ومحيطات . . وسواء غفونا أم صحونا فعمل القدرة ماض فى طريقه ، يقتبه اليه بين الحين والحين أولو الألباب ليسبحوا بحمد الله الكبير .

* * *

قد يقال : إن حضارة الغرب التفتت بالفعل إلى الكون الكبير ، واستكشفت من أسراره ما فات القرون الأولى .

ولكن اهتمامها بالكون كان لارتفاقها منه وانتفاعها به ، لتتزود منه باليقين الواجب والإيمان المبرور . ! !

وفى هذا الكلام قدر من الصحة غير منكور فإن عبادة الحياة هى الدين الشائع فى الحضارة الحديثة ، تستوى فى ذلك أحزاب الميسرة المجاهرة بإلحادها ، وأحزاب الميمنة المخافتة به . والغرض من البحث الكونى الذى طلبه القرآن الانتقال من الكون إلى المكون ومن المخلوق إلى الخالق .

وشتان بين منهجين : أحدهما يتعرف إلى الله فى أرجاء العالم الذى أبدعه ، والآخر يتعرف على أسرار العالم ، ويحتبس داخلها فلا يعرف ربه . .

والحضارة الحديثة يمكن أن تدان من هذا الجانب ، بيد أن الأمر يحتاج إلى قليل من التفصيل ومن يدرى ؟ لعل أهل الإيمان يدانون قبل غيرهم عندما تحدد التبعات وتنصب موازين العدالة . . ! !

عندئذ يعرف أن السبب الأكبر فى شيوع الإلحاد ، وهجر الدين ، هو تصرف جمهور المتدينين وتفكيرهم .

ما الذى يجعل الحضارة الحديثة تضالى بالإيمان وتتحمس للرحمن ؟

إذا نظرنا المسيحية التى تسود الغرب وجدناها قبلت من الإضافات والبدع ما يستحيل على العقل البشرى قبوله .

ومن حق هذا العقل أن يرفض النقائض ويعتزل دعاتها ويحيا بعيداً عنها ، والحضارة الحديثة فى خصومتها للمسيحية معذورة .

وإذا نظرنا للإسلام وجدنا أهله أبعد الناس عنه ، ومن حق الأحياء أن يطرحوا دينا زهد فيه أهله أنفسهم .

إن المسلمين مع تقصيرهم فى جنب الإسلام علما وعملا يلاحظ عليهم من قديم الزمان تناقض غريب فهم مؤمنون - دون خلاف - بعموم الرسالة الإسلامية ، وأن محمداً رحمة للعالمين ، وأن دعوته تحيط بالقارات الخمس

ومع ذلك فإن سياستهم العلمية جعلت الإسلام رسالة عربية وحسب .

فهم لم يحسنوا تمكين الروابط الثقافية بين الأجناس الداخلة فى الإسلام ، ولا بين الأجناس التى لم تدخل فيه .

ومن الغفلة تعريب البشر كلهم ليسلموا إسلاما كاملا .

ومن الغفلة أيضاً ترك الأعاجم يتعلمون الإسلام عن طريق تراجم لم يشرف عليها الدعاة العرب .

والمعروف أن العرب لا يزيدون عن خمس المسلمين ، وأن المسلمين جميعاً لا يبلغون خمس سكان الأرض .

فماذا صنع الجهاز الإسلامى الذى يعرف عموم الرسالة الإسلامية ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ؟ .

ماذا صنع ليربط المسلمين بدينهم وليعطى عن المسلمين فكرة صحيحة عن الإسلام ؟

* * *

إننا لا نقول هذا الكلام اعتذاراً عن شرور الحضارة الحديثة ، ولكننا نقوله اعترافا بتصورنا ، ووخزاً للضمائر التى راحت فى نوم طويل .

هل أن حقائق الإيمان ألصق بالفطرة ، وأقرب إلى التناول من أن يتعذر عنها بتقصير الدعاة ، خصوصاً بالنسبة إلى مدنية بلغت مكانة مرموقة من التقدم كمدنية العصر الحديث .

والواقع أن شيوع الإلحاد ، وانتشار التحلل يرجعان إلى أسباب أخرى غير تفريط أصحاب الدين .

من بين هذه الأسباب . الغرور بالقليل من المعرفة ، والتدرج به إلى الزيغ .

وجمهرة المنكرين الذين من هذا القبيل ، فهم يعرفون أبواباً معينة من العلوم المادية أو النظرية يبنون عليها كفرهم .

ويجهلون أبواباً أخرى أكثر وأخطر لو أدركوها لردتهم إلى الله تائبين .

ومعظم الذين قابلناهم أو قرأنا لهم من أولئك الشاكين نعتبرهم أنصاف متعلمين مهما بلغت دعاواهم ! .

ومن بين هـذه الأسباب غلبة الشهوات العاجلة من نفسية ومدنية .

فإن سيطرة الشهوات على أصحابها تجعلهم يحكمون بالهوى لا بالعقل ، وبالجور لا بالعدل ،

وقديما كفر بنو إسرائيل بمحمد تمشيا مع هذه النزعة ، لا لغموض الدليل أو خفاء الدعوى .

« أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ؟ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » .

وقد أشبه اليهود بهذا عدوهم فرعون الذى كفر بموسى هو وملؤه « وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر . كيف كان عاقبة المفسدين » .

والبشر هم البشر فى كل زمان ومكان ، لا يزال فيهم من يحارب الحق وهو يعرفه لشهوات تحكمت فيه واستبدت به .

لقد شق الفكر الإسلامى الأول طريقه إلى الحياة والسيادة بقوة رائعة أمكنته أن يتشعب مع النشاط الإنسانى دون كلال .

ونستطيع القول بأنه ترك فى الحضارة العالمية آثاراً خالدة .

بل إننا - من غير تعصب - نقرر : أن الحرية العقلية ولدت أولا فى القاهرة ودمشق والقدس وبغداد ، قبل أن تولد فى لندن وباريس وبرلين وروما .

وأن الصليبيين الأقدمين عادوا إلى بلادهم بهذه الحرية العقلية المجلوبة من الشرق ، ليغسلوا بها أوضارهم ، ويجددوا حياتهم ، ويتخلصوا من قيـود هائلة ، لو بقوا بها مانالوا قط قسطا من تقدم أو رخاء .

إن التفكير النير الخير تألق فى بلادنا دهرا طويلا . واستطاع فى ميدان التشريع والتربية وفى آفاق الحياة العامة أن يصنع العجائب .

ومن المؤسف أن هـذا التفكير الخصب قد احتبس تياره مع إغلاق باب الاجتهاد وفى الفقه ومع الانحـراف الذى وفدت به علينا فلسفة اليونان وغيرها .

لكن هذه العوائق العارضة لا تبخسه حقه الأصيل ولا قدرته على صنع مستقبل زاهر كيف وهو مرتكز على الفطرة الراشدة والعقل الحر . . ؟

إن عظمة التفكير الإسلامي تقوم على أنه يقدم للعالم إيمانا يعمر الدنيا ، ويمهد للأخرى ويعد الوجود الأول والآخير وحدة كاملة .

ولا نريد في هذه العجالة ... التحدث في فكر العقيدة والشريعة الذي ألفه الناس بل نريد الإشارة السريعة إلى فكر الحياة نفسها ، الذي يظن البعض أن المسلمين تخلفوا فيه ، لأنه ينظر إلى أحوال المسلمين اليوم فيظنهم الصورة المثلى لتعاليم الإسلام .

يقول الأستاذ المستشار / عبد الحليم الجندي ، في كتابه (توحيد الأمة العربية) تحت عنوان « ألف عام من العلوم التطبيقية والفنية . . . والرفاهية » واصفاً المجتمع الإسلامي القديم .

في هذا المجتمع ازدهرت حضارة علمية أساسها العلوم التطبيقية البحتة والهندسة المعمارية والصناعات والعلوم الاجتماعية ، تعتبر الأولى من نوعها في التاريخ ، صبغت المدنية العربية بصبغة علمية وتجريبية تقوم على العلوم والفلك والطب والهندسة البحرية وما إليها ...

وفي حين كانت حضارة اليونان حضارة فلسفية ، وكانت حضارة الرومان حضارة مادية تقوم على القوة العسكرية أو على النظم الشكلية كانت الحضارة العربية أول حضارة تقوم على العلوم والحرية — وهي التي أورثت الحضارة المعاصرة الكشوف العلمية والروح العلمي الذي استمرت به في كشف أسرار الطبيعة . ولم تكد تظهر رسالة الإسلام ، حتى تفردت العلوم الإسلامية بالوجود الإنساني نحو من ألف عام تهذبه وتهديه ...

ويقول : « وانطلق العرب بأفكارهم في مهاب الرياح الأربع حتى أصبحوا كما يقول « راندال » يمثلون الطراز الفكري العلمي في الحياة العملية الصناعية ، التي تضفي مثلها الآن على ألمانيا الحديثة . وعلى عكس الإغريق ، لم ينصرفوا عن الاختبار المعملي والسير عليه في الطب وعلم الآليات » .

وفي التحقيقات الفنية يلوح أنهم أخضعوا العلم لخدمة الحياة الإنسانية مباشرة .

لقد ورثت عنها أوربا روح (بيكون) التي ترمي إلى مد سلطة الإنسان على الطبيعة وتداولت العلوم العربية جامعات مونبيليه وباريس وأكسفورد وفينسيا وبادوا ، وفيراوا ، وباري ، وأنشأ الامبراطور فردريك الثاني في القرن الثالث عشر جامعة في نابولي لنقل العلوم العربية واليوم تشهد باريس صورتي الرازي وابن سينا على حوائط كلية الطب وأثر المساهمة التي شارك بها المهندسون العرب في بناء كنيسة نوتردام

(فى باريس) كما تشهد الكتابة الكوفية والعربية فى النقوش الانجليزية وأبواب الزخرفة والمعمار والنقوش العربية فى مناطق كثيرة فى أوربا .

الصيدلة علم عربى ، والكيمياء علم عربى ، والفلك والطب والميكانيكا والرياضيات والطبيعة والجغرافيا ، ما تزال تحمل الأسماء العربية الفصحى ، هكذا ساد الروح العلمى الأمة العربية وقال « ديورانت » :

(ربما ملك الصاحب بن عباد من الكتب فى القرن العاشر ما يقدر حينئذ بما كان فى مكتبات أوربا مجتمعة . وكنت تجد فى ألف مسجد منتشرة من قرطبة إلى سمرقند ، علماء لا يحصيهم العدد ، كانت تدوى أركانها بفصاحتهم) .

ويقول المؤرخ الفرنسى (روبير بريفو) : (كانت أوروبا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر تتجه إلى العرب باحثة عما استجد عندهم من صناعات وعلوم وفنون خاصة بالملاحة ، منقبة عن كشوفهم فى علوم الرياضة والفلك والطب والكيمياء ، وكانت تبحث عندهم عن آثار أرسطو وابن سينا وابن رشد ، وكان علماؤها من أمثال ...) يلتمسون عند العرب حصاد عالم جديد من الفكر والعلم . ووجد « ريجيو مونتانوس » عندهم المعارف التى مكنت هنرى الملاح وفاسكودى جاما (مكتشف طريق رأس الرجاء الصالح) وكرستوف كولومبس (مكتشف أمريكا) من ارتياد المحيطات والوصول إلى أطراف العالم وعثر « دى باث » فى قرطبة على النسخة الوحيدة فى العالم من مخطوط (أوسيليد) الذى ظل يلقن للطلبة فى مدارس أوروبا حتى سنة ١٥٣٣ ، وطاف كل من أفلاطون لو بيزون وفيبار ناس أرجاء أسبانيا ليتزود بالعلوم الرياضية لاسيما الجبر والتقويم واللوغاريتم .

بل إن الكنيسة نفسها التجأت إلى العرب لتجد عندهم ما يعينها على إقامة صرح الفكر المدرسى وبحث كل من « البير الأكبر » و « توماس الأكوينى » عن فلسفة العقيدة الكاثوليكية تفهما فى بلنسية عند الفارابى وفى الوقت الذى أنشد فيه الشعراء التروبادور شعرهم على عتبة أسبانيا العربية صرح « روجير بيكون » فى اكسفورد (انجلترا) بأن وجود الفكر الأوربى والعلم الأوربى كان مستحيلا لولا وجود المعارف العربية - لقد دعيت أوروبا فجأة إلى الحياة بعد أن ظلت فى ظلمات الجهل طوال خمسة قرون . وهى مدينة العرب بكل تقدمها .

ترى ... أيعرف المسلمون قدرهم ؟ ... ويستأنفون أداء رسالتهم ؟ .

إن ذلك ما نرجوه ... وما يفتقر إليه العالم الآن ... ؟

محمد الغزالى

الليلة المباركة

للأستاذ أحمد حسنى نصار

إن من خير ما تفضل الله به على عباده المتقين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم « الليلة المباركة » كما سماها رب العالمين فى القرآن الكريم ـ والبركة النماء والزيادة ـ وذلك إشارة إلى ما يضاعف للمؤمنين فيها من الثواب وما يقدر لهم من خير كثير ولا أدل على ذلك من إنزال القرآن فيها وهو المنار الأعظم القائم والهدى الأقوم الدائم سعد به من أقبل من البشر عليه منذ أشرق نوره وفاح عبيره إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها إذ لا كتاب بعده ولا هدى إلا هداه .

وذكر الله هذه الليلة المباركة فى سورة خاصة من القرآن هى « سورة القدر » فقال تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر . سلام هى حتى مطلع الفجر » كما ذكرها فى أول سورة الدخان » .

وقد تشعب القول فى علة تسميتها ليلة القدر فقيل إنما سميت بذلك من القدر بمعنى الضيق لأن الأرض تضيق بكثرة الملائكة الذين ينزلون فيها أو لأن الله يقدر فيها ما يشاء من أمره فى العباد إلى مثلها من السنة القابلة من الموت والحياة والمطر والرزق وغير ذلك . أو أن اسمها من القدر بمعنى الشرف لما لها من عظيم المنزلة أو لأن للطاعات فيها قدرا عظيما وثوابا جزيلا . أو لأن من لم يكن له قدر وخطر يصير فى هذه الليلة ذا قدر إذا ما أحياها بالعبادة لما ينزل الله فيها من الخير وما يهب من بركة وما يتفضل به من مغفرة أو لأنه ينزل فيها ملائكة ذوو قدر وخطر أو لأن الله أنزل فيها كتابا ذا قدر على رسول ذى قدر على أمة ذات قدر .

ويرجح هذا القول لقول الله تعالى عند ذكرها فى أول سورة الدخان « حم والكتاب المبين إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم . أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم » .

وكما تشعبت الأقوال فى علة تسميتها كذلك تعددت فى تحديدها فقيل إنها فى الليالى الأوتار من العشر الأواخر من شهر رمضان إما ابتداء من أولها وإما ابتداء من آخر الشهر فتكون الأولى ليلة الثلاثين ثم ليلة ثمان وعشرين لأنها الثالثة وهكذا إلى ليلة اثنين وعشرين لأنها التاسعة ، وقيل أنها تدور فى العشر الأواخر ولا تثبت فى ليلة واحدة منه أى أنها تتغير من ليلة إلى أخرى فى كل عام ، وقيل إنها مخفية فى رمضان كله أو فى العام كله ، وقيل إنها ليلة النصف من شعبان وهذا بعيد لأن الله تعالى يقول : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » ويقول « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » فدل ذلك على أن ليلة القدر محصورة فى رمضان قطعا .

وذهب قوم إلى أنها رفعت وهذا قول لا يصح فإن الرفع كان خاصا بتعيين موعدها لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنى خرجت لأخبركم بليلة القدر وأنه تلاحى فلان وفلان فرفعت عسى أن يكون خيرا لكم » .

وقيل إنها ليلة سبعة عشر من رمضان لأن وقعة بدر كانت صبيحة هذه الليلة وكأن أصحاب هذا القول استندوا إلى آية « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » وفهموا فيها أن الإنزال للقرآن وليس للملائكة .

هذا ولم يفت المتصوفة أن يدلوا بدلوهم فى تحديد ليلة القدر ونكتفى هنا بما ورد عن الشيخ أبى الحسن الحرالى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ فقد أرجع تحديد ليلة القدر إلى ابتداء شهر رمضان وقال إنها ليلة التاسع والعشرين إن بدأ رمضان بيوم الأحد وليلة الحادى والعشرين إن بدأ يوم الاثنين وليلة الرابع والعشرين إن بدأ يوم الثلاثاء والسابع والعشرين إن بدأ يوم الأربعاء وليلة الخامس والعشرين إن بدأ يوم الخميس وليلة التاسع عشر إن بدأ يوم الجمعة وليلة الثالث والعشرين إن بدأ يوم السبت . أى أنها تدور فى الليالى الأوتار من ليلة التاسع عشر لآخر الشهر مضافا إلى ذلك ليلة الرابع والعشرين ليلة ابتداء نزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يقل فى غير هذه الليلة على أى أساس استند فى هذا التحديد . وقد قيل إنه كان صاحب أحوال غريبة وحكايات عجيبة وله مؤلفات فى علوم الأسرار وهو شيخ أبى العباس البونى المعروف بمؤلفاته فى هذه العلوم فلعل سنده فى هذا التحديد خاص به كما هو الشأن فى حال رجال التصوف أصحاب الأحوال والشطحات .

والمستصفى بعد هذا الاستعراض للأقوال الكثيرة الواردة فى ليلة القدر أنها باقية لم ترفع وأنها تدور مع الليالى الخمس الأوتار

من العشر الأواخر من شهر رمضان من ليلة الواحد والعشرين إلى التاسع والعشرين .

وبعد هذا فالأحوط للمؤمن الحريص على ثوابها الضخم وبركاتها العظيمة أن يقوم ليالى العشر كلها ويضم اليها ليلة السابع عشر والتاسع عشر وبذلك يضمن أن يصادفها فيرجع بما لا يخطر من الخير على بال .

وإن ميزة هذه الليلة الكبرى التى جعلتها بحق أعظم الليالى وأفضل الأوقات هو اختصاصها بإنزال القرآن فيها وقد قال بعض العلماء ان فيها ابتداء إنزاله على الرسول صلى الله عليه وسلم: وهذا بعيد لقول الرسول صلى الله عليه وسلم «وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان» .

فابتداء نزول الوحى بالقرآن على الرسول متعين بهذا الحديث وليلة القدر لم يعينها الرسول للمؤمنين كما هو معلوم ، وقال البعض الآخر إن القرآن أنزل فيها جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ثم كان ينزل به جبريل عليه السلام بعد ذلك على الرسول صلى الله عليه وسلم نجوما نجوما وهذا أقرب إلى الحق فالله تعالى أسند إنزاله إلى نفسه فى الموضعين اللذين ذكرت فيهما ليلة القدر فى القرآن الكريم .

ويقول الله تعالى : «وما أدراك ما ليلة القدر» وهذا تضخيم لقدرها وتعظيم لشأنها ، وقد قيل كل ماجاء فى القرآن مصدرا بما أدراك فقد علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وماجاء مصدرا بما يدريك فانه لا يعلمه وعلى هذا يكون الرسول صلى الله عليه وسلم على علم بليلة القدر على التحديد .

ثم عرفها الله فقال : «ليلة القدر خير من ألف شهر» ، والمعنى الواضح المتبادر لهذه الآية أن من قامها كتب الله له مثل أجر العبادة فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه» ، وقيل فى سبب النزول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر رجلا ممن تقدم عبد الله ألف شهر فعجب المسلمون ورأوا أن أعمارهم تنقص عن ذلك القدر فأعطاهم الله ليلة القدر وجعل ثواب العبادة فيها خيرا من عبادة ألف شهر .

وقال الإمام مالك رضى الله عنه سمعت ممن أثق به يقول: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى أعمار الأمم قبله فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم فى طول العمر فأعطاه الله تعالى ليلة القدر وجعلها خيرا من ألف شهر» .

وهذا وما قبله فى معنى واحد وهو أصح ما ذكر فى هذا الصدد .

وروى (أن الحسن بن على رضى الله عنهما

هو تب حين بايع معاوية رضى الله عنه بالخلافة فقال : « إن رسول الله عليه وسلم رأى فى المنام بنى أمية ينزون (أى يثبون) على منبره نزو القردة وأعلمه الله أنهم يملكون أمر الناس ألف شهر فاهتم لذلك فأعطاه الله ليلة القدر وهى خير من ملك بنى أمية » . ثم كشف الغيب أنه كان من بيعة الحسن لمعاوية إلى مقتل مروان بن الجعدى آخر ملوك بنى أمية بالمشرق ألف شهر) وهذا كلام غريب عليه طابع الوضع لركاكته وفساد معناه ولا يعقل أن يكون هذا من منطق النبوة وآل البيت رضى الله عنهم لا يطلبون ملكا ولا يرغبون فى عوض عنه وإن كانوا قد قاتلوا على الخلافة فلأنهم كانوا يعتقدون أن ذلك لصالح الإسلام والمسلمين لا لحساب يجدهم لذاتى ورغباتهم النفسية . هذا وإن ليلة القدر ليست خاصة لآل البيت وحدهم حتى تكون لهم مقابل ملك بنى أمية وإنما هى للمسلمين كافة كما أنه ليس صحيحا عند الحساب أن مدة ملك بنى أمية ألف شهر.

ثم قال تعالى : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » والروح جبريل عليه السلام وقيل الروح صنف من الملائكة جعلوا حفظة على سائرهم وإن الملائكة لا يرونهم كما لا نرى نحن الملائكة وهم أشرف الملائكة يقومون صفا والملائكة كلهم صفا

وقيل الروح الرحمة ينزل بها جبريل عليه السلام ومعه الملائكة فى هذه الليلة على أهل الأرض بدليل قول الله تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده » أى بالرحمة .

وأيا ما كان القول المختار من هذه الأقوال فإنه يدل على عظم قدر ليلة القدر وكثرة ما يجرى على المؤمنين فيها من رحمة وتكريم وإن المستفاد المقطوع به أن أهل السماء تتنزل بإذن الله على المؤمنين من أهل الأرض يسلمون عليهم ويؤمنون على دعائهم فتشملهم بركات الله فى تلك الليلة المشهودة المباركة التى هى سلام وخير كلها حتى مطلع الفجر .

أما علاماتها فقد قال الحسن بن على قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة القدر : « إن من أماراتها أنها ليلة سمحة بلجة لا حارة ولا باردة تطلع الشمس صبيحتها ليس لها شعاع » كما أن من علاماتها فيما ذكر من المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم غير هذا أن الكلاب لا تنبح فيها ونذكر فى الختام ما روى من أن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر فما أقول قال : قولى اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى » والعفو حط الذنوب ومن تركت له ذنوبه فقد فاز فوزاً عظيما . ؟

أحمد حنفى نصار القوصى

إنسانية الحضارة العربيّة وإبداعها

للأستاذ يوسف حسن نوفل

تعددت الجوانب المشرقة فى تاريخ المسلمين بالأندلس ، واستحقت بذلك أن تعد أروع ما يحفل به تاريخ الإنسانية بأثرها ، لا تاريخ الإسلام فحسب .

فقد اجتاز الإسلام ساحة واسعة المدى ، مخصبة التربة من ساحات التاريخ ، وطبعها بطابع متألق وهاج ملأ جوانب الدنيا .

وحق لنا أن نقول إن التاريخ قد رسا على ضفاف الأندلس ، ليبصر مجداً ، ويبارك حضارة أسس دعائمها المسلمون إيماناً منهم بامتداد روابط الحياة ، وبأن من أقدس واجبات الأجيال أن يورث كل منها من يليه أعمالا نابضة بالحق والخير والجمال ... ولهذا فقــد غدت الحضارة العربية يومئذ مدرسة الدنيا بأثرها وملتقى حضارات جمة : شرقية وغربية ، ومزدحم ألوان شتى من الفنون ، فحققت بذلك شيئاً مما طمحت إليه الأمم والشعوب فى ميدان التقدم ، وبلغت الحد الذى تفوقت فيه على نفسها ... وكل شىء صدر عنها كان ممثلا لخصيصة من الخصائص الإنسانية، ومنمياً لصيد الحضارة البشرية ، فغدت أغنية عذبة فى أفواه المنصف من المؤرخين ، وغصة محرقة فى أفواه المتعصبين الذين حرصوا على إغفال دور حضارة الإسلام فى عصر الإحياء الأوربى وإنارة العصور الوسطى ، وإذا ما بدت الحقيقة الناصعة تجلو الدور الإنسانى الخالد ، الذى حملته حضارة الإســـلام فى الأندلس على كاهلها ثمانية قرون ، حطمت فيها الجهل والجمود ، وبددت سجف الظلمة وعروش الاستبداد ... إذا ما بدا لهم ذلك ردوا المؤثرات إلى الحضارة الرومانية .

والأقبح من ذلك أن يعتبروا العرب ضمن الأجناس المتأخرة البربرية التى شوهت مدنية الرومان ! !

وكان الزمن كفيلا أن يقنع هؤلاء أن الحضارة التى بددت ظلمات العصور الوسطى بنتها أرواح وعقول ارتفعت فوق العصور والمجتمعات ، تقديراً منها للحقيقة التى تقرر أن ثمرات التفكير البشرى ملك للإنسانية ، وتكفل الزمن - أيضاً - بإقناعهم أن عصر الإحياء الأوربى - وإن كان حركة عقلية كبيرة - فقد سبقته نهضة علمية فى أوربا على يد الرهبان النصارى الذين استمدوا النور من علماء الإسلام فى الأندلس .

وبعد ... فكيف كان ذلك الأفق الواسع مجالا لانطلاق شمس المعرفة الإسلامية ،

ومدرسة تخرج فيها حملة مشعل الإحياء الأوربي ... مع الملامح القادمة ... أرجو أن أفلح في جلاء حركة ذلك الانطلاق العملاق .

لقد كانت المعرفة هي الأجنحة التي ارتقت بها تلك الحضارة فلم تقتصر هواية جمع الكتب الثقافية على الخلفاء فقط بل شغف بها عامة الشعب .

ومن أخبار الوفود في عهد « عبد الرحمن الناصر » يخبرنا « ابن جلجل » أن في مقدمة هدايا « أرمانيوس » ملك الروم إلى « الناصر » سفران قديمان أحدهما نسخة مصورة من كتاب « ديسقوريدس » عن الحشائش والأعشاب الطبية ، والأخرى نسخة من تاريخ العالم القديم « لأورسيوس » باللاتينية .

وكانت مكتبات قصور الخلفاء نواة المكتبة الأموية العظيمة التي ضمت أربعمائة ألف مجلد والتي كانت من أعظم مكتبات العصور الوسطى ، والتي كانت تحتضن نفائس الكتب من كل قطر وفي كل فن .

وعرفت النسخ الأولى من المؤلفات طريقها إلى الأندلس وكوفئ عليها أصحابها ... من ذلك مكافأة الأصفهاني على « الأغاني » بألف دينار .

وقد انتشر الوراقون في بغداد والقاهرة ودمشق يجمعون وينسخون .

ولست أدري هل رغب الشعب في منافسة حكامه في تلك الميزة أم أنها هواية طبيعية دفعتهم إلى اقتناء المكتبات الخاصة حتى وجد من ذوي الدخل الضئيل من كان يحرم نفسه الطعام وجيد الثياب في سبيل تكوين مكتبة .

ووجد من النساء من اشتهرت بذلك أيضاً ... منهن عائشة بنت أحمد بن قادم ... يقول الطبيب المؤرخ الأمريكي : « فيكتور روبنس » في كتاب له يعرض قصة الطب :

« كان رهبان أوربا يلحنون في تلاوة سفر الكنيسة بينما كان معلمو قرطبة قد أسسوا مكتبة تضارع في ضخامتها مكتبة الإسكندرية العظيمة » .

وتبعا لذلك كانت معرفة القراءة والكتابة أمرا عاديا في الوقت الذي كان فيه أرفع الناس في أوربا فيما عدا رجال الدين لا يعرفها وغزت المكتبات الحدائق العامة في قرطبة حيث توسطت رفوف الكتب صفوف المقاعد .

وكان في قرطبة دكان نسخ استخدم مائة وسبعين وراقا في نقل المؤلفات .

وفي ميدان التأليف والبحث العلمي تحولت قرطبة إلى « أكاديمية » عظيمة . . وانتشرت المجامع العلمية والأدبية التي تشبه مجامع اليوم .

وحدد الخلفاء والملوك جوائز للمخترعين فظهر من بين العلماء من ألف العديد من الكتب أمثال : أبو محمد على بن حزم الذي بلغت مؤلفاته نحو أربعمائة كتاب ، والمظفر الأفطس الذي ألف كتابا في الأدب في نحو مائة مجلد ، ومؤرخ الأندلس أبو حيان الذي ألف كتابه في ستين مجلدا .

وعرفت تلك المؤلفات وغيرها طريقها إلى كل عقل متفتح يهفو إلى توسيع دائرته وزيادة رحابة أفقه ، فانتفع المسلمون ، ومدوا يد النور إلى الأوربيين الذين وجدوا فى تلك المنابع سبل هداية ، وطرق تقدم . . يقول « إرنست رينان » : إن الآثار والأسفار المحتوية على شىء من الفنون والعلوم التى أضفاها علماء الإسلام على الكون والتى نقلتها الحملات الصليبية إلى جميع بلاد الفرنجة وما تقدمها من احتكاك بين العرب وأوربا عن طريق الأندلس . . أدى كل ذلك إلى إفعام المكتبات الأوربية الحاوية الفقيرة بكنوز لا تفنى من العلم الذى أنتجته قرائح العرب ، وكان من نتائجه انتشار الثقافة والترعرع العلمى فى البيئة الأوربية بأسرها كارفع مستوى شعوبها إلى أفق التمدن الذى نشاهدها عليه اليوم .

وفى هذا الميدان تتجلى ظاهرة تشهد بالنزعة الإنسانية التى اتسمت بها الحضارة العربية ، فقد وقف العلماء على اختلاف عقائدهم صفا واحدا . ولم يعرف الخلفاء التفرقة بينهم فرأينا الحكم ، لايبالى باختلاف الدين ويؤثر الأسقف العالم (ريشموند الإلبيرى).

(ربيع بن زيد) ؛ لسعة علمه بالفلك والفلسفة وتمكنه من آداب العرب واللاتين.

وتعددت مجالس البحث والمناظرة ، وحرص (محمد بن أبى عامر) على عقدها أسبوعيا .

وكان ثمرة تلك الحفاوة البالغة وتلك الخطوات الفسيحة أن برز علماء عديدون واشتهروا بالنبوغ فى تخصصهم أمثال :

المتصوف الكبير : ابن عربى ، والفيلسوف ابن حزم ، وصاحب الألفية ابن مالك ، وصاحب العقد الفريد : ابن عبد ربه ، وصاحب قلائد العقيان : ابن خاقان ، وصاحب المخصص : ابن سيده ...

ومن الشعراء : ابن خفاجه ، وابن هانئ ، وابن زيدون . ومن الفلاسفة : ابن رشد ، وابن طفيل ، وإمام القراء أبو القاسم الشاطبى ومن النساء : حمدونة التى لقبت بخنساء المغرب وعائشة بنت أحمد ، وولادة بنت المستكفى .

ولعل خير مثال نستطيع أن نستشف من خلاله الصورة المالية التى كانت عليها الأندلس هو خبر الهدايا المتبادلة بين الوزراء والملوك من ذلك هدية ابن شهيد المقدمة للناصر حيث وصلت إلى خمسمائة ألف مثقال من الذهب وحوالى مائتى أوقية من المسك والعنبر وثلاثين شقة من الحرير المرقوم بالذهب ومائة فرس مسرجة ... الخ .

والذى يمكن استنتاجه من هذا هو اطمئنان الناس هناك إلى ميزان المادة ، واستمتاعهم بالنعيم .

أما مجالسهم فقد اتسمت بالطابع العلمى .. وحفلت المتنزهات والبساتين بمجالس الشعر والزجل والغناء والموسيقى ، والفكاهة .

وقـــد كان من أشهر تلك المجالس ذلك الاجتماع الذى انعقد بمناسبة قدوم سفراء ملك الروم محملين بالهدايا ، وأمر الناصر العلماء أن يخطبوا ولهول المجلس أغلق عليهم القول ، ولم ينج من ذلك « أبو على القالى » نفسه .

يقول « منذر بن سعيد » فى هذا الحفل :

وقد حدقت حولى عيون أخالها
كمثل سهام أثبتت فى المقاتل
لخير إمام كان أو هو كائن
لمقتبل أو فى العصور الأوائل
ترى الناس أفواجا يؤمون بابه
وكلهم ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه
مخافة بأس أو رجاء لنائل

* * *

ولم يتخل المسلم عما التزم به إزاء دينه ، ولم ينس أن دستوره الوحيد (القرآن الكريم) يشرع له فينتظم حياته بما فيها من سلوك نحو الآخرين ، فنشأت لديه تلك النزعة الإنسانية التى لا تفرق بين الناس : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ... وحين تطلع بنظره إلى ما وراء أفق الصحراء ... بل حين توطدت أقدامه فى أنحاء لم يكن يحلم بارتيادها ... حينذاك أيقن أنه ليس فاتحاً ولا غازياً بقدر ما هو داع ومبشر بعهد جديد ، فلم يفكر أن يبطش أو ينظر نظرة متعالية ... هى نظرة الحاكم والمنتصر ، ولكنه مارس حقوقه محترما حقوق الآخرين ، فأكد احترام الإسلام لقيم الإنسانية ، وحرصه على الكرامة وإزالة الفوارق بين الطبقات ، فرحب العبيد ، ورقيق الأرض بذلك ، ولم يعد من المبالغة فى شىء ما يشهد به الأستاذ « هاريسون » فى كتابه « العرب فى وطنهم » إذ يقول :

« فحيث حل الإسلام تأكدت قيمة الفرد ونهض الناس معتزين بكرامة لا تقهر »[1].

وغدا موقفهم إزاء اليهود والنصارى موقف المحترم المتسامح رغم سيطرته على كل شىء ، فعلموهم كيف يكون التسامح الذى هو أغلى ما يمكن أن تعتز به الإنسانية فى تاريخها الطويل فأباحوا للأساقفة النصارى أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية كمؤتمر إشبيلية الذى عقد فى سنة ٧٨٢ م ، ومؤتمر قرطبة النصرانى الذى عقد سنة ٨٥٢ م ... وسمحوا لهم أن يبنوا البيع فمارسوا معتقداتهم بحرية ولم يتخل المسلمون أبداً عما التزموه إزاء دينهم الذى يقضى باحترام العقائد والحرية الشخصية .

أما اليهود فقد كانت الأندلس المكان الوحيد فى أوربا الذى يتمتعون فيه بحماية الدولة ، ورعايتها فزاد عددهم ، وأسلم كثير

(١) عن مجلة المجلة . العدد ٦٨ (١٩١٢) ص ٤٤ .

من النصارى واليهود عن رغبة خالية من الإكراه فأكدوا أن الإسلام ليس دين قوة وسيف بل دين حرية ، وإلا فما بالك بخليفة كالحكم يعرف أن أحد عماله ظلم واحدا من أهل الذمة فيأتى به ويصلبه ... أية ضمانات أكثر من ذلك يمكن أن تمنح لتحفظ حقا أو لتحمى كرامة !! .

وشرع الجميع يعملون جنباً إلى جنب بلا أضغان ، ولا كراهية وجمعتهم لغة واحدة وتقاسموا دراسات مشتركة فبدا : « أن كل الحواجز التى تفرق بين بنى الإنسان قد انهارت ، وأن الجميع كانوا يسهمون متفقين فى تشييد الحضارة المشتركة »[1] .

ورغم حرص الإسلام على بسط روح الصفاء بين الجميع فقد حدث أن ثار بعض متعصبى النصارى، ومع هذا فقد أعاد المسلمون الصفاء ليرفرف من جديد وكأن لم يحدث شىء . والعجيب فى الأمر أن هؤلاء الثائرين كان يغيظهم مايرون من المسلمين من تسامح ، وحسن معاملة ، فكانوا يتشوقون للتعذيب فى سبيل دعوتهم .

ولاتصاف المسلمين بنبل الأخلاق جوانب مضيئة كثيرة ، أهمها رفقهم بالمغلوب ، واحترامهم لكلمتهم والتزامهم الصدق ، واحترامهم للمرأة ، وقد اقتبس الأوربيون كل هذا منهم ، وذلك شىء لا يحتاج إلى برهنة ، فعن المسلمين فى إسبانيا تعلم الأوربيون قوانين الفروسية . وحدث أن حاصروا فى قرطبة (سنة ١١٣٩) مدينة طليطلة ، وكانت بيد النصارى ، فأرسلت إليه ملكتها « بيرانجر » تبلغه أنه ليس من الشجاعة أن يحاصر فارس « امرأة » فما كان منه إلا أن ارتد عنها .

وهذا هو الكاتب الأسبانى « أبانيز » يؤكد أن الغرب لم يكن يعرف الفروسية ولا يدين بآدابها المرعية وحماستها إلا بعد وفود المسلمين على الأندلس ، وانتشار فرسانهم وأبطالهم .

ويتحدث المستشرق « رينو » عن ذلك فيرى أن قصص الفروسية ثبت فى العصور الوسطى أثراً باقيا جعل الاسم العربى يتبوأ فى أوربا وفى أذهان المجتمع الأوربى مكانة عظيمة .

ويضيف « ول ديورانت » رأيه إلى رأى « ستانلى اين بول » الذى يقول إنه : « لم تنعم الأندلس طوال تاريخها بحكم رحيم عادل كما نعمت به فى أيام الفاتحين العرب »[1] .

وبعد أن خرج المسلمون من الأندلس عاشت تلك اللمسات الإنسانية فى النفوس الخيرة بل لم يجد الجميع معدى من الاعتراف بأحقية تلك الحضارة الإنسانية فى أن تعيش مدى الدهر ، وحين فكر الإسبان والبرتغال

(١) رينان . (الأزهر . أغسطس ١٩٦١)

(١) قصة الحضارة جـ ٢ مجلد ٤ ص ٢٩٢ .

فى التوسع ، ورغبوا فى أمريكا الوسطى واللاتينية ... هناك تذكروا تعاليم العرب ، وعدم اتخاذهم حواجز مصطنعة بين الغالب والمغلوب ، فاختلطوا وتزوجوا بسكان البلاد الأصليين .

وقد رفع الإسلام من شأن المرأة وكفل لها مكانة اجتماعية ممتازة تحسدها عليها أختها الأوربية إبان العصور الوسطى التى لم تنل حظها من العناية تبعا لاتجاه المذهب الكاثوليكى الذى كان يعد المرأة مخلوقا فى المرتبة الثانية ، ولهذا فإن المرأة لم تمنح هناك فى تلك الفترة شيئا من حقوقها ووصل حرمانها إلى درجة أن حرمت من أى لون من ألوان النفوذ فيما عدا المجال الضيق الذى تقطن فيه ، وهو المنزل ، كما عاملها أمراء النصارى الإقطاعيون فى القرون الوسطى معاملة سيئة ، فلم تنل منهم احتراما بل كانت ترضخ لغلظتهم حتى تعلم هؤلاء النصارى من المسلمين كيفية معاملة المرأة ، وعرفوا عنهم حقوق معاملتها من بين مبادئ الفروسية التى انتقلت إليهم ، ومن بينها احترام المرأة والمحافظة عليها .

فالإسلام بحق هو الذى رفع المرأة من الدرك الأسفل الذى كانت فيه ، وكل من أرخ لتلك الناحية من الأوربين لم يجد معدى من الاعتراف بذلك أمثال «غوستاف لوبون» وسبقه «كوسان دو برسنال» و«مسيو بارتلمى سان هيلر» وغيرهم .

وقد ضم بلاط الخليفة - بالأندلس - من النساء العالمة باللغة والأدب ، والرياضة والعلوم ، فهذه «ولادة بنت المستكفى» حفيد الناصر ، ولها فى الأدب والشعر شأن كبير حيث كانت تدير ما يشبه الصالونات الأدبية فى العصر الحديث وهذه «لبنى» يعتمد الخليفة الحكم بن عبد الرحمن عليها فى كتابة رسائله الخاصة وكانت دقيقة التفكير وقامت «مريم بنت يعقوب الأنصارى» بتعليم بنات الأسر الراقية فى أشبيلية ، وتخرج على يديها نساء رعات ، أما عائشة بنت أحمد القرطبية فقد كانت من عجائب زمانها ، وكانت جيدة الخط تكتب المصاحف وشاعرة ، وكانت خزانة كتبها من أثرى المكتبات الخاصة ، ولقبت حمدونه بخنساء المغرب ، وحرر الخليفة «عبد الرحمن الناصر» «راضية» ثم تنازل عنها لابنه الحكم ، ولما مات ساحت فى الشرق ، وقدرها العلماء .

وهكذا كان للمرأة منزلتها الاجتماعية التى تحترمها أولا : ككائن اجتماعى يضطلع بدور كبير فى بناء الأمة ، وثانيا كإنسانة تتمتع بمواهب فذة ، وكفاية حية ينبغى أن تأخذ حقها من الاحترام . ؟

يوسف حسن نوفل
خريج كلية دار العلوم

مفهوم التجديد الدينى

للأستاذ رءوف شلبى

منذ الحركة اللاثورية التى دعت إلى الإصلاح الدينى - المسيحى - فى أوربا ليتقبل العقل الغربى تعاليم كنيسته التى تمزقت واختلفت فى:

- تعاليمها الرئيسية.
- وتشريعاتها السلوكية.
- ومناسباتها الدينية.

منذ ذلك الحين، والمفاهيم الدينية يحوطها ضباب كثيف ... حتى صارت فكرة التجديد الدينى « مودة » يتعشقها المارقون على الدين، ويقبلها السذج من العاطفة والثقافة، والعقيدة.

ومن غير تردد، فإن كل فكرة تدعو إلى التجديد فى الدين فى الشرق الإسلامى أو يكون فيها تطاول على سدنته، وعلمائه، هى دعوة تقليدية للعمل الأوربى القديم الذى حطم كبرياء الكنيسة فى ظل الثورات الدينية، والعسكرية، والدوافع الاجتماعية والسياسية والنفسية، التى ربما كانت تقتضى ذلك.

وليس أدل على تفاهة موضوع ما، يدعو به إنسان ما، مهما كانت قيمته العلمية من أنه ينتحل أسلوبا لغيره فى زمن لا يسعفه الوضع الاجتماعى، ولا التهيئة النفسية المستقيمة لقبول منطقه.

ويدعى - مغالطة - إصالة دعوته، وربما استقر فى عقله الباطل إشراك بما يتوهمه عقله الظاهر المقلد.

ومن أمثاله تلك القضايا - فى شرقنا المسلم - أصحاب دعوة التجديد الدينى فى الإسلام، الذين يتعبون أنفسهم، وأقلامهم، فى شرح مفاهيم فكرتهم بحجة سماحة الإسلام ويسره.

ولقد كان ينبغى لأصحاب هذه الدعوة أن يستعرضوا كتاب الله الكريم، ليروا مقدار ما يكون لدعوتهم من البوار، أو الرواج، عندما تحدد مفاهيم التجديد الدينى، تلك القصاصة التى نقلوا عنوانها من أحداث أوربا فى عهدها المظلم القاسى إلى حياتنا المعاصرة فى ظل الإسلام الحنيف.

وبوضوح فإن القرآن يحدد:

١ - « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ».

٢ - وأنه لا مجال للتشريع بالرأى ما دام هناك نص من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يقضى بذلك القرآن الكريم: « ما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا ».

٣ - وأن الجهة الخاصة بالتشريع للأمة هى ما توضحها الآية الكريمة: « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ».

لجهة التشريع ، والفتوى خصصها القرآن بطائفة محددة : —

إنها الجماعة التي هيأ الله لها :

١ — وضوح المعرفة الدينية .

٢ — والفقه اللغوى العربية الفصحى ، وإدراك سر المعانى .

٣ — والأمانة العلمية الدقيقة .

٤ — والسلوك الدينى الرفيع .

٥ — والغــيرة على ربط الحياة فى مجرياتها ، الفرد ، والجماعة ، والأمة بقواعد الإسلام : نصوصه ، وروحه .

وهذا النسق الأصولى للتشريع الإسلامى مراده ربط حياة المسلمين فى كل زمان ومكان بثقافتهم التى افتتحها الله تعالى لهم بالقرآن الكريم ، وغذاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسنة الإسلامية المطهرة .

وإذا : فكل تطاول على مفاهيم التشريع الإسلامى وأصوله ، وأئمته ، هو اعتداء على الثقافة الإسلامية الأصيلة فى مجال تطبيقها على أمتها .

والمعركة دائرة منذ التوسع الإسلامية فى الأندلس ، ومناهضة البرتغال لهذه الحركة الإنسانية ، بالاستيلاء على الموانى الإسلامية فى بحار الشرق الأقصى — المعركة دائرة منذ ذلك الحين — حول تحطيم الامبراطورية الإسلامية ، ومن المفهوم جيداً أن أية أمة عظمى لا تدك حصونها إلا يوم أن تتلاشى شخصيتها ومقوماتها .

ومقوم الأمة العربية ، هو الإسلام : بأصوله ، وفقهه ، وأئمته .

ولهذا فقد أراد المخطط الاستعمارى أن يزاوج بين وسيلتى الاستعمار العسكرية والثقافية ، ذلك أن أمر الاستعمار العسكرى قريب الأجل ، أما الغزو الثقافى فإنه يستقر فى الدم ويملك زمام العقل ، ويسيطر على الوجدان والسلوك .

ومن هنا فقد رتب له مدارس خاصة تناهض الأمة الإسلامية مع زحمة الحديد ، وضغط الجيوش والمتابعون لهذا المخطط يستطلعون هذا المكر فى تيارات الهدم من أبناء الشرق فى حركات .

١ — الشعر الجاهلى :

٢ — أصول الحكم فى الإسلام :

٣ — ولدينا دعوة جديدة هى التوأم الثالث وهى فكرة التجديد الدينى وتستند كل ما تستند هذه القضية إلى مفهوم خاص فى معنى الإجماع ...

وعلى أية حالة فإن دراساتها لكتب أصول الفقه هى دراسة المبغض المتلبس وشيجة — فى زعمه — واهية ليقطع بقية الأواصر والأوشاج .

والحق أن مفهوم الاجماع هو تنظيم الحياة الإسلامية للأمه فى حادثة جديدة ليس لحكمها نص من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بروح الشريعة الإسلامية . بحيث لا يكون هذا الحكم مفرخا لمشكلات أخرى لا تتفق مع أحكام الشريعة أو تصطدم مع العقائد الأساسية فى الدين ، أو لا تتسق مع أهداف الإسلام وأخلاقه .

ومعنى هذا : أن الإجماع الأول مفهومه حرص دقيق على استمرار الحياة الإسلامية مرتبطة بمفاهيم ثقافة الإسلام الأولى ، وإذن فدعوى إحلال مجالس التشريع المعاصرة محل هذا الإجماع الشريف دعوة للتحلل من انتظام حياتنا المعاصرة مع الحياة الإسلامية الأولى ويظهر هذا التحلل مايذكر من علة «أن الاجماع المعاصر شاهد مجدداً من الحضارة والقانون والعلوم ... الخ لم يشهدها الإجماع الأول» .

ومعنى هذا : انتصار للثقافة الغربية فى ميدان التطبيق على الثقافة الإسلامية فى عقر دارها .

ومن جانب آخر : لو كان لأصحاب دعوة التجديد الدينى فى الإسلام وضوح فى إخلاص النية ، لاتجهوا من فورهم بهذه الفكرة إلى الجهاز الذى أقره « إجماعهم » الذى يؤمنون به فى دعوتهم ، ويعرضون عليه تفاصيل ما يدعون إليه .

فإن الدولة فى نهضتها العربية المسلمة قد أنشأت بالقانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ مجمع البحوث الإسلامية .

١ — لتستمر شعوب العالم الإسلامى والأمم العربية متجهة نحو قيادة الأزهر فى مجال الدعوة الإسلامية .

٢ — ولتبعث من جديد مواريثنا الثقافية القديمة .

٣ — ولتهذيب الثقافة الإسلامية من الفضول والشوائب التى رماها بها الاستعمار الفكرى الأوربى فى القديم . والحديث .

٤ — ولينشط العمل الإسلامى فى حياة الشعوب المسلمة على نظام من قواعد الإسلام ولتوضع له الحلول فى كل ما يعن لمجتمعاتهم من مشكلات .

ومعنى هذا : إن مجلس الأمة قد أعفى نفسه من النظر فى التشريعات الدينية وأنشأ لها جهازاً جمع فيه جهابذة العلوم الإسلامية والقانونية والحضارة ليحقق ما انعقد عليه من آمال .

وأخيراً نقول لأصحاب فكرة التجديد إن الدولة فى تخطيطها الشامل لميادين الإصلاح قد ربطته العلماء وأصحاب الفكر بأجهزة يتوجهون إليها فى كل اختصاصه .

لولا أن سنة الأجداد لا تزال تتعب سلوك الأحفاد إذا ما سطع نور الحق ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره .

إن هذا الشرق قد ولد على يد العقيدة وانتشر فى نهضة واسعة بعزة الإسلام وليس لتاريخه وحضارته سند إلا هذا الدين ، فليرجع عنه تلاميذ المخطط الاستشراقى العجوز وليخلعوا ثيابهم الخادعة بكلمة الإسلام ، لتظهر سوأة الإلحاد فإنه لاعاصم لهم من أمر الله .

وبالله التوفيق ؟

رءوف شلبى

في التجديد الديني

للأستاذ منشاوي عبود الخولي

قرأت مقال التجديد الديني المنشور بمجلة الرسالة عدد ٥٩ فلاحظت عليه ملاحظات أجملها فيما يأتي :

١ — يرى الكاتب أن التحريم إذا كان بنص من الكتاب والسنة يجب الإذعان له والعمل به .

وأما إذا كان التحريم عن طريق الإجماع فلا تترتب عليه النتيجة السابقة ويعلل رأيه هذا بقوله :

(لأن الإجماع ليس إلا لونا من ألوان التشريعات المدنية التي تسود الجماعة في وقت من الأوقات والتي تحرص عليها الجماعة ما دامت محققة للمصلحة العامة وملبية لحاجة الناس) .

وهذا يدل على نقص الإدراك لحقيقة الإجماع الشرعي فإن الإجماع الذي اعتبر من أدلة الأحكام الشرعية هو :

اتفاق جميع المجتهدين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بعد وفاته في عصر من الأعصار على حكم شرعي : وللاجتهاد شروط كثيرة تكفلت كتب الأصول ببيانها ، ولا تتوفر هذه الشروط إلا للصفوة الممتازة من أعلام الشريعة الإسلامية .

والإجماع لابد له من سند فيجب أن يكون لأهل الإجماع سند يستخرجون منه الحكم ويجمعون عليه لأن الاستقلال بإثبات الأحكام ليس للبشر - ولو جاز الإجماع بلا دليل انقلبت الأباطيل صوابا بالإجماع لأن الإجماع قول كل من المجتمعين وقول كل منهم بلا دليل محرم فكونه بلا سند باطل .

والسند قد يكون نصا من الكتاب أو السنة فإذا كان الإجماع على تحريم شيء . يكون التحريم في الحقيقة ثابتاً بهذا النص من الكتاب أو السنة .

وعمل المجتهدين بإجماعهم هو الاتفاق على إبراز هـــذا التحريم الذي دل عليه النص .

غاية الأمر أنه بعد اشتهار الإجماع يحتج بهذا الإجماع على ثبوت الحكم الشرعي .

ولا يلزم غير المجتهدين البحث عن سنده لأنه يكفي أن يكون السند معروفا للمجتهدين عند إجماعهم .

لذا كان من المقرر عند علماء الأصول كون الإجماع حجة شرعية يثبت الحكم قطعا .

ومن هذا يتبين أن تفرقة الكاتب في العمل

بين حكم التحريم الذى ثبت بنص من الكتاب أو السنة وبين حكم التحريم الذى ثبت بالإجماع تفرقة لا تقوم على أساس بل تدل على تجرد من فقه الإجماع ودراسة مباحثه .

٢ — قال الكاتب :

(إن من المجتهدين المسلمين من خالف إجماع الفقهاء . ولم ير فى مخالفته بأساً) .

واستدل الكاتب على فهمه هذا بقوله :

(لقد أجمع الفقهاء على أنه يحرم بالرضاع ما يحرم بالمصاهرة . ولكن ابن تيمية لم يذهب إلى هذا الرأى) .

وهذه المسألة التى يتحدث عنها الكاتب قد بينها الشوكانى فى كتابه نيل الأوطار فقال :

قد وقع الخلاف هل يحرم بالرضاع ما يحرم من الصهار .

وقد ذهب الأئمة الأربعة إلى أنه يحرم نظير المصاهرة بالرضاع . فيحرم عليه أم امرأته من الرضاعة وامرأة أبيه من الرضاعة — ويحرم الجمع بين الأختين مع الرضاعة — وبين المرأة وعمتها وبينها وبين خالتها من الرضاعة .

وقد نازعهم فى ذلك ابن تيمية كما حكاه صاحب الهدى .

وحديث عائشة [1] فى دخول « أفلح » عليها فيه دليل على ثبوت حكم الرضاع فى حق زوج المرضعة وأقاربه كالمرضعة .

وقد ذهب إلى هذا جمهور أهل العلم من الصحابة والتابعين وسائر العلماء . وقد وقع التصريح بالمطلوب فى رواية لأبى داود بلفظ قالت عائشة : (دخل على أفلح فاستترت منه . فقال : أتستترين منى وأنا عمك . قلت : من أين . قال : أرضعتك امرأة أخى . قالت : إنما أرضعتنى المرأة ولم يرضعنى الرجل . فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثته فقال : إنه عمك فليلج عليك) .

وروى عن عائشة وابن عمرو بن الزبير . ورافع بن خديج . وزينب بنت أم سلمة . وسعيد بن المسيب ، وأبى سلمة بن عبد الرحمن ، والقاسم بن محمد ، وسالم وسليمان بن يسار ، وعطاء بن يسار ، والشعبى ، والنخعى ، وأبى قلابة ، وإياس بن معاوية القاضى أنه لا يلبث حكم الرضاع للزوج حكى ذلك عنهم ابن أبى شيبة ، وسعيد بن منصور ، وعبد الرازق ، وابن المنذر .

(١) نص هذا الحديث : (عن عائشة أن أفلح أخا أبى القيس جاء يستأذن عليها وهو عمها من الرضاعة بعد أن نزل الحجاب . قالت : فأبيت أن آذن له . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرته بالذى صنعت فأمرنى أن آذن له) رواه الجماعة .

وروى أيضاً هذا القول عن ابن سيرين ، وابن علية ، والظاهرية ، وابن بنت الشافعى .

وقد روى مما يدل على أنه قول جمهور الصحابة فأخرج الشافعى عن زينب بنت أبى سلمة أنها قالت :

كان الزبير يدخل على وأنا أمتشط أرى أنه أبى وأن ولده إخوتى لأن امرأته أسماء أرضعتنى فلما كان بعد الحرة أرسل إلى عبدالله ابن الزبير يخطب ابنتى أم كلثوم على أخيه حمزة بن الزبير وكان للكلبية . فقلت : وهل تحل له فقال : إنه ليس لك بأخ ، إنما إخوتك من ولدت أسماء دون من ولد الزبير من غيرها . قالت : فأرسلت فسألت والصحابة متوافرون . وأمهات المؤمنين . فقالوا : إن الرضاع لا يحرم شيئاً من قبل الرجل ، فأنكحتها إياه .

وأجيب بأن الاجتهاد من بعض الصحابة والتابعين لا يعارض النص - ولا يصح دعوى الإجماع لسكوت الباقين - لأنا نقول نحن نمنع :

أولا : أن هذه الواقعة بلغت كل المجتهدين منهم .

وثانيا : أن السكوت فى المسائل الاجتهادية لا يكون دليلا على الرضا .

وأما عمل عائشة بخلاف ما روت فالحجة روايتها لا رأيها ، وقد تقرر فى الأصول أن مخالفة الصحابى لما رواه لا تقدح فى الرواية .

وقد صح عن على القول بثبوت حكم الرضاع للرجل - وثبت أيضا عن ابن عباس كما فى البخارى) اهـ .

من هذا يتضح أن المسألة خلافية ، وأن القول بأنه يحرم بالرضاع ما يحرم من الصهار رأى الأئمة الأربعة وجمهور الفقهاء وقد ظهر رجحان دليلهم

فليست هذه المسألة من مسائل الإجماع - كما فهم الكاتب - لأنها لو كانت من مسائل الإجماع لما ساغ لواحد مخالفة حكم الإجماع . فصنيع الكاتب الذى أراد به أن يجعل من هذه المسألة أساسا يبنى عليه ما أراد يعتبر عملا مهدراً ، وأساسا منهاراً لا يحقق له ما يهدف إليه من محاولة طائشة .

٣ - قال الكاتب : لجميع مشروعاتنا المستحدثة كغزو الفضاء . واستخدام الطاقة الذرية فى السلم تدخل فى باب الإباحة من حيث إنه لا نص فى الكتاب أو السنة على تحريمها .

ونقول له . من الذى قال بحرمة غزو الفضاء واستخدام الطاقة الذرية فى السلم ؟

إن نصوص القرآن الكريم تأمر بالنظر فى ملكوت السموات والأرض . وتعرف سنن الله فى الكون وما أودع فيه من

خصائص وأسرار للانتفاع بها وأخذ العبرة منها ، والاستدلال بها على عظمة الخالق وإبداعه فى خلقه قال تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) .

٤ — قال الكاتب : (بل نستطيع أن نذهب إلى أن جميع المشروعات المستحدثة لا تحتاج إلى فتوى من رجال الدين . إذ من المسلم به أن الكتاب والسنة لم يتعرضا لها لأنها لم تكن موجودة) .

وهذا يدل على أن الكاتب لم يفقه شريعة الإسلام . فإنه لا ريب أن شريعة الإسلام شريعة خالدة وأنها الدين الذى رضيه الله لعباده . وأنها تكفلت بأحكام المكلفين فى جميع الحالات والأزمنة .

ولا يقبل من أحد اتباع سواها ، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ، فإذا وجدت حادثة معينة نص القرآن أو الحديث على حكمها . وجدت حادثة أخرى بعد عصر النبى صلى الله عليه وسلم فإن المجتهد بواسطة القياس ينظر فى علة الحكم للحادثة السابقة فإذا وجد هذه العلة متحققة فى الحادثة الجديدة حكم بأن النص الوارد فى الحادثة الماضية وارد فى الحادثة الجديدة أيضا . ويكون حكمها ثابتا بهذا النص — ولذا كان معروفا بين علماء الأصول أن القياس مظهر للحكم لا مثبت له — فيكون حكم الحادثة الجديدة ثابتا بالنص الذى أثبت حكم الحادثة السابقة — فعندما يسأل رجال الدين عن حكم مسألة لا يجيبون عنها بالهوى وإنما يبحثون عن الحكم الثابت بالنص فى نظيرها .

وبعد أن يطمئنوا إلى المساواة فى علة الحكم بين المسألة السابقة والجديدة ينقلون الحكم الثابت بالنص إلى المسألة الجديدة ما دامت علة الأصل متحققة فى الفرع .

فللمجتهد أن يدرج الحادثة الجديدة فى عمومات النصوص — أو عمومات العلل حتى يكون حكم الحادثة الجديدة ثابتا بالنص أو القياس .

٥ — يقول الكاتب (يذهب أبو يوسف إلى أن الحكم الشرعى المبنى على العادة يعطل إذا تغيرت العادة ، ولا ضير من مخالفة النصوص) .

لم يذكر لنا الكاتب المصدر الذى نقل عنه هذه القاعدة — ونستبعد أن تصح نسبة القول إلى أبى يوسف أو غيره من أئمة الإسلام بتعطيل نصوص الشريعة تبعا لعادة الناس ، فإن ذلك يؤدى إلى وقوع النسخ فى الشريعة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ووقوع النسخ بعد عصره عليه الصلاة والسلام لا يجوز إجماعا .

وأيضاً يجعل شريعة الله خاضعة لعادة الناس ، وذلك سبيل للتخلص من هذه الشريعة

والقضاء عليها ، فإنه لا وجود لها إلا بأن تكون مهيمنة على أحوال الناس ، وأن يخضعوا لها تقاليدهم ورغباتهم قال صلوات الله وسلامه عليه (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) .

٦ — بعد أن ذكر الكاتب أحكام الشريعة فى الغنائم دعا إلى عدم العمل بها لأن عادات الناس تغيرت ، والأسلحة التى يحاربون بها فى هذا العصر تختلف عن الأسلحة السابقة فقال ما نصه (هذه الأحكام الشرعية وجدت يوم كانت الدنيا كلها تجرى تقريبا على هذه القواعد أو على تلك العادات .

ونحن اليوم نمضى فى الحرب على أسس لم تكن معروفة للسابقين من مدفعية ودبابات ثم قال : لقد تغيرت العادات وتغيرت القوانين تبعا لها . وقال أيضاً إن تغير كل هذا قد عطل نصوص الشرع الشريف الخاصة بالغنائم ولا ضير فى ذلك ولا ضرر) .

ولا ريب أن هذا قول بالغ الخطورة ، ودعوة جريئة آثمة ، ومحاولة باغية لإلغاء نصوص القرآن والسنة فى باب من أبرز أبواب شريعة الإسلام ، ومن أجل أى شىء يقترف هذا الفساد والدمار ؟ من أجل اختلاف الأسلحة فى عصرنا عن العصر الماضى أى منطق هذا ؟ وأى عقل يسيغه ؟ وأى حليم يصبر على هذا الهراء ؟

لقد دعا الإسلام إلى الاستعداد للأعداء بكل قوة تقسع لها طاقتنا وإمكانياتنا فقال جل شأنه « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

ولم يحدد القرآن نوع القوة التى نعدها لتفسر فى كل زمان بما يرهب أعداء الإسلام فإذا كانت الرهبة بالسيف ، كان الإعداد بالسيف ، وإذا كانت الرهبة بالقنبلة والصاروخ كان الإعداد بهما وهكذا ... فكل ما يجد من آلات حربية تخيف الأعداء مأمور به فى قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

وهذا من الأدلة على عموم الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان .

على أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قال فى تعليقه على هذا الآية (ألا إن القوة الرمى) وذكرها ثلاثا وذلك يشمل كل ما يرمى به . وهذا من معجزات النبوة الباهرة فليس فى الآية إذن خصوص الإعداد بالسيف حتى يتخذه الكاتب مطية إلى ما يريد من بغى وضلال .

٧ — يوجه الكاتب إلى رجال الدين وعلماء الأزهر كلمة تتعلق بملكية الأراضى فيقول متحدثا عنهم .

« إنهم من غير شك أولى الناس بتطبيق أحكام الشرع الشريف ـ وأحكام هذا تفيد أن أرضنا المفتوحة عنوة ملك للدولة

ووقف على المسلمين فهل لهم أن يعلنوا أن أراضيهم التى تحت أيديهم ليست ملكا لهم وإنما هى ملك للدولة وأنها تحت أيديهم على أنها أرض عشرية وأن ما دفعوه فيها من أموال للبائعين كانت من قبيل خلو الرجل .

وهذا كلام يعترض عليه من وجوه .

الأول - إنه يناقض رأى الكاتب فى أول المقال فإنه يرى أن التحريم لا يثبت إلا بنص من القرآن أو السنة ، وكلامه هذا يتضمن تحريم انتفاع هؤلاء بأراضيهم فأين النص من القرآن أو السنة على هذا التحريم ؟

الثانى : قوله : إن ما دفعوه فيها من أموال للبائعين كانت من قبيل خلو رجل : يفيد هذا القول أن خلو الرجل مشروع مع أنه أمر غير مشروع إذ المال المأخوذ فيه ليس له عوض ولا مقابل فيكون من باب أكل أموال الناس بالباطل ، وقدم حرم الله ذلك بقوله « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » .

الثالث : الحكم بأن أرض مصر غير مملوكة لأهلها حكم غير سديد لأن أرض مصر فتحت عنوة حين فتحها عمرو بن العاص . وأقر عمر رضى الله عنه أهلها عليها - ووضع الخراج على أرضها فتكون أرضاً خراجية - والأرض الخراجية مملوكة لأهلها يجوز تصرفهم فيها بيعا وإجارة وغير ذلك : قال فى المختار وشرحه الاختيار :

(والسواد [1] أرض خراج) لأنه يجوز إقرارهم على الكفر فقد وجد شرط الخراج ولأن عمر رضى الله عنه فتح سواد العراق ووضع عليه الخراج بمحضر من الصحابة - وأجمع الصحابة على وضع الخراج على الشام . وكذلك وضع عمر رضى الله عنه على مصر الخراج حين فتحها عمرو بن العاص ثم قال : (وأرض السواد مملوكة لأهلها يجوز تصرفهم فيها) لما بينا أن الإمام إذا فتح بلده قهراً له أن يقر أهلها عليها ويضع عليهم الخراج - فإذا أقرهم عليها بقيت مملوكة لهم فيجوز تصرفهم فيها بيعاً وشراء وإجارة وغير ذلك كسائر الملاك والأملاك . ا هـ

لهذا بقيت كلمة أتوجه بها إلى هذا الكاتب وأمثاله : إنه ينبغى ألا يتطاول الإنسان إلى مقام علمى إلا بعد أن يعد له عدته دراسة شاملة . وبحث مستنير . ونظرة فاحصة امتثالا لقول العليم الحكيم « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ؟

منشاوى عبود

---

(١) قال صاحب اللباب فى تفسير السواد (أى سواد العراق سمى سوادا لخضرة أشجاره وزروعه وهو الذى فتح على عهد سيدنا عمر فأقر أهله عليه . ووضع على رقابهم الجزية . وعلى أراضيهم الخراج) . ا هـ

تيارات منحرفة في التفكير الديني المعاصر

للأستاذ علي العماري

لا يكاد يمر يوم دون أن يسجل الراصد للتيارات الفكرية فى أيامنا هذه تياراً منحرفا فى التفكير الدينى .

فقد كثرت وسائل الإعلام ، واتسع مجالها ، من صحف ومجلات ، وإذاعة مسموعة ، وأخرى مشاهدة منظورة ، و (سينما) ومسرح ، وأندية ثقافية ... إلى أنماط أخرى تتيح للناس أن يعبروا عن آرائهم .

وقد يكون من الخير أن يتذاكر الناس شئون دينهم ، وأن يعبر كل ذى رأى عن رأيه ؛ فإن الحقيقة بنت البحث - كما يقال - وأن المذاكرة تعدى على العلم - كما يقال أيضاً - .

ولكن الذى لا يبشر بخير ، أن يقول كل من أراد ما أراد دون أن يرجع إلى فقه فى موضوعه ، ودون أن يتعمق الدراسة ليمحص رأيه ، وأن يتقحم الكاتب كل موضوع دون أن يكون من أهله ، فإن أضرار هذا التقحم كثيرة ، وأولها يعود على الكاتب نفسه ، لأنه يظهره فى ثوب الجاهل المتعالم ، أو الأجنبى المتطفل .

ولعلك أيها القارىء لاحظت كما لاحظت أن كثيرين ممن يتكلمون فى الإصلاح الدينى تنقصهم الدراسة الواعية ، ويتملكهم الغرور المتعالى ، وتسيطر على أقلامهم ، وعقولهم (اللامبالاة) فيهرفون بما لا يعرفون ، ويعتسفون فى مجاهل ليست لهم أية خبرة بشعابها ووديانها ، وقديما قال العرب : قتل أرضا عالمها وقتلت أرض جاهلها .

هل سمعت (حلاق القرية) فى ساحة الحى حيث يجلس متعالياً متطاولا ، وحوله أهله وعشيرته متحلقون ، يحاضر فى أدق شئون الطب ، ويشخص أكثر الأمراض تعقيداً ، ويصف لها من الأدوية ما كانت تصفه العجائز منذ قرون ؟ !

إذا كنت رأيت هذا المشهد الرائع العجيب ، أو سمعت به ، فاعلم أنه مثل واضح صادق لبعض أصحابنا الذين يحاضرون ، أو يكتبون ، أو يذيعون آراء يزعمون أنها لتجديد الدين ، أو لتفسيره ، أو لحل مشاكل الناس من الناحية الدينية ، وهم فيما يبدو لم يقرأوا كتاباً واحداً فى أصول التشريع ، أو على الأقل لم يفهموا هذا الكتاب إذا كانت كبرياؤهم سمحت لهم فحاولوا أن يمروا بصفحاته مرور العجالى المجتهدين .

ولعل أخطر هذه الآراء تلك التي يذيعها أناس يملكون حق النشر والطبع ، فهم في الوقت الذي يعلنون فيه أنهم يقدسون حرية الرأي ، ويقدرون قيمة الكلمة ، لاتسعفهم الشجاعة النفسية أن ينشروا كلمة واحدة تعاسرهم الحساب ، أو تبين لهم مدى الخطأ الذي يقعون فيه ، في الوقت الذي يذيعون فيه كل كلمة منحرفة ما دامت تسير في الطريق الذي يسيرون فيه ، وتهدف إلى الغاية التي يقصدونها .

ولسنا نطلب من الدولة أن تضرب على أيدي هؤلاء ، ولا من المسئولين الحقيقيين عن أجهزة الإعلام أن يطهروها ممن يقولون بغير علم ، ويجترئون على الحقائق بغير اكتراث ، ويعتدون على مقدساتنا لغير صالح أمتنا ، لسنا نطلب شيئاً من ذلك ، ولكننا نطلب منهم أن تكون لهم رقابة على سير هذه الأجهزة حتى يدركوا أن اتجاهات خاصة تسيطر على بعضها ، ولا أثر لاتجاهات أخرى تحد من غلواء تلك الاتجاهات ، وتقلل من خطرها على عقائد الناس ، وعلى أخلاقهم .

لقد كان منذ سنوات كاتب كان حواريوه يصفونه بأنه من أعمدة الفكر في هذا العصر ، وكان يكتب (يومياته) في صحيفة يومية ، وكثيراً ما تناول قضايا دينية وحشد لها من المنحرفين ، وطلاب الشهرة من يؤيد آراءه ويحطب حباله ، وكان أكثر ما يتبجح به حرية الرأي ، ولست أذكر أنه سمح مرة واحدة لكلمة حق أن تنشر في (يومياته) على الرغم من الكلمات الجادة ، الواضحة الحجة ، البينة المحجة التي أرسلت إليه .

* * *

ذكرت كل ذلك حين رأيتني في الأيام الأخيرة أطلع كل يوم على عجيبة في مهاجمة الدين ، أو في تحريف نصوصه ، أو في تفسير قواعده وأصوله ، على طريقة (حلاق قريتنا) العالم بالطب والجراحة ، وهو لا يعرف إلا الحجامة والكي بالنار ، ونزع الأضراس (بكماشته العتيدة) .

وآخر ما قرأت من هذا مقالات في (التجديد الديني) للدكتور محمد أحمد خلف الله ، آثرتها مجلة الرسالة .

وعلى الرغم من معرفتي القديمة للدكتور من يوم أن نعل فعلته بكتابه (القصص الفني في القرآن) فقد تابعت قراءة هذه المقالات على أمل أن أجد فيها جديداً ينفع أمتنا ، وينفع المسلمين في وقتهم الحاضر ، ولكن وجدتني بعد أن أتم الدكتور مقالاته أذكر هذه القصة القصيرة :

لقي رجل صديقاً له فسأله : آلحسن والحسين بنتا معاوية بن أبي طالب ؟ فقال له صاحبه : والله ، ما أدري أي أخطائك أصحح !

وقد مست هذه المقالات أصولا وفروعا في التشريع الإسلامي مساً عنيفاً .

وسأترك للمتعمقين في دراسة الفقه والأصول الرد على ما أثاره من مسائل جزئية ، وأراجعه في القضايا الكبرى التي أثارها ، والتي أظن أنها لا تخفى على من له إلمام ما بالتشريع الإسلامي ، وسيتبين من هذه المراجعة أن الكاتب لم يكن يعتقد ما يقول .

• • •

١ — ابتدأ الكاتب فوضع (أصلا) ليبني عليه كل ما أتى به بعد ، ذلك الأصل هو أن في التشريعات الدينية عناصر ثابتة خالدة لا تتأثر بزمان أو بمكان وعناصر أخرى غير ثابتة .

ومثل للأولى بالمعتقدات الدينية الخاصة بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وهي التي وصى الله بها جميع الأنبياء — كما ورد في هذه الآية التي ساقها الكاتب في هذا الموضع — : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . واعتمد — هنا — على تفسير الرازي لهذه الآية ، وخلص إلى العناصر غير الثابتة ورأى أنها (التكاليف والأحكام) فهي — كما يقول — خاضعة للتغيير والتبديل .

وهكذا في غفلة من العقل ، وذهول من المنطق ، وفي جرأة على الحق حكم الكاتب على (التكاليف والأحكام) في شريعتنا الإسلامية الثابتة الخالدة ، بأنها غير ثابتة ، ولا خالدة .

فالصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ، ينالها التغيير والتبديل أصولا وفروعا في رأي الكاتب .

وإذا كانت الصلاة — مثلا — تختلف في شريعة محمد صلى الله عليه وسلم عن شريعة إبراهيم ، ونوح ، فينبغي — كما يزعم الكاتب — أن تختلف في القرن العشرين عنها في حياة الرسول ، وهكذا يقال في كل التكاليف .

ولا أعتقد أن هذا جهل من الكاتب ، فهذا لا يكاد يجهل الحق فيه مسلم ، ولا غير مسلم ، فبقي أن يرجع القارىء إلى حدسه وتخمينه ليعرف ما الذي حمل كاتباً يشرف على مجلات وزارة الثقافة أن يثبت مثل هذا الكلام .

ونمضي مع الكاتب فنراه يصر على هذا الذي ارتآه ، ولكنه يبدأ يتراجع شيئاً فشيئاً ، فيرى أن نصوص الشرائع السماوية نصوص مقدسة لا يمكن أن تكون محل تغيير ، ولكنه في الوقت نفسه يرى أن آيات الأحكام أو بعضها يمكن أن تتأثر بفعل الزمن ، هكذا (آيات) فهو لم يقل : الأحكام التي استنبطها الفقهاء من بعض

الآيات، وإنما قال (الآيات) كأنه يرى أن بعض النصوص المقدسة يمكن أن يتأثر بفضل الزمن.

ويضرب فى عمياء مظلمة، فى خبط وخلط، راجعاً مرة إلى ابن خلدون، وأخرى إلى ابن قيم الجوزية، وثالثاً إلى بعض الآيات ليصل أخيراً فى إعياء وإجهاد إلى بعض الفقهاء الذى يرى أن مخالفة الأحكام المأخوذة من النصوص الدينية تجوز فى غير الضرورة وذلك إذا زالت علة الحكم الشرعى، أو تغير العرف والعادة، ويعلن هنا عن قاعدة ذهبية رآها فى بعض الكتب دون أن يتعمق فى دراستها، وينسبها إلى (الفقهاء المسلمين) هكذا بصيغة التعميم، وهى: «إن الحكم الشرعى المبنى على علة يدور مع علته وجوداً وعدماً».

وأنا أترك شرح هذه القاعدة، وبيان ما فيها لمن يناقشونه من فقهائنا، أو أحيله على أى كتاب من كتب أصول الفقه ليتفهم هذه القاعدة جيداً.

ويذكر هنا - مثلا - وهو - كما يقول - تعطيل سيدنا عمر بن الخطاب لبعض النصوص القرآنية الخاصة بالمؤلفة قلوبهم، وأحيله على أحد الشيوخ ليشرح له صنيع عمر، فإن مثل هذا الكاتب لا يحتاج فقط إلى كتاب يقرأ فيه، وإنما يحتاج إلى معلم يرشده

ومن هـــذا القبيل ما نسبه إلى الإمام أبى يوسف فى جرأة غريبة، وتعميم عجيب من جواز ترك النص واتباع العادة.

٢ — وينسب إلى الفقهاء أنهم يقولون إن الإجماع إنما يكون حين لا يوجد نص من كتاب، أو سنة صحيحة، ومعنى ذلك - عنده - أن الحكم الشرعى الذى يجىء عن طريق الإجماع يكون حكما شرعياً مستحدثاً.

وهذه غلطة سببها أن الكاتب لم يحاول أن يطلع حتى ولا على (تعريف) الإجماع. ويستطرد الكاتب فيبنى على أصله هذا أن طبيعة الإجماع هى بعينها طبيعة التشريعات المدنية، أى أنها وضع القوانين والقواعد المنظمة للعلاقات بين الناس، وإن كانت القوانين المدنية - فيما يرى - أدق، وأكمل تنظيما.

وما دام سبيل الإجماع، والتشريعات المدنية واحداً فلماذا لا نعتبر التشريعات المدنية الحديثة الخاصـــة بالمعاملات، والصادرة عن الهيئات التشريعية الحديثة من قبيل الإجماع، أنه يعتبرها كذلك، ولا عبرة فى هذا الموقف بمخالفتها لإجماع سابق، ولو كان هذا الإجماع إجماعا للصحابة - رضى الله عنهم - كما قال.

ونقول له:

أولا: اعلم - وفقك الله - أن الإجماع لابد أن يعتمد على نص، من كتاب أو سنة (فإذا لم يكن فى نازلة كتاب ولا سنة وأتى

فيها السلف بفتوى ، ولم يعلم عن أحد منهم خلاف فى تلك الفتوى ، فإن جمهور الفقهاء يرى ذلك حجة فى الدين وذلك إن اجتماعهم لا يكون عن رأى ، إذ الرأى إذا كان تفرق فيه .

وذلك - فى الحقيقة - راجع إلى العمل بالسنة ، واعتبار ما كان من عدم الخلاف دليلا على وجود سنة رجعت إليها تلك الفتوى ، وهذا قليل الوجود جداً ، فيما اجتهد فيه العلماء) (١) .

وأظن أن هذا كلام واضح لا يحتاج إلى شرح ، فالإجماع ليس عن رأى محض ، وإنما هو مستمد من النصوص

والاتفاق على فتوى دون أن يعلم مصدرها من الكتاب والسنة قليل جداً .

ولعل من هذا القبيل تقسيم الكاتب الأحكام الشرعية إلى ما كان عن آية قرآنية ، أو سنة متواترة ، وما كان عن رأى الفقهاء ، كأن الفقهاء يقولون من عند أنفسهم دون أن يكون لآرائهم مستند من كتاب أو سنة ، ووضع كلمة (متواترة) هنا بجانب السنة يهدف إلى غاية منكرة ، إذ من المعلوم أن المتواتر من الأحاديث قليل ، وأن الأحكام الشرعية المأخوذة من الأحاديث غير المتواترة كثيرة ، وكأن الكاتب يريد ألا يعتد بهذه الأحكام ، وهو - فى هذا - يجهل لباب علم الأصول .

ونقول له ثانيا : إن الاجماع فى كل مسألة لا يعتد به إلا إذا كان من (المتخصصين) فى هذا العلم ، وليست أحكام الدين بأقل حرمة من قضايا الهندسة والطب والجغرافيا ، فإذا كنا لا نقبل من أعلام الهندسة أن يفتونا فى أدق الشئون الطبية ولا فى أوضحها فكيف نقبل من رجال لم يتخصصوا فى الدراسات الدينية أن يفتونا فى شئون ديننا ، وأن نعتبر إجماعهم ملزما لنا ، بل ناسخا لاجماع الصحابة .

كيف نقبل من لجنة فيها كوهين ، ومرقص والمستشرق فلان من أعداء الإسلام أن يكون حكمهم ملزما لنا فى شريعتنا ، بل ومعطلا للحكم الذى أجمع عليه صحابة رسول الله .

إنى مرة أخرى أجهل الغاية الحقيقية التى يجرى الكاتب خلفها ليدركها بمثل هذا الهراء .

٣ - وقريب من الاجماع اجتهاد المجتهدين . والكاتب يرى فيه ما رآه فى الاجماع ، إنه يرى أن الاجتهاد منفصل عن الكتاب والسنة ، ويجعل هذا الاجتهاد قسيما لهما ، فمصادر التشريع عنده ثلاثة : الكتاب ، والسنة ، والاجتهاد - ونسى هنا الإجماع - ثم إن أقوال المجتهدين غير ملزمة لنا ؛ لأن لنا من الحق مثل ما لهم .

ولو أن الكاتب مال على طالب أزهرى

---

(١) تاريخ التشريع للشيخ الخضرى ص ٢٠٦ ط أول .

صغير ، وسأله أن يعرف له الاجتهاد لقال له : إنه استفادة المكلف الحكم من كلام الوحى هكذا (كلام الوحى) . ولو ظفر بطالب آخر لعرف له الاجتهاد تعريفا آخر فقال له: هو بذل أقصى الوسع لتحصيل حكم شرعى عملى بطريق الاستنباط من الأدلة الشرعية .

وربما أسعده الحظ فلقى عالما أزهريا يقول له إن الاجتهاد هو الفقه ، وإن الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية ، وإذن فليست أقوال الوحى هى الأحكام وإنما هى (أدلة الأحكام) والعالم إذا وجه همه ، وبذل جهده واستخرج حكما من هذه الأدلة سمى (مجتهدا) .

فالاجتهاد - أيها السيد الجليل - ليس منفصلا عن الكتاب والسنة ، وإنما هو معتمد عليهما ، آخذ منهما .

ويخبط الكاتب - كعادته - فى موضوع الاجتهاد ، فيرى أن شروطه معجزة ، وأنه الآن أيسر منه فيما مضى للتقدم العلمى والرقى الفكرى اللذين يساعدان على المضى فى الاجتهاد دون خشية من الانحراف أو الخطأ ، ولتعدد الدراسات الذى يجعل ثقافة من يريد أن يجتهد أدق وأعمق من ثقافات السابقين .

ولا غرو ، فما دام يريد أن يقول فى الدين كل (من هب) وكل (من دب) فشروط الاجتهاد معجزة ، وما دام يرى أن من حق الفلاح فى الحقل ، والصانع فى المصنع ، والصحفى فى مكتبه بتلك المجلة التى تنشر الفساد ، ما دام يرى أن من حق كل هؤلاء أن يجتهدوا ، فلا بأس ، لأنهم أعمق ثقافة من السابقين ، ولا علينا أن يجتهد فى الدين من لا يحفظ آية من كتاب الله ، ولا من لا يعرف معنى السنة . ولا من لم يدرس شيئا فى سيرة الصحابة والتابعين ، والأئمة المجتهدين ، لا علينا من ذلك مادام قد قرأ (كارل ماركس) وتعاليم (لينين) ووجودية (سارتر) أليس هؤلاء أدق وأعمق ثقافة من السابقين .

٤ - ويبدو أن الكاتب (عجن ماعجن) ليصل إلى الرأى فى المعاملات الحديثة ، فهو يطالعنا - أولا - بأن السنة العملية كانت تدور أكثر ما تدور حول العبادات ، أما المعاملات فكانت عبارة الرسول عليه السلام : أنتم أعلم بأمور دنياكم .

لقد ذكرنى هذا الكلام بموقف أبى حنيفة رضى الله عنه من ذلك الرجل الذى احترمه ، ثم تبين له .

قالوا إن أبا حنيفة كان يدرس فى المسجد ، وبينما هو جالس دخل رجل له هيئة وشارة حسنة ، وكان أبو حنيفة مادا رجله - لعل ذلك من وجع - فلما رأى الرجل ضمها ، ثم قال أبو حنيفة : إذا أدبر النهار من هنا ،

وأقبل الليل من هنا أفطر الصائم ، فقال الرجل : يا هذا ، إذا أدبر النهار من هنا ، وأقبل الليل من هنا ولا تزال الشمس طالعة ، فاذا نصنع ، فقال الإمام : إذن ، أبو حنيفة يمد رجله .

هل يصدق أحد لو لم يكن إمضاء الدكتور خلف الله مذيلا لمقاله أن مثله يقول هذا الكلام .

والمعاملات ، ليست فى كتاب . ولا سنة ، المعاملات فصل فيها النبي بقوله : أنتم أعلم بشئون دنياكم ، ومن عجب أن الكاتب ذكر أن كلام النبي هذا جاء فى حادثة أبر النخل .

فأولا من المعاملات البيوع والرهن ، والحجر ، والشفعة والوكالة والحوالة والكفالة وكثير غير هذه ولو قرأ الكاتب كتابا صغيراً فى الفقه الإسلامى لوجد فى أول كل باب من هذه الأبواب : دليل مشروعيته الكتاب والسنة .

وثانيا من قال ، ومن يعقل أن (أبر النخل) من المعاملات ؟

إن الكاتب فى سبيل هدفه يغفل عن أوضح الأمور ، وأبينها ، وهذا ليس شأن من يدعو إلى (التجديد الدينى) إلا إذا كان الدين عندنا أهون من كلمة تكتب فى صحيفة .

ومن هذا الخبط - أيضا - قول الكاتب إن الرجوع إلى السنة النظرية وبخاصة فى باب المعاملات كان قليلا ، يوم أن كانت تجمع وتدون ، كأن الفقهاء لم يكونوا يرجعون إلى هذه السنة إلا حين يجدونها فى كتاب .

ومرة أخرى أقول للكاتب ارجع إلى كتاب من كتب الفقه لتعرف أن السنة كانت مصدرا مهمــا لكل التشريعات ، ومنها المعاملات .

ويخطو الكاتب خطوة أخرى فى شأن المعاملات فيرى : أن ما وافق مصلحتنا قلنا به ، وما لم يوافق أعرضنا عنه . فالأساس فى ميدان المعاملات - كما يقول - هو رعاية حاجات الناس ، والمصلحة العامة

وهذا كلام سبقه به الكاتب إسماعيل مظهر ، ورددنا عليه فى حينه ، ونريد أن نوجز له القول هنا . فنقول : إن معنى هذا أن المصلحة هى التى توجه النصوص ، وتفسر الآيات ، وليس الشرع هو الذى ينظم هذه المصلحة ، ويبين ما هو مصلحة فى الحقيقة ، وما ليس مصلحة ، إننا حين نخضع التشريع للمصلحة نختلف اختلافا كبيرا لأن بعض ما يراه الرأسماليون مصلحة لا يراه الشيوعيون . . . وهكذا .

ثم يخطو الخطوة الأخيرة - ولعلها الهدف الأصيل - فيرى أن جميع مشروعاتنا المستحدثة لا تحتاج إلى فتوى من رجال الدين إذ من المسلم به أن الكتاب والسنة لم يتعرضا لها ، لأنها لم تكن موجودة .

ما شاء الله . هل يعتقد الكاتب هذا الكلام حقاً ؟ ألا يعرف الكاتب أن كثيراً من مشروعاتنا كان فى كل زمان ومكان ؟ ألا يعرف الكاتب أن فى التشريع الإسلامى قواعد كلية ، يرجع إليها للحكم فى المسائل الجزئية ؟ .

إن الكاتب نفسه يعمى فيذكر أن من القواعد أن الأصل فى الأشياء الإباحة ، وما دامت معاملاتنا الحديثة لم تكن موجودة فلم يرد فيها نص بالتحريم فهى مباحة .

أليس ذلك رجوع إلى قاعدة من قواعد التشريع ؟ يؤكدها من ينكر أن يكون للتشريع الإسلامى رأى فى هذه المستحدثات ، وليس بين الإثبات والإنكار فاصل يجعله يفسى . .

٥ — ويلح الكاتب فى رأى أبى يوسف فيما يتعلق بحكم العادة ، فينسب إليه مرة أخرى القول بأن الحكم الشرعى المبنى على العادة يعطل إذا تغيرت العادة ، ولا ضير من مخالفة النصوص .

وأنا لا أناقش الكاتب فى مدى صحة نسبة هذا القول إلى الإمام أبى يوسف ، ولكنى أناقشه فى المثال الذى أراد أن يطبق الحكم فيه بناء على هذا القول :

قال الكاتب : إنه ليس من حقنا اليوم أن نقتل الجندى المقاتل ، أو نسترقه ، وليس من حقنا أن نسبى النساء والأطفال ونسترقهم ، وليس للجندى نصيب فى الغنائم ، وليذهب قول النبى صلى الله عليه وسلم : من قتل قتيلا فله سلبه ، أدراج الرياح .

لماذا ؟ لأن قوانين الحرب قد تغيرت ، كما تغيرت العادات ، وكل ذلك قد عطل نصوص الشرع الشريف الخاصة بالغنائم ، ولا ضير فى ذلك ، ولا ضرر .

وهذا — أولا — اجتهاد من الكاتب ، وهو ليس أهلا لهذا الاجتهاد ، لأنه فيما أعرف ، وفيما يبدو من مقالاته لم يدرس أية دراسة جادة لكتب التشريع الإسلامى .

و — ثانيا — إن الحكم على شرعنا بالقوانين الدولية رفع لهذه القوانين فوق نصوص الشرع ، ولا يرضى بذلك مسلم .

و — ثالثا — على الكاتب أن يقرأ (باب الجهاد والسير) فى كتب الفقه ليعرف أنه لا ضير فى أن نسترق الجندى المقاتل لنا إذ توفرت الشروط التى كان يسترق بها الجندى فى حروب الإسلام ، وأن أخذ القاتل سلب القتيل لا يمنعه مانع ، ولا يعترض على هذا بأنا لا نستطيع اليوم أن نتبين من قتل القتيل فهذه ليست صورة مستحدثة ، وإنما كانت فى العهود الإسلامية الأولى ، وكان لها حكمها الإسلامى .

و — رابعا — من قال إن بلاد الإسلام تطبق

فيها هذه الأحكام حتى ترضى أو لا ترضى .

إن الكاتب يستخدم الأساليب الخطابية فى أدق الشئون الدينية ، إنه يريد أن يعطل نصوص الشرع الشريف كما يقول ، لأننا لا نسمح بتطبيق هذه النصوص علينا .

أبهذه السهولة - ياصاحب الفن القصصى - تقضى على آيات بينات محكمات فى كتابنا المقدس ؟

أهذا هو التجديد الدينى ؟

لقد هزلت حتى بدا من هزالها
كلاها ، وحتى سامها كل مفلس

٦ - وأخيراً - وقد قلت إنى لا أريد أن أراجع الكاتب فى شىء من التفاصيل - أحب أن أقف معه وقفة قصيرة فى دعوته التى ختم بها مقالاته :

لقد توجه إلى رجال الدين ، وإلى علماء الأزهر الشريف أن يطبقوا أحكام الشرع الشريف فيعلنوا تنازلهم عن أراضيهم التى تحت أيديهم ، لأن مصر فتحت عنوة ، والأرض المفتوحة عنوة ملك للدولة - كما تفيد نصوص الشرع فيما يرى الكاتب - .

ولست أريد أن أبين (تفاهة) هذا الكلام، وما يحمل من سوء قصد كما أنى لا أريد أن أبين له أقوال الفقهاء فى أرض مصر .

وإنما أريد أن أوجه نظره إلى أمرين :

الأول : أنه فى كل ما سبق من مقالاته يرى أن المعتبر هو نص القرآن ، والحديث المتواتر ، وما عدا ذلك فأقوال فقهاء لنا أن نأخذ بها ، ولنا أن نلغيها .

فأين وجد فى القرآن ، أو فى الحديث المتواتر أن الأرض التى فتحت عنوة ملك للدولة ؟

الثانى : هل يعرف الكاتب الرقعة التى كانت مزروعة فى مصر أيام فتح العرب لها ؟

إن بعض العارفين يقدر هذه الرقعة بعشر المساحة المزروعة الآن أما التسعة الأعشار الباقية فهى مما أصلحها الناس أو أصلحتها الدولة وباعتها للناس ، والنص الشرعى يقول : (من أحيا مواتا فهو له) .

أليس قول الكاتب هذا مما يؤكد له أن من الضرورى لمن يكتب فى مسألة أن يحيط بجميع ما قيل فيها ؟ وإلا كان قوله رداً عليه ، ودليلا على أنه يقول فيما لا يعرف .

إن رجال الدين ، وعلماء الأزهر الشريف - أيها السيد - كانوا وما يزالون المثل الأعلى للباذلين فى سبيل الوطن ، وفى سبيل مصلحة الأمة ، وفى مقدمة الداعين إلى أن يأخذ الفقير حقه ، ولا نعرف فيهم من استغل مركزه أو عمله فى سبيل كسب مادى ، والاحتيال على هذا الكسب بالمشروع وغير المشروع من الأعمال والأقوال ؟

علي العماري

من بحوث مجمع البحوث

الملكية الفردية وتحديدها فى الإسلام

للأستاذ على الخفيف

— ٥ —

تحديد الملكية الفردية فى مقدارها :

إن الإسلام حين أقر الملكية الفردية مقيدة فى آثارها على ما بينا إنما أراد تجنيبها أن يساء استعمالها فتتخذ وسيلة للإضرار بالناس أو بصاحبها وكثيراً ما يجعلها النفوس طريقاً إلى الترف أو المفاخرة والمكاثرة والتعالى والطغيان وغير ذلك مما ترغب فيه النفوس عادة لمتعتها وهى الأمارة بالسوء إلا من رحم الله - والنفوس هى النفوس فى كل زمن وكل جيل ولذا كانت الداعية إلى العلاج قائمة فى كل عصر وزمن وكان إقرار الإسلام لها على هذا الوضع استجابة لتلك الداعية الإصلاحية التهذيبية .

ولقد قامت الدولة الإسلامية الأولى فى يثرب عقب الهجرة النبوية فابتدأ بقيامها عصر التشريع المالى والاجتماعى وقام الرسول صلى الله عليه وسلم بتبليغ هذه الشريعة على فترات زمنية تبعاً لما وقع فى عهده من الحوادث ونزل من النوازل وحدث من الحاجات فكان تبليغه للفصل فيما حدث وعلى وفق ما يتطلبه الفصل فيه استجابة لداعى الحاجة وعلى ذلك كانت الشريعة بقدر الحاجة وعلى وفق ما تتطلبه وكانت الثروة العامة يومئذ للمسلمين ضيقة الحدود قليلة المقدار فى جملتها بالنسبة إلى ثراء غيرها من الأمم الأخرى المعاصرة لها وكانت أهم مصادرها ضعيفة هزيلة إذ لم تتجاوز الزراعة فى مساحات ضيقة ينقصها ما تحتاجه من وفر الماء فقد كانت الزراعة فى حوائط معدودات لا يزال مظهرها الضئيل ماثلا إلى اليوم وكانت التجارة بقدر حاجتهم البدائية أما الصناعة والمصانع فلا تكاد يرى لها وجود وكان توزيع الثروة بينهم لضآلتها قريبا إلى أن يكون متعادلا إذ كانت موارد رزقهم لا تعدو فى الغالب أن تكون عطاء من غنائم أو من زكاة تقسم بينهم وقد كانوا فيه متساوين أما ما عدا ذلك فعمل قليل لبعضهم فى زراعة الأرض وأكثرهم من الأنصار أصحاب الأرض وعمل بعض لآخرين من المهاجرين والأنصار فى الأسواق ولم يعرف منهم بالثراء الواسع إلا عدد قليل منهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف

والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وهم الذين أكبوا على التجارة والعمل فيها ومع هذا فقد كانت استجابتهم لدواعي البذل والإنفاق في سبيل الله على اختلاف وجوهه وتعددها استجابة سريعة قوية كريمة فكانوا يسارعون إلى الخروج عن جزء عظيم من أموالهم ثلثها أو نصفها بل قد يبذلونها جميعها وذلك على حسب الحاجة ومقتضى الداعية وليس إنفاقهم في هذه الوجوه بالأمر المجهول فعثمان رضى الله عنه يقوم بتجهيز جيش العسرة، ويقحط أهل المدينة في زمن أبي بكر فيتصدق عليهم بألف راحلة تجيئه من الشام محملة بالبر والطعام فيدفعها في سبيل الله بما تحمل وعلى مثال ذلك تروى لنا صدقات عديدة تصدق بها عبد الرحمن ابن عوف والزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله حتى إنهم كانوا يبرمون من كثرة أموالهم ويخشون أن يكون الله سبحانه وتعالى قد عجل لهم جزاءهم في الحياة الدنيا وكذلك نرى في الآثار المروية عن أصحاب رسول الله الكثير مما يشبه ذلك مما يدل على أن المسارعة إلى الإنفاق والبذل في سبيل الخير لم يكن من شأن المكثرين وحدهم بل كان ذلك أيضا من المقلين منهم حتى كان منهم من يؤثر على نفسه ولو كان بهم خصاصة وفيهم نزل قوله تعالى: «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» الحشر.

من هذا يرى أنه لم يكن في عهد رسول الله من داعية من مصلحة أو ضرورة تدعو إلى النظر في دفعها بتحديد الملكية في مقدارها بل كانت الحال يومئذ إلى حفز القوى وإشاعة العمل والنشاط في سبيل تنمية الثروة، ولذا نرى في السنة كثيرا من الآثار تدعو إلى العمل والسعي في كسب المال وتنميته، ولذا ظلت الملكية الفردية مطلقة في مقدارها للإنسان أن يتملك من المال ما يستطيع كسبه، غير أن الإنسان قد فطر على حب المال والضن به وعلى حب ادخاره والاستكثار منه، وفي ذلك يقول الله تعالى «وإنه لحب الخير لشديد» (العاديات) ويقول: «قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا» (الإسراء ١٠٠) ويقول: «وأحضرت الأنفس الشح»، (النساء ١٢٨)، وذلك ما قد ينتهي به إلى الاستكثار من المال والضن به، وقد يفشو ذلك وينتشر في بعض طوائف من الأمة لسبب من الأسباب كالانهماك في التجارة والمضاربة في الأموال أو الإيغال في زراعة الأرض وتملكها أو نحو ذلك، فإذا أدى ذلك إلى التفاوت بين أفراد الأمة في الثراء تفاوتا عظيما تباعدت معه الفروق بينهم،

واتسعت حتى ساء بذلك توزيع الثروة العامة بينهم وانتهى الأمر بسبب ذلك إلى أن أصبحت الثروة العامة فى أيدى طائفة أو طوائف معينة محدودة العدد وهم القلة فى الأمة، أما الكثرة فقد فقدت كل شىء إلا الفقر والحاجة والاستكانة والخضوع لأرباب الثراء العريض، الذين طفقوا يستخدمونهم بأبخس الأجور، ويستذلونهم ويغلبونهم على إرادتهم تحت تأثير عوزهم واضطرارهم إلى ما يقيتهم وإلا الحقد والبغضاء لأصحاب هذا الثراء العريض الذين يرونهم دونهم دما وخلقا ومنزلة حتى اضطغنت بسبب ذلك نفوسهم فانطوت على الثورة عليهم - إذا وصل الأمر إلى مثل هذا كان من الواجب شرعا علاج هذه الحال بما يرفع هذا الضرر العام اللاحق وذلك بما يراه ولى الأمر من وسائل لا يتجاوز فيها حدود ما يقتضيه دفع هذه الضرورة.

لم يحدث مثل هذه الحال ولا ما هو قريب منها فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى كانت تستوجب منه علاجا بالتشريع كما لم يحدث فى عهد الخلفاء الراشدين وكل ما لوحظ أنه قد جاء ما يدل على أنه قد حدث فى عهد عمر رضى الله عنه ما استدعى تفكيره فيه والنظر فى أمر علاجه وهو وجود فقراء ووجود أغنياء ضنوا بالمال عليهم فأمسكوا أن يتصدقوا بالفاضل منه فى سداد عوزهم بما دعاه إلى أن يقول بعد أن طعن تلك الطعنة التى قضى بها: لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فرددتها على الفقراء. وهذا إن صح أن عمر رضى الله عنه قد قاله فليس يدل إلا على أنه وجد فى عهده فقراء وأغنياء ضنوا بالفاضل عليهم وهى حال توجد فى كل زمن ولم يكن لها من علاج سوى ما شرعه الله من زكاة وإنفاق وليس لعمر ولا لغيره أن يشرع ولا أن يأخذ ما لا من مالكه إلا بحق ولكن له أن يجتهد ويستنبط فإذا ساءت أخلاق الناس وضعف دينهم فتركوا ما طلبه منهم خلقا وأدبا من رعاية الفقراء ومعونة المحتاجين كان من الجائز حملهم على ذلك بقوة السلطان فيفرض عليهم فى أموالهم ما يقوم بسد هذه الحاجات ودفع هذه الضرورات.

إن الأمر الذى لا تصل اليه ريبة ولا شك هو كراهية الإسلام لأن يحتبس المال لدى فئة خاصة من الأمة فيتداول بينهم دون غيرهم ممن لا يجدونه ويدل على ذلك ن الله سبحانه وتعالى قد جعل ذلك علة لقسمة ما يفيئه على رسوله من أهل القرى بين أرباب الحاجات من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وذلك فى قوله تعالى «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم» الحشر ٧

إذ المعنى أن ما يفيئه الله على رسوله من أموال أهل القرى بلا إيجاف من خيل أو ركاب بل كان عن مفاوضة وصلح هو لله ولرسوله ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل مقسوما بينهم حتى لا يكون متداولا بين الأغنياء خاصة يتعاورونه فلا يصيب أحدا من الفقراء منه شيء وذلك ما يدل على أن تداول المال بين الأغنياء خاصة أمر كريه بغيض يجتنب ويجتنب كل ما يؤدى اليه. وأظهر ما يبدو فيه هذا الأمر الكريه أن تكون الثروة العامة فى أيدى طائفة من الأمة تحتازها وتمنعها فلا يصل إلى فقرائها منها شيء إلا ما يترك لهم وهم الأكثرون فى الأمة.

وقد يكون فيما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً فيما أفاء الله عليه من أموال بنى النضير دليل على ذلك فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قسم تلك الأموال التى تركها بنو النضير بعد إجلائهم وإخراجهم من ديارهم بين المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم إذ هاجروا بدينهم إلى المدينة وذلك لما كانوا عليه من فقر بعد هجرتهم مما اضطره إلى أن يؤاخى بينهم وبين الأنصار ليحملهم الأنصار إلى أن يرزقوا بكدهم وعملهم ولم يجعل للأنصار من ذلك المال حظا ما عدا اثنين ظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقرهما وبهذا اعتاض المهاجرون عن بعض ما تركوه من أموال بمكة عند هجرتهم وفى هذا نزلت الآيات من أول سورة الحشر ولقد وصلت هذه الكراهية فيما يرى أبو ذر رضى الله عنه إلى درجة الحظر والتحريم إذ كان يرى أنه يجب على المالك أن ينفق ما فضل عن قوته وقوت أهله فى سنة فيجعل ذلك الفاضل فى سبيل الله ويحرم عليه ادخاره ويستند فى ذلك إلى قوله: «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون» «التوبة ٢٤، ٢٥»، كما يروى عن رسول الله الحديث الذى ذكرناه فى كلامنا على تقييد الملكية ولكن هل يرى أبو ذر فى ذلك ما يدل على أن إنفاق جميع ما يفضل عن قوت سنة أمر واجب فلا يجوز أن يستبقى من المال ما يستثمر فى التجارة أو العمل مثلا؟ ذلك ما أستبعده ولا أراه فأبو ذر هو ذلك الصحابى الجليل الذى عاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاصر أصحابه ورأى منهم من كان يستثمر أمواله فى التجارة على مشهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم دون إنكار منه واعتراض مثل أبى بكر وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان.

وما كان لأبي ذر وقد شاهد ذلك ليرى رأيا يخالفه فالعمل فى التجارة لا يكون إلا برأس مال يستثمر فيها وهو من غير شك مال فاضل عن قوت سنة ولم يعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك كنزا مع ما كان يقوم به هؤلاء من الإنفاق فى سبيل الله . ولم يكن مثل هذا ليخفى على أبى ذر . وعليه فكل ما فى الأمر أن رأى أبى ذر لم ينقل إلينا ما يكشف عن حقيقته ويفصل لنا اتجاهاته ومداه . ولا نظنه إلا أن يكون رأيا ينكر على الأشحاء شحهم وضنهم بأموالهم عندما تدعوهم الداعية إلى النفقة فى سبيل الله . ويرى ذلك مع كثرة المال أمرا محرما وإن رآه الجمهور بعد أداء فريضته أمرا مكروها .

وقد يرى أيضاً فيما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن زراعة الأرض وكرائها ما يحمل على هذه الكراهية وعلى استحباب بذل الفاضل لمن هو فى حاجة إليه وعلى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد كره أن تزيد ثروة أناس عن حاجتهم بينما يوجد فيهم من لا يجدون حاجتهم فقد كانت المزارع قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تكرى كما يدل على ذلك حديث ابن خديج إذ يقول (كنا من أكثر الأنصار حقلا فكنا نكرى الأرض على أن لنا هذه ولهم هذه فربما أخرجت هذه ولم تخرج هذه فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك) ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نهى عن كراء المزارع والأرض فقال : (من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه وإن أبى فليمسك أرضه) ووردت فى هذا المعنى روايات أخرى صحيحة . كما روى عنه كذلك أنه أجاز كراءها بالذهب والفضة أو بالشىء المعلوم المضمون وأنه عامل أهل خيبر على الشطر مما يخرج من أرضهم ونخلهم وأن ذلك ظل باقيا إلى أن أجلاهم عمر فى خلافته كما أن الناس لم يزالوا يتعاملون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم على كراء الأرض دون نكير عليهم وذلك دليل على رفع ما ورد من الحظر على كرائها وعلى ذلك جمهور السلف والفقهاء .

وقد يبدو من هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة كانت الثروة العامة فيها ممثلة فى الأرض وزراعتها وكانت يومئذ فى يد الأنصار ومنهم من كان يملك منها فوق حاجته ومن يعيا عن زراعة جميع ما كان يملكه منها فيؤجره لغيره فرأى أن المصلحة تقضى بالنهى عن كرائها وأن يشير على من عنده فوق طاقته وحاجته منها أن يمنح الزائد أخاه ليقوم على زراعتها لنفسه دون أجر يؤخذ منه نظير ذلك وذلك توسعة على الفقراء من المهاجرين بإيجاد عمل لهم يرزقون منه

إلى أن تستقر أمورهم وهذا نوع من العلاج أريد به الحض على رد ما يفضل عن الحاجة إلى من هو فى حاجة إليه . فلما استقرت الأمور ووجد الفقراء من المهاجرين لهم مرتزقا أباح لأصحاب هذه الأرض كراءها لغيرهم كما كان الحال قبل مقدمه ، وبناء على ما تقدم إذا ما تجمعت الثروة العامة فى أيدى فئة من الأمة إلى درجة أفقرت كثرتها فلم يجدوا حاجتهم فاستذلهم عوزهم وألصقهم بالترب عدمهم وساءت لذلك أحوالهم ولم يجدوا من ذوى الثراء يداً ولا معونة واشتدت بذلك المضرة وتحققت الضرورة فإن على ولى الأمر حينئذ أن يعمد إلى علاج هذه الحال دفعاً للضرر وإذا لم يكن لعلاج هذه الحال من وسيلة سوى أن يحد للملكية الفرديه حداً لا تتجاوزه جاز له ذلك بما له من ولاية شرعية تخول له إيجاب ما فيه صالح الأمة وأن يجعل هذا حداً مطلقاً يتناول جميع أنواعها أو خاصاً فى نوع منها كملكية الأرض مثلا إذا ما رأى أن الضرر يرتفع بذلك وقد بينا أن الشارع قد حد لها حدودا فى آثارها وحقوقها حين اقتضت المصلحة ذلك فإذا ما اقتضت كذلك أن تحد فى مقدارها وجب أن يحد له حدا كما حدد آثارها ، وقد بينا أن زيادة الملكية من المباحات قبل الإسلام وبعده ولم يرد فيها نص يجعل الحد منها خلافا عنه وفى مثل هذا يرى الفقهاء أن لولى الأمر أن ينهى هذه الإباحة بحظر يصدر منه لمصلحة تقتضيه فيصبح ما تجاوزه أمراً محظوراً فإن طاعة ولى الأمر واجبة بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » «النساء ٥٩ » ومن نتائج نفاذ أمر هذا عدم ثبوت ملكية المستزيد لما زاده على الحد المرسوم .

والمراد بأولى الأمر الأمراء والولاة وهذا مروى عن ابن عباس وأبى هريرة ويقول الطبرى إنه أولى الأقوال بالصواب لكثرة ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من إيجاب طاعتهم إلا فى معصية وهذا الإيجاب يتناول ما يأمرون به من إيجاب مباح أو تحريمه لمصلحة تقتضى ذلك .

وقد اشترط العلماء لذلك أن يكون من يصدر منه ذلك من الأمراء والولاة مجتهداً أو قد رجع فيه إلى رأى مجتهد حتى يكون أمره هذا مستنداً إلى دليل شرعى . ومن الأدلة الشرعية المصلحة المعتبرة شرعا . وتقدير هذه المصلحة وضرورتها مرجعه إلى ولى الأمر لأنه المنوط به إقامة الحدود وتأمين السبل وجهاد العدو وتنفيذ الأحكام والإشراف على شئون الرعية وتوفير المصلحة لهم وفى هذه الحال يكون ما أمر به حكما شرعيا يجب اتباعه شرعا .

اما إذا لم يكن مجتهداً ولم يرجع فى أمره إلى رأى مجتهد فإن طاعته حينئذ تجب باعتبار أمره أمراً يقوم عليه النظام وتضطرب بمخالفته الأحوال ويعرض مخالفه للعقاب .

ولقد كان من أعمال الخلفاء الراشدين ما يؤيد ذلك نذكر منها ما يأتى :

١ — اقتضت المصلحة فى عهد عمر رضى الله عنه أن يمنع الناس من أكل اللحوم يومين متتاليين من كل أسبوع لقلة فى اللحوم رآها فلم تكن تكفى جميع الناس فى المدينة فعمد إلى هذا المنع فأوجبه وكان يأتى بجزرة الزبير بن العوام بالبقيع ولم يكن بالمدينة سواها فإن رأى من خرج عن هذا المنع ضربه بالدرة وقال له هلا طويت بطنك يومين وقد فعل ذلك ليتداول اللحم بين الناس وكان منعه هذا فى أمر مباح « ترجمة عمر لأبى الفرج الجوزى » .

٢ — حمل عثمان رضى الله عنه الناس حين قام بجمع القرآن على قراءته على حرف واحد بعد أن كان لهم أن يقرءوه على سبعة أحرف كانت مباحة لهم وذلك لما رأى من اختلاف الناس فى قراءته وما أدى إليه اختلافهم هذا من نزاع وخلاف بينهم خاف تفاقم شره .

٣ — منع عمر رضى الله عنه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من تزوج الكتابيات مع حل ذلك بنص الكتاب وقال إنى لا أحرمه ولكنى أخشى الإعراض عن الزواج بالمسلمات . « القرطبى ص ٣ سنة ٦٨ » .

وبناء على ذلك فليس ما يمنع من تحديد الملكية تحديدا عاما أو خاصا فى نوع من الأنواع إذا ما اقتضت المصلحة والضرورة ذلك ولا شك أن تحديدها فى مقدارها كتحديدها فى آثارها بل ربما كان تحديدها فى آثارها أقرب سبيلا لأن تحديد الآثار يستلزم أن يسلب السبب الشرعية أثره فلا يصير سبباً .

وإذا ما أقدم ولى الأمر على هذا التحديد الضرورة التى اقتضته فهل تنتهى عند الحد الذى رسمه كل ملكية قائمة تجاوزته فيؤخذ منها ما زاد عليه ويعود إلى ملك الأمة ؟ وإذا أخذ منها فهل يؤخذ منها ببدل ؟

إنه لا سبيل إلى ترك هذه الزيادة لأصحابها لأن تحديد الملكية إنما كان واجبا شرعيا اقتضاه رفع ضرر ماثل فى تجميع الثروة فى أيدى فئة قليلة وفى تفاوت الفروق فيها بين أفراد الأمة إلى درجة أدت إلى الاضطراب والفتن وفى ترك هذه الزيادة فى أيدى أصحابها إبقاء على ثروتهم وفيه إهمال وترك لهذا الواجب ونقض لمقتضى الحد منها وعدم ثبوت ملكية صاحب الزيادة لما فى يديه

من زيادة وعلى ذلك يجب أخذ هذه الزيادة وانتقاص ملكية صاحبها بأخذها . ولا يتم هذا الانتقاص إلا إذا أخذت بلا بدل ذلك لأن فى أخذها بالبدل إبقاء على مقدار ثروة صاحبها وليس فيه إلا تغيير عناصرها وذلك بأن يستبدل بعنصر منها آخر يضم إليها وليس يعد هذا اعتداء على ملك محترم لأنه لا ملك بعد الحد منها وجوب ونفاذ ذلك شرعا ومثل ذلك مثل المال يؤخذ فى تجهيز الجيوش وإعداد العدة للدفاع عن البلاد ضد المعتدين عليها وذلك إذا لم يكن فى بيت المال ما يقوم بذلك من الأموال فقد ذهب العلماء والفقهاء إلى أن ذلك يؤخذ كما تؤخذ الوظائف والضرائب بلا عوض والأخذ فى الحالين سواء فهو مما تقضى به الضرورة فى كل منهما .

وعلى ذلك يكون ما يؤخذ لهذا الغرض ملكا للأمة شأنه شأن ما يجبى من الأموال العامة كالخراج فيصرفه ولى الأمر فى دفع هذا الضرر بالطرق التى يراها دافعة له .

وإذا لاحظنا أن ما للمالك من حق فى حماية ملكيته وعدم المساس بها إنما هو من حق مقيد كغيره من الحقوق التى منحها الشارع مقيدة بعدم الضرر وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم (لا ضرر ولا ضرار) تبينا أن ليس فى أخذ الزيادة اعتداء على هذه الحماية لأنه أخذ بحق وإذا كان بحق لم يكن اعتداء إذ لا قيام للملكية ولا لحمايتها أمام حق يطلب ولذا أخذ للجائع المشرف على الهلاك من مال غيره ما يقيم من حياته دفعا للهلاك عنه دون أن يمنع من ذلك ما لملك صاحب المال من حماية ، ألا ترى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمر بقلع نخل سمرة بن جندب دون مراعاة لحقه فى حماية ملكه حين اتخذها وسيلة إلى الإضرار بغيره وأبى بيعه أوهبته لصاحب البستان الذى يقوم فيه ذلك النخل . وقد ذكرنا ذلك فيما مضى وعلى أساس ذلك كان قضاء عمر رضى الله عنه للضحاك بن خليفة الأنصارى إذ قضى له بإمرار خليج من أرض محمد ابن مسلمة رغم إبائه ذلك ولعبد الرحمن بن عوف إذ قضى له بتحويله ساقية فى بستان إلى جهة قريبة من أرضه على الرغم من إباء صاحب البستان وقد ذكرنا ذلك فيما سبق فهذا وأمثاله مما يروى يدل على أنه لا حماية للملكية عند تحقق الضرر .

ولقد شاطر عمر رضى الله عنه بعض ولاته الذين وردوا عليه من ولاياتهم بأموال لم تكن لهم استجابة لمصلحة عامة تمس الولاية وهو البعد بها عن الشبهات وعن اتخاذها مغنما ووسيلة للاستكثار من الأموال ففعل ذلك مع عتبة بن أبى سفيان إذ ولاه على كنانة فقدم عليه بمال فقال له : يا عتبة ما هذا ؟

فقال : مال خرجت به واتجرت فيه فقال له : لم تخرج هذا المال منك فى هذا الوجه ثم صيره فى بيت المال وكذلك فعل مع أبى هريرة وقد ولاه على البحرين . وإذا قيل : إن مرجع ذلك إلى الشك فى طريق تملكهم هذا المال لا المصلحة التى قضت بالأخذ منهم فالشك فى طريق تملكهم لا يرقى إلى إبطال ملكية تقوم على اليد والمشاهدة .

وعلى ذلك يرى أن أخذ هذه الزيادة إذا ما دعت مصلحة عامة إلى أخذها بغرض إنقاص ملكية صاحبها إنما يكون بلا بدل يعطى له وعندئذ تكون هذه الزيادة ملكا لكافة المسلمين يوجهها ولى الأمر الوجهة التى من أجلها أخذت لا لوجهة أخرى وإلا كان أخذها اعتداء لا يستند إلى حق .

ذلك ما انتهى إليه النظر فى هذا الموضوع وهو رأى رأيته فإن كان صوابا فمن الله وإن كان خطأ فلا عصمة إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يشرع للناس .

على الخفيف

متاع الغرور

إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

هذه الرمزية
حرب جديد على اللغة والدين
للأستاذ عبد الكريم الخطيب

ظهرت فى السنوات الأخيرة بدعة الشعر الجديد ، الذى خرج على أصول الشعر فى صورة مزعجة ، فتلقاه الناس غير ملتفتين إليه ، أو آبهين له ، إذ كان مبهم المعانى ، مضطرب الأساليب ، لا تستريح إليه الأذن ، ولا يتجاوب معه العقل ، وكان أن ترك الناس هذا الشعر يمضى لقدره المقدور له ، من الموات والضياع لأول أيامه فى الحياة ، إذ ما كان لمثل هـذا المخلوق الشائه أن يحيا ، وأن يمتد عمره فى الحياة .. !

ومع ما يقوم بين يدى هـــذا الشعر من دلالات قوية قاطعة على المصير المحتوم له ، فإن هناك أشتاتا من الناس قد تظاهروا على التشبث المستميت به ، وبذلوا له فى سخاء ماء وجوههم ليجدوا له أنصارا من الكتاب والنقاد ، وليأخذوا له مكانا فى الصحف والمجلات والإذاعة ، متوسلين لذلك بكل وسيلة من وسائل الإغراء والاستجداء !

وقد عجب الناس لهذا الإصرار العنيد على التشبث بهذا الشعر أشد من عجبهم لهذا الشعر نفسه ، وللصورة الممسوخة التى ولد عليها ، وذهب الناس مذاهب شتى فى التعليل لهذه الجهود الضائعة المضنية ، التى يبذلها أنصار هذا البدع المنكود من القول ، وكان أحسنهم ظنا من قدر أن هؤلاء الذين ينافحون عن الشعر الجديد إنما ينزعون عن رغبة طيبة فى الإصلاح والتجديد وأن يكونوا قد أخطأوا الطريق وضلوا السبيل ، وأنه لا بأس من أن يتركوا وما يحاولون حتى تتقطع بهم الحيل ، ويومها يدركون أن العود أحمد ، وأن السلامة فى الإياب !

* * *

هذه حال كنا فيها مع الشعر الجديد إلى يوم قريب .. قد غفل الناس عنه ، وعن أصحابه وأنصاره ، وتركوه لهم ، وتركوهم له ، يمضون إلى حيث ينتهى بهم وبه المطاف ، ولكن الذى حدث فى هذه الأيام يجعلنا نحمل الأمر على غير هذا المحمل ، ونقدره على غير هذا التقدير ، فلقد تكشفت الحال عن خبايا وخفايا ، كانت تكمن وراء هـذه الدعوة الملحاحة إلى التجديد فى الشعر ، وظهر أن لهذه الدعوة مرامى بعيدة ، ومقاصد معينة تريدها

وتعمل لها ، لتنال من اللغة العربيـة منالا يصيبها فى صميمها ، ويذهب بوجودها الذى إن ذهب ضاع بذهابه كيان الأمة العربية ، وانطمست معالم الدين الذى يدين به العرب ، وتدين به شعوب كثيرة تتلقى مصادره من اللسان العربى الذى لا مصدر لها غيره .

وإنه ليحق لنا ـ وقد داخلنا هذا الشعور من جهة الشعر الجديد وأنصاره ـ يحق لنا أن نعيد النظر فى موقفنا من هـذا الشعر ودعاته ، وأن نقف من هذه الحركة موقفا يدفع الخطر الذى يمكن أن ينال اللغـة والعقيدة لو قدر لهذه الدعوة أن تمضى إلى الغاية التى تريدها ، وتعمل جاهدة لبلوغها !

وليس هـذا الكيد الذى يكاد للإسلام ولغة الإسلام أول رمية يرمى بها أعداء هذا الدين فى وجهه للقضاء عليه ، أو لتعويق حركته ، أو لتضليل النّاس عنه ..

ففى كل دورة من دورات الحياة كان الإسلام فى مواجهـة عداوات ظاهرة ومستترة ، وفى مجال رميات مسعورة مسـمومة . « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ، ولو كره الكافرون » .

وهذا البدع الجديد لدعاة حركة التجديد فى اللغة هو ـ فيما نعتقد ـ رمية من تلك الرميات الخبيثة الماكرة التى تتخفى تحت دعوة الغيرة على اللغة ، وحمايتها من الزحف الأجنبى عليها ، على حين أنها تريد أن تقتلع هذه اللغة من جـذورها ، وأن تذهب بها فى مذاهب التيه والضياع !

وقد آن لنا أن نخرج من هذا التلميح إلى التصريح ، وأن نواجه الامر بمـا ينبغى أن نلقاه به من الدمغ والردع !

ولقد أشرنا من قبل إلى المشاعر التى استقبل بها الناس هذا الشعر الحديث أول عهدهم به ، وأنهم لم يلتفتوا إليه ، ولم يقفوا عنده ، وعدوه ضرباً من اللهو ، ومجالا للعبث ويشغل أوقات الفراغ عنـــد العابثين والفارغين .

ونقول إن هـذا الوقت قد أغرى أصحاب هذه الدعوة بالكشف عن وجهها والإفصاح عن مضمونها ، والمعالنة بالغاية التى تخفيها ، فرأينا دعوة جديدة تقوم وراء هذه الدعوة ، وهى أن هـذا الشعر ليس كما يراه الناس ، ألفاظاً مفككة ، وعبارات مهلهلة ومعانى هزيلة تافهة ... وإنما هو عوالم فسيحة تموج بالصور والمعانى التى تندس فى كيان الحروف والكلمات التى يتشكل منها هذا الشعر المخترع !

ومن هنا بدأت نطقة انطلاق جديدة لدعاة هذه الحركة ، وشهد الناس لهؤلاء الدعاة نشاطاً مركزاً على إقامة مفاهيم لهـذا الشعر تعتمد

على « الرمزية » التى بها يمكن أن تحل طلاسمه ، وتكشف معمياته ، وتنفتح مغالقه .

ومنذ وقع لأنصار هذا الشعر المسيخ أن يضيفوه إلى « الرمزية » وأن يحسبوه عليها ، حسبوا أنهم قد وجدوا لهذا الشعر ما يضمن له وجوده ، ويحفظ عليه حياته ، ويرد عنه كل ما يمكن أن يتهم به من ضحالة المعانى ، واضطراب الأساليب ، وركاكة العبارات ... فنى حمى الرمزية تختفى كل هذه العيوب ، ومن حماها تنطلق المعانى ، والأخيلة ، والرؤى التى يمكن العثور عليها من كل أفق ، وانتهابها من كل فن ... ثم ادعاؤها لهذه الكلمات الخرساء الميتة التى يتشكل منها جسد الشعر الجديد ، والتى كان استغلاقها وصمتها آذنا بقبول كل قول يقال عنها !

ولقد استطاع دعاة الشعر الجديد أن يضعوا كلماته الخابية الخامدة أمام الناس ، ثم يطلقون من حولها المباخر ، ويرصلون فى وجهها التعاويذ والرقى ، كما يفعل السحرة والمشعوذون ، حتى إذا خيل إليهم أن الناس قد أصابهم خدر مما ترسله هذه المباخر من أدخنة ، وقد غشيهم صداع مما يلقى إليهم من تهاويل وتخريفات - أطلقوا لهم من تلك القماقم أشباحا ، تتبدى فى صور شائهة لا يعرف الناس لها رأسا ولا ذنبا ، يخيلون للناس منها أنها آيات معجزات ، وروائع لا يجود الزمان بمثلها أبداً .

إن بدعة « الرمزية » هذه قد جاءت لتغطى عوار هذا الشعر الذى أراد به أصحابه إفساد اللغة العربية ، وتضييع معالمها ، وقطع الصلات التى بين الناطقين بها ... فلما أن عرف الناس وجه هذا الشعر ، ورموه بالازدراء والمقت ، مد إليه أصحابه حبال هذه « الرمزية » لينقذوه من الغرق ، ولينتشلوه من الهاوية التى يهوى إليها .

ثم كان من كيد أصحاب هذا البدع أن دخلوا « بالرمزية » على الأدب العربى فى مجال القصة ، فحرفوا فيها الكلم عن مواضعه ، وولدوا من الألفاظ والعبارات مواليد عجيبة لم تقع فى خيال كاتب القصة نفسه ، ولم تدر بخاطره !

ومن يدرى ؟ فلعل أصحاب هذه الرمزية - إن مد لهم فى هذا الطريق الذى سلكوه - أن يجعلوا الرمزية هى الحكم الذى يحتكم إليه فى لغة العلم ، كما احتكموا إليه فى لغة الفن ، ثم لا يقف الأمر عند هذا ، بل يمتد إلى لغة التخاطب أيضاً ... ويومها تفقد اللغة وظيفتها من الإفهام والفهم ، ويكون على الناس أن يتعلموا التنجيم والسحر ، ليفكوا هذه الطلاسم وتلك المعميات ، ثم لا يكون على أحد

منهم حرج إذا فهم غير ما سمع ، أو فهم عنه غير ما أسمع !

« والرمز » بلا شك له مكانة فى الأدب ، وفى الفنون الجميلة كلها ... ذلك أن الفن إنما يختلف عن العلم فى أنه يعرض الحقائق التى يعترف بها العلم فى أسلوب يزاوج بين التلميح والتصريح ، ويجمع بين الغموض والوضوح ، وبهذا لا يعطى العمل الفنى كل ما اشتمل عليه من حقائق مرة واحدة ، وفى نظرة واحدة ، وإنما يكون الفن على حظ من الإصالة والجمال حين ينظر الناظرون فيه فيأخذ كل بحظه منه ، قطرة قطرة ، وحالا حالا ، وهذا هو الذى يضمن للأعمال الفنية حياة متجددة مع كل نظرة ، وعند كل ناظر ! .

واللغة العربية تعرف « الرمز » بهذا المفهوم فى شعرها ونثرها ، لأنها لغة قوم عرفوا بالذكاء ، وسرعة الخاطر ، وحضور البديهة ، واكتفوا فى كثير من المواقف باللمحة الدالة ، والإشارة الموحية ، وقالوا : رب إشارة أبلغ من عبارة !

وقال شاعرهم :

يرمون بالخطب الطوال وتارة
وحى اللواحظ خفية الرقباء

كما عرفوا اللحن ، وهو تحميل الكلام دلالات معهودة بين المتخاطبين ، لا يفهمها منه غيرهما ... قال الشاعر :

منطق صائب ، وتلحن أحيا
نا وخير الكلام ما كان لحنا

وقال أيضا :

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا
ووحيت وحيا ليس بالمرتاب

ولقد جاء فى القرآن الكريم : « الرمز » و « الوحى » و « اللحن » بهذا المفهوم ، فقال تعالى : « قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا » . . وقال سبحانه : « فخرج على قومه فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » ، وقال : « ولتعرفنهم فى لحن القول » . .

وهذا كله يدل على أن اللغة العربية تعرف « الرمز » الذى هو إيحاءات وإشارات يزداد بها المعنى ثراء ، وقوة ، ووضوحا ، لا هذه « الرمزية » التى يروج لها اليوم أخلاط من الناس قد اختلفت ثقافاتهم ، وتباينت مشاربهم وعقائدهم ، وجمعهم هذا البدع الذى سعى إليه كل منهم لحاجة فى نفسه ، إذ بينما أراده بعضهم لهدم اللغة وتضييعها ، تعلق به بعض آخر ليلحق — كما قدر — بركب المجددين المتحررين ! — فهذه « الرمزية » لا تأخذ معطياتها من إيحاء العمل الفنى ، وإنما هى وساوس وخطرات تموج فى صدور

أصحابها ، وتنطلق على أقلامهم بلا وعى ، وبغير حساب !.

ونود أن ننبه إلى أن هذه « الرمزية » المغلقة العمياء إنما همها الأول هو الترويج لإذاعة الفوضى فى اللغة ، بالتحلل من أصولها وقواعدها ، والخروج على مقررات نحوها وصرفها ، والإهدار لمدلولات كلماتها ، ولأنماط أساليبها وأوزان شعرها ، فذلك هو الذى يتيح لتلك « الرمزية » مجال العمل فى هذه الصور الشائهة المعتمة من صور القول ، حيث يستوى العالم والجاهل فى النظر إليها ، والفهم عنها ، فكل قول يقال عنها ليس غيره أولى منه بالدلالة عليها ، والتعريف لها .. إذ كل الأقوال عنها رجوم وظنون

ونود أن ننبه أيضا إلى أن هذه « الرمزية » قد كانت سلاحا من أسلحة أصحاب الدعوات المنحرفة ، سواء فى مجال العقيدة أو السياسة ، إذ كثيراً ما شهر هذا السلاح المدمر فى وجه النصوص الواضحة الصريحة من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، فغير صورتها ، وشوه حقيقتها ، وجاء بمفاهيم ومقولات ما أنزل الله بها من سلطان ، وحسبنا أن نذكر هنا ما أثمر هذا المسكر بآيات الله وسنة الرسول من ثمر نكد ، وما أخرج من مذاهب ومعتقدات أفسدت تعاليم الإسلام ، وشوهت معالمه ، كما نرى ذلك فى تعاليم الباطنية ، ومعتقداتهم ، وتأويلاتهم لنصوص الكتاب والسنة ، ونكتفى هنا بمثل صغير فى فهمهم لقوله تعالى : « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها . » فقالوا عن الشمس إنها « على » وعن ضحاها أنه « فاطمة » ، وعن القمر إنه « الحسن » ، وعن النهار إنه « الحسين » ، وعن الليل إنه دولة « بنى أمية » .

وهكذا يذهب الباطنية ومن إليهم هذه المذاهب الملتوية المضللة فى تأويل آيات الكتاب ، ومقولات السنة ، يلوونها ليا إلى ما يتفق وأهواءهم ، دون أن يقيموا وزنا لدلالات اللغة ومفاهيمها التى يتعامل بها أهلها .

والرمزية التى تطل برأسها اليوم أشد خطراً ، وأكثر تدميراً وفتكا بالشريعة الإسلامية ولسانها من جميع ما عرف من أسلحة تهددت اللغة العربية والشريعة الإسلامية إلى اليوم ...

ذلكم أن تلك القوى المحاربة للغة أو العقيدة كانت تلتقى بهذه أو تلك فى مجال محدود ، وفى قضايا واضحة ظاهرة قد استقرت فى ضمير المجتمع العربى والإسلامى ، ومن هنا كان مصير هذه المحاولات كلها الاندحار ، والضعف والزوال .

أما هذه « البدعة » - بدعة الرمزية - فإنها تحمل الطابع التدميرى لهذا العصر ، وتعمل بأسلحته القوية التى لا تبق على شىء .

فلقد جاءت هذه الرمزية مخلفة فى أغلفة التجديد ، والدعوة إلى استنقاذ اللغة العربية وحمايتها من أن تطغى عليها اللغات الأوربية ، بحجة أن الرمزية هى القادرة على أن تحمى اللغة العربية من ظهور هذا النقص فيها ، بما تستخرج من نتاجها - أياكان - كل معنى مبتكر ، وكل خيال محلق يحمله الأدب الأوربى ، ثم تخرج به على الناس منسوباً إلى هذه الأمساخ الشائهة من القول وبمثل هذا الخداع والتضليل تتخدر أعصاب كثير من الناس فيقبلون أولا نسخ اللغة ، والخروج على أصولها وقواعدها لينفسح مجال العمل للرمزية فيها ، ثم يقبلون ثانيا أن تتولى هذه الرمزية إعطاء مفاهيم لهذه النصوص التى يقدمها الشعراء والكتاب الذين أطلقتهم هذه الرمزية طلائع لها ...

ثم ينتهى الأمر باللغة العربية وآدابها ، وشريعتها التى تحملها - ينتهى الأمر إلى أحد احتمالين لا ثالث لهما :

إما قبول التراث العربى كله ، ومن بينه نصوص الكتاب والسنة لحكم الرمزية فيه ، ومقولاتها عنه ، وتخريجاتها له ، وإما موات هذا التراث وإحالته إلى مخلفات القرون البائدة ، لا ينظر الناس إليه ، إلا كما ينظرون إلى ما فى قبور الفراعنة من جثث، وما عليها من نقوش .

إن التجديد فى اللغة - أى لغة - ينبغى أن يكون مواتما لطبيعة هذه اللغة ، نابعا من أصولها ، مستلهما من روحها .

وفى اللغة العربية طبيعة سخية معطاءة لكل من ورد مواردها ، ودخل عليها من بابها .

أما هذا التجديد الذى يجيئها من مترجمات باردة غير ناضجة من الغرب والشرق فهى رقع غريبة إن قلت كانت تشويها ولا شىء وراءه غير هذا ، وإن كثرت غلبت على اللغة العربية وذهبت بسماتها وكانت أشبه بطيلسان ابن حرب الذى يقال إنه كان كلما وجد رقعة ألصقها به حتى ذهب الطيلسان ، وبقيت المرقعات !

وبعد ، فهل يتنبه، ذوو الغيرة على العروبة والإسلام لهذا الكيد الذى يكاد للعرب ، وللإسلام ؟ ذلك ما نرجوه ونلح فى الرجاء له ؟

عبد الكريم الخطيب

جماعة إخوان الصفا

للأستاذ محمد عفراني الخراساني

– ٢ –

٦ – يقول المستشرق « دى بور » فى موضوع رسائل إخوان الصفا « وأما رسائلهم فهى أشبه ما تكون بدائرة معارف مرتبة تضم علوم ذلك العصر وتدل على أنهم أصابوا من الرقى الفكرى حظا وافرا » ويقول أيضا « لا نعرف على وجه اليقين مدى نجاح هؤلاء الاخوان فى تحقيق المثل الأعلى الذى كانوا يرمون اليه » . (١) ويقول القفطى فى وصف رسائلهم « هؤلاء – إخوان الصفا – جماعة اجتمعوا على تصنيف كتاب فى أنواع الحكمة الأولى ورتبوه مقالات عدتها إحدى وخمسون مقالة ، خمسون منها فى خمسين نوعا من الحكمة ومقالة حادية وخمسون جامعة لأنواع المقالات على طريق الاختصار والإيجاز وهى مقالات مشوقات غير مستقصاة ولا ظاهرة الأدلة والاحتجاج وكأنها للتنبيه والايماء إلى المقصود الذى يحصل عليه الطالب لنوع من أنواع الحكمة (٢) فنرى أن القفطى يصف الرسالة الحادية والخمسين بأنها جامعة فى حين أن رسالة الجامعة رسالة مستقلة تختلف عن مجموعة الرسائل وكلها كما يصرح بذلك إخوان الصفا أنفسهم فى رسائلهم فيقولون « اعلم أيها الأخ البار الرحيم ... أنا قد جعلنا فى كل رسالة من رسائلنا فصلا جعلناه من لبها وخالصها إذا وفق له من فهمه ، وعمل به نال السعادة فى الدنيا والآخرة . وقد لخصنا ما أوردناه فى رسائلنا الإحدى والخمسين فى رسالة مفردة عن الرسائل سميناها « الجامعة » وهى خارجة عن جملة الرسائل » (١) ويقولون فى موضع آخر من رسائلهم : « هذه فهرست إخوان الصفا ... وهى اثنتان وخمسون رسالة فى فنون العلم وغرائب الحكم وطرائف الآداب وحقائق المعانى عن كلام خلصاء الصوفية صان الله قدرهم وحرسهم حيث كانوا فى البلاد (٢) .

وكلام إخوان الصفا هذا ينص على أن الرسالة الجامعة تلخيص عن مجموعة الرسائل ومفتاح لكشف غوامضها وإذن يكون من الخطأ أن يقول قائل إن رسالة الجامعة تعد

(١) تاريخ الفلسفة لدى بور ترجمة أبو ريدة ص ٩٨ .

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ٥٨ .

(١) رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٢٩٠ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٣ .

من ضمن مجموعة الإحدى والخمسين رسالة بل هي زائدة عليها ، اللهم إلا أن يقال أن معنى جامعة هو شاملة فهذه اللفظة ليست اسما بل وصفا [1] .

ولقد نالت هذه الرسائل إقبالا عظيما من الناس وحملها أحد رياضي أسبانيا إلى بلاده في أواخر القرن الرابع الهجري وفي نهاية القرن الثامن الهجري ترجمت إلى الفارسية لأحد وزراء تيمورلنك [2] .

هذا عرض موجز لتاريخ إخوان الصفا ونشأتهم ورسائلهم [3] .

ثالثا

١ — رسالة الحيوان : ألف إخوان الصفا

هذه الرسالة على غرار كتاب كليلة ودمنه من مجموعة رسائلهم وتتألف من خمسة وستين فصلا [1] وكان لهذه الرسالة أثر كبير في موضوع القصة في اللغة العربية إذ تطورت القصة على لسان الحيوان بعد تأليف إخوان الصفا رسالتهم هذه إلى صورة أخرى ذات مظهر خطير من ناحية الفكرة الفلسفية في البيئة الإسلامية فقد نقلوها من مغزاها الاجتماعي والأخلاقي إلى الميدان الفلسفي .

وتتضمن هذه الرسالة محاكمة طويلة بين

(١) وتوجد نسخة مخطوطة بعنوان « رسالة الجامعة » في مكتبة المرحوم الدكتور كامل حسين أستاذ كرسي الأدب المصري بجامعة القاهرة وهي كبيرة الحجم ، ولكنني لم أتأكد من صحة نسبتها إلى إخوان الصفا وتحتاج إلى دراسة لمعرفة هل هي نفس رسالة الجامعة التي يشير إليها إخوان الصفا في رسائلهم .

(٢) الحضارة الإسلامية لبارتولد ترجمة حمزة طاهر ص ٥٤ .

(٣) ومن يطلب الاستزادة في ذلك فعليه بالرجوع إلى المصادر التاريخية التي تتحدث عن هذه الجماعة بشيء من التفصيل ، ومن تلك المصادر كتاب الامتاع والمؤانسة ج ٢ لأبي حيان التوحيدي ، وكتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين القفطي وكتاب تاريخ الفلسفة « لدى بور » ترجمة أبو ريدة . — وكتاب ضحى الإسلام ج ١ لأحمد أمين والمقالات التي نشرها أديب عباس في مجلة الرسالة (الأعداد ٣٤ و ٣٥ و ٤٠ عام ١٩٣٤ م في القاهرة) ، والمقدمتين العلمية والتاريخية الأولى للدكتور طه حسين والثانية لأحمد زكي باشا لرسائل إخوان الصفا تحقيق خير الدين الزركلي طبعة القاهرة . والحضارة الإسلامية لبارتولد ترجمة حمزة طاهر وكتاب إخوان الصفا لعمر الدسوقي وكتاب إخوان الصفا لكل من عمر فروخ وعبد اللطيف الطيباري والبولسي طبعة بيروت والأخير نشر في مجموعة فلاسفة العرب وكذلك كتاب رسائل إخوان الصفا للمرحوم الدكتور حسين الهمداني بسكون الميم نسبة إلى قبيلة همدان اليمنية — أستاذ الأدب الفارسي بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة وكتاب تاريخ فلاسفة العرب لمحمد لطفي جمعة وغيرها من المصادر العربية والفارسية والأوربية التي عرضت لإخوان الصفا

(١) انظر الرسالة الثامنة من القسم الثاني من رسائل إخوان الصفا

الإنسان والحيوان أمام « بيراست الحكيم » ملك الجان . وقد أطنب إخوان الصفا فى هذه المحاكمة ليثبتوا بها دعائم مذهبهم ويدعموا بها آراءهم الفلسفية ، ويعد أكثر الباحثين هذه الرسالة من أقوى رسائل إخوان الصفا أسلوبا ومنطقا .

٢ - غرض إخوان الصفا من تأليف رسالة الحيوان .

يبين لنا إخوان الصفا أنفسهم فى مقدمة هذه الرسالة وختامها الغرض الذى دفعهم إلى أن يعرضوا أفكارهم الفلسفية بصورة الهزل والمتعة وذلك عن طريق نقلها على لسان الحيوان فيقولون فى مقدمة الرسالة « إن الإنسان إذا كان فاضلا خيراً فهو ملك كريم خير البرية وإن كان شريرا فهو شيطان رجيم شر البرية ، وجعلنا بيان ذلك على ألسنة الحيوانات ليكون أبلغ فى المواعظ ، وأبين فى الخطاب ، وأعجب فى الحكايات ، وأظرف فى المسامع ، وأطرف فى المنافع وأغوص فى الأفكار وأحسن فى الاعتبار[1] » ويقولون كذلك فى ختام الرسالة : « اعلم أيها الأخ أنا قد بينا فى هذه الرسالة ما هو الغرض المطلوب ، ولا تظن بنا ظن السوء ، ولا تعد هذه الرسالة من ملاعبة الصبيان ، ومخارفة الإخوان ، إذ عادتنا جارية على أن نكسو الحقائق ألفاظا وعبارات وإشارات كيلا يخرج بنا عما نحن فيه[1] »

(١) رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٨٢ .

وهذا نفس الغرض الذى كان يرمى إليه ابن المقفع من ترجمة كتاب كليلة ودمنة إذ يقول: فى باب عرض الكتاب « وكذلك يجب على القارىء هذا الكتاب أن يديم النظر فيه من غير ضجر ، ويلتمس جواهر معانيه ، ولا يظن أن نتيجته إنما هى الإخبار عن حيلة بهيمتين - كليلة ودمنة - أو محاورة سبع لثور فينصرف بذلك عن الغرض المقصود . . . وينبغى الناظر فى هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض أحدها : ما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة من مسارعة أهل الهزل من الشبان إلى قراءته فتستمال به قلوبهم . لأن هذا هو الغرض بالنوادر من حيل الحيوانات[2] » لقد ألف إخوان الصفا هذه الرسالة على لسان الحيوان تقليدا لكتاب كليلة ودمنة ليكون الجد بصورة المتعة ، ومن ثم أخطأ بعض الباحثين حيث زعموا أن إخوان الصفا عمدوا فى رسالة الحيوان إلى نقد الأوضاع الدينية والسياسية التى كانت تسود المجتمع الإسلامى فى تلك الآونة بأسلوب رمزى لكى يأمنوا بطش أصحاب السلطة وولاة

(١) رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٣١٧ .

(٢) كليلة ودمنة ص ٨٣ - ٨٥ تحقيق خليل اليازجى طبعة بيروت عام ١٩٠٧ م .

الحكم، ومن هؤلاء المستشرق «دى بور» إذ يقول: «وقد أخفى إخوان الصفا آراءهم الانتقادية فى رسائلهم بعض الإخفاء، وذلك لأسباب غنياً عن البيان غير أن حملتهم على المجتمع وعلى الأديان الموروثة تتجلى من غير أدنى احتياط فى رسالة الحيوان والإنسان وفيها ألبسوا آراءهم ثوباً رمزياً فقالوا على ألسنة الحيوان مالو جاهر به أحدهم لثارت حوله الشكوك»(١) كما قيل مثل ذلك بالنسبة لابن المقفع كذلك فى سبب ترجمته لكتاب كليلة ودمنة (٢).

وهذا الرأى لا يخلو من الضعف وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: عندما نقرأ رسالة الحيوان ونعمق فى مضامينها العالية نتأكد من أن تلك النظر المضامين والمفاهيم الفلسفية لا تخص عصراً دون عصر أو طائفة دون طائفة بل هى فكرة صالحة لكل زمان ومكان بذر نواتها إخوان الصفا فى القرن الرابع الهجرى ونشروها فى ربوع العالم الإسلامى.

ثانياً: إن أخوان الصفـــا كما أسلفنا يصرحون بالغرض الذى من أجله ألفوا هذه الرسالة وذلك فى مقدمتها وختامها. وخلال عرض المحاكات فإن عرض أى تفكير فلسفى لعامة الشعب يحتاج إلى أسلوب قصصى سهل بسيط مشوق ليجذب الجمهور إلى الفكرة وليبسط الفكرة له دون حاجة إلى تصوير المفاهيم والأفكار فى قالب فلسفى معقد ليستطع القارئ العادى الفهم والاستنباط وهذا مما دفع إخوان الصفا إلى صف أفكارهم فى أسلوب قصصى على لسان الحيوان.

ثالثاً: موازنة بين رسالة الحيوان وبين كليلة ودمنة:

ويتضح لنا مما تقدم أن إخوان الصفا تأثروا بابن المقفع فى تأليف هذه الرسالة تأثراً كبيراً بحيث يمكن أن نعد رسالة الحيوان محاكاة لكتاب كليلة ودمنة وإن لم يعترف بذلك إخوان الصفا فى رسائلهم. إذ ذكروا أن موضوعات رسائلهم مقتبسة من أربعة مصادر أحدها الكتب الرياضية والطبيعية التى صنفت على ألسنة الحكماء والفلاسفة، والثانى الكتب المنزلة مثل التوراة والإنجيل والفرقان. والثالث الكتب الطبيعية التى صنفت لبيان تركيب الأفلاك وحركة الكواكب وأقسام البروج والوقوف على أسرار فنون الكائنات من المعادن والحيوانات والنبات. والنوع الرابع على حد تعبيرهم، هو الكتب الإلهية التى لا يمسها إلا المطهرون والملائكة التى هى بأيدى سفرة كرام بررة، وهى جواهر النفوس وأجناسها

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٥٠١.

(٢) وقد أثبتنا بطلان هذا الزعم فى كتابنا «ابن المقفع والتيار الفارسى فى تأليفه» فى معرض الحديث من باب عرض الكتاب لكليلة ودمنة.

وأنواعها (١) غير أننا عند ما نقرأ رسائل إخوان الصفاء نحس بأنهم كما قلنا سابقا كانوا معجبين بقصص كليلة ودمنة وخاصة قصة الحمامة المطوقة فمن ذلك قولهم « فاعتبر بحديث الحمامة المطوقة المذكورة فى كتاب كليلة ودمنة (٢) فإذن ليس هنا مجال للشك بأن إخوان الصفا قد أفادوا من حكايات كليلة ودمنة وأمثالها فى تصنيف رسائلهم وخاصة رسالة الحيوان التى نحن بصددها فى هذا المقال .

وأما السبب فى أن إخوان الصفا لم يذكروا اسم كتاب كليلة ودمنة فى ضمن المراجع التى اعتمدوا عليها فى تأليف رسائهلم فهو أن الأفكار الفلسفية التى شرحوها والآراء التى دعوا إليها فى رسائلهم لم يستمدوها من كتاب كليلة ودمنة وإنما أفادوا منه وخاصة فى الإطار الفنى القصصى العام الذى بثوا فيه تلك الآراء الفلسفية وقلما استفادوا من ابن المقفع فى محاكاتهم له فى سرد قصصه عن قرب كما فعل ابن الهبارية ، وابن عربشاه وصاحب مرزبان نامة وغيرهم ممن ألفوا حكايات على ألسنة الحيوانات محاكاة لكتاب كليلة ودمنة إلا أن إخوان الصفا تأثروا بابن المقفع فى بعض آرائه الاجتماعية التى تضمنتها حكايات كليلة ودمنة فضلا عن تأثرهم بالخصائص الفنية .

(للبحث بقية)

محمد غفرانى الخراسانى

(١) رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٠٦ .
(٢) نفس المرجع السابق ج ١ ص ٦٢ و ٦٣ .

لا تحذو حذو عصابة مفتونة — يجدون كل قديم شىء منكرا
ولو استطاعوا فى المجامع انكروا — من مات من آبائهم أو عمرا
من كل ماض فى القديم وهدمه — وإذا تقـــدم للبناية قصرا

« شـــوقى »

المنهج الإسلامي في الأدب ونقده

للدكتور عبد الرحمن عثمان

قد يكون هذا الموضوع وثيق الصلة بمجلة الأزهر، لأنه يعرض للقراء فن القول في إطار إسلامي عربي خالص بحيث لا تشوبه شائبة من فضول المعرفة أو بهرج الثقافة عما تعج به مطبوعات تنشر كل يوم، وليس لها حظ من المعرفة أو الثقافة إلا حظ الجنين الذي تدفعه الأرحام قبل أن يكتمل خلقه وتتضح قسماته.

وهذا المنهج الذي أوثر به هذه المجلة إنما هو امتداد لما كنت أنشر في مجلة الرسالة أوائل هذا العام والعام الذي قبله والقراء يذكرون ما أثارته مقالاتي من جدل ومكابرة، وبخاصة حول الغموض والإفصاح في الأدب العربي، فقد تربص بي كاتب له في المجلة باب بعنوان «تعقيبات».

وما كنت أظن أن كاتباً عربياً ينكر أن الرمزية الأوروبية لا مجال لها في الأدب العربي الأصيل، فلما قال صاحب التعقيبين في مجلة الرسالة: إن الرمزية الصوفية لون من ألوان الرمزية الأوروبية آمنت أن «الخضر» على تسامح في شكل الكلمة وتحويلها من فتحة «الخاء» إلى خفضها — يريد أن يقول لي كما قال لرفيقه: ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً.

* * *

والمنهج العربي الذي بدأته في الرسالة كان يدور حول قضية بدهية تتلخص في أن الأدب العربي يعتمد في إصالته على الإفصاح والبيان ويبرأ من الغموض والرمزية، وكنت أدفع بهذا منهجاً دخيلا على الأدب العربي دعا إليه كتاب لهم مكانتهم في التوجيه الأدبي بما أتيح لهم من وسائل النشر في الصحف والمجلات ووسائل الاعلام المختلفة، وقد خشيت أن يترك ذلك أثراً في عقول الناشئة العربية تلك الناشئة التي نعقد عليها الأمل في بث الروح العربي، وتمكين الوعي الإسلامي حين تشرق شمس الغد ويطل على الربوع العربية ذلك المستقبل الذي نعيش من أجل تحقيقه، ونتحمل لبعثه مشرقاً بساما.

والداعون إلى الغموض وما إليه فى أدبنا يفكرون بغير عقولنا ، ويتجاهلون حكم البيئة وأثرها فى التراث الفنى كله ، وتلك قضية أوضح من أن يشار إليها لدارسى الأدب ورواد الفنون ؛ فالعادات ، والتقاليد ، والمعتقدات ، أمور تسيطر على الفكر ، وتترك طابعها الواضح على العواطف والمشاعر ومن ثم فاستعارة الأفكار والعواطف دون تمييز بين ما يصلح وما لا يصلح من الأخطار التى لا تؤمن عواقبها فى هذا المجال .

ويلحق بهذه المجازفة محاولة نقد الأدب العربى على هدى النظريات الأوربية التى تستند فى بيئتها إلى أصول غير قابلة لمنطق « الاستيراد والتصدير » لأن ما قام على حكم البيئة سيبقى حيا فى بيئته ، فأما إذا أخرج منها أصابه الذبول الذى هو أول مظهر من مظاهر الموت والفناء ؛ على أن الرجوع إلى طبيعة الأدب العربى حين يراد نقده ضرورى لا يقبل بديلا ، لأنه نزول على منطق الأشياء وخضوع لقانون الحياة العادل .

* * *

وهناك فرية تتردد على ألسنة بعض المثقفين وتجرى بها أقلام استقامت على الفكر الأوربى ودارت فى فلكه ؛ ملخصها أن الإسلام لم يشرع منهجاً عادلا للفنون ، وأن القرآن الكريم هاجم فن القول (الشعر) هجوماً عنيفا حين حقر الشعر وامتهن الشعراء فى قوله : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون » ؛ وقد دعاهم ذلك إلى الاعتقاد بأن الإسلام عدو لدود للفنون ، يصرف عنها كل مسلم ذى عاطفة ، وينفر منها كل ذى خيال وشعور ؛ وتلك قالة سوء لا تجرى إلا على ألسنة الخراصين أو الجهلاء بما فى الإسلام من رقة وسماحة ، وتوجيه الجمال الذى هو حقيقة ما فى الكون من صعود بالنفس البشرية إلى الآفاق الجميلة التى تعمر بالخير والصدق والفضائل على اختلاف أنواعها .

ولهذا رأيت أن أبطل هذه الفرية وأمثالها بحقائق يقوم عليها البحث العلمى ، تاركا استخلاص النتائج إلى ذوى العقول المستقيمة وهم بحمد الله كثيرون .

* * *

إذا كان القرآن الكريم قد استحدث للعرب نظاما جديدا ينتظم المساواة والجهاد والحب فى إله واحد لا شريك له ، وبسبب هذا النظام اختلفت أنماط الحياة من جاهلية ، وتحولت إلى ألوان إسلامية تتسم بالمحبة ، وتميل إلى الاستقرار ، وإذا كان القانون السماوى قد أذهل فصحاء العرب بنسقه الفريد فى جلال معانيه وحلاوة نظمه وفيهم

الفصحاء المقاويل ، والشعراء الفحول ، إذا كان التنزيل المعجز قد أحدث كل هذا التحول فى المجتمع حينذاك ، فهل كان كل ذلك سببا فى انصرافهم عن الأدب ونقده كما يرجف السذج والمغرضون ؟؟.

ثم إذا اعتبرنا ظهور هذين الحدثين الكبيرين صارفا للعرب عن فن القول والنظر فيه ، فمعنى هذا بداهة ، أن الأدب العربى لا مكان له فى المجتمع الإسلامى الجديد !! ، مع أن المعجزة الكبرى لتثبيت هذه الدعوة جاءت قرآنا عربيا غير ذى عوج بحيث يسحر القلوب بحسن تصويره ويستهوى الألباب بجمال تعبيره ، وذلك إلى جانب ما عرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم إذا تحدث أو خطب ، فإذا انضم إلى هذين الأصلين اللذين لا يقبلان الجدل أصل ثالث هو أن التحدى للعرب لم يزد على مطالبتهم بشحذ قرائحهم الصافية ليأتوا بسورة من مثله ، أو بآيات قصار تثبت على النظر وتتودد ببلاغتها إلى النفوس والأفئدة حتى تملك زمامها أو تستثير فيها لونا من الإعجاب والقبول ؛ وكل ما قدمنا يحتاج فى إبطاله إلى كثير من الجهد ليستقيم القول : بانصراف البيئة العربية فى صدر الإسلام عن الأدب ونقده . ولا نريد المسارعة إلى التأكيد بشىء معين فى أمر يتصل بموضوعنا هذا ، حتى نستعرض أمرين لهما وزنهما فى هذه الفترة ، فربما هدانا أحدهما أو كلاهما إلى الأخذ برأى يعتمد على الحجة ويقوى على البرهان :

١ - نعلم أن الحرب الشعرية - قبل فتح مكة - كانت أشدها بين المسلمين فى المدينة ، والمشركين فى مكة ومن ناصرهم فى البادية والقرى ؛ فشعراء الفريقين يتراشقون بالهجاء الموجع - وقد كان غرضاً له خطره فى الجاهلية - ، وهذا النوع من الشعر كان وقعه على الفريقين أشد من وقع السهام فى الحروب الدائرة بينهما ؛ وعلى هذا ، فالهجاء من الفنون الأدبية التى وجدت فى هذا الصراع العقيدى عوامل نشاطها وتنوعها ، وهو أمر لم يتح له فى العصر الجاهلى حيث الوثنية ، والإيمان بتعدد الوسطاء إلى الله : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

ولئن تحرج الرواة من رواية الشعر الذى نظمه المشركون ، لأنه يمس العقيدة الإسلامية فى جوهرها المعتمد على التوحيد والمساواة والتعاطف ، ولأنه يتناول الرسول الأمين عن ربه بما لا يليق أن يردده مؤمن برسالته ، ومعجب بإنسانيته كبشر عاش بينهم ثم خرج من الدنيا لا يملك من حطامها شيئا ، وقد كان فى استطاعته أن يعيش عيشة الأكاسرة أو القياصرة ، ولكنه آثر أن يكون رءوفا رحيما بالآخرين ، فاختار لنفسه الإيثار ، وترك الأثرة لمن يحبها ، وإن يكن نهى عنها وبغضها لمن تنزع إليها نفسه من المسلمين ؛ فإذا تحرج الرواة المسلمين من

رواية كثير مما يخدش العقيدة أو يعيب محمداً عليه السلام ، فإن الرواية الإسلامية لم تضن علينا بما يهدينا إلى رأى فى الأدب ونقده أوائل العصر الإسلامى ، فهذا ابن رشيق يحدثنا : « فأما احتجاج من لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » فهو غلط وسوء تأويل ، لأن المقصود بهذا النص : شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء ، ومسوه بالأذى ؛ فأما الذين من سواهم من المؤمنين فغير داخل فى شىء من ذلك ، ألا تسمع كيف استثناهم عز وجل ، ونبه عليهم فقال : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا » ، يريد شعراء النبى صلى الله عليه وسلم ، الذين ينتصرون له ، ويجيبون المشركين عنه كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وقد قال فيهم النبى الله عليه وسلم : هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل ؛ وقال لحسان بن ثابت أهجهم - يعنى قريشا - فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام فى غلس الظلام ، اهجهم ومعك جبريل روح القدس ، والق أبا بكر يعلمك تلك الهنات » .

فالرسول يقرر فى هذه الرواية حكمين : أولهما : التحريض على هجاء المشركين الذين يشككون فى القيم الإنسانية التى جاء بها الإسلام ؛ وثانيها : توجيه الشعر إلى الدقة فى صحة المضمون بحيث يتحرى الواقع ويعبر عنه تعبيراً دقيقاً حتى لا يختلط الأمر على السامع ، فالرسول من قريش ، وشاعره حسان يهجو عنه قبيلته ، فاذا أصاب الشاعر قريشا بما يشين أصاب النبى فى أصوله أصابة قد يألم لها وإن لم تكن من قصد الشاعر المحب لصاحب الدعوة عليه السلام .

ومن أجل هذا نستطيع أن نقول فى ثقة إن النقد بمعنى التوجيه للأديب ظهر لأول مرة فى تاريخ النقد العربى بفضل ظهور الإسلام ؛ وليست هذه مجرد دعوى ، وإنما هى حقيقة ستزداد قوة خلال ما يساق من الحديث .

وبمثل هذا البيان تبطل دعاوى المرجفين فى العالم العربى بأن الالتزام فى الأدب إنما هو ظاهرة أوربية ، ونظرية جديدة نادى بها الوجوديون فى النصف الأول من القرن العشرين ! ! فالذى يعرفه كل دارس لفلسفة المذهب الوجودى أن زعيمه « جان بول سارتر » الفرنسى أكد هذا الالتزام وفرضه على كتاب المذهب وشعرائه وفنانيه بوجه عام ، وذلك حين ألف مسرحياته كتطبيق عملى لإقرار

نظرية الالتزام فى الفنون ؛ ولعل من خير ما كتب فى هذا المعنى : «اليد القذرة والذباب والأبواب الموصدة ، أو الجلسة السرية» .

وعلى ضوء ما كتب «سارتر» درس أدباء المذهب الوجودى مشاكل العالم على اختلاف أنواعها دراسة عميقة هدتهم إلى نتائج إنسانية رددوها فى فنونهم ، والتزموا موضوعات وأهداف يدور حولها فنهم ويهدف إليه ، فإيمانهم بحرية الإنسان مثلا ،جعلتهم نصراء لثورة الشعب الجزائرى فى كفاحه المشهور ضد الشعب الفرنسى الذى ينتمى إليه سارتر ويفديه بالروح والأهل كل فنان وجودى نسل من أصل فرنسى ، ولكن الإيمان بحرية الانسان دفعتهم مختارين إلى المجاهرة بعدوان الحكومة الفرنسية على كيان الشعب الجزائرى الذى لا يطلب من فرنسا أكثر من حريته التى يؤمن بها كل فنان وجودى .

ولا أظن أن مذهب الالتزام فى الأدب شىء جديد بعد ما قررناه فى صدر هذا الحديث ، وبعد ما استشهدنا عليه بما كتب ابن رشيق عن الشعر المنكر ، والشعر الذى يريده الإسلام ، حين وضع له منهجا ، ومهد له سبيلا .

٢ — لم يقتصر الشعر فى صدر الإسلام على التهاجى بين المسلمين والمشركين ، بل كان نشاطه ملحوظا فى باب الرثاء ، ووصف الخمر على المألوف من عادات الشعر الجاهلى ، فالشاعر ابن مقبل - فيما يروى ابن سلام الجمحى : «كان جافيا فى الدين ، وكان فى الإسلام يبكى أهل الجاهلية ويذكرهم ، فقيل له : أتبكى أهل الجاهلية وأنت مسلم ؟ فقال :

ومالى لا أبكى الديار أهلها
وقد زارها زوار «عك» و«حمير»
وجاء قطا الأحباب من كل جانب
فوقع فى أعطاننا ، ثم طيرا

والشاعران : أبو محجن الثقفى ، فارس القادسية المشهور ، وعبدة ابن الطبيب ، يقولان الشعر فى الخمر التى نهى عنها الإسلام وعاقب على شربها ، فأبو محجن هو القائل فى الإسلام على الرغم من ذلك كله .

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة
تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى فى الفلاة ، فإننى
أخاف إذا مامت ألا أذوقها

«للحديث بقية»

دكتور عبد الرحمن عثمان

إلى رسول الله

للشاعر محمد أحمد العزب

ملأت فضاءها طهرا ... وكنت لليلها فجرا
وهز نداؤك المنغوم في آذانها وقرا
فغرد في روابيها الشذى إطلالة غيرى
وزاحمت الجموع الضوء عبر دروبها الحيرى
تود لديك معذرة ... وأنت وهبتها عذرا
فكم من شارد ضل الطريق وعانق القفرا
أتاك فكنت واحته .. سنا تهديه أو زهرا
وكم من ضائع في لجة الأحزان ما قرا
أتاك فكنت مرفأه الغض في الوادع البرا
تهدهده ... وتأسو جرحه ... وتعيده حرا
كأنك رافد ينساب حبا هائلا ثرا
تروحي أنت ... ما أتقى يمينك تعصر الصخرا
وما أحنى يمينك تمطر الفيروز مفترا
ملأت فضاءها طهرا ... وكنت لليلها فجرا
وما زالت نداءاتك في آفاقها تترى
تكفكف أدمع الباكين تمسح أعينا عبرى
فللطير اليتيم على غصونك أفرع سكرى
تميس به ... ترقصه ... تهدهد روحه الخضرا
تداعب فجره المجروح ... تزرع دربه عطرا
فيضحك ملء عينيه ... وينسى قسوة الذكرى
وكم من ساغب يطوي على الأيام أو يعرى
أضأت له ولم ترهش يداك حقيقة كبرى

: حصاد الأرض لحصاد .. لا لمرتل ... أو كسرى
وظل الدوح للعارى الذى قد ذوب الممرا
يرعرع فيه أغصنه ... ويجد تحته شكرا
ودفء الحب للساعين فوق دروبها طهرا
كأن جموعهم جيل يشكل عالما بكرا
وكم من راسف فى الطين يسكب دمعه نهرا
صحا ... فانهارت الأصفاد خلف صباحه ذعرا
وعانق عمره غز لا يشيد للسنى قصرا
أقول ـ وأنت فوق مداى شعراً قلت أو نثرا
: زرعت ضفافها خيراً ثرياً يبهر الخيرا
لقد كانت شعاب الأرض قبوا يخنق الفكرا
وكانت مسرحا يفتر عن مأساته الكبرى
تهاويل مخنطة الرؤى تستغفر الدهرا
وتابوت تعفن ضوءه المشلول واصفرا
وجبهة راهب شرس يغازل طفلة صغرى
بعوه السيف والإعصار خلف جفونها قهرا
وألف نجيمة تبكى لها .. وتبرعم الثأرا
لقد كانت حياة الناس قبلك غابة ... صحرا
وكان الواحفون إلى ضحى قاتهم أسرى
فصحت بهم ايحيوا من جديد أمة أخرى
فزقت الملايين الجريحة قيدها المرا
وداست عارها ومضت تشق طريقها الوعرا
وتصنع للطغاة هناك خلف المنتهى قبرا
وتطلع فى سماء الكون شرقا يغزل السحرا
وأنت وراءها ... تأسو الجراح ... وتلهم الصبرا

محمد أحمد العزب

فتاوى مختارة

تقديم : ابراهيم محمد الأصيل

[الإجابة للجنة الفتوى بالأزهـــر]

حكم معرفة الرسل المذكورين فى القرآن

السؤال :

هل يجب على المكلف أن يعرف الرسل المذكورين فى القرآن بأعيانهم وأسمائهم ، بالتفصيل أم لا ؟

إلياس زين ـ كمبوديا

الجواب :

يجب على كل مكلف أن يعتقد أن لله رسلا مبشرين ومنذرين ، لا يعلم عددهم على التحقيق إلا الله ، ويجب عليه أن يعرف على التفصيل الخمسة والعشرين ـ على الأصح ـ المذكورين فى القرآن الكريم بأسمائهم بحيث لو سئل عن أحدهم لا ينكره ، منهم ثمانية عشر مذكورون فى آية « وتلك حجتنا » سورة الأنعام ، والبقية الباقية هم : إدريس ، هود ، شعيب ، صالح ، ذو الكفل ، آدم ، محمد صلى الله عليهم جميعا وسلم .

وهناك قول بأن آدم وإدريس نبيان فقط ، وما جاء فى السؤال عن معرفتهم بأعيانهم فذلك غير مستطاع ، لأنه يتوقف على مشاهدة أشخاصهم وذواتهم .

عدد الرسل المذكورين فى القرآن

السؤال :

كم عدد الرسل المذكورين فى القرآن ؟

نفس السائل

الجواب :

عدد الرسل المذكورين فى القرآن قد فهم من السؤال الأول ، وأولهم هو آدم عليه السلام على القول برسالته وهو الأصح .

حكم من أنكر رسالة آدم وإدريس

السؤال :

هل يكفر من ينكر رسالة آدم وإدريس ، وقال : إنهما ليسا رسولين ، بل آدم خليفة ونبى فقط ، وإدريس نبى فقط ، معتقداً أن الرسل المذكورين فى القرآن ثلاثة وعشرون فقط ، أولهم نوح وآخرهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

نفس السائل

الجواب :

قد فهم من الجواب عن السؤال الأول أن آدم وإدريس مختلف فى رسالتيهما وعلى ذلك فلا يكفر من يقول بنبوتهما فقط ولا حق لمن يكفره .

هل حديث أبى ذر عن الأنبياء صحيح يحتج به أم لا ؟ .

السؤال :

سأل أبو ذر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء قال : « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » قال كم الرسل منهم ؟ قال ثلاثمائة وثلاثة عشر ، أول الرسل آدم وآخرهم نبيكم محمد - عليه الصلاة والسلام - وأربعة من العرب هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم الصلاة والسلام » .

هل هذا من خبر الآحاد أم من المتواتر ؟ وهل هو صحيح أم ضعيف ، وهل يمكن أن نحتج به ونستدل به ؟ .

نفس السائل

الجواب :

هذا الحديث من أخبار الآحاد لا يفيد القطع فى العقائد ، والأولى تفويض علم ذلك إلى الله سبحانه .

حكم التلفيق :

السؤال :

هل يجوز لأحد أن يختار حكما ما من أى المذاهب الأربعة ، فيعمل بحكم من الأحـــكام التى يحبها ويترك ما لا يحبها ؟ وهو التلفيق وهل له أن يقول عن الحكم الذى لا يحبه أنه خطأ أو صعب عليه ؟ .

سائل من أندنيسيا

الجواب :

يجوز للمكلف أن يقلد من شاء من الأئمة الأربعة ولا يصح له أن يقول : إن الحكم الذى لا يحبه خطأ بمجرد عدم محبته له وإن صح له أن يقول إنه صعب عليه .

الاجتهاد - الخطأ فيــه

السؤال :

هل توجد الأخطاء فى بعض المسائل الاجتهادية للعالم المجتهد ؟ نفس السائل

الجواب :

يجوز الخطأ على المجتهد فى بعض المسائل ويثاب على اجتهاده مع ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم ما معناه إن المجتهد إذا أخطأ فله أجر واحد ، وإذا أصاب فله أجران .

السؤال :

هل يجوز لأحـــد فى زمننا هذا أن يخطىء العالم المجتهد فى بعض المسائل التى اجتهد فيها ؟ . نفس السائل

الجواب :

إذا وجد من بلغ درجة الاجتهاد المطلق فله أن يخطىء من قام الدليل على خطئه من المجتهدين.

المذاهب الأربعة

السؤال :

ما حكم من نفى كل المذاهب الأربعة ويخطىء كل واحد من هذه المذاهب وهو من العوام معتمداً على الآية « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول - الآية » .

نفس السائل

الجواب :

حيث إنه من العوام وليس فيه أدنى أهلية الاجتهاد فيجب عليه أن يقلد أحد المذاهب المعتمدة ولا يرجع إلى الكتاب والسنة لجهله وعدم أهليته للأخذ منهما .

بناء المسجد على الأرض الموقوفة

السؤال :

هل يجوز بناء مسجد أو مدرسة على أرض موقوفة فيها قبر قديم أو مقابر قديمة زالت آثارها منها ؟ حيث لا توجد أرض غيرها ؟ وإن كان هناك مدفن جديد هل يمكن أن يبنى عليه المسجد أم لا ؟

نفس السائل

الجواب :

القبر موقوف على الميت مادام لم يبل بأن بقى من جسمه شىء فإذا بلى ولم يبق له أثر جاز الانتفاع بالقبر فى مسجداً أو مدرسة حيث زال حق الميت عنه حينئذ .

ثم إذا دعت المصلحة العامة للانتفاع بقبر لم يبل ميته نقل منه إلى مدفن آخر غيره بشرط ألا يكون فى ذلك تمثيل بالميت كأن انفجر ولم يجف صديده .

حكم صلاة الجمعة فى قرية بها ثلاث مساجد

السؤال :

ما حكم صلاة الجمعة فى قرية كبيرة يوجد فيها ثلاثة مساجد وبين كل مسجد مسافة كيلو متر ، هل صلاة الجمعة صحيحة عند الشافعى فى هذه المساجد الثلاثة حيث إنه لا يمكن أن يجتمع المصلون فى مسجد واحد ، إما للعداوة بين أهل كل مسجد والآخر أو لكون المسجد لا يتسع للمصلين جميعاً من أبناء القرية ؟

نفس السائل

الجواب :

بأن الراجح من مذهب الشافعية رضى الله عنهم أنه يجوز تعدد الجمعة إذا لم يكن فى البلد مكان يسعهم جميعاً أو تعذر اجتماعهم لعداوة أو نحوها والجمعة حينئذ صحيحة .

الصلاة بانحراف عن القبر

السؤال :

بناء ببلدتنا حوله الأهالى إلى مسجد وقد

بنى على غير القبلة ولما كانت القبلة تحدد بالنسبة لموقعه فى الجنوب الشرقى فقد أقيمت القبلة بالمبنى فعلا، ولكن بعض الأهالى يصرون على الصلاة متوجهين إلى الجنوب حتى تتساوى الصفوف وتستقيم موازية للجدار.

وقد اختلف الرأى، ونرجو بيان الحكم الشرعى؟. وحكم الصلاة السابقة التى صليت على غير القبلة عن عمد؟.

عبد الحميد المصيلحى
ميت الخولى - دكرنس الدقهلية

الجواب :

الله تعالى تعبدنا بالاتجاه نحو الكعبة قال تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ».

فالواجب إذا التوجه نحو الكعبة المشرفة فى البيت الحرام وكل صلاة صليت عمدا إلى غير القبلة باطلة لعدم استيفاء شرطها ويجب قضاؤها.

أما عن الصفوف فهى مع هذه الحالة يمكن تسويتها وإن كان الصف الأول أقصر مما يليه وهكذا فإن هذا لا يضر فى تسوية الصفوف

الصلاة داخل مقصورة الولى :

السؤال :

سمعت من علماء كثيرين أن الصلاة داخل مقصورة الولى محرمة شرعا خصوصا إذا كان القبر أمام المصلى لحديث (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ونصح هؤلاء العلماء بأن تعطى المقصورة حكم المقبرة فلا يصلى فيها وفى بقية المسجد متسع للصلاة.

وحدث أخيرا أن كنت أصلى فى أحد المساجد التى بها مقصورة أحد الأولياء. ووجدت مصليا يصلى بداخلها والقبر أمامه فنصحته بالحسنى وقلت له إن هذا حرام شرعا، وتصادف أن كان إمام المسجد مارا بجوار المقصورة وسمع الكلام فقال لى : إن هذا ليس بحرام وليس فيه شىء مطلقا فأرجو إفادتى عن حكم الشرع فى هذه المسألة ؟.

السؤال من/ السيد محمد بن غالب (العراق)

الجواب :

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال(لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وفى رواية أخرى (إن من قبلكم اتخذوا قبور أوليائهم وصالحيهم مساجد فلا تتخذوها إنى أنهاكم عن ذلك).

وقد فهم الشارحون وبعض الفقهاء أن محل النهى إذا كان القبر فى جهة القبلة واستقبله المصلى، وعللوا ذلك بأنه فيه تعظيم لصاحب القبر، وقد يفضى إلى الافتتان المؤدى إلى الكفر والعياذ بالله تعالى.

وعلى هذا فاتخاذ المقبرة فى المسجد منهى

عنه شرعا إذا استقبل القبر بالصلاة ، أما إذا لم يستقبل فان ذلك جائز لا شىء فيه غير أنه ينبغى أن يلاحظ أنه لا فضل للصلاة فى مكان على مكان إلا الأماكن الثلاثة التى فضلها الله ، وهى : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد فسر العلماء اتخاذ القبور مساجد : بالصلاة عليها أو بالصلاة إليها واستنبطوا من ذلك أن الصلاة فى المقصورة أو الضريح حرام .

فلا تجوز الصلاة فى المقصورة أو الضريح خصوصا مع ما يلابس ذلك فى زماننا من الاعتقاد فى الأولياء ، اعتقادا يتنافى والعقيدة الإسلامية الصحيحة النقية .

الزواج على غير إرادة الوالد الغائب إذا عضل

السؤال :

لى أخ غاب عن وطنه مدة ١٤ عاما وكان متزوجا وله ولد وبنت ، الولد توفى والبنت على قيد الحياة ، وعمرها الآن ١٥ سنة ، ويريد ابن أختى التزوج من هذه الفتاة ، وهى موجودة فى اليمن مع عمها .

وبعد المراسلات اشترط والد الفتاة مهراً قدره ألف دولار ، وعرض الخاطب خمسمائة فقط ، ولما كان كل من الفتاة وابن اختى راغبا فى إتمام هذا الزواج كتبت البنت وكالة باسم والد الفتاة لعمها الذى تقيم عنده من غير علم والدها .

وقد عرض أخى الكبير الموكل فى الزواج هذه الوكالة على القاضى الشرعى ، الذى سمح له بإتمام الزواج بناء على وكالة والد الفتاة .

وأريد أن أسأل عن حكم الشرع فى هذا الزواج هل هو صحيح أم فاسد ؟ .

وهل ما قامت به يعتبر جرما أم أنه من أحكام الضرورة ؟

محمد زين محمد صالح ـ أمريكا

الجواب :

إذا عضل الولى الخاص أو غاب مسافة القصر كانت الولاية حينئذ للقاضى يزوج أو يأذن لمن يزوج ، فبقى أن سبب الإذن الوكالة وهى مزورة على ما يظهر من خطاب السائل ، والجواب عن هذا أن سبب الإذن فى الواقع الغيبة أو العضل وهذان لا تزوير معهما .

أما الوكالة المقول عنها فلا حاجة إليها فى إذن القاضى ، وكان يكفى أن يعلم القاضى بالغيبة أو العضل وقد حصل ، على أن للبنت أن تزوج نفسها أو توكل من يزوجها متى كانت بالغة عند الحنفية ، وهذا حصل فى مسألتنا فالعقد صحيح عند الشافعية والحنفية .

أنباء وآراء

مناقشات . . . :

(لمسة) :

إن فكرة تبرئة اليهود من دم المسيح ، والمناورة السياسية الخطيرة التي يقوم بها الكرادلة في أروقة الفاتيكان يجب أن لا تمر بدون تعليق الأوساط الإسلامية المسئولة في كل بلد إسلامي . . .

فصحفنا مثلا تناقش القضية من الوجهة السياسية فقط دون اعتبار لعقيدتنا ، وكأن من المسلم به أن المسيح عليه السلام قد صلب فعلا ، وقد انحصرت القضية في تبرئة اليهود من دمه أو إلصاقها بهم .

ونحن لا يهمنا إن كانت السياسة الأمريكية تلعب دوراً خطيراً من خلف الستار ، كما هو واضح من المؤتمر الديني الأمريكي الذي انعقد منذ أيام في سانت لويس ، حيث أصدر هذا المؤتمر الواحد والستون للمجلس الأسقفي القومي في أمريكا بياناً شديداً يبرىء اليهود من دم المسيح ويلقي اللـــوم على الإنسانية جمعاء . ولكن الذي يهمنا أن نقرر أن القضية قائمة من وجهة نظرنا على أساس منهار .

كما نود أن لا يتورط كتاب كبار تقرر شهادات مواليدهم أنهم مسلمون ، ولكن يظهر أن الاحتراف الصحفي أرفع لديهم من العقيدة والدين والقرآن . السمان

هذا الحديث ليس متواتراً :

استمعت منذ أيام إلى حديث ديني من أحاديث الصباح الإذاعية لعالم جليل ، يشير فيه إلى أن حديث : «إنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى » حديث متواتر ، وهذا الحديث رواه يحيي سعيد الأنصاري عن محمـــد بن ابراهيم التيمي ، عن علقمة ابن وقاص الليثي قال : سمعت عمر رضي الله عنه على المنبر يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الحديث .

يقول النووي في شرح صحيح مسلم في الجزء الثالث عشر ما مضمونه ، إن الحديث لم يروه من الصحابة إلا عمر ، ولم يروه عن عمر إلا علقمة ، ولم يروه عن علقمة إلا محمد ابن ابراهيم التيمي ، ولم يروه عن محمد إلا يحيى ، وهؤلاء الثلاثة تابعيون ، ثم رواه عن يحيى نحو مائتين من الشيوخ ، ولهذا قال الأئمة ليس هو متواتراً وإن كان مشهوراً عند الخاصة والعامة لأنه فقد شرط التواتر في أوله وفي طرفة من طرق الإسناد .

هذا وقد اتصلت بالأستاذ الجليل المتحدث فاقتنع ، ولم أرد بهذا النشر إلا تعميم الفائدة والله الموفق .

محمد نجيب المطيعى ـ العباسية

فى محيط الأزهر

العام الدراسى

افتتح العام الدراسى فى جامعة الأزهر بمؤتمر كبير حضره الأساتذة والطلاب ، وقد ألقى فيه فضيلة الإمام الأكبر كلمة قيمة وجه فيها الأذهان إلى رسالة الأزهر وصلة العلم بالدين فى علوم الأزهر ، ثم ألقى فضيلة السيد الأستاذ الباقورى مدير الجامعة كلمة أظهر فيها مكانة الأزهر فى مجتمعه وواقعه ونوه بما قدمه للإنسانية من خدمات .

اتحاد طلاب الجامعة

وأقام اتحاد طلاب جامعة الأزهر حفلا كبيرا فى قاعة الشيخ محمد عبده حضره السيد أحمد عبده الشرباصى نائب رئيس الوزراء لوزارة الأوقاف وشؤون الأزهر . والسيد الدكتور نور الدين طراف نائب رئيس الوزراء ، والسيد الأستاذ طلعت خيرى وزير الشباب . وقد بدئ الحفل بالقرآن الكريم ثم ألقى مقرر الاتحاد تقريراً عن أعماله فى العام الماضى وألقى فضيلة الأستاذ الشيخ الباقورى مدير الجامعة كلمة قوبلت بالاستحسان العام والتصفيق الحاد ، وألقى السيد وزير الشباب كلمة قيمة كان لها تأثير طيب فى نفوس الحاضرين .

مؤتمر عدم الانحياز :

انعقد مؤتمر عدم الانحياز بالقاهرة من اليوم الخامس من شهر اكتوبر عام ١٩٦٤ إلى اليوم الحادى عشر فيه ، وقد حضر المؤتمر رؤساء ثمان وخمسين دولة من أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية وأوربا .

وأذيعت القرارات التاريخية الكبرى ظهر اليوم الحادى عشر ، التى تؤيد نضال الشعوب الحرة وفى مقدمتها شعوب فلسطين والجنوب العربى وأنجولا وكوبا ضد الاستعمار من كل لون .

لقد كان المؤتمر خطوة جادة من أجل تحقيق الحياد الإيجابى والتعايش السلمى . وتجنيب العالم ويلات حرب ثالثة مدمرة .

فى ذكرى العدوان الثلاثى :

أذاع فضيلة الإمام الأكبر هذه الكلمة بمناسبة ذكرى العدوان .

يستقبل العالم العربى ذكرى العدوان الثلاثى على مدينة بور سعيد فتمر بخواطره بشاعة اجتراء الباطل على الحق ، وجبروت الاستعمار فى مناهضة الأحرار ، وأن هذه الذكرى لتعيد إلى الأذهان الخصائص المشرقة للإيمان فهو مهما ضعفت أسبابه ،

لن يقتحم بابه ولا يزيده العدوان عليه إلا إغواء به ، وهكذا أيقظ العدوان الثلاثى الضمير العالمى ، وجمع كلمة العرب ، وحيا حماس المسلمين فكان ما كان من نصر الله الحق ، وغلبة الحرية على الرق ، فحيا الله عن الإنسانية كلها كل من أسهم فى هذه المعركة بكلمة حق أو معونة صدق ، وجزى الله بالرضوان أرواح الشهداء الذين خطوا بدمائهم خلود وفائهم وكرمهم فى عليين مع النبيين والصديقين .

وأدام الله على الدنيا عبرة هذه الذكرى حتى تظل للظالمين درساً يردعهم وللمظلومين سابقة تشجعهم ، وحيا الله زعيم العروبة وجامع كلمتها يوم أن وقف على منبر الأزهر ونادى سنقاتل . . سنقاتل . . فكان نصر الله ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز .

جائزة نوبل :

اقتسم عالمان ألمانيان جائزة نوبل للطب فى هذا العام ، الأول كونراد بلوخ الذى حصل على الجنسية الأمريكية عام ١٩٤٤ والآخر فيودور لنين الأستاذ بمعهد الكيمياء الحيوية فى ميونيخ ، وقد توصل الاثنان إلى اكتشافات عاونت الإنسانية فى نضالها ضد أمراض الدورة الدموية .

• أحدث الاكتشافات ، هذه الطائرات التى صممت أخيراً ، بحيث تعلق فى أجنحتها عربات اللورى ، والمعدات الثقيلة ، لتوصلها إلى الأماكن القريبة من المواقع الحربية ، وبذلك يتوافر عامل السرعة فى الامدادات الحربية .

الطائرة مصممة بحيث يتحمل جناحها وزن ١٣٠٠ رطل زيادة على ثقل اللورى وما تحمله الطائرة نفسها .

تدعيم مجمع البحوث :

ستتجه النية إلى تدعيم مجمع البحوث الإسلامية والتوسع فى نشر وتوزيع الكتب الدينيه والثقافية ، فقد استقبل الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر منذ أيام المهندس السيد أحمد عبده الشرباصى نائب رئيس الوزراء حيث دار البحث حول الشئون الدينية والتعليمية للأزهر .

تقرر قبول مائة وخمسين طالبا من حملة الثانوية العامة بجامعة الأزهر على الرغم من عدم نجاحهم فى امتحان القبول بالجامعة ، وقد تم الاختيار طبقا لمجموع الدرجات فى الثانوية العامة مضافا إليه درجات امتحان القبول ، ومن الجدير بالذكر أنه كان قد تقدم لامتحان القبول ٤٨٠ طالبا لم ينجح منهم أحد .

محمد عبد الله السمان

الكتب

نقد وتعريف : الأستاذ محمد عبد الله السمان

١ – شاعر الإسلام حسان بن ثابت

للأستاذ وليد الأعظمى

هذا الكتاب الذى نشرته مكتبة المنار بالكويت يقع فى زهاء ثلثمائة صفحة من القطع المتوسط ، وهو دراسة أدبية تاريخية لشاعر الإسلام حسان بن ثابت الأنصارى فى أربعة فصول :

الفصل الأول : ترجمة لحسان ، نسبه ونشأته ، وكنيته وذريتـــه ، وحياته فى المدينة ، ثم بحث فى شعره الجاهلى .

والفصل الثانى : تناول المؤلف فيــه ظهور الإسلام ، وانقسام المجتمع العربى ، ودفاع الشاعر عن الإسلام ، ومواقفه تجاه الوفود ، ثم مدرسة حسان الشعرية .

والفصل الثالث : منزلة الشاعر عند النبى ، وشبهات حول حسان ، وموقفه من حديث الإفك ، ثم منزلته عند الخلفاء .

والفصل الرابع والأخير : تناول المؤرخ فيه مواقف حسان مع الصحابة ، وأثره فى الشعر العربى ، وجهوده التجديدية ، والتاريخية ، وتأثره بالقرآن ، ثم قدم المؤلف فى نهاية الفصل نماذج متنوعة من شعره .

أثار المؤلف فى الفصل الثالث شبهات حول حسان ، أولاها أنه كان جباناً خواراً ، وذكر قصته مع صفية بنت عبد المطلب حين دعته إلى النزول لقتل يهودى يطيف فأبى وقال : يا ابنة عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، وما كان منها إلا أنها أخذت عموداً ثم قتلته .

المؤلف لا ينكر القصة ولكنه لا يعتبرها دليلا على جبن حسان ، ويراها فلتة لا يمكن أن تقوم دليلا قاطعاً على صفة عامة فى حسان ، ثم استشهد بكثير من المواقف لحسان تنفى عنه هذه الوصمة .

والشبهة الثانية : شعر حسان نفسه واتهامه بالضعف ، ويرى المؤلف أن حسانا فوق هذه التهمة التى كان مردها الكيد للإسلام ، وإلا ما جاز لأمثال أبى عبيدة أن يقول : فضل حسان الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار

فى الجاهلية وشاعر النبي فى النبوة ، وشاعر اليمن كلنا فى الإسلام » . كما لا ينفى المؤلف أيضاً أن يكون شعر حسان فى الإسلام قد لان وضعف ، ويعلل ذلك بتأثر حسان بالإسلام ولا سيما القرآن .

أعجبنى فى المؤلف استعداده للدفاع عن حسان فى شبهات سلطت عليه ، لولا أن عاطفته غلبت أحيانا على منطقه فى دفاعه ، وعلى كل فحسب المؤلف من التقدير أن قدم لنا دراسة متكاملة عن حسان الشاعر الإسلامى الفحل ، تعتبر بحق مرجعا محدوداً للدارسين .

• • •

٢ — الإباضية فى موكب التاريخ

للأستاذ على يحيى معمر

هذا الكتاب ثلاثة أجزاء فى أكثر من ستمائة صفحة نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة والمؤلف أديب ليبي ذو ثقافة ناضجة وأفق واسع ، تناول فى الجزء الأول نشأة المذهب الأباضى ، وناقش فيه معنى الخوارج ، والخوارج فى نظر الإباضية ، وميزان الخطأ والصواب للفرق الإسلامية ، وتكون المذاهب الإسلامية ، ثم نشأة الإباضية وموقفها فى أسواق الجدل ، ووضعها فى قيادة الأمة ، وترجمة موجزة لمؤسس المذهب الأباضى جابر بن زيد وتلميذه أبى عبيدة مسلم .

وفى الجزأين الأخيرين قدم المؤلف دراسة عن الإباضية فى ليبيا ، كيف دخلت على يد سلمة بن سعد ، وكيف قاومت الطغيان وكافحت الظلم فى ليبيا وشمالى أفريقية ، وكيف انتشرت دعوتها وتأسست مدارسها .

وقد اشتمل الكتاب على تراجم وافية لعدد كبير من أعلام المذهب الإباضى ، فسلط أضواء كاشفة على هؤلاء الأعلام الذين نشروا مبادئ المذهب وتحملوا فى سبيل ذلك الكثير من المشاق .

إن معظم كتب التاريخ التى تعرضت للفرق الإسلامية يعمد إلى اعتبار الإباضية إحدى فرق الخوارج ، ويبذل المؤلف هنا جهداً كبيراً فى إزالة هـــذا اللبس الذى رسخ فى الأذهان قروناً عديدة ، ويذكر أن اشتراك طائفة مع غيرها فى رأى معين لا يعنى اشتراكها فى جميع الآراء ، ومن ثم لا يجوز أن تنخرط هذه الطائفة فى سلك أية طائفة أخرى تشترك معها فى رأى ، وقد تسربت الشبهة لأنها تشترك ـ أى الإباضية ـ مع الخوارج فى انتقاد قبول التحكيم ، وفى تخطئة على فى قبوله ، وتوافق الإباضية فى هذه النقطة لا يجعل الإباضية خوارج ، كما لا يجعل الخوارج إباضية ،

وإلا فالمعتزلة والأشاعرة مثلا يشتركون فى أصل تنزيه البارى وبعض المعتزلة والشيعة يشتركان فى نظرية حصر الخلافة فى البيت الهاشمى ، فهل معنى هذا أن كلا من المعتزلة والأشاعرة فرقة واحدة . وكذلك المعتزلة والشيعة ؟

الحق أن كتاب الأستاذ على يحيى معمر دراسة كلفته جهداً ومشقة ، وحسبه من التقدير أنه أزال كثيراً من اللبس ، وراعى الحق والعدل فى ما كتب ، وأنه بذل مجهوداً أيضاً فى استيعاب المراجع النادرة وغير النادرة ليبرئ ذمته وقلمه وليكون كتابه بعد ذلك مرجعاً أميناً لكل دراس باحث .

* * *

٣ — علم القلوب :

العلامة أبى طالب المكى

حقق هذا الكتاب الذى نشرته مكتبة القاهرة بالأزهر الأستاذ عبد القادر أحمد عطا المدرس بالأزهر ، والمؤلف هو أبو طالب المكى صاحب « قوت القلوب » المشهور ، والمتوفى عام ٣٥٨ هـ .

وهذا الكتاب مع شقيقه الذى بين أيدينا يعتبران ـ كما يقول المحقق ـ من أسس السلوك الدينى القويم الذى نحتاج إليه فى تصحيح الأعمال والنيات والعقائد ، ويوقفنا على دسائس النفوس ومكائد الشيطان حتى تتضح السبيل ويستنير الطريق .

يتناول الكتاب ماهية الحكمة وعظم قدرها ومن المستحق لبذل الحكمة وشرفها ، ثم الفرق بين الحكمة والعلم ، ومعنى قول الرسول طلب العلم فريضة على كل مسلم ، كما يتناول بيان التوحيد والتفريد على لسان أهل الإشارة من العارف والمريد ، ووصفاً للعارفين الذين وصفهم المعروف بالصفاء واليقين ، وتوضيحاً لصفة الإخلاص وطبقات المخلصين بالقلب . وإلى غير ذلك من آداب السلوك النفسى والقلبى والعقائدى .

الكتاب ـ كسائر كتب المتصوفين ـ خليط من التوجيه السليم الذى يتفق ومفهوم الإسلام وواقعيته ، ومن المثاليات التى لا تصلح كقواعد عامة فى السلوك الإنسانى لا نحو نفسه ولا نحو ربه ، لأنها تناقض طبيعة الإنسان نفسه وسنن الحياة كذلك .

فنى هذا الكتاب مثلا أن أباعبد الله اشترى جارية فلما دخل داره قال : قومى وافرشى الثياب . قالت : ماذا تصنع يامولاى ؟ قال : أنام . قالت : ألك مولى ؟ قال : نعم . قالت : وينام مولاك ؟ قال : لا . قالت : أما تستحى أن تنام ومولاك لا ينام ؟ وكانت حبيبة العدوية تقول :

عجباً للمحب كيف ينام
كل نوم على المحب حرام

كنت أود على الأقل أن يكون للمحقق تعليق على مثل هذا القول ، ولا سيما أنه يذكر فى مقدمته أن المكى قد خلط فى كلامه فهجره الناس وابتعدوا عنه ونسبوه إلى البدع ، أما دفاعه بأن بعض الناس تعودوا أن ينكروا ما لم يألفوه من مسائل العلم إنكاراً كاملا، وتعود البعض الآخر أن يتوقف أقرب فيما لم يألف ويسلم علم أمرها لله، وهو إلى الصواب من سابقه ، فهو لا يهدم جازما بالخطأ بل يترك ما لا يناسب مداركه إلى من يناسب مداركهم - مثل هذا الدفاع لا يقوم حجة ، فالإسلام معان واضحة لا لبس فيها ، وليس ألغازا تفرض على عقول المسلمين فرضا .

* * *

كتب جديدة

• المجتمع فى شعر أحمد الزين

للأستاذ عبد الرحمن خليل إبراهيم

المجلس الأعلى لرعاية الفنون

الكتاب يقع فى أكثر من مائتين وستين صفحة من القطع الكبير ، قدم له الأستاذ على الجندى بمقدمة موجزة ، وقد جاءت هذه الدراسة فى سبعة فصول ، تناول المؤلف فيها حياة الشاعر وصلته بشعراء عصره ومشاركته الوجدانية لهم ، والشاعر فى مرحلة ما بعد الشباب ، والحياة الاجتماعية ، والحياة النفسية ، والحياة السياسية ، والحياة التعليمية ، والحياة الصناعية التى عاصرها أحمد الزين ، ثم ختم المؤلف دراسته المستفيضة الجيدة بقصائد لم تنشر للشاعر رحمه الله .

* * *

• صراع بين الحق والباطل

للأستاذ سعد صادق محمد

مكتبة أنصار السنة المحمدية

يقع الكتاب فى أكثر من مائة وستين صفحة ، وهدفه تصفية الدين مما علق به من خرافات وأباطيل لم يزل السذج يعتقدونها عقيدة راسخة فى أذهانهم والمؤلف يحمل الصوفية معظم أوزار هذه الخرافات ، ولا سيما فيما يتعلق بالكرامة والتوسل .

* * *

• البناء الفنى للقصيدة العربية

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى

مكتبة القاهرة بالأزهر

كتاب جديد للأستاذ خفاجى يقع فى أكثر من مائتين وسبعين صفحة من القطع الكبير جاء فى تسعة أبواب هى :

الشعر مقوماته وعناصره ، القصيدة من المقطعات إلى المعلقات ومن المعلقات إلى الأراجيز بعد الأراجيز ، الموشحات ، حركات التجديد فى القصيدة ، الشعر المرسل ، القصيدة العمودية ثم الخليل بن أحمد .

• أضواء جديدة على الحروب الصليبية

للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

المكتبة الثقافية - دار القلم بالقاهرة

هذا البحث أصدرته المكتبة الثقافية التي تشرف عليها وزارة الثقافة والإرشاد القومي ويقع في مائة وعشر صفحات من القطع الصغير، وقد ناقش فيه ماهية الحروب الصليبية ووضع الصليبيين في الشام، وموقف مصر من هذه الحروب والغرب الأوربي وسياسة الحصار الاقتصادي والحروب الصليبية في شمال أفريقيا وأوربا، ثم أثر الحروب الصليبية في الشرق والغرب.

• بسط سامع المسامر

في أخبار مجنون بني عامر

لشمس الدين الدمشقي

مكتبة القاهرة بالأزهر

هذا الكتاب الذي يقع في مائة وستين صفحة من القطع الكبير قام بتحقيقه فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي، وقد أضيف إلى الكتاب في آخره أخبار ليلى الأخيلية وتوبة، وأخبار قيس بن ذريح ولبنى، وقد قدم الأستاذ الصعيدي ترجمة لابن طولون الدمشقي وابن عبد الهادي شيخه؟

عبد الله السمرانه

avoir ramené à l'équilibre leur balance, qui penchait tantôt d'un côté tantôt de l'autre, il les a poussées toutes dans une même direction et leur a insufflé un même esprit, si bien qu'on a le droit de lui attribuer en propre l'ensemble de cette oeuvre.

Plus admirable encore, et absolument original, est son côté créateur. Il ne suffit pas, en effet, pour décrire la morale Koranique de dire qu'elle a conservé et consolidé le patrimoine des anciens et qu'elle a concilié les différentes vues qui avaient divisé leurs successeurs. Il faut ajouter qu'elle a agrandi et embelli cet édifice sacré, en y joignant de chapitres tout-à-fait nouveaux et hautement progressifs, par lesquels elle a achevé à jamais l'œuvre morale.

Dans la présente étude, nous aurons à considérer les préceptes pratiques du Koran en eux-mêmes et dans leur stade définitif. Or il suffit de feuilleter les Extraits que nous en donnons à la fin de ce volume pour se rendre compte de l'ampleur et de la beauté de cette institution.

Notre méthode d'exposer, dans cette branche, diffère assez de celles adoptées par nos prédécesseurs.

E premier lieu, n'ayant pas jugé nécessaire d'épuiser les passages ayant trait à l'action, nous nous sommes contentés d'en relever un nombre suffisamment représentatif pour établir les différentes règles de la conduite.

Ensuite, nous avons essayé, dans la mesure du possible, d'éviter les rèpétitions.

Enfin, au lieu de suivre l'ordre des sourates (comme Ghazâli) ou l'ordre alphabétique des concepts (comme La Beaume), nous avons adopté un ordre logique. Les textes sont groupés en chapitres, suivant le genre de rapport que la régle a pour object d'organiser; et, à l'intérieur de chaque catégorie, nous avons distingué plusieurs petits groupes de textes, auxquels nous avons donné des sous-titres résumant l'enseignement particulier qui s'en dégage. De manière à permettre au lecteur ce trouver facilement le précepte qu'il aura à chercher.

L'ensemble des textes ainsi ordonnés constitue un programme complet de la vie pratique selon le Koran. Comment l'homme doit-il se comporter en lui-même, dans sa famille, avec les hommes en général, quels sont les principes qui doivent regir les rapports entre gouverneurs et gouvernés, entre Etats ou communautés; comment faut-il rendre le culte à Dieu. Tout y est dit, de façon claire et assez définie.

Cet ordre logique, nous le trouvons chez certains savants chi^cites tel que A. M. el-Ardabîli, mort en 993 H. dans sa "Dourrat el-Baïane" et A.I.A. el Djazâïri en-Nadjafi, mort en 1150 H., dans ses Kalâïd ed-Dourar" Mais ces deux livres, qui peuvent être considérés comme des répertoires pour les passages du Kor'an relatifs au droit islamique, ne traitent que rarement des préceptes moraux.

Ainsi, personne, a notre connaissance, n'a entrepris jusqu'ici de dégager la loi morale du Kor'an dans son ensemble et n'a essayé d'en présenter les principes et les règles sous la forme d'une structure cohérente, indépendamment de toutes ses attaches avec les disciplines voisines. Et c'est cette tâche que nous nous sommes proposé d'accomplir ici, dans la mesure de nos moyens.

II. Division et méthode.

Sous le vocable générique de *loi morale*, nous distinguons comme tout le monde deux branches différentes : *théorie* et *pratique.*

Or notre étude du texte Koranique nous a révélé, non seulement la présence dans le Kor'an de ces deux branches de la science éthique, mais encore que la formule qu'il en donne atteint un degré de perfection qui ne laisse rien à désirer.

Aspect pratique - Dans une publication récente, nous avions considéré la morale pratique du Kor'an dans son rapport avec la sagesse ancienne, et nous avons pu en relever trois caractères, que nous rappelons ici brièvement.

D'abord, en tant que gardien et continuateur de la tradition, le Kor'an se distingue déjà par cette immense étendue dans laquelle il a embrassé toute la substance de la loi morale qui restait dispersée dans les enseignements des saints et des sages, fondateurs et réformateurs éloignés les uns des autres à travers le temps et l'espace, et dont certains mêmes n'ont laissé aucun vestige. Ce côté-là est peut-être la caractéristique la plus saillante du Koran, mais non la plus précieuse ni la plus originale.

L'originalité de cet enseignement apparnît avec plus d'éclat dans sa maniére de présenter et de rapporcher ces différentes leçons de l'antiquité, de façon à en transformer la diversité en une unité indivisible, et la divergence en un parfait accord. C'est qu'il a commencé par écarter dans les lois antérieures tout ce qu'il y avait d'apparemment médiocre ou excessif ; et, après

moralité et qui n'adoptent pas toujours rigoureusement le point de vue spécifiquement moral, la théorie qu'on en donne dépend dans une large mesure, sinon des vues personnelles, du moins de l'esprit d'école de leurs auteurs, le Koran n'étant cité par eux qu'à titre complémentaire, comme illustration de telle ou telle conception déjà adoptée.

Sur le plan pratique, il est vrai, nous savons qu'Al-Ghazâli avait essayé dans son ouvrage intitulé "les Joyaux du Koran", d'analyser la substance Koranique et de la ramener à deux éléments essentiels, l'un ayant trait à la connaissance, l'autre à la conduite. Il en venait à désigner dans le premier ordre 763 versets, et 741 dans le second.

Malheureusement, cette sorte d'inventaire, qui constituait un premier pas dans la préparation des matériaux à construire, n'était pas suivie de l'élaboration nécessaire pour en élever l'édifice.

Il faut reconnaître, toutefois, que le choix de matériaux y a été fait en somme d'après une règle, et que les versets choisis dans la section pratique coïncident souvent avec l'objet de notre étude. Il n'en est pas de même des extraits faits, soit par le cadi Abou-Bakr el-Djassas, Hanafite, mort en 370 de l'Hégire, dans ses " Ahkâme El Koran" (Stamboul 1338 H), soit pare le cadi Abou Bakr Ibn el "Arabi, Mâlikite, mort en 542 H., dans son livre intitulé également Ahkâme el-Koran (éd Sa'âda, Caire 1321 H.) soit par Moulla Ahmad Djioune, Indou, hanafite mort en 1130 H. dans ses "Tafsirât Ahmadyya fi Baïâne el Aïât ech-Char'yya" (Bombay 1327 H.) Non seulement les textes Koraniques ayant trait à la morale sont inextricablement submergés, dans ces ouvrages, par les textes relatifs aux sujets juridiques, principologiques, théologiques, cosmoloiques et autres; mais nous voyons chez les deux Cadis des versets cités à propos des questions auxquelles le texte n'a qu'un rapport lointain, ou dont il est simplement l'occasion.

En tous cas, par leur manière de grouper les passages Koraniques selon l'ordre des sourates, tous les auteurs, y compris Ghazâli, ont fait de leurs extraits un agrégat de matières éparses qu'aucun esprit de famille ne relie, et dans lesquelles n'apparaît aucune suite d'idées. Ainsi, après avoir rompu l'unité primitive de chaque sourate, ils n'ont pas pu y suppléer par une unité logique entre les fragments choisis et par un classement méthodique qu'exige la règle de l'enseignement.

"La Morale du Korân" (2)

Par

DR. MOHAMMAD ABDULLAH DRAZ

Mais, en consultant notre bibliothèque islamique elle-même, nous avons constaté qu'elle n'a connu jusqu'ici que deux sortes d'enseignement moral : ou bien ce sont des conseils pratiques, destinés à former les mœurs de la jeunesse, en lui inspirant la conviction de la haute valeur de la vertu; ou bien c'est une description de la nature de l'âme et de ses facultés, puis une définition et une division de la vertu, calquées le plus souvent sur le modèle platonicien ou péripatéticien. Et il n'est pas rare de voir les deux méthodes se succéder sous la plume d'un même auteur. Il s'agissait ainsi, dans tous les cas, d'œuvres purement humaines, où les auteurs s'efforçaient de mettre les fruits de leurs méditations et de leurs études philosophiques, et dans lesquelles le texte Koranique faisait défaut ou ne figurait qu'à titre secondaire.

Pas plus donc chez les Musulmans que chez les Islamisants, la morale Koranique n'avait fait l'objet principal d'étude et de codification, ni du point de vue théorique ni du point de vue pratique. Afin que cette double affirmation revête un caractère rigoureux, et qu'elle soit exempte de toute équivoque, nous croyons devoir y joindre quelques précisions.

D'abord dans le domaine spéculatif, nous ne prétendons pas par nos recherches avoir à pénétrer dans un pays jusqu'ici inexploré. Les savants musulmans ont, de bonne heure, exercée leur talent sur ce sujet : les théologiens et les principologistes, sur le critère du bien et du mal (ou selon leur expression, sur la question du beau et du laid) ; les jurisconsultes, sur les conditions de la responsabilité; les moralistes et les mystiques sur l'efficacité de l'effort et la pureté de l'intention. Mais, outre que ces noitons sont restées ainsi disséminées dans les diverses disciplines, qui touchent de près ou de loin la

Western Writers On Islam

Before the contact of Western culture with Islam, the uncharitable and unkind writers and preachers from that part of the world poured forth torrents of abuse on the Prophet, but to say with Carlyle :

" Muhammad is no longer an impostor, but a great reformer: He is no longer a neurotic patient suffering from epilepsy, but a man of tremendous character and unbending will. He is no longer a self-seeking despot, ministering to his own selfish ends, but a beneficent ruler shedding light and love around him. He is no longer an opportunist, but a Prophet with a fixed purpose, and a man of strong will, undeviating in his consistency."

All this Europe acknowledged and freely, too. Carlyle and Gibbon, gifted writers. both have each in his own way, done full justice to this man, in whom merges all that is best in humanity. His whole being was permeated with Divine Love. In fact, he was so much in love with his Maker that his whole fife was devoted to an uphill struggle for Truth and Righteousness. Davenport and Boswell in English, Krehl and Gremence in German and Gaetani in Italian have opened to the Western world vista s of the life of the Prophet, which demolish completely the stock arguments employed by unjust critics against this, the greatest benefactor of humanity. George Bernard Shaw sings the following paean of praise :

"I have always held the religion of Muhammad in high estimation because of its wonderful vitality. It is the only religion which appears to me to possess that assimilating capability to the changing phases of existence which can make itself appeal to every one. I have prophesied about the faith of Mnhammad that it would be acceptable to the Europe of tomorrow as it is beginning to be acceptable to the Europe of today; The medieval ecclesiastics either through ignorance or bigotry painted Islam in the darkest colours.

They were, in facet, tratined to hate the man Muhammed and his religion. To them Muhammad was anti-Christ. I have studied him— the wonderful man, and in my opinion, far from being an anti-Christ, he must be called the saviour of humanity : I believe that if a man like him were to assume dictatorship of the modern world, he would succeed in solving its problems in a way that he would bring it the much needed peace and happiness. But to proceed, it was in the ninetenth century that honest thinkers like Carlyle, Gibbon and Goethe perceived intrinsic worth in the religion of Muhammad—already, even at the present time many of our people have gone over to his faith, and Islamisation of Europe may be said to have begun."

(THE MESSAGE)

of 10. Oxygen is the medium of life for all animals on the earth, and it cannot be procured except from air.

Oxygen is out of mixture with other gases in the space and is always found in the rate which is necessary for life. If oxygen were in the rate of 50, for examble, all combustable elements in the world would burst into flame.

On the other hand, the life of all plants depends upon the tiny measures of carbon dioxide in the air. It is a scientific fact that the leaves of trees are functioning as the lungs in animals. Those leaves reduce carbon dioxide through the rays of the sun into carbon and oxygen. Plant repels oxygen and keeps carbon mixed with the hydrogen of the water which is absorbed by the plant's roots. Through these chemical processes, nature produces, through plant, cellulose, other chemicals, fruits, flowers, nourishement for plant itself ; while the repelled oxygen is inhaled by animals and humans.

So, oxygen, hydrogen and carbon dioxide, carbon, whether isolated or mixed are the basis of the principal biological processes, which are necessary for life. There is no one single chance out of millions of chances which realizes the proportion of these elements in the way that is necessary for life as it is found actually in nature. Certainly beyond this wonderful system there is a power certifying that God, the Almighty, is the Sole Creator and Planner of this universe. The Holy Qur'an says :

" He brought down from the sky a rain for you, out of which you drink, and out of which there grows plant in which you graze your animals. Out of it He grows for you grass, olives, palm-trees grapes, and all fruits : certainly in this there is a sign for people who think. And He made subservient to you night, the day, the sun, the moon and the stars : all are made subservient by His order : in this there is a sign for people who mind. And there is a sign in what He Created in the earth of all kinds : surely, in this there is a sign for people who remember. And He made subservient to you sea, out of which you eat tender meat, and bring forth out of it ornament which you wear : and you see the ships running therein to seak God's favour thereby, so that you may thank Him. And He put in the earth mountains to make it stable, and rivers and roads to guide you. And He made the stars as guide, by which you know your way. Is He Who creates as he who does not create ? Would you not mind ? And if you count God's favours, you will not be able to do it : surely God is Forgiving, Merciful. "

and evidence. Abu-Hanifa was chosen to meet that athiest in a certain time, but Abu-Hanifa was late intentionally. When he arrived to the meeting place, he was asked by his opponent about the cause of his delay. Abu-Hanifa answered in this ways :

"Here is the cause of my delay: I had to cross the river to reach here, but the boat was on the other side of the river, and there was no boatmen to bring it over to my side. So I had to point out to the boat to move by itself until it came to me to cross me over the river. This is the cause of my delay." The athiest said amazingly : "This is unreasonable ! How a boat could move by itself ? Abu-Hanifa answered :" If you could not believe that a boat may move by itself, how possibly you want us to believe that this world is functioning with no God and Creator ?"

The athiest was at loss to answer. The present audience shouted praising. God, the Almighty, while Abu-Hanifa recited these Qur'anic Verses :

"God is He, than whom there is no other God: Who know all things both secret and open; He Most gracious, Most Merciful. God is He, than whom there is no other God; the Sovereign, the Holy One, the Source of Peace, the Guardian of Faith, the Preserver of Safety, the Exalted in Might, the Irresistable, the Supreme. Glory be to God ! High He above the partners they attribute to Him. He is God, the Creator, the Evolver, the Bestower of Forms; to Him belong the Most Beautiful Names : whatever is in the heavens and on earth declare His praises and glory; and He is the Exalted in Might, the Wise."

QUESTION :

Is it true that there is a contradiction between the believe in God and science ?

ANSWER :

Let us take from the example of oxygen a proof for the power of God in this universe. It is a scientific fact that the air is composed of oxygen, netrogen, argon, neon, carbon dioxide and other rare gases. Carbon dioxide in the air is in the rate of 3 out of 10,000; argon has the rate of one percent, and netrogen the rate of 78 %, while oxygen has the preportion of 21%. The pressure of air on the ground is at fifteen pounds per squere inch in the sea level. The rate of oxygen in this pressure is three pounds. The rest of oxygen in nature is in solid ground, and also in sea with the rate of 8 out

QUESTION :

How possibly, then, could we know God without understanding His Mighty Being ?

ANSWER :

If you look to the creation of the universe, its wonders and its harmony ; to the sky with its stars and planets ; to the earth with its kingdoms of animals and plants ; and to the humankind with its wonderful structure-if you look to all this you will undoubtedly come to believe that beyond this great and perfect universe there is a Perfect Creator. The power of this creator should be unlimited, and beyond the limited human mind to understand. The Almighty Being is in no need of others, while all others are in need of Him. He is the Planner of the universe, and He Himself is above all plans and laws.

Thus, you will find yourself fully convinced that the Creator of the universe is distingnished by all perfect attributes, and is exalted above all the attributes of imperfection and disablity. This belief in the Existence and the Perfect Attributes of God is the natural belief of humankind from eternity, as the Holy verse states:

" The nature of God in which He created humankind, no alteration in the creation of God. This is the upright religion, but most of people know not. „

QUESTION :

How can we prove the existence of God through reasonable argument which is more accepted in our modern time ?

ANSWER :

If you have left your book on your desk and returned back to find that your book is in the drawer, you will be sure that someone has put in the drawer, for it is certain that the book cannot transfer itself from its place. But if you find a certain person in two different times in two situations like sitting and lying down on the ground, you will not question his movements, because he can move by himself.

Thus all things in the universe are created; because we know from its nature and attributes that they cannot exist without a creator. Since the perfection of Godhead necessitates that God is in no need of others, we come to the conclusion that God is Existent and is no need of others to bring Him to existence.

It is said that a man denied the existence of God and assumed that this world existed by itself. He challenged the Muslim scholars to argue against him with proof

THE FUNDAMENTAL BELIEF IN ISLAM

BY

ABDUL WADOOD SHALABY

What is the first basis in the major prnciples of Islam which we should believe in ?

The first basis of faith in Islam is to believe that God, the Almighty, is the Creator and Manager of this universe, and that his Mighty Being is beyond human comprehension which is limited in vision and reason.

The Prophet, therefore, ordered us to think over the creation of God, but not over His Being. It is reported through Ibn Abbas that some people tried to think about the Divine Being when the Prophet told them: "Think about the creation and the work of God and not about his Mighty Being, for you could not judge God's essence." This is not an order from the Prophet against the freedom of thought and mind, but is a safeguard aganist misguidance and aganist the search after the unknown, which is beyond our minds to comprehend. If human reason could not so far understand the essense of electricity and magnetism which are actually utilized by people, how, then, can come to comprehend the essence of God who described Himself in this Holy Verse :

" Vision comprehends Him not, and He comprehends all vision, and He is the All-Kind, All-Knowing ".

Al-Shibly, the great Muslim mystic (mercy of God be upon him), said when he was asked : what is God ? : " He is the One and the Known to be beyond limits and words. "

Someone asked Yahya ibn Mu'ath : " Tell me about God, the Almighty. " Yahya Said : " He is the One." " How is He ?", He was asked. " He is the Almighty ", he answered. " Where is He." he was asked again. " He is waching over everything ? he answered, " Then the enquirer said : " I did not ask you about this." Yahya answered: " Nothing beyond this. The description of the created is other than the Attributes of the Creator."

He is a ideal example for the people. "Verily in the messenger of Allah you have a good example, for him who looketh unto Allah and the Last Day and rememberth Allah much." His relationship with the Belivers is as the Quran Said :

"The prophet is closer to the belivers than their selves."

Every beliver is bound to ask for God's blessing for His prophet : "Allah and His angels Shower blessings on the prophet. O ye who belive ! Ask blessings on him and Salute him with a worthy Solution."

His apostolical mission was not confined to any particular race, community, time or place. The entire teaching of the Prophet Muhammad is based on the universal path of submission to the one lord of the universe ; who created all men alike as human beings, but divided themselves into groups and factions on the basis of race, clour, language, nationality ect ;

The Quran explains that these differences are artificial, But one Single relation ship held them to gether; that is the bond of human brotherhood. There is one Sacred bond which could unite them inspite of all differences ; this is the commen worship of the one God. This is the fundamental teaching of the apostle. The Islamic faith is to follow man's orginal nature as designed by God. The Quran Says :

"Set thy purpose for religion as a man by nature upright the nature (framed God) in which He hath created man. There is no altering (the law of) God's creation. That is the right religion, but most men know not."

into a Single brotherhood. Then God sent the prophet Muhammad with a complet and perfect system of life for the mankind, and He called to people to build a universal brotherhood. The Qur'an declared :

Say, O man kind ! I am the messenger of Allah to you all. Him unto whom belongeth the soverignty of the heaven and the earth. There s no God Save him."

The Lord of the mankind has prepared Him and blessed Him, from his childhood, inorder to become the ideal example for humanity in all walks of life. About the God's direction and protection, the Quran Says :

"Did he not find thee an orphan and protect thee ?

Did he not find erring and direct thee ?

Did he not find thee destitute and enrich thee ?"

He is a apostle of Mercy for the world. "We sent thee not save as a mercy for the people " His position among the prophets is clear from this Quranic verse:

"O Prophet ! We have Sent thee as a witness and a bringer of good tidings and a warner, and as a Summener unto God by His permission and as a lamp that giveth ht."

The place of the apostle amonge Prophets is clear from the following verses :

(1) But how (will it be with them) When we bring of every people a witness, and we bring thee (O Muhammad) a witness against these ? On that day those who disbelieved and disobeyed the messenger will wish that they were level with the ground, and they can hide no fact from Allah."

(2) "And (be think you of) the day when we raise in every nation a witness against them of their own folk and we bring thee (Muhammad) as a witness against these".

(3) "When Allah made (His) Covenant with the prophets, (He Said): Behold that which I have given you of the scripture and Knowledge. And afterwards there will come unto you a messenger, Confirning that which ye posses. ye shall believe in him and ye shall help him. He Said : Do ye agree, and will ye take up My burden (which I lay upon you) in this (Matter)? They answered: We agree. He Said : Then bear ye witness. I will be a witness with you".

What is the place of His people among other nations ? The Quran Says: "Thus we have appointed you a middle nation, that ye may be witnesses against Mankind, and that the messenger may be a witness against you".

"Ye are the best Community that hath been raised up for mankind".

THE GREATNESS OF THE APOSTLE

By : ABDUL RAHIM FUDA

The Prophets are the high peaks of the human society. They are the torch bearers of truth and guidance to the people. And they are the apostles of peace and Divine path in the world. They form the fore-line of the righteous people upon them God has showered his favour and grace. The Qur'an Says :

" Whose obeyeth God and the messenger, they are with those unto whom God hath shown favour, of the prophets and the saints and the martyrs and the righteous. The best of company are they ! "

There was a chain of apostles whom God sent, one after another, as Divine messengers. The Qur'an Says :

" We have sent a number of messengers before thee (Muhammad), among them those of whom we have told thee something and others of whom we have not told thee anything. "

The Qur'an has stressed the universality of Divine guidance and proclaimed that there have been countless prophets in various places and at different times. " For every nation there has been a messenger." He sent every messenger with the language of people. As the Qur'an Says : " And we never sent a messenger save with the language of his people that he might make (the message of God) clear for them. "

The teachings of all prophets were basically the same, and each of them was confirming the other, and the Qur'an Said :

" We have sent the book (O Muhammad !) to thee with the truth, confirming the books sent down before it. "

The Qur'an has repeatedly warned against discrimination among the prophets and the Holy books. It declared : " It is not righteousness that you turn your faces to the east or to the west but righteous is he who belives in God and the Last Day and God's angels and the book and the prophets."

When the prophet Muhammad has come, the followers of the various apostles and books had fallen into some great errors, like religious groupsm, narrow mindedness. They forgot the object of religion, ignored the fundamental teachings of it. This condition led to mutual hatred, enmity and wars. The mankind was looking foreward to able guide who could sweep away all artificial differences and factions and reunite the people

Judgment or Reckoning. Man must be prepared to face the consequences of his acts, as he expects every thing else to have a known, natural and inevitable effect. Thirdly, man should expect only justice, the due result of his acts, God is neither arbitrary nor revengeful.

4 — In making submission to Him and acknowledging and seeking His help, it is not said merely that we worship Him and seek His help. It is said instead :

" Thee (alone) we worship ; and Thee (alone) we ask for help." Not only has it fixed the relationship between man and his Lord, but it has also proclaimed in unequivocal terms the unity of God, and it closes all paths to polytheism, in whatever form.

5 — The path of profit and grace is described as the straight path. The straight path is easier to recognise and follow, and the more one deviates from it the greater the danger of one's going astray.

6 — Often, however, it is not easy to distinguish which is the straight path Man is helpless, for the answer to the question is hidden in the womb of the future, and he can but proceed on the basis of his very limited knowledge and very restricted reason. He can then but seek the grace of God and pray : O Lord, direct us on the straight path, "the path" — for I know not which it is — of those on whom thou hast bestowed thy grace, not of those who have brought upon themselves thy wrath and have gone astray. (1)

(1) The Quintessence of Islam.

BY : ASHFAQUE HUSAIN

This Sura, Al-Fateha, Sets forth these fundamentals, with incomparable effect, in words which are few and numbered and yet soprecise and simple that they make a direct impact on the mind and heart of the reader. That is as it Should be, for the more simply a truth is stated the more convincing it is ; nature itself is simple and it is only artifice and ornamentation which make things complicated. So this sura says the simplest things in the simplest words. It addresses God by those very attributes whose manifestations surround one all the time, even if one is ignorant or negligent enough not to notice them ; it proclaims submission to the Lord of the Universe; it acknowledges His help in everything; it prays for the path of rectitude, avoiding the world's temptations and pitfalls. There is aparently nothing remarkable in all this ; it contains no difficult thought or novel idea or esoteric formula. Now that we have been repeating it countless times and its message has been before mankind for centuries, it appears a common place ; yet, when it was presented to the world there appeared to be nothing more obscure and strange.

Very briefly, this short simple prayer, with out entering into any argument or even explanations, sets before mankind in the clearest possible terms the following basic spiritual lessons :

1 — One of the greatest spiritual errors of man has been to conceive of God as an awesome and terrifying being rather than as Love. The Sura, therefore, begins with HAMD, adoration through praise ; there is no reference to any fearsome aspect of divinity.

2— The first attribute of God referred to is that of Rabbil-Alameen, the Cherisher, Nourisher and Sustainer of the Universe, and it contains two lessons. It tells man of God Who gives him all he needs by way of sustenance, material and spiritual, so that he may protect himself from all evil and proceed to his full development. Secondly, it tells him that God is the God of the Universe, not of any part of it. There is no room left for any narrow mindedness, prejudice and exploitation, Whether individual, tribal, communal, racial, national, religious or of any other kind, His grace and gifts are for all mankind, not for any particular group or any particular religion.

3— He is the Lord of the Day of Judgment. Firstly, He is the Supreme Judge; to none else is it given to sit in judgment upon man. Secondly, there is a Day of

The opening sura (chapter) of the Qur'an has been variously referred to as Fatehatul-Kitab (the opening of the book), Ummul-Qur'an (the most prominent in the Qur'an or, alternatively, the essence of the Qur'an), Al-Kafia (the suffitient), Al-Kanz (the treasure), etc. The Qur'an itself gives a special place to this chapter, for it refers to it thus : "we have bestowed upon thee the Seven oft-repeated and the great Qur'an" (XV : 87). The expression "Seven oft-repeated" it has been estabilished, refers to this chapter which contains Seven verses and which is repeated over and over again in prayers and also on other solemn occasions.

The prominent place given to this chapter is due to the fact that it is not only the introduction to the Qur'an but also its essence. All that has been stated at length in the Qur'an about the fundamentals of re gion has been said in the seven brief verses of this chapter. If a man is unable to read anything else of the Qur'an but can master the meaning of these few short phrases, he will have fully grasped the fundamental purpose of religion and the path to truth and self - fulfilment.

The entire sura is in the form of a prayer and its words are so simple and telling that even an uneducated person can understand them and be moved by them. It was with this in view that this chap er was made the central piece of Islamic litrature, and it is repeated several times during each prayer and on all other solemn occasions.

What are the fundamentals of true religion ?

They can perhaps be reduesd to the following :

a) To have a correct conception of the attributes of God. The errors into which man has fallen in his worship of God have all emanated from his misunderstanding of God's attributes.

b) To belive in the law of just returns. Everything in the world has particular properties and a natural effect, and so man's actions also have certain properties and effects; Good actions lead to good and evil actions to evil.

c) To belive in life after death. Man's life does not end in this world; life will continue beyond it and man will continue to reap the returns of his actions.

d) To recognise the path of rectitude and grace.

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

CHIEF EDITOR :

A. H. AL-ZAYYAT

JUMADA'L - UKHRA 1384 H. A.	ENGLISH SECTION EDITED BY : A. M. MOHIADDIN ALWAYE	NOVEMBER 1964

AL - FATEHA

The Opening Chapter of the Qur'an

BY

MOULANA ABUL KALAM AZAD

[Moulana Abul Kalam Azad was a scholarly teacher and a learned theologian. He had strong literary tastes and he was interested in the modern language and litrature. While his training and upbringing had given him a great deal of knowledge of classical litrature, nature had endowed him with a creative and objective mind. Thus he combined true conservatism with modernism. He did not leave everything that is old simply because it was old. And he did not accept the new merely because It was a new.

In his explanation of messege of the Qur'an he warned that the principles of Qur'an could not be tested by the ever limited knowledge of man. Because the science and philosophy can lead man only to a limited extent. The ultimate guide of man must be inspiration beyond Science, faith, logic and philosophy. It is noteworthy that Moulana Azad Spent his whole life in controvercial politics but his writings have no sign of any prejudice or bias.

Moulana Abul Kalam Azad's commentary of the first chapter of the Qur'an, Al-Fateha, contains all the spritual teachings of the Qur'an, the fundamentals of Islam and it deals with several problems which have been a challenge to religious thought. This commentary will give the reader a clear idia of Islam inits true original form, as set forth in the Qur'an, by a theologian, humanist and a modern Intellectual — M. Alwaye]

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الخامس - السنة السادسة والثلاثون - رجب سنة ١٣٨٤ هـ - ديسمبر ١٩٦٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مكانة المرأة في المجتمع

بقلم : عبد الرحيم فوده

١ - أتت أسماء بنت يزيد الأنصارية إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه في المدينة فقالت : بأبي أنت وأمي يارسول الله أنا وافدة النساء إليك ، إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة ، فآمنا بك وبإلهك ، إنا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم ، وحاملات أولادكم ، وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات ، وعيادة المرضى ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل ، وإن أحدكم إذا خرج حاجا أو معتمراً أو مجاهداً حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا أثوابكم ، وربينا أولادكم ، أفنشاركم في هذا الأجر والخير ؟ فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه بوجهه كله ، ثم قال : هل سمعتم مسألة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها .. ؟ فقالوا : يا رسول الله ما ظننا امرأة تهتدي إلى مثل هذا ! فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إليها فقال : افهمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك أن حسن تبعل المرأة لزوجها ، وطلبها مرضاته ، واتباعها موافقته ، يعدل ذلك كله ،

فانصرفت وهى تهلل حتى وصلت إلى نساء قومها من العرب ، وعرضت عليهن ما قاله لها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ففرحن وآمن جميعهن .

من هذه القصة تلوح مكانة المرأة من حيث هى زوجة فى المجتمع الإنسانى ، فعملها لإرضاء زوجها ، وحسن عشرتها له ، وعنايتها بشئونه وشئون بيته وأولاده ، وموافقته فى غير ما يغضب الله يعدل ما يقوم به دونها من حج وعمرة وجهـــاد فى سبيل الله ، وعلى هذا تكون المساواة فى الأجر والثواب لا فى نوع العمل والوظائف ، وهذا هو ما يفهم من قول الله : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » فالرجال من النساء ، والنساء من الرجال ، وهما يتساويان فى الأجر والجزاء وإن اختلفت وظائفهما باختلاف طبيعتيهما ، لأن عمل كل منهما متمم لعمل الآخر .

٢ — والمرأة من حيث هى أم يجب أن تكون منزلتها أعلى من منزلة الرجل فى نظر أبنائهما ، وذلك هو ما يشير إليه قوله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير » . فإن تخصيص الأم بالذكر دون الأب بعد التوصية بهما يدل على أنها أجدر منه بالشكر ، وذلك لأنها كما يقول الله : « حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين » ، وبذلك التوجيه من الله والتنبيه إلى مكانة الأم جاء توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد سأله رجل فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى .. ؟ قال : أمك قال : ثم من .. ؟ قال : أمك قال : ثم من .. ؟ قال : أمك ، قال : ثم من .. ؟ قال : أبوك ..

٣ — أما نظرة الإسلام إليها قبل أن تكون زوجا وأما فيمكن أن نلمحها من قوله تعالى : « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما » فإن التعبير بكلمة « يهب » يشير إلى أن الأنثى والذكر من الأولاد كلاهما نعمة موهوبة ، فينبغى أن تكون محبوبة ، وأن تقابل بما ينبغى للخالق الرازق من ذكر وشكر ، ولهذا نعى الله على العرب وغيرهم من الكافرين أنهم كانوا كما يقول فيهم « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب » ثم بين قبح حالهم هذه وسوء حكمهم هذا بقوله « ألا ساء ما يحكمون » .

٤ — وكما يراد الزرع من الحقل تراد

المرأة للنسل ، فإن ذلك هو وظيفتها الأولى ، وذلك هو بعض ما يفهم من قوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم » ، وقوله جل شأنه : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » وقوله سبحانه : « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » ، فالبنون والبنات لا يكونون من غير الأزواج والزوجات ، ومن فى حكم الزوجات والتبنى عادة مذمومة أبطلها الإسلام ، ليصون كرامة الأسرة وحرمة الأسرة وحقوق الأسرة ، وجو الأسرة ، ولا مجال لقائل بعد قول الله : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم » ، وقوله تعالى : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » .

٥ — ويفهم من قوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » : أن قيام الزوج بأمر الزوجة ليس مقصوراً على الرياسة والولاية بل يشمل إلى ذلك حسن العشرة والرعاية . وما يتصل بهما من ألوان البر والخير بدليل قوله تعالى : « وعاشروهن بالمعروف » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : (استوصوا بالنساء خيرا) وقوله عليه السلام : (لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضى منها آخر) ولا شك أن طاعة المرأة لزوجها أمر طبيعى ، وأن رياسة الرجل الأسرة مما تقضى به الضرورة والنظام فى كل مجتمع ، فإن لكل مصلحة رئيسا ، ولكل مدرسة رئيسا ، ولكل قرية رئيسا ، ولكل دولة رئيسا ، والأسرة أساس المجتمع فيجب ألا تشذ عن نظام المجتمع ، بل إن لها شأنا أخطر وأكبر ، يجب ألا يغفل أو يهمل . . وليس معنى ذلك أن يستبد الزوج وتأخذه العزة بالإثم . وتعيش الزوجة فى جو من القهر والأسر ، فإنه ليس له عليها أى سلطان أو سبيل إذا أطاعته فيما يرضى الله كما يفهم من قوله تعالى : « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا » .

هذه هى بعض الخطوط الرئيسية التى تحدد مكانة المرأة فى المجتمع وعملها فيه ، وقد فسح لها الإسلام مجال العمل الصالح ، ووعدها بالحياة الطيبة كالرجل سواء بسواء ، كما يفهم من قوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

عبد الرحيم فوده

الجهـــاد

لفضيلة الإمام الأكبر
الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر

الجهاد بين اللغة والشريعة :

الجهاد فى أصل اللغـــة المشقة ، يقال : جاهدت جهادا أى بلغت المشقة .

وفى استعمال الشرع ، بذل الجهد فى قتال الكفار ويستعمل أيضاً لمجاهـــدة النفس والشيطان والفساق .

ومجاهدة النفس تكون بتعلم أمور الدين والعمل بها ، وتعليمها لمن يجهلها وحثه على العمل بهـا .

ومجاهدة الشيطان تكون بعدم الإصغاء إلى وسوسته والاستعاذة بالله منه ومن شره .

ومجاهدة الفساق تكون بدفع الشبهات عنهم وما تزينه لهم شهواتهم من الأفعال والأقوال التى نهى عنها الشارع الحكيم .

وأما مجاهدة الكفار فتكون برد اعتدائهم على المسلمين باليد والمال واللسان والقلب .

ولا خلاف بين المسلمين فى أن الجهاد فرض على المسلم ، ومحل الخلاف هو أنه فرض عين على كل مسلم أو فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الباقين . وهما قولان مشهوران فى مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه .

ونختار أنه فرض عليهم إذا لم يكف من نهض به من أهل البلد المعتدى عليه ، إذ فى هذه الحالة يكون مفروضا على المسلمين من أهل البلاد الأخرى أن يعاونوهم فى جهادهم بالنفس والمال وغيرهما من وسائل الجهاد حتى يظفر المسلمون برد اعتداء غير المسلمين على أى بلد من بلاد الإسلام .

وهو فرض كفاية إذا كان أهل البلد الذين نصبوا أنفسهم لرد اعتداء غير المسلمين على بلدهم من القوة والكثرة بحيث يغلب عليهم الفوز على أعدائهم من غير معونة أهل البلاد الأخرى .

الدعوة قبل الجهاد :

ولم يشرع الجهاد فى الإسلام أول الأمر وإنما شرع بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فلم يشرع الجهاد ولم يؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين الذين ناصبوه العداء وهو مقيم بينهم فى مكة بل استمر يدعو الناس إلى الإسلام دعوة سلمية لم يمتشق فيها حساما ولم يعلن فيها حربا على أحد أكثر من ثلاثة عشر عاما .

وقد بدأ الرسول دعوته بإنذار عشيرته الأقربين امتثالا لأمر ربه فى قوله تعالى : «وأنذر عشيرتك الأقربين. واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين. فإن عصوك فقل إنى

يرى بما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم . الذى يراك حين تقوم. وتقلبك فى الساجدين . إنه هو السميع العليم » .

ثم انتقل بدعوته إلى أهل مكة وغيرهم ممن كان يفد إلى مكة للحج وغيره من أهل يثرب ممتثلا فى ذلك أمر ربه فى قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » .

وكانت طريقته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الدعوة خلال هذه الأعوام الطويلة ما رسم له القرآن فى قول الله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

وقد أثمرت هذه الدعوة السلمية ثمرات طيبة ، فأسلم عدد من المشركين وجدوا فى الدعوة نورا يضىء لهم ظلمات الشرك والجهل ، وعدد من الأرقاء والخدم وجدوا فيها دعوة إلى الحرية والإخاء والمساواة ، وهو ما افتقدوه فى حياتهم حيث كانوا يعيشون خدما وأرقاء لسادتهم الذين يمنحون أنفسهم كل شىء ويحرمون أتباعهم وخدمهم من كل شىء ، وعدد من المظلومين والمعتدى عليهم وجدوا فى الدعوة الإسلامية العدل والمساواة فآمنوا بالله وأجابوا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وبرز من هؤلاء المؤمنين الأولين أبو بكر الصديق وعمر ، وحمزة ، وعلى وعبدالرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وبلال ، وعمار بن ياسر وغيرهم رضى الله عنهم .

ولم تصل هذه الدعوة إلى القلوب المتحجرة من سادات قريش الذين خشوا على سلطانهم ونفوذهم فى قومهم كما خشوا على أموالهم أن ينفقوها فى سبيل الله وسبيل البر والتقوى كأبى جهل ، وأبى سفيان ، وعقبة بن ربيعة وغيرهم ، فقد أعرضوا عن الدعوة وجاهروا بعدائهم لها ، وصدوا الناس عن قبول هذه الدعوة وحاولوا فتنة من أسلم منهم بإيذاء المسلمين وتجويعهم وإلحاق الضرر بهم .

الإذن بالقتال :

أمضى الرسول « صلى الله عليه وسلم » فى مكة ثلاثة عشر عاما ، بلغ فيها الدعوة إلى أهل مكة وغيرهم من الوفود ، ولقى هو وأصحابه ألوانا كثيرة من أذى المشركين وظلمهم ، فلما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بتآمر المشركين فى مكة عليه ومكرهم به ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ـ استشرفت نفسه الشريفة أن يأذن الله له بالهجرة إلى يثرب التى بايعه نفر من أهلها بيعة العقبة الأولى والثانية على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم ، فأذن الله له بالهجرة ، فهاجر إلى يثرب واصطحب معه صديقه أبا بكر الصديق « رضى الله عنه » ، وبعد أن استقر بالرسول « صلى الله عليه وسلم » المقام بالمدينة شرع يفكر فى تنظيم أمور الدولة الإسلامية الجديدة ، وكان أول عمل فى السياسة الداخلية مؤاخاته

بين المهاجرين والأنصار وفى السياسة الخارجية أى فى سياسة الدولة نحو إعداد الدعوة استعدادا لرد عدوان من ينكرون فى الاعتداء على الدولة الإسلامية، ولحماية العقيدة، وأنزل الله على رسوله فى هذا الوقت أولى آيات القتال وهى قوله تعالى فى سورة الحج: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع، وصلوات، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز».

وينقل الطبرى فى تفسيره عن قتادة فى قوله تعالى: «أذن للذين يقاتلون... قال: «هى أول آية أنزلت فى القتال وأذن للمؤمنين أن يقاتلوا وكان أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» استأذنوه قبل الهجرة فى قتل الكفار غيلة سرا إذ آذوهم واشتدوا عليهم بمكة فلم يأذن الله سبحانه وتعالى فى القتال الذى طلبوه، ونزل قوله تعالى: «والله لا يحب كل خوان كفور».

ولما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة أطلق لهم قتلهم وقتالهم أى أن الله سبحانه وتعالى أذن المؤمنين الذين أخرجهم مشركو مكة من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله - بأن يقاتلوا المشركين الذين ظلموهم أولا بالإخراج من ديارهم، وثانياً بقتال المؤمنين والاعتداء عليهم فى وطنهم الثانى، فالإذن بالقتال فى الآية إذن بقتال فريق معين من المشركين أرادوا أولا صد الناس عن الدعوة بعنف وتعذيب وتنكيل وطغيان ووحشية أساليب وأكرهوهم بما فعلوا بهم ثانيا على الخروج من وطنهم الحبيب فرارا بدينهم إلى حيث الغربة عن الأهل والعدم من المال والوحشة من الأجانب، ولولا أنسهم بالعقيدة السمحة والدين الحق لماتوا كمدا، وقضوا حسرة، فالإذن بالقتال فى أول آياته معه مبرراته التى تحتمها حماية الدعوة الجديدة من اجتراء سفهاء يريدون لها الهوان فلو حلم المسلمون عليهم لتمردوا تمرد اللئيم، وقديما قيل:

وبعض الحلم عند الجهل للذلة إذعان

وفى الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان

ولهذا يعتبر الإذن بالقتال رداً طبيعيا لا يحمل إكراها على إيمان وإرغاما على دين وصدق الله العظيم فى قوله: «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم».

حسن مأمون
شيخ الأزهر

التطوّرات التشريعيّة للطلاق

للأستاذ محمد محمد المدنى

٢ — الطلاق غير المنجز

— ٥ —

١ — إذا قال زوج لزوجته : أنت طالق أو أنت مطلقة ، فهذا طلاق منجز ، أى أنه ليس معلقا على حصول شىء ، وقد قصد به إيقاع الطلاق فورا .

وحكم هذا الطلاق أنه يقع فى الحال ، إذا كان صادرا من أهله ، ووقع فى محله .

٢ — وإذا قال رجل لزوجته : إذا دخلت الدار فأنت طالق أو إن لم أدفع دينى غدا فأنت طالق أو : على الطلاق لا تخرجى من البيت ، أو إن دخلت البيت فطلاقك على واجب، أو: أنت طالق أول الشهر أو أول السنة

فكل هذا طلاق معلق ، أى غير منجز ، وذلك أنه علق الطلاق فى المثال الأول والمثال الثانى على دخولها الدار ، أو على عدم دفع دينه غدا .

والمثال الثالث يفهم منه التعليق وإن لم يصرح به لفظا فكأنه قال : إن خرجت من البيت يلزمنى الطلاق ـ والتعليق فى المثال الرابع صريح فى هذا المعنى الذى آل اليه المثال الثالث .

والمثال الخامس تعليق فى المعنى أيضاً ؛ لأنه بمثابة أن يقول : إن جاء أول الشهر أو أول العام فأنت طالق .

والطلاق المعلق ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : الطلاق الذى هو فى معنى اليمين ، كما لو أرادت المرأة أن تذهب إلى بيت أهلها مثلا . وأراد زوجها منعها فهددها بالطلاق قائلا لها : إن ذهبت إلى بيت أهلك فأنت طالق ، فهذا بمثابة أن يقول لها : والله لا تذهبين إلى بيت أهلك غير أنه أتى بالطلاق بدل الحلف بالله ! وليس له غرض فى الطلاق ولكن غرضه أن يمنعها من الذهاب إلى بيت أهلها .

ومثله من يقول لصاحبه : إن لم تتغد عندى اليوم فامرأتى طالق ، فكأنه حلف عليه بالطلاق بدل أن يحلف بالله ، ليحثه على الفعل .

وكذلك لو أراد أن يحث نفسه على فعل شىء ، أو على ترك شىء ، كأن يقول إن شربت الدخان فامرأتى طالق ، أو إن لم أسافر إلى الإسكندرية فامرأتى طالق .

فكل هذه الصيغ التعليقية ، إنما هي أيمان لا يراد بها الطلاق ولكن يراد بها الحث أو المنع .

الثاني من قسمي المعلق : الطلاق على الصفة مثل أن يقول لها ، وهما بصدد التفاوض على إنهاء الزوجية : إن دفعت لي مبلغ مائة جنيه فأنت طالق ، أو إن أبرأتني من مؤخر صداقك فأنت طالق .

فهذا رجل له رغبة في الطلاق وغرض منه يرمي إليه وليس بمجرد تعليق يحث به على شيء أو يمنع به من شيء ، كما يفعل الحالف بالله ، وقد اصطلحوا على تسميته (بالطلاق على الصفة) .

هذه هي أقسام الطلاق من جهة تنجيزه أو تعليقه . ويمكن إيجاز التطور التشريعي الذي مر به هذا الموضوع فيما يأتي :

١ — فهم بعض العلماء أن الطلاق الذي رسمه الشارع وأذن فيه هو ما كان منجزاً ، فإنه لم يرد في القرآن ولا في السنة نص على جواز التطليق المعلق بالشرط .

بل لعل القرآن أشار إلى أن الطلاق لا يقع إلا منجزاً حيث يقول :

« يأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا » ، ففي هذه الآية شرط وهو قوله تعالى إن كنتن وجواب معلق على هذا الشرط وهو قوله تعالى فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا . فهو تخيير ليس فيه تنجيز الطلاق عند وقوع الشرط ، ولكن فيه وعد لهن بالتطليق إذا اخترن المتاع ، ولو كان قد قال ، قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فأنتن طوالق ، لدل ذلك على مشروعية الطلاق المعلق لكنه عدل عن ذلك ليمكن أن يسرحهن سراحاً جميلا إذا اخترن الحياة الدنيا وزينتها بأن يطلقن مستقبلات العدة تحقيقاً لقوله تعالى في آية أخرى : « يأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة » ، فهذه الآية الأخيرة تبين أن الطلاق المشروع هو طلاق النساء في الوقت المشروع للطلاق ، وهو وقت استقبال المرأة العدة والطلاق المعلق على الشرط كثيراً ما يجر إلى إيقاع الطلاق في غير وقت استقبال العدة ، وما يؤدي إلى غير المشروع لا يكون مشروعاً .

وهناك أحاديث نبوية معروفة تقرر أن الطلاق المشروع — المعبر عنه عند الفقهاء بالطلاق السني ، المقابل للطلاق البدعي — هو الذي يكون والمرأة مستقبلة عدتها ، ومنها ما روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عمر بن الخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : مره

فليراجعها ، ثم ليمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس ، فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء. فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل له : قل أنت طالق إذا استقبلت العدة لأن ذلك ينافى الحكمة التى قصرها الشارع من إعطاء فرصة للزوجين فى مراحل الحيض والطهر مرة بعد مرة ، لعلهما أن يصلحا من أمرهما فلا يكون الطلاق الذى يكرهه الله .

وبذلك يكون الطلاق المعلق على الشرط غير جائز ، وغير مشروع ، إلا مادل الدليل على جوازه وصحته مثل التطليق على مال وهو الخلع .

وقد روى هذا عن على وشريح ، وطاوس وعطاء ، وأبى ثور ، وإليه ذهب أهل الظاهر ، وهو مذهب الشيعة الأمامية .

٢ — ويرى جمهور أهل المذاهب ، ومنهم الأئمة الأربعة والزيدية جواز التعليق ، على اختلاف بينهم بالنسبة لأنواعه .

ولهم على ذلك أدلتهم ، وقد ناقشهم مخالفوهم فيها ، ومن أراد تفصيل ذلك فليرجع إلى مثل كتاب (زاد المعاد لابن القيم) .

٣ — وقد كان العمل فى مصر وشقيقاتها العربيات على رأى الجمهور ، وهو اعتبار الطلاق المعلق بشرط واقعا إذا تحقق الشرط دون تفرقه بين ما كان على سبيل اليمين ، وما كان طلاقا على الصفه ، حتى صدر القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ فنص فى المادة الثانية منه على ما يأتى :

(لايقع الطلاق غير المنجز ، إذا قصد به الحمل على فعل شىء أو تركه لا غير) .

وقد تضمنت هذه المادة :

١ — إيقاع الطلاق المنجز بدون قيد ولا شرط .

٢ — إيقاع الطلاق المضاف إلى زمن مستقبل مثل أنت طالق أول الشهر أو أول العام .

٣ — وإيقاع قسم من المعلق وهو الطلاق على الصفة ، مثل إن دفعت إلى مائة جنيه مثلا فأنت طالق .

٤ — إلغاء اليمين بالطلاق ، وهو على الطلاق لأفعلن كذا ونحو ذلك .

٥ — إلغاء قسم من المعلق هو الذى فى معنى اليمين مثل إن فعلت كذا فأنت طالق وهو لا يقصد إلا الحمل على تركه ، أو إن لم تفعل كذا وهو لا يقصد إلا الحمل على فعله .

وما قرره هذا القانون من إلغاء اليمين بالطلاق هو رأى طائفة من أصحاب الشافعى كالقفال : وصاحب التتمة ، ورأى دواود وأصحابه : ورأى طائفة من المالكية فى بلاد المغرب ، وأنه كان يفتى به فى فارس والعراق والشام ومصر والجزيرة وخراسان فى زمن ابن تيمية : كما نص عليه ، وأن الذين كانوا

يفتون به كثيرون من علماء المذاهب الأربعة وغيرهم ، وإن لم يكن هو رأى جمهورهم .

وأما ما قرره من إلغاء الطلاق المعلق على شرط بقصد الحمل على الفعل أو الترك ، فقد بنى على أن هذا النوع من التعليق هو فى معنى اليمين ، وإن لم يكن بلفظ « على الطلاق » أو « يلزمنى الطلاق » وأخذ فيه برأى الظاهرية ، والإمامية ، وما اختاره ابن القيم وشيخه ابن تيمية .

وقد وقفت القوانين الحديثة فى البلاد الشقيقة موقف القانون المصرى المشار إليه تقريبا :

فجاءت المادة السادسة والثلاثون من القانون العراقى تقول :

« لا يقع الطلاق غير المنجز ، أو المشروط أو المستعمل بصيغة اليمين » .

وهذا النص أكثر توسعا فيما لا يقع من المعلق ، فقد شمل إلغاء كل معلق ، أو مشروط أو صيغة لليمين ، بينما القانون المصرى يقرر وقوع المعلق الذى هو على الصفة ، وهو ما للمطلق فيه وطر وغرض يقصده سوى الحمل على فعل شىء أو تركه .

وجاء فى الفصل الخمسين من مدونة الأحوال الشخصية المراكشية ما يأتى :

« الحلف باليمين أو الحرام لا يقع به الطلاق » .

وجاء فى الفصل الثانى والخمسين منها ما يأتى :

(الطلاق المعلق على فعل شىء أو تركه لا يقع) .

وهو نص دال على التعميم فى عدم الوقوع بالتعليق أيا كان نوعه .

وجاء فى المادة السبعين من قانون حقوق العائلة الأردنى ما نصه :

(لا يقع الطلاق غير المنجز إذا قصد به الحمل على فعل شىء أو تركه) .

وفى المادة الحادية والسبعون منه :

(على الطلاق ، وعلى الحرام ، وأمثالهما ، لا يقع بها الطلاق ما لم تتضمن صيغة الطلاق مخاطبة الزوجة وإضافته إليها) .

وجاء فى المادة التسعين من قانون الأحوال الشخصية السورى ما نصه :

(لا يقع الطلاق غير المنجز إذا لم يقصد به إلا الحث على فعل شىء ، أو المنع منه ، أو استعمل استعمال القسم لتأكيد الإخبار لا غير) .

ويرى بعض العلماء المعاصرين أنه يجب تعديل المادة الثانية من القانون المصرى رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ تعديلا يؤدى إلى تحقيق ما يأتى :

الطلاق المعلق بجميع صوره وألفاظه لا يقع به شىء أصلا — (وهذا ما أخذ به القانون العراقى) .

اليمين بالطلاق لغو ولا يقع به شىء .

(وأقرب عبارة لهذا هى عبارة القانون العراقى أيضا)

محمد محمد المدنى

إلى أي مدى تتغير الأحكام الشرعية بتغير الأزمان؟

للأستاذ بدر عبد الباسط

— ٢ —

انتهيت في المقال السابق إلى أسس ينبغي أن تكون نصب أعين المفتين والذين يضعون للأمة قوانين يلزمونها بها . وتتلخص هذه الأسس فيما يأتي : ـ

(١) أحكام غير قابلة للتطور ولا لاختلاف الآراء . وهي : ـ

١ ـ الأحكام الاعتقادية .

٢ ـ الأحكام المستنبطة من أدلة شرعية قطعية في ثبوتها وفي دلالتها .

(ب) أحكام وقع فيها الخلاف ، لأنها مستنبطة من أدلة ظنية في ثبوتها أو في دلالتها ولا يسمى هذا الاختلاف تطورا ؛ وإنما هو اختلاف حجة وبرهان ؛ فمن ترجح عنده دليل رأي من الآراء أخذ به ؛ وكل ما يمكن أن نسلكه في سلك التطور من هذا اللون من الأحكام هو الأخذ ببعض الآراء المرجوحة ـ غير الساقطة ـ إذا كان في الأخذ بها توسعة على الناس ، ولا بدع في ذلك ؛ فقد سبق الفقهاء الأقدمون إلى ذلك ؛ فقد روى عن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة رضي الله عنهما أنه كان يرى أن روث البهائم نجس نجاسة مغلظة كما يقول الإمام ؛ ثم قال : إنه نجس نجاسة مخففة ؛ يعفى عن مقدار ربع الثوب أو العضو الذي أصيب به ؛ ثم لما ذهب إلى بلخ ورأى اختلاط الأرواث بالطين ، وعموم بلوى الناس أفتى بطهارتها ؛ وقد قال فقهاء الحنفية إن الأساس الذي بني عليه صاحبا أبي حنيفة وهما أبو يوسف ومحمد قولهما في النجاسة تغليظاً وتخفيفا هو اتفاق العلماء على القول بالنجاسة أو اختلافهم فيها ؛ ومع هذا فقد أفتى محمد بالطهارة لعموم البلوى أخذاً برأي من يرى طهارتها كالإمام مالك ، ووسعه أن يخالف إمامه .

وعندي أن المفتي الدقيق في فتواه ينبغي أن ينظر في أحوال المستفتين ؛ ويفتيهم بما يتفق وظروف بيئتهم ؛ فإذا كان المستفتي تساعده ظروف حياته على أن يتحرز عن الأرواث وما في معناها ينبغي أن يفتى بأنها نجسة نجاسة مغلظة لا يعفى منها إلا عن النذر القليل الذي حدده الفقهاء .

وأما إن كانت ظروفه لا تساعده إلا على التحرز اليسير ؛ فإنه يفتى — حينئذ — بأن هذه الأشياء نجسة نجاسة مخففة ؛ يعفى منها عما كان دون الربع من الثوب أو العضو .

وأما إن كان مبتلى كالرعاة مثلا فإنه يفتى بطهارتها .

وقد ضربت المثل بهذه المسألة لتكون كنموذج يحتذى فى المسائل الخلافية ؛ وروح التطور فيها هو الأخذ بالرأى الأنسب لكل فرد وكل جماعة ، فقد يتطلب المقام الأخذ بالأحوط وقد يتطلب المقام التساهل ؛ وإذا كان البلغاء يقولون : لكل مقام مقال : فينبغى أن يقول الفقهاء : ن لكل مستفت ظروفه وملابساته .

فلو أنى سئلت عن صحة نكاح أصول أو فروع المزنى بها ؛ وكان السائل - بعد - لم يعقد عليها لأفتيته بحرمه الزواج بأصل أو فرع من زنى بها ؛ أخذاً برأى الحنفية والحنابلة وكثير من الفقهاء ؛ فليس من المروءة ولا من الآداب الإسلامية أن يطلع الرجل من المرأة على ما اطلع عليه من ابنتها أو أمها .

وإما إن كان الزنى لاحقا لعقد الزواج فلا أفتى بفسخ النكاح القائم ؛ وإنما آخذ برأى الشافعية وبعض الفقهاء إبقاء على كيان أسرة قائمة ؛ وعملا بالنصوص التى تدعو إلى الستر فى مثل هذه الأحوال ؛ اللهم إلا إذا اشتهر بها أو كان قيام الزوجية مدعاة إلى دوام تلك العلاقة الآثمة .

ولو استفتيت فى شأن التزوج بمن رضع معها أو منها ، ولم يكن الزواج وقع فعلا لأفتيت بالمنع أخذا برأى الحنفية وكثير من الفقهاء فإن ذلك أحوط وأبعد عن الندم والشك الذى يحطم الحياة الزوجية ، وأما إن كانت الزوجية قائمة فإننى أفتى بأوسع الآراء وأسهلها فى باب الرضاع كمذهب الشافعى الذى اشترط خمس رضعات مشبعات متفرقات .

وقد توسعت فى هذا اللون من الأحكام فى هذا المقال لأنى اقتضبته اقتضابا فى مقالى السابق ، ثم هو باب واسع من أبواب الفقه التى ينبغى أن يعنى بها الفقهاء ، وأن يكونوا كالأطباء فيفتون كل شخص أو كل جماعة بما يلائمهم من أقوال الفقهاء .

ويعجبنى فى هذا المقال ما نقل عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه أن إمرأة سألته فقالت إننا نغزل - ليلا - على ضوء مصابيح بعض الظلمة أيحل لنا ذلك ؟ فقال : من أنت؟ يرحمك الله ، فقالت : أخت بشر الحافى فقال: من بيتكم خرج الورع ؛ أما أنت فلا .

فإن سؤال هذه السيدة سؤال عام يتناولها وغيرها ، ولكن جوابه خاص لأنه علم من حالها أنها تستطيع أن تأخذ بالأحوط والأورع ، فأفتاها بالحظر بالنسبة اليها فقط.

(ح) أحكام هى بطبيعتها قابلة للتطور وقد أجملتها فى مقالى السابق إجمالا وأعود فأفصلها بعض التفصيل وأحصرها - استقراء - فى الأحكام الآتية :

١ - أحكام علقها الشارع على أوصاف بما يؤذن أن لهذه الأوصاف مدخلا فى تعليل الحكم كما ضربت لذلك مثلا بآية مصارف الزكاة ، وبينت فهم عمر رضى الله عنه لهذه الآية .

ووجه التطور فى هذا النوع من الأحكام أنه إن وجدا لوصف المعلق عليه الحكم وجد الحكم وإن عدم انعدم الحكم.

هذا إذا كانت العلة منصوصة أو فى حكم المنصوصة ، وأما إن كانت العلة مستنبطة كالإسكار فى الخمر أو مظنة الضرر فى لحم الخنزير كما يقول بعض الناس - فإن الحكم لا يتغير فالخمر حرام أسكرت أو لم تسكر إما لقلتها أو لاعتيادها المهم إلا إذا زال عنها معنى التخمر بأن صارت خلا، لأنها - حينئذ - ليست خمراً ، ولحم الخنزير حرام مهما كان نقيا من الجراثيم والديدان ومهما بولغ فى طهيه وإعداده وتربيته إذ من الجائز إن لم يكن من المؤكد أن هذه الأشياء محرمة لذواتها، وقد تعبدنا الله بتحريمها ليميز الخبيث من الطيب والعبد المتمرد من العبد الطائع.

٢ — الأحكام التى استنبطها الفقهاء من تصرفات الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى غزواته وسراياه وعطاءاته ومعاهداته فإن هذه الأحكام منها ما صدر عنه بوصفه رسولا مبلغا عن ربه ؛ وهذا - كما قلت - لا يجوز أن يكون محل جدل ، أو أن يقال: إنه من الأحكام المتطورة ، وأما ما صدر عنه بوصفه إماما لهذه الأمة فقد راعى فيها ظروف بيئته ومتطلبات وقته، ويسع الأمة أن تأخذ فى مثل ذلك بما يتفق وظروفها - وكما قلت - إن الفيصل فى ذلك هو القرائن.

٣ — أحكام استنبطها الفقهاء من أقوال مأثورة عن بعض الصحابة، وجعلوها فى حكم الأحاديث المرفوعة بحجة أن مثل هذه الأقوال لا تقال بالرأى وإنما تقال عن توقيف من صاحب الشرع وذلك كرأى الحنفية فى أقصى مدة الحمل وأنها سنتان ؛ وكقولهم فى تحديد أقل مدة الحيض وأنها ثلاثة أيام وأن أكثره عشرة معتمدين فى ذلك على ما نقل عن عائشة رضى الله عنها مستبعدين أن يصدر عنها ذلك إلا عن توقيف ؛ مع أنه يمكن أن يكون قولها هذا عن استقراء وتتبع منها فمثل هذه الأحكام يمكن أن نعتمد فيها على استقرائنا ، ولست أغالى إن قلت إن إمكانية الإحصاء والتتبع فى عصرنا هذا - فى مثل هذه الأمور - أيسر ولا أرى غضاضة شرعا أن آخذ بما يثبت الاستقراء أنه الأكثر وقوعا مع الاحتياط فى أمر الأبضاع والأنساب.

نعم هناك أحكام نقلت عن الصحابة - رضوان الله عليهم - لا يمكن إلا أن تكون عن توقيف ؛ وهذه تلتحق بالأحكام المستنبطة من السنة وتخضع لقوانين الترجيح والتجريح التى وضعها العلماء لمعرفة الصحيح المقبول من غير المقبول ؛ ثم هى بعد ذلك تخضع لقطعية الدلالة أو ظنيتها على ما هو معروف عند الأصوليين ، وهذا - أيضاً - باب واسع من أبواب التطور فى الفقه ، وما علينا إلا نتتبع أمثال هذه الأحكام فى كتب المذاهب المختلفة.

٤ — الأحكام التى استنبطها الفقهاء من القواعد العامة للشريعة .

مثل قاعدة لا ضرر ولا ضرار ، الضرورات تبيح المحظورات ، درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، ارتكاب أخف الضررين . لا يسأل المالك من أين ملك ، المالك يتصرف فى ملكه كيفما يشاء . الحرج مدفوع بالنص . إلى غير ذلك من القواعد التى استنبطها الفقهاء من تتبع فروع الشريعة ثم أخذوا يطبقونها على ما قد تجد من حوادث ونوازل لم يرد فيها نص .

وهذه الأحكام هى من أوسع أبواب الفقه قابلية للتطور فكم من أمور ظن المتقدمون أنها ضارة فقالوا بمنعها ثم تبين أنها لا ضرر فيها أو أن ضررها أقـــل كثيراً من خيرها وكم من أمور ظن - قديما - إنها من الضرورات فأباحوا لأجلها المحظورات وكذا العـكس . وكم من أمور رأوها غير ضرورية ثم بمضى الزمن تبين أنها ضرورة كبعض أنواع الإكراه الذى اعتبره بعض الفقهاء إكراها غير ملجىء كالتهديد بهتك عرض عزيز عليه أو التهديد بإفشاء سر يؤدى إلى قتله إلى غير ذلك ؛ فإنى أرى أن مثل هذا من قبيل الضرورة التى تبيح المحظور .

وباب درء المفاسد وتقديمه على جلب المصالح من أخطر المزالق التى تنزلق فيها الأقدام وذلك لأنه ليس درء كل مفسدة مقدما على جلب كل مصلحة ؛ وإلا لزم حظر جل الأشياء أو كلها ، فكل خير مشوب بشر ما ، وكل شر مشوب بخير ما ؛ فما بين الله حكمه تقبلناه طائعين راضين وأما الأمور التى لا نص فيها فيتطلب الأمر فيها التدقيق والتمحيص والرجوع فى ذلك إلى من يظن فيهم الخير ممن لهم بهذه المسائل خبرة وعلم .

ولهذه المناسبة أعجبتنى فتوى فضيلة الأستاذ عبد الله غوشه مفتى الأردن بتحريم بيع الأراضى فى القدس أو المناطق المحيطة بها إلى الأجانب واعتبار كل بائع لأجنبى خائنا لدينه ووطنه وسيكون مثواه جهنم .

هذه الفتوى التى نشرتها جريدة الأهرام القاهرية صباح يوم الجمعة ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٦٤ فإن هذه الفتوى روعى فيها درء مفسدة عامة على الوطن العربى المسلم ؛ ولم يقم وزنا لما قد يجلبه هذا البيع من منافع عاجلة مهما كان قدرها .

فقد زرت القدس وعلمت أن الدول الأجنبية تتسابق لشراء العقارات التى تحيط بالمسجد الأقصى والتى تقع بينه وبين كنيسة القيامة وأنها تبذل الأموال الطائلة فى هذا السبيل لتحيط المسجد الأقصى بملك غير المسلمين والله - من وراء كيدهم - محيط ؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ولنا عودة بإذن الله .

بدر المتولى عبد الباسط

نفحات القرآن

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

(ا) « لقد جاءكم رسول من أنفسكم : عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم ... » آية ١٢٨ .
(ب) « فإن تولوا - فقل : حسبى الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » آية ١٢٩ سورة التوبة .

(ا) ١ — حينما قام الصحابة بجمع القرآن فى مكتوب واحد على عهد أبى بكر ، وتحت إشراف عمر ، وباشتراك نخبة من حفاظ الصحابة - رضى الله عنهم جميعاً - كانوا يعتمدون فى الجمع والترتيب على شيئين هامين .

أحدهما : الحفظ الأكيد الذى كان معهوداً عند العرب ، والذى تركز عند الصحابة فى هذه الناحية - خاصة - بتكرار التلقى عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

والثانى : الرقاع المكتوبة التى كانوا يدونون فيها ما يأتى به الوحى من القرآن ، حينما يتلقونه لساعته من الرسول ، ثم يحفظون تلك المكتوبات تحت أيديهم . صيانة لها ، واعتزازا بها ، واقتداء بما كان يفعله الرسول فى كتابة الوحى ، والحفاظ على هذه الوثائق تحت يده .

٢ — فلما انتهى عمل الحفاظ إلى الآية السابعة والعشرين بعد المائة - ١٢٧ - من سورة التوبة وجدوا أنفسهم يحفظون آيتين أخيرتين - ١٢٨ - ١٢٩ - ولم يجدوا بأيديهم النص الكتابى الذى يوثقون به حفظهم ، وجمعهم ، وترتيبهم ...

فتساءلوا عن هذا النص ، وسرعان ما تقدم به أبو خزيمة الأنصارى إلى عمر ، ومن معه .

وعندئذ تطابق الحفظ الجماعى ، مع النص الكتابى لهاتين الآيتين ، وختمت بهما سورة التوبة : توقيفا عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

٣ — وجمهور الصحابة أو المفسرين

بعدهم يحدثوننا أن هاتين الآيتين آخر ما نزل على النبي من الآيات كلها .

وهناك آثار أخرى بأن آخر ما نزل : « اليوم أكملت لكم دينكم - الآية » ، أو آية « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله . الآية» إلخ.

وتعدد الروايات فى هذا لا يمس جوهر الآيات ، ولا يخدش قداستها ، فإن ذلك مجرد اعتبار تاريخي : لا أكثر ...

والتاريخ الزمني شيء ، وصدق الآية وقداستها شيء آخر .

والقرآن بعد تمامه ، وانتهاء الوحي منه ، أصبح وحدة : لا يتفاوت فيها نص عن نص ، سواء تقدم هذا على ذاك فى النزول ، أو تأخر بالنسبة لما معها

ولا يسوغ فى تشريع الله أن تقرأ الآية على غير ترتيبها فى المصحف . على أن بعض العلماء قالوا بصحة الآثار كلها باعتبار كل آية مما تناوله الخلاف كانت آخر ما نزل فى موضوعها الذى تتعلق به .

فالآيتان المذكورتان آخر ما نزل فى تعريف العرب بشأن محمد فيهم ... وفى تعريف النبي بما يفعله مع المعرضين عنه - وهكذا كل آية أخرى مما قيل فيه إنها آخر ما نزل .

* * *

٤ - وفى الآية الأولى توجيه إلى شخصية النبي من جهات عدة .

فهو إنسان من جنس الناس ، وليس من جنس آخر كالملائكة أو الجن مثلا .

واتحاد الجنس مدعاة إلى الألفة ، والاطمئنان : لا إلى النفرة والخصومة كما بدا من الكفار عامة ، ومن قريش خاصة ، وفوق ذلك : أن محمداً من نفس العرب ، وتلك علاقة أخص من علاقة الجنسية العامة .

ومحمد فى قومه من ذؤابة العرب - قريش - غير منازع ... وهم أعرف به فى نشأته ، وحياته ، طهراً وسمواً ...

فكان من حقه على قومه أكثر من سواهم أن ينحازوا إلى دعوته ، ويفخروا برسالته ، ويتمدحوا بشخصيته ...

فهو منهم ، ومجدهم يستمد من مجده ... كما كانوا يفخرون بأبطالهم ، وشعرائهم ، وكرمائهم ، ويتمجدون بهم .

وكل ما لديهم من المفاخر لا يبلغ شيئاً مما توج الله به رسوله محمداً بن عبد الله : من مياسم الشرف ، والعزة ، والطهر ، والعصمة من كل شائبة أدبية ، أو نقيصة خلقية .

ولكن العناد ، والغباء ، والجهالة ، والغرور بالباطل : طغت كلها على نفوس قريش كما طغت على سواهم ، فتجهموا للرسول ، وكذبوه ، وقالوا : « لو شاء ربنا لأنزل ملائكة » ، وقالوا : « أبعث الله بشراً رسولا » ، وقالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ... إلخ » .

٥ — ومن توجيهات الآية الأولى بصدد الإشادة بنسبه أن فيه خصائص ذاتية تقتضى منهم أكثر مما تقتضيه الصلة النسبية العربية.

ويقول فيها الله تعالى: «عزيز عليه ما عنتم» يعنى: يصعب على نفسه ما يصيبكم من مكروه وأنه لا يغض من عطفه عليكم ما يلقاه من إساءتكم له.

«حريص عليكم» شديد الرغبة فى هدايتكم وإيمانكم، مع أن جزاء الطاعة محسوب لكم وعقوبة العصيان واقعة عليكم: فلاله ولاعليه فإنما عليه البلاغ، وقد بلغكم كل ما أوحى به إليه.

«بالمؤمنين رءوف رحيم» فرأفته تتمثل فى دفعه للضار عنكم ... ورحمته تتمثل فى جلب المنافع لكم.

ودفع الشر، وجلب الخير أحب ما يناله المرء من غيره .. والرأفة، والرحمة من صفات الله الحسنى وقد شهد الله بهما لمحمد صلوات الله عليه وسلامه.

٦ — وهذه المحامد كلها مظهر حق لأهليته للرسالة، وجدارته بالقدوة فى أقواله وفى مسلكه فإذا كان فى مستوى الكمال فيما تشهدونه: نسبا، وحرصا عليكم، ورأفة ورحمة بكم فلماذا لا يكون موضع التقدير الأسمى عندكم.

وماذا يصدكم عن موالاته، ويحملكم على مجافاته، مع أنكم المنتفعون به فى الاهتداء، والسلامة من العثرات . ؟؟

ونحن نرى فى هذه الآية دعــوة أخاذة للعقول الواعية، وجذابة للقلوب الحية، والمستعدة للحياة.

وليس بعدها عذر لمن يتبلد إحساسه، ويتخلف ذهنه عن حسن التقدير.

• • •

٧ — هذا وإنا لنلمس فى شخصية الرسول وفى خصائصه نموذجا لدعوة إبراهيم وإسماعيل يوم كانا يقومان ببناء الكعبة فى مطلع التاريخ الإسلامى العــربى ... ويضرعان إلى الله بالدعوات البارة بهما، وبالإنسانية جميعا.

«ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم - أى فى الذرية المسلمة - رسولا منهم، يتلو عليهم آياتك». الآية ١٢٩ بقرة.

وفى آية أخرى كان دعاؤهما «ربنا وابعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياتك» وقد استجاب الله لإبراهيم وإسماعيل دعاءهما المبكر، وبعث فى الأمة المسلمة رسولا من أنفسهم، ختم به الرسالات والرسل.

والله يمتن علينا بهذا فى الآية التى معنا «لقد جاءكم رسول من أنفسكم».

وإنك لتشم من أريج الدعوة الإسلامية ومن نفحات القرآن كيفما نظرت فيه أو تلوت منه: أن شريعة محمد هى امتداد كامل لشريعة

إبراهيم ، كما أن شخصية محمد هى الوشيجة العطرة بين العرب وإسماعيل وإبراهيم .

« ذرية بعضها من بعض » وصلوات الله عليهم جميعا فى الأولين ، والآخرين .

* * *

(ب) ٨ — ثم جاءت الآية الأخيرة من التوبة تسلية للرسول فى جهوده ، وتخفيفا من حدبه « فإن تولوا ، فقل حسبى الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » ففيها تنبيه للنبى صلى الله عليه وسلم ، على أن الأمر مع هؤلاء قد بلغ مداه من العظة ، والاستنهاض فإن تولوا عنك يا محمد فيما دعوتهم إليه ، وأعرضوا عن توجيه أنفسهم نحوك فلا تشغل نفسك بهم : لأنك غير مكلف بإيمانهم ، وهدايتهم .. بل أنت مكلف بالدعوة ، والتذكير ، وقد فعلت ، وبعد ذلك لست عليهم بمسيطر ، ولا جبار .

« إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء » ، وقل فى نفسك ، وللناس : حسبى الله ـ هو الذى أعتمد عليه دون غيره .

وهو الذى يكفينى شروركم ، ويغنينى عن معونتكم إياى على أمرى ، ويعفينى من منتكم على بالمؤازرة ... فإنه لا إله إلا هو ، مالك الأمر كله .. وهو وحده رب العرش العظيم .

والعرش هو مركز التدبير الإلآهى لشئون خلقه ... وهو عظيم بعظمة الملك الواسع الذى لا يعلم محيطه غير الله .

وهو عظيم كذلك بعظمة الله الذى استوى عليه للتدبير والتصرف .

ولا يعلم حقيقة العرش فى كيانه ومداه غير الله تعالى .

ولا نقول بتشبيه الله فى استوائه على العرش باستواء الإنسان على مقعده ، ولا نقول بتحديد جهة عليا ، أو سفلى ... ولا نتعرض للخوض فى أمور الغيب كلها ، وقد أعفانا الله من البحث فى هذه الجوانب البعيدة عن مستوى عقولنا ، واكتفى من عباده أن يؤمنوا بالغيب على ما يعلمه الله .

وذلك هو إيمان العجائز فى هذا الشأن المجهول لنا ، وكان الإمام مالك وغيره من جهابذة الأئمة يقولون : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول .

يريد ـ والله أعلم ـ أننا نفهم معنى الاستواء بالنسبة لنا ... ولكننا نجهل كيفيته بالنسبة لله ... وهذا مجال الدعاء بالإيمان البرىء من التدخل ، كإيمان العجائز الذين يسلمون وجوههم إلى الله ، وهم محسنون ، فكانوا مستمسكين بالعروة الوثقى فى تدينهم ؟

عبد اللطيف السبكى

مفهوم الإيمان

للأستاذ الحسيني عبد المجيد هاشم

إن جوهر الرسالة الإسلامية السمحاء التى أشرق بها خاتم الأنبياء على الدنيا ليوجهها نحو الهداية والخير هو الإيمان.

وقد حدد رسول الله صلى عليه وسلم مفهوم الإيمان تحديدا واضح المعالم فبين أن الإيمان عقيدة وقول وعمل.

فى صحيح البخارى إمام المحدثين فى باب أداء الخمس من الإيمان.

عن ابن عباس أن وفد عبد القيس لما أتوا النبى صلى الله عليه وسلم قال: من القوم؟ قالوا: ربيعة قال: مرحبا بالقوم غير خزايا ولا ندامى، فقالوا: يارسول الله إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا فى الشهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل الجنة - فكان مما أمرهم به - الإيمان بالله وحده قال: أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس إلخ.

فقد أوضح المعلم الأول حقيقة الإيمان فى مفهوم الشرع بأنه يشمل مع التصديق النطق بالشهادتين وهو قول. وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان. وهى أعمال وهذا ما فهمه السلف، وقال به المحدثون، ومعهم إمامهم البخارى الذى أحاط بالسنة دراية ورواية.

وفى ضوء هذا الفهم لمعنى الإيمان فسر البخارى معنى الحديث الآخر الذى كان مثار الجدل فى الاختلاف فى معنى الإيمان عند المتكلمين.

وهو ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: كان النبى صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله. وملائكته، وكتبه، ورسله، وتؤمن بالبعث. قال: ما الإسلام؟ قال الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.. ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم.

قال أبو عبد الله البخارى فجعل النبى صلى الله عليه وسلم ذلك كله من الإيمان إذ جعله دينا والحق أنه ملحظ دقيق من البخارى يوحى به صراحة الحديث السابق لوفد

عبد القيس، بخلاف من غاير بين مفهوم الإيمان والإسلام، وقصر الإيمان على العقيدة ، فإنه لا يتمشى مع التعبير الصريح فى إحاطة الإيمان فى حديث وفد عبد القيس للعقيدة والقول والعمل ...

وإن تفسير العالم البصير بالأحاديث فى أمر من أمور الدين إنما يتسم بالدقة والاعتدال حتى لا يخالف نصاً آخر.

وكما كان البخـــاري صاحب قدم راسخة فى الحديث كان صاحب القدم الراسخة أيضا فى التفسير (١) فهو يمتاز بتفسير القرآن فى ضوء السنة الصحيحة .

وبهذه المقدرة جمع فى سهولة ويسر بين النصوص التى شبهت على علماء الكلام والجدل وأثاروا حولها ضجة جوفاء فى مفهوم الإيمان والإسلام .

فبين أن التغاير فى المفهوم إنما يكون حيث يراد المعنى اللغوى .

وأما حيث تراد الحقيقة الشرعية الكاملة فهما مترادفان .

وقد ترجم بما يوضح ذلك فقال : « باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل » .

لقوله تعالى : قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا .

فإذا كان على الحقيقة فهو على قوله جل ذكره « إن الدين عند الله الإسلام ، وبهذا المعنى قال الغزالى والدوانى .

« والإسلام الكامل الصحيح لا يكون إلا مع الإيمان ، فلا ينفك عنه ، والإسلام الظاهرى قد ينفك عن الإيمان » .

وبلغ إيمان البخارى بهذه العقيدة أنه كان لا يأخذ الحديث إلا عمن قال : الإيمان قول وعمل يقول : أخذت عن أكثر من ألف رجل ثقة من أهل الحجاز ، والعراق ، والشام ، ومصر وخراسان ما رأيت واحدا منهم يختلف فى هذه الأشياء : الإيمان قول عمل ، وأن القرآن كلام الله .

وهذا هو ما كان عليه السلف كما يقرر إمام من أئمة الأحناف ومن كبار محدثى الهند محمد أنور الكشميرى .

يقول : الإيمان عند السلف عبارة عن ثلاثة أشياء : اعتقاد وقول وعمل يزيد وينقص »

وقد وفق الكشميرى بين قول أبى حنيفه : وبين قول السلف فى المعنى ، وحقق الخلاف بينهما بأنه فى التعبير اللفظى فقط .

فقال : وإمامنا وإن لم يجعل الأعمال جزءا لكنه اهتم بها ، وحرض عليها . وجعلها أسبابا سارية فى نماء الإيمان بخلاف المرجئة القائلين : بأن الإيمان هو التصديق فقط وأنه لا يضر مع الإيمان معصية ، فإنهم حطوا الأعمال عن رتبتها وعطلوها ، وجعلوها كالمطروح وهذا جهل عظيم.

(١) من مؤلفاته التفسير الكبير موجود بمكتبة فرنسا.

إلا أن تعبير المحدثين القائلين : بجزئية الأعمال لما كان أبعد من المرجئة المنكرين جزئية الأعمال وكان تعبير إمامنا أبي حنيفة أقرب إليهم من حيث نفي الجزئية للأعمال ورمي الحنفية بالإرجاء وهم منه بريئون .

كما حقق الكشميري الخلاف بين من قال من الأحناف بعدم زيادة الإيمان ونقصه ، وبين عقيدة السلف في زيادة الإيمان ونقصه فبين أنه لا خلاف حيث إن الجهة متغايرة فمن قال بعدم الزيادة والنقصان أراد ما يؤمن به .

وأن من قال بالزيادة والنقصان أراد الإيمان نفسه .

وفي طبقات الحنفية تحت ترجمة (إبراهيم ابن يوسف) تلميذ أبي يوسف، وأحمد بن عمران « كانا يقولان بزيادة الإيمان ونقصانه ، مع كونهما من كبار الحنفية .

ويقول ابن حبان : إن البخاري عد كل طاعة عدها الله في كتابه من الإيمان، وكل طاعة عدها رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإيمان .

وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الإيمان : بضع وستون شعبة والحياء من الإيمان .

وفي شرح هذا الحديث يقول شيخ الإسلام ابن حجر بعد عرض كلام الشراح : « وقد لخصت مما أوردوه ما أذكره وهو أن هذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب، وأعمال اللسان وأعمال البدن » .

ويقول الخطابي في شرح شعب الإيمان : في هذا الحديث بيان أن الإيمان الشرعي اسم لمعنى ذي شعب وأجزاء له ، أدنى وأعلى، والاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق بكلها والحقيقة تقتضي جميع شعبه ، وتستوفي جملة أجزائه كالصلاة الشرعية لها شعب وأجزاء ، والاسم يتعلق ببعضها ، والحقيقة تقتضي جميع أجزائها وتستوفيها يدل عليه قوله صلى صلى الله عليه وسلم : «الحياء شعبة من الإيمان» ويقول الإمام النووي : وأما إطلاق اسم الإيمان على الأعمال فتفق عليه عند أهل الحق، ودلائله في الكتاب والسنة أكثر من أن تحصر قال تعالى : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » أجمعوا على أن المراد صلاتكم .

وفي شرح النووي لصحيح مسلم في باب الإيمان قول وعمل - قال عبد الرزاق : سمعت من أدركت من شيوخنا ، وأصحابنا سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وعبيد الله بن عمر والأوزاعي، ومعمر بن راشد ، وابن جريج وسفيان بن عيينة، يقولون: «الإيمان قول وعمل يزيد وينقص» وهذا قول ابن مسعود، وحذيفة والنخعي، والحسن البصري، وعطاء، وطاوس ومجاهد وعبد الله بن المبارك فالمعنى الذي يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة التصديق بالقلب والإقرار باللسان

والعمل بالجوارح ، وذلك أنه لاخلاف بين الجميع أنه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه لايستحق اسم مؤمن، وكذلك إذا أقر بالله تعالى وبرسله صلوات الله عليهم أجمعين ولم يعمل بالفرائض لايسمى مؤمنا بالإطلاق . وإن كان فى كلام العرب يسمى مؤمنا بالتصديق فذلك غير مستحق فى كلام الله لقوله عز وجل « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً » . فأخبرنا سبحانه وتعالى أن المؤمن من كانت هذه صفته .

ويقول ابن بطال : وهذا المعنى هو مذهب أهل السنة ، والجماعة ، وقد أراد البخارى رحمه الله ، تبيانه فى كتاب الإيمان وعليه بوب أبوابه كلها ، وإنما أراد الرد على المرجئة فى قولهم إن الإيمان قول بلا عمل وتبيين غلطهم وسوء اعتقادهم وخالفتهم الكتاب والسنة ومذاهب الأئمـــة .

وفقنا الله إلى الإيمان الصحيح عقيدة وقولا وعملا ، وهدانا سبيله المستقيم .

الحسينى عبد المجيد هاشم

المؤمنون حقـا

« إنمـا المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

حلاوة الإيمان

للأستاذ محمد محمد أبو زهو

(عن أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار). أخرجه البخارى ومسلم، واللفظ للبخارى).

ما تزال النبوة تنفح البشرية من أسرارها الدقيقة، وحكمها الرفيعة. ما يعلى من شأنها، ويرفع من قدرها إلى ذروة المجد والسؤدد، والفوز والسعادة، والنبوة فى هديها السامى معصومة عن الخطأ. وفى منهجها الحكيم منزهة عن الإكثار والثرثرة، فجميع أقوالها جوامع كلم، وكل أفعالها تصدر بميزان صحيح، وحكم سليم؛ لأنها فى كل ما تأتى أو تذر لا تنطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى، وكل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه إلا صاحب الرسالة المشرقة صلى الله عليه وسلم.

وفى هذا الحديث الشريف يصور لنا رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه أثر الإيمان الكامل فى النفوس الطيبة، والقلوب الطاهرة المخلصة، التى أفعمت بمحبة الله، وتمكن فيها الشعور بجلاله وعظمته، فاستراحت إليه وحده، واطمأنت إلى حكمه العادل وقوله الصادق، وعرفت أنه هو - لا غيره - مصدر كل خير، ومبعث كل إحسان وفضل، بيده الملك والخلق والرزق والإنعام. خلق العالم أجمع، ودبر شئونه. فهو يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وسخر الشمس والقمر والنجوم، وخلق البحار والجبال، وأرسل الرياح مبشرات، وأنزل الأمطار وأجرى الأنهار. «إن فى خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض. لآيات لقوم يعقلون»، «وفى أنفسكم أفلا تبصرون»، نعم نظر العقلاء فى هذه الآيات المبثوثة فى الأنفس والآفاق، فعلموا أن لهم ربا

هو الإله الحق الواحد الأحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . كامل فى صفاته وأفعاله منزه عن كل ما سواه « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » ، وعلموا كذلك أنه لم يخلق العالم عبثا ، ولم يترك الناس هملا . بل كما تفضل عليهم بنعم لا تحصى ، وآلاء لاتعد ولا تستقصى أنعم عليهم بنعمة الطهر وشريعة الإسلام الحنيف فبعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، رسولا بشيرا ونذيرا لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فهداهم به الصراط المستقيم بل أخرج العالم كله من ظلمات الجهل إلى نور العلم والعرفان ، وصدق الله العظيم « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، والمتأمل فى هذه الشريعة الخالدة يجد أن سر خلودها نوران : كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وسنة مطهرة شارحة له ومفسرة لأغراضه ، فاكتمل بهما الدين وتمت بهما النعمة « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » . فسبحان من أجرى السحاب وأنزل الكتاب . ففى كل منهما حياة للبشر حياة لأبدانهم وحياة لأرواحهم ، فلا عجب إذن إذا كان المؤمن الذى جال بعقله وطاف بفكره فى هذا الملكوت العظيم ، وتأمل فى هذه العوالم وما حوته من أسرار فلم يجد لها سوى الله ربا ، أن تمتلىء نفسه حبا لله ويفعم قلبه بلذة روحية تملك عليه روحه وجوارحه . أجل إن محبة أساسها النظر إلى ما أبدع الخالق وما أفاض وما أنعم لهى نقطة انطلاق إلى العمل النافع من أجل حياة فاضلة وسعادة تامة فى الآخرة .

وسواء علينا أقلنا أن اللذة المترتبة على محبة الله تعالى حسية أم عقلية ، فإنه مما لا شك فيه كما قرره النبى صلى الله عليه وسلم أن لذة ما تملك على المؤمن قلبه وروحه وجوارحه لتجعله يقطع كل صلة له بغير الله ورسوله ويقدم رضاهما على كل ما سواهما ، حتى نفسه التى بين جنبيه « قل إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين ، » وقال عمر بن الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم : (لأنت يا رسول الله أحب إلى من كل شيء إلا نفسى . فقال : لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك . فقال له عمر : فإنك الآن - والله - أحب إلى من نفسى ، فقال : الآن يا عمر) .

يقول النبى صلى الله عليه وسلم : (ثلاث

من كن فيه وجد حلاوة الإيمان) أى خلال ثلاث من وجدن فيه وتحققت عنده وامتزجت بروحه ودمه ، وسرت فى عروقه ، وظهرت آثارها على جوارحه وانشغل بها جنانه وتحركت لها أركانه فإنه يجد للإيمان لذة روحية عقلية وفكرية يدركها بعين بصيرته ويحسها بحاسة القلب كما يحس من تعاطى شيئاً حلواً حيث يجد لذته فى فمه ، وهذا تمثيل وتصوير للأمر المعقول بصورة المحسوس تقريبا له فى الأذهان .

أولى هذه الخصال : (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) أى أنه يحب الله ورسوله حبا يعلو على حبه لكل شىء مما سواهما وهذا التعبير (بما) دون (من) لإفادة العموم فيتناول النفس والأهل والمال والولد والجاه والسلطان والدور والقصور ، وفى جمعه بين اسم الله والرسول فى ضمير إشارة لطيفة هى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين لا كل واحدة منهما على انفراد ، فمن ادعى حب الله وحده دون رسوله صلى الله عليه وسلم فهو كاذب ومن ادعى حب الرسول وحده دون الله سبحانه وتعالى كان فى ادعائه ذلك كاذبا .

هذا وقد اختلف العلماء فى معنى محبة العبد لله تعالى . فبعضهم فسرها بالطاعة ، وبعضهم فسرها بأنها : ميل الطبع إلى شىء ملذ ، وتفسيرها بالمعنى الثانى أولى ، ويؤيده ما روى فى الصحيح أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال متى الساعة يا رسول الله ؟ قال : ما أعددت لها ؟ . قال : ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ، ولكن أحب الله ورسوله فقال صلى الله عليه وسلم (أنت مع من أحببت) فقد فرق الرجل بين طاعة الله وحب الله ، وأقره النبى صلى الله عليه وسلم على ذلك . غير أن الطاعة من لوازم المحبة فإن من أحب أحداً سعى فى مرضاته وعمل على تحقيق رغباته ولله المثل الأعلى فمن أحبه سبحانه عمل بطاعته وتجافى عن معصيته وإلا فما أحب الله من عصاه .

تعصى الإله وأنت تظهر حبه
هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع

الخصلة الثانية : (أن يحب المرء لا يحبه إلا لله) أى إنه لا يحب أحداً من الناس لغرض من الأغراض الدنيوية بل لغرض واحد فقط هو رضا الله بالطاعة والبعد عن المعصية ، فتكون محبته لوالديه مثلا لأن الله تعالى يرضى عن ذلك ، ولأنه أمر بالإحسان إليهما ودفع الأذى عنهما فى كتابه العزيز وعلى لسان نبيه الكريم وتكون

محبته لولده لأنه يعينه على طاعة الله ، ولأنه يكون خليفة له فى الإسلام يوحد الله ويعبده ويكثر سواد المسلمين والمجاهدين فى سبيل الله بالعلم والعمل والسيف والقلم وكذلك يكون بغضه للمرء بسبب بغض الله إياه لانحرافه وزيغه أو عصيانه وغيه .

هذا . وانظر إلى حال المسلمين الآن وقد أصبحت محبة بعضهم لبعض على أساس مادى خالص تبعا لأهوائهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله . وهذا سببه أنهم غفلوا عن مجرى الخير ومسديه ومانحه ومعطيه وهو الله رب العالمين ، كذلك غفلوا فلم يفقهوا أن جميع الخلق وسائط لا تنفع ولا تضر إلا إذا أراد الله لها النفع أو الضر وبالرغم من الحوادث والعبر التى كان ينبغى لهم أن يتعظوا بها فهم لا يعتبرون بما يقع لهم ولغيرهم فهذا رجل يحب ذا جاه طمعا فى جاهه وينفق على هذه المحبة من النفاق والذل ، أو يعلق قلبه بذى منصب كبير رجاء الحصول على درجة أو وظيفة ، فيهن ويذل فى سبيل ذلك ثم يفاجئه القدر بالموت أو العزل من المنصب لمن يعلق عليه آماله فيصبح يقلب كفيه على ما أنفق من ذل وهوان ألا إن الأمور كلها تجرى حسب ما قدر الله سبحانه وعلى وفق علمه وإرادته ، فلماذا لا نطلب حوائجنا ونحن أعزاء كما أريد منا (اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجرى بالمقادير) ألا إن المنافقين يطلبون العزة عند غير الله ، ويسلكون لها طريقا هو طريق المذلة والهوان فباءوا بالخيبة والخذلان « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

ينبغى لنا أن نتخلع بأرواحنا إلى ما وراء المادة لنرى بعين البصيرة هذا المدبر الحكيم لشئون العوالم علويها وسفليها ، ولنعلم أن ما أصاب المرء لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً وأن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوا أحداً بشىء لم يكن إلا بما كتبه الله تعالى له ، وإن اجتمعوا على أن يضروه بشىء لم يضروه إلا بشىء قد كتبه الله تعالى عليه . فعلى المؤمن أن يلجأ بطلبته إلى الله قبل كل شىء فيقرع بابه ويجأر بحاجته ، ويديم ذلك ـ فإن الله يحب ذلك من عباده ـ ثم يأخذ فى الأسباب العادية سالكا طريق الدين الحنيف وهو الطلب فى عزة نفس ، فلا يغفل عن مسبب الأسباب الذى هو مصدر الخيرات كلها ، وإلا أشرك العبد مع الله غيره من حيث لا يدرى فى الحديث الشريف (من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه) .

الخصلة الثالثة : (أن يكره أن يعود

فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار) أى أنه يكره أن يصير ويتحول إلى الكفر كراهة تعادل كراهته لأن يقذف به فى النار ويرمى به فيها رميا ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ثبات إيمانه ، وقوة يقينه ، فاقتلاع الإيمان منه بعد ذلك انتزاع لروحه من جسده بأشد أنواع العذاب وهو العذاب بالنار فكأن الكفر والنار عدلان لذا كان جزاء الكافرين يوم القيامة عذاب النار .

أجل : إن المؤمن وقد غمره الله تعالى بآلائه وأسبغ عليه من عظيم نعمائه ، وسخر ما فى الكون جميعا لمنفعته ، وارتفع به من مرتبة العجماوات إلى مرتبة الإنسان العاقل الرشيد . وفضله على كثير من خلقه ، وحمله فى البر والبحر ، ثم أكرمه بإرسال الرسل معلمين ومرشدين ليعده لحياة أعظم من هذه الحياة ينعم فيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » فى جنة عرضها السموات والأرض إنه لا شك يدفعه ذلك إلى الحرص على الإيمان بالله ، والحفاظ عليه ، لأنه السبيل إلى النعيم المقيم ، كما أنه الطريق الوحيد للنجاة من الخلود فى نار جهنم . فيرى الكفر أمراً قبيحاً بشعاً ، وناراً تلظى لا يصلاها إلا الأشقى .

هذا ، وإذا أمعنا النظر فى الخصلتين الثانية والثالثة وجدناهما راجعتين إلى الخصلة الأولى ولازمتين لها ، فإن محبة الله ورسوله تهيب بالمرء إلى طاعة الله ، وعمل ما يرضيه ، وتجنب ما يغضبه فهى أساس لجميع الخلال الحسنة ، وفعال الخير ظاهرة وباطنة ، فمن أحب الله ورسوله عامل الخلق معاملة أساسها رضا الله ، وتكون كراهته للوقوع فى الكفر مثل كراهته لأن يرمى به فى معظم النار وذلك راجع لمحبته لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، بل إن كل خلال الخير وشعب الإيمان إذا أمعنا النظر فيها وجدناها ترجع لمحبتنا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وإنما اقتصر النبى صلى الله عليه وسلم على هاتين الخصلتين اهتماما بهما لعظم شأنهما ، لأنهما أصلان لجميع شعب الإيمان وأمور الدين ، فإن إحداهما : وهى أن يحب المرء لا يحبه إلا لله تتعلق بمعاملة المخلوقين والثانية وهى أن يكره أن يعود فى الكفر تتعلق بمعاملة الخالق سبحانه وتعالى ، ولا تخرج آثار المحبة لله ورسوله فى سلوك العبد عن هاتين المعاملتين ، وهذا من أسرار البلاغة النبوية ، وجوامع كلمه صلى الله عليه وسلم فسبحان من علمه ، وكمله ، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب .

ونظرة أخرى ننقلها عن الحافظ بن أبي جمرة قال رحمه الله :

(هذه الثلاثة الألفاظ ترجع إلى اللفظ الأول منها ، وهو أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . لأن من ضرورة المحبة لله ولرسوله أن يدخل ما ذكر بعد فى ضمنه ، لكن فائدة إخباره عليه السلام بتبينك الحالتين اللتين ذكرتا بعد ذلك اللفظ يريد به أن من ادعى حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فليختبر نفسه فى حب المرء لماذا يحبه ؟ وفى الإكراه على الكفر كيف يجد نفسه إن ابتلى بذلك لأنه قد يسبق للنفوس ادعاء بحب الله ، وحب رسوله صلى الله عليه وسلم ، فجعل عليه السلام هاتين العلامتين للتفريق بين الدعوى والحقيقة) .

ألا إن محبة الله ورسوله هى ملاك الأمر كله وهى طريق إلى النجح فى الحياتين ، وهى طلبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، سألها نبينا صلى الله عليه وسلم من ربه عز وجل فقال : (أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربنى إلى حبك) والآن كيف نصل إلى هذه المحبة ؟ وما هى الأسباب التى توصلنا إليها ، وما هى الآثار التى تعود علينا وتؤثر فى سلوكنا كأفراد وجماعات ، ثم ما هى الأشراط والأمارات التى تظهر لنا فنعلم أننا نحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فنطمئن لأننا قد وصلنا إلى هذه المرتبة من السلوك . ثم ما مبلغ هذا السلوك فى واقع الأمة الإسلامية فى الماضى والحاضر ؟ وفى تكوين المجتمع المثالى ؟ هذا ما نريد أن نعرض له فى الكلمة الآتية إن شاء الله تعالى حبا فى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وكشفاً عن أسرار هذه الشريعة الخالدة ومن الله العون والتوفيق .

محمد محمد أبو زهو
المدرس فى كلية أصول الدين

الفراغ النفسي عند الشباب

للأستاذ محمد محمد أبو شهبة

لقد منى الشباب في العصر الحاضر بشيء غير قليل من الفراغ النفسي، وسواء في ذلك الشباب في الشرق أم في الغرب، وها نحن أولاء نرى المصلحين والغيارى على مصالح أممهم وشعوبهم فزعين من هذه الحال التي وصل إليها الشباب في هذا القرن الأخير، ونسمع صيحاتهم ترتفع هنا وهناك بالعلاج، وتدارك الأمر قبل أن يستشرى الداء ويعز الدواء.

وإن هذا الفراغ النفسي يتمثل في فراغ القلب من معاني الإيمان والهداية، وفراغ النفوس من معاني الأخلاق الكريمة، والفضائل الإنسانية السامية، وفراغ العقول من معاني الحق والعدل والخير، والعلم النافع الصحيح الذي يبني ولا يدمر، ويصلح ولا يفسد، وينصف ولا يتجنى ويظلم، العلم الذي يجب أن يكون رحما بين بني آدم جميعا، والذي يسرى بين الناس جميعاً لا فرق بين شرقي وغربي، ولا سامي وآري ولا أبيض وأسود ولا بين جنس وجنس، ولا بين شعب وشعب.

وبحسبي أن أتناول ما وصل إليه حال الشباب في بلاد الإسلام والعروبة، وهي مهد النبوات والرسالات السماوية التي تتسم بالروحانية الصادقة، والمعاني الإنسانية النبيلة، والمادية المعتدلة المقتصدة غير الجائرة، وموطن حضارة زاهية مشرقة فرضت سلطانها على العالم أحقابا من الزمان بأصالتها وصفائها وإنسانيتها التي لم تفرق بين دين ودين، ولا بين لون ولون، ولا بين عربي وغير عربي، والتي شملت بخيرها وبرها الناس جميعاً تلك هي حضارة الإسلام: حضارة الإيمان والأمان، والرحمة والسلام، والحق والعدل، والتعاون على البر والتقوى، والتآخي والتحاب.

وما كان لنا أن نصف الدواء لهذا الفراغ النفسي دون أن نعرض لبيان الأسباب.

وفي الحق إن هذا الفراغ النفسي في بلاد الإسلام والعروبة جاء نتيجة تآمر دول الاستعمار على شعوب الشرق الإسلامي والعربي، هذا التآمر الذي يعتبر امتداداً للحروب الصليبية وقد مضى عليها بضعة قرون، وكانت نهايتها انتصار الشرق الإسلامي العربي على الغرب الصليبي البربري المتعطش للدماء، على يد الأبطال المغاوير بقيادة البطل المسلم العربي صلاح الدين، ورجع الغرب يجرر أذيال الهزيمة والعار.

وما زال هذا النصر جروحا فى نفس الغرب لا تندمل حتى كان القرن الأخير وكان ما كان من تفرق المسلمين والعرب شيعاً وأحزابا ، فوجد الغرب المغيظ المحنق الفرصة سانحة لأن يشفى ما فى نفسه من غل وموجدة على الشرق الإسلامى العربى ، وبدأت فصول المأساة المحزنة تتلاحق حتى كان من ذلك ليل طويل مظلم لم يتنفس صبحه إلا بعد جهاد وكفاح مرير .

وليس أدل على بقاء الصليبية إلى عصرنا الأخير من قول اللورد اللنبى فى الحرب العالمية الأولى لما دخل بيت المقدس منتصراً « الآن انتهت الحروب الصليبية » !!!

إن الروح الصليبية - روح الغدر والحقد والتسلط - لا تزال مسيطرة على دول الغرب ، وقد اتخذت طرقا شتى للوصول إلى غاياتها الدنيئة ، ومقاصدها السيئة فهى لا تزال تعمل ما استطاعت على استئصال الروح الدينية ، والقيم الخلقية من نفوس المسلمين والعرب حينا ، والغزو الثقافى ، والتشريعى والأخلاقى حينا آخر ، وعن طريق قمع ثورات التحرر والحرب السافرة حينا ثالثا .

ونحن لا ننسى ولا التاريخ ينسى ما قامت به دول الاستعمار من مقاومة لحركات التحرر من غير شفقة ولا رحمة فى مصر ، وفى بلاد الشام ، وفى ليبيا ، وفى الجزائر ، وفى بلاد المغرب ، وفى البلاد الشهيدة فلسطين ، وفى الجزيرة العربية ، كما لا ننسى هذا الهجوم الثلاثى الغادر على بور سعيد ، وسيناء ، ومنطقة القنال عام ١٩٥٦ ، والذى ارتد مذموما مدحورا بفضل تضامن الشعب والجيش ، ووقوف الحكام والمحكومين صفا واحدا لم يجد فيه العدو الغادر المتربص ثغرة ينفذ منها .

ولا تزال هذه الصليبية تعمل عملها فى بلاد من بلاد العروبة كعدن والإمارات وسيقضى المجاهدون الثائرون على البغاة الحاقدين ، كما قضى على أسلافهم من قبل بإذن الله ومشيئته « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » ، ولئن كان الاستعمار قد ولى ، وحمل عصاه على عاتقه إلى غير رجعة - إن شاء الله - فلا تزال آثاره السيئة باقية بيننا ، متسلطة على نفوس الكثيرين منا .

لقد نجح الاستعمار أيما نجاح فى إضعاف الوازع الدينى من القلوب ، وقلب المعايير الخلقية فى النفوس ، ومسخ الثقافة الإسلامية الأصيلة فى العقول ، وفى الإطاحة بحدود الإسلام ومناراته من المجتمعات الإسلامية .

وقد ساعد الاستعمار فى مهمته الهدامة التخريبية فئة رباها الاستعمار بيديه ، وصنعها على عينيه ، فتشبعت بآرائه وأفكاره فى الدين والتشريع ، والأخلاق والتعليم ، والحكم

والسياسة ، وهيأ لها مراكز القيادة والتوجيه فى بلاد الإسلام والعروبة ، فسارت الأمور فى هذه البلاد كما أراد المستعمرون ، فهم يدبرون ويكيدون من وراء الستار ، وهؤلاء الصنائع من أبناء هذه الشعوب ينفذون بل ويخلصون فى التنفيذ ، ويلبسون على الناس بأن هذا هو الإصلاح ، وقد انخدع بظواهر هؤلاء الكثيرون ، وإن كان قد تنبه لألاعيبهم المخلصون المحنكون ، وقليل ما هم ، وحذروا وأنذروا ، ولكن ما أطيع لهم رأى ، وذهبت صيحاتهم أدراج الرياح ، وكانوا كمن ينفخ فى رماد .

وها هى ذى دول الإسلام والعروبة قد تخلصت جميعها - تقريبا - بفضل الله ومنته ثم بفضل الجهاد والكفاح من كابوس الاستعمار وآصاره ، وأغلاله ومكايده .

نعم لقد تخلصت من الاستعمار السياسى ، ولكن آثار هذا الاستعمار من الغزو الروحى والخلقى ، والثقافى ، والتشريعى ، والاجتماعى لا زالت باقية بيننا ، هذه الآثار التى كانت العامل الأساسى فى إحداث هذا الفراغ النفسى فى نفوس الشعوب ولا سيما الشباب .

فما الذى يمنعنا — حكاما وشعوبا — وقد أضحى أمرنا بيدنا من القضاء على كل هذه الآثار السيئة ، وبذلك يتحقق لنا الاستقلال التام الصحيح ، وتعود لنا مقوماتنا الإسلامية وخصائصنا الثقافية ، والأخلاقية ، والتشريعية .

ولقد ساعد على هذا الفراغ النفسى هذا التغير والتحول الذى حدث بعد الحرب العالمية الثانية من سيطرة المادة ، وسلطان الآلة ، وما وصل إليه العالم من تقدم كبير فى علوم الذرة ، وغزو الفضاء ، وصناعة الأقمار وسفن الفضاء .

فقد كان لهذا تأثيره فى زعزعة العقيدة الإيمانية فى بعض النفوس التى لم تنل حظا من الدين ، وفى تخلخل القيم الخلقية فى النفوس وفى التقليل من شأن الثقافات الإنسانية ، والعلوم النظرية فى العقول ، فأصبحنا نجد من شبابنا من لا يهتم بشعائر دينه وآدابه ويعتبر التدين تخلفا ورجعية ، ولا ينفك عن التهكم بالدين وتعاليمه ، ومن لا يقيم للقيم الخلقية وزنا ، ويرى الوصول إلى مآربه وأهوائه حتى ولو كان فى هذا انتهاك الأعراض وسفك الدماء ، واغتصاب الأموال ، ومن لا يعرف لآبائنا المسلمين والعرب فضلا على الحضارة الإنسانية بل يتنقصهم ويحط من شأنهم . وتقسمت الأهواء ، والمذاهب الباطلة الشباب : فمنهم من هو ملحد ، ومنهم من هو وجودى ، ومن هو شيوعى ، ومن هو بهائى ، ومن هو قاديانى و ... إلخ ..

لقد كان أول من فتن بهذا التقدم العلمى

رائد من رواد الفضاء أبت عليه بيئته التى نشأ فيها ، وتعاليم هذه البيئة اللادينية أن يشكك فى وجود الإله زاعما أنه لم يره !!! وكأن هذا الرائد الذى ختم الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة يظن أن الله سبحانه وتقدست أسماؤه وصفاته جسم من الأجسام ، أو آلة من الآلات ، وما درى - ويا هول ما جهل أن الله لا يرى بالأبصار وإنما يرى بالبصائر وأنه لا ترى ذاته ، وإنمــا يرى بآثاره ومظاهر خلقه ولو أنه فكر قليلا ، وتخلص من عقيدته الباطلة لاستجاب لفطرته بعد ما رأى وعاين من ملك الله وجلال خلقه ، وعظمة آثاره ، ولأيقن أن هذا الكون على سعته وعظمه لا يمكن فى المعقول أن يوجد بغير موجد ، وأن له إلها مدبراً حكيما عليما قديراً قيوما ، وهو الله جل جلاله .

إن سفينة الفضاء التى حمل فيها هذا الرائد لو غفل عنها العلماء الذين يسيرونها أو اختل جزء منها ، أو انحرفت عن مسارها الذى خصص لها قيد شعرة لسقطت وهلك من فيها وصدق الله سبحانه « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » وقال فى أمثاله « لهم قلوب لا يعقلون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ولهم أعين لا يبصرون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » .

وأحب أن أقول لهؤلاء الذين يخفلون من تقدم العلوم والمعارف ويشفقون من ذلك على الأديان : إن دين الإسلام لا يضره تقدم الكشوف العلمية والاختراعات ، لأنه دين العلم والمعرفة ، ودين العقل السليم ، والنقل الصحيح والمسلمون أيام أن كانوا مهتدين بهدى هـذا الدين ومتمسكين به عقيدة ، وعلما وعملا وأخلاقا ، كانوا سادة الدنيا ومعلميها ، وروا د البحث والإبداع ، وما تخلفوا فى هذا المضمار إلا لما نكصوا عن هذه الهداية ، ولم يفهموا الإسلام على وجهه الصحيح ، بل بالعكس هذه الاختراعات والعلوم وعلى رأسها غزو الفضاء يفصح عن الأسرار التى أودعها الله سبحانه فى آياته الكونية ، والأنفسية ، والتنزيلية وأشار إليها النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض أحاديثه ، فهى تزيد المؤمن إيمانا بربه وصفاته والمسلم الذى تتزعزع عقيدته بمثل هـذه الاختراعات إما أنه ضعيف الإيمان ، أو أنه لم يفهم الإسلام على وجهه الصحيح وصدق الله حيث يقول : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » ؟ بلى والآن قد وضعنا الداء وشخصنا أسبابه فبأى شىء يكون الدواء ؟

ذلك ما سنعرض له فى المقال الآتى إن شاء الله ؟

الدكتور محمد محمد أبو شهبة

إن هـذا لهو القصص

للأستاذ : حسن جاد

فى العدد ١٠٨٩ من مجلة الرسالة ، بتاريخ ٢٦/١١/١٩٦٤ م كتب كاتب مقالا عنوانه (مصادر القصص القرآنى) ، لا نراه إلا امتداداً لتلك الفكرة الطائشة التى أثارها من قبل نفر تعجلوا الشهرة من أقرب طريق على حساب مقدسات الدين ومقومات الأمة الإسلامية .

ولسنا ندرى كيف تسلل هذا القلم الجامح المنحرف إلى تلك المجلة التى عاشت عمرها على قداسة العروبة والإسلام ، وأصبحت فى رعاية دولتنا المسلمة ؟

إن هذه النزوة الطائشة من نزوات الجهل الأحمق والسقطة الكابية من سقطات التقليد لأعمى ، والثمرة الخبيثة من ثمرات الحنظل الإلحادى التى دس بذورها فى الأرض الطيبة بعض المخدوعين والمغرورين ؛ لتدفع إليها رغبة جامحة فى التماس الشهرة والظهور بالتجديد ، لتتردد أسماء أصحابها على الألسنة ، ويتجاوب ذكرهم على الأسماع ، ولو بلغة اللاعنين . وأى سبيل للشهرة والذيوع أقرب من مجابهة الحق ، ومصادمة الشعور ، وإنكار الواقع الثابت ، وتحطيم القيم الشامخة ؟

إذن فليسلك هؤلاء ذاك السبيل ليشتهروا شهرة كبار المحتالين ، وليقلدوا (مرجليوث) وغيره من كل مستشرق على شاكلته ، وليتحدوا مشاعر المسلمين بالنيل من قداسة القرآن الكريم ما وسعهم ذلك ، وليشككوا فى القصص القرآنى الحق ، وليبلغوا من وراء ذلك مايريدون من الشهرة ، والجاه ، والمال .

وقد صدر العدد التالى من مجلة الرسالة وليس فيه كلمة مؤمنة تصفع تلك الكلمة الكافرة ، فلم يكن بد من أن تقال كلمة عاجلة فى هذا العدد من مجلة الأزهر لأن هذا الظرف ضيق تمثل فيه المجلة للطبع والظهور وأدع التفصيل إلى فرصة متسعة ، أو إلى من هم أقدر منى من العلماء على الإحاطة والاستقصاء :

تناول الكاتب موضـــوع (القصص القرآنى) على هذا النحو الذى يقول فيه :

١ — (فى قصص القرآن أحداث ومشاهد نجدها فى التوراة والإنجيل ، بل أحياناً نجد مشابهة فى سير بعض القصص) ، ثم يكاد ينقض هذه المشابهة أو ينقضها حين يقول : (إن الأمر لا يعدو مجرد اتفاق فى أسماء ، ومشابهة فى أحداث ، وإن أدق

تصفح القصص القرآنى والقصص فى التوراة مثلا ليوحى بالمخالفة بينهما) .

٢ — وينتهى من هذه المقارنة المضطربة إلى أن مصادر القصص القرآنى ليست هى التوراة والإنجيل ، وإنما هى شىء آخر . ما هو ؟ هو العرب أنفسهم ، وما عرفوه من من اليهود والنصارى ، وما انتشر بينهم من قصص التوراة والإنجيل عن موسى وأخيه ، وعيسى وأمه ، والمسيح وصلبه ، وغير ذلك عما أولعوا به وتداولوه ، بما ردده الشعراء كأمية ابن أبى الصلت الذى (التقط ما هو متطاير فى الجو من أحاديث وخرافات !! وعكسه فى شعره) ، وهو هنا يردد ما تبجح به المستشرقون من تأثر محمد صلوات الله عليه بأمية ، وما نقله من قصصه الشعرى فى القرآن .

ويمضى الكاتب فيعيد ما ردده أساتذة له من قبل ، ويضيف إلى ثقافة العرب التى استقى منها القرآن ، ما تأثروا به من الحديث المفاض عن إبراهيم ، وابنه اسماعيل ، وعن بئر زمزم ، وقصة بناء الكعبة ونحو ذلك .

ثم يقول : (وليس هذا كل الرذاذ الذى انتشر فى أفق الجزيرة العربية فكون ثقافة أهلها !!) ، بل هناك ثقافة أخرى كونتها البيئة العربية بصحرائها الرهيبة ، يلفها الليل ، وتتردد فيها أصداء الرياح ، وتلتمع عيون الشهب بالشرر ، فيوحى ذلك بالرهبة فى نفس العربى ، ويملؤها بالأوهام ، ويخايلها بالأشباح ، ليجسد ذلك كله بالأوهام والخرافات عن الجن ، والغيلان والسعالى ، والشخصيات الأسطورية .

٣ — والنتيجة لكل هذا فى رأى الكاتب العبقرى الذى يدق أبواب الشهرة :

أولا : أن مصادر القصص القرآنى هى تلك الخرافات ، والأوهام ، والأساطير التى استقرت فى أذهان العرب ، وكونت ثقافتهم ، وأن القرآن لم يصدم وجدان العرب وقد تشبع بذلك كله ، ولم يهزأ بما يعتلج فى « لا وعيهم » ، ولم يلغ ما ألفوه من ظنون كاذبة ، وأساطير فاسدة ؛ بل جاراهم فى ذلك ونقل عنهم ، واستغل هذه الخرافات والأساطير فى الدعاية لمبادئه ليكسب لها الرواج .

فشخصية لقمان من الشخصيات الأسطورية الشائعة ، لماذا لا يستغلها ويحملها وصاياه ومبادئه ليضمن لها القبول والنجاح ؟ وكذلك شخصية عيسى ، وشخصية موسى والخضر لماذا لا يستغلها القرآن (فيدق على نغمة تشوف العرب للمجهول ومحاولتهم كشف الحجب عن طريق الجن والكهان والعرافين) ؟ . وهكذا كل شخصيات القرآن أسطورية جارى فيها الأساطير العربية ، ولم يصدم الوجدان العربى الذى ألفها .

وهنا أسائله : إذا كان القرآن قد جارى الأساطير العربية ولم يصدم الوجدان العربى فيما ألفه ، فما باله يصدم هذا الوجدان بنفى صلب المسيح مثلا ، مع أن ترك هذا لا يؤثر فى استغلال القصة للدعاية للإسلام والتبشير به ؟! .

ويأخذ جهل الكاتب فى الظهور شيئا فشيئاً فيكشف اللثام عن حقيقته المستترة بحجاب الكلمات الخادعة عن إعجاز القرآن البيانى (فالعرب يعرفون قصص الحيوان الخيالى ، فيسير القرآن فى هذا الاتجاه ويجعل الهدهد فى قصة سليمان ينطق بمبادئ إسلامية) أى أن النمل لم يتكلم ، والهدهد لم ينطق حقيقة .

والكاتب العبقرى الجهل يتجاهل حقيقة المعجزة التى خص الله بها سليمان عليه السلام : (وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين) إلى آخر الآيات من سورة النمل .

ويزداد جهله وضوحا حين يدلل على أسطورة القصة فى القرآن بذكر كلمة (الإسلام) قبل أن يوجد الإسلام ، كما فى قوله تعالى : «ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون» ، ويقول الكاتب فى وقاحة جاهلة : «أشك أن هذا الموقف قد حدث ، فلم يكن الإسلام قد ظهر أيام إبراهيم وأبنائه !!» .

وعلى هذا النحو قوله تعالى : «فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون» ، وفى قصة بناء الكعبة : «ربنا واجعلنا مسلمين لك ... الآية» .

والكاتب بهذا يسجل جهله الفاضح بحقيقة كلمة (الإسلام) وما تعنيه من الإذعان والتسليم لله ، وهو قدر مشترك فى الأديان السماوية ، فهى تنتظم كل دين يرتكز على حقيقة التوحيد والإذعان : «إن الدين عند الله الإسلام» .

وعقيدة الجن التى استقرت فى نفوس العرب يستغلها القرآن كذلك فى الدعاية له ، فى هذا الحديث الخيالى !! الذى تضمنته سورة الجن ، مع أن القرآن فى هذه السورة نفسها يصدم الوجدان العربى فى مثل «وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ...» .

ثانيا : والنتيجة الثانية التى انحرف إليها قلم الكاتب الخيالى الأحمق ، هى أن القصص القرآنى إن هو إلا لون من ألوان القصص الفنى الحديث بما فيه من الرومانسية الخيالية أو اللاوعى السريالى ، أو الواقعية الجزئية التى نشهدها عند نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم هو القصص الفنى الإيحائى .

وهو هنا قزم يحمل بضعة شموع خافتة

يتطاول بها على ضوء الشمس الساطع الأشم، فشتان ما بين القصة الفنية فى أحدث صورها الواقعية التى تجمع الأحداث الجزئية من هنا وهناك، ومما وجد، وما يمكن أن يتخيل وجوده، وبين هذا القصص القرآنى الذى يعتمد على الحقيقة الكلية الواقعة فعلا بحذافيرها.

لقد قال المشركون من قبل ما حكاه عنهم القرآن الكريم. «وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا». والكاتب لا يقف عند هذا، بل يتجاوزه إلى ما سماه بالإيحاءات والمعانى الثانية إذ يقول. «لقد كان المشركون قصيرى النظر حين اقتصروا على ذلك، ولم يفتنوا إلى ما تحويه الأساطير من معان ثانية وإيحات، ويستدل بقول الرازى (إنهم كلما سمعوا شيئا من القصص قالوا ليس فى هذا الكتاب إلا أساطير الأولين، ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحكاية بل أمور أخرى مغايرة لها، ولم يفهم الكاتب أن مراد الرازى بالأمور ما ينتزع من الحكم والمواعظ التى كشف عنها أو تشير إليها القصة القرآنية وما تدل عليه من صدق النبى صلى الله عليه وسلم فى كل ما كان يبلغه عن ربه ومن أنه عليه السلام مؤيدا من الله بهذه القصص التى تعد بالنسبة إليه من المعجزات.

إن القصص القرآنى - أيها المخدوع - من وحى الله لرسوله قصه بالحق، وساقه لتأييد هذا النبى الأمى فيما يدعـــوا إليه، ولتصديق ما بين يديه من الكتب، وتصحيح ما حرف منها، وبيان ما داخلها من التحريف والتزييف ثم هو للعظة كذلك والاعتبار بما حدث للسابقين «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون».

إقرأ فى سورة يوسف: «لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى، ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون».

واقرأ ما يؤكد ذلك فى سورة آل عمران «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون، وفى يوسف «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون».

«وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين، وفى هود «ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد»، واقرأ فى هذه السورة: «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا».

ثم اقرأ فى سورة النمل: «إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه

يختلفون، وفى طه: «كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا».

والقرآن الكريم يؤكد أكثر من مرة أن هذا القصص حق لا مجال للشك فيه، وواقع لا يتطرق إلى ثبوته شك أسطورى.

«واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق»، «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين»، «ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون»، وفى سورة الشعراء يختم كل قصة بهذه الجملة: «إن فى ذلك لآية ..»، وهى جملة تؤكد الواقع القصصى، وتصفع كل شيطان يسكن فى مثل رأسك يامغرور.

وبعد - أيها الكاتب المجدد - أكان يعوز القرآن أن يتملق أوهام العرب وأساطيرهم، وينافق ما استقر فى وجدانهم من الخرافات، وهو الذى قام على الإقناع المنطقى فى دعوته، وعلى تحريك النظر، ومخاطبة العقل؟ أكان يعوزه ليضمن نجاح دعوته، وعدم ازورار القوم عنها، أن يستغل ما ألفوه، وهو الذى سفه أحلامهم، وعاب ما عكفوا عليه من خرافات وثنية وغير وثنية، وحارب تقليدهم الأعمى لسنة آبائهم: «إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون»، «أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون»، ونعى على كثير منهم ما كانوا يقترفونه كوأد البنات، وشرب الخمر، ولعب الميسر، وغير ذلك مما لا يتسع المقام لتفصيله؟

لقد خلطت بين الخرافات الوهمية والأساطير المروية وبين القصص الحق الذى جاءت به التوراة والإنجيل والقرآن؛ وسلكت سبيل السعالى، والغيلان، والعنقاء، والهواتف، وأخبار الأمم السابقة، وأنبيائها فى سلك واحد، فاشتبهت عليك المسالك، وضللت الطريق اللاحب؛ فجعلت القصص القرآنى الذى قصه الله على رسوله وأوحاه إليه تأييداً وإعجازا، وعظة واعتبارا، من وحى العرب ووجدانهم تملقا واستغلالا.

إننا نعرف هذه النغمة النشاز، ونعرف مصادرها الخبيثة، ونعرف ما ترمى إليه، مهما تسترت وراء الحديث عن (إعجاز القرآن الفنى الخالد).

فالقرآن هو ذلك الطود الشامخ، والحق الثابت الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تعالى عن أن يستجدى قصصه من أفواه من يتحداهم ويسفههم ويدفعهم بالحجة بعد الحجة، وتسامى عن أن يكون خطابيا أو خياليا فى دعوته الساطعة القوية. وهو بعد ذلك أسمى من أن يتطاول إلى قصصه الحق يراع مسموم، ولا يضيره أن يزيد عدد السفهاء الذين يشككون فيه واحدا فى آخر الزمان؟

حسنى جاد

طاعة الرسل وطاعة الرسول ﷺ

للأستاذ عباس متولى حماده

قال تبارك وتعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله »[1] .

فى هذه الآية وأمثالها يبين الله تعالى فيها أن الغاية من إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام هى طاعتهم ، والانقياد لأوامرهم ، والإذعان لما يبلغونه عن ربهم بما أفاضه عليهم من علوم ومعارف كشف الله لهم الغطاء عنها ، حتى إذا بلغوا شريعة ربهم لم يخافوا أحداً ، ولم يرهبوا فى التبليغ عنه طاغيا ، أو متجبراً ؛ لأنهم كما يقول تعالى : « يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله »[2] .

فطاعة الرسل عليهم الصلاة والسلام هى الغاية من إرسالهم ، ولهذا أمر الله بطاعتهم ، ولم يستثن من ذلك رسولا بل جعل طاعتهم سنته العامة ، وحكمته المضطردة التى تقررت بفضل إرسالهم للناس لا تتخلف أبداً .

وسواء أكانت « من » فى الآية صلة زائدة على رأى الزجاج ؛ ليتحقق من زيادتها عموم تلك السنة واضطرادها . أو أن عموم القضية استفيد من تنكير « رسول » الواقع فى سياق النفى فيفيد العموم والاستغراق . كأنه يقول:

وما أرسلنا من هذا الجنس أحداً إلا ليطاع . فاضطراد طاعة الرسل سنة الله من إرسالهم على كلا الرأيين محقق وثابت وإن كانت المبالغة فى استغراق النفى أتم من جعل « من » صلة زائدة كما قاله المفسرون ، وخاصة الإمام الرازى[1] فى تفسير قول الله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » .

فكل رسول أرسل إلى قوم يجب عليهم طاعته ؛ إذ من صد عنهم وخرج عن طاعتهم ، أو رغب عن حكمهم كان متمرداً ومعانداً لحكمة الله المضطردة ، وسنته العامة فى إرسالهم ، ومعطلا لمهمتهم ، وغافلا عن الحكمة من بعثهم للناس ، ورسولنا صلى الله عليه وسلم رسول من الرسل فهو بهذا داخل فى مضمون الحكم العام المقرر للرسل عامة ، وتنطبق عليه السنة الآلهية المضطردة وهى : إيجاب طاعته ، والانقياد لجميع أوامره صلى الله عليه وسلم لأنه أرسل كغيره للناس . كما قال تعالى : « قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى »[2] .

---

(١) سورة النساء آية ٦٤

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٩ .

(١) مفاتيح الغيب للرازى (٣ : ٢٥٨) .

(٢) سورة الأحقاف آية ٩ .

ورسولنا صلى الله عليه وسلم قام الدليل ودلت المعجزة على صدق رسالته فيجب أن يطاع ، وفى ذلك يقول الشاطبي (١) : « إن العمل بالسنة ، والاعتماد عليها إنما يدل عليه الكتاب ؛ لأن الدليل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم : المعجزة . وقد حصر عليه الصلاة والسلام معجزته فى القرآن بقوله : « وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى » هذا وإن كانت له من المعجزات كثير جداً بعضه يؤمن على مثله البشر ولكن معجزة القرآن أعظم من ذلك كله » اهـ .

فإذا كانت طاعة الرسل واجبة ؛ بل هى السنة الإلهية العامة التى يجب ألا تتخلف عن كل من أرسله من رسله رغم أن شريعتهم كانت خاصة لطائفة ؛ بل إن بعضهم أرسله الله مجدداً شريعة رسول سابق ، وإذا كانت الطاعة مقررة للرسل مع هذا فإن الطاعة تكون آكد وأشد لزوما للرسول صلى الله عليه وسلم الذى أراد الله أن تكون شريعته عامة للبشرية وجعلها خاتمة الرسالات . كما قال تعالى : « إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » (٢) ، وقال سبحانه : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

بل إذا كانت الطاعة واجبة للرسل عليهم السلام ، وفيهم من بعث لأمته ، ولم ينزل الله عليه كتاباً يقرأ ويتلى ويتعبد به كنوح عليه السلام . فكيف يقال إن طاعة رسولنا صلى الله عليه وسلم تجب فى خصوص ما يبلغه من القرآن الكريم فقط ، رغم أن الله تعالى يقول فى كتابه الكريم : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » .

ولقد أرسل الله رسلا بدون كتب تتلى ، وأوجب لهم الطاعة على أممهم ، ففى أى شىء كانوا يطيعونهم إن لم تكن طاعتهم يريد الله من الأمر بها أن تكون فى جميع ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال صدرت نتيجة علمهم بما أفاض عليهم من علم اليقين ، وإنزال الوحى إليهم ؛ ليساندهم ويرشدهم ويأمرهم بما يطلبه الله منهم أن يبلغوه إلى الناس حتى لا يكون الناس على الله حجة . قال تعالى : « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) .

فهل من متدبر لهذا الهدى الإلهى المستفاد من الحكم العام الذى جعله الله لرسله وهو : إيجاب طاعتهم - وخاصة ومنهم من أرسل ولم ينزل الله عليه كتاباً يقرأ ويتعبد بلفظه - حتى يخجل من القول فى الآيات القرآنية التى جاءت بالنص على الأمر بطاعة رسولنا صلى الله عليه وسلم بأن الأمر : خاص بطاعته فيما نزل عليه من القرآن الكريم ! !

(١) الموافقات (٣ : ١٢) .
(٢) سورة الرعد آية ٧ .

(١) سورة الأنعام آية ٤٨ .

ليس هذا هو الذى يصح أن يفهم، أو يقال فى عرف العقلاء. لأن طاعة الرسل عليهم السلام حكم عام مضطرد. وسواء من أنزل الله عليه منهم كتابا أو لم ينزل والأمر فيمن أنزل الله عليهم منهم كتابا واضح، ولكن أى طاعة يمكن أن تتحقق لمن لم ينزل الله عليه كتابا منهم إذا لم نقل بأن وجوب طاعتهم فى كل ما يصدر عنهم سواء أكان كتابا مقروءا أو غير مقروء، لأنهم الصفوة المختارة من خلقه التى يجب أن تتبع وتطاع، ولا تعصى فى كل ما يصدر منها، أو يؤثر عنها لاصطفاء الله لهم بشرف التبليغ والرسالة.

قد يقال إن الشافعية يقولون: ما من عام إلا وخصص وأنت شافعى. قلت إن ما سأعرضه فى سورة الشعراء من تعدد الأوامر بطاعة الرسل التى حكاها الله على ألسنتهم يدفع احتمال التخصيص ويرده، ولهذا فإنى لا أجد فى نظرى آية من الآيات القرآنية الكثيرة التى استدل بها العلماء على حجية السنة، ولا يستطيع المنكر لحجيتها أن يتأولها، أو يدفعها إذا لاحظ فيها أن طاعة الرسل حكم عام أوجبه الله على العباد سواء منهم من أنزل الله عليه كتابا، أو لم ينزل، فإنها من هذا الاعتبار المقرر فيها أعصى على المنكرين لحجية السنة فى ردها أو تأويلها من غيرها، لأن طاعة الرسل: سنة الله العامة التى أوجبها لرسله على عباده بدون استثناء، أو تأول مقبول.

هذا ملحظى، وقد يشترك معى فيه من ينظر فى الآية الكريمة النظرة التى أنظرها، إذ أوجه الدلالات عادة تخضع لنظرة الناظر فى الدليل، ولا يكون ملحظ شخص فيه حجة على شخص آخر.

بقى أن أقول إتماما للفائدة فى قوله تعالى: «وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله» أن قوله تعالى: «بإذن الله» سواء كان الإذن: الإرادة، أو الأوامر، أو التوفيق أو الإعانة أو كما قال الراغب: «لازم ذلك» لأنه قال الإذن فى الشىء: الأعلام بإجازته والرخصة فيه غير ناظر إلى خلاف المعتزلة، وأهل السنة والمرجئة فى مفاهيم الإذن ومدلولاته، بل الذى يهمنى أن أثبت أن التعبير «بإذن الله» كان للاحتراس عما يظن أن يقال: إن الرسول يطاع لذاته بلا شرط ولا قيد، فقيد الله الطاعة بإذنه.

وفى هذا التقييد من الاحتراس ما فيه من الدقة حتى إنهم قالوا: إنه قيد من قيود القرآن الكريم. المحكمة، الذاهبة بظنون من يظنون أن الرسول يطاع لذاته، إذ الله عز وجل له الطاعة لذاته وحده، وهو إن أمر بطاعة رسول فطاعته تتحقق بإذنه وأمره لا لذات الرسول وشخصه.

وبقى أيضا قبل أن أعرض لما جاء فى سورة الشعراء - من دلالة الآيات التى جاءت بعبارة واحدة: هى قوله تعالى. «فاتقوا الله

وأطيعون ، على لسان كثير من الرسل حكاها الله فى القرآن عنهم - أن أنبه إلى أنها وإن كانت وردت فى شرائع غير شريعتنا إلا أن ورودها فى القرآن الكريم جعلها كما قال الشاطبى (١) من « التعبد بأمر منقول صرف لا نظر فيه لأحد » اهـ . لا سيما وقد ورد فى شرعنا ما يقرره ، وهو قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » . وتحقق وصف الرسالة بالمعجزات التى أهمها القرآن الكريم كما ذكرت .

وأيضاً فإن القصص إنما سيق فى القرآن الكريم للاعتبار به ، وليطاع الله عز وجل ويطاع رسوله صلى الله عليه وسلم ويتبع . وليؤمن الناس بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم

سورة الشعراء وطاعة الرسول

لما كانت سنة الله فى إرساله الرسل عليهم السلام أن يطاعوا نادى كل رسول ، ودعا كل مبعوث قومه إلى طاعته ، وقد حكى الله تعالى ذلك عنهم فى القرآن الكريم فى قصصهم التى ذكرت فى سورة الشعراء :

إذ حكى الله تعالى على لسان الرسل أمرهم بطاعة أممهم لهم ، وذلك حينما رأى من رسولنا صلى الله عليه وسلم تأثره من إعراض قومه عنه ، ومخالفتهم له فيما يقول ، وإعراضهم عنه فيما يبلغ عن ربه . فقال تعالى « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين (١) » .

فأبان الله جلت قدرته له ما تعرض له الرسل عليهم السلام من قبله ، وأنهم رغم ما تعرضوا له استمروا فى التبليغ ، وأمرهم لأممهم بطاعتهم فى جلد وصبر . قال تعالى : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل (٢) » .

فهذا نوح عليه السلام وقد مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً قص الله قصته فى القرآن الكريم ، فيقول تبارك وتعالى : « كذبت قوم نوح المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ، إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون » (٣) .

فالله تعالى يحكى عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه : « إنى لكم رسول أمين » ، وشأن الرسول الأمين أن يطاع ، ولكنه رغم ذلك أعقبه بقوله تعالى « فاتقوا الله وأطيعون » ثم يقص الله لنا أنه قال لقومه « وما أسألكم عليه من أجر » ، ثم يعقبه بقوله تعالى : « فاتقوا الله وأطيعون » ، إذ الشأن فى الناس الإعراض عمن يطلب عوضاً ، وخاصة إن كان يدعو إلى دين . ثم تمضى الآيات إلى نهاية قصته بعد أن كرر الأمر بطاعته مرتين

(١) (الموافقات ٣ ، ٤١)

(١) سورة الشعراء (٣) .
(٢) سورة الأحقاف (٣٥) .
(٣) سورة الشعراء ١٠٥ - ١١٠ .

فى أولها ، ونوح ممن لم ينزل الله عليهم كتبا ففى أى شىء كان يطلب طاعته ؟ .

ثم يحكى الله قصة هود عليه السلام مع قومه عاد فيصدرها بقوله تعالى : « إنى لكم رسول أمين » . ثم يعقبها بقوله تعالى : « فاتقوا الله وأطيعون » (١) ثم يحكى بعض عبارات قالها لقومه لينبههم إلى مهمته ، ثم يعود سريعا فيقول لهم ما قاله فى أول قصته « فاتقوا الله وأطيعون » (٢) ثم تمضى الآيات إلى نهاية قصته .

ثم يحكى الله تعالى قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود فيقول لهم ما قاله كل رسول إلى قومه : « إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون » (٣) . ثم تمضى الآيات حتى إذا قاربت منتصف قصته يحكى الله عنه أنه قال لقومه « فاتقوا الله وأطيعون » (٤) ، ثم تمضى الآيات إلى نهاية قصته مع قومه فيردف الله تعالى قصته بقصة لوط عليه السلام مع قومه فيصدر الله تعالى قصته بما قاله إخوة له من الرسل عليهم السلام سبقوه فى دعوة أقوامهم : « إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون » (٥) . ثم يحكى الله قصته إلى آخرها .

(١) سورة الشعراء (١٢٥ ، ١٢٦) .
(٢) « « (١٣١) .
(٣) « « (١٤٣ ، ١٤٤) .
(٤) « « (١٥٠) .
(٥) « « (١٦٢ ، ١٦٣) .

ثم يتبعها الله تعالى بقصة شعيب عليه السلام ، ويذكر فيها أنه قال لقومه مثل ما قاله من سبقه : « إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون » (١) ويمضى شعيب فى وصاياه إلى أن ينهى الله قصته .

ثم يتبع الله تعالى كل ذلك بما فيه العزاء والسلوى لقلب رسولنا صلى الله عليه وسلم المتألم ، ليفيض عليه قوة ، ويعطيه متعة ، ويمنحه مثابرة ، فيقول له قولة العزاء والسلوى بل قولة الرضا والتفضل ، ليمنحه ثقة ربه ، فيقول تبارك وتعالى : « وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين . وإنه لفى زبر الأولين » (٢) .

فطاعة الرسل عليهم السلام من الأمد إلى الأبد واجبة على جميع من يبلغونهم سواء منهم من أنزل الله عليه كتابا ، أو لم ينزل الله عليه كتابا فطاعتهم حكم عام مقرر وسنة متبعة .

والرسل عليهم السلام نادوا منذ إرسالهم لأممهم بطاعتهم رغم أن الطاعة كانت منطقية مع حكمة إرسالهم . ولكنها قاعدة عامة ، وسنة إلهية لا يصح أن تتخلف فكذلك رسولنا صلى الله عليه وسلم يجب أن يطاع

(١) سورة الشعراء (١٧٨ ، ١٧٩) .
(٢) « « (١٩٢ - ١٩٦) .

فى كل ما يصدر منه ، سواء أكان قرآنا يتلى ويتعبد بلفظه ، أو غير قرآن وهى : سنته ؛ لأنه رسول قامت الأدلة والبراهين على صدق رسالته .

فهل بعد هذا يمكن أن يقال : إن طاعة رسولنا صلى الله عليه وسلم إنما تجب فى خصوص ما يبلغه عن ربه من القرآن الكريم ؟ !! وهو كما ترى متناف مع الحكم العام المقرر للرسل عامة بدون استثناء أحد منهم من هذا الحكم العام وهو : الطاعة التى نادى بها الرسل عليهم السلام وحكاها الله تعالى لنا فى سورة الشعراء ، وعرضها عرضاً بارعا لا يقدر أن يأتى بمثله أحد . قال تعالى : قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (١) .

فيا الله ما أروع هذا العرض ، وما أجل الغاية منه فهذه فقرة واحدة قصيرة « فاتقوا الله وأطيعون » ، يكررها الله تعالى فى سورة واحدة حكاية على لسان الرسل عليهم السلام ومع ذلك ما أحس قارئ لها منا بتكرارها فما بالنا بالعرب الفصحاء ، وكيف كان تذوقهم لهذا الهدى القرآنى الكريم الذى جاء حتى فى القصص بهذا النسق البديع .

فقرة واحدة تأتى بلفظ واحد فى قصص كثير من الرسل عليهم السلام ، وبعضهم أعادها مرتين فى أول قصته ، وبعضهم كررها مرتين فى خلال قصته ، ومع ذلك لا يحس القارئ أنها جاءت مكررة ، أو معادة أو ثقيلة على الأسماع والنفوس ؛ لأنها فى كل مرة يذكرها الله تعبر عن معنى جديد بحيث يكون لها وقع فى النفوس وجرس فى الأسماع .

وإنما جاء هذا فى القرآن الكريم ليقرر الله الحكم العام بطاعة الرسل فى الأذهان وليستقر فى النفوس .

ولكن أى نفوس وأى أذهان يريد الله تعالى أن يقرر لديها هذا المعنى : أنفوس الأمم السابقة وقد مضت ؟ ، أم نفوس الأجيال المقبلة التى تنتظر رسالة بعد رسالة رسولنا صلى الله عليه وسلم . والرسالات قد ختمت برسالته وانتهت ببعثته .

ليس هذا ولا ذاك يريده الله قطعا لمنافاته للواقع ولمعارضته الأدلة القطعية ، فلم يبق غير نفوسنا وأذهاننا التى يقرر الله تعالى لها هذا الحكم العام . ويريد بهذا البيان الذى ذكره فى قصص الرسل عليهم السلام بهذا النسق أن تكون طاعة رسولنا صلى الله عليه وسلم معلومة لدينا علما ضروريا لا يجوز أن يتمارى ، أو يشك فيه إنسان ، أو يجادل فيه عاقل . بصرنا الله دائما بهدى القرآن وجنبنا الزلل والزيغ آمين .

عباس متولى حماده

---

(١) سورة الاسراء (٨٨) .

عصمة الأنبياء بين اليهود والنصارى والقرآن

للأستاذ علي الخطيب

يختار الله الرسول من بين خلقه فيسير على نهج يأخذه به ربه ، ويسلكه فيه فيصنعه على عينه ، ويطبعه على طاعته ؛ فلا تشينه شائبة تسقط من مروءته ، أو يغضى لها طابع رجولته ، وتنمو مكارم أخلاقه ، وتنشط فيه صفات القيادة ، ويوسعه ربه حلما وعلما ، وعدلا ورحمة ، وبرا وكرما حتى إذا جاءت الرسالة أداها بإيمان وقوة ، لا ينطق فيها عن هوى ، ولا يتحدث فيها برأى . وهو فوق ذلك كله معصوم من الخطأ .

وهذه العصمة شاملة .

فإذا علمنا أن ما يأمر به الرسول أو ينهى عنه يعتبر إتيانه أو الكف عنه عبادة .

وأن ما يؤديه من صلاة أو زكاة أو صيام أو حج يعتبر عبادة

وأن ما يشاهده فى قومه فيسكت عنه لا يعتبر معصية .

قلنا : إنه معصوم فى ذلك كله لا يخطىء فيه . لخصائصه فيه قائمة . وعصمته من الخطأ فيه كاملة . فهو من قبل الرسالة على خلق كريم ، ومن بعدها على خلق عظيم .

وللعصمة بهذا المعنى شأن . وإنه لخطير بين اليهود ، والنصارى ، والقرآن .

فأما اليهود : فبكل أجيالهم التى تعبدت بالتوراة المتداولة المعروفة بالعهد القديم مع ما ضم إليها من صحف - هؤلاء جميعاً لا يقرون بعصمة نبى ، ولا يؤمنون بنزاهته ، ويستوى فى نظرهم هذا موسى عليه السلام نفسه ، ومن قبله من كل أنبياء العهد ، كما لم يسلم من تعليقاتهم من أتى بعده من أنبياء .

فالرسول الذى نصب هاديا ومرشداً لا يرى فيه اليهود مانعا يمنعه أن يقتل أو يزنى أو يكذب ، فلا كرامة لنبى عليهم ، ولا يذكرون فى باب النزاهة فارقا بين نبى وغير نبى فالكل فى ذلك سواء .

وعلى هذا المنوال نسجوا الأنبياء واحدا بعد الآخر معصية :

نالوا من موسى عليه السلام « فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها » ٦٩ الأحزاب .

ومن قبل موسى نالوا من نوح عليه السلام فصوروه عربيدا قد شرب الخمر وتعرى حتى

ظهرت عورته « تكوين - ٩ - ٢٢ ، ٢٥ » .

وطغى نصيب لوط على نصيب نوح وتعدى السكر والعربدة إلى أشنع جريمة يمكن أن يسمع بها بشر فقد اتهموه فى ابنتيه وأنه نالها واحدة بعد الأخرى « تكوين - ١٩ - ٣٠ إلى ٣٧ » .

ونالوا من هرون عليه السلام فى مهمة النبوة الأولى فصوره يدفعهم إلى الوثنية ويقول لهم : « انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم ، وأتونى بها فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها هرون ، فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل ، وصنعه عجلا مسبوكا فقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر » « خروج - ٣٢ - ٢ إلى ٤ » .

وجعلوا داود عليه السلام قاتلا فى أخبث رواية إذ صوروه يعجب بجمال إسرائيلية رآها خلسة فاحتال لإبعاد زوجها « أوريا » عنها ودفعه إلى ميــــدان القتال ، وفى الخطوط الأمامية لتى حتفه ، فأمكنه أن يتزوجها « صموئيل ثان - ١١ - ١ إلى ١٧ » وهى حيلة لا تخرج بفاعلها عن الإثم ، ولا تبرئه من الجريمة فالمتسبب فى القتل كفاعله .

وحين ثار عليهم « إرميا » النبى وسخط على الكتبة الذين يحرفون الكتاب وقال لهم « كيف تقولون نحن حكماء ، وشريعة الرب معنا . حقا . إنه إلى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب ، خزى الحكماء ، ارتاعوا وأخذوا ، ها قد رفضوا كلمة الرب فأية حكمة لهم « إرميا ٨ - ٩ ، ١٠ » كما قال أيضا :

« أما وحى الرب فلا تذكروه بعد ، لأن كلمة كل إنسان تكون وحيه إذ قد حرفتم كلام الإله الحى رب الجنود إلهنا « إرميا - ٢٣ ، ٣٦ » .

حين ثار إرميا عليهم ثورته اتهموه بالتجسس لحساب أعدائهم وألقوا به فى السجن كما يقص سفره « إرميا ٣٧ - ١٥ إلى ٢١ » .

وأما سليمان عليه السلام فسلكوه فى نفس التهمة التى ألصقت بهرون ورموه بالوثنية وجعلوا « عشتورث ، وملكوم ، وكموش ، ومولك » من الآلهة التى مال قلبه إليها زمن شيخوخته « ملوك أول ١١ - ٤ إلى ٩ » .

ولم تكن حملات عيسى بن مريم عليهما السلام هينة عليهم ، ولما لم يكن ملكا ، ولا محاربا وكان محصورا فقدوا كل أنواع التهم المتقدمة أن يلصقوها به فادعوا فيه وهو ابن البتول أنه ابن رشدة - زنا - وهى تهمة موجهة فى الواقع إلى مريم عليها السلام .

فلعنهم الله « ... بكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما ... » .

هذه منزلة النبوة بين اليهود ، وقد استحقوا بها لعنة داود ، وعيسى عليهما السلام فيهم « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا

يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ، المائدة ٧٨ ، ٧٩ .

وهكذا ذهب اليهود بوزرهم فى الأنبياء .

وجاء المسيحيون : ولما كانوا يقرون بالعهد القديم لم يقدموا حلا لتلك القضية ولم يبرئوا أولئك الأنبياء والكرام من فرى اليهود ، ورغم أن العصمة دراسات مسهبة فى كهنوتهم ؛ فلم يحظ منهم أولئك الأنبياء بمكانة العصمة فى حين وزعت منهم على غير الأنبياء .

فأما الكاثوليك فيرون أن « الكتب المقدسة لم تذكر كل شىء ، ويعنى هذا أن جانبا دينيا ضخما بقى فى حاجة إلى تشريعات لذلك جعلوا من (بابا روما) مسيحاً منظوراً ورأوا أنه « معصوم من الخطأ فى أحكامه الدينية فكل ما يشرعه فى جانب الإيمان ، وما يحدده فى جانب العقيدة يعتبر قضايا يقينية غير قابلة للتحوير أو التبديل كما أن تقريراته ليست بحاجة إلى موافقة الكنيسة عليها فهى صحيحة دون موافقتها ، ومن حقه أيضاً أن ينشر تعليما إيمانيا ويحتم حفظه ؛ لأن لحص الآيات خاص به منذ أجيال » [1] .

(١) انظر الصفحات (١٤٧ ـ ١٥٦ ـ ١٥٧ ـ ١٥٩ ـ ١٧٦) من كتاب « شرح التعليم المسيحى » ج ١ القس يوسف لويس . مطبعة البرتيرى ١٩٣٩ م . وكتاب « سلاحك أيها المسيحى » ص ٢٢٢ لمؤلفه نعمة الله العذارى المرسل اللبنانى ـ جونيه ـ لبنان .

وبعصمة البابا أصبح للبابوية إنجيل مفتوح يستطيع أى البابوات أن يسطر فيه ما شاء ، ومع ذلك لم نر أحدهم يقدم دراسة لدفع هذه الاتهامات عن أولئك الأنبياء المصطفون الأخيار . بل إن (البابا) الراحل أمر بحذف صلوات استمر الكاثوليك يرددونها مئات السنين ، ثم تبين أنها حذفت لما فيها من لعنات على اليهود . فكان اهتمامه برفع السخط عنهم أهم بكثير فى نظره من اهتمامه بالأنبياء أنفسهم ، ومضى تاركا قضية النبوة لأهواء اليهود .

ويختلف الأرثوذكس عن الكاثوليك فى قضية العصمة ؛ فليست عندهم محصورة فى رأس الكنيسة لأى مذهب أرثوذكسى ، وأى البابوات الأرثوذكس لا يعتبر معصوما فى نظرهم ، ويقررون « العصمة » للمجامع المسكونية وحدها ؛ فقرارات هذه المجامع تعتبر معصومة من الخطأ ، وهذه المجامع مؤتمرات دينية تعقد على مستوى عالمى شامل للنظر فى القضايا الدينية ، والشئون الكنسية وبدأ أول مجمع منها عام ٣٢٥ م وكان يأمر بعقدها الملوك المعاصرون لشئونها [1] وفى هذا الخريف دعت كنيسة الفاتيكان إلى مجمع منها . غير أن قرارات هذا المجمع تواجه من

(١) انظر ص ٦٨ من كتاب « التعليم المسيحى الأرثوذكسى » الأغناطيوس فرزلى . مطبعة أناتولى . اسكندرية .

الأرثوذكس حرباً عنيفة ، ولا يبدو أنها ستحظى بالعصمة هذه المرة

والقراء في العالم أجمع يعيشون لحظات هذا المؤتمر الأخير بدوافع شتى لكن المؤلم أن مؤتمراً واحداً من هذه المؤتمرات لم يتبرع برفع وصمة اليهود عن الأنبياء .

والبروتستنتية التي حملت بعنف عاصف على (عصمة) بابا روما وقفت موقفاً سلبياً من نفس القضية رغم ما اتسمت به من ثورية هادفة في قضية البابوية .

ويعني هذا أننا نخلص من المسيحية إلى قرار غريب : (قرار يرى العصمة جائزة وموجودة في غير الأنبياء ، وليست موجودة في بعض الأنبياء) فالمجامع المسكونية عند الأرثوذكس ، و (بابا روما) عند الكاثوليك ذوو عصمة . بينما داود وغيره ممن عددنا من الأنبياء لا عصمة عندهم .

ثم جاء الإسلام والقرآن وحيه وترجمانه .

وحصر الإسلام العصمة في الأنبياء وحدهم وقرر براءتهم جملة وتفصيلا ، ولا زال من تعاليمه لأتباعه أن يقولوا « آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» ١٣٦ البقرة .

ونص القرآن في نوح أنه «كان عبداً مشكوراً» و « نوحاً هدينا من قبل » « سلام على نوح في العالمين ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين » .

فنوح عليه السلام مؤمن بربه ، شاكر له ، محسن في طاعته ، محوط بهداية الله المقررة له فمنذا الذي يخرق عليه ما أراده الله له من هداية ويسقيه خمراً ، ومن يهد الله فلا مضل له ، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ولوط عليه السلام في جملة من فضلهم الله على العالمين فقال : « وإسماعيل ، واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين » .

ويعنيه القرآن الكريم وحده فيقول : « ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ، وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين »

وهكذا يقرر الله سبحانه صلاح لوط الذي جعله من المفضلين على العالمين والله سبحانه لا يستحي من الحق ، وما كان ليقرر فضل لوط وصلاحه إلا ولوط عليه السلام طاهر صالح بريء من الإثم وكفى بالله شهيدا .

ولقد أجمع رجال القانون من كل عصر وجيل أن « الاعتراف سيد الأدلة » ، والقرآن يسوق هذا الدليل في مسألة هرون ، فموسى عليه السلام استمع إلى شهود القضية فقرروا جميعا إثم « السامري » وقالوا : « حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى » .

وكر موسى على السامرى قال : « فما خطبك يا سامرى ، قال بصرت بما لم يبصروا به ، فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى » .

وهكذا اعترف السامرى وشهد الشهود ولا بيان ببراءة هرون أنصع من هذا .

وداود عليه السلام ممن قال الله فيهم « وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا » وجعله سبحانه أسوة لمحمد صلى الله عليه وسلم حين كثر الأذى عليه فقال تعالى لمحمد : « اصبر على ما يقولون ، واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب » ، وهل كان سبحانه وتعالى يجعل من قاتل أسوة ... ؟ !

وقال الله فى سليمان بأنصع عبارة وأبسطها وأسرعها فهما « وما كفر سليمان » وبرأه الله وقال فيه « نعم العبد إنه أواب » فلا كفر ولا زيغ ولكن طاعة مستمرة وتعلق دائم بالله ، وحب خالص له .

ولم تمر حادثة إرميا بسلام فلا تزال شهادته فيهم تبعث الريب حتى فى حاخامات اليهود أنفسهم ، وقد دفع ذلك وغيره الحاخام اليهودى المعاصر دكتور لويس جاكوبس إلى الشك فى العهد كله جملة وتفصيلا .

وأثار بذلك عاصفة بين يهود بريطانيا بكتابه « لدينا ما يجعلنا نؤمن » ، وقرر فيه أن الكتب التى تنسب إلى موسى عليه السلام نفسها لعب الإنسان فيها دورا ملحوظا (١) وهذا عين ما قرره إرميا .

وأما مريم البتول صلوات الله وسلامه عليها فهى صفوة نساء العالم فى طهارتها وإخلاصها لله وحرصها على رضاه ولقد أسمعها الله هذه الشهادة وهى لا تزال بين الأحياء وزفتها إليها الملائكة فقالت : « يا مريم إن الله اصطفاك ، وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين » ٤٢ آل عمران .

ولا عجب بعد هذا أن يكون عيسى ابنها عليه السلام (وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين) بشهادة القرآن (٤٥ آل عمران) .

وليس بين ما بقى من كتب السماء إلا القرآن يقرر - وحده - براءة النبوة ، وكمال عنصرها ويصدع بالحق مفتريات اليهود ويرد كيدهم بتفصيل ، ويعيد للنبوة جلالها ، ويرفع لها كمالها ، ويكشف للعالمين جرم اليهود فى حق صفوة البشر جلالا وكمالا ، ومن شرف القرآن ، وإعجازه المحيط أن تسطر آياته الحكيمة تلك البراءة ، وتذيعها على العالمين إلى يوم الدين بيانا بالحق ، وتبصرة وذكرى لأولى الألباب ، فسحقا للمفترين ، والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ؟

على الخطيب
مجمع البحوث الإسلامية

---

(١) انظر الجمهورية ١٩٦٤/٤/٢٦ ص ١ ع ٨ .

الوراثة وقوانينها ومظاهرها الغريبة ومراعاتها في الجاهلية والإسلام

للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

ينتقل إلى الكائن الحي من أصوله الخاصة القريبة والبعيدة ، ومن فصيلته العامة صفات كثيرة يتعلق بعضها بتكوينه المادي ، وبعضها باستعدادات ، وأمور نفسية ومعنوية مترتبة على هذا التكوين المادي ، وهذا الانتقال هو الذي يطلق عليه اسم الوراثة ، وهو عام في جميع الكائنات الحية : في النبات والحيوان ، والإنسان .

وقد عني الباحثون منذ عصور سحيقة في القدم بدراسة الوراثة ، واتسعت بحوثها اتساعا كبيرا حتى أصبحت علما مستقلا متعدد الفروع ، واهتدى العلماء إلى الكشف عن طائفة كبيرة من القوانين التي تخضع لها ظواهرها ، فكشفوا الغطاء عن قوانينها العامة التي تحكم النبات والحيوان والإنسان ، وعن قوانينها الخاصة بنوع من هذه الأنواع أو بفصيلة منها .

ومن أهم هذه القوانين ما اكتشفه العلامة مندل Mendel ، وهو قسيس نمسوي من رجال القرن التاسع عشر (١٨٢٢ - ١٨٨٤) نبغ في العلوم الطبيعية نبوغا كبيرا ، وتوفر على دراسة الوراثة في عالم النبات بوجه خاص ، ثم عمم بحوثه فيما بعد ، وقد أتيح لمكتشفاته في هذه الميادين الذيوع والانتشار ، فأصبحت الشغل الشاغل لجماعة الباحثين في الوراثة ، حتى لقد جعلها العلماء موضوعا لشعبة مستقلة ينسبونها إليه فيطلقون عليها اسم «منديليسم»

وممن يرجع إليهم كذلك فضل كبير في بحوث الوراثة العلامة الفرنسي ريبو Ribo (من رجال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ١٨٣٩ - ١٩١٦) وقد عني بوجه خاص بدراسة الوراثة النفسية في الإنسان ، أي وراثة الاستعدادات المعنوية المتعلقة بالإدراك والوجدان والنزوع ، كالغريزة والعادة ، والإرادة ، والإدراك الحسي ، والذاكرة والذكاء ، والعواطف ، والميول ... وما إلى ذلك وألف في ذلك كتابا قيما بعنوان «الوراثة النفسية» أثبت فيه بالأدلة القاطعة أن الصفات العقلية ، والخلقية لا تنتقل هي نفسها إلى الجنين

الإنسانى ، وإنما ينتقل إليه ما تعتمد عليه من دعائم فى التكوين الجسمى والعصبى ، فالوراثة فى نظره ظاهرة جسمية خالصة ، والصفات الجسمية وحدها هى التى تنتقل عن طريقها ؛ أما الصفات العقلية والخلقية فلا تنتقل بطريق مباشر ، وإنما تنشأ عن وراثة لبعض أوضاع مادية فى الجسم والغدد والجهاز العصبى .

* * *

ومن أهم ما اكتشف من قوانين الوراثة قانون التغلب فى الصفات الموروثة ، وقانون الوراثة الخاصة غير المباشرة ؛ أما قانون التغلب فى الصفات الموروثة فيقرر أنه قد يحدث فى تكوين الطفل أن تتغلب صفات أحد أبويه على صفات الأب الآخر فتستكن الصفات المغلوبة وتختفى مظاهرها حتى ليخيل إلينا عدم وجودها ، مع أنها تكون فى هذه الحالة موجودة مستكنة ، وآية وجودها أنها قد تنتقل بطريق الوراثة إلى أولاد الفرع المستكنة لديه . وأما قانون الوراثة الخاصة غير المباشرة أى الوراثة من الأجداد والجدات من مختلف الدرجات فيوضح القانون السابق ويكمله إذ يقرر أنه قد ينتقل إلى الطفل بطريق الوراثة بعض صفات كانت ظاهرة فى أحد أجداده أو إحدى جداته من جهة الأب ، أو من جهة الأم من الدرجة الاولى ، أو من الدرجات التالية لها ، ولم تكن ظاهرة فى أصله المباشر ، فيخيل إلينا أنه قد ورثها من أجداده أو جداته ، وأن هذه وراثة غير مباشرة ، والحقيقة أن الطفل لا يرث هذه الصفات عن أصله البعيد ، ولا يعقل أن يكون قد ورثها عنه ، لأن هذا الأصل لم يكن له دخل فى تكوينه ، وإنما يرثها عن أصله المباشر نفسه الذى خلق من مائه . وذلك أن هذه الصفات مع عدم ظهورها فى الأصل المباشر كانت موجودة لديه فى صورة مستكنة قابلة للانتقال إلى الفروع

* * *

ومن الوراثة أنواع غريبة تظهر فى بادئ الرأى شاذة ، خارجة عن الأوضاع المألوفة ، صعبة التفسير ؛ ولكنها عند التأمل العميق يتبين أنها تخضع للقوانين نفسها التى يخضع لها غيرها من الأنواع الوراثية العادية ، وتنبعث عن العوامل نفسها التى تنبعث عنها هذه الأنواع . ومن ذلك ما يسمونه « الوراثة المتحدة الأزمنة » . وذلك أنه قد يظهر عند الأصل فى مرحلة ما من مراحل حياته صفة عارضة جسمية ، أو نفسية ، ثم تظهر هذه الصفة نفسها عند الفرع حينما يبلغ السن التى ظهرت فيها عند أصله ، مع أنها لم تكن موجودة عند الأصل فى الوقت الذى علقت فيه الأم بالفرع ، ويبدو هذا النوع على

الأخص في صفات الأمراض والعاهات .

وقد سجل له الباحثون عدة أمثلة واقعية ، منها أن بعض الأفراد قد أصيبوا بالعمى أو بالصمم لأسباب غير معلومة بعد أن يلغوا سنا معينة ، وأن بعض أولادهم قد أصيبوا بالعاهة نفسها حينما بلغوا هذه السن ، مع أنهم في وقت العلوق بهم لم تكن أصولهم مصابة بشيء من ذلك . ولكن هذا النوع نفسه ، مع غرابته وخفاء أسبابه في الظاهر ، يعتمد في الواقع على الدعائم نفسها التي تعتمد عليها الظواهر العادية في الوراثة . وتفسير ذلك أن الأصل في مثل هذه الأحوال كانت لديه جراثيم مرض كامنة وأوضاع واستعدادات جسمية خاصة ينجم منها بعد فترة ما فقد البصر أو السمع ، وأن هذه الأوضاع وتلك الاستعدادات التي كانت كامنة في الأصل انتقلت إلى الفرع في المادة الحيوية التي تألفت منها أجزاؤه ، وترتب على انتقالها بطريق الوراثة ظهور العادة لديه في الميقات الذي الذي يحدده ما ورثه في تكوين جسمه وجهازه العصبي . وهذه الحالات تبين لنا خطر الوراثة ودقة قوانينها ، وأن ويلاتها تحيق بكثير من الناس من حيث لا يشعرون .

* * *

هذا ، وقد فطن العرب في الجاهلية إلى حقائق الوراثة ، وقوانينها ، وحرصوا على الإفادة منها في شئون الزوج ، وصلة الرجال بالنساء ، وإنجاب الأولاد ، وثبوت النسب ، ونبغ لديهم كثير من الخبراء في ظواهرها ، ووجوه تطبيقها .

فمن ذلك أن معظم عشائرهم كانت تكره الزواج من القريبات لما أرشدتهم إليه خبرتهم في شئون الوراثة من أن زواج الرجل بقريبته ينتج نسلا ضاويا [1] ضعيف الجسم والعقل ، وفي هذا يقول شاعرهم :

تجاوزت بنت العم وهي حبيبة
مخافة أن يضوى على سليلي

ويقول الآخر :

أنذر من كان بعيد الهم
تزويج أولاد بنات العم
فليس بناج من ضوى وسقم

ويقول الآخر :

ألا فتى نال العلى بهمه
ليس أبوه بابن عم امه

وتتفق آراؤهم هذه مع ما ظهر للمحدثين من قوانين الوراثة ، وذلك أن الزوجين إذا كانا من أسرة واحدة انتقل إلى أولادهما بطريق الوراثة جميع الصفات الوراثية السيئة التي تختص بها أسرتهما لوجودها في الأصلين

---

(١) ضوى الولد يضوى ضوى من باب تعب إذا صغر جسمه وهزل ، والضوى الهزال ، وأضواه غيره أي تسبب في هزاله وضعفه .

معاً ظاهرة أو مستكنة ؛ على حين أنهما إذا كانا من أسرتين مختلفتين فإنه يندر أن يتحدا فى صفة وراثية سيئة ، بل تكون صفاتهما الوراثية متنوعة فى العادة . فيقابل نواحى الضعف فى أحدهما نواح قوية فى الآخر ، فيحدث بذلك التعادل فيما ينتقل عنهما إلى أولادهما بطريق الوراثة ؛ فينشأ هؤلاء الأولاد متوازنى الصفات ، معتدلين فى نواحيهم الجسمية ، والعقلية ، والخلقية.

ومن مظاهر خبرة العرب فى الجاهلية بحقائق الوراثة وحرصهم على الإفادة منها ، أن بعضهم كان يلجىء زوجته إلى ما اشتهرت تسميته بالاستبضاع ، وقد شرحت أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها نظام الاستبضاع فيما أخرجه عنها البخارى موقوفاً إذ تقول : « كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها (حيضها) أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها ، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها ، إذا أحب ؛ وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد » (١) ويظهر من هذا النص أن هذا كان يتم برغبة الزوج بل بأمره ، وأنه كان يفعل ذلك حرصاً على نجابة الولد ، وأن هذا الولد كان يعتبر ولداً للزوج الشرعى ، لا للعظيم الذى جاء من صلبه وأن هذا العظيم كان يعتبر مجرد أداة استخدمت لإنجابه .

وكان العرب فى الجاهلية يلجئون إلى الخبراء منهم فى شئون الوراثة لتحقيق نسب الولد فى الحالات التى لا تكون ثمة دلالة أخرى على نسبه ، أو فى حالة الشك فى نسبه ، كما نلجأ نحن فى الوقت الحاضر فى مثل هذه الحالات إلى فحص فصيلة الدم . وأكثر حالات التجائهم إلى ذلك كانت فى صدد أولاد البغايا ، وقد أشارت إلى ذلك السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها فيما أخرجه عنها البخارى موقوفاً إذ تقول : « كان يجتمع الناس الكثيرون فيدخلون على المرأة لا تمتنع عن جاءها ، وهن البغايا ، وكن ينصبن على بيوتهن رايات تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاط به ، ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك » (١) والقافة هم الخبراء فى فن « القيافة » وهو فن كان منتشراً عند العرب فى الجاهلية يستطيع الراسخون فيه أن يعرفوا الأصل الذى انحدر الولد من مائه عن طريق الشكل الخارجى لتكوين أعضائه ولون بشرته وما إلى ذلك ، وفقاً لقوانين الوراثة ، والقافة أيضاً الذين يعرفون آثار الأقدام ويعرفون

(١) صحيح البخارى فى باب من قال لا نكاح إلا بولى.

(١) المرجع السابق نفسه .

أصحابها منها، ولعلهم كانوا يبحثون كذلك عن آثار الأقدام التي كان أصحابها يختلفون إلى البغي ليعرفوهم تمهيداً لإلحاق الولد بأحدهم ولعل هذا كان من بين الأمور التي كانت تدعو من يغشون منازل المومسات إلى أن يجروا أطراف مآزرهم وراءهم لتطمس آثار أقدامهم على الرمال حتى لا يكونوا عرضة لأن يلتحق بنسبهم من تجيء به البغي، أو المظلة كما كانوا يسمونها؛ لأن سفلة الناس وسوقتهم كانوا يختلفون إلى البغي في الظلام يجرون أطراف مآزرهم وراءهم، ولذلك كان من جوامع كلمهم في المدح: «فلان لا يرخي لمظلة إزاره».

* * *

وقد أقر الإسلام قوانين الوراثة، وحث الناس على الإفادة من خيراتها، واتقاء شرورها وفي هذا يقول عليه السلام: «إياكم وخضراء الدمن!»، قالوا وما خضراء الدمن؟ قال: «المرأة الحسناء في المنبت السوء» ويقول: «تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها. فاظفر بذات الدين تربت يداك».

وحبب الإسلام الزواج بغير القريبات لاتقاء الأضرار الوراثية السابق ذكرها. وفي هذا يقول عليه السلام: «اغتربوا لا تضووا» أي تزوجوا بغير قريباتكم لأن زواجكم بالقريبات يضوي نسلكم أي يضعفه ويجعله هزيلا، وروى عن عمر بن الخطاب أنه قال: «يا بني السائب قد ضويتم فانكحوا في الغرائب» ومر عمر على قوم من قريش صغار الأجسام فقال: ما لكم صغرتم؟! قالوا: قرابة أمهاتنا من آبائنا. قال: صدقتم.

وكان الرسول عليه السلام يرتاح لآراء الخبراء في الوراثة، وذوي الفراسة في شئونها. يروى أن زيد بن حارثة كان نائما مع ابنه أسامة تحت غطاء واحد لم يظهر منه إلا أقدامهما فمر عليهما خبير في الوراثة، ووقع نظره على أقدامهما. فقال إن صاحب هذه الأقدام، مشيرا إلى أقدام زيد لا بد أن يكون أبا هذه الأقدام الأخرى. وكان ذلك بحضرة الرسول عليه السلام، فارتاح الرسول لمقولته وصدق فراسته، وخبرته في شئون الوراثة.

وأما فيما يتعلق بثبوت النسب، فإن الإسلام لم يربطه بمظاهر الوراثة، وآراء الخبراء في شئونها، وإنما أقامه على قواعد حكيمة تكفل استقرار الأسرة، وتبعدها عن الشبهات ومظان الفتنة والريبة، وتحمي أعراض نسائها؛ فقرر أن «الولد للفراش» (وهذا نص حديث شريف) أي إن الولد الذي يجيء من فراش صحيح مشروع يلحق نسبه بالزوج صاحب هذا الفراش بدون حاجة إلى اعترافه به اعترافا صريحا، وبقطع النظر عن مبلغ شبهه به من الناحية

الوراثية ، ولا ينتفي نسبه عنه إلا إذا اتهم زوجته بأنها خانت أمانته وعلقت به من غيره وقامت لديه الأدلة القاطعة على ذلك ، ورفع ظلامته إلى القضاء ، ولم يكن له شهداء إلا نفسه فحينئذ تجرى بينهما الملاعنه التى يشرحها القرآن الكريم إذ يقول : « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، ويدرأ عنها العذاب ، (أى يدرأ عنها حد الزنا) ، أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين »[1] . وبعد أن يحلف كلاهما هذه الأيمان المغلظة وتجرى بينهما الملاعنه على هذا الوجه ، يفرق القاضى بينهما ، ويعتبر الولد الذى أجريت بسببه هذه الخصومة أجنبيا عن الزوج ، ويلحق بأمه وحدها ، ولكن مع ذلك لا يعتبر ابن زنا ، ولا تعتبر أمه زانية ما دامت قد أقسمت على كذب زوجها ، وإذا قذفها أحد بالزنا ، أو قذف ابنها بأنه ابن زنا ، فإنه يقام عليه حد القذف .

ويلحق بفراش الزواج فراش ملك اليمين فإذا تسرى السيد جاريته واتخذها فراشا له بحكم ملك اليمين ، وجاءت بولد التحق

(١) آيات ـ ٦ ـ ٩ من سورة النور .

نسبه به بدون حاجة إلى اعترافه به اعترافا صريحا[1] .

ومع ذلك فإن الرسول عليه السلام قد أقام بعض الوزن لأوضاع الوراثة فى حادثين اثنين يتعلقان بثبوت النسب ، وإن كان قد حكم فى كليهما بغير ما تقضيه هذه الأوضاع جريا على الأصول الإسلامية السابق ذكرها .

وأحد هذين الحادثين : هو حادث ولد جاءت به جارية كانت ملكا لزمعة صهر الرسول عليه السلام (والد أم المؤمنين سودة بنت زمعة) وجاءت به بعد وفاة سيدها . وقد تنازعه أثنان : أحدهما عبد بن زمعة (أخو سودة) الذى قرر أنه أخوه لأن الجارية كانت ملكا لأبيه وفراشا له ؛ والآخر سعد بن أبى وقاص الذى ذهب إلى أنه ابن أخيه عتبة بن أبى وقاص ، لأن عتبة قد اعترف له قبل موته بأنه قد اتصل بهذه الجارية اتصالا غير مشروع وأنها علقت منه بحملها هذا ، وطلب إليه أن يضمه إليه بعد ولادته بوصفه ابن اخيه . ورفعا أمرهما إلى رسول

(١) هذا هو ما يراه كثير من الفقهاء . ويذهب أبو حنيفة إلى أنه لا يثبت نسب أول ولد إلا إذا اعترف به اعترافا صريحا ؛ أما إذا أنكره أو سكت عنه ؛ فإن نسبه لا يثبت منه . ولكن إذ اعترف بأول ولد ثم جاءت بعد ذلك بولد آخر ؛ فإن نسب هذا الولد الآخر يثبت منه بدون حاجة إلى اعترافه ، لأن اعترافه الأول يعد دليلا على أنه اتخذ هذه الجارية لفراشه .

الله صلى الله عليه وسلم فنظر عليه السلام إلى الولد فإذا هو من الناحية الوراثية أشبه الناس بعتبة بن أبي وقاص ؛ ولكنه مع ذلك حكم به لعبد بن زمعة ؛ لأنه ولد على فراش أبيه ، والقاعدة الإسلامية أن « الولد للفراش » كما تقدم . غير أن الرسول عليه السلام قد أقام في هذا الحادث بعض الوزن لأوضاع الوراثة فقال لزوجه سودة احتجبي منه ، أي من هذا الولد ؛ فاعتبره أجنبيا عنها فيما يتعلق بالاختلاط بها ، وحرمة النظر إليها ، وإن كان قد اعتبره أخاها من الناحية الشرعية[1]

والحادث الثاني : حادث ملاعنة أجراها الرسول عليه السلام بين هلال بن أمية وزوجته التي رماها بالزنا وقرر أنه رآها بعينه متلبسة به ؛ وهذا هو أول حادث ملاعنة في الإسلام . وذلك أنه بعد أن أقسما أيمان الملاعنة السابق ذكرها فرق الرسول عليه السلام بينهما ، وقضى ألا يدعى ولدها لأب وألا يرمى ولدها بأنه ابن زنا ، ولا ترمى بالزنا لأن أيمانها قد درأت عنها ، وعن ولدها هذه التهمة وأن من رماها ، أو رمى ولدها يقام عليه حد القذف . ولكن الرسول عليه السلام قد عقب على ذلك بما يدل على إقامته بعض الوزن للوراثة من جهة ، وعلى عظيم خبرته وحذقه في شئونها من جهة أخرى ، فقال : « إن جاءت به أصهب ، أريشح خمش الساقين فهو لهلال ؛ وإن جاءت به أورق ، جعدا جماليا ، خدلج الساقين ، سابغ الإليتين . فهو الذي رميت به » ، فجاءت به أورق جعدا خدلج الساقين سابغ الإليتين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا الأيمان لكان لي ولها شأن » (يقصد الأيمان التي أقسمتها) . قال عكرمة : فكان بعد ذلك أميرا على مصر وكان يدعى لأمه ، ولا يدعى للأب . هكذا روى هذا الحديث أبو داود . ورواه البخاري عن محمد بن بشار . . عن ابن عباس بالنص الآتي بعد أن قص خبر الملاعنة : « وبعد أن مضت المرأة قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أبصروها . فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الإليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء وهو الذي اتهمت به » . فجاءت به كذلك . فقال النبي عليه السلام : لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن » .[1]

دكتور علي عبد الواحد وافي

(١) انظر الحديث في صحيح البخاري « أم الولد » وهو مروي عن الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة .

(١) أنظر تفصيل ذلك في تفسير ابن كثير لآيات الملاعنة في أول سورة النور .

يقظة التفكير الأوربي على صوت ابن رشد

للأستاذ محمد رجب البيومي

الفلسفة أسلوب ومنهج قبل أن تكون معارف وكليات، فذو الفلسفة عميق الفكرة بارع التحليل يسبر الأغوار، ويرصد الأبعاد والأطوال، لذلك كان أصحاب الفلسفة ممن يمارسون الأدب على جانب قوى من البصيرة والنفاذ، يصدرون عن أصالة حية، ويتجهون بأفكارهم الخصبة وجهات سديدة صائبة، وقد أورثوا الأدب فى شتى فنونه المختلفة من مقالة وقصة، ورسالة، وملحمة، وقصيدة دسامة قوية حية فوجهوا الأدباء الخلص إلى العمق والإحاطة، والاستشفاف، والاحتكام إلى موازين دقيقة فى المقدمات والنتائج، أما الفلاسفة الأدباء ممن رزقوا روح الفنان، وعقل الحكيم، فقد جاءت كتاباتهم نمطا رفيعا من الإبداع. فمقالات (بيكون) الأدبية تجمع بين العمق الفلسفى، والخيال الأدبى جمعا رائعا يدهش القارئ ويروعه! وأسلوب فولتير ذو سحر رائع لا يقاوم، لأن الفلسفة الصائبة تحيط به من أقطاره وتوطىء له الدعائم والأسناد، ولولا نصيب وافر من الفلسفة ما اقتعد ذروة الأدب فى تاريخ انجلترا المعاصر ومهما وجد لدى كتاب أوربا فى عصور النهضة من دسامة وقوة فمرجعه إلى تعاطى الفلسفة، والصدور عنها فيما يتناولون من بحوث!! لذلك لا نكون مبالغين حين نجزم بأن أسلوب الفلسفة فى البحث قد أكسب الأدب قوة حية جعلت رجاله زعماء نهضات، وأصحاب دعوات! ومن قل نصيبه منها فهو دون أصحابها استقامة سبيل واتساع أفق وارتفاع تحليق!

وحين نرصد مهاب الفلسفة على أوربا فى افتتاح عصر النهضة، نجد ابن رشد صاحب الصوت المجلجل فى إيقاظ الأسماع، وتنبيه الغافلين إلى أساليب الفلسفة، ومناهجها فى البحث والدراسة، ثم يأخذنا العجب كل العجب إذ نرى هذا الفيلسوف الأندلسى المسلم لا يجد حوارييه فى أبناء لغته ودينه من المشارقة، ولكنه يجدهم فى اليهود من أطباء وأحبار وفى المسيحيين من أباطرة وأساتذة وكهنة، وهؤلاء هم الذين نقلوا كتبه وشروحه

وترجموا أفكاره وبحوثه ، فهدتهم إلى مفاتيح الثروة الفكرية الخالدة وأصبحوا بها أغنياء مترفين !

قدر على ابن رشد أن يأتى بعد الغزالى ، ليرى نجاحه الساحق فى هدم الفلسفة بالمشرق حيث حاربها أبو حامد محاربة مكتسحة طاغية ؛ حاربها بأسلحتها المنطقية بعد أن خبرها ووقف على ما ظنه مقاتل مبيدة ، وقد قسم الفلاسفة إلى طوائف مختلفة ، فطائفة جحدت الصانع وقالت بقدم العالم ، وطائفة أنكرت البعث وما يعقبه من ثواب وعقاب ، وآخرون توغلوا فى دراسة الرياضيات والطبيعيات والمنطقيات والإلهيات ، فأصابوا مرة وأخطئوا مرات ! وقد اختلط الخطأ لديهم بالصواب اختلاطا لا يثمر غير التخبط والارتكاس ثم مضى ينقض براهين الفلاسفة بأمثالها مستعينا بالأقيسة والحجج العقلية تارة ، وبالأدلة الشرعية من نصوص قرآنية ، وأحاديث نبوية تارة أخرى ، ناهجا نهج علماء الكلام فى الرد والتوهين ، وأعلن فى النهاية فقدان الثقة بأقيسة المنطق وبراهين الفلسفة ورأى فى التصوف منجاة الحائر ، وملجأ المسترشد ، إذ يدرك به من الاطمئنان النفسى ما لا يدرك بالحجج والأقيسة :

وكان تصوف الغزالى تصوفا معتدلا بعيداً عن مغالاة النظريين من ذوى الشطحات وقريباً من منهج الصحابة فى الزهد والخشوع والتواضع فوافق أهواء الناس لعهده . فاعتنقوه عن إخلاص ورغبة ، ونفروا من الفلسفة نفوراً جعلها مدعاة الزندقة وباب الإلحاد وقد حاول ابن رشد أن يعيد الفلسفة مقامها لدى المسلمين بعد أن تساقطت مترنحة تحت ضربات الغزالى فألف كتابه تهافت التهافت يرد به على كتاب الغزالى الشهير تهافت الفلاسفة ، وقد قال فى مقدمته : « إن تعرض أبى حامد إلى مثل هذه الأشياء على هذا النحو لا يليق بمثله لأنه لا يخلو من أحد أمرين : إما أنه فهم هذه الأشياء على حقائقها ثم ساقها على غير وجهها وهذا فعل الأشرار ، وإما أنه لم يفهمها على حقيقتها فتعرض للقول فيما لم يحط به علما وهذا من فعل الجهال ، والرجل يجل عندنا عن هذين الوصفين ، ولكن لابد للجواد من كبوة » ثم مضى يناقش أبا حامد فى كل ما تعرض له ! ولكن كتاب ابن رشد عن الغزالى لم يجد من يقرؤه فى الشرق ، وظلت آراء الغزالى فى الفلسفة راسخة لا تتزعزع ! حتى مطلع القرن العشرين إذ نقل الأستاذ فرح انطون فلسفة ابن رشد إلى قراء العرب مترجمة عن (رينان) ! فبدأ الفيلسوف الأندلسى يأخذ مكانه لدى أبناء لغته ودينه ! أما أثره البعيد فى التفكير الأوربى بعامة منذ فارق الحياة

فهو ما نحاول أن نجلوه فى هذه السطور لنرى كيف دق الأجراس المرنة فى عالم نائم غافل فلقظت المضاجع على رناته المجلجلة جنوب النائمين !

لقد جاء دور ابن رشد فى المعترك الفلسفى بعد أن تقدمه فى الشرق أفذاذ نوابغ من أمثال الكندى وابن سينا والفارابى وإخوان الصفاء ممن أسهموا فى البناء الفلسفى إسهاماً تردد صداه فى كل مكان حتى وصل إلى الأندلس فأنتج بها فلاسفة حكماء من أمثال : ابن باجه وابن طفيل وابن زهر وكأن الأقدار قد جعلت ابن رشد خاتمة هؤلاء ليستطيع أن يقرأ ما كتبه سابقوه قراءة الفاحص الناقد ثم يضع النتائج النهائية لدراسته المتأملة ! وهو بعد صاحب ذهن فلسفى بعيد المطارح ، وقد عشق أوسطو عشقا تمكن من نفسه وسيطر على نزعاته حتى عده المثل الأعلى للفكر فى الحياة بل ارتقى به من الحدود البشرية إلى أن صار فى اعتباره المفكر الإلهى ، وقد قال عنه فى مقدمة كتابه : (عن الطبيعيات إنه أعقل أهل اليونان وواضع علوم المنطق والطبيعيات وما وراء الطبيعة إذ أن جميع من أتوا بعده من الفلاسفة لم يستطيعوا أن يزيدوا شيئا عما وضع أو أن ينقدوا قضية وصل إليها) ثم قال : « فلا ريب فى أن اجتماع هذا العلم فى إنسان واحد أمر عجيب يوجب تسميته ملكا إلهيا لا بشراً ولذلك كان القدماء يسمونه أوسطو الإلهى » !

وقد دفعه هذا التقدير البالغ إلى شرح أكثر ما كتب أرسطو من المؤلفات شروحا مختلفة منها الوجيز والمتوسط والمبسوط ، وإذا كان ابن سينا قد خالف أرسطو فى كثير من قضاياه فإن ابن رشد قد هاجم مخالفيه ، ووقف وقفات حاسمـــة أمام ما عورض به وأصبح فى نظر التاريخ الفلسفى الشارح الأكبر لفيلسوف اليونان ، وتعرض إلى محن كثيرة من لجاجات العامة حتى نفى إلى غير موطنه ، وطرد من المسجد حين أمه للصلاة ، ولكنه لم يتخل عن منهجه الفلسفى بل شغل وقته بالشرح والدراسة حتى هيأت له الأسباب من نقل شروحه وآرائه إلى اللاتينية ، لتكون مصباحاً هاديا ينير الدواسات الفلسفية . ويبرز أرسطو فى وضع جديد !

ولا يمكننا أن نحدد أثر ابن رشد فى إنهاض الفكر الفلسفى بأوربا إلا حين نعرف حال الفلسفة فى القرون الوسطى قبل ابن رشد ، فقد تأكد لدى بعض الأفهام أن الفكر الأغريقى قد زحف إلى أوربا الغربية مع الزحف الرومانى وأن العرب بناء على ذلك لم يضيفوا شيئا ذا بال إلى الفلسفة

الإغريقية إذ أن ترجمات ابن رشد وشروحه لم تأت بجديد حين نقلت إلى اللاتينية ، بل كانت نسخا مكرورة للذائع المشتهر ، وهذا خطأ ظالم مغرض ، لأن الباحث فى تاريخ أوربا خلال العصر الوسيط يرى أن الكنيسة كانت تدرس الفلسفة الأغريقية من خلال المعتقدات المسيحية فهى تدور بها فى مجال العقيدة لتؤيد ما لديها من نصوص حتى ليخيل لقارئ هذه الفلسفة أن أرسطو وأفلاطون وأضرابهما قد وجدوا بعد المسيح ليؤيدوا تعاليمه ويجروا فى فلكه ، وقد حظر البحث عن أى حل من الحلول الفكرية لا يلائم النصوص ولا يسير وراءها شبرا بشبر ، وإذا كان الفيلسوف (سانت أوجوستان) قد فطن إلى التناقض الصريح بين مسائل الفلسفة الأغريقية والدين المسيحى فإنه لم يعلن ذلك صريحا كما ارتآه بل جعل يوفق بين الآراء فى أسلوب متكلف ينادى بالافتعال وكان خيرا له أن يعلن أن الفلسفة الإغريقية شىء آخر غير تعاليم المسيح ! بل إن المسيح لن يكون صاحب رسالة كبيرة إذا كان جميع ما أتى به موافقا لما سبق أن حكم به أرسطو وأفلاطون وإذا كانت الفلسفة الإغريقية تسير على هذا الوضع الكنسى فإن شروح ابن رشد وأضرابه لها قد فاجأت أوربا بالطريف ! ودفعت بالأنظار المتطلعة إلى أفق جديد .

وقد منيت الفلسفة الإسلامية باضطهاد أليم من الرأى الغربى العام ، إذ تواطأ أكثر الباحثين على أنها نقل وترديد لفلسفة الإغريق فهم يرددون ما عبر عنه (ألفريد جيوم) فى تراث الإسلام حين قال : « إن الشعوب الناطقة بالضاد لم تفعل شيئا أكثر من أنها استولت على الفلسفة اليونانية التى كانت شائعة بين المسيحيين من أهل سوريا والمثقفين من أهل حران والوثنيين ، ثم أضافت إليها بعض عناصر استمدتها من فارس أو الهند وإن من الحق أن نرد الفلسفة العربية فى مادتها وصورتها وغايتها إلى حضارة البلاد التى غزاها العرب وأن نعتبر الفلسفة اليونانية المعين الذى استقوا منه مذهبهم » .

وقريب منه قول (أرنست رينان) : « ومن عجائب القدر أن هذا الجنس السامى الذى استطاع أن يطبع ما ابتدعه من الأديان بطابع القوة فى أسمى درجاتها لم يثمر أدق بحث فلسفى خاص وما كانت الفلسفة قط عند الساميين إلا اقتباساً صرفا جدباً وتقليداً للفلسفة اليونانية !! » .

إلى أمثال هذين الرأيين لعشرات الباحثين

مما تفيض به صفحات القوم ، دون إنصاف وتحقيق ، والردعليها واضح صريح لا يصتف بالباحث فى شعاب وعرة منقطعة تكتنفها الأشواك والصخور ، بل يدعوه إلى قراءة ما أنتجه فلاسفة الإسلام حين تمسكوا بحرية الفكر التى دعا إليها القرآن ونأوا عن التقليد الفاضح الذى عابه الإسلام فناقشوا فى علم الكلام ما يتعلق بالأزل والأبد وحرية الإرادة وأفعال العباد وقدرة الله ، مناقشة تعتمد على الدليل العقلى اعتماداً أساسياً فإذا استندت إلى النص فذلك استئناس لا استدلال وقد انتقلت مؤلفات أرسطو وأفلاطون إلى الأوربيين محاطة بالفكرة الإسلامية وبشروح المفكرين من أمثال ابن سينا والفارابى وابن رشد ! وبهذه الشروح أطل العالم الأوربى على نمط جديد غير مألوف ! واستيقظ من سباته ليرى موقفين متضادين: موقف الكنيسة حين تجعل العقيدة المسيحية مبدأ لكل بحث فلسفى ، وموقف فلاسفة الإسلام حين يحتكمون إلى المنطق بحججه وأقيسته مجرداً عن كل فكر سابق !! هذا الموقف الجرىء قد دفع بالفلسفة الإغريقية دفعة جديدة إذ طرد عنها شبح الكنيسة وأصبحت بشروح العرب ذات اتجاه جديد ! وإن كان من الفلاسفة الإسلاميين من خالفوا الجمهور فى بعض الأصول فذلك شىء طبيعى لا بد أن يتمخض عنه اختلاف العقول ، وتباين النظرات ، وهو مما يشير إلى الحرية التامة حين تكتسح القيود والأسوار .

نستطيع بعد هذه الإلمامة أن نتابع تأثير ابن رشد فى أوربا الغربية ، فنرى أنه برغم قلة تأثيره فى المشرق أو فقدان تأثيره على وجه التحديد إذ ذاك . قد نال أكبر شهرة عند اليهود باعتباره شارحا لكتب أرسطو فكانت شروحه تنقل إلى اللاتينية على أنها نصوص يقينية ، ومن أشهر مقدريه معاصره الشهير (موسى بن ميمون) إذ بذل أكبر جهد فى إنشاء مدرسة رشدية ونقل شروحه إلى العبرية واللاتينية ، غير أننا نرى (باريس) فى حياة ابن رشد تتأثر بالمناهج العربية إذ تصبح مركزاً للفلسفة المدرسية ثم تمتد بها الأيام فتصبح فى مطلع القرن الثالث عشر حومة جدل فلسفى ينهج نهج المسلمين، ويصل صداه إلى الدوائر الكنسية فتصدر قراراتها بتحريم الترجمات العربية والاكتفاء بالترجمات القديمة ، ومعنى ذلك أن تدور الفلسفة الارسطالية فى نطاق المسيحية من جديد ! وأن تبتعد شروح العرب ذات الفكر الاستقلالى والطابع الحر الفريد .

وكان من المصادفات أن يقبوأ فردريك الثانى امبراطورية صقلية سنة ١٢١٥ ، ومع اشتراكه فى بعض الحملات الصليبية إلى الشرق

فقد كان عدوا من صفوف الأصدقاء - إن جاز هذا التعبير - فقد اتصف بصفات رائعة قل أن تجتمع في إنسان فهو يجيد ست لغات وينظم الشعر، ويعجب بفنون التصوير والنحت والموسيقى ويؤلف في علوم الحيوان والطير ويشذ عن تقاليد الكنيسة فيميل إلى التسامح الديني ويجمع في بلاطه اليهودي والمسيحي والمسلم، وقد عشق الشرق فعاش عيشة رجاله يتكلم العربية، ويناقش مفكري العرب وينأى عن التعصب في جرأة وثورة، وكان شديد الإعجاب بفلاسفة المسلمين الذين يقرأ كتبهم في لغتها العربية، ويظهر عطفا كبيرا على أساليبهم في البحث والتفكير حتى تشيع لأكثر ما نادوا به من معتقدات بما اضطر (البابا) إلى تكفيره وإعلان مروقه، وقد أسس في سنة ١٢٢٤ جامعة (نابولي) وجعل مهمتها الأساسية أن تدفع العلم العربي إلى أوربا فوضعت المترجمات على يد أساتذتها من العربية إلى اللاتينية وانتدب بعض أساتذتها إلى زيارة طليطلة سنة ١٢١٧ لنقل شروح (ابن رشد) على كتب أرسطو وترجمتها.

وقد قام الأساتذة الموفدون برسالتهم وأعانهم على تحقيقها نفر من أحبار اليهود ممن تتلمذوا على آثار ابن رشد وهتفوا بفلسفته.

وقد عقد الأستاذ ديلاسي أوليري المستشرق الانجليزي فصلا طويلا عن أثر الفلسفة العربية في المدرسة اللاتينية بكتابه الشهير (الفكر العربي ومكانه في التاريخ)، ترجمة (الدكتور تمام حسان) تحدث فيه عن أثر الفلسفة الرشدية وأطوار تأثيرها حديثا مسلسلا يؤرخ خطوات هذا التأثير على مدى الأحقاب المتتالية حتى ينتهي بها إلى وضعها الراهن في الفلسفة الحديثة، فيذكر أن القرن الثالث عشر قد أكمل ترجمات آثار (ابن رشد) الفلسفية إلى اللاتينية جميعها.

وقد ذاعت على أيدي مؤيديه ومعارضيه جميعا، فالمؤيدون يبسطون ما قال الفيلسوف العربي، والمعارضون يحاولون تفنيد آرائه بعد أن يبسطوها بسطا واضحاً فتشتهر وتذيع، بل أن أحد هؤلاء المعارضين يضطر إلى نقل كتاب (تهافت الفلسفة) للغزالي محاولا أن يفحم به آراء (ابن رشد) وكأنه يعتصم بالأفكار الإسلامية حين أعوزه أن يثبت للرجل الكبير!

وقد التفت الأستاذ ديلاس اوليري إلى نقطة عجيبة حقا حين قال ص ٢٩٣ ترجمة الدكتور حسان: «وكأن ثمة حداً فاصلا بين ابن رشد الشارح الذي عومل باحترام كبير كشارح لنصوص أرسطو وبين

ابن رشد الفيلسوف الذى كانوا يعتبرونه ملحداً وتبدو المسألة كما لو كان ثمة سياسة متعمدة للوصول إلى أرسطو عن طريق التضحية بالشراح العرب » .

ومعنى هـــذا أن شروح ابن رشد على أرسطو مقبولة لأنها فى وجهة نظرهم تمثل الفيلسوف اليونانى ، أما آراؤه الخاصه فرفوضة لأنها تمثل الفيلسوف العربى ، وهذا الفهم على غضاضته الخلقية ودلالته النفسية خطىء مضحك ، لأن شروح ابن رشد لا تمثل أرسطو وحده ولكنها تمثله فى مرآة ابن رشد ، والفرق بعيد بينها وبين الترجمة ، إذ أن الترجمة نقل خالص ، أما الشرح فتفسير وتحليل وتعليل ، وكثيراً ما يفهم الشارح أقوال غيره من وجهة نظره فهو ذو شخصية واضحة منفصلة فى التصور والإدراك والتعليل ! !

فالذين يحترمون ابن رشد الشارح بحجة أنهم يبحثون عن أرسطو قبل كل شىء قد أخطأهم السبيل ، وهم فى حاجة إلى من يقول لهم لقد فرض عليكم الشارح نفسه مفكراً وفيلسوفا وهذا ما تحذرون ! !

أما إذا كانت هناك سياسة متعمدة للوصول إلى أرسطو عن طريق التضحية بالشراح العرب فإن هذه السياسة لم تتحقق على وجهها المنشود لأن هؤلاء الباحثين عن أرسطو لم يتح لهم أن يجدوه من غير طريق العرب ! حتى أنهم حين عثروا بعد ذلك على النصوص الأغريقية الأولى فى لغتها اليونانية لم يستطيعوا فهمها إلا بالشروح العربية مقارنة وتحليلا إلى أن مضت مدة طويلة فهمت فيها هذه النصوص الأغريقية فهما تنوسى معــــه ما ساعد على توضيحه من شروح ابن رشد !

* * *

والذين يتحدثون عن أثر الأندلس فى اليقظة الأوربية فى غير مجال الفلسفة من المجالات الحضارية والفنية لا يواجهون صعوبة كبيرة فى توضيح دورها الكبير حيث تبدو الحقائق سافرة غير ملتبسة ، ولكنهم حين يتحدثون عن أثر الأندلس فى مجال الفلسفة يجدون من يلبسون عليهم القول متعللين بأن قصارى جهد . فلاسفة الإسلام أنهم تراجمة ناقلون ، أو شراح مفسرون أو هم يتعمدون إخفاء ما يعرفونه من الحقائق فى فلسفة الإســـلام إذ أن أسلوب مفكريه فى البحث الفلسفى قد تميز فى علم الكلام تميزاً يصعب إنكاره ، فهو إسلامى الوجهة والروح والمشرب ، وإن اصطنع سبيل الفلسفة فى البرهنة والاستدلال فذلك مما يمس الشكل الخارجى فى ترتيب الجدل ومسائله .

أما حقائقه الجوهرية فإسلامية خالصة جاء بها دين يرتكز على العقل ويدعو إلى الحرية والتفكير فى ملكوت السموات والأرض ، وقد استطاع الأستاذ (ت . ج . ديور) مؤلف تاريخ الفلسفة فى الإسلام أن ينصف المسلمين بعض الإنصاف حين تعرض لتحديد ما سماه فضل المسلمين على الفلسفة النصرانيـــة فى العصور الوسطى فقال فى ص ٢٨٦ نقلا عن ترجمة الدكتور أبى ريدة :

« أما أهم أثر للعرب فهو أن النصارى بعد قراءتهم لمؤلفات العرب ولا سيما ابن رشد صاروا يرون فى نظريات أرسطو رأيا خاصا فاعتبروها الحقيقة العليا ، ولم يكن بد من أن يقضى هذا ، إلى تصادم بين علوم العقائد والفلسفة أو إلى إحراج بينهما بل كاد يؤدى إلى إنكار العقائد الكنسية وإذن فقد كان تأثير الفلسفة الإسلامية على تطور العقائد الكنسية فى العصور الوسطى حافزاً من ناحية وعاملا على الهدم من ناحية أخرى ، لأن علم الكلام والفلسفة لم يستطيعا أن يسيرا فى العالم النصرانى مستقلين كل على جادته لا يتعرض لصاحبه كما قد حدث عند مفكرى الإسلام ثم أن علوم العقائد النصرانية كانت فى القرون الأولى من نشوئها قد أفرطت فى أخذ الفلسفة اليونانية حتى أصبح الانفصال بين الدين والفلسفة غير ممكن بل كانت تستطيع فوق هذا أن تهضم أشياء قليلة أخرى وكان هضم الفلسفة اليونانية أسهل على العقائد الإسلامية البسيطة التى ليس فيها كثير من الآراء الفلسفية منه على العقائد النصرانية المركبة بما فيها من فلسفة .. الخ » .

وهكذا كان انتشار الفلسفة الإغريقية على يد العرب ترجمة وشرحا وتعليقا تمهيداً لقيام النهضة فى النصف الأخير من القرن الخامس عشر إذ بدأت الفلسفة تؤتى ثمارها فتوجه العقل الأوربى توجيها جديدا يستند إلى حرية الفكر ، وشعور الإنسان لشخصيته واقتـــداره على التفكير الذاتى مستقلا عن غيره ، وقد ذهب فى هذه الحرية إلى أبعد مدى حتى تصدى لفلسفة أرسطو نفسها فنقدها وكشف عن ثلومها ! واهتدى إلى فلسفة حديثه أنتجت مفكرين قادة وفلاسفة مصلحين ، وانتقلت بضوابطها وأهدافها إلى الأدب الخالص فبسطت آفاقه وعمقت مجراه ، وجعلته وليد تأمل دقيق وتحليل نافذ كشاف .

محمد رجب البيومى
المدرس الأول بدار المعلمات بالفيوم

اتجاهات الثقافة فى الشرق العربى

للأستاذ محمود فرج العقدة

إن من المسلم به أن كل إنسان مسئول بفطرته ووجدانه - إن كان ذا فطرة مستقيمة ووجدان سليم - عن سعادة المجتمع الذى يعيش فيه ، ويدين له بحاضره وماضيه . بل عن سعادة البشرية جمعاء - إن وجد إلى ذلك من سبيل وبدهى أن ذلك إنما هو بعد مسئوليته عن إسعاد نفسه فى دنياه وآخرته - إن كان يتصور أن بين السعادتين شيئاً من الانفصال ، إذ أن كل واحدة منهما عند التأمل الصادق ، والنظر القويم إنما هى انعكاس للأخرى أو أثرها حتى كأنهما شىء واحد أو أمر سواء .

ولا سبيل لتحصيل السعادة كالعلم ، بل لا سبيل لها سواه ، وكيف لا وهو الميزة الظاهرة للإنسان على ما سواه حتى لقد جعله الله حجة على ملائكته فى استخلاف الإنسان فى الأرض كما قص علينا نبأ ذلك فى كتابه إذ يقول : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، إلى قوله : قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (١) !!

وبالهدى والعلم أرسل المرسلون ، وقام الدعاة والمرشدون ، ومضى على سنتهم المصلحون .

وقد خالط العلم فى القديم والحديث فنون من الجدليات والأوهام موه بها على الناس الحق أقوام يجادلون فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وإنه لمن أوجب الواجبات علينا معشر المربين أن ننفى هذه الجدليات والأوهام عن ساحات العلم قبل أن تعصف بالبقية الباقية من عقول الناشئة ، أو أن تأتى عليها إتيان النار على الهشيم .

ومن الحق علينا لهذا الشرق العربى أن لا نشغل ناشئته التى هى معقد الأمل ومناط الرجاء إلا بما هو أشبه العلوم به ، وأوفقها له ، وأهداها إلى سبله ، وأبلغها تأثراً به ، وتأثيراً فيه . وأول ما يلفت النظر من ذلك أنه مجتمع روحى المذاهب والمشارب ، سماوى الشمائل والمشاعر ، ليس عنده من الجنوح إلى المادة ، ولا الجموح مع الباطل ما عند غيره من عباد المادة المسرفين ، وأشياع الباطل المفرطين ، وليس من خلقه أن يتخلى فى سهولة ويسر عن هذه الشيم والمكارم ، والمآثر والشمائل التى توارثها

(١) سورة البقرة الآيات ٣٠ إلى ٣٢ .

من آبائه الميامين وأسلافه الماجدين ، وبهذا نستطيع أن نعود به تارة أخرى إلى أمجاده الأولى يوم غمر الآفاق بباهر سناه الذى بدد الظلمات ، ومحا الجهالات ، ووصل ما انقطع بين الأرض والسموات .

فهذا الشرق العربى محتاج منا دائما لتستقيم له الحياة — إلى الإمداد والإسعاد بالغذاء الروحى الذى يغذو قلبه ، ويروى ظمأه ، ويذكى مشاعره ، ويجلو بصائره ، وينير له سبله إلى كل مايصبو إليه بفطرته من مثل وما يهدف إليه من غايات .

وليس سوى التعليم الدينى الخالص من غذاء ورى لهذه القلوب وتلك الأرواح ؛ وإن حرمانها من ذلك ، أو شىء منه إنما هو كحرمان الأرض الطيبة من الغيث ، أو الروض النضير من الطل ، أو السماء الصافية من الضياء .

ولا نقصد بالتعليم الدينى ما يجرى مجرى الحفظ والتلقين بلا تدبر ولا وعى ، وحاشانا بعد ما عرفنا من آيات الله الحاثة على النظر والاعتبار ، والتأمل والادكار لمعرفة آيات الله فى خلقه ، وسنته فى كونه ، وآثار رحمته على عباده ، ومظاهر قدرته وإبداعه ؛ لنستكمل بذلك ديننا ، ونستتم به مقوماتنا ، ولنكون بعد ذلك أهلا للدعوة إلى الله على بصيرة وبينة ، وقادة للبشرية إلى سعادة الدنيا والآخرة ؛ وكيف نفهم أن التعليم الدينى مجرد تحصيل وتلقين ، وكتاب الله لا يزال يدعونا إلى التأمل البعيد فى ملكوت السموات والأرض ، والنظر السديد فيما خلق الله من شىء بمثل قوله جل شأنه : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون (١) » ، وبمثل قوله : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء (٢) » ، وبمثل قوله : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق (٣) » ، إلى أن يحض على النظر فى أحوال النفس ، وما فيها من عجائب الخلق إذ يقول : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون (٤) » ، وإنى لأرى أن الحض على إعمال النظر فى دلائل وجود الله وقدرته فى هذه الآثار حض صريح على الأخذ بما يعين عليها من شتى العلوم الكونية والطبيعية ؛ بل أرى أن هذه النظرات الصادقات فيما لله فى كونه من من شواهد وآيات هى أبين تفسير لكتاب

(١) سورة البقرة آية ١٦٤ .
(٢) سورة الأعراف آية ١٨٥ .
(٣) سورة العنكبوت آية ٢٠ .
(٤) سورة الذاريات آية ٢١ .

الله العظيم ، وأقوى برهان على أنه من عند الله رب العالمين ، وأعظم هاد بعده إلى مبدع الكائنات ، وفاطر الأرض والسموات .

وفى كل تحريكة ... وتسكينة فى الورى شاهد
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

ولقد سمعت ممن أدرك الإمام الشيخ محمد عبده من شيوخ شيوخنا رحمهم الله - أنه رأى بعض علماء الكونيات من الألمان يخر مغشيا عليه إذا ذكر أمامه اسم الله - جل شأنه - وذلك يوشك أن يكون مصداقا لقوله تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » فإن سياق الآية يشير إلى أن العلم بآثار قدرة الله يؤدى إلى تلك الحال ؛ فإن هذا السياق هو قوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ... (١) » .

أما ثانى ما يلفت النظر ، وينبغى أن يكون موضع العناية والاهتمام فى هذا الشرق العربى فهو هذه العلوم الطبيعية التى تفرضها علينا أسباب الحياة والسلامة ، والقوة والمنعة فى بيئتنا التى ظاهرها العسر والجدب ، وباطنها اليسر والرخاء ، بل الأمل والرجاء ؛ فإن معظم كنوزها لا يزال بكرا لم يفتض ، وعروسا لم يكتب لها الجلاء ؛ وباكتشاف هذه الكنوز بأيدينا ، واستخراجها بسواعدنا نستطيع أن نسعد فى بلادنا كل شقى ، ونطعم كل جائع ، ونسد حاجة كل محتاج ؛ بل نستطيع ما هو أعلى من ذلك وأغلى ، وهو أن ندفع بوثبتنا العربية الناهضة إلى مكان الصدارة فى العالمين ، كما كان ذلك شأننا يوم استخلفنا الله فى الأرض كما وعدنا فى كتابه إذ يقول : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » ويوم جعل لنا السناء والرفعة فيها مصداقا لبشارة نبيه صلى الله عليه وسلم إذ يقول لبعض أصحابه : « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والتمكين فى الأرض » . فنحن إذن فى أمس الحاجة إلى دراسات عملية بحتة بعد الدراسات الروحية الحقة ، يوجه إليها جميع شبابنا الأكفاء فى شئون استخراج المعادن ، واكتشاف المناجم ، وإدارة المصانع ، وصناعة الآلات ومن الظلم الفادح لمستقبل هذا الشرق العربى وهو لم تندمل جراحه بعد من آثار مخالب الاستعمار أن تصرف همم أبنائه ومواهبهم إلى أنواع من الدراسات الأجنبية فلسفية أو أدبية لا تتصل بقوميته ، ولا تتجاوب مع

(١) سورة فاطر آية ٢٧ و ٢٨ .

مشاعره ، ولا تنمى من فضائله ، ولا تعينه على الانتفاع بكنوزه وذخائره ، ولا تذكره بأمجاده ومآثره ، ولا تجمله فى منعة عقلية أو روحية من حبائل الاستعمار ومكايده ، وشراكه ومصايده . وإنى لأتساءل متعجبا ما وجه الحاجة إلى هذه الفلسفات الأجنبية ، أو مذاهب النقد الأوروبية التى تلقى بأوزارها وأثقالها على كواهل مبادئنا الروحية وآدابنا العربية القومية ؟ وأى لغو وعبث بعد هذا نفنى فيه أوقات أبنائنا وعقولهم ، ونضيع فيه مواهبهم ، واستعداداتهم فى زمن أصبح تاريخ الأمم يكتب فيه بالأيام لا بالأعوام ، وبالشهور لا بالعصور ، وأصبحت القوة فيه أثرا من آثار الابتكار والاختراع ، ومظهرا من مظاهر الثراء والرخاء ، وأصبح فيه أمل الإنسانية فى البقاء منوطا بالإيمان بمن بيده وحده أن يكف البشرية عن نفسها ، ويحول بين سكان الأرض وبين ختم تاريخها ، وطمس معالم الحياة فيها ؟ ! وهو على ما يشاء قدير ؟

محمود فرج العقدة

المدرس بجامعة الأزهر

لسان حال اللغة العربية

وسعت كتاب الله لفظـــا وغاية ... وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنســيق أسماء لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفات

حافظ إبراهيم

ومن أضاع تراثا من أبوته ... لم يستفد من سواهم قدر ما فقدا

أحمد الزين

نهضة العالم الإسلامي

للدكتور محمد مختار القاضي

يحضرني وأنا أكتب هذا المقال قصة وردت في كتاب كليلة ودمنة ، في باب الحمامة والثعلب ، ومالك الحزين .

ومؤدى هذه القصة : أن حمامة كانت تفرخ في رأس شجرة ، حتى إذا كبر فراخها ، صار يأتيها ثعلب فيقف في أصل الشجرة ، ثم يصيح بها ويتوعدها لتلقي إليه فراخها فتلقيها ، خشية أن يصعد إليها فيأكل فراخها ، ويأكلها هي أيضا . وفي ذات يوم شكت إلى مالك الحزين ما هي فيه ، فنصحها بألا تلقي فراخها للثعلب ، فإذا صعد إليها ، ولن يصعد أبدا ، طارت هي ناجية بنفسها ، وخلفت فراخها للثعلب ، ولن تخسر شيئا ، ففراخها مأكولة على كل حال . فلما أخبر الثعلب بمقالة مالك ، لم يستطع أن يصعد ، وأمنت الحمامة ، وفراخها بقية أيام حياتها .

هذا بعض ماورد في كتاب كليلة ودمنة ، وهو قول ينطبق على قصة العالم الإسلامي وصلته بالعالم الغـــربي الذي استغل المسلمين واستعمر بلادهم أكثر من قرن من الزمان .

لقد استغل الأوروبيون العالم الإسلامي وسخروه لمصالحهم المادية إلى أن أصبح حطاما ، وعظاما نخرة ، حتى إذا ما هم برفع رأسه هددوه بالحديد والنار والخراب والدمار .

وكان هذا العالم الإسلامي يخشى سطوة العالم الغربي وحده وناره ويحسب ألف حساب لتهديده ووعيده .

وكان زعماء المسلمين المخلصين في حاجة إلى رأي مالك الحزين ليكشف لهم عن حقيقة قوة الثعلب الغربي ، ويقنعهم بأن هذه القوة ليست سوى تهديدات لا تضر ولا تنفع .

وانتظر العالم الإسلامي زمنا طويلا دون جدوى ، ولا طائل . إلى أن أعلن الرئيس العربي جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس ، وأعلن الفرسان الثلاثة حرب بور سعيد سنة ١٩٥٦ وما صحبه ذلك من استيلاء مصر على القاعدة البريطانية ، وبذلك قطع ذيل الأسد البريطاني فولى هاربا إلى غير رجعة ، منسحبا من مصر ومن ورائه المروضة الفرنسية ، واللبؤة الإسرائيلية .

لقد كان هذا التاريخ نهاية عهد غامض ، تكتنفه الرهبة والفزع من ذلك الأسد الذي

كان الاستعمار الأوربى يخيف به الجانب الشرقى من الكرة الأرضية عامة ، والوطن العربى الإسلامى خاصة .

وكان هذا التاريخ نفسه بداية عهد جديد انكشفت فيه حقيقة التهديدات الغربية فأصبحت سافرة للعيان ، لا غموض فيها ولا لبس ، وانكشفت ألاعيب الاستعمار الغربى فلم تصبح لغزا فى نظر الشرق ، ولا معجزة من عند الله .

فإلى هذا التاريخ كان الناس جميعا يعتقدون أن تحت القبة الغربية شيخا باتعا سره ، نافذا أمره فى جميع منطقة الشرقين : الأوسط والأقصى وأن هذا الشيخ إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون .

وكانت هذه العقيدة راسخة فى عقول الناس كالطود الثابت ، تأخذ عليهم جميع تفكيرهم ثم تنتهى بهم إلى اليأس القاتل .

وكان هذا الشيخ الغربى يعوذ نفسه تارة بالإنذارات الصارمة ، وتارة أخرى بتحركات الأساطيل فى البحرين ، وثالثة بأزيز الطائرات فى السماء الصافية فى البلاد العربية والإسلامية فترجف قلوب النساء والأطفال ، وتهتز عروش الأمراء والملوك حذر الموت ، أو الحرمان أو الطرد وما شابه ذلك :

ولكن حرب بور سعيد أثبتت للعالم الشرقى عامة ، والعربى الإسلامى خاصة أن هذا الشيخ كان رجلا صاحب دجل ، ونصابا ذا حيل ، وأنه كان يركب الأسد ليخيف به الناس ، وهو أشد منهم خوفا ورعبا ، فما أن انقطع ذيل الأسد حتى هرب ملقيا بأصحابه فى الرغام ، وما أن ظهرت للناس حقيقة قوتهم حتى بدءوا يتألبون عليهم دولة فى إثر دولة وشعبا فى إثر شعب .

فهذا الانجليزى إيدن الذى أسقط ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية قد لقى مصرعه السياسى على يد الرئيس العربى جمال عبد الناصر .

وهذا ديجول الذى كان له شرف احتلال ألمانيا فى الحرب ذاتها ، فقد شرفه العسكرى عندما فقد درة الامبراطورية الفرنسية والجزائر ، على يد أحمد بن بيلا .

ولست أريد أن أعدد ما فقده الانجليز والفرنسيون من مستعمراتهم الإسلامية ، فهذا يريد وقتا أطول وورقا أكثر مما تستوعبه هذه الصحيفة ، ولكنى أريد أن أقول : إنه إينما تولوا فثم وجه من أوجه النهضة الإسلامية .

لقد انقشع كابوس الإستعمار ، وما بقى إلا أن يتعقب أهل هذا الوطن فلوله المتناثرة وجيوبه المستترة ، وأن يشدوا على رقبته وأن يأخذوه أخذ عزيز مقتدر .

وقد بدأ ذلك يحدث فعلا ، وإن هذه

المؤتمرات التى تعقد فى الوطن الإسلامى لدليل على أن القوم عندنا قد غيروا ما بأنفسهم ، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ودليل على اقتناع العالم العربى الإسلامى أن التهديد الذى كان يقع على رءوسهم، وعروشهم كان تهديداً لا يخفى تحته قوة حقيقية متساندة الأركان ، وإنما كان مجرد ألعاب سحرية لا تبهر إلا الأطفال أثناء طفولتهم ، فلما كبروا عرفوا أن قوة الساحر ليست مستمدة من قوة إنس ولا جان ، وإنما هى خفة يد لم تلبث أن تبينت تحت الفحص الدقيق .

من كان يعتقد أن العالم العربى يجتمع بملوكه ورؤسائه أكثر من مرة ليرسم طرق الدفاع عن الكيان العربى ، وينفذها على الفور متحدياً أكبر الدول الاستعمارية فى العالم الغربى ؟ ماذا تغير فى العالم العربى ؟ أنا لا أعتقد أن قوتنا العسكرية قد وصلت أو قاربت القوة العسكرية لحلف الأطلنطى ، ولكن الذى تغير هو طريقة التفكير التى أدت بنا إلى كشف الأفكار الخاطئة عندنا وعند خصومنا

أما عندنا فقد انتهينا إلى كشف سر نجاح الشعوب ، إنه لا يكمن فى القوة العسكرية وحدها ، ولكن للنجاح طرقا أخرى غير القوة العسكرية .

إننا نملك موارد ، وطرقا برية وبحرية وجوية يحتاج العالم الغربى أن يتحالف مع أصحابها ليظفر بالأمن والدعة ، وإن حسن استغلال هذه الموارد والسيطرة عليها يعطينا من القوة أكبر مما تعطى القنبلة الذرية والهيدروجينية ، والميكروبية ، وقنبلة الكوبلت معا ، ذلك بأن وسائلنا هى للبناء والإنشاء ، ووسائلهم للهدم والدمار .

وأما عندهم فقد كشفنا أنهم ـ وإن سموا نفسهم حلفاء فى الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية ـ فإنهم لا يملكون من صفة الحلفاء إلا مظاهر مؤقتة تدفعهم إليها الحاجة عند الحروب الكبرى ، فإذا انتهت الحرب عاد الحلفاء أعداء يتربص بعضهم بالبعض ، ويكيد بعضهم لبعض وقد رسم لهم هذه السياسة ماكيافيلى منذ أكثر من قرن فى كتابه الأمير .

ولم يكن ماكيافيلى هذا مجتهداً ، ولا مجدداً وإنما كان مؤكداً لأخلاق سبقت ، وعادات عرفت منذ الحروب الصليبية ، وإن هذه المدنية الغربية التى تفخر بالكهرباء والذرة وإخضاع البر والبحر والجو ، تعجز فى الحقيقة عن تحقيق شىء من المثل العليا .

فالاستعمار ذاته هو أكبر عار فى جبين المدنية الغربية ، وهذه الحروب العالمية فى كل ربع قرن ، والحروب المحلية الدائمة أكبر دليل على الوحشية الغربية ، وهذا

التمييز العنصرى الذى تجده فى أكبر الدول الداعية إلى المساواة ، والمتبنية لحقوق الإنسان أكبر مظهر من مظاهر الردة إلى البربرية القديمة .

ما أعتقد أن هذه المدنية الزائفة سوف يطول عمرها ، إنها قد قاربت الشيخوخة وإن تجملت بالأصبغة، والمساحيق، والحقن لتظهر أمام العالم بمظهر الشباب . والشباب ولى إلى غير رجعة .

سوف يتقهقر العالم المادى لأن رسالته فى الحقيقة لا تصلح لإقامة حياة سعيدة .

وهنا يجب أن يتهيأ العالم الروحى ؛ ليقود ركب الحضارة ، وينير الطريق أمام بنى الإنسان وإن القيم الروحية النابضة بالحياة لا تجدها إلا فى الجانب الشرقى من هذا العالم ، وهى قيم لا تزال سليمة لم يداخلها زيف ، ولا دنس ولم يلوثها وجس المادة وأوزارها .

لقد بدأت هذه القيم الروحية دورها وهى الآن تتجمع وتشتد وتتكتل ، وعندما تصل إلى منتهاها سوف تنقض لتقود البشرية التى امتهنها العالم الغربى قرونا منذ أن تسلم قيادتها من العالم الإسلامى أواخر العصور الوسطى ، فلم يحسن هذه القيادة وألقى بالبشرية فى حالة من الاضطراب والقلق تدعو إلى الأسف المرير .

دكتور محمد مختار القاضى

مصر والقضية العربية

سألنى فنان صهيونى : لماذا يهتم المصريون بمشاكل العرب... ؟

فاستغربت سؤاله ، ولم أكتمه أنه سؤال غريب ، فعاد يسأل : وما وجه الغرابة فيه . ؟

قلت : وجه الغرابة فيه أنك تنتظر الاهتمام من يهود أمريكا بجماعة الوطن القومى فى فلسطين ، وتحسبه من الأمور الطبيعية التى لا تحتمل السؤال والاستفسار ولكنك تستغرب من العرب المتجاورين أن يهتم بعضهم ببعض ، وهم مضطرون إلى هذا الاهتمام ؟

عباس محمود العقاد

ليلة الإسراء والمعراج

للأستاذ احمد حنفي نصار

أراد الله العلى الكبير أن يمنح رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم من واسع فضله وأن يكرمه بمشهد من علية خلقه فكانت الليلة المشهودة ، وهى ليلة الإسراء والمعراج . وقد وقعت للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو فى السنة الحادية والخمسين من عمره المبارك ، قبل هجرته عليه السلام بنحو ثلاث سنين .

وكأن الله الذى عصمه ورعاه ، أراد أن يخفف عنه المتاعب النفسية التى خلفتها الأعباء الجسام التى ناء بها أكثر من عشر سنين ، وهو يواجه قومه برسالة ربه مع عنتهم ولجاجهم العنيف ، وأن يشرح صدره ويزيده قوة روحية ، وثباتا نفسيا ، ولكى يعلنه بما يدله على قدره عنده ، ومكانته العالية لديه ، فتطيب نفسه ، ويطمئن قلبه بما يرى من آيات ربه الكبرى .

أسرى به الله ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فجاءه جبريل عليه السلام ومعه البراق ؛ ليكون مطية الرسول صلى الله عليه وسلم فى ليلته الغراء - وهو دابة ، أبيض فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى بصره - فركب الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وجبريل عليه السلام من حوله فى سفرته . فرأى فى مسراه من آيات ربه ما رأى ، حتى وصل إلى المسجد الأقصى المبارك فنزل عنده ، ثم دخل المسجد حيث جمع الله له إخوانه الأنبياء ، وقدمه جبريل عليه السلام عليهم فصلى بهم إماما ، ولا عجب فهو المحتفى به وهو خاتمهم ، وأكرمهم على الله فى الدنيا والآخرة ، وصاحب الشريعة القائمة العامة . الكاملة الدائمة . وأمته خير أمة أخرجت للناس .

وإذا كان الله قد كلم موسى عليه السلام فقد كان موسى فى أرض سيناء على جبل الطور عند المناجاة ، ولم يرق إلى السماء ولما طلب الرؤية أخبره الله بأنه لن يراه كما يفهم من قوله تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر

مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ».

وإذا كان عيسى عليه السلام قد طلب مائدة تنزل من السماء ، فاستجيب له ، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم قد نبع الماء من بين أصابعه ، وبارك الطعام القليل فكفى الكثير حتى شبعوا وبقى من الطعام فضل .

وإذا كان عيسى عليه السلام قد أحيا الموتى بإذن الله فلم يك ذلك خصوصية له فقد سبقه إلى مثله إبراهيم عليه السلام بإحياء الطير كما يفهم من قوله : « قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا » ، وكذلك عادت الحياة إلى قتيل بنى إسرائيل لما ضرب ببعض أجزاء البقرة بأمر الله فى عهد موسى قبل مبعث عيسى عليهما السلام « فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » .

وحقا إن ما كان للأنبياء قبل محمد عليهم السلام من معجزات ، له قدره وخطره فى تأييد الله إياهم لكن ذلك لا يرقى إلى الإكرام السامى الفريد الذى كان لمحمد صلى الله عليه وسلم بالإسراء والمعراج ؛ لأنه تشريف لذاته ، وبما أجرى الله له من معجزات أخرى حسية ومعنوية متلاحقة لم تجتمع لغيره من النبيين ، وناهيك بتلك المعجزة الكبرى التى غطت على كل معجزة وهى القرآن الكريم ، القائم شاهد عدل على كمال شريعته ، وصدق رسالته ، محفوظا كما أنزل باقيا منار هدى على تعاقب الأيام واختلاف العصور إلى يوم الدين .

هذا وما استقر المقام بالرسول صلى الله عليه وسلم فى بيت المقدس ، حتى عرج به إلى السموات السبع فرقى فيها ، والملائكة يرحبون بمقدمه فى كل سماء ، ماراً بالأنبياء على منازلهم حيث وجدوا من السموات حتى وصل إلى سدرة المنتهى .

وكثير من السادة العلماء الذين تكلموا عن الإسراء والمعراج يفرقون بينهما فى أدلة الثبوت وما يترتب عليه من أحكام فيقولون : إن الإسراء قد ثبت بصريح القرآن فى أول سورة الإسراء إذ يقول الله تعالى « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » ولكن المعراج المنير قد ورد ذكره فى السنة النبوية الصحيحة فحسب .

ولست أدرى لم هذه التفرقة ؟ وكيف أغفلوا النظر فى قول الله تعالى فى سورة النجم « ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى

عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » . وهذه الآيات تبين لنا بوضوح أنه صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام على صورته التى خلقه الله عليها عند الشجرة أعلى السموات حيث ينتهى علم الخلائق ، وعندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة من الأنوار ما شاء الله أن يغشى . فكيف يتصور أن يرى النبي صلى الله عليه وسلم تلك العجائب وهى أعلى السموات دون عروج ورقى إلى تلك الآفاق السامية ! وهل بعد هذا يمكن أن نفرق بين الإسراء والمعراج فى الثبوت ، وما يبنى عليه من أحكام ، خصوصا مع ما ورد من ذكر المعراج مفصلا فى الحديث النبوى المبسوط فى الكتب الصحاح ؟ !

ثم عاد الرسول صلى الله عليه وسلم بعد جولته فى السموات إلى بيت المقدس ، ومن ثم رجع إلى مكة المكرمة بعد أن رقى أعلى المنازل ، وسما فوق كل الدرجات ودخل الجنة ورأى ما فيها ، وغشى بالأنوار . ووقف حيث سمع صريف الأقلام ، وانحسرت عنه كل العوالم من ملك وإنس وجان .

فلما أصبح فى قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته ، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم إياه ، واستضراؤهم عليه . حتى إن جماعة ممن كانوا قد أسلموا ارتدوا . ويؤخذ من هذا أنه عليه السلام أخبرهم : بأنها رؤية بصرية رآها فى يقظته ، وإلا لما كذبه أحد ، لأن من يرى فى المنام الخوارق ما يكذبه أحد ولا ينكر عليه .

والله تعالى قد بدأ الإخبار عن الإسراء بالتسبيح ، والتسبيح لا يكون إلا فى الأمر العظيم الخطير ، ولو لم يكن الإسراء يقظة ما كان أمراً عظيما . كما أنه جل جلاله قال « أسرى بعبده » والعبد يطلق على الشخص بجزأيه الجسم والروح معا . ولفظ العبد ورد فى القرآن الكريم ، وهذا المعنى متعين له فقد قال الله تعالى « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب » والكتاب أنزل عليه يقظة كما قال تعالى « أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى » والصلاة وقعت من الرسول يقظة ، ومن نهاه من المشركين نهاه يقظة . فيكون الإسراء على ذلك قد وقع له عليه السلام يقظة ومن هنا لابد أن يكون كذلك بروحه وجسمه معاً .

وظاهر أن هذا التكريم الإلهى من خصائص الرسول الأعظم ، ومن أعلام نبوته ، وأن المقصود المتعين منه أن يريه الله من آياته الكبرى لا مجرد قطع المسافة من مكة إلى بيت المقدس

إذ ليس هذا فى ظاهره بالأمر العجيب المعجز ، لأنه يقع لمن تحمله الجن ، وقد قال العفريت لسليمان عليه السلام ، أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » ، وحمل عرش بلقيس من قصرها فى اليمن إلى مستقر سليمان عليه السلام بفلسطين ليس أقل من ذلك مع فارق بسيط : هو أن الجن وإن قدروا على أن يحملوا بعض الناس ، ويطيروا بهم فى الهواء من مكان ، إلى مكان فإن المحمول لا يدرى كيف حمل ، ولا يستطيع أن يدرك شيئا مما يمر به ، وهو محمول ، وهذا فى الإسراء فى جو الأرض ، وأما المعراج : فإن الجن لا يقدرون إطلاقا على إصعادهم إلى السماء وإراءتهم آيات الله فيها ، ولا حفظ حياتهم بعد جو الأرض المتعين بهوائه لبقاء حياة البشر.

وكذلك قال الذى عنده علم من الكتاب لسليمان عليه السلام ، أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، وهذا أبلغ من قطع المسافة التى بين المسجدين فى ليلة أو بعض ليـــلة .

ومحمد صلى الله عليه وسلم أفضل من الذى عنده علم من الكتاب ، ومن سليمان عليه السلام فلابد أن الذى خص الله به محمداً صلى الله عليه وسلم أعظم من ذلك . ولم يحصل مثله لسليمان ، ولا لغيره من النبيين عليهم السلام .

وبذلك يكون ما آتى الله محمداً صلى الله عليه وسلم ليس للجن والإنس قدرة على مثله ولا يستطيع أحد التلبيس على الناس فيه . وإنما هو تكريم إلهى كبير الدلالة على أنه عليه السلام قد بلغ النهاية من الرعاية والحب والرضوان « ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » .

أحمد حنفى نصار القوصى

تعليق ...

ينبغى أن يلاحظ أن كل المعجزات التى ظهرت على يد الأنبياء من عمل الله لا من عمل أحد سواه . فليس لنبى يد فى الخوارق التى ظهرت على يديه ، وقهرت الخارجين عليه ، وقد عرض شوقى لهذا الموضوع ، فقارن بين القرآن ، وبين غيره من المعجزات التى ظهرت على يد الأنبياء وقال :

جاء النبيون بالآيات فانصرمت
وجئتنا بحكيم غير منصرم
آياته كلما طال المدى جدد
يزينهن جلال العتق والقدم

« المجـــلة »

تيارات منحرفة في التفكير الديني المعاصر

للأستاذ علي العماري

— ٢ —

إن الدين عند الله الإسلام :

حين كنت في هيئة تحرير مجلة الأزهر عرض علينا بحث عنوانه (دين الله واحد) وقد آثر كاتبه أن يقدمه غفلا من التوقيع .

ونظر فيه أحد الزملاء فما كاد ينتهي من قراءة المقدمة ، حتى ألقاه أمام رئيس التحرير ، وقال : إن هذا البحث كتبه مبشر جاهل .

ولكن كاتب هذا المقال راق له أن يتم قراءة البحث ، حتى إذا رفض نشره كانت في يده (حيثيات الحكم) ، ثم إنه رغب أن يعرف ما يقوله هؤلاء الذين يبشرون بالمسيحية من غير أهلها ، فقد كان على يقين أنه لم يكتبه رجل من رجال الدين المسيحي ، وإنما كتبه أحد الكتاب المسلمين .

وفعلا قرأت البحث بإمعان ، وكتبت على هوامش النسخة تعليقات تبين ما فيه من أخطاء علمية ، وما يتضمنه من انحراف في العقيدة .

وكنت أظن أن صاحب هذا البحث - إذا كان معتداً بعقله ودينه - لن ينشره حتى يصلح من أخطائه ، ثم علمت أن البحث قد نشر ، وتبين أن مؤلفه ليس مبشراً جاهلا - كما حدس زميلنا - وإنما هو رجل مسلم يلبس العمامة ، ويرتدي الجبة والقفطان .

وقد اعتزمت أن ألتزم الصمت حيال هذا الكتاب ، فربما كان الجدل حوله أحد الأهداف التي يقصد إليها المؤلف من نشره . وسكت .

غير أن أحد الكتاب الغيورين كتب منذ أسابيع فصلا في مجلة الرسالة أبان فيه عما رآه في الكتاب من انحراف ، ومع حرص الكاتب على التقصي ، ومقارعة الحجة بالحجة ، فقد فاتته أشياء ذات بال ، فرأيت أن الواجب يقتضيني - وقد علم بعض القراء شأن هذا الكتاب - أن أكتب هذه الكلمات ، وأعتقد أن فيها فائدة للمؤلف - وإن لم ينتفع بما كتبت على هوامش البحث من قبل - وفائدة لأولئك الذين

يشجعونه على مثل هذا البحث ، فإن فى البحث تغريراً بهم فى عقيدتهم ، وفى هذا البيان إرشاد إلى الطريق القويم الذى يتحتم عليهم أن يسلكوه ؛ حتى يكونوا عند الله من الناجين .

* * *

يقوم الكتاب على فكرة واحدة ، أعلنها المؤلف فى صراحة ، ثم راح يدور حولها فى كل فصول الكتاب

قال المؤلف : (فكل من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويعمل صالحا فهو ناج بفضل الله - إن شاء الله - ؛ ذلك بأن هذه الصفات الثلاث هى أركان الدين الأساسية على لسان كل رسول ، فمن اتبع أحكامها ، وأقام أصولها - من أى دين كان - فاز برضوان الله ، ومن أخل بشئ منها ، واتبع هواه فأمره إذن إلى الله ، إن شاء رحمه ، وإن شاء عذبه ، وهو - سبحانه - غفور رحيم لا يسأل عما يفعل) .

ومعنى هذه العبارة أن الإيمان بالرسل ، والكتب المنزلة ، ليس ركنا من أركان الدين ؛ لأنه حصر الأركان فى تلك الثلاثة : الإيمان بالله ، والإيمان باليوم الآخر ، والعمل الصالح .

والمؤلف قد جعل النجاة - أولا - بفضل الله إن شاء ، ثم جعلها - ثانيا - غير متوقفة على شئ غير اتباع أحكام هذه الأركان ، وإقامة أصولها ، فقد حكم بأن مثل هذا فائز برضوان الله - هكذا من غير تقييد بشئ .

والمسلمون يؤمنون بالله ، وبرسله جميعا ، وبكل كتبه المنزلة ، وباليوم الآخر ، فهم غير محتاجين لهذا القانون الذى وضعه المؤلف واليهود غير منتفعين به أيضا لأن المؤلف نبذهم بقوله فى ص ٧٦ ، (ولا يفوتنا أن نبين أن كلامنا عن اليهود - هنا - ليس على إطلاقه ، وإنما نقصد به اليهود الذين اتبعوا موسى عليه السلام بحق ، وآمنوا بتوراته الصحيحة التى أنزلها الله إيماناً صحيحاً ، وأخذوا أنفسهم بآدابها ، وتعاليمها أخذاً صادقا) .

فلم يبق إلا المسيحيون غير مقيدين بإيمانهم بما جاء به عيسى إيمانا صحيحا ، ولا يشك من يقرأ هذا الكتيب : أن المؤلف وضعه لهذا ، فكل فصوله تدور حول هذه الفكرة الذهبيه .

ولعل من أول الدلائل على ذلك أن المؤلف استشهد بكل ما جاء فى القرآن مصدقا بالإنجيل ، ولم يذكر حرفا واحداً عن تحريف الإنجيل ، مع أن القرآن ذكر ذلك صراحة فى أكثر من آية .

وقبل أن نناقش المؤلف فى دعاواه التى

أوردها فى الكتاب يجب أن ننبه إلى حقيقتين اثنتين فى هذه الكلمة التى نقدلها فى أول هذه الكلمة :

الحقيقة الأولى : كيف يتم الإيمان بالله دون أن يؤمن الإنسان بكل ما يصدر عنه ؟ .

والحقيقة الثانية : يقول : ومن أخل بشىء منها فأمره إلى الله إن شاء رحمه . . إلخ ومن هذه الثلاث (الإيمان بالله) فعنى كلامه أن من أخل بالإيمان بالله ، أى كفر به - سبحانه - فأمره إلى الله إن شاء رحمه ، وإن شاء عذبه ، وهذا مخالف لنص محكم صريح من نصوص القرآن ، وهو قوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به » . والمؤلف يعرف حكم من ينكر نصا صريحا من نصوص القرآن الكريم .

ثم نأخذ فى مناقشة المؤلف فى كل ماجانب فيه الحق والصواب :

فرق المؤلف بين العبادات والمعاملات ، فجعل الأولى من وظيفة الرسل ، أما القول فى الثانية فلا شأن للرسل به - كما زعم - ومن ثم فلا تتعلق بها التشريعات التى جاءت بها الأديان وفى ذلك يقول : (أما أحكام الحياة ونظمها - وهو المعبر عنه (بالمعاملات) - فإنه يتغير بتغير الزمان ، وأحوال الناس ، وطبائعهم ، وطرائق معايشهم ، كما تتغير القوانين الوضعية بين الفينة والفينة ... وهذا الأمر قد تركه الله للناس - كما قال أستاذنا الإمام محمد عبده - وفى ذلك يقول محمد صلى الله عليه وسلم : أنتم أعلم بأمور دنياكم) .

ولا أدرى ما الدافع القوى الذى يدفع بعض من يريدون أن يقحموا أنفسهم فى الحديث عن التشريعات الإسلامية إلى أن يقولوا ، ويكرروا القول أن (المعاملات) لاتدخل فى نطاق التشريع ، وهم - بالطبع - يريدون التشريع الإسلامى ؟ !

إن (المعاملات) كلمة اصطلاحية ، وضعها فقهاء المسلمين لما يجرى بين الناس من شئون الحياة كالبيع والرهن ، والشفعة ، والهبة ... وما إلى ذلك . فهل هذه من شئون الدنيا التى تركها الرسول للناس ؟ . وهل خلا القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف من بيان أحكامها ؟ ، ليست هذه المعاملات متروكة للناس يقولون فيها بأهوائهم ، وإنما وضعت الشريعة الإسلامية أصولا لكل هذه الأمور ، فإخراجها عن دائرة الشريعة لا يؤدى إلا إلى رفع حكم الله عنها ، وترك الناس يسيرون فيها كما يشاءون .

وإذا كانت المسيحية لم تعن ببيان أحكامها ، لأنها - كما هو معروف - إنما جاءت للحد من طغيان المادية اليهودية ، فأهملت هذه

الشئون إهمالا تاما ـ فإن الإسلام جاء للدين، وللدنيا.

وقد استعان المؤلف فى خبطه، وخلطه بكلام الشيخ محمد عبده.

فأولا: ليقل الشيخ محمد عبده، ومن هو أفقه من الشيخ محمد عبده ما شاء، فإننا لا نأخذ ديننا عن هذا، ولا عن ذاك، وإنما نأخذه من مصادره الأولى، وهى معروفة غير مجهولة.

والمعاملات الإسلامية التى تكلم فيها الفقهاء مصحوبة بأدلتها من الكتاب والسنة، والقياس والإجماع من صميم الشريعة، وليست كتأبير النخل، تلك الحادثة التى ورد فيها قول الرسول العظيم: أنتم أعلم بأمور دنياكم.

وثانيا: كلمة الشيخ محمد عبده لا تعنى المعاملات المعروفة، ولا أظن الشيخ رحمه الله خطر بباله أن يخرج المعاملات عن حكم الشريعة، وهذه هى كلمة الشيخ: (وأما تفصيل طرق المعيشة، والحذق فى وجوه الكسب، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه إلا من وجه العظة العامة، والإرشاد إلى الاعتدال فيه، وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يحدث ريبا فى الاعتقاد بأن للكون إلها واحداً قادراً عالما حكيا متصفا بما أوجب الدليل بأن يتصف به).

وكيف يقصد الشيخ محمد عبده إلى التعميم، والله يقول: «وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة»، ويقول: «يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه»، وهذه الآية هى أطول آية فى القرآن، وقد جمعت كل ما يتعلق بكتابة الدين، ويقول: «وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ... الآية».

والميراث: أهو من العبـــادات أم من المعاملات؟ وغير ذلك كثير فى القرآن الكريم؟ ينبغى أن يكون عند الذين يقولون فيما يتصل بالتشريع الإسلامى شئ من الحياء.

* * *

ويرى المؤلف ـ وهذا هو جوهر البحث ـ أن لكل واحد من أصحاب الأديان أن يؤدى عبادته على الصورة التى يبيحها دينه، إن فى معبده أو فى بيته، أو فى خلوته، أو فى أى بقعة من الأرض، فأينما تولوا فثم وجه الله.

وهذا الكلام يحتمل وجهين:

الأول: أن يكون المؤلف قصد أن كل ذى دين من حقه أن يعبد الله على الطريقة التى نهجها له دينه، لا حجر عليه فى ذلك،

ولا تقييد لحريته ، وهذا أمر لا نخالف فيه ، فإن الإسلام أمرنا بأن نترك أصحاب البيع والكنائس يؤدون شعائر دينهم ، ولا نتعرض لهم فيها .

الثاني : وهو الذي يفهم مما كتبه المؤلف بعد ذلك ـ أن لكل ذي دين أن يؤدي عبادته على الطريقة التي رسمها دينه ، ولا يطلب منه أن يؤدي شعائر الدين الجديد ، وهو يقصد ـ كما هو ظاهر ـ أن المسيحي غير مطالب بأن يؤمن بالإسلام ، ولا أن يؤدي شعائره ؛ فإن قيامه بشعائر دينه يغنيه عن ذلك .

ومعنى هذا إنكار عموم الشريعة المحمدية ، ومصادمة الآيات القرآنية الصريحة التي تدعو كل البشر إلى أن يؤمنوا بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبأن يدينوا بدين الإسلام .

وسنترك الكلام في هذا المقصد إلى موضعه الذي هو أليق به من حديثنا هذا .

* * *

ويسوق المؤلف (حكاية) خلاصتها أن بعض رجال الدين استنكر أن يقول أحد المحامين الشرعيين في محام قبطي مات : رحمه الله . ويغضب المؤلف لذلك ، ويقول : إذا كان حكمكم على الكافر صحيحا ، فإن النصراني ليس بكافر ، ويجنح إلى أدلة يؤيد بها جواز الاستغفار لا للنصراني فحسب ، بل للكافر أيضا :

فينقل ـ أولا ـ عن الحسن : قيل يا رسول الله إن فلانا يستغفر لآبائه المشركين فقال : ونحن نستغفر لهم .

وعن علي : رأيت رجلا يستغفر لأبويه ، وهما مشركان ، فقلت له ، فقال : أليس قد استغفر إبراهيم لأبيه ؟

وينقل ـ ثانيا ـ عن الزمخشري في الكشاف أن العقل يجوز أن يغفر الله للكافر ، ألا ترى إلى قوله عليه السلام لعمه : لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك .

ويقول ـ ثالثا ـ إن النصراني من بني آدم ، والله يقول : « يا بني آدم أما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فكل من يتق ويصلح فلا خوف عليه ، والأساس الأول هو التقوى ... هكذا قال ـ هداه الله ـ .

أما ـ أولا ـ فالمؤلف تجاهل مسألة (استغفار النبي للمشركين) فذكر أولها ، وترك آخرها ، ولو أنه كان أمينا لأثبت هذه الآيات : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه

إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » .

ولعل قائلا يقول : إن المؤلف قد غفل عن هذه الآيات ، أو لعله لا يحفظها ، ولا يعرف مكانها فى المصحف ، ولكن لا أدرى ماذا يقول هذا القائل إذا علم أن المؤلف نقل كل هذه النقول من تفسير الكشاف ، وعين فى هامش صفحة ١٣ من كتابه الجزء والصفحة من كتاب الكشاف ، وفى هذه الصفحة تفسير هاتين الآيتين ؟ !

والمؤلف من المؤمنين بالسيد رشيد رضا ، وهو يتكئ عليه فى كثير من بحوثه إذا وافقت هواه ، والسيد يقول بالحرف الواحد : (والمراد أنه ليس مما تبيحه النبوة ، ولا الإيمان ولا مما يصح وقوعه من أهلهما : الاستغفار للمشركين فى حال من الأحوال ، حتى لو كانوا أولى قربى ، ويقول فى نفس الصفحة - فى تفسير الآيتين الكريمتين - : (والآية - ما كان للنبى - نص فى تحريم الدعاء لمن مات على كفره بالمغفرة والرحمة ، وكذلك وصفه بذلك كقولهم المغفور له المرحوم فلان ، كما يفعله بعض المسلمين الجغرافيين الآن لعدم تحققهم بمقتضى الإيمان ، وتقيدهم بأحكام الإسلام ، ومنهم بعض المعممين والحاملين لدرجة العالمية من الأزهر) .

فما قول المؤلف فى هذا الكلام الواضح ، الحاسم القاطع ؟ أعتقد أنه إذا سمح لنفسه أن يغفل بعض آى القرآن ، فلن يسمح لها أن تغفل كلام السيد رضا ، لأنه يأخذ عنه فى كثير من الآراء .

وسنثبت له فيما يأتى من حديث : أن هؤلاء الذين يطلب لهم الرحمة كفار بنص القرآن ولكن نبادر فنذكره بقوله تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم » وبقوله - سبحانه - : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » .

وقد جاء فى سبب نزول الآية (ما كان للنبى) روايات ، ومنها - كما ذكر صاحب الكشاف وصححه - أن النبى لما فتح مكة سأل أى أبويه أحدث به عهداً ؟ فقيل : أمك آمنة ، فزار قبرها بالأبواء ، ثم قام مستعبراً ، فقال : إنى استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى ، واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى ، فنزلت .

وقيل فى سبب النزول : قال المسلمون : ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا ، وذوى قرابتنا ، وقد استغفر إبراهيم لأبيه ، وهذا محمد يستغفر لعمه فنزلت .

وإن تعجب فعجب ما رواه المؤلف عن سيدنا على كرم الله وجهه ، وحقيقة الأمر أن عليا قال : سمعت رجلا يستغفر

لوالديه ، وهما مشركان فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله : « ما كان للنبي » .

وأما - ثانيا - فمن قال للمؤلف : أن أحكام الإسلام يتحكم فيها العقل وحده ، ولكى يتبين القارئ مدى أمانة المؤلف ننقل له عبارة الكشاف التى اقتضبها المؤلف اقتضابا ، إن الزمخشرى كان يفسر الآية الثانية ، (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه) فأورد سؤالا ، وأجاب عنه ، قال : فإن قلت : كيف خفى على إبرهيم أن الاستغفار للكافر غير جائز حتى وعده ؟

قلت : يجوز أن يظن: أنه ما دام يرجى منه الإيمان جاز الاستغفار له ، على أن امتناع جواز الاستغفار للكافر إنما علم بالوحى لأن العقل يجوز أن يغفر الله للكافر .

فالمؤلف قد ألغى الجزء الأول من كلام الزمخشرى ، واكتفى بالجزء الثانى الذى أراد به ذلك العالم الجليل أن يعتذر عن إبراهيم ، فنقله المؤلف إلى حيث يؤيد به مزعما من مزاعمه .

والعجب - أيضا - كيف ساق المؤلف قول النبي (ما لم أنه) ولم يذكر أن الآية نزلت تنهاه عن الاستغفار لأحد من المشركين .

وأما - ثالثا - فما معنى التقوى التى يسلم بها (لبنى آدم) من الخوف والحزن ؟ .

أمن يدعى أن لله ولدا : أو أن الله ثالث ثلاثة هو ممن اتقوا وأصلحوا ؟

أمن جاءه دين من الله يدعوه إلى أن يؤمن بالله وبرسله وكتبه فضرب بكل ذلك عرض الحائط ممن اتقوا وأصلحوا ؟

ومن كل ما تقدم يدرك القارئ بوضوح أن المؤلف عمد إلى المغالطات ، وإلى اقتضاب النصوص ليدعم دعاواه .

وموعدنا معه فى آرائه الأخرى التى حشا بها هذا الكتيب أحاديث قادمة إن شاء الله .

على العمارى

قال تعالى :

واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون .

من شيم العلماء وشغفهم بالعلم

للأستاذ محمود الشرقاوى

إسحق نيوتن : عالم يسجل التاريخ اسمه واحدا من أبرز العقول التى يفخر بها البشر فى عصورهم كلها ، كشف عن قانون الجاذبية الأرضية ، فكان هذا الكشف هاديا للعلماء فى أن يعرفوا احة ثق جديدة رائعة عن عالمنا الأرضى ، وعن قوانين الحياة التى أبدعها الله : الذى « أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين » .

وأينشتين : عقل من جبابرة العقول التى اختارها الله وميزها بالفهم والذكاء والقدرة والصبر ، وصل عقله المختار إلى نظرية النسبية ، فكانت بداية عصر جديد فى تاريخ البشرية ، بنى عليها من النظريات والمخترعات ما يستطيعون به أن يجعلوا حياة الناس كلها « عسلا ولبنا » - إذا استعملوها فى سبيل الرخاء والخير - ويستطيعون أن يشعلوا الأرض كلها حما ولهبا ودمارا إذا أرادوا بها وبالناس شرا ونكرا .

يحقق « أينشتين » نظريات سلفة « نيوتن » باحثا متحريا متابعا ، وبين عصريهما قرنان من الزمان ، فمن الطبيعى أن يجد فيها شيئا من الخطأ والنقص ، وأينشتين العالم يحب زميله نيوتن العالم ويقدره ، ولكنه يحب العلم والحقيقة أكثر مما يحبه ، فيكشف عن خطأ زميله ونقص نظرياته ، ثم يأخذه الحياء ، ويغلبه الأدب فيكتب - بعد التصحيح والتوضيح والتكملة - : معذرة يا نيوتن . ! كأنما يجلس فى مجلس سلفه وأستاذه ، فيعتذر من جرأته عليه ، كما يفعل التلميذ فى حضرة شيخه .

هذه قصة قرأتها ، وأعجبت بما فيها من معنى التواضع الذى هو صفة لازمة من صفات العلماء ، قرأتها وذكرت بها أشباها ونظائر من صفات أسلافنا الأئمة والعلماء وأخلاقهم ، أشباها ونظائر من تواضعهم وإخلاصهم للعلم وشجاعتهم ، وفيها تذكرة وعبرة وتكريم .

تواضع وكرم نفس :

١ - حكى الشعبى قال : ركب زيد بن ثابت ، صحابى رسول الله ، وكاتب وحيه ، فدنا منه عبد الله بن عباس فأخذ بركابه ، فقال : لا تفعل يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا فقال زيد : أرنى يدك ، فأخذها وقبلها ، وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

٢ - وفى تاريخ الإمام الشافعى أنه كان

يمسك زمام البغلة التي يركبها الإمام أحمد بن حنبل ، وأن ابنه تحدث إليه في ذلك فقال له : هكذا أمرنا أن نكرم العلماء ، وأنه كان يمسك زمام ، هذه البغلة يوما ويمشي خلف الإمام أحمد ، فحدثه في ذلك يحيى بن معين فكان جوابه : يا يحيى لو لزمت البغلة لا تنفعت.

٣ — وعلم سفيان الثوري أن الإمام الأوزاعي ـ إمام أهل الشام ـ قدم مكة فلقيه خارجها ، وعرف بعيره من القطار الذي يسير فيه الراكبون ، فحل رأس البعير ، ووضعه على رقبته ، وكان إذا مر بجماعة قال: الطريق للشيخ.

٤ — وفي تاريخ الإمام مسلم ، صاحب الصحيح ، أنه جاء إلى شيخه الإمام البخاري فقبله بين عينيه وقال : دعني حتى أقبل رجليك يا أستاذ الأساتيذ ، وسيد المحدثين ويا طبيب الحديث في علله .

٥ — وفي أول القرن السادس الهجري تولى أبو بكر الشاشي ، رئيس الشافعية في زمنه ، التدريس في المدرسة النظامية في بغداد ، وكان يلي التدريس فيها قبله علماء أعلام كأبي إسحق الشيرازي والغزالي ، فلما جلس للتدريس غلبه التواضع ، وألح عليه البكاء حتى أخرج منديله فوضعه على عينيه ثم أنشد :

خلت الديار فسدت غير مسود
ومن البلاء تفردي بالسؤدد

٦ — وعندما قدم العز بن عبد السلام ـ الذي كان يلقب « بسلطان العلماء » ـ إلى مصر ، توقف إمامها وعارفها الشيخ زكي الدين المنذري ، صاحب الترغيب والترهيب ، عن الإفتاء وقال : (كنا نفتي قبل حضوره ، أما بعد ذلك فالإفتاء متعين فيه) .

هؤلاء الصحابة والعلماء ، قد عملوا بقول النبي الكريم : (لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولا لتماروا به السفهاء ، ولا لتجتروا به المجالس ، فمن فعل ذلك فالنار النار) .

وقد أكبر الأقدمون صفة التواضع في العلماء ورووا في ذلك أثرا يقول (ينبغي للعالم أن يضع الرماد على رأسه تواضعا لله عز وجل) .

الشغف بالعلم والصبر عليه :

١ — ومن صفات العلماء الشغف بالعلم والصبر على مشقاته ، وفي ذلك نجد لأسلافنا من العلماء مواقف ، وقصصاً تدل على مدى هذا الشغف الذي كاد أن يلهيهم عن كل شيء سوى العلم وعلى مقدار هذا الصبر الذي يتعجب المرء من قدرتهم عليه .

ومن ذا الذي لا يذكر في هذا المجال شغف الإمام البخاري بجمع الحديث الشريف ، وصبره عليه ، حتى كان يرحل من بلد إلى بلد يسافر الأيام الطويلة ، ويلقى أعنف مشقات السفر سعيا وراء حديث يحفظه ، أو رواية حديث يقابلها ويراجعها على ما سمع وحفظ ، وفي ذلك يقول

البخاري عن نفسه (دخلت إلى الشام ، ومصر والجزيرة مرتين ، وإلى البصرة أربع مرات ، وأقمت بالحجاز ستة أعوام : ولا أحصى كم دخلت إلى الكوفة ، وبغداد مع المحدثين) .

٢ — وسمع جابر بن عبد الله أن عبد الله ابن أنس - وكان فى مصر - عنده حديث حفظه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القصاص ، قال جابر - على ما رواه السيوطى فى « حسن المحاضرة » :

(خرجت إلى السوق فاشتريت بعيراً ، ثم شددت عليه رحلا ، ثم سرت إليه من المدينة إلى مصر — شهراً ، فلما قدمت مصر ، سألت عنه حتى وقفت على بابه ، فسلمت فخرج على غلام أسود فقال : من أنت ... قلت : جابر بن عبد الله ، فدخل عليه ، فذكر ذلك فقال : قل له : أصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فخرج الغلام فقال ذلك فقلت : نعم ، فخرج إلى والتزمنى والتزمته وعانق كل واحد منهما صاحبه ، فقال : ما جاء بك يا أخى ؟ قلت : حديث تحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القصاص لم يبق أحد يحدث به عن رسول الله غيرك أردت أن أسمعه منك قبل أن تموت أو أموت) .

٣ — ومن ذلك ما روى عن الإمام الشافعى - فيما رواه المزنى - قيل للشافعى : ما شهوتك للعلم ؟ ... قال : أسمع بالحرف مما لم أسمعه فتود أعضائى أن لها أسماعا تتنعم به مثل ما تنعمت به الآذان ، فقيل له : كيف حرصك على العلم : قال : حرص الجموع المنوع فى بلوغ لذته للمال ، قيل له : فكيف طلبك له ، قال : طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره .

٤ — وفى تاريخ الإمام احمد بن حنبل أن الإمام الشافعى نزل عليه ضيفاً ، وكانت بنت الإمام أحمد تسمع أخبار الشافعى من أبيها وغيره ، وتشتاق أن ترى مظاهر صلاحه وعبادته ، فظلت ليلها ترقبه فتراه ، مستلقيا على ظهره ، وأبوها مشغول بذكره وعبادته.

فلما أصبح الصبح قالت لأبيها : ما رأيت له فى هذه الليلة صلاة ، ولا ذكرا . ونهض الإمام الشافعى ، فقال له أحمد : كيف كانت ليلتك .. ؟ قال : ما رأيت أطيب منها ولا أبرك ، ولا أربح ، لأنى رتبت فيها مائة مسألة - وأنا مستلق على ظهرى - كلها فى منافع المسلمين ، فقال أحمد لابنته : قد رأيت .

٥ — وقال الربيع : - من أصحاب الشافعى - أقام الشافعى فى مصر أربع سنين ، فأملى ألفاً وخمسين ورقة ، وخرج كتاب « الأم » ألفى ورقة ، وكتاب : « السنن » وأشياء كثيرة ، وكان عليلا شديد العلة ، وربما خرج الدم وهو راكب ، حتى يملأ سراويله وخفه ، يعنى من « البواسير » .

٦ — ومن ذلك ما روى عن « ابن المبارك »

وعلى بن الحسن بن شفيق الذى يقول : قمت مع ابن المبارك ليلة باردة ليخرج من المسجد ، فذاكرنى عند الباب بحديث ، وذاكرته ، فما زال يذاكرنى حتى جاء المؤذن فأذن للفجر .

الشجاعة فى الحق :

ومن صفات العلماء : « الشجاعة » : فالعالم لا يكتم كلمة الحق ، ولا يخشى فيه أحدا إلا الله ، ويجهر بما يعتقد فى الظالم ، ولو لقى فى ذلك العذاب والهلاك ، فهو يؤمن بأن خشية الله تمنعه أن يخشى سواه ، وأن الله مانحه العزة جزاء شجاعته فى الحق ، وخشيته له وحده ، والله تعالى يقول : « إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور » .

١ - كان عمرو بن عبيد صديقاً حميما لأبى جعفر المنصور ، قبل أن يلى الخلافة ، فلما وليها ابتعد عنه ، واقتصد فى زيارته ، وكان المنصور يشتاق أن يراه ، ويطلبه إلى مجلسه فيجىء بعد تمنع . وجاء العالم الزاهد الشجاع يوما ، بطلب من الخليفة ، فلما جلس إليه أخذ يعظه ويشتد فى تخويفه وزجره وتذكيره حساب الله حتى بكى المنصور ، فقال بعضهم له : يا أبا عثمان ، أبكيت أمير المؤمنين ، قال : وماذا عليه أن يبكى من خشية الله ... ؟ وأمر له المنصور بمال فرفضه وقال : ليست لى به حاجة ، فحلف المنصور أن يأخذه ، وحلف عمرو ألا يأخذه ، فقال من فى المجلس له : أيحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت ... ؟ قال : لئن يحنث أمير المؤمنين أيسر من أن أحنث أنا ، فهو أقدر منى على كفارة اليمين .

ولما قام الشيخ الشجاع الزاهد قال له المنصور : هل من حاجة فأقضيها لك يا أبا عثمان ... ؟ قال : نعم ، حاجتى ألا تبعث إلى حتى آتيك ، ولا تعطينى حتى أسألك ، قال المنصور : إذن والله لا نلتقى أبدا . . ! قال له الشيخ : عن حاجتى سألتنى ، وخرج الشيخ فأنشد المنصور : .

كلكم يمشى رويد

كلكم طالب صيد

غير عمرو بن عبيد

٢ - ومن قصص الشجاعة أن الفضل ابن الربيع - وزير الخليفة هارون الرشيد - شهد عند أبى يوسف - صاحب أبى حنيفة فلم يقبل شهادته . ، وعاتبه الخليفة فى ذلك فقال له أبو يوسف : لم أقبل شهادته لأنى سمعته يقول للخليفة يوما : أنا عبدك ! فإن كان صادقا فلا شهادة للعبد ، وإن كان كاذبا فكذلك ، ومن يفعل ذلك فى مجلس الخليفة لا يبالى بالكذب فى مجلس القاضى ، وقبل الرشيد عذره وأكبر شجاعته .

محمود الشرقاوى

جماعة إخوان الصفا

للأستاذ محمد عفرانى الخراسانى

– ٣ –

ومهما يكن من أمر فإننا عند ما نوازن بين رسالة الحيوان ، وبين كليلة ودمنة. نحس أن إخوان الصفا قد نهجوا فى تأليف هذه الرسالة منهج كتاب كليلة ودمنة من ناحية هذه الخصائص التى تمتاز بها حكايات الكتاب . ومنها تداخل المحاكمات . فإن المحاكمات فى رسالة الحيوان متداخلة يتلو بعضها بعضا ، وتتعاقب الواحدة تلو الأخرى دون انقطاع ، ولا أدنى مناسبة ، كما هو الشأن فى حكايات كليلة ودمنة ، ومنها طريقة التقديم لجلسات الدفاع بجملة التساؤل والاستفهام مثل : « كيف كان ذلك » أو « كيف ذلك »

ونورد لك نصاً لكل من رسالة الحيوان وكليلة ودمنة ؛ لتقف على مدى تأثر إخوان الصفا بابن المقفع من الناحية الفنية للقصة كما قلنا آنفا ، يقول إخوان الصفا فى إحدى جلسات الدفاع لزعيم السباع الذى كان قد أناب عن نفسه كليلة أخا دمنة للترافع أمام المحكمة : لا ، فلما بلغ زعيم السباع إلى هذا الموضع من الكلام ، قال له زعيم الإنس : أما أنتم يا معشر السباع فسبيلكم أن تسكنوا وتستحوا ، ولا تتكلموا ، قال له كليلة : ولم ذلك ؟ قال : لأنه ليس من الطوائف الحضور هاهنا جنس أشر منكم معشر السباع ، ولا أقسى قلوبا ولا أقل نفعا ، ولا أكثر ضرراً ، ولا أقل رحمة ولا أشد حرصاً على أكل الجيف وطلب المعاش ، قال : كيف ؟ قال : لأنكم تفترسون معشر السباع هذه البهائم ، والأنعام بمخالب حداد ، فتخرجون جلودها ، وتكسرون عظامها وتشربون دماءها ، وتنهشون لحومها بلا رحمة عليها ، ولا فكرة فيها ، ولا رفق بها ، قال زعيم السباع : « منكم تعلمنا وبكم اقتدينا فيما تعملون فى هذه البهائم ، قال الإنسى : كيف كان ذلك ؟ ... الخ » [1] .

وهذا نفس الأسلوب الفنى الذى ألف به ابن المقفع قصص كليلة ودمنة ؛ فمثلا يقول فى باب الأسد والثور على لسان « دمنة » – ابن آوى – مخاطبا « شترَبة » [2] : « فإن من حقر عدوه لضعفه أصابه ما أصاب وكيل البحر من الطيطوى قال شترَبة :

(١) رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٢٧٨ .

(٢) دمنة اسم لابن ، آوى وشتربه اسم الثور ، وكلاهما من رجال حاشية الأسد ، ومن أبطال قصة الأسد والثور التى وردت فى الباب الأول من أبواب كلية ودمنة .

وكيف كان ذلك ؟ قال دمنة : زعموا أن طائراً من طيور البحر يقال له الطيطوى كان وطنه فى ساحل البحر ، ومعه زوجة له ، فلما جاء أوان تفريخها قالت الأنثى للذكر : لو التمسنا مكانا حريزاً نفرخ فيه فإنى أخشى من وكيل البحر إذا مد الماء أن يذهب بفراخنا . فقال لها : أفرخى مكانك ... فإنه لا يفعل ذلك . فقالت له : ما أشد تعنتك أما تذكر وعيده وتهدده أياك ، ألا تعرف نفسك وقدرك ؟ فأبى أن يطيعها فلما أكثرت عليه ولم يسمع قولها قالت له : إن من لم يسمع قول الناصح يصيبه ما أصاب السلحفاة حين لم تسمع قول البطتين قال الذكر : وكيف كان ذلك .. الخ (١).

ومن الوجوه المتشابهة كذلك بين رسالة الحيوان ، وبين كليلة ودمنة . طريقة عرض جلسات المحاكمة حيث تنعقـــد أمام رئيس المحكمة ملك الجان (٢) يعلن افتتاح الجلسة بتوجيه السؤال إلى أحد الخصمين الماثلين أمام المحكمة ـ الإنسان والحيوان ـ ثم يقوم كل واحد منهما بالدفاع عن نفسه ، وبنى جنسه وهكذا تستمر المحاكمات كحلقات متواصلة وهذا الموقف من ملك الجان يشبه تماما موقف دبشليم الملك أحد البطلين فى حكايات كليلة ودمنة ، حيث يدور أمامه الحوار بين الحيوانات على لسان وزيره « بيدبا الفيلسوف » .

فنرى أن ملك الجان يعقد جلسات المحاكمة بتوجيه السؤال إلى أحد الخصمين كما يفعل ذلك دبشليم الملك عند ما يعقد جلسات السمر مع وزيره « بيدبا » ويوجه إليه السؤال ليضرب له مثلا لما دار بين شخصين من الأحداث والخطوب ، وذلك فى بداية كل قصة رئيسية من قصص الكتاب التى تسمى بأبواب الكتاب أمثال : قصة الأسد والثور وقصة الفحص عن أمر دمنة ، وقصة الحمامة المطوقة ، وقصة الأسد وابن آوى . فجلسات المحاكمة فى رسالة الحيوان تشبه أبواب كتاب كليلة ودمنة كما أن الفصول التى تتلو كل جلسة من تلك الجلسات تشبه الحكايات الفرعية التى تتلو كل حكاية رئيسية من كتاب كليلة ودمنة ، وإن الإطار الفنى الذى ألف فيـــه

(١) كليلة ودمنة ص ١٣٠ / ٠٤٠ تحقيق نائل المرصفى طبعة القاهرة .

(٢) واسمه كما مضى « بيراست الحكيم » ، « واللقب بشاه مردان ـ سيد الرجال ـ حاكم منطقة تقع فى جزيرة » « صافون » « فى وسط البحر الأخضر مما يلى خط الاستواء وهـذه الجزيرة أشبه إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة وللملك وزير يدعى » « بيراز » « ومن الطريف أن كلمة شاه مردان فارسية ومركبة من « شاه » الملك و « مردان جمع مرد » : « الرجال وتطلق الأوساط الشعبية فى إيران هذا اللقب على على بن أبى طالب عليه = السلام ، وخاصة المتصوفة منهم كما أن هناك طائفة من المتصوفة فى إيران تسمى بـ « جمعية إخوان الصفا » .

إخوان الصفا رسالة الحيوان هو نفس الإطار الفنى الذى ألف فيـــه ابن المقفع حكايات كليلة ودمنة .

هذا وتشبه رسالة الحيوان كتاب كليلة ودمنه لافى تداخل الحكايات ، وطريقة عرضها فحسب؛ بل إنهما يتشابهان فى توارد كثير من أسماء الحيوانات والأبطال الذين أسندت إليهم الأدوار فى كل القصة والمحاكمة فنجد مثلا فى رسالة الحيوان فصلا من المحاكمة على لسان كليلة أخى دمنة مندوب الأسد - أبو الحارث - ليشترك مع سائر الوحوش فى جلسات المحاكمة (١) ، ومن المعروف أن هذين الاسمين هنديان وكان اصلهما « كرتكا ودمنكا » ، وقد دخلا فى اللغة العربية لأول مرة بعد تحريفهما إلى كليلة ودمنه بواسطة ابن المقفع . وكذلك يشبه الأسد فى رسالة الحيوان الأسد فى كليلة ودمنة فالأول يلعب دور ملك السباع ويشاور من حوله من الوحوش فى صفات الملك ، وفيمن يستحق أن يمثل الملك فى جلسات المحاكمة مندوبا (٢) عنه كما هو الحال بالنسبة لدور الأسد فى باب « الفحص عن أمر دمنة » ، حيث يشاور من حوله من الوحوش عند محاكمة دمنة بعد أن ثبتت إدانته بأنه كان سببا فى الإيقاع بين الأسد والثور مما أدى إلى مصرع الثور . ونرى أيضا أن النمر فى رسالة الحيوان يحتل مكانة الصدارة بين أفراد حاشية الأسد ، ويلعب دور الناصح الأمين للأسد ، ويأخذ برأيه . كما أن النمر فى باب الفحص عن أمر دمنه يعتبر من أخص أصحاب الأسد ومن أقرب أفراد حاشيته اليه وهو الذى كشف عن أمر دمنه ، وابلغ أم الأسد عن المؤامرة التى كان قد دبرها دمنة ضد الأسد ، وحرضه على قتل شتربة (١) .

وأما قصة تواصل إخوان الصفا ، وتعاون بعضهم بعضا فقد أشرنا إليها فى مستهل حديثنا عن رسالة الحيوان ، وأن لها صلة بقصة الحمامة المطوقة من حيث فكرتها العامة فى تصافى الاخوان ، وثمرة هذا الصفاء . وأن كان إخوان الصفا قد عمقوا معنى هـذا التصافى بما يتفق ومبادئهم الفلسفية المبنية على اعتقادهم فى عالم الغيب « ما وراء الطبيعة » وقبل أن نشير إلى هذه المعانى التى انفردوا بها نورد نص هذه القصة « ينبغى أن نبين كيف يكون تواصل اخوان الصفا ، وكيف تكون معاونة بعضهم بعضا فى طلب معيشة الدنيا ، وماذا ترى كيف يكون حال من سبقته المنية قبل صاحبه . كيف يكون عيش الباقى منهم بعد صاحبه ، ذكر أن مدينة كانت على رأس

(١) رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٢٢٦

(٢) رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٢٠٣ و ٢٠٦ .

(١) أنظر كليلة ودمنة ص ١٥٢ تحقيق : نيل للرصفى طبعة القاهرة .

جبل فى جزيرة من جزائر البحر ، مخصبة كثيرة النعم، رخية البال طيبة الهواء ، عذبة المياه ـ حسنة التربة كثيرة الأشجار لذيذة الثمار كثيرة أجناس الحيوانات ـ حسب ما تقضيه تربة تلك الجزيرة وأهويتها ومياهها ، وكان أهلوها أخوة وبنى عم بعضهم لبعض من نسل رجل واحد ، وكان عيشهم أهنأ عيش يكون بتردد ما كان بينهم من المحبة والرحمة والشفقة والرفق بلا تنغيص من الحسـد والبغى والعداوة وأنواع الشر ، كما يكون بين أهل المدن الجائرة المتضادة الطباع المتنافرة القوى المشتتة الآراء القبيحة الأعمال السيئة الأخلاق ثم أن طائفة من أهل تلك المدينة الفاضلة ركبوا البحر فكسر بهم المركب ، ورمى بهم الموج إلى جزيرة أخرى ، فيها جبل وهو فيه أشجار عالية ، وعليها ثمار نذرة ، فيها عيون غائرة ومياهها كدرة ، وفيها مغارات مظلمة وفيها سباع ضارية وإذا عامة أهل تلك الجزيرة قردة وكان فى بعض جزائر البحر طير عظيم الخلقة شديد القوة ، قد صلط عليها فى كل يوم وليلة ، يكر عليهم ويختطف من تلك القردة عدة . ثم أن هؤلاء النفر الذين نجوا من الغرق تفرقوا فى الجزيرة ، وفى أودية ذلك الجبل يطلبون ما يتقوتون به من ثمارها لما لحقهم من الجوع ، ويشربون من ماء تلك العيون ويستترون بأوراق تلك الأشجار يأوون بالليل إلى تلك المغارات ، ويعتصمون بها من الحر والبرد ، فأنسعت بهم تلك القرود ، وأنسوا بها إذ كانت أقرب أجناس السباع شبها لصورة الناس فولعت بهم إناث القردة وولع بها من كان به شبق . وتناسلوا وكثروا وتمادى بهم الزمان فاستوطنوا تلك الجزيرة واعتصموا بذلك الجبل وألفوا تلك الحال ونسوا بلدهم ونعيمهم وأهاليهم الذين كانوا معهم بديا ثم جعلوا يبنون من حجارة ذلك الجبل بنيانا ويتخذون منها منازل ويخرصون فى جميع تلك الثمار ويدخرها من كان منهم شرها وصاروا يتنافسون على إناث تلك القرود ويغبطون من كان منهم أكثر حظا من تلك الحالات وتمنوا الخلود هنا وانتشبت بينهم العداوة والبغضاء ، وتوقدت نيران الحرب ثم أن رجلا منهم رأى فيما يرى النائم كأنه قد رجع إلى بلده الذى خرج منه وأن أهل تلك المدينة لما سمعوا بمجيئه استبشروا واستقبله خارج تلك المدينة أقرباؤه فرأوه قد غيره السفر والغربة؛ فكرهوا أن يداخل المدينة على تلك الحال وكان على باب المدينة عين من الماء فغسلوه وحلقوا شعره وقصوا أظافره وألبسوه الجدد وبخروه وزينوه وحملوه على دابة ، وأدخلوه المدينـة فلما رآه أهل تلك المدينة استبشروا به وجعلوا يسألونه عن أصحابه وعن...

وما فعل الدهر بهم ، وأجلسوه فى صدر المجلس فى المدينة ، واجتمعوا حواليه يتعجبون منه ومن رجوعه بعد اليأس منه وهو فرحان ، بهم وبما نجاه الله عز وجل من تلك الغربة ، وذلك الغرق ، ومن صحبة تلك القرود، وتلك العيشة النكدة ، وهو يظن أن ذلك كله يراه فى اليقظة ، فلما تنبه إذا هو فى ذلك المكان بين القرود ، فأصبح حزينا منكسر البال ، زاهداً فى ذلك المكان مغتما متفكراً راغبا فى الرجوع إلى بلده ؛ فقص رؤياه على أخ له ، فتذكر ذلك الأخ ما أنساه الدهر من حال بلدهما وأقاربهما وأهاليهما والنعيم الذى كانا فيه ، فتشاورا فيما بينهما وأجالا الرأى ، وقالا : كيف السبيل إلى الرجوع وكيف النجاة من هنا ؟ فوقع فى فكرهما وجه لحيلة بأنهما يتعاونان ويجمعان من خشب تلك الجزيرة ، ويبنيان مركبا من البحر ويرجعان إلى بلدهما ، فتعاقدا على ذلك بينهما عهداً وميثاقا : أن لا يتخاذلا ولا يتكاسلا بل يجتهدا اجتهاد رجل واحد فيما عزما عليه ثم فكرا أنه لو كان رجل آخر معهما لكان أعون لهما على ذلك ، وكلما زاد عددهما يكون أبلغ فى الوصول إلى مطلبهم ومقصدهم ، فجعلوا يذكرون إخوانهم أمر بلادهم ، ويرغبونهم فى الرجوع ، ويزهدونهم فى الكون هناك حتى التأم جماعة من أولئك القوم على أن يبنوا سفينة يركبوا فيها ، ويرجعوا إلى بلدهم فبينما هم فى ذلك دائبون فى قطع الأشجار ونشر الخشب لبناء تلك السفينة إذ جاء ذلك الطير الذى كان يختطف القرود فاختطف منهم رجلا ، وطار به فى الهواء ليأكله ، فلما أمعن فى طيرانه تأمله فاذا هو ليس من القرود التى اعتاد أكلها فمر به طائراً حتى مر به على رأس مدينته التى خرج منها ، فألقاه على سطح بيته وخلاه فلما تأمل ذلك الرجل إذا هو فى بلده ومنزله وأهله وأقربائه ، فجعل يتمنى لو أن ذلك الطير يمر فى كل يوم ويختطف منهم واحداً بعد واحد ، ويلقيه إلى بلده كما فعل به ، وأما أولئك القوم بعد ما اختطفه الطير من بينهم فقد جعلوا يبكون عليه محزونين على فراقه ؛ لأنهم لايدرون مافعل به الطير ، ولو أنهم علموا بحاله ، وما صار إليه لتمنوا ما تمنى لهم أخوهم »[1] فقد شرح إخوان الصفا أنفسهم المغزى الذى يقصدون إليه من هذه القصة ، وعلقوا عليها عقب إيرادهم لها بقولهم « فهكذا ينبغى أن يكون اعتقاد اخوان الصفا فيمن قد سبقته المنية قبل صاحبه . لأن الدنيا تشبه تلك الجزيرة، وأهلها يشبهون تلك القردة ، ومثل الموت كمثل ذلك الطير ، ومثل أولياء الله كمثل القوم الذين

(١) راجع كتاب رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٠٢ ـ ١٠٥

كسر بهم المركب، ومثل دار الآخرة كمثل تلك المدينة التى خرجوا منها، فهذا اعتقاد إخواننا الكرام فى معاونتهم فى الدنيا وما يعتقدون فيمن سبقته المنية قبل إخوانه.

فنرى أن إخوان الصفا قد رمزوا إلى دنيا الشهوات بالقرود، وإلى من سقطوا فى عالم الرذيلة بمن استهوتهم هذه القرود، وكان همهم هو التناكح والتناسل، وإرضاء الغريزة الحيوانية فحسب، ونسوا بلادهم الأصيل وهو العالم الآخر الذى أتت منه أرواحهم، وأما الصفوة منهم فلم تشغلهم المادة عن المعنى، ولم تستهوهم تلك المظاهر الدنيوية بل انصرفوا إلى التفكير الاجتماعى الذى يساعدهم على راحتهم النفسية وسعادتهم الموقوتة فى هذه الدار الفانية بمعاونة بعضهم بعضا، وبث روح المحبة بين الطبقات، والبعد عن التعصب لمذهب دون مذهب، والتحمس لعقيدة دون عقيدة، وعرفوا أن السعادة لا تتم الا بتضافر الجهود للخروج من عالم المادة والتوجه إلى الرقى والكمال بأرواحهم الطاهرة، وأنفسهم الزكية حتى تلبى دعوة ربها.

«يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية».

ونستخلص من تعليق إخوان الصفا على هذه القصة أنهم يعتبرون أن عالم الروح موطنهم الأصيل، ودار السعادة الخالدة. ولا يمكن أن يصل أحد إلى هذا العالم إلا إذا صفت روحه وخلصت سريرته، وتعاون مع إخوانه وأصدقائه بالإيمان الصادق الذى يقود المرء إلى العمل الصالح.

ونحن إذ نختم مقالنا هذا لا نستطيع أن ندعى أننا قد بلغنا غاية المطاف فيما كنا نقصد اليه؛ بل إن المجال لا يزال متسعا أمامنا لاستخراج نتائج أخرى بالموازنة بين رسالة الحيوان، وبين كتاب كليلة ودمنة؛ إذ سيكون لهذه النتائج أهميتها البالغة فى ميدان الدراسات المقارنة.

محمد غفرانى الخراسانى

من نثر أمير الشعراء:

«الثقة مراتب، فلا ترفع لعليا مراتبها إلا الشريك فى المر، المعين على الضر، الأمين على السر»

(الضمير النقى كالمرآة، لو التمس فيها المرء وجه الغيب لرآه)

(يستأذن الموت على العاقل، ويدفع الباب على الغافل)

(أسواق الذهب)

مع "شوقى" فى مدائحه النبوية

للدكتور سعد الدين الجيزاوى

لقد ذهب الشعراء فى تناولهم مدح الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه مذاهب شتى ، تتناسب وشخصية الشاعر ، ولون ثقافته ، وتتأثر بالذوق الفنى العام للأدب فى العصر الذى قيلت فيه ، وبالظروف العامة من سياسية واجتماعية وفكرية فى فترة إنشادها .

وسيرة الرسول الكريم من يوم أن بدأ دعوته إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى صارت مصدر إلهام الشعراء ، وينبوعا صافيا فياضا لا يعتريه نقص ، يتجدد فيضه دفاقا قويا عطرا ذكيا ، يستمد الشعراء منه أروع قصائدهم ، ويسجلون بأسلوبهم سجايا الرسول الكريم ، ومزايا شريعته الغراء ، ويرسمون للناس أمثل الطرق للاقتداء بنبيهم ، ويصورون ما تضمنته السيرة من بطولات وتضحيات ، وصبر وجهاد ، حتى أتم الله نوره وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم ، ورحم الله ابن الفارض حين قال :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه
يفنى الزمان ، وفيه ما لم يوصف

وبعض الشعراء يقتصرون على ذكر السيرة النبوية ، وصفات الرسول الكريم ، ونسبه الطاهر ، وسرد الغزوات ، وهذا ملحوظ فى أغلب المدائح التى قيلت إلى أوائل عصرنا الحديث . أما فى هذا العصر فلم يعد الشعراء يكتفون بذلك بل إنهم وجهوا اهتمامهم إلى الموازنة ، والربط بين الماضى والحاضر ، والدعوة إلى الاقتداء بما فى سيرة الرسول من بطولات وتضحيات ، وأخذوا يبرزون مزايا الشريعة الإسلامية ، ويدعون العودة إليها ، ويبينون للمسلمين أن أهم أسباب تأخرهم ترجع إلى عزوفهم عن قرآنهم ، وسيرة رسولهم وأن المستعمرين لم يطمعوا فيهم إلا من يوم أن هجروا تعاليم دينهم . والذى وجه شعراءنا فى العصر الحديث هذه الوجهة هو ما أصاب الأمة الإسلامية من نكبات بسبب الاستعمار الذى تغلغل فى الأقطار الإسلامية ، وفرض سيطرته عليها ، وحاول متعمداً الغض من مبادىء الإسلام ، وتحقير كل ما هو شرقى .

وشاعرنا الكبير المرحوم احمد شوقى عاش فى فترة من الزمن شهد فيها العالم العربى

أحداثا جساما ، من احتلال أجنبي ، إلى قيام حرب عالمية ، ثم ما تلا ذلك من ثورات بغية التخلص من نير الأجانب ، وما كان يظل الأقطار الإسلامية من سلطان الخلافة الإسلامية الواهي ، وما دب بين شعوبها من فرقة وتخاذل ، وما فشا فيها من جهل وفساد في نظم حياتها السياسية ، والاجتماعية والفكرية ، ولم يكن هناك غير بصيص من الأمل في الشعور المكبوت الذي غذته دعوات المصلحين : جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، ومصطفى كامل ، وقاسم أمين وغيرهم وأخذت تذكيه قرائح الشعراء الذين أسهموا بنصيب موفور في إيقاظ الشعور في القصائد الكبرى التي ظهرت عند نهاية الحرب العالمية الأولى مثل : بكرية عبد الحليم المصرى ، وعمرية حافظ ، وعلوية عبد المطلب ، التي صورت أقوى الشخصيات الإسلامية ، وأروع انتصارات المسلمين في عهودهم الزاهرة يحفزون بهـــا همم الشباب ، ويؤججون الشعور العام .

وشعر شوقي في مجموعه يعتبر صورة حية للفترة التي عاش فيها ، بالإضافة إلى تلك الصور الخالدة التي تنطق أحداث الماضي ، وقد تناول أغراضا كثيرة ، واعتـــبر في بعضها من المجددين .

ومن الموضوعات الإسلامية التي تناولها مدح الرسول الكريم في أربع قصائد كبرى تعد من عيون الشعر ، حاكى في اثنين منها الإمام البوصيرى : إحداهما نهج البردة ، على وزن وروى بردة البوصيرى ، والأخرى هي الهمزية ، أما القصيدة الثالثة فهي « سلو قلبي » ، وهذه القصائد الثلاثة بالديوان ، والرابعة بعنوان : ذكرى المولد وهي منشورة بكتاب آخر عنوانه « كرمة ابن هانى » ، هذا غير مقطوعة من ثلاثة وخمسين ومائة بيت ضمن أرجوزة العرب الكبرى . وكان إنشاء هذه القصائد جميعا بين ١٩١٠ ، ١٩١٧ .

وقد تناول شوقي في هذه المدائح نواحي عديدة من سيرة الرسول الكريم ، وحياته وشريعته ، وقد لا يتسع هذا المقال لعرض الموضوعات ، والتعليق عليها جميعا ، ومن ثم فإننا سنقصر حديثنا على ما ورد فيها عن مزايا الإسلام وتشريعاته ، فإن « شوقي » قد نفذ إلى عرض ذلك في خلال هذه المدائح لينفس عما يجيش بصدره من الآلام سببها هجوم المستعمرين : من أمثال هانوتو الذي نشر رسالته المشهورة عام ١٩٠٠ ، وتصدى لها الإمام محمد عبده بالتفنيد ، ثم كرومر الذي كان لا يألوا جاهداً في الطعن على الشريعة الإسلامية ، وغير هذين من المبشرين الذين كانوا يحاولون إذاعة الفتن وبلبلة الأفكار لزحزحة المسلمين عن عقائدهم .

ومن الأمور التى أذاعها المغرضون أن الإسلام قد أقام دعوته ونشرها بحد السيف وهم يرمون من وراء ذلك إلى الغض من قيمة القرآن فى هداية البشر، وقد تناول شوقى هذه الدعوى، وفندها منطقيا، مستدلا بما لقيته المسيحية من اضطهاد فى أول أمرها ...

يقول فى نهج البردة :

قالوا : غزوت . ورسل الله ما بعثوا
لقتل نفس ، ولا جاءوا لسفك دم
جهل ، وتضليل أحلام ، وسفسطة
فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفوا كل ذى حسب
تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به
ذرعا . وإن تلقه بالشر ينحسم
سل المسيحية الغراء ، كم شربت
بالصاب من شهوات الظالم الغلم (١)
طريدة الشرك ، يؤذيها ويوسعها
فى كل حين قتالا ساطع الحدم
لولا حماة لها هبوا لنصرتها
بالسيف ، ما انتفعت بالرفق والرحم

وعند ما يجىء ذكر الشريعة الإسلامية ومزاياها نجد الفيض الغزير ، والمعلومات القيمة التى تظهر فى الموازنة بين الشريعة الإسلامية ، وما سبقها ، ويخيل إليك أنك تستمع إلى عالم متضلع ، وفيلسوف يحلل ويقيم الأدلة والبراهين على فضل هذه الشريعة الغراء . وكأنه يريد أن يقول : إن كل ما ترمى به هذه الشريعة من مطاعن ينبغى ألا يلتفت إليه ، أو يقام له وزن مهما كان مصدره .

يقول فى نهج البردة .

شريعة لك فجرت العقول بها
عن زاخر بصنوف العلم ملتطم
يلوح حول سنا التوحيد جوهرها
كالحلى للسيف ، أو كالوشى للعلم
غراء حامت عليها أنفس ونهى
ومن يجد سلسلا من حكمة يحم (١)

ثم يبين أنها صالحة لكل زمان ومكان ، وأنها كفيلة بأن تنير السبيل أمام المصلحين فى سائر أقطار العالم على مر الزمان ، وكر السنين :

نور السبيل ، يساس العالمون بها
تكفلت بشباب الدهر والهرم
يجرى الزمان وأحكام الزمان على
حكم لها نافذ فى الخلق مرتسم

ثم يبرهن على ذلك بما كان فى ماضى الأمة الإسلامية ، بما سجله التاريخ :

لما اعتلت دولة الإسلام واتسعت
مشت ممالكه فى نورها التمم

(١) الغلم : الثائر . الهائج .

(١) حام : عطف ومال .

وعلت أمة بالفقر نازلة
رعى القياصر بعد الشاء والنعم

أرأيت تصويراً أدق من هذا إلى أثر الإسلام في الأمة العربية ؟ ثم استمع إليه حين يشير إلى نتيجة التمسك بمبادئ الإسلام وشريعته :

كم شيد المصلحون العاملون بها
في الشرق والغرب ملكا باذخ العظم
للعلم، والعدل، والتمدين ما عزموا
من الأمور، وما شدوا من الحزم
سرعان ما فتحوا الدنيا لملتهم
وأنهلوا الناس من سلسالها الشبم
ساروا عليها هداة الناس فهي بهم
إلى الفلاح طريق واضح العظم

ثم نراه يعرض بسائر المبادىء التي يحاول المستعمرون إذاعتها لتنحية تعاليم الإسلام ويعتبر أن شريعة الإسلام وحدها هي الصالحة :

لا يهدم الدهر ركنا شاد عدلهم
وحائط البغي إن تلمسه ينهدم

* * *

ثم يعود إلى تكرار هذه المعاني بصورة أخرى في الهمزية، وهنا نجده يوازن بين تشريع الإسلام وغيره من الشرائع، وينحى باللائمة على الذين يتنمرضون للإسلام :

ظلموا شريعتك التي نلنا بها
ما لم ينل في رومة الفقهاء
مشت الحضارة في سناها واهتدى
في الدين والدنيا بها السعداء

ويقول في الموازنة :

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة
بالحق من ملل الهدى غراء
بنيت على التوحيد، وهو حقيقة
نادى بها سقراط والقدماء

إلى أن يقول :

داء الجماعة من «أرسطاليس» لم
يوصف له حتى أتيت دواء
فرسمت بعدك للعباد حكومة
لا سوقة فيها، ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده
والناس تحت لوائها أكفاء

فهل جاء المصلحون ودعاة الديموقراطية بما هو أسمى من ذلك ؟ وزعماء الاشتراكية : هل سبقوا محمداً في دعوته إليها، وتطبيقه العملي لمبادئها ؟

الاشتراكيون أنت زعيمهم
لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئدا وداووا طفرة
وأخف من بعض الدواء الداء
الحرب في حق لديك شريعة
ومن السموم الناقعات دواء

ثم يبين أن البر والمساعدات الاجتماعية ليست منحا وإنما هي حقوق مفروضة نظمتها الشريعة الإسلامية :

والبر عندك ذمة وفريضة
لا منة ممنونة وجباء

جاءت فوحدت الزكاة سبيله
حتى التقى الكرماء والبخلاء

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى
فالكل فى حق الحياة سواء

فلو ان إنسانا تخير ملة
ما اختار إلا دينك الفقراء

ونقف قليلا عند هذا البيت الأخير: فإن الفقراء يختارون هذا الدين، لأنهم يجدون فيه الإنصاف والعدالة ضد الأقوياء المتجبرين إذ يحدد لهم حقهم فى أخذ أجورهم إن عملوا بحيث لا يبخسون، ويجعل لهم نصيبا محددا فى أموال الأغنياء إن كانوا عاجزين، ويمنحهم حق الحياة الكريمة؛ فلا سيد ولا مسود، ولا ظلم ولا اضطهاد، ولا سوق الأعمال بالقهر، ولا استذلال بسبب تفاوت الطبقات.

• • •

ثم يقول فى قصيدة «سلوا قلبى»:

فلم أر غير حكم الله حكما
ولم أر دون باب الله بابا

وبعد أبيات نراه يعيب على المسلمين حرمان الفقراء حقوقهم، وإهمالهم فريضة الزكاة مع تأديتهم لغيرها من الفرائض:

عجبت لمعشر صلوا وصاموا
ظواهر خشية، وتقى كذابا

وتلفيهم حيال المال صما
إذا داعى الزكاة بهم أهابا

لقد كتموا نصيب الله منه
كأن الله لم يحص النصابا

ثم يأخذ فى بيان منافع العلم، ويدعو إلى تعليم الفقراء، حتى أن يخرج من بينهم من يكون شجاعا عبقريا ...:

أراد الله بالفقراء يسرا
وبالأيتام حبا وارتبابا

فرب صغير قوم علموه
سما، وحمى المسومة العرابا

وكان لقومه نفعا وفخرا
ولو تركوه كان أذى وعابا

فعلم ما استطعت، لعل جيلا
سيأتى يحدث العجب العجابا

ولا ترهق شباب الحى يأسا
فإن اليأس يخترم الشبابا

ثم يعود إلى الحديث عن الاشتراكية:

يريد الخالق الرزق اشتراكا
وإن يك خص أقواما وحابى

فما حرم المجد جنى يديه
ولا نسى الشقى، ولا المصابا

ثم يدعو إلى العمل والجد، وعدم الرضوخ للذلة، ويرسم لنا الطريق واضحا:

وكان بيانه للهدى سبلا
وكانت خيله للحق غابا

وعلمنا بناء المجـــد حتى
أخذنا إمرة الأرض اغتصابا
وما نيل المطالب بالتمنى
ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منال
إذا الإقدام كان لهم ركابا

* * *

ومما جاء عن وصفه للشريعة الإسلامية ومزاياها فى قصيدة « ذكرى المولد » التى مطلعها :

به سحر يتيمـــه
كلا جفنيك يعلمه
هما كادا لمهجتــه
ومثلك الكيد معظمه

قوله :

نظام الدين والدنيا
أتيح له يتممه
تطلع فى بنائهما
على التوحيد يدعمه
بشرع هام فيه النا
س هاشمه وأعجمه
كضوء الصبح بينه
وكالبنيان محكمه
بيان جل موحيه
وعلم عز ملهمـــه
وكم للحق من غاب
رسول الله ضيغمه
له الغزوات لا تحصى
ولا يحصى تكرمه

* * *

ولقد كان شوقى يشعر فى قرارة نفسه بالحالة العامة للأمة الإسلامية ، ولم يكن يملك غير الدعاء والتوسل إلى الله أن يأخذ بيدها ، وينتشلها مما تردت فيه ، ولكن بعد أن عرض مزايا شريعة الإسلام ، وصور عظمة المسلمين أيام كانوا مستمسكين بها أدق تصوير ، ودعا إلى العودة إليها ، لأن ذلك هو طريق العودة إلى المجد .

يقول فى ختام نهج البردة بعد أن سرد صوراً كريمة للخلفاء الراشدين :

يا رب : هبت شعوب من منيتها
واستيقظت أمم من رقدة العدم
سعد ، ونحس ، وملك أنت مالكه
تديل من نعم فيه ومن نقم
رأى قضاؤك فينا رأى حكمته
أكرم بوجهك من قاض ومنتقم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا
ولا تزد قومه خسـفا ولا تسم
يا رب : أحسنت بدء المسلمين به
فتمم الفضل ، وامنح حسن مختتم

ويقول فى ختام « سلو قلبى » :

سألت الله فى أبناء دينى
فإن تكن الوسيلة لى أجابا

وما للمسلمين سواك حصن
إذا ما الضر مسهم ونابا

كأن النحس حين جرى عليهم
أطار بكل مملكة غرابا

ثم يعلل أسباب الضعف ، ويدعو إلى العودة لطريق الإسلام ، ومكارم الأخلاق التى يدعو إليها :

ولو حفظوا سبيلك كان نورا
وكان من النحوس لهم حجابا

بنيت لهم من الأخلاق ركنا
فخانوا الركن ، فانهدم اضطرابا

وكان جنابهم فيها مهيبا
وللأخلاق أجدر أن تهابا

فلولاها لساوى الليث ذئبا
وساوى الصارم الماضى قرابا

فإن قرنت مكارمها بعلم
تذللت العلا بهما صعابا

* * *

رحم الله شوقى ، فقد كان فى « إسلامياته » واعيا ، عميقاً ، ينطلق عن بحث فى ماضى الأمة الإسلامية ، وخبرة فى حاضرها ، وأمل فى مستقبلها ، وقد استوفى فى هذه المدائح الأربعة نواحى كثيرة من التاريخ الإسلامى ، ومزايا شريعته ؟

سعد الدين الجيزاوى

قال تعالى :

« وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم . وإن تطع من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن وإن هم إلا يخرصون » .

الانســـان والجـــمال

للأستاذ محمد أحمد العزب

لست فى هذه السطور باحثا يتعمق فلسفة الجمال ، ويحاول تجليتها للناس ، ولست كذلك فيلسوفا يقيم الحدود والأقيسة والتعاريف لقيمة من القيم الخالدة فى تاريخ البشر ، إنما أنا إنسان - مجرد إنسان - يحاول فى بساطة واعية ، أن يلتمس أغوار حقيقة ضخمة ، أو قل يحاول أن يجيب على سؤال يزحف على شفاه الملايين ، كلما انبهرت أعماقهم وأحداقهم جميعاً أمام مشهد من مشاهد الكون ، أو خالجة من خوالج النفس . أو انتفاضة من انتفاضات الروح والوجدان فتساءلوا : كيف حدث ذلك ؟

أنا هنا فحسب ، لأشير إلى دور الجمال فى حياة الإنسان : من حيث هو فرد ، وحياته من حيث وجوده فى مجموع ... ولأؤكد أن الجمال سلم مضيئة كم صعدنا عليها ، وعانقنا فيها السماء ...

وقبل أن أسترسل - فمن حقك على أن تسألنى ... وما الجمال ؟ ولأننا اتفقنا على مبدأ أننى لست هنا فيلسوفا يضع التعاريف والحدود ... فسأجيبك من خلال إحساسى الجمالى إجابة إنسان يستشعر جلال الجمال ... أجل يا صاحبى ... إن الجمال ليس قطعة من « شىء » تمسكها بيمينك - ليس جرما من الأجرام تحتويه بيديك ... ليس مادة صلبة يمكن أن تستريح عليها قدماك .

إن الجمال قيمة من القيم التى تحس ولا تلمس ... تستشعر ولا تضغط ، وبقدر إحساسنا بهذه القيمة ، بقدر ما نقبل على الحياة ونعانق أفراح الوجود ... إن الجمال يشدنا إلى الكون ويوصل علاقتنا به ... وهو من هذه الزاوية ينهض فى حياتنا برسالة ضخمة ، ودور قيادى كبير .

سأستطرد مع الجمال من حيث هو « قيمة خلقية » ... « وقيمة اجتماعية » ... « وقيمة دينية » ... تؤتى العالم أخصب الثمرات ...

فهو من حيث إنه قيمة خلقية ، يفجر فينا مشاعر الحب ، ويلهمنا نوازع السمو ، ويرسم فى حياتنا معالم التطور ، إنه يرقق أحاسيسنا ، ويرهف أذواقنا ، ويهبنا طاقات من الخير دفاقة أبداً ... إن الإنسان الجميل هو الإنسان الذى يكره الكلمات المشبوهة

المثوبة - هو الذى لايحقد ... ، ولايغدر .. ولا يخون .. ، ولايقيم أخلاقياته على أنقاض أخلاقيات الآخرين ...

إن الإنسان الجميل هو الإنسان السوى الذى يحمل من قلبه مزرعة للعواطف الطيبة والمشاعر النبيلة ، والأحاسيس المرهفة .

ويقدر مايتوافر لدى الإنسان من كل هذه الأنماط الأخلاقية ، والسلوكية ، بقدر مايأخذ مكانه فى البناء الاجتماعى الشامخ الركين .

ولقد كان الإنسان العظيم « محمد ابن عبد الله » حريصا على أن يزرع فى أعماق أتباعه هذه الحاسة الجمالية ، لإيمانه الوطيد بأنها سبيل الترقى الإنسانى - وحافز التطور البشرى .

لقد كان الإنسان يحاول جاهدا أن يقيم صداقة واعية بين الإنسان والكون ، حتى يتلقى عن صديقه الكون كل مباهج الطبيعة الفاتنة ، وكل مشاعر الإحساس الجميل ...

فها هوذا يخرج مرة فى أصحابه حتى يستقبل الجبل ، فيهتف من أعماقه صائحا « أحد ، جبل يحبنا ونحبه » .

وحين يطالع الهلال البازغ يرفع وجهه إليه فى جلال قائلا « ربى وربك الله » .

وحين يحل الربيع على الأرض ، وتبزغ نباتاته الصاعدة ، ينحنى عليها فى تراحم جم ويقول (عام خير وبركة إن شاء الله) .

وحين تمطر السماء . . يستقبل رذاذها بصدره عريان . . وحين يسألونه عن سر حفاوته بالمطر يلتفت إليهم قائلا (إنه حديث عهد بالسماء) .

وهو الصادح بكلماته الملهمة .!! (إن الله جميل يحب الجمال) !! .

وهكذا كان الإنسان العظيم محمد يقدر الجمال ، ويحاول أن يزرع غراسه فى أعماق الملايين - لأنه يؤمن بأن الجمال ركائز التكامل الخلقى الذى لاينحرف ، ولايبتسر ، ولايضرب فى أعماء الظلام .

والجمال قيمة اجتماعية ، يطهر علاقتنا بالكون . . وبأنفسنا ... وبالآخرين . . أنه يطهر علاقتنا بالكون . . لأنه يبنيها على أساس من التجاوب الصاعد الأصيل . . فأنت حين تستشعر الجمال فى نجمة . . أو نسمة . . تفتح كل مغاليق حياتك للحياة . . وتستقبل الوجود فى صداقة وحب . . إن الجمال يشدك إلى دنياك ، بينما ينفرك القبح حتى من نفسك !! وهو يطهر علاقاتنا بأنفسنا حين يوحى إلينا نزعة التعادل العاقل الملهم . . الذى لا يدمر فى ارتقائه الشاهق إلى أعلا . . ولا يتحطم فى إيغاله المرهق إلى أسفل . . إنه يعطيك معنى التعادل العاقل من خلال التناسق العام فى كل مشاهد الكون . . وكل مشاهد الحياة . .

وهو يطهر علاقاتنا بالآخرين حين يقيمها على أساس من التضامن الحلو ، والأخوة المتكاتفة ، والسلام الأرحب الخصيب .. إنه يغريك بالعدل حين يوحى إليك أن لا شيء أجمل من العدل ينشر أجنحته البيضاء فيحتضن بها الملايين ، ولا شيء أو بل من الظلم الذى هو افتيات صارخ على طبيعة الخلق فينا ، وتشويه هابط لفطرة البراءة ، وبراءة الفطرة وانهيار بالمستوى الآدمى إلى مستوى راكد وخيص . .

وهنا أستطيع أن أقول : إن للجمال رسالة إنسانية واجتماعية خالدة فى مكافحة القوى العدوانية ، وموازرة أنصار الحياة ، فى تحريك ما همد من العواطف الإنسانية البارة ، وإذكاء ما خمد من المشاعر الآدمية المضيئة ، وإثراء ما أجدب من مناطق فى قلوب الملايين . .

ألست معى فى أن قلوبا آدمية كانت قاسية رهيبة كوجه الطوفان ، ما لبثت أن تراعشت مذهولة أمام قيمة جمالية تذبح ، أو صوت إنسانى جميل يوشك أن يبح من النداء . ؟

لن أزج بالتاريخ فى هـــذا المشهد . . ولن أستشهد لك بما مضى من عصور . . ولكنى سأفترض موقفا من المواقف . . سأضع أمامك صورة من صور الجمال (الحياتى) الذى يوشك أن ينهار ، وأهيب بك أن تتماسك وأن تصمد مهما تنزت بك الأحقاد الفائرة . . واستبدت بك كراهية الجوع . .

تصور أنك ظلمت إنسانا من الناس ، وزحف بكل جراحاته إليك . قائلا فى أسى مذبوح :

ماذا أنا ؟ ألست إنسانا يحيا على الأرض ؟ ومن أنت ؟ ألست إنسانا تحيا على الأرض ؟ إذا فنحن أشقاء ، كلانا زاحف على الثرى والطين . لا يستطيع التحليق والطيران !! لماذا إذن تظلمنى ؟ ألأنك قادر ، وأنا عاجز ؟ ألأنك استطعت ، ولم أستطع أنا ؟ أم لأنك حرفت فطرتك ، ومسخت طبيعتك وانسلخت من إهابك الإنسانى ؟ ألا تدرى ؟ ألا تحس ؟ ألا تتألم . ؟ ألا تعرف أنك حين ظلمتنى فقد ظلمت من ورائى أكبادا جائعة . وأنفسا ضائعة !! إنك لست ظالمى وحدى . إنك ظالم لابتسامة طفلى البرىء ؛ لأنها ذوت منذ أيام !! ظالم لوشوشة الأحلام فى خيال طفلتى اللاعبة ؛ لأن أحلامها الآن لم تعد شيئا غير الرغيف !! ظالم لكرامة الأمومة فى عينى أمى العجوز !! لأنها ـ على تأبيها ـ سألتنى بالأمس ، هل من طعام ؟

تصور أنك هذا الظالم المتأله التياه ... وأن هذا الموقف المأسوى المدى يعربد من كثب أمامك . . فماذا أنت صانع به ؟ أوشك أن أؤكد لك ـ أن الجدار الثلجى الذى شاده الظلم فى أعماقك سينهار . سينهار حقا تحت مطارق هذه العواطف الإنسانية

المجروحة ، التي يوشك القبح أن يعفي على وجهها الضاحك الجميل .

ألم أقل لك : إن الجمال كقيمة اجتماعية يطهر علاقاتنا بالكون وبأنفسنا وبالآخرين ؟

والجمال من حيث هو قيمة دينية هادفة يعقد صداقة بين الإنسان والله . . صداقة أساسها الفهم المتحرر الواعد الذي ينمو على أرض جمالية . ويتفتح في ضوء جمالي ، ويعرج إلى ربه في نغم مؤمن حالم جميل . . وهنا لا بد أن نطيل التأمل ؛ فليست قيمة من القيم الخالدة لتستطيع أن تقف إلى جوار الجمال في حركة كونه معراجا إلى الإيمان . لأن الله يتخذ منه دائما مقدمات لقضية هذا الإيمان . . إن الله يدعو البشر للإيمان به عن طريق الجمال المبثوث في الأرض ، المبثوث في الآفاق ، « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . . والنخل باسقات لها طلع نضيد . . . » . !!

« والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » .

« والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . . والنهار إذا جلاها . . والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . . . » .

« هذا خلق الله ... فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين »

إن القرآن في هذه الكلمات يتخذ من الجمال مقدمة لقضية الإيمان ، فلا يلبث أن يتسرب بها إلى أعمق أعماق البشر ، لأن عاطفة الإحساس بالجمال ألصق عاطفة بالنفوس ، والاستثارة الإيمانية عن طريقها تختصر مراحل الطريق .

وأبدا لا أنسى هذا الريفي المتأنق الساذج الذي عرف بحسه الجمالي ، وشغفه بالحوار ، لا أنسى يوما جاءني على مشهد من جماهير قريتي البسطاء ، وبدهني قائلا :

أنتم تقولون إن الله موجود ... فأين هو؟ إنني لا أؤمن إلا بما أراه .

قلت لصاحبي : لا تؤمن إلا بما تراه ، فأنت إذا قد رأيت القاهرة وأمريكا وروسيا ، وباريس !

فأجابني في ذهول : أبداً . أبداً لم أر شيئا من هذا الذي تقول .

فقلت : إذن فهى غير موجودة . . لأنك يا صاحبي لم ترها .

أجاب : كلا .. إنها موجودة من غيرشك

فقلت : يا صاحبي . . إذن فالله موجود . ولا يطعن فى وجوده أنك لم تره ، أتستطيع أن تزعم رؤية الحياة الجارية فى الغصن الأخضر أتستطيع أن تحس أو تبصر تنفس الزرع الذى ترعره يداك ؟ أتستطيع حتى أن ترى سر الحياة الكامن فيك . . أنت . . والذى إذا صمت صمتت بجواره الأشياء ؟

وبدا على الرجل أنه قد فهم بعض الشىء . ولكنه بحركة عفوية ، ربما تكون بمجرد حب للحوار . . همهم فى خفوت :

ولكن غيرى من الناس رأوا أمريكا . وروسيا ، وغيرهما مما تقول ، وغيره من العلماء والأطباء قد رأوا حياة الزرع وحياة الناس .

قلت : ولكنى ألفتك إلى أن أناسا كذلك قد رأوا ربهم ليس كما يحبون أن يروه ... ولكن كما يحب هو أن يروه ، إن الرسل قد رأوه يا صاحبي وجلجلوا فى الناس : « إنا قد رأينا ربنا » .

قال : فهل أستطيع أن أجلس إليك لتضع يدى على حقيقة وجود الله ؟

قلت : وأنا أعرف ما فى الرجل من حس جمالى يتعشق مظاهر الجمال . يا صاحبي . أنا أستطيع أن أضع يدك على حقيقة وجود الله . . ولا أستطيع . . إن ذلك يتوقف على مدى تراحب عقلك ، وحسك ومدى ارتفاعك معى عن مستوى القياسات الترابية الجامدة ، إلى مستوى القياسات الإلهية العليا ... إنك إن رأيت الله واحتويت وجوده لم يكن هناك فارق بين الله ، وبين سيجارتك التى تتنهد فى يدك . . لا بد من منطقة فاصلة بين الله والأشياء ... لا بد أن يظل الله أكبر من أن يرى . وأجل من أن يحصر ... وأشمل من أن يحاط به .. يكفى دائما أن ترى الله فيما يبدع ويصوغ : فى الزهرة الراعشة على غصنها والموجة السارية فى غديرها — والضوء الحائر فى أفقه ، والنسمة الغافية على شواطئ العبير !! فى أجنحة هذه الحمامات المطوقة التى تنساب هائمة عبر الأفق هنا وهناك ... فى هذه الأرض السمراء التى تتنفس كل يوم عن جديد ... فيك أنت يا صاحبي ... فى خفقات قلبك النابض ...

وهمسات روحك الشاعر .. ورقرقات خيالك المشبوب ...

قلت للرجل هذه الكلمات ... فإذا بشفتيه الذاويتين تختلجان فى رعشة بيضاء متمتما : يا سبحان الله العظيم ... تباركت ياذا الجلال والجمال ...

(البقية على صفحة ٦٢٣)

رأى جديد

هدف الغزل الجاهلى

للأستاذ كامل السيد شاهين

١ - كانت العرب تبدأ قصائدها فى الكثير الشائع بالغزل ، لما أن الحب من العواطف العامة التى تستصبى الفتى ، وتهز قلب الرجل ، وتثير ذكريات الشيخ ، ومن ثم كان موقعه من النفس جالبا للذة والارتياح .

ولما كان هم الشاعر أن يثير فضولك ، ويحملك على الإصغاء ، ويجذب قلبك إليه كان أحسن المداخل أن يهز عاطفتك بأنغام تستهويك . وليس أقدر على ذلك من تحريك قلبك بالغزل ، وذكر الصبابة ، ومواددة النساء .

ولما كان ذلك يتصل فى أكثر الأحيان عند العرب الجاهليين بذكر الرحلة ، من حيث إنهم قوم نجعة وارتياد ، وتقلب بين الأماكن الصالحة ، وكانت الرحلة ضربة شتات بين أليفين اتصلا زمنا وتجاوبت منهما القلوب .. كان لابد من ذكر التعريج على أماكن الصبوة والخلوة ، لما وراءها من إثارة حبيبة ، وذكر جياشة بأحر العواطف .

ومن هنا كان ذكر الأماكن فى مطالع القصائد ، وذكر ما لاقاه العاشق من عنت ..

وربما كانت ناقة الشاعر مجالا طيبا لوصفه ، لأنها أداته إلى معاهد الحب ، ولأنها أيضا صديقه الذى يشركه فى الاضطراب بين الدارات والمناجع .

٢ — وأكبر الظن أن الشعراء - حاشا العشاق منهم - عندما يطالعوننا بالغزل فى صدور قصائدهم ، لا يقصد أحدهم وصف حبيبته هو ، ولا يذكر وداعها هى ، ولا يريد بوقفته على الأطلال أن يريك ذاك منه وإنما هو يذكر حبيبتك أنت ، ويصف حبيبتك أنت ، ويريد أن يذكرك بوقفتك أنت .

فالأعشى عندما يودع هريرة لا يريد بها إلا (رمزاً) لحبيبتى ، وحبيبتك ، ولا يريد بها امرأة أو فتاة خاصة بينها وبينه حب وعلقة .

والأعشى عندما يقول : إنها غراء فرعاء مصقولة العوارض ، ثقيلة المشية بهية الطلعة ، إنما يبتغى إصابة شىء من وجوه الحسن التى تحمل الرجل على التعلق بالمرأة ، فهذا يحب فتاته لأنها صافية اللون ، وضاحة الجبين ، وهذا يحبها لأنها جزلة الشعر ، سابغة الفرع ، وهذا يعشق منها ثغرا واضحا ، كشعاع الشمس فى الغيم سطع .. فهو إذن يبحث عن مجالب الهوى من أسباب الحسن .. ليصيب السامع ويبعثه على الإصغاء .

ولعل هذا الارتياد لأسباب الإغراء والهوى هو الذى صبغ الغزل الجاهلى بهذا اللون المادى التكشف، فظنه - من لا يعرف - إسفافا ونهما شهويا، وتلذذا بهذه المفاتن. وليس ذاك، وإنما هو استهواء السامع واجتذابه، وترغيبه فى الاستماع.

وآية ذلك: أن الشاعر لا يذكر حبيبة واحدة، وإنما يذكر حبائب كثيرات، وربما كن من بنات الحوانيت، وربات الهوى، فأولئك لا حشمة معهن، ولا حرج فى وصف مفاتنهن ومحاسنهن، على حين أن الحرائر مصونات، لا يجرؤ العاشق أن يذكرهن ولا أن يصف منهن. وللغيرة فى نفوس العرب سورة عجب، فلا سبيل إذن إلى تناول المرأة وتفصيل أوصافها، وتكشيف مفاتنها.

٣ — إذن فالغزل فى أكثر أمره - عند الجاهلى - خيال وليس حقيقة، والغزل - فى أكثر أمره عنـــد الجاهلى - يتصل بأوصاف الجسد من الوجه والبسمة والنظرة ومن الفرع والخصر، ومن الردف والساق، ومن الجيد والنهد، وغير أولئك مما يقع عليه الحس ... وإنما ذهب هذا المذهب لأن الفتون بالجسد هو التجربة العامة عند سائر الناس، أما ما يتصل بالعواطف من شجن وتلذع، ومن هيام وخفقان، ومن شقوة وإسعاد، فهذا من التجارب الخاصة التى تنال بعض الأفراد دون سائرهم.

فهذا هو الذى دفع الجاهلى لسلوك هذا الطريق!

ولعلك تقول: فالغزل الجاهلى زيف كله، لأنه افتراضى فلا أصل له، ولا صدق فيه. وإذا كان الأدب صياغة فنية لتجربة بشرية فهذا ليس أدبا لأنه لم يقم على تجربة حقيقية. فلنمنح الغزل الجاهلى عن ميدان الأدب بهذا الاعتبار.

ونحن نؤمن بأن الغزل الجاهلى - إلا أقله - لا يقوم على التجربة الشخصية، وليس مستمدا من واقع الحياة، ولكن من قال: إن الأدب لا يكون أدبا إلا إذا قام على تجربة شخصية نابعة من الواقع؟ ومن قال: إن معايير الصدق والكذب قد وقفت عند حدود التجربة الشخصية؟ بل. إن الأديب قد يبلغ بخياله الخصيب، وملاحظاته الدقيقة إلى حدود تكون أعمق صدقا، وأكثر غنى من واقع الحياة!.

وإن الأديب ليستمد من تجارب غيره رؤى تكون لها ملامح الحياة وخصائصها، وهو لم يعش تلك التجارب ولم يعانها.

ومن ذا الذى يستطيع أن يزعم أن الأديب لا يمكن أن يصدق فى وصف آلام المخاض لأنه لم يعان التجربة ولم يعشها؟

ومن ذا الذى يستطيع أن يدعى أن أديبا مثل شوقى، قد عاش حياة المجنون وكليوبترة وعلى بك الكبير، وقمبيز، وعاش كذلك

حياة الست هدى ... بما فى هذه الحيوات من تدله ، ومكر ، وغدر ، وجبريه ، وسفح للدماء ، ورغبة فى الرجال .

ولو صح أن نقف عند حدود التجارب الشخصية ، وأعطيناها صفة الصدق دون التجارب الخيالية والتاريخية والأسطورية والاجتماعية ، لضيقنا مجال الأدب ، وأنضبنا مشارعه ، ولوجب على كل أديب أن يندفع إلى حيوات الانحلال والعربدة والجريمة ليكتسب التجارب الشخصية التى تحقق له الصدق ...

٤ — ولم يكن ابتداء الجاهلى بالغزل مسألة استصباء واستمالة فحسب ، بل هناك خاصية فى الغزل ليست ميسرة فى غيره من الفنون .

فأنت تستطيع أن تطوع الغزل لسائر الفنون ، فيكون غزلك غزلا مبتهجاً فرحاً ، ويكون غزلك غزلا عابثا زارياً ، أو يكون غزلا خائفاً مذعورا ، أو يكون صارما مدابرا ، باكيا حزينا .

ولقد تنبه القدماء والمحدثون لهذا الأصل وأدركوا أن الشاعر يضع غزله مناسبا لغرضه من القصيدة .

وقد عد صاحب الصناعتين من أبرع المطالع قول النابغة فى إحدى قصائده الاعتذارية :

كليني لهم يا أميمة ناصب
وليل أقاسيه بطىء الكواكب

فأنت ترى الشاعر بحذاقته وتلطفه وإرهاف شعوره قد استطاع أن يأتى بصفة عامة مشتركة بين الخائف المذعور المتوجس من الشر يطارقه فى كل حين ، وبين المحب الواله الذى يعتاده الهم فيرى الليل طويلا كأنه لا تتحول نجومه ... وهى بعد : مناسبة لبيئتنا العربية القديمة التى يمد فيها الليل مصدر الهول والإفزاع ، ففى الليل تكون غارات الأعداء وتسلل الوحوش ، وسرحة الهوام ، وإضلال الماء ، واستبهام الطرق ، مما يلق الرهبة فى نفس البدوى .

ولقد تجد دلالة الغزل على روح القصيدة فى مطلع دريد بن الصمة عند ما قتل أخوه عبد الله ، فقد جاء به غزلا نائحا مؤذنا بالتفرق والانقطاع ، وانتهاء المودة ، فقال :

أرث جديد الحبل من أم معبد
بعاقبة ، أم أخلفت كل موعد

فلا وصل بينه وبين أم معبد إذ رث حبلها ، ولا لقاء بينه وبين أم معبد إذ هى مخلفة كل مواعيدها ... وإنما قال ذلك وهو ناظر إلى أنه بسبيل تفجع على فراق لا وصل بعده ، وانقطاع لا أمل معه فى لقيا .

ولقد لمح ذلك الدكتور طه حسين عند تناوله لقصيدة المثقب العبدى ، التى يغاظ فيها العتاب لعمرو بن هند ، ويخيره بين المودة الصريحة ، أو العداوة الصريحة . فجاء بهذا المطلع مغلظاً لصاحبته فاطمة :

أفاطم : قبل بينك متعيني
ومنعك ما سألت كأن تبيني
فلا تعدى مواعد كاذبات
تمر بها رياح الصيف دونى (١)
فإنى لو تخالفنى شمالى
خلافك ما وصلت بها يمينى
إذاً لقطعتها ، ولقلت : بينى .
كذلك أجتوى من يجتوينى

قال الدكتور طه حسين :

« فهو منذ البيت الأول قليل الرفق بصاحبته ، حريص على أن تمتعه قبل رحيلها بالنظر والحديث والتحية ، ولكنه لا يطلب إليها ذلك فيما ينبغى أن يكون عليه العاشق من الرفق والإلحاح الذى لا غلظة فيه ولا عنف — وإنما هو يطلب إليها ذلك فى شىء من الجدال المنطق العنيف ، ألست تراه يزعم لها أنها إن منعته ما سألها فكأنها قد ارتحلت عنه ، وكأنما انقطعت بينها وبينه الأسباب ، فقربها منه وجوارها له لا يغنيان عنها شيئاً إذا لم يصحبها الوصل .

وصاحبنا متعجل ملح مشفق من خيبة الأمل ، لا يطمئن إلى الوعد ، ولا يستريح إلى الأمل :

فلا تعدى مواعد كاذبات
تمر بها رياح الصيف دونى

(١) خص رياح الصيف لأنها تأتى بالغبار والعجاج ، فلا خير فيها .

ثم هو ينتقل من الطلب الملح ، والتشدد المشفق إلى الوعيد والنذير ، فهو لا يرضى من صاحبته هذا المطل ، ولا يحب منها هذا الخلاف ، وهو قد صبر وصابر على قلة حبه لهذا النحو من الصبر والمصابرة ، فلو أن إحدى يديه خالفته كما تخالفه فاطمة هذه لما وصل بها يده الأخرى ، بل لقطعها قطعا ولقال لها : إذهبى إلى غير رجعة ، فإنى أكره من يكرهنى ، وأتحول عمن يتحول عنى .

ثم قال :

ولابد أن ننصف الشاعر ، فهو ينشئ قصيدته فى العتاب ، وهو يفكر من غير شك فى صاحبه الذى سيعاتبه حين ينتهى إليه ، أكثر مما يفكر فى صاحبته التى يطلب إليها المتاع .

فإذا تحدث إلى حبيبته بهذه اللهجة القاسية الغليظة ، ووجه إليها هذا النذير الغليظ الخشن ، فهو خلق إذا تحدث إلى صاحبه أن يكون حازما صارما ، ومتشدداً قاطعا ، لا يحب الموادة ولا اللين (١)

٥ — وظل الشعراء يتبعون هذا النهج حتى كانت دعوة أبى نواس إلى اطراح التغزل جملة فى مطالع القصائد ذهابا إلى أن هذه بلاغة القدم الجاهل .

أوكانت هذه الدعوة من أبى نواس جهلا بالغرض الذى كان يقصد إليه الشعراء

(١) من حديث الأربعاء ج ١ ص ١٦٢ .

حين يستفتحون قصائدهم بالغزل ، وعدم فطنة إلى المرمى الحقيق له من الاستباء والاستصباء ..

أكبر الظن أن أبا نواس كان يقصد الخروج على المواصفات ، فقد كان لهجا بالسخرية من كل ما يتلقاه الناس بالقول والإذعان ، فهو ثائر على الأوضاع الدينيـــة ، ثائر على العرب ، ثائر على نظام القصيدة ، ثائر على اللغة .. ؛ وعلى الجملة فإنك لا ترى مواضعة اتفق النـاس على إنزالها منزلة الجلالة إلا هاجمها أبو نواس .

والذى يعنينا أن ننظر : أكان أبو نواس على حق فيما دعا إليه من هجر الغزل واستبداله بالخمر ؟ .

أما إن أبا نواس لو دعا إلى عزل المقدمات جملة ، وبدء القصائد بما هو المقصود ، والاستغناء عن هذا التقليد الذى التزمه الناس دون اعتبار لمرماه ، ودون نظر إلى مناسبته ، ودون تحر لصدقه فصاروا يذكرون رامة واللوى والأجرع والزوراء ، وصـاروا يذكرون الأطلال العافية ، والدمن البالية ، دون أن يصدروا فى ذلك عن أصل ، ودون أن يكون للمخاطبين أنفسهم عهد بمثل هذه المواقف يهز قلوبهم ، ويثير ذكرياتهم ، بعد أن سكنوا القصور ، وعمروا المدن وجهلوا كل شىء فى حواضرهم عن الرحلة والمعاهد التى تبلى ، وتحول ..

لو دعا أبو نواس إلى اطراح هذه المقدمات التى لا تهز ولا تثير ، لأنها استنفدت أغراضها ، ولم تعد ذات شأن وأثر .. لصح أن تكون دعوة متقبلة .

ولكنه يريد أن يستبدل مقدمة بمقدمة أخرى .. يريد أن يحول بين الناس وبين ذكر الطلول ، ليدعوهم إلى وصف ابنة الكرم :

صفة الطلول بلاغة القدم
فاجعل صفاتك لابنة الكرم

تصف الطلول على السماع بها
أفذو العيان كأنت[1] فى الحكم

وإذا وصفت الشىء متبعاً
لم تخل من خطأ ومن وهم !

يريد أن يحول بينهم وبين ذكر الحبائب ، وأن يجعلوا ذكرهم للحمراء الحبيبة المشرقة :

لا تبك ليلى ، ولا تطرب إلى هند
واشرب على الورد من حمراء كالورد

ويسخر من هذا الذى يذكر الوقوف على الديار والأطلال :

قل لمن يبكى على ربع درس
واقفا ، ما ضر لو كان جلس !

فثورة أبى نواس هـذه جديرة بالتقدير من ناحية أن فى متابعة الأقدمين على اختلاف

(١) هذا من أبى نواس خروج يضاف على المواضعات اللغوية ، فإن حرف الجر لا يجوز أن يدخل على ضمير الرفع والصواب أن يقول (مثلك) فى الحكم .. ولكنه أبو نواس !

الوضع ، واختلاف البيئة جناية على الصدق صدق الشعور ، وفيها تزييف صارخ للعواطف والمواقف ، وفيها تهمة واضحة من السامع للشاعر .

ولكنها لا قيمة لها من جهة أخرى ، من ناحية أنه يريد من كل شاعر أن يذكر الخمر ويتغنى صفاتها .. ومعلوم أن ليس جميع الشعراء يحبون الخمر حب أبي نواس ، أو يبرعون في وصفها براعة أبي نواس .. وليس حب الخمر (كحب النساء) عاطفة مشتركة ، تلذ الشاب والرجل والشيخ ، وربما كان مقتها كبيراً في النفوس الصالحة التي غلب عليها الدين والتوقر .

إذن فلا تصلح الخمر أن تكون بديلا من الغزل ، إذ لا تثير مايثيره الغزل من انفعالات مشتركة فلو اتبعنا دعوة أبي نواس لم نخل من تزييف الشعور ، ولم نتحرر من كذب التغزل في المرأة إلا لنقع في كذب التغزل في الخمر .

ولذلك لم يستطع أبو نواس نفسه أن يطبق مبدأه هذا ، بل عاد إلى ذكر الغزل ، واصطناع المرادة والمحاورة بين جارته وبينه ، في مدحته للخصيب ، فذلك حيث يقول :

أجارة بيتينا أبوك غيور
وميسور ما يرجى لديك عسير

فإن كنت لا خلا ولا أنت زوجة
فلا برحت دوني عليك ستور

ثم يقول :

تقول التي من بيتها خف محملي
عزيز علينا أن نراك تسير

أما دون مصر للغنى متطلب
بلى ؛ إن أسباب الغنى لكثير

فقلت لها ، واستعجلتها بوادر
جرت فجرى في جريهن عبير

ذريني أكثر حاسديك برحلة
إلى بلد فيه الخصيب أمير

وإن كان من الحق والإنصاف أن نقول : أنه سلك في غزله طريقة مقبولة ، فلم يذكر رحلة ناقة ولم يقف على طلل ، ولم يحاول أن يخلع روحه الحضرية ليتقمص روحا بدوية كما كان يفعل الشعراء في عصره .

والرأى عندى ، أنه كان ينبغي لأبي نواس أن يستبقي الغزل ، في مطالع القصائد التي تتناسب أغراضها معه ، على أن يكون على طريقة الحضر ، لا على طريقة البدو ، فهذا أدخل في الصدق ، وأنأى عن الزيف ، وأحق بأن يستصبي السامع الحضرى الذي لم يمارس حياة البادية ، ولا تثيره معاهدها ، ولا نؤيها وأطلالها .

٦ — وجملة الأمر : أن الغزل الجاهلي - في الأعم الأشيع - كان يراد به اطباء السامعين واستهواؤهم وأنه - في الأعم الأشيع كذلك -

لم يكن يعبر عن تجربة شخصية ، وأن ذلك لم يخرجه عن دائرة الصدق ، إذ التجارب الخياليه كثيراً ما تقوم مقام التجارب الذاتية وأن دعوة أبي نواس إلى اطراح الغزل ليست إلا امتداداً لمبدئه في مهاجمته للمواضعات وأن دعوته إلى الابتداء بوصف الخمر ، إذا صلحت فإنما تصلح لأمثال الحكمي من عباد الخمر ، ولا تقوم مقام الغزل في الإشارة إلى الغرض الذي يقصده الشاعر ، والتهيئة لهذا الغرض بجو مناسب له من الغزل ، إقبالا أو إعراضا ، ألما أو نشوة ؟

كامل السيد شاهين

(بقية المنشور على صفحة ٦١٦)

ولست هنا أسوق هذه السطور كشهد تمثيل أو لمجرد أن أسود الصفحات ... أبداً فما إلى شيء من هذا قصدت .. وإنما هدفت من وراء ذلك إلى أن أؤكد أن الجمال أخصب مقدمة يمكن أن تفضى إلى نتيجة الإيمان إن الرجل لم يهتز بحوارى العقل . ولا بجدلى المنطق ... ولكنه تهاوى تحت مطارق الإحساس الجمالى الرهيف .. لقد أحس بأن هذه الكلمات التى يسمعها تعكس عالما بأسره يعيش فى أطوائه وبين حناياه .. أحس بأنها تفتح عينيه على مجالى الكون ، وأقداس الطبيعة ، فتقف منها على ما لم يقف عليه من قبل أو قل على ما كان يقف عليه فى عفوية ساذجة بريئة ...

وبعـــد ...

فلسنا ندرى ماذا كانت تكون حياة الإنسان لو أنها أقفرت من الجمال ، وزخرت بأمواج القبح القبيح ، أغلب الظن أنها كانت لا بد أن تتحطم وتتهالك .. أو تأوى إلى كهف بارد منطوء الآفاق والأعماق ...

إذا ... فلنبارك الجمال كهبة من هبات السماء ... وهدية من هدايا الرب ، ولنعش هذا الجمال بكل ذرة من ذرات كياننا الحى . لتكن أعماقنا جميلة ... ولتكن أخلاقنا جميلة ... ولتكن علاقاتنا جميلة ... ولتكن عقائدنا جميلة ... فإن هذا الجمال وحده هو الذى يمكن أن يخلع على الحياة والأحياء جميعا كل مظاهر الحب وكل مظاهر التطور . وكل مظاهر الإيمان .

وما أجمل أن تكون جميلا ... وأن أكون جميلا ...

وأن تحيا الأسرة الإنسانية كلها عابدة فى محارب الجمال ؟

محمد أحمد العزب

ما يقال عن الإسلام بين الأمس واليوم

للدكتور أحمد فؤاد الاهوانى

كان ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى ضربة قاضية على أكبر إمبراطوريتين فى العالم القديم، وهما الفرس والروم، وانتشر الإسلام من الشرق إلى الغرب بسرعة عجيبة، ليس لها مثيل فى التاريخ حتى اليوم، وظل الإسلام ينتشر ويمتد حتى القرن الخامس عشر الميلادى، حين بدأ يتراجع من الأندلس، ولكنه فى الوقت نفسه، أخذ يندفع بقوة من جهة الشرق نحو أواسط أوربا، ومن الطبيعى أن يحدث فى أثناء ذلك مد وجزر، وأن تقع تاريخيا مواقع دامية تمثلت فى الحروب الصليبية التى استمرت زهاء قرنين من الزمان، وفى غزو المغول الذى وفد من أقصى الشرق، وانتهى بصده وإسلام المغول أنفسهم، وظل الإسلام ثابتا شامخا كالطود، بل استطاع أن ينتشر فى بقاع جديدة من الدنيا، لا بحد السيف ؛ بل بقوة العقيدة كالحال فى أندونيسيا.

فما هى القوة الكامنة فى الإسلام التى جعلته ينتشر هذا الانتشار فى أرجاء العالم، وأن يقف فى وجه الهجمات الخارجية على الرغم من ضراوتها.

هذا هو السؤال الكبير الذى دار فى خلد الدول غير الإسلامية قديما، والذى لايزال محيراً أذهان أصحاب الملل غير الإسلامية إلى اليوم.

ومنذ أواخر القرن الثامن عشر بدأت أوربا مع النهضة الصناعية والاستعمار الجديد تجيب عن هذا السؤال بشكل جديد، بعد أن اختل ميزان القوى بين الشرق والغرب، وتجمد الشرق وأخذ فى الضعف، على حين نهض الغرب، وصعد سلم القوة بسلاح العلم والصناعة والتصنيع.

ولقد اتجه البحث منذ ذلك الحين عن سر قوة الإسلام يسير فى طريق علمى، وتسلم رايته جماعة يسمون بالمستشرقين، وقد عالجوا هذا البحث من زوايا شتى، وهى تكون على اختلافها دراسات متكاملة،

بدأت هذه الأبحاث بما ينبغي البدء به ، أى بنشر الأصول نشراً علمياً محققاً مع العناية بالفهارس للاستفادة من تلك الكتب ، وهكذا نشر أعظم موسوعة تاريخية وهو تاريخ الطبرى ، كما نشرت المكتبة الجغرافية التى تشمل زهاء عشرة كتب فى الجغرافيا ، وكتب طبقات الأطباء وهى الفهرست لابن النديم ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة وأخبار الحكماء للقفطى .

ثم اتجه البحث ثانياً بعد نشر الكتب الخطية إلى الكتابة عن العلوم والفنون العربية المختلفة ، مثل الطب ، والهندسة ، والفلك ، والموسيقى ، وغير ذلك . وأحسب أن قراء العربية يذكرون كتاب المستشرق الإيطالى « نللينو » الذى جاء إلى مصر عند افتتاح الجامعة المصرية ، وألقى محاضرات فى تاريخ علم الفلك عند العرب ، طبعت كتاباً سنة ١٩١١ . فهذا نموذج لتلك الدراسات العلمية .

ثم اتجه البحث ثالثاً إلى الكتابة عن الإسلام نفسه ، ورأى المستشرقون فى ذلك الحين أن جوهر الإسلام وقوته فى التصوف فتعددت دراساتهم عن هذا العلم . حقاً كان للتصوف منذ القرن الخامس الهجرى تأثير فى المسلمين من جهة تمسكهم بالدين ، وبخاصة بعد نشأة الطرق الصوفية التى كانت تجمع بين الدين والعلم والسياسة لأن « الرباطات » الصوفية كانت المواقع الأمامية للمسلمين التى يدافعون منها عن البلاد . وظل للطرق الصوفية هذا الأثر فى القرن التاسع عشر ، ولكنه أخذ فى التدهور شيئاً فشيئاً مع النهضات الحديثة فى كافة أنحاء العالم الإسلامى ...

* * *

كان ذلك حال الدراسات الغربية عن الإسلام ، وهى التى تلخصها الاتجاهات الثلاثة السابقة ، نشر المخطوطات ، والعناية بالعلوم عند العرب ، والأبحاث فى التصوف والعقيدة بوجه عام .

وقد استنفدت تلك الاتجاهات أغراضها . إذ أن معظم الكتب الهامة قد فرغ المستشرقون من نشرها ، وقد ترجم بعضها لأهميته ، كما أن المباحث عن التصوف لم يعد فيها حاجة لمستزيد .

ولذلك وجب أن تتجه الأبحاث عن الإسلام وجهة جديدة ، يمكن أن تلخص فى أمور ثلاثة .

(١) الكشف عن التأثير الأجنبى فى الحضارة الإسلامية قديما ، وكيف وقع هذا التأثير ، وعلى أى نحو ، وفى أى المدن وما هى الكتب التى نقلت إلى اللغة العربية وكان لها تأثير فى تلك الحضارة .

وهذا النوع من الدراسة فى غاية التخصص

ويحتاج إلى تتبع الكتب فى ترجماتها الأولى وموازنة هذه الترجمات العربية بأصولها السريانية واليونانية . فنحن نعرف أن معظم التراث اليونانى كان قد نقل فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين إلى اللغة السريانية ، فلما ظهر الإسلام ، واستتب وبدأت حركة الترجمة منذ أوائل الدولة العباسية ، واشتدت زمان الرشيد والمأمون والمعتصم فى بغداد ، نقلت الكتب عن السريانية ، وكان يكتفى بهذا النقل ، أو تراجع الترجمة على الأصل اليونانى وقد حدث عند نقل الكتب من اليونانية إلى السريانية شيء من التغيير لاختلاف اللغتين ، فلما نقلت الكتب مرة أخرى من السريانية إلى العربية وقع تغيير آخر .

ومن أحسن الدراسات الخاصة بهذا الضرب من الترجمة عن اليونانية من خلال السريانية ، ذلك البحث الذى قدمه الدكتور خليل الجر عن مقولات أرسطو ، فى أصلها اليونانى ، ثم فى ترجمتها السريانية ، ثم فى ترجمتها إلى العربية . وهى دراسة نال بها إجازة الدكتوراه من جامعة السربون ، فى أثناء الثلاثينيات من هذا القرن .

ولما كانت هذه الدراسات فى غاية الصعوبة كما ذكرنا ، فإنها تحتاج إلى انقطاع وزمن وتخصص ومعرفة وثيقة بعدة لغات ، ولذلك لا يزال يعمل بعض المستشرقين منذ سنوات كثيرة فى إعداد مخطوطات للنشر مع موازنتها بأصولها اليونانية ، ولم تصدر أعمالهم بعد . أما الذين يستعجلون ، فإن دراساتهم على الرغم من أهميتها تتسم بالضعف . مثال ذلك الدراسة التى نشرها الأستاذ فرنشسكو جبرييلى لكتاب « تلخيص النواميس » للفارابى . نشر النص العربى فى (٤٢) صفحة ، وترجمه إلى اللغة اللاتينية ، ووضع معها بالألفاظ العربية وما يقابلها باليونانية فى ثلاث صفحات تقريبا . وكان الأجدر أن يكتب مقدمة البحث بلغة حديثة كالانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية بدلا من اللاتينية ، وكذلك الترجمة . وما دام الناشر قد آثر اللاتينية ، فلست أدرى لِمَ لَمْ يضع المصطلحات اللاتينية إلى جانب اليونانية .

وليس غرضنا الآن نقد النص المنشور ، وإنما غرضنا فقط بيان عناية المستشرقين بالموازنة مع الأصول اليونانية . ومن هذا القبيل أيضا ، على سبيل المثال لا الحصر ، كتاب علم العدد لنيقوماخوس ، والذى نشره المستشرق « كوتش » ، وهذا الكتاب ترجمة عربية قديمة لكتاب فى علم العدد ، من تأليف نيقوماخوس أحد الرياضيين الذين كانوا يعيشون فى الإسكندرية ، ويعد من علمائها . وقد نشر المستشرق فى آخر الكتاب ثبتا

بالمصطلحات العربية وما يقابلها باليونانية .

هذا الاتجاه نحو عصر الترجمة فى الإسلام لاشك يجلو جانبا مهما فى تاريخ الثقافة العربية ، ويثبت كيف استطاعت اللغة العربيـــة أن تكون لغة حضارة عالمية ، ولغة علم تتسع لجميع العلوم .

٢ — الاتجاه الثانى نحو العلوم عند العرب. حقا كانت الدراسات عن العلوم بدأت منذ القرن التاسع عشر ، بعضها فى الطب ، وبعضها الآخر فى الرياضيات كالحساب والهندسة ، إلا أن تلك الدراسات لم تكن مستفيضة ، وكانت تحتاج إلى مزيد من العمق والإحاطة والمتابعة .

وكانت هنـاك علوم بأكملها لم يدرسها المستشرقون فى القرن التاسع عشر ، مثل علم الكيميـــاء الذى لم يبحث بمعنى الكلمة إلا على يد المستشرق « كراوس » الذى وفد إلى مصر قبل الحرب العظمى الثانية ، وبقى بها إلى عام ١٩٤٥ تقريبا عندما انتحر لأسباب لم يكشف الستار عنها بعد ، لأنه كان يهوديا ، ويبدو أن إسرائيل كانت قد طالبته بأمور عجز عن فعلها . وقد طبع بحثه عن « جابر ابن حيان » باللغـة الفرنسية فى مصر ، فى مجلدين ، وذلك بالمجمع العلمى المصرى . وكان « كراوس » قد نشر قبل ذلك جزءاً كبيراً من رسائل جابر بن حيان .

وعلم آخر لم يدرسه المستشرقون من قبل اللهم إلا فى مقدمة كتبها أحدهم بمناسبة نشر كتاب فى الجغرافيا . ثم انقطع عالم مستشرق روسى، هو « كراتشونسكى » لدراسة هذا العلم ، وأحاط بجميع الكتب الجغرافية العربية ، والتى كانت قد نشر بعضها باسم « المكتبة الجغرافية » ، ثم كتب بحثا مطولا فى مجلدين باللغة الروسية ، وقد ترجم هـذا الكتاب الجليل إلى اللغة العربية عن الروسية رأساً ، وصدر منه الجزء الأول (الناشر لجنة التأليف والترجمة والنشر) ، والجزء الثانى فى المطبعة وسيصدر قريبا . ويعد هذا الكتاب نموذجا للتـأليف الرصين ، المحيط بكل أطراف الموضوع إحاطة تامة ، مع معرفة وثيقة بالبلدانيات ، والتضاريس ، والأجواء ، والأفلاك ، والأدب واللغة ، لأن الجغرافيا فروع كثيرة ، وبعض هذه الفروع كان يؤخذ من كتب اللغة وقواميسها . ومن أجل ذلك جعل المستشرق عنوان كتابه « الأدب الجغرافى عند العرب » .

وقد أشرنا من قبل إلى كتاب الأستاذ « نللينو » ، « علم الفلك عند العرب » والذى صدر سنة ١٩١١ أى منذ أكثر من خمسين عاماً ، وأكبر الظن لو أن هذا المستشرق كان لا يزال على قيد الحياة ، لأصدر من كتابه طبعة ثانية معدلة تعديلا أساسيا فى ضوء

المخطوطات العربية التي كشف عنها ، وطبع بعضها . ومع ذلك لا يزال كتابه ذا قيمة كبيرة ، وإن احتاج إلى تعديل ، في بعض التفصيلات لا في الهيكل الأساسي .

ولكن هناك علوم عربية كثيرة لا تزال في حاجة إلى دراسة شاملة مثل علم النبات ، وعلم الحيوان ، وعلم الجيولوجيا ، وعلم الهندسة ، وفروع كثيرة من العلم الرياضي ، وعلم الطب ، وعلم الصيدلة والعقاقير ، وغير ذلك . وإذا كان من الصحيح أن دراسات جزئية قد تمت في كل هذه العلوم ، إلا أن التأليف الشامل فيها ، والمحيط بها لم يتم بعد ، لا على أيدي المستشرقين ، ولا على أيدي المسلمين أنفسهم .

نقول ذلك لأن المسلمين والعرب بدءوا يتلقفون الفكرة من أيدي المستشرقين ، فأقبلوا على التأليف في هذه المجالات بالمنهج الحديث المنظم الذي كان يسير عليه المستشرقون . وفي بعض الأحيان يشترك مستشرق غربي ، ومسلم عربي في إخراج دراسة واحدة . مثال ذلك كتاب « الفلاحة » لابن بصال ، الذي نشره وترجمه ، وعلق عليه اثنان ، أولهما « خوسي مياس بييكروسا » الأستاذ بجامعة برشلونة ، والثاني « محمد عزيمان » السكرتير العام لوزارة التربية بالمغرب . والكتاب من منشورات معهد تطوان سنة ١٩٥٥ . ومثال آخر لهذا التعاون كتاب « هنري كوربان » عن تاريخ الفلسفة الإسلامية الذي ظهر هذا العام في باريس ، بالاشتراك مع « سيد حسين نصر » و « عثمان يحيى » .

ولكني أقصد إلى شيء آخر ، وهو استقلال المؤلفين العرب أو المسلمين بالتأليف باللغات الأجنبية . ومثال ذلك كتاب جليل صدر منه الجزء الأول ، والثاني في طريقه إلى الصدور ، بعنوان تاريخ الفلسفة الإسلامية A History of Muslim Philosophy أشرف على تأليفه الأستاذ شريف من الباكستان ، وجميع الكتاب الذين كتبوا فصوله مسلمون إما من الباكستان أو الهند أو مصر والشام والعراق وغير ذلك من الدول العربية . وليس الكتاب خاصاً بالفلسفة فقط ، بل بالفكر الإسلامي بوجه عام ، إذ فيه فصول عن الفقهاء والمحدثين والمفسرين والأدباء ، وقد اشتركت في هذا الكتاب بفصلين أحدهما عن الكندي والآخر عن ابن رشد ، وهما باللغة الإنجليزية لأن الكتاب كله بهذه اللغة ، وحتى الذين كتبوا باللغة العربية فقد ترجمت فصولهم إلى الإنجليزية . والكتاب منشور في فيسبادن بألمانيا .

٣ — الاتجاه الثالث ، وهو الأهم ، نحو

الكتابة عن الإسلام من الناحية الاجتماعية والسياسية . وقد اقتضت ضرورة العصر الاتجاه هذه الوجهة ، ذلك أن علم الاجتماع علم حديث جداً ، لم يصبح علماً بمعنى الكلمة إلا فى هذا القرن العشرين ، وكذلك الحال فى علم النفس ، لذلك كان لابد أن يدرس الإسلام فى ضوء هذين العلمين ، وبمناهجهما الحديثة دراسة جديدة ، سواء من الناحية التاريخية ، أم فى الوقت الحاضر .

إن الاهتمام بالنواحى السياسية والاجتماعية والأخلاقية فى الإسلام سمة مميزة لدراسات معظم المستشرقين فى الوقت الحاضر ، وذلك لسببين : الأول : أن الإسلام لم يدرس من قبل من هذه الزاوية ، فكان لابد أن تطبق عليه المناهج الجديدة فى البحث ، وأن يفتح الباب لمثل هذه الدراسات . والثانى : أن الغرض الأساسى للمستشرقين منذ قيام الاستشراق قديماً وحديثاً هو البحث عن السر فى قوة الإسلام والمسلمين . وقد اتجهت المباحث قديماً نحو الكشف عن العقيدة الإسلامية وعن العلوم عند العرب ، واليوم يتجه البحث نحو تركيب المجتمع الإسلامى .

ونضرب مثالا - على سبيل المثال لا الحصر - لكتابين أحدهما للأستاذ روزنتال بعنوان « الفكر السياسى عند المسلمين فى العصر الوسيط » طبع طبعة أولى سنة ١٩٥٨ ، وأعيد طبعه فى نشرة شعبية رخيصة سنة ١٩٦٢ .

والكتاب الثانى بعنوان « البناء الاجتماعى للإسلام » ، صدر سنة ١٩٦٢ ، للأستاذ « روبن ليفى » . ولهذا الكتاب قصة تؤيد ما نذهب إليه من تطور الدراسات الاجتماعية فى العصر الحاضر بسرعة سريعة . ذلك أن طبعته الأولى صدرت فى مجلدين سنة ١٩٣١ والثانى سنة ١٩٣٣ ، بعنوان « الإسلام من الناحية الاجتماعية » The Sociology of Islam ولكن تطور علم الاجتماع السريع اقتضى أن يعدل المؤلف من كتابه تعديلا جوهريا ، فأصدره فى طبعته الثانية المعدلة سنة ١٩٥٧ بالعنوان المذكور آنفا ، وهو بالإنجليزية The Social Structure of Islam

ومن الدراسات التى تنحو هذا المنحى ولكن بطريقة أخرى ، الكتب الثلاثة التى ألفها الأستاذ « مونتجومرى وات » ، والتى تؤلف « ثلاثية » عجيبة ، وهى على التوالى « محمد فى مكة » ، و « محمد فى المدينة » ، و « الإسلام وتوحيد المجتمع » . ولما كانت هذه الكتب الثلاثة ، أو ثلاثية « مونتجومرى وات » ، فى غاية الأهمية والخطر ، إذ اتبع فيها التفسير المادى للتاريخ إلى الحد الذى اتهم فيه بالشيوعية ، فهى لا ريب جديرة بالتنفيد ، وهذا ما سوف نصنعه فى المستقبل إن شاء شاء الله ؟

دكتور أحمد فؤاد الأهوانى

الكتب

نقد وتعريف : محمد عبد الله السمان

خالد بن الوليد والدعوة المحمدية :

للأستاذ محمد نجيب المطيعي

هذا الكتاب الذى نشرته مكتبة الجامعات بالقاهرة تبلغ صفحاته زهاء ثلثمائة وعشرين صفحة ، مهد المؤلف له ببحث عن المقومات النفسية للعرب ، ثم أشار إلى ميلاد خالد ونشأته وحروبه فى الجاهلية ، كما تحدث عن مدونى التاريخ الإسلامى ، ونشأة التدوين ، ورأى أن عبد الله بن عمر أول من حاول التدوين موجها همه إلى نطق النبى الكريم بين أصحابه ، إلا أنه مزق صحيفته خشية أن تختلط بالقرآن ، ثم تبعه بعض التابعين الذين تلقوا عن ابن عمر ، وقد قام عروة بن الزبير بالتدوين نقلا عن غيره بدون إسناد ، وذلك فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان وولى عروة ابن إسحق المتوفى عام ١٥١ هـ مقتبساً معلوماته من عروة ، ثم يليهما ابن هشام الذى استقى معلوماته عن ابن اسحق مع أنه توفى بعده بقرن ونصف ، ثم تبعهم الواقدى ثم الطبرى وهكذا .

ويشير المؤلف إلى صفحة جديدة فى تاريخ خالد ، حيث تحول من دفاع عن الأوثان وذب عن تقاليد الآباء ، وسجود اللات والعزى ومناة ، إلى دفاع عن الإسلام وقيمه ومبادئه ، فكان إسلامه حادثا خطيراً فى تاريخ قريش ، اهتزت له جنبات مكة ، وارتعدت منه فرائص أبى سفيان زعيمها .

وينتقل المؤلف مع خالد فى المعارك التى اشترك فيها أو قادها ، إلى تبوك ، وإلى ثقيف ، وإلى البطاح ، وإلى العراق والشام ، ليسجل له بطولات حفل بها التاريخ ، وعبقرية عسكرية فذة لم تزل مثار دهشة وعجب إلى يومنا هذا .

والمؤلف لم يكن فى دراسته عن خالد مجرد مؤرخ يتتبع الروايات الصادقة فى سيرة البطل ، وإنما كان باحثا ومدققا وممحصا لهذه الروايات ، وقد عنى عناية كبرى بالقضايا التى أثيرت حول خالد فى معاركه ، ليبين فيها وجه الحق والصواب ، وينزع عنها غبار الإسفاف والافتئات معاً .

فقصة خالد مثلا مع بنى جزيمة ، قد أخذ على خالد فيها أنه تعجل الفتك بهم ، ولم يمهلهم

حتى يتقين من قبولهم الدعوة الإسلامية أو رفضها حتى ينفذ حكم الله فيهم ، والمؤلف هنا بعد أن يسرد الروايات التاريخية للقصة يرجع عمل خالد في بني جزيمة إلى ثلاثة احتمالات يسوق على كل منها شواهد من التاريخ :

الاحتمال الأول : أن يكون خالد رأى القوم وعليهم سلاحهم ، فظن بهم الغدر ، وأراد أن يعاجلهم قبل أن يعاجلوه .

والاحتمال الثاني : أن يكون خالد رأى ترددا في بني جزيمة حيال دخولهم في الإسلام ، فأعمل فيهم السيف .

والاحتمال الثالث والأخير : أن يكون في نفس خالد بقية من إرث الجاهلية وأحقادها ، وقد كان بين بني جزيمة وبني سليم قوم خالد من ثأر .

ويخلص المؤلف بعد تمحيص هذه الاحتمالات إلى أن خالداً قد أخطأ في عمله هذا خطأ فدح بيت مال المسلمين بما غرقه من ديات وعوض بأمر من الرسول كعلاج لخطأ خالد ، وقد أخذ الفقهاء من هذه القصة حكم القائد الذي يخطىء ، فيودى عنه ما كان من دماء وأموال من بيت المال .

وينفي المؤلف عن خالد أن يكون قد قتل مالك بن نويرة ليحظى بامرأته الجميلة من بعده ، ويرى أن في القصة تهالكا وافتياتا على خالد ، وبما يبرىء خالداً أن مالك ابن نويرة لم يمت مسلماً ، ولم يكن قتله جناية من خالد ، ويستدل المؤلف برواية لقاء متمم ابن نويرة أخي مالك مع عمر بن الخطاب ، حين سمعه يرثي أخاه فقال عمر : « هذا والله التأبين . ولوددت أني أحسن الشعر ، فأرثي أخي زيداً بمثل ما رثيت به أخاك ، فقال متمم : والله لو أن أخي مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته » . كما يستدل أيضاً بمناقشة أبي بكر لخالد حيث انتهت المناقشة ببراءته .

ويناقش المؤلف قصة عزل خالد إثر موقعة اليرموك ، بل ويشكك في هذه الرواية إذ ليس من طبيعة عمر الحازم أن يعزل قائداً في مثل هذه الظروف الحرجة ، ويقيم تشككه على ان خالداً قد اشترك في بعض المواقع بعد اليرموك ، بل لقد وجد دينار ذهبي ضرب في طبرية في السنة الخامسة أو السادسة عشرة الهجرية من دنانير خالد ضربت على هيئة الدنانير الرومية .

الكتاب دراسة على جانب من الأهمية ، والمؤلف بذل جهداً له تقديره في تحليل الأحداث ، وتحقيق الدرايات .

الإسراء والمعراج :

للدكتور محمد محمد أبو شهبة :

يقع في مائة صفحة وبضع صفحات من القطع المتوسط ، مهد لموضوع الإسراء والمعراج بتمهيد في ثلاثين صفحة عن حاجة البشر إلى الشرائع السماوية ، وحقيقة الرسل والمعجزة ، ومعجزات الرسول الحسية ،

وناقش المنكرين المعجزات الحسية، ثم انتقل إلى الموضوع نفسه، فتكلم عن الإسراء والمعراج وثبوتهما بالقرآن والسنة، وأكد أن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد معا، وناقش رأى المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه حياة محمد، وهو تصوير الإسراء والمعراج تصويرا روحيا مبنيا على فكرة وحدة الوجود، ويرى المؤلف أن هذه الفكرة فكرة خاطئة ومن مخلفات الفلسفات القديمة، وقد انتصر لها وتشيع بعض المتصوفة الذين ينتسبون إلى الإسلام وكتموا بها لمكان عاقبتهم الإلحاد فى الله وصفاته.

الخطر اليهودى

للأستاذ محمد خليفة التونسى

هذا الكتاب أول ترجمة عربية أمينة كاملة لبروتوكولات حكماء صهيون، قدم لها أستاذنا المرحوم العقاد، كما كتب المترجم مقدمة تحليلية فى مائة صفحة كشف فيها عن خطورة هـذا الكتاب، وبعض عناصر المؤامرة الصهيونية، وذعر اليهود لنشر هذه البروتوكولات، كما قارن بينها وبين كتبهم المقدسة وأقوال ربانيهم وزعمائهم، وأكد أن المبادىء الصهيونية شر من المبادىء المكيافلية، وهذه النسخة العربية الوحيدة قام بترجمتها الأستاذ التونسى عن الطبعة الخامسة للترجمة الإنجليزية.

فضائل النبى فى القرآن :

للشيخ عبد الله الصديق الغمارى :

هذا الكتاب الذى نشرته مكتبة القاهرة بالأزهر يقع فى مائة وعشرين صفحة من القطع الكبير، تناول فيه المؤلف فضائل النبى من واقع كتاب الله فى جميع السور القرآنية، وألحق بهذا الكتاب بحثاً آخر فى ثلاثين صفحة تحت عنوان : « النفحة الإلهية فى الصلاة على خير البرية » ضمنه عديداً من الأحاديث النبوية التى تشيد بفضل الرسول وعلو منزلته.

الشريف الإدريسى وأثره فى الجغرافيا

للأستاذ مصطفى محمد كامل

هذه الرسالة إحدى حلقات « كتب إسلامية » التى يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، أراد المؤلف ببحثه أن يكون كشفاً للنقاب عن حضارة عربية ازدهرت على يد العرب، وإحساسا بفضل علمائنا وأثرهم فى تطور العلم، وفى مقدمتهم الخوارزمى، واليعقوبى، والاصطخرى، والمسعودى، وابن حوقل، والمقدسى، ثم الإدريسى الذى ولد عام ٤٩٣ هـ فى « سبتة » بالأندلس وقت إغارة المرابطين عليها

محمد عبد الله السمان

فتاوى مختارة

تقديم : ابراهيم محمد الأصيل

(الإجابة لجنة الفتوى)

المراد بحديث « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة » :

السؤال :

ما المقصود بحديث النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة » . لأن هذا الأمر قد استشكل علينا ؟ أحمد عبد الله باغوث كينيا - ممباسا

الجواب :

حديث : « إذا أقيمت الصلاة ، فلا صلاة إلا المكتوبة » ، المراد منه النهي عن أن يشتغل المصلى بالنافلة إذا شرع المؤذن فى الإقامة سواء تحية المسجد وركعتا الفجر وغيرهما من النوافل ، فإن ذلك يشغله عن إدراك فضيلة الركعة أو الركعتين معه وصلاة الجماعة آكد من صلاة النافلة فإنه قيل بوجوبها بخلاف النافلة فإنه مجمع على سنتها ، فإذا فعل وشرع فى صلاة النافلة عند شروع المؤذن فى الإقامة كان ذلك مكروها مع صحة صلاته . وقال بعض الأئمة : كان حراما ولا تنعقد صلاته ، أما إذا كان متلبسا بالنافلة قبل شروع المؤذن فى الإقامة فإنه يتمها إذا لم يخش فوات الجماعة فإن خشى ذلك قطعها .

السؤال :

نقل الدم — عدم التبليغ عن الأمراض المعدية .

١ — ما حكم التطوع بالدم ... ؟

٢ — ما حكم عدم التبليغ عن الأمراض المعدية ... ؟ مهندس محمد وجدى المصرى

الجواب :

عن السؤال الأول نجيب : بأن التطوع بنقل الدم جائز بشرط أن تكون صحة المنقول منه قوية حتى لا يتضرر بنقل الدم منه قال تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ، وأن يكون الدم خاليا من الأمراض المعدية حتى تنتقل العدوى إلى غيره قال صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » .

وعن الثانى : نجيب بأن أخذ الحيطة فى حال الإصابة بالمرض المعدى واجب صيانة للمجتمع عن تفشى الأوبئة وعدم التبليغ المصاحب للإهمال حرام لما فيه من تعريض المجتمع للعدوى بالأمراض الفتاكة ، الأمر الواجب على الجميع العمل على دفعه بقدر الطاقة .

السؤال :

وضع عين ميت لآخر

١ — هل يجوز إخراج عين ميت

ووضعها لأعمى لينتفع بها طوال عمره وهل يجوز الميت بذلك ثوابا إذ أن عينه ستصير بعد مدة ترابا ؟

٢ — ما حكم الصلاة على مكبر الصوت ؟

عبد الله أحمد ـ الهند

الجواب :

نجيب عن الأول : بأن الميت يتألم مما يتألم منه الحي غير أن ضرر الحي يفقد بصره أعظم فإذا تحقق لدى الإخصائيين أن نقل عين الميت إلى الحي نافع له جاز ما دام لا سبيل إلى التخفيف عنه غير ذلك تحقيقا للمصلحة بارتكاب أخف الضررين ، بشرط ألا يمانع فى ذلك أهل الميت حتى لا تكون فتنة ، ويتقاتل الناس وألا يكون المنقول إليه مهدر الدم كالزانى المحصن والمرتد والحربى وإلا فلا حرمة له فلا يضر الميت لأجله .

وعن الثانى : نفيد بأن الصلاة على مكبر الصوت جائزة إذا احتيج إليه لإسماع المأمومين ولم يحدث به تشويش على مصل فإن حدث به تشويش على مصل حرم ، وإن لم يحتج إليه فالصلاة بخشوع أولى .

السؤال :

لحم الحلوف ـ زكاة الفول السودانى زكاة الخليطين :

١ — فى بلادنا « أرتيريا » حيوان يسكن الخلاء والجبال يسمى « الحلوف » ويتغذى بأوراق الشجر وبفضلات النباتات فهل هذا الحيوان يؤكل أو يحرم أكله ؟

٢ — يزرع فى بلادنا الفول السودانى بكثرة ، فهل يزكى الفول السودانى كما يزكى القمح والشعير أرجو أن تكون الإجابة على مذهب الإمام مالك ؟ .

٣ — فى بلادنا تشترك الزوجة مع الزوج فى تكوين ثروة حيوانية أو تجارية فهل يعتبر مال الزوج أو الزوجة معا بهذه الحالة كأنه مال واحد فى الزكاة أم هناك تفصيل ؟ .

عبد القادر عمر عيد — أرتيريا

الجواب :

عن الأول نفيد بأن الحلوف من الحيوانات المستخبثة عادة عند ذوى الطباع السليمة وهو أشبه بغيره من وحوش كالذئب ونحوه فلا يجوز أكله ، وإن كان هو يأكل أوراق الشجر والنباتات فالحمار مثلا يأكل ذلك وهو محرم الأكل .

وعن الثانى بأن الفول السودانى تجب فيه الزكاة لأنه من القطانى السبعة التى عدها العلماء مما تجب فيه الزكاة ويحصل به الاقتيات عادة .

وعن الثالث بأن الخلطة لا يعتبرها المالكية إلا فى النعم والإبل والبقر والغنم فإن الخليطين يعتبران حينئذ كمالك واحد أما فى غير النعم فكل على ملكه لا زكاة عليه فى ماله إلا إذا بلغ نصابا .

وكذلك الحنابلة ، أما مذهب الشافعية رضى الله عنهم فإنهم يعتبرون الخليطين كمالك واحد فى كل مال تجب فيه الزكاة سواء فى ذلك الماشية وغيرها .

أنباء وآراء

مناقشات :

الأخلاق ولغة الأرقام

مناقشات كثيرة دارت فى الأيام الأخيرة بمجلس الأمة . فى محاولة حل ما أسماه سيادة الرئيس « بالمعادلة الصعبة » وتتلخص هذه المعادلة فى هذا السؤال البسيط :

كيف تنخفض أسعار المواد التموينية وغيرها إلى الحد اللائق بالمستوى العادى للشعب بينما أيضا تستمر عملية بناء الوطن وتحقيق مشروعاته فى كافة القطاعات .. والذى لاحظته — وأدهشنى — أن سائر الحلول التى طرحت للمناقشة .. هذه الحلول كلها قد أغفلت جانب الأخلاق والمثل ؛ كأنما المشكلة الاقتصادية لا تتصل من بعيد أو قريب بهذا المستوى الأخلاقى الهابط الذى تنحدر اليه أمتنا فى عنف وجنون .. وأنا هنا أحب فى عجالة أن ألقى ضوءاً على المشكلة الأخلاقية ومدى تأثيرها فى الاقتصاد القومى .. على الذين يناقشون مشكلة الاقتصاد يقنعون إليها على الأقل — على أنها من جملة الأطعمة التى يضعونها على مائدة البحث .

ونحن نعرف أن الدولة عندنا - مثلا - تبيح صنوفاً من المسكرات إعتقادا منها أن هذه المشروبات تفيد الخزانة - بعدة ملايين تأخذها من التجار والشاربين كضريبة - ولكن الدولة بالطبع لم تحسب حساب آلاف الأسر، وآلاف الشبان، وآلاف الثروات التى تحطمت على صخرة هذه المسكرات وأصبحت وأصبح أصحابها عالة على المجتمع ، يعيشون كما تعيش الطفيليات فى أنها لا توزع إلا الشر ولا تنشر الا البوار ، إن الذى ينفق جنيها فى الليلة من متوسطى الدخل على الخمر والملاهى الليلية وصالات الرقص (والكباريهات) .. هذا الإنسان لا بد أن يولول يوم يزداد كيلوا اللحم عشرة قروش مثلا لا لشىء إلا لأنه لم تترك له ألوان الضياع أى شىء لا لحم ولا غيره .

ورب الأسرة الملزم بتوفير كل الكماليات لأسرته وإلا اتهم بالجمود والرجعية ، والفتيات وأمهاتهن اللاتى تغريهن مجلات الأزياء على ملاحقة أحدث المودات و « التايورات » التى تظهر فى عاصمة الفجور فى الأرض - باريس - الماجنة .

هؤلا وأولئك لا يمكن أبدا الآن يصرخوا من زيادة قرش على سعر أية سلعة لأن الكماليات والمودات وغيرهما قد استنفدت هذا القرش وأضاعته . .

وبعد - فلست فى حاجة إلى أن أطيل بعد رأينا الامبراطورية العجوز تهوى على يد كريستين كيلر وتتحطم - كما قال قاضيها وينتج بسبب ضياع الأخلاق فيها على الرغم من ثرائها المادى الكبير - ، ألا رحم الله شوقى:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هو ذهبت أخلاقهم ذهبوا
وليس بعامر بنيان قوم
إذا أخلاقهم كانت خرابا

هدى الله أمتنا وأخذ بيدها إلى طريق الصواب ؟

عبد الحليم عبد الفتاح عويس
كلية دار العلوم

ذكورة وأنوثة :

« تعرضت الدكتورة سهير القلماوى والدكتورة عائشة عبد الرحمن الحديث عن الكلمة التى ألقاها الأستاذ محمد الغزالى بالمؤتمر الوطنى ، وبما ذهبت إليه الأخيرة إنكار مقارنة الرجل بالمرأة زاعمة عبث المقارنة بين أبى جهل وعائشة رضى الله عنها مثلا ... » .

أقول : مهما كثر القول فى المرأة وموقفها من المجتمع ، وموقف المجتمع منها ، فإننا فى حاجة إلى تلك الحيدة التى لا يصدر القول فيها أحكاما مطلقة تبعاً للهوى ، ومجاراة لتلك الدعاوى التى أصبحت سمة الدراسات الحديثة .

وإذا كان الإيمان بفكرة لا يكون إيمانا كاملا إلا إذا تناول جزئياتها وكلياتها مع فهمنا لكل ، فإن الإيمان بما جاء به الإسلام ينبغى أن يتناول جزئياته قبل أن يتناول كلياته فضلا عما أرسله الأصوليون ببطلان تعليل الأحكام ، وعدذلك بحثا فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعى ، فإذا وجد الدليل المادى والمعنوى ، فإن ذلك ادعى إلى عدم الخوض فى تلك المسائل أن رضيت بها النفس أن لم ترض .

والذى عزب عن أولئك الذين تشوفت نفوسهم للكلام بصدد تلك المسألة أن مناط المقارنة هو « البيت » مناط وجود الأنوثة التى هى إحدى المجهولات فى معرض الامتنان .

محمد بدر عبد الجليل
جامعة الإسكندرية — أسرة اللغة العربية

* أخبار قصيرة :

فاز بعضوية المجمع اللغوى بالقاهرة السيد نائب رئيس الوزراء لشئون الأوقاف والأزهر أحمد عبده الشرباصى خلفا للمغفور له أحمد لطفى السيد ، كما فاز بالعضوية فضيلة

الأستاذ الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد عميد كلية الدراسات العربية بجامعة الأزهر خلفاً للمغفور له الإمام الأكبر الشيخ محمود شيخ الأزهر السابق .

• فاز بجائزة الدولة التقديرية لعام ٩٦٤ كل من الأساتذة محمد فريد أبو حديد للآداب والدكتور عبد الحكيم الرفاعي للعلوم الاجتماعية والدكتور أحمد رياض تركي للعلوم ، ومن الجدير بالذكر أن قيمة الجائزة ٢٥٠٠ جنيه مع ميدالية ذهبية ، وميدالية تذكارية لعيد العلم .

• أعلن موريا عضو البرلمان الهندي أن سلطات الأمن اعتقلت خلال الأسبوع الأول من شهر ديسمبر أكثر من تسعة عشر ألف عامل من أعضاء الحزب الجمهوري وينتمي معظمهم إلى طائفة المنبوذين ، بسبب الاضطرابات التي قاموا بها في جميع أنحاء الهند للمطالبة بتحسين أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية .

في محيط الأزهر

• استقبل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر في ١٤ ديسمبر الكاردينال كونيك رئيس أساقفة فينا بالنمسا ، وبحثا معا رسالة الأديان في دعم قضية السلام ، وعدوان الصهيونية على العرب بفلسطين ، هذا وقد وجه الكاردينال الدعوة إلى شيخ الأزهر لزيارة النمسا وإلقاء عدة محاضرات عن الإسلام هناك .

كما استقبل فضيلة الإمام الأكبر المستشرق الفرنسي برجارناشو أستاذ التشريع الإسلامي بكلية حقوق جامعة باريس ، والذي يزور القاهرة بدعوة من المهندس أحمد عبده الشرباصي نائب رئيس الوزراء لإلقاء محاضرات في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر .

أهدى الإمام الأكبر مكتبة إسلامية كاملة مكونة من مائة وثمانين مؤلفا في فروع علوم الإسلام المختلفة إلى جمعية محبي الدراسات الإسلامية التي تكونت أخيرا في فينا عاصمة النمسا .

تقرر إهداء الشعوب الإسلامية ثلاثين ألف نسخة من المصحف الشريف المطبوع والمرتل بمناسبة شهر رمضان المعظم وذلك لتوزيعها على الهيئات والأفراد والجمعيات في البلاد الإسلامية قبل أول رمضان .

فى محيط العالم الإسلامى

• اتحاد ماليزيا ... وإسرائيل :

كان من المقبول شكلا وموضوعا أن ينص دستور اتحاد ماليزيا على أن دين الدولة هو الإسلام ، لأن أغلبية شعوب السكان فى الاتحاد الماليزى من المسلمين .

ولا يعتقد عاقل — بعد ذلك — أن يكون مقبولا شكلا ولا موضوعا ، تصريح رئيس اتحاد ماليزيا فى البرلمان منذ أيام ، بأن الاتحاد لا يمكنه سحب الاعتراف بإسرائيل ، لأن إسرائيل دولة معترف بها فى هيئة الأمم المتحدة ، وكون رئيس الاتحاد السيد تنكو عبد الرحمن يعود بعد يوم من تصريحه الأول فيؤكد أن الاتحاد لن يتبادل التمثيل الدبلوماسى مع إسرائيل ، ليس إلا لعباً بالألفاظ .

إن السيد تنكو عبد الرحمن يعلم علم اليقين أن قرارات هيئة الأمم المتحدة ليست ملزمة لجميع الدول الأعضاء فى أية حالة من الحالات ولا ضرورة لأن نقول : كيف يستساغ لدولة ينص دستورها على أن دينها الرسمى هو الإسلام ، أن تعترف بدويلة معتدية باشرت أول عدوان لها على مقدسات الإسلام نفسه ، وعلى مليون مسلم عربى تلقى بهم فى متاهات الفناء ؟ لأن هذا النص لمجرد النص واستغلاله عاطفياً فى الأزمات .

إن الصراع القائم بين أندونيسيا المسلمة ، واتحاد ماليزيا الذى نص دستوره على أن دينه الرسمى هو الإسلام . هذا الصراع الذى جعل الرئيس أحمد سوكارنو يصرح فى البرلمان الأندونيسى بأنه مسلم ووطنى وشيوعى .

ويشرك فى وزارته عضوين شيوعيين ، هو الذى جعل رئيس اتحاد ماليزيا يعض بنواجذه على صداقة إسرائيل ذيل الكتلة الغربية .

* * *

• السودان الشقيق :

إن الوثبة التى قام بها شعب السودان فى الشهر الماضى ، وثبة تاريخية أثبتت وجوده كشعب حى يرفض الضيم ، ويبذل من أجل حريته دماءه وعرقه ، ولا شك أن الاستعمار قد أقام مأتماً لنفسه إثر وثبة الشعب السودانى الجريئة ، وقد بدأت اللطمات توجه إليه بعنف حين قررت حكومة السودان منع الطائرات البريطانية من المرور فوق السودان فى طريقها إلى عدن والجنوب العربى ، والطائرات البلجيكية فى طريقها إلى الكنغو .

ولكن هذا الاستعمار عودنا أنه من الصعب أن يسلم بأنه قد لفظ أنفاسه الأخيرة، وفى سبيل إثبات أن فيه بقية من رمق يعبث بأصابعه فى أضيق النوافذ، وها هو ذا يستغل جنوبى السودان ليحرك الفتنة، وما الاضطرابات الأخيرة إلا حركة استعمارية بغيضة..

إن شعب السودان: شماليه وجنوبيه شعب واحد، وقد وثب وثبته الأخيرة القوية الجريئة من أجل السودان بأسره، لا فرق بين شمال وجنوب. ونحن نرجو أن تتغلب الوطنية؛ حتى تصفى تلك النفوس الضعيفة التى لم تتخلص بعد من رواسب الاستعمار، ليتفرغ السودان الشقيق لما هو أهم، ويأخذ مكانه الصحيح بين دول العالم الحية.

• مؤسسة لنشر الإسلام والعربية:

أعدت وزارة الأوقاف بالجمهورية العربية المتحدة، التخطيط الجديد لمشروع الخدمات التى ستنفذها خلال السنوات الخمس القادمة، وكان من أبرز المشروعات العشرين مشروع إنشاء المؤسسة الإسلامية التى ستشرف على تعليم اللغة العربية، والعلوم الإسلامية فى دول آسيا وأفريقيا، وستتبع هذا المشروع وحدات اجتماعية مزودة بالإخصائيين، كما ستزود كل وحدة بمسجد ومعهد دينى ووحدة صحية.

والذى لا ريب فيه، أن مثل هذا المشروع سيكون له أبعد الأثر، وبالطبع بعد أن يخرج إلى حيز التنفيذ، فالإسلام فى معظم دول آسيا وأفريقيا لم يزل بدائيا، والتبشير لم تزل له قوته، وإمكانياته التى ينافس بها الإسلام الذى يجب أن يتخذ لنفسه مكانة أسمى فى الأماكن الوثنية التى هى فى مسيس الحاجة إلى غزو إسلامى.

إننا نأمل أن يهتم اهتماما بالغا بتعليم اللغة العربية للمسلمين، حتى يكونوا وثيقى الصلة بدينهم وقرآنهم، والأحاديث النبوية، والفقه الشرعى، كما نأمل أن تختار هذه البقاع الكتب الإسلامية التى توضح معانى الإسلام فى يسر وبساطة، والتى تتجنب من الأفكار ما يوحى بالجدل أو الإسفاف، كما نأمل ثالثا أن يختار الدعاة المستنيرون واسعو الأفق، الذين سيحملون إلى جانب علمهم عقيدة وإيمانا، وطاقة من الصبر والاحتمال.

• • •

أخبار قصيرة:

• الباكستان: اجتاحت الباكستان منذ أسابيع مظاهرات ضخمة معادية للرئيس أيوب خان، مما اضطر الحكومة إلى أن تصدر قراراً فى الأسبوع الأول من ديسمبر بإغلاق جميع معاهد التعليم الحكومية والأهلية إلى أجل غير مسمى، ومن الجدير بالذكر

أن السيدة فاطمة جناح شقيقة المغفور له محمد على جناح ، والمنافسة للرئيس أيوب خان فى انتخاب الرئاسة هى التى تقود جبهة المعارضة فى الباكستان .

• ليبيا والجزائر : بدأ الرئيس أحمد ابن بيلا محادثاته فى الأسبوع الأول من ديسمبر محادثاته مع رئيس وزراء ليبيا : السيد محمود منتصر ، وقد تناولت المحادثات مسألة تنسيق السياسة البترولية للبلدين باعتبارهما من أكبر الدول المنتجة للبترول فى أفريقيا .

• اتحاد ماليزيا : تقرر أن تزود كل من كندا والولايات المتحدة ماليزيا بالمقاتلات لمواجهة أندونيسيا فى معركتها معها . وكانت بعثتان عسكريتان فى أوائل ديسمبر : إحداهما كندية والأخرى أمريكية قد زارتا لهذا السبب كوالامبور عاصمة ماليزيا

• السودان : أذاع راديو أم درمان فى الأسبوع الثانى من ديسمبر أن قرارا صدر بالعفو الشامل عن جميع السودانيين الذين هربوا من السودان منذ يناير عام ١٩٥٥ ، والذين صدرت ضد بعضهم أحكام غيابية ، وقدم آخرون منهم للمحاكمة ، ودعا الراديو جميع الذين شملهم العفو إلى العودة إلى السودان والإسهام فى بناء أمتهم .

• أندونيسيا : أصدر زعماء الأحزاب العشرة فى أندونيسيا فى ١٣ ديسمبر ١٩٦٤ بيانا جددوا فيه مبايعة الرئيس سوكارنو لشغل منصب رئيس الجمهورية الأندونيسية مدى الحياة .

• اعتمد المهندس السيد أحمد عبده الشرباصى نائب رئيس الوزراء عشرة آلاف جنيه لبناء مسجد افكبو فى شرق نيجريا بجوار مقر المركز الإسلامى هناك .

• العراق : رأت حكومة العراق اتخاذ الخطوات لتوحيد المناهج الدراسية بين العراق ومصر ، وقد طلب وزير المعارف بالعراق من مديريات الوزارة المختصة إعداد الدراسات ، والمقترحات الخاصة بالقوانين والأنظمة المعمول بها حاليا فى المراحل الدراسية المختلفة .

• المغرب : وافقت الجمهورية العربية المتحدة على تصفية المشاكل المعلقة بينها وبين المملكة المغربية ، وقد صدر بيان بذلك فى الرباط فى شهر نوفمبر الماضى عقب المحادثات التى أجريت بين الملك الحسن الخامس والمشير عبد الحكيم عامر خلال جولته الأخيرة فى شمال أفريقيا . هذا وسيزور الملك أوائل العام الجديد القاهرة بدعوة من الرئيس جمال عبد الناصر .

محمد عبد الله السمان

pas négliger, institué des défenses, que vous ne devez point violer; mais il a omis certaines choses, non pas par oubli, mais par miséricorde pour vous. Donc, à propos de telles choses, ne cherchez pas trop." C'est dans de telles circonstances, nous dit Ibn Hibbâne, que fut révélé le passage Koranique qui dit :

"O vous qui avez cru, n'interrogez pas au sujet de certaines questions dont l'explication vous serait funeste, attendu que si vous y insistez pendant que le Koran est encore en train d'être révélé, cette explication vous sera donnée. Dieu l'a omise, car il est clément et miséricordieux. Avant vous, un autre peuple avait insisté sur des questions semblables, mais par la suite, il s'est montré infidèle à leur égard."

Cette élimination dans les règles koraniques de ce trop de *comment* et de *combien* est donc une mesure prise expressément, en vue de permettre aux hommes d'exercer différemment leur pouvoir intellectuel, physique et moral.

Voilà pour cette morale pratique et les traits généraux qui la caractérisent.

Passons maintenant à la morale théorique.

Aspect théorique — Ici également notre méthode s'écarte de la méthode commune. D'abord c'est l'aspect théologique ou juridique qui intéressait le plus nos savants. D'emblée, nous nous plaçons sur le terrain éthique, en posant chaque question dans les termes où elle se pose pour les moralistes modernes. D'autre part, c'est le Koran lui même que nous prenons pour point de départ, avec le souci constant d'en tirer la réponse par un recours direct au texte. Et c'est là précisément que réside la difficulté ; car les textes relatifs à la théorie morale n'ont pas la même abondance et la même clarté que les préceptes pratiques. Mais une question préalable doit se poser.

Le Koran est-il un livre spéculatif, ou peut-on lui demander ce qu'on demande aux œuvres philosophiques ?

choisi et révisé
par
DR. AFIFY ABDUL-FATTAH

[*Suite*]

peuple sur les affaires communes. la forme de l'Etat musulman et le procédé pour établir son chef : suffrage universel, ou réservé à l'élite ? République ou Royauté ? etc..

Cette recherche excessive de la précision légale peut se manifester chez ceux qui font la loi, ou ceux qui la subissent. Dans le premier cas, elle est souvent déterminée par une défiance de la part des législateurs à l'égard des sujets à qui on confie l'application de la loi; au reste, elle tend à supprimer toute initiative, à rendre la vie commune, monotone, insupportable, à faire des membres de la société comme des exemplaires d'un même modèle mécanique. Mais il n'est pas rare de rencotrer parmi les hommes d'action eux-mêmes des gens qui souhaiteraient voir le législateur tout délimiter, tout codifier. A supposer l'entreprise réalisable, comment expliquer une telle exigence poussée à la limite, autrement que par la recherche du moindre effort intellectuel et moral ? pour ne pas dire par une abdication pure et simple de la personnalité.

Le Koran ne pèche pas par cette tendance à la quentification de toutes les règles. Il ne pèche pas non plus par la tendence opposée. Cette sage mesure, cette position tinermédiaire où l'on se tient toujours à l'écart des deux extrêmes, a-t-elle été prise fortuitement, arbitrairement, ou bien comporte-t-elle de la finalité ? Pour se convaincre que le Koran aussi bien dans son silence que dans ses explications vise à cette sagesse législative impeccable, il suffit de se rappeler le fait suivant :

Au c urs de l'un de ses discours, le prophète dit : "O Hommes, Dieu vous a prescrit pélerinage; accomplissez le donc." Un homme s'éleva alors et demanda : Faut-il l'accomplir tous les ans ? Le Prophète s'abstint d'abord de toute réponse; mais le question-neur insista. La Prophète répondit alors, un peu couriouсé : "Si je disais oui, c'est qu'il serait ainsi prescrit; or, si l'on vous obligeait à l'accomplir annuellement, vous ne pourriez point vous y conformer. Laissez-moi tranquille, tant que je vous laisse; c'est à force de questionner et de discuter auprès de leurs Prophètes que vos prédécessurs ont péri. Lors donc que je vous interdis une chose, évitez-la; mais quand je vous adresse un commandement, vous n'avez qu'à le mettre en pratique dans la mesure du possible." Dans une autre formule plus explicite, rapporté par Ibn Djarîr, le Prophète s'exprime ainsi : "Dieu a établi des limites qu'il ne faut point dépasser; a prescrit des devoirs qu'il ne faut

"La Morale du Korân"

Par

DR. MOHAMMAD ABDULLAH DRAZ

(3)

Ce caractère totalisant trouve son complément dans un autre caractère. qui va lui donner sa plus haute valeur. Après avoir tracé pour chaque domaine de la vie une ligne de conduite, le Koran nous présente les cadres ainsi tracés sous la frome de cercles concentriques, susceptibles chacun de s'élargir et de se rétrécir en harmonie avec l'ensemble, au point de se pénétrer mutuellemant sans empiéter les uns sur les autres.

Comment le Koran a-t-il pu produire cet effet prodigieux ? Le processus en est très simple. C'est qu'il a choisi pour l'énoncé de ses règles des formules d'une *frappe* toute particulière, formules qui se tiennent toujours à mi-chemin entre l'*abstrait*, vague et flou, et le *concret* par trop formaliste. Ainsi les cadres qu'il censtruit sont à la fois rigides et souples. De par sa clarté, la teneur de chaque règle forme une sorte de barrière contre le désordre et l'anarchie du caprice; mais de par son indéte-rmination, elle laisse à chacun le choix de la forme sous laquelle il doit adapter son idéal aux canditions données de l'expérience et concilier son devoir de l'heure avec les autres exigences de la moralité. Adaptation et conciliation devant s'effectuer par un sage effort, éloigné en même temps du relâchement et de la fougue non-contrôlée. De cette manière, la législation Koranique a pu atteindre une double perfection qui se trouve aillcurs difficilement conciliable : douceur dans la fermeté, progrès dans la stabilité, nuance dans l'unité. De cette manière, elle a permis à l'âme humaine de s'assurer un double bonheur, également antinomique : soumission dans la liberté, aisance dans la lutte, initiative dans la continuité. D'aucuns n'ont pas bien compris cette haute sagesse. C'es' ainsi qu'on a parfois reproché à l'Islam de n'avoir pas précisé, par exemple, le mode de consulter le

Book Review

THE RELIGION OF ISLAM

A Standard Book, Companion and Introductory to the Quran

VOL. 11 (Third Edition)

By : Dr. Ahmad A Galwash, M.A., Ph. D.

This book Should make an admirable introduction to Islam. It is authentic, comprehensive and highly readable. The author's analysis of the various aspects of Islam is acute and Sound. This VOL. 11 of "The Religion of Islam" is a survey of the Religion in its three sides : the devotional, the Social and the spiritual, as the reader shall find in this volume a well - informed survey of Practical Devotions, Transactions, Penal laws, Ethical basis of Social life and Moralities, Muslim Jurisprudence, Religious Defensive Warfare and Spiritual aspects of Islam.

Having explained the Muslim Prayers, with Practical illustrations, the author gives a detailed account of Zakat and Legal Alms, Fasting and Pilgrimage. The author describes with care and Sensitiveness, the various aspects of Marriage, Different forms of divorce, Legal Status of a married woman, Law of inheritance, Owner Ship and Divisions of Property.

Dealing with the penal laws the author explains the Criminal intentional injury, Adultry, Theft and Robbery, Divisions of Punishment and Classification of Sinful acts. This book gives an adequate explanation of the basis of social life in Islam. One of the most important subjects, in this chapter, is the position of women in Islam. The author also explained the various ways contributed by Islam towards the improvement of the position of women.

On the whole, the book is a brilliant piece of work. Hence this digest of "The Religion of Islam" Shall be a useful introduction to the message of Islam, particularly for English speaking people all over the world.

(From page 5)

Becca (Mecca), a blessed place, a guidance to the people".

It was, therefore, necessary that the celebration of the night of Ascent should remind the Muslims all over the World their connection with the Palestine and their obligation to this country whose Sons have been wrongfully driven out by a Cursed community "Those of the Children of Israel who went astray were Cursed by the tongue af David, and of Jesus, Son of Mary, that was becausc they rebelled and used to transgress".

The talk on the Ascent Should call upon the Muslim world to take necessary steps for restoring the right of people of palestine. Their position is there as follows : "Hou Should ye not fight for the cause of Allah and of the feeble among men and of the women and the children who are crying : Our Lord ! Bring us forth from out of this town of which the people are Oppressors ! Oh, Give us from thy presence some protecting friend ! Oh, Give us from Thy presence Some defender !"

(From page 11)

form the nucleus of an Islamic Society in Portsmouth, both of which gave me much happiness. Dr. Awad of the Islamic Cultural Centre in London wns of great help with my correspondence to Al Azhar and I finally left London a few weeka ago for Cairo, where I was delighted to find Sheikh Sharkawi now back at Al Azhar. I feel very happy to be here in Egypt and at the very warm welcome and help everyone has given me, including the Rector of Al Azhar H. E. al-Sheikh H. Mamoun and the Director H. E. al-Sheikh A.H. al-Baqouri, who have been so kind as to agree to give me some personal tuition and also the Governor of Zagazig and Dr. I. Zayed of Cairo University who were most hospitable. I am really terribly impressed by all that I find here in Cairo and I am eagerly looking forward to seeing all the wonderful things your country has to offer, not only to me but to the world.

Now with a heart full of peace my life is dedicated to the service of Allah, which can best be described by this verse from the Holy Koran "Verily, my worship and my sacrifice and my living and my dying are for Allah Lord of the Worlds, Who hath no partner".

A.R. ANSARI *(Cairo 1964).*

and meditation, by this time I had become convinced of the intellectual superiority of Islam through its simplicity and logic but I desired a spiritual conviction also before embracing Islam, Then it was I had my dream and while I am conversant with the psychiatric interpretation of dreams, I am certain this dream went beyond such mundane realms. In this dream I was travelling in a caravan across the desert, it was night and I could see the stars and hear the creak of the camel harness but there was a terrible feeling of impending disaster and I felt I must escape to seek the help I knew was waiting for me somewhere in the desert; then I and three companions took our horses into the desert and rode till the sun was high when we found two Arabs sheltering in the shade of a large rock, when we asked who their leader was they replied with much reverence "Mohammad" and as I turned from them I saw a man approaching, I dismounted and as he drew near I knew this was their leader they spoke of. He came very close to me and looked in my eyes taking my hands in his, he then embraced me and as he did so my body seemed to blend into his so that I was able to see through he eyes and feel with his body. The feeling was indescribable but, for a brief moment, I knew the power and holiness of this man and knew him to be truly the Prophet of Allah . . . when I awoke and knelt in prayer I felt the happiness of a heart at rest.

Shortly afterwards I went to Madras where I was most fortunate in staying with Sheikh Ahmed al-Sharkawi of al-Azhar and after long theological discussions with him, I declared my Islamic faith first at his house then at the Jamalia Mosque and in front of the Chief Khazi of Madras, when the name of Abdul Raschid was given to me, this name I took from my boyhood hero the Caliph Haroun el-Raschid of Baghdad. At this time it was suggested I should go to Egypt and study Islam at Al Azhar, but as I had already promised to go to Pakistan and study with Prof. F.R. Ansari of Karachi University it was agreed I should travel to Egypt at a later date, one of my fondest memories is of my brothers in Madras as they bade farewell to me at the airport.

After sometime with Prof. Ansari, during which I gave some lectures and wrote on Islamic affairs, I returned to England last year and devoted myself to social work until such time as I could come to Egypt. While I was in England my mother became interested in Islam and eventually became a Muslim through me, taking the name of Miriam; I was also fortunate in being able to

(See page 12)

MY EMBRACING OF ISLAM

By: ABDU'L RASCHID ANSARI

In the name of Allah, the Beneficent, the Merciful.

Greetings to my brothers in Islam.

"Allah is the Light of the Heavens and the Earth. The likeness of His Light is as a niche wherein is a lamp. The lamp in a glass, the glass as it were a glittering star. Kindled from a Blessed Tree, an olive that is neither of the East nor of the West whose oil wellnigh would shine, even if no fire touched it. Light upon Light, Allah guides to His Light whom He will".

Before coming to the East in 1961 my life was one of restless roving, besides being an artist and poet I was also an actor and so my life in the theatre and artistic world was one of gaiety and fast living - a world of superficiality in which I tried to find the Light of Truth among the lights of London, for ever since I was a boy the answer to this question had fascinated me. Of God I had no doubt, but to find the true path to Him was the most precious and rare thing I desired above all else. This search of mine had been going on for many years and in all the books I read, the people I talked with, the places I visited, the signs all seem to point to the East and I came to the conclusion that if I would find the answer I sought then I would have to leave the sophistication of the West for the spirituality of the East. Reaching this conclusion, after much doubt and soul searching delays I finally said goodbye to my friends and family and set out on the most important journey of my life, a journey I swore would not end uutil I find the Way. It was night when I left England and as I stood on the deck of the boat watching the dim lights of the shore fade into the darkness, I felt rather afraid and lonely at the immense task ahead of me but, as I prayed to God to hold my hand and give me strength and guidance, there came to me the feeling of the rightness of my journey and slowly my fear vanished.

My search eventually took me to India where I lived in a Kerala monastery following a life of prayer

Then the Prophet added : " Have glad tidings, for God has forgiven you".

It is reported also that the companion of the Prophet Abu-Dharr said to the Prophet : " Teach me something that brings me closer to Paradise and makes me away from Hell " The Prophet said : " If you make bad deed, follow it with good deed, so you get by your good deed a ten-fold reward." Abu-Dharr asked : " Is the witness that there is no god but God is considered as a good deed ? " The Prophet answered : " It is the best of all ; it removes sins". In another Tradition, the Prophet is reported to have said to His companions : "Renew your faith" " How can we renew our faith ? " They asked. He said : " Say : there is no god but God, for this word is heavier than the heaven and the earth and what is therein ".

The Prophet Noah is said to have ordered one of his sons before his death : " I command to you these words : 'There is no god but God '; for if the Seven Heavens and the earth were weighed against these words ; they would over-weigh them." Moses is reported to have called his Lord : " O God ! Teach me something by which I remember you and call you " God said : " Say : There is no god but God, for if these words are weighed against the Seven Heavens and Seven Earths, They would over-weigh them."

Say : shall we indeed call on others besides God,
Things that can do us neither good nor harm —

And turn on our heels after receiving guidance from God? —

Like one whom the evils ones have made into a fool

wandering bewildered through the earth

(While) his friends calling 'come to us'

(Vainly) claiming) to guide him to the path?

Say : "God's guidance is the (only) guidance

And we have been directed to submit ourselves

To the Lord of the worlds".

(VI : 71)

d) Since all beings in this universe are not self-sufficient, and governed by divine immutable laws, you should come to the conclusion that there is One Being above everything, and that this Being is the Only One distinguished by the Divine Attributes. This is the meaning of " there is no god but God".

The more you study the aspects of this universe, the more you increase in your faith that really " there is no god but God".

God, the Almighty, described Himself in this Holy Verse :

" God - there is no god but He, the Ever-Living, the self-Subsisting by Whom all subsist Slumber overtakes Him not, nor sleep. To Him belongs Whatever is in the heavens and whatever is in the earth. Who is he that can intercede with Him but by His permission ? He knows what is before them and what is behind them. And they encompass nothing of His knowledge except what He pleases. His knowledge extendes over the heavens and the earth and the preservation of them both tires Him not. And He is the Most High the Great".

QUESTION

What are the proofs from the Quran and the Traditions " Sunna " which show that the declaration that " there is no god but God " is the first basic principle of Islam ?

ANSWER

It is reported that Omar Ibn Al-Khattab said : " The witness that there is no god but God is the expression of piety, sincerity and truth. For this declaration God created all creatures as He, the Almighty, said : ' And I have not created the jinn and the men except that they should serve Me '."

It is for this word of witness that God sent prophets, and revealed divine books. The Holy Quran says :

" And we sent no messenger before you but we revealed to him that there is no god but Me, so serve Me "

And :

" He sends down angels with revelation by his command on whom He pleases of His servants, saying : Give the warning that there is no god but Me, so keep your duty to Me. ?

The Prophet once heared a caller calling : " I witness that there is no god but God " when he said : " That is saved from Hell. " He said also to some of his companions : ' Raise your hands and say : There is no god but God. " After they obeyed the prophet's order, he himself raised his hand and said : " Praise be to God. O My Lord ! You commanded me with this word, and sent me by it and promised Paradise for it. You surly will not break your promise,"

"... The creation of God who created everything in perfection."

QUESTION :

We knew from our previous discussion that to witness that "there is no god but God" is the frist basic principle in Islam. What, then, is the meaning of this declaration ?.

ANSWER :

The prophet ordered Muslims that they should believe first that "there is no god but God". This sentence is the basis of Islam. It distinguishes the Muslim from the non-Muslim. Those who declare this sentence with faith are those who are promised prosperity and happiness in this life and the life hereafter : and those who deny it, are doomed to misery.

This sentence means that nothing in this universe is deserved to be worshipped and obeyed save God, the Almighty. He is the Only King and Ruler. Everything in the universe is in need of Him. He is beyond our senses and our minds. "Vision comprehends Him not, and He comprehends all vision; and He is the all - Kind, All-knowing"

This sentence of the declaration of faith indicates such important following meanings :

a) This great universe which cannot be comprehended fully by human mind must be created by a Living God. He must be, of necessity, out of need of anything else. He must be the Most-Power ul, the Most-Wise, the Source of life and sustenance for everything and the Exalted over disability and imperfection.

b) The Attributes of Godhead must be all ascribed to one being; for the Ruler of all things must be One in His Being Those Attributes cannot be divided among different gods : one to be the ruler, one to be the most-powerful, and so forth. The plurality of gods would necessarily bring the universe to ruin and extinction. Those Attributes, also cannot be exchanged, so one god assumes the position of godhead one time, and the other assumes it another times. For the god who could not preserve his godhead and his identity cannot grant life to others, nor can he manage and rule the universe.

c) Bearing this in mind, if you look in the universe, you find that everything you see or know cannot be described with the Godly Attributes. For all beings in the universe are not self-sufficient and are always in a state of change, and are governed by immutable laws.

The Fundamental Belief In Islam

(2)

By : Abdul Wadood Shalaby

How true is the assumption of the materialists that the world existed by chance ?

ANSWER :

The fitness of the earth to life takes different forms which cannot be explained on the basis of chance. The globe is suspended in the space running around itself, causing the alteration of day and night. It soars around the sun making one round each Year causing the alteration of the four seasons. Earth is covered with a gaseous cover composed of the gases that is necessary for life and preserving the degree of warmth which is suitable for life. The earth's cover carries water steam from sea through which rain falls and revives the ground. The size of the globe which is smaller than the sun and larger than the moon, is the secret of the preservation of life on earth. If the globe was smaller that it is now, it could not retain its liquid and gaseous cover, and the heat would be so tremendous on the surface of the earth that it would cause death to every living being. If the globe was larger that it is, the power of its magnetism would be more than it is now by 150 times. And if the globe is nearer to or farther from the sun than it is actually situated heat or coldness will be not suitable to life on its surface.

How possibly we could believe, then, that mere chance is the cause of such wonderful universe. This is certainly an impossibility. Surely, the world is created by a reasonable mind, by the will of God the Creator of this universe. The Holy Quran says :

"Surely, We created everything in definite measurement."

"And the earth we spread it out, and put in it mountains and grew in it every balanced thing."

"Nothing in the universe but we have its treasures; and we bring it down in a balanced measure."

"Everything with God is at a balance."

If a stalwart of the Jinn was able to bring the thrown of the Queen of Sheba unto solomon from yemen before he could rise from his place and One, with Whom was knowledge of the Scripture, has done such work before solomon's gaze returned unto him, then, how it will be difficult to believe that the Lord of the worlds carried His Choicest servant and His messenger by night from Mecca to Jerusalam? The beginning of the verse by the word "Subhan" is indicating that : The Allah, Almighty, is Exalted over disability. It is a regretful thing that some people are making uproars and suspicions about this miraculous story. It is recalled that this historical event took place when the prophet and his followers were facing cruel persecutions and threats from their opponents, The story of the ascent of the prophet was a great miracle of his prophethood as well as a good news foretelling a victory of Muslims over their enemies. At the time of this event the prophet and his companions were passing through a very dangerous period of their cause. The opposition to his preaching had grown rigid, the prophet had little succes among 'Meccans'. After the suffering of persecution of thirteen years the prophet and his followers migrated to 'Medina'.

The "Hijrah" makes a clear division of the prophet's mission. The Muslim were promised by God to enter Mecca in full security, the Quran says : "Ye shall enter the Sacred mosque, if Allah pleases, in full security". The entry was materialised soon, and the prophet entered his native city as conqueror without bloodshed and he proclimed a general amnesty. The Holy Quran Says : "Allah hath promised such of you as believe and do good works that He will surely make them to succeed (the present rulers) in the earth even as He caused those who were before them to succeed (others); and that He will surely establish for them their religion which He hath approved for them, and will give them in exchange safty after their fear". In fulfilment of this promise the Muslim conquests extended from china in the East and to Atlantic in the west.

The event of the 'ascent' connected the Sacred Mosque of Jerusalam with the Sacred Mosque of Mecca. The Quram describes both these places as, 'blessed one'. The Holy Mosque of Mecca is mentioned in the Quran as the first house built for mankigd for worship :

"Lo! the first Sanctuary appointed for mankind was that at

(See page 12)

The 'Ascent' of the Prophet

By :

ABDUL RAHIM FUDA

There is no difference of opinion among Muslims about the story of the ascent of Prophet Muhammad, as the Holy Quran Says: "Glorified be He who carried His servant by night from the Inviolable Place of Worship (Mecca) to Far Distant Place of Worship (Jerusalam) the neighbourhood where of We have blessed, that We might show him of Our tokens! Lo! He, only He, is the Hearer, the Seer."

They are agreed unanimously that the prophet Muhammad (peace be upon him) was carried by night from the Inviolable Mosque of Mecca to the Sacred mosque of Jerusalam and it was to show him of His singns and wonders as the Quran testified by this sentence: "…. that We might show him of Our tokens". The difference of opinion about the nature of the ascent, whether the Prophet was carried by night to Jerusalam, Whence he was caught up through the heavens, By bodily and spiritualy or it was a spiritual ascent?

What a pity! This is a despised and inconsiderable question, because there could not be such doubt about the ability and the command of the cherisher of the Universe. The Quran Says: "But His command, When He intendth a thing, is only that he Saith unto it: Be! and it is. Therefore Glory be to Him in whose hand is the dominion over all things! unto Him ye will be brought back."

Moreover, the Quran and the other scriptures narrate the miraculous story of Prophet Solomon (Sulaiman), with birds, Jinn and the thrown of the Queen of Sheba etc. It is mentioned in the story of Solomon with the Queen of Sheba that he Soid: "O chiefs! which of you will bring me her thrown before they come unto me Surrendering. A stalwart of the Jinn Said: I will bring it thee before thou rise from thy place. Lo! I verily am strong and trusty for such work. One with whom was knowledge of the seripture Said: I will bring it thee before thy gaze returneth unto thee. And when he saw it in his presence, (solomon) Said: This is of the bounty of my Lord, that He may try me whether I give thank's or am ungrateful."

self - reliance and independence. Thus it was that the words Rabbi and Rabbah, in Hebrew and Aramaic, and Rabu, in old Egyptian and Chaldean were used for one who brought up, he teacher and also the master.

When a child is born, it is but a help less lump of flesh and it instinctively cries for a protector and nourisher. The mother fills that role and she fulfils it with bound less love and devotion and never ceasing vigilance and care. According to its changing needs, she suckles it and gradually feeds it on different food which gives it strength and independence. She carries it in her lap, then supports it when it begins to stand and guides it as it begins to walk till it can run on its own and requires no help or guidance. This is the most perfect instance of 'nurture' or 'bringing up' that man can show. How imperfect and limited it is becomes obvious as soon as one lifts one's eye from that infinitesimal part of existence that is human life and casts it upon that vast and marvellous panorama of existence that includes countless beings and limitless forms of life and that is ever unfolded before one's eyes, if one but stops to see. With no one to teach them how to mother or nourish one finds animals, birds and insects performing those functions with greater devotion and constancy than even a human mother. There are also creatures beyond perception that have apparently none to nourish them but nevertheless find their nourishment provided for them from the moment they come into existence.

As one reflects on this, one is struck by the fact that not only are all the necessary means of existecne and nourishment to be found—that would be nature's bounty—but that they are found arranged in such perfect order that, if man dœs not disturb it, every thing is provided in the form, measure and manner in which it is required. Over and over again, the Quran draws attention to the order and right proportion in which every need of every being is provided for. "Verily we have created every thing in (the right) proportion and measure" (LIV : 49) Air, Water and food are the three indispensable requirements of life and not only are they found in greater quantity than any thing else but among themselves, they are to be found in a quantity which is exactly in proportion to their indispensability, water more than food and air in much greater abundance than either.(1)

---

(1) Quoted from "The Quntessence of Islam" by : Ashfaque Hussain.

for God; and the Quran adopted it not only because it had gained currency but also because it more suitable than any other word.

There was a stage in man's spiritual development when he bowed in adoration before various manifestations of nature; and that gradually and inevitably, led to idolworship. The number of gods grew, each representing some particular godly quality before which man bowed; and as the pantheon grew vast and bewildering, man's spirit longed and sought for one supreme god, the lord of all gods. Thus, while there were numerous names for gods, referring to their different attributes there was always a special word for the supreme Being. The basic letters of that word, in all semitic languages, were Alif (A) Lam (L) and Hay (H) and the Arabic Ilah, with the definite article (Al), became Allah.

As for the meaning of Ilah, there are various interpretations, but the Soundest appears to be that which derives the word from alha which means astonishment or wonder, (Alternatively, Ilah is said to be derived from the word walah, which also has the Same meaning). There could not be a more appropriate word for the Creator and the Lord of the universe. However much man may come to Know about Him, He remains beyond the range of human Knowledge. The more one tries to understand that Absolute Being, the greater is one's bewilderment. The quest begins and ends in wonder and humility. No other name could therefore be used for the Supreme Being. All other names only to some particular attribute of God and, in that Sense, are restrictive; but the word Allah immediately directs our mind to a Supreme Being who is all-embracing, beyond description and beyond Cognition.

Like Ilah, Rab is also a much used root word in all the Semitic languages. It means, in the most Comprchensive sense, to bring up or, in other words, to rear and nurture some living being Whether a plant or an animal or a human being, through its different stages of growth and according to its particular condition and needs till it attains maturity, i.e. that stage of its development when it ceases to need someone to look after it and can find its own where-withal of life for future progress; and even then the function of the Rab dœs not cease altogether but merely becomes less intense and less constant. The interest, devotion and readiness to guide and help are still there, but they are not seen in constant play as before, because their object has attained a measure of

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

CHIEF EDITOR :

AHMAD HASSAN AL - ZAYYAT

RAJAB 1384	ENGLISH SECTION EDITED BY : A. M. MOHIADDIN ALWAYE	DECEMBER 1964

THE QURANIC CONCEPTION OF GOD

By :
MOULANA ABUL KALAM AZAD

" Al - Hamdu L'illah Rabbil - Alameen "
praise be to Allah, Cherisher of the Worlds

The first verse of the first chapter of the Quran opens with hamd (Praise), just as the very first impress on the mind and instinct of man, when he sets out in quest of God or Truth, is that of wonder and admiration.

The Seeker after Truth is described by the Quran as one who " reflects on the Creation of the heavens and the earth (with the thought): Our Lord ! Thou didst not creat (all) this in vain" (111 : 191). As he looks around and reflects, his mind is immediately illumined by the realisation that everything within him as well as outside reveals the hand of a Creator of transcendental wisdom and power ; the care and bounty of the Creator manifest themselves in every particle of the universe. He is filled with wonder and admiration and he proclaims it with an instinctive exclamation, phrased differently according to the individual seeker's tradition and extent Knowledge but conveying the same homage to the Creator and Sustainer of the universe ; and this instinctive tribute to the Creator saves him for ever from the fatal error of losing himself in the beauty of the Created and forgetting the Creator.

The word Allah, even before the Quran, was used as a proper noun

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

الجزء السادس - السنة السادسة والثلاثون - شعبان سنة ١٣٨٤ هـ - ديسمبر ١٩٦٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

من رحلة الأندلس :

من روائح فردوسنا المفقود

بقلم : أحمد حسن الزيات

كان آخر من ودعت في القاهرة العالم الجليل الأستاذ : أحمد حسن الباقوري مدير جامعة الأزهر ، وكان أول من لقيت في برشلونة القسيس الحر : الأب أنخيلي جومز راعي كنيسة سرقسطة ، وكان بين وداع الأول ، ولقاء الآخر رحلة طويلة تحت النجوم ، وفوق الغيوم ، ابتدأت على طائرة مصرية سبحت بنا من سمائنا العربية الضاحية إلى سماء روما المضببة في ثلاث ساعات وبعض الساعة ، ثم انتهت على طائرة إيطالية ساحلت بنا فوق البحر الأبيض إلى نيس ثم إلى برشلونة في ساعتين .

وكان بيني وبين الإمام العربي حديث ، ثم كان بيني وبين الحبر الأسباني حديث . ولم يكن هذان الحديثان وحدهما هما اللذين جمعا بينهما في ذهني ، وإنما كان الجامع مشابه كثيرة من قسامة الوجه ، واستواء القامة ، وحلاوة النغمة وبراعة الذهن ، ولطافة الحس ، وطلاقة الفكر وخصوصية الزي ، وخلوص العقل من شوائب التقليد ورواسب الماضي ، وخوادع الرأي .

كان آخر ما بقي في سمعي من حديث الباقوري روايته عن أحد المفسرين الظرفاء في تفسير قول الله تعالى حكاية عن سليمان : « وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان

من الغائبين . لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين » ، إذ فسر العذاب الشديد الذى توعد به سليمان الهدهد بأن ينتف ريشه ويهاض جناحه ثم يترك بين جماعة من الطير ، لا هى من أهله، ولا هى من شكله ، حتى إذا نقرته لا يجد الريش الذى بقى ، ولا الجناح الذى يدفع ، ولا المنطق الذى يبين ، وكانت حالى وأنا بين المرضى فى بهو الانتظار من عيادة الدكتور (براكير) التى تضم ثلاثين طبيبا وعشرين طبيبة ومائتى ممرضة غير الموظفين والخدم ، أشبه بحال الهدهد لو أن سليمان أنجز فيه هذا الوعيد : كنت أجلس فى قوم من أشتات الناس والأجناس لا يتكلمون غير الأسبانية أو ما يشبهها ، فاذا تحدثوا لا أفهم ، وإذا حيوا لا أرد . نعم إنهم لم ينقرونى كما تنقر جماعة الطير الغريب عنها ، فان الإنسان من الأنس ، والوحش من الوحشة، ولكنهم صدوا بوجوههم عنى صدود الدمية عن الدمية فى المتحف العظيم .

وكان من توفيق الله أن جلس إلى جانبى ذلك القسيس الكريم ، ففطن إلى أننى لا أعرف الأسبانية ، فقلب على أذنى بعض اللغات حتى قال بالفرنسية : لعلك من الجزائر ، فقلت له : أنا عربى من مصر ، فهش بى وأهل ثم قال فى ابتسامة رقيقة : نحن إذن إخوة ، أنا من مواليد (طليطلة) ولا يزال بين أسرتى ، وبين العرب نسب شابك . وأن أسرتى تعرف إلى اليوم بأسرة (المولى) وهى لا تزال تعتز بهذا النسب ، وتحتفظ بهذا اللقب ، فقلت له وأنا أطالع فى محياه سحنة الباقورى وسمرته : لشد ما يسعدنى أن يكون أول من ألقى فى برشلونة رجل تنزع نفسه ونفسى إلى عرق واحد ، ثم أفضنا فى حديث العرب وما خلفوا فى الأندلس من آثار، وفى حديث الإسلام وما نقل إلى الفرنج من ثقافة .

وجاء دور القس فدعته ممرضة إلى لقاء الطبيب ، فقام وهو يربت بكفه اليسرى على كتفى ويقول : سأرجع . ثم عاد فاستأنفنا الحديث الشائق العذب، وشققناه إلى معان شتى، وكان بين دوره ودورى وقت طويل فسألته : ألا يزال رجال الكنيسة يعتقدون فى العرب والإسلام ما كان يعتقده أسلافهم من قبل ؟ فأجاب فى غير مداراة ولا مماراة : لقد درس المؤرخون المنصفون والعلماء المخلصون مآثر العرب ، ومبادىء الإسلام على المنهج الواضح والمنطق الصحيح ، والنية الحسنة ، فوجدوا أن خمسة عشر مليونا من المسلمين عمروا أسبانيا ثمانية قرون ومعهم الدين والأدب والفن والعلم والحضارة والعمارة ، قد نقلوها من الظلام إلى النور، ومن الفوضى إلى النظام ومن الهمجية إلى المدنية ، حتى أصبحت فى عهد الناصر والمستنصر مهوى الأفئدة ومنتجع العقول ، وملتقى الشرق والغرب

ويجتمع القيادة الروحية والمادية فى أوروبا والعالم كله . ثم أدركو أن ما أعمى المستكبرين عن رؤية النور إنما هو الجهل والتعصب ، فإن الأمر يومئذ كان للكنيسة فى سياسة الدين والدنيا ، ولم تر الكنيسة فى فتح العرب للأندلس إلا استبدال دين بدين ، وشعبا بشعب ، ولغة بلغة ، وسلطانا بسلطان ، فحاربت الإسلام بالشبه والأضاليل ، وحاربوا العرب بالخيانة والتفرقة ، ولو علموا كما يعلمون اليوم أن الإسلام طريق سماوى يؤدى إلى الله ، وأن المسلمين إخوة مؤمنة تتعاون على الخير لنعمت أسبانيا فى ظل التعايش السلمى بالنعيم الدائم ، والوحدة الشاملة .

أنا أعلم عن يقين أن الله نقطة فى مركز الكون يوصل إليها بطرق كثيرة ، مختلفة البدء متفقة النهاية ، والاعتقاد بأن طريقا بعينه من هذه الطرق هو وحده الذى يؤدى ، كان مصدر الشر على الناس جميعاً ، كل الطرق تؤدى إلى روما كما يقول المثل ، وما دام الطريق واضحاً مستقيما تبينه حدوداته ، وتهدى إليه أعلام الحق ؛ فهو لا محالة واصل ، ولا يضير سالكه أن يكون هناك طرق أخرى لكل منها اسم ورسم ، وأنا بهذا الاعتقاد أخدم الكنيسة التى أرعاها ، باعتبارها أحد هذه الطرق ، لا هى أكلها ولا هى أمثلها ، والإسلام الذى نقل البداة الجفاة من رعاة إبل وغنم ، إلى رعاة دول وأمم ، وحول أسبانيا الممزقة المستضعفة الجاهلة من عهد الفوضى والانحلال إلى عهد الناصر وابن رشد ، لا يمكن أن يكون هو الإسلام الذى زعم الجاهلون أنه قام على السيف ، وحكم بالتعصب ، وساد بالاستعمار ، وأن ما خلف فى الأندلس من الحضارة والعمارة والثقافة لدليل ناهض على سمو مبادئه وبلوغ وسائله وعدالة حكمه ، وإن الرأى الكنسى يميل اليوم إلى التوفيق بين المذاهب المسيحية المختلفة ، ولعله يميل بعد ذلك إلى التقريب بين الأديان جميعا . فقلت له وأنا أنظر فى عجب إلى المسح الذى يلتف على بدنه ، وإلى الصليب الذى يتدلى من عنقه : أو يوافقك إخوان الكنيسة على هذا الفهم ؟ فقال وهو يهز رأسه : لا أزعم ذلك ولكل رأيه .

وكان دورى فى الدخول على الطبيب قد حان فودعته وفى نفسى ونفسه أن نتلاق كلما واتت الفرصة .

لبثت فى برشلونة عاصمة أسبانيا بعد مدريد تسعين يوما معصوب العينين ، مرفوع الجنبين ، أسمع ولا أرى ، وأحس ولا ألمس ، وأتخيل ولا أتمثل . فإذا سألتنى عما رأيت من آثار فردوسنا المفقود قلت لك : لم أر إلا بعض المعالم من قطلونية فى أواخر أيام العلاج بعد أن كشف عنى الغطاء ، وخرجت من محبس أبى العلاء ، فجلت فى شوارع برشلونة الشجر ، ووقفت فى ميادينها الفيح ،

وجلست فى حدائقها الغُنّ . وركبت الطريق الصاعد من ساحل البحر الأبيض إلى ذروة (تيدابو) وهى قطعة من الروض سقطت من الجنة ، واستقرت على جبال (مالاس) و (مونت جويك) ، وشقت بينهما وادى (بزوس) ، وهو متنزه الناس فى أيام الآحاد والأعياد والمواسم .

فيما بين ذلك كنت أرسل طرفى العبران فى الأفق الضاحى فأرى الشمس التى أشرقت على قرى زها . تسعين سنة منذ فتح برشلونة موسى بن نصير سنة ٧١٣ م إلى أن استردها لويس بن شرلمان سنة ٨٠١ م واستنشق الهواء الذى استنشقه أجدادى الفاتحون المعمرون لحضرون فلاراً به رئاتهم ثمانية قرون ، ثم نفثوه فى أقطار أسبانيا ، وجبرتغل وفرنسا . ديناً وأدباً وعلماً وحكماً وعمارة وحضارة ، ولكنى وا أسفاه لا أرى الأعـــلام الخضر التى تخفق ، ولا المآذن الشم التى تنادى ، ثم أرد طرفى إلى الأرض فأرى الشمائل العربية ولا أرى العرب ، وأجد الخلائق الإسلامية ، ولا أجد الإسلام وتتراءى فى خيالى أطياف الأمويين والمرابطين والموحدين هائمة فى الضباب ، تنوح على ملك دال ، وحكم زال ، ومجد ذهب ، وما أدال هذا الملك ، وأزال هذا الحكم ، وأذهب هذا المجد إلا ما أصابهم من تفرق الكلمة ، وتعارض الهوى ، وتخاذل القوى ، وتحاسد الأنداد ومالأة العدو ، وتلك هى أدواء زعماء العرب فى كل حين ، من يوم السقيفة إلى يوم فلسطين .

• • •

لم أر إذن فراديس الأندلس ، ولكنى شممت عبيرها ، ووجدت رياها فى ثلاث أوانس من حسان الجنوب كن يمرضننى : أولاهن من طليطلة ، وتسمى سلطانة ، وثانيتهن من قرطبة ، وتسمى فضيلة (فاديلا) ، وثالثتهن من بلنسية وتسمى الثريا (إلمريا) وكان هؤلاء الأوانس الممرضات قد علمن أنى عربى من مصر ، فكن يتسابقن إلى خدمتى ويتماثين على غرفتى ، ويبتغين الوسائل إلى الوقوف طويلا بجانب سريرى يحدثننى عن أرومتهن العربية وما بقى منها فى دمائهن من الحنين إلى العرب ، والنزوع إلى الشرق . فإذا حدثتهن عن الإسلام ــ وقد كان دين أجدادهن ــ غمغمن بالكلام المغلق ، أو أبن عن الجهل المطلق .

ونشأت بينى وبين الأوانس الجميلات على طول الأيام ودادة قلب ، أو صداقة نفس ، تقول إنها مواصلة القريب ، أو مؤانسة الغريب أو مخاصة الحب ، فكن يطمئننى على سير العلاج ويصبرننى على احتمال العيش فى الظلام ، وطول النوم على الظهر ، وضيق النفس من الأرق ، ويشعرننى ــ بأنسهن المرح ، وحديثهن العذب ــ أنى فى بيتى وبين أهلى ، ويفضين إلى بأخبار المستشفى وبخاصة أخبار العرب النازلين به ، وكان حديثهن عن العرب قصيداً من المدح

على ما يظهرون لهن من عطف ، وما يفضلون عليهن من كرم ؛ إلا حديثهن عن عربى كبير كان يعمل فى ديوان ملك سابق ، فقد قلن : إنه دخل المستشفى وعلى كتفه منصبه لم يحطه عنه ، فهو يأمر وينهى كأنه فى ديوانه ، ويعامل الممرضات والسعاة معاملته لجواريه وغلمانه ولا يكاد الجرس المضىء ينطفئ من فوق بابه فإذا طلبوه إلى الطبيب فى أسفل الدار أصر على أن يصعد الطبيب إليه . وإذا أخبروه أن ذلك محال نزل فى بيجامته من غير رداء ، وصمم على أن يدخل قبل دوره من غير نداء . أما معاركه على الطعام فى كمه وكيفه فهى حديث الجيران والخدم . وهو مع هذه العنجهية كلها كز الأنامل سليط اللسان ، لا تسقط (البزيتة) (١) الهينة من كفه ، ولا تخرج الكلمة اللينة من فيه .

زارنى حين علم من الممرضات أنى فى المستشفى لأن من خـــير ما فيه أنه يقرأ الرسالة ، فمكث طويلا لا يدير بين فكيه إلا كلاما ثقيل اللهجة ، خطل المنطق عن معاونة مصر لليمن . ومعاذ الله أن اغثى نفسك بسماعه وأنت صائم .

هـذا لقاء القسيس وحديث الأوانس . وحديث الأوانس يتصل ولا ينقطع ، وينشط ولا يفتر ويطول ولا يمل ، ولقد ذكرت بصحبتهن ومودتهن أوانس الرشيد الثلاث : ضياء وسحر وخنث . وهن اللاتى أنطقنه بهذه الأبيات :

ملك الثلاث الآنسات عنانى
وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها
وأطيعهن وهن فى عصيانى
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى
وبه قوين أعز من سلطانى

غير أن أوانسى لم يكن منهن عصيان ، ولم يكن لى عليهن سلطان .

كذلك ذكرت أوانس (جيان) الثلاث اللاتى وصفهن الشاعر (مانويل ماتشادو) بقوله فى قصيدته المشهورة :

ثلاث سمراوات
شغلن قلبى من جيان .
عائشة وفاطمة ومريم .
ثلاث سمراوات رائعات الجمال
ذهبن ليجنين الزيتون
فوجدنه قد جنى ...

ولكنى لا أذكر أوانس ابن أبى ربيعة الثلاث اللاتى اتخذ منهن مجنا يتقى به عيون القوم :

فكان مجنى دون من كنت أتقى
ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

فإن الحديث برىء ، وإن رمضان كريم !

أما حديث الأندلس فسأعود إليه بعد أن أعود إلى برشلونة لإتمام العلاج ، فأعيش فى رياضها مع أول بنى أمية إلى آخر بنى سراج !

أحمد حسن الزيات

(١) عملة أسبانية تساوى ثمانية مليمات .

الناحية العلمية من إعجاز القرآن

للأستاذ أحمد محمد الغمراوى

— ٢ —

هناك جوانب عدة ينبغى أن يتناولها من يريد النظر فى الإعجاز العلمى فى القرآن عن طريق المطابقة بين القرآن والعلم الحديث فيما هو مشترك بينهما :

هناك جانب العلم الأساسيان : جانب موضوع العلم ، وجانب الطريقة العلمية فى دراسة الموضوع . ثم هناك جانب ما كشف عنه العلماء فى ميادين العلم المختلفة من حقائق خاصة يسميها العلم : دقائق ، ويسميها القرآن آيات ، ومن حقائق عامة يسميها العلم قوانين طبيعية ، ويسميها القرآن سنن الله فى الفطرة .

هذا الجانب الأخير هو الذى يهتم به الناس ويقع منهم فى الإقناع موقعا ، وهو أنفع الجوانب وأعونها على الدعوة إلى الله إذا تبين التطابق فيه بين ما كشفه العلم ، وما نزل به القرآن . لكن لا ينبغى أن يقلل من أهمية التطابق فى جانبى العلم الأولين ؛ فإنها الطريق إلى تلك الحقائق التى هى أقرب وأعجب إلى الناس .

أما طريقة العلم فى دراسة موضوعه فلها ركنان : ابتغاء الحق بالبرهان الوثيق فى المجال الذى اختاره العلم الحديث لنفسه ، مجال عالم الشهادة سوى الإنسان ، وركن التجربة الصحيحة ، والمشاهدة الدقيقة اللتين لا بد منهما فى الكشف عن الوقائع أولا ، واختبار صحة تعليل الوقائع المتشابهة ثانياً . وفى الكلمة السابقة [1] بيان كاف للتطابق التام فى الركنين كليهما . وهذا التطابق بناحيتيه من أكبر الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم .

وليس يضعف من دلالة التطابق فى الركن الأول أنه ركن ضرورى فى كل بحث ، علمى أو غير علمى ، فاشتراكه بين الفلسفة والعلم مثلا يقلل من دلالته فيما نحن بصدده ما دام ضرورياً للوصول إلى الحق فى العلم ، وما دام العلم الحديث ، والفلسفة لم يكونا معروفين حين نزل القرآن .

---

(١) عدد جمادى الآخرة .

على أنه إن كانت عمومية هذا الركن شبهة قد يتعلق بها منكر إعجاز القرآن من ناحية العلم ، فخصوصية الركن الثانى - من وجوب استعمال الحواس تحت إشراف العقل لاكتساب العلم اليقينى - بعيدة من كل شبهة ، ولا سبيل إلى إنكار الإعجاز العلمى فيه .

غير أن هناك دقيقة تحسن الإشارة إليها ، ودفع شبهة قد تبنى عليها ، هى أن آية سورة الإسراء : « ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ، لم تذكر من الحواس إلا السمع والبصر ، والعلم فى طريقته يستعمل كل الحواس ، وقد يكتفى فى رد هذه الشبهة بالتنبيه إلى أن السمع والبصر هما أهم الحواس ، وبدونهما لا يتيسر بحث علمى ، وبهما يتم الانتفاع ببقية الحواس ، لكن هذه البقية لم يخل القرآن الكريم من إشارة إليها ، وكثير من أسرار الكون يأتى فى القرآن عن طريق الإشارة إلى سنن اللغة التى نزل بها ليحيط بالفطرة من جميع أقطارها ، ولتظل أسرارها مكنوزة فيه حتى يأذن الله فى ظهورها على توالى العصور بإظهار كل عصر من آيات الله فى الكون على القدر الذى يتيسر به فى فهم بعض تلك الإشارات فى كتابه ، ويتجدد بذلك من إعجاز القرآن ما يكون حجة جديدة لله على الناس ، وسنلتقى من الله فيما نستقبل من الكلمات المثل بعد المثل مما يوضح هذا الإجمال ، وإذن فما هى الإشارة القرآنية إلى كسب المعلومات عن طريق العقل والحواس جميعا ؟

تلك الإشارة نجدها فى الآية الكريمة . آية سورة النحل : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »[1] هذه الآية أعم وأشمل فى معناها من الشطر الثانى لآية الإسراء إذ هى تشمل حياة الإنسان كلها منذ يولد ، من حيث نمو عقله باكتساب المعلومات عن طريق السمع والأبصار والعقل جميعا ، فى حين أن آية الإسراء تتعلق بحياته بعد أن يبلغ رشاده ، وتهديه إلى طريق العلم اليقينى ، وتحمله التبعة فى سلوك ذلك الطريق أحسن أم أساء .

والسمع والبصر والفؤاد ورد ذكرها فى الآيتين جميعا ، إلا أن السمع ورد على صيغة المفرد فى كلتيهما ، وورد البصر والفؤاد على صيغة الجمع فى آية سورة النحل فهل لذلك من حكمة ؟

إن الفخر الرازى فى موقف كهذا فى تفسيره آية (إنا منجوك وأهلك) من سورة العنكبوت تساءل : لماذا قالت الرسل

(١) الآية ٧٨ .

هنا « إنا منجوك » فى خطابهم لوطا ، وقالوا قبلها لإبراهيم (لننجينه وأهله) بصيغة الفعل فهل فيه من فائدة ؟ وقبل أن يجيب بجوابه المذكور فى صفحة ٦٦٨ من الجزء السادس من تفسيره ، قال ـ وهو المراد من هذا الاستطراد ـ : « ما من حرف ولا حركة فى القرآن إلا وفيه فائدة ، ثم إن العقول البشريه تدرك بعضها ، ولا تصل إلى أكثرها وما أوتى البشر من العلم إلا قليلا » ، ورضى الله عن الفخر الرازى ، فقد أصاب بقوله هذا وجه شبه أساسى بين القرآن الذى هو من عند الله لهداية البشر على مر العصور ، وبين الفطرة التى هى من خلق الله ومظهر قدرته وحكمته ؛ لا يختلف فيها شىء عن قرينة أدنى اختلاف إلا كان لذلك الاختلاف مغزى عند أهله من أولى العلم ، فلنلتمس الآن مغزى لجمع الأبصار ـ والأفئدة ـ وإفراد السمع فى آية النحل ، فقد التمسنا ذلك عند الزمخشرى والفخر الرازى فلم نجدهما تناولاه .

أما الأفئدة : فيكفى فى مجيئها على صيغة الجمع أن العقول تنشأ مختلفة فى الخصائص والقدر ليتمم بعضها بعضا فى الحياة ، والسمع فى وظيفته واحد قل أن يختلف فيها بين الناس ولذلك أفرد ، والبصر الذى آلته العين كالسمع الذى آلته الأذن ، وظيفته بين الناس واحدة ومع ذلك فهو لم يفرد فى الآية ، وتفاوت الناس فيه من حيث القوة لا يصلح تفسيرا لمجيئه على صيغة الجمع ، وإلا جاء السمع مجموعا كذلك ، لأن الناس يتفاوتون فيه أيضا من حيث القوة ، والأبصار بمعنى البصائر يغنى عنها ذكر الأفئدة فلم يبق إلا أن الأبصار جاءت بصيغة الجمع على المجاز لتدل على حواس الإدراك غير السمع الذى سبق ذكره فى الآية ، مادام موضوع الآية هو تذكير الناس بفضل الله عليهم فى تمكينهم من علم الأشياء بعد أن ولدوا لا يعلمون منها شيئا ، ومن العجب ذى الدلالة أن السمع جاء دائما مفردا ، والبصر جاء دائما مجموعا فى جميع الآيات التى اقترن فيها بالسمع عدا آية الإسراء .

وآيات النظر فى ملكوت الله فى السموات والأرض كثيرة فى القرآن ، بل هى أكثر من آيات الأحكام ، وما ذلك إلا لأن الكون وآيات الله فيه ، هو دليل وجود الله سبحانه ومظهر جلال صفاته وكماله ، ولقد قام المسلمون بما أمر الله ، من هذه الناحية لما استتب لهم الملك بعد الفتوح ، فكانوا هم من بدأوا عصر العلم الذى نصفه الآن « بالحديث » ظنا منا أنه لم يبدأ إلا فى الغرب ، وغفلة عما كان لأسلافنا من أثر فى هداية الغرب إليه لما اتصل أهله بالمدنية الإسلامية فى الأندلس وفى الشرق فى الحروب الصليبية ، ثم كان

ما كان مما أدى إلى غفوة المسلمين، وقعودهم عن العمل بما أمر به القــرآن فى هذا وفى غيره ،فسخر الله غير المسلمين فى الغرب للكشف عن أسرار الفطرة ، وآيات الله فيها ليتم ما وعد الله به فى قوله سبحانه :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » . والقرآن مخاطب به الناس فى جميع العصور بفهم أهل كل عصر من آياته على قدر ما أتوا من الفهم، ومن العلم . والضمير فى قوله تعالى (أنه الحق) راجع إلى القرآن وإن لم يذكر فى الآية المذكورة آنفا من سورة (فصلت) تشهد لذلك الآية التى قبلها : « قل أرأيتم إن كان من عند الله، ثم كفرتم به ، من أضل ممن هو فى شقاق بعيد» والشقاق الذى كان فيه مشركو العرب كان فى القرآن حيث ينكرون أنه من عند الله، وهو من عند الله، فإن احتيج إلى بيان فوق هذا أن الضمير فى الآيتين إنما يراد به القرآن كان تمام البيان فى أن القرآن كان موضع الحجاج قبل الآية السابقة بنحو سبع آيات ، إذ يقول الله سبحانه « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا: لولا فصلت آياته، أأعجمى وعربى ؟ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر، وهو عليهم عمى، أولئك ينادون من مكان بعيد » ويقول سبحانه قبل هــذه بآية : « إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ، وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » والذكر هو الكتاب العزيز . والكتاب العزيز هو القرآن الذى أغنى التصريح به فى هــذه الآيات قبيل اختتام السورة عن التصريح به فى الآيتين فى خاتمتها ، اكتفاء بالضمير الذى يدل على مرجعه السياق طبق الأسلوب البلاغى فى العربية . ولعل هذه الإطالة فى إثبات أن الضمير فى قوله تعالى «حتى يتبين لهم أنه الحق» راجع إلى القرآن لم يكن لها داع لولا أهمية ما سيترتب على هذا من الارتباط بين آيات الله فى الآفاق التى وعد الله بإظهارها لخلقه ، وبين القرآن الكريم الذى سيتبين للناس أنه الحق بظهور تلك الآيات ، وفى هــذا ما فيه من الندب إلى تبين ما يمكن تبينه من تمام التطابق بين ما يكشفه الله على أيدى العلماء من أسرار الفطرة ، وبين ما أنزل الله فى كتابه العزيز من آيات متعلقة بتلك الأسرار ، والسين فى قوله تعالى (سنريهم آياتنا) ينبغى أن تنبهنا إلى أن المراد بالآيات فى الآية الكريمة ليست هى مجرد هذه الظواهر الطبيعية البادية للناس منذ القدم ، ولكن هى أسرار مودعة فيها أو متعلقة بها إذا ظهر منها بعض على يد العلم فى أى زمن كانت دليلا على أن

القرآن حق من عند الله إذا وجدت من يحسن المطابقة بينها وبين ما جاء في موضوعها من آيات القرآن .

فالعلم الحديث بموضوعه وطريقته قرآني من غير شك ، لكن العجيب حقاً أن ترد مادة علم في القرآن الكريم متصلة بالظواهر الطبيعية التي جعلها العلم ميدان بحوثه، وجعل دراستها شغله الشاغل ، فكان ذلك دليلا على أن العلم الحديث ليس يضاد الدين كما يزعم الملحدون بل إن حقائقه في الإسلام من صميم الدين . فبهذا المعنى وردت مادة (علم) بصيغة الفعل في قوله تعالى من سورة يونس : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » الآية ٥ ، وبنفس الصيغة أيضا وردت في قوله تعالى من سورة الأنعام « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » الآية ٩٧ ، ووردت بصيغة اسم الفاعل مجموعا في قوله تعالى من سورة الروم : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين » الآية ٢٢ ، كما وردت في سورة فاطر أيضا بصيغة الاسم مجموعا في قوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها، وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور » ٢٧ ، ٢٨ ، وواضح أن العلماء والعالمين هم الذين يعلمون ما أودع الله من آيات قدرته وجلاله وعظمته وحكمته في هذه الظواهر التي ذكر في هذه الآيات وفي غيرها من كتابه ، وأن العلم بها يزيد المؤمن يقينا بالله وخشية له سبحانه ، والعلوم التجريبية كلها سخرها الله للكشف عن أسرار هذه وأمثالها في كتابه ، فلم يبق إلا أن يتعاون أولو الكفاية في العلم والدين من المسلمين على المطابقة في دقة واحتياط : بين آيات العلم وآيات القرآن ؛ ليعلم من لم يكن يعلم أن القرآن هو كتاب الله الحق ، وأن العلم الحديث بطريقته وموضوعه وحقائقه لا يجافي القرآن ، بل هو فرع من القرآن أو هو علم من علوم القرآن ؟

محمد أحمد الغمراوي

القيمة الأدبيّة في الأدب الصّوفي

للأستاذ عبد الكريم الخطيب

يستقبل دارس الأدب الصوفي للوهلة الأولى من النظر فيه مشاعر مختلطة غائمة لا يدرى معها ماذا يحمل هذا الأدب في كيانه من معطيات.. أهو كلام له مفهوم ومضمون ووراءه شيء، أم أنه تخبطات متخبطين، وشعوذات مشعوذين، وصيحات مخابيل ومتهوسين.. لا تحمل ثمرا، ولا زهرا، ولا ورقا:

ولهذا المظهر الغائم الغامض الذى يظهر فيه هذا الأدب لعيني لم يلم به إلماماً عارضا أو يلقاه على نية مدخولة غير خالصة.

لأجل هذا كانت تلك الجفوة التى يجدها هذا الأدب من كثير من العلماء والأدباء، الذين يمرون به مروراً عجلا ويلقونه أو يلقاهم على غير قصد أو نية.. في ثنايا الدراسات الأدبية أو العقائدية ...

وحقيقة هذا الأدب ـ شعره ونثره ـ ليست على تلك الصفة التي تدعو إلى مجافاته وتحمل على الزهد فيه.. وأنه إذا كان لغير الأدباء وجه لأن يعتزلوا أدب المتصوفة، أو أن يتحرجوا أو يتأثموا من الوقوف عنده والنظر فيه، التماساً للعافية في دينهم، والسلامة لمعتقدهم ـ على حسب ما يظنون ويقدرون ـ! نقول: إذا كان لغير الأدباء من علماء وفقهاء، أن يجفوا هذا الأدب، وأن يزهدوا فيه ويلووا وجوههم عنه، لأمر أو لآخر ـ فإن في أعناق الأدباء حقا لهذا الأدب، واجب الأداء، لا تبرأ منه ذمة الأديب حتى يؤديه على الوجه الأمثل، فيختبر هذا الأدب اختبارا محايدا، ويدرسه دراسة خاصة خالصة للأدب، لا ينظر فيه إلى شيء غير ما تقضى به الأصول المقررة في فن القول: ثم ليكن الرأى ـ بعد هذا ـ في هذا الأدب، حمداً أو ذماً، رضاً أو سخطاً، فهو ـ على أى حال ـ رأى واجب الاحترام، صالح للنظر فيه، والاطمئنان إليه، لأنه صدر من جهة اختصاص، كما يقولون

وقد كان لنا قول كهذا القول كما كتبنا في أعداد سبقت من الرسالة فاتهمنا أحد الفضلاء بأننا من «المتصوفة»، وأنه وجد ريح التصوف عالقاً فيما كتبت! وعلى الرغم من أنى حددت موقفي تحديداً واضحاً منذ أول حديث لى في هذه الدراسة، وقلت في صراحة صريحة لا تحتمل تحميلا ولا تأويلا:

إن هذه الدراسة للأدب الصوفي لا تمس الجانب العقدى من هذا الأدب، ولا تعرض له بخير أو شر، إذ هي دراسة أدبية خالصة للأدب وحده ـ على الرغم من هذا القول

الواضح الصريح فقد وقع ما خشيت أن يقع . وأبى لبعض الناس فهمهم إلا أن يحرفوا الكلم عن مواضعه ، وإلا أن يجدوا فى هذا القول ستاراً أستتر به الدعوة أو الدعاية للتصوف عن طريق الإعلان عن أدبه ، والترويج له بهذه الدراسة ! وليس بين يدى من اللغة وأساليبها ما يقدرنى على الإبانة أكثر مما فعلت لتحديد موقفى من هذا الأدب ، والقصد الذى قصدت إليه من تلك الدراسة !

وأقولها صريحة : إننى لست صوفيا ، ولا متصوفا ، وإنما أنا واحد فى آحاد المسلمين جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها على اختلاف شيعهم ونحلهم ومذاهبهم ... وإنه لو كان لى صبر على مجاهدة النفس ، وقدرة على مغالبة أهوائها ، وكظم نزعاتها لدخلت مدخل التصوف - كما أفهمه - ولعددت نفسى أهلا للحوق بغبار السلف الكريم من صحابة الرسول وتابعيهم . ولكن كيف ؟ « والزاد قليل ، والسفر طويل ، والطريق موحش » كما يقول المثل الأعلى للتصوف ، على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ؟

أنا لا أفهم التصوف الإسلامى إلا على أنه أسلوب حياة قوية نقية ، مستقيمة استقامة الإسلام . . ولست أفهم التصوف على أنه طائفة ، أو طوائف مرتبة المنازل والدرجات ، ذات شارات وطقوس ، ومراسم . كلا ، فإن التصوف عندى سلوك شخصى فردى يصير بالمرء إلى حال من الاستقامة والصفاء والإشراق ، ثم إنه لا يعنينى بعد هذا أى اسم من الأسماء يحمله هذا الضرب من السلوك ، ليكن تصوفا ، أو زهدا ، أو جهاداً أو أى وصف يكون سمة للسلم المستقيم على شريعة الإسلام ، فى غير انحراف أو ضعف !

وبعد ، فلنعد إلى موضوع حديثنا .

ماذا فى الأدب الصوفى من قيم أدبية يستأهل بها هذا الأدب أن يدرس ، وأن يضاف إلى الأدب العام . ويأخذ مكانه فيه ؟ ونستطيع أن نقول للإجابة على هذا : إن الأدب الصوفى إذا جمع جمعاً سليما ، ودرس دراسة صادقة واعية منصفة - لو درس هذه الدراسة انكشفت لنا منه جوانب ذات خطر فى تقييم الأدب العربى وخاصة ما يتصل منه بالشعر .

إن تهمة الأدب العربى عند الغربيين هى أنه - فى جملته - أدب حسى ، جسدى ، سطحى ، يعنى بالظاهر المحسوس من الأشياء دون أن يتعمقها أو ينفذ إلى لبابها وصميمها . .

ولا أدل على ذلك - كما يقولون - من أن النفس الإنسانية - هذا العالم الرحيب وما يدور فيه - لم ينفذ إليها الأدب العربى ، ولم يتعامل معها ، بل ظل يلعق مما يفور على السطح من زبدها وغثائها دون أن يقع على شىء مما فى الصميم منها . . تلك تهمة الأدب العربى التى يرمى بها الغربيون فى وجه هذا الأدب ، ويتابعهم فيها كثيرون من

المستغربين من مواليد العرب، وأبناء العروبة.

تلك التهمة التى يحاولونها أ النقائص فى الأدب العربى، ويجعلون إليها السبب الأول فى تخلفه عن اللحاق بالأدب الأوربى أو التعلق بغباره!

وأحسب أن لو كان الأدب الصوفى قد أخذ مكانه فى الأدب العربى، وامتزج به، ولم يعزل عنه هذه العزلة المحكمة، حتى أنه ليكاد يضيق حسابه من الأدب العربى ليضاف إلى المقولات المذهبية.. مما يتصل بالدين والعقيدة - أحسب لو أن هذا الأدب الصوفى خالط الأدب العربى، وأضيف إليه باعتباره عملا أدبيا خالصا - كما حدث ذلك فى الأدب الشيعى، وأدب الخوارج - لتغير بهذا وجه الأدب العربى، ولما وجد فيه ناقدوه هذا التخلف الذى نسبوه إليه، ورموه به، من القول بأنه أدب حسى سطحى، ولكان فيما يقام من الأدب الصوفى من نظرات بعيدة عميقة فى أغوار النفس الإنسانية ما يسقط هذه التهمة من أفواههم قبل أن تقع على أقلامهم!

ففى الأدب الصوفى ثروة عظيمة نفيسة من الدراسات النفسية العميقة، التى نضجت فى «بوتقة» الرياضة الصوفية، التى أساسها مراقبة النفس، ورصد التيارات المتدفقة المتدافقة فيها... من رضى وسخط، ورجاء ويأس، وأمن وخوف.. إلى غير ذلك مما تتقلب فيه نفس الصوفى، وتنضج على دخانه ولهيبه، حتى تصفو وتسكن.. وهيهات!

لقد أقام التصوف من النفس كائنا مستقلا بذاتيته وبوجوده، يعيش إزاء الإنسان، بدوافعه ونوازعه، وبهذا استطاع المتصوف أن يلتقى النفس لقاء مواجها، وأن يكشف كل خافية منها، وأن يتعرف على مواطن القوة والضعف فيها خلال هذا الصراع الطويل المحتدم بينه وبينها، وفى أثناء تلك المراقبة الطويلة المتصلة لحركاتها ونزعاتها واتجاهاتها.. ثم كان الأدب الصوفى - وخاصة الشعر - معرضا مصورا لهذه المراقبة النفسية العميقة أتم تصوير وأوضحه، حيث يمكن أن يعتمد على هذا الأدب اعتمادا وثيقا إلى حد كبير كمرجع من مراجع علم النفس التجريبى. وإن أى حديث للنفس فى هذا الأدب ليس من خطرات الشعراء، ولا من نظرات الحكماء، وإنما هو تجارب إنسانية ناضجة، عاشها أصحابها، ونقلوها فى عبارات جرت على ألسنتهم. وهم متلبسون بهذه التجارب قبل أن تبرد، ويبوخ حميها..

فالنفس الإنسانية واقعة فى عين الصوفى، وفى خاطره أبدا. إن لم ترها عينه عيانا تمثلها خاطره دائما مشخصا، يقاربه حينا ويناديه فى أكثر الأحيان.. وبهذه المراقبة المحكمة لا تتفلت النفس من بين يدى الصوفى، ولا تنفلت من قبضته!

ومن عجب أن بعض فقهاء الغرب يعرف للأدب الصوفى هذه الميزة، ويقدر أثرها

وخطارها فى الأدب العربى - على حين يأبى أكثر علمائنا وأدبائنا على هذا الأدب أن يحسب فى الأدب العربى، أو يضاف إليه، ولا ينظر أكثر هؤلاء وهؤلاء إلى الشعر الصوفى بوجه خاص إلا على أنه من متون النظم للعقيدة الصوفية، كألفية ابن مالك فى النحو، والشاطبية فى القراءات، وما أشبه ذلك .. وفى هذا ظلم عظيم للأدب العربى قبل أن يكون ظلما للشعر الصوفى نفسه.

يتحدث المستشرق (فون جى وينباوم) عن الأسس الجمالية فى الأدب العربى ويعلل لقصور الخيال فى هذا الأدب - حسب تصدره - فيقول: « استسلم الأدب العربى إلى ما كتبته عليه طبيعته الأصلية، فأصبح معرضا للتنويع فى موضوعات متشابهة، والتلذذ بالصور التى تثيرها الكلمات لا التجارب... وقد أفضى هذا كله إلى ما شاع فى العصر العباسى الأول من رفاهة ودقة فى الإحساس، ومن هذه الصفة انبعث الاهتمام بالناحية اللفظية فى الأدب. ولم يبق إلا التصوف يهدد بقاء المجادلات العقلية، ويؤخر انحدار الأدب العربى إلى الأفول... إن التصوف يقوم بدور مناقض فإن تلك النظرة الصوفية الحافزة التى ترى الإنسان قادراً على أن يسمو فوق ذاته، وأن يفصح عن مشاعره لا سيما الرموز والصور - هى ذات الشأن الأول فى استمرار شعر التصوف، وجعله شكلا ناميا للتعبير عن الذات - حين كان دافع الخلق فى الفروع الأخرى من الأدب العربى قد أخذ يضمحل ».

ونقول: إن فى الأدب الصوفى دعوة قوية جادة، تدعو الإنسان إلى التحليق والسمو وإلى شحذ الهمة، واستنهاض العزيمة حتى يعلو على نزعات نفسه، ويتغلب على تيارات أهوائه، ثم لا يزال هكذا فى مصابرة ومجاهدة حياته كلها ... يريد أن يعلو على هذا الوجود الأرضى، وأن يسامت الملأ الأعلى، ويحيا فيه ... ذلك أن الصوفى يدخل التصوف، ومعه رصيد كبير من الإيمان الوثيق، والأمل القوى فى أن ينتزع وجوده كله من هذا العالم الترابى إلى عالم الإشراق والنور، وأنه سيبلغ هذه الغاية يوما، ما دام على الطريق، وما لم تفتر عزيمته، أو تضعف همته! وسواء أصدقت الأيام آمال المتصوف أو كذبته، فإن هذا الأمل من شأنه أن يقيم فى كيانه مشاعر الثقة بوجوده كإنسان يمكن أن يعلو، وأن يترقى فى درجات الكمال إلى غير حد.

وكل هذه الحيوات التى يحياها الصوفى، وهذه الآمال والمنازع التى تملأ كيانه - كل هذا قد صوره الأدب الصوفى - شعره ونثره - أدق تصوير وأجله، وأصدقه.

فالأدب الصوفى - فى صميمه - دعوة إلى القوة فى أتم صورها، وأكمل مظاهرها ... قوة تقهر المستحيل، وتستعلى على كل صعب، وتستهين بكل خطب

وإذن فالقول بأن أدب التصوف أدب انسجام من الحياة ـ قول لم يصدر من إدارك عميق صحيح لهذا الأدب ، ولعل مرد هذا الفهم يرجع إلى ما يشيع فى هذا الأدب من استخفاف بكثير مما يهتم له الناس ، ويحفلون به ... إذ يرى الصوفى أن ذلك دون همته ، وأهون عنده من أن يلتفت إليه ... كما يرجع هذا الفهم أيضا إلى نظرة قاصرة محدودة لا تقع إلا على حواش المتصوفة وشذاذهم ، من أولئك الأمساخ الفارغين . أما رجال التصوف وأعلامه وشيوخه فقد كانوا نماذج عالية للقوة والتعالى على الشدائد والآلام .

وفى الأدب الصوفى أيضا مشاهد رائعة معجبة للحب المطلق . الحب لكل شىء ، الحب البالغ غاية ما يمكن أن تحتمل النفس البشرية فى سبيل الحب من مواجد ، وحرق ، وآلام ، وظمأ ، وحرمان .

وسواء أنظرنا إلى هذا الحب نظرة صوفية ، أم أخذناه كما هو ، فإن ما فيه من طاقات الحب ليروى كل عاطفة ، ويخصب كل جديب من تلك النفوس الصلدة المتحجرة ، لو أنه أصابها بوابل ، أو مسها بطل منه .

وهذا ولا شك كسب كبير للأدب باعتباره دعوة إلى تجاوب الإنسان مع الحياة وتفاهمه مع الوجود ، وفى هذا كسب عظيم للإنسانية بما يشيع فيها من نفوس مشرقة متفائلة متسامية ، متسامحة تسع الوجود كله ، وتبتسم فى وجه كل جميل وقبيح منه ...

يقول ابن عربى :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى
إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
فأصبح قلبى قابلا كل صورة
فرعى لغزلان ، وبيت لأوثان
ودير لرهبان ، وكعبة طائف
وألواح توراة ، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى !

ولا نحاسب ابن عربى هنا ولا نحاكمه فى ساحة الدين ... فليكن دينه أى دين ، ولكننا ننظر إليه كأديب وسعت نفسه الوجود كله ، وخفق قلبه بحب كل شىء فيه .

إننا ننظر إليه هنا كشاعر يترجم عن عواطفه ، وليس كناظم يؤلف متنا فى عقيدة أو مذهب .

ثم لماذا لا يكون شأن ابن عربى كشأن المعرى مثلا ؟ لماذا لا يعد فى الأدباء أو الفلاسفة ؟ ولماذا يجره غرمائه جرا إلى ساحة الدين ؟ ويعدونه صاحب دعوة ورسالة فيه ؟ لماذا لا يطلق سراحه ليكون فى جماعة الأدباء أو الفلاسفة ، فيحتمل منه هنا ما لا يحتمل منه هناك ؟ وبذلك ينقطع هذا الجدل الكثير المتصل فيه ، وفيمن كان على شاكلته ؟ إنه شاعر ، وقد قبل الأدب العربى من هم أكثر منه شطحا ، أو تجديفا

أو زندقة - إن كان يرى فى أصحاب الشطح أو التجديف أو الزندقة - كأبى نواس، وبشار وحماد عجرد ، ومطيع بن إياس ... ثم أبى العلاء المعرى ! . لماذا لا يقبل ابن عربى وأمثاله من شعراء المتصوفة فى الشعراء كما قبل هؤلاء ؟ أو على أقل تقدير : لماذا لا يأخذ الأدب حظه من شعره ونثره ، كما أخذ الدين بنصيبه من عقيدته ومذهبه ؟ فالرجل إن يكن رجل دين ، فهو قبل هذا رجل أدب وفلسفة وكذلك شأن كثير من الشعراء الذين حسبوا فى المتصوفة ، ولم يكن لهم حساب فى الأدب وحسب شعرهم فى عداد المقولات الدينية ، وكان عكس هذا أقرب إلى الحق واهدى سبيلا ... لأن الشاعر إنما يصور مشاعر وعواطف ووجدانات تتكون بها الحقائق وتتخفى بين ظلالها وأطيافها .. ولهذا لم يكن الشعر صالحا لتقرير القضايا الفقهية ، أو الحقائق العلمية - إلا أن يكون نظم متون كما قلنا - وذلك لما يلتبس به من مشاعر ذاتية ، وما يعلق به من تمويهات الخيال وتهاويله . إن الشاعر - أى شاعر - هو صوفى فى مشاعره ووجداناته، بمعنى أن كلا منهما - الشاعر والصوفى - ملتهب العواطف ، مهتاج المشاعر تغلى فى كيانه لهفة طاغية إلى الوجود كله ، يريد أن يضمه إليه، ويحويه بين جوانحه . . ومن هنا كان هذا التعاطف القوى الوثيق بين الشعراء المتصوفة وغير المتصوفة ، وبين الوجود وموجوداته كلها . . .

يقول الشاعر المهجرى رشيد خورى (الشاعر القروى) :

لم يعن هذا الشعب أنى شاعر
حر يحب بلاده متفانى
بل كل ما يعنيه هل أنا مسلم
لله ، أم أنا لم أزل نصرانى
إنى على دين العروبة واقف
قلبى على سبحاتها ولسانى
إنجيلى الحب المقيم لأهلها
والذود عن حرماتها فرقانى
يا مسلمون ... ويا نصارى دينكم
دين العروبة . . واحد لا اثنان

ويقول الشاعر المهجرى أيضا رشيد أيوب :

أصلى لموسى ، وأعبد عيسى
وأتلو السلام على أحمد

فأى فرق بين هذا وذاك ، وبين قول ابن عربى ، الذى نقلناه آنفا ؟ أليس لنا أن نقول إن الحال التى كانت مسئولة على ابن عربى وهو يقول شعره - هى حال الشاعر وليست حال العالم ، ولا الفقيه ، ولا الصوفى ، إن ذلك هو القول الذى ينبغى أن يقال فى هذا المقام ولا أقول غيره . ؟

عبد الكريم الخطيب

فرق مسيحية تقول بوحدانية الله وموقف الإسلام منها

للدكتور على عبد الواحد وافى

كانت المسيحية فى مبدأ أمرها - كما ينبئنا بذلك القرآن - ديانة توحيد تدعو إلى عبادة إله واحد ، وتقرر أن المسيح إنسان من البشر ، أرسله الله تعالى بدين جديد وشريعة جديدة ، كما أرسل رسلا من قبله ، وأن الإرهاصات التى سبقت بعثته والمعجزات التى ظهرت على يديه بعد رسالته هى من نوع الإرهاصات ، والمعجزات التى يؤيد الله تعالى بها رسله ، وأن خلقه بدون أب ليس إلا إرهاصا من هذه الإرهاصات ، وأن أمه صديقة من البشر اصطفاها الله تعالى؛ فنفخ فيها من روحه فحملت بالمسيح: «ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام» .

وقد ظلت بعض الفرق المسيحية محافظة على عقيدة التوحيد ، وظل لبعضها أتباع كثيرون حتى أواخر القرن السادس الميلادى ثم انقرضت كلها بعد ذلك .

ومن أهم هذه الفرق فرقة (إبيون) وفرقة (بولس الشمشاطى) وفرقة (أريوس) .

١ — أما فرقة إبيون أو الإبيونيين فإنها تنسب إلى زعيمها إبيون Ebion وكانت هذه الفرقة تقر شرائع موسى ، وتعتبر عيسى هو المسيح المنتظر الذى تحدثت عنه أسفار العهد القديم ، وتنكر ألوهية المسيح ، وترى أنه مجرد بشر رسول ، وكان لهذه الفرقة فى تفاصيل عقائدها إنجيل خاص مدون باللغة الآرامية لم يصل إلينا شىء من نصوصه ، وإن كان التاريخ قد تحدث عنه وعن بعض ما يشتمل عليه، وقد أوشكت هذه الفرقة على الانقراض فى أوائل القرن الرابع الميلادى ، وتم انقراضها فى أواخر هذا القرن .

٢ — وأما فرقة الشمشاطى فهم أتباع بولس الشمشاطى Paul de Somosate وكان بولس هذا أسقفاً لأنطاكية سنة ٢٦٠ ميلادية ، وأنكر ألوهية المسيح ، وقرر أنه مجـــرد بشر رسول ، وقد عقد بأنطاكية من سنة ٢٦٤ إلى سنة ٢٦٩ ثلاث مجامع للنظر فى شأنه ، وانتهى الأمر بحرمانه وطرده ولكن بقى لمذهبه على الرغم من ذلك أتباع حتى القرن السابع الميلادى قبيل بعثة رسولنا عليه الصلاة والسلام، ويذكر ابن حزم فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل

عن بولس هذا، «أنه كان بطريركا بأنطاكية وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح، وأن عيسى عبد الله ورسوله، كأحد الأنبياء عليهم السلام خلقه الله في بطن مريم من غير ذكر، وأنه إنسان لا إلاهية فيه» ... ويقول ابن البطريق (وهو مسيحى من رجال القرن الثالث الهجرى كان من أشهر مترجمى الخليفة المأمون وقد ترجم له كتابى المجسطى لبطليموس وإقليدس [1]) في بيان مذهب هذه الفرقة أنها كانت تقول: «إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وإن ابتداء الابن من مريم (أى إنه محدث وليس قديما) ... ويقولون: إن الله جوهر واحد وأقنوم واحد، ولا يؤمنون بالكلمة (أى بالابن) ولا بروح القدس، وهى مقالة بولس الشمشاطى بطريرك أنطاكية وهم البوليقانيون».

٣ - وأما الأريوسيون فهم أتباع Arius. وكان أريوس قسيسا في كنيسة الإسكندرية وكان داهياً قوى التأثير، واضح الحجة، جريئا في الجاهرة برأيه، وقد أخذ على نفسه في أوائل القرن الرابع الميلادى مقاومة كنيسة الإسكندرية فيما كانت تذهب إليه من القول بألوهية المسيح، وبنوته الأب، فقام يقرر أن المسيح ليس إلاها، ولا ابنا له، وإنما هو بشر مخلوق. وأنكر جميع ما جاء في الأناجيل الأربعة المعتمدة الآن لدى المسيحين (أناجيل متى ومرقص ولوقا ويوحنا) من العبارات التى توهم ألوهية المسيح، ويلخص ابن البطريق مذهبه فيقول: «كان يقول: إن الآب وحده هو الله، وإن الابن مخلوق مصنوع، وقد كان الآب حينما لم يكن الابن». - وقد تبعه مشايعون كثيرون. فقد كانت كنيسة أسيوط على هذا الرأى، وعلى رأسها ميلتيوس. وكان أنصاره فى الإسكندرية نفسها كثيرين فى العدد أقوياء فى الجاهرة بما يعتقدون؛ كما تبعه خلق كثير فى فلسطين، ومقدونية والقسطنطينية؛ وذلك على الرغم من أن كنيسة الإسكندرية لم تأل جهدا فى محاربته ومحاربة آرائه، وعلى الرغم من حكمها عليه بالطرد من الكنيسة. - ثم أخذ هذا المذهب يضمحل ويتناقص عدداً تباعه بعد أن حكم مجمع نيقية سنة ٣٢٥ بطرد أريوس، وكفره وأصدر قراره بألوهية المسيح، وما يزال يضمحل ويتناقص عدد أتباعه حتى انقرض كل الانقراض في أواخر القرن الخامس الميلادى.

ويظهر أن هذه الفرق كانت تعتمد في عقائدها هذه على ما انتقل إليها من حقائق الإنجيل الصحيح الذى أنزله الله على عيسى، وعلى أناجيل أخرى من تأليف الحواريين والتلاميذ، والأتباع غير الأناجيل الأربعة التى تقرر عقيدة التثليث، وألوهية المسيح، وهى الأناجيل المعتمدة الآن لدى المسيحين (أناجيل متى ومرقص ولوقا ويوحنا).

(١) أنظر الفهرست لابن النديم ص ٣٤١.

وقد وصلت إلينا نصوص إنجيل من هذه الأناجيل الأخرى التى تقرر وحدانية الله وبشرية المسيح ، وهو إنجيل (برنابا) فقد قرر برنابا فى إنجيله هذا : أن المسيح ليس إلا بشراً رسولا ، وأنه ليس إلاها ، ولا ابنا لله ؛ ونص على ذلك فى مواطن كثيرة من هذا الإنجيل ، فهو يقول فى مقدمته : « أيها الأعزاء إن الله العظيم قد اختصنا بقيه يسوع المسيح رحمة عظيمة للعالمين ، وخصه بمعجزات اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين ، فأخذوا يبشرون بتعاليم بمعنة فى الكفر ، داعين أن المسيح ابن الله ... وقد ضل مع هؤلاء بولس الذى لا أتحدث عنه إلا مع كثير من الأسف والأسى ، وهذا هو ما دعانى إلى أن أسطر الحق فى هذه الشئون » . ويروى فى آخر الفصل الثالث والتسعين أنه قد : « قدم على المسيح كبير الكهنة مع الوالى الرومانى والملك هيرودس ملك اليهود ، فذكر له كبير الكهنة أن فريقا من الناس يقولون : إنه إله ، وأن فريقا آخر يقولون : إنه ابن الله ، وطلب إليه أن يعمل على إزالة هذه الفتنة التى ثارت من أجله ، فقال يسوع : وأنت يا رئيس الكهنة لماذا لم تخمد الفتنة ؟! وهل جننت أنت أيضاً ؟! ثم قال : إنى أشهد أمام السماء ، وأشهد كل ساكن على الأرض أنى برىء من كل ما قاله هؤلاء الناس عنى من أنى أعظم من بشر ، لأنى بشر مولود من امرأة ، وعرضة لحكم الله أعيش كسائر البشر » . ويقول فى آخر الفصل السبعين : « إن يسوع قد نظر إلى الحواريين عندما بلغه افتتان الناس به ، وادعاؤهم أنه إله أو أنه ابن الله ، وطلب إليهم أن يبدو رأيهم فى ذلك ، فأجاب بطرس : إنك المسيح ابن الله فغضب حينئذ يسوع وانتهره قائلا : اذهب وانصرف عنى ؛ لأنك أنت الشيطان » .

وينسب هذا الإنجيل للقديس برنابا ، وهو أحد تلاميذ المسيح ، وكان قبل اعتناقه للمسيحية يهوديا من اللاويين (فقهاء اليهود من قبيلة لاوى أو ليفى) ، وكان اسمه يوسف وسماه الحواريون برنابا (أى ابن الوعظ والإرشاد ، لأنه كان مجليا فى هذا الميدان) . ويروى سفر « أعمال الرسل » للوقا ، وهو أحد أسفار العهد الجديد ، أن برنابا باع جميع ما يملكه من أرض فى فلسطين ، وقدم ثمنه للحواريين ليستعينوا به فى الدعوة إلى المسيحية ومساعدة فقراء المسيحيين ، وأنه هو الذى ضمن بولس أمام الحواريين ، وشهد بصحة إيمانه ، ولولا تزكيته هذه ما صدق الحواريون بولس وما قبلوا انضمامه إليهم ، وأن الحواريين قد كلفوا برنابا عدة مهام تتعلق بالتبشير وتنظيم المجتمعات المسيحية الأولى ، فقام بما عهد إليه به خير قيام .

وينسب لبرنابا ـ بجانب الإنجيل الذى نتحدث عنه ـ سفر فى تاريخ الحواريين

والتلاميذ ، يتفق موضوعه مع موضوع « أعمال الرسل » للوقا ، ويحمل الاسم نفسه الذى يحمله هذا السفر الأخير .

ومع تقديس الكنائس المسيحية الحاضرة لبرنابا ، فإنها لا تعترف بصحة نسبتهما إلى برنابا ، بل تذهب إلى إنهما مزيفان ، وأن ملفقيهما قد ألصقوهما ببرنابا ليروجوهما .

* * *

ولعل هذه الفرق المسيحية التى بقيت محافظة على عقائد التوحيد ، وانقرضت قبل ظهور الإسلام هى التى يعنيها القرآن الكريم حينما يثنى على عقائدها ، ويقرر أن أفرادها ناجون . أما من أدرك الإسلام من أفراد النصارى على العموم فإن ، هذه الأحكام لا تصدق عليه إلا إذا آمن بالدين الجديد . ويؤكد هذا المعنى أن القرآن حينما يصدر هذه الأحكام على النصارى يقرر : أنها لا تصدق إلا على « من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا » ، أى حافظ على عقيدة التوحيد وعلى شريعة رسوله ، ومات على ذلك قبل ظهور الإسلام ، أو أدرك الإسلام وآمن به أيا كان حاله قبل ذلك . فمن ذلك قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ؛ وقوله : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصائبون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، وقوله : « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين » ؛ وقوله : « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب » ؛ وقوله : « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما » ؛ وقوله : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء مايعملون » وقوله : « والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين » .

وفى ضوء ذلك يؤول جميع ما كتبه الشيخ محمد عبده فى هذا الموضوع .

دكتور على عبد الواحد وافى

نفحات القرآن

دعوة الله إلى الإسلام أثارت عجب المتكبرين وإعجاب المصدقين

للأستاذ عبد اللطيف السبكي

> أكان للناس عجباً : أن أوحينا إلى رجل منهم : أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا : أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون : إن هذا لساحر مبين ...

١ — حينما يجرى قضاء الله بشيء جديد فى دنيانا تستقبله النفوس الخبيرة بإعجاب المبتهج ، وتبادر إلى الإيمان به فى غبطة بما أدركته منه ... وفى شكر لله على ما ظفرت به .

ويزداد يقينها فى حسن ما صنع الله ، وفى جميل ما أراد بخلقه .

وعلى غير ذلك نفوس ملتوية عن سبيل الرشد ، إذ يحجبها الجهل ، والكبرياء عن حسن التقدير ، وتغفل عن حظها فيه ، وتقف منه موقف العجب الجاحد وتتمادى حتى تتردى فى مهالكها ، وتبوء بسوء مغبتها.

كان ذلك شأن قريش حين بعث الله من بينهم عبده محمداً رسولا إليهم ، وإلى الناس كافة .

فانحاز عن دعوته أناس ، وعجبوا أن يكون هذا قضاء الله .

وأقبل على الدعوة آخرون : مطمئنين إلى أقدار الله فى ملكه ، وفى خلقه .

أنكر الكفار أن يكون لله وحى إلى إنسان ، وأن يكون هذا الإنسان رجلا منهم فلا يستسيغون أن يكون تبليغ الله إلى خلقه محمولا على لسان بشر .

ويزداد إنكارهم لأن يكون تبليغ الإنسان إياهم بمنطق فوق مستواهم : وهم أهل الفصحى ولا جرم ...

يبهرهم ذلك ، فيقولون كذبا عن هذا المبعوث من بينهم ، وهم أعرف به : « إن هذا لساحر مبين » !! فهذه دهشة ، تثير حقدهم ، وتهيج مشاعرهم ، فيكون قدحا مزدوجا فى النبى ، وفيما حدثهم به عن ربه ، فهو ساحر ، طلع عليهم بسحره ، وما السحر إلا شيء غريب مصطنع ... ذلك إنكارهم وقد بدأ الله حديثه عنهم فى سورة يونس

بإنكار دهشتهم، «ونفى ما بدا منهم بقوله «أكان للناس عجبا: أن أوحينا إلى رجل منهم»، «فذلك تبكيت لهم، وفيه تقرير لما أنكر هؤلاء الناس، وهم الكافرون.

٢ — وماذا ينكرون من عمل محمد؟ أينكرون أنه ينذر الناس جميعا بتخويفهم من عذاب الله فيهتدوا؟

وأنه يبشر المؤمنين منهم ومن غيرهم، بأن لهم قدم الصدق عند ربهم، فينشطوا، ويضاعفوا صالح عملهم.

وقدم الصدق هي: أقدام السابقين إلى دخول الجنة؛ فإن وعد الله بها صدق، وأقدام المؤمنين تسعى بهم إلى الفوز بذلك الوعد ... كما قيل «إن المتقين فى جنات ونهر، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر».

ومما ورد فى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم. نحن الآخرون السابقون يوم القيامة. وقوله: إن الجنة محرمة على الأنبياء حتى أدخلها أنا. وعلى الأمم، حتى تدخلها أمتى. ووجه ذلك: أن محمدا أفضل المرسلين ... وأن أمته المطيعة له خير أمة أخرجت للناس، لما كانت عليه من تشريع كامل، وإيمان أفسح من إيمان سواها، فهم لذلك أسبق دخولا الجنة ...

٣ — لم يكن هجاء الكافرين قاصرا على السحر، بل أسرفوا فى التشنيع، فقالوا: العجب أن الله لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبى طالب. !

ثم استهانوا كذلك، فقالوا: «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم؟». يعنى: هلا ...

يريدون: أن محمداً لا يستحق الرسالة لو كانت حقا كما يقول. والأولى بها عندهم: الوليد بن المغيرة عظيم مكة ... أو حبيب ابن عمرو الثقفى: عظيم الطائف.

وكلاهما من المتبوعين لضعفاء الكفار، ومن سراتهم ... والله سبحانه يستهين بتلك العقلية الجاحدة التى تفترض من عندها أن تكون الرسالة لواحد من صناديد كفارهم.

فينبه على أن الرسالة من عطاء الله، ومن ملامح فضله ورحمته بخلقه، فهو الذى يختار من يصلح لها فى حكمته، وتقديره. فيقول «أهم يقسمون رحمة ربك»، ويقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته. ويقول: وربك يخلق ما يشاء، ويختار، ما كان لهم الخيرة».

وفى هذا نزول بهم عن مدارج الرشد. الإنسانى حيث يفترضون ما لا قبل لهم به، ويضعون أنفسهم فوق مستواها: دون نظر فى تفاهتهم، أو تنبه إلى هوانهم عند الله !!

٤ — وكانوا يقولون «لو شاء ربنا لأنزل ملائكة»، يريدون أن الرسالة أمر يليق بالملائكة ولا يصلح له بشر. فهم يستكثرون على الله أن تكون له حكمة فيما يصنع.

والله ـ عز شأنه ـ يقيم حجته عليهم فيما دبره من شأن الرسالة قديما ، وحديثاً ، فيقول لرسوله : « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون ، مطمئنين ، لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » !!.

ومفهوم ذلك : أن الأرض لا يسكنها ملائكة ، وأن الله استخلف فيها آدم ، وذريته فلو أرسل ملكا من ملائكته إلى عموم الناس لكان مغايراً لهم فى جنسيتهم ، وفى لغتهم ، فلا يكون التجانس بين الجانبين موفورا ، فلا يتسنى للناس أن يتلقوا تبليغ الملائكة إليهم ، لما بين الملائكية . والإنسانية من تباعد .

وإنما يختار الله من الآدميين من هيأته القدرة بالمواهب التى تؤهله للاتصال بعالم الروح ، ومن خصه ربه بنفس زكية فوق مستوى النفوس العادية ، وأيدته القوة القدسية بعالم الرشد اللائقة بمن يكون وسيطا بين عالم الروح ، وعالم المادة .

فيكون هذا الإنسان هو الرسول المختار فه وتكون رسالته تبليغا عن الله إلى سكان هذه الدنيا «وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» .

وهذه حكمة بينة تدحض كل تعسف ، وتعصف بكل باطل ، وتفضح كل أفاك .

وتأييدا لما ظهر من الحكمة السالفة يقول الله تعالى :

« الله يصطفى من الملائكة رسلا ، ومن الناس » فالملائكة رسل الله فى تنفيذ أموره بنا ، ومنهم ملك الوحى ـ والناس يكونون رسلا إلى أمهم ، باصطفاء الله لهم ليتلقوا عن الملائكة . . ويقول : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ، ليبين لهم » .

ويقول : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم » .

وهكذا : عما يقتلع الباطل ، ويهدى إلى الحق ، لو كان القوم يفقهون .. !!

ولكنهم تبجحوا فقالوا ذلك أوغير ذلك . فرقة يقولون : إنه كاهن ، وأخرى : يرمونه بالجنون ، وبالشعر ، وبالتلقى عن رجل يهودى كان يعيش بمكة ، والله تعالى ينفى كل ذلك عن رسوله محمد ، وعن كتابه الكريم ، فيقرع أسماعهم بالثناء المستطاب ، ويكبت حقدهم بالتزكية العطرة البليغة ، ويقرر لكتابه منزلة فوق المنازل . . فيقول : « وما علمناه الشعر ، وما ينبغى له » ... وما هو بقول شيطان رجيم .. وما صاحبكم بمجنون . . . « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن : قليلا ما تذكرون » وغاية ما يطمعون إليه أن يخدشوا مقام النبوة ، ويغمزوا فى الوحى ، وفى الكتاب ، والله سبحانه ينتهى بهم ، وبكل مكابر يتعامى عن

جلال القرآن أو يذشكك ، أو يشكك فيه إلى تعجيز لا قيام لهم منه ، فيقول « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » ثم يرميهم بحجر أخير، فيقول عنهم « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » .

٥ — ورب سائل : إذا كانت رسالة الله لمحمد إلى سكان الأرض ، فهل كانت إلى الجن كما كانت إلى الأنس ؟ وجواب ذلك : نعم !! وهو ماورد منطوقا به في القرآن ، فيكون إنكاره خروجا عن الإيمان .

وانظر قول الله في هذا : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا فلما قضى ، ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا : يا قومنا . إنا سمعنا كتابا ، أنزل من بعد موسى ، مصدقا لما بين يديه ، يهدى إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم ... يا قومنا : أجيبوا داعى الله ، وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم . . إلخ » فى هذه الآيات توجيه إلى تكليف الجن بالاستماع من محمد لما يتلوه ، وتصريح بأن المستمعين منهم بلغوا قومهم ، ووصفوا لهم ما سمعوا من القرآن ، ثم دعوهم إلى الإيمان يغفر الله لهم ذنوبهم ، وحذروهم التخلف عن دعوة القرآن على لسان محمد .

وهل فى المقام شك بعد ذلك التنصيص القاطع بتكليف الجن ، ورسالة محمد إليهم .

وكذلك يحكى الله عن الجن ما وقع منهم فى قصة كهذه .

« قل : أوحى إلى : أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا ـ جميلا ـ يهدى إلى الرشد ، فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا ، إلى أن قال عنهم: « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ـ غير المسلمين ـ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ، الخ .

ومن هذا نفهم أن للجن رسلا منهم ، كانوا مكلفين بالاستماع إلى محمد ، وبالتبليغ إلى قومهم ، وأن فيهم معليمين للإسلام ، ومنهم مخالفون له . . وأن لهم جزاء عند الله على مايقدمون من عمل ، كبنى الإنسان سواء .

على أنك تجد فى القرآن خطابا صريحا للثقلين جميعا : « يا معشر الجن والإنس : ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ » ، « يا معشر الجن والإنس : إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا » . « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن ، والإنس الخ » .

٦ — وقصارى الحديث فى هذا : أن رسالة محمد لعامة الخلق جميعا ، فهى رسالة تبليغ ، وتشريع ، وتكليف بالنسبة للإنس والجن جميعا .

وهى رسالة تشريف للملائكة ، إذ الملائكة

ليسوا بحاجة إلى تبليغ من جانب الرسول، فإنهم مطبوعون على الطاعة بالجبلة لا بمقاومة الشهوة وجهاد النفس، بل بتلقيهم التدين من جانب الله مباشرة.

فليسوا من طينة الإنسان، ولا من النار كالجن، وإنما هم من عالم النور، وعالم النور غير عالم المادة التي تهبط إلى الشهوات وتقترف المآثم فتحتاج إلى التهذيب.

فهم كما قال الله فيهم: «لا يعصون الله ما أمرهم.. ويفعلون ما يؤمرون».

وحسبهم أنهم يتشرفون بالإيمان بمحمد، وبتبليغ الرسالة إلى محمد، وبالسير في معية محمد، ومناصرة محمد، وهم سابقون في طاعتهم على عهد محمد، ولم يكن ينقصهم علم جديد، ولا تدين جديد.

وليس من هدفنا أن نستطرد في هذا الشأن وإنما هي مناسبة اقتضاها السياق لتشفي حاجة في نفس القارئ.

٧ — هذا - وإن يكن في الدنيا من يعيش على غير إيمان بما حدثناك: فقد تكفل الله بتكذيبهم قديما، وحديثا وإليه مرجعهم جميعا، فيوفى كلا منهم جزاءه غير منقوص.

٨ — وأنت ترى فيما ذكرنا لك من مثالب الكفار لمحمد صلى الله عليه وسلم بعدا عن المساس بنسبه، وعن الغمز في عشيرته.

والنسب عند العرب مناط المجد أكثر من أي شيء سواه. فهم على ما أسرفوا في جحودهم لرسالته لم ينالوا من أبوته، ولا من أمومته بل لم ينكروا عراقته في أمجاد الأصول القبلية.

كما أنهم لم يطعنوا عليه في مسلك شخصي.

ولم يأخذوا عليه ريبة تغض من شأنه قليلا وهم الخصوم المعاصرون له.

ولو أتيح لهم أن يلتمسوا شيئا من ذلك لأذاعوا به، ولأفاضوا فيه، وأضافوا إليه ما يشفي غلة الخصومة في نفوسهم الحانقة.

وكأنهم حادوا عن اختلاق شيء من ذلك لاعتقادهم أنه عند القوم بنجوة من الريبة في شخصه وفي مسلكه بعامة.

وأنهم لو ابتدعوا غمزات من عندهم لكشفوا عن حفيظتهم، ومكنوا للناس أن يكذبوهم في كل ما يهرفون به، وهم يجهدون أنفسهم في ترويج ما يفترون.

ويكاد المريب يقول خذوني.

فليكن هذا كله ترويجا غير مباشر منهم لما تقرره نحن عن عقيدة حقة، وليكن إقرارا على أنفسهم بالتناقض.

ثم ليكن تركيزا لإيماننا به، ومزيدا لطاعتنا لشريعته، وتعلقا بسيرته، والتماسا لشفاعته في الآخرة.

صلوات الله عليه وسلامه في الأولين، وفي الآخرين، وفي الملأ الأعلى إلى يوم الدين وما بعد يوم الدين.

عبد اللطيف السبكي

إلى أي مدى تتغير الأحكام الشرعية بتغير الأزمان؟

للأستاذ بدر عبد الباسط

— ٣ —

انتهيت في المقالين السابقين إلى تحديد الخطوط الرئيسية للمسائل التي تقبل التطور والمسائل التي لا تقبل التطور وقد قلت: إن أكثر الأحكام قبولا له هي الأحكام التي ترجع إلى العرف أو الأحكام التي ترجع إلى المصالح المرسلة، ولما كان هذان الأصلان يحتاجان إلى تفصيل وبيان كان من اللازم بيانهما على أتم وجه ليكون الفقيه أو من يتعرض للنظر في الأحكام على بصيرة من أمره فلا ينزلق وراء تحكم الأهواء والأغراض.

وبحثنا ـ اليوم ـ في العرف، في تحديد معناه وبيان أقسامه، ومدى الاحتجاج به، وبيان الفرق بينه وبين الإجماع، وهل هو حجة شرعية مستقلة؟.

• • •

معنى العرف: في اللغة ـ كما في القاموس ـ الجود، واسم ما تبذله (أي تجود به) وموج البحر، وضد النكر وهـذا المعنى الأخير هو أنسب المعاني للمعنى الاصطلاحي فقد عرفه الأصوليون بأنه ما تعارف عليه الناس أو طائفة منهم من قول أو فعل أو ترك، وهو ما يعرف بالعـــادة فالعرف القولي كتعارفهم على إطلاق لفظ دابة على ذوات الأربع، ولفظ حيوان على ما سوى الإنسان من أنواع الحيوانات وكتعارفهم على عدم إطلاق لفظ اللحم على السمك والكبد والكرش ولحوم الطير، فإنها لا تطلق ـ الآن ـ إلا مقيدة فيقال لحم سمك ولحم طير كدجاج وغيره، بدليل أنه لو أمر سيد خادمه أن يشتري له لحماً فاشترى سمكا أو دجاجا أو كبداً أو لحم رأس فإنه يعتبر مخالفاً لأمره.

ومن العرف العملي ما اعتاده الناس من وضع بطاقة بسعر البضاعة فتقوم مقام الإيجاب في عقود البيع وما اعتادوه من ترك أمتعتهم أمام المصلى فيكون هنا وديعة يجب على المصلى حفظها حتى يعود صاحبها حتى إنه لو قصر في المحافظة عليها كان ضامناً.

ومما تعارف الناس على تركه حتى إنه أصبح في حكم المباح ما تساقط من السنابل عند حمل القمح أو ما في معناه إلى البيدر وكذا ما يبقى في الأرض بعد الحصاد، وكذا ما تعارف الناس على التساهل فيه كثمر بعض الأشجار

كالتوت والجميز فى بعض البلاد . كل ذلك مما تعارف الناس كلهم أو جماعة منهم عليه ؛ وهذا هو المسمى بالعرف حتى إنهم ينكرون على من خالفه ، ويعتبرونه شاذا .

أقسام العرف : ينقسم العرف - باعتبار ما وقع عليه التعارف - إلى قسمين لفظى وعملى ؛ فاللفظى كأن يكون للفظ معنى فى اللغة ولكن تعارف الناس على إطلاقه على بعض أفراده دون بعض كما مثلنا بلفظ دابة ، ولفظ حيوان ، ولفظ لحم .

والعرف العملى كما مثلنا بتسامح الناس فى ثمار بعض الأشجار ، وما تساقط من القمح وغيره . وينقسم - باعتبار ما اصطلحوا عليه - إلى قسمين : عام وخاص .

فالعرف العام : ما تواضع عليه عامة الأمة كإطلاق لفظ دابة على ذوات الأربع .

وخاص : وهو ما تواضع عليه أهل بلد أو أصحاب صناعة أو مهنة من لفظ أو عمل أو ترك كتواضع أهل مصر على تقسيم المهر إلى معجل ومؤجل وأن المؤجل يكون نصف المعجل ، وكتواضعهم على أن يكون أثاث المنزل - عادة - يكون للزوجة لا للزوج ؛ وتواضع أصحاب بعض السلع على ضمانها من التلف إلى مدد جرى بها عرفهم حتى ولو لم يذكر ذلك فى العقد .

كما ينقسم العرف - باعتبار كونه مشروعا أو غير مشروع - إلى قسمين : صحيح وهو ما تعارف الناس كلهم أو بعضهم عليه ولم يدل دليل من الشارع على فساده وبطلانه كالأمثلة التى ذكرتها آنفا وفاسد كتعارفهم على أن المؤجل من الثمن يكون بفائدة متعارفة عندهم ، فإن هذا ربا ، حتى ولو لم ينص عليه فى العقد ، فإن من القواعد الشرعية « أن المعروف عرفا كالمشروط شرطا » فتكون هذه الزيادة ربا ، لأنها فى حكم المنصوص عليها وقد عرف الربا شرعا بأنه : فضل خال عن عوض بعقد .

ومن العرف الفاسد ما تعارف عليه الناس من صنع أهل الميت طعاما للمعزين فقد روى الإمام أحمد وابن ماجه بإسناد صحيح عن جرير ابن عبد الله رضى الله عنه قال : « كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنعهم الطعام من النياحة » .

ومثل ذلك عمل المآتم وإحياء يوم الأربعين من موت الميت ونقل الطعام إلى القبور فى المواسم والأعياد ؛ بل إن المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم غير ذلك فقد ورد عنه أنه قال : « اصنعوا لآل جعفر طعاما فقد جاءهم ما يشغلهم » رواه الترمذى وحسنه وصححه الحاكم ؛ هذا وما أكثر العرف الفاسد فى المآتم والأفراح فينبغى عرض هذه العادات على قواعد الشريعة

فما وجدناه منها فاسداً حاربناه ، وإلا تركنا الناس وما اعتادوه فى حياتهم .

هذه هى أقسام العرف بحسب الاعتبارات المختلفة .

مدى الاحتجاج بالعرف :

إذا أسقطنا العرف الفاسد ، فإلى أى مدى نحتج بالعرف الصحيح ؛ وهل يمكن أن نخصص به النص الشرعى العام أو القواعد الشرعية العامة .

وقبل الإجابة على ذلك لابد أن نعرف الدليل على اعتبار الشارع للعرف .

لقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وللعرب عرف وعادات فأقرها إلى أن أبطل الله تعالى بعض هذه العادات وأقر بعضها فنفهم من ذلك أن عادات الأمم لها اعتبارها ووزنها فى نظر الشارع ؛ لأن النبى صلوات الله وسلامه عليه بعث للناس كافة ؛ ألم يتبن الرسول صلى الله عليه وسلم زيداً حتى كان يقال له زيد بن محمد وبقى هذا التبنى وهو بمكة وردحا من الزمن فى المدينة حتى نزل قوله تعالى « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » وقوله « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم » . « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » .

وهذه الآيات كلها نزلت فى سورة الأحزاب وهى قد نزلت بعد موقعة الخندق فى السنة الخامسة من الهجرة ؟؟ !!

ثم ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم لخولة بنت ثعلبة التى ظاهر منها زوجها أوس ابن الصامت « ما أراك إلا قد حرمت عليه » لما تعارف عليه العرب من أن الظهار تحريم إلى أن نزل قوله تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزورا » إلى آخر الآيات التى بين فيها أحكام الظهار .

ثم ألم يعتبر الشارع ما تعارفه العرب من اعتبار الكفاءة فى النكاح ؟ !! وإن كان تحديد معنى الكفاءة مما يختلف فيه العرف بين النـــاس ويختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة .

وكذلك اعتبر الشارع الدية وأوجبها على العاقلة لما بين أفرادها من تناصر ، ولما فى إيجابها عليها من الضرب على أيدى المفسدين ، كما اعتبر العصبية سببا للولاية والإرث إلى كثير من الأحكام التى جاء الشارع مقرراً فيها العرف حتى أصبحت شرعا لا يجوز لنا أن نحيد عنه ؛ بل إننا نفهم من هذه الأحكام أن الشارع جعل

العرف وزنا واعتباراً فى التشريع ، ولقد بنى الأئمة المجتهدون كثيراً من الأحكام على العرف الشائع فى زمانهم ، فكثيراً ما نرى صاحبى أبى حنيفة أبا يوسف ومحمدا يخالفانه فى الرأى ؛ ونرى عند الرجوع إلى استدلالهم أن منشأ الخلاف هو اختلاف العرف باختلاف الزمن مع تقارب ما بينهم من زمن .

ونرى الشافعى رضى الله عنه غير كثيراً من آرائه بعد انتقاله إلى مصر ، ونرى أن بعض هذه الآراء ترجع إلى اختلاف العادات بين أهل العراق وأهل مصر .

ونرى مالكا رضى الله عنه يعتبر عرف أهل المدينة مصدراً من مصادر الأحكام فعلى أهل كل مذهب من هـــذه المذاهب أن يعيدوا النظر فى مذاهبهم فما وجدوه من الأحكام مبنياً على العرف فإنه يسعهم أن يخالفوا رأى إمامهم إن كان العرف قد تغير ، ولا يعتبرون بذلك خارجين على أصول مذهب إمامهم .

إذا عرفنا هذا فنقول : إن الإجماع منعقد على أن العرف القولى يعتبر مخصصا للنص الشرعى العام ، وللقواعد الشرعية العامة ؛ فإذا ورد عن الشارع نص فيه لفظ عام ولكن العرف خصص هـذا العام ببعض أفراده فإن هذا النص لا يحمل على كل أفراده ، بل يحمل على ما تعورف الحمل عليه ؛ وذلك كقوله صلى الله عليه وسلم (لا تبيعوا الطعام بالطعام إلا مثلا بمثل) فلفظ الطعام عام فى كل مطعوم ، ولكنه فى هـــذا الحديث لا يحمل إلا على البر وحده لأنه المتعارف عليه عند الإطلاق .

وأما العرف العملى فهل يخصص به العام ؟ ذهب الحنفية إلى أنه كالعرف القولى ؛ إذ التفرقة بينهما تحكم ؛ وكل ما قيل من وجوه التفرقة بينهما تمحل وتعصب فالاستصناع عرف عملى وقد ترك به قاعدة شرعية عامة وهى أن لا يجمع بين بيع وإجارة فى عقد واحد ؛ ومع هذا فهو مشروع .

ودخول الحمام مع عدم تحديد القدر الذى يستهلكه من الماء أو الصابون وعدم تحديد زمن المكث جائز شرعاً مع أنه تعاقد فيه جهالة ولكن تعارف النـــاس على التسامح فيها ..

وأمثال ذلك كثير وكثير ؛ ولو عرضنا كثيراً من المعاملات التى قال الفقهاء الأقدمون بفسادها بحجة أنها مفضية إلى النزاع ولكن الناس الآن تسامحوا فيها وأصبحت ليست مثار نزاع ؛ لو عرضناها ـ الآن ـ على بساط البحث لوسعنا أن نقول بجوازها ومشروعيتها اللهم إلا أن تكون ممنوعة بالنص .

الفرق بين العرف والإجماع :

العرف كما عرفنا فى أول هـذا البحث

هو ما تواضع عليه الناس أو طائفة منهم من قول أو فعل أو ترك وينشأ من اتفاق الناس لا فرق بين عامتهم وخاصتهم بخلاف الإجماع فإنه - كما عرفه المحققون من الأصوليين - اتفاق مجتهدى الأمة فى عصر من العصور بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم على حكم شرعى .

وبهذا يتبين أن العامة لهم مدخل فى العرف دون الإجماع ، والعرف قد يتغير بخلاف الإجماع فإنه إن انعقد لا يجوز لمن يأتى بعدهم أن يخالفهم لأنهم ما أجمعوا إلا بعد اجتهاد وتمحيص بخلاف العرف فإنه يحصل بين أهله بمجرد الاتفاق من غير بذل جهد أو استعراض أدلة ولكن تواضعوا عليه وتوارثوه فيما بينهم استجابة لحاجتهم وظروفهم ولهذا فهو يتغير بتغير الظروف والملابسات .

ولعل بهذا أكون قد بينت مكانة العرف فى التشريع الإسلامى وأيا ما كان فليس العرف دليلا خارجا عن الأدلة الشرعية المعروفة وهى الكتاب والسنة والإجماع والقياس .

وإلى مقال آخر نفصل فيه الكلام على المصالح المرسلة إن شاء الله تعالى .

بدر المتولى عبد الباسط

القول فى دين الله عن جهل

ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ولا هدى ولا كتاب منير . ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق . ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد .

ويقول تعالى : وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً .

تيارات منحرفة في التفكير الديني المعاصر

للأستاذ علي العماري

— ٣ —

إن الدين عند الله الإسلام :

ثم يستطرد المؤلف إلى جدل وقع بين مسلم ومسيحي ، وقد عاب على المسلم استشهاده بقوله تعالى : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » ووجه العيب عنده أن الكلمة من قول اليهود ، يريد أنها لا تستعمل إلا كما قيلت ، وزعم أن الشيخ المسلم أدركه الحصر ، وأنه ـ أي المؤلف ـ قال للشيخ : حرام عليكم يا مولانا أن تفتروا على الله الكذب ، وأن تأخذوا ما في المصحف الشريف وتفهموه على ما يقضي به علمكم ، وتوقدوا بذلك نار الفتنة بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب ، وبخاصة النصارى .

والمؤلف يعلم أن جميع المسلمين عالمهم وجاهلهم ، يعاملون أهل الكتاب المقيمين بينهم كما أمرهم دينهم أن يعاملوهم : (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) ، ويسيرون على مقتضى قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » .

ويعلم أنه لا مانع : لا عربية ، ولا دينا ، ولا خلقا أن يتمثل إنسان بآية أو ببعض آية من القرآن إذا كان المقام يقتضي هذا التمثيل ، وهو يفهم جيداً ما أعنيه بهذه الكلمة .

فالشيخ لم يفتر على الله ، ولم يحاول أن يوقد نار فتنة ، ولعل صاحب المؤلف الذي وصفه بأنه من (إخوانه الأقباط) هو الذي بدأ بالعدوان ، ولكن المؤلف كأنما ندب نفسه للدفاع عن (إخوانه) بدليل قوله في نفس الموضع (وبخاصة النصارى) .

وأعتقد أن نشر هذا الحديث كما ذكره المؤلف في كتابه هو الذي يوقد نار الفتنة لا ما قاله الشيخ في جدل محصور بينه وبين أحد الناس ، فما الذي حمل المؤلف أن ينشر هذه الحكاية الصغيرة في كتاب ؟ !

ثم يستمر المؤلف فيذكرنا بأن القرآن وصف النصارى بأنهم أقرب الناس مودة للمسلمين ، وذلك في الآية الكريمة : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة

للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » .

ويكتب تعليقـــا فى هامش الصفحة على الأوصاف الأخيرة فى الآية فيقول : (لم تقل الآية : وإنهم غير مؤمنين بمحمد ، أو إنهم مسلمون معك !) هكذا بوضع علامة التعجب بعد هذه الكلمات .

فأولا : كيف غاب عن هذا المتحمس لإخوانه أن الدول المسيحية كانت ولا تزال تنزل بالمسلمين أقسى أنواع الاضطهاد ، وتستغلهم أسوأ أنواع الاستغلال ، ولن ينسى المسلمون أبدا ما فعلته إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وغيرها من الدول المسيحية بالعالم الإسلامى والعالم العربى ، وليس ما فعلوه مجهولا حتى ندل أحدا عليه ؟ .

وكيف غاب عنه أن كل أعمال المبشرين ، وكتاباتهم لا تعنى فى الدرجة الأولى - كما هو المفروض - بنشر المسيحية وتعاليمها ، ولكن عنايتهم الأولى بتحطيم الإسلام ، ونزعه من قلوب المسلمين ، وأن أعمال المبشرين وكتاباتهم هى التى هددت السلام بين الأمم التى تتألف من مسلمين ومسيحيين ، وهذه الكتب تفيض بالأحقاد على الإســـلام والمسلمين .

وإذا كان المؤلف لم يسمع بشىء من هذا فإننا ننقل له كلمات من كتاب عنوانه (البحث عن الدين الحقيق) وهذا الكتاب ألف ليدرس فى المدارس الأجنبية المنبثة فى البلاد العربية ، وقد صدر عن اتحاد مؤسسات التعليم المسيحى فى باريس ، ونال رضا البابا ليون الثالث عشر - كما ذكر صاحبا كتاب (التبشير والاستعمار) . وأما الكلمات فهى : (الإسلام فى القرن السابع للميلاد . برز فى الشرق عدو جديد ، ذلك هو الإسلام الذى أسس على القوة ، وقام على أشد أنواع التعصب ، لقد وضع محمد السيف فى أيدى الذين اتبعوه ، وتساهل فى أقدس قوانين الأخلاق ، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب ووعد الذين يهلكون فى القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات) .

ثم يقول المؤلفان الدكتوران : مصطفى خالدى وعمر فروخ : هذا النوع من التأليف هو الذى أقلق السلام بين الشرق والغرب منذ أقدم الأزمنة ، وهو الذى يهدد السلام كل يوم وخصوصا فى الشرق .

وثانيـاً : ماذا أراد المؤلف بتعليقـه فى الهامش ؟ هل أراد أن يقول إن القرآن لم يشترط فى المسيحيين الذين هم أقرب مودة للمؤمنين أن يؤمنوا بمحمد ، وأن كل مسيحى مهما كان أمره هو أقرب الناس مودة للذين آمنوا .

إذن فما بال المسيحيين - فى الغرب - منذ الحروب الصليبية إلى اليوم لم يتركوا أية فرصة دون أن يحاولوا ، وأن يعملوا - جاهدين - على هدم الإسلام ؟

ثم ، لم وقف المؤلف عند هذا الحد من الآيات الكريمة ، لعلى لو أكملت له الآيات - ولا أظنه تركها غافلا - لسقط فى يده ، ولوقع فى عياء لا يدرى طريقا للخروج منها ، لأن الآيات كاملة تجعل تعليقته صادرة عن جهل أو خبث ، بل تغسل كتابه كله غسلا - لو كان يريد أن يكون من الذين يحترمون عقولهم وأقلامهم - .

قال الله تعالى بعد الآية السابقة : « وأنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين » .

ما رأى المؤلف ؟ ألا يزال يصر على أن الآية لم تقل إنهم لم يؤمنوا بمحمد ؟ ألا يزال يرى أن لكل صاحب دين أن يؤدى عبادته كما وصفها دينه دون أن يلزمه الإيمان بالأديان الأخرى وبرسلها ؟ .

* * *

والمؤلف لا يلتزم بما التزمت به كل الشرائع ، فمن المعلوم من الأديان بالضرورة أن الإيمان بالله وبرسله أساس النجاة من عذاب الله ، والله لا يغفر أن يشرك به - كما جاء بنص القرآن الكريم - فما وجه العجب فى أن يحكم على رجل لم يؤمن بأن الله واحد ، ولم يؤمن بأن محمداً رسول الله بأنه لن ينال رحمة الله ؟.

المؤلف يذكر حكاية - كما يقول - على سبيل الفكاهة ، خلاصتها أن أحد المشايخ أجاب عن سؤال يتعلق (بايديسون) فقال إنه لا يدخل الجنة لأنه لم ينطق بالشهادتين ، فعجب المؤلف من ذلك أشد العجب ، ووجه للشيخ كلاما كأنه يؤنبه ، فقال له أولهم : بعد أن أضاء العالم حتى مساجدكم ، وبيوتكم باختراعه ؟ فأجابوه : لا ، ولو ، فعاد يسأل : ألا يمكن أن يدخل الجنة عقلا ؟ وقد خيل إليه أنه حج المشايخ ، وسفه أحلامهم ، وهو - والله - مسكين ، فما دخل العقل هنا ؟ لقد قال الشيوخ : إن الرجل الذى لا ينطق بالشهادتين مهما أدى للعالم من خدمات فلن يغفر الله له ، وهو كلام يوافق صريح النصوص ، فإن كان يريد الاحتكام إلى العقل فهو يوافق العقل .

لقد أنعم الله على هذا المخترع بنعمة عظيمة ، وهى نعمة النبوغ ، وكان مقتضى هذه النعمة أن يعترف بوحدانية الله ، وأن يصدق بكتبه ورسوله ، ولكنه لم يحفل بذلك ، فمن الملوم ؟

إنه هو - ولا شك - وإذا حرم الله عليه الجنة فلأنه لم يشكر من وهب له هذه النعمة التى أضاء بها العالم ، ومع ذلك فكيف نحتكم إلى العقل والنصوص صريحة واضحة ؟

إذا كان المؤلف مسلما ، يؤمن بأن القرآن من عند الله فهذا حكم القرآن ، وإن كان يرى أن الإسلام يتحقق دون أن يؤمن الإنسان بأن القرآن من عند الله ، وبأن محمداً رسول الله ، وقد أرسل للناس كافة فالآن جاء الوقت للحديث معه فى هذا الشأن .

يبدو أن قوله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) يبدو أن هذه الآية الكريمة ، أو على وجه الدقة ، ظاهرها قد أغرى كثيراً من المنحرفين لأن يتخذوا منها برهانا على أن الإيمان بمحمد ، وبالقرآن لا حاجة إليه فى النجاة عند الله .

ولعل أول الطريق ما وقع فيه السيد رشيد رضا - عن غير قصد - فاتخذه هؤلاء سندا وحجة ، وراحوا يقلدونه دون أن ينظروا فى جملة أقواله ، بل لعلهم نظروا ، ولكنهم وجدوا فى هذا الموضع ما يسعفهم ، ويساعدهم على ضلالتهم فتمسكوا به ، وكأنهم يجهلون أن الناس يعرفون القراءة ، وأنهم يستطيعون أن يرجعوا إلى كتب التفاسير ، بل أن يرجعوا إلى القرآن نفسه ، ويضعوا آية بجوار آية ، ويطمئنوا أخيراً إلى الحق .

قال السيد رشيد رضا فى تفسير هذه الآية من سورة البقرة : (ولا إشكال فى عدم اشتراط الإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم) .

ومع أن هذا مخالف لما قال به جمهور المفسرين فى الآية ، ومع أن الإيمان بالله يقتضى فى ذاته الإيمان بكل ما صدر عنه ، فالإيمان بالكتب المنزلة ، ومنها القرآن ، والإيمان بالرسل ومنهم محمد جزء من الإيمان بالله ، ولن يتحقق الإيمان بالله إلا بالإيمان بكل ذلك ، ولذلك كان الإسلام الحق ، هو الإيمان بالله ورسله وكتبه وملائكته ، واليوم الآخر ، والمسلمون لا يفرقون بين أحد من رسله ، مع كل ذلك نرجع إلى السيد رشيد رضا نفسه لنجد أنه لا يعنى بهذه الكلمة ما فهمه منها المنحرفون .

يقول فى تفسير قوله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معهم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » : (إن من مقتضى ذلك الميثاق أن دين الله واحد ، وأن دعاته متفقون

متحدون ، فمن تولى بعد الميثاق على ذلك عن هذه الوحدة ، واتخذ الدين آلة للتفريق والعدوان ، ولم يؤمن بالنبى المتأخر المصدق لمن تقدمه ، ولم ينصره كأولئك الذين يجحدون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ويؤذونه فأولئك هم الفاسقون أى الخارجون من ميثاق الله ، الناقضون لعهده ، وليسوا من دينه الحق فى شئ) .

ويقول فى التفسير (جـ ١٠ صـ ٣٠٠) : (من قال: إنه يؤمن برسالته ـ يقصد محمداً صلى الله عليه وسلم ـ إلى العرب خاصة لا يعتد بإيمانه ، لأنه مكذب لهذه النصوص العامة القطعية بما جاء به) .

إلى أقوال أخرى كثيرة مبثوثة فى تفسير المنار عند مناسباتها ، وإنما لفت النظر إلى أقوال هذا المفسر لأن المؤلف يعتمد عليه كثيراً ، ويأخذ حتى تعبيراته ، ولكنه ـ مع الأسف ـ يبترها كما يبتر الآيات ، والأحاديث ليوهم نفسه أنه وصل إلى غايته من خداع الناس ، وما خدع إلا نفسه ، وإلا الذين يظنون أنه حقق ما تهفو إليه نفوسهم المريضة .

إن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم عامة أرسل إلى الإنس وإلى الجن ، وإلى جميع الناس ، وهو خاتم النبيين ، والنصوص على ذلك كثيرة من القرآن الكريم ، ومن الأحاديث النبوية الصحيحة ، وهى لشهرتها تغنى عن سردها هنا ، ولكن لا بأس أن أضع أمام المؤلف بعضها مع يقيننا بأنه لا يجهله .

قال تعالى فى سورة الأعراف : « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا » ، وقال سبحانه فى سورة سبأ : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » ، وقال عز وجل فى سورة الأنعام : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » ، أى وأنذر به كل من بلغه من الثقلين .

وقال ـ وهو أصدق القائلين ـ فى سورة الفرقان : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » .

فهل يمكن مع هذه النصوص الواضحة لإنسان يحترم عقله ، ويحترم القراء أن يدعى : أن الإيمان بمحمد ، والإيمان بالقرآن ليس واحد منهما شرطا فى النجاة عند الله ، وأن كل ما يطلب من الإنسان الإيمان بالله ، وباليوم الآخر ، والعمل الصالح ، وهذه ـ كما يقول المؤلف ـ هى أركان الدين الأساسية .

أما تفسير الآية على وجهها الصحيح ، فيكفى أن يرجع من يريد إلى أى كتاب من كتب التفسير ليعرف وجه الحق فى تفسيرها ومهما أخذت هذه الآية على ظاهرها فلن

تكون الكلمة الأخيرة فى هذا الموضوع الخطير ، لأن فى القرآن آيات كثيرة تتعلق بعموم رسالة النبى محمد ، وتتعلق بموقف الإسلام من أهل الكتاب ، ومن دعوتهم إلى الإسلام ، وليس فيه آية واحدة تبيح لهم أن يبقوا على دياناتهم الأولى معرضين عما جاء به رسول البشرية ، ولا جاء ذلك فى حديث صحيح ، حتى ولا غير صحيح .

فهل نلغى كل النصوص الواضحة الصريحة ليتمسك مع المؤلف بظاهر آية واحدة أبان كل المفسرين المراد منها ، ودلت الآيات الأخرى على أنه لا يمكن حملها على ظاهرها .

ومن عجب أن المؤلف أخذ ينقل من تفسير المنار ، فنقل خمس صفحات كاملات ، ولكنه تجاوز عن كل ما يتعلق برسالة محمد ومعجزته ، لأنه يثبت بما لا يدع مجالا للشك دلالة القرآن على نبوة محمد وفيه هذه العبارة (وإن القرآن قد بلغ رتبة الكمال فى (الهداية) فاهتدت به الأمم والشعوب .

فمن كان يؤمن بها على علم بحقيقتها لا تقليداً لآبائه وقومه فيها لايسعه أن يؤمن بالتوراة أو الإنجيل أو الفيدا أوغيرهن من الكتب المنسوبة إلى المرسلين الأولين ولا يؤمن بالقرآن وهو أكملها فى موضوعها ، وأصحها إلى من جاء به) .

وفيها أيضا أن من كان يؤمن بالله وأنه الرب الخالق للعالم بأكمل نظام المدبر لأمور العباد بالحكمة والأحكام وتأمل تاريخ محمد لايمكن أن يدعى أن القرآن من أمور التعاليم البشرية الكسبية .

فهل يمكننا أن نسأل المؤلف لماذا تغافل عن هذا وأمثاله ، من كلام الإمامين اللذين يعتمد على أقوالهما : محمد عبده ورشيد رضا ؟ بل ليس لنا أن نسأل لأنا نعرف الجواب ، فإن من يجرؤ على أن يأخذ بعض الآيات ويترك بعضا لا يستغرب منه أن يأخذ من كلام الشيخين ويدع .

ولكن سوء النية هنا لايضر المؤلف وحده ، وإنما يضع فى نفوس القراء الذين لا تهيء لهم ظروفهم الاطلاع على ما كتبه الرجلان ، يضع سحابة من الشك ، فهو يسىء إلى شيخيه - كما يدعى - إساءة بالغة حين يبتر أقوالهما ، ويأخذ منها ما يدل ظاهره على تأييده فى غرضه ، ولو نقل الكلام كاملا ، أو حتى لو لخص رأى الرجلين بأمانة لفهم الناس رأيهما على حقيقته ، ولكن كان أمامه أحد أمرين أما أن ينقل رأيهما كاملا ، وحينئذ يلقى بكتابه فى اليم ، وإما أن يتنكر للأمانة العلمية ، وحينئذ يصل - فى دنيا الوهم - إلى بعض غرضه ، ولعل هذا المكسب الخيالى الصغير أحب إلى نفسه من سلوك سبيل العلماء .

علي العماري

المرونة فى اللغة العربية

للأستاذ عبد الحميد حسن

— ٢ —

إن باب القياس لايزال مفتوحا ، وطريق الاجتهاد لم يوصد ولن يوصد ، وإن المجال فسيح للأخذ بأسباب التجديد والمرونة على الأسس التى لاتحيد باللغة عن نهجها، ولا تنحرف بها عن خصائصها ، وإنا لنرى فى آراء العلماء وفيما لهم من مذاهب سنداً لكل هذا .

وإليكم بعض هذه الآراء التى تشجع على التيسير، ومسايرة التجديد :

١ — قال أبو حيان فى شرح التسهيل : «كل ما كان لغة لقبيلة صح القياس عليه» .

٢ — وقال ابن جنى فى الخصائص : «اللغات على اختلافها كلها حجة ، والناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء» .

٣ — وقال ابن جنى أيضاً فى الخصائص : «حكم اللغتين إذا كانت إحداهما قليلة والأخرى كثيرة جداً فإنك حينئذ تأخذ بأوسعها رواية ، وأقواها قياسا ، وتتخير أشيعها ، إلا أنك لو استعملت الأقل لم تكن مخطئا فى كلام العرب» .

٤ — وقال السيوطى فى المزهر : قال ابن درستوريه فى شرح الفصيح : «إنما أهمل «ودع» و «وذر» ، لأن فى أولها واواً وهو حرف مستقل ، فاستغنى عنهما بما خلا منه وهو «ترك» . ثم قال : «واستعمال ما أهملوا من هذا جائز صواب وهو الأصل» .

٥ — والكوفيون يعتدون بما ورد من الكلمات الشاذة ، ويعملون بالقياس عليها وابن مالك يوافقهم فى هذا .

* * *

وعلى هذا الأساس من المرونة والتيسير رد بعض الباحثين على من تعددوا فى اللغة وقواعدها وأبوا أن يعترفوا بما هو صحيح ومنعوا ما يمكن أن يصادف القبول .

فهذا هو الحريرى (٢٩٥) فى كتابه «درة الغواص فى أوهام الخواص» يتعرض لمسائل كثيرة يحكم بأنها خطأ ؛ فينبرى له الشهاب الخفاجى فى شرحه على «درة الغواص» ويصحح كثيراً مما رفض إجازته . ومن أمثلة ذلك :

اجتمع محمد مع على — دخول «أل» على «غير» وعلى «كافة» — المال بين زيد وبين عمرو بتكرر كلمة بين — جمع مرآة على «مرايا» — التعبير : «ما كان ذلك فى حسابى»

ويصر على أن تقول فى حسابى - الألف درهم والألف كتاب ، إلى غير ذلك .

وهنا كتب أخرى لغير الحريرى ممن تصدوا لتخطئة كثير من الكلمات والعبارات . ومن ذلك :

١ - كتاب « ما تلحن فيه العامة » للكسائى (١٩٢) .

٢ - كتاب « إصلاح المنطق » لابن السكيت (٢٤٤) .

٣ - « أدب الكاتب » لابن قتيبة (٢٧٦)

٤ - « ما تلحن فيه العامة » للزبيدى (٣٧٩) .

٥ - « لغة الجرائد » لليازجى (١٩٠٦)

٦ - « تذكرة الكاتب » لأسعد خليل داغر (١٩٥٩) .

وقد تصدى العـــالم الجليل المحقق الأستاذ محمد على النجار عضو هذا المجمع لهذه الكتب فى محاضراته التى ألقاها أخيراً فى معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، ولقد جال سيادته فى هذه المحاضرات جولة موفقة ، ورد على طائفة مما ورد فى الجموع تكون على شكل واحد للكلمة الواحدة . ويسقط احتجاج اللغويين بما ورد وما لم يرد . وعلينا أن نرفض من الألفاظ ما تعددت معانيه تعدداً معيباً ، وما اختلف تحديد معناه ، وأن نعدل عن الظن بأن العلم بالغريب هو غاية العلم باللغة ، وأن لا نبقى منه إلا ما دل على شىء لا تدل عليه الكلمة المألوفة ، وهذا يستدعى معاجم حديثة من طراز يختلف فى جوهره عن المعاجم القديمة كما سنبينه فيما بعد .

الشعر : من أهم مصادر اللغة العربية الشعر . وكانت للناس به عناية فائقة . وكان يكفى فى التدليل على صحة معنى كلمة أو صيغتها أو صواب تركيب ما أن يقولوا قال الشاعر . والذى دعا إلى كل هذه العناية بالشعر سهولة حفظه ، وتداوله بين الناس على نحو يقرب من التدوين ؛ حين عز التدوين بالكتابة ولعلهم كانوا يرون أن نظم الشعر يدل على قدر من الذوق الأدبى يسمح بالاستشهاد به . وقيل : إن الشعر ديوان العرب . وقد يكون حقا ديوان عاداتهم ، وأخلاقهم ، وأيامهم وما يحبون ، وما يكرهون ، ولكنه لا يصلح ديوانا للغة دون تحقيق دقيق .

والشعر فى اللغات كلها له أسلوب خاص وأوضاع وترتيب فى الكلام يقبل من الشاعر ولا يقبل من الكتاب عادة [١] ، ولا يعد أصلا يتبع فى النثر . بل قد يضطر الشاعر أن يغير من نطق كلمة بعينها ليستقيم الوزن ولا يجارى

---

(١) قيل من كاتب إنجليزى متأنق : أنه كان لا يطيق أن تكون جملة نثرية فى ترتيب جملها كالمنظومة ويعد هذا عيبا فى النثر .

أحد من الكتاب الشعراء فى مثل هذا . الشعر العربى لا يختلف فى هذا عن الشعر فى اللغات الأخرى ، وإنما زاد فى صعوبته أن أوزانه محدودة محكمة ، لا تقبل إلا قليلا من المرونة ، وقافية القصيدة واحدة مما يزيد فى صعوبة النظم . ولو التزم الشعراء العرب صحة الألفاظ ، واستقامة الأسلوب ، وجودة المعنى مع هذه الأوزان القاسية ، والقافية الموحدة دون تجاوز عن بعض الصيغ وتهاون فى الصرف ما استطاع أكثرهم أن يقول إلا القليل من الشعر .

على أن للنظم مجالا يجعل هذه الانحرافات فى اللغة والأسلوب مقبولة، ولكن النحويين يخطئون حين يجعلون ذلك أصلا من أصول اللغة يباح لغير الشعراء . وليس هناك لغة تجعل للتقديم والتأخير فى الشعر قواعد خاصة تسرى على اللغة كلها ، إنما يتحكم فى ذلك الوزن ، والذنب على النحويين حين يتخذون من مثل قول الفرزدق .

قنافذ هداجون حول بيوتهم
بما كان إياهم عطية عودا

دليلا على جواز قولك كان طعامك زيد آكلا ، وذلك كلام مقبول حسن وهذا كلام سخيف .

والشعر مهما يكن جيدا قد لا يخلو من تساهل فى معانى الألفاظ ، فالشاعر يضع الكلمة التى يستقيم بها الوزن موضعها من البيت إذا كان معناها قريبا ، وهو يقحم المعنى الذى يريده على الكلمة ، وإن كانت بينهما فروق يسيرة ، وضاعت بذلك دقة دلالة اللفظ على المعنى ، فالشاعر لا يقف عند الفرق بين المجوع والنوم ،أو السير والسرى بل يختار ما يوافق النظم ، ولا نزاع فى أن هذا التساهل أفسد كثيراً من الدلالات الدقيقة للألفاظ ، وكذلك صيغ التكسير وغيرها يختار الشاعر منها ما يوافق الوزن ما دام الغرض مفهوما، بل قد يخترع جموعا ومصادر لم يسمعها من قبل ولا يعنى ذلك أنها تصبح مباحة لغير الشعراء .

قال الشاعر :

لو كان فى قلبى كقدر قلامة
من حب غيرك قد أتاها أرسلى

والشعر ضعيف لا يعتد به، ولكن النحويين درسوه، قالوا : إن رسول لا تجمع على أرسل فإذا كان هذا صحيحاً فالشاعر أخطأ من غير شك ولكن الشعر أصل من أصول اللغة ، لا يقع فيه الخطأ، فوجب التأويل، وتخريج ابن جنى لذلك أن أفعل تجوز فى الجمع عند التأنيث وأن الرسل فى هذه الأمور يكونون عادة من النساء ، تخريج جميل ،ولكنه غير صحيح ؛ لأن الشاعر قال: ذلك دون أن يعنى بالقاعدة جهلا أو اضطرارا .

وقال الشاعر :

مثلها يخرج النصيحة للقو
م فلاة من دونها أفلاء

قال ابن سيده : أن فلاة لا تجمع على أفلاء وإنما أفلاء هذه جمع فلا التي هي جمع فلاة ، وهذا أيضا تخريج لا يطابق الواقع ، فالحارث ابن حلزة وجد أن أفلاء مفهومة على أنها جمع فلاة وأنها تناسب الوزن والقافية ، فوضعها غير عابئ بما سيقول فيه النحاة .

يقول النابغة الجعدي :

موالى حلف لا موالى قرابة
ولكن قطينا يحلبون الأتاويا

وهو يريد جمع أتاوة ، ولكن أتاوة تجمع على أتاوى كهراوة وهراوى ، بعد أن تمر بمراتب لكل مرتبة علة فتكون : أتاء ، ثم أتايا كمطايا ، ثم أتاء ثم أتاوى ، ويعترف ابن جنى أن الشاعر غير فى هذا الجمع لتستقيم القافية لجعلها أتاويا ، وعلل ذلك بعلة معقدة غاية التعقيد .

والواقع أن الشاعر لم يقصد إلى شيء من ذلك أبدا إنما أراد جمع أتاوة جمعا نهايته تتفق مع روى القصيدة ، فقال أتاويا ، وليس لأحد أن ينسب إليه شيئا لم يفكر فيه ، ولا يصح أن نجعل هذا الخروج صحيحا يستطيعه من الكتاب من لم يضطر إليه .

وقالوا : إن سواء لغة فى سوى . ودليلهم قول الشعراء من سوائنا ، ظنا أن أهل هذا الشعر كانوا يقولون سوائنا . وهذا بالطبع فرض لا يقوم عليه برهان ، إنما وضع الشاعر من عنده ، وليست لغة فى سوى .

فإذا كان هذا هو مسلك اللغة العربية فى ضبط الكلمات ، وفى تحويل بعض الصيغ إلى بعض ، وفى تحميل الكلمة معانى كثيرة ، فهل تضيق عن مظاهر المرونة التى تجلت فى خصائصها وفى أساليبها ؟

إن لغتنا العربية فى حاجة إلى نظرة جديدة فى مختلف نواحيها :

١ — فهى فى حاجة إلى أن نسلك بها فى التوسع سبيلا نمحص فيه ما لم يرد فى معاجمنا فى العصور المبكرة مما جد حديثا من الألفاظ المولدة والمحدثة والدخيلة والعامية ، ونلقى على كل ذلك نظرة فاحصة ثم نفسح لها المجال فى المعجم الكبير ، كما وسعها المعجم الوسيط .

٢ — وهى فى حاجة إلى نظرة جديدة فى قواعد الاشتقاق ، وفى أصول القياس ، وإن فيما سجل الباحثون من آراء لمتسعا لهذا ، وفى اللغة استعداد للاستجابة والتطوير ومسايرة التجديد .

٣ — وهى فى حاجة إلى أن نقرب موردها للمتعطشين ، ونذلل صعابها للشادين ، حتى تصبح لغة الحياة فى جميع المقاصد ، ومختلف الشئون .

عبد الحميد حسن

المجتمع الاشتراكى فى ظل الإسلام

للأستاذ عبد الرحيم فوده

١٢ — العبادة المالية

العبادة هى نهاية الخضوع لله سبحانه وتعالى مع الخوف من عقابه والطمع فى ثوابه، وقد جعل العلماء الإيمان بالله وما يتصل به من ذكر وشكر رأس العبادات القلبية، وجعلوا إقامة الصلاة وما يدخل فى معنى إقامتها رأس العبادات البدنية، أما رأس العبادات المالية فهو أداء الزكاة لمستحقيها ممن ذكرهم الله فى قوله تعالى: «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل» وقد لا أبعد عن الحقيقة إذا شبهت العبادة بالشجرة المزهرة المثمرة، وجعلت الإيمان منها بمنزلة البذرة والصلاة وما إليها من العبادات البدنية بمنزلة الجذع والغصون، والزكاة وما إليها من وجوه الأنفاق بمنزلة الزهور والثمار، وإن كانت الحقيقة التى لا يرقى إليها شك هى أن الزكاة ركن من أركان الإسلام كما يفهم من قوله صلى الله عليه وسلم: (بنى الإسلام على خمس: شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمد رسول وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت وصوم رمضان) وقد قرن الله الزكاة بالصلاة فى القرآن الكريم وجعلها حقا معلوما للسائل والمحروم، ورأى أبو بكر رضى الله عنه أن يقاتل عليها ما نعيها فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه.

وقد روى الطبرانى عن على رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله فرض على أغنياء المسلمين بقدر الذى يسع فقراءهم، ولن يجهدوا إذا جاعوا وعروا إلا بما صنع أغنياؤهم، ألا وإن الله يحاسبهم حسابا شديداً، ويعذبهم عذابا أليما) وأنذر عليه الصلاة والسلام مانعى الزكاة بسوء الحال والمآل فقال: (وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا).

وإذا كانت الصلاة كما يقول الله: «تنهى عن الفحشاء والمنكر»، فإن الزكاة كما يقول سبحانه: «تطهرهم وتزكيهم»، فهى تطهر النفوس من الذنوب والبخل والشح وما يتصل

بهما من العيوب : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، وهى تزكيها بمعنى أنها تنمى نوازع البر والخير فيها ، وكما أنها تطهر نفوس الأغنياء ، من الشح والبخل تطهر نفوس الفقراء من الحسد والحقد ، ثم هى إلى ذلك تطهر المال من الشر الذى يشوبه بقاء حق الفقراء فيه ، وفى هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم : (إذا أديت زكاة مالك فقد أذهبت عنك شره) ويقول عليه الصلاة والسلام : (حصنوا أموالكم بالزكاة) وهى كذلك تزكى المال بمعنى أنها تنميه ، وتضع البركة فيه ، كما يفهم من قوله تعالى : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » ، وكما يفهم من قوله جل شأنه : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

أما أنها نماء وبركة وزيادة فى المال ورخاء المجتمع ، فلأنه ينتفع بها الفقير والغنى بوجه عام ، وحسبنا أن نذكر ما يسود المجتمع من ركود إذا احتجن الأغنياء فيه أموالهم ، ولم يسهموا بها ، أو بجزء منها فى تهيئة فرص العمل للعاطلين عن لا يجدون ما ينفقون ، أو إذا عاشوا كسالى مكتفين بما تدره عليهم من فوائد أو عوائد نتيجة استغلال الحاجة إلى المال أو استغلال المال عند من لا يجدون المال ، فإن ذلك يخل بالتوازن ، ويقيم الحواجز والفوارق بين الطبقات ويمحق البركة ويجلب الشر والشقاء للجميع .

ثم إن فريضة الزكاة - كما يقول فضيلة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز « بمثابة رابطة بين الإنسان وربه من ناحية ، وبينه وبين المجتمع من ناحية أخرى ، وكأن الإسلام بفرضها أراد أن يلفت نظر المسلم إلى ضرورة شكر الله على ما أسدى إليه من نعم ، حتى يؤدى الزكاة ، وإلى أنه عضو فى مجتمع يجب أن يكون متعاونا متساندا ، كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

وقد انفرد الإسلام بين جميع الشرائع السماوية ، بإيجاب الزكاة ، وتحديد مقدارها ، وجعله حقا معلوما أو ضريبة مقدسة ، تدفع طوعا أو كرها ، قد يقال : أنها كانت من دعوة كل نبي ورسالة كل رسول من الأنبياء والمرسلين ، وذلك صحيح ، لأننا نجد ذلك فى القرآن حيث يقول الله عن إبراهيم وابنه إسحق وحفيده يعقوب : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » . ونجده حيث يقول عن بنى إسرائيل : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين

وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » . ونجده حيث يحكى الله عن عيسى قوله : « وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا » .

ولكن هذا الأصل الذى نجده فى كل دين شرعه الله وبعث به أنبياءه ، كان الأمر به مجرد وصايا بالبذل لمن يستحقون العون والفضل ، ولم يكن بالمقدار المحدد الذى أوجبه الإسلام فى الأنعام والذهب والفضة والبضائع التجارية وثمار الأشجار والكروم وما يعثر عليه فى باطن الأرض من المعادن والكنوز ، وقد ألحق فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة الدور المعدة للاستغلال بالزروع وقال فى ذلك : « إن المعروف عن جمهور الفقهاء أنهم لم يقرروا زكاة فى الدور لأن الدور فى عصورهم لم تكن مستغلة ، بل كانت لسد الحاجات الأصلية ، وكان ذلك عدلا اجتماعيا فى عهد الاستنباط الفقهى ، أما فى عصرنا الحاضر فقد استبحر العمران ، وشيدت العمائر والقصور للاستغلال وصارت تدر أضعاف ما تدره الأرضون ، فكان من المصلحة أن تؤخذ منها زكاة كالأراضى الزراعية ، إذ لا فرق بين مالك تجبى إليه غلات عمارته كل شهر ، ومالك تجبى إليه غلات أرض زراعية كل عام ، فلو أوجبنا الزكاة فى الأراضى الزراعية ورفعناها عن المستغلات العقارية لكان ذلك ظلما » .

ويبدو أن فضيلته لم يضع فى تقديره أن غلات العمائر تتجمع أموالا وتدفع عنها زكاة الأموال ، أو أنه رأى من الأحوط ضبط إيراد هذه العمائر وفرض الزكاة عليه وبخاصة فى هذا الزمن الذى فسدت فيه الذمم والضمائر « وأحضرت الأنفس الشح » .

وهكذا نجد الزكاة أظهر مظهر لمعنى الاشتراكية فى الإسلام ، فإذا أضفنا إلى ما ذكرنا أن ما يعثر عليه فى باطن الأرض كالبترول يكون ملكا لبيت المال ـ كما هو مذهب مالك ـ أدركنا أى مقدار يمكن أن تحصل عليه الدولة أو المجتمع من فريضة الزكاة .

أما تفصيل أنصبتها ومقاديرها وأنواعها فلا يتسع له مقال ، وهو مبسوط فى كتب الفقه يستطيع أن يرجع إليه من شاء . وأما إثم تاركها فقد صوره النبى صلى الله عليه وسلم بصورتين تقشعر منهما الأبدان : إذ يؤتى به وبماله يوم القيامة ، فإن كان المال الذى لم يؤد زكاته إبلا أو بقرا أو غنما جىء بها أكثر ما كانت وأسمن ما تكون ، ثم يوضع فى مكان مستو لتدوسه فيه وتعدو عليه بأخفافها وتنطحه بقرونها ، وتظل تغدو وتروح فى عدوها عليه حتى يقضى الله بين الناس ويفصل بينهم بحكمه .

وإن كان هذا المال كنزا جاء يوم القيامة حية خبيثة تفغر له فاها وتتبعه كلما فر منها وتقول له خذ كنزك الذى خبأته ، ثم تطلب إليه أن يدخل يده فى فيها ليأخذه من جوفها فلا يجد سبيلا إلى الخلاص منها ، فيدخل يده لتنوشها بأسنانها وتقطعها ...

هاتان الصورتان نجدهما فيما روى عن أبى هريرة وجابر رضى الله عنهما إذ قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدى حق الله تعالى فيها إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت وأقعد لها بقاع قرقر (١) ، تستن (٢) عليه بقوائمها وأخفافها ، وتنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها (١) ، ليس فيها جماء ، ولا منكسر قرنها ، كلما مرت عليه أخرى عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الخلق ، ولا صاحب كنز إلا جاء كنزه يوم القيامة شجاعا (٢) أقرع يتبعه فاتحا فاه ، فإذا أتاه فر منه ، فيناديه : خذ كنزك الذى خبأته فأنا عنه غنى ، فإذا رأى أنه لا بد له منه سلك (٣) يده فى فيه فيقضمها (٤) قضم الفحل) .

نسأل الله أن يعيننا على الخير وأن يقينا الشر ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، .

عبد الرحيم فوده

(١) القاع المستوى المنخفض من الأرض والقرقر الأملس .
(٢) تستن عليه تعدو وتجرى فوقه .

(١) الظلف للشاة . كالحافر للفرس .
(٢) الشجاع ، الحية .
(٣) سلك ، أدخل .
(٤) القضم ، القطع بالأسنان .

الهالكون بما كسبوا

قال تعالى :

وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهــواً وغرتهم الحياة الدنيا ، وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ، ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع ، وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها ، أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا ، لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون .

القوم الصوفية [1]

بقلم : أ . م . م . ماكين

ترجمة : الأستاذ فتحى عثمان

— ١ —

شغف المستشرقون بدراسة (التصوف) فى الإسلام فكراً وعملا .

فالتصوف يرضى فى نفوس المستشرقين النزوع إلى عالم الأسرار والغوامض ، وارتباط الشرق فى نظارهم ، بهذا العالم العجيب ...

ومن هنا تتابعت دراسات نيكلسون ، وماسيفيون ، وآربرى ، وغيرهم . .

وهذا أحد المستشرقين يقدم فى إجمال طيب عرضاً للفكر الصرفى والتجمع الصوفى ... اختار له عنوان (القيم الصوفية) وقد اعتمد الكاتب (أ م م . ماكين) على دراسات من سبقه من المستشرقين ، وعلى قراءاته فى المراجع العربية ، كما تغير حواشيه وقائمة المراجع التى وضعها فى خاتمة بحثه إتماما للفائدة ...

المترجم

هذا تحليل موجز لتطور حركة الصوفية منذ فجر الإسلام ، والحركة تتضمن كلا جانبى التصوف : الفكر الصوفى ، والتجربة الصوفية على السواء ، فأما الفكر فهو يمدنا بالمضمون والمحتوى ، وأما التجربة فتعطينا شكل التصميم العملى ، على أن دراسة طبيعة النظرية وتطورها خارج عن نطاق هذه الدراسة ، وإنما سنشير إليه عند الضرورة والمحاولات لتحديد بداية الصوفية تبرز صعوبة هائلة بحكم طبيعتها الخاصة ، ولكن تتبع « الشكل » الذى اتخذته الحركة يفيح لنا صورة محسوسة بدرجة أكبر ، شأن كثير من ظواهر التاريخ

(١) كلمة (قوم) مما يطلق على الصوفية ولقد كان أصحاب النزعة الروحية الباطنية فى الإسلام يسمون منذ وقت مبكر بالصوفية ، أو المتصوفة ولكن استعمال وصف « قوم » لتميز الجماعة يبدو أنه يعود إلى الفترة التالية للقشيرى توفى (١٠٧٤م) كما تشير مراجعنا ، وهذا يدل ــ مهما كانت درجة الدلالة ــ على تطور اجتماعى بعيد المدى كان يحدث حين ذاك فى أعماق المجتمع الاسلامى وليس ظهور الطرق الصوفية إلا ظاهرة من ظواهر تبلور هذا التيار العريض .

الأخرى ، ونمو هذه الحـــركة يعرض لنا أطوارا متميزة ، كل منها يمثل استجابة لعوامل تاريخية واجتماعية أعمق ، تحكم نمواً مقابلا فى المجتمع الإسلامى ...

وإن أصل كلمة (صوفى) معقد ، على أنه من المحتمل جداً أن تكون الكلمة مرتبطة بلبس المسلمين الأوائل ثياب الصوف ، وهذه العادة يمكن تتبعها إلى عهد الخليفة عبد الملك على الأقل (٦٨٥ : ٧٠٥ م) وهى أصل إطلاق تسمية صوفى . ولكنها لم تظهر كلقب فى التاريخ حتى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، والثامن الميلادى حين أطلق على جابر بن حيان (٧٧٦ م) وأبى هاشم المتوفى (٧٧٦ م) وكلاهما من الكوفة ، وقبل أن ينتهى هذا القرن كان قد شاع استعمال هذا الوصف . ومنذ ذلك الزمن فصاعد أصبحت الحركة الروحية الباطنية mystical فى الإسلام تعرف بالاصطلاح العربى : « التصوف » الذى أعطاه الصوفية عددا لا يحصى من التعريفات ، جمعها نيكلسون نقلا عن المراجع الأدبية حتى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى فى ٧٨ تعريفا لكلمة « تصوف » (١) ، بينما تضخمت القائمة عند أبى منصور عبد القاهر البغدادى (المتوفى ١٠٣٧ م) إلى ألف تعريف تقريبا لكلمة « صوفى » وكلمة « تصوف » ، وهذه التعريفات تعكس نزعات الصوفية واتجاهاتهم من لحظة إلى أخرى ، لكنها لا تمثل مفهوما واحداً متكاملا ، ولعل هذا ما جعل جب H.A.R.Gibb يرى أن « حركة الصوفية إذ لا تقدم كيانا مذهبيا عاما تتألف من مركب من نزعات الوجدان والخيال » (١) !

ويكتب نيكلسون نتيجة بحثه للموضوع : « إن بذور الصوفية توجد فى نزعات الزهد القوية المنتشرة التى قامت داخل الإسلام خلال القرن الأول الهجرى » (٢) . ويرى الباحثون فى نزعة النسك Ascetis المعروفة فى العربية « بالزهد » سابقة بين يدى الصوفية الإلهية thesophical فى الفترة التالية . وينبغى أن يفهم « الزهد » فى هذا المقام على أنه يمثل الإدارك الروحى الموروث عن المسلمين الأوائل فى مجموعة ، لا مجرد الصور السلبية للتجربة الدينية كما يؤكد الكتاب غالباً (٣) .

---

(١) Nicloson, JRAS, 1906, P 3059 Jami, Nafahat, P. 31 Tbid, PP 303 : 348.

(١) MW, val xxx vlll, No 3, 1948 p283

(٢) Ibid, m. 304

(٣) إن الطابع للصبحى للنسك ascetism فى ظاهره لا يبدو ومطابقا للزهد الذى يعنى فى اصطلاح الصوفية الضبط الأخلاق من داخل —

ويمكن ملاحظة الروح الكامنة فى النزعات الصوفية منذ فجر الإســـلام ، ويشير إليها بوضوح قيام (الحنفاء) الذين كانوا من مظاهر حركة الزهد فى الجزيرة العربية فى القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى . وأن ملاحظة «ب» ماكدونالد: أن محمدا كان صوفيا فى طريقه إلى النبوة (١) . يشير إلى استعداد الروح الإنسانيـة الفطرى للغوص فى أسرار الطبيعة ، بما يتجلى فى حالتنا هذه فى الظروف الروحية لمجتمع الجزيرة العربية المبكر ؛ تلك الظروف التى يصفها وستر مارك كعالم من « الظواهر الغريبة الغامضة التى تعزى لسبب إرادى ، وبما كان بوجه خاص شيئا يوحى بالرهبة فى القلوب » (٢) ، ولم تكن فكرة الصوفية بالنسبة للعرب الأولين مبدأ جديدا فى العقيدة يعتبر باعثاً روحياً دائراً بقدر ما كانت شيئاً يتابع آثار حنيفية إبراهيم وإسماعيل . وعلى ذلك يكون من الصواب تماما القول بأن النبى قد أعاد صياغة هذه المبادىء ، ونقلها إلى إطار من الثقافة الدينية يقوم على التوحيد Monotheistic مبتعداً عن فرض أية أفكار غريبة أو دخيلة .

ويمثل عهد الرسول بالنسبة لظهور الشكل المبكر للحركة الصوفية مرحلة يغلب عليها طابع العموم(١) . وهو فترة وضعت خلالها القواعد الأساسية للبناء ، وقدمت نماذج رفيعة من التطبيق ، وكان لتعاليم محمد وشخصه أكبر تأثير على نمو الثقافة الدينية الإســـلامية فى مراحلها الأولى ، وبالتالى على نمو نزعة النسك فى صورتها البدائية .

وقد عرض محمد عقيدة محددة فى وحدانية الله Monotheistic Creed فى العهد المكى كانت تدعو من جهة إلى الإيمان بإله واحد قدير متعال ، كما تدعو من جهة أخرى إلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه من وعد ووعيد . وقد عزز العهد المدنى هذه العقيدة بطائفة من النظم الدينية وشعائر العبادة ، وكان هذا كله أساسا لازدهار الثقافة الدينية الإسلامية ولقد كان النبى فى تقديم هذا الأساس «يصون

— النفس » والتجرد المطلق لعبادة الله ، ويشار فى الكتابات المتأخرة بالطبع أحيانا إلى (الزهاد) بمعنى معين ، ولكن هؤلاء إنما كانوا قسما من جماعة عامة تضم أصحاب الميول الدينية الذين يوصفون كأفراد بالعباد والسائحين والفقراء ـ ثم إن القشيرى عرف الزهد فى وضـوح بأنه : « الأخذ بالعزيمة » ويمكن القياس على كلمة (فقير) وهى تدل عند الصوفية على (علاقة المرء بربه الذى يوصف بالغنى فى القرآن) .

(١) Muslim Theology, P. 227.

(٢) Rityal and Belif in Marroco, 2 Vols, Londod 1926, II, 387

(١) لا أعنى بالشكل هنا الروح التى كانت تمارس الحركة ، وإنما أقصد الأسلوب الذى وجدت به كظاهرة تاريخية لها إحساس بكيانها .

الرمزية الدينية فى نفوس أتباعه بما لها من قوى موروثة لأجل استثارة طاقتهم المتخيلة مع نقلها فى إشاراتها من إطار الإيمان بالروح مطلقا animistic إلى إطار الإيمان بإله واحد monotheistic .

وقد تهيأت مادة البناء من إعادة التعبير عن المفاهيم الأولى مع إضافة النظم العملية للذكر والصلاة ، ويعطينا الترتيب الزمنى للفرائض الدينية، ومايزيد عليها من تطوع صورة كاملة لغراس التجربة الدينية ، وكان العابدون فى تطوعهم يسعون جاهدين كى تعلق بقلوبهم وأرواحهم شيئا من بصيرة النبى الملهمة وشيئا من تجربته . ومن هنا يمكن أن نقرر آمنين أن مثل هذه الميول كانت نتيجة طبيعية لتربية العادات الدينية عن طريق المسلمين الأوائل .

وكانت النتائج السلبية التى استثارها الإسلام فى أذهان معتنقيه الأوائل ترجع إلى عاملين فى حياة « النسك » : أولهما شعور مبالغ فيه بالخطيئة ، وثانيهما خشية غامرة من عقاب الله . ونحن نجد بيانا أوضح للتعبير العملى عن هذه المظاهر السلبية لتجربة « النسك » حين نسترجع صورة حياة « أهل الصفة » الذين عاشوا متمسكين فقراء للغاية ، محرومين من الثياب المناسبة ، ومن المأوى ، لكن متجردين للعبادة بكائين على الخطيئة .

والاتجاه الشائع عند بعض الباحثين المحدثين الذين ألفوا المجتمع العربى البلوتوقراطى يفترض أن واقعية العهد المدنى جعلت بين نتائجها تدهور نزعات « النسك » ، وهذا الاتجاه يثير التساؤل عن أساس تفسير الحركة الصوفية كلية ، وهو الذى شغل اهتماما جديا لدى هؤلاء الباحثين على تتابع السنين . وما أبعد العهد المدنى للإسلام فى الحقيقة عن أن يضيق مجال النمو أمام نزعات النسك داخليا ، إنه قد قدم مقياسا محددا للفضائل الدينية ، وبذلك أعطى أرضا ثابتة وخصبة لمزيد من القوة فى التعبير عن مثل هذه التجربة .

(للبحث بقية)

فتحى عثمان

معابثة أبي العلاء للنحاة

للأستاذ كامل السيد شاهين

---

١ — طاب لأبي العلاء أن يعبث بالنحاة عبثاً طريفاً، شاع في رسالتيه، رسالة الغفران ورسالة الملائكة.

وأبو العلاء على تعدد قدراته، ليست بضاعته النحو، وإنما بضاعته اللغة، والشعر والآثار والأخبار، فإذا منح منها منح من بئر ثرارة، لا تزيد على الاستقاء إلا فورانا.

فأما تعرضه للنحاة في رسالة الغفران فهو أشبه بالخواطر السانحة، تلوح له في أعراض القصيدة فيسجلها عفـــوا من غير قصد ولا إمعان في التقصي.

وأبو العــــلاء مع النحاة ليس على حال واحدة.

فأنت تراه أحيانا يبدي عدم ارتياحه للرأي، دون أن يكشف عن رأيه، ودون أن يوقفنا على السبب في عدم ارتياحه ... ثم يمضي تاركا لك سؤالين تضرب في الجواب عنهما ما شئت .. لماذا هزئ أبو العلاء بهذا الرأي؟ وما الرأي الذي ينبغي أن يصار إليه؟.

ترى ذلك إذ يصور لك ابن القارح جائلا في الجنة مهتاجا للحديث عن الشعر والرواية والنحـــو فتلقى عدي بن زيد العبادي فيقول له:

لقد هممت أن أسألك عن بيتك الذي استشهد به سيبويه، وهو قولك:

أرواح مودع أم بكور
أنت، فانظر لأي حال تصير

فإنه زعم أن (أنت)، يجوز أن ترفع بفعل مضمر يفسره قولك (فانظر). وأنا استبعد هذا المذهب، ولا أظنك أردته.

فيقول عدي بن زيد ـ وقد شغل بلذائذ الجنة وأطايبها ـ دعني من هذه الأباطيل: فالمعري ههنا قد أراك رأي سيبويه وأراك أن رأي سيبويه رأي قائل ولكنه لم يوضح داعية رفضه لهذا الرأي، ولم يبد من لدنه رأيا يخرج عليه إعراب هذا الضمير.

وأحيانا يضيق على الشاعر المسالك، فينقض عليه كل ما يعن من تخريج كما فعل في الحديث مع بشار عندما تخيله في سواء الجحيم، تفتح الزبانية عينيه بكلاليب من نار، ليرى هول ما ينزل به من العذاب.

وذلك إذ يقول له بلسان ابن القارح:

لقد أعجبني قولك في أرجوزتك :

والحر يلحى ، والعصا للعبد
وليس للملحف مثل الرد

بيد أنك جئت في إحدى قوافيها بكلمة (السبد) .

فإن كنت جعلته جمع (سبد) وهو طائر فإن (فعلا) لا يجمع ذلك الجمع وإن كنت سكنت الباء تخفيفا عن فتحها ، فقد أسأت لأن تسكين الفتحة غير معروف .

فيقول بشار، وهو في تلذيع العذاب ياهذا دعني من أباطيلك ، فإني عنك مشغول ! .

وما كان افتراض أبو العلاء هذين الفرضين وملاحاته لبشار فيهما إلا ترديدا لتخريج النحاة في كلمة (السبد) وأخــذا للطريق عليهم في كلا التخريجين .

وقليلا مايعنى أبو العلاء في رسالة الغفران بتوقيف القارئ على رأيه كما فعل حين تخيل ابن القارح يلقى لبيداً في عرصات الجنات ، وفي يد لبيد محجن من ياقوت ، فيقول له ابن القارح فيما يقول :

أخبرني من قولك في ميميتك المعلقة :

تراك أمكنة إذا لم أرضها
أو يرتبط بعض النفوس حمامها

هل أردت ببعض معنى كل ؟ فيقول لبيد : كلا ! إنما أردت نفسي ، وهذا كما تقول الرجل إذا ذهب مالك أعطاك بعض الناس مالا ، وأنت تعنى نفسك في الحقيقة .

وظاهر هذا الكلام واقع على كل إنسان، وعلى كل فرقة تكون بعضا للناس .

فيقول ابن القارح : أخبرني عن قولك : (أو يرتبط) هل مقصدك لم أرضها أو لم يرتبط، أم غرضك أترك المنازل أو يرتبط فيكون (يرتبط) كالمحمول على قولك : تراك أمكنة ؟

فيقول لبيد : الوجه الأول أردت .

فهنا ترى أبا العلاء يقف على رأيين للنحاة في إعراب يرتبط ، أهو معطوف على أرضها مسلط عليه ماتسلط عليها من النفي ، أم معطوف على تراك النازل منزلة أترك ؟

فينتصر للرأي الأول ...

ولكنه مع ذلك مقتصد ، لأنه نصر الأول بلا حجة ، وخذل الآخر بلا تفنيد .

ولقد يعمد أبو العلا إلى تصحيح رواية والإشارة إلى فساد أخرى ، وفساد ما تبعها من تخريج نحوى

فيتخيل ابن القارح في المحشر بيده صك التوبة ، فيرى شيخا له كان يدرس النحو في الدار العاجلة يعرف بأبي على الفارسي ، وقد امترس به قوم يطالبونه ، ويقولون : تأولت علينا ... ظلمتنا !

فما إن يراه أبو على حتى يشير إليه ... فإذا عنده طبقة منها يزيد بن الحكم الكلابى ، وهو يقول : ويحك ! أنشدت قولى :

فليت كفافا كان خيرك كله
وشرك عنى ما ارتوى الماء ما ارتوى

برفع الماء ، ولم أقله إلا بالنصب !.

وكذلك رويت قولي :

تبدل خليلا بي كشكلك شكله

فإني خليلا صالحا بك مقتوى

بفتح ميم (مقتوى) ، وأنا عدوت الضم .

وإذا جماعة من هذا الجنس كلهم يلومه على تأويله .

فيقول ابن القارح : ياقوم! إن هذه أمور هينة، فلا تعنتوا هذا الشيخ ، فإنه ماسفك لكم دما ، ولا احتجن عنكم مالا ... فيتفرقون عنه .

أفلا ترى أبا العلاء يشير إلى جنوح أبي على الفارسي إلى التأويل ، وإلى إسرافه فيه إسرافا يحمله على الاعتساف ، حتى ليتخرج به الاعتساف إلى حد لا يخطر للشاعر ببال .

ومما يتصل بتصحيح الرواية أنه تخيل ابن القارح وقد لقيه النابغة ، فسأله ، كيف ينشدون قولى فى المتجردة :

وإذا نظرت رأيت أزهر مشرفا ...

وما بعده ؟

فيقول ابن القارح : ينشد : وإذا نظرت .

وإذا لمست .. وإذا طعنت .. على الخطاب .

فيقول النابغة : قد يسوغ هذا ، ولكن الأجود أن تجعلوه إخباراً عن المتكلم ، لأني بدأت بقولي :

زعم الهمام بأن فاها بارد

عذب مقبله شهي المورد

فما بعده داخل فى هذا الزعم . وصار قولى : زعم الهمام ، بمنزلة قولى : قال الهمام : فهذا أسلم ، إذ كان الملك إنما يحكى عن نفسه .

٢ — ولئن كان أبو العلاء لم يمعن فى التفصيل وتحقيق القول فى رسالة الغفران ، جنوحا إلى عدم الإملال ، وإيثارا للتنقل بين فنون الأدب ، وعدم الإثقال بالوقوف عند ضرب بعينه ، ورغبة فى سرعة العرض كما هو شأن المسرحيات الجياد ، إن أمره لم يكن كذلك فى رسالة الملائكة .

فهو قد بناها على أمور تتعلق بالصرف وموازينه بخاصة ، وتتاول فيها الزيادة والقلب بوجه أخص ، فى شيء من التفصيل الذى يبلغ أحيانا حد الإغراق .

ولكنها كرسالة الغفران قائمة على الخيال ومسرحها الدار الآخرة .

فعند ما يحضره ملك الموت يناقشه فى وزن (ملك) ، وفى أصله من الاشتقاق ، وهو مألك ، ويأخذ فى الاستدلال على أن به قلبا مكانيا بجمعه على (ملائكة) ، إذ كانت الجموع من شيمتها أن ترد الأشياء إلى أصولها .

وعند ما يلقى منكراً ونكيرا يحاول أن يشغلهما عن أمره فيسألهما لم كان اسماهما عربيين وسائر أسماء الملائكة أعجمى ، فإذا لم يجد منهما رقة ، حاجاهما بوزن موسى كليم الله ثم سألهما عما بأيديهما ، فإذا قالا (ارزبة)

أعنتهما بسؤالها : أهى بتخفيف الباء أم بتثقيلها ، وهـل يكون جمعها على التخفيف أو على التثقيل .

فذلك إذ يقول فى الحـديث عن لقاء منكر ونكير .

« فإن غشى على من الخيفة ، ثم أفقت ، وقـد أشار إلى بالإرزبة ، قلت : ثبتنا رحمكما الله !

كيف تصغران الإرزبة وتجمعانها جمع التكسير ؟ .

فإن قالا : أريزبة ، وأرازب بالتشديد .

قلت : هذا وهم ، وإنما ينبغى أن يقال أريزبة وأرازب بالتخفيف .

فإن قالا : كيف قالوا علابى فى جمع علباء فشددوا ؟

قلت : ليست الباء كغيرها من الحروف فإنها وإن لحقها التشديد فيها عنصر اللين .

فإن قالا : أليس قـد زعم صاحبكم عمرو ابن عثمان المعروف بسيبويه أن الباء إذا شددت ذهب منها اللين ؟

قلت : قد زعم إلا أن السماع عن العرب لم يأت فيه نحو ما قال إلا أن يكون نادرا قليلا :

فهو هنا يجادل عن رأيه فى جمع الأرزبة وتصغيرها بالتخفيف ، وهو هنـا يفسح المجال للمعارضـة ويبسط رأى المعارضين ، وينتهى معهم إلى موقف خاص ... لأن بناء رسالة الملائكة على البيان الشافى وبناء رسالة الغفران على الاستعراض الوحى .

وانتصار أبى العـلاء فى مواقف المجادلة ، يقوم أحيانا على اتساع الرواية ولطافـة الفـكر ، ولقد يكون إمام النحاة سيبويه هو الغرض المقصود لأبى العلاء إذا رمى .

ترى ذلك فى مشهد يقوم فيه (رضوان) دون باب الجنـة ، ويجتمع لديه جماعة من المتعاطين للنحـو والتصريف ، قصرت بهم أعمالهم عن دخول الجنة ... فوقفوا يحتالون لأنفسهم عسى أن تنفع الحيلة .

فرقة ينادون رضوان بقولهم (يا رضو) ، وأخرى ينادونه (يا رضو) ، فإذا التفت إليهم ، قالوا له : نحن نسألك أن تـكون واسطتنا إلى أهل الجنة ، فإنهم لا يستغنون عن مثلنا ، وإنه لقبيح بالعبـد المؤمن أن ينال هـذه النعم ، وهو إذا سبح الله لحن ، ولا يحسن بساكن الجنان أن يصيب من ثمارها فى الخلود ، وهو لا يعرف حقائق تسميتها .

ولعل فى الفردوس قوما لا يدرون ، أحروف (الـكمثرى) كلها أصلية أم بعضها زائد . ولو قيل لهم ما وزن كمثرى على مذهب أهل التصريف لم يعرفوا (فعلى) وهذا بناء مستنكر لم يذكر سيبويه له نظيرا .

ثم يستنكر أن يصيب المؤمنون من سفرجل الجنة ، وهم لا يعلمون كيف يكون

تصغيره وجمعه ولا يدرون أمن الجائز أن يشتق منه فعل ، أم أن ذلك من الحرام الخبيث .

وكذلك أمر (السندس) قد تجد فى الجنة من يفترشه ويطؤه ، وهو لا يدرى - بعد - أوزنه (فعلل) أم (فنعل) .

وكم من مستظل بشجرة (طوبى) ، ويجتنى ثمارها آخر الأبد ، ولا يدرى أمن بنات الواو هى أم من بنات الياء ؟

ثم يطيب لأبى العلاء مناوشة سيبويه ، فيقول :

وقد زعم سيبويه أن (الفعلى) التى تؤخذ من (أفعل منك) لا تستعمل إلا بالألف واللام أو الإضافة . تقول هذا أصغر منك ، فإذا رددته إلى المؤنث قلت : هذه الصغرى أو صغرى بناتك . . ويقبح عنده أن يقال صغرى بغير إضافة ولا ألف ولام .

وعلى الإضافة جاء قول سحيم ؟

ذهبن بمسواكى ، وغادرن مذهبا

من الصوغ فى صغرى بنان شماليا

وعلى الألف واللام جاء فى الكتاب العزيز وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، فسنيسره للعسرى لأنها أنثى (أفعل منك) .

ولكن أبا العلاء يشكل على سيبويه بقراءة بعض القراء : وقولوا للناس حسنى ، إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنى ، بغير تنوين ، وبقول عمر بن أبى ربيعة :

وأخرى أتت من دون نعم ومثلها

نهى ذا النهى لو يرعوى أو يفكر

فإن ادعى سيبويه أن أخرى معدولة عن الألف واللام ، فهلا سلك هذا السبيل فى حسنى وأخواتها ؟ !

— ٣ —

وبعد : فهل كان أبو العلاء يتناول هذه القطات الصرفية الطريفة ، تعالما ، وذهابا إلى الإغراب على الناس فى العلم ، على شاكلة إغرابه عليهم فى اللغة والأدب والأخبار ؟

أم أن ذلك كان استجابة - كما زعم ، وكما يزعم كل من يتعاطى التأليف - لسؤال سائل ملحف

أم أنه كان رياضة للذهن وإدلالا بالمعرفة ، وامتحانا للسوس كما قال فى مقدمة السقط ؟

مهما يكن من شىء ، فإن أبا العلاء قد سلك فى تعليم هذه الغرائب الصرفية والنحوية والأدبية التى لا تخلو من جفاف يغص به القارىء ، ويعيى به ذهن اللقن . . طريقة القصة الخيالية الشائقة التى تنفى الملالة ، وتندى القارىء نفسه حتى يأتى على سائر ما فى الرسالة .

وهذه أمتع طريقة فى التعليم ، وما كان يظن أن تطوع هذه الطريقة حتى تستخدم فى غرائب التصريف .

ولكنه أبو العلاء ! ؟

كامل السيد شاهين

نسمات الأندلس فى ربوع النيل

للأستاذ محمد رجب البيومى

حفظت مصر الثقافة العربية بعد سقوط بغداد إذ كان النصر السياسى الذى اكتسبه المماليك بعد موقعة عين جالوت مدعاة إلى هجرة كثير من العلماء من شتى الأماكن شرقية وغربية إلى القاهرة . لأن قيام الخلافة العباسية بها ـ ولو على وجه صورى ـ قد جعلها تأخذ مكان عاصمة الرشيد ، فهرع إليها الناس من كل حدب ، وقد وجد العلماء من رعاية السلاطين ما بعث فيهم الرضا والحمد ، ففى كل حى مسجد ولكل مسجد أوقاف وأحباس ، وله مدرسون وطلاب ، وكتب وأوراق ، وكتب التاريخ تحصى هذه المساجد ذات الصبغة العلمية والدينية معا ، وتفيض فى ذكر من يدرسون العلم بها على اختلاف فروعه من فقه وتفسير وحديث ونحو وصرف وبلاغة وأصول وقراءات ومنطق ، كما تتحدث عن مشاهير العلماء من أئمة القول فى الدين واللغة ، ومنهم الغزنوى والصقلى والمصرى والمدنى والعراقى والآمدى والاربلى والمقدسى والشامى والخراسانى والمغربى والطوسى والنابلسى تعرفهم بأسمائهم كما تعرفهم بلهجاتهم وطباعهم إلا أنهم فى نظر الحكومة المصرية إذ ذاك علماء مسلمون يؤدون أشرف واجب فى أطهر مكان لهم واجب الرعاية والإجلال وبهم تزدهر المعرفة ويستنير الطلاب .

وقد كانت الأندلس أحد هذه الجداول التى تصب فى محيط القاهرة ، إذ كانت الرحلة من المغرب إلى المشرق لا تكاد تنقطع ، وفى الراحلين من يرتشف ويرجع ، ومنهم من يؤثر البقاء حيث يستريح ـ وقارىء نفح الطيب يقف على كثير من تراجم هؤلاء النازحين ، وهم من الكثرة بحيث يسجلون اعترافا صارخا بعلم المشرق وأستاذيته . ويطول بنا القول لو عرضنا لأشهر مشاهيرهم فضلا عن عامتهم ، ولم تكن الرحلة إلى مصر والإقامة بها مقصورة على عهد السلاطين من المماليك بل كانت من يوم أن فتحت الأندلس ولكن العصر المملوكى بالذات قد كتب له أن يشهد مغرب الأندلس وما سبقه من إرهاصات منذرة توحى بالكارثة المتوقعة ، فدعا ذلك إلى ضرورة الرحلة وجذب علماء الأندلس إلى مصر ، فلاقوا رحبا فسيحا وسهلا مريحا ، ووجدوا أهلا بأهل وإخوانا بإخوان ... ولئن اكتفى بعض هؤلاء بالإقامة فى دمشق دون مصر

فقد كانت مؤلفاتهم تطير إلى القاهرة سريعا لتلق نصيبها من الرواج فهم عنها غير بعيد كابن مالك ومحى الدين ، وإذا كانت الثقافة الإسلامية متقاربة متشابهة تأخـــذ منحى واحدا فى التأليف والصياغة وبخاصة فى عصور التقليد والمحاكاة - إلا ما ندر من أفذاذ أماثل يعدون عدا - فقد يصعب علينا أن نبرز تأثير الأندلسيين فى الثقافة العربية المصرية إذ أن مؤلفاتهم فى الأعم الأغلب نسخ متشابهة من مؤلفات إخوانهم سواء من رحلوا إلى مصر من المشرق أو من رحلوا إليها من المغرب ، ولكننا على الرغم من ذلك كله نلمس تأثير الأندلسيين بارزا فى فروع خاصة من فروع الثقافة العربية إذ ذاك لأن جهدهم كان من الذيوع والاشتهار بحيث يدل على نفسه ، وقد رزق من الحظوة والإقبال ما جعله بارزا جهيرا يشير بتأثيره ، وإذا كان هؤلاء الراحلون الفضلاء قد كتبوا فى كل علم تقريبا ، فإن من هذه العلوم ما تأثر بتآليفهم تأثرا واضحا بل منها ما كاد أن يصبح وقفا على دراستهم ، هم أهله وأصحابه ، ولا يستغرب القارىء ذلك ، فعلم القراءات مثلا يكاد يكون أندلسيا إذا نظرنا إلى الكتب التى سبقت إلى تسجيله ، ثم أفاضت فى شرحه ، وسنبدأ بإيضاح ذلك فنقول .

لئن كانت القراءات سبعا أو عشرا مشرقية فإن التأليف فيها لم يأخذ سبيلا عليا معتدا على نهج شارح إلا عند الأندلسيين ، وسبب ذلك أن بعض جنود المنصور بن أبى عامر كان مثقفا عالما بالقراءات ثم ولى إمارة دانية والجزائر الشرقية فبذل جهده فى نشر هذا العلم تقربا إلى الله وإشباعا لرغبته العلمية فنفقت لديه سوق القراءة كما يقول ابن خلدون ص ٤٣٧ من المقدمة - وظهر لعهده أفذاذ دونوا العلم على نطاق شامل ، بحيث تضاءل جواره ما سبق أن كتب عنه شرقا وغربا وأبرز هؤلاء الأفذاذ هو الإمام أبو عمرو عثمان بن سعيد الدانى صاحب كتاب « التيسير » وقد كان شيخ مشايخ المقرئين بالأندلس رحل إلى الشرق وتخصص فى العلوم الدينية إذ ألف فى الحديث والفقه والتفسير والقراءات تاركا مائة وعشرين مصنفا كما يقول مؤرخوه ، وأحدها كتاب التيسير فى القراءات السبع وقد نشره العلامـــة « برتزل » أحد أعضاء لجنة النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية سنة ١٩٣٤ ، وصدره بمقدمة جيدة أشار فيها إلى منزلة علم القراءات من العربية والإسلامية ! وهى منزلة عالية تحتاج اليوم إلى تأكيد إذ وقر فى أذهان بعض المثقفين لدينا فى هذا العصر أن هذا العلم وقف على بعض المنقطعين لتلاوة القرآن فقط وفيهم أميون حفظوه دون أن يفهموه وهذا خطأ

واضح ، لأن علم القراءات فى العربية هو علم الإلقاء فى معاهد أوربا يتحدث عن مخارج الحروف ومميزات الأصوات ووسائل النطق الصحيح ! ولو قدر له أن يأخذ دوره الطبيعى فى التطور لأصبح ذا أثر هام فى إعداد الخطباء والمذيعين بعد أن توضع الخصائص المميزة للترتيل والتلاوة فيما يختص بالقرآن فلا نشكو اليوم ممن يميلون بالحروف عن مواضعها جاهلين أو متجاهلين .

أما الأستاذ برتزل المستشرق الألمانى فيرى لعلم القراءات من الخطر ما وضحه بقوله فى مقدمة الكتاب بتصرف ـ « إن البحث فى مخارج الحروف والاهتمام بضبطها على وجوهها الصحيحة لتيسير تلاوة القرآن على أفصح وجه وأبينه كان من أبلغ العوامل فى عناية الأمة بدقائق اللغة العربية الفصحى وأسرارها ، وكان ثمرة هذا الاجتهاد أن القراء تشربوا مزايا اللغة العربية وقواعدها ودقائقها ، ومما يؤيد ذلك أن الكثيرين من قدماء النحويين كانوا مبرزين فى علم القراءة كما كان الكثيرون من أئمة القراء كأبى عمرو والكسائى بارعين فى علم النحو فعلى كل من يتصدى للنظر فى تاريخ اللغة العربية ودرس المسائل التى تناولها كتب النحويين واللغويين والمفسرين أن يتتبع علم القراءة والتجويد ومن شرع فى درس معانى القرآن واستقصاء لطائفه واستخراج حقائقه ثم اعتمد على القراءة الوحيدة التى يجدها أمامه دون التفات إلى غيرها فقد أغفل أمرا ذا بال » .

أصبحت الأندلس إذن مركزا أساسيا لدراسة القراءات فى ديار الإسلام ونشأ من أبنائها من سبقوا إلى التآليف فيها عن دراية وأحكام حتى نبغ القاسم بن فيره بن خلف الشاطبى وكان كفيفا منذ مولده فانصرف إلى دراسة القراءات مع غيرها من علوم النحو واللغة والأدب وكان قوى الحافظة لدرجة تستغرب بحيث أصبح يصحح النسخ المكتوبة من الموطأ والبخارى ومسلم إذا تليت عليه من حفظه ، ثم يعقبها بشروح وافية واثقة وكان عزيز النفس بعيد الهمة عرضت عليه الخطابة بالمسجد الجامع فى بلدته فأنف وتأبى لأن الحكام يلزمونه مديح الملوك والرؤساء فى الخطبة الثانية وهم ظلمة لا يجوز أن يذكروا بالخير فى مثل هذا الموقف الجليل ، فأظهر الرغبة فى الحج ونزح إلى مصر ، وسمع بالإسكندرية على الحافظ السلفى ثم عين للإقراء فى مدرسة القاضى الفاضل بالقاهرة وتصدر لدراسة القراءات والنحو واللغة فبلغ شأوا بعيداً من العظمة والمهابة حتى كان الناس يتزاحمون فى حلقته ازدحاما يصل إلى الشبابك والتناحر حرصا على الدنو من مكانه ! وقد ترك فيما ترك

منظومته الشاطبية التي يتناقلها الناس إلى الآن مكبرين مرددين وقد قال عنها ابن خلكان لقد أبدع فيها كل الإبداع ، وهي عمدة قراء هذا الزمان في نقلهم ولا يشتغل بالقراءات أحد حتى يحفظها . وقد ظلت كذلك من عهد ابن خلكان إلى وقتنا ، حتى رأينا أكثر قراء الريف المصرى يحفظونها ويسعون جاهدين إلى من يفك رموزها ، ويوضح مغاليقها ، ومنذ ألف الشاطبي منظومته وهي عمدة التأليف في هذا الفن وقد كتبت عليها شروح مستفيضة على توالى العصور نذكر هنا بعضها لنشير إلى أثر هذا الأندلسي الجهير في ازدهار هذا العلم وانتشاره وأول من شرحها تلميذه أبو الحسن السخاوى بشرح أسماه فتح الوصيد في شرح القصيد ثم أبو شامة المقدسي في كتابه إبراز المعانى وبرهان الدين الجعبرى في مؤلفه كنز المعانى وشروح أخرى لشهاب الدين بن عبد الدائم الحلبي وجلال الدين السيوطي وشهاب الدين القسطلاني ونفر غيرهم لا يحصون . أشار إلى بعضهم حاجى خليفة في كشف الظنون ! كما قام باختصارها ابن مالك النحوى في قصيدته حوز المعانى في اختصار حرز الأمانى وقام بإكمالها أحمد بن على المحلى شيخ القراء بالقاهرة وغيره من المشاهير فإذا قلنا أن علم القراءات كاد أن يكون أندلسيا وأن أثر الشاطبي بمصر في هذا الفن كان من الخلود والذيوع بالمحل الأول لم نكن مبعدين .

وتذكرنا منظومة الشاطبي بأخت لها في النحو والصرف نالت شهرتها الذائعة في بابها وهي ألفية ابن مالك الأندلسي المسماة بالخلاصة ! فقد كان لها من التأثير العلمى منذ العصر المملوكى إلى هذا الوقت ما لم يتح لمؤلف نحوى آخر ، ولم يكن ابن مالك مجدداً في علمه ولكنه ضابط ومقيد وشارح لأن كتاب سيبويه في النحو لم يجد من أئمة النحاة بعده من يشغل باله بمعارضته ، بل أصبح إماما يرجع إليه وهاديا يستنار به وقصارى المؤلفين من لدنه أن يلموا بموضوعه أو يشرحوا غوامضه ويفصلوا مجمله ! وقد عرف باسم (الكتاب) لجلاله وكان يقال لمن درسه لقد ركبت البحر استعظاما وإجلالا ، وقد رحل ابن مالك من الأندلس إلى دمشق وهي يومئذ تحت سلطنة المماليك فسمع الحديث بها وأخذ العربية عن غير واحد واعتمد في قراءة كتب الأقدمين على نفسه وهذا مما عيره به منافسه أبو حيان الأندلسي نزيل مصر أيضا وصاحب التآليف الذائعة الجهيرة في النحو والتفسير ، واللغة ، والقراءات ! وقد ألف ابن مالك كثيراً ، وعارض الشاطبي بمنظومة في القراءات قال فيها :

ولا بد من نظمى قوافى تحتوى
لما قد حوى حرز الأمانى وأزيدا

فمن بين مؤلفاته: الفوائد والمستهل وسبك المنظوم وشرح مقدمة الجزولى وشرح المفصل وعدة اللافظ والتعريف وشواهد التوضيح لمشكلات الجامع الصحيح ومن بين منظوماته الكافية الشافية فى ثلاثة آلاف بيت، ونظم الفوائد ونظم لامية الأفعال والأعلام فى مثلث الكلام! أما منظومته الخالدة فهى الخلاصة المعروفة بالألفية، فقد أذاعت ذكر ابن مالك على مدى الأحقاب، وخدمت بالشروح والحواشى والتقريرات! ولذلك كان تأثيرها العلمى بارزا بذكر للأندلس، وقد يكون لغير ابن مالك من مؤلفى المتون النحوية نظما ونثرا أفضل منها، ولكن البحث هنا عن الأثر والتأثير، والثابت المشاهد أن ألفية ابن مالك تركت دويا صاخبا فى دنيا الشروح والتآليف لم يتركه متن نحوى آخر، ومن شراحها السيوطى وابن الناظم وابن عقيل، وابن هشام، وابن الصائغ وأكمل الدين البارق، وناظر الجيش الحلبى وعبد الرحيم الأسنوى! هذا غير الحواشى المستفيضة التى كتبت على كل شرح والتقريرات الهامة التى ألحقت بكل حاشية! وكلها تدور حول ألفيه ابن مالك! وقد نظمت ألفيات أخرى لغير ابن مالك ولكن لم تحظ بمنزلتها، وربما كان لوضوح الخلاصة وسهولة صياغتها أثر فى ذلك، ولكننا نرى منظومات ابن مالك الأخرى تشاركها هذا الوضوح، ولم تحظ بمعشار ما حظيت به مما يدل على أن الاشتهار حظ مقسوم، ولئن كان الشاطبى وابن مالك كلاهما حافظ مقلد فى تأليفه، وناقل صائغ فى نظمه، فإننا لا نبحث هنا عن الابتكار، ولكن نشير إلى التأثير، وقد بلغت مؤلفاتهما التقليدية فى مجال التأثير والسيطرة ما لم تبلغه مؤلفات المجددين من أمثال ابن مضاء! فوجب أن نشير إلى دورهما الكبير فى الثقافة العربية فلا نبخس أحدا فضله فى ميزان التقدير.

وإذا ذكر تأثير الأندلس فى مجال ما من مجالات التأليف العلمى بالعصر المملوكى وما لا بسه من قبل ومن بعد، فلا بد أن يذكر التصوف، إذ أن الأندلس قد أمدت الشرق بنفر كبير من أعلام المتصوفين قادوا حركات روحية واسعة، وشقوا شعابا رحيبة، وتركوا مذاهب وآراء ومؤلفات تسير مسير الشمس فى القرون المتوالية، دون أن يغرب لها شعاع، بل أن بلدة واحدة بالأندلس هى (مرسية) أمدت الشرق بأفذاذ متصوفين رحلوا إليه فشغلوا به وشغلوه، وحسب مرسية أن يكون من نجبائها أبو العباس المرسى، ومحي الدين بن عربى

وابن سبعين ! وكل واحد من هؤلاء أمة وحده ! ومن الطريف أن أثر أبي العباس في مصر كان مضاداً من وجهته الصوفية لأثر محي الدين ابن عربي ، ولكن كليهما قاد جماعة وجدد دراسة وحدد اتجاها ، وأحدث تأثيراً ، ولإيضاح ذلك عن أبي العباس المرسي نذكر أنه كان تلميذ أبي الحسن الشاذلي وترجمان أفكاره ، وجامع صحابته وأستاذ حلقته ، وخليفته من بعده ! لم يترك أبو العباس مؤلفات قائمة بذاتها ، ولكنه ترك أقوالا تنبيء عن معدنه ! وقد جاء دوره بعد أن عمت آراء الغزالي في التصوف وأصبح الفقهاء من أهل السنة متصوفين بعد أن كانوا حربا على الصوفية ! وصار الإحياء كتاب تصوف أخلاقي يهدي السبيل إلى الله بعيداً عن شطحات الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ! يقول صاحب نفح الطيب عن أبي العباس : إن قبره بالإسكندرية مشهور بإجابة الدعاء وقد زرته مراراً كثيرة ودعوت الله عنده بما أرجو قبوله ! ولو رجع المقري اليوم إلى الحياة لوجد مسجد أبي العباس أعظم مسجد بالإسكندرية .

ولشاهد من تعظيمه وتبجيله في القرن الرابع عشر الهجري ما شاهد قبل ذلك حين التمس القبول لديه ! وقد ظهر أثر أبي العباس العلمي في مجالسه الوعظية من ناحية وفي مؤلفات تلميذه الكبير ابن عطاء الله السكندري من ناحية ، أما مجالس وعظه فما حفظه لنا المقري منها في نفح الطيب ، يدل على ذوق الصوفي العارف ولطافة حسه ، ودقة منحاه ! فهو مثلا يقول في تفسير الحمد لله رب العالمين : « علم الله عجز خلقه عن حمده فحمد نفسه بنفسه في أزله ، فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمدوه بحمده ، ويقول في تفسير إياك نعبد وإياك نستعين : إياك نعبد شريعة ، وإياك نستعين حقيقة ، إياك نعبد إسلام ، وإياك نستعين إحسان ، إياك نعبد عبادة ، وإياك نستعين عبودية ، إياك نعبد فرق ، وإياك نستعين جمع ومن أقواله المختارة : الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة ، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا ، الزاهد غريب في الدنيا لأن الآخرة وطنه والعارف غريب في الآخرة لأن روحه عند الله ... هذه الدقة الرهيفة اللطيفة في التأويل والتفسير كانت الملهم الأول لابن عطاء الله السكندري في الحكم بحيث شرب التلميذ من روح أستاذه ، وأصبح من المتعسر الشديد تمييز كلا الإنتاجين ونسبته إلى واحد منهما ! وقد أحدثت حكم ابن عطاء الله السكندري دويها الشديد فكانت مجال الشرح والتفسير والدراسة منذ تأليفها إلى الآن ، حتى كان المفتي الأكبر (الشيخ محمد بخيت المطيعي) يلقي دروسه بجامع الحسين

فى رمضان شارحا لها ومفسرا ، هكذا يقول الدكتور زكى مبارك فى التصوف الإسلامى ، والشيخ بخيت فقيه كبير يحفظ أقوال الفقهاء فى مذهب أبى حنيفة ، ولكنه - كما تشهد مؤلفاته - لم يكن ممن يستطيعون السبح مع ابن عطاء ، فكيف جاز له أن يتخذ من حكمه مجالا للدراسة والتفسير ! من يدرى لعله اعتمد على شرح الرندى أو الشرقاوى أو ابن عجيبة أو أحد شروح الحكم ، وهى كثيرات مختلفات ! لقد كان من آثار أبى العباس ، وتلميذه ابن عطاء بعد جهاد الغزالى أن أصبح علماء الفقه ينتسبون إلى طريقة صوفية يحرصون على ذكرها عند التعريف بهم ، فيقولون مثلا فلان المغربى المالكى الأشعرى الشاذلى ! ومعنى ذلك أن الطريقة الصوفية وجدت أتباعها من بين أعلام الفقه والتشريع ! بل إن كثيراً منهم يتحدث فى مؤلفاته الفقهية عن العبادات والمعاملات والحدود ثم يختمها بأبواب صوفية تتصل بالمريد وآداب السلوك ! ! وقد ظل ذلك متداولا حتى العصر الحاضر ، إذ رأينا الشيخ محمد أمين الكردى النقشبندى سنة ١٩٠٨ يكتب مؤلفه (تنوير القلوب) فيفرد للتصوف صفحات تؤاخى صفحات علم التوحيد ، وفصول العبادات والمعاملات ، وهذا امتداد بعيد لتأثير الغزالى وأبى العباس .

أما محى الدين بن عربى فقد أحدث تأثيره الصوفى فى الدراسات المملوكية لآرائه الخطيرة فى وحدة الوجود إذ أن تصوفه الفلسفى قد قاده إلى مضايق حرجة تدق على العامة ، وتهتف بالثوائر أن تهب على عقيدته !! فأفردت مؤلفات كثيرة لشرح أفكاره ما بين مؤيدة ومعارضة .

ومات الرجل والصخب لا يكاد ينقطع حوله فى كل قرن ، حتى اضطر الشعرانى أن يحذف من كتبه فصولا كثيرة يعتقد أنها مدسوسة عليه لأنها لا توافق ما عليه أهل السنة والجماعة من المسلمين ، وهذا شطط بالغ من الشعرانى ، لأننا لو أجزنا لأنفسنا أن نحذف من كل مؤلف مالا يوافق النظرة الجماعية فى عقيدة من العقائد ، لجاءت كتب المذاهب العقلية والدينية نسخا متشابهة ، ومن يدرى لعل فيما حذف ما فهم على غير وجهه ، أو ما يجب أن يكون ممثلا للتطور الذهنى شاذا أو مستقيما إذ أن من البعيد أن يكون صوفى خطير كمحى الدين ، موافقا لأهل السنة والجماعة فى كل شىء ، ومن المسلم به أنه على اختلاف القوم فى اتجاهه قد أمتع التصوف بأدب فذ فريد وزاد كتب الصوفية ثروة وعمقا حتى قال عنه الدكتور زكى مبارك فى التصوف ح ١ ص ١٧٩ : أنه راض اللغة على الجرى فى شعاب مجهولة ، وانطلق يتحدث عن فروض غيبية جلاها قلبه فى معارض شائقة

فأصبحت وكأنها من الحديث المأنوس ! لقد هضم كل ما قرأ ووعى كل ما سمع ، وراح يهدر فى لغة قوية عاتية لا يعيبها غير ما كان يقصد إليه أحيانا من الغموض !

ولقد ظل العصر المملوكى مشغولا بابن عربى فالفتاوى توجه الفقهاء عن معتقده ، والمؤلفون يخطون الكتب فى نقده تارة وفى الدفاع عنه تارة ، وأظهر من حمل لواء الدفاع عنه سراج الدين البلقينى وجلال الدين السيوطى وعبد الوهاب الشعرانى وأن مفكرا يحدث هذه الثروة فى التنفيذ والتأييد لذو أثر كبير .

ولا بد من كلمة فى مجال تفسير القرآن عن مؤلف أندلسى دام كان فريدا فى اتجاهه إذ أن التفسيرات الذائعة لعهده وما وليه لم تكن على غراره ، كان هناك مجلدات تفسيرية بعضها مطبوع وأكثرها مخطوط لابن عربى والعز ابن عبد السلام وابن ظفر الصقلى وسبط بن الجوزى وناصر الدين الجذامى وتقى الدين السبكى والجلال السيوطى والزركشى والبلقينى وأبى حيان ، وابن قيم الجوزية ، والقفطى ، وابن كثير ، والمليمى ، ولكنها لا تغنى غناء تفسير القرطبى ! إذ كان ذا منحى خاص ، يضيف الأقوال إلى قائليها ويضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين ويفصل آيات الأحكام تفصيلا شافيا ويوضحها بمسائل تسفر عن معناها وترشد الطالب إلى مقتضاها ، فى أسلوب سلس لا يصدمك بالاصطلاحات العلمية أو التخريجات النحوية والصرفية أو التحلات البلاغية مما يغشى البيان القرآنى بضباب يحول دون اجتلائه إشباعا لرغبة مفسر قارئ بحاث ! وهو لا ينقل نصاما دون مناقشته كاشفا وجوه القول مما يجوز للمفسر أن يبديه من الرأى المؤيد بالحجة وما لا يجوز أن يتعرض له من الفروض والتأويلات القاصية ، ذاكرا ما دعت الحاجة نصوصا وافية من أحاديث الرسول وأقوال الصحابة ومشيخة التابعين وأئمة الرأى فى الإسلام ، وقد بدأ تفسيره بأبواب يراها ضرورية تتحدث عن فضائل القرآن وكيفية التلاوة وما يكره منها وما يحرم ، وجمع القرآن وترتيبه القراءات السبع ومصحف عثمان ! ولعل دار الكتب المصرية لمست الحاجة إليه فى هذا العصر فبدأت بنشره مطبوعا فى أجزاء قدر لها أن تبلغ السادسة والعشرين ، وقارئه المعاصر لا يشعر أنه يقرأ فى تفسير سابق كتب فى عهد بعيد ولكنه يجد من قرب التناول وإشباع الفكرة ويسر العرض ، وسلامة الاستنتاج ووفرة النصوص والشواهد ما يجذبه إلى متابعته !

وإذا كان لكل تفسير وجهته العلمية ، فإن ميزة القرطبى الأولى هى اهتمامه بالأحكام الفقهية ، يكشف عن وجهها كما تؤخذ صريحة من كتاب الله دون التعصب لمذهب فقهى خاص ! كما نقل كثيراً من آراء ابن عطية

الأندلسى ، وهو مفسر خطير ضاع تفسيره الكبير ولم تبق منه إلا أجزاء مبتورة فى دار الكتب المصرية وقد أثنى عليه أبو حيان وقال عنه أنه أجل فن صنف فى علم التفسير وأفضل من تعرض فيه للتنقيح والتحرير !

فكأن القرطبي قد حفظ لنا من آثاره ما حفظ ابن بسام فى الذخيرة من آراء ابن حيان المؤرخ ! وتلك إحدى مزايا النقل الكثير فى عهود الوراقه والمخطوطات! وقد قدم القرطبي إلى مصر وعاش بالصعيد الأوسط فى مينة ابن الخصيب ، دون أن تغره أضواء العاصمة بل انقطع للعبادة والتأليف فى معتزله الهادىء !

وإذا كانت الأيام قد حجبت تفسيره كثيراً عن التداول فإنه الآن بعد أن طبع طبعة راقية ممتازة بدار الكتب ، قد جاء بدعا بين قرنائه حتى ليعجب القارىء لتأليف مثله فى منهجه الرائع واطراده السهل ، واستقصائه المطمئن فى عصر يمج بالاعتراضات اللفظية وتزدحم تفسيراته بالقصص ! الإسرائيلية ! وهو عن هذه وتلك بعيد بعيد!

هذه إشارات موجزة إلى بعض المؤلفات الرنانة ذات التأثير البعيد وبجوارها أخوات كثيرات لأئمة الأندلسيين الذين قطنوا المشرق فى شتى فروع الثقافة الإسلامية ، ولكننا لم نشر إلى أحد منها عامدين ، حيث كانت على نفاستها مماثلة لسائر المصنفات العربية ذيوعا وتقليدا فلا يجوز أن تندرج فى موضوع يبحث عن المصنفات المؤثرة بطابعها المتميز أو بذيوعها المشتهر المتعالم ، ونمثل بمؤلفات المرسى السلمى فى التفسير وأشهرها رى الظمآن فى تفسير القرآن وهو ضخم يزيد على العشرين من الأجزاء ، ومؤلفات أبى حيان الأندلسى المتنوعة فى النحو والتفسير وهى من الشهرة بحيث يستغنى عن الإشارة إليها وابن القطاع الصقلى فى العروض والأدب والتاريخ وابن ظفر الصقلى فى اللغة والنحو والأدب وعلم الكلام وأبى بكر الطرطوشى صاحب كتابى سراج الملوك فى السياسة والمختصر فى التفسير وحامل لواء السنة فى محاربة المستحدثات من البدع ، ولا نريد أن تنقل هنا من فهارس المكتبات العربية ما يشبعنا فى هذا المجال بل نترك ذلك لمن يشغف باستقصاء هذه النفائس وهى قيد المتناول هذا نمط يسير من القول فى تأثير المقيمين بالشرق من الأندلسيين فى الثقافة العربية أما لو أردنا الإلمام بتأثير الأفذاذ من غيرهم كابن حزم وأضرابه فما أظن القلم يستطيع أن يقف عند حد ، وحسبنا الآن أن نذكر الأندلس إسهامها فى إنعاش الحركة العلمية والأدبية على ضفاف النيل زمنا غير قصيراً.

محمد رجب البيومى

فجر الفكر الإسلامي في مصر

للأستاذ عبد الجليل شلبي

تمهيد :

الفكر الإسلامي يشمل أنواعا متعددة من العلوم، ولكنا نضع العلوم الدينية فى مقدمة أنواعه، ونضع الفقه وتاريخ التشريع فى مقدمة علوم الدين، وفى فجر هذه الحركة من تاريخ الفكر الإسلامى بعامة، والفكر المصرى بخاصة تواجهنا حلقة مفقودة، أو على الأقل فترة غامضة. هى الفترة التى سبقت تكون مذاهب الفقه وظهور الأئمة المجتهدين، ففى منتصف القرن الثانى، أو قريبا من هذا الوقت نجد مذاهب فقهية ناضجة ونجد للقياس والاستنباط قواعد مميزة ثابتة ونجد فى جدل الفقهاء أسسا مستقرة تنفى الحيرة وطول التردد أمام المشكلات، وهى حالة كان مألوفا أن تواجه الصحابة عقب وفاة الرسول.

هذه الحالة سبقت ولا شك بمحاولات عديدة أدت إلى هذا النضج، ومهدت للأئمة طريق الاجتهاد، ولكنها فترة شديدة الغموض وهى فى تاريخ الفكر المصرى أشد غموضا كما سبق. ففى الحجاز والعراق والشام وجد عدد أوفر من كبار الصحابة، ومشهورى التابعين، ورؤساء القبائل وكان لهم أثر ملحوظ فى أحداث السياسة وتموج الفكر فإذا تعرضنا لتاريخ هذه الفترة هناك وجدنا مددا أوسع من المعلومات - وقد كانت تلك الأقاليم مسرح الفتنة الكبرى، ومجال أحداثها وتاريخ هذه الفتنة يقدم لنا ألوانا متعددة من الجدل اعتمدت كلها على القرآن والأحاديث، ومست من قرب تاريخ التشريع. ولكن مصر لم تشترك فى هذه الأحداث إلا من طرف بعيد فأثارت فيها حرب السيف وحمية التعصب، ولكنها لم تثر شيئا من الجدل ولم تمس جوانب البحث فى الدين.

لهذا لا نجد أمامنا لدرس هذه الفترة من تاريخنا الفكرى غير كتب التراجم والتواريخ، وعلينا أن نتصيد من ثناياها ومن بين أحداثها خيوطا نضم بعضها إلى بعض حتى نحصل بقدر طاقتنا على ما يوضح هذا الغموض.

ولا بد لنا فى هذه التوطئة أن نبين فى إيجاز أهم العوامل التى ميزت الفكر المصرى عن

غيره من أفكار البيئات الأخرى والتى لونت تاريخ التشريع والفكر الدينى بوجه خاص بلون يستحق أن يكون سمة من سمات المصريين . فهل مرد ذلك النهج الدينى إلى الصحابة الأولين الذين قاموا بمبادىء التعليم أم إلى المجتهدين الذين ثبتوا ، قواعد المنهج لمن تبعهم من الباحثين أم إلى طبيعة الإقليم وما يتصف به أهله من طباع ثبتتها عوامل المناخ، ومظاهر الحضارة القديمة ، وموروث العلوم ؟ إنه من الحتم ، ولا ريب أن نلاحظ كل هذه المؤثرات وأن نلاحظ أيها أعمق من غيره أثرا وأكثر ثباتا على مر السنين وهذه فيما ارى هى معالم الطريق أمام الباحث وسيعود منها ولا شك بقبس ، وسيجد على النار هدى .

وأوثر أن أبدأ بالبحث فى شخصيات الرواد الأول من الصحابة والتابعين ومن بعد التابعين لنرى تسلسل الأفكار وطرق التهدى والاستدلال وقد يحملنا هذا إلى الخروج بعيدا عن مصر لنرى جذور الفكرة وينابيعها الأولى ولكن لا بأس بذلك مادمنا مشدودين إلى مركز معين تنتهى إليه فى خاتمة المطاف .

حينما تفرق الصحابة فى الأمصار بداية الفتوح ، وكان ذلك منذ خلافة أبى بكر كان فى كل إقليم أفراد يمتازون بالعلم ويشتهرون بسعة محصولهم من حديث النبى ومعرفتهم بالقرآن ، وكان هؤلاء مرجع الناس فى الفتيا ومعتمدهم فى تعلم الدين ، وكان العرب الفاتحون أنفسهم يرجعون إليهم فيما يعن لهم من مسائل ، وما يجد فى حياتهم من شئون . وكان من عادة الخليفة أن يرسل من هؤلاء العلماء قضاة ومعلمين لأن رسالة المحاربين الأولى هى نشر هذا الدين الجديد ، وإلى هذا الوقت لم يكن الحديث قد جمع ولا قواعد الفتيا قد استقرت فلم يكن كل واحد من هؤلاء يعرف كل ما قاله أو فعله الرسول ولا يلم بكل غوامض القرآن أو يعرف كل أسباب النزول . وكانت الرحلات مستمرة ما بين إقليم وآخر ليحصل كل راغب فى العلم ما فاته مما لدى الآخرين - وكان كل من القاضى والوالى والمعلم يجهد جهده فى تطبيق قواعد الدين على المشكلات التى تطرأ له ، وقد يفسرها بوجه ينكره عليه غيره وقد ينكر هو ما رضى الآخرون ، ومن هنا بدأت شخصيات الفقهاء الأول تترك طابعها فى فتاويهم ، وتبعا لتنوع المشكلات فى الأقاليم بدأت تظهر سمات مميزة للتفكير الفقهى فى كل إقليم .

ومعروف أن الصحابة لم يكونوا سواء فيما أوتوا من العلم ، ولا فى جرأتهم على التصرف فيما أوتوا منه ، ولا فى مدى قدرتهم على

توليد فكر مستحدث ، وعلم جديد وهذا أمر طبيعي مرده إلى اختلاف الذكاء والطبائع والشخصيات وكان له أثره في توجيه الاجتهاد .

اعتاد أمثال أبي بكر وزيد بن ثابت وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر وعبد الله ابن عمرو وأمثالهم أن يتلقوا عن رسول الله في طاعة وإخلاص وقلما سألوه عن حكمة تشريع أو راجعوه في توجيه أمر ولكننا نجد عمر كثيراً ما كان يقترح عليه ويراجعه حتى لقد هم حين مماته أن يكتب لأصحابه كتابا لا يختلفون عليه بعده فقال عمر: إن رسول الله قد غلبه المرض وحسبنا كتاب الله تعالى .

وأنكر حرقوص بن زهير ـ الذي ينتمي الخوارج إليه ـ على رسول الله قسمة ـ فيء فصاح به أعدل يا رسول الله ! وأجابه الرسول ومن يعدل إذا أنا لم أعدل؟ وقال : عنه أنه يخرج من ضئضىء هذا الرجل قوم يحقر أحدكم صلاته وصيامه بجانب صلاتهم وصيامهم ولم ير في هذه المراجعة ما يستقبح الخروج على الإسلام ـ وهذا التباين في الموقف أمام عمل الرسول يلزمه التباين في النظرة إلى النصوص .

وكان أبو بكر يتحرج أن يفسر برأيه آية لم يسمع تفسيرها من رسول الله ولكن ابن عباس كان يفسر ما غمض من ألفاظ القرآن بما يعرف من أشعار الجاهليين .

وهناك اختلاف أيضا في الموقف أمام أعمال الرسول ترتب عليه اختلاف في العبادات فكان عمر بن الخطاب يرى أن الرمل سنة في الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا فعل في الحجة الوحيدة التي حجها وكان ابن عباس لا يرى ذلك ويقول : إن النبي فعل هذا لسبب معين ـ فقد كان القرشيون يظنون في المسلمين الضعف ويقولون : أنهكتهم حمى يثرب فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يريهم قوة المسلمين وإذن فهو عمل ليس له بعد ذلك ما يدعو إليه . .

نظر أحدهما إلى عمل الرسول من حيث هو عمل وعبادة ونظر الآخر إلى علته والدافع إليه ، وهذا الاختلاف يبين لنا من جانب آخر سبب اختلاف المجتهدين في نظرتهم إلى عمل أهل المدينة ـ فهو عند بعضهم قاعدة وحجة لأنهم إما تابعوا الرسول فيه وإما أقرهم عليه فله صفة السنية على أي حال وبعض آخر لا يعتد به لأنه من المباحات التي لا تقر ولا تنكر ولا بأس أن تخالف ؟ أو تتبع .

وفي مجال التحدث عن تأثير الشخصيات نجد ما يدعو إلى الحذر والاحتياط . فهناك

أشخاص انتقل فقههم إلى بلاد لم ينزلوها وهناك أشخاص أقاموا ببعض الأقاليم - مع مالهم من علم وشخصية - ولم يتركوا أثراً ملحوظاً وربما لم يتركوا أصلا .

فعمر بن الخطاب ترك أثراً قوياً فى فقه العراق ولم يقم هناك ولكن أثره كان عن طريق تلميذه المخلص عبد الله بن مسعود - وعلى ابن أبى طالب وعبد الله بن عباس أقام كل منهما بالعراق ولم يترك فى فقهه أثراً أو ما تركه كان ضئيلا ، لأن كلا منهما شغل بشئون السياسة والحرب عن الفتيا والتعليم - وشيء آخر يدعو إلى الحيطة إزاء هذين الصحابيين العالمين وهو ما أضيف إليهما من شيعة على وخلفاء بنى العباس أو على الأصح من طاب لهم أن يتقربوا للعباسيين عن هذا الطريق - وقد انتقل من كل منهما آثار فكرية إلى مصر بحق أو بغير حق وصنواجها فى غير هذا الحديث .

وبما هو فى حاجة إلى شيء من التمحيص من تأثير الشخصيات وهو أشد مساسا بموضوعنا ما يشيع من نسبة الفقه المصرى إلى مدرسة مالك ثم إلى مدرسة المدينة التى سبقت مالكا وانتهى فقهها إليه - فهذه المدرسة كانت تتكون من سبعة مشهورين ولكن لم يكونوا كلهم سواء فى قدرتهم على توجيه تلاميذهم - فقد رأينا ابن مسعود يتأثر بعمر دون غيره وكان كل من : عروة ابن الزبير والقاسم بن محمد بن أبى بكر أشد تأثيراً بفقه عائشة - وكان الكثيرون حتى من أعضاء المدرسة نفسها يفضلون فقه زيد ابن ثابت - وعن هذه المدرسة أخذ جماعة من مشهورى التابعين هم الذين انتهى فقههم إلى مالك ومدرسته - فإذا رددنا فقه مالك إلى أفراد معروفين من مدرسة المدينة أمكن أن نقف على الجذور الأولى لمدرسة المصريين .

وقد فتحت مصر فى زمن لا يبعد كثيراً عن فتح العراق ولكننا نجد فى العراق وفى الكوفة بالذات مدرسة تعاصر مدرسة المدينة بينما تأخرت هذه الحركة فى مصر أكثر عن ما بين المدرستين - ومع ذلك نزل مصر عدد من الصحابة فهل تأخر هذه المدرسة يرجع إلى الأشخاص أم يرجع لأسباب أخرى ؟ .

عبد الجليل شلبى

فى مسئوليات الناقد المعاصر

للدكتور أحمد كمال زكى

طه حسين والمازنى والعقاد قادوا حركة النقد ، وهم مسلحون بأسباب الثقافة العربية وبعد أن قرءوا الآثار الغربية فى لغاتها ، وكان وقوفهم فى الجانب الذى حاربه الرافعى إيذانا بوجود الناقد الذى لا يدور فى ضبابية الاصطلاحات . ويحاول - بعد إلمامه بالإنسانيات - أن يقوم الأثر الأدبى تقويما بعيداً عن طلاسم الديباجة المشرقة ، ونبالة المقصد ، ومعاظلة التركيب ، وفخامة المعنى ، ونحو ذلك مما لا يفيد إلا فى الدلالة على تلاعب بلاغيينا بالألفاظ .

وكان المنهج العلمى الذى اصطنعوه - وهو لا يهمل اللغة ونحوها وبيانها - قد لفت إلى ضرورة تدريب الناقد العربى على الاتصال بالناقد الغربى ، وتم ذلك بنجاح بواسطة كتاب (ا . ريتشاردز) الذى وضعه سنة ١٩٢٤ باسم « مبادىء النقد الأدبى » . وإلى جانب هذا الكتاب الذى يستهدف ربط الإنتاج الأدبى فى مجالات النقد بالتحليل اللغوى المباشر ، ترجم الدكتور محمد عوض محمد « قواعد النقد الأدبى » لآبر كرومبي ، كما ترجم الدكتور زكى نجيب محمود « فنون الأدب » لتشارلتون ، فكان أمام العاملين فى ميدان النقد شروح لبعض القواعد الرئيسية التى أثرت تجارب الغربيين الأدبية .

والظاهر أن النتيجة كانت عكسية تماما ، فقد تضخمت بحوثنا النقدية بغير طائل ، وبدا كما لو كانت مدرسة الرافعى أكثر سداداً من المحدثين . حقا ظهر محمد مندور ومن بعده عبد القادر القط ، وحقا كان إلى جانب هذين سهير القلماوى ، ورشاد رشدى ومن يقرءون آثار الغربيين ويناقشونها ويقارنون بينها وبين ما يصدر عنه العرب ، إلا أن النقد ظل فى حاجة إلى من يحدد مجاله كما ظل عاجزاً - حتى اليوم للأسف الشديد - عن استكشاف جمال الأدب كحقيقة قائمة من أجل البناء .

ماذا أقول ؟

بل بدا أن الناقد لم يعد يعرف مسئوليته على الحقيقة ، وكأنما ضاع كل ما قدمه طه حسين ، والمازنى ، والعقاد قبل أن يخلو الطريق لغيرهم من المجددين الشباب ، وظهرت مشكلات

متعددة نجمت عن محاولة تطبيق القواعد الغربية فى النقد العربى تطبيقا طائشاً ، كما وجــدت اصطلاحات تشبه فى تلبيسها اصطلاحات القدماء ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر « التطهير » و « لحظة التنوير » و « العصاب النفسى » و « فعل التعبير » و « الاستجابة الفاعلية » و « المضمون » و « الانطباعية » و « المعادل الموضوعى » و « التناسب الموضوعى » و « الالتزام » الخ .

ولم يكن بد من ألا يعقد الأدباء أملا على ناقديهم ، لا سيما بعد أن ظلوا على إصرارهم فى احتذاء الغربيين؛ بل فى احتذاء طائفة معينة منهم يوضع على رأسها ريتشاردز والغريب أن كتاب هذا الرجل — القديم نسبيا — لا يزال إلى اليوم عندنا المنفذ السهل إلى الكشف عما للكلمات من خطورة وأكبر الظن أن بعض النقاد وجد فيه امتدادات عربية غير مباشرة بطبيعة الحال من حيث حصر المجهود النقدى فى اللغة ، وفى نسيجها على نحو ما ظهر عند عبد القاهر الجرجانى ، فأصر على الإخلاص له دون أن يلحظ تلك الهزة التى تريد أن تعصف اليوم بمدرسته كلها ، حتى تقوم أساليب أخرى أجــدى فى إظهار حقيقة النص الأدبى .

وامتد يأس الأدباء من ناقديهم إلى شئ آخر ، هو التفات أغلبهم إلى نفر معين من المنشئين ، حتى إن كتاباتهم تظهر كأنها مكرسة لهم فقط أو مقصورة على شخص يتلاءم إنتاجه مع فكرتهم النقدية .

وهنا وجه الخطر ! ...

إننا بلغنا مرحلة فنية لا نقول فيها : إن مناهج القدماء والغربيين بدون فهم لا تصلح لها فحسب، ولكن نقول فيها أيضا : إن التحيز لأديب دون أديب خطر دونه خطر الأخذ بالمقاييس الغربية ، أو دونه خطر التوقف عن البحث الجذرى فى قضايا الأدب العربى كله ، ولعله فى الدرجة نفسها التى ترتفع إليها قاعدة: أن النقد الحقيقى: هو فن دراسة الأساليب اللغوية فى إطارها الموسيقى ، وفى طاقاتها التشكيلية ؛ أو من حيث قدرتها على رسم الصور .

هكذا تتحدد مسئولية الناقد ، عليه أن يفسر بعد أن يصل إلى مرتبة التفقه الفنى ، ودون أن يتحيز لأحد ، ويهمل أحداً ، مع استيعاب كامل لأعمال عصره مؤمنا بأن وراء إمكانات فهمها آفاقا بعيدة ممتعة .

وتحديدنا المسئولية على هذا النحو لا يعنى أن نكفر بالقديم ، فبين القديم والمحدث تفاعل أكيد . ثم هو لا يدعى لها شرف الخلق، بمعنى أنها ترسم الحياة للأديب ، وبعد

ذلك تنفخها فيه . كل من الادعائين باطل ، غير أن الناقد يظل فيها مطالبا بالتوازن المطلق، وهو يصدر عن عمليات الفهم والتذوق والمناقشة والتفسير ، وعن هذه الوسائل يتحسس الأديب طريقه ، أو يرى موضع قدمه قبل أن يخطو خطوته .

ومن هنا يصح أن نطالب بوجود الناقد الذى يزن الأعمال بميزان على نزيه ، وهذا الميزان هو الذى يتعدى - بطبيعة تكوينه - حاضر الأديب إلى ماضيه ، ويرجع الأعمال التى تفسر الحياة تفسيرها الوجدانى ؛ وهو يقبل الفنون التى قد تبدو مناقشة دورها غريبة عند بعض المحافظين . وما أشبه صنيع هذا الناقد بما يقدمه « هربرت ريد » وإن يكن هناك من يرى أن « بول روزنفلد » الناقد الموسيقى الأمريكى[١] أحق بالذكر منه فى هذا المجال .

وفى هذا كله لا يطالب النقاد بأكثر من أن يمدوا « طاقة » الأديب إلى جانب « تقييم » إحساسه الكامل بالمسئولية الاجتماعية ، لا يطالبون بأكثر من أن يجعلوا «موضوعات» الأديب تعبيرية، أى أن يطرحوا ما قبل طرح المادة التى يشكلها الفن القولى كتعبير عن الذات . وفى هذه الحال لابد من التسليم بوحدة المادة الأدبية وشكلها ، أو قل: بارتباط بنية المادة ، وصورتها الفنية ارتباطا عضويا ، ولا نقول بذلك الارتباط المفتعل الذى يفرض على ما يسمى الشكل والمحتوى، أوالصورة والمادة، أو الأسلوب والمعنى .

والواقع أن مسئولية الناقد تقوم فنياً على أساس أن بنية الإنتاج الأدبى تقتضى أولا إلى معطيات الوجود قبل أن ترتبط بذات الأديب ، ولكن المهم : هو البحث عن مدى نجاح الأديب فى تشكيل الصورة التى جسمت مادة التجربة ، بمعنى أنه لابد من التركيز على أن يكون الجهد الإبداعى هو خلق الشكل الذى يمكن أن ينفذ بالمادة إلى خبرات المتلقين . ويمكن أن يعتبر الشكل فى هذه الحالة حلقة الاتصال بين الأديب وقارئه ، والوسيلة المباشرة التعرف على بنية الإنتاج من حيث كونه قصيدة ، أومسرحية أو قصة ، أو أى جنس أدبى آخر .

حقا لا يخرج الشكل - عادة - عن أن يكون عنصراً واحداً من عناصر معرفة القيمة الجمالية ، إلا أنه يلعب الدور الأول فى تحديد الملامح التى تقرر نوع التأمل ، أو تضع نقطة

(١) Paul Rosenfeld ولد سنة ١٧٩٠ ومات سنة ١٩٤٦ ، وكان من رأيه أن يتعمق الفنان ضروب الفنون كافة، وأشهر كتبه فى هذا الموضوع By the way of Art وقد نشره عام ١٩٢٦ ، والتزم ما فيه إلى أن مات .

البدء للتفكير . ويظل بعد ذلك أسلوب الفنان هو الذى يطبعه بطابع متميز ، وهو النقطة التى يختلف حولها المتفلسفون من حيث عده أساس المعرفة الفنية لأنه هو التابع بعكس المادة (١) .

ولما كانت كل خبرة قائمة على أساس وجود تفاعل بين الذات والعالم ، وأن هذا التفاعل موجود فعلا فى المادة المشكلة ، فإن من غير الممكن أن يمنع الناقد نفسه من أن يسأل : هل ما قيل ليقصد به الأديب خبرات الآخرين قد اندمج فى سياقه البشرى وبنى إنتاجه البناء المناسب ؟ أى يسأل : هل نجح فى التعبير ؟ .

إن كل ناقد يتصور أنه يسأل هذا السؤال ولكن الحقيقة أنه لا يفعل ، وإنما يقدم الاصطلاحات الغربية فى عبارات أكثرها فيه من المجاملة ما يطمس الحقيقة ويهدر القيم . وعلى ضوء ما يمكن أن يحدث لو التزم الجميع جادة الحق يتوارى متأدبون هم فى الصورة الآن ، ويظهر أدباء لم تسلط عليهم الأضواء ، ولا يكون القاص: (عبد الحليم عبد الله) مثلا كاتباً طليعيا يضع أيدينا على فاعليات تاريخنا وحاضرنا ، وإنما يكون واحداً من الرواد الذين قد تضيع مضامينهم فى « بلاغيات » العبارة ، وتزدحم مادتهم بالشعارات المبهمة أو الطائشة .

أنا لا أعرض بأحد ولا أستطرد ، ولكنى أرى أن النقاد فى إهمالهم لمسئوليتهم وأخذهم بأسلوب المجاملات ، قد ضيعوا الحقيقة الأدبية ، وأصبح الأدب غريبا فى مجتمع تبدلت ملامحه . وفى الوقت نفسه أهدرت الخبرة السوية ، وضرب على فهم العوامل النفسية والاجتماعية وهى تخطط الجماليات ؟

دكتور أحمد كمال زكى
جامعة عين شمس

(١) يجب أن نلحظ أن التفرقة بين الشكل والمادة تفرقة ذهنية ، كما نلحظ أيضا أن أساس المعرفة الفلسفية على النحو المتقدم ناجم عن أن مادة الأدب أشبه ما تكون بالهيولى فهى مهوشة مضطربة وغير مستقرة ومن ثم يكون للشكل الذى سوى الصورة صفة الاستقرار والدوام . ولكن ما يهم الناقد هو أن يفرق بين المادة التى شكلت بأسلوب قاصر ، والمادة التى شكلها الأسلوب الكامل ، دون ما نظر إلا إلى « التنظيم » .

الشعر الحديث وبساتين القرآن

للأستاذ عبده بدوى

أى إنسان الآن حين يتعامل مع الشعر بالإحساس ، يجد أن طيور الشعر لا تحط على بساتين القرآن ، ولا تقرب من حديقة الرسول ، ولا تمد أعناقها إلى التراث الإسلامى ... وأى إنسان حين يتعامل مع الشعر بطريقة المسح والإحصاء يجد أن ما نقوله حقيقة ، وليس معنى هذا أن التجربة الدينية غير خصبة ، أو أنها تعرقل التجربة الشعرية فى قليل أو كثير ، فالتجربة الدينية مما يثرى الشعر إذا أخذت على أنها ليست موعظة ، أو نظما لموقف ، أو تفسيرا أو تحليلا لجانب من الجوانب الدينية ، أو وقوفا عند العبادات والأشكال الخارجية للدين .

أما إذا أخذت كخيوط فى النسيج العام للتجربة ، وكرموز تعمق العملية الشعرية ، ثم أخيراً ، إذا رأيناها تتجاوز الشكل العام للدين ثم تتعمق ، وتتعمق إلى أن تكون تعبيرا وإحساسا متواترا للجوهر الإلهى .. فإن هذا يكون هو الشعر ، مع تحقيق شرط لا بد منه ، وهو أن يكون الشعر هو الملامح البارزة فى العملية الشعرية ، وأن يتحول الإحساس الدينى إلى ما يشبه « اللهب الخلق » الذى من وظيفته فقط ، إلقاء ضوء خافت من همس النور ، ومن الحرارة العائلة التى تؤثر على العين ولا تؤثر عند اللمس .

وقد يقول قائل : وما معنى هذا ، والناس منصرفون اليوم ، ومن فترة فى قليل أو كثير عند الدين ، وأن ما يشغلهم هو أمور دنياهم ولكن نظرة واحدة ترينا أن الدين يشغل الشاعر المعاصر ، ويأخذ عليه كل اتجاهاته ، ولا يتركه إلا وبه أثر منه .

فالشاعر (ت . س أليوت) يظهر فى أعماله التأثر العميق بالكاثوليكية ، وبعض النقاد يقول : إن قصيدة « الأرض الخراب » - التى تعتبر من معجزات الشعر فى هذا العصر - يمكن ، بل يجب أن تقرأ على أنها موعظة مسيحية ، وأن « القصائد الأربع » له يجب أن ينظر إليها على أنها تأملات دينية ، وأن « رحلة المجوسى » يذكر عنها بعض النقاد أن عنوانها يذكر باللوحات الدينية فى العصور الوسطى ، وأن ما فيها من دفء وإشراق

يذكرنا « بالفرح العظيم المتزايد » فى الإنجيل بل إن الأبيات الأولى مأخوذة من إحدى الخطب الدينية فى القرن السابع عشر للأسقف « لانسلوث آندروز » .

ويمكن أن نحس هذا عند الشاعر بيتس ، وفروست ، وجورج هيربرت ، وفرانسيس تومسون ، والشاعرة كرستينا روستى .

ونحن يجب ألا يذهب بنا الظن بعيدا ، فالمتتبع الشعر العربى المعاصر ، وبخاصة الشعر الحر ، يجد أن التأثير الدينى يلقى ظله عليه ، ولكن هذا التأثير الدينى ليس إسلاميا ولكن مسيحيا ، وقد أرجعت هذه الظاهرة فى « مجلة الرسالة » إلى أن الشعراء يخضعون لبعض المثقفين الشديدى الذكاء ، أو أنهم وجدوا أن القصيدة العمودية مرتبطة أشد الارتباط بالتراث الإسلامى ، ومن هنا كان انصرافهم إلى الجانب المقابل ، وأما أن بعض القوامين على الدين الإسلامى يبالغون فى التشدد على رموزه ومواقفه .

والخطورة هنا : أن الشاعر المعاصر لا يستغنى عن تحويل بعض المواقف والرموز الدينية إلى شعر ، ولكنه ينصرف تماما عن المواقف والرموز الإسلامية ، وقد عن لى أن أقوم بعملية مسح شعرى فى الشعر الحر المعاصر ، فوجدت صدق هذه الظاهرة ، بل وجدت بعض الشعراء يسخرون من الرموز الإسلامية ، وليس لهذا معنى غير أن بعض النقاد قد حولوا الشعراء بطريقة أو بأخرى عن المواقف ، والرموز الإسلامية .

وقد يظن ظان أن القرآن والحديث والمناخ الإسلامى لا يوحى بالشعر ، ولكن النظرة المنصفة تؤكد أن هذه المناطق الثلاث مملوءة بالشعر ، وأنها يمكن أن تعطى له الحنين والخصب ، والرحيل ، والبهجة ، والبعث ، كما يمكن أن تعطى له انتفاضة المرأة للجمال ، وللحمل ، والحقد ... كما فى امرأة العزيز ، وامرأة ابراهيم ، وامرأة لوط ... واللحظة الحرجة فى إقدام إبراهيم على ذبح ابنه ، وفى وضع أم موسى ابنها فى الماء ، وفى فرحة محمد حين أتم الله دينه ، وفى حزن يعقوب على يوسف ، وإشفاق نوح على ابنه ، وفى ابتلاء أيوب ، وأصحاب الجنة !

وفى ضوء هذا نرى أن فى القرآن والسنة والتاريخ الإسلامى ما يمكن أن يثرى الشعر ويملأ الشاعر ، بل إنى أذهب إلى القول بأن الشعر المعاصر أصبح حائل التأثير ، وخافت الصوت ، وليست له « النكهة الشرقية » لأنه يتخطى القرآن إلى الإنجيل ، ولأنه يستمع إلى أنبياء ليست لهم الملامح النفسية لأنبيائنا ولأنه لا يحول ما يحس ويرى إلى شعر ، ولكن يحول ما يقرأ إلى تجارب ستظل دائما بعيدة

(البقية على صفحة ٧١٩)

الفراغ النفسي عند الشباب

للأستاذ محمد محمد أبو شهبة

— ٢ —

في المقال السابق بينت الفراغ النفسي عند الشباب ، وأن هذا الفراغ يتمثل في الفراغ الديني ، والخلقي ، والعلمي .

والآن سأعرض الدواء الذي سنعالج به الفراغ الديني والروحي ، فبأي شيء نملأ هذا الفراغ .

إن دواء هذا الفراغ الروحي هو غرس تعاليم الدين في النفوس ، وتنشئة الشباب تنشئة دينية روحية سليمة ، وذلك بملء القلوب بالإيمان : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، إيمانا مبناه الاعتقاد الجازم ، والعلم الصحيح بما يجب الإيمان به ، والعمل الصالح المصدق لهذا الإيمان .

هذا الإيمان الثابت الذي يدعمه العلم الصحيح ، والعمل الصالح هو ما كان عليه السلف الصالح من هذه الأمة ، الذي صير من سكان الصحراء حكاما عادلين وخلفاء جديرين بالاستخلاف في الأرض .

لابد أن ننشيء الشباب من الصغر على تعاليم الدين وشرائعه ، وأن نلقنهم أصول الدين وأحكامه كما أنزلها الله ، وأن نعودهم إقامة شعائره ، حتى ينشأ الناشيء وهو غير غريب عن دينه وآدابه ، وهذا يقتضي أن تعمم دراسة الدين في جميع المراحل الدراسية من المرحلة الأولى إلى المرحلة الجامعية ، وأن يكون مادة أساسية لها وزنها في النجاح والرسوب في جميع السنوات ، وأن يكون لهذا تقديره أيضاً عند التقدم للكليات الجامعية والمعاهد العليا ، حتى يكون هذا حافزاً للشباب على أن يحصلوا على أكبر قسط من الثقافة الدينية .

وإنه ليؤسفني ألا تكون دراسة الدين وشرائعه وآدابه مقصودة لذاتها ، ولكن ماذا نفعل وقد أصبحنا أمام واقع مؤلم لا مفر منه ، وهو ربط التعليم بالنجاح والرسوب ، والإعداد للأعمال والوظائف ؟ وليست هذه المشكلة بنت اليوم ، فهي تضرب في التاريخ بجذور عميقة ، ويرحم الله الإمام الغزالي حيث قال : « طلبنا العلم لغير الله فأبى ألا أن يكون لله » ولكن فرق ما بين النظرتين اليوم والأمس كفرق ما بين العصرين .

نعم : إن الدين يدرس في المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية ، ولكنها دراسة سطحية لا تصل بالطالب إلى اللباب .

فإذا ما وصل الطالب إلى الجامعة فإنه لا يرى أثراً للدراسة الدينية ، مع أن هذا الدور هو الذي يبلغ فيه الشباب درجة من

الاستعداد تؤهلهم لفهم حقائق الدين ، وفى هذا السن يصبح الطالب عرضة للتأثر بالمذاهب الهدامة ، والآراء الفاسدة ، والأفكار الوافدة .

وهذا القصور فى الدراسة الدينية ، فى الكليات الجامعية فيما عدا الكليات الأصيلة فى جامعة الأزهر، أو التى تتغذى من روافده ، ولا يعنى بهذا النوع من التعليم إلا بضع جامعات فى العالم الإسلامى والعربى وأنا لا أنكر أنه قد وضعت كتب قيمة فى التربية الدينية ، وفيها شىء غير قليل من العبادات والأخلاق ، والسيرة النبوية لكنها - والحق يقال - لا يدرس منها إلا القليل جدا ، وما يدرس منها يدرس بطريقة لا تبنى عقيدة، ولا تهذب نفساً ، ولا تقوم سلوكا وما منا أحد إلا وله أبناء فى المدارس فليرجع إليهم وليسألهم . فإن الكثير من التلاميذ لا يحفظ من القرآن ما يصحح به صلاته، والكثير منهم لا يكاد يحسن الوضوء .

وإذا كان لبعض الطلاب ثقافة دينية ، وسلوكهم لاينافى الدين فرجع ذلك غالبا إلى البيئة التى نشئوا فيها ، أو إلى ظروف وملابسات كونتهم هذا التكوين، وأعدتهم هذا الإعداد والطلاب الذين ينشئون فى أسر متدينة ، أو يغشون المساجد ، وقاعات المحاضرات الدينية والعلمية والأخلاقية ، غالبا ما يكون لهذا أثر ملموس فى تربيتهم .

وشىء آخر أحب أن أنبه إليه ، وهو أنه يجب أن يكون القائمون بتدريس الدين من المتخصصين فى علوم الدين ، الفاهمين له فهما صحيحا ، وممن يؤمنون بجدوى الدراسة الدينية وأثرها فى إصلاح النفوس ، وتهذيب السلوك وإلا خرج الكلام من فيه فاترا لا أثر له ، ميتا لا حياة فيه ، ولكن الأمر على خلاف هذا ، فدروس الدين كثيرا ما يراد بها تكميل جدول الدروس ، ولا يراعى فيها الرجل المتخصص ، ولا الرجل الذى يزكيه سلوكه ، واستقامته .

لا يكاد يختلف منا اثنان فى جدوى التعليم الدينى ، وصقل نفوس الشباب به ، وخطورة الفراغ الدينى فى النفوس، فما الذى يمنعنا وقد أصبحت أمورنا بأيدينا ، وتخلصنا من نير الاستعمار ودسائسه وأحابيله - من أن نجعل تعليم الدين مادة أساسية ، وأن نعمم دراسته فى المراحل الدراسية كلها ، وأن نقوى من مناهجه ، ونزيد فيها ، وأن نختار لهذه الدراسة المدرس الكفء الصالح ، حتى يمكننا أن نكون شبابا مؤمنين بربهم ، عاملين لأوطانهم ، مخلصين لله فى أعمالهم ، لا يرتشون ولا يدلسون ، ولا يخونون ، ولا يغلون ، ولو أن وازع الدين والاخلاق كان قويا لما كنا سمعنا عن هذه السرقات من مال الدولة الذى هو مال الشعب .

« ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم

توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

ولكى يفيد التعليم الدينى فى معاهد العلم ويثمر ثمرته يجب أن تحافظ الأسر على القيم الروحية ، والتعاليم الدينية فإذا أخذ الوالدان أنفسهما بالتدين الصحيح والتحلى بالأخلاق الكريمة كان ذلك درسا نافعا ومفيدا للأبناء.

ومن العجيب أن الدارسين لنفسية الشباب فى الغرب دعو إلى ما دعونا إليه من إحياء معانى التدين فى النفوس ، وإليك ما جاء فى صحيفة الأهرام (١) عن نتائج مؤتمر الأسرة والطفولة الذى عقد فى مدينة « ميونيخ » فى ألمانيا . قالت مندوبة مصر : « لقد تضمن جدول المؤتمر أكثر من فكرة وموضوع تهم الأسرة والشباب ، وأهمها فى رأى المناقشات والأبحاث التى دارت عن أهمية المحافظة على القيم الروحية فى الأسرة وذلك حتى ينشأ الطفل فى جو أسرى متماسك ، فالأسر هى التى تتكون فيها شخصية الطفل من الناحية الروحية والعقلية ، حيث يتعلم من خلالها الحب ، والتضحية ، والحرية ولقد كان من آثار عدم الاهتمام بالقيم الروحية تفكك الروابط الأسرية فى المجتمعات الصناعية ، حيث ينساق الأفراد أمام التقدم المادى فقط ، بينما مازالت الدول النامية محافظة على تماسكها ، وقوتها .

وقد قال أحد الباحثين : إن الشباب فى العالم أصبح لديه احترام قوى وتقديس للعلم فقط وأهمل الدين ، وذلك نظرا لعدم وجود دراسات دينية ضمن التعليم فى المدارس للشباب كما أثارت مندوبة بريطانيا ظاهرة التدهور الخلقى فى شباب العصر الحديث ، وناشدت الحكومات ، والهيئات أن تعمل على محاربة الكتب والروايات السينمائية التى تتنافى مع الآداب ، وقالت مندوبة إيطاليا : إن هناك قانونا صدر أخير فى إيطاليا لمراقبة إعلانات الكتب والروايات التى تعلق بطريقة مثيرة فى الشوارع حيث يراها الصغار ، وقالت : إن جميع الإعلانات تعرض الآن على قاض للموافقة عليها ...

وإذا كانت الأديان تدعو إلى تربية العقائد وتقويم السلوك ، والدعوة إلى الخير والفضائل فى الذروة من ذلك الدين العام الخالد دين الإسلام الذى ارتضاه الله دينا للناس كافة إذ يقول وصدق الله : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ، وصدق المبلغ عن رب العالمين حيث قال صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم شيئين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله ، وسنة نبيه » رواه الحاكم؟

محمد محمد أبو شهبة

---

(١) الأهرام الصادر فى ١٢ / ٩ / ١٩٦٤

طرائف لغوية :

الواو الزائدة فى الأساليب العربية

للأستاذ طه الزينى

قال الله تعالى عن المؤمنين عند دخولهم الجنة : « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم » ، وعن أبى الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام حينما أسلما أمرهما إلى الله ورضيا بذبح إسماعيل : « فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا » ، وقال عن يوسف عليه السلام حين اتفق إخوته على جعله فى غيابة الجب حتى لا يعود إلى أبيه : « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » ، وعن يأجوج ومأجوج : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، واقترب الوعد الحق » ، وقرىء قوله تعالى عن احتجاز يوسف عليه السلام لأخيه : « فلما جهزهم بجهازهم ، وجعل السقاية فى رحل أخيه » ، بزيادة الواو قبل جعل .

وقال امرؤ القيس :

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى
بنا بطن[1] خبت ذى قفاف[2] عقنقل[3]

(١) واد معروف ببلاد العرب .
(٢) الحجارة . (٣) متسع عظيم .

قلت هاتى نوليني تمايلت
على هضيم[1] الكشح[2] ريا المخلخل[3]

وقال الشاعر :

حتى إذا امتلأت بطونكمو
ورأيتمو أبناءكم شبوا
وقلبتمو ظهر المجن[4] لنا
أن اللئيم العاجز الخب[5]

والناظر فى هذه الآيات والأبيات ، يرى أن المعنى مع وجود الواو كالمعنى مع عدمها ، ففى الآية الأولى لو أسقطت الواو فقيل : « فتحت أبوابها » ، كان المعنى صحيحاً ، ومؤديا للمطلوب وفى الآية الثانية لو قيل : « ناديناه » بدون الواو كان المعنى صحيحا ، ومؤديا للمطلوب كذلك . وفى الآية الثالثة لو قيل : « أوحينا إليه » ، بدل وأوحينا . كان المعنى صحيحا ومؤدياً المطلوب كذلك ، وفى الآية الرابعة

(١) ناحلة (٢) الخاصرة
(٣) مكان وضع الخلخال فى الساق و « ريا » معناه ممتلئة
(٤) الترس الذى يدفع به المحارب السلاح عن نفسه .
(٥) الخداع بصيغة المبالغة وهى بفتح الخاء وكسرها .

لو قيل : « اقترب الوعد الحق » بدون واو كان المعنى صحيحا ، ومؤديا للمطلوب أيضا ، وفي بيت امرئ القيس، والذي بعده لوقيل (انتحى بنا بطن) و (قلبتمو ظهر المجن) كان المعنى صحيحا ، وإذا كان المعنى عند ذكر الحرف، وعدم ذكره صحيحا، ومؤديا للغرض منه حمل ذلك على التفكير فى كونه زائداً ، فهل هذه الواوات وأمثالها فى الأساليب العربية زائدة أو ليست بزائدة ؟

اختلف النحويون فى ذلك :

فالبصريون يرون أن الواو أصلية، وليست بزائدة ، وحجتهم فى ذلك : —

أن الحرف وضع لمعنى فلا يجوز جعله زائداً ما أمكن ذلك ، ومعنى الواو عندهم هنا العطف ، ويجعلون جواب (إذا) و (لما) محذوفا فى الآيات والأبيات ، فيقولون فى الآية الأولى : حتى إذا جاءوها صادفوا الثواب الذى وعدوه ، وفى الثانية : فلما أسلما وتله للجبين كان هناك ما لا يوصف من ألطافه تعالى ، وفى الآية الثالثة : فلما ذهبوا به ، وأجمعوا حفظه الله ، وفى بيت امرئ القيس : فلما أجزنا ساحة الحى حدث ما أتمناه ، وفى البيت الذى بعده : حتى إذا امتلأت بطونكمو ، ورأيتم أبناءكم شبوا ظهر غدركم ، ويزيدون على حجتهم السابقة أن حذف الجواب فى الوعد والوعيد أبلغ من ذكره ، والآيات ، والأبيات السابقة مشتملة على الوعد والوعيد .

وذهب الكوفيون والأخفش [1] إلى أن الواو فى الأساليب السالفة زائدة ، واستدلوا لمذهبهم بعدم وجود الجواب فيها ، وبأنه لا ضرورة لتقدير الجواب ، وما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إليه ، وبأن المعنى ظاهر كل الظهور على اعتبار الواو زائدة .

وقال بعض النحويين إن الواو للحال، وقد مقدرة قبلها فى الآيات الأربع والتقدير : وقد فتحت أبوابها ، وقد ناديناه ، وقد أوحينا إليه ، وقد اقترب الوعد الحق ، وفى الأبيات الواو عاطفة على محذوف وليست بزائدة، والتقدير : فلما أجزنا ساحة الحى أجزناها ، وانتحى بنا بطن خبت ؛ وظهر غدركم وقلبتم ، والجواب مقدر على هذا الرأى أيضاً .

وأجاز ابن عصفور زيادة الواو فى الشعر فقط كالأبيات السابقة .

ووافق الرضى شارح الكافية البصريين فى عدم القول بزيادة الحرف متى أمكن تخريج الكلام على عدم الزيادة فقال ص ٣٦٩ جـ ٢ من شرح الكافية فى قوله تعالى : « حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا » ، وهذه

---

(١) نسب ابن يعيش فى المفصل رأى الأخفش هنا للبغداديين

الآية قد استدل بها الأخفش على زيادة ثم ، ولا منع من ارتكاب حذف المعطوف عليه أى ألهمهم الإنابة ، ثم تاب عليهم ، وكل ما جاء من أمثلته فإن أمكن الاعتذار عنه فهو أولى ، وإلا فليحكم بزيادة الحرف) اهـ.

ووافق ابن السراج أيضا البصريين فى عدم زيادة الحرف ، وزاد عليهم بأن منع وجود الزيادة فى كلام العرب جملة ، فقال : ليس فى كلام العرب زائد لأنه تكلم بغير فائدة وما ورد منه فى كلام العرب يحمل على التوكيد .

ووافق ابن جنى ابن السراج فقال : « كل حرف فى كلام العرب فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى .

وبعد سرد آراء النحويين فى الأساليب السابقة أرى : أن البصريين جامدون ، ومؤولون لما لاضرورة لتأويله ، فإن الظاهر فى آية الجنة والله أعلم . كون الفتح جواب إذا ، بدليل الآية الأخرى الواردة فى أهل جهنم، وإن كانت زيادة الواو فى آية أهل الجنة لمعنى آخر غير العطف ، وسيأتى بيانه ، والفتح هو السبيل إلى الثواب الذى وعدوه ، بل هو جزء منه ولا داعى إلى استبدال الجواب الموجود فى الآيه بجواب آخر يماثله فى المعنى ويخالفه فى اللفظ فراراً من زيادة الواو ، وكذلك الآية الثانية آية الفداء الجواب فيها هو النداء ، لأنه منع من الذبح وإخبار بالفداء وهو نفس الألطاف التى قدرها البصريون فهى كالسابقة . وكذلك بقية الآيات والأبيات أجوبتها فيها ، ولا داعى إلى تقديرها .

وأما جعل الواو حالية مع تقدير « قد » فهو خلاف الظاهر مع قلة تقديرها فى القرآن بالنسبة لإظهارها ، ومع الحاجة إلى تقدير الجواب وفيه ما تقدم من الاعتراض على رأى البصريين .

وأما جعلها عاطفة على محذوف فالأصل عدم الحذف مع ظهور ركاكة الأسلوب فى تقديرهم فى بيت امرىء القيس (أجزناها وانتحى) .

وتقدير الرضى الجواب فى آية التوبة تغافل عن المعنى ، وما يتطلبه ، وعن الأصل الذى هو عدم الحذف والتقدير، ولا شك أن المعنى فى آية التوبة ظاهر جداً على أن التوبة هى الجواب، والأصل « تاب عليهم » بدون « ثم » وإن كان لثم معنى آخر غير العطف سأذكره قريبا ، وأما إلهام الإنابة من الله فقد حصل قبل أن تضيق عليهم الأرض بما رحبت ، وهى لم تضق عليهم إلا بسبب إنابتهم وخوفهم من الله .

وأما تخصيص ابن عصفور الزيادة بالشعر فتحكم لا دليل عليه ، فقد وقعت الزيادة فى القرآن الكريم ، وهو فى أعلى مراتب البلاغة .

بقيت مسألة تتصل بهذا البحث وهى كيف نقول بزيادة الواو فى الآيات السابقة ، وهل تقع الزيادة فى القرآن ؟ ولبيان ذلك أقول :

١ — المراد بالزائد ما كان زائدا من جهة الإعراب، لا من جهة المعنى ، فالواو فى قوله تعالى : « وفتحت أبوابها » ليست للعطف

ولكنها تفيد مع زيادتها معنى التوكيد كما قال ابن جنى : إن كل حرف زيد فى كلام العرب فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى ، فكأنه قيل : فتحت أبوابها فتحت أبوابها ، وكذلك بقية الآيات ، ومنها آية التوبة التى زيدت فيها (ثم) .

٣ — اختلاف العلماء فى وقوع الزائد فى القرآن : فقليل منهم منعه ، والكثيرون أجازوه ، قال صاحب البرهان فى علوم القرآن فى الجزء الثالث : (وقد اختلف فى وقوع الزائد فى القرآن ، فنهم من أنكره ، قال الطرطوسى فى العمدة : زعم المبرد وثعلب ألا صلة فى القرآن (أى لا زائد) ، والدهماء من العلماء والفقهاء والمفسرين على إثبات الصلات فى القرآن ، وقد وجد ذلك على وجه لا يسع إنكاره فذكر منه كثيرا) اه كلام البرهان

وفى موافقة كثرة العلماء والفقهاء والمفسرين على وجود الزائد فى القرآن إلى ما تقدم من تضعيف مذهب البصريين وغيرهم نصر لمذهب الكوفيين والأخفش ، والله أعلم .

طه الزينى
دكتوراه فى النحو والصرف

(بقية المنشور على صفحة ٧١٢)

من أحاسيسنا ، وغير ملتصقة بوجداننا ! .

وليس هناك من أمل سوى أن يميل هؤلاء الشعراء إلى أنفسهم ، وأن يستخرجوا ما بها من لآلئ دون خوف من « رجال الصاغة » ، وأن يدمنوا القرآن ، لا لأن بعض النقاد دعا إلى إدمان قراءة الإنجيل للشعراء أخيراً ، ولكن لأنهم سيجدون ما يعمق تجربتهم بالقرآن .

وليس معنى هذا أننا نريد حبس الشعراء فى الأجواء الإسلامية ، ولكننا فقط ندعوهم إلى « زيارتها » من الحدائق التى « سرقوا » إليها ، بل إننا ندعوهم الى أن يحلقوا فى كافة الأجواء الدينية ، وألا ينسوا التحليق على ما فى أنفسهم . . وما فى أنفس قومهم . . وما فى الشرق ! !

على أن يظل الشاعر دائما متذكراً أن عليه أن يحول الدين الى شعر ، لا أن يحول الشعر الى دين .

تلك هى الدعوة التى ندعو إليها ، بعد أن قمنا بزيارة كافة الدواوين المعاصرة ، دون أن تقع أعيننا ونفوسنا على شيء يذكر بالشرق والإسلام ، بينما تدق الأجراس ، فوق رموز الخلاص بالحب ، والخلاص بالموت ، والصلب ، والجلجثة ، والخطيئة .

فما نقوله الآن ليس وليد لحظة عاطفية ، وليس وليد لحظة تعصب لأننا ندعو إلى الانتفاع بكافة الأديان ، ولكنه وليد لحظة علية ، تشهد عليها عملية الإنتاج الشعرى المعاصر على الصعيد العربى ، ومن هنا نرفع صوتنا إلى الشعراء ثم نقول لهم : « إلى أين ؟ » .

عبده بدوى

حول مقال الإسلام وما يفتي عليه

للأستاذ علي البولاقي

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ « عبد الكريم الخطيب » فى عدد جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ من مجلة الأزهر — مقالا حاداً صارخا ، وألصق بمن يهاجمهم — وهم علماء الدين جميعاً ، ألقابا لاذعة مثل : « حملة البخور فى محاريب الدين » ، والذين يعرضون الدين فى كل سوق ، ويبيعونه بكل عرض ، وبأى ثمن » وشمت بهم حيث أفتوا بتحريم بعض الأمور ، فجرفهم تيارها ، ودخلت عليهم من كل باب ونافذة ، واستهزأ بهم حيث وصفهم بأنهم صغار النفوس ومتطفلون ، وأنهم يظنون أنفسهم شيئاً مع أنهم أهون هوانا من « تيم » بل استهزأ بالصدر الأول كله حيث جعلهم أقواما لا تتسع نفوسهم لحقيقة الدين ، وإنما تتشكل فى عقولهم أصباخ شائهة مضروبة بالجهل والهوى ، أو مدموغة بالكيد والتضليل .

وأكثر فى مقاله من كلمات — العقل — الإرادة — عقل الإنسان العاقل — إرادة الإنسان المريد — التفكير — الشخصية — الإنسانية — الضمير ، فى عبارات تتزاحم لتزف إلى القراء فكرة زائفة بهيجة المظهر ردیئة المخبر من « واردات أوربا » تلقفها مستغربون من مستشرقين وروجها مبشرون استعماريون فى ظل ما روجوه باسم « الأحرار المفكرين » .

ويصوغ الأستاذ كاتب المقال هذه الفكرة فى أساليب شتى ، خلاصتها : أن شئون الحياة وحوادثها يجب أن تترك لعقول الناس وإراداتهم إذ لا علاقة للدين بها ، فلا يفتى الدين فيها أحداً ، وقد مثل لهذه الشئون بالسفور والسينما والتصوير والنحت والتمثيل وألوان الطعام والشراب وأدواتهما والزى وأشكاله .

وهذه دعوى خطيرة لو سلمت له لكان معناها قصر الدين على العقائد والعبادات والأخلاق وبعض المناهى لأن ما عدا هذه الأمور يمكن اعتبارها من شئون الحياة وعلى هذا تلغى من الفقه الإسلامى أبواب المعاملات والأطعمة والأشربة والألبسة والأحوال الشخصية وغيرها ، وتلغى من السنة النبوية جميع الأحاديث التى تتناول بالتفصيل أحكام هذه الأبواب ونحوها ، بل تلغى من القرآن نفسه أحكاما كثيرة كتحريم الربا ، وإيجاب ضرب المرأة الختار

على جيبها ، وتحريم الخنزير وما أهل لغير الله به ونحو ذلك من شئون الحياة التي يشير إليها الكاتب ، ويرى أن تترك العقول تخطىء تارة وتصيب أخرى ، وألا يزج بالدين فيها ؛ لئلا يخرج منهزما في عراكه معها ، ولاشك أن هذه الفكرة يفرح بها أولئك الذين استبدلوا بالقوانين الشرعية القوانين الوضعية المجتلبة من دول الغرب ، ولو خالفت نصوص كتاب الله وسنة رسوله .

وكأن الأستاذ يريد بهذه الفكرة أن يسلب من الإسلام ميزته الكبرى ، وهى أنه دين جمع بين شئون الدنيا والآخرة ؛ فكان قانونا شاملا واسعا صالحا لكل زمان ومكان مما جعل بعض علماء القانون من غير المسلمين ومن غير العرب يشيد بما للشريعة الإسلامية من تفوق على القوانين الأوربية .

يقول الدكتور « أنريكو أنساباتوا » في كتابه « الإسلام وسياسة الحلفاء » ص ٩٤-٦: إن الإسلام إذا كان محدوداً غير متغير في شكله فإنه مع ذلك يساير ما تقتضيه الظروف ، فهو يستطيع أن يتطوردون أن يتضاءل مع مرور القرون ويحتفظ بكامل حيويته ومرونته ولا يجوز أن تهدم يد الخلافة هذا الصرح العظيم من العلوم الإسلامية ، أو أن تغفله ، أو أن تمسه بسوء ؛ فقد أوجد للعالم أرسخ الشرائع ثباتا : الشريعة الإسلامية ، وهى تفوق في كثير من التفاصيل الشرائع الأوربية .

ويقول الأستاذ « بيولا كازيلى » في مجلة « مصر العصرية » السنة الثانية عشرة ص ١٩٥ : « إنه يجب على مصر أن تستمد قانونها من الشريعة الإسلامية ، وهى أكثر اتفاقا من غيرها مع روح البلاد القانونية » .

ولعل كثيراً من القراء على ذكر من أن المؤتمر الدولى للقانون المقارن الذى عقد بمدينة لاهاى في أغسطس ١٩٣٧ م قرر أن الشريعة الإسلامية لها ذاتيتها ، ولا تمت إلى القانون الرومانى بصلة ، ولا إلى أية شريعة أخرى ، وأن المؤتمر يعتبرها مصدراً رابعاً للقانون المقارن (ومعلوم أن القوانين الثلاثة التى اعتبرت مصادر من قبل هى القوانين الفرنسية والألمانية والانجليزية) .

دعامات الفكرة ومناقشتها :

دعم الأستاذ فكرته بدعامات واهية لاتغنى من الحق شيئا ، بيد أنه صاغها في عبارات فضفاضة تحتوى على تكرار كثير ، ولهذا أكتفى بتلخيص بعض منها مع مناقشته فيما يلى :

١ — أن القضايا التى تتحكك بالدين كثيرا ما تؤدى إلى نفرة الناس لأن النفس البشرية بطبيعتها تنفر من كل ما يلقاها على غير الوجه الذى ترقبه منه (ص ٢٨٠) .

وهذه الدعامة أوهى من خيط العنكبوت فإن نفور الناس من أمر يخالف عاداتهم الجارية أو لا يتفق مع أهوائهم وشهواتهم لا يدل على بطلان ذلك الأمر الذى نفروا

منه ، ولقد لقى الرسل الكرام من أقوامهم إنكاراً واستهزاءاً ونفرة ، فهل منعهم ذلك أن يصدعوا بقولة الحق ؟!

٢ — أن تحكيم الدين فى شئون الحياة كلها يؤدى إلى ضمور الشخصية ، واغتيال ذاتية الإنسان وقتل المعالم الأصيلة فيه (ص ٢٨٢).

وهذه الدعامة من نسج الخيال فإن شئون الحياة كما تستفتى جميع أرباب العلوم الطبيعية والطبية والزراعية والصناعية وغيرها ، كلا فيما يختص به ، كذلك تستفتى علماء الدين فيما يختصون به كالحـــل والحرمة وموافقة النصوص الشرعية ومخالفتها . وهـذا يؤدى إلى اتساع أفق الإنسان ، ودعم حياته المادية بحياته الروحية ، فلو صح ما يقوله الأستاذ لوجب إغلاق جميع المدارس والجامعات ، وأن يترك الناشئة ليصلوا بتجاربهم إلى ما وصل إليه الأولون حتى لا تضمر شخصيتهم وهذا خطأ شنيع بلا ريب .

٣ — أنه كما يقال: «القانون للإنسان وليس الإنسان للقانون» . وكما يقول السيد المسيح عليه السلام «إنما السبت للإنسان وليس الإنسان للسبت» ، كذلك يصح بل يجب أن يقال : «إن الدين للإنسان وليس الإنسان للدين» فما الدين إلا قانون سماوى (ص ٢٨٢).

وهذه الدعامة من أوهى الدعامات فأهـل القانون أنفسهم يحتكمون إلى نصوصه التى لا يجدون محيصاً عن تنفيذها ، ولو رأوا أنها تخالف المصلحة أو العدالة فى بعض الظروف.

وقول السيد المسيح: «إنما السبت للإنسان وليس الإنسان للسبت» ، إن صح فهو إشارة منه إلى نسخ السبت ، وبيان انتهاء حكمه ، فقد كان السبت مقدسا ، ويحرم فيه الصيد ونحوه فلما بعث المسيح عليه السلام ، وقام بشفاء المرضى يوم السبت أنكروا عليه ، فأشار بكلمته إلى أن هذا التقديس قد انتهى ، وأصبح السبت يوما عاديا كسائر الأيام ، فهو الآن للإنسان يقوم فيه بما شاء من المصالح ، وليس الإنسان له ، فلا يمتنع فيه من القيام بأى أمر يريد .

فمن العجب أن يؤخذ من هـذين القولين أن الدين للإنسان ، وليس الإنسان للدين ، وقد جاء فى كلام الكاتب ما يستفاد منه المراد من الشطر الثانى من هذه القولة وهو ألا يترك الناس سلطان الدين يملك وجودهم ، ويشل إرادتهم (ص ٢٨١) ، ومعـلوم أن الدين ليست له هذه الصفة ، فالإنسان مأمور بأن يتقى الله ما استطاع ، ولا يتوقف عن امتثال الأوامر ولو لم يعلم الحكمة فى بعضها — مادام مستطيعا — فإن التكليف قد يكون للابتلاء ، ولو أخـذ برأى الكاتب لساغ للناس أن يمتنعوا عن التيمم بالصعيد استقذارا له ، إلى غير ذلك مما لا يدرى كثير منهم حكمة مشروعيته ، وقد قال تعالى:

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً » (الأحزاب / ٣٦) .

٤ — أن المسلم مطالب حين ينزل على أمر النبي أن يصحب معه عقله وإرادته ليكون لتسليمه بما سلم به مفهوم عنده وأثر عامل فى كيانه ليقوم لهذا الأمر بما ينبغى له من إحتفاء ووفاء ، وموقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه — فى صلح الحديبية — يشهد لذلك (٢٨٣) .

وهذه مغالطة ، فالمسلم مطالب بأن يصحب معه عقله ؛ ليفهم ما كلف به وليمتثله بقدر ما يستطيع ، لا ليفرق بين ما هو من شأن الآخرة ، فيمتثل فيه الأوامر ، وما هو من شأن الدنيا فيرده ويزعم أن عقله كفيل بمعرفة ما هو أصلح له ، فالتفرقة تخالف صريح القرآن كما فى الآية السابقة .

واستشهاده بموقف عمر — رضى الله عنه — فى صلح الحديبية مردود ؛ فإن من يتتبع القصة يعلم أن عمر رضى الله عنه لم يخالف فى أمر ولا نهى ؛ بل حينما سأل عن الحكمة فى قبول الشروط الشديدة أخبر بأن هذا أمر من الله فسلم تسليما .

وعلى الرغم من ذلك فإنه رضى الله عنه رأى أن ما صنعه فى هذا اليوم كان من العظائم ولهذا قال : مازلت أصوم وأتصدق وأصلى وأعتق مخافة كلامى الذى تكلمت به حين رجوت أن يكون هذا خيرا » (السيرة الحلبية ج ٢٧/٣) فهل يقتدى بعمر فى أمر استغفر الله منه ، وقام بأداء طاعات كثيرة رجاء تكفيره ؟ ولم لا يقتدى بأبى بكر — رضى الله عنه — فى موقفه من هذا الصلح مع أن عمر نفسه قال : « لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان الناس لرجح إيمان أبى بكر » .

بق أن يقال له : ما معنى اصطحاب الإنسان إرادته ؟ إن الكاتب يقصد بهذه الكلمة — كما يتبين من سياق المقال — أن يكون حرا مختارا راضيا ، وهذا ينافى الآية التى ذكرناها والتى تنفى الخيرة ، ويخالف أيضا لسيرة الأنبياء والصديقين وجميع الصالحين .

فهذا سيدنا إسماعيل يقول لأبيه إبراهيم عليهما السلام « يا أبت افعل ما تؤمر » حين قال « إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى ؟ » فلم ير إسماعيل لنفسه خيرة فى هذا الأمر وبادر بامتثاله وصبر على هذا الابتلاء العظيم . وقد نعى الله على من لم يبادر بامتثال الأوامر الإلهية ، ولو كانت شاقة على النفس مكروهة لها قال تعالى : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا » .

فما موقف الكاتب إذا أمره الدين بقتل نفسه

أو الاستسلام لمن يقتله ؟ أيصطحب معه أرادته فيقول : « سمعنا وعصينا » أم يصبر ويقول : « سمعنا وأطعنا » ؟

٥ - أن الدين - والإسلام خاصة - خلى بين الناس ، وبين الحياة يعالجون شئونها بما عندهم من ذكاء واستعداد ، وليس للدين فى هذا المجال إلا قولة واحدة : هى أن يتحرك نشاط الناس فى غير بغى ولا عدوان ، وعن هذا الإيمان بحق الإنسان فى الانتفاع الكامل بعقله وخبراته وتجاربه كان قول الرسول الكريم لصحابته من أهل المدينة : «أنتم أعلم بشئون دنياكم » ، وكان صلوات الله وسلامه عليه قد أشار عليهم بتأبير النخل على صورة رآها ، فامتثلوا أمره فيه ، وكان ذلك جاريا على غير عادتهم ، وكانت نتيجة هذا أن جاء الثمر دون ما اعتادوا وفرة وجودة (ص ٢٨٥) .

ويقال : إن سلمنا أن دينا من الأديان السابقة خلى بين الناس وشئون الحياة ، فلن نسلم أن الإسلام خلى بينهم وبينها فإن الإسلام تحدث عنها جميعا ، وجاء فى القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، نصوص فى البيع والإجارة وسائر المعاملات ، والأكل والشرب والنكاح والطلاق ، والجنايات إلى غير ذلك ، مما جعل أحد اليهود يتعجب ويقول لأحد الصحابة ما معناه : « إن نبيكم يعلمكم كل شىء حتى الجلوس لقضاء الحاجة » .

وما قاله من : إنه ليس للدين فى هذا المجال إلا قولة واحدة ، هى أن يتحرك نشاط الناس فى غير بغى ولا عدوان : «هو إنكار صارخ لصرائح الكتاب والسنة الناطقة بالتفصيلات العديدة فى أكثر شئون الحياة » .

واستدلاله على دعواه بحديث النخل مغالطة صريحة ، ولفظ الحديث هكذا (أنتم أعلم بأمر دنياكم) وليس فيه « بشئون دنياكم » كما فى المقال ولا « بأمور دنياكم » كما فى كتاب « الإسلام وأصول الحكم » ، وليس بصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم أشار بتأبير النخل على صورة رآها كما زعم الأستاذ ، وليس بصحيح أيضا أنهم امتثلوا أمره ؛ فليس فى الحديث أمر ولا نهى ، وكل ما فيه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ما أظن يغنى ذلك شيئا » ، يعنى أنه حينما مر على قوم يؤبرون النخل بنقل طلع الذكر للأنثى ولم يكن يعلم ذلك من قبل ، قال لهم : ما أظن أن ذلك التأبير يزيد فى جودة الثمرة . فهذا من النبي إخبار عما جال بخاطره فى شأن من شئون الحياة ، وقد صرح فيه بالظن الذى يدل على أنه ليس وحيا ، وليس فيه أمر ولا نهى ولا مشورة ، غير أن القوم حينما سمعوا هذه القولة تركوا التأبير ، فكانت النتيجة أن جاء النخل بثمر ردىء ، وليس هذا امتثالا لأمر ولا اتباعا لمشورة ، والذى يظهر أنهم

لم يجربوا ترك التأبير من قبل ، فخطر ببالهم أن يجربوه حينما سمعوا هذا القول من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فربما صادف ظنه الواقع ، فلما جاء الثمر رديئا علموا أن الظن لم يوافق الواقع ، واستفادوا بهذا فائدتين :

الأولى : أنهم علموا بالتجربة شيئا لم يكونوا علموا به من قبل ، والتجربة أصل جميع الاختراعات والاستكشافات .

الثانية : أنهم علموا أن ما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل الظن ، لا يلزم أن يتفق مع الواقع ؛ ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به ، فإني لن أكذب على الله عز وجل » ، (انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٥ / ١١٦) .

وهذا يرشدنا إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا قال في شئون الحياة قولا عن الوحي وجب الأخذ به خلافا لما قرره وكرره كاتب المقال من أن الإسلام خلى بين الناس والحياة يعالجون شئونها .

على أن قوله صلى الله عليه وسلم « أنتم أعلم بأمر دنياكم » يفيد صراحة - أن المقصود بأمر الدنيا الأمر الذي تعلق به العلم . وهو الجزم المطابق للواقع عن دليل ، وبيان هذا أن أمر الدنيا الذي ورد عليه الحديث هو كون التأبير سببا لجودة الثمر ، وهذه السببية متيقنة معلومة بجزوم بها مطابقة للوقع مأخوذة عن دليل وهو المشاهدة والتكرار فعلا وتركا فإن سلمنا أن شأن الدنيا الذي علم عن دليل لا يتدخل فيه الدين فكيف نسلم أن الدين لا يتدخل في شئون الدنيا التقليدية التي لم يدل عليها تكرار ، ولا مشاهدة ولا برهان كالأمثلة التي هي منشأ ثورة الكاتب على علماء الدين وهي السفور وما جاء عن الغرب من السينما والراديو والتمثيل والنحت والتصوير وغيرها ؟ فهذه الأمور إذا أريد التعبير عنها فإنما يعبر بمفردات هي موضوعات صالحة للحكم عليها ، بأنها محرمة أو غير محرمة ولا مناص من أحد هذين الحكمين ، وكلاهما من الدين ، فإن العقل لا يمكنه أن يهتدي إلى أن هذا الأمر محرم يستحق فاعله العقاب من الله تعالى ، أو غير محرم فلا يستحق ذلك .

هذا وقد ساق الكاتب حديث « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه » ولم يرد بهذا اللفظ في كتاب من كتب الأحاديث وصحته « إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه » (أخرجه ابن ماجة عن ابن عباس . برفعه ، وكذا ابن حبان وصححه والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين) .

وقال الأستاذ في تعليقه على الحديث : « فما أسقط الإسلام هذه الأعمال والأقوال التي

تقع عن خطأ أو سهو أو إكراه ، وما أهدر آثارها ، إلا لأنها وقعت على غير إرادة الإنسان ، أو لأنها جاءت بعيدة عن مشيئته ، وعلى غير تقديره وتفكيره (ص٢٨٣) ويقال له : إن الإسلام إنما أسقط المؤاخذة فى الآخرة على هذه الأعمال ، ولم يهدر آثارها كما يزعم ويكفى أن نشير إلى الآية الكريمة « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة » .. الآية .

* * *

وبعد ، فنى المقال خلط بين الأحوال وخلط بين المفاهيم ، وتناقض واعتراف بديانات غير سماوية ، واعتراف بأن لها رسلا ، وفيه كذلك إباحة للردة ، وإنكار الدين لمن يطلع على اختلاف المفتين فيقول : أى دين هذا الذى يأتى بالمتناقضات ؟ وفيه أيضا قول غير لائق فى حق الأنبياء عليهم السلام حيث قرر أن الإنسان ليس له أن ينزل عن عقله وإرادته ولا لنبى ، وفى هذا تجريد للنبى عن العصمة وتحريض لأتباعه على العصيان ، إلى غير ذلك من الهنات التى لو ذهبت أتتبعها وأتعقبها بالمناقشة لما كفتنى فيها مقالة ولا مقالتان .

لهذا أدعها لفطنة القارىء الكريم بعد أن كشفت له عن فكرة الكاتب الأساسية التى سبقه إليها مؤلف كتاب « الإسلام وأصول الحكم » منذ تسعة وثلاثين عاما وليس من العسير على من يتتبع الأحداث التاريخية أن يعلم أنها مستقاة من الخصومات الحادة التى كانت بين الكنيسة وأعدائها فى القرون الوسطى ، والتى انتهت بردتهم وفصلهم العلم عن الدين ، فإن من الحجج التى تذرعوا بها أن رجال الكنيسة تدخلوا باسم الدين فى شئون الدنيا مع أن المسيح عليه السلام لم يجىء لعمارتها ولا البحث فى شئونها بل قال كما نقل عنه : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » فمن العجب أن تنقل هذه الفكرة من المسيحية إلى الإسلام الذى يمتاز بأنه دين شريعة عامة شاملة لأمور الدنيا والآخرة .

وقد ختم الكاتب مقاله بقوله « وإن يكن منكم فى هذا المقام خير تقدمونه لهم فهو الصمت ، والصمت الطويل » وكان أولى به أن ينصح نفسه أولا بهذه النصيحة فلا يستهزىء بخيار الأمة من أجل فكرة تخالف كتاب الله وسنة رسوله وإجماع المسلمين وما هو معلوم من الدين الإسلامى بالضرورة فليستغفر الله وليتذكر قوله تعالى : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » .

وأختم مقالى هذا بقوله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » رواه الشيخان .

على حسن البولاقى

التراث الإسلامي والحضارة الأوروبية

للدكتور محمد مختار القاضي

دعاني إلى كتابة هذا المقال الموجز أمر أراني دائم التفكير فيه لأنه موجب للحيرة البالغة ، والجواب عنه قد يفتح باب العلاج ، ولاشك فإن الأمر الذي أنا بصدده يحمل علة ليس من السهل الكشف عنها ، وبالتالي ليس من السهل برؤها ، فهل أنا مستطيع في هذه العجالة أن أكشف عن هذه العلة وأصف لها علاجا مناسبا ؟ أنا أدعي ذلك ، ولكني لا أستطيع أن أظفر بما يعقبه الإجماع على صحة هذه الدعوى .

أما هذا الأمر أو هذه العلة فهو ذلك التناقض الوضح بين تلك العظمة الخالدة والمجد الشامخ الذي جاء به الإسلام للعالم في العصور الوسطى وبين ما آل إليه حال المسلمين في العصر الحديث . فالعالم الغربي لا ينظر إلى المسلمين نظرة كريمة ، ولا يرى في بلاد المسلمين إلا أنها مزارع وحقول تمده بالطعام والشراب والمواد الأولية اللازمة للصناعة . وهو لا يريدها مجانا أو على الأقل بثمن بخس يغبن فيه أصحابها غبنا فاحشا ، وإذا كان المسلمون سادة هذا العالم في العصور الوسطى .

وكان الدين الإسلامي هو الدين الأوحد الذي لم يداخله تزييف والدين الكامل الذي شرع لكل أمور الدنيا ، ولزم القصد بين الشدة واللين ، وحض على الأخذ بأساليب العلم ، وصنوف المعرفة ، إذا كانت هذه صفات الدين الإسلامي فالمنطق يقضي بوجوب ارتفاع شأن المسلمين في كافة العصور ، ولكن الذي نراه أن المسلمين تخلفوا عن ركب الحضارة ، فهل هذا صحيح حقا ؟ ، وما هي أسبابه وما هي طرق علاجه ؟ : هذا ما أديم التفكير فيه ، وأنا الآن أفضي لك بما وصلت إليه بعد طول التفكير والتأمل .

لقد انتهيت وأنا أحلل عناصر الحضارة الإسلامية التي بلغت الذروة في العصور الوسطى إلى أن هذه الحضارة كانت تقوم على نوعين من العلوم : أولهما العلوم الطبيعية ، ويدخل فيها الكيمياء والطبيعة والهندسة والطب ، والثاني علوم اجتماعية كعلم

الأخلاق والشريعة والأخلاق والاقتصاد السياسى .

وقد برز المسلمون فى العصور الوسطى فى كافة هذه العلوم بنوعيها . فأما العلوم الطبيعية فقد كان مركز الإشعاع الإسلامى لها فى الأندلس وبخاصة فى مدينة طليطلة حيث كان يهبط إليها المترجمون من كافة أنحاء أوروبا وقد أصبحت هذه المدينة بعد أن استولى عليها ألفونسو السادس عام ١٠٨٥ المركز الذى انتشرت منه الثقافة العربية إلى نواحى أسبانيا وأوروبا . وخلال حكم ألفونسو السابع (١١٢٦ - ١١٥٧) لجأ إليها نفر من اليهود ناجين بأنفسهم من اضطهاد أول خلفاء الموحدين لهم ، عبد المؤمن بن على ، وتولى زعامة التراجمة الأسقف (رايموندو) وشهر منهم (دومينيكوس جوند يسالنى) و (جوندا ليز) و (يوحنا بن داود الأسبانى) ، وكان يهوديا ثم تنصر ، (وابن جبرول) ، و (جيراردو القرمونى) و (ميكل اسكوت) الإنجليزى ، و (أندويا) اليهودى و (هرمان) الألمانى وغيرهم . وكان المترجمون من اليهود ، ومعظمهم من الأندلس يقومون بترجمة الآثار الإسلامية إلى العبرية ثم ينقل غيرهم النص العبرى إلى لغته الأصليه ، ذلك بأن هؤلاء اليهود بحكم إقامتهم فى الأندلس كانوا يجيدون اللغة العربية إلى جانب العبرية وكان فى أوربا كثيرون يجيدون العبرية إجاده تامة .

لقد هرع إلى مدينة طليطلة هؤلاء المترجمون من الإنجليز والألمان والطليان والفرنسيين واليهود لينقلوا إلى بلادهم كنوز المسلمين فى الهندسة والطبيعة والفلسفة والطب وفى التاريخ الطبيعى . وكذلك فعل هؤلاء الغربيون فى جزيرة صقلية التى كانت تزهو بالعلوم الإسلامية الرفيعة . وما أن تسلم الغربيون هذا التراث الإسلامى المجيد حتى أخذوا يعملون فيه عقولهم ويطورونه تطويرا سريعاً ، وقد ساعدهم على ذلك ما كانوا يرونه أو يسمعون به من آثار المدينة الإسلامية فى كل البلاد التى فتحها المسلمون ، وكذلك انتشار المسلمين فى كافة بقاع الأرض سواء فى الصين والهند أم فى روسيا وإيطاليا وفرنسا وأسبانيا وجزر البحر الأبيض المتوسط ، فقد كانت أضواء المدينة الإسلامية تبهر الناظرين ، وكانت شهرتها تقرع أسماع هؤلاء الأوروبيين الذين تمنوا أن يكونوا فى مستوى المسلمين ، ولكن مفتاح الحضارة لم يكن بأيديهم حتى استله الأسبان من أمراء الأندلس المسلمين وطوفوا به فى أنحاء أوربا .

هذا ما فعله الأوروبيون بالعلوم الطبيعية حيث هذبوها وتقدموا بها حتى دانت لهم

الأرض ، وظنوا أنهم قادرون عليها ، ثم بدأوا يغزون السماء ، وظنوا أيضا أنهم قادرون عليها وقد أطمعهم فى ذلك أنهم أنطقوا الحديد ونقلوا الصور والنغم عبر البحار وأخضعوا الذرة والكهرباء ، وبالجملة تقدموا بالعلوم الطبيعية التى تلقوها عن الأساتذة المسلمين ، ثم زادوا عليها وتصرفوا فى فنونها .

ولكن التعصب الدينى حال بين الأوروبيين وبين العلوم الاجتماعية الإسلامية حيلولة تامة فى بعض الأحوال ، وتكاد تكون كذلك فى بعض الأحوال ، الأخرى . فالمبادئ الخلقية التى جاء بها الاسلام لم يأخذوا شيئاً منها وأخذتهم العزة بالاثم ، ذلك بأن الأخلاق مرتبطة عند المسلمين بالدين ، عكس العلوم الطبيعية ، لا يرتبط بحثها بالدين .

وكذلك لم يأخذوا بالعلوم الشرعية الأخرى كنظام المعاملات والزواج والطلاق والحدود وغيرها فلقد عز على هؤلاء المسيحين أن يأخذوا شيئا من غير رؤسائهم الدينيين ، وكيف يأخذون بتعاليم الاسلام فى الأخلاق والقانون والعلوم الاجتماعية الأخرى وهم لا يزالون يذكرون تلك الهزائم التى نزلت بملوكهم فى الحروب الصليبية على يد الأمراء المسلمين ، لا بأس إذن بأن يفيدوا من العلوم الطبيعية الحرة وينبذوا فى نفس الوقت العلوم المنبثقة من القرآن والسنة ، وكيف يفعلون ذلك ولو فعلوه لاعتبروا مسلمين من حيث لا يشعرون ؟ ! .

ولقد صادف عهد النهضة الأوروبية انحلالا خلقيا متعدد الجوانب ، والأسباب فى البلاد الأوروبية التى تدين بتعاليم المسيحية ، وإذا كان الدين المسيحى الأصيل الذى جاء به عيسى عليه السلام دينا قويما يستند إلى مبادىء عتيدة ، إلا أن البابوات ظلوا يتسلطون على رعاياهم باسم السماء ، ويحكمون الناس بأحط أنواع الغرائز البشرية طوال العصور الوسطى فهم الذين كانوا يبيعون صكوك الغفران لعباد الله ، وهم الذين كانوا يجردون سيف الحرمان على هؤلاء المستضعفين فى الأرض فلا يدخل المحروم منهم أرض الجنة ، ولا يعرف ريحها ، وهم الذين جعلوا من أنفسهم طبقة ممتازة تعلو على طبقة المساكين ، وإن لم تتعال عن استغلالهم .

وإذا كانت هذه المعتقدات الزائفة قد ذهبت بكثير من غياهبها شمس الحرية الإسلامية التى انبثقت من الأندلس وغير الأندلس ، فأن كثيرا من المبادىء اللاخلقية بقيت ، بل وازدادت شدة . لقد قام مارتن لوثر بتحرير المعتقدات الدينية من صكوك الغفران ، وقرارات الحرمان متأثرا بالحرية

الإسلامية التى نشرت فى سماء أوربا ، فإن (ماكيافلى) ضرب فى كتابه الأمير أسوأ مثل للأخلاق الإنسانية وخاصة فى العلاقات الدولية .

ولقد زاد الطين بلة أن الأوربيين فى سبيل الوصول إلى التقدم العلمى لم يبالوا بالتضحية بأى مبدأ من المبادىء الخلقية فى سبيل هذا التقدم فجندوا نساءهم مع رجالهم ، وأصبح الزوج عندهم مجرد وسيلة لانجاب الأطفال وقد أدى ذلك إلى انحـــلال الأسرة انحلالا غريباً ، وإذا كانت مظاهر هذا الانحلال لا تظهر لكثير من الناس فذلك لسببين :

الأول : انتشار التعليم عندهم ، فإن التعليم يخفف من مضاعفات الأمراض الاجتماعية .

والثانى الثروة التى هبطت على الأوربيين من إفريقيا وآسيا وأمريكا . ومع ذلك فإن الحروب المتكررة التى مرت بها أوربا كحرب الثلاثين ، وحرب السبعين والحرب العالمية الأولى والثانية ، كل أولئك يدل على أن المكيافيلية تغلغلت فى الأخلاق الأوربية تغلغلا ينذر العالم بفناء قريب ، وبعد أن كانت العلوم الطبيعية بعيدة التأثر والتأثير على الأخلاق أصبحت هذه العلوم وسيلة من وسائل إنسان الأخلاق .

هـذه هى حال الأوربيين قريبا من نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث ، وأنا لا أتطوع بهـذا الاستنتاج ولكنه يشهد عليه شيخ أدباء فرنسا فى القرن الثامن عشر وهو جان جاك روسو ، كتب هـذا السياسى الأديب بحثين : أولهما عام ١٧٥٠ تحت عنوان « هل أدى تقدم العلوم والفنون إلى تقويم الأخلاق ؟ » ، والثانى عام ١٧٥٤ وعنوانه : « الأسس التى يقوم عليها عدم المساواة بين الناس » ، وقد قدم هذين البحثين لى جامعة ديجون وانتهى فيهما إلى النتيجة الآتية ، وهى أنه على الرغم من تقدم العلوم والفنون ازدادت الأخلاق فساداً ، أما حال المسلمين فقـــد كانت عجبا ، فعند ما سلموا مخلفاتهم للغرب كانت حالتهم السياسية قد تدهورت تدهوراً ملحوظا ، وسقط آخر معاقلهم فى الأندلس فى نهاية القرن الخامس عشر .

وإذا كان المسلمون قد بقوا فى الأندلس بعد سقوط دولتهم طوال القرن السادس عشر ، فإن بقاءهم فيها كان محل اضطهاد من المسيحيين مثله تماما مثل الاضطهاد الذى يعانيه العرب الذين بقوا فى إسرائيل بعد استيلاء اليهود فى عصرنا هذا ، ولم يأت أول القرن السابع عشر حتى طرد المسلمون من الأندلس بطريقة لا يقرها دين سماوى ، ولا وثنى ؛ فأغرق منهم

ما يربو على نصف مليون بين رجل وامرأة وطفل، وأحرقت المراكب التى كانت تقلهم إلى شمال إفريقيا. ومع أن الأتراك كانوا قد غزوا أوروبا من الشرق وفتحوا القسطنطينية عام ١٤٥٣ ثم توسعوا فى بداية القرن السادس عشر فأخضعوا المجر، ووصلوا إلى فيينا، وغزوا إفريقيا من الغرب واستولوا على الجزائر منذ القرن الخامس عشر، وتونس فى القرن السادس عشر، وكان فى مكنتهم أن يمدوا يد المساعدة إلى الدويلات الإسلامية المتحضرة فى الأندلس ويردوا للمسلمين كرامتهم إلا أنهم لم يفعلوا ذلك، ولم يتقدموا لنصرة إخوانهم المسلمين الذين اضطهدوا فى الأندلس بعد سقوطها فى يد ملوك الأسبان، ولو فعل الأتراك ذلك لتغير وجه التاريخ.

ومن الغريب أن أول العناصر التى بدأت فى هدم وحدة الأمة الإسلامية أيام الدولة العباسية كان عنصر الترك والشراكسة. وكان عملهم فى هذا إيجابياً نشيطا فلما احتيج إلى نشاطهم فى محنة الأندلس اتخذوا لأنفسهم موقفا سلبيا خاملا. ولقد صادف الانحطاط السياسى للدولة الإسلامية نفس الحقبة التى بدأت أوروبا ترفع فيها رأسها. ولكن هذا الانحطاط السياسى لم يذهب بالتراث الإسلامى المكتسب فقد حافظوا عليه وعلى غيره من مخلفات الإسلام باعتبار هذه العلوم وحدة لا تنقسم، وأخذ علماء المسلمين، وخاصة فى الجامع الأزهر يدرسون فلسفة ابن رشد إلى جانب علم التوحيد، وفقه القرآن، والسنة، ومنطق رفوفوريوس فى كتابه إيساغوجى، وما عليه من تعليقات المناطقة المسلمين، إلى جانب السير والمغازى، وكذلك الفلك وغيره من العلوم الطبيعية.

ظل المسلمون محافظين على تراثهم العلمى ولكن مستوى هذا التراث لم يتقدم، لأن الأتراك الذين تسلطوا على العالم الإسلامى لم يشاءوا ذلك بسبب عدم ميلهم الطبيعى للعلوم الطبيعية. ويكفيك دليلا، أنه فيما عدا الفارابى الذى يقال: إنه من أصل تركى لم يضف الأتراك سطراً واحدا فى الحضارة الإسلامية. ومع ذلك فإن إخلاص الأتراك لدينهم الإسلامى كان سببا من الأسباب التى حفظت العلوم الدينية الإسلامية على ما هى عليه إلى أوائل القرن العشرين.

غزا الأتراك أوروبا وبقوا فيها خمسة قرون وفى القرن التاسع عشر بدأ الأوروبيون يؤلبون الدويلات الإسلامية على تركيا شيئا فشيئا كما فعلوا فى شمال أفريقيا.

ولم ينتصف القرن العشرون حتى صارت الإمبراطورية التركية وما تضم من ولايات

ملكا لانجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا والبرتغال وغيرها من دول أوروبا.

هنا أبصر المسلمون أضواء أوربا تسطع فى أراضيهم فأعجبوا بها كما أعجب الأوربيون أنفسهم بأضواء المدنية الإسلامية إبان الحروب الصليبية.

وإذن فقد رأوا التاريخ يعيد نفسه، كما يقول أرسطو، غير أن هنالك فارقا واحدا، وإن كان جوهريا فالأوربيون عندما أخذوا مدنية الإسلام فى العلوم الطبيعية رفضوا أن يأخذوا مبادىء الأخلاق الإسلامية لاعتقادهم أنها تعاليم بنيت على القرآن، وهم لا يدينون به، والحديث وهم من منكريه.

أما نحن فلم نكن كذلك، لقد قلدناهم تقليد الأعمى فى كل مناحى حياتهم، لقد أخذنا عنهم ما أضافوه إلى تراثنا فى العلوم الطبيعية، وأخذنا كذلك عاداتهم السيئة التى لا تتفق وتعاليم الإسلام، بل ولا تعاليم المسيحية الأصلية، لقد أخذنا عنهم الراديو والتليفون والتلفزيون والقطار والطائرة وهى من وسائل المدنية حقا لأنها تيسر على الإنسان مشقة حياته فى حله وترحاله، ولكننا أخذنا كذلك الرقص والخمر والميسر وأخذنا ما أعتقد أنه سبب من أسباب النقمة الإلهية علينا ألا وهو الشريعة الوضعية الأوربية، وهم الذين رفضوا شريعتنا وهى شريعة الله التى لم يدخلها زيف، ولا شبهة ولا تحريف، فهذا نابليون بونابرت الذى انتهك حرمة هذه الدولة الإسلامية ومسجدها العظيم «الأزهر» والذى أخرج من مصر هو وجنوده وحلفاؤه مذمومين مدحورين، نابليون هذا لايحكم مصر ويحكم طائفة أخرى من الدول العربية، يحكمهم إلى يومنا هذا بقانون وهو قانون على ما أعرف غير صالح حتى فى فرنسا ذاتها، لأنه كان سببا فى انحلالها من الناحية الاجتماعية، فهل لنا من رجعة لاستخلاص مدنيتنا الخالصة من الشوائب التى ألصقت بها فى عهود الاستعمار البغيضة، لقد كنا فى الماضى مضطرين إلى السكوت وخفض الرأس أمام عواصف أوربا، أما الآن فلم يعد لنا عذر بعد طرد المستعمرين وأخذهم بالتواصى والإقدام، وبعد أن أخذت القومية العربية تبرز من جديد ولكن هذه القومية لن تصفو من شوائبها إلا إذا خلصت من سموم المدنية الأوربية.

فإن لم نفعل ظللنا فى نظر الغرب مقلدين وظلوا أئمة ينظرون إلينا نظرة غير جديرة بالاحترام، فهل نحن فاعلون؟ أرجو أن يكون ذلك وإن كان الأمل لا يزال بعيدا؟

دكتور محمد مختار القاضى
دكتوراه فى الحقوق

الإقليمية في الأدب

للأستاذ محمد كامل الفقي

نعني بإقليمية الأدب أن ينم الأدب في إقليم ما ، عن طابع خاص به ، وسمة مميزة له ، وخصائص تفرده عما سواه ... من حيث لفظه ومعناه ، وأسلوبه وخياله ، ووجهة الأديب الخاضعة لأحوال في الإقليم وملابسات تهيأت له دون غيره ، من ظروف الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ومن بسط كف الحاكم حينا ، أو جمهورها وشحها حينا آخر .

وليس من شك في أن الأديب مرآة أهله . واللسان المعبر عن حس قومه وشعورهم ، والشاعر بوجه أخص هو المترجم الدقيق لعواطف الناس وأحلامهم ، المستيقظ دائما لما يجري في نطاق أمته ، المستبطن كثيراً من رغائبهم ونوازعهم ، الذي يشرح فيما يشبه الإلهام ، ما خفي من المعاني ، وما دق من الأفهام .

ولأمر ما جعلوا لكل شاعر شيطانا أو قرينه ، فهو يوسوس إليه من خفاياه ، ويتدسس إليه بسره ونجواه . فإذا هو مخصوص بفرط من العلم ، ومزيد من الحس ، وفيض من الصور البديعة . لا يدركها إلا الأذكياء والبصراء بأحوال الأمم ، العلماء بما يبنى على المقدمات من نتائج ، وبما تستهدفه كل خاطرة فردية أو جماعية من معاني الخير والشر جميعاً .

والذين يعيشون في جو الأدب ، ويتابعون أحوال الأمم المنطبعة في نفوس الأدباء المكابدين لأحوال الشعوب وقضاياهم السياسية وما ترسمه في ضمائرهم ، يعرفون حق المعرفة أن الأدباء يحيون في هذه البيئات منفعلين بها . متأثرين بشتى ظروفها . ثم آثارهم الأدبية في كلامهم المنثور أو المنظوم عن حياة هذه الشعوب واضحة ناطقة ، حتى ليخيل إليك وأنت تقرأ لهؤلاء الأدباء ، أنك لا تسمع الحوادث بل تبصرها ، ولا تقرأ خبر الأمم بل تكابدها وتشاهدها .

وليس لهذا الكلام من تفسير واضح ، إلا أن الأدباء ـ وبخاصة الشعراء ـ متأثرون حتما بالإقليم الذي غذوا بطعامه ، وارتووا من مائه ، ولقوا فيه من رفد الخليفة أو الوالي رياً ، أو عانوا من قبضهما وغل يديهما ما عانوا .

ولا يكون من الزعم أن الأديب الألمعي ، أو الشاعر اللماح ، تنطق في نفسه صورة الإقليم ، وفيها سمات وملامح وقسمات ، فإذا لوى عنه عنانه إلى قطر آخر فعاش في ربوعه زمنا ، جدت في خواطره سمات وملامح وقسمات . وكان له في حاله الأولى تعبير ناطق معبر ، يفصح عن شخصيته وشخصية إقليمه ، ثم كان له في حاله الثانية تعبير ناطق معبر ، يفصح عن شخصيته وشخصية إقليمه .

ولقد كان الشعراء والأدباء قبل تقسيم المملكة الإسلامية فى العصر العباسى ، وتزايل أطرافها ، وتوزع سلطانها ، يعيشون فى إقليم واحد ، بعيد الأطراف ، فسيح الأرجاء ، عاصمته واحدة هى بغداد ، واليد التى تطعم وتسق واحدة وهى يد الخليفة .

فالملابسات التى تغمر المملكة واحدة أو متقاربة . وخصائص السلطان واحدة ، لأنه سلطان واحد يبسط ظله على الأرجاء جميعا ، فالأدباء والشعراء يصدرون عن ورد ، ويحتسون من كأس . ويرى كل بعينه مثل ما يرى الآخر بعينه .

وإذن فلا مجال لتفاوت فى حس ، ولاسبيل إلى إختلاف فى مشرب ، فالجميع أشباه فى النعمة والبؤس ، وأمثال فى الرضا والغضب وليس بين هؤلاء وأولئك من فرق إلا قدر ما بين الحس والحس ، والجودة والقبح ، والسبق والتخلف ، وكم القناعة والطموح .

وبهذه المثابة كان روح الشعر والأدب واحدا . وطابع الحياة الأدبية على نسق متفق أو متقارب .

ثم كان للبيئة الواسعة المدى . الفسيحة الأنحاء ، المتميزة بطابع خاص دافع للشاعر موح إليه ، أثرها الواضح فى طبع صور فى إنتاجه الأدبى لا يشق على الفطن الذواق أن يهتدى إليها ، ويجتلى خواصها وظواهرها .

فليس الشعراء الذين عاشوا فى الحياة الجاهلية ومشوا على الرمال وامتطوا ظهور الجمال . وانتجعوا الكلأ . وخاضوا غمار الحروب . وكان لهم من المغامرات والمنافرات والعصبية والجاهلية ما كان ، ليس هؤلاء مثل الشعراء الذين عاشوا فى الحياة العباسية . وفتحوا على الحضارة أعينهم . وكرعوا مع الخلفاء والأمراء من اللذائذ والترف وغنوا وطربوا . وأيسروا من الشعر وكانوا ملوكا له وبه .

وليست بيئة الذين وصفوا الوحش والجمل والخيل والطير . والجبل والسهل . والحرب والسلم . كالشعراء المحدثين الذين أشرقت فى أعينهم مظاهر من الحضارة ، والعلم الحديث لم تكد تخطر على بال الأولين فاذا هم يصفون الطائرة والدبابة والصاروخ والمذياع . وكل طارق جديد .

لقد كان الأدباء والشعراء فى ظل المملكة الإسلامية الموحدة خاضعين لحكم عربى بحت فى العصر الأموى ، وكانت الدولة عربية خالصة ، يحوطها الأمويون بسياج متين ، فلم يسمحوا لدخيل أن يقتحم صفوفهم ، وأنفوا أن يتزوج المولى على إسلامه من عربية ، ومن تزوجها لجزاؤه أن تطلق منه ، وأن يلق الجلد عقوبة ونكالا ... ومن ثم لم ينفذ إلى الأفق الأدبى دخيل من فرس أوروم أو ترك أو زنج ، وبقى المحيط العربى فى أغلب الأمر نقيا من الدوافع التى تغير وجه الحياة العربية ، فالحكم عربى فى أسلوبه ، وشتى صوره والخليفة عربى ذواق يهتدى لمواطن الحسن فى الأدب ، وينفر من غثه ومهزوله ، ويتجافى عن الإحسان لمن

لم يكن من الشعراء ذا إحسان ، وللخليفة من مجالس الأدب بيئة خصبة تتطال إليها الأعناق ، وله بصر يبلغ به أن تجد من ديوان الخليفة من يقول للشعراء ببابه : من كان يحس أن يمدح الخليفة بمثل قول فلان فليدخل .

وكم كان فى البلاط الأموى ، وفى صدر الدولة عباسية من حوافز تحفز الشعراء والأدباء واللغويين والعلماء على الإحسان والتجويد .

وبهذا كان الطابع الأدبى متقاربا ، والأيدى التى تمنح متشابهة ، وآثار الأدباء والشعراء فى مضمار الحياة لاتنم إلا عن تفاوت يسير فى حدود ضيقة .

فإذا ما انتهت الأمصار المتعددة والأقطار الكثيرة ، والأقاليم المختلفة إلى حكم عربى فى بعضها ، وغير عربى فى بعضها الآخر . وصار السلطان عليها بيد الفرس والترك فمن الحتم ن تتفاوت المسحة الأدبية ، وتتباعد النزعة الفنية ، وتجد الأدب حياة فى ظل دولة . بمكافأة حكامها وولاتها ، كما تجد ذبولا وابتئاسا فى ظل دولة أخرى ، باليد المغلولة . والرحم التى لم تكن موصولة بين المادح والممدوح .

لقد رأينا الأندلس يحكمها الأمويون وهم عرب وبلاد المغرب يحكمها الأدارسة العرب ، ورأينا مصر والشام فى أسرة الفاطميين العرب ، والموصل وحلبا فى سلطان الحمدانيين العرب والعراق يتنازعها الفرس (البويهيون) والاتراك ، ورأينا فارس تأكلها الدلفية فى كردستان ، وهم عرب والصفارية فى فارس ، والسامانية فى فارس وما وراء النهر ، والزيارية فى جرجان وكل منها من العنصر الفارسى . ورأينا الغزنويين فى أفغانستان والهند ، وهم من الترك . ورأينا الطولونيين والأخشيديين فى مصر والشام وهم من الترك .

ورأينا السلاجقة الأتراك ينهبون أنحاء شتى من المملكة الإسلامية فالسلاجقة العظام يحكمون من سنة ٤٢٩ إلى سنة ٥٥٢ هـ وسلاجقة كرمان يحكمون من سنة ٤٣٣ إلى سنة ٥٨٣ هـ ، وسلاجقة الشام يحكمون بين سنتى ٤٨٧ و ٥١١ هـ ، وسلاجقة العراق وكردستان يحكمون بين سنتى ٥١١ ـ ٥٩٠ هـ وسلاجقة الروم يحكمون من سنة ٤٧٠ إلى سنة ٧٠٠ هـ .

وبعد أن كانت (بغداد) وحدها العاصمة التى يأوى إليها الأدباء والشعراء ، وتزهر فيها نهضة الأدب والعلم وتختص بالشخصية الأدبية بين بلدان المملكة صار إلى جوارها (القاهرة) و (حلب) و (الرى) و (بخارى) و (نيسابور) و (سيراف) و (فيروزا باد) و (شيراز) و (همذان) و (أصبهان) .

فليس من الممكن إذن بعد اختلاف الحكام جنسا ، وبعد تباينهم فى منح الأدباء والشعراء ، أو انقباضهم عنهم ، وبعد أن صارت العواصم مثابات مختلفة تخضع لعوامل غير متحدة وإن كانت متشابهة أن يكون الطابع الأدبى فى هذه الأقاليم واحداً ، وأن تكون خصائصه فى كل مصر تماثل الأخرى فى سمتها ووجهتها .

لقد اهتز الشعر والشاعر فى كنف الولاة العرب فى الدولة الحمدانية بالموصل وحلب. وفى الدولة الفاطمية بمصر والشام، واهتز الشعر والشاعر فى حكم الفرس فى الدولة البويهية والسامانية لبصر الفرس بالآداب وحذقهم اللغتين غالباً. وعملهم الموصول على خلق جو أدبى إذ كانوا أصحاب حضارة قديمة، وملك بائد. وآداب عريقة تداعبهم الأحلام أن يبعثوها بعد موت وفناء.

وقد حدث التاريخ فيما حدث عن الدولة السامانية التى قام حكمها فى تركستان والتى تنتمى إلى (سامان بن حنا) الفارسى، وتعاقب على حكمها عشرة ملوك بين سنتى ٢٦١ و٣٨٩ هـ أن أحد ملوكها وهو منصور بن نوح السامانى، الذى قام على ملكها بين (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) استوزر العالم الفارسى (البلعمى) فترجم تاريخ الطبرى إلى اللغة الفارسية.

وأعقبه ابنه (نوح بن منصور السامانى) (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ) فاقترح نظم الشاهنامة (سفر الملوك) إلياذة الفرس فى الفارسية، اقترح ذلك على شاعره (الدقيق) فنظم له بعضها. ثم قتل فأتم نظمها (الفردوسى) من بعده بإشارة من السلطان (محمود الغزنوى) والشاهنامة تتضمن خمسة وخمسين ألف بيت أودعت ما روى الفرس من أساطير وحقائق فى تاريخ ملوكهم منذ أقدم العصور إلى الفتح الإسلامى.

ولست أشك فى أن نظم الشاهنامة إنما هو من أثر العصبية الفارسية، ولون من الغزو الثقافى، ومحاولة لبسط النفوذ على العربية ولغتها.

ومن يدرس منازع الشعوبية ومظاهرها المختلفة، ومن أساليبها فى القرن الثالث الهجرى اعتزاز الشعراء بفارسيتهم، وغير بعيد مسلك (بشار) و (ديك الجن) و (الخريمى)، و (مهيار الديلمى)، و (أبى نواس) من قبل.

ومن يدرسها كذلك يجد من مسالكهم أنهم عكفوا على التأليف فى مناقب العجم كسعيد بن حميد البختكان الذى كان يدعى أنه من سلالة ملوك الفرس فقد ألف (انتصاف العجم من العرب) و (فضل العجم على العرب وافتخارها).

و (علان) الشعوبى الفارسى الأصل الذى ألف كتاب (الميدان فى المثالب) وغير هؤلاء كثير ... حرصوا على إبراز آداب الفرس ومحامدهم، وحاولوا جاهدين أن يعلوا كلمة الفرس وآدابهم ...

وليس من شك فى أن اصطباغ الحياة الاجتماعية والأدبية بالثقافة الفارسية فى البلاد التى يحكمها الفرس أضفى على الأدب فيها صبغة تبعد فى قليل أو كثير عن مظاهر الأدب فى الأمصار التى استعلى عليها العرب، وتم الحكم العربى فيها عن الصبغة العربية الخالصة ؟

« يتبع »

محمد كامل الفقى

دور العرب في نشر الإسلام في الهند

للأستاذ محيي الدين الألوائي

قال الإمام « الشهرستاني » في كتابه الشهير (الملل والنحل) في معرض تقسيم أهل العالم حسب الأمم والشعوب : « كبار الأمم أربعة : العرب والعجم والروم والهند ، ثم زاوج بين أمة وأمة ، وأن العرب والهند يتقاربان نحو مذهب واحد ، وأكثر ميلهم إلى تقرير خواص الأشياء ، والحكم بأحكام الماهيات والحقائق ، واستخدام الأمور الروحية » . هذا هو الرأى الذى أبداه العلامة الشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨ هـ - ١٢٥٣ م .

ومن هنا كانت الأمور فى الأمتين تجرى على نهج واحد، مع أن موجات من الحضارات الكبرى نشأت فى كلا البلدين ، وكانت تتطور وتتبدل حسب تقلبات العصور ، وهناك دلائل عديدة تدل على أن الأفكار والطقوس والعقائد والمدنيات تنتقل من كلا الجانبين ، وقد كان العرب فى عهد الجاهلية يعرفون محصولات الهند ومنتجاتها ، وكانت موضع اهتمامهم البالغ ، وجرت فى لغتهم العربية أسماء عدة أشياء هندية مثل : الفلفل والمسك والكافور ، والتنبل ، والنارجيل ، والصندل وما إلى ذلك ، حتى كان أشهر الأسلحة عندهم السيف المهندى ، أو « المهندوانى » ، وكان فى الهند ترحاب كبير للعرب تجارا أو زائرين وكانت العلوم والفلسفة الهندية قد تأصلت جذورها فى بلاد العرب .

وكان العرب يفدون إلى سواحل الهند الغربية قبل قدوم الإسكندر الأعظم بقرون عديدة ، وكانت محصولات الهند تصدر إلى جزيرة العرب عبر الخليج العربى ، ومن هناك ينقلها التجار العرب إلى سوريا ومصر وأما تجار الغرب ، فكانوا يشترون تلك السلع من سوريا ومصر ، فيصدرونها إلى بلادهم ، وهكذا كان العرب هم الوسطاء بين الهند وبين الروم ، واليونان فى ميدان العلاقات التجارية .

وبعد أن لاقت الدعوة الإسلامية نجاحا وانتشاراً منذ هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة اعتنقت مئات من قبائل العرب الدين الإسلامى خلال الأعوام التالية وقد دخل سكان اليمن وحضرموت فى الإسلام أفواجا ، وكانوا جميعا من التجار ، وقد وصلت تجارتهم حينذاك إلى قمة الرقى والازدهار ، وكانوا يشحنون البضائع إلى

الخليج العربى ومصر والسند وملابار ومعبر وسيلان وجاوا والصين ، وغيرها من البلدان النائية ، وفى كل بلد ينزلون فيه قاموا بالدعوة إلى الإسلام ، وينشرون تعاليمه ، بطريقة سلمية ودية ، وبهذه الطريقة وصل صوت الإسلام إلى الهند ، وسيلان ، عقب انبثاق فجره فى جزيرة العرب .

ويقول « بزرك بن شهريار » فى كتابه عن رحلته البحرية ، الشهير باسم « عجائب الهند » فى صـــدد بيانه عن جزيرة سيلان « فلما سمع أهالى سيلان عن الرسول العربى أوفدوا رجلا ممتازاً إلى جزيرة العرب لاستطلاع حالات دعوة ذلك الرسول الجديد ليبلغهم كما رأى وسمع ، فوصل المبعوث إلى جزيرة العـــرب فى عهد الخليفة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه (١٣ - ٢٣ هـ) فتشرف بمقابلة الخليفة ، وتحدث معه عن دعوة الرسول ، وسيرته وجمع معلومات وافية ، ثم عاد إلى سيلان ، ولكن فاجأه الموت فى طريقه ، وهو فى «مكران» ، وكان معه خادم هندى ، فعاد إلى سيلان ، وأبلغ أهلها عن مشاهداته وانطباعاته ، وبين لهم ما سمع عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعن أبى بكر الصديق ، الخليفة الأول ، وكذلك قدم تقريراً عن تفاصيل الحادثات التى جرت بينهما وبين عمر بن الخطاب رضى الله عنه [١] .

وجاء فى « تحفة المجاهدين » للشيخ الفاضل زين الدين بن عبد العزيز المعبرى المليبارى ، عن بداية الإسلام فى « ملابار » : « إن طائفة من اليهود والنصارى قد استوطنت فى مدينة « كدنفلور » أو « كرانفلور » عاصمة « كيرالا » القديمة فأهل اليهود الذين أجلاهم ملك إيران « كخسرو » قد هاجروا إلى ملابار ، ووصلوا إليها بطريق الخليج العربى ثم استوطنوا فى مدينة « كوتشين » .

وقال الدكتور « فورستر » مستنداً إلى كتاب برتغالى : « إن جمعا من اليهود خرجوا من جزيرة « ميورقة » فى الأندلس فى سنة ٣٦٩ للميلاد ، وكانوا زهاء سبعة آلاف نفر ، ووصلوا إلى شاطىء ملابار ، واستقروا فى مدينة « كوتشين » .

وأما النصارى ، فالمصادر التاريخية تشهد أن القديس توماس ، من حوارى المسيح عليه السلام ، كان يبشر بالمسيحية ، فى أنحاء كيرالا ومدراس ، وتبعه جماعة من النسطوريين من الشام ومن جزيرة العرب ، وكلدان .

وبعـــد حقبة من الزمن نزلت فى شاطىء « ملابار » فئة من التجار العرب المسلمين ، فى طريقهم إلى سيلان ، ولما علم ملك ملابار خبر وصول هؤلاء ، دعاهم إليه ، واستفسر عن النبى العربى ، فأجاب رجل منهم ، وكان شيخا كبير السن ، عن سيرة الرسول عليه

(١) عجائب الهند صفحة ١٠٦ .

الصلاة والسلام ، وعن دعوته ، ومعجزة شق القمر ، فصدق الملك بالنبى ، وأسلم ، وأمر إليهم أنه سيرافقهم فى طريق عودتهم من سيلان إلى جزيرة العرب ، لمقابلة النبى الجديد شخصيا ، ولما رجع هؤلاء من سيلان أمر الملك للشيخ المذكور أن تعد سفينة ، تقله هو ومن معه إلى بلادهم ، ثم دعا عشيرته وأعيان مملكته ، وقال لهم : إنى عزمت العكوف على عبادة الله ، والانزواء عن مشاغل الدنيا ، فلا يقترين أحد منى ، طوال أيام الأسبوع ، . ثم وزع أمور الدولة على رجاله ، وكتب لهم فى ذلك وثيقة لئلا ينشب الخلاف فيما بينهم فى شئون الحكم .

ثم ركب هو ورفقاؤه السفينة ، ووصلوا إلى منطقة « فندرينة » فباتوا هناك ليلة ، وقضوا فيها نهاراً ، ثم أبحروا منها إلى « در مفتن » ومكثوا فيها ثلاثة أيام ، ثم واصلوا السفر ، حتى وصلوا إلى « شحر » ، وهناك أصيب الملك بمرض شديد ، فأوصى الدعاة الذين عقدوا عزمهم على العودة معهم إلى بلاد الهند ، لنشر الدعوة الإسلامية فيها ، ألا يهنوا ولا يحزنوا .

وكان من بينهم « مالك بن دينار » وشرف ابن مالك ، و « مالك ابن حبيب » فقالوا للملك : إننا لا نعرف بلادك ، ولا نعرف ثغورها ومدنها ، وإنما قصدنا الذهاب إليها لأنك معنا ، ففكر الملك مليا ، ثم كتب لهم باللغة المليبارية ، رسالة إلى أقربائه وأحيائه ، ودلهم على عناوينهم ، وطلب منهم أن ينزلوا فى « كدنغلور » ، وناشدهم ألا يذكروا لأحد شيئا عن مرضه أو عن موته ، وبعد قليل توفى الملك ، ثم توجهوا مع عائلاتهم إلى ملابار وفور وصولهم إلى « كدنغلور » عرضوا خطاب الملك على وزيره ، فأكرم وفادتهم ومنحهم الضيعات والحقول ، وأسدى إليهم التسهيلات للقيام بنشر دعـــوتهم ، وبناء المساجد ، ودور العلم ، فبنوا فى تلك المدينة مسجدا ، يعتبر أول مسجد شيد فى شبه القارة الهندية ، ثم طافوا فى مختلف أنحاء البلاد ، داعين إلى الله ، وبانين المساجد ، وحاملين رسالة النور والعرفان .

أما الشيخ زين الدين المعبرى . فى روايته فلم يذكر اسم الملك الذى اعتنق الإســلام كما لم يحـــدد تاريخ حادثة الملك ، ولكن المؤرخ الكبير « فرشته » أثبت فى كتابه : أن اعتناق الملك الإسلام ، وسفره إلى البلاد العربية ، قد حدثا فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم[1] وفى مكتبة « المكتب الهندى » الأثرى بلندى توجد منظومتان مخطوطتان ، باللغة العربية ، وفيهما شرح واف لحادثة اعتناق الملك الهندى ، الدين الإسلامى ، وقدوم المسلمين العرب إلى منطقة ملابار ، فى ساحل الهند الغربى ، ويستفاد

(١) تاريخ « فرشته » الجزء الثانى ص (٣٢)

من قول الدكتور (برنال) أيضا ، أن الملك المذكور كان معاصرا للنبي العـــربي عليه الصلاة والسلام [1] .

وهكذا وصل صوت الإسلام إلى الهند بأيدي العرب ، وكانوا هم طليعة المسلمين الذين استوطنوا فيها ، وأناروا الطريق لنشر التعاليم الإسلامية ، واللغة العربيـــة ، في ربوعها ، وتبعهم في هذا الميدان المسلمون الهنود الذين تشبعوا بالدعوة الإسلامية ، والآداب العربية ، ويقول الشيخ زين الدين : « إن استيطان العرب الأول لم يكن منحصرا في منطقة ملابار فقط ، بل كانت هناك مراكز آهلة بهم في المناطق المجاورة لها » . فلما زار (ابن بطوطة) ملابار في القرن السابع الهجري ، وجد مراكز إسلامية عديدة منتشرة في سواحل الهند الغربية ، من « جوا » إلى « كويلون » في أقصى جنوب القارة الهندية .

ولا يرجع فضل انتشار الإسلام ، والثقافة العربية - في طول البلاد الهندية وعرضها - إلى الملوك أو الأباطرة الذين قاموا بفتوحات سياسية ، وأقاموا حكومات ودولا ، بل إلى دعاة مصلحين من العرب والهنود ، بطريقة سلمية ، وموعظة حسنة ، وكان رائدهم في ذلك إرشاده تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ، حتى برز في أنحاء الهند رجال متفقهون في العلوم الإسلامية ، ومتمكنون في اللغة العربية ، قبل الفتح الإسلامي الأول ، الذي قام به محمد بن القاسم الثقفي ، في نحو عام ٩١ من الهجرة النبوية في مقاطعة السند في شمال شبه القارة .

وتوسع نطاق الجهود الفردية التي بدأها الدعاة المسلمون العرب ، لنشر الثقافة الإسلامية العربية ، تحت زعامة « مالك ابن دينار » في جنوب القارة الهندية إلى جميع أنحائها في فترة وجيزة ، حتى بلغ عدد المسلمين فيها وقت تقسيمها في عام ١٩٤٧ - أكثر من مائة (مليون) مسلم ، ساهموا مساهمة فعالة في تكوين مراكز خالدة للثقافة الإسلامية ، وهم غيورون للمبادىء الإسلامية ، ومتمسكون بأهداب الدين الحنيف ، وهم يشكلون اليوم جزءاً حيا من جسم العالم الإسلامي ، الذي الذي يربطه برباط وثيق من الدين والإيمان والأخوة الروحية ، ونرى الآن الارتباط التاريخي الوثيق بين مسلمي الهند وإخوانهم العرب الذين حملوا مشاعل الإسلام في أرجائها ورفعوا رايته في آفاقها ، موطد الأركان ومدعم الأساس ، فليكن الماضي المجيد ، نبراسا يضيء الطريق إلى مستقبل زاهر ميمون ؟

محيي الدين الألوائي
المدرس بكلية الطب - جامعة الأزهر

---

(١) ذكر « برنال » أن اسم الملك جيرمان برومال » كما أثبت ذلك غيره من المؤرخين .

من أباطيل اليهود

للأستاذ محمود شبكه

يعتقد اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن عنصرهم من عنصره ، وأنهم شعب الله المختار ، كما يعتقدون : أن الله منحهم الصورة البشرية تكريماً لهم ، على حين خلق غيرهم من طينة شيطانية ، أو حيوانية نجسة ، وقد تكفل القرآن بالرد عليهم فى زعمهم هذا (وقالت اليهود : نحن أبناء الله وأحباؤه قل: فلم يعذ بكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشرممن خلق يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء) وهم يزعمون أنهم أصلاءفى الإنسانية بحكم عنصرهم المستمد من الله ، مثلما يستمد الابن من أبيه ، وأن خيرات الأرض كلها منحة لهم من الله وحدهم وأن من عداهم من الناس خاضع لهم ، وتحت سيطرتهم ، وما دام هذا وضعهم مع غيرهم من الناس ، فلا مانع من ارتكاب السرقة والغش والكذب وهتك العرض ، وأن هذه ليست جرائم ، بل قربات يثابون عليها وقد أشار القرآن إلى ذلك فى سورة آل عمران (ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك ، إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب ، وهم يعلمون) واليهود فى معتقداتهم وسلوكهم وسائر تصرفاتهم إنما يصدرون عن كتبهم المقدسة ، مثل العهد القديم ، والتلمود ، وأقوال زعمائهم ، رغم ما فى هذه الكتب والأقوال من المتناقضات والمضحكات ، ولنستعرض معاً بعض ما جاء فى هذه الكتب ، جاء فى التلمود : إن اليهود أحب إلى الله من الملائكة ، وأنهم من عنصر الله كالولد من عنصر أبيه ، ومن يصفع اليهودى كمن يصفع الله ، والموت جزاء الأمى [1] إذا ضرب اليهودى ، ولولا اليهود لارتفعت البركة من الأرض ، واحتجبت الشمس وانقطع المطر ، واليهود يفضلون الأميين كما يفضل الإنسان البهيمة ، والأميون جميعاً كلاب وخنازير ، وبيوتهم كحظائر البهائم النجسة ، ويحرم على اليهودى العطف على الأمى ، لأنه عدوه ، وعدو الله ، وكل خير يصنعه يهودى مع أمى فهو خطيئة عظمى وكل شر يفعله معه قربان لله يثيبه عليه ، وأن النطفة المخلوق منها باقى الشعوب الخارجين من الديانة اليهودية نطفة حصان

---

(١) الأمى — الإنسان غير اليهودى .

(تلمود أورشليم صـ ٩٤) سلط الله اليهود على أموال باقى الأمم ودمائهم (من تفسير التلمود) .

الشعب المختار فقط يستحق الحياة الأبدية وأما باقى الشعوب فمثلهم كمثل الحمير (الحاخام بارانيل) .

أيها اليهود : إنكم من بنى البشر ؛ لأن أرواحكم مصدرها روح الله ، وأما باقى الأمم فليست كذلك ؛ لأن أرواحهم مصدرها الروح النجسة (مناحم الروى) .

باستطاعتك أن تقتل أفضل المسيحيين (التلمود) لا ترهب وجوههم ؛ لأن الرب آلهك فى وسطك إله عظيم ومخوف، ولكن الرب إلهك يطرد هؤلاء الشعوب من أمامك قليلا قليلا لا تستطيع أن تفنيهم سريعا لئلا يكثر عليك وحوش البرية ، ويدفعهم الرب إلهك أمامك ويوقع بهم اضطرابا عظيما حتى يفنوا ، ويدفع ملوكهم إلى يدك ، فتمحوا اسمهم من تحت السماء (تثنية ج ٧ ع ٢١ - ٢٤) .

هذه طائفة من النصوص ، لا تحتاج إلى تعليق فهى واضحة الافتعال والاضطراب ، وهى على ما فيها من ركاكة ، وضعف أسلوب تصور مطامع اليهود ، وآمالهم العريضة ، وما وعدوا به من إرث ، وما أمروا به من غلظة وقسوة ، وما ينتظرهم من مستقبل حافل بالمجد ، والسيطرة على العالم كله

وقد غرت هذه التعاليم (موسى شاريت) فوقف فى (الكنيست) يقول : إن إسرائيل لن يكتب لها البقاء ، ما لم تشن حربا وقائية ضد الدول العربية ، حتى تضمن سلامتها ، وتمد حدودها داخل هذه الدول ، وحتى تحقق الحلم الذى طالما حلم بتحقيقه فلاسفة الصهيونية ، ألا وهـــو إقامة أمبراطورية إسرائيلية ممتدة الأرجاء ، تفرض سلطانا قويا يخافه الجميع .

وفى مؤتمر عقده المحاربون القدماء لمنظمة (الأرجون الإرهابية) فى ١٩٥٥/١٠/٢٨ قال (مناحم بيجن) زعيم حزب حيروت : يا بنى إسرائيل ، ويا شباب منظمة الأرجون إن العدو يحيط بنا من كل جانب ، وإننا إن لم نهاجمه فى دياره ، ونحطم قوته الحربية قام هو وحطم دولة إسرائيل ، وعليكم يقع واجب المحافظة على دولتكم ، وتوسيع رقعتها إن قتـــل عربى معناه إضعاف أعدائكم ، وتثبيت أقدامكم ، فلا تتوانوا فى قتل أعدائكم ولا تأخذكم بهم رحمة وشفقة ؛ حتى نقضى على حضارة العرب المزعومة ، ونقيم على حطامها حضارة إسرائيل .

هذه تصريحات لزعماء إسرائيل ، وكلها تنطق بما انطوت عليه نفوس هذا الجنس من غدر وخيانة ، وحقد على العرب ، ورغبة ملحة فى القتل ، وسفك الدماء ، وليست هذه الصفات

بجديدة على اليهود ، فلقد وصفهم كثير من أنبيائهم فى كتبهم المقدسة بأنهم شعب غليظ القلب ، صلب الرقبة ، وأنهم أبناء الأفاعى ، وقتلة الأنبياء ، وما كثرة أنبيائهم إلا دلالة على دناءة أصلهم ، وخسة طباعهم ، وأن بذور الشر ، وعوامل الفساد امتزجت بلحمهم ودمهم ، فلا يفيدهم نصح ، ولا ينفع معهم توجيه وإرشاد ، وقد سجل القرآن عليهم هذه الظاهرة فى قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى بن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم؟. ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » .

واليهود مشهورون بحب المال ، والاستغلال وأينما حلوا فى بلد تراهم يحاولون التسلط عليه اقتصاديا ، فيستغلون البيوت المالية ويشرفون على الصحف والمجلات ودور النشر وشركات الأنباء ، وهم يعيشون كالأمراض الطفيلية على الشعوب وحضاراتها مما دعا هتلر إلى احتقارهم ، وفضح أساليبهم ونواياهم والتنكيل بهم ، فهو يرى : أن اليهود جنس يضطرم بالأثرة . وأنه ذكى ، ولكنه مجرد من الابتكار والطرافة ، وأنه لم يخلق لنفسه أية حضارة ، ولا يحدوه أى مثل أعلى ثم يصف الطرق التى يتبعها اليهودى فى دخول المجتمعات الجرمانية ، فيقول : إنه يحل فى أثر الجيوش الأجنبية ، ويتقدم كتاجر ، ويشتغل بالوساطة ، والربا الخطر ، ويحتكر التجارة ويرهق الفلاحين ، ويجتمع اليهود فى أحياء ومجتمعات خاصة ، ويحرصون كل الحرص على بقاء جنسهم ، وينشئون لذلك دولة داخل دولة ، ثم يتملقون رجال السلطة والأمراء ويمدونهم بالمال ، ويستظلون بحمايتهم ونفوذهم ويسيطرون على البورصة والانتاج [1]

وقد استطاع هتلر أن يحطم اليهود ويسحقهم أفراداً وجماعات بأقسى وأعنف الوسائل والصور ، وعانى اليهود فى ظل النازية محنة ما عرفت فى تاريخهم الزاخر بالآلام والمحن والأمل قريب فى أن يكون مصير يهود فلسطين مصير آبائهم وأجدادهم فى مختلف العصور : من التنكيل والتشريد ، وأن تعود فلسطين لأصحابها ما دام العرب قد تجمع شملهم وتوحدت كلمتهم ، وما دامت الجمهورية العربية المتحدة قد وضعت أمام عينيها تطهير فلسطين من اليهود ، وعودتها إلى أهلها ، كما جاء فى الميثاق (والجمهورية العربية المتحدة بالتاريخ وبالواقع هى الدولة العربية الوحيدة فى الظروف الحالية التى تستطيع تحمل مسئولية بناء جيش وطنى يكون بمثابة القوة الرادعة للخطط العدوانية الاستعمارية والصهيونية) .

محمود شبكة

(١) كتاب هتلر كفاحى .

طباع ... وشرائع ...

للأستاذ على الخطيب

من حق المرء على هذا الدين ألا يحبس عليه ميوله ، أو يقمع فيه فطرته ، وإنما يستجيب الإسلام لهذه الميول ، وتلك الفطر استجابة رصينة ، تتيح للمسلم بحكمتها أن ينال دائما « توافقا » نظيفا بين طبائعه ، والاستجابة لها ، توافقا لا إفراط فيه ، ولا تفريط ، وفى اتجاه مستقيم ، ينجو من الضرر والعدوان ، تتحقق الميول ، وتتأكد الطباع ، وتستوى الشخصية المسلمة بلا انحراف ولا شذوذ .

وقد حرص الإسلام على تأكيد هذا المعنى ، والحفاظ عليه حين شرع نفر من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مقاومة طبائعهم قائلين : ما حقنا إن لم نحدث عملا ؛ فإن النصارى قد حرموا على أنفسهم فنحن نحرم . وجلسوا فى البيوت ، واعتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح ، وحرموا طيبات الطعام واللباس ، وهموا بالاختصاء ، وأجمعوا أمرهم لقيام الليل ، وصيام النهار !! .

وبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : (ما بال أقوام يقول أحدهم : كذا وكذا . لكنى أصوم وأفطر ، وأنام وأقوم ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ؛ فمن رغب عن سنتى فليس منى) ، ونزل قول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا الطيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » فقال القوم : اللهم سلمنا واتبعنا ! ، وتوقفت تلك التجربة نهائيا فى الإسلام .

وإنه لمن العبث أن يطلب تشريع من الإنسان أن يضطهد طباعه ، أو يقضى على ميوله ، وأى استجابة لمثل هذا التشريع تعنى بصورة مباشرة صراعا مريرا من الكبت والحرمان ، والضيق والحقد ، يستحيل الإنسان بعدها إلى امرىء متعطش للعدوان ، يختلس اللذات فى غير حق ، ويستجيب لطباعه استجابات شاذة تضربه ، وبالمجتمع ، فالطبيعة ستتغلب فى النهاية ، وتحقق ذاتها ، وتؤكد أنها لا تموت .

فكان حقا على الإسلام ـ دين الفطرة ـ أن يقف أمام هذه المحاولة ، ويقضى عليها ، وينذر كل مبتدع إلى يوم الدين أنه على غير سنته ، وحسابه على نفسه ، وجرم أتباعه عليه : فكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

والتاريخ شاهد صدق يؤكد عبث الخروج على منطق (القصد والاعتدال) فى كل حالة اعتبرت (الفطرة) معصية ، و (الاستجابة) لها جريمة ؛ وقص علينا التاريخ طرائف فى هذا الباب :

(ا) فى الرهبنة تبين أن فريقا من رهبان (المادية) الهنود يخلصون لحياة النسك طوال العام إلا يوما واحدا ، يطلقون فيه لشهواتهم العنان ، مقبلين فيه على لذة مفرطة يعبون فيها من كل لون وطعم ؛ كما يقول دكتور غلاب (ص ١١٥ فلسفة شرقية) .

كذلك لم يمنع مركز البابوية اسكندر بورجيا أن يطلق لشهواته ألف عنان على رءوس الاشهاد . حتى بات معلوما للعامة أن لهذا (البابا) ستة أولاد ، أو صبعة غير شرعيين [1] ، ولم يكن عجبا أن تموت دعوة (مانى) فى مهدها . تلك الدعوة التى قضى فيها بتحريم الزواج استعجالا لفناء العالم ؛ فمات (مانى) وظل الناس يستمتعون بما أحل الله من زوج وبنين .

(ب) ولقد سلكت أكثر من عقيدة تنادى بالتناسخ ، وتؤمن بالحلول ، أو بطرف منه - طريق تحريم اللحم ، وتفاوتت فيما بينها فى تشريع تحريمه ، فمنها ما حرمه أبدا ، ومنها ما قضى بالتحريم فترة ، ولو قد كانت حيا له وسطا ، ترغب فى القصد والاعتدال ، لنالت استحسانا وتقديرا ، لكنها أبت إلا أن تشرع وتخطط ، وتأمر وتحذر ، وتملى المنع إملاء أغرى الناس بالتماس رغباتهم خفية . وأى الناس . ؟ إنهم كهان البوذية فى اليابان ، فقد حاول الأباطرة فى عصر «كيوتو» محاولة دينية قصدوا بها أن يؤيدوا قوانين التغذية كما تأخذ بها البوذية ؛ فحرموا ذبح الحيوان وأكله ، ولكن لما رأى الناس أن الكهنة أنفسهم كانوا يخرجون على تلك القوانين خفية . أخذوا يدخلون اللحم لونا شهيا من الطعام ، ويسرفون فى أكله .

ومالنا نذهب بعيدا إن بودا هو أول من عصا البوذية . وكاد يودى بحياته بعد وجبة ضخمة من لحم الخنزير .

(ج) وفى التاريخ مثال لرجلين :

أحدهما «أكبر» أمبراطور الهند فى العصور الوسطى الذى أراد أن يحمل الناس كرها على اعتناق «دين» رسم هو خطوطه ، وحد حدوده ، وصور له وهمه أن دينه يستوعب الأديان جميعا ، فانطلق - وهو الأمبراطور الذى يملك السلطة ، ويحوز القوة - يفرض عقيدته على الناس مؤملا أن يرضى طوائفهم فى النهاية ، وفى سبيل ذلك أنزل ببعض الطوائف تشريعات ضد رغباتها ، وأصاب المسلمين فى الهند من عنته شىء . فقد حرم عليهم صيام رمضان ، وحج البيت ، وأغراه

(١) ص ١٧١ سافونارولا : دار الكاتب المصرى

فى ذلك فكر سقيم، وقوة غاشمة، وعبثا ذهبت محاولاته، وسقط ميتا دون أن تنال روحه عزاء من أى الناس، بينما كان قصره فى المساء نفسه يتلألأ بفرح إعلان امبراطور جديد وتنفس الناس الصعداء.

والثانى: الحاكم بأمر الله.

وأى الناس لم يسمع بهذا الحاكم الذى أغراه السفه، لا بمحاولة تغيير عقائد الناس فحسب بل اتجه إلى تغيير ما درجوا عليه من عرف فى العمل أو السلوك. مضطهدا طوائف العمال إذ أمرهم بممارسة عملهم ليلا، والكف عنها نهارا، وحد من حرية المرأة؛ حتى حرم عليها ما أحل الله لها؛ فأوقف كثيرا من المنتجات التى تخصها من رداء أو زينة، ونادى بعض أتباعه فى المساجد نداء أنكره المؤمنون، وقاوموه، ثم أتت النهاية، فمات الحاكم ميتة غامضة، عادت الحياة بعدها سيرتها الأولى.

ولن يعدم ملتمس التاريخ حقائق فى هذا الباب تؤكد جميعا حتمية النصر للطبع المعتدل والميل الشريف، وانتصار الحياة لها.

من أجل ذلك يقف الإسلام حاميا منطق «القصد والاعتدال» يصونه أن يعبث به أحد أو ينحرف به ضال، حتى لا يقذف الإفراط بالطبع، والإسراف فى الميل، إلى ضرر عارم أشد تدميرا على المجتمع من القمع والاضطهاد.

فكان نهج الإسلام خير حافظ للناس ومبق على كرامتهم، وله فى ذلك نصوص صريحة؛ يقول تعالى:

«فلا تميلوا كل الميل» ١٣٩ «النساء».

«وكذلك جعلناكم أمة وسطا» ١٤٣ «البقرة»

«وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين. قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده، والطيبات من الرزق. قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون» ٣٢ الأعراف.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

كلوا، واشربوا، والبسوا، وتصدقوا من غير مخيلة، ولا سرف؛ فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده.

هذا الإطار من تعاليم الله ورسوله كفيل ببيان احترام «الفطرة»، والعمل على صيانتها حتى يستوى «التوافق» بين الإنسان وطباعه ويتم «الإشباع» النظيف بين المرء وميوله فى أحضان هذه الشريعة السمحة التى وسعت الرغبة، وحفظت الطبيعة بنهج أصيل يحقق حكمة الحياة على مدار القرون؟

على الخطيب
مجمع البحوث الإسلامية

ما يقال عن الإسلام

محمد فى مكة

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

أصدر الغربيون بشتى اللغات كتبا ودراسات متعددة عن محمد ، النبي العربي الذي أرسله الله تعالى إلى قومه، وأمره بتبليغ رسالة الإسلام ، فقام بتبليغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ولقى فى سبيل ذلك كثيرا من العنت والاضطهاد ، فى مكة أولا إلى أن هاجر إلى المدينة ، فهاجمه العرب فى المدينة وانتصر عليهم فى الغزوات المختلفة إلى أن انتهى الأمر بفتح مكة ، وخضعت بلاد العرب للإسلام . ولكن محمدا لم يقف برسالته عند حدود بلاد العرب ؛ بل أوفد رسله بكتب منه إلى : كسرى وهرقل والمقوقس ، يدعو الناس كافة إلى الدين الجديد . وبذلك يمكن أن يقال : ن سيرة محمد مرت فى ثلاثة أطوار أساسية ، فى مكة ، ثم فى المدينة ، ثم الإسلام وتوحيد المجتمع، وطبقا لهذا التقسيم، أصدر الأستاذ « مونتجومرى وات » ثلاث كتب يدرس فى كل واحد منها مرحلة من حياة النبي . صدر الكتاب الأول سنة ١٩٥٣ ، ويقع فى ١٩٢ صفحة . وهو من مطبوعات جامعة اكسفورد ، ويعد هذا الكتاب الأول فى « ثلاثية » مونتجومرى وات .

وليس (مونتجومرى وات) أول من كتب عن محمد ، إذ سبقه فى ذلك كثيرون من المستشرقين ، ومنذ زمن طويل ، بعضهم يهاجم محمدا ، ويرميه بأشنع التهم ويطعن عليه بأقبح المطاعن التى لا تستند إلى أى حقيقة تاريخية ، وقد انبرى للرد عليهم جماعة من علماء الغرب أنفسهم يبغون الدراسة النزيهة عن الهوى . ولذلك لم يكد يشهد القرن العشرون مشرقة حتى صدرت كتب جديدة تبحث سيرة محمد بأسلوب جديد ، ونغمة مخالفة ، وإنصاف أكثر ، نذكر من هؤلاء اثنين يعرفهما قراء العربية : هما (اميل درمنجم) ، والسير (وليم مور) . ونود أن نشير إلى أن اليقظة العربية القوية فى القرن العشرين ، مع اقتران هذه اليقظة بنهضة علمية وتقدم واسع الخطوات ، إلى شدة الاتصال بين الشرق والغرب ، وتفتح

النوافذ على الدراسات الغربية ، كل أولئك أحدث رد فعل عنيف فى مصر ، دفع مفكريها إلى الكتابة عن محمد بأسلوب جديد يتلاءم مع العصر الحاضر ، ويتفق مع مناهج البحث العلمية . وكان ثمرة ذلك ما أصدره هيكل والعقاد وطه والحكيم وغيرهم عن محمد ، ولم يعزف كل واحد منهم على نفس القيثارة ، بل اتجه كل منهم وجهة خاصة فتعددت الأنغام تبعا لاختلاف المناهج التى اتبعها الباحث .

فهل بقى بعد كل تلك الدراسات ، الغربية والشرقية زيادة لمستزيد ؟ وهل يمكن أن يأتى كاتب بجديد ؟

تسائل الأستاذ « وات » عن ذلك ، وأجاب فى مقدمة الكتاب بما فحواه : أن الحاجة إلى كتابة حياة محمد - من جديد أمر شعر به طلبة البحث فى الإسلام (وليلاحظ القارىء أن مونتجومرى يكتب للغربيين) وبخاصة أصحاب العقول التاريخية . ليس ذلك بسبب الكشف عن مادة جديدة ، بل لأن اهتمام المؤرخين منذ أواخر القرن التاسع عشر قد اتجه وجهة البحث عن العوامل « المادية » التى تقع فى أساس التاريخ ، وهذا يعنى أن المؤرخ الحاضر ، الذى يعيش فى منتصف القرن العشرين يريد أن يطرح كثيراً من الأسئلة عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى كانت قائمة فى الوقت الذى ظهر فيه محمد ، مع عدم إغفال الحركة الدينية والفكرية التى بدأها ، ومع أن أولئك الذين ينكرون أن مثل تلك العوامل ، هى التى تحدد وحدها سير الحوادث ، فإنهم مع ذلك لابد أن يسلموا بأهميتها .

فالجديد فى هذا الكتاب إذن : هو العناية ببحث العوامل « الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية » ، وبيان صلتها بالحركة الدينية الجديدة التى نادى بها محمد . وهذا منهج لا اعتراض عليه ، بل لابد منه ، وقد أصبح مألوفاً فى الوقت الحاضر عند كتابنا ، الذين يصورون العصر من شتى جوانبه السياسية والاجتماعيه ، والاقتصادية والثقافية والدينية ، قبل الشروع فى الكتابة عن الشخصية التى ظهرت فى ذلك العصر .

ولما كان المؤلف يكتب بالإنجليزية لطائفتين من القراء ، الطائفة الأولى - وهى الأكثر - الغربيون ، وهم - فيما يفترض المؤلف - من المسيحيين ، والمؤلف كذلك مسيحى ، فقد كان من الطبيعى أن يقرب بعض المباحث الإسلامية إلى الذهن الغربى بضرب أمثلة من المسيحية ، والطائفة الثانية - وهى الأقل - المسلمون ، وقد راعى المؤلف شعورهم ، فى معظم المسائل الأساسية التى تمس الدين ، وعلى رأسها القرآن الذى يؤمن سائر المسلمين بأنه كلام الله ، المنزل من عنده تعالى على محمد . لهذا السبب أعلن المؤلف فى صدر كتابه أنه لا يود أن يصدر حكماً عن القرآن ،

فلا يذكر « قال الله . . . » ولا « قال محمد . . » بل « جاء في القرآن . . . » وسنناقش هذه المسألة بعد قليل .

ويزعم المؤلف أنه أصدر كتابه أولا، وقبل كل شيء للمؤرخ ، لا للمسيحي أو المسلم ، وبهذه الصفة، فإنه يتحرى الحق وحده ، ولا يتحيز . ولكنه بين حين وآخر ، يعلن أنه مسيحي ، وأنه مؤله ، وأنه موحد ، فهو بذلك لم يستطع أن يتخلص تماماً من تحيزه للعقيدة التي نشأ عليها ، وأن يتحرى الإنصاف كمؤرخ فقط .

وكتب المؤلف خمس صفحات عن المصادر. وفي مثل هذا البحث، لا شك أن قيمة المصادر وتقييمها ضروري . وأول مصدر يعتمد عليه هو (١) القرآن، « وهو الوحي الذي تلقاه محمد (كما يعتقد) من الله » ، وكما يعتقد الموضوعة بين قوسين من كلام المؤلف ، أي أي كما يعتقد محمد .

ثم بعد ذلك (٢) سيرة ابن هشام (٣) تاريخ الطبري (٤) مغازي الواقدي (٥) طبقات ابن سعد (٦) صحيح البخاري ومسلم ، ومسند ابن حنبل (٧) أسد الغابة لابن الأثير ، والإصابة لابن حجر .

هذه هي المصادر الأساسية التي رجع ويرجع إليها كل من يريد الكتابة عن محمد، مستشرقا غربياً ، أو كاتباً عربياً . ثم يشير المؤلف إلى مؤلفات غربية مثل: كتاب السير (وليم مور) وكايتاني في تاريخه عن الإسلام، وغيرهم ولست أدري والمؤلف يعرف اللغة العربية لماذا لم يرجع إلى المؤلفين العرب المحدثين ، على الأقل إلى هيكل في كتاب « حياة محمد » وهو الذي نقل آراء المستشرقين وانبرى للرد عليها بالحجة الدامغة .

أطال المؤلف في وصف حياة العرب في الجاهلية من النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والدينية ، واستغرق ذلك ثلاثين صفحة من جملة الكتاب البالغ عدد صفحاته مائة وتسعين . ونحن نرى أن هذه المقدمة مطولة على الرغم من أنها دراسة ممتعة، ينتهي منها المؤلف إلى أن تدهور الأخلاق وانحطاط الدين واصطدام الفرس والروم وازدهار مكة تجارياً ، كل ذلك كان تربة صالحة لظهور دين جديد .

ناقش المؤلف مسألة الوحي طويلا في الفصلين الثاني والثالث ، والثاني بعنوان طفولة محمد وشبابه (ودعوته إلى الإسلام) ؛ والثالث : بعنوان الرسالة الأولى . وبعد أن تكلم المؤلف عن نسب محمد ، ومولده وطفولته وزواجه من خديجة ، شرع يتحدث عن بعثته ، وبدأ بإيراد حديث الوحي عن ابن شهاب الزهري عن عروة عن عائشة ، برواية الطبري في تاريخه ؛ وكنت أحب لو أن المؤلف رجع في هذا الحديث إلى البخاري ومسلم وغيرهما ، وبخاصة لأنه يناقشه مناقشة

علمية . وقد قسمه اثنتى عشرة فقرة ، هى (النص الذى نثبته هنا عن البخارى) .

(ا) أول ما بدىء به رسول الله (ص) من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

(ب) ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة . فيتزود لمثلها . حتى جاءه الحق (THE TRUTH) وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال . . .

وتعقيبنا على رواية الحديث ، أن المؤلف اعتمد على رواية الطبرى ، ولم يناقش الروايات الأخرى ، مع أنه شرع ينقد الحديث ، وسياقه ، وإسناده .

ويبدو أن الترجمة خطأ ، فالمؤلف يترجم « الحق » فى هذا الموضع بقوله Truth ، أى ما يقابل الباطل ، المقصود بهذه اللفظة فى الإنجليزية « الله » . ولكن الحق ههنا تعنى القرآن ، أو الوحى . ورواية البخارى « جاءه الحق ، فجاءه الملك ، والملك جبريل .

يقول المؤلف ص٤٢ : « ليس ثمة أسباب جيدة للشك فى الفكرة الرئيسية الواردة فى الفقرة « ا » ، نعنى أن تجربة نبوة محمد بدأت بالرؤيا الصادقة . وهذا يختلف تماما عن الأحلام ... وما جاء فى الفقرة « ا » يتطابق مع ما نأخذه من سورة النجم : « والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القـــوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ... » .

ويعلق المؤلف على الآيات السابقة بأن التفسير الجارى عند المسلمين ، أن هذه الرؤى خاصة بجبريل « ولكن هناك أسبابا تجعلنا نظن أن محمداً فسر فى الأصل أن هذه الرؤى خاصة بالله نفسه . ذلك أنه لا يوجد أى ذكر لجبريل فى القرآن حتى نزول الوحى بالمدينة » .

نقول : إن الخوض فى تفسير القرآن مدعاة لمزالق كثيرة ، إذا صدر عن الأعاجم الذين يجهلون اللغة العربية ، ويتلقفون علمهم بالقرآن عن الترجمات الإنجليزية له . وفى اللغة العربية أسرار لا يعرفها إلا أصحابها . والقرآن يفسر بعضه بعضا . وطبقا لهذه القاعدة ، فسر المسلمون « إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى » أى الملك ، وهو جبريل . لأن الله يقول فى موضع آخر من القرآن (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا ، فيوحى بإذنه ما يشاء) فهذه قاعدة قرآنية فى

الوحى ، تتنافى مع قول المؤلف : إنه يعتقد أن محمدا كان يتلقى الوحى رؤيا (vision) من الله مباشرة ، لا عن الملك . وأين هى هذه الأسباب القوية التى يزعمها المؤلف ، مع أن المصادر هى القرآن ، والحديث . ونحن نرى أن الذى ضلل المؤلف اعتماده على الحديث الذى أورده الطبرى ، وإغفاله رواية البخارى ، مع العلم أنه رجع إلى البخارى فى فقرات أخر من الحديث . ولو أنه اعتمد روايه البخارى لاختلف حكمه ، لأن هذه الرواية تضيف « الملك » صراحة بعد قوله لجاءه الحق .

والعجب أنى لم يخطر ببالى أبدا ـ وأنا أقرأ الحديث فى أصله العربى ـ أن أفسر « الحق » فى هذا الموضع بأنه « الله » ، وفهمت منه على الفور أنه الوحى ، أو القرآن . ومن المعروف أن الحق اسم فى القرآن ، للقرآن . ولكن المؤلف يريد أن يوجه التفسير وجهة تتفق مع هواه ، وتختلف مع الجارى فى اللغة والمأخوذ من جملة القرآن . فيقول إن « الحق » فى طريقة التعبير عن الله . والحق يستعمل فى القرآن استعمالات مختلفة ، فهو اسم من أسماء الله ، « فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم » ، أو هو القرآن « بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ... » أو هو الحق فى مقابل الباطل ، وبناء على ذلك لا معنى للإصرار على أن الحق هو الله ، وأن الله هو الذى جاء إلى النبى ، أو أن النبى رآه ، ولا يحتمل حديث الوحى هذا التأويل ، ولا كذلك سورة النجم . ولا نود مناقشة التعليق على حديث الوحى فقرة فقرة ، وإلا طال بنا الكلام ، واحتاج إلى مجلدات . ولكننا مع ذلك نشير إشارات عابرة إلى بعض أمور استوقفت أنظارنا :

يذهب المؤلف إلى أن (اقرأ ، وقرآن) ، ينتميان إلى ذلك المعجم الدينى الذى أدخلته المسيحية إلى بلاد العرب ، وأن الفعل (قرأ) يدل : إما على القراءة ، أو تلاوة النصوص المقدسة ، على حين أن « قرآن » مأخوذ من السريانية (قريانا) التى تدل على القراءة أو الدرس الدينى (صفحة ٤٦ — ٤٧) . وهذا الكلام مأخوذ عن المستشرقين ، وليس جديداً ، وقد نقله عنهم كما ذكر ، والذى استوقفنى حقاً أن هذين اللفظين مما أدخلتهما المسيحية ، ولماذا لا تكون اليهودية ؟ لو أن المؤلف كان يهوديا ، لزعم أن اليهود هم الذين أشاعوا اللفظ ، ولست أدرى لم لا تكون العربية أسبق من تلك الأصول كلها ؟ وقد كانت فى بلاد العرب مدنية قديمة ، بحكم موقعها الجغرافى بين الشرق والغـــرب ، وقد كانت هناك حضارة فى اليمن مزدهرة منذ

قديم الزمان ، ولا شك أن الكتابة كانت معروفة ، وبالتالى القراءة .

غير أن المؤلف يقول فى ختام مناقشته لحديث بدء الوحى (صفحة ٥٢) إنه على الرغم من وجود شكوك كثيرة حول الظروف المحيطة ببداية الوحى ، إلا أن الموازنة بين الأحاديث وتصفيتها يؤدى إلى صورة عامة تبعث قدراً معقولا من الثقة بها ، حتى لو ظل كثير من التفصيلات وبخاصة عن التواريخ غير مؤكدة .

ثم يمضى المؤلف إلى مناقشة إخلاص محمد فى شعوره بالنبوة .

وقد دافع المؤلف عن محمد ، مقيما دفاعه على حجج جديدة ، أولها : أن مقالة كارليل عن محمد فى كتابه « الأبطال » جعلت الغرب يتجه نحو الثقة بإخلاص محمد .

وثانيها : أن تحمله الاضطهاد فى سبيل عقيدته مع الروح العالية عند أصحابه الذين آمنوا به ، إلى جانب عظمة الدين الجديد ، كل ذلك يؤكد صدقه .

وثالثها : أننا لو افترضنا عكس ذلك ، وقلنا إنه لم يكن نبيا بل مدعياً لوقعنا فى مشكلات يصعب حلها .

ورابعها : أن الغرب ظل قروناً طويلة يشيع عن محمد وعن الإسلام صورة مشوهة مسرفة فى البعد عن الحقيقة ، وقد آن الأوان أن نعتقد فى صدق محمد ، وأمانته ، إذا وجب أن نفهمه على الإطلاق ، وإذا كان علينا أن نصحح الأخطاء الموروثة من الماضى ، فلا بد أن نتمسك بأن محمداً كان أمينا صادقا ، حتى يثبت لنا العكس نهائيا ، وهذا أمر عسير جداً فى مثل هذا البحث .

ومن قبيل نقد المفتريات التى يلصقها المستشرقون بمحمد ، قولهم : بأنه كان عرضة لنوبات من الصرع ، وأن القرآن الذى كان ينطق به هو نتيجة هذه النوبات ، وقد نفى المؤلف (ص ٥٧) صحة هذه التهمة ، على أساس أن الأعراض التى تذكر فى كتب السيرة لا تنطبق على أعراض الصرع الذى يؤدى إلى الضعف والتهافت ، على حين أن محمداً فى أثناء الوحى كان مالكا لقواه كلها ، ونضيف إلى ما ذكره المؤلف أن هيكل فى « حياة محمد » فند هذه التهمة تفصيلا ، وبين بطلانها من الناحية العلمية .

الخلاصة : أن موقف المؤلف من القرآن هو قبوله ، على أنه وحى إلهى أنزل على محمد ، على سبيل الفرض العلمى الذى لا يمكن بدونه تفسير الحوادث التاريخية التى وقعت فى القرن السابع الميلادى ، فى تلك الرقعة من الأرض تفسيراً صحيحا .

وقد زلزل هذا الدين الجديد قواعد النظام الجاهلى تماما ، اجتماعيا وأخلاقيا وفكريا

ودينياً واقتصاديا . فن الناحية الاجتماعية اضطرب ذلك النظام بين تضامن قائم على علاقة الدم والقرابة ، وبين تضامن قائم على المصلحة التجارية بعد أن أصبحت مكة مركزاً هاما للتجارة بين الشمال والجنوب ، ولكن هذه العلاقة الجديدة التي ظهرت في مكة نفخت في نار الفردية ، وأضعفت الروح الجماعية ، مما أدى إلى زيادة غنى الأغنياء ، وزيادة فقر الفقراء ، وهى الحال التى أطال القرآن فى وصفها ، ولما كان الحل الجاهلى الجديد ، نعنى علاقة المصالح المالية لم يغن عن علاقة الدم القديمة ، فقد جاء الإسلام بحل آخر يقوم على الدين . وما يأمر به من صدقة وإنفاق على الفقراء (ص ٧٢-٧٣) ،

ومن الناحية الأخلاقية ، كان المثل الأعلى الأخلاقى للعربى فى الجاهلية هو « المروءة » ولم يعد هذا المثل الأعلى صالحا فى الحياة التجارية الجديده ، وكان الدفاع فى الجاهلية عن المروءة دفاعا عن شرف القبيلة ، وكان الشعراء هم الناطقين بلسان قبائلهم فى الدفاع عن هذا الشرف حين يفخرون بالمروءة ، التى تضم بين جناحيها الشجاعة فى القتال ، والصبر على النوائب ، والأخذ بالثأر ، وحماية الضعيف والوقوف فى وجه القوى ، وكانت المثل الأخلاقية التى اتخذها أهل مكة قدوة مثلا منهارة فاسدة فلما جاء الإسلام اهتم أول الأمر بتأكيد الإيمان بإله واحد ، وبيان ما أمر به ونهى عنه على الجملة ، مع الوعد بثواب المؤمن ، والوعيد بعقاب الكافر فى الآخرة ، إما بنعيم الجنة أو بنار جهنم ، وجاء الدين الجديد بمفهوم أخلاق جديد ، هو التزكية ، وأمر الفرد أن « يتزكى » ، ثم مع توالى نزول القرآن ، تطور هذا المصطلح إلى مفهوم آخر مثل الإسلام ، أى الاستسلام لله (ص ٧٦) .

إن مناقشة الأخلاقيات القديمة والجديدة وكذلك مفهوم « الإسلام » ، وهل تطور عن التزكية ؟ لا تكفى فيه هذه الصفحات القليلة ، ولكننا نقول مع الإيجاز الشديد : إن القرآن أتى بمفهوم أخلاق ليس هو الدين ولكنه تابع للدين ، وهذا المفهوم هو « التقوى » ، وهو مصطلح قرآنى مستمد ، بحسب المنهج الذى يريد المؤلف اتباعه . من أول نزول القرآن تاريخيا ، إلى تمام كمال النزول ، ففى سورة العلق ، أول ما أنزل من القرآن ، يقول الله : « أرأيت إن كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى » . وفى أول سورة البقرة وصف للقرآن ، وأنه (هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون) .

ولقد جاء القرآن بحل للشكلة الاقتصادية ، وعلاج الحال السيئة التى انتهى إليها المجتمع

فى مكة ، وانفصاله إلى طبقتين متباعدتين ، طبقة الأغنياء المسرفين فى الغنى ، والفقراء المعدمين .

على هذا النحو من المناقشة التى تعتمد على الأصول والنصوص ، والتى يضطر المؤلف إلى ترجمتها الانجليزية لتحليلها ، والموازنة بينها ، يمضى فى الفصل الرابع يستعرض أول أسلم ، مع ربط هؤلاء الذين أسلموا بقبائلهم من وعشائرهم ، مثل هاشم ، والمطلب ، وعبدشمس ومخزوم ، وتيم ، وزهرة ، وغيرهم . وهو تحليل مفيد ، ودراسة منهجية جيدة .

ويتعلق الفصل الخامس بنمو المعارضة لدعوة محمد ، حتى إذا اشتد العرب فى إيذائهم المسلمين أمرهم محمد بالهجرة إلى الحبشة . ولما شرع أهل مكة يعتدون على محمد نفسه ، ويؤذونه ، ثم قرروا التخلص منه ، أمره الله بالهجرة ، ذهب أولا زهاء سبعين من المسلمين ولم يبق فى مكة سوى : أبوبكر وعلى ، وأخيرا هاجر محمد بصحبة أبى بكر .

وبهذا ينتهى الكتاب الأول من ثلاثية مونتجمرى وات .

وبعد صدور هذا الكتاب بالانجليزية سنة ١٩٥٣ ، تناوله النقاد بالتعليق ، فكتب عنه الأستاذ (بوسيكه) فى مجلة هباريس سنة ١٩٥٤ كلمة بعنوان (تفسير ماركسى لأصل الإسلام) . وكتب الأستاذ (رودنسون) سنة ١٩٥٧ مقالا فى مجلة (ديوجين) بعنوان (محمد والمشكلة الاجتماعية لأصول الإسلام) وقد أشار المؤلف - مونتجمرى وات - فى مقدمة كتابه الثالث (الإسلام وتوحيد المجتمع والصادر سنة ١٩٦١ ، إلى هذا النقد قائلا : (لقد أكد كتاب (محمد فى مكة) بوجه خاص منزلة العوامل الاقتصادية عند أول ظهور الإسلام ، وعلاقة هذه العوامل بأفكار الإسلام الأساسية . وبسبب هذا التأكيد ذهب النقاد - من أصحاب اليمين واليسار على السواء - إلى أن فى الكتاب نزعة ماركسية ...) .

إذا كان هذا رأى النقاد الغربيين ، فنحن نرى خلاف رأيهم ، ذلك أنهم يصدرون عن هوى وعصبية ضد الكتلة الشرقية . أما نحن العرب المسلمين ، فوقفنا الفكرى هو أننا كتلة لا غربية ولا شرقية ، لنا كيانها الخاص النابع من تاريخنا ومن ديننا . ومن خلال هذا التراث الإسلامى ننظر إلى الأمور ، فنقول : إن مفكرينا قديما ، وحديثا ، ربطوا بين الإسلام والأحوال الاقتصادية وكيف حل الإسلام هذه المشكلة . والقرآن نفسه يصور أحوال العرب الاقتصادية فى الجاهلية أبلغ تصوير ، ثم دعا الناس إلى الإيمان بالإسلام ، وما شرعه من فروض ، إذا اتبعت تحل أزمة المجتمع والإنسان .

(البقية على صفحة ٧٦٢)

الكتب

نقد وتعريف : محمد عبد الله السمان

كتاب المعراج للقشيرى :

تحقيق الدكتور على حسن عبد القادر

عميد كلية الشريعة

هذا الكتاب الذى نشرته دار الكتب الحديثة بعابدين، يقع فى أكثر من مائة وثلاثين صفحة ، ألحق بها ملحقان : أحدهما فى تحقيق الأحاديث المعراجية ، والآخر فى معراج أبى يزيد البسطامى ، لأبى القاسم العارف ، وليس لأبى القاسم الجنيد حيث نسبته إليه خطأ كما يذكر الدكتور على حسن عبد القادر .

وقد كتب الدكتور مقدمة عن المعراج ، وآراء العلماء القدامى المختلفة ، وذكر أن تراث الإسلام الروحى قد تأثر بهذه القصة تأثيراً بليغاً ، ونعنى بهذا التصوف الإسلامى الذى ألهم كثيرا من أهل الشعر والفلسفة والأدب ، وأضاف للإسلام كنوزاً ثمينة ، وآداباً إنسانية خالدة ، وحكمة شرقية ، وفنا رائعا ، ثم قدم ترجمة موجزة عن القشيرى الذى ولد عام ٣٧٦ هـ ، وتوفى عام ٤٦٥ هـ ، وعن مؤلفاته الموجودة والمعدومة ، والتى بلغت ثلاثة وعشرين كتابا ، أشهرها الرسالة القشيرية المعروفة ، ثم ختم المقدمة بكلمة عن أصل مخطوطة المعراج ، التى تطبع لأول مرة وذكر : أن أصل هذه المخطوطة محفوظ بمكتبة (بانكيبور) بالهند ، ولها صور فوتوغرافية بمكتبة المكتب الهندى بلندن وقد نقل هذه المخطوطة وأرسلها إلى الدكتور على حسن عبد القادر الأستاذ الدكتور (آربرى) أستاذ الأدب العربى بجامعة كمبردج .

أما كتاب المعراج نفسه ، فقد تناول القشيرى فيه شرح معنى المعراج عند أهل اللغة ، واختلاف العلماء فى أحكام تفصيلية فى الإسراء والمعراج ، ومذاهبهم فى المعراج وتناول اختلافهم فى وقوع المعراج لغير نبينا ، وفى وقوعه للأولياء ، كما تناول ما اختص نبينا فى ليلة المعراج ، وما ورد فى معارج إبراهيم وإلياس وموسى وعيسى عليهم السلام ، واختتم الكتاب برؤية النبى لربه ليلة المعراج ، ثم السر فى المعراج من بيت المقدس لا من مكة .

من القطع الصغير ، تناول المؤلف فيه الطب عند الأمم القديمة ، عند المصريين القدماء .

لو أن القشيرى اقتصر فى كتابه على الأحاديث الصحيحة الواردة فى المعراج ، أو حتى على التفسيرات المقبولة للآيات القرآنية التى اتخذت دليلا على معراج الرسول لكان لكتابه تقديره - وكان علينا أن نتقبله برحابة صدر .

إلا أن القشيرى رحمه الله سلك طريقا فى رصد الأخبار التى لا مصدر لها إلا أفواه بعض المتصوفين وتخيلاتهم ، حتى ليخيل إلى القارئ أن القشيرى أضفى على المعراج لونا أسطوريا لعب الخيال فيه دورا رئيسيا .

فالقشيرى يقول كثيرا فى الكتاب : سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول ، ويقول بعض العلماء ، وقيل ، ثم يعتمد هذه الأقوال التى لا مصدر لها إلا قائلوها حجة مسلما بها .

مما ينسبه إلى الرسول : فرفعت لنا سدرة المنتهى ، فانتهينا إليها ، وإذا ساقها ذهب أحمر وقضبانها لؤلؤ أبيض ومرجان وعقيان وفضة وعلى كل قضيب سبعون ألف ورقة ، ما بين الورقة والورقة مسيرة أربعين عاما ، ورقها زمردا أخضر مثل ريش الطاووس فى الحسن الورقة منها تظل الدنيا ، على كل ورقة ملك كأن وجهه الورق ، مكتوب على جباههم : سكان سدرة المنتهى » .

ومما ينسب إلى إدريس عليه السلام أنه أول من عرج به إلى السماء من الأنبياء ، ولكنه احتال على الله وملائكته فى معراجه

ويذكر القشيرى : أن أبليس خرج من موضع قدم موسى ، فى وقت ما كان يسمع الخطاب من الله سبحانه ، فوسوس إلى موسى ، وقال له : ما يؤمنك أن الذى يخاطبك غير ربك ؟ ولكن جبريل ألقاه بعيدا ، وقال : تطمع أن تقرب منه فى هذا الوقت ؟ فقال إبليس : أنا لم أبال أن أخرجت أباه من الجنة ، أفأبالى أن أوسوس إليه فى هذا الوقت ؟ .

هكذا يغرقنا القشيرى فى جو من الأساطير ، ولا سند له فى رواياته ، اللهم إلا ابتكار الخيال نفسه . .

وبعد - فطبع مثل هذا الكتاب لا يقنع أرباع المثقفين بأنه إحياء للتراث الإسلامى المجيد الذى بعث بمادته الفنية وأصالته ، والروح العالية فى نفوس الأدباء والشعراء والحكماء كما يذكر أستاذنا الدكتور على حسن عبد القادر ، فتراثنا الإسلامى المجيد لم يكن صورا للهوس والخيال الخصب والقصص المختلفة . .

كتب جديدة

الإسلام والطب

تأليف : د . محمد عبد الحميد البوشى

الناشر : المكتبة الثقافية

يقع الكتاب فى اثنتين وستين ومائة صفحة من القطع الصغير ، تناول المؤلف فيه الطب عند الأمم القديمة ، وعند المصريين القدماء .

عند الكلدانيين ، والبابليين ، والآشوريين ؛ ثم الطب فى الإسلام فى مختلف عصوره ، كما عرض المؤلف نماذج من الأطبا العرب والمسلمين ، وما أسدوه للأنسانية والبشرية من أياد بيض خلدها التاريخ .

رجال حول الرسول :

تأليف : خالد محمد خالد

الناشر : دار الكتب الحديثة

صدر الجزء الثانى من كتاب : رجال حول الرسول ، ترجم فيه الأستاذ خالد لأحد عشر صحابيا جليلا ، هم .

حمزة بن عبد المطلب ، وعبد الله ابن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وعمار ابن ياسر ، وعبادة بن الصامت ، وخباب ابن الأرت ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعثمان ابن مظعون ، وزيد بن حارثة ، وجعفر ابن أبى طالب ، ثم عبد الله بن رواحة .

والواقع أن المؤلف قدم لنا دراسات مركزة عن هؤلاء الرجال الأفذاذ . امتازت بالتحليل العميق الكشف عن قيم عليا رفيعة كل منهم ، ويقع الكتاب فى ست عشرة ومائتى صفحة من القطع المتوسط .

حياة آدم :

تأليف : محمود شلبى

الناشر : مكتبة القاهرة

يقع هذا الكتاب فى مائة وست وعشرين صفحة من القطع الكبير ، بحث فيه المؤلف : ما قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، ومتى خلق الله آدم ، وقصة الصراع بينه وبين إبليس ، والمجادلة بين روحى آدم وموسى ، وهل كان إبليس من الجن أو من الملائكة ، وهل الجنة التى خرج منها آدم ، هى جنة الخلد أو جنة الأرض

وقد اعتمد المؤلف فى دراسته لحياة آدم عليه السلام على كتب التفسير المختلفة ، وناقش كثيراً من آراء المفسرين .

مجتمعنا العربى كما ينبغى أن يكون :

تأليف : أحمد محمد جمال

الناشر : رابطة العالم الإسلامى

هذا الكتاب على إيجازه ، قدم لنا موضوعا على جانب من الأهمية ، فالتيارات الدخيلة التى تسللت إلى العالم العربى ، أضعفت كثيراً من القيم التى كانت تسود المجتمع العربى ، ووجدت أجهزة الأعلام كلها مسخرة لها فى نشرها .

وبعد أن كشف المؤلف الستار عن تلك التيارات الدخيلة ، رأى أن يقوم مجتمعنا العربى على أسس أربعة : هى نفس الأسس التى قام عليها المجتمع الإسلامى : أولا : أن الحاكم المسلم خليفة الله فى تطبيق شريعته بين خلقه ، وثانياً : وحدة المحكومين وحريتهم ، وثالثا : الشورى ، ورابعا : حرية الاقتصاد .

فتاوى مختارة

تقديم : ابراهيم محمد الأصيل

(الاجابة للجنة الفتوى)

شرب الدخان :

السؤال :

ما حكم الشرع الحنيف فى شرب الدخان ؟.

حسن الرملى

الجواب :

شرب الدخان إن ترتب عليه ضرر فى البدن كان ممنوعا ، وكذا إن ترتب عليه ضرر بالمال ، إلا إذا احتيج إليه لدواء ، فلا يكون ممنوعا حينئذ ، فإن لم يترتب عليه ضرر بالبدن أو المال ، ولم يحتج إليه لدواء ، كان مباحا استصحابا للأصل لأن الأصل فى الأشياء الإباحة .

قص شعر السيدات :

السؤال :

صاحب صالون للسيدات يقص شعرهن ويصبغه ويكويه ، ويقوم بتزيين العرايس وتزجيج الحواجب .

فما حكم الشرع بالنسبة لذلك ؟

عبد الرءوف عبد الرزاق

الجواب :

ما تسأل عنه من شأنه إثارة الغرائز والإيقاع فى الفتنة ، ولا حاجة تدعو إلى أن يقوم به رجل ، فغيره من النساء يصلح له فلا يحل له أن يتخذه مهنة ، تسترزق منها وواجبه أن يتخذ طريقا آخر للرزق غير هذا والمحافظة على دينه تحتم عليه أن يتخلى عن هذا العمل .

السؤال :

١ — هل يصح ذبح البقرة إذا مات والد الزوجة أو والدتها ، وإطعام الطعام عند أهلها كما هى العادة فى بلادنا ؟

٢ — هل يجوز أن تغنى المرأة العروس مع ضرب الدف ، والرقص والتصفيق ؟

٣ — هل يجوز ضرب الدف مع التصفيق أو بغير التصفيق ؟

٤ — هل يجوز عمل المولد للنبى صلى الله عليه وسلم على أرض اليتامى إذا كان ينتفع منها اليتيم أو لا ينتفع منه ؟

٥ — هل يجوز تقديس بعض الأماكن اعتقادا بأن وليــا عاش عليها ، أو عبد فيها الله ؟

محمد إسماعيل أبو دانيوس ـ أرتهريا

الجواب :

عن الأول : بأن ذبح البقرة أو غيرها حين الوفاة بقية التصدق على الفقراء وإهداء ثوابها للميت لا شيء فيه ، إذا لم يصحب ذلك حب الرياء والسمعة وكون ذلك فى بيت الميت لا مانع منه .

وعن الثانى والثالث : غناء النساء فى الأفراح للعروس ، وضرب الدف لذلك لا مانع منه إذا لم يقترن بمحرم من اختلاط الرجال بالنساء ، أو غـــير ذلك أما الرقص والتصفيق ، فغـير جائز ، إذ هو من اللهو غير المباح .

وعن الرابع : بأن عمل المولد النبوى لا مانع منه ، إذا لم يصحبه محرم ؛ وحمله على أرض اليتامى جائز إذا لم يترتب على ذلك ضرر بهم .

وعن الخامس : بأن الأماكن التى ورد الشرع بتعظيمها كمشاعر الحج والمساجـــد وخاصة المساجد الثلاثة لا مانع من تعظيمها ومراعاة حرمتها ، وما عدا ذلك مما لم يرد فيه نص فلا خصوصية له على غيره .

السؤال :

فى عام ١٩٠٠ اشترى (أ) من (ب) قطعة أرض مساحتها فدان بمبلغ ٤٠٠ جنيه ، وظل المشترى يماطـل فى أداء الثمن ، حتى تغيرت الظروف الاقتصادية ، فارتفعت قيمة الأرض فأصبح ثمنها ٨٠٠ جنيه فى عام ١٩٦٠ ، وهو عام السداد .

هـل يسدد المشترى مبلغ ٤٠٠ جنيه فقط أم يسدد مبلـغ ٨٠٠ جنيه وهو السعر وقت السداد ؟ .

فتحى محمد الكشكى

الجواب :

المستحق هو الثمن الذى وقع عليه العقد ، وتغير الظروف وارتفاع قيمة الأرض المبيعة لا يؤثر فى صحة العقد ، ولا يغير من قدر الثمن فإنها ارتفعت قيمتها ، وهى فى ملك المشترى كما أنه لو انخفضت قيمتها بعد العقد فإن المستحق هو المسمى وقت البيع بدون نظـــر إلى ما حصل من انخفاض بعد ذلك .

السؤال :

رجـل مريض بالربو ، أمره الطبيب بأن يكون دائمـا فى حالة دفء يخاف من استعمال المـاء البارد فى الوضوء أن يزيد من مرضه أو يؤخر من شفائه ، فهل له أن يتيمم للصلاة

عبد الدائم محمود عبد الله ـ الإسكندرية

الجواب :

إذا تيسر له تسخين الماء من غير مشقة وجب عليه تسخينه ، والوضوء منه ، وما لم يتيسر له ذلك ، أو كان فيه مشقة عليه ، جاز له التيمم بنية استباحة الفرض ، ولا يصلى بهذا التيمم إلا فرضا واحدا ، فكل صلاة تحتاج إلى تيمم مستقل ، نعم يجوز له حينئذ أن يصلى مع الفرض نفلا بالتيمم الذى صلى به فرضا .

السؤال :

عندى طفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات ملصق بإصبعه الخنصر اليمنى زائدة تشبه حبة حمص متدلية من آخر الإصبع ، وهذه الزائدة تكبر و تنمو معه .

وأخشى من استفحالها مستقبلا وقد عرضتها على أحد الأطباء فقرر قطعها إلا أننى شككت فى أن يكون فى ذلك حرمة على لأنه مولود بها .

فما الحكم فى قطعها ؟

عبد النبي أحمد غازى

الجواب :

الزائدة التى ولد بها ولدك بجانب خنصر يده اليمنى يجوز لك قطعها ، إذا لم يكن فى قطعها خطر أو كان الخطر فى تركها أكثر من الخطر فى قطعها ، ويمتنع عليك القطع إذا اختص الخطر بالقطع ، أو كان الخطر فى القطع أكثر من الخطر فى بقائها ، أو تساوى الخطر فى القطع والترك ويعرف ذلك بقول الطبيب العدل العارف .

النذر المعين وهل يغير مصرفه ؟ :

السؤال :

نذر لله احتيج لقيمته فى عمارة المسجد الوحيد الموجود بالقرية .

فهل يجوز صرف هذا النذر فى عمارة المسجد . ؟

وهذا النذر - عبارة عن ذبيحة تذبح كل عام يدعى لها الفقراء ليطعموا منها ، ويقيموا ذكرا كما هو معروف .

محمد أحمد سعد

الجواب :

مصرف النذر هو ما عينه الناذر بنذره ، وما دام الناذر قد جعل مصرف النذر هو إطعام الفقراء فلا يعدل بذلك إلى صرفه فى عمارة المسجد .

السؤال :

١ — ما حكم الشرع فى كتابة القرآن الكريم بالحروف اللاتينية المعروفة ؟

٢ — هل يجوز إمامة رجل يعلم ابنه فى المدارس اللاتينية التى يدرس فيها القرآن

أيضا باللاتينية ، ويرضى لابنه لبس البرنيطة ما حكم الشرع فى هذه المسائل ؟

٣ — هل يجوز الاستماع لتلاوة القرآن الكريم من جهاز (الراديو) — وما حكم هذا فى الشرع بالتفصيل ؟ وما الفرق بين ما إذا كان تسجيلا أم لا ؟

بعض علماء اليونان

الجواب :

نجيب عن الأول بأن اللغة اللاتينية خالية من عدة حروف توافق الحروف العربية فلا تؤدى جميع ما تؤديه اللغة العربية بحروفها فلو كتب القرآن الكريم بالحروف اللاتينية على طريقة النظم العربى كما يفهم من الاستفتاء لوقع الإخلال، والتحريف فى لفظه ، وتبعهما تغيير المعنى وفساده ، وقد قضت نصوص الشريعة بأن يصان القرآن من كل ما يعرضه للتبديل أو التحريف .

وأجمع علماء الإسلام سلفا وخلفا على أن كل تصرف فى القرآن الكريم، يؤدى إلى تحريف فى لفظه ، أو تغيير فى معناه . ممنوع منعا باتا ومحرم تحريما قاطعا . وقد التزم الصحابة رضى الله عنهم ومن بعدهم إلى يومنا هذا كتابة القرآن الكريم بالحروف العربية .

ومن هذا تبين أن كتابة القرآن بالحروف اللاتينية المعروفة لا يجوز، ومن اشتغل بهذا فهو فاسق، وإمامته مكروهة، فان استحل ذلك كان كافرا لا تصح إمامته —

وعن الثانى: بأن تعليم الولد فى تلك المدارس من حيث هو تعليم. لا شىء فيه إذا كان خاليا عما يمس العقيدة والدين، غير أن مزج المناهج فى تلك المدارس بحصص تعليم القرآن باللاتينية الذى هو غير جائز، والذى لا يمكن للتلميذ أن يتخلف عنه لأنه يجب عليه أن ينتظم فى سلك الدراسة مع أقرانه يجعل تعليم الولد فيها منهيا عنه إذ أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

أما لبس البرنيطة فقد أصبح غير خاص بالكفار فلا شىء فيه .

وعن الثالث نفيد بأن استماع القرآن الكريم من جهاز (الراديو) لا شىء فيه، بل هو عبادة متى كان محافظا على آداب الاستماع ، (وإذ قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون). وهذه الكيفية من القراءة (فى الراديو) لا شىء فيها ، بل هى من باب (وتعاونوا على البر والتقوى) ، لما فيها من نشر القرآن الكريم وإذاعته بين الناس لعلهم يهتدون، ولا فرق بين أن يكون ذلك تسجيلا أو من المقرىء نفسه فى الإذاعة ...

الزواج من مطلقة أبى الزوجة .

السؤال :

تزوج رجل بامرأة، وتزوج والد زوجته بامرأة أخرى ، وحصلت مفارقة بين والد

الزوجة وزوجته ، فهل يصح الزواج بين زوج البنت وزوجة أبيها ؟

أبو سليمان محمد صالح

الجواب :

لا مانع شرعا من ذلك ، ما دام لم يوجد مانع خارج عن ذلك كرضاع مثلا أو غيره .

بيع المصحف لشخص غير مسلم :

السؤال :

ما حكم الشرع فى بيع المصاحف إلى شخص غير مسلم بقصد التجارة ؟

عمر عبد الله محمد ـ السودان

الجواب :

استيلاء الكافر على المصحف إهانة له لافرق بين التجارة وغيرها فيمنع من ذلك .

الإرث مع اختلاف الدين :

السؤال :

أختان مسلمتان والدهما مسيحى توفى أخيراً هل لهما الحق فى الإرث منه ؟

هدى محمد المهدى

الجواب :

بمقتضى قانون المواريث رقم ٧٧ لسنة ١٩٤٣ تمنع المادة ٦ منه والتى تنص على عدم التوارث بين المسلم وغير المسلم ، البنتين من أن ترثا والدهما المسيحى .

(بقية المنشور على صفة ٧٥٤)

وليس صحيحا أن الإسلام يمكن أن يفسر باتجاهات ماركسية ، لأن المذهب الماركسى وبهذه المناسبة فإن كارل ماركس يهودى ـ يلغى الدين أساساً ، ويقلب الأمور رأساً على عقب ، فيجعل القيم الروحية كلها نابعة من الماديات . أما الإسلام فإنه يعكس هذا الوضع ، إذ يبدأ أولا من الدين ، يثبت قواعده فى قلوب المؤمنين ، ويؤكد الوحدانية ثم يفرع على ذلك كل الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والسياسية والثقافية .

أما الصحيح ، فإن الإسلام فى صميمه يدعو إلى نزعة اشتراكية ، تمنع استغلال الإنسان لأخيه ، وتسوى بين الناس ، وتلغى الفوارق بين الطبقات ، وبين الجنسيات ، وبين الألوان .

أحمد فؤاد الأهوانى

مناقشات

أنباء وآراء

حمل البريد إلى هذه الرسالة من الأب الفريد هافنيث عضو جمعية الدراسات الدينيـــة فى بيروت :

قرأت فى عدد أكتوبر من مجلة الأزهر تحت عنوان : « ما يقال عن الإسلام » البحث العميق حول كتاب مستشرق من اليابان فكان عرضكم واضحاً وافياً الغاية فى موضوع جديد مثل السمنقية فأعجبت من سعة نظركم وصحة تعليقاتكم ، إلا أنى بصفتى رجل بحث ورجل دين لا أوافق المبدأ الذى به ختمتم المقال فى ثبات النص القرآنى ويقينه على سائر الوثائق التاريخية ، أفلا يجدر بالباحث أن يميز بين الإيمان والتاريخ فالإيمان شئ والعلم شئ وكثيراً ما لا يتفقان ، فعند ذلك يجب إعادة النظر فى الإيمان والتاريخ معاً عسى أن نجد سبب الخلاف ، والعالم المخلص وإن كان مستعداً لقبول كل ما أتى من عند الإله فعليه ألا يخشى أن يرد البحث على صحة الدين الذى ولد فيه وورثه من الآباء وقبلته البيئة التى تحيط به فأرباب الأديان كلها وإن كانت بكل وضوح غير متساوية تراهم متمسكين بها كأنها صحيحة ، ومما لا ينكر أن كل حزب بما لديهم فرحون . . ألا إن حزب الله هم المفلحون ، ومجرد الخلاف المخجل العام الذى يقوم بين الأديان فى عالمنا كاف لأن يبعث فى قلب اللبيب حب البحث والتحقيق لكيلا يفترى على الله كذباً ، والغريب أن البشر جميعاً يرتأون ويقبلون مايسلم به رجال العلوم التاريخية والرياضية وغيرها أياً كانت إلا أنه يبدو أنه من المرفوض أن ينظر إلى دينه وإلى ملاحظات وتبصرات أصحاب غير ملته فيتحقق ويتيقن ، والحقيقة ضالة المؤمن . . فاسمحوا لى أيها السيد الجليل واعتباراتى إنما صادرة من قلب سليم وعقل سليم ، هديت وإياكم إلى ما هو أقوم .

وملاحظة ثانية إذا سمحتم وهى تهمنى كثيراً وهى أنكم حررتم فى آخر الصفحة ٣٦٤ ما يلى : الواقع كان أهل الكتاب فى الجاهلية قد انحرفوا وضلوا . فهل من جميل فضلكم أن تثبتوا هذا تاريخيا عدا ما يحكى عنهم

القرآن ؟ فهل تغير جوهر العقيدة التي تسلمها الأولون من السيد المسيح ؟ » .

الفريد هافنيث

• • •

يبدو أن الأب الفريد لم يقرأ العبارة التي وردت في آخر المقال عن أن القرآن وثيقة دينية إلى جانب أنه وثيقة تاريخية ، في ضوء ما سبق من كلام ، تخيل إليه أننا نخلط بين النص الديني والنص التاريخي ، ولذلك وجب أن نبرز المعنى المقصود تفصيلا بعد أن أجملناه بقولنا « والقرآن مرآة صادقة للعصر الذي نزل فيه على محمد عليه السلام » .

فالقرآن من جهة أنه « مرآة » لهذه الفترة التي نزل فيها منجما في بضعة وعشرين عاماً ، يؤرخ كذلك لهذه الفترة ، لا بالذات بل بالعرض ، لأن غرض القرآن بالذات بيان أصول الدين من إثبات وجود الله ووحدانيته وصفاته ، ثم إثبات نبوة الأنبياء والرسل وآخرهم محمد خاتم النبيين ، ثم البعث في الآخرة .

وبيان أصول التشريع والعبادات والمعاملات والأخلاق . أما بالعرض فإن الآيات المختلفة نزلت في مناسبات ووقائع ، فكانت تصويرا لجدل بين النبي والكفار من أهل قريش أو اليهود الذين كانوا يحاجون النبي ، أو كانت تشريعا نزل بعد غزوة أو غير ذلك . ونحن نعرف أن العرب كانوا أمة أمية لم يعنوا بالتدوين في كتب ، ولولا ان هذه الأمور أثبتت في القرآن ما علم بها أحد . وإنما حفظ العرب من جاهليتهم قصائد من الشعر ، وبعض الأمثال ، جرت في صفحة الذهن من جيل إلى آخر حتى دونت بعد قرن من الزمان من ظهور الإسلام . وقد شك كثير من العلماء في الشعر الجاهلي وذهبوا إلى أنه وضع وضعاً بعد الإسلام . ولكن هؤلاء العلماء ـ وهم من المستشرقين ، لم يشكوا أبداً في القرآن ، لأن تدوينه وحفظه تم في زمان مبكر في عهد عثمان بن عفان ، وروعيت في كتابة المصحف ضمانات شديدة تبعد عنه أي شك . وإذا كان القرآن نصاً صادقاً ووثيقة صحيحة ، فقد اعتمد عليه بعض المستشرقين في تصوير حياة النبي ، كما فعل الأستاذ بلاشير في كتابه عن « محمد » إذ اتخذ من القرآن نفسه أول مصدر ، يتلوه في القيمة الأحاديث . فالقرآن يصف النبي بأنه « المدثر » أو « المزمل » ويأمره بأن يقوم لينذر . وفيه وصف كذلك لإيذاء العرب له ، وبخاصة أبي لهب ، كما جاء في القرآن « تبت يدا أبي لهب وتب » . وهكذا تستطيع أن تمضي من القرآن وحده فتستخرج منه صورة « صادقة » لحياة النبي ، ما دمت قد اتخذت من القرآن « وثيقة تاريخية » .

فلا حاجة فالآب الفاضل لأن يدعو « الباحث أن يميز بين الإيمان والتاريخ » كما يقول ، بعد ما وضحناه . ثم إن الذى دعا إلى التمييز بين القرآن باعتباره وثيقة دينية وبينه باعتباره وثيقة تاريخية ، البحث فى الحنيفية والحنفاء ، والموازنة بين ما ورد من أخبار جاهلية عن هذا المصطلح وبين ما جاء فى القرآن ، مما دعانا إلى ترجيح النص القرآنى على الأخبار الجاهلية ، للسبب الذى وضحناه من قبل وهو صحة النص القرآنى تاريخيا .

أما الملاحظة الثانية التى أوردها الآب الفاضل عن انحراف أهل الكتاب فى الجاهلية وضلالهم بصرف النظر عن حكاية القرآن عنهم ، وإثبات ذلك « تاريخيا » فالجواب أنه ليس لدينا دليل تاريخى سوى ما جاء فى القرآن ، وليست مهمتنا التنقيب عن هذه الأدلة التاريخية ، أما قوله « هل تغير جوهر العقيدة التى تسلمها الأولون من السيد المسيح فالجواب أيضاً من القرآن الذى كان يحاج أهل الكتاب : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » المائدة / ٧٣ . وفى المائدة أيضاً آية ١١٦ : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته » .

وليس لنا شأن بعقيدة المؤمنين بألوهية المسيح ، وألوهية السيدة مريم فإنهم أحرار فى فهم دينهم ، وعليهم هم أن يلتمسوا إلى جانب النصوص الدينية - إن وجدت - ما يثبت ذلك تاريخيا ، إن وجدت الأسانيد التاريخية فى القرن الأول ، ونود أن نحيل الآب على المجامع الدينية ، مثل مجمع نيقية الذى انعقد للتوفيق بين المذاهب المختلفة ، ولم ينته إلى نتيجة ، ونحيله أيضاً إلى تاريخ آريوس ، وإلى تاريخ النساطرة الذين كانوا يعتقدون بأن المسيح عليه السلام ذو طبيعتين وأنه كان على الأرض إنسانا ، ونحيله ثالثاً إلى الخلافات العديدة بين الملكانية وبين اليعاقبة ، وكيف كان الملكانيون فى مصر يعذبون اليعاقبة ؟

دكتور أحمد فؤاد الأهوانى

• • •

فى محيط الأزهر

• حددت مشيخة الأزهر يوم ٢٩ من شهر أبريل القادم موعداً لانعقاد المؤتمر الثانى لعلماء الدول الإسلامية ، هذا وقد صرح الدكتور محمود حب الله الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بأنه روعى فى تحديد هذا الموعد أن يكون علماء المسلمين قد انتهوا من تأدية فريضة الحج ، وتفرغوا لنشاط المؤتمر .

في محيط العالم الإسلامي

• إيران المسلمة :

من المسلم به أنه لا يكاد يوجد عربي واحد أو مسلم واحد يستسيغ سياسة الحكومة الإيرانية ، ومجاهرتها بالعداء للقضايا العربية التي تتصل بأعماق الإسلام نفسه ، وأقصد قضية فلسطين .

والمعروف أن إيران المسلمة التي تضم عشرين مليونا والمسلمون بها أكثر من ٩٩ ٪ كلهم من الشيعة ، ماعدا زهاء مليون سني ، تقف هذا الموقف الذي تتحدى به شعور أربعمائة مليون مسلم، دون أن تبالي بالعواقب الوخيمة .

ولعل أقرب الأمثلة اغتيال رئيس وزرائها الذي لقي حتفه برصاصات شاب مسلم متدين ، قال الشاب المسلم محمد بخاري في التحقيق : إنه أراد قتل حسن علي منصور رئيس الوزراء ، لأن سياسة حكومته مخالفة لمبادئ الإسلام .

وفي عام ١٩٥١ قتلت جماعة فدائيان إسلام رئيس حكومة إيران الأسبق علي رازمارا ، وحاولت قتل حسين علاء رئيس الحكومة بعد أربعة أعوام ..

نريد أن نقول : إن الإسلام بخير في إيران ، وسوف يستطيع في القريب أن يضع حداً لطغيان شاه إيران، وحكوماته التي يصنع منها الاستعمار أداة لتحدي العرب والمسلمين .

• • •

نيجيريا :

إن الأزمة التي بدت طلائعها في نيجريا يجب أن نهتم بها ، وأن ندرك عن يقين أن الاستعمار البريطاني يلعب دورا خطيرا بتدبير مؤامراته على نيجريا .

والذي لم تستوفه الأنباء حقه ، هو أن بداية الأزمة نشأت بعد أن هاجمت صحف نيجريا الشرقية ، التي تسيطر عليها الوثنية وغيرها ، الإسلام هجوما عنيفا، تصدت للرد عليه نيجريا الشمالية . ومن الجدير بالذكر أن نيجريا يبلغ عدد سكانها زهاء ٢٢ مليونا يمثل المسلمون بينهم أكثر من ٥٠ ٪ .

وفي نيجريا الشمالية زهاء ١٧ مليونا يبلغ المسلمون منهم زهاء ١٢ مليونا ، وكانت تضم عدة إمارات إسلامية ، حتى وفد عليها الاستعمار البريطاني في القرن التاسع عشر عن طريق الشركات التجارية ، ووقعت في قبضته عام

• من المتوقع نجاح مباحثات البترول بين فرنسا والجزائر ، ومن المعروف أن هناك أملا فى إنتاج واحد وعشرين مليونا ونصف مليــون طن من البترول سنويا ، وتنص الاتفاقية على أن تحصل الجزائر على نسبة أكثر من عوائد البترول ، وأن تزيد رقابتها على شركة البترول الفرنسية (ريبال) التى تمتلك الآن ٤٠ ٪ من أسهمها ، كذلك يقضى الاتفاق باشتراك فرنسا والجزائر فى تنفيذ عمليات اكتشاف واستغلال آبار البترول الجديدة فى الصحراء .

• ألغيت الأحكام العرفية فى العراق ، على أن تحل محل هذه الأحكام ، حالة الطوارىء فى الحالات الموجهــة ، وأن تحال القضايا المعروضة عليها إلى محاكم أمن الدولة التى جرى تشكيلها .

• أذاعت وزارة الخارجية فى تركيا ، أن عدد القتلى من الأتراك خلال الأزمة القبرصية هذا العام بلغ ٢١٠ قتيل ، وعدد الجرحى ٥٢٣ بالإضافة إلى ٢٠٨ من المفقودين و٦٨٢ تم احتجازهم كرهائن أطلق سراحهم ما عــدا ٢١ شخصا ما زالوا فى الاعتقالات لأسباب سياسية ، ومن الجدير بالذكر أن رئيس وفد تركيا فى هيئة الأمم قد صرح أخيرا : بمد أجل القوات الدولية ثلاثة أشهر فى قبرص بعد مارس القادم .

• الولايات المتحدة تعيد النظر فى معونتها لأندونيسيا بسبب انسحابها من هيئة الأمم ومن المعروف أن أمريكا خصصت عشرة ملايين دولار معونة لأندونيسيا .

• اجتاحت الاضطرابات الباكستان عقب الانتخابات التى فاز فيها أيوب خان ، ومن المعروف : أن فاطمة جناح المنافسة للرئيس المنتخب هى التى تتزعم المعارضة . هذا وقد تألفت لجنة من كبار رجال الحكومة لإجراء تحقيق بشأن حوادث العنف التى وقعت فى كراتشى ، وأدت إلى قتل بضعة عشر شخصا ، وجرح ٣٠٠ ، وتشريد ٢٠٠٠ شخص وعارضت المعارضة تكوين اللجنة ، ورأت تأليفها من رجال القضاء ، وليس من رجال الحكومة .

• طلبت الصومال من الجمهورية العربية المتحدة العدد اللازم لها من خــبراء التعليم الصناعى لمعهد (هارجيسا) وذلك بعد انسحاب الخبراء الانجليز مما هدد المعهد بالتعطل .

• صرح الرئيس ابن بيلا فى مقال نشر فى صحيفة (رينولوسيون إيه ترافاى) الأسبوعية التى يصدرها اتحاد العمال الجزائريين أن الإســلام يجب أن يكون قاعدة النظام الاشتراكى فى الجزائر ، إن مستقبلنا يعتمد على الاشتراكية ، والعودة إلى المصادر الإسلامية التى تكشف لنا عن ثورة التقاليد ، والثقافة القائمة على العدالة والحرية والإنسانية .

١٨٥١ . واعترفت دول أوربا بهذا الحق في مؤتمر برلين عام ١٨٥٥ .

تركيا :

إن الأنباء التي ذاعت أخيرا من أن تركيا تنوى تعديل سياستها للتقارب نحو الدول العربية والإسلامية ، مما يسر له كل عربي ومسلم .

وقد صرح سعدى كوكار العضو بمجلس الشيوخ التركى ، ورقيب بعثة الصداقة التركية التى زارت الأردن أخيرا بأن تركيا قررت انتهاج سياسة جديده تجاه الدول العربية تقسم بالتقارب والتفاهم ، وإقامة علاقات الصداقة ، وقد حث الدول العربية والإسلامية على تناسى الخلافات والتعاون من أجل قوة عالمية إسلامية ، كما ذكر أن تركيا ستعمل قريبا وتدريجيا على تخفيف علاقاتها بإسرائيل .

وهذا وقد زارت البعثة التركية دمشق وبيروت ، ثم القاهرة ، إننا نتمنى أن تصدق تركيا في اتجاهاتها الجديدة ، حتى تتخلص نهائيا من وصمة علاقاتها بإسرائيل ، فإن هذه النقطة بالذات هى التى تحدد نية تركيا نحو العرب والمسلمين .

تركيا الإسلامية التى يمثل سكانها الـ ٢٢ مليونا أكثر من ٩٨ ٪ من المسلمين ، والتى ارتبطت بالإسلام ارتباطا تاريخيا وسياسيا زهاء عدة قرون .

الكويت :

نشر أخيرا أن حكومة الكويت تفكر في إلغاء قرار حظر بيع الخمور وتعاطيها وذلك بعد أن توفى عدد من المدمنين بسبب إصابتهم بالتسمم لتعاطيهم الخمور ، وقالت صحف الكويت : إن الحكومة شكلت لجنة خاصة لدراسة مساوئ منع بيع الخمور ، وإمكان إلغاء قرار الحظر الذى صدر في منتصف عام ١٩٦٤ ، ومعظم حالات التسمم تنجم عن شرب ماء الكولونيا بدلا من المشروبات الروحية .

ونحن نرجو أن لا تخطو حكومة الكويت المسلمة: حكومة وشعبا، هذه الخطوة، فإباحة الخمر أقل ما يقال فيها: إنها تحد للشريعة الإسلامية ولا أظن أن وفاة بضعة أشخاص يمكن أن يكون وسيلة لإباحة الخمر التى حرمها الإسلام وما يترتب عليها من أضرار مالية وصحية تصيب المئات والآلاف فيما بعد .

* * *

أخبار قصيرة :

هددت أندونيسيا ماليزيا بالاعتراف بحكومة ثوار ماليزيا التى يتزعمها الأزهرى إذا ازدادت حدة النزاع بينها وبين ماليزيا .

والمعروف أن كثيرا من وساطات الدول لم تستطع بعد أن توفق بين ماليزيا وأندونيسيا .

et la plus détaillée qu'aucun enseignement pratique n'ait jamais fournie: mais, sous cet édifice colossale, nous le voyons jeter les assises les plus solides de la connaissance théorique. Posez-lui par exemple la question suivante : Sur quel fondement repose la loi du devoir Koranique, dans quelle source puise-t-elle son autorité ? Il vous répondra que la distinction du bien et du mal, avant d'être une législation céleste, est une révélation intérieure, inscrite dans l'âme humaine; qu'en dernière analyse la vertu tient son ascendant de sa propre nature et de sa valeur intrinsèque; et qu'ainsi Raison et Révélation ne sont qu'une double lumière révélatrice d'un même objet, une double traduction d'une seule et même réalité orgininelle, enracinée dans le found des choses.

Interrogez-le ensuite sur les caractères de cette loi et l'étendue de son pouvoir. Il vous dira que c'est une loi universelle et éternelle, qui assure à l'humanité ses légitims aspirations, mais qui s'oppose catégoriquement à ses appétits capricieux et arbitraires.

Interrogez-le en outre sur la responsabilité humaine, ses conditions et ses limites ; sur le moyen efficace d'acquérir la vertu ; sur le principe supérieur qui doit déterminer la volonté à agir, ou sur n'importe quel principe général qu'un moraliste conscient de son œuvre ne peut se passer de s'en faire une idée. Vous y trouverez à chaque question une formule précise et tranchante qui s'impose comme l'unique réponse, propre à rallier les consciences les plus éveillées et les plus équilibrées.

Et ce qui achève de capter notre admiration, c'est de voir avec quel contraste frappant les réponses à ces questions se présentent dans le Kor'an et ailleurs. Eh bien ! Tandis que, sous la lumière instantanée du Kor'an, ces vérités fondamentales sont mises définitivement au jour depuis bientôt quatorze siècles, les pensées les plus laborieuses qui les recherchent en dehors de cette lumière procèdent encore par tâtonnement, n'en découvrent quelques fragments qu'à de très longues échéances, et non sans tomber le plus souvent dans des erreurs grossières.

Corrigé
par
IBRAHIM -M- EL ASSIL

Révisé et choisi
par
DR. AFIFY ABDUL - FATTAH

(suite)

simple, l'autre en une conviction profonde, agissante et entraînante— toujours est-il que la philosophie dans sa partie la plus élevée et la religion sous toutes ses formes ont un double objet commun : résoudre le problème de l'existence, son origine et sa destinée, et définir la manière d'agir la plus sage et la plus propre à procurer le bonheur.

Mais ce qui démontre mieux l'affinité de la matière Koranique en particulier avec celle de la philosophie, c'est qu'en exposant sa doctrine sur la vérité et la vertu, le Kor'an non seulement en appelle toujours au bon sens, incite constamment à la réflexion et à la méditation, mais il entreprend lui-même de prouver et de justifier ce qu'il avance. Bien plus ! la nature de ses arguments et la manière dont il administre la preuve son choisis de telle façon qu'elles convainquent les philosophes les plus subtils, les logiciens les plus rigoureux, en même temps qu'elles satisfont les exigences les plus réalistes, les goûts poétiques les plus raffinés, les intnitions les plue ordinaires. Il ne suffit donc pas dire que le Kor'an ne condamne pas la vraie philosophie, fille de la réflexion mûre et amoureuse de la certitude. Il ne suffit même pas de dire qu'il l'autorise ou qu'il l'encourrge ou qu'il se prête volontiers à son examen impartial. Il faut ajouter qu'il l'alimente d'une abondante matière en sujets et en arguments.

Le Kor'an, certes, ne nous présente pas ces vérités fondamentales réunies sous la forme d'un système unifié. Mais, à défaut d'un tel système tout fait, n'existe-t-il pas dans ce Livre tous les éléments nécessaires et suffisants pour le construire ?

Que le Kor'an contienne tous les éléments fondamentaux de la philosophie religieuse : origine et destnée de l'homme et du monde, principes de cause et de fin, notions d'âme, de Dieu etc.. cela ne nous paraît point douteux, et le développement d'un tel sujet mériterait qu'on lui consacrât un travail indépendant.

Mais que ce Livre se soit prononcé en même temps sur les fondements de la théorie morale, voilà la première question que nous nous sommes posée dans la présente étude, et à laquelle nous avons consacré le plus gros de notre effort.

Et nous croyons être en mesure d'annoncer, dès à présent, qu'à la question ainsi posée, nous avons trouvé une réponse claire, pleinement affirmative.

Le Kor'an ne se contente pas, en effet, d'avoir posé la règle de la conduite de la façon la plus étendue

"La Morale du Korân"

Par

DR. MOHAMMAD ABDULLAH DRAZ

(4)

—La philosophie, au sens usuel du mot, est l'œuvre d'une pensée discursive, appuyée sur les seules lumièrs naturelles, et où l'on passe d'un jugement à l'autre avec une certaine méthode pour arriver à établir un système capable d'expliquer les choses en général ou un certain ordre de choses. Or il est évident que cet effort intellectuel et cette démarche progressive ne cadrent pas avec la lumière d'une révélation qui, sans recherche ni attente, inonde, l'âme et lui fournit instantanément un bloc de connaissances dans lesquelles les prémisses ne précèdent pas la conclusion, ni l'antécédent le conséquent.

Le Kor'an n'est donc pas une œuvre philosophique, en ce sens qu'il n'est pas le produit d'une philosophie et n'utilise pas les procédés d'acquisition philosophique. Ajoutez qu'il ne suit pas non plus les procédés didactiques des philosophes. A leur méthode rationnelle d'exposer (dféinition, division, argumentation, objections et reponses) qui est d'une cohésion incontestable, mais qui n'affecte qu'un seul côté de l'âme, sa partie intellectuelle, le Kor'an substitue sa méthode à lui. S'adressant à l'âme tout entière, il lui fournit une nourriture complète, où la raison et le cœur ont leur part égale.

Ainsi l'enseignement Koranique et l'enseignement philosoplique se sépartent tant à leurs sources qu'à luers méthodes. En est-il de même de leur objet et de leur but ?

L'admettre, ce serait proclamer, sciemment ou inconsciemment que le Kor'an n'est pas un livre de religion. Car, quelles que puissent être leurs différences — que l'une prenne sa source dans le tâtonnement de la raison, l'autre dans la pleine lumière de la révélation, ou que toutes les deux se laissent guider parfois par le mirage de l'imagination; que l'une consiste en un savoir pur et

FASTING IN ISLAM

By : IBRAHIM - M - EL-ASSIL
(Islamic Research Academi)

"O you who believe! Fasting is enjoined on you, as it was enjoined on those before you, that you may ward off (evil)".(2:183).

Fasting, the third of the five pillars of Islam, is of profound significance to Muslims all over the world. To regard it as a mere injunction ordained by God for Muslims to obey, will be to minimize its overwheming blessing. It has in itself its own vitality, which is revealed only to the person who undergoes the exercise and experience of the fast. In its every part, fasting is never void of its quintessence which amply bespeak its greatness as a divine ordinance.

The universality and the purpose of fasting are stated and stressed in unequivocal terms in the Holy Qur'an as mentioned in preceded verse.

The institution of fasting is not peculiar to Islam,. Before the advent of Islam, fasting, was practised for the atonement of sins or for the attainment of salvation, when a man committed any transgression, he felt that he had incurred the warth of his deity, whom he wanted to propitiate by abstaining from food.

Fasting, then, was one of the methods of self-immolation. The ancients realized well that surfeiting prevents man from making spiritual headway, so that he becomes a slave to his Carnal desires. So we find fasting to be an important part of all divine religions.

But Islam gave to humanity a new interpretation of all ancient institution. Unlike the fasting of other religions, Islamic fasting is more genuine, pure and solemn inasmuch as it is neither a penance nor a punishment. It is one of the basic rungs of the ladder that leads to Heaven. Its aim is to enable Muslims to guard against tempting evils-animal passions, wicked words and impure thoughts. It creates a remarkable degree of unity and discipline among the Muslims. Total abnegation of food and drink is the order of the day in glittering palaces and in tottering huts.

Quran and Freedom of Belief

BY : MOHIADDIN ALWAYE

لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم .
(٢٠٦ البقرة)

" There is no compulsion in religion, the right direction is henceforth distinct from error. And he who rejects satan and believes in Allah grasped a firm handhold which will never break. Allah is Hearer and Knower."

Surah 11 (*The cow*) *verse 256.*

In this verse Qur'an declares that there should be no compulsion in religion. The Qur'an has also repeated that the belief in all prophets is an essential part of Islamic faith. As the Holy Quran says :"

إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيما .
(١٥٠ـ١٥٢ النساء)

"Lo ! those who disbelieve in Allah and His messengers, and Say: We believe in some and disbelive in others and seek to choose a way in between ; Such are djsbelivers in trouth., and for disbelievers we prepare shameful doom. But those who believe in Allah and His messengers and make no distinction between any of them, unto them Allah will give their wages, and Allah was ever forgiving, Merciful."

Surah IV (Women) verses 150, 151, 152

After establishing the necessity of belief in all prophets imperatively the Qur'an declares that all believers are one community :

إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون .
فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون .
(٥٢ و ٥٣ المؤمنون)

"And lo ! this your religion is one religion and I am your lord, So keep your duty unto Me.

But they (mankind) have broken their religion among them sects, each group rejoicing in its tenets."

Surah XXIII (The belivers) Vorses 52,53

The above Quranic verses call the believers to work for communal amity and harmony. In this way Islam aims at to establish unity and brotherhood in humankind.

to this responsibility. On the Day of Judgment, God will direct His speech to both spicies. The Holy Verse says :

" O community of the Jinn and men, did there not come to you messengers from among you relating to you My messages and warning you of the meeting of this Day of yours ? . . .

It is noteworthy here that the Qur'an in its speech about the Jinn, did not make the belief in their existence as a basic principle in Islamic faith, as it did with regard to the Angels. The belief in the Jinn is derived only from the belief in the truthfulness of the Qur'an in its speech about them.

QUESTION :

What is the third basic principle of Islamic faith ?

ANSWER :

The belief in God and the Angels requires the belief in the messages from God to His servants through the Angels.

The divine messages are contained in the Divine Books which include the bases of faith, the ways of worship and the lawful and unlawful things.

Therefore, Islam requires faith in the Divine Books which were revealed to the Prophets of God, including the Holy Quran which was revealed to the Prophet Muhammed, the Scriptures of Abraham, the Torah of Moses, and the Gospel of Jesus.

QUESTION :

What is the difference between the Holy Quran and previous scriptures ?

ANSWER :

This difference may be summerized in the following :

First : The original texts of the previous scriptures were lost. What remained of them were mere translations. But the Quran is the only Divine Book which is still preserved in all its original language, word by word.

Second : Other scriptures were mixed with commentaries of interpreters, so that it is difficult to distinguish in them between God's words and human interpretations. The case is not so with regard to the Qur'an.

Third : Other scriptures were not recieved by their followers through authentic and successive transfer from one generation to another, as in the case of the Qur'an. The Pentateuch of Moses were not all written in Moses days. Some of it were authored after him by five centuries, some by seven centuries and even some other parts by more

(See page 7)

"And surely there are keepers over you. Honourable recorders. They know what you do".

These functions of the Angels are pertaining to the world of the unseen.

As we are not told about, the reality of the Angels and how they are created, but we are ordered to believe in their existence. It is not properly religious to initiate any information about their creation. It is a disbelief if we deny their existence, since the Holy Quran told us about them. One of the clear verses about the Angels is as follow :

"Praise be to God, the Creator of the heavens and the earth, who appointh the Angels messengers having wings two, three and four,

He increases in creation what He pleases. Surely God is possessor of power over all things".

QUESTION :

What is the difference between the Angels and the Jinn?

ANSWER :

The Jinn are other kind of creatures pertaining to the world of the unseen. While the Qur'an did not tell us about the matter out of which the Angels were created, it speaks about the matter out of which the Jinn were created. It says :

"And He created the Jinn of a flame of fire."

On the other hand, while the Qur'an states that the Angels are in honourable close relation to God, and are immune from disobedience to God, it states that some of the Jinn are good and some are bad.

The Jinn differ from the Angels in that the latter convey the revelations of God to messengers and prophets, while the Jinn receive those revelations, like human beings, from messengers and prophets. We read in the Holy Qur'an :

"And when We turned towards you a party of the Jinn, who listened to the Qur'an ; so when they were in its presence, they said : Be silent. Then when it was finished, they turned back to their people warning them. They said : O our people ! We have heared a Book revealed after Moses, verifying that which is before it, guiding to the truth and to a right path. O our people ! Accept the Inviter to God and believe in Him.

He will forgive you some of your sins and protect you from a painful chastisment ".

Morevor, the Angels are not joined with human beings in the religious responsibility, while the Jinn are subject, with human beings,

FIFTH :

The belief in those words, moreover, creates in man will of power, courage and patience, for he knows that above his power there is the power of God. Thus he is not dismayed by misfortune, and he always be a follower of the way of truth.

SIXTH :

To witness that there is no god but Allah honours man and creats in him content and satisfaction, and purifies him from greed, envy and meanness. He will follow the lawful ways towards his all aims. This is because he believes that God is the Sustainer and Providor of everything.

SEVENTH :

This witness, also obliges one to act according to God's laws and orders. For he is certain that God knows everything, that He is nearer to him than himself, and that He is the All-Knowing. Thus one could not commit any bad action that is prohibited by God. He will hasten to good deeds and act according to God's commandments and orders in all situations, as the Prophet said : "Serve your God as if you see Him, if you see Him not, He sees you".

QUESTION :

What is the second basic principle of Islamic faith ?

ANSWER :

The second basic principle of Islamic faith is the belief in the Angels. The Holy Quran speaks about the Angels as unseen and immaterial creatures carrying different functions, through which they realize God's will in His universe. Some of the Angels convey God's revelation to His Messengers and Prophets, as the Quran says :

"The faithful spirit (Gabriel) has brought it (the Quran) on your heart that you may be a warner".

Some of them are directed to aid the prophets and make firm the believers, according to this verse :

" When your Lord revealed to the Angels : I am with you, so make firm those who believe".

Some others are delegated to give glad tidings to the believers who did good in this life and were abiding by God's orders. The Quran says :

"Say : the Angel of death, who is given charge, of you, will cause you to die, then to your Lord you will be returned".

Still some others are assigned to register peoples' deeds in this life so that their works are to be shown to them on the Day of Judgement. We read in God's Book :

The Fundamental Belief In Islam
(3)

By : Abdul Wadood Shalaby

What are the practical effects of the witness that "there is no god but Allah", in individuals and society?

This belief creates in man the following effects :

FIRST :

The belief in the oness of god generates in man dignity and self-esteem. If one believes that God is One; that He is the Real Owner of this universe; that there is no harm neither benefit except through Him; that authority and power are only to Him; and that He is the One Who brings all things to life and death-if one really believes in all these he undoubtedly will have no fear from anybody, and will not be subject to any authority but God's alone.

SECOND :

The belief in those words creates humility in the soul, because who believes that 'here is no god but Allah cannot feel pride over others, and he realizes that Who gave him power and distinction can withdraw them from him if he misuses the favours of God on him.

THIRD :

The believer in those words knows certainly that the only way to success and prosperity is the good deeds. For he knows that the approach to God, the One and the Self-Sufficient, is only through good action. Other religions teach their followers false wishes when they preach that the "Son of God" has redeemed people against sins, or that they are - as followers of those religions-the children of God or His beloved ones, and thus they are immune from punishment for their crimes.

FOURTH :

That who declares faithfully those words harbours no dispair. When he believes that God owns the treasures of the heavens and the earth, he will be sure that God is Full of Mercy for His servants. Even when he is tried with misfortune or poverty, he still is hopeful in the eternal mercy of God.

your scientific Faculties, laboratories, and in the Faculty of girls, as Al-Azhar wishes you to be, that is to say the bearers of a glorious mission, and you must repay knowledge, because of its benevolence upon you, and this Country, for its kindness towards you and your university which provided for you all kinds of helps and instructions and take this opportunity of youth, before its departure and be keen in acquire knowledge, and make the book your best friend, because it is the pleasent companion in the lonliness and a best helper in company. May God bless you!

We cannot miss this occasion, as we are receiving this new academic- year, to beseech The Almighty God to protect the great President Jamal Abdul Nasser and to guide him to the path of success and victory.

Peace and God's blessing and mercy fall upon you!

(From page 11)

centuries. The case is the same in regarding the main four Gospels in the New Testment.

Fourth : The language of the scriptures were old and extinct while the language of the Quran is in the living Arabic.

Fifth : Creeds and laws of the old scriptures were pertaining to their respective followers. The message of the Quran, however, is directed to humankind in general and in all times.

Sixth : Other scriptures were not safe from change. Some shameful deeds were falsely ascribed to some of God's Messengers and Prophets, although they are immune from committing such things.

By this, I do not mean that every one of those who received education from these schools and institutes was far from true patriotism and real nationalism, we find among the (men and women) who were bred up by these schools, some who bear high idealisms in themselves and whose behaviours are aiming at achieving good goals. And you may remember the martyr hero "Gawad Hussiny" in spite of his foreign culture and his English mother he has done his best in defending his country in "Port Said battle 1956".

I do not mean that all those who joined these schools were far away from Islamic spirit or patriotism, what I mean is that the aims of these schools and institutes could never be the Islamic teaching or patriotic training. Those who could overcome these methods, whether they were Muslims or good citizens, there is no doubt that they have good hearts and noble feelings because they were able, by the strong faith and confidence, to turned down the aims of the foreign plans and to foil the imperialistic targets through those methods and designs.

So, if the closing of doors of Al-Azhar before women, enabled many type of harmful culture to be entered to our homes, this harm has been doubled when Al-Azhar neglected the teaching of natural sciences and laboratory arts, then, it soon finds itself isolated from the society, and does not participate, in a way or other, in agriculture, industry, commerce or anything that concerns with man's conduct on this earth for his livelihood, and AL-Azhar's work became nothing but some words in a lesson or a preaching lecture in a pulpit.

Therefore, it was necessary in the view of the revolution, which was and is eager to the welfare of the nation, to develop Al-Azhar in a way that will provide our girls the same chance, what our boys are already getting in the field of knowledge and science, and by this way, it can also connect the scientific mission of Azhar with a laboratory mission. So Al-Azhar would, also be in a active position in the material sphere, as well as its persistent efforts in the spiritual field, and it will be able to deal with religious matters in the spirit of world matters and vice versa. And this is, in the just point of view, is the only way which enables Al-Azhar to serve ma i in his spirit and body, and to render good services to this country and to all humanity.

Student Girls and Boys !

You are our hopes, so you should be in your Universities, in

him, so, the Almighty God answered : "O! Zakaria you are asking me to do something for you which I did not do even for Myself".

Gentelmen :

There is no doubt that Al-Azhar University will follow her reverend father's methods and it will work for the achievement of the same goal. It will not be deviated from its Father's way except in what the changing modern life requires in changing methods and modifying means.

God has created man, firstly from blood and flesh and then soul and spirit, and each has its own characteristics and requirements. Al-Azhar has concentrated its endeavours in taking care with the spiritual side as much it has neglected the materialistic side, in other words, which are more closer to truth, Al-Azhar was directed to do so, for we knew that when the study circles of jurisprudence and literature were moved to Court yards of Al-Azhar free from the narrow sectarianism to the freedom of opinion and thought, it was the teaching centre of astronomy, medicine, mathematics, arithmetic and other sciences and special study circles-as history says-were held in many times for women folk. Women were getting their share in Al-Azhar circles until recently. Perhaps history has not forgotten to mention that great lady who had prepared to obtain the " Al-Azhar Alamia " Degree, and if that lady was allowed to pass the examination and if there were not some illusions in the minds of some people at that time, the system of women's education would have reached to a far and noble aim in Al-Azhar and we would have a more good society which understand the spirit of Islam and we would have saved our homes the evils of ignorance, or the evil of that knowledge, which was in many times, more dangerous than ignorance itself. Because, when Al-Azhar has shut its doors in the face of women, it opened, as much as it closed, doors to foreign schools and institutes, and our girls joined these institutes - girls are always the future mothers - so some of these schools and instituts were working to build homes and create generations which are closely connected with foreign civilization, and proud of it, because of the influence of the culture, that they have received through foreigners. This is not strange thing because people always believe in what thay knew and become enemies to what they donot know and the people are in resemblance with their culture more than their fathers and mothers.

where malice and hatred can hide and to be loosen from time to time to destroy the unity by differences and kill the connection by seperation and to disturb the stability and peace by fear and confusion. The degree of what happend in the different ages was not more than a frivolity which was stirred and faded away, and the extend of what is going on or what will be in future is not more than an article written by a writer in a magazine or a speech delivered by a speaker from a pulpit. Even those, whose religion is different from the religion of overhelming majority of the people of this country, the Azhar was and is still training the refractory souls to be kind to them and pave the way for peaceful existence with them in all walks of life.

The second of these two great facts represented in our country's position among other nations. Al-Azhar has done and is still doing a great deal of good deeds in this field also and is rendering valuable services to this country.

It is Al-Azhar which has filled the hearts of the enemies of this country with fear and respect as it filled the hearts of friends by love and affection. The country that have enmities, in different parts of the world, with adulation, as well as it have intimacies that bound her with care for its benefit and goodness; No doubt that this is a strong and powerful country. It was the right of those who add or take part in making the glory of their country to be honoured and to be loved.

By this it is the right of Al-Azhar, which has added much to the glory of this country, and has provided her with means of leadership, to receive from its citizens what a cause of their progress and a pillar of their glory and dignity is already receiving, whether those are agree or disagree with it because all the citizens are taking their share in the benefit, betterment and world goodwill which Al-Azhar is trying to achieve for all the citizens of this country whether they are Christians or Muslims. If hatred denied right and malice ignored the gratitude, we find in God's reward the best recompensation.

The right and gratitude of Al-Azhar are not the first that are denied, for howmany times have people denied even their Creator and ignored His blessings and let loose their tongues to speak about Him. One of our proverbial literature says that the Prophet Zakaria (peace upon him) has asked his Lord to save him from saying people against

and useful effort, the other is based on the fanaticism with the proud of race, blood and relationship. The wisdom is keeping pace with Islam in this matter because the distinction of people must be based on possible way and man has no choice in getting his colour or race, for if so, can any black skinned man to be changed to a white ? or can any indian to be a persian, or a persian to be an arabian ? So the problem of blood, race and colour is one the problems which causes misery to people, a misery that they have no hope to get rid of it as long as they have not the ability of choosing.

In this way Al-Azhar, has rendered to this human society, many good things which encircle a round the helping of principles, regardless of destinies of races and colours. It made the following Quranic verse as the Axis of all meanings of distinction.

« يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم »

" O mankind ! Lo ! we have created you male and female and we have made you nations and tribes that ye may know one another; the noblest of you, in the sight of Allah, is the best in conduct ".

By carrying this great and human mission, which is the message of the apostle, peace be upon him, Al-Azhar has done to all people these services and many like them, and by its great efforts it has taken out many people from darkness to light, and led them to the path of goodness it has, also, raised the dead alive, and made the slaves free in the broad meaning of world sphere. In this noble country the usefulness of Al-Azhar was very clear and the services of it were very valuable and perfect. Some selfish forces may be gathered on falsehood and some hearts may carry ill will and malice. Al-Azhar was unfortuntely, denied its right and ignored of its credit, perhaps some of the most closest people to it have said about it what Malik has said about wine or what freedom is saying about imperialism.

But those who bear illwill and malice can not hide two big facts which gave our country, through Al-Azhar, a great deal of immortal goodness and an unforgetable glory.

The first of these facts is represented in the intellectual similarity which our citizens enjoy and this country is living, peacefully, under its shadow, even it has become impossible for any narrow religious difference to find for herself a place,

The object of Al-Azhar, in its long history, was only to be a circle in the sphere of calling to Allah and spreading the Message of Islam. It is easy to sum up this Message in three points for which all human kind are looking for to attain and trying to utilise their gains.

The first point : is to chase suspicion, perplexity and restlessness in the human society. The track down of these things means the chase of misery, for there is no misery that is more clear than the misery of perplexity when the hearts are disturbed and the beliefs are shaked.

Al-Azhar has carried the Faith of Islam, in its simplicity, moderation and easiness and by this Faith it has paved for the people the way of spiritual tranquility and stability, and has taken away from their shoulders the burdens of perplexity, anxiety and restlessness.

The Faith of Islam, in its simplicity, moderation and easiness, can be summedup as : that this Universe has one God, who have no partner, and His will, in reforming, in making people happy and in elevating is attached with a great messenger, the prophet Muhammad, prayers and God's peace be showered upon him who is the essence of all prophets and messengers.

The second point : can be summed up in the following : that Al-Azhar, in communicating the Message of the apostle, was always calling people to make themselves free from their tempts and passions so that they may liberate themselves from their conquerors and enslavers. A great number of forces have gathered round it (Al-Azhar) every where, carrying the banner of real freedom which assures that slavery to any one except God is unbearable burden, so let the humanity be liberated from all other kinds of slavery and to make it only for Allah, Lord of the worlds. Because all people are equal, and there is no superiority for Arabs on non-Arabs, except by Virtue. In this way Al-Azhar was, by a direct or an indirect way, a strong impulse in the human society to set the slaves free and to help them to regain their human dignity in many fields, in the, far and near World sphere.

The third point : the glorious Al-Azhar was always calling people to despise fanaticisms, of colour and race because all people came from Adam and Adam was from dust. If one wants to be distinct, he has to be so by his good deeds and the great services he renders to the humanity. There are two ways for seeking distinction among people, the first is based on the good work

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

CHIEF EDITOR :

AHMAD HASSAN AL - ZAYYAT

SHA'BAN 1384	ENGLISH SECTION EDITED BY : A. M. MOHIADDIN ALWAYE	JANUARY 1965

AL - AZHAR: Its Past and Present

By:

H.E. SHAIKH AHMAD HASSAN AL-BAQOURI

Rector of Al-Azhar University

The deliberations of the Academic - year of Al - Azhar University Commenced, this year, with a Conference held in the " Shaikh Muhammad Abduh" hall of Azhar. A large number of University professors and students were present. The Rector of the University, H.E. Shaikh Ahmad Hassan Al - Baqouri delivered a speech in the Conference.

It is not far from truth when we say that this speech is a historical document, as it will give the reader a clear idea of the message and the services of this great international Seat of learning.

The following is the English Version of the Arabic text of the speech — M. Alwaye.

"... On this day, by the preparation for the teaching of medicine, engineering and agriculture in faculties of these subjects, Al-Azhar University is taking a new step in its history. The University has already taken a step that made possible for it to pursue useful studies in the Faculty of Commerce and Faculty of girls, and it will take other steps in the near or far future which will help to begin many kinds of studies, and we do not know what or how it will be for it is still a hidden secret in the knowledge of All knowing Allah.

We beseech Almighty Allah that all the steps, which have been taken and what will be taken by Al-Azhar University should aim at acheiving the noble goal which was the aim of its great and reverend father "The glorious Al-Azhar Mosque".

مدير المجلة
عبد الرحيم فوده
« بدل الاشتراك »
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

رئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
« العنوان »
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

الجزء السابع - السنة السادسة والثلاثون - رمضان سنة ١٣٨٤ هـ - يناير ١٩٦٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

أصول الفن الخطابي

بقلم : أحمد حسن الزيات

(إن في هذا لجوابا عن سؤال السيد عبد الحميد صبرى
رئيس جمعية الخطابة والتمثيل بالإسكندرية) .

عرفوا الخطابة بأنها : فن من فنون الكلام يقصد به التأثير في الجمهور ، عن طريق السمع والبصر معاً ، فما يدخل أثره من طريق السمع هو الأسلوب والإلقاء والصوت ، وما يدخل أثره من طريق البصر هو الوقفة والهيئة والحركة والملامح ، وتلك المؤثرات هي قوام هذا الفن وملاكه ، وسأقول كلمة وجيزة في كل ركن من هذه الأركان ، بقدر ما نكشف عن سر الجمال ، والفن فيه :

فالأسلوب الخطابي كالأسلوب الكتابي في أصوله وقواعده ، فكلاهما قائم على إيجاد الأفكار على نور العلم ، وتنسيقها على أصول المنطق ، ثم أدائها على مقتضى البلاغة . وكلاهما يختلف باختلاف الحال والغرض ، ولكن للسمع أسلوبا يمتاز من أسلوب القراءة بتخير الألفاظ المنسقة ، والجمل المنمقة ، والصور البيانية ، والأخيلة الشعرية ، والأساليب السهلة الطلية والاعتماد على العاطفة والشعور لا على العلم والمنطق ، والافتنان في تنويع الأسلوب والقصد فيه .

أما تمييز الألفاظ المنسقة ، والجمل المنمقة والصور البلاغية ، فلأن كلام الخطيب لا يصل إلى الأذهان إلا عن طريق الآذان ، وللأذن ذوق فى الجمال لا بد من مراعاته ومرضاته .

وأما استعمال الأخيـــلة الشعرية فلأنها تستهوى المشاعر ، وتسترق الخواطر ، وتملك على العقول مذاهب التفكير ، فلا تستطيع نقداً ولا نقضاً ولا معارضة ، وإنما تظل تحت سلطان الخطيب عاطلة ذاهلة ، حتى ينزلها على حكمه ، أو يسيرها على نهجه ورسمه .

وأما توخى الأساليب السهلة ، فلأن عقلية الجمهور السامع غير عقلية الفرد القارئ . فالقارئ لا يشوده عمق الفكرة ، ولا صعوبة العبارة ، لأنه يتذوق ما يقرأ بعقله ، فيقف ويتأمل ، ويعيد ويوازن ويستنتج ويحكم . وقد يترك الكتاب ليعود إليه مرة أخرى ولكن السامع سائر مع الخطيب ، مدفوع بتياره ، لا يملك التخلف عنه ، ولا الإفلات منه . فإذا كانت الفكرة أسمى من عقله ، والعبارة أقوى من فهمه ، انقطعت الصلة بينهما ، وفقدت الخطابة من التأثير بمقدار ما فقد السامع من التتبع والتأثر . وليس معنى السهولة أن يتبذل الخطيب ، فيستعمل ألفاظ السوقة ، ومعانى العامة ، فإن الفن جميل نبيل ، يرفع الجمهور إلى سمائه دون أن ينحط إلى حقارته وغبائه ، وأما الاعتماد على العاطفة والشعور دون العلم والمنطق ، فلأن العقول فى الجماعات تضطرب وتتبدد فلا يفيدها المنطق ولا يقنعها الدليل ، فإذا اشتملت الخطبة على حقائق العلم ، ودقائق الفلسفة ، دون أن يكون لها من العواطف روح وحرارة وحركة بعثت السآمة فى النفوس ، والبلادة فى الطباع فيستولى على الجمهور فتور كالجمود ، وسكون كالموت .

قال بوسويه : إن الأهواء والعواطف هى الخطيب فى الجماهير .

وقال ميرابو : سر البلاغة الخطابية أن يكون الخطيب ملتهباً بالعواطف .

وقال أعرابى لبعض الوعاظ ، وقد سمع موعظته فلم تقع من قلبه بموضع : يا هذا إن بقلبك شراً ، أو بقلبى .

وأما الافتنان فى تنويع الأسلوب ، فلأن النفوس تسأم النغمة الواحدة ، واللذة المتكررة ، والصور المتشابهة ، والأسلوب المسوق على نمط واحد ، فلا بد إذن للخطيب أن ينوع خطبته ، ويغير لهجته ، فيسجع فى مواضع التأثير ، ويترسل فى مواضع الإقناع ، ويعمد إلى التشبيه فى تقرير الحقيقة وإلى المجاز فى تصوير الخيال ، ويرسل الفكاهة الحلوة من حين إلى حين ، ليدفع سأم النفوس ، ويجدد نشاط السامع ، ويتعرف نفسية جمهوره ، فيجعل لكل مقام مقالا ، ولكل فهم مثالا ، فيفصل ويكرر

ويؤكد ويوجز ويطنب ، وكل أولئك في جمال قصد ، وحسن ذوق ، وقوة بصيرة ولا تؤتى الخطابة إلا من طريق التطويل والحشو .

روى الجاحظ : أن ابن السماك جعل يتكلم وجارية له تسمع ، فلما انصرف إليها سألها كيف سمعت كلامي ؟ قالت : ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده ، قال : أردده حتى يفهمه من لا يفهمه ، قالت : إلى أن يفهمه من لا يفهمه يكون قد سئمه من فهمه .

والعرب أميل إلى الإيجاز في الخطب ؛ لتكون أعلق بالصدور ، وأذيع في المحافل فلم يطل منهم إلا الأفذاذ والنوابغ ، كسحبان وائل ، فقد قيل : إنه خطب أمام معاوية من الظهر إلى صلاة العصر ، وسمعت المرحوم سعد زغلول ، يخطب أربع ساعات متواليات في أربعين ألفاً من الناس ، فما توقف ولا كرر ولا استراح .

هذه مجمل الصفات التي يجب أن تراعوها في صوغ الخطبة ، أما ما يجب في الإلقاء : فالوضوح والطلاقة وتمثيل المعاني والعواطف بتغيير اللهجة وتنويع الصوت ؛ فيهدأ الخطيب ويثور ، ويبطئ ويسرع ، ويغضب ويعجب ويسأل ويجيب ، وكل ذلك مع اتقاء اللحن في إعراب الكلام ، واللكنة في إخراج الحروف ، وسلامة المنطق من العي والحبسة والتمتمة واللجلجة والفأفأة والتلعثم ، وما يقبح ذلك من كثرة التنحنح والسعال : والالتجاء إلى جمل الاستعانة كتكرير أيها السادة مثلا .

ولحسن الإلقاء أثر عظيم في نجاح الخطبة ، فقد يكون أسلوبها نازلا عن مقام البلاغة فيرفعه الخطيب القادر بفصاحة منطقه ، وأناقة لهجته ، وجهارة صوته ، فيلذ السامع ويلهيه بجمال إلقائه عن قبح إنشائه .

وأما الصوت ، فهو طريق الفكرة إلى الأذن ، فلا بد أن يكون جهيراً حلو النغمة صافي الرنين ، خالص النبرات ، ويجب على الخطيب أن يعنى به ويقف على قوة ارتفاعه ومدى اتساعه ، حتى لا يكلفه فوق طاقته فيضحل ويتهدج ، ويحسن مع ذلك أن يبدأ به في انخفاض وتأن ، ثم يرفعه رويداً رويداً حتى يبلغ به أقصى قوته ، ثم يردده بين الصعود والهبوط مغيراً في ميزانه ونغماته ووقفاته تبعاً للمعنى الذي يؤديه ، حاذراً أن يرسله إلى فوق ، أو يرمى به ذات اليمين أو ذات الشمال فيتبدد أكثره ، ويضعف أثره .

تلك هي المؤثرات السمعية ، وأما المؤثرات البصرية : فأولها الوقفة ، وشرطها أن يكون الخطيب فيها معتدل القامة ، مشرف الصدر إلى الأمام مقدما إحدى رجليه ، ليتم توازنه وينتظم تنفسه ، ويستقيم صوته ، ويحسن أن يقف قبل بدء الكلام وقفة المنتظر حتى يملك شعوره ، ويعرف جمهوره ، ويذهب أثر

الخطيب السابق إن كان هناك من سبقه، وثانيها الهيئة : من وضاءة الطلعة ، واعتدال القوام وحسن الهندام ، وجمال البزة ، وهذه صفات كمالية قد يغنى عنها جمال الأسلوب ، وحسن الإلقاء ، وثالثها الحركة : وهى مساعدة الكلمات والنبرات بالإشارات ، وهى طبيعية فى الناس منشأها ضعف العبارة ، وعجز اللغة عن تأدية ما يجول فى النفس من خواطر ومشاعر . لذلك تجدون حركات الجسم ، وملامح الوجه تشتد وتحتد كلما أصاب الإنسان عىٌ أو لكنة ومن ثم كانت الشعوب ذوات الخيال القوى والإحساس الشديد أكثر الأمم حركة وأشدها لهجة ، وأشد ما تكون الحركات قوة وظهورا حين تثور النفس وتضطرم العواطف ، فتتفجر من اللسان والجوارح والملامح ، ولذلك كانت الحركات عنصرا من عناصر العمل الروائى ، وجزءا من أجزاء الفن الخطابى ، لشدة انفعالاتهما ، وكثرة مفاجآتهما، وازدحامهما عادة بالمواقف الثائرة أو الساخرة ، ولكن الخطيب الموفق هو الذى يضعها فى محالها ، ويقصد فى استعمالها فلا يبالغ ، ولا يتكلف ، ولا يكذب .

وشرط الإشارة ألا تخفى الوجه ، وأن تتفق مع المعنى ، فتبطئ وتهدأ ، وتسرع وتثور تبعا له ، وألا تسبق الكلام ، وألا تأتى بعده ، وأن تكون باليد اليمنى - إذا كانت الرجل اليمنى هى السابقة ، وباليسرى إذا كان الحال على العكس .

ثم الملامح ، والغرض منها : أن تشارك حركات اليد ، ونبرات الصوت ، فإن العيون مرايا القلوب . وأسرار الوجه تكشف عن أسرار الضمير ، والخطيب يستطيع أن يعبر بعضلات الوجه ، وتغضن الجبين عن اللذة والألم ، والرضا والسخط ، والنفور والميل والسرور والحزن ، وبالعيون عن العواطف المختلفة ، فيفتحها عند الغيظ والدهش والإعجاب والخوف ، ويطبقها عند التواضع والمسكنة ، ويديرها يمنة ويسرة عند الجزع والاشمئزاز والرثاء ، ويرفعها إلى السماء فى الألم الشديد والدعاء ، ويخفضها إلى الأرض فى التفكير والحيرة والخشوع والحياء والعار واليأس ! .

ثم نعـــود فنقول : إن الخطابة كالشعر استعداد وطبع ، ولا بد للاستعداد والطبع من رياضة وثقافة ، فالخطيب إذا لم يكثر المرانة جمد لسانه وإذا لم يدمن القراءة نضب معينه ، وضعف بيانه .

وأخص ما يدل على استعداد الخطيب طلاقة اللسان وقوة الحس وحضور الذهن ، ورباطة الجأش . والصفتان الأخيرتان ضروريتان للخطيب السياسى ، والخطيب القضائى ، لأن معارضة الخصوم ، ومقاطعة الزملاء ، ومفاجأة الحوادث تحرج الصدر

وتثير الغضب وتهاجم اللب . فإذا لم يكن الخطيب مالكا لعواطفه ، عليما بمواقفه . تبدد ذهنه والتاث عليه أمره ؛ فلا يعرف قبيلا من دبير . قد يعارضك وأنت تخطب نائب ، أو يقاطعك مستمع ، أو يفجأك بالحجة عام أو قاض فماذا تصنع إذا لم يكن ذهنك سريعا ، وخاطرك مطيعا ، وجوابك حاضراً ؟ لقد كان « جان جاك روسو » يقول عن نفسه : لم أستطع طول عمرى أن آتى بالجواب الموفق إلا بعد ربع ساعة من الوقت الملائم . فماذا يكون حال روسو وأمثاله فى البرلمان أو فى المحكمة حين تقتضى المعارضة ، أو المفاجأة ، رداً حاسما سريعا ؟ أنظروا مثلا إلى حضور ذهن أبى جعفر المنصور ، فقد خطب يوما فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس اتقوا الله ... فقام إليه رجل من عرض الناس ، فقال : أذكرك الذى ذكرتنا به . فأجابه المنصور على الفور : سمعا سمعا لمن ذكرنا بالله ، وأعوذ بالله أن أذكرك به وأنساه ، فتأخذنى العزة بالإثم ، لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين . وأما أنت فوالله ما الله أردت بهذا ، ولكن ليقال قام فقال ، فعوقب فصبر وأهون بها لو كانت !

وأنا أنذركم أيها الناس أختها ، فإن الموعظة علينا نزلت ، وفينا أنبتت . ثم رجع إلى موضعه من الخطبة .

وانظروا إلى بديهة (لامرتين) العجيبة ، وقد اشتد الجدل بينه وبين الجمهور الغاضب الصاخب فى يوم عصيب تزاحمت فيه مناكب الخطباء ، وصوح الشر باسمه بين الشعب والزعماء ، فصعد المنبر ولم يخلص إليه من شدة الدفع والجذب والزحام إلا بعد لأى وجهد . فلما رأى نفسه أمام الثائرين وجها لوجه قال : أبناء أمتى لماذا دعوتمونى ؟

أصوات : لنعرف بأى حق تحكمون الشعب ، ونعلم أأنتم أهل غلول وخيانة ، أم وطنيون خليقون بهذه الثورة ؟

لامرتين : بأى حق نحكمه ؟ بحق الدم المسفوك ، والنار التى تلتهم معاهدنا ، والشعب الذى يعوزه الرئيس ، والأمة التى لا قائد لها ولا نظام ، وربما جاء الغد وليس لها قوت ، بحق الإخلاص والشجاعة ، بحق أولئك الذين يسبقون إلى التضحية جاعلين ضمائرهم هدفا للشبهات ، ورءوسهم غرضا للشانق ، ودماءهم عرضـــة للانتقام ! أتحسدوننا على هذا الحق ؟ إنه لكم كما هو لنا ، ولا نجادلكم فيه كلكم أهل للتطوع فى هذه السبيل ، ولا ندعى من الحقوق إلا ما يمنحه الضمير الذى يسيطر علينا ، والخطر الذى يحيق بكم ...

أصوات : لا لا ! بلى بلى ! لا حق لكم فى تولى الحكم . لستم من الشعب ! لم تخرجوا من وراء المتاريس .

أصوات أخرى : لا لا ! بل هم الذين احتجوا على الفساد ، ودافعوا عن الشعب . لقد قلبنا الملكية ، فليقل لنا لامرتين أيريد أن يعطينا الجمهورية ؟

لامرتين : الجمهورية ! ! ومن نطق بهذا الاسم ؟

ـ كلنا ، كلنا .

لامرتين : الجمهورية ! وهل تعرفون ما تطلبون ؟ أتعرفون ما هو الحكم الجمهورى ؟

ـ قل لنا ! قل لنا ؟

لامرتين : الجمهورية هى : حكم العقل ، فهل تشعرون أنكم أهل لأن تحكموا عقولكم ؟

ـ نعم نعم !

لامرتين : الجمهورية هى حكم العدل ، فهل تشعرون أنكم تعدلون، ولو فى الحكم على أنفسكم.

ـ نعم نعم !

وسار لامرتين فى خطبته على هذا النمط العجيب من الذكاء النادر ، والجواب الحاضر ، والأخذ بكظم الجمهور ، والاستيلاء على شعوره ورأيه من غير تحضير سابق ، ولا تلكؤ ظنين .

وازنوا بين ما سمعتم ، وبين ما حدث لفكتور هوجو فى جلسة برلمانية كانت تدور على تعديل قانون الانتخاب ، وكان هوجو يكتب خطبه بلغة عالية ، ويستظهرها ثم يلقيها عن ظهر قلب . فإذا قوطع أثناء أدائها ارتج عليه ، أو أجاب بالهذر . وقف ذلك اليوم يخطب بعد ما احتشد للكلام وأعده ، فلم يكد يسترسل فى خطبته حتى قاطعه أهل اليمين بالسخرية والتنادر ، فقال هوجو : أيها السادة : إن هذه المقاطعات المدبرة المنظمة ...

فقاطعه صوت من اليمين : كل ما فى الأمر أننا نضحك !

صوت آخر : ذلك يهوش عليك خطبتك المحفوظة .

هوجو : إن الغرض من هذه المقاطعات تشتيت ذهن الخطيب .

صوت : قل حافظته ! حافظته !

هوجو : يريدون أن يسلبوا الخطيب حرية الفكر .

صوت ـ حرية الحفظ ! حرية الحفظ !

فوقف هوجو أمام الساخرين لا يحير جوابا. وهنا قال فى خطبته التى هاجم بها قانون النفى .

« تأتى الثورة فجأة فيصير الأذكياء أقزاما » أجابه نائب معارض : « ويصير الأغبياء جبابرة » فلم يسعفه خاطره بالرد ، فأرسل إلى الرئيس نظرات الاستغاثة .

ولتلك البديهة المتخلفة فشل هوجو فى ميدان الخطابة ، وكان تأثير خطبه فى القارىء أشد منه فى السامع . فأنتم ترون أن الخطيب السياسى ، والخطيب القضائى . إذا لم تواتهما المعارضة الشديدة والرد الحاسم ، والحلم الرزين ، والجأش الرابط . كان

بجاحهما متبيع الدرك ، لأن الخطب السياسية والقضائية - كما قلت - مثار الخصومة والجدل وموضع التأثير والحجة ، ولهذين النوعين وضعت القواعد ، وعليهما دارت مسائل هذا الفن ، وفيهما اشتهر الأفذاذ من رجاله . وهناك نوع ثالث يليهما فى القوة والبلاغة والأثر ، وهو الخطب الحربية ؟ غير أنها أوجز لفظا وأحكم نظما ، وأحوج إلى استفزاز العواطف . كخطبة طارق بن زياد فى فتح الأندلس مثلا .

وقد تغنى فى هذا النوع الجملة القصيرة المحكمة عن الخطبة الطويلة المرسلة ، كقول نابليون ، وقد دارت رحى الحرب بين جنوده وجنود مصر على مقربة من الأهرام : أيها الجنود اثبتوا ، فإن أربعين قرنا تنظر إليكم من فوق الأهرام . وكقول أحمد القواد فى حرب الفاندى : أيها الجنود : إذا أنا أقدمت فاتبعونى ، وإن أحجمت فاقتلونى ، وإن مت فاثأروا لى » .

بقيت الخطب الدينية ، والخطب العلمية . أما الأولى ، فـــدارها الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وتثقيف العقل بالحكمة والموعظة الحسنة واستمدادها من النصوص الشرعية ، والعلوم الكونية ، والفضائل النفسية وما أظن أحدا منكم يهيىء نفسه لها ؛ فلندعها إلى أهلها . وأما الأخرى ؛ وأعنى بها المحاضرات فهى أقوم حجة ، وأضوأ محجة ، وأهدأ بيانا وأسهل أسلوبا ؛ لأنها تقصد إلى التعليم لا إلى التأثير ، وإلى الإقناع لا إلى الإمتاع ، فلا تثير رغبا ولا رهبا ، ولا غضبا ولا رحمة . تعتمد على البحث العلمى والدليل المنطقى ، والتحليل النفسى ؛ فهى درس عام ، تبسط فيه الحقائق مفصلة محللة جلية لا يبد لها استطراد ، ولا يفسدها نقص ، ولا تبهمها إحالة . فالمحاضر القدير يدرس موضوعه من جميع جهاته ، ويبحث عنه فى كل مظانه ، ثم يلم أطرافه ، ويجمع متفرقه ويدنى قصيه ، ثم يؤديه بأسلوب جذاب يثير الشوق ، ويدفع السأم ؛ فإن البلاغة صفة لازمة للمتكلم تلازمه فى كل موضع ، وتتفجر من قلبه وذهنه فى كل موضوع .

هذه جملة يسيرة من أصول الفن الخطابى لابد منها للناشىء البادىء . وقد عرضتها عليكم عرضا فى مبدأ الطريق لتجعلوا منها دليلا تتبعونه ، وناصحا تستشيرونه . ومرجع الأمر كله إلى الاستعداد والاجتهاد ، فثابروا وصابروا وخذوا أنفسكم بالمطالعة والمران ، وأشعروا قلوبكم الرغبة فى هذا الفن ، فإن الرغبة فى الشىء تسهل الصعب ، وتخفف المئونة ، وتوفق بين الوسيلة والغاية ؟ .

أحمد حسن الزيات

حديث الإمام الأكبر للمسلمين في شهر رمضان

بسم الله أستفتح تهنئتي لكم ، أيها المسلمون ، بإقبال رمضان المعظم ، وبالحمد لله ألهج على ماهدانا إليه من إيمان ، وجمعنا عليه من إسلام ، وأصلي وأسلم على من بعثه الله رحمة للعالمين ، وجعله مسك الختام للأنبياء والمرسلين ، وأسأله سبحانه أن يهبنا من مدده ما يعيننا على استقبال هذا الشهر الكريم على الله بما يناسب تشريف الله له ، وتكريمه لأيامه ولياليه .

وهو سبحانه يخلق ما يشاء ويختار ، لأنه يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير ، فهو بما أودع في خلقه من أسرار ، يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس ، ويصطفي من المكان أول بيت وضع للناس ببكة مباركا ، ويصطفي المسجد الأقصى الذي بارك حوله ، ويصطفي الوادي المقدس طوى ، وقد اصطفى من الزمان رمضان ؛ فجعله خير شهر ، واصطفى منه ليلة هي ليلة القدر ، أنزل فيها القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام » .

وقد علمنا الله من فضل هذا الشهر ما شاء أن نعلم ، وتعبدنا نهاره بالإمساك عما يحل من حاجة البطن ورغبة الجسد ، حتى يروض نفوسنا على الإمساك عما يحرم ، فإن النفوس إذا صدعت بأمر ربها ، فامتنعت عن الحلالات سهل عليها أن تصدف طيلة أيامها عن المحرمات .

وإذا كان الصيام حرمان المادة بالجوع والعطش ؛ ففيه إشباع الروح بالشفافية والإشراق ، وعلى قدر ما في الصيام من سلبية لمقومات المادة من الغذاء ، تكون الإيجابية لمقامات الأرواح في مراقي الصفاء ، فالكثيفية الطينية إذا رقت تجلت اللطيفة الربانية وشفت ، وحينئذ يكون الإنسان ملائكي الطبع ، نوراني الخواطر ، رباني السلوك ، يذوق حلاوة الطاعة ، ويحس مباهج الورع ، وتنبسط نفسه للخير ونوازعه ، وحسبه أن أهيج بشر أن يقول - كما علمنا الرسول - : « إني صائم » .

وإذا حقق المسلم بصومه حكمة ربه ، صلح جسده بصلاح قلبه ، وعفت جوارحه عن محارم الله ، وتنزهت أفكاره عن خواطر السوء ، واستحق أن يكون صيامه أشرف أعماله ، كما قال تعالى في الحديث القدسي : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم ؛ فإنه لي وأنا أجزي به » .

أيها المسلمون : كل جمال الحياة فى حق يقال ، ويعمل له ، والحق جماعه التقوى ، ولهذا أجمل الله حكمة الصوم بقوله فى كتابه الكريم : « لعلكم تتقون » .

وكل مفاتح الحياة فى وزر يذاع ، ويعمل به ، وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم نقض الزور لحكمة الصوم حيث يقول : « من لم يدع قول الزور ، والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » ، وليس أحق ممن يحرم نفسه الطعام والشراب ، ويحرم نفسه مع ذلك من الأجر والثواب .

أيها المسلمون : لا تضيعوا على نفوسكم حكمة الصوم عند ربكم ، فتحشدوا عند الإفطار ألوانا من الطعام والشراب ، تسرفون فيها كما ، وتفتنون فيها كيفا وتجمعون ما فاتكم من وجبات ، تزحمون بها موائدكم ، وترهقون مواردكم ، فإنكم بهذا تتخمون ، وتعتادون على ما لا تقدرون ، وحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، وما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، ومع الجوع أى طعام مرىء ، ومع العطش أى شراب هنئ وقديما قيل : « نعم الإدام الجوع » :

أيها المسلمون : اذكروا عند فضول موائدكم من لا يجد كفافا ، وتحسسوا بأريحيتكم من لا يسأل الناس إلحافا ، والمؤمن كيس فطن ، يسبق بالنوال ولا يلجىء الفقير إلى ذل السؤال ، واجعلوا شكركم لنعم الله عليكم لطف بر ، وسماحة معونة ، حتى تكونوا أنتم ، والمحرومون فى نعمة الله سواء ، وكونوا للمعوزين كما تحبون لو كنتم محتاجين وبهذا تكونوا خلفاء الله بحق ، يعطى بأياديكم ، ويتفضل الله عليكم بثوابكم ، ويفرح بتعاونكم ويكرمكم بحبه فالخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إليه أرأفهم بعياله .

أيها المسلمون : إن الإيمان الذى وحد عقيدتكم فى إله واحد ، ووحد اتجاهكم فى الصلاة إلى كعبة واحدة ووحد دستوركم فى كتاب مبين ، وسنة مبينة ـ وحد بينكم فى الصيام ، فحين تسمعون (الله أكبر) مطلع الفجر تمسكون ، وحين تسمعون (الله أكبر) غروب الشمس تفطرون ، فيا له من جلال ، يحرم بكلمة ، ويحلل بكلمة ، فلو أنكم استقبلتم كل نواهى الله بالإعراض عنها ، وصدمتم بأوامره ، فأقبلتم عليها لعشتم فى عالم فاضل ، ومجتمع سعيد ، قوامه مشاركة فى الخير وتعاون على البر وتواص بالحق والصبر ، تواجهون الأحداث بطاقات موحدة تتكامل وتتكافل وتسعى إلى نبيل الأهداف بحزم العاقل ، وعزم الغيور ، وبهذا تعيشون رحماء فيما بينكم ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين .

(البقية على صفحة ٧٨١)

التطورات التشريعية للطلاق

للأستاذ محمد محمد المدنى

٣ — طلاق السكران والمكره

— ٦ —

١ — فى الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يكبر ، وعن المجنون حتى يعقل » وفى رواية : « وعن الصبى حتى يبلغ ، وعن المجنون حتى يفيق » . وفى رواية أخرى : « وعن الصبى حتى يحتلم » .

وهذا الحديث رواه أحمد ، والأربعة إلا الترمذى، وصححه الحاكم، وأخرجه ابن حبان.

ويدل هذا الحديث صراحة على أن المجنون لا يصح طلاقه كما لا يصح طلاق النائم والصبى .

ولذلك يقول ابن قدامة : أجمع أهل العلم على أن زائل العقل بغير سكر أو ما فى معناه لا يقع طلاقه .

ثم اختلف الفقهاء فى طلاق السكران بسبب — المعصية — على قولين :

الأول : أنه لا يقع ، وإليه ذهب عثمان ، وجابر، ويزيد، وعمر بن عبد العزيز ، وجماعة من السلف، وهو مذهب أحمد، وأهل الظاهر.

والثانى : أنه يقع ، وذلك يروى عن على وابن عباس وجماعة من الصحابة ، وعن الهادى ، وأبى حنيفة والشافعى ومالك .

وقد استدل القائلون بعدم الوقوع، بالحديث الذى ذكرناه، قالوا : لأن العلة فى عدم مؤاخذة المجنون فى الحديث هى زوال العقل ، فلا يصح تكليفه ، وهذه العلة متحققة فى السكران لأنه زائل العقل ، فهو غير مكلف ، وقد انعقد الإجماع على أن شرط التكليف العقل .

كما استدلوا بقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » . فالله تعالى يجعل قول السكران غير معتبر ، لأنه لا يعلم ما يقول فيدل ذلك على عدم اعتبار قوله فى الطلاق .

واستدل القائلون بوقوع طلاق السكران بهذه الآية نفسها حيث قالوا : إنما نهى عن قربان الصلاة حال السكر ، والنهى يقتضى أنهم مكلفون حيال سكرهم ، والمكلف يصح منه إنشاء الطلاق ، وأجيب : بأن الآية خطاب لهم حال صحوهم ، ونهى لهم قبل سكرهم وفى تفسيرها يقول صاحب المنار :

إن الخطاب موجه إلى المسلم قبل السكر بأن يجتنبه إذا ظن أنه ينتهى به إلى التلبس بالصلاة فى أثنائه فهو أمر بالاحتياط ، واجتناب السكر فى أكثر الأوقات » .

تفسير المنار جزء ٥ ص ١١٣ .

كما استدل القائلون بالوقوع بأدلة أخرى ناقشهم فيها مخالفوهم .

ومن ذلك يسلم أنه لم يرد نص من كتاب أو سنة بوقوع طلاق السكران ، ويعلم أن المسألة خلافية ، وقد جد الخلاف فيها في عهد التابعين ومن بعدهم ، وليس للصحابة فيها رأى إلا ما روى عن عثمان وغيره بعدم الوقوع على ما ذكرنا ، ويوجد في كل مذهب من المذاهب الأربعة رأيان : رأى بالوقوع ، ورأى بعدمه .

* * *

وكذلك اختلف السلف في طلاق المكره :

فجمهور العلماء يرون أنه لا يقع ويستدلون بقوله تعالى : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » فيقول الشافعي : إن الله لما وضع الكفر عمن تلفظ به حال الإكراه ، فكذلك يسقط عن المكره ما دون الكفر ، ويقول عطاء : الشرك أعظم من الطلاق ، أي فإذا وضع عن المكره ، فوضع الطلاق عنه أولى لأن الأعظم إذا سقط ، سقط ما هو دونه بطريق الأولى (راجع سبل السلام ج ٣ ص ١٧٧) .

وقد أخرج ابن ماجة ، وابن حبان ، والدار قطنى والطبرانى والحاكم في المستدرك من حديث ابن عباس ، وحسنه النووى كما جاء في نيل الأوطار : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« رفع عن أمتى الخطأ ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه » .

وهذا الرأى مروى عن على ، وعمر ، وابن عباس ، وابن عمر ، والزبير ، والحسن البصرى ، وعطاء ، ومجاهد ، وطاوس ، والأوزاعى ، والقاسمية ، والناصر ، والمؤيد بالله ، ومالك ، والشافعى ، كما ذكره صاحب نيل الأوطار .

ومن الفقهاء من يرى أن طلاق المكره يقع ، ويستدلون على هذا ببعض الأحاديث التى لا تنهض من جهة السند ، ولا من جهة الدلالة .

كالذى يروى من أن رجلا جلست امرأته على صدره ، وجعلت السكين على حلقه ، وقالت له : طلقنى أو لأذبحنك ، فناشدها الله تعالى فأبت ، فطلقها ثلاثا ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال « لا قيلولة فى الطلاق » .

أى : لا إقالة فيه ، فلابد من وقوعه .

وينقد ابن حزم هذا الخبر فيقول : إنه مروى عن صفوان ، وصفوان منكر الحديث ، وفى طريقه الغازى ابن جبلة ، وهو مغموز ، فهو خبر فى غاية السقوط .

وكذلك نقد ابن حزم حديثا آخر ، يقول : « كل الطلاق جائز ، إلا طلاق المعتوه المغلوب على عقله » فقال ابن حزم ، هذا الخبر الثانى شر من الأول ، لأنه مروى عن (عطاء بن عجلان) ، وهو مذكور بالكذب .

ومن أدلتهم أيضا أنهم قالوا : إن الفائت بالإكراه إنما هو الرضا ، أما تعمد اللفظ ،

والنطق به موجود ، وليس الرضا بشرط ، وذلك كطلاق الهازل فإنه واقع مع أن الرضا منه غير موجود .

ورد ذلك بأن المكره مخير بين الطلاق وأن يصيبه ضرر لا يقدر عليه ، قد يصل إلى الموت ، فهل يقاس بالهازل الذى يملك نفسه

* * *

وقد رجح القانون المصرى رقم ٢٤ لسنة ١٩٢٩ رأى القائلين بعدم وقوع طلاق السكران والمكره .

فجاء فى المادة الأولى منه ما نصه .

(لا يقع طلاق السكران والمكره) .

كما جاء فى الفصل التاسع والأربعين من القانون المراكشى ما نصه :

(لا يقع طلاق السكران الطافح ، والمكره وكذلك الغضبان إذا كان مطبقا أو اشتد غضبه) .

وجاء فى المادة الثامنة والستين من قانون حقوق العائلة الأردنى ما نصه :

(طلاق السكران ، وطلاق المدهوش ، والطلاق الواقع بالإكراه غير معتبر) .

ونصت المادة التاسعة والثمانين من قانون الأحوال الشخصية السورى على ما يأتى :

(لا يقع طلاق السكران ، ولا المدهوش ، ولا المكره) .

ونصت المادة الخامسة والثلاثين من القانون العراقى على أنه (لا يقع طلاق السكران والمجنون والمعتوه والمكره ، ومن كان فاقد التمييز من غضب ، أو مصيبة مفاجئة ، أو كبر ، أو مرض .

* * *

وواضح أن القوانين المذكورة ، تزيد على القانون المصرى ، حالات أخرى لا يقع فيها الطلاق ، وهى حالات : الجنون - العته - والدهش والغضب - والمصيبة المفاجئة - والشيخوخة . والمرض .

ولكل حالة من هذه الحالات توجيهها الفقهى .

وإنما لم ينص القانون المصرى على هذه الحالات اكتفاء برجوع القاضى إلى الفقه فى شأنها ، لأن معظمها يرجع التقدير فيه إلى القضاء ، فليس الغضب فى مرتبة واحدة ، ولا الدهش ، ولا المرض ، ولا كبر السن ، ولا المصيبة المفاجئة ، ليس شىء من ذلك بمحدد حتى ينص عليه القانون ، فالغضب مثلا ، كما يقول ابن القيم على ثلاثة أقسام :

أحدها : أن يحصل له مبادىء الغضب ، بحيث لا يتغير عقله ويعلم ما يقول ويقصده وهذا لا إشكال فيه ، والثانى : أن يبلغ النهاية فلا يعلم ما يقول ، ولا يريد ، فهذا لاريب أنه لا ينفذ شىء من أقواله . الثالث : من توسط بين المرتبتين ، بحيث لم يصر كالمجنون ، فهذا محل النظر (ابن عابدين ج ، ص ٤٦٣) .

وإذا كان الأمر فى الغضب على هذه المراتب المختلفة ، فقد ترك القانون النص عليه ،

واكتفى فى شأنه بما ورد فى الفقه الذى يرجع إليه حين لا يرد فى القانون نص .

ويقال مثل ذلك فى الأحوال الأخرى .

والقوانين التى نصت على هذه الأحوال تحتاج أيضا فى تطبيقها إلى النظر والتقدير من القضاء ، والرجوع إلى الفقه ، وإلى واقع حال المطلق لضبط النظر والتقدير .

ومن ثم فلا نرى كبير فائدة فى النص على ما نصت عليه زيادة على ما ورد فى القانون المصرى .

هذا أهم الموضوعات التى يظهر فيها أثر التطور التشريعى ، فيما بين الفقهاء متقدميهم ومتأخريهم ، وفيما انتهى إليه التشريع القانونى المستند إليهم فى عصرنا الحاضر ، ولم نقصد استيعاب كل موضوع ، ولا التوسع فى ذكر التفصيلات والأدلة ، ولكن قصدنا ما يكون به التوضيح ، وبالله التوفيق ؟

محمد محمد المدنى

(بقية المنشور على صفحة ٧٧٧)

أيها المسلمون : إن سلوككم عرض تطبيق لمبادىء الإسلام ، فكونوا أمناء على هذا العرض ؛ لأنكم إذا انحرفتم عن الإسلام بسلوككم ، مكنتم أعداءه من التشكيك فى صلاحيته ، والاجتراء عليه بوافدات الإلحاد ، وخداعات المبادىء ، فكونوا كما أراد الله : أسوة حسنة ، ومثلا إسلاميا أعلى ، يلفت الدنيا إلى محاسن الإسلام ، ويعلم المخدوعين والمفتونين بأنه لا صلاح لدنيا الناس إلا بالدين .

أيها المسلمون : إنكم بصيامكم تنتصرون على نفوسكم ، وهى أعدى أعدائكم ، ومن انتصر على نفسه ، هان عليه أمر خصمه ، فخذوا من الصيام دربة نضال وطاقة كفاح ، وانفعالة جهاد ، وكونوا للضعيف حزبا ، وعلى المظلوم حربا حتى يطهر العالم من جنون التسلط ، وجبروت الاستعلاء ، وحتى ترفعوا تبعية المستضعفين إلى ذاتية المتحررين .

أيها المسلمون : قبل الله صيامكم وقيامكم ، وجعل لكم فيما ترتلون من القرآن ، وتتدارسون من السنة ، هدى ونوراً يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ووفقكم الله إلى صالح القول ، وسديد العمل وأعاد عليكم هذا الشهر كما تحبون ، وفوق ما تؤملون ، وأيد الله قادتكم ومكن لهم ، حتى يجمعوا على سلام الإسلام كل الدنيا ، وتكون كلمة الله هى العليا ؟

حسن مأمون

شيخ الأزهر

النظام الاقتصادى فى الإسلام

ووضعه بين النظم الاقتصادية الحاضرة

للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

ترجع أهم الأوضاع الاقتصادية المطبقة فى الوقت الحاضر إلى ثلاثة نظم ، يطلق عليها أسماء : الشيوعية والرأسمالية والاشتراكية .

وتبدو أهم مظاهر الخلاف بين هذه النظم فى موقف كل نظام منها حيال الملكية وأنواعها وحقوقها وواجباتها .

وذلك أن الملكية تنقسم قسمين : ملكية فردية ، وملكية جماعية .

فأما الملكية الفردية : فهى التى يكون المالك فيها فرداً معيناً بذاته ، أو أفراداً معينين بذواتهم .

وأما الملكية الجماعية فهى التى لا يكون المالك فيها فردا معينا ، ولا أفراداً معينين بالذات ، وإنما يكون شخصاً اعتبارياً مفروضاً فيه الاستقرار والبقاء ، كالأمة والدولة والعشيرة والقبيلة والجمعية ... وما إلى ذلك ، فحينما يقال مثلا : إن هذه الأرض ملك للدولة أو الأمة ، يكون معنى ذلك أنها ملك الشخص الاعتبارى المتمثل فى الدولة أو الأمة والمفروض فيه الدوام والبقاء على الرغم من فناء الأفراد الذين يتمثل فيهم وتجددهم جيلا بعد جيل .

ونظام الملكية الجماعية معترف به فى جميع الأمم والشرائع ؛ فليس ثمة شريعة إنسانية لا تقر الملكية الجماعية فى صورة ما ، وليس ثمة أمة قديمة ولا حديثة لا يوجد فيها مظهر ما من مظاهر هذه الملكية .

وإنما الخلاف بين النظم الاقتصادية فى هذه الناحية ينحصر فى موقفها حيال النوع الثانى من الملكية وهو الملكية الفردية

فالنظام الشيوعى لا يقر الملكية الفردية على الإطلاق أو لا يقرها إلا فى أمور ليسة ذات بال فى الإنتاج لجميع الملكيات أو بعبارة أدق جميع الملكيات ذات الأهمية فى الإنتاج ملكيات جماعية فى هذا النظام ، تملكها الدولة نفسها ، وتوزع الجهود اللازمة لاستغلالها ونتائج ثمراتها على أفراد الشعب وفق ما ترتضيه من نظم وأوضاع .

والنظامان الآخران ، وهما النظام الرأسمالى والنظام الاشتراكى ، يقران الملكية

الفردية فى المنقول والعقار ، وتختلف مصادر الإنتاج .

ولكنهما مع ذلك يختلفان فى موقف كليهما حيال حقوق هـذه الملكية وواجباتها .

وذلك أن الملكية الفردية تمنح صاحبها مبدئيا حقوقا كثيرة ، يرجع أهمها إلى أربعة حقوق ، وهى : الدوام ، وحرية النوع ، وحرية المقدار ، وحرية التصرف .

أما حق الدوام : فمعناه بقاء الملكية ما بقيت العين المملوكة ، وهذا الدوام يكون أحيانا دواماً حقيقياً ، وأحيانا يكون دواما اعتبارياً فيكون دواماً حقيقياً إذا كانت العين المملوكة قابلة للاستهلاك وأتيح لصاحبها أن يستهلكها فى حياته ، فى هذه الحالة يصدق على الملكية أن يد مالكها بقيت مسيطرة عليها طول المدة التى استغرقها بقاؤها ، ويكون الدوام اعتبارياً إذا كانت العين المملوكة غير قابلة للاستهلاك كالأراضى والعقار ، ويموت صاحبها ، وهى لا تزال باقيـة ، أو قابلة للاستهلاك ولم يتح لمالكها أن يستهلكها فى حياته ، فى هذه الأحوال يتحقق الدوام فى صورة اعتبارية تواضعت عليها شرائع الأمم التى تقر الملكية الفردية ، وذلك بأن تنتقل العين بعد وفاة مالكها إلى من يوصى هو بانتقالها إليه أو إلى من تقرر النظم الاجتماعية انتقالها إليهم عن طريق الميراث فنى كلا الحالين لا يعتبر هذا الانتقال تملكا جديداً من جميع الوجوه ، بل يعتبر بمثابة امتداد للتملك الأول ، لتحقيقه لرغبة المالك الأصلى فى حالة الوصية ولتعلقه بأفراد يمتون للمالك الأصلى بلحمة قرابة قوية ، تجعلهم صورة متجددة منه فى حالة الميراث . فكأن هؤلاء وأولئك يمثلون المالك الأول ، وكأن الملكية الأولى نفسها لا تزال قائمة ، وإن لبست ثوباً آخر غير ثوبها القديم .

وأما الحق الثانى ، وهو حرية النوع : فمعناه أن يكون للمالك الفردى الحق فى أن يحوز من أنواع الممتلكات ما يشاؤه وتسمح به إمكانياته .

وأما الحق الثالث : وهو حرية المقدار ، فمعناه : أن يكون للمالك الحق فى تملك أى مقدار ، بالغة ما بلغت قيمته .

وأما الحق الرابع : وهو حرية التصرف فمعناه : أن يكون المالك الحق فى أن يفعل فى ملكه ما يشاء وفى أن يهمله ؛ فلا يفعل فيه شيئا ، فحرية التصرف لها وجهان : وجه إيجابى ؛ ووجـه سلبى ، ويتمثل وجهها الإيجابى فى أمور كثيرة : من أهمها استغلال الشىء المملوك ، واستهلاكه ، وإبادته وبيعه ، وهبته ، وإعارته ، وتأجيره ، والوصية به ،

ووقف غلتـه على فرد أو أفراد ، أو هيئة ما بعد الوفاة ... وهلم جرا .

هذا ولا توجد شريعة من الشرائع التي تقر الملكية الفردية تمنح المالك الحقوق السابق ذكرها في صورة مطلقة وتعفيه من الواجبات بل إن كل شريعة منها لتعمد إلى كل حق من هذه الحقوق فتقيده في سبيل الصالح العام وحماية حقوق الآخرين ، واتقاء الضرر والضرار ، وتفرض بجانب ذلك على المالك عدة واجبات يؤديها للدولة وللمجتمع في مقابل ما بقي له من حقوق .

غير أن النظامين اللذين يقران الملكية الفردية . وهما : النظام الرأسمالي ، والنظام الاشتراكي ، يختلف كلاهما عن الآخر في مبلغ القيود التي يقيد بها حقوق الملكية الفردية ومبلغ ما يضعه على كاهل المالك الفردي من واجبات وأعباء .

فالنظام الرأسمالي لا يمس الحقوق السابق ذكرها إلا برفق ، وفي حدود ضيقة وكذلك يخفف ما أمكنه التخفيف فيما يضعه على كاهل المالك الفردي من واجبات وأعباء . وبالجملة يجنح إلى تغليب ناحية الحقوق في الملكية الفردية على ناحية الواجبات ، ففي النظام الرأسمالي في الولايات المتحدة الأمريكية مثلا لا توجد إلا قيود ضئيلة على الحقوق السابق ذكرها ، وفيما عدا هذه القيود الضئيلة يجوز للمالك الفردي أن يوصي بملكه لمن يشاء ولما يشاء (حق الدوام) وأن يملك أي نوع من الممتلكات ، ولذلك نسمع في الولايات المتحدة بملوك البترول الذين يملكون حظا كبيرا من آبار البترول في العالم ، وملوك الصلب الذين يملكون معظم مصانع الصلب وملوك السكك الحديدية ، وملوك البنوك ، وملوك الصحافة ... وهلم جرا (حرية النوع) وأن يملك أي مقدار بالغة ـ ما بلغت ـ قيمته ولذلك نسمع في هذه البلاد بأصحاب الملايين الذين يملكون ما تبلغ قيمته عدة ملايين من الدولارات ، وبأصحاب المليارات الذين يملكون ما تبلغ قيمته عدة مليارات ، أي عدة آلاف من ملايين الدولارات (حرية المقدار) ؛ وليس ثمة قيود يعتد بها على حرية التصرف الإيجابي والسلبي في الملكية الفردية في هـــذه البلاد ، وكذلك يحرص نظامها الرأسمالي على تخفيف الواجبات والأعباء التي يضعها على كاهل المالك الفردي ، ففي ظل النظام الرأسمالي يطلق العنان لرأس المال ، فيطغى ويسيطر على شئون الإنتاج والاقتصاد على العمل ، بل قد يسيطر كذلك على شئون السياسة والاجتماع ، وتتحقق ظاهرة الثراء الفاحش لبعض النـاس ، وتتسع الفروق المالية بين الأفراد والطبقات نظراً لإطلاق حرية التملك ، وحقوق المالك الفردي ، مع

اختلاف الناس بعضهم عن بعض فى كفاياتهم ومواهبهم ، وما يتاح لكل منهم من فرص وظروف .

على حين أن النظام الاشتراكى يكثر من القيود التى يقيد بها حقوق الملكية الفردية ، ومن الأعباء التى يضعها على كاهل المالك الفردى: وبالجملة يجنح إلى تغليب ناحية الواجبات على ناحية الحقوق . فنى النظم الاشتراكية يقيد حق المالك بقيود كثيرة فى شئون الوصية والميراث ... وما إليهما (تقييد حق الدوام) ؛ ويضيق من نطاق الملكية الفردية ؛ فيستثنى منها أمورا كثيرة ، تعمد هذه النظم إلى تأميمها أى إلى جعل ملكيتها ملكية جماعية للأمة (تقييد حرية النوع) ؛ وقد توضع حدود قصوى لما يجوز للمالك أن يملكه من بعض الأشياء ، أو لما يجوز أن تصل إليه قيمة ممتلكاته جميعها (تقييد حرية المقدار) ؛ وتتدخل الدولة كذلك تدخلا كبيراً فى شئون البيع ، والإجارة والهبة والاستغلال والاستيراد والتصدير .. وما إلى ذلك (تقييـــد حرية التصرف الإيجابى) ؛ ويحظر على المالك أن يهمل بعض الممتلكات ، ويتركها بدون استغلال ولا انتفاع (تقييد حرية التصرف السلبى) . وفضلا عن هذا كله،تحرص النظم الاشتراكية على فرض كثير من الواجبات والأعباء على المالك الفردى . وترجع أهم هذه الواجبات إلى ما تفرضه من رسوم وضرائب تصاعدية على التركات والأيلولة ، والمهن التجارية ، والمهن الحرة غير التجارية ، وكسب العمل ، والإيراد العام . وترمى النظم الاشتراكية من وراء ما تضعه من قيود على حقوق الملكية الفردية وما تفرضـه من واجبات على كاهل المالك الفردى إلى تقليم أظافر رأس المال ، وتجريده من وسائل السيطرة والنفوذ ، واستقرار التوازن الاقتصادى ، وتحقيق تكافؤ الفرص ، وتقليل الفروق المالية بين الطبقات والأفراد ، وتقريب الطبقات بعضها من بعض ، والأفراد بعضهم من بعض ، واتقاء تضخم الثروات ، وتجمعها فى أيد قليلة :

والنظم الاشتراكية أنواع مختلفات : فنها ما لا يبعد كثيراً عن النظام الرأسمالى ؛ ومنها ما يمعن فى تقييد حقوق الملكية الفردية ، وفى إكثاره من واجباتها ؛ حتى ليكاد يقضى عليها ، ويشل حركتها ؛ فيقرب بذلك من النظـام الشيوعى ؛ ومنها ما هو وسط بين هذا وذاك .

* * *

هذا ، وقد وضع الإسلام فى شئون الاقتصاد نظاما حكيما ،يقوم على الدعائم الثلاث الآتية :

١ ــ الدعامة الأولى تتمثل فى : إقرار الملكية الفردية وحمايتها . فالإسلام يقر الملكية الفردية ، ويذلل أمام الفرد سبل التملك ، والحصول على المال ، ويعطى كل مجتهد جزاء اجتهاده من ثمرات الحياة الدنيا ، ويفسح المجال أمام المنافسة ، والعمل على التفوق . وبذلك يحقق تكافؤ الفرص بين الناس فى هذه الميادين . ولا يكتفى الإسلام بإقرار الملكية ، وتيسير سبل الحصول عليها ، بل يحيطها كذلك بسياج قوى من الحماية ، كما تدل على ذلك الحدود والعقوبات الدنيوية والأخروية التى يقررها مختلف أنواع الاعتداء على الملكية الفردية ، كالسرقة ، وقطع الطريق ، والغصب ، ونقل حدود الأرض ، ... وما إلى ذلك ؛ بل إن الإسلام لينهى عن مجرد النظر بعين نهمة إلى ملكية الغير ، وفى هذا يقول الله تعالى : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم .... » . وفى سبيل حماية الملكية الفردية يجيز الإسلام للمالك أن يدفع عن ملكه بكل وسائل الدفاع ، حتى لو ألجأه ذلك إلى قتل المعتدى ، وفى هذه الحالة لا قصاص عليه ، وإذا قتل هو يموت شهيداً ، وفى هذا يقول الرسول عليه السلام : « من قتل دون ماله فهو شهيد » .

٢ ــ ولكن الإسلام مع إقراره للملكية الفردية ، وحمايته لها ؛ يعمد إلى حقوقها فيقيدها بقيود كثيرة ، ويضع على كاهل المالك ــ فى مقابل ما بقى له من حقوق ــ عدة واجبات يؤديها للدولة ، وللمجتمع ، وللمعوزين من الناس . ويقصد الإسلام من وراء ما يضعه من قيود على حقوق هذه الملكية ، وما يقرره من واجبات على مالكها إلى أغراض سامية . فبفضل هذه القيود ، وهذه الواجبات ، يكفل الإسلام تحقيق العدالة الاجتماعية ، وإقرار التوازن الاقتصادى ، وتقليل الفروق بين الطبقات ، وتقريبها بعضها من بعض ، واتقاء تضخم الثروات وتجمعها فى أيد قليلة ، وتجريد رأس المال من وسائل الجبروت ، والطغيان ، والسيطرة على شئون الحياة .

فقد قيد الإسلام حق الدرام بما وضعه من نظم للميراث والوصية . فوضع للميراث نظاما حكيما يكفل توزيع الثروات بين الناس توزيعا عادلا ، ويحول دون تضخمها ، وتجمعها فى أيد قليلة ، ويعمل على تقليل الفروق بين الطبقات والأفراد . وذلك أن يقسم التركة على عدد كبير من أقرباء المتوفى ، فيوسع بذلك دائرة الانتفاع بها من جهة ، ويحول من جهة أخرى دون تجمع ثروات كبيرة فى يد فئة محدودة من الملاك ، ويقرب طبقات الناس بعضها من بعض . فهو يورث الأبناء والبنات ، والآباء والأمهات ، والأجداد

والجدات ، والأزواج والزوجات ، والإخوة والأخوات ، والأعمام وأبناء الأعمام ، وأبناء الإخوة وأولاد الأبناء ، بل يورث ذوى الأرحام أنفسهم فى بعض الأحوال . فبفضل هذا النظام الحكيم لا تلبث الثروة الكبيرة التى يتفق تجمعها فى يد بعض الناس أن تتوزع بعد بضعة أجيال على عدد كبير من الأنفس ، وتستحيل إلى ملكيات صغيرة . وهذه هى أمثل طريقة لتقليل الفروق بين الطبقات والأفراد ، وتحقيق التوازن الاقتصادى ، وعلاج ما عسى أن يطرأ على هذا التوازن من اضطراب . وقيد الإسلام كذلك حق المالك فى الوصية حتى لا يتلاعب فى قواعد الميراث ويحول دون تحقيق أغراضها السابق ذكرها ، فقرر أنه لا تصح إلا فى حدود الثلث من الوصية (١) .

وقيد الإسلام كذلك أنواع الملكية الفردية ، فأخرج من نطاقها الأشياء التى لا يتوقف وجودها ولا الانتفاع بها على مجهود خاص كبير ، وتكون ضرورية لجميع الناس ، وأوجب أن تكون ملكيتها ملكية جماعية ، حتى لا يستبد بها فرد أو أفراد ، فيضار المجتمع من جراء ذلك ، وقد عد الرسول عليه السلام من هذا النوع أربعة أشياء وهى : الماء والكلأ والنار والملح ، وقاس عليها الفقهاء نظائرها ، مما تتوافر فيه صفاتها وحكمتها كالطرق والجسور والخزانات والآثار القديمة ... وما إلى ذلك . بل لقد قاس عليها (الإمام مالك) جميع ما يوجد فى باطن الأرض من معادن صلبة أو سائلة حتى لو كانت الأرض نفسها مملوكة لبعض الناس ، وحجته فى ذلك أن مالك الأرض إنما يملك ظاهرها دون باطنها ؛ ولأنه يملك ما تستعمل فيه الأرض عادة وهو الزرع والبناء وليس من الانتفاع المعتاد بالأرض استخراج المعادن منها ، ولأن المعادن هى وديعة الله فى الأرض ، فتكون لكل خلقه لا يختص بها إنسان دون آخر ولأنها من الأمور ذات النفع العام ، فهى تشبه الأمور التى ذكر الرسول عليه السلام أنه لا يصح أن يستأثر أحد بملكيتها ، ولأنها لا توجد إلا فى مواطن خاصة ، والناس جميعا فى حاجة إليها ، فلو أجيز تملكها تملكا فرديا لنال الناس من جراء ذلك ضرر كبير ، ورأى الإمام مالك فى هذا الصدد هو أمثل الآراء ، وأكثرها اتساقا مع روح الشريعة الإسلامية .

وقيد الإسلام كذلك حرية التصرف بقيود تحقق الأغراض السابق ذكرها ، وتكفل

---

(١) وتكون لغير وارث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا وصية لوارث » وبذلك يتوزع جزء من المال على غير الوارثين فيزيد الانتفاع .

عدم الإضرار بحقوق الآخرين وبالصالح العام فحرم الإسلام على المالك كل تصرف فى ملكه يؤدى إلى ضرر عام أو خاص أو ينطوى على اعتداء على حرية الآخرين . وذهب الإسلام فى هذه السبيل إلى حد أنه يجيز نزع الملكية من صاحبها إذا أساء استخدام حقه فيها . ولم يكن ثمة وسيلة أخرى لمنعه من ذلك .

ووضع الإسلام على كاهل المالك الفردى فى مقابل ما بقى له من حقوق واجبات وأعباء كثيرة يؤديها للدولة وللمجتمع وللصالح العام وللمعوزين من الناس كزكاة النقد والأنعام وعروض التجارة وحاصلات الزراعة والخراج والضرائب والكفارات المالية والصدقات الموسمية كزكاة الفطر والصدقات المستحبة التى لا تكاد سورة من القرآن تخلو من الحث عليها وبيان عظيم أجرها يوم القيامة وتدل آيات كثيرة من القرآن على أن الإسلام ينظر للملكية الفردية على أنها مجرد وظيفة يقوم صاحبها بأداء حقوقها وإنفاق المال على مستحقيه وينظر إلى المالك على أنه مستخلف على ثروته من قبل الله لإنفاقها فى سبيله وفى هذا يقول الله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » .

٣ — وأما الدعامة الثالثة فتتمثل فى الأسس العامة التى يقيم عليها الإسلام العلاقات الاقتصادية بين الناس ، وذلك أن الإسلام لا يقيم هذه العلاقات على أسس مادية ، كما تفعل النظم الأخرى ، وإنما يقيمها على أسس إنسانية خلقية ، يتحقق بفضلها : التكافل ، والتعاون ، والتحاب ، والتواد والتراحم بين الناس بعضهم مع بعض ، والتواصى بالبر والخير ، والعدل والإحسان واحترام الشخصية الإنسانية التى كرمها الله فينظر كل فرد إلى الآخر على أنه غاية لا على أنه وسيلة ؛ تستخدم لجلب المنفعة ، ويحب كل فرد لغيره ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه ، وبذلك يضع الإسلام أمثل نظام للضمان الاجتماعى .

وفى هذه السبيل يحرم على الإنسان كل تصرف اقتصادى يجافى هذه المبادئ ، فيحرم الربا والرشوة وأكل أموال الناس بالباطل ، والغش فى المبيعات ، وإخفاء عيوبها ، وتطفيف الكيل والميزان واحتكار السلع الضرورية ، والتحكم فى أسعارها ، واستغلال النفوذ ، والسلطان للحصول على المال ... وما إلى ذلك من طرائق الكسب التى تنبو عن الخلق الكريم ، ولا تتفق مع واجب الإنسان نحو أخيه الإنسان .

وفى هذه السبيل كذلك يوجب الإسلام

على الأغنياء من الأقرباء أن ينفقوا على الفقراء والمساكين والعاجزين عن الكسب من أقربائهم ، ويوجب على أهل كل حى أن يعيش بعضهم مع بعض فى حالة تكافل وتعاضد ، يرق غنيهم لفقيرهم ويسد شبعانهم حاجة جائعهم ، حتى لقد ذهب جماعة من الفقهاء على رأسهم (الإمام ابن حـــزم) إلى مسئولية البلد الذى يموت أحد أفراده جوعا فيدفع أهله الدية إلى أسرته متضامنين كأنهم شركاء فى موته ويوجب فى حالة الشدة والضرورة أن يعود القادر على المحتاج بما يسد حاجته ، ويحث الجار على الإحسان إلى جاره ، ولو لم يكن من أقربائه ، ولو كان على دين غير دينه ، ويوجب على بيت المال الإنفاق على الزمن وهو العاجز عن الكسب وعلى الشيخ الفانى ، وعلى المرأة إذا لم يكن لواحـــد من هؤلاء من تجب عليه النفقة من أقربائه ، ولا يفرق الإسلام فى ذلك بين المسلم وغير المسلم .

* * *

والنظام الاقتصادى فى الإسلام ليس إذن نظاما شيوعياً لأنه يقر الملكية الفردية ويحميها ؛ وليس نظاما رأسمالياً لأنه لا يطلق العنان لرأس المال ، بل يحرص على تجريده من وسائل الطغيان ، والسيطرة والنفوذ ، وليس من النظم الاشتراكية المتطرفة إلى اليسار ، لأنه لا يمعن فى إضعاف رأس المال الفردى ، بل يفسح له المجال للقيام بوظيفته فى حدود الصالح العام ، بوصفه عاملا هاما من عوامل الإنتاج ، وليس من النظم الاشتراكية المتطرفة إلى اليمين ، لأنه لا يجنح مثلها إلى تخفيف رقابته على الملكية ورأس المال الفردى .

وهو نظام نسيج وحده ، منقطع النظير بين النظم الاقتصادية السائدة فى الوقت الحاضر ، لا يدانيه نظام منها فى سموه ودقته ومبلغ تحقيقه لخير الأفـــراد والجماعات ، له مقوماته ومثاليته الخاصة به ، وإذا كان لا بد من وصفه بصفة من الصفات المتداول استعمالها على ألسنة المحدثين من علماء الاقتصاد فإننا نصفه بأنه نظام اشتراكى معتدل.

والنظم الاشتراكية فى عمومها كما تقدم بيان ذلك نظم وسطى بين الشيوعية والرأسمالية ، تأخذ ما فيهما من محاسن وتبرأ عما تنطويان عليه من مثالب ، والنظام المعتدل منها هو أوسطها جميعا فالنظام الاقتصادى فى الإسلام هو إذن وسط وخيار من خيار ؟

دكتور على عبد الواحد وافى

مقومات القيادة الناجحة فى الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

يطلق اصطلاح القيادة فى علم « الإدارة العامة » على السلطة التى لهـا حق إصدار القرارات . والقيادة ضرورة حتمية فى جميع المستويات إبتداء من الدولة حتى أصغر قطاع فى المجتمع ، وتتمثل القيادة فى الأشخاص الذين ارتضتهم الجماعة رؤساء وحكاما ، سواء فى المجال السياسى أو الحربى ، أو الاجتماعى ، أو الإدارى .

ويرجع نجاح القيادة إلى إخلاص الرؤساء وشجاعتهم ونشاطهم وكفايتهم وفهمهم الصحيح لمستوياتهم وأهدافهم - ومن ثم كان على الجماعة أن تحسن اختيار قائدهـا ، فأما إذا أخطأها السداد فولت عليها من لا يصلح للقيادة فإنها سوف تجنى - بلا ريب - مغبة سوء اختيارهـا فتضطرب أمورهـا وتخف فيها موازين العدالة .

ولقد آثرنا فى هـذا البحث أن نستخدم كلمتى القـائد والقيادة دون كلمتى الرئيس والرئاسة نظرا لمـا استقر عليه الباحثون فى علم الإدارة من التفريق بينهما فى المعنى ، فالرئيس : هو الشخص الذى يفرض إرادته بإصدار الأوامر وإلزام الأفراد بتنفيذها ، فهو يستمد سلطته من مصدر أعلى من الجماعة - كالتشريع - دون أن يعززه بقوة الرأى العام المنبثقة من إجماع الأفراد على احترامه وطاعته . وهو لا يتجاوب مع الجماعة ، ولا يهتم بتنميتها ؛ بل يعمد إلى الاحتفاظ بما لديه من معلومات ، ويفخر بأنه لا يوجد ثمة متخصص سواه ، الأمر الذى يضر بالصالح العام ؛ لمـا ينشأ عنه من سوء فى العلاقات ، وافتقـاد الثقة ، وسريان اليأس والتواكل فى نفوس المرءوسين .

أما القـائد : فهو الذى يستمد سلطانه ونفوذه من الرضاء العام ، وهو يحوز هـذا السلطان طواعية من أعضاء الجماعة ، لا رهبة أو خوفا من العقاب . وهو يتخذ من التعاون فى سبيل تحقيق الصالح المشترك أسلوبا للعمل . ويتطلب هذا الأسلوب وعيا ومعرفة وقدرة على تصريف الأمور وانتهاج السياسة المناسبة وتوثيق العلاقة بين الحاكم والمحكوم . فإذا توافرت هـذه المقومات لولى أمر الجماعة ؛ فإنه يصبح معلما ومربيا لها ، يرقى بمستواها ، وينقل إليها خبراته ، ويبدى لهـا المشورة القائمة على السند العلمى والتجارب السابقة ،

ويتعاون معها على قدم المساواة ، وهو يطرح المشكلة للبحث عن حل لها يحقق الأغراض المنشودة . وبهذه الروح يضع أسلوب العمل، ثم يبدأ فى التنفيذ حتى يصل إلى خاتمة البرنامج .

وفى ضوء هذه المبادىء نستطيع أن نعرف وظيفة القيادة الناجحة بأنها : القيام بتلك الأعمال التى تعين الجماعة على تحقيق أهدافها بمعنى العمل على أن يتعاون أعضاؤها بطريقة تضمن تماسك الجماعة وتحركها فى الاتجاه الملائم . ومن ثم فإن القيادة ـ على خلاف الرئاسة ـ تنبع من الجماعة ويشعر الأعضاء بالحاجة إليها ، وهى تؤمن بأهداف الجماعة وتشعر بمشاعرها ، وتستمد منها سلطانها .

على أن التفرقة بين القيادة والرئاسة لاتصل إلى حد وصفهما بأنهما نقيضان ، فالرئيس الكفء يستطيع أن يبلغ مرتبة القيادة وكثيراً ما شاهدنا رؤساء يندمجون فى الإدارات التى يتولون أمورها ويتعاونون مع سائر العاملين بها فينظر الفرد إلى الرئيس أو المدير ، على أنه عضو فى الجماعة ، وقائد لها فى نفس الوقت ، ومن هنا فإن القيادة تتعلق بشخص الرئيس نفسه ، فالرئيس الذى يشغل منصباً صغيراً ، فى مكنته أن يرتفع بمستوى رئاسته إلى درجات القيادة الناجحة على حين أن شاغل المنصب الرئيسى قد يعجز عن الوصول إلى مستوى القيادة لعدم توافر مقومات القيادة فى شخصه .

ولقد انتهى الباحثون من استقراء سير العظماء والأبطال فى تاريخ الإنسانية إلى استنباط عدة معايير وصفات للقائد الناجح يمكن إجمالها فيما يأتى :

- الانتماء إلى الجماعة .
- الإيمان برسالته .
- القدرة على تحديد الهدف .
- الفطنة ، وقوة العارضة، وسعة الأفق .
- حسن المظهر ، وقـــوة التحمل ، والاتزان النفسى .
- القدرة على التأثير ، والإقناع .
- القدرة على الحركة والنظر إلى المستقبل .
- الإلمام بالعمل ، والقدرة على التخطيط والتنظيم .
- القـــدرة على تحمل المسئوليات ، وحسن الإدارة .
- القدرة على اكتساب ثقة المرءوسين عن طريق مطابقة قوله لفعله .
- تدريب المرءوسين على العمل وفقاً للأصول السليمة .
- الإشراف على المرءوسين ، ومتابعة خطوات العمل .
- النزاهة والعدالة فى المكافأة والعقاب .
- الأبوة والحزم .

• حسن اختيار المعاونين ، ووضع الرجل المناسب فى المكان المناسب .

• إنشاء علاقات إنسانية بين الجماعة على مستوى رفيع .

• الإيمان بالقيادة الجماعية القائمة على الشورى .

• المبادرة إلى علاج ما قد ينشأ من انحرافات قبل استفحالها .

تلك هى أهم الصفات والمناقب التى يمتاز بها القائد الفذ فى المجتمع فتسلكه فى عداد الأبطال والرواد فى تاريخ الحضارة الإنسانية .

بيد أن التاريخ لم يسجل منذ نشأة الحضارات فى أقدم العصور أعظم ولا أقدر على البقاء من سيرة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وسير القادة المسلمين فى العصور الأولى للإسلام .

وسوف نحاول فى هذا البحث أن نتناول الجوانب القيادية فى سيرة الرسول الكريم ، وذلك فى ضوء النظريات والأفكار الحديثة التى قدمناها حول القائد والقيادة ، مستهلين هذه الدراسة بالحديث عن المقوم الأول من مقومات القيادة فى شخصية الرسول ، ونعنى به « الانتماء إلى الجماعة » .

لقد أجمع العلماء المتخصصون فى بحث القيادة ومقوماتها على أن القائد الذى ينبثق من صميم الجماعة سرعان ما تهوى إليه أفئدة العناصر الصالحة منها بحكم تجاوبها معه نفسيا وفكريا واجتماعيا . إذ تشعر هذه العناصر أن قائدها لم يفرض عليها ، وإنما أختير من صميم مجتمعها ، فهو قد نما وتطور فى ظل الظروف والمراحل التى مرت بها ، وإن كان يمتازعنها بصفات ومناقب خاصة تجعله أهلا لشغل مكان الصدارة منها . ومن هنا يلتقى القائد والجماعة فى بيئة واحدة ، وعلى أرض مشتركة يبدأ منها سيره نحو تحقيق أهدافه فى ظل دفع مستمر ، أشبه بموجات تسرى فى الجماعة من تأثير القائد فيمن حوله وتأثرهم به فى حلقات متصلة بغير انقطاع .

ولقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن فرض رئيس على جماعة لا ينتمى إليها هو أحد الأسباب الجوهرية التى تؤدى إلى هبوط الروح المعنوية ، وسوء العلاقات ، الأمر الذى ينعكس على العمل ، ويخلق مشاكل لا عداد لها ، إذ كثيراً ما نجد أن مثل هذا الرئيس الذى وضع فى غير موضعه ، يعنى بأمور تخرج عن محيط اهتمامات الجماعة ، ولا تتصل بمصالحهم ، أو صالح العمل اتصالا مباشراً فهو يعيش بينهم ولكنه يظل فى عزلة نفسية وفكرية عنهم ، وهو نتيجة لهذا التباين فى الأحاسيس والأفكار ، يجد نفسه تلقائيا مسوقا إلى اتخاذ مركز مصطنع يقيمه على أساس السلطة المفروضة ويحتفظ به رئاسته

الشكلية التى تتمثل فى الأثاث والرياش والعرض دون الجوهر ، تمييزاً لنفسه عن سائر أعضاء الجماعة ، دون أن يتصدى لعلاج المشكلات التى تعترض العمل والعاملين .

وهو يفضل هذا كله تغطية لقصوره فى الإنتاج بأكوام من الكماليات والرسميات وبذلك تنشأ حواجز مصطنعة بين هذا الرئيس والمجموعة .

كذلك فإنه ينشأ عن عدم انتماء هذا الرئيس إلى الجماعة أن يلجأ إلى أسلوب التفرقة ويعمد إلى المحاباة والتحيز ، فيقرب هذا ويبعد ذاك ويشغلهم بذلك عن تحقيق أهداف العمل .

وإذا أمعنا النظر فى سيرة الرسول عليه الصلاة السلام على ضوء هذه الأفكار ، والنظريات العلمية الحديثة ، أدركنا مدى اكتمال عنصر الانتماء إلى الجماعة فى القائد الأعظم للأمة الإسلامية . يقول الله تعالى :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

ذلك أن الشريعة الإسلامية قد نزلت على الأمة العربية ، فاختار الله لها نبيا من أبناء هذه الأمة ، واجتباه من مكة مدينة البيت الحرام التى هبطت فيها الرسالة والتى يعتبر أهلها أكثر العرب تمثيلا لخصائص العربية وشاء الله تعالى أن ينتمى رسوله عليه السلام إلى قبيلة قريش أكبر القبائل العربية ، وإلى بيت عبد المطلب أعرق بيوتها وأطهرها وأنقاها . وقد غابت هذه الحكمة عن نفر من العرب طمس الله على قلوبهم ، وأعمى بصائرهم ، فهم لا يفقهون ، فاستنكروا أن ينزل الله رسالته على بشر مثلهم ، لا يختلف عنهم فى شئون الحياة . وما أبلغ الصورة التى تعبر عن هذا الموقف فى قوله تعالى :

« وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها . وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا . أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » .

ومن قبل هؤلاء الضالين كان أسلاف لهم فى العصور القديمة أنكروا على أنبيائهم ما أنكره هؤلاء ، غير مدركين أن انتماء الرجل صاحب الرسالة إلى الجماعة التى يتوجه إليها بهذه الرسالة سر من أسرار نجاحه ، وأن هذه الخصيصة من أهم خصائص ومقومات القائد والقيادة . يقول الله تعالى :

« وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق » .

وهكذا نبعت الرسالة والرسول من صميم الأمة العربية التى أنزلت عليها شريعة الحق ،

فكان انتماء النبي إلى الجماعة التي بعثه الله لقيادتها وبعثها من الضلال إلى الهدى من أسباب نجاح الرسالة العظمى التي اؤتمن عليها صلى الله عليه وسلم. إذ أتاح له هذا الانتماء أن يتحدث بلغة هذه الجماعة ويتفهم شعورها باعتباره واحدا منها اصطفاه الله من بين أفرادها، وأن يدرك نوازعها النفسية واتجاهاتها الفكرية في مختلف شئون الحياة والمجتمع، الأمر الذي يشكل عاملا أساسيا في تيسير الدعوة إلى الرسالة والإقناع بها. قال تعالى: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم»:

ولقد اكتمل هذا العنصر القيادي - وهو الانتماء إلى الجماعة - في شخصية الرسول بتوافر بعض العوامل الأخرى التي يسهل على الباحث التعرف عليها. ذلك أن القدرة على فهم مشاعر الجماعة وأفكارها - نتيجة لانتماء القائد إليها - تدعم وتتعمق إذا كان القائد قد مارس في حياته المهنة الرئيسية للجماعة، واختلط بالسواد الأعظم منها؛ فأتيحت له تجارب وخبرات كثيرة تعينه على أن يسبر أغوار القطاعات المختلفة في مجتمعه، ويدرك مغزى سلوكها وتفكيرها، وأسرار اتجاهاتها، فيستطيع قيادتها، ويسلس له تدبير أمورها.

وقد أراد الله لرسوله الكريم أن يكتسب هذه التجارب والخبرات ليؤهله للاضطلاع برسالته؛ إذ اشتغل النبي في صباه وشبابه برعي الأغنام والتجارة وهما المهنتان السائدتان في الجزيرة العربية في ذلك الحين. واقتضاه ذلك الأمر الانتقال من مكان إلى آخر، والاتصال بنماذج مختلفة من الناس في أثناء رحلاته وأسفاره. وفي ذلك يقول المرحوم الأستاذ عباس العقاد في كتابه عبقرية محمد:

«خبير بكل ما يختبره العرب من ضروب العيش في البادية والحاضرة.. تربى في الصحراء وألف المدينة، ورعى القطعان، واشتغل بالتجارة...».

وكما شارك الرسول الطبقة العاملة الكادحة، والطبقة المتوسطة في مجتمع قريش في وسائل كسب العيش؛ فلقد شارك كذلك علية القوم، وذوي الرأي منهم فيما كانوا يشتغلون به من شئون الحكم، وتدبير أمور المجتمع في السلم والحرب معا. فشهد الحروب، كما شهد الأحلاف. ومن الثابت في هذا المقام أن النبي عليه الصلاة والسلام قد حضر في شبابه حلف الفضول الذي عقده بنو هاشم وزهرة وتيم وتعاهدوا فيه باسم الله المنتقم ليكونن مع المظلوم حتى يؤدي إليه حقه، وقال الرسول في هذا الحلف: «ما أحب أن يكون لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم».

ومن ثم نشأ الرسول فى قلب البيئة العربية وخالط جميع أوساطها، وكان قريبا من سراتها غير بعيد عن فقرائها . فلما نزل عليه الوحى وأمر بالدعوة، صدع بها فى مجتمع ولد وعاش فى كنفه . مخالطا أهل سائر القبائل والبيوت عالما بظروف هذا المجتمع ، ملما بمعتقداته وتقاليده ، خبيرا بوسائل عمله ، متقنا لغته ، واعيا أسرار تصرفاته ، وقد أتاحت هذه النشأة ، وتلك التجارب لمحمد رسول الله أن يحدد - بوحى من الله - أفضل السبل لهداية العرب إلى الدين الحق . فكان يخاطب الناس على قدر عقولهم ، ويدعو الرجل منهم إلى الإسلام بالأسلوب الذى يتفق مع مستواه . فهو عليه السلام بحكم معرفته بطبائع كل جماعة يستطيع أن يختار الخطة المناسبة لإقناعها ، وهو بحكم تعمقه فى فهم النفس البشرية يستطيع أن ينفذ إلى عقل العربى ، وقلبه ، ويفتح عينيه على نور العقيدة الصحيحة . إن النبى الكريم يدرك مدى اعتزاز العربى بكرامته وأنفته من التعالى عليه وتمسكه الشديد بالعزة والكبرياء ، ومن ثم فإن انتهاج أسلوب اللين فى غير ضعف ، والبعد عن كل ما ينفر المخاطب - هو الطريق القويم للدعوة ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

« ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك » .

« إدفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

والعربى ابن البادية ، ومنها أخذ جوهر طباعه وأسلوبه فى الحياة والعمل ، يميل بطبعه إلى البساطة وينفر من التعقيد ، وهو يؤثر الوضوح والصراحة فى العلاقات الاجتماعية ويستنكر الغموض المجافى للفطرة السليمة ولقد بعث الرسول لهداية الناس إلى عقيدة تتفق مع الفطرة ، وكان سبيله فى حث الناس على الدخول فى دين الله متسقا مع تلك الغاية فهو السبيل الواضح المستقيم لا عوج فيه ولا انحراف .

فلا غرو أن يكون هذا الأسلوب الذى اتبعه النبى الكريم فى نشر الدعوة ، والذى انبثق من واقع البيئة ، وطبيعة المجتمع من عوامل نجاحه عليه السلام فى الاضطلاع برسالته ، فدخل الناس فى دين الله أفواجاً وتكسرت كل القيود والحواجز التى كانت تقف فى سبيل انتشار الدعوة فى الجزيرة العربية وما حولها ؟

مقدم

حسن فتح الباب

نفحات القرآن

جزاؤنا عند الله قائم على عدله وفضله

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

(ا) « إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط » .

(ب) « والذين كفروا لهم شراب من حميم ، وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » .

(ا) ١ — من لطائف القرآن فى دعوته أن يساير عقولنا فى هوادة من خطابه ، فيذكر لنا القضية المنشودة ، ثم يسوق بجانبها دليلها ، وحكمتها : على نحو من الترتيب فى الذكر الحكيم .

ولدينا الآن قضية خبرية : فيها تقرير لبدء الخلق ، وإعادته بقدرة الله ، ولحكمة الله .

وهذه القضية تنزل من نفوس المؤمنين منزلة العقيدة ، فلا تقبل جدلا ، ولا تتسع لمشادة .

فجاءت هذه القضية بيانا ، وتدليلا ، وتعليلا - لانتشال الجهلاء من جهالتهم ، وتهذيب الكبرياء عند المستكبرين .

ولعل فيها تبصرة لأولئك المجددين الذين زيفت لهم غوايتهم بيننا اليوم أن يقلدوا أولئك الغابرين .

فيها تقرير لأن الله يبدأ الخلق ، وهذا جانب مشهود لنا دائما : فى أنفسنا ، وفى خروج الأجنة من بطون أمهاتها ، وفيما نراه من مشاهد الطبيعة فى توالد النبات والأمطار والأضواء ، والرياح ، وكل شىء ينشأ عن شىء فى آفاق دنيانا .

وفى القضية كذلك تقرير لأن الله يعيد الخلق بعد فنائهم .

والقصد إعادة الإنس والجن على وجه التأكيد .

لأن الإعادة لغرض المجازاة ولا يجازى إلا من كان ذا تكليف فى الدنيا ... فلا حكمة واضحة فى إعادة الحيوان الأعجم ، وإن كان بعض العلماء يذهب إلى ذلك القول .

وفى القضية تصريح بالتعليل : فى قوله

تعالى: «ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط».

ولنقف عند هذا التعليل فترة، لندرك مغزاه في وضوح، ولا نبعد عن نفحات القرآن في التماس المعنى القريب.

٢ – فهنا بدء، وإعادة، وهنا تعليل بقوله تعالى «ليجزي الذين آمنوا، وعملوا الصالحات بالقسط». فهل التعليل بالجزاء المذكور يكون للبدء، وللإعادة جميعا؟

ذلك يحتاج إلى ملاحظة واعية هي أن الجـــزاء على الأعمال التي وقعت في الدنيا منذ بدء الخلق.

أعني التي كانت منا قبل الفناء والإعادة... والقرآن يذكره عقيب البدء، ثم الإعادة لينتقل بنا سريعا إلى التذكير باليوم الآخر وما فيه من أهوال.

وحقيقة التعليل هنا أنه متعلق بخصوص الإعادة التي سيقع بها الجزاء، وأما البدء للخلق فتعليله واضح في قول الله سبحانه «وما خلقت الجـــن، والإنس إلا ليعبدون».

فالخلق الأول للعبادة... والإعادة أخيرا للجزاء (يوم توفى كل نفس ما كسبت، وهم لا يظلمون).

٣ – أنت تلحظ أن الجزاء المذكور في الآية خاص بالمؤمنين فأين جـــزاء الكافرين أيضا.

وتلحظ كذلك أن جزاء المؤمنين محدود بالقسط. والقسط هو العدل، والوسط بين طـــرفين... فلا انحياز إلى تسامح، ولا انقباض عن الوفاء بما هو المستحق في تقدير الأعمال.

وذلك هو العدل الذي يقف عنده إنصاف المعطي، ولا ينبغي أن يتجاوزه مطمع الطامع فوق عمله... وذلك أيضا هو المفهوم الحق من قول الله: «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئا» «كل امرئ بما كسب رهين».

ولكن أين الفضل بالمزيد الذي ذكر كثيرا في القرآن «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها... والله يضاعف لمن يشاء!».

المقام بحاجة إلى شيء من الإيضاح الموجز في كلمات ثلاث.

الأولى – أن في ذكر المؤمنين قبل سواهم تكريما لهم وتنويها بشأنهم، لما أسلفوا من إيمان صادق وعمل صالح... وفي تبشيرهم بذلك تشجيع لمن يحاول القدوة بهم والسبق معهم في مجال الخير كله.

وليس في جزائهم بالقسط هضم، وإنما هو بداية العدل معهم.

على أن القسط المذكور هو العدل الذي ساروا عليه في دنياهم، وبسببه كان لهم فوق

العدل من الله فضل ممنوح . والمعنى ليجزى الله هؤلاء المؤمنين خيرا كثيرا بسبب اعتدالهم فى مسالكهم فلم يحيدوا عما شرع الله .

أما تقدير جزائهم فلا يعلمه غير الله فقال : « وفيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون » فذلك إطلاق غير محدود .

٤ — الكلمة الثانية أن المؤمنين الذين لم يكونوا فى المقام الأول عملا وإخلاصا لهم كذلك جزاء ملحوظ بما لهم من سابق الإيمان وإن لم تكن أعمالهم فى مستوى الكمال « ولكل درجات مما عملوا ، والجنة طبقات ، وغرف من فوقها غرف ولا يستوى السابق واللاحق وذلك هو تمام العدل حتى مع التفضل بالمزيد على من ظفروا بالحسنى جميعا .

(ب) ٥ — الكلمة الثالثة ـ ألا تخصيص للمؤمنين بالذكر فى الجزاء كما يظن ، بل هو تقديم فقط ، وقد جاء ذكر الكافرين عقب ذلك ، فى قوله تعالى : « والذين كفروا لهم شراب من حميم ، وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ، فشرابهم الحار الشديد فى جهنم لخ نوع من الجزاء .

فإن تكن إعادة الخلق أخيرا للحساب ، والجزاء العام ، فللكافرين جانب مشئوم من هذا كله ، جزاء على ما فرط منهم ، جميعا طوال العصور . فقد كانت رسالات الله هادية ، وزاجرة ... حتى لم تعد للناس حجة يتعللون بها فى حياتهم ، ولا معذرة فى جفوتهم لدينهم .

ولكن المعرضين لم يتعقلوا أن يكون لله جانب شديد يخشونه ، ولا جانب رحيم يلوذون به . فكانوا قساة على أنفسهم وإن عاشوا فى طواعيتها ، واستسلموا لهواها حتى ترددوا فى الهلاك .

وكان الحديث عنهم بعد ذكر المؤمنين لأن الكفر نزل بهم إلى المنزلة الدون .

ثم كان الحديث عنهم فى غير تلطف بهم لأنهم أمعنوا فى الجفاء لله ، ولرسله قديما وحديثا .

والعدل مع من يسىء ويستمر فى الإساءة ، ويتصلف : أن يعامل بالمثل ، أو أشد .

وهذا جانب من الحكمة فى التنديد عليهم ، والتشاؤم من ذكرهم ، وتأخيرهم فى الذكر ، حتى كأن شأنهم فى اليوم الآخر مبتور عن شأن سواهم ، وكأنهم لم يذكروا إلا لتجديد السخط عليهم ، والحط من شأنهم ، وتوجيههم إلى المصير السىء .

وتكون المقابلة بين جزاء الفريقين هى مقابلة الشىء بنقيضه « ففريق فى الجنة ... وفريق فى السعير » .

٦ — ومع هذا كله فلم يكن عدل الله .

بحجفا بهم فى دنياهم ، ولن يتخلى عنهم فى أخراهم : لأن عدله سبحانه ـ صفة ذاتية له ، ولا يصدر عنه إلا ما يليق بكماله المطلق ... ولا يغض من عدله هذا كراهيته لمن يعصيه أو يكفر به ... بل هو يدعونا إلى التجمل بالعدل فى دنيانا حتى مع أعدائنا فى الدين .

ومظهر عدله تعالى مع الكافرين فى دنياهم أنه بين لهم الرشد من الغى ، وطاولهم بحلمه مع تماديهم فى غيهم ، ووعدهم بالغفران إن أنابوا إليه ، وبسط لهم فى نعمائه ، وهم يحاربونه بها ، وقدم كثيرا من النذر ليدركوا فضل الله عليهم بإمهالهم ... وقرع أسماعهم بالآيات البينات التى تجذبهم إلى ناحية الإيمان، فقال ـ مثلا ـ « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا » ، « والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم ... إلخ » .

وذلك سياق يقمع لكثير من العقول ، ولكن ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون من المآثم التى اكتنفوها بحكم التقليد والتعود .

ومن مظاهر عدله فى أخراهم أنه لا يأخذهم بغتة فى الآخرة ، ولا يقحمهم فى ناره إلا بعد محاسبته لهم ، ومكاشفته لما كانوا فى غفلة عنه حتى تذل جباههم ، وتنحنى رءوسهم ، وتقوم الحجة عليهم ، ويكونوا فى خزى من ربهم .

وحتى يبرأ بعضهم من بعض ، ويبرأ منهم جميعا الشيطان الذى أضلهم ، ويتمنوا أن يرجعهم ربهم إلى الدنيا ليعملوا صالحا غير الذى كانوا يعملونه .

والله سبحانه ، يزيدهم بيانا لشأنهم ، فيواجههم بما يعلمه عنهم : من أنهم « لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » .

ثم يكون عدل الله فى تلك المواقف كلها أن يبين لهم قسطاسه فى حسابهم ليزدادوا ندما على ما أسلفوا ، وليقتنعوا حقا بأن الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن كانوا لأنفسهم ظالمين .

حتى لتراهم يتنادون بأن ما وعدهم الله من عذابه حق ، وذلك مبلغ ما يكون من العدل الذى يقر بحقيته الظالم والمدين .

على أن عدل الله يقوم بينهم وهم فى غمرات العذاب والحريق .

فالكفر سوى بينهم فى المصير ، ولكن عدل الله فرق بينهم فى المستقر .

فلم يجعلهم سواء فى طبقة واحدة يصلونها جميعا ـ بل جعل جهنم متفاوتة الدركات ، وجعل لها سبعة أبواب ، ولكل باب من الكافرين جزء مقسوم يدخلون منه إلى مستقرهم فيها حسب تفاوتهم فى الكفر والأعمال .

وأنت ترى فى القرآن الكريم بيانا لهذا

كله ، وتدرك من هذا التقسيم عدالة الله فى المعذبين ، فلم يكن أبو طالب مع كفره ، قرين أبى لهب ، ولا قرين أبى جهل .

فأبو طالب كان مواليا لرسول الله وإن لم يعلن إسلامه .

وأبو لهب وزوجته ، وأبو جهل وأمثالهم كانوا ألد خصومه ، ومن أشد الناس ولعا بإيذائه ، كما كان المنافقون معه .

وعدل الله يأبى أن يجعل هذا فى مستوى ذاك ... وإن كان العذاب شؤما على الجميع .

وأظن أنه لا يجول بخاطر إنسان أن الله كان يحب لعباده ذلك الشقاء ، أو كانت له غاية مرموقة فيه .

فإنه رحيم كريم ، ولطيف وحليم ، وقد حذرنا عصيانه ، وبسط لنا رضوانه ... وقال فى كتابه : « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » . وقال : « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم ، وأشد تثبيتا وإذن لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما ، ولهديناهم صراطا مستقيما » .

غير أننا تجاوزنا الحدود المرسومة ، وانتهكنا حرمات يغار الله عليها ، فى دينه ، فكان من حق الله فى سلطانه أن يثأر ممن حام حول حماه حتى سقط فيه .

وهذه مرحلة من القول فى قضية من قضايا القرآن فى سورة يونس عليه السلام ، ومنها تدرك تفصيلا موجزاً لما فى الآية الأولى من عجب الكفار ، إذ جاءهم رسول يوحى من الله ينذر الناس ويبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ؟

عبد اللطيف السبكى

خشية الله

« ... اعلم أن خشية الله تجتمع فى أمرين : فى طاعته واجتناب معصيته ، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة . وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة . وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاء . منها السر ومنها العلانية ، فأما العلانية فأن يكون حامده وذامه فى الحق سواء ، وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه ، وبمحبة الناس . فلا تزهد فى التحبب ؛ فإن النبيين قد سألوا محبتهم . وإن الله إذا أحب عبدا حببه . وإذا أبغض عبدا بغضه . فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك فى أمرك » .

(عمر بن الخطاب لسعد بن أبى وقاص)

حول شعب الإيمان

للأستاذ محمد الغزالى

فى عصرنا الحاضر يظن كثير من الناس : أن الدين علاقة خاصة بين الإنسان وربه ، أو علاقة ما بين البشر وقوى الغيب التى لا تدركها الحواس .

وتتمثل هذه العلاقة غالباً فى مراسم العبادة التى يقوم بها الفرد ، ويصطبغ بها ضميره .

لكن هذا الظن إن صح على العلاقة فى بعض الديانات . فهو غير صحيح بالنسبة إلى الإسلام .

فإن ديننا متسع الدائرة ، متشعب التعاليم ، وهو يتناول العلاقة ، بين الإنسان والله ، وبين الإنسان والإنسان ، وبين الإنسان والحياة كلها .

أو تستطيع أن تقول : إن العلاقة بين الإنسان وربه كما يشرحها الإسلام تتعدى الحياة الداخلية للنفس الإنسانية لتؤثر فى صلة المرء بغيره من الأشخاص والأشياء ، فهو يتعامل مع هذه وتلك على هدى من ارتباطه بالله ، وولائه له ، واستمساكه بوصاياه ، وإخضاعه حركاته وسكناته لأمره ونهيه .

والوحى الإلهى الذى يقوم عليه هذا الدين تعرض لشتى الشئون التى تلق الإنسان من المهد إلى اللحد ، وأوضح السلوك المناسب بإزائها .

وبيانا لاتساع الدائرة التى يتحرك الإيمان داخل أقطارها يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الإيمان بضع وستون شعبة ، أو بضع وسبعون شعبة : أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .

وقد قرأت رسالة أحصت هذه الشعب واحدة واحدة ، وبلغت بى تسعا وسبعين شعبة ، جمعت معاقد الشريعة ، وأصول الأخلاق ، وأركان الدين ، وما ينضم إليها من آداب ونوافل ، يبلغ بها الإسلام تمامه . .

والذى أرجحه أن العدد غير مقصود ، وأن الشارع الحكيم إنما يريد إيقاظنا إلى أن طبيعة الإيمان : الهيمنة على النفس والمجتمع والدولة ، أى توجيه الحياة الخاصة ، والعامة على سواء ، وتسييرها باسم الله وفق مراده .

بحيث يكون أمر الله ملحوظا فى البيت والشارع ، بين الإنسان ونفسه ، وبين الإنسان

والناس أجمعين ، فلا تفلت وجهه للمسلم من قصد الله وإعلاء كلمته ، ولا يفلت ميدان للحياة من الانطباع بصبغة الدين والاتساق مع مبادئه وأهدافه ...

ولا يهمنا أن تكون شعب الإيمان عدداً لا مفهوم له ، أو عدداً له مفهومه ، إنما الذى أوده أن نحسن ترتيب التعاليم الإسلامية ترتيباً تنازلياً ، يشبه ترتيب الجهاز الوظائفى فى الدولة ، وتسلسل القيادات التى تلقى الأوامر وتتلقاها ، وتنهض بالواجبات والأعباء التى توكل إليها ...

إن الإيمان يشبه الكائن الحى ، وهذا الكائن الحى تتماسك الحياة فيه مقرونة بأجهزة معينة ، فإذا أصيب المرء إصابة قاتلة فى دماغه أو رئتيه أو أمعائه أو عموده الفقرى هلك ...

وقد يصاب المرء فى أطرافه أو حواسه ، فلا يفقد أصل الحياة ، وإنما يعيش مشوه البدن أو ناقص الأعضاء .

كذلك الإيمان فى كماله ونقصانه وفى وجوده وفقدانه .

الإيمان الصحيح لابد أن يستوعب من العناصر ما يسيطر به سيطرة تامة .

أولا : على النفس فى بواعثها وغاياتها .

ثانياً : على المجتمع فى معاملاته ونظمه .

ثالثاً : على الحياة فى نشاطها العمرانى والاقتصادى ؛ فيوجه لخدمة الدين ، وتمكين أصوله وفروعه وحياطة جوهره ومظهره ...

وأركان الإسلام تنتظم من الحقائق ما يملأ هذه الأرجاء جميعا ...

فالصلاة والصيام - مثلا - ركنان فى الإيمان الشخصى ، والفرد مسئول برأسه عن القيام بهما . وهما يوفران للنفس الإنسانية جوا رائعا من الصفاء والإخلاص والعفة والاستعلاء . وإلى جانب هذين الركنين لابد من امتداد الإيمان إلى المجتمع ، ليصوغه فى قوالبه ، ويشكل البيئة العامة وفق مطالبه .

وقد تكفل بهذا على سبيل المثال ركنان آخران : هما الجهاد فى سبيل الله ، والحكم بما أنزل الله .

وإنما وصفنا هذين الركنين بأنهما من الدعائم الاجتماعية للإسلام ، لأن الفرد - وإن كان حامل التكليف بهما - إلا أنهما من وظائف المجتمع الأولى ؛ فهو الذى ينظم عدة الجهاد ، ويرسم ميادينه ، وهو أيضا الذى ينظم القضاء ، ويختار رجاله ، وينفذ أحكامه ...

وإذا كان الإسلام يعمر الفؤاد باليقين الباعث على العمل ، والخلق العاصم من السقوط وإذا كان يلف الحياة العامة بروابطه ، ويمسك

زمامها بشرائعه ، فهو مع هذين يفرض سلطانه على مصادر الثروة فى البر والبحر ، والخصب والجدب ، ويجعل من الطاقة المادية الأمة وقودا محركا لرسالتها الكبرى ، ومثلها العليا .

وليس فى الدنيا نظام يستغنى عن هذه المصادر ، أو يفرط فى استغلالها ، إلا إذا كان يريد التلاشى والانتحار .

وشعب الإيمان يمكن توزيعها على الأقسام التى بيناها ، سواء كانت محصورة ، أو غير محصورة .

ونحب أن نذكر طائفة من شعب الإيمان ، كما أحصاها الحافظ البيهقى ، شارحين لها على ضوء ما ذكرنا .

للحق حرمته التى تجعل المرء يغالى به ويدفع عنه ويستمسك به إلى آخر رمق .

والتعصب للحق أثر الإيمان الصحيح به .

وهذه الشعبة من شعب الإيمان ، يضعها البيهقى تحت عنوان « شح المرء بدينه ، حتى يكون القذف فى النار أحب إليه من الكفر » .

ثم يسوق فى الاستشهاد لها حديث أنس ابن مالك ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان :

أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله .

وأن يلقى فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه » .

وكذلك ما رواه مسلم أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم فأعطاه غنما بين جبلين فأتى قومه فقال : أسلموا ، فوالله إن محمداً ليعطى عطاء رجل لا يخاف الفاقة » ! !

لكن هل تألف القلوب بالعطاء سر دخولها فى الإيمان ؟ لا ...

ويجيب على ذلك الإمام المحدث .... « وإن كان الرجل يجئ إلى النبى ما يريد إلا الدنيا ، فما يمسى حتى يكون دينه أحب إليه ، وأعز من الدنيا بما فيها » ، ومن التعصب للحق أن يصادق المرء من يصادق ، ويخاصم من يخاصم ، للمبدأ الذى يعتنقه ، لا رغبة أو رهبة .

إنما هى معرفة الناس لله ، أو كرههم لله .

والشهادة لهم أو عليهم إحقاقا للحق ، وإبطالا للباطل ، لا لغرض آخر ...

وهذه الشعبة من شعب الإيمان تتصل بأدب النفس ، وتسلك مع العبادات الفردية ، وإن كان أثرها الاجتماعى بيناً حاسماً ...

وقد عد البيهقى الكسب الطيب شعبة من شعب الإيمان ، وذكر فى ذلك الحديث الصحيح :

« يا أيها الناس إن الله تعالى طيب ، لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال :

« يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ، واعملوا صالحا ، إنى بما تعملون عليم » .

وقال : « يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا » .

وقال « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » .

ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ، ومطعمه حرام ، وملبسه حرام ، ومشربه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب له .؟

وهذا وصف لبعض الكادحين الذين يقبلون على الدنيا بنهمة الوحش الجائم على فريسته ، يطول عناؤهم وراء عرضها ، ولكن لا يدركون حظا من رحمة الله لشرههم ، وأكلهم السحت .

وأغلب الناس فى طلب القوت يرون أن الغاية تبرر الوسيلة ، ومن ثم ، فهم يوفرونه بكل حيلة ، غير مبالين بحل أو حرمة .

ومايفعله الصغار لإدرار الرزق من أى منبع ، يفعل مثله الكبار فى طلب المناصب التى توسع الجاه والثراء .

وأهل الإيمان برآء من هذا كله .

وقد روى البيهقى بضع طرائف لترسيخ العفاف فى النفس ، وكسب الدنيا من الحلال وحده ، فعن زيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب شرب لبناً فأعجبه ، فقال للذى سقاه : من أين لك هذا اللبن ؟

فأخبره أنه ورد على ماء ـ قد سماه ـ فإذا نعم من نعم الصدقة ، وهم يسقون فحلبوه لى من ألبانها ، فجعلته فى سقائى ، وهو هذا ...

فأدخل عمر يده فى فمه فاستقاءه ...

وعن بشر بن الحارث ، قال يوسف بن أسباط : إذا تعبد الشاب ، يقول إبليس : انظروا من أين مطعمه ؟

فإن كان مطعمه مطعم سوء قال : دعوه لا تشتغلوا به !

دعوه يجتهد ويتعب فقد كفاكم نفسه .

وسئل سفيان الثورى : عن فضل الصف الأول ، فقال : انظر كسرتك التى تأكل من أين تأكلها وصل فى الصف الأخير .

وهذا من سفيان إرشاد للفرض قبل النفل .

فإن البعض قد يظن فضل المبادرة إلى الصف الأول مكفراً التهجم على المكاسب من أى طريق وهذا خطأ .

والغريب أن من المصلين من يصطاد رزقه ، كيفما اتفق ، ثم يحرص على القرب من المحراب ، كأن هذا يغطى ذاك .

ويروى عن حذيفة المرعشى أنه نظر إلى الناس يتبادرون إلى الصف الأول ، فقال : ينبغى أن يتبادروا إلى أكل خبز الحلال !!

وإذا كان المباح مرفوضا بالوسائل المريبة ، فكيف بالمحرم ؟ !

عن الحكم بن هشام قال لابن له : يابنى إياك والنبيذ ، فإنه قيء فى شدقك ، وسلح على عقلك ، وحد فى ظهرك ، وتكون ضحكة للصبيان ، وأسيراً للديان .

وأنشد الحسين بن عبد الرحمن .

أرى كل قوم يحفظون حريمهم
وليس لأصحاب النبيذ حريم
إذا جئتهم ، حيوك ألفا ، ورحبوا
وإن غبت عنهم ساعة فذميم
أخوهم إذا ما دارت الكأس بينهم
وكلهم رث الوصال سئوم
فهذا ثنائى ؛ لم أقل بجهالة
ولكن بحال الفاسقين عليم

وصدق الشاعر ، فليس للسكارى أعراض ، ولعل انحلال عرا الشرف فى الغرب والشرق يعود إلى شيوع الخمر ، وإغفاء الفكر ، واستيقاظ الشهوة ، نسأل الله العافية ...

وعلاقة الإيمان بالدنيا ليست فقط ضمان كسبها من وجه شريف ؛ فإن التلطف فى استنباط الخير من خزائن الأرض ، كسب هائل لدين الله ، وأبواب ذلك فوق الحصر ...

إن التمكين فى الأرض ، واستثارة خيراتها ، وإجادة أنواع الحرف ، والفقه فى قوى الكون وأسرار الوجود خصائص عامة استحق بها بنو آدم الاستخلاف فى الأرض .

وهم يتفاوتون قوة وضعفا ، وغنى وفقراً على قدر حظوظهم من هذه الخصائص ، وإفادتهم منها ...

والسباق بين المبادئ الحقة والباطلة على تسلم أزمة الحياة ، يعتمد ـ فيما يعتمد ـ على التفوق فى هذا الجانب .

من أجل ذلك نحن نعد من أبواب الجهاد ـ إجادة فنون الحياة ، وحسن استخدامها لنصرة الحق ...

وكل سبق فى هذا المضمار ، فهو تحصيل لشعبة من شعب الإيمان ، ما دام وجه الله مراداً فيه ..

ويجب أن ييأس المؤمنون من إحراز فوز لعقائدهم ، إذا كان سهمهم فى هذا المجال ضئيلا ...

إن الإيمان الحق يسيطر على المجتمع ، وعلى البيئة ، ويسوقها نحو غايته ، كما يجرف التيار فى مده كل شئ إلى وجهته ...

ومن الشعب التى تسمو بها الإنسانية ، وينضر بها وجه الإسلام ، حسن الخلق .

وللبيهقى كلام فى هذا الموضوع ، يجمل أن نذكره بعد ذكر النصوص التى تتصل بالمقام .

قال : حسن الخلق ، ويدخل فيه كظم الغيظ ، ولين الجانب ، والتواضع ، لقوله تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، « والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » .

ولحديث عبد الله بن عمرو فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن فاحشا، ولا متفحشا. وقال: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقا»، وفى رواية: «إن من أحبكم إلىّ أحسنكم أخلاقا».

ولحديث عائشة رضى الله عنها فى الصحيحين أيضا أنها قالت: «ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثما؛ فإن كان إثما، كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله بها».

وبه أنبأنا أبو بكر البيهقى قال: ومعنى حسن الخلق استقامة النفس نحو الأرفق الأحمد من الأفعال.

وقد يكون ذلك فى ذات الله تعالى، وقد يكون فيما بين الناس.

وهو فى ذات الله عز وجل، أن يكون العبد منشرح الصدر بأوامر الله تعالى، ونواهيه يفعل ما فرض عليه طيب النفس به، وينتهى عما حرم عليه، راضيا غير متضجر.

ويرغب فى نوافل الخير، ويترك كثيراً من المباح لوجهه تعالى وتقدس. إذا رأى أن تركه أقرب إلى العبودية من فعله، مستبشرا لذلك غير ضجر منه، ولا متعسر به.

وهو فى المعاملات بين الناس أن يكون سمحا بحقوقه لا يطالب غيره بها، ولو فيما يجب لغيره عليه منها، فإن مرض ولم يعد، أو قدم من سفر فلم يزر، أو سلم فلم يرد عليه، أو ضاف فلم يكرم، أو شفع فلم يجب، أو أحسن فلم يشكر، أو دخل على قوم فلم يمكن، أو تكلم فلم ينصت له، أو استأذن على صديق فلم يأذن، أو خطب فلم يزوج، أو استمهل الدين فلم يمهل، أو استنقص منه فلم ينقص، وما أشبه ذلك، ولم يغضب، ولم يتفكر من حاله، ولم يستشعر فى نفسه أنه قد جفى، وأوحش، وأنه لا يقابل كل ذلك إذا وجد السبيل إليه بمثله بل إنه لا يعتد بشئ من ذلك، ويقابل كلا منه بما هو أحسن. وأفضل. وأقرب إلى البر والتقوى وأشبه بما يحمد ويرضى، ثم يكون فى إيفاء ما يكون عليه كهو فى حفظ ما يكون له، فإذا مرض أخوه المسلم عاده وإن جاء فى شفاعة شفعه، وإن استمهله فى قضاء دين أمهله، وإن احتاج منه إلى معونته أعانه، وإن استسمحه فى بيع سمح له، ولا ينظر إلى أن الذى يعامله كيف كانت معاملته إياه فيما خلا، إنما يتخذ الأحسن إماما لنفسه؛ فينحو نحوه ولا يخالفه.

تلك نظرة عجلى إلى شعب الإيمان، نرجو أن نكون قد ألممنا بها إلى الإيمان كله.

محمد الغزالى

أثر اليتيمة فى أدب الأندلس

للأستاذ محمد رجب البيومى

— ١ —

أكثر ما عثر عليه فى التراث الأندلسى — من كتب التراجم والأخبار ، يرجع تأليفه إلى عهد ملوك الطوائف وما يليه ، وأقله يتقدم هذا العهد لأئمة من سابق الكتاب ، وأنت حين تقرأ هذا الكثير — مما صدر فى العهد الأخير — تجده يكاد أن يكون متشابها ، فليست هناك فروق بعيدة بين كاتب وكاتب ، وكأنهم يصدرون جميعا من مورد غير مختلف ، ولا ننكر أن لكل كاتب ما ينفرد به من السمات التى لا تخفى على البصير المتيقظ ، ولكن الطابع العام مع ذلك واحد ، فجل هذه الكتب تميل إلى المبالغة والإسراف ، وتتخذ من التراجم الإنسانية معرضا للبديع بسجعه وجناسه ، حتى لتكاد الحقائق الذاتية تختنق فى طيات هذه الزركشة الشائعة ، وهى ظاهرة هامة تحتاج إلى تعليل وتحليل . لقد وفدت إلى الأندلس من الشرق كتب الأعلام من أئمة التأليف ، وتداول الأندلسيون آثار ابن المقفع ، والجاحظ ، وأبى الفرج الأصفهانى ، وأبى حيــان التوحيدى ، وأضرابهم من ذوى الأسلوب الحى والتفكير الخصب ! ولكن أثر هؤلاء الأئمة لم يكد يتضح فيما نشر من الكتب فى عهد الطوائف وما يليه ، واتضح أثر كتاب ذائع ، تقبله الأندلسيون بارتياح ذلك الكتاب الذائع هو (يتيمة الدهر) بأجزائه الأربعة ، لأبى منصور الثعالبى رحمه الله .

وأنت حين تبحث عن سر ارتياح القوم لصاحب اليتيمة ، وولوعهم باقتنائه ، تجد لديك ما تقول ! فالنثر العربى — لعهد الثعالبى — كان قد تطور من الطبع إلى الصنعة ، ومال به الخوارزمى والصابى ، وابن العميد ، والصاحب والهمذانى إلى ضروب من التكلف . تعمد إلى الحلية الظاهرة والزينة البارزة ، وتغفل الاستشفاف ، والتبصر ، وتخطىء الإصابة اليقظة للتعليل والتحليل ! وجاء الثعالبى فتأثر بسابقيه الأقربين ، وكان له من ظروف نشأته واتجاهه ما حبب هذا اللون إلى قلبه ، إذ أن بلاغة اللفظ وحدها فى أضيق حدودها المتعارفة كانت هى التى تأخذ بمجامع تفكيره ونظرة إلى منحاه فى التأليف . توضح هذا الاهتمام ؛ فكتاب فقه اللغــة ، وكتاب الكنايات ، وكتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ، كلها تشير إلى اهتمامه الجزئى

بالتراكيب اللفظية ، وقد يكون هذا بدعة العصر أجمعه . إلا أن الثعالبي حين نقل هذا الولوع الفني بالصنعة اللفظية من ميدان الرسائل والمقامات إلى ميدان التأليف العلمي قد فتح الطريق إلى اتجاه جديد في التأليف ، ومهما قيل عن تسويغ هذا الاتجاه ، فليس هو الطريق المفيد .

انتقل كتاب اليتيمة إلى الأندلس ؛ فأحدث دويه ، وأرخ الكتاب يوم صدوره واحتفلوا باستقباله احتفالا لم يتيسر لأكثر الوافد من الآثار ، وتعليل ذلك الاهتمام قريب غير بعيد ؛ فمناظر الأندلس الطبيعية ، توحى بالزينة ، وحضارة الأندلس قد أوجبت تنميق الأثاث ، وتجميل الرياش ، وتحلية القصور والأبهاء ، ثم انتقلت إلى اختراع الموشحات في دنيا النظم ، ومن الطبيعي أن تنتقل إلى استحسان البديع في دنيا النثر ، أضف إلى ذلك أن أكثر القائمين بكتابة الرسائل لدى ملوك الأندلس أدباء ، وفقهاء في وقت واحد ، وولوع هذا النوع من الكاتبين بالبهارج اللفظية أشد وأكثر ، ولسنا ننكر أن منهم أدباء خلصا ، ترنح أعطافهم روائع الأدب الأصيل ، ولكن ماذا يصنع القليل أمام الكثير .

جاء كتاب الثعالبي فأحدث دويه ، وأخذ أصحاب التراجم يحتذونه مباهين ! وإذا قلت : أصحاب التراجم ، فإني أعني التراجم السياسية والأدبية معاً ، لأن أكثر حاكمي الأندلس ، أدباء وشعراء ، بل كانت الوزارة في أكثر سبلها لا يلتمس أصحابها في غير الأدباء والشعراء ! لذلك كانت كتب التراجم من سياسية ، وأدبية متشابهة متآخية ، وقد وجد في المشارقة من وصلوا إلى الوزارة عن طريق الأدب ، ولكنهم بالقياس إلى أولئك نفر قليل .

إن ولوع الأندلسيين بالزينة والزخرف كسبب نفسي ترد إليه هذه الظاهرة ، هو الذي أتاح لكتاب اليتيمة أن يصبح مثالا يحتذى ، وإلا فإن شيخ مؤرخي الأندلس ، وسيد كتابها (ابن حيان) كان جديراً أن يكون رائد المدرسة التاريخية في إقليمه ، لو وجد من تلاميذه وحفدته من يتذوقون نهجه ، أو يحاولون السير على منواله ! ولك أن تعجب حين ترى ابن بسام في الذخيرة ينقل آراء الرجل وأقواله مسهبا مطيلا ، فإذ عاد إلى نفسه تداركته عدوى اليتيمة ، ونسى الأفق المشرق الذي كان ينقل من أضوائه !! أيكون ابن بسام أعجز من أن يحاكى ابن حيان ! هو كذلك بلا شك ، ولو أنه حاكاه في زمنه المتأخر ما وقع حديثه أطيب موقع لدى من يعرفون أسماعهم لصلصلة الحلى ، ورنين الأسجاع !

كان ابن حيان (٣٧٧ — ٤٦٩) جزل

العبارة ، شديد العارضة ، قوى الآصرة . تلمس فى أسلوبه قوة وتدفقا ، وتراه نسجا وحده فى براعة التلوين ، وقوة التصوير ، فإذا نظرت إلى أحكامه شاقك أن تجد بعداً فى الغور ، وبراعـــة فى النفاذ ، ودقة فى الملاحظة ، وهو جاحظى التركيب فى تدفقه وانصبابه ، وكثيراً ما ينجو من استطراد الجاحظ إلى الموضوعية المركزة المحددة ، وكاتب خل من هذا الطراز لا يرحب به العامة من القارئين ترحيبهم بالكاتب السهل المتناول القريب الأخذ ! ولعل ذلك مما أضاع مؤلفاته على كثرة أجزائها وجودة منحاها ، إذ لو رزقت سواداً كبيراً من القارئين لتزايد نسخها ، ووصل إلينا منها شىء ذو بال ... ؛ لأننا لم نر الرجل حقا إلا فيما نقله عنه صاحب الذخيرة ـ وما أكثر ما نقل ـ وإلا فى ثلاثة أجزاء من كتاب « المقتبس » فقط ، أما بقية الأجزاء العشرة ، وأما كتاب « المتين » ذو المجلدات الستين ! ! وأما كتاب « فقهاء قرطبة » ، وأما كتاب « المآثر العامرية » ، فوا أسفا !

يقول المؤرخ الهولندى (دوزى) عنه : « إنه يسوق التاريخ مساق من يبدى رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ، ويناقشها عن علم وفهم وذكاء كما سيفعل من بعده نقادون كابن سعيد ، وابن خلدون ، ويمتاز ابن حيان إلى ذلك بأسلوب ناصع ، لا يهبط إلى الركاكة ولا يقع كذلك فى التفصح والإسراف فى قعاقع الألفاظ ، ورغم التزامه هذه السهولة لا يهمل جانب الجمال فى أسلوبه ، ويبعث فى كلامه دائما حماسة وغنى وطابعا غالبا من الجد ، ونخرج من هذا كله بأننا لا نجد بين مؤرخى العرب إلا القليلين الذين نستطيع أن نقارنهم به ، ولن نجد بينهم من نقدمه عليه [1] » .

أجل لن نجـــد من مؤرخى العرب من نقارنه به إلا كاتبا كابن خلدون ؛ أما الذين أكثروا من التراجم الأندلسية من بعده ، فقعدت مواهبهم المتواضعة دون اللحاق به ! وفيهم من جرؤ على انتقاده ، فابن بسام يقول عنه ـ الذخيرة ١/٢ ص ٨٥ ـ :

« ومع ذلك فقد كان سهما لا ينمى رميه ، وبحراً لا ينكش آذيه ، ولو سكب الماء ما نقع ، أو تعرض لابن ذكاء ما سطع ، يتناول الأحساب قد رسخت فى التخوم وأنافت على النجوم ، فيضع مناوها ، ويطمس أنوارها ، بلفظ أحسن من لقاء الحبيب غب الموعد ، وأمكن من عذر الطبيب عند العود ، فرب شامخ بأنفه ، ثان من عطفه ، قد مر من كتابه بفصل جرده لوضع حسبه ، وخلده

(١) الأدب الأندلسى للدكتور هيكل ص ٣٩٣ نقلا عن تاريخ الفكر الأندلسى ترجمة مؤنس ٢١١ .

أحدوثة باقية فى عقبه ، فيرده ورود الظمآن الرنق ، ويلبسه لبس العريان الخلق » .

فصاحب الذخيرة يأسى على لذعات ابن حيان ونقداته ، فهو يريد منه أن يذكر المحاسن ، ويغضى عن المساوىء ! وقد نسى ابن بسام شيئا هاما ، هو أن من كان فى ألمعية ابن حيان وقوة بصيرته ، وشمول نظرته ، يرى كثيراً من الهنات فيمن يتناول ، ولابد أن يقول رأيه مستنداً إلى تجربته الواسعة ، وخبرته الأصيلة بالنفوس ! قد يكون ابن حيان أكثر من النقد ، وأسرف ، فالصفحات التى اقتبسها ابن بسام تحت عنوان (المختار من قوله) تضرب فى النقد إلى مدى متطاول كاد أن يكون سبابا ! حتى ليفهم القارىء أن كتابته جميعها من هذا الطراز ، ولكن متابعة ما طبع من الذخيرة ، وما تدوول من أجزاء المقتبس تفهمنا أن ابن حيان ناقد منصف ، يسجل الشر والخير معاً ! وهو ما لا يرتضيه ابن بسام ، وقد تعرض الدكتور أحمد أمين إلى الفصل فى هذه القضية فقال فى ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٧٨ :

« ونحن إلى مذهب ابن حيان أقرب ، فالمؤرخ عليه أن يتحرى الصدق فى المدح والذم والنافع والضار أما اقتصاره على المدح دون الذم (كما يريد ابن بسام) . فتقصير فى رواية الحق ، وقول لنصف الحق ، وليس الرجل المشهور فى التاريخ ملكا لنفسه ، بل أصبح ملكا لشعبه ، يشرحه المؤرخ الحصيف ، كما يشرح الطبيب المريض . فنحن مع ابن حيان لا ابن بسام ، وكثيراً ما ضقت ذرعا بالمؤرخين الذين لا يذكرون إلا المحامد ويغضون الطرف عن المفاسد بل قد يخلقون المدائح خلقا وإن لم يصح نسبتها إليهم حقاً » .

ولو تعمقنا بواعث التأليف لدى ابن حيان وابن بسام ، لوجدنا كلا الرجلين منطقياً مع نفسه ، فابن حيان ألف كتابه ليصدر أحكامه كما يراها عقله البصير ، ويقول بعض الكاتبين عنه : « إنه لم يقصد إذاعة كتبه بين الناس ، بل جعلها مذكرات خاصة لورثته ، كى يستفيدوا منها ، وينتفعوا بعظاتها » ، وأنا أستبعد هذا ولا أقبله ، لأن المؤلف الذى يكتب أكثر من مائة مجلد فى التاريخ لا يقر بينه وبين نفسه أن تظل هذه الآثار الحافلة ملكا لعشرة من القراء أو عشرين !! ولكنه يقوم بمجهوده الضخم ، ليسمع الناس ما يريد وإذا كان ابن حيان قد اعترف بهذا الضن حين قال عن بعض كتبه . الذخيرة ١/٢ ص ٨٨ - : « وكنت اعتقدت الاستئثار به لنفسى وخبأه لولدى ، والضن بفوائده الجمة على من تنكب إحمادى به إلى ذمى ومنقصتى ، طويت على ذلك كشحا ، وأمضيته عزما ، إلى أن رأيت زفافه إلى خطبة سنية أتقى على بعد الدار ، أكرم خاطب ، وأسنى ذى همه : الأمير المؤثل يحيى بن ذى النون ، فليس لنا أن نحمل

هذا الاعتراف قضية مسلمة ، لشئ واحد ! لأنه يخالف طبائع الأشياء ! هذا شأن ابن حيان فى تأليفه . أما ابن بسام ، فقد ألف الذخيرة لينصف أهل الأندلس ويقف بهم مع المشارقة فى مستوى واحد ومؤلف هذه وجهته لا يتسنى له أن يسطر ما يعرف من المآخذ ! وإلا ما استطاع أن يبلغ بمؤلفه ما يريد !! .

لقد أطلنا القول شيئا ما عن ابن حيان ! وهو كاتب يستحق الالتفات دون نزاع ، وقد أنصفه الكاتب المفضال الأستاذ على أدهم حين ذكر فى معرض تبرئته من التحامل أنه وإن كان ينتصر دائما الخلافة الأموية « فهو أوسع أفقا وأكثر أمانة ، وأشد احتراما للحق من أن يكيل لهم المدح جزافا ويخلع عليهم أبراد الثناء بلا حساب ، وقد عدد فى الجزء الثالث من كتابه (المقتبس) مناقب الأمير عبد الله ، وأبدع فى وصفها ، ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، وأضاف إلى ذلك ذكر عيوبه ونقائصه ، وأحصى عليه أخطاءه وجرائمه ! ... ولا أعرف مؤرخا من مؤرخى المشارقة يقوم لابن حيان فى قوة التصوير ، وبراعة التلوين ، مع الإصالة والطرافة . وهو فى قوة تصويره ، وصرامته وصراحته ، واستمساكه بالموازين الأخلاقية يذكرنى بالمؤرخ الرومانى العظيم تاسيتوس » مجلة الثقافة عدد ٦١٤ .

إن هذا المؤرخ الفذ الذى يقول عنه صادقا الأستاذ على أدهم أنه لا يعرف مؤرخا من مؤرخى المشارقة يقوم له ! لم يستطع بآثاره أن يقف فى وجه كتاب اليتيمة حين تخطى الشرق إلى الأندلس فسحر الناس ، وبهر الكتاب ! وقد توالى كتاب التاريخ من بعده أمثال : ابن الفرضى ، والحافظ الحميدى وابن بشكوال وابن الأبار ، وابن عبد البر بسام ، والفتح بن خاقان ، وابن سعيد ، والحجارى وعبد الواحد المراكشى ، وابن الخطيب ، والمقرى ، ومن يلف لفهم من المؤرخين ، فقصروا جميعا عنه ، وماحاذوه ! ولا نستطيع أن نخص كل هؤلاء بالتحليل ! ولكنا نعمد إلى اثنين ممن رزقوا الحظوة فى الذيوع ، والمعاصرة فى الحياة ، لنتخذ منهما دليلا على أثر الثعالبى فى كتابة التاريخ الأندلسى ، ثم أثرهما تبعا لذلك فى انتقال العدوى البديعية إلى من يليهما من الكتاب ! وهما : ابن بسام صاحب الذخيرة ، والفتح ابن خاقان صاحب القلائد والمطمح ، وما أغفلنا ابن الخطيب عن انتقاص ولكن فضله ذائع وأسلوبه مشتهر وهو بعد لاحق بهما على أنه تأثر بثلاثتهم جميعا ، إذ قرأ ما خلفوه !

(يتبع)

محمد رجب البيومى

أبو العلاء والصور الشعرية

للأستاذ كامل السيد شاهين

---

١ — قد تأتيك الصورة الشعرية على حال من الاقتصاد، تعرض عليك أثراً من آثار عاصفة نفسية عند الشاعر، ثم تجرد هذا الأثر من سائر الشوائب التي تخفي دلالته، أو تحد منها، أو تصرف عنها، كما تجد ذلك في قول ذي الرمة:

عشية مالي حيلة غير أنني
بلقط الحصى والخط في الترب مولع
أخط، وأمحو الخط، ثم أعيده
بكفي، والغربان في الدار وقع!

أراد أن يدلك على ما بلغه من الحيرة والشرود وعزوب العقل عندما شهد ربع مية. فعرض عليك لوحة تراه فيها جالساً أمام الربع، يلتقط الحصى ويقذفه، ويثبت الخط ويمحوه، ثم يعود فيثبته، وترى الغربان مع هذا جاثمات لا تنزعج ولا تفرق على ما عرف في الغراب من الحذر.. فكأنها قد عرفت ذهوله، وزيغ بصره، وعدم استجماع عقله فأمنت واطمأنت.

صورة يسيرة للحيرة، أكدها وجلاها، هذا الختام الرائع الذي يعطيك الدليل الحاسم على أن ذهوله وبهتته قد بلغت المنتهى، حتى لتدركها هذه الطيور التي تؤثر الحيطة وتمعن في الطيران إذا أدركت أن الشر منها قريب.

وتجده كذلك في قول الحماسي:

يوم ارتحلت برحلي قبل برذعتي
والعقل متله، والقلب مخبول
ثم انبعثت إلى نضوي لأبعثه
إثر الحدوج الغوادي وهو معقول

فأنت تجد هنا رجلاً قد هاجت عواطفه، وذهب ضبطه، فهو يتصرف تصرف المتوله الموزع النفس، فيضع رحله على جمله، قبل أن يضع برذعته، ويبعث جمله الطليح في إثر الغواني الراحلات وهو مشدود بعقاله.

فذانك تصرفان من التصرفات التي لا تقع إلا من عازب اللب.

وكلتا اللوحتين جاءت يسيرة عاطلة من كل زينة، ملتقطة من الواقع المجرد، وكل جهد الشاعر أنه جاء بصورته واضحة غير غائمة، ولا محوطة بشيء يصرف عنها، أو يقلل الاهتمام بها، فبرز لنا ما وراء الأولى من السهوم والبهتة، وما وراء الثانية من العزوب والخبل والائتلاء.

٢ — وشعر أبي العلاء لا تكاد تجد فيه هذه الصور البسيطة العميقة الأثر، لأن عصر أبي العلاء، وثقافته العلمية والفلسفية، لا تدعانه

يسير فى بزة البدوى ، عليه من الطبيعة آثار ورسوم تجدها فى تلويح الجلد ، وسفعة الوجه، وتشقق القدم ، وانتفاش الشعر .

وإنما يعطيك عصر أبى العلاء وعلمه وفلسفته ، صورة متقنة ، فيها تنوق ، وعليها صبغ ، تحملك على الإعجاب بالعقل المبدع ، وبالفن المدروس ، أكثر مما تحملك على الانفعال الحار ، وأكثر مما تريك من العاطفة المشبوبة .

فهو معك كالدلالة الصناع ، تأتيها العروس فى خلقانها ، فلا تزال تقص منها وتسبل وتدقق وتغاظ ، وتكشف وتسدل ، وتهيل وتميل ، وتسود وتبيض ، وتحمر وتصفر حتى تبلغ بلاغها من الزينة والجمال ، وتختدع العين ما وسعها الاختداع .

على أن الصنعة قد تجيئك متنقبة فى احتشام وكأنها تعتذر عن وجودها ، وقد تأتيك عريانة وقاحاً لا تستحى ...

وأيسر مثل نضربه للصنعة اليسيرة قول الشاعر :

رب ورقاء هتوف بالضحا
ذات شجو صدحت فى فنن
ذكرت إلفا ، ودهرا سالفا
فبكت حزنا ، فهاجت شجنى
ولقد تبكى ، فما أفهمها
ولقد أبكى ؛ فما تفهمنى
فبكائى ربما أرقها
وبكاها ربما أرقنى
غير أنى بالجوى أعرفها
وهى أيضاً بالجوى تعرفنى

أنظر — رعاك الله — إلى موقع الفاءين فى البيت الثانى ، وإلى رد الأعجاز على الصدور فى الأبيات الثلاثة بعده .. فتلك جملة الصنعة فى هذه القطعة .

ولهذه القطعة نظير عند أبى العلاء ، من حيث الغرض الذى قيلت فيه — وهو إهاجة الشوق وبعث الحنين . فقد هاج البرق إبله ، فهن ينازعنه إلى معاطفهن بالشام فذلك قوله :

وكم هم نضو أن يطير مع الصبا
إلى الشام ، لولا حبسه بعقال
لقد زارنى طيف الخيال فهاجنى
فهل زار هذى الإبل طيف خيال
لعل كراها قد أراها جذابها
ذوائب طلح بالعقيق وضال
ومسرحها فى ظل أحوى كأنها
إذا أظهرت فيه ، ذوات حجال

فهو هنا يريك نضوه يهم أن يطير مع ريح الصبا إلى الشام ، فلولا أنه معقول لطار . ثم جعل يعجب من حنين إبله .. إنه يحن لأن طيفا زاره . أفتحن إبله لأن طيوفا زارتها كذلك؟ وماذا تكون هذه الطيوف؟ لعلها رأت فى كراها جاذبتها لذوائب الطلح،

والضال فى العقيق . لعلها رأت سرحتها فى ظل شجر أخضر وقت الهاجرة ، تهدلت أغصانه فسترتها بأوراقها .

وأنت واجد فى هذه الأبيات رنة الوليد، وصناعة حبيب ، وأقف بك عند البيت الثالث لتتملى هذا الجناس الحلو البارع (لعل كراها قد أراها) ، والجناس من الصناعات الدقيقة العسيرة ، ولكن هذه الصناعة فى كف لغوى ذواق كأبى العلاء سبيل ذلول .

ولو أنك قرأت البيت كله لظهر لك معنى دسه أبو العلاء فى أطواء الصناعة .

فهو يرينا أن الطيف عندما يزور العاشق، فإنه يأخذ منه بالقرون والذوائب .

أما الإبل فإنها أخذت بذوائب شجر الطلح والضال . أخذه بذوائب الطيف الطارق .

ونعود إلى الخيال ، فنجده خيالا متبدداً، لا يرسم لوحة شعورية متكاملة الجوانب ، على أن منه ما يدخل فى الإصالة كطيران النضو إلى الشام مع ريح الصبا ، وعمقه فى النفس ليس كعمق التجربة فى الأبيات النونية التى سلفت .

وحلاوة الأبيات ترجع إلى الصفاء الموسيقى الذى نجد قوامه فى صدى الألفات الممدودات ، وفى روعة الجناس ، وفى هذا الافتراض الساذج ، وهو أن الإبل قد رأت فى الكرى أنها آخذة بذوائب الطلح والضال.

وعلى الجملة ، فالصورة هنا غير متكاملة ، وأجزاؤها (١) ومضات فكرية ، وليست مصباحا متألقاً .

٣ — وقد تجىء الصورة مبنية على أصل واحد ، ثم يأخذ الشاعر فى حياطة ذلك الأصل ؛ لتتم الصورة بجوانبها وحواشيها وإطارها . كما ترى فى قول أبى العلاء من قصيدته التى بعث بها إلى أبى حامد الاسفرايينى:

يمته (٢) ، وبودى أننى قلم
أسعى إليه ، ورأسى تحتى الساعى
على نجاة من الفرصاد أيدها
رب القدوم بأوصال وأضلاع

وقد يسير إلى أبى حامد على نجاة ، والنجاة الناقة ، ولكن نجاته ليست من لحم وعظم ، بل هى مصنوعة من شجر الفرصاد ، فهى إذن سفينة ، قد جعلها الشاعر ناقة ، وهذا هو أصل الصورة ، ثم أخذ يتناول الجوانب المختلفات ، فقال : إن لها أضلاعا ومفاصل ولكن النجار رب القدوم هو الذى وثقها بهذه الأضلاع والمفاصل .

وإذا كانت الإبل تطلى بالقار إذا أصابها الجرب ، فإن (نجاته) تطلى بالقار على غير جرب :

تطلى بقار ، ولم تجرب ، كأن طليت
بسائل من ذفارى العيس منباع

(١) راجع القصيدة فى السقط ج ٢ ص ٥٠
(٢) ضمير الغيبة للاسفرايينى المذكور .

وإذا كانت الإبل تضيق بالمحل ، وتهش للوادى الممرع ، فإن (نجاته) ليس كذلك :

ولا تبالى بمحل إن ألم بها
ولا تهش لإخصاب وإمراع

وإذا كانت الإبل لها مبارك ومناخات ، فإن (نجاته) عند ما بلغت القادسية أحاط بها نفر من أصحاب السلطان . فأناخوها فى ميناء ضيق :

والقادسية أدتها إلى نفر
طافوا بها فأناخوها بجعجاع

فهذا الاستقصاء وثق أصل الصورة ، وهو إخراج السفينة فى صورة ناقة . فقد جعل لها ما للناقة من أوصال وأضلاع ، ومن الطلاء بالقار ، والإناخة بالجعجاع .

وخالف بينها وبين الناقة فى أنها من الفرصاد ، وأن أضلاعها وأوصالها من عمل رب القدوم وأنها لا تبالى بالمحل ، ولا تهش للروض المريع .

وكل من الأوصاف الأولى ، والأوصاف الأخيرة كشف عن جوانب للصورة تتحقق به وجوه المقاربة والمباعدة .

وإذا كان أبو العلاء قد جعل سفينته (نجاة) من الفرصاد ، فإن أبا نواس قد جعل نعله (الحضرمى الملسن) قلوصا ، أى ناقة ، وأكمل لها الصورة على وجه آخر ، فقال يمدح الفضل بن يحيى بن خالد :

إليك أبا العباس ، من دون من مشى
عليها ، امتطينا الحضرمى الملسنا
قلائص لم تعرف حنينا إلى فلا
ولم تدر ما قرع الفنيق ولا الهنا .

فأبو نواس وصحبه قد امتطوا إلى أبى العباس ـ دون سائر الناس ـ نعالهم الحضرمية وجعلها أبو نواس (قلائص) ، لا تحن إلى الفلا ، ولا تعرف وثوب الفحول ، ولم تطل بالهناء وهو القطران .

فهذه الأوصاف تعطينا وجوه المخالفة ، وتقرب الصورة من حدود الألغاز .

كما قال أبو الطيب ذاهبا مذهب المتصعلكين :

وحييت من خوص الركاب بأسود
من دارش فغدوت أمشى راكبا

٤ ـ وخير الصور الفرضية : ما ينميه الشاعر ويستكمله ويحقق وجوده ، ويجعل أجزاءه متكاملة قادرة على الإيحاء .

ولكن أبا العلاء فى بعض صوره يضل هذه السبيل ؛ فيأتيك بصور فرضية غالية ، تنبو عن الصدق ، وتدخل فى الإحالة ، وربما جعلت السامع يسىء الظن به

فمن ذلك قصيدته التى قيل : إنه ارتجلها أول بلوغه بغداد ، فى رثاء الشريف الموسوى ، والد الشريفين الرضى والمرتضى .

فهذه القصيدة على ما فيها من أبيات عيون قد تضمنت صوراً غريبة مريبة .

ولولا أننا نعرف تاريخ القصيدة ، وأنها سابقة على إهانة الشريف المرتضى لأبي العلاء لقلنا - دون تردد - : إن أبا العلاء قد قصد إلى إهانة الشريفين ، بهذه الصور المضحكة من الرثاء .

وأشهد أنني ما قرأت هذه القصيدة إلا ضحكت ضحكا يبلغ القهقهة في بعض الأحايين .

وأي امرىء يملك نفسه عندما يقول له أبو العلاء : « إن هذه الغربان النواعب ، طارت في الآفاق نواعيا للشريف الموسوي ، وهي مما يبهظها من الحزن ثقيلة النهض ، هافية على التراب .

ثم يدعو على الغراب دعاء إعجاب ... إعجاب بنطقه، وبقوافيه. إنه شاعر للبين، وهو عندما يقول : (غاق . غاق . غاق) إنما يرثي الشريف بقصيدة على روي القاف . قصيدة بنيت على الإيطاء ، وهو تماثل كلمة القافية بريئة من عيوب الإقواء والإكفاء والإصراف » . فذلك قوله :

طار النواعب يوم فاد نواعيا
فندبنه لموافق ومناف

أسف أسف بها ، وأثقل نهضها
بالحزن ؛ فهي على التراب هواف

لا خاب سعيك من خفاف أسحم
كسحيم الأسدي ، أو كخفاف

من شاعر للبين قال قصيدة
يرثي الشريف على روي القاف

بنيت على الإيطاء سالمة من الإ
قواء والإكفاء والإصراف

على أن هذا الغراب الجون معجب بنفسه ، مزهو بلباسه ، أو ليس قد أتيح له أن يتخذ لباسا مناسبا ، وهو السواد ، أفلا يدعوه ذلك لأن يميس ويزدهي ؟ .

بلى . وإن البزاة لتحسده ؛ لأن لباسها البياض ، ومن لها لما نعي الشريف لها بلبس السواد ؟ على أن الطيور كلها في الحزن على الشريف سواء ، أغربتها وبزاتها :

فذلك قوله ، والحديث عن الغراب :

جون كبنت الجون يصرخ دائبا
ويميس في برد الحزين الضافي

حسدته ملبسه البزاة ، ومن لها
لما نعيت لها بلبس غداف

والطير أغربة عليه بأسرها
فتخ السراة ، وساكنات لصاف

أي مذهب للحزن مع هذا الكلام ؟ ، وكيف السبيل إلى أن نستشعر أن أبا العلاء كان مفجوعا بموت والد الشريفين ، راغبا لهما في العزاء والسلوان ، وهو يشغلنا بهذا العبث الظريف ، ويجعلنا نرى الغراب «يصرخ دائبا ، ويميس في برد الحزين » أما كان في صراخه وحزنه ما يشغله عن الميسان في برده الأسود ؟

إننا إزاء هذا العبث لا نكتفي باقترار

الشفاه ، بل هو يحملنا - على رغم - على ضحك يشق الاشداق .

ولا يكاد أبو العلاء يخلص من هذه الصورة إلى أبياته الرائعة :

هلا استعاض عن السرير جواده
وثاب كل قــرارة ونياف
هلا دفنتم سيفه في قــبره
معه ، فذاك له خليل واف
هيهات صارم للمنايا عسكرا
لا ينثنى الكـــر والإيجاف

حتى تغلب عليه شقوة الإحالة ، فيمدنا بصورة أخرى ليست أبعد من اللعب من صورته الأولى . فيصف لنا الشريف في قبره وقد زاره الموتى ، فلا يجد شيئاً يمنحهم إياه ، إذ لا يملك - واحر قلباه - غير كفنه ، والموتى أنفسهم لا يحتاجون إلا أكفانا ، فيغلبه الجود ، فيخلع عليهم أكفان أبلج مكرم الأضياف ! .

وكأن أبا العلاء أجفل حين رأى الشريف متجردا عريانا ، بعد ما وهب أكفانه لزوره من الموتى ، فاستدرك ذلك على عجل ، فقال : إذا خلع الشريف حلة على ميت أرسل الله إليه مثلها أضعافا .

فذلك حيث يقول ، والحديث عن الشريف الموسوى :

إن زاره الموتى كساهم في البلى
أكفان أبلج مكرم الأضياف

والله ، إن يخلع عليهم حلة ،
يرسل إليه بمثلها أضعاف

ثم ينتهى إلى أن الجنان ملك للشريف ، يتصرف فيها ما شاء له أن يتصرف . فلا حظر بعد صيرورتها إليه ، فمفاتيحها منبوذة ، ورضوان مسير بين يديه للإتحاف :

نبذت مفاتيح الجنان ، وإنما
رضوان بين يديه للإتحاف .

والصورة التى صور بها الرماح بعد موت الشريف مزجت بين الجمال والعبث فنحن نقبل من أبى العلاء أن يزعم أن الذوابل قد غدت - بعده - مضطربة المتون ، كابلة الأسنة .

ذهب الذى غدت الذوابل بعده
رعش المتون كليلة الأطراف

لكننا نعود إلى الابتسام عندما نراها تلعب أمامنا ، وتتعطف من الأسى ، كأنها الصلال الثائرة ونجد زجاجها تتصل بلهازمها وتعطفت لعب الصلال من الأسى
فالزوج عند الهــزم الرعاف

وبعد :

فليتخيل القارئ الكريم معى ، الأغربة واقفة على منابر المساجد في بغداد ترثى الشريف بقصيدة على روى القاف . وتميس في برد الحزين الضافى ، والبزاة مغيظة تحسدها على ملبسها الأسود . وليتصور الشريف واقفا في قبره يحتضن الموتى الذين يرحبون بمقدمه

(البقية ص ٨٢٠)

من بحوث مجمع البحوث

كتب ظاهر الرواية

للإمام محمد بن الحسن

بقلم الفاضل بن عاشور

إذا كان لنسب من الأنساب العربية ، الكريمة الواضحة ، أن يهدم كل ما بنى له الشعر من فخر ، ورفعة ذكر ، فى الجاهلية والإسلام ، وهو واثق من أن معالم المجد التى أقامها له الإسلام ، أعز وأطول مما بنى له الشعر ، وأن ذكره فى العلم والفقه ، أتم خلوداً من ذكره فى الأيام والملاحم ، فذلك هو نسب بنى شيبان ، الذى ازدهر فى تاريخ الفقه الإسلامى باثنين من الأئمة العظام فى الفقه ، ما منهما إلا من هو سابق لأبى الصقر فى استحقاق مديح ابن الرومى الذى يقول فيه :

قالوا : أبو الصقر من شيبان قلت لهم :
كلا لعمرى ولكن منه شيبان
فكم أب قد علا بابن ذرى حسب
كما علت برسول الله عدنان

ذانك هما إماما بغداد فى الرأى والأثر : الإمام محمد بن الحسن الشيبانى ، والإمام أحمد بن حنبل الشيبانى .

ولد محمد بن الحسن بواسط ، ونشأ بالكوفة ، ثم دخل إلى بغداد ، ولقد كان الفقه فى أوضح معانيه ، توسعا فى الاستدلال ، واستنادا إلى الرأى ، وتصرفا فى الأثر ، هو الفقه الذى أقام معالمه ، ومهد مناهجه ، الإمام أبو حنيفة فى الكوفة ، ثم انتقل به إلى بغداد ، حيث توفى لأول عهد تأسيسها فى منتصف القرن الثانى . فكان المذهب الحنفى أول المذاهب الفقهية نشأة ، على الصورة المذهبية الواضحة ، ذات الأصول والقواعد ، التى وضعها له أبو حنيفة ، رضى الله عنه ، اتفاقا فى بعضها مع المذاهب ، واستقلالا ببعضها بالمذهب . فاتصل محمد بن الحسن بأبى حنيفة فى السنين الأخيرة من حياته ، وتم تكونه الفقهى به فى الكوفة ، ثم فى بغداد ، فكان فقيها عراقيا فى تكونه ، كما كان الشافعى فى تكونه فقيها مكيا . وكانت المذاهب تنشأ ، حوالى المذهب الحنفى ، بين الحجاز والشام ومصر ، على أصول ينفرد كل مذهب منها ، بالمجموع المكون لطريقته الفقهية ، على اشتراك فى بعضها بين مذهب أو غيره ، وانفراد بالبعض الآخر ، فمالك بالمدينة وسفيان

ابن عيينة بمكة ، والأوزاعى فى الشام ، والليث بن سعد فى مصر . وكان الفقه الناشئ فى كل مصر من الأمصار ، والفتوى الصادرة عن كل فقيه من فقهائها ، معلوما لدى المصر الآخر وفقيهه ، علما يستوعب جملة من الأصول ، ثم يهتدى من استقرائها إلى طريقة تخالف ، فى مناهجها الأصلية الطريقة التى يسير عليها هو فى استنباط الفقه ، حتى لاحظ كل من الفقهاء على الآخر ما له من خصائص فى أصوله المذهبية ، فأخذها عليه وناظره فيها ، بحيث أصبحت المذاهب الفقهية معروفة أصول كل واحد منها عند الآخر ، أكثر مما هى مشعور بها ، عند أهلها ، وفى عقر دارها ، فكان فى ذلك ما يثير اهتمام الناشئين على طريقة من طرائق فقهاء الأمصار ، بالتعرف إلى طريقة الآخر ، والاتصال بها : ذلك كان شأن الشافعى ، وذلك هو شأن محمد بن الحسن الشيبانى وذلك ما أخرج هذين الإمامين كما رأينا فى ترجمة الشافعى ، قرينين قريعين نظيرين ، ترجع خصوصية كل منهما فى الفقه إلى معنى من الجمع بين المذاهب ، هو الذى أخرج كلا منهما ، فقيها ، محدثا ، أثريا قياسيا .

وكما خرج الشافعى من بيئة الأثر إلى بيئة الرأى ، وسلك من منهج العلم ، إلى منهج الفقه ، فقد خرج محمد بن الحسن بعكس ذلك من بيئة الرأى ، إلى بيئة الأثر ، وسلك من منهج الفقه ، إلى منهج العلم ، فكان ذلك تلاقيا بينهما ، وائتلافا بين مذهبيهما ، إذ لم يكن فراق بيئة وأم أخرى ، مما يحدث تنافراً بين البيئتين ، ولا مما يفصل الراحل عن إحداها عندما يتصل بالأخرى . حتى يقال فى الراحل من هذه لتلك ، والراجع من تلك إلى هذه :

سارت مشرقة وسرت مغربا
شتان بين مشرق ومغرب

ولكن يصدق فيهما بما يكتمل لكل منهما مما تفرق بين الناس قول أبى تمام يفخر بنفسه :

قد سهلت منه الحجاز ورققت
منه الشآم ، وهذبته المشرق

أو قول أبى الطيب فى الأستاذ ابن العميد :

ولقيت كل الفاضلين ، كأنما
رد الإله نفوسهم والأعصرا
نسقوا لنا نسق الحساب مقدما
وأتى فذلك إذ أتيت مؤخرا

قصد محمد بن الحسن ـ وهو فقيه عراقى ـ دار الفقه الحجازى بالمدينة ، واتصل بمالك ابن أنس وروى عنه الموطأ ، تلك الرواية التى كنا نوهنا بها فى كلامنا على الرافد الأول من روافد الثقافة الإسلامية : وهو الموطأ .

وقصد دار الفقه الشامى ، وهى إلى فقه الحجاز أقرب منها إلى فقه العراق ، فتخرج

بالفقه والرواية عن الإمام الأوزاعى . ودخل البلد الحرام ، مكة فروى عن إمامها سفيان بن عيينة . ثم رجع إلى بغداد ، وقد خلت من أبى حنيفة إذ كان قد توفى ، وقام صاحبه الأكبر، أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم الخزرجى، مقام أبى حنيفة يجمع أصحابه، ويملى المسائل ، ويفرع الأحكام عن أصوله ويفتى الناس بفقهه المنقول ، أو الفقه المستنبط على طريقته ، فأقبل محمد بن الحسن على أبى يوسف يتم تخرجه بين يديه . ويسعى إلى مطارحته ، ومباحثته ، بما يولد بينهما أنظاراً فى وضع الأحكام الفقهية . إذا اتفقت بينهما ، وكثيراً ما لا تتفق، فإنها قلما تتفق فى صورتها الفرعية الجزئية مع ما رويا معا ، أو روى أبو يوسف لمحمد عن أبى حنيفة . وبهذا العمل : تجلت صورة جديدة من صور العمل الفقهى : ما كان الأفق الفقهى أضاء بها قبل محمد بن الحسن : وهى صورة التفريع المختلف فى الأحكام الراجع إلى أصول متحدة : هى قوام المنهج المذهبى . بما يبرزه فى الصورة الواقعية معنى إجمالية الأصول وتفصيلية الفروع . فكان محمد بإبرازه هذه الحقيقة مبرزا العمل التفريعى فى الفقه باختلافه عن العمل التأصيلى مع ارتباطه به ورجوعه إليه بحيث إن ثلاثة من الفقهاء يأخذون بالأصل الواحد فيذهب كل واحد منهم فى تطبيقه والتفريع عنه مذهبا يختلف عن مذهب الآخر ، فكان به مظهر العمل التفريعى الذى هو اجتهاد مقيد به صح لأهل التفريع فى كل مذهب وصف المجتهدين المقيدين ...

محمد الفاضل بن عاشور

(بقية المنشور على صفحة ٨١٧)

الكريم ، ويخلع عليهم أكفانه ، والأكفان تتنزل من السماء عليه . ثم هو يبذل الجنة بجوده ويبقى رضوان غلاماً بين يديه . وليتمثل معى، الرماح تتلوى ذات اليمين وذات الشمال كأنها الصلال ، حتى تصيب زجاجها لهازمها .

ثم ليحدثنى عن لواعج الحزن وحرارة الوجد وحقيقة اللوعة فى هذه الصور الغريبة التى لا أراها تخدم غرضاً إلا إظهـــار (التقاليع) العلائية .

أو ليس القارىء عاذرى إذا أنا التمست هذه القصيدة الرائية لأتروح بها ، وآنس بعبثها الظريف ، وخيالها الشارد .

إن أبا العلاء لو قال هذه القصيدة ساخرا من الشريفين عابثاً بهما وبوالدهما ، مبتغيا للإضحاك والطنز ، لكان ذلك أدخل وأشبه بما تعطيه القصيدة من حقيقة الرثاء . ؟

كامل السيد شاهين

المجتمع الاشتراكي في ظل الإسلام

للأستاذ عبد الرحيم فوده

المذاهب الاشتراكية

على كثرة ما قرأت من كتب وبحوث في الاشتراكية لم أظفر بتعريف واحد يحدد معناها ، لأن مفهومها قد اتسع لكثير من المذاهب الاقتصادية المختلفة التي ترمي إلى تنظيم المجتمع ، وتهدف إلى تحقيق ما يمكن تحقيقه من المساواة الاقتصادية والاجتماعية بين الأفراد الذين يعيشون فيه ، وقد نبتت هذه المذاهب في بيئات مختلفة ، وتأثرت بواعثها وأهدافها وبرامجها ومناهجها بظروف هذه البيئات ، وبخاصة الأوضاع الاقتصادية الجائرة التي سادت القارة الأوربية في أوائل القرن التاسع عشر ، ومع ذلك أطلق على كل مذهب من هـــذه المذاهب اسم « الاشتراكية » أو الكلمة التي ترجمت بهذا الاسم ، ومن ثم كان من الصعب أن يخرج الباحث بتعريف جامع مانع لمعنى هذه الكلمة التي أصبح لها رنين سحري في نفوس الجماهير الكادحة ، والقوى العاملة ، اللهم إلا أن يلجأ إلى التعميم ويرتفع إلى ما ارتفع إليه علماء المنطق حين عرفوا الإنسان: بأنه حيوان ناطق أو مفكر فيقول في تعريف الاشتراكية : إنها القواعد والنظم والقوانين التي يتمكن بها الأفراد من الاشتراك في موارد الدولة ، وبذلك تدخل كل هذه المذاهب الاشتراكية - مع اختلافها - في هذا التعريف ، كما يدخل كل الناس من مختلف الشعوب والأجناس في تعريف الإنسان بأنه حيوان ناطق أو مفكر .

والواقع الذي لا سبيل إلى الشك فيه عند من يدينون بالإسلام أن هـذا الدين القيم لو عرفه على حقيقته الباحثون عن الحرية . والظامئون إلى تحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية لوجدوا فيه ما يغنيهم عن كل هذه المذاهب ، ويقيهم ما اقترن بها وبالنظم الرأسمالية من مآثم ومظالم ، فإنه - وهو تنزيل من حكيم عليم - قد سوى بين الناس في الحقوق والواجبات ، وجعلهم على اختلاف ألسنتهم وألوانهم أسرة واحدة ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، وفرض لفقرائهم حقا

معلوما فى أموال أغنيائهم ، وليس فى طبيعته وشريعة كتابه ما يسمح بقيام الأوضاع المنحرفة التى قامت فى المجتمعات الأوربية وغيرها ، ونشأ عنها الصراع الدموى الحاد بين الطبقات الظالمة ، والطبقات المظلومة ، أو الهيئات الحاكمة والشعوب المحكومة ، وإذا كان المجتمع الإسلامى قد وقع فيما وقعت فيه المجتمعات الأوربية من ظروف ، ونشأ فيه ما نشأ فيها من إقطاع ظالم ، ورأسمالية طاغية ، وحكومات فاسدة وفروق طبقية ، فإن ذلك كله مرده إلى بعده عن الإسلام ، وتأثره بالتبعية للدول الأوربية ، ومن ثم كان القضاء على الاستعمار وظلم الإقطاع . وطغيان رأس المال . وفساد الحكم . والنظام الطبقى عملا إسلاميا من صميم الإسلام ، فاذا سمى هذا العمل وما إليه من الأعمال الإنشائية والمشروعات العامة التى قامت بها الثورة « اشتراكية ديمقراطية تعاونية » . فإن هذه التسمية لا تبعد بها عن إطار الإسلام ؛ لأن فى الإسلام أمثل ما فى الاشتراكية من تضامن وخير ما فى الديمقراطية من شورى وأعظم ما فى التعاون من بر ، فالمسلمون « تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » كما يقول النبى صلى الله عليه وسلم ، وأمرهم كما يقول الله فيهم « وأمرهم شورى بينهم » وعملهم يقوم على التعاون . كما يقول سبحانه « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » والحاكم والمحكوم فيهم كلاهما محكوم بما أنزل الله . مأمور بتأدية الأمانات إلى أهلها ، والحكم بما أنزل الله أساسه العدل كما يفهم من قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » فقد فسرت الأمانات بكل الحقوق والواجبات ، وفسر العدل بالمساواة والإنصاف . وتوخى القصد فى الأمور ، والجزاء والفداء ، والمثل والنظير ، فالعدل فى الحكم والعدل فى القضاء والعدل فى الجزاء والعدل فى تقدير الأجور . والعدل فى تكافؤ الفرص . كل ذلك حق يجب أن يتبع ، وأمر يجب أن يطاع .

هذا إلى أن المؤمنين كما يقول الله فيهم : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » وكما يقول فيهم : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » وهم كما وصفهم القرآن « رحماء بينهم » . فالإخلاص . والولاء والرحمة والتعاون على البر والتقوى ، يجعلهم « كالبنيان يشد بعضه بعضا » وكالجسد « إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » ولا أعرف اشتراكية فى العالم ترتفع بالمجتمع إلى هذا المستوى الرفيع ، لأن الأساس الذى تقوم عليه الاشتراكية

فى المجتمع الإسلامى يختلف اختلافا جذريا - كما يقال - عن الأساس الذى تقوم عليه المذاهب الاشتراكية فى غيره من المجتمعات كما قلت فى بعض ما كتبت وأذعت .

إنها فيه تعبير عن شعور كل فرد فيه بحق أخيه ، وعبادة مالية لا يكمل إيمان المؤمن بدونها ولا يصلح إسلامه بغيرها .

إنها فيه ثمرة طيبة بشجرة طيبة « أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » وفى غيره ثمرة مرة لنزاع مرير وصراع طال مداه بين العمال وأصحاب رأس المال . إنها فيه تقوم على الإيمان بالله خالق الجميع . ورازق الجميع ، وعلى أن المال لله فيجب أن يوجه لخير الجميع . ومصلحة الجميع وعلى أن المؤمنين إخوة فيجب أن يسودهم التضامن والتعاون وأن يشد بعضهم أزر بعض ، لأن بعضهم أولياء بعض .

هذا هو الأساس الذى تقوم عليه الاشتراكية فى المجتمع العربى الإسلامى ، بل فى ضمير كل فرد فى المجتمع العربى الإسلامى ، يؤكده النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه » وقوله لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وقوله : « ما آمن بى من بات شبعان وجاره إلى جانبه طاو » (أى جائع) ، وقوله « أى رجل مات ضياعا بين أغنياء فقد برئ منهم الله ورسوله » ، وهذا الأساس هو - وحده - الذى تقوم عليه الحياة الطيبة للفرد والجماعة والأمة ، فليس المال ملكا خالصا للدولة حتى تجور على الأفراد فتأكل جهودهم . وتلغى وجودهم كما هو الشأن فى الشيوعية ، وليس ملكا خالصا الأفراد حتى يحق لهم احتجانه واختزانه . واستغلاله بطرق آثمة ، ووسائل ظالمة كما هو الشأن فى الرأسمالية ، إنما هو ملك لله ، يأخذ منه الإنسان بالوسائل التى شرعها الله كالعمل الصالح المثمر ، والإرث والهبة والوصية ، وتأخذ منه الدولة بمقدار ما يعينها على تأمين حدودها ، وتأكيد وجودها ، وتيسير أسباب الخير والحياة الطيبة لبنيها .

فالملكية الفردية مشروعة فى الإسلام على أساس أنها ملكية نسبية خالصة لا ملكية حقيقية تامة ، والضرر الخاص الذى قد يقع على بعض الأفراد يجب أن يتحمل فى سبيل رفع الضرر العام كما هى القاعدة الشرعية .

وهكذا نرى الاشتراكية فى إطار الإسلام خيراً لا يشوبه شر ، وعدلا لا يعيبه ظلم لإنها كما يقول الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ، وكما يقول جل شأنه : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » ، وقد نظر إليها الرئيس جمال عبد الناصر هذه النظرة المؤمنة السليمة

فقال فى بعض ما كتب : (... وتتعارض المذاهب وتصطرع العقول والقلوب وتنشأ الجماعات المختلفة ، تدعو كل جماعة منها إلى مذهب ، ويشغل الفلاسفة وأهل الفكر فى كل أمة ليخترعوا (نظاماً) يفض المشكلة ويحل العقدة ، ثم نسمع عن الرأسمالية والاشتراكية ، والنازية والفاشية والشيوعية والفوضوية ، وعن نظم أخرى لايكاد يبلغها الإحصاء ، وليس فى واحد منها حل صحيح لمشكلة الفرد والمجتمع ، لأن مشكلة الفرد والمجتمع مشكلة إنسانية قبل أن تكون مشكلة مادية ، فلا سبيل إلى حلها إلا بتربية الشعور الإنسانى فى نفوس الجماهير ، وتوثيق أواصر الأخوة الإنسانية بين البشر .

ونقف نحن العرب المسلمين فى هذا الجانب من العالم ، نشهد الصراع الذى يدور بين هذه المذاهب المادية المبتدعة ، ونرقب المعارك الفاشية بين الشعوب وحكوماتها حول تلك المذاهب ، فنعجب أشد العجب من تلك المذاهب والذاهبين فى سبيلها من الحكومات ومن الشعوب على السواء لأن مشكلة الفرد والجماعة التى حيرت كل المفكرين والفلاسفة فى أوربا منذ قرنين أومنذ قرون قد وجدت الحل الصحيح فى بلادنا منذ ألف وثلاثمائة سنة .. منذ نزل القرآن على محمد بن عبد الله يدعو إلى الأخوة الانسانية ، ويفصل مبادىء العدالة الاجتماعية على أساس من التراحم والتكافل الأخــوى ، وإيثار على النفس فى سبيل النفع العام للجماعة ، من غير طغيان على حرية الفرد . ولا إذلال له . وإنكار لذاتيته . إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى »

ذلك هو النظام .

فليكتشف المفكرون والفلاسفة بما بذل من جهد ، ولايبحثوا منذ اليوم عن حلول أخر لمشكلة الفرد والمجتمع .

إن عندنا الحل .

الحل الأول الذى نزل به الوحى على نبينا منذ ألف وثلاثمائة سنة هو الحل الأخير لمشكلة الإنسانية » .

حفظه الله وسدد على طريق الخير خطاه وأعاننا وإياه على تحقيق ما نصبو إليه من خير للعروبة والإسلام .

عبد الرحيم فودة

تيارات منحرفة في التفكير الديني المعاصر

للأستاذ علي العماري

— ٤ —

إن الدين عند الله الإسلام

ومؤلف كتاب (دين الله واحد) يزعم أنه نشر رسالته الموجزة ليكون لها ما يتمناه من أثر في العقول والقلوب والنفوس حتى يسود بين الناس السلام ، ويعم الوفاق والوئام ...

وعنده أن كل من يعمل على إثارة الخلاف في البلاد ، وبث روح التفرقة الخبيثة بين الناس لا يكون مخلصاً في إيمانه الديني ، ولا صادقاً في ولائه الوطني .

ونحن معه فيما يقول ، ولكن ما الوسيلة إلى هذا الهدف النبيل ؟ ...

كان على المؤلف أن ينحي باللائمة على كل من يعمل على التفرقة ، سواء كان مسلماً ، أو يهودياً ، أو نصرانياً ، وأن ينبه كل فريق على الأخطاء التي يرتكبها في حق الدين والوطن كما كان عليه أن يلتزم جانب الحق والصدق ، فلا يذهب يفسر نصوص دين من الأديان على ما يسوله له هواه ؛ فإن ذلك يؤدي إلى عكس مقصوده .

فليس مما يؤلف القلوب أن يعبث عابث بكتابها ، وبأصول دينها ، فالمؤلف يمن يصدق عليهم أنهم يعملون على إثارة الخلاف ، وبث روح التفرقة الخبيثة ، ذلك أنه قصر لائمته على فريق من علماء المسلمين ، وادعى في أكثر من موضع من كتابه أنهم يعملون على تمزيق الروابط ، وهذه عبارة من عباراته بنصها ، وفصها : (وإن الذي يملأ النفس أسى أن هذه الآية الكريمة - يريد قوله تعالى : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » ما تزال تجري بهذا الفهم الخاطيء على ألسنة كثير من مشايخ المسلمين ، وعامتهم ، وهذا - ولا ريب - له أثر بالغ في تمزيق الروابط بين المسلمين ، وبين إخوانهم الأقباط ، وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم باسم الدين) .

ففهم آية على غير وجهها - كما يزعم - ذو أثر بالغ في تمزيق الروابط والذين فهموا هذا الفهم الخاطيء إنما هم (كثير) - هكذا - من مشايخ المسلمين ، وعامتهم ، ثم يستمر يسخر من بعض العلماء ، ويرميهم بالجهل .

فهل صحيح أن أحد العلماء استنكر أن يكون النصارى أهل كتاب ؟ حتى أرشده المؤلف إلى موضع ذلك من كتاب الله ! .

أما كان واجب الحق ، والإنصاف يقتضى المؤلف ألا يلق التبعة كلها على مشايخ المسلمين وعامتهم ؟ ...

وأن يقول ولو كلمة عتاب رقيقة لأولئك الذين يعملون جاهدين على هدم الإسلام من المبشرين ، والمستعمرين وأذنابهم من إخوانه (الأقباط) وأن يوجه - إن كان صادق النية - ولو كلمة رجاء إلى رؤساء الحكومات المسيحية الذين يضطهدون المسلمين الخاضعين لهم ؟ ...

إن أحداً لا ينكر حتى من أشد المتعصبين على الإسلام والمسلمين أن الأقباط فى البلاد الإسلامية يلقون من التكريم ، ومن المعاملة المنصفة العادلة ما لا يظفر بشىء منه المسلمون المقيمون فى دول مسيحية ، متعصبة لمسيحيتها وأن الوعاظ الذين يدعون إلى الإسلام فى البلاد التى يذهبون إليها لا يسمحون لأنفسهم ولا يسمح لهم دينهم أن يلجأوا - فى دعوتهم - إلى أية وسيلة من الوسائل الدينية التى يتذرع بها المبشرون ، ويعتمدون عليها .

فهل من العدل والعقل أن تصدر دعوة للاتحاد ، والائتلاف بين أهل الأديان ، ولا تشير بكلمة واحدة لكل هذه المعاول التى لا تفتأ تهدم فى بناء الإنسانية ، فى حين ترفع عقيرتها بأن فهم بعض المشايخ لآية فى كتابهم - وهو فهم سليم - ذو أثر بالغ فى التفرقة ؟ !

إن المؤلف (الشيخ) الذى يبكى لأن أحد المشايخ قال : إن رحمة الله لا تنال القبطى ، لم يذرف دمعة واحدة على ما امتلأت به كتب المبشرين ، والمتعصبين من المسيحيين من الطعن على الإسلام ، وعلى نبى الإسلام ، وعلى السابقين الأولين من الأنصار والمهاجرين الذين نشروا هذا الدين ، وآزروا نبيه ونصروه .

ولذلك يحق لنا أن نقول صادقين : إن صنيع هذا المؤلف معول هدام فى بناء الألفة بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى .

والمؤلف يتلمس كل بارقة - ولو كان برقها خلبا - ليؤيد بها دعواه ، وهو لا يبق يحمل النصوص فوق ما تحتمل ، أو يؤمن ببعضها ويكفر ببعض .

وليس هذا الصنيع - فقط - فيما يتعلق بآى القرآن الكريم ، بل هو يفعل ذلك بآراء الذين ينقل عنهم ، فيأخذ منها ما يظن أنه يؤيد دعواه ، ويتجاهل ما ينقض عليه هذه الدعوى ، وبذلك يسىء إليهم ، لأنه لو نقل آراءهم كاملة لرفع سوء ظن القارىء بهم .

فقد حاول المؤلف محاولة يائسة أن يعتمد على قوله تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام) فمن أول الطريق أراد أن يبعد عن الأذهان

أن المراد بالإسلام هو : هذا الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فكتب تحت هذه الآية ، وبين قوسين : أى إسلام الوجه ثم أخذ فى شرح كلمة إسلام ، ناقلا ، فيقول : والإسلام مصدر أسلم ، وهو يأتى بمعنى خضع ، واستسلم ، وبمعنى أدى ، يقال : أسلمت الشىء إلى فلان إذا أديته إليه ، وبمعنى دخل فى السلم بمعنى الصلح والسلامة ، وبالتحريك : الخالص من الشىء ، ومنه قوله تعالى : (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سلما لرجل) .

(وتسميته دين الحق إسلاما يناسب كل معنى من معانى الكلمة فى اللغة ، قال تعالى : ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) .

ثم يجىء بهذه العبارات ، ويضع تحتها خطوطا ، لينبه على أنها موضع الإقناع وقد علم بذلك أن الحصر فى قوله : (إن الدين عند الله الإسلام) يتناول جميع الملل ، التى جاء بها الأنبياء ، لأنه روحها الكلى ، الذى اتفقت فيه على اختلاف بعض التكاليف ، وصور الأعمال فيها ، وقد أخبر القرآن فى غير موضع أن الأنبياء كلهم كان دينهم الإسلام .

وبعضى يستشهد بآى القرآن على هذا المعنى فيذكر إسلام نوح ، وإسلام إبراهيم ، ثم إسلام من فى السموات ومن فى الأرض .

وخلاصة كل هذا ـ عند المؤلف ـ أن اليهودية ـ الآن ـ دين حق ، وأن المسيحية ـ الآن ـ دين حق ، وأن دين محمد دين حق ، وهى كلها إسلام ، وهى كلها الدين عند الله ، وليس الأمر ـ كما يفهم المسلمون ـ أن الدين الحق ، هو الإيمان بالله ، وبالقرآن وبمحمد وهو الإسلام .

فأولا : هل يمكن فى نظر عاقل أن يكون الإنسان مقراً بوحدانية الله ، مسلم الوجه له وهو لا يؤمن بكتاب من كتبه ـ وهو القرآن ـ وبرسول من رسله ـ وهو محمد ـ)

وإذا كان ذلك غير ممكن ، لأن معنى الإيمان بالله الإيمان بكل ما جاء من عنده . فكيف تكون اليهودية (الدين عند الله) هكذا بطريق الحصر ، وهى لا تؤمن لا بالقرآن ، ولا بمحمد ؟ وهذا يقال فى كل دين يخالف دين الإسلام .

إن النتيجة الحتمية للإيمان بالله إيمانا صحيحا ، هى الإقرار بأن الدين الذى جاء به محمد دين حق ، وإذا أقر إنسان بذلك وجب عليه أن يلتزم التكاليف التى جاء بها هذا الدين وهذا هو مايطلبه الإسلام من أهل الكتاب ومن غيرهم ، وإذن فمن تمسك باليهودية ، أو بالنصرانية ، ولم يؤمن بشريعة محمد ليس مسلما ، وليس ناجيا ، ولو أخلص العمل ، ولو آمن بالله ، واليوم الآخر ، وليس من أتباع (الدين عند الله) .

وثانيا: المؤلف نقل كل ما أورده هنا - عن تفسير المنار للسيد رشيد رضا، فياليت شعرى هل وقف المؤلف - وهو يطالع هذا التفسير عند هذه الكلمات أو استمر فى القراءة، فوجد فى آخر تفسير هذه الآية قول صاحب المنار: (ولذلك كان إسلامهم - يريد أهل الكتاب - لا بد أن يستتبع اتباعك فيما جئت به، لأن من كان كذلك فهو نير القلب متوجه - دائما - إلى طلب الحق فهو أقرب الناس إلى قبوله، متى جاءه وظهر له).

وثالثا: لقد أغفل المؤلف فى هذا الموضع قوله تعالى: (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) - مع أنه تتبع كلمة إسلام فى القرآن - فهل صنع ذلك لأنه يعرف؟ إن كان يعرف أن سياق الآيات فى هذا الموضع ترجح تفسير الإسلام بشريعة محمد فهو يهرب من كل ما يشير من قريب أو بعيد إلى ما ينقض عليه دعواه، وإلى ما يفيد أن أهل الكتاب ملزمون بالإيمان بمحمد وبالقرآن.

ورابعا: أى مانع يمنع من تفسير الإسلام فى الآية الأولى بدين محمد عليه الصلاة والسلام والرسول قد بين فى حديث صحيح مشهور أن (الإسلام) بنى على خمس، منها شهادة أن محمدا رسول الله، وفى حديث ابن عمر الذى رواه عن أبيه عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما، أن جبريل عليه السلام سأل النبى عن الإسلام، فأجابه: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فصدقه جبريل.

فإذا كان مشهوراً عند نزول القرآن أن (الإسلام) هو الإيمان بالله، وبمحمد، وبالقرآن، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وإذا كان القرآن خاتمة الكتب السماوية، وهو يخاطب الناس جميعا، إذا كان كذلك كان بديهيا أن يراد بالإسلام فى الآيتين: «إن الدين عند الله الإسلام». «ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه» هذا الدين الجديد، الدين الخالد، الدين الذى كتابه القرآن، ورسوله محمد، والمدعو إليه الناس كافة.

وخامسا: من العجيب أن هذه السورة التى وردت فيها الآيتان السابقتان - وهى سورة آل عمران - أطالت الحديث عن أهل الكتاب، وخاطبتهم، ووبختهم على جحودهم بنبوة محمد، وإنه ليكفى قليل من الإنصاف، ومن احترام العقول ليؤمن من يقرأ هذه الآيات: أن أهل الكتاب مطالبون بالإيمان بمحمد، وأن دينهم الذى هم عليه ليس شيئا ما لم يتبعوا هذا النبى؟ (يتبع)

على العمارى

القوم الصوفية بقلم : ا.م.م. ماكين

ترجمة الأستاذ فتحى عثمان

– ٢ –

وبوفاة النبي بدأ تطـــور الفكر الديني الإسلامى يكتسب طابعاً جديداً ، فلم يعد هناك بعد ، شيخ الأمة ، الذى يحكم حكماً مطلقاً وبحق الدين ، والذى يعتبر الإمام الروحى الوحيد المنظم للجماعة كلها . وإنما اضطلعت الشريعة الإسلامية بهذه المهمة نفسها فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، وظلت دعامة لتأمين الثقافة الإسـلامية . وتمثل الفترة بين وفاة الرسول ، ونهاية العصر الأموى سنة ٧٥٠م المرحلة الثانية لنمو الحركة

الصوفية ففى عهد الخلفاء الراشدين ٦٣٢ : ٦٦١م استمر النمو مع اختلاط بالسلفيـــة Orthodoxy ولكن كما يقول نيكلسون « كان محتوما أن تؤدى القيم التى تفوق المألوف Extra ordinary والتى تضمنتها مواضع من تعاليم محمد وتجاربه إلى إغفال لأمور أخرى يعدها المسلمون الصالحون ضرورية بنفس الدرجة » .

وكان صحابة محمد فى حماسهم لحفظ تراث الرسول قد حملوا على تأكيد الاهتمام بصور متفاوتة — على النظم الدينية للإسـلام التى تمخضت بدورها فى تطورها المحتوم عن مظاهر معينة محدودة للعبادة ، وفلسفة الحياة . ولم تكن هذه فى ذاتها معارضة لتعاليم القرآن وإنما كانت نوعا من المبالغة فى بعض العناصر المفردة للتعاليم ، والأخلاق الدينية . ومن ذلك الذكر والتوكل ، وأولهما يرتبط بشعائر العبادة ، والثانى بالأخلاق ، وقد ظلت الأوراد الصوفية تكون العمود الفقرى للموروث من النسك القديم .

وبدا أبو ذر وحذيفة الممثلين الرئيسيين لهذا التفكير بين صحابة الرسول . ويعتقد الصوفية فى تقولهم أن حذيفة اليمانى هو (صاحب السر) ، وقد التمس رأيه فى بعض أسرار الروح ، كما جرى صحابة الرسول على سؤاله بشأن فتنة العامة والخاصة .

واتسعت الآفاق الطبيعية للإسلام حتى صارت تتضمن فى نهاية العصر الأموى كل جزيرة العرب من ناحية ، وكل الشام والعراق ومصر إلى حدود أسبانيا من ناحية أخرى وتوغلت عبر آسيا الوسطى إلى نهر الأندس Indus ، مما قدم أعدادا من أتباع الدين الجدد

كان لهم طابع آخر، وطاقات فكرية مختلفة. وغدت مدن المعسكرات العربية فى الأقاليم المفتوحة حديثاً مراكز للدعوة الدينية، وقد ظلت هذه المدن حصونا للحضارة الإسلامية بما يفيض عليها من ثروة مادية وبشرية، وتتمثل الأخيرة فى الداخلين فى الدين أفواجا.

ومنذ أواخر عصر الخلفاء الراشدين، كان أكثر ممثلى نزعة النسك الإسلامية يعرفون بأسماء متنوعة: فهم زهاد أو نساك أو قراء أو قصاص أو رهبان أو بكاءون، وقد كانوا فى أول الأمر متناثرين منعزلين، ثم أخذوا يتركزون بالتدريج فى مدن العالم الإسلامى الجديدة وفى مقدمتها البصرة والكوفة، وهما مركزان اشتهرا بنشاطهما العلمى والثقافى البالغ فى القرن الثامن الهجرى. ويشير جولد زيهر إلى طائفة من الناس تجردوا فى بداية العصر الأموى للعبادة وسموا بالعباد. وأقدم رائديه عيه الصوفية لهم هو الزاهد المشهور الحسن البصرى (المتوفى سنة ٧٢٨م) الذى يشير إليه المكى[1] باعتباره أول من عبر عن هذا الفرع من المعرفة، وقد قدم تعاليمه الصوفية إلى أهل عصره خلال عظاته التى ألقاها فى البصرة.

وجاءت المرحلة التالية المتميزة فى نمو الصوفية فى الفترة التى أعقبت تولى العباسيين الخلافة، وفيها صارت الحركة أكثر وعيا بذاتها شيئا فشيئا، واتخذت نتيجة لذلك طابعا متميزا تحت تأثير عوامل التمدد الداخلى المجتمع الإسلامى ونتيجة لرد الفعل الطبيعى والضرورى للظروف السائدة. وقد نتجت للحركة فى مجرى نموها ثروة من المادة التى يكتنفها الاختلاط والتداخل فى الغالب، والتى تفلت من القياس والتصنيف. ولكن يمكن على أية حال تمييز ثلاثة اتجاهات لهذا النمو: أولها تطور مذهب الصوفية بأن أخذ فى التحول من مبادىء أخلاقية بسيطة كى يتضمن مفاهيم عن الحياة الباطنية mysiical والاتصال بالله theosophical مع ميول قوية إلى وحدة الوجود peintheistic tendencies وثانى هذه الاتجاهات هو اتجاه طبقات الصوفية إلى الاتحاد والترابط إذ تعرضوا لمعارضة فى دوائر علماء الكلام فاكتسبوا شعور الجماعة. وثالث الملامح الرئيسية هو نقلة الاهتمام من الصوفية إلى (القوم)، وتمخض هذا عن أداة شعبية للحركة تعرف «بالطريقة»، وبها اكتسبت الصوفية تميزا عمليا دقيقا فى نسق المجتمع الإسلامى وقائمة محتوياته.

---

١ — قوت القلوب جـ ١ — ص ١٠٠

ويلق القرن التالى لمجىء البيعة العباسى ظلالا على التغيير المنتظر حدوثه فى تطور الحركة . فلم يتخذ طابعها العام بعد شكلا محددا . فهى بالنسبة لقسم كبير من المنتمين إليها لا تزال تعنى التجرد الخالص للواجبات الدينية ، فإذا ما تلمسنا مفهوما أوضح وجدنا أن ملامح الفكر الصوفى البارزة ظلت باقية على إجمالهـــا فى طابعه الزهدى والتأملى ascetic, quietistic حتى نهاية القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ، وكان هذا الفكر يجد تعبيراً إقليمياً فى المراكز المختلفة للعالم الإسلامى مثل البصرة والكوفة وخراسان ومرو . وعلى أية حال فقد أخذ يطرأ تغيير تدريجى على الطابع العام للمذهب الصوفى منذ القرن الثالث الهجرى / الثامن الميلادى فصاعدا . وأخذ الأفق الصوفى يتسع من نزعات زهدية تأملية إلى مذهب من الحياة الباطنية، mystical والاتصال بالله theosophical نتيجة لتزايد النشاط الفـــكرى وطاقة الإبداع عما يميز القرن الأول من الحكم العباسى [1] .

ويرى نيكلسون أن عهد الاتصال بالله theosophical era فى الصوفية يستهل بمعروف الكرخى (المتوفى سنة ٨١٥م) . وهو يلاحظ أننا نميز فى أقوال (معروف) لأول وهلة آثارا باقية للعيان لتلك الأفكار التى ظلت حتى يومنا هذا عنصراً أساسياً ومميزاً للصوفية .

هذه الصوفيـة الفلسفيـة الداعيـة إلى الاتصال بالله Theosophical Sufism ، والتى يمثلها معروف الكرخى وأبو سليمان الدارانى (المتوفى سنة ٨٣٠ م) وذو النون المصرى (المتوفى سنة ٨٦١م) قامت وبلغت شأوا بعيداً من التقدم فى نصف القرن الذى يشمل فى شىء من المرونة عهود المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل بين عامى ١٩٨ : ٢٤٧هـ/ ٨١٣ إلى ٨٦١م » . وبدت النظرية الصوفية

---

(١) يعزى أصـل المذهب الصوفى إلى مصادر وافدة مختلفة : مثل الفيـدا والأفلاطونية المحدثة وفارس . ويرى نيكلسون أن هذه الظاهرة لا تقبل تفسيرا مفردا ، وإن كانت تبدو نتاجا لاتحاد الفكر الإغريقى بالفلسفة الشرقية . وقد نقـل إلى = الأستاذ أربرى سنة ١٩٠١ أنه يبدو أن نيكلسون قد غير رأيه بصدد هذه النظرية فى أخريات حياته وارتأى أن للمذهب الصوفى يرجع فى أصوله إلى القرآن أكثر من أية عوامل خارجية . ويخالف لينجز Lings هؤلاء الذين يكتبون أن « الصوفية تتألف من زهد مثالى تبرزه ــ الأشعار والرسائل الصوفية والنداءات المتضارعة ، فى حين أنه ما من شىء من هذا يوجد فى الجيلين الأولين للإسلام ، وما من شىء من هذا يمكن أن يعتبر من الملامح الأساسية للصوفية » .

أكثر روعة بجهود أبي يزيد البسطامي (المتوفى سنة ٨٧٥ م) والجنيد البغدادي (المتوفى سنة ٩١٠ م) والمنصور الحلاج (المتوفى سنة ٩٢٢ م) والحاكم الترمذي (المتوفى سنة ٨٩٣م) وكل منهم أبرز خصائص متميزة للمذهب .

وفي خلال هذه الفترة نفسها بدأ الصوفية يرون دلائل المعارضة لنزعتهم من علماء الكلام . وقد تطورت هذه المعارضة ضد حركة الصوفية بالتدريج . إن صوفية النساك والأتقياء في فترة النشوء لم تكن تهدد ماديا ما يقرره علماء الدين القدامى من أفكار intellectual system بل على العكس أعانت تلك الصوفية على استكمال المفهوم القرآني للتوحيد ، وكان الفارق بين الفريقين فارقا في توزيع الاهتمام بين مسألة أو أخرى أكثر من أن يكون فارقا في مضمون كل من النزعتين ، ولكن الاتساع التدريجي لحركة بما اقترن به من نمو مذهب في طيات الكتمان بدأ في أعين علماء الكلام ذوي النفوذ طفيليا غير مرغوب فيه على مجال الفكر الديني الإسلامي يستحق الاقتلاع ! وكان نفوذ القادة القدامى يستند إلى أنهم الحراس الساهرون على الجماعة الملتفة حول الشريعة والملتزمة بها ، وهؤلاء لم يكونوا مستعدين لمجابهة النظرية الصوفية التي قد يبدو أنها تطرح جانبا مثل هذه السلطة الثابتة ! ورمى الذين عجزوا عن مسايرة العلم السلفي التقليدي حتى أضيق حدوده وتفاصيله بالوصف الحاضر المعد - الزندقة ! !

ويستحق تاريخ الحركة المعارضة للصوفية بحثا مستقلا ويكفي أن نقول : إن تعارف العلماء الحرفيين في التكبير على أصحاب النظريات الصوفية قد استثار تعارفا مماثلا في هياج هؤلاء الأخيرين ، وإن كان النزاع قد جرى إلى حد كبير على المستوى النظري .

وأعان الاعتراف الرسمي بمذهب المعتزلة في عهد المأمون ، الذي انتهى بتولي المتوكل الخلافة سنة ٨٤٧ م ، على الزياد من حدة الخلاف بين المنهج الحدسي intuitive ، والمنهج العقلي rationalist في البحث الديني . وجاء ظهور صورة من السلفية المتطرفة في عهد المتوكل مؤدياً إلى تفاقم الاتساع في شقة الخلاف بين الصوفية ومعارضيهم . وشن الخليفة المتوكل الذي اتخذ وضع حامي عقائد الجماعة حملات الاضطهاد التي شملت على قدم المساواة اليهود والنصارى والمعتزلة والشيعة والصوفية ، أو بعبارة موجزة كل من انحرف عن نطاق السلفية السنية في أضيق حدودها ، وترتب على ذلك أن خرج قادة الصوفية على

الالتزام بعقائد الجماعة السائدة وواجهوا الفقهاء بما لديهم من أعداد تتزايد باستمرار فى صراع مكشوف ، بعد أن فشلت معارضة الأخيرين فى إسكات الصوفية رغم تعرضهم لمحاكمة كبرى بلغت الذروة بإعدام المنصور الحلاج سنة ٩٢٢ م . وارتبط نمو مقاومة الفقهاء من ذلك الوقت فصاعداً عن قرب بتاريخ الحركة الصوفية ، وكان لاصطدام هذه المقاومة بتلك الحركة خلال أدوار نموها التالية دوى تردد صداه فى مناقشات الأدب الصوفى إذ ظل أحد مواضع البحث الدائمة منذ ذلك الوقت فصاعداً .

* * *

وكانت أسس النظرية الصوفية Sufi rheory والتجربة الصوفية practice قد وضعت من قبل خلال القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، وغدت الحركة قرب نهاية القرن نفسه متينة البنيان بما اجتمع لها من أصول traditions تموزجانبها . ومنذ القرن الرابع الهجرى / التاسع الميلادى تقدمت الصوفية نحو شق اتجاهات جديدة ، متحولة عن الركون إلى حمى الإسلام فى اندفاع صوب وحدة الوجـــود ، وإسقاط التكاليف الشرعية entinomianism ، وهى نزعة عززها التأثير المتزايد للأفكار الفلسفية الإغريقية وبخاصة نظرية (الصدور) ، ويقابل هذا التوسع الداخلى للحركة اتجاهها لتصير ظاهرة تاريخية واعية بذاتها . وكان الهدف فى ذلك الوقت أحوج ما يكون إلى الثبات والاستقرار إذا ما أريد له البقاء . وربما كانت حملة التشهير التى بلغت ذروتها فى إعدام الحلاج قد وضعت هذا الدرس أمام أنظار قادة الصوفية . إن هناك حاجة عاجلة إذن - كما يقول آربرى - لرد اعتبار الحركة إذا أريد لها البقاء فى تلك الفترة التى كانت أقل تحررا عن ذى قبل ، وأريد لها الاستمرار فى أن تكون قوة لها أثرها فى الجماعة . وولدت الحاجة الرجال ، وأنتج الرجال كتبا صالحة للغرض بدرجة فائقة . وكان من نتائج ذلك أن شهد القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى قيام أفراد من المفكرين الخلاقين ، وظهور طراز رفيع من أصحاب النظريات الصوفية ، وهؤلاء أنتجوا مؤلفات منهجية محكمة لدراسة الصوفية فى شتى مجالاتها : النظرية والتجربة والتاريخ ، وهكذا حدد هؤلاء معالم الحركة ، وأكدوا تراثها فيما خلفوه من تراثها . ومن أشهر مؤلفات هذه الفترة فى المذهب الصوفى اللمع للسراج (المتوفى سنة ٩٦٨م) وقوت القلوب لأبى طالب المكى (المتوفى سنة ٩٩٦ م) ، والتعرف للكلاباذى (المتوفى سنة ١٠٠٠م) وكل هذه المؤلفات قـــد وصلت إلينا . أما ما كتبه فى التراجم أبو سعيد بن العربى

(المتوفى سنة ٩٥٢ م) وأبو محمد الخلدى (المتوفى سنة ٩٥٩ م) فلم يكتب له البقاء ، بينما تعد طبقات الصوفية للسلامى (المتوفى سنة ١٠٢١ م) وحلية الأولياء للأصفهانى (المتوفى سنة ١٠٣٨م) من الجهود البارزة فى مجال التاريخ للصوفية .

وأخذ اهتمام قادة الصوفية بتأكيد طابع الحركة المستقل المتميز يتجلى للعيان بصورة متزايدة فى مؤلفات الفترة التى شهدت الصوفية كجماعة : (الطائفة الصوفية) a constitnent of Musljm soriety وعلى الرغم من أن كيانا ككيان الصوفية لم يوصل وجوده عضويا فى ركائز المجتمع الاسلامى ، إلا أن قيام التفرقة النظرية تعكس فى الحقيقة : إلى أى مدى صارت الحركة عرضا للأفكار فى وعى بالذات .

ويمكن أن يمثل هذا فى رائد من أصحاب النظريات الصوفية هو القشيرى (المتوفى سنة ١٠٧٤ م) الذى خاطب الصوفية فى رسالته المشهورة ، فكتب أن « الرسالة ، قد كتبها فقير فى أعين الله هو عبد الكريم ابن هوزان القشيرى إلى الجماعة الصوفية فى ديار الإسلام سنة ٤٣٧ هـ وفيها تناول حياة شيوخ الطريقة وطرائقهم وخصائصهم وحياتهم العامة وأحوال قلوبهم واعتقادهم ووجدهم ومقاماتهم من البداية إلى النهاية حتى يتقوى بذلك المريد . ومن مفهوم التعبير عن الحركة الصوفية بالجماعة أيضا ما يتضمنه ذلك من الدعوة إلى الإعتراف بعلم الصوفية فرعا أصيلا من المعرفة الإسلامية . وقد أبرز السراج فى جرأة هذا المطلب فى تقسيمه للمعرفة ثلاثة أقسام : الحـــديث والفقه والتصوف ، وكلها معا تؤلف علوم الدين وهو يمضى قائلا أن كل جماعة من المشتغلين بأحد هذه الأقسام الثلاثة لها مؤلفاتها ومصنفاتها وأقوالها ، ولكل فرع أقطابه من العلماء الذين يدين لهم عامة أهل العصر من طلاب المزيد من المعرفة وهو يذهب إلى أبعد من ذلك فى الانفراد بتأكيد أن علم الصوفية هو من الخصائص التى لا يرجع فيها إلى غير العارفين بالصوفية . ويتردد صدى هذه الدعوى لدى كاتب متأخر هو الشعرانى (المتوفى سنة ١٥٦٥ م) عندما قرر نظرية استقلال علم الصوفية كفرع على فى نطاق الشريعة ، بنفس الدرجة التى يستقل بها المعانى والبيان مع دخولهما فى نطاق علوم اللغة .

(يتبع)

فتحى عثمان

محمد رسول الله

للأستاذ مصطفى عبد الواحد

يعجب المرء من موقف طائفة من المستشرقين يبهرهم نور الإسلام ، وتستوعب أبصارهم الجوانب الإصلاحية المتكاملة فى رسالة محمد ، ولكنهم لا ينفكون من أسر العصبية ، ولا يبرأون من ضغائن التاريخ فيؤدى بهم ذلك إلى كثير من التخبط ، وأنواع من المغالطات ، حين يكتبون عن ذلك الرسول العظيم ، ويقفون أمام دعوته فيحتالون على التاريخ ويفترون ، ويفترضون ويقدرون ، كل ذلك ليستطيعوا التوفيق بين إعجابهم بمحمد ، مصلحاً وزعيما ومعلماً ، وبين كفرهم برسالته وإصرارهم على أنه لم يتصل بالسماء ، ولم يتلق أمانة الوحى ، ولم يحمل المشعل الذى حمله النبيون من قبله .

* * *

وتجد لهؤلاء المستشرقين مسالك مختلفات فى شأن محمد ، وتعليل رسالته .

كيف أمكن ذلك العربى فى تلك الفترة المظلمة من تاريخ العالم ، وتاريخ أمته أيضا أن يخرج إلى الناس بتلك الدعوة .

من أين له تلك العقيدة عن الله وعن الآخرة وتلك الفكرة المتكاملة عن الإنسان والحياة وهذه الحقائق التاريخية الصادقة عن النبيين من فجر التاريخ ، وهذه الجوانب الحكيمة الناضجة من الأحكام والشرائع ، وهذه البرامج من العبادات والتكاليف . . ؟

إنها غاية لم يرتق إليها قبله أحد من قومه ، وليس لها تعليل من البيئة أو التاريخ ، فقد كانت البيئة راضية قانعة بأوضاعها ، مطمئنة إلى عقيدتها ، إلا القليل من أفراد يعدون ويعرفون ، ولم يتقدم لهذه البيئة فى تاريخها أن طمحت إلى زعامة فى أمر العقيدة أو عالجت فكرة الدعوة منذ إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام .

وقد كان فى العالم فى ذلك الحين شعوب متحضرة ، وأمم تمسك بلواء الثقافة وفى أيديهم كتب سماوية ، وغير سماوية ، وأولئك كانوا أجدر بالبحث والتفكير فى مخرج من أزمة العقيدة وأزمة الخلق والحياة فى ذلك العالم .

ومحمد نفسه ، ماذا كان يعنيه من أمر قومه فضلا عن أمر العالم لقد كان يملك وهو الذى نأى عن خزى الجاهلية ، أن يظل فى تأملاته ويرتفع فى خلوته عن كل ما يعانيه الناس ، لم يكن من الزعماء ولا الرؤساء ، ولم يكن

متلقياً عن مدرسة ، ولا وارثاً لتعاليم ولا متأثراً ببيئة تدرس وتفكر ، وتعالج أمر الدين .

وإذن كيف استفاد محمد من هذه الدعوة ؟ ومن أين له عناصر تلك الرسالة ؟ .

تراث الحنفاء :

فمن هؤلاء من يرى أن محمداً تأثر بالحنفاء من العرب قبله ، وأنه واحد منهم ، نأى عن الوثنية مثلهم ، وفكر فى أوضاع قومه المضطربة ، وأطال فى ذلك التفكير ، واعتزل قومه وخلا بنفسه ، حتى اهتدى إلى طريق يصلح قومه . ويجمع أمرهم ، وهو الإسلام .

ونقف أمام هذا التعليل ؛ لنرى مدى الإنصاف فى موقف هؤلاء . وجانب الحق الذى وقفوا عنده .

أى أثر تركه الحنفاء فى قومهم ، وأى تراث لهم يمكن أن يكون قد استفاد منه محمد . فى كل مجتمع ، وفى كل جيل ، يعيش أفراد يعتزلون كثيراً من أوضاع الحياة من حولهم ، ويرفضون كثيراً من المبادىء والقيم التى يتواضع عليها مجتمعهم ، ولكنهم يقنعون بذلك ، ولا يبلغون أن يغيروا شيئاً فى حياة الناس ، ولا يحملون أحداً على مشاركتهم الطريق الذى اختاروه لأنفسهم ، إن شذوذهم عن الناس يجعلهم أفذاذاً مشهورين ، ولكنها شهرة الغرابة والندرة التى تجعل مسالكهم طريقة وعجيبة .

وعلى هذا المثال كان الحنفاء من العرب .

لقد رفضوا عقيدة الجاهلية ، وكرهوا مشاركة قومهم حياتهم الآثمة الظالمة ، ولكنهم لم يزيدوا على ذلك ، فلم يقدموا عقيدة واضحة ولم يدعوا إليها ، ولم يهتدوا إلى حل للمظالم الاجتماعية التى تعج بها الحياة من حولهم ، وحسبهم ذلك رشداً وهدى .

على حد قول ورقة بن نوفل ، يرثى زيد ابن عمرو بن نفيل عند ما صرع عند إيابه من الشام وهو يبحث عن الدين الحق :

رشدت ، وأنعمت ابن عمرو ، وإنما تجنبت تنوراً من النار حامياً
بدينك رباً ليس رب كمثله وتركك أصنام الطواغى كما هيا

وكان من هؤلاء الحنفاء . من بحث عن مخرج من أزمة العقيدة ، وأدى به الأمر إلى اعتناق دين من الأديان السائدة ، فتنصر ، مثل : ورقة بن نوفل ، وعبد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث ، وأولئك لم يقدموا لقومهم شيئاً ، وكفاهم أنهم ارتاحوا إلى رأى فى مجال العقيدة ، وإن كانت مشاعر القلق لم تختف من نفوسهم ، وما زال بهم ترقب إلى ضياء يغمر مجاهل الحياة والفكر . فهم لم يزيدوا شيئاً فى تجارب العرب الدينية ،

ولا تقدموا بهم خطوة فى طريق الهداية .

لقد كان لهم مجال محدود تتردد فيه أفكارهم وتسرى تطلعاتهم ، نقرأ ذلك فى أخبارهم التى أوردتها كتب السيرة ، ونرى فيها مجال بحثهم ومنتهى آمالهم . . . البحث عن عقيدة تطمئن لها النفس وكفى .

اجتمعت قريش عند صنم لهم ، قد اتخذوا ذلك اليوم عيداً ، وحضرهم فى ذلك ورقة ابن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعبدالله ابن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، فاغتموا لذلك ، وخلصوا نجياً ، فقال بعضهم لبعض : تصادقوا ، وليكتم بعضكم على بعض . فقالوا : أجل .

فقال لهم ورقة بن نوفل : تعلمن ، والله ، ما قومكم على شىء ، لقـــد أخطأوا دين إبراهيم وخالفوه ، ما حجر تطيفون به ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا ينفع ولا يضر ؟

يا قوم : التمسوا لأنفسكم الدين .

فخرجوا عند ذلك يضربون فى الأرض ، ويسألون عن الحنيفية ـ دين إبراهيم عليه السلام ـ فأما ورقة بن نوفل فتنصر واستحكم فى النصرانية ، وابتغى الكتب من أهلها وقرأ الكتب حتى علم علماً كثيراً من أهل الكتاب ،

وأما عثمان بن الحويرث ، فسار إلى قيصر فتنصر ، وحسنت منزلته عنده ، وأما زيد ابن عمرو بن نفيل فأراد الخروج فحبس .

ثم إنه خرج بعد ذلك ، فضرب فى الأرض حتى بلغ الرقة من أرض الجزيرة ، فلقى بها راهباً عالماً ، فأخبره بالذى يطلب ، فقال له الراهب : إنك لتطلب ديناً ما تجد من يحملك عليه ، ولكن قد أظلك زمان نبى ، يخرج من بلدك يبعث بدين الحنيفية .

وأما عبد الله بن جحش ، فأقام بمكة حتى بعث النبى صلى الله عليه وسلم ، فاتبعه .

فماذا استفاد محمد من أولئك الحنفاء . وأى صلة بين دعوته ، وبين آرائهم . . ؟

حقاً : لقد لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن عمرو بن نفيل ، وأعجب به .

ولكن الذى يبحث التأثر والتأثير بين الرجلين عليه أن يسأل أولا :

أى شىء كان يملكه زيد بن عمرو بن نفيل لينقله عنه محمد . . ؟

عقيدة التوحيد ورفض الأصنام ؟ .

لكنها فى حد ذاتها ملة إبراهيم ، وعليها كان العرب قبل أن يدخل عليهم عمرو بن لحى عبادة الأصنام .

وهو إن كان قد اهتدى بفطرته ورجاحة عقله إلى معرفة الوحدانية إلا أن العقيدة ليست ذلك فحسب ، فكيف نعرف ذلك الإله وكيف نعبده ؟ وأين جوانب تلك العقيدة

التى تملأ النفس وتحيطها وتوجهها فى سبيل الحياة ؟ .

وهل الدين عقيدة فحسب ؟ .

إن زيدا كان من طلاب الحقيقة ، وقد كانت الحيرة تملأ فؤاده وهو يقول : اللهم إنى لو أعرف أحب الوجوه إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلم !!

وقد صرع فى سعيه إلى الدين الحق . ولذلك كان يذكره النبى صلوات الله عليه بعد رسالته ، ويقول : « إنه يبعث يوم القيامة أمة وحده » أى أنه تميز عن قومه ، وانفرد عن جيله الغارق فى الظلمات .

ولم يؤثر عن الرسول صلوات الله عليه أنه سلك مسلك أولئك الحنفاء ، ولا اتبع طريقهم ، ولا حاور فى العقيدة ، أو جادل فى الدين . بل إن كتب السيرة والحديث تذكر بعض مواقف الرسول من هؤلاء ، وكيف أنه لم يكن يدور بخلده شىء مما كانوا يعانونه من أمر الدين ، ولم يشتغل بشىء مما اشتغلوا به .

يروى البخارى : أن الرسول لقى زيد ابن عمرو بن نفيل ، وكان مع الرسول غلامه (زيد بن حارثة) فدعاه الرسول إلى أن يأكل معهما ، وكان مع الرسول سفرة قدمت إليه فقال زيد بن عمرو : إنى لا آكل مما لم يذكر عليه اسم الله .

ويحاول العلماء الإجابة عن ذلك . كيف كان زيد بن نفيل يهتدى إلى ذلك ، وقد كان الرسول أولى بهذه الفضيلة فى الجاهلية؟ فيرى بعضهم : أنه ليس فى الحديث الإشارة إلى أن الرسول أكل مما لم يذكر عليه اسم الله ، ويرى آخرون أن الأشياء قبل ورود الشرع على الإباحة .

ولكن المهم فى الخبر ، كيف أن محمدا كان على بساطته لا يعنى نفسه ، ولا يتكلف البحث كهؤلاء ، مما يبعد عنه كل شبهة فى أن يكون استفاد شيئا منهم ، أو اتجه فى أمر العقيدة والدين وجهتهم .

ولو أن محمدا اقتفى آثار الحنفاء ، لما جاوز فى بحثه عن الحق ذلك المدى الذى بلغوه ، ولكان قصاراه أن يتنصر ، أو يقتنع بنبذ الأوثان ، واعتزال مفاسد قومه .

إن هناك فارقا أصيلا بين موقف محمد فى دعوته من قومه ، وموقف قومه منه ؛ وبين موقف الحنفاء ، مما يجعل المقارنة بينهما لا تصلح ولا تستقيم ؛ بل إن الفارق بينه وبين هؤلاء الحنفاء هو الفارق بين الأرض والسماء

« للحديث بقية »

مصطفى عبد الواحد

العلم بين السلام والخصام

للأستاذ علي الجندي

رسول سلام ، هناء الأنام … وعـد فقيراً أخا عيلة
وأمنهم بعض أوطاره … و « قارون » يكبو بمضماره
يفيء إلى ظله الحائرون … فليت الورى عرفوا سره
فيسرون في نور أقماره … فلم يعد جار على جاره
هو المجد فالبس ديابيجه … ولا تخزوه لقتل البرىء
وكلل جبينك من غاره … فآدم حمل أوزاره
تخير - سبحانه - وصفه … فيا بؤس للعلم في عالم
به ، فتسامى بمقداره … يصير سلاحا لأشراره
وميز بالفضل أربابه … ويا أسفا للجمال النضير
وأسنى مراتب أحباره … يحول العمى دون إبصاره
فمن لم يرد صفوه لم يزل … ويا حربا لسلام الشعوب
من الجهل يسقى بأكداره … يضام لقلة أنصاره
ومن لم يغذ به لبه … ويسقط من غير ذنب جناه
تغذى بحمأة أوضاره … ذبيحا بسكين جزاره
ومن لم يسر تحت أعلامه … فما لابن آدم ضل السبيل
طواه الدجى تحت أكساره … فإقباله مثل إدباره
ومن لم يعز به نفسه … وراح يقيه على غيره
رماه الهوان بأحجاره … بدرهمه ، أو بديناره

وبات يصول بأنيابه
كوحش، ويسطو بأظفاره
غوى على حال إيساره
عتى على حال إعساره
فلا شر يمحى بإقلاله
ولا خير يرجى بإكثاره
فتعسا له !! شقيت نفسه
بإثرائه وبإقتاره
ولو شاء عز بآرائه
ولو شاء ساد بأفكاره
وعاش على أرضه ناعماً
بروض يموج بأزهاره
ولكنه مولع بالخصام
وإن بات يصلى لظى ناره
وفيه هوى عارم بالفساد
وإن راح يرفل فى عاره
هداه إلى رشده ربه
فلا يشعل النار فى داره

علي الجندي

هوى الحمى لا يضمحل

كلف يحن وليس يألو
صبرا عن اللائين ولوا
إن يضمحل هوى المها
فهوى الحمى لا يضمحل
كلف يزيد ثباته
إن قيل: ذو كلف يزل
وجـواك يا وطنى له
ببواطن الأحشاء شعل
ذكراك يا وطن الصبى
ذكراى أرحل أو أحل

عبد المحسن الكاظمي
شاعر العرب

من أعلام العرب ... ذو المروءات

للأستاذ جمال الدين الألوسى

قد يكون من نافلة القول وبديهات الفكر قولنا بضرورة إحياء ذكر الأعلام من أسلافنا ، لا سيما وأننا نعيش مرحلتنا الثورية ، وانطلاقتنا المتحررة إلى وحدتنا الكبرى بين المحيط والخليج ؛ فنحن بحاجة ماسة إلى انبعاث تاريخنا وتعريف ناشئتنا أمجاد أسلافهم ، ليترسم أبناؤنا خطى أولئك الميامين الذين كان لهم فى ميادين الفكر والحضارة آثار خالدة ، ونحن فى ذكر أخبارهم لا نتزيد ولا نختلق كما يفعل المتعصبون للعنصرية ، وإنما نسجل الواقع الواضح الذى لا ينكره إلا شعوبى حاقد أو عدو حاسد ، وما خلفوا للبشرية قائم فى المكتبات موجود فى الشرق والغرب وهو بالتالى وصل بين حاضرنا المتوثب وبين ماضينا المتألق ،

أحمد بن أبى دؤاد الأيادى :

هو ذو المروءات : أبو عبد الله ، ولى إمرة قاضى القضاة للمعتصم ، وابنه الواثق ، وجالس من قبلهما المأمون ، وكان من أعلام الفكر ، وأساطين المعرفة ، لم يسبق لأمير ولا لزعيم أن نال شهرة ، ونباهة ذكر ، وحرمة منزلة . مثل ما نال ابن أبى دؤاد ، ولم يشتهر علم من أعلام ذلك العصر - عصر النضج فى العلم والفكر والأدب - شهرته اجتمعت له خصال كريمة غير العلم والفقه أبرزها سماحة النفس ، وطلاقة الكف ، والنجدة لكل ملهوف ممن يعرف ولا يعرف ، كان أحد السيوف العربية فى الذب عن الوجود العربى ، وكان الحس العربى متغلغلا فى نفسه ، يملك عليه مشاعره وأحاسيسه فى مدينة تغلب على أهلها الأعاجم من فرس وترك وصقلب ، تلاقت أهدافها وتوحدت فى نقطة تلاق ، هى دفع العرب عن مراكز القيادة وإبعادهم عن الرياسة فى السياسة والجيش . وكان من خططهم حمل الخلفاء إلى التشكيك برجالات العرب وعدم الثقة بهم فى بلاط يموج بالدسائس ، ويزدحم بالحاقدين على العروبة وأهلها .

نصب القاضى ابن أبى دؤاد نفسه حامياً لصالح العرب ذائداً عن رجالاتهم مبطلا كيد أعدائهم . صمد للكائدين ، ووقف لهم بالمرصاد ، يفسد عليهم مؤامراتهم الدنيئة . كان موئلا للزعماء من أبناء العروبة ، يرد عنهم كل مناوئ ، ويتلافى ما يبدر من قادتهم من أخطاء ويتداركها عند الخليفة ، وربما تجاوز به الأمر إلى تعريض نفسه إلى غضب الخليفة حباً فى حفظه مراكز القادة من أبناء العرب

فلقى فى سبيل ذلك من العناء والمكروه ما لا يحصى ، وألب عليه خصوما ألداء عرفوا بشراسة الطبع ، وغلظة القلب ، وسوء الخلق ولكنه رغم تهديدهم ، ورغم مناوأتهم ؛ لم ين عن المضى فى خطته ، وبذل معروفه للدفاع عن بنى قومه والسعى لهم عند الخليفة ؛ حتى يحفظ لهم مراكزهم . يتجلى ذلك فى موقفه المجيد ضد (الإفشين) ، وانتصاره لأبى دلف العجلى ، وكان من زعماء شيبان ؛ بل كان زعيم العرب وقائد كتائبهم ، وكان الإفشين زعيم الجند الترك ، وكان يبغض العرب ويبغض دينهم ، ويكيد لأبى دلف ، ويدس عليه عند المعتصم حتى تغير له ، ولفق عليه اتهامات حصل بها الإفشين على موافقة الخليفة لمحاكمته محاكمة صورية تنتهى بقتل أبى دلف ، وسيق إلى البهو الكبير مكبلا بالحديد ، فهرع الناس إلى القاضى أحمد بن أبى دؤاد ينقلون إليه الخبر المفزع ؛ فخف لتوه إلى الإفشين ، وراح يستعطفه ، ويلين قلبه ليعفو عن زعيم العرب ، والإفشين لم يزدد إلا كبرا وصلفا ؛ فلما يئس منه انقلب مهدداً له قال : (إنى رسول المعتصم إليك . يأمرك ألا تحدث بأبى دلف حدثاً ، وإن مسه سوء ، أو قتل فإنه قاتلك به ، والتفت للحاضرين ، وقال : اشهدوا أنى بلغته رسالة أمير المؤمنين ، والقاسم حى معافى) وذهب من فوره إلى المعتصم . فقال له : لقد بلغت رسالة عنك ما أرسلتنى بها ، ولكنى اجترأت فى إبلاغها لما فيها من مصلحة أمير المؤمنين ، وقص عليه الخبر ، فقال له المعتصم : نعم ما فعلت ، وأسبغ على القاسم أبى دلف نعمته ، وخلع عليه ، وكف يد الإفشين عنه ، وزجره أن يتعرض لسيد ربيعة بسوء . وأبو دلف هو الذى يقول فيه العكوك الشاعر :

إنما الدنيـــا أبو دلف بين باديه ومحتضره
فإذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على أثره

وله موقف مشرف آخر فى الدفاع عن سيف آخر من سيوف العرب ذلك هو الأمير : خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى سيد ربيعة ، وعميد بكر ، وابن الفارس بطل آل شيبان وقاهر أرمينيا ، وفارس ، والتركستان (يزيد بن مزيد) أبرز قواد الرشيد ، وقاتل طريف الشارى الذى استشرى أمره واستفحل خطره ، حتى دانت له الجزيرة ، وهدد جيوش الخلافة وتغلب عليها والذى قالت فيه أخت طريف (لا يفلح الحديد إلا الحديد (١)) .

وتفصيل الخبر أن المعتصم حاول أن يتخلص من سياسة التوازن بين العرب والفرس واتبع طريقة جديدة غير السياسة التى اتبعها

(١) ورد المثل : لا يفل الحديد إلا الحديد .

الرشيد ومن سبقه من الخلفاء العباسيين فاعتمد على جيش من الأتراك - أخواله - وأسقط أسماء العرب والفرس من ديوان الجند، ولم يبق من قادة العرب إلا القليل على رأسهم البطل الشجاع : خالد بن يزيد الشيباني، وكان سيداً جليلا، وكان يقود قبيلته، ومن حالفها في المعامع التي تخوضها الخلافة ضد أعدائها، والذي يقول فيه الشاعر (أحمد المكى) .

علم الناس خالد بن يزيد
كل حلم وكل بأس وجود
فترى الناس هيبة حين يبدو
من قيـام وركع وسجود

وبإدخال المعتصم العنصر التركى واعتماده على الجيش الذى أعده منهم اختل التوازن السياسى، وضعفت كفة العرب لولا بقية من قوة كان يمثلها خالد بن يزيد وقبيلته؛ فأراد قادة الأتراك دفع هذا البطل وإبعاده عن البلاط العباسى وكانوا يكيدون له لدى المعتصم وأوغروا صدره على خالد فجلس المعتصم لعقوبته، وكان ابن أبى دؤاد يذود عن هذه القبيلة، ويناصر قادتها، ويرى فيهم الكهف الذى إليه يلجأ العرب أمام طغيان الجيش التركى واستفحال أمره؛ فخف لنصرة القائد العربى ونافح عنه، واستعطف المعتصم؛ فلم يجبه، وألح فى الرجاء فلم يلن الخليفة. فلما انعقد مجلس الخليفة لمحاكمة سيد بنى شيبان دخل القاضى ابن أبى دؤاد، وجلس فى منزلة دون منزلته التى اعتادها؛ فقال له الخليفة : يا أبا عبد الله جلست فى غير مجلسك، فقال : ما ينبغى لى أن أجلس إلا دون مجلسى هذا فقال الخليفة : وكيف ؟ قال : لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعى موضع من يشفع فى رجل فيشفع، قال : فارجع إلى مجلسك، قال : مشفعاً أو غير مشفع ؟ قال : بل مشفعا؛ فارتفع إلى مجلسه ثم قال : إن الناس لا يعلمون رضى أمير المؤمنين عن خالد، فأمر المعتصم بالخلع عليه؛ فقال : يا أمير المؤمنين، قد استحق هو وأصحابه أعطيات ستة أشهر فإن أمرت لهم بها فى هذا الوقت. قامت مقام الصلة، فقال : قد أمرت بها، فخرج خالد، وعليه الخلع، والمال بين يديه، فصاح به رجل من العرب : الحمـد لله على خلاصك يا سيد العرب، فقال له خالد : اسكت سيد العرب - والله - أحمد بن أبى دؤاد روى الحافظ الخطيب البغدادى فى تاريخه قال : كان يقال : أكرم من كان فى دولة بنى العباس البرامكة، وابن أبى دؤاد.

وإنه لحرى بالعلماء والمستشارين الذين يتصلون بالحكام أن يسيروا سيرة أحمد بن أبى دؤاد ويتخذوا من قربهم ودنوا منزلتهم وسيلة لرفع مظلمة أو إحقاق حق ؟

جمال الدين الألوسي
عضو جمعية المؤلفين والكتاب

إلى أى مدى تتغير الأحكام الشرعية بتغير الأزمان؟

للأستاذ بدر عبد الباسط

— ٤ —

انتهيت فى المقال السابق إلى بيان مدى تطور الأحكام الشرعية التى لها مساس بالعرف والعادات ؛ وقبل أن ننتقل إلى الموضوع الثانى وهو المصالح المرسلة أحب أن أعلق على اعتبار العرف والعادة فى نظر الشرع بعبارة جامعة لابن القيم الجوزية وهى « إذا جاء رجل من غير إقليمك يستفتيك فلا تجره على عرف بلدك ، وسله عن عرف بلده فأجره عليه ، وأفته به دون عرف بلدك والمذكور فى كتبك ، ومن أفتى الناس بمجرد المنقول فى الكتب على اختلاف عرفهم وعاداتهم وأزمنتهم وأمكنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم فقد ضل وأضل » اه.

وطبعا هذا إذا لم يكن فى المسألة المستفتى عنها نص يعتمد عليه شرعا .

وقد بينا فى مقالنا السابق آراء الفقهاء فى تخصيص النص بالعرف .

واليوم نعرض لموضوع من أخطر أبواب استنباط الأحكام الشرعية ألا وهو موضوع (المصالح المرسلة) وسيتناول بحثنا فيه ما يأتى : تعريف المصالح المرسلة ـ موقف الفقهاء إزاء الاحتجاج بها ـ هل يجوز تخصيص النص بها أو نسخه ؟

وقبل الشروع فى هذا البحث لا بد من مقدمة لا يمكن فهم الموضوع فهما سليما إلا بذكرها .

الشريعة الإسلامية لأنها خاتمة الشرائع الإلهية جاءت كافلة لمصالح البشر على اختلاف الأعصار والأماكن وذلك لأن من أصولها درء المفاسد وجلب المصالح ، والشارع لم يعتبر كل مصلحة ، بل ألغى بعض المصالح لأن الشر المقارن لها أعظم من الخير المرجو منها .

والمصالح لها مراتب ثلاث :

١ — ضرورات : وهى مالا يمكن الاستغناء عنها وهى ترجع إلى المحافظة على خمسة أمور ، وهى : الدين والنفس والعقل والنسل والمال .

٢ — حاجات ، وهى ما تدعو الحاجة إليها ويمكن الاستغناء عنها بمشقة ، وتعتبر مكملة للضرورات ، والتشريع ـ بصددها ـ يرجع إلى رفع الحرج عن الناس ، وتخفيف مشاق التكليف عنهم .

٣ – تحسينات ، وهى مالا يرجع إلى ضرورة وحاجة ، ولكن تقع موقع التحسين والتزيين ، والتشريع – بصددها – يراعيها لما فيها من الترفيه عن الناس مالم تعارض ضرورة أو حاجة ، وهى تعتبر – فى الجملة – متممة للحاجات ، وأكثر مايتصل بهذا اللون من التشريع يعود إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم التى ينبغى أن يتصف بها المسلم.

ثم أن المصالح – بالنظر إلى اعتبار الشارع لها – تنقسم – فى الجملة – إلى أربعة أقسام .

القسم الأول : مصالح اعتبرها الشارع وأدار الأحكام على مقتضاها ، ويسمى هذا القسم – عند الأصوليين – بالوصف المناسب المؤثر ، وعرفوه بأنه الوصف الذى رتب الشارع حكما على وفقـــه ، وثبت بالنص أو الإجماع اعتبار هـذا الوصف علة للحكم الذى رتب عليه ؛ كقوله تعالى «ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن» فأنت ترى أن القرآن صرح بأن الأذى هو علة تحريم قربان الحائض ، ولا يخفى عليك مناسبة هذا الوصف لهذا الحكم .

ومن ذلك قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه [1] ولكن إذا دعيتم فادخـــلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فليستحى منكم والله لا يستحى من الحق» . فالله – سبحانه – صرح فى هذه الآية بأحكام وبين وجه تشريعه لهذه الأحكام .

فقد حرم الله – جل شأنه – دخول بيوت النبى صلوات الله وسلامه عليه إلا بإذنه ، كما أوجب الخروج بعد تناول الطعام ، وحرم المكث لمجرد الاستئناس ؛ وعلل الله ذلك بقوله «إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم» ، فإيذاء النبى وصف موجب لتحريم كل ما من شأنه إيذاؤه صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم حينما سئل عن الهرة تشرب من الإناء «إنها من الطوافين عليكم والطوافات» ، فهذا الوصف اعتبره النبى صلى الله عليه وســـلم موجبا لطهارة سؤر الهرة [2] .

ويلحق بهذا اللون من الأوصاف تعليق الشارع الحكم على مشتق كقوله تعـــالى «والزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة» ، فإن الجلد معلل بوصف هو الزنى وهو وصف مناسب للعقوبة .

وكقوله صلى الله عليه وسلم «ليس للقاتل ميراث» ، فإن القتل وصف مناسب للحرمان من الميراث ، لكونه تعجل أمراً قبل أوانه فناسب أن يعاقب بحرمانه .

(١) أى غير منتظرين نضجه .

(٢) السؤر : مايتبقى بعد شرب الإنسان أو الحيوان

وقد يكون الوصف معتبراً من الشارع وثبت اعتباره بالإجماع ، كالصغر ، فإنه قد قام الإجماع على اعتباره علة للولاية فى الأموال ، ومثله الجنون والعته .

وهذا اللون من الأوصاف المشتملة على المصالح أجمع العلماء على اعتبارها فى استنباط الأحـــكام الشرعية ، حتى أولئك الذين أنكروا القياس ، وفروا من تسميته قياساً إلى أسماء أخرى ، ولا يعنينا هذا فى بحثنا ولكن المهم هو ما قررناه من أن هذا اللون من الأوصاف من أهم مصادر معرفة الأحكام الشرعية ، ومما أجمع على اعتباره .

القسم الثانى : ويعرف عن الأصوليين والفقهاء بالوصف المناسب الملائم ، وهو الوصف المناسب الذى رتب الشارع حكما على وفقه ، ولم يثبت بالنص أو الإجماع اعتباره بعينه علة لنفس الحكم المترتب عليه ولكن ثبت بالنص أو الإجماع اعتبار هذا الوصف علة لحكم آخر من جنس هذا الحكم أو اعتبار وصف آخر من جنس هذا الوصف علة لهذا الحكم بعينه أو اعتبار وصف من جنسه علة لحكم آخر من جنس هذا الحكم .

ولتوضيح هذا الوصف وهذا التعريف أضرب لك الأمثال ليتضح لك هذا اللون وطبعاً منكروا القياس لا يقرون هذا اللون من الاستنباط للأحكام .

مثال أول لتوضيح هذا التعريف .

الصغر : اعتبره الشارع مناسباً لثبوت الولاية فى الأموال وهذا ثابت بالإجماع وقد ورد عن الشارع أنه جعل للأب ولاية تزويج ابنته الصغيرة البكر ؛ ولم يرد عن الشارع نص كما لم يرد إجماع أن أحد هذين الوصفين علة لهذا الحكم وكلا الوصفين مناسب للحكم ولكن الاجماع على ثبوت الولاية فى الأموال للصغر ، وهما من جنس واحد فكان الصغر أنسب لثبوت ولاية التزويج من البـــكارة وأكثر ملاءمة له ؛ وهذا ما ذهب إليه الحنفية ، وذهب الشافعية إلى اعتبار البكارة هى علة الولاية فى التزويج لأن البكارة مظنة الحياء وعدم معرفة أحوال الرجال ؛ ولكل وجهة ؛ كما ترى .

مثال ثان : قياس القتل بمثقل على القتل بمحدد فى وجوب القصاص فقد ثبت بالنص وجوب القصاص فى القتل بمحدد لعلة هى إزهاق نفس بريئة عمداً وعدوانا وهذه العلة نفسها موجودة فى القتل بمثقل .

وهذا واضح ؛ وخلاف أبى حنيفة رضى الله عنه فى هذه المسألة ليس لعدم وجود هذه العلة الموجبة للقصاص، ولكن ـ كما نقل عنه أن المثقل لم يوضع ـ بطبعه ـ للقتل ؛ فكان هذا القدر شبهة يدرأ بها القصاص ولكن هل نسلم هذا أليست الصخرة الكبيرة من شأنها

القتل ؟ ثم ألم يرضح رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس اليهودية التى رضخت رأس أخرى؟

مثال ثالث : ثبت عن الشارع جواز جمع الصلاتين فى الإقامة حالة المطر ؛ ولم يرد نص أو إجماع أن المطر علة للجمع ؛ وثبت أيضاً جواز الجمع فى السفر ، والعلة المظنونة فى كل هو أن كلا من المطر والسفر مظنة المشقة فظنة المشقة إذن تصلح للتعليل لإدارة الأحكام الشرعية المشقة عليها .

هذا والأمثلة كثيرة ؛ وهذا القسم من الأوصاف المناسبة يفتح لنا آفاقا واسعة رحبة لتطور الأحكام وسعة نطاق الفقه الإسلامى واستيعابه لألوان كثيرة من الحادثات التى ليس فيها نص ولا إجماع .

القسم الثالث: الوصف المناسب الملغى وهو الوصف الذى نظن - نحن - أن بناء الحكم عليه فيه تحقيق مصلحة من جلب نفع ودفع ضرر ولكن الشارع ألغى هذا الوصف وأبطل صلاحيته لهذا الحكم أو الحكم آخر من جنسه وأمثلة هذا الوصف كثيرة كقول بعض الناس : إن الابن والبنت يتساويان فى القرابة من الوالدين فوجب أن يتساويا فى الميراث .

وأن المرأة والرجل يتساويان فى الآدمية فوجب أن يتساويا فى الحقوق والواجبات وكل التشريعات .

وأن التبنى لغير أولاد الإنسان فيه رفع معنويات الولد وقضاء على التشرد - كما قيل فوجب أن يباح .

وإن الفقر أو الخوف منه صالح لأن يكون علة لتحديد النسل بعد أن ألغى الله هذا الوصف فى حكم من جنسه وهو قتل الأولاد « خشية إملاق » .

وأمثلة هذا القسم كثيرة ؛ وكأن كل الآراء المنحرفة التى تنادى بعدم التقيد بحكم الله تتبع هذا اللون من الأوصاف التى ألغاها الشارع ولم يقم وزنا لها ولا لما فيها من جلب نفع أو دفع ضر ؛ لأن ما تنطوى عليه من شر أكثر وأفدح .

وهذا الوصف لا يصلح أن يكون علة التشريع ما لأنه حكم الهوى والغرض وإبطال للشريعة من أساسها ؛ فلا يجوز أن يعول عليه .

القسم الرابع :

الوصف المناسب المرسل : وهو الوصف المناسب لأن يدار عليه حكم من الأحكام ولكن الشارع لم يرتب حكما على وفقه ولم يدل دليل على اعتباره أو إلغائه ؟ فهو مناسب أى يحقق مصلحة عامة ، ومرسل أى لم يعتبره الشارع ولم يلغه ؛ وذلك كضرب نقود للتعامل وتدوين الدواوين وتسجيل عقود النكاح والملكية .

وهذا القسم هو ما نريد أن نكشف اللثام عنه ؛ فى العدد الآتى إن شاء الله تعالى ؟

بدر المتولى عبد الباسط

شريعة الصيام بين المسلمين وغيرهم

للأستاذ على الخطيب

فصل القرآن الكريم أحكام الصيام تفصيلا أحاط بخطوطه العامة فأبرزها . وتناول شرعته بجلاها ، حتى استوت وضوحا لدى صغير المسلمين وكبيرهم ، وعالمهم وجاهلهم ، فليس بين من أدرك التمييز منهم من يجهل بدء الصوم ونهايته ، أو فضله وغايته .

فني بيان فرضه ، واحتمال البشرية له ، يقول تعالى مخاطباً المؤمنين برسالة القرآن : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » .

ويبين القرآن وقت الصوم ، ويأمر به ، فيقول : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فن شهد منكم الشهر فليصمه » .

وإذ ينتهى القرآن من بيان فرضه ، وتعيين وقته ، يأخذ فى بيان كيفيته سالكا فى ذلك طريق صريح اللفظ ومفهومه على السواء ، فيبين ما حل بليل من جماع ، وطعام وشراب ثم عقب بتحريم ذلك نهاراً إلى الليل فقال تعالى :

« أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » ومفهوم الآية حرمة الرفث بالنهار فى رمضان .

ثم يقول : « ... وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ... » .

ولا يجوز لمسلم أن يحتاط لرمضان بصوم يوم قبله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صام يوم الشك فقد عصا أبا القاسم ، كما لا يجوز صيام يوم العيد عقبه ، فقد حرمت الشريعة صيام يوم العيد ، وهكذا نجد رمضان ، شهر الصيام ، قد صار فى حصن حصين ، لا تهب عليه ريح الفتنة ، أو تنوشه أغراض الهوى ، فلا يفتى فيه بزيادة ، ولا يرتخص فيه بنقص ، وتلك ميزة التشريع فى الإسلام ، وإنه ليحق أن نتساءل - فى معرض الصوم - عن سر إحكام التشريع فيه ... ؟ ولماذا عنى القرآن الكريم بالتفصيل فى أمره ؟ ولماذا أوحى إلى الرسول بتحريم صيام يوم الشك ، فما ينطق محمد صلى الله عليه وسلم عن هوى .

هل كان ذلك لأن الصيام أفضل العبادات ؟!

إن أفضل العبادات الصلاة ؛ فهى أدوم طريق إلى الله ، تلزم المرء ويلازمها حتى يلقى الله . فهى خير عبادة ، وأعظم شعيرة .

فهل مرجع ذلك أن يكون الصيام شرعة فى الإسلام وحده ... ؟

إن الصيام فرض على السابقين . وليس فى الإسلام وحده ، والقرآن صريح فى ذلك . إنما فى الأمر سر يعرفه التاريخ ، وإنه

ليسرد علينا عجبا من أمر الصيام بين أهل الشريعتين السالفتين على الإسلام .

وفى هذا التاريخ الجواب عن سر القرآن :

صيام اليهود :

يقول اليهود : إن الله فرض عليهم صيام يوم واحد هو : يوم الكبور ، ويسمونه بيوم الغفران أيضا ، كما يسمى بعاشوراء اليهود ، ويقع فى العاشر من شهر « تشرى » ويدعون أنه لا فرض سواه ، وما عداه إنما هو نفل يتبع الرغبة ، ويناط بالاختيار .

ونحن نقول فى وضوح :

إن نصوص العهد المتداولة لا تعطى نصا يقصر « الفرضية » على يوم الكبور ، كما أن ماورد فى ذلك العهد بسفر اللاويين (١٦ - ٢٩ إلى ٣٤) ويعتمدون عليه كدليل على فرض الكبور - لا يحمل نصا صريحا بالصيام مناطاً به فرض يوم واحد ، ومع هذا فلننظر مصير يوم الغفران هذا بين يدى اليهود !

هل حافظوا عليه أم ضيعوه ... ؟ !

لقد أحدث اليهود فيه « استبدالا » كما أحدثوا به « إسقاطا » .

فأما الاستبدال ، فقد وقع باشتراطهم أن يصوموا « الكبور » فى غير جمعة أو أحد أو ثلاثاء ، فإذا وقع العاشر من تشرى واحدا من هـــذه الأيام استبدل باثنين أو أربعاء أو غير ذلك . وليس فى الأسفار المنسوبة لموسى عليه السلام ما يجيز لهم ذلك .

وليس الاستبدال كل ما تعرض له الكبور فللنسىء معه شأن آخر ، ذلك أن اليهود يعتمدون التأريخ بالشهور القمرية ، غير أنهم يزيدون شهرا كل ثلاث سنوات قمرية ، يسمونه « أدار الثانى » . فالسنة الثالثة كبيسة دائما بنسيئها ، حتى لتبلغ نحو أربعة وثمانين وثلاثمائة يوم ، وذلك حرصا منهم على أن يقع رأس سنتهم دائما بين شهرى . سبتمبر وأكتوبر الشمسيين ، وبسبب هذا النسىء استحال أن تتقدم سنتهم فتقع فى أغسطس ، أو تتأخر فتقع فى نوفمبر ، وليس هذا النسىء من تعاليم العهد ، فالعهد - حتى المتداول - يبرأ من تلك الفعلة ، والله منها برىء براءة موسى عليه السلام ، وقد ترتب على هذا النسىء أمران فى « الكبور » :

(ا) أن يقع يوم الكبور دائما فى غير يومه من السنة القمرية .

(ب) أن يسقط يوم الكبور كلية بفضل ما يتجمع على مدى السنين من زيادة هـذا الشهر ، وبعملية حسابية بسيطة يمكننا أن ندرك أن كل ست وثلاثين سنة قمرية عند اليهود هى فى الواقع سبع وثلاثين سنة ، وتلك السنة الزائدة يسقط فيها الكبور . وهكذا كان هذا النسىء زيادة فى الكفر بما يضيع من طاعة ، ويسقط من فريضة ، ويضل عن صواب ، وحجتهم فيه داحضة عند ربهم .

فلينظر المسلم إلى ما فعلت يهود ، ولينظر

بعد فى كتاب عقيدته ، وليتصفح آيات الصيام فى القرآن ليدرك من أسرار التفصيل والبيان إعجاز القرآن فى صيانة العبادة ، وحفظها إلى يوم الدين ، فقد برئت الشهور الإسلامية من النسىء ، وبرىء رمضان من السقوط والاستبدال ، بفضل تلك الآيات البينات التى أحكمت أمره ، وفصلت شأنه ، وجعلته هدى للناس لعلهم يتقون .

صيام المسيحيين :

ليس من شك فى أن الله فرض الصيام على أمة المسيح . ولا جدال بين أقدم طائفتين مسيحيتين فى ذلك ، والقرآن شاهد صدق فى القضية ، فالنصارى هم أصحاب الرسالة السالفة للإسلام مباشرة ، وقضية القرآن فى فرض الصيام عليهم واضحة : « كما كتب على الذين من قبلكم » وإذا خرج غير المسيحيين من السابقين على الإسلام من هذا الحكم بتأويل ، فإن حرفية النص قاصرة على المسيحيين فى كل تفسير .

فما أمر الصيام فيهم .. ؟!

وإذا كان أمر الصيام قد ذكره القرآن للمسلمين جملة وتفصيلا ، فهل الصيام فى المسيحية مرده الإنجيل أو « الأناجيل » المتداولة ؟ وهل هى (صاحبة) فرضه ، ومقررة أمره ، والهادية لأحكامه ، والمشيرة بأيامه ، والقاضية بوقت الكف فيه ؟ او المانعة مطعومه ومشروبه .؟!

الجواب فى وضوح : لا

إن الطائفتين المسيحيتين : الكاثوليكية . والأرثوذكسية كلتاهما رفعا « الإنجيل » من طريق تشريع الصيام ، واعتبراه « تشريعاً كنسيا » ، تحدده الكنيسة بالزمان والمكان وتختار كيفيته . وتشهر ببدئه ونهايته ، فهى « بأمره » أدرى « وبمصلحة الأفراد » أرعى وإليها المرجع والمآل فى أحكام الصيام .

ولما كانتا كلتاهما تستقل بالتشريع اختلفتا فى وقت الكف اليومى .

فقررت الكاثوليكية وقت الكف ابتداء من منتصف الليل إلى منتصف النهار .

وتركت الأرثوذكسية وقت الكف بيد الراعى أبى الاعتراف الذى يدرك حدود الانقطاع ، ويعلم مصلحة الصائم فيقرر له الوقت الصالح له من ليل أو نهار .

وختمت البروتستنتية الجولة بإنكار فرضية الصيام ، مدفوعة فى ذلك بفلسفتها الكهنوتية فى محاربة البابوية وأوامر الكنيسة فأسقطت بدورها فرض الصوم عن الأتباع وناطت أمره بالرغبة وحدها وتركت وقت الكف بيد الأفراد يصومون متى أطاقوه فإن ضاقوا به تركوه وتحمس الأتباع البرتستنت من غير رجال الدين أو منهم فانتصروا لعقيدتهم بنصوص لمن بعد المسيح تدل لرأيهم وتسخر بصفة خاصة من الرهبنة والصيام عن الحيوان ونتاجه . ومن أمثلة ذلك قول منسوب لبولس يقول فيه :

مرائين ينطقون بالكذب ، وضمائرهم

مكوية، ويمتنعون عن الزواج ، وعن أكل أطعمة خلقها الله ليتناولها بشكر كل من آمن وعرف الحق .

وينسب له أيضا هذا القول :

« فلا يحكم عليكم أحـــد فى المأكول أو المشروب ، أو من قبيل عيد أو رأس شهر أو سبوت .

ولقد اعتبرت الفرق الثلاث « الاتصال الجنسى » غير مفسد للصوم ، وهذا العمل منهم ليس تشريعا إنجيليا أيضا ، ولا يرجع إلى العهد القديم ، وإلا فصيام موسى وعيسى عليهما السلام وهما واردان بالعهدين لا جنس فيهما على الإطلاق .

فموسى صام أربعين يوما بالجبل قضاها منفردا عن أهله فى لقاء ربه يتلقى فيها ألواح التوراة وعيسى عليه السلام صام أربعين يوما كذلك ، وكان عليه السلام حصورا .

ولئن اعتبر (العدد) ليس بفرض عليهم فما من شك أن (كيفية صيام الرسول) يجب أن تؤخذ بالاعتبار ، وأن تكون هى النهج المعمول به لأنه قدوة التشريع وتلك الكيفية كانت امتناعا عن المأكل والمشرب والمنكح قد يقال : إن عيسى عليه السلام كان حصورا من قبل الصيام ومن بعـــده ، فلا يعتبر الامتناع عن الجنس قائما من أجل الصيام ؟ وبالتالى ، فالجنس لا علاقة له بالصيام ؟ .

نقول : إن صيام موسى عليه السلام من العبادات التى أقرها المسيح، ولم يلغ المسيح صلوات الله عليه كيفية صيام موسى عليه السلام ... وإلا ... فأين الدليل ؟ وبخاصة والعهد القديم - معتمد عليه فى التعليم فلم تهمله أى الكنائس وهل موسى عليه السلام لم يصم فى حياته غير صيام الجبل . ؟ .

على أن بدهية الخلوص للروح وحدها وقت الصيام إنما يتم بالكف عن لذات الجسد جميعا . وتلك ميزة الصيام ، ولا صيام بدونها والحجة قائمة ، والدليل موجود ، فلم المروق ! . . ؟

وإنه ليحق لنا فى ختام هذا البحث أن نتساءل .

هل حفظ أهل الكتاب فرض الصيام ؟

أو حفظوا أحكامه ... ؟ . أو حفظوا أوقاته ؟ . أو احترموا فيه مسلك أنبيائهم ؟ .

اللهم ... لا .

لكن الإسلام ، خاتم الرسالات حفظ الأحكام والحدود ، وقام أتباعه على السمع والطاعة ، يستقبلون رمضان ، فيؤدون الصيام فيه مستبشرين ، محافظين فيه على عهد الله وأحـــكامه ، حتى صار ذخرا لهم لجلب رضوان الله ورحمته ، فمن صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » .

على الخطيب
مجمع البحوث الاسلامية

من ذكريات رمضان

معركة عين جالوت

للأستاذ محمود محمد شبكه

من المعارك الحربية الهامة فى التاريخ معركة عين جالوت لما كان لها من آثار خالدة فى حياة الإسلام والمسلمين . وذلك أن التتار بقيادة هولاكو جاءوا من أواسط آسيا ، وواصلوا زحفهم ، يخربون ويدمرون ويضربون مراكز العلم والأدب، واستطاعوا فى فترة وجيزة أن يسيطروا على أغلب أقاليم العالم الإسلامى ، واستعملوا كل أساليب التعذيب والقسوة ، وسفكوا الدماء ، وقتلوا الأبرياء وفتحوا بغداد ، وكان لسقوطها فى أيديهم وقع أليم فى نفوس المسلمين ، كما قتلوا الخليفة المعتصم وطائفة من آل البيت العباسى وكان فى مقدور الخليفة أن يرد هذا الخطر الداهم ، والشر الزاحف ، ولكن جو التفكك والانحلال الذى كان يسيطر على الخلافة العباسية فى ذلك الوقت كان يبشر بهذا المصير المؤلم ، واستولى التتار على بلاد الروم وديار بكر وربيعة ، وأخضعوا بلاد الشام كلها ، وقد تركت هذه الانتصارات المتتابعة أثرا عميقا فى نفوس الناس واعتقدوا أن التتار قوم لا يغلبون ، وأنه لن تستطيع أمة أن تقف زحفهم ، وتعترض طريقهم ، وكان طبيعيا ، أن يتجه التتار بعد ذلك إلى مصر وهى آخر معقل للإسلام فى الشرق وكانت مصر فى ذلك الوقت تحت سلطان المماليك ، يحكمها سيف الدين ، وما لبث هذا السلطان أن تلقى من هولاكو الرسالة التالية تحمل كل معانى التهديد والاستخفاف :

« من ملك الملوك شرقا وغربا القان الأعظم.

باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء .

يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الأقليم يتمتعون بأنعامه ، ويقتلون من كان سلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال أننا جند الله فى أرضه خلقنا من سخطه وسلطنا على من أحل عليه غضبه فسلموا إلينا أموركم تسلموا قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا وقد عرفتم أننا خربنا البلاد وقتلنا العباد فلكم منا الهرب ولنا خلفكم الطلب فما لكم من سيوفنا خلاص : وخيولنا سوابق، وسيوفنا قواطع

وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ومن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم ، فإن أنتم لشرطنا وأوامرنا أطعتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، فقد أعذر من أنذر وقد ، ثبت عندكم أننا كفرة ، وثبت عندنا أنكم الفجرة فأسرعوا إلينا بالجواب قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترميكم بشرارها فلا يبقى لكم جاه ولا عز ولا يعصمكم منا جبل ولا حزن فما بقي لنا مقصد سواكم والسلام علينا وعليكم وعلى من اتبع الهدى ، وخشي عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى [1] » .

هذه هي رسالة هولاكو وقد حرصنا على إثباتها كاملة لندرك منها طبيعة هؤلاء القوم ومقدار ما فيهم من توحش وغلظة وغرور واستهتار .

تسلم قطز رسالة هولاكو ، وجمع الأمراء واستشارهم ، وقتل الرسل ، وعلق رؤوسهم على باب زويلة ، ولقد أبدى بعض الأمراء تكاسلا وتثاقلا حينما جد الجد ، ودنت ساعة الجهاد ، فما كان من قطز إلا أن قال لهم في سخرية لاذعة :

(يا أمراء المسلمين : لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون وأنا متوجه ، فمن اختار الجهاد يصحبني ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين [1] » . وقد كان لهذه الكلمات أثرها البالغ في نفوس الأمراء ، فقد أثارت فيهم الحمية وملأت نفوسهم بالقوة ، ونزعت منها كل عوامل الجبن والتردد وانتظموا يداً واحدة تحت إمرة قائدهم .

أما هولاكو فقد جاءته الأخبار وهو في حلب بوفاة (خان التتار) الأعظم فاضطر إلى العودة مسرعا إلى قلب آسيا ليشارك في اختيار الرئيس الجديد تاركا جيشه في الشام إلى قائده (كتبغا) في عشرة آلاف مقاتل . تقدم الأمير بيبرس البندقداري يقود طلائع المصريين قاصداً فلسطين بينما كانت حامية صغيرة من التتار تحتل غزة بقيادة (بايدر فهزمها بيبرس وطاردها حتى شاطىء نهر العاصي ، وقد سمح الفرنج في عكا للمصريين بأن يعبروا أرضهم ويمونوا أنفسهم منها يقول المقريزي :

« ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة ، وأقام بها يوما ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا وبها يومئذ الفرنج فخرجوا إليه بتقادم ، وأرادوا أن يسيروا معه نجدة فشكرهم ، وأخلع عليهم ، واستحلفهم ألا يكونوا لا له ولا عليه ، وأقسم لهم أنه متى تبعه فارس أو راجل يريد أذى عسكر

(١) صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٣ ـ ٦٤ .

(١) السلوك للمقريزي ج ١ ق ٢ ص ٤٢٩ .

المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلتق التتر[١] » .

وحينما وافت الأنباء قائد التتار (كتبغا) بهزيمة (بايدر) ثارت ثائرته ، وتملكه الغضب وعزم على الانتقام معتزاً بقوته وكثرة جيشه .

وا إسلاماه :

تجمع المصريون عند أسوار عكا ، ثم اتجهوا نحو نهر الأردن ، وتقدم (كتبغا) يقود جيشه ومعه بعض النجدات الأرمنية والتقى الجمعان عند (عين جالوت)[٢] حيث دارت المعركة حامية ، واستحر القتال ، واستبسل المصريون ، واندفعوا نحو أعدائهم يعملون فيهم سيوفهم ضربا وتقتيلا وأظهروا من ضروب الشجاعة والإقدام ، ما يجل عن الوصف ، ولقد حدث أثناء المعركة أن اضطرب جناح من أجنحة المصريين وانتقض طرف منه ، فألقى الملك المظفر قطز خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته قائلا : (وا إسلاماه) فكان لهذا الصوت المدوى فى أرجاء المعركة صداه العميق فى نفوس المصريين ، إذ ألهب شعورهم ، وأذكى فيهم روح الحماس والتضحية ، وذكرهم بما ينبغى عليهم نحو دينهم ، فحملوا حملة صادقة على عدوهم أسفرت بعدها المعركة عن هزيمة التتار لأول مرة فى حياتهم ، وقد استطاع المصريون أن ينتقموا منهم وينكلوا بهم ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً قارب النصف[١] وتعلق من سلم برءوس الجبال فتبعهم المسلمون وأبادوهم ، وطاردوا من فر منهم إلى أطراف البلاد الشرقية ، وقد وقع قائد التتار (كتبغا) أسيراً بعد أن قاتل بشجاعة منقطعة النظير ، وقد قال له قطز حينما مثل بين يديه : (أيها الرجل الناكث العهد ، ها أنت بعد أن سفكت كثيراً من الدماء البريئة ، وقضيت على الأبطال والعظماء بالوعود الكاذبة ، وهدمت البيوتات العريقة بالأقوال الزائفة المزورة ، قد وقعت أخيراً فى الشرك)[٢] فرد عليه القائد التترى ردا فيه القوة والجرأة وعدم المبالاة بالمصير المنتظر : (إنى إذا قتلت على يدك فإنى أعلم أن ذلك من الله لا منك فلا تنخدع بهذه المصادفة العاجلة ولا بهذا الغرور العابر فإنه حين يبلغ هولاكو خان نبأ وفاتى سوف يغلى غضبه وستطأ سنابك خيل المغول البلاد من أذربيجان حتى ديار مصر ، إن لهولاكو خان ثلاثمائة ألف فارس مثل كتبغا ، فافرض أنه نقص واحد منهم. فقال له قطز: لا تفخر

(١) السلوك للمقريزى ج ١ ق ٢ ص ٣٣٠ .

(٢) بلدة بين نابلس وبيسان من أعمال فلسطين

(١) للمقريزى الخطط ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٢) أبو الفدا ج ٣ ص ٢١٤ .

إلى هذا الحد بفرسان توران فإنهم يزاولون أعمالهم بالمكر والخداع لا بالرجولة والشهامة) .

وكانت آخر صيحة (لكتبغا) أن سب سلاطين المماليك الذين ترفعهم الصدف ، ويتخذون من قتل سادتهم وسيلة للوصول إلى الملك ثم أشاد بوفاء بنى جنسه ، ومدى احترامهم القانون فقال : إنى كنت عبداً للملك ما حييت ، ولست ماكراً وغادراً ، وقاتلا لمولاه ، بادر بالقضاء على بأسرع ما يمكن حتى لا أسمع تأنيبك ، فأصدر قطز على الفور أمره فاحتزت رأسه ، وطيف بها فى البلاد (١) .

ثم واصل قطز سيره بالجيش حتى دخل دمشق دخول الفاتح المنتصر ، وبهذا النصر دخلت الإمارات فى سوريا من الفرات حتى حدود مصر تحت حكم المماليك .

وتعتبر موقعة عين جالوت من المواقع الحاسمة فى التاريخ لأنها أول هزيمة لهؤلاء البرابرة المتوحشين ، ثم إنها أزالت الخرافة التى استقرت فى أذهان الناس ، وجعلتهم يعتقدون ن التتار قوم لا يغلبون ، ووقفت سداً منيعا دون تقدم التتار إلى مصر ، لأنهم لو انتصروا فى هذه المعركة لكان القضاء على الإسلام حتما مقضيا والتغير مجرى التاريخ وبخاصة أن الصليبيين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر ويتحينون الفرص للتحالف مع التتار ليكونوا جبهة واحدة ضد المسلمين ، وقد استحقت مصر بعد هذه المعركة زعامة العالم الإسلامى عن جدارة ! وأصبح العالم ينظر إليها نظرات الإكبار والإجلال إذ أنها الدولة الوحيدة التى استطاعت أن تذود عن الإسلام ، وتدفع عنه شر الصليبيين وخطر التتار ، مما يدل على أصالة هذا الشعب وعراقته فى الكفاح والنضال وتعشقه للحرية وبذله النفس والنفيس فى سبيلها ، وتضحيته بالأموال والأرواح فى سبيل عزته وكرامته بل وفى سبيل عزة العرب قاطبة والأمة الإسلامية جمعاء .

وقد كانت هذه المعركة الموفقة فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان عام ستمائة وثمان وخمسين وكما نصر الله فى هذا الشهر العظيم المسلمين الأولين فى غزوة بدر وأثابهم فيه فتح مكة أنعم على المصريين بالفوز والظفر فى معركة عين جالوت .

(ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

محمود محمد شبكة
مدرس بالمحلة الكبرى الثانوية للبنين

(١) المدخل إلى التاريخ للدكتور فؤاد الصياد ص ٢٠٧

فجر الفكر الإسلامى فى مصر

للأستاذ عبد الجليل شلبى

– ٢ –

تأخرت الحركة الفكرية فى مصر عن أختيها فى الشام والعراق – ففى الوقت الذى كانت العلوم العربية فيه نمت وقاربت الازدهار فى العراق كانت الحركة الفكرية فى مصر لا تزال فى بدايتها – كانت الفسطاط بؤرة هذه الحركة وقد انتقل منها شعاع ضئيل إلى ما حولها – ولم يظهر شىء منه فى أطراف الريف – زد على ذلك أن حركة الفكر فى العراق تنوعت فلم تقف عند حد الفقه والتشريع ، وإنما ظهر فيها النحو والتاريخ والأدب وظهرت مبادىء الجدل فى علم الكلام وغيره .

وكانت الشام أقل من هذا ولكنها كانت أسبق من مصر كما كانت الحركة فيها أيضاً أكثر تنوعا .

وفى الأدب بصفة خاصة تأخرت مصر عنهما كثيراً .

وفى تاريخ مصر نجد شيئاً يدعو إلى الدهشة أو هو هكذا فى ظاهره . ذلك أن مصر أقبلت على الإسلام ، وأسرع شعبها إلى الدخول فيه بما لم يحدث مثله فى العراق ولا فى الشام – فمن ناحية تأخر هذان الإقليمان ولم يسرعا إلى الإسلام أول ما فتحت بلادهما ومن ناحية أخرى ظل عدد كبير من أبناء البلاد على دينه المسيحى ، وكثيرون من أبناء الفرس أسلموا ظاهراً وأبطنوا عقيدتهم التى كانوا عليها – ولأمر ما ظهرت الزندقة بقوة فى العراق دون غيره ، ونظمت فيه حركة سرية للموالى ، كان عمر بن الخطاب ضحيتها ، وفى العصر العباسى كان مظهر المجون والخروج على وقار الدين ، ولم يحدث شىء من هذا فى مصر – ومع هذا تأخرت حركة الفكر فيها .

لا ينبغى فى مقام التعليل لهذه الظاهرة ، أن نعلق أهمية كبيرة على سبق الفتح – فقد فتح الإقليمان قبل مصر بأقل من عشرة أعوام ولكن سبقاها بأكثر من ذلك بكثير فى حركة الفكر .

وأهم سبب دعا إلى ذلك فى نظرى هو مسألة اللغة – فقد كانت اللغة العربية أشد غرابة على المصريين مما كانت على الآخرين .

أما الشام فكانت تشارك مصر حقا فى صفة الحكم ، واللغة الرسمية فى الإقليمين هى اللغة اليونانية حتى فى العهد الرومانى كما كانت توجد الرومانية أيضا ، ولكن الشام كانت تتوزع بأرضها لغات سامية هنا وهناك : السريانية والعبرانية والآرامية ... وكانت الآرامية أوسعها انتشاراً وهى التى كان يخطب بها المسيح

عليه السلام ، وهي أقرب الساميات إلى العربية فالعربية ليست بعيدة ولا شاقة على تلك البقاع.

وأما العراق فكان للعرب بها صلة سنبينها الآن ، ولم يكن لمصر هذا ولا ذاك ، ولهذين السببين نجد اللغة العربية في العهد الجاهلي حوت ألفاظا من الفارسية وأخواتها الساميات ولم تحو شيئا أصلا من لغة المصريين .

فاللغة العربية إذن كانت غريبة على المصريين في نطقها وتركيبها وألفاظها فشق عليهم تعلمها بما لم يشق على الآخرين . ولم تنتشر هـــذه اللغة في مصر إلا في القرن الثالث الهجري ، وحقا إن اللغة في العواصم غيرها في الريف ولكن هذا التأخر في اللغة يستلزم تأخرا في الفكر على أي حال .

هناك أمر ثانوي لا يتصل بموضوعنا مباشرة ولكنه ذو صلة بتأخر اللغة في مصر ذلك أن العرب لم يكن لهم بمصر قبل الفتح صلات قوية كالتي كانت بين العراق والشام ، فقرب المكان والإمارات العربية على تخوم الإقليمين أنشأت بينهما وبين العرب نوعا من المزج لم يتيسر مثله للمصريين ، ولم يكن من شأن هـــذا المزج أن يقف عند عملية الاختلاط ونقل الحضارة ؛ بل كان أبعد من ذلك أثرا حتى نجد الأمير (بهرام جور) ولي عهد الشاه « يزدجرد » ينشأ بين عرب الحيرة ويتعلم العربية ، ويستعين فيما بعد بقوة عربها على توليه عرش فارس ، وقد ظلت إمارة الحيرة إمارة عربية مدة تزيد على ثلاثة قرون ونصف القرن ، وعاشت إمارة الغساسنة في (جلق) مدة أطول ، وكان لها دور مماثل في التقريب بين الشعبين واللسانين .

بجانب هاتين الإمارتين كانت هناك قبائل عربية تنزح من أواسط الجزيرة فتعيش على حواشي العمران طلبا للرعي وطمعا في الخيرات وأحيانا للغزو ، وهذه عملية تقريب أخرى وكان كل من الفرس والرومان بسبب هؤلاء العرب وما لهم بهم من صلة يبعثون بمتاجرهم إلى داخل الجزيرة ، حتى ليستظهر بعض مؤرخي الإفرنج أنه كان بمكة بيوت تجارية رومانية .

أما متاجر العرب التي كانت تتجه إلى الشمال فكانت تصل إلى أيلة « العقبة » ومنها إلى غزة فتتصل بتجار البحر الأبيض ، ويرسل بعضها إلى مصر بواسطة تجار أجانب وقليـــلا أو نادرا ما يكونون مصريا . فإذا قدرنا ما للتجارة - من قديم - من أثر في نقل الحضارة وتقارب اللغة وتغذية اللغات بالألفاظ من هنا ومن هناك - أدركنا أن مصر حرمت عاملا تمتع به الإقليمان الآخران .

هـذا كله ونحـن لا ننسى أن الهجرات البعيدة للساميين وموطنهم الأصلي هو الجزيرة ربطت بين أطراف الهلال الخصيب برابطة الدم والجنس وقربت اللهجات فلم تكن كل هذه البلاد غريبة على العرب ولا لغة العرب جديدة عليهم كما هو شأن المصريين .

ولست أريد بهذا كله أن أنفي صلة مصر بالجزيرة والعرب ولعل من الأوفق أن أشير إليها لتتم بها الموازنة ، ولكن لا يدخل في حسابنا هجرة الحاميين ولا حتى الساميين الذين وفدوا على مصر واستوطنوها في تاريخها الجنسي المعروف فهذه هجرات لم يكن من شأنها أن تتم علاقات فكرية أو اجتماعية أو تبقى على صلات بين محل إقامتها ومهدها الأول ولكننا نجد فيما حول عصر الميلاد صلات تجارية وفكرية .

وفد على مصر تجار من الجزيرة عن طريق البحر الأحمر ومسالك الصحراء الشرقية وقامت لهم بصعيد مصر أسواق صغيرة أو مايشبه الأسواق واشتهرت منها مدينة قفط ولعلها لم تكن السوق الوحيدة لتجار العرب - وربما كانت أشهر مكان وأكبره لمتاجرهم لأنها تشبه العاصمة حتى أن اليونان سمو مصر كلها باسمها فقالوا « ايجبت » وسموا المصريين Cobtic وتحدث عنها المؤرخ الشهير استرابو Strabon المعاصر لهذه الفترة ٦٠٠ق م -٢٤م ، فوصفها بأنها نصف عربية . ولكن ليس لدينا معلومات عن طريق التعامل ولا كيف كانت تصرف هذه المتاجر .

وأول صلات فكرية هي التي جاءت في العهد المسيحي - فقد نشطت مصر في الدعوة المسيحية ، وقام عدد من رهبانها بالكرازة خارج مصر - وكانت مصر مهد الرهبنة وامتد نظامها ونظام أديرتها إلى بلاد بعيدة جداً ومنها الشام والجزيرة - وإذا كانت شهرة إكليمنصو Climent وأوريجانوس من الأسماء اللامعة في تاريخ الدعوة المسيحية فيجب ألا ننسى أن تلاميذهما الذين قاموا بنشر الدعوة كانوا جنودا مجهولين حملوا تعاليم الرهبنة وعملوا بنوع ما على مزج مصر بما حولها .

ومن تلاميذ مدرسة الإسكندرية المسيحية « هلا ريون » الراهب الذى استقر بغزة ولقن الرهبنة أكثر من ثلاثة آلاف تلميذ تخلص فرقهم في الجهات التي حوله ونزل الجزيرة منهم عدد كبير - ونحن نعلم أنه كان بالجزيرة مركز للدعوة النصرانية ونعلم الدور الذى لعبه في تاريخ العرب فلنذكر أنه خلال القرن الرابع الميلادى - وهو عهد نشاط الدعوة المسيحية في مصر كان الأسقف على نصارى العرب هو الناسك موسى المصرى .

وفي هذه الفترة المسيحية هاجر أيضا بعض العرب إلى مصر لسبب أو لآخر .

هذه الصلات على أى حال تعتبر صلات هينة بجانب صلات العرب بكل من العراق والشام ، وقد ذكر السيوطى أن قبط مصر يفخرون بأن منهم من صحب النبى وهو يعنى جبر بن عبد الله القبطى الذى أرسله المقوقس بهديته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانظر

كيف يفخرون بشخص واحد ومن يشبهه في هذا من الشام والعراق لا يحصيهم العد .

وهناك شيء آخر لا يقل أهمية عما ذكرناه وهو طبيعة الإقليم وفطرة السكان فالعراق قطر نشيط مطبع مخلص ومصر إقليم متدين متعبد . هذه الصفات لها أثرها في توجيه الحركة الفكرية خصوصا إذا لاحظنا الحركة السياسية .

فالعراق منذ فتحه يشارك في أحــداث السياسة والعداء بينه وبين الشام مستحكم منذ زمن الفرس والرومان ـ فلما غلب على أمره في ميدان السياسة وجه نشاطه إلى الحركة العلمية ، والشام ظفر بمقر الخلافة ، ودار الحكم لبني أمية ، وهؤلاء لم يكن من همهم تشجيع الحركة الدينية فنشط هناك أدب النفاق والمدح ولم تنشط كما في العراق حركة الفكر والمناظرات ، والأمر ما كانت النقائض ـ وهي نوع من المناظرات والجدل ـ تلتق بالمربد والكناسة ـ سوق العراق ـ ولم تقم مثل هذه بالشام ، ثم نجد نحواً كوفيا وآخر بصريا ولا نجد نحوا دمشقياً ، أما مصر فدفعتها نزعة التدين إلى العناية بعلوم الدين رغم حاجتها أكثر من أختيها إلى صناعة النحو ، وتقويم اللسان .

هــذه الصفات هي سبب الهــدوء في مصر والثورات في العراق ـ كثرت في العراق مظاهر المناظرات بين المسلمين وغير المسلمين وبين المسلمين بعضهم وبعض ـ من رجال الفقه والكلام والنحو والأدب والسياسة ـ وظل قبط مصر الباقون على مسيحيتهم يجاورون من أسلم منهم ومن وفد من مسلمي العرب في هــدوء وصداقة ـ وبينما نشطت العلوم التي ذكرناها هناك قام بمصر التصوف العملي لا الفلسفي ـ وكما كانت مصر مهد الرهبنة في العهد المســيحي كانت مهد التصوف في الإسلام .

والعقلية المصرية تتباين عن العقلية العراقية في طبيعتها تباينا واسعا أخصه أنهم هناك ذوو فلسفة وجدل وتعليل وتحليل ، ونحن هنا تنبو أذواقنا عن هــذا النوع ولهذا لم تستطع مدرسة الأسكندرية أن تطبع في نفوس المصريين أثرا واضحا فظلت طوال عهدها تمثل مدرسة أجنبية بين المصريين واستفاد منها الأجانب أكــثر مما استفاد المصريون ، ولو أنها تركت في نفوسهم أثرا كالأثر الذي تركته الديانة الفارسية في عقول العراقيين لكان للحركة الفــكرية عصر الإســلام شأن كالذي كان بالعراق ولما تأخرت أيضا ولكن هذا الذي كان .

عبد الجليل شلبي

النيل في مؤلف مصري قديم

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

— ١ —

الجلال المحلي المفسر المشهور ، المعروف بجلال الدين المحلي الشافعي ، عالم مصري عاش في القرن الثامن ، وطارت شهرته فيه .

وفي عام ٧٨٠ هـ ألف كتابا صغيراً سماه مقدمة النيل السعيد وشرح أحواله ، وذكر عجائبه وغرائبه ، ومن أين يجيء وإلى أين سينتهي (ص ٢٣) .

وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة منذ أكثر من مائة عام وذلك عام ١٢٨١ هـ كما جاء في آخره ، « تم طبع ما جمعه الإمام الجلال المحلي الجليل فيما يتعلق ببيان أحوال النيل ، على ذمة الشيخ النجيب ، الشيخ اسماعيل معتوق ، الشهير بالعطار ، بالمطبعة البهية الكائنة بخط باب الشعرية ، بتصحيح الفقير مصطفى وهبي .

ويقع الكتاب في ٣٨ صفحة من القطع الصغير ، ويشتمل الكتاب على مقدمة صغيرة وعدة فصول .

وجاء في المقدمة : روى عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أربعة لاتشبع من أربع : عين من نظر وأنثى من ذكر ، وأرض من مطر ، وعالم من خبر ، ولما كان إقليم مصر مشتملا على أمور عجيبة ، استخرت الله تعالى أن أجمع فيه من الغرائب مالا ينبغي لذوي العلم إهمالها وكيف . ؟ وكلهم أو أكثرهم لو سئل عن نهر النيل من أين يخرج من الأرض ، وفي أي مكان يذهب ..؟ لما أجاب عن ذلك ، وأنا إن شاء الله مبين لجميع ذلك ، قاصداً فيه الاختصار » .

وفصول الكتاب تبدأ بالفصل الأول في بيان فضل النيل ، ثم يليه الفصل الثاني في المكان الذي يخرج أصل النيل منه وبيان سبب خضرته ، ويلي ذلك عدة فصول عن : الأهرام ، وكورة أسيوط ، والحائط الممتد بالجانب الشرقي من النيل ، والمقاييس لمعرفة زيادة النيل ونقصانه ، والمكان الذي يذهب فيه ماء النيل ، والأنهار الاربعة وهي سيحون وجيحون والفرات والنيل ، والفرق بين البحر والنهر ، وأنواع الماء وما يستعمل في الطهارة ... وبذلك ينتهي الكتاب .

— ٢ —

والكتاب ذو أهمية كبيرة لما يشتمل عليه من حقائق علمية أكدتها الكشوف العلمية الحديثة .

١ — يذكر الجلال المحلى فى الكتاب نقلا عن الجغرافيين العرب من أمثال الكندى والمسعودى ، أن النيل يخرج من جبل القمر خلف خط الاستواء [1] من عشرة عيون ، خمسة تجتمع فى بطيحة [2] ، وخمسة تجتمع فى بطيحة ، ثم يجتمع بعد ذلك الماءان ، فيجرى على وجه الأرض نحو تسعمائة فرسخ ، وقيل ألف فرسخ ، فى عامرها وغامرها ، من عمران وخراب ، حتى يأتى بلاد أسوان ، من صعيد مصر ، وإلى هذا الموضع تصعد المراكب من فسطاط مصر ، وعلى أميال من أسوان جبال وأحجار يجرى النيل فى وسطها ، ولا سبيل إلى جريان السفن فيه . وهذا الموضع فارق بين مواضع سفن الحبشة فى النيل ، وبين سفن المسلمين ، ويعرف هذا الموضع من النيل بالجنادل والصخور ، ثم يأتى الفسطاط فيقسم إلى خلجان : إلى بلاد تنيس ودمياط ورشيد وإلى اسكندرية ، كل يصب إلى البحر

ويذكر أن أحمد بن طولون فى سنة نيف وستين ومائتين بلغه : أن رجلا بأعلى مصر من الصعيد ، له ثلاثون ومائة سنة ، من من الأنباط ، ممن يشار إليه بالعلم ، وأنه علامة بمصر وأرضها من برها وبحرها وأخبار ملوكها ، وأنه ممن سافر الأرض ، وتوسط الممالك ، وشاهد الأمم أبيضها وأسودها ، وأنه ذو معرفة بأنواع هيئات الأفلاك وأحكامها . فبعث إليه ابن طولون ، وأخلى له نفسه فى ليال وأيام كثيرة ، يسمع كلامه وإيراده وحكاياته ، فكان لما سأله عن طول الأجناس وممالكهم ، قال : لقيت من ملوكهم ستين مالكا فى ممالك مختلفة ، كل منهم ينازع من يليه من الملوك ، وبلادهم حارة يابسة ، ثم سأله عن منتهى النيل فى أعلاه ، فقال : البحيرة التى لا يدرك طولها وعرضها ، وهى نحو الأرض التى فيها الليل والنهار مستويان طول الدهر .

٢ — ويذكر الجلال المحلى أنه حكى له بعض من أقام بالحبشة أن الغمام والمطر يستمر عندهم فى أيام زيادة النيل ليلا ونهاراً فى أعلى النيل ، وأن المطر يكثر جداً فى بعض السنين ويقل جداً فى بعضها ، فيعرفون كثرة النيل وقلته بسبب ذلك .

٣ — ويذكر الجلال أن مصر كانت وطن الأنبياء والمرسلين والأسباط وذى القرنين الإسكندر ، والحكماء اليونانيين ، والفلاسفة المتقدمين ، وذوى الهيئة والآلة والطلاسم والرصد والحركات والنجامات والمساحات والجبر والمقابلات وغير ذلك : كهرمس ، وبقراط وجالينوس وفيثاغورث وبلينوس وغيرهم .

(١) حيث يستوى الليل والنهار وأضيف إلى القمر لانه يظهر تأثيره فيه عند زيادته ونقصانه بسبب النور والظلمة والبدر والمحاق (ص ١٧ من الكتاب)

(٢) مكان ينبطح من الأرض . والمراد بحيرة .

وينقل المؤلف أوصافا شعرية جميلة عن كعب الأحبار الذى يقول : من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فلينظر إلى مصر إذا أزهرت ، وإذا اطردت أنهارها ، وتهذبت ثمارها ، وفاضت بحارها ، وغنت طيورها ؛ وعن عبد الله بن عمر حيث يقول : من أراد أن ينظر إلى شبه الفردوس فلينظر إلى مصر ، حين يخضر زرعها ، ويزهر ربيعها ، ويكثر بالنور أشجارها .

ويروى عن المسعودى فى مصر : هى ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء ، فإن مصر فى شهور أبيب ومسرى وتوت يركبها الماء ، فترى الدنيا بيضاء ، وفى شهر بابة تنكشف الأرض ، فتصير أرضا سوداء وتكثر فيها الزراعات ، وللأرض روائح طيبة تشبه رائحة المسك ؛ وفى شهر طوبة وأمشير وبرمهات يكثر عشب الأرض ونباتها فتصير الدنيا خضراء كالزمردة ، وفى شهر برمودة وبشنس وبؤونة يبيض الزرع وينور العشب فيشبه الذهب فى المنظر .

٤ — ويذكر الجلال أن مساحة أرض مصر التى تروى بالنيل عامرها وغامرها ٣٠ مليونا من الأفدنة ... وإذا كان هذا صحيحا فى الزمن القديم حيث تتشعب مياه النيل وتذهب إلى كل مكان ، فإنه غير صحيح اليوم حيث أصبح لمياه النيل مجار وفروع محدودة .

ويقول الجلال : إن على كور مصر ١٢٠ ألف رجل معهم المساحى والآلات ، سبعون ألفا على الصعيد ، وخمسون ألفا لأسفل الأرض ، لحفر الخلجان وإقامة السدود والجسور والقناطر وسد الترع وقلع القضبان والحلفاء وكل نبت يضر بالأرض(١) .

٥ — ويشير إلى مصب ماء النيل فى البحر عند شواطىء مصر (٢) .

٦ — وما ذكره عن الفرات ودجلة وسيحون وجيحون يثير العجب لدقته العلمية المتناهية (٣) .

— ٣ —

والكتاب مع صغر حجمه يثير الاهتمام ، لصحة معلوماته ، وكثرة إحاطته ، ودقة تفاصيله ، وإلمامه بالوصف الجغرافى الدقيق للنيل ومصر وما يتصل بهما .

والجلال المحلى بهذا الكتاب جدير بأن يوضع مع الجغرافيين العرب فى مكان بارز .

وهذا الكتاب جزء من تراثنا القومى الذى نرجو أن تمتد إليه يد العناية ، وأن يلقى من الاهتمام ما يستحقه ، فينشر نشرا علميا محققا ، ليحتل مكانته فى المكتبة الجغرافية العربية القديمة ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

---

(١) ص ٩ من الكتاب .
(٢) راجع ص ٢٤ من الكتاب .
(٣) راجع ص ٢٧ وما بعدها من الكتاب .

براعة التصوير فى شعر الأندلسيين

للأستاذ محمد محمد خليفه

للطبيعة الساحرة التى عاش بين أحضانها الأندلسيون أثر فى تلك الصور الفنية الفاتنة التى غنى بها الشعر الأندلسى ، فقد استلهموا الطبيعة بدائع الصور فألهمتهم ، واستوحوها لوحات من الفن السامى فألهمتهم آياته ، تلك الطبيعة هى التى سحرت ابن خفاجة فعاش مفتونا بسحرها ، يشدو بنفثاته ، ويترجم عن لمساته ، ويغرى الأندلسيين بالتمتع بجنات الخلد التى يعيشون بينها فيهتف فيهم :

يا أهل أندلس لله دركم
ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا فى دياركمو
ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا
فليس تدخل بعد الجنة النار

ولقد حاكوا الطبيعة فيما قدموا من صور ، وافتنوا فيما رسموا من ألوان ، وأعملوا قرائحهم فى إبرازها حتى لكأننا نلمسها مجسمة فى الشعر حين نقرأ لابن سفر المرينى ، وهو يتحدث عن النسمة التى هبت من (دارين) على النهر ، ومرت على صفحته ناشرة جناحها بين أعطار الخيرى والنسرين ، وإنه لبديع تصويره النسمة بطائر فى قوله :

يا هبة باكرت من نحو دارين
وافت إلىّ على بعد تحيينى
مرت على صفحات النهر ناشرة
جناحها بين خيرى ونسرين

وتأخذنا براعة التصوير حين نقف على الصورة التى يقدمها الشاعر للمد والجزر فى نهر إشبيلية وندرك حسن تعليله لهما ، وكأنهما ليسا من فعل الطبيعة حين يكشف عن معركة بين النسيم والنهر ، تلك المعركة التى انتصر فيها النسيم فشق جيب قميص النهر وولى هاربا وراء الشاطئ ، وخرج النهر من شاطئيه وانفلت من قيديه ، وخرج عاريا عتدا يطلب ثأره ، فضحكت الحمائم هازئة ، فعاد بين الشاطئين ، وضم إليه إزاره خجلا من الورق كل ذلك يبدع فيه حيث يقول :

شق النسيم عليه جيب قميصه
فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها
هزءا فضم من الحياء إزاره

وفى صورة أخرى يرى الشاعر غلاما جميلا يستحم فى النهر، وقد تعلق بزورق يسير معه حيث سار؛ فيقف مع تلك الصورة، ومعه قريحته يرى ثم يصور ذلك الغلام (البدر) وهو فى وسط اللجة يلمع، وقد جعل الماء سماء له، يسبح فيها مرتبطا بالفلك فيقول:

انظر إلى البدر الذى لاح لك
فى وسط اللجة تحت الحلك
قد جعل الماء سماء له
وصير الفلك مكان الفلك

ويرى شاعر آخر صورة الشهاب، ينقض من السماء، مخترقا ظلمة الفضاء. فيربط بين هذه الصورة، ومنظر الفارس يعدو على جواده وقد حل الإعصار عمامته البيضاء، فطارت من خلفه مستطيلة، فيربط بين الشهاب وسرعته وعمامة الفارس، وهى فى يد الريح وراء الفارس وذلك فى قوله:

وكوكب أبصر العفريت مسترقا
للسمع فانقض يذكر إثره لهبه
كفارس حل إحضار عمامة
فجرها كلها من خلفه عذبه

وفى صورة ماجنة معربدة يقدم ابن شهيد عبث السكارى ولهوهم، بعد أن فعلت الخمر بهم ما فعلت، ولعبت برءوس شاربيها فطوحوا قلانسهم، وجذبوا أطراف عمائمها، وقد عاش فى هذا الجو، ثم انتزع الصورة المعبرة فقــال:

وعلا بنا سكر أبى
إلى الإنابة للحــازم
نرمى قلانســنا له
ونجر من عذب العمائم

وما أروع تلك الصورة الماجنة التى يبدع فيها ابن شهيد، فيقدم مجلسا من مجالس الخمر قام يرقص فيه، وهو مشلول يتكئ على عصاه، ويتمنى لو عاد إليه شبابه، وراجعته عافيته ليسير على رأسه راقصا فى حضرة مليكه ثم يتحدث عن إبريق الخمر، وضحكه من منظره الراقص المرتعش، ثم يتحدث عن بكاء الإبريق حين رأى شلله، ولم تكن دموعه غير الخمر التى يتعاطاها الندماء، كل ذلك يسوقه فى قوله:

هاك شيخ قاده السكر لكا
قام فى رقصته مستهلكا
لم يطق يرقصها مستثبتا
فانثنى يرقصها مستمسكا
عاقه عن هزها منفردا
يفترس أخنى عليه فاتكا
أنا لو كنت كما تعرفنى
قمت إجلالا على رأسى لكا
قهقه الإبريق منى ضاحكا
ورأى رعشة رجلى فبكى

ويرى شاعر مدينة بلنسية الجميلة ، وقد حفت بالأشجار الباسقة الناضرة واحتجبت منازلها وراء الأرواح ؛ فتخيل أنها الكاعب الحسناء ، وأنها ارتدت ثوبا سندسيا . وكأنها تسترت بأكامها خجلا حتى لا تظهر للرائى أو القادم . إنه فعل العذارى الجميلات فى عهود الخفر والحياء . فاستمع إليه يقول :

كأن بلنسية كاعب
وملبسها سندس أخضر
إذا جئتها سترت نفسها
بأكمامها فهى لا تظهر

وفى مجلس من مجالس الخمر والغناء يرسل ابن حمديس الصقلى (ريشته) فيرسم لوحته الناطقة فى تلك الهالة التى تؤلفها رشاق الهيف تطوقهن الوجوه القمرية ، ويتخيل ملك اللهو وهو يرى الهموم تثور فيقتلها ، وتتولى القيان التى تعزف على أوتارها تسكين الأحزان وهو بين معانقة عودها ، ومقبلة مزمارها ـ هذه صورة يقدمها ابن حمديس فى قوله :

وعدنا إلى هالة أطلعت
على قضب البان أقمارها
يرى ملك اللهو فيها الهمو
م تثور فيقتل ثوارها
وقد سكنت حركات الأسى
قيان تحرك أوتارها
فهذى تعانق لى عودها
وتلك تقبل مزمارها

ويقف ابن شرف القيروانى أمام منظر الفجر ، وقد اكتسى الأفق بالحمرة وتساقط رذاذ الندى ثم يلق نظرة على النجوم ، وهى تختفى أمام نور الصبح ، فيصور الفجر غلاما ظهرت حمرة الخجل فى خده ، ومشى عرق الحياء فيه ، ثم يصور الخجل وقد تجاوز الليل إلى نجومه فتساقطت تساقط الأوراق فقـــال :

وألاح الفجر خدا خجلا
جال من رشح الندى فى عرق
جاوز الليل إلى أنجمه
فتساقطن سقوط الورق

وكتب ابن زيدون وهو فى الزهراء (ضاحية بناها الناصر إلى جانب قرطبة وكانت آية فى الفن) وقد ثار به شوقه إلى ولادة (محبوبته) فصور لها شوقه وذكراه لها فى صحوة الجو واعتلال الأنسام فى الأصائل إشفاقا عليه ، ثم صور الروض والماء الفضى البسام الذى يحلى صدره ثم ذكر أن منظر الماء الفضى يحكى مكان أطواقها على صدرها حينما تحلها عنها ، وذلك ما يقدمه ابن زيدون فى قوله :

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا

والنسيم اعتلال فى أصائله
كأنما رق لى ، فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضى مبتسم
كما حللت عن اللبات أطواقا

وكما صور ابن زيدون الروض ، وابتسام الماء الفضى فيه ، أبرزه الوزير ابن حمار فى صورة أخرى فشبهه فى توشية الزهر له وتساقط حبات الندى عليه بالحسناء التى لبست ثيابا موشاة ، وتقلدت بالجواهر ثم نظر إلى صورة النهر فى بياضه ، والروض يطل عليه فشبهه بالمعصم الأبيض الصافى ، وقد أطل عليه رداء أخضر وذلك فى قوله :

والروض كالحسنا كساه زهره
وشيا وقلده نداه جوهرا
روض كأن النهر فيه معصم
صاف أطل على رداء أخضرا

أما إمام وصافى الطبيعة ابن خفاجة فيزجى لنا صورة جميلة للنهر المتدفق فى البطحاء ويرسمه فى تعطفه كالسوار ، ويصوره فى بياضه والزهر يحيط به بنهر المجرة (البياض الذى يبدو فى السماء) والنجوم حواليه ، ثم ينظر إلى النهر فى تعطفه ، والرياض من حوله فيرى أنه قرص من الفضة ، وضع فوق بردة خضراء ويلق نظرة أخرى على الأغصان وهى تحف بذلك النهر الصافى من جانبيه فيتخيل أنها الهدب التى تحف بالمقلة الزرقاء ثم يرى انعكاس أشعة الشمس فى وقت الأصيل على النهر الأبيض فيبرز تلك الصورة بعد أن أضاف فيها المشبه به إلى المشبه (ذهب الأصيل) (لجين الماء) .

ذلك ما يقدمه ابن خفاجة فى قوله :

لله نهر سال فى بطحاء
أشهى ورودا من لمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه
والزهر يكنفه مجر سماء
قد رق حتى ظن قرصا مفرغا
من فضة فى بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها
هدب تحف بمقلة زرقاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى
ذهب الأصيل عن لجين الماء

وهذه لوحة أخرى يقدمها ابن خفاجة ولكنها لوحة تصور قصة عاش فيها الشاعر ليلة طويلة مخيفة فى مفازة وقد لمع فى السماء كوكب الشعرى وكأنه فى تلهبه فى الظلام دينار يلمع فى كف زنجى الدجى وقد لفت الظلمة الشاعر ، وراءه فيها ذئب ألم به مع الدجى وقد تساقط الندى لحملته ريح الصبا وبللت فيها فروة الذئب ، فاقشعرت وفى هذه الظلماء نظر الشاعر إلى مقلة الذئب يتطاير منها الشرر فهاج بأسه كذلك وتقلنا الشاعر بعد ذلك إلى الدجى ، وقد خلع عليه خلعة كانت أزرارها

أضواء النجوم التى تلمع من بعد على صدره ، وذلك كله يقدمه ابن خفاجة فى قوله :

ومفازة لا نجم فى ظلمائها
يسرى ولا فلك بها دوار
تتلهب الشعرى بها وكأنها
فى كف زنجى الدجى دينار
قد لفنى فيها الظلام وطاف بى
ذئب يلم مع الدجى زوار
يسرى وقد نضح الندى وجه الصبا
فى فروة قدمسها اقشعرار
فعشوت فى ظلماء لم يقدح بها
إلا لمقلته وبأسى نار
ورفلت فى خلع على من الدجى
عقدت لها من أنجم أزرار

وهكذا نرى الشعر الأندلسى غنيا بصوره المحكمة النسج البديعة الألوان ، حين تصويره لمجالس الخمر والغناء ووقوفا على جمال الفن وحين يشهد الطبيعة وقد وشت يدها كل شئ فى الأندلس ، فبدت البلاد وكل ما فيها جميل يراه الشاعر نعيم الروح فيتمنى أن يعمر ليمتع حياته بين أحضان ذلك النعيم ، وتلك هى الأمنيـة التى هتف بهـا ابن سفر المرينى :

يا ليت لى عمر نوح فى إقامته
وأن مالى فيه كنز قارون
كلاهما كنت أفنيه على نهوا
ت الراح نهبا ووصل الحور والعين

ونكاد حين نمر بالصور التى قدمها الشعر الأندلسى ننسى أن الزمن طواها ؛ بل محاها منذ خمسة قرون ، ونكاد حين نقف ساعة على ذلك التراث الخالد نخدع أنفسنا بأنه حى تشهده العيون ، وأنه لا يحمل الذكريات النائية بل يحمل الحقيقة التى لا تغيب .

محمد محمد خليفه

أرفع مراتب الفن

« أرفع مراتب الفن ... فن يمس إنسانيتنا بالتكريم ، ويهمى على مشاعرنا بالحب ، ويعمق أحاسيسنا بالعون ... فآية كريمة تجنبنا عيوبنا ... وآية تحث على فضيلة ... وبيت يغمرنا بالرقة ... وكلمة تستل السخيمة ... كل ذلك ... هو الفن ... فن الحب للحياة ... لحياة أفضل ... وعمل أسمى ... وأخوة نبيلة » .

الكتب

نقد وتعريف : محمد عبد الله السمان

التكافل الاجتماعي في الإسلام :

تأليف الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة

عرض وتقديم : الدكتورة نعمات أحمد فؤاد

هذا هو موضوع كتاب اليوم أو خط عريض من خطوط الشريعة الإسلامية . كتاب (التكافل الاجتماعي في الإسلام) لمؤلفه الأستاذ الجليل الشيخ (محمد أبو زهرة) تعميق لمفهوم التضامن الاجتماعي على ضوء الشريعة الغراء بأسلوب علمي ، فكم من كتب عالجت « الاشتراكية » ولكنه علاج مرسوم بمعنى أن أصحابها عندهم فكرة جاهزة يريدون سنداً لها من الدين أو تطبيقها سابقا . وهنا يضطرون إلى افتعـــال التخريج والتفسير مع أن الاشتراكية الحقة معنى إنساني نبيل إذ تستهدف تحرير الإرادة الإنسانية من رق الاستغلال والاضطرار والقهر والتبعية ، ولكن الشيخ (محمد أبو زهرة) أستاذاً لمادة الشريعة الإسلامية يعرف جوهرها ومراميها وأسرار حكمتها ؛ فهو يعرفنا بها تعريف المتمكن المصدق ويناقش على هديها مختلف الآراء والمذاهب ثم يرجح ما يلتقى مع روحها منه في جهارة الحق لا تعرف مواربة أو جمجمة فالكتاب من هذه الناحية (ثقة) يعتد به . وما بالقليل أو الهين الشأن أن يكون الكاتب صادقا وأميناً .

استهل الأستاذ الجليل كتابه بالتنويه بضرورة « الرأي العام » فالإسلام (جاء لإيجاد مجتمع فاضل تتعاون فيه كل القوى بحيث لا يطغى فريق على فريق وأول مظهر للمجتمع الفاضل في الإسلام ، هو وجود رأي عام فاضل يتعاون على الخير ودفع الشر ...)

وإن الرأي العام له رقابة نفسية فإذا صلح هذب الآحاد والجموع ، وإذا فسد وتقاعس فسد المجتمع . (وأن الجماعة كلها تكون آثمة إذا رأت الشر يسير رافعا رأسه وسكتت عنه . وأن الأمة كلها تعتبر مشتركة مع الآثمين إذا رأت الإثم ولم تعمل على منعه ، ولقد ذم القرآن الكريم بني إسرائيل لأنهم أفسدوا مجتمعهم بترك الآثمين يرتعون في إثمهم من غير أن ينهوهم . . . « لعن الذين كفروا

من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » .

ووسيلة الإسلام إلى إيجاد مجتمع فاضل : الحياء ، والاستتار . فالحياء قيد اجتماعى نفسى ، والاستتار حصر للشر . (قد تكون العقوبة علنية ، ولكن الجريمة يجب ألا يعلم أمرها إلا مع عقوبتها لأن إعلانها يفسد الجو الخلقى . للمجتمع .. ولذلك اعتبر الإسلام من يرتكب جريمة ويعلنها قد ارتكب جريمتين : جريمة الارتكاب ، وجريمة الإعلان) .

ثم تكلم عن الفردية والجماعية فى الإسلام على ضوء النظامين السائدين فى العالم الآن وانتهى من حديثه بالقول إن الإسلام (لا يأخذ بأى النظامين جملة أو تفصيلا ، فهو لا يمحو حرية الإنتاج الفردى ولا يمكن تلك الحرية من كل شىء) .

فحرية الإنتاج ، والحرية الشخصية بكل ضروبها ، وحرية الملكية الفردية كلها كفلها الإسلام للفرد على ألا يضار الغير وإلا قيد الحق تقييداً مدنياً .

والعبادات فى الإسلام وإن كانت فى ظاهرها علاقة العبد بربه إلا أن الإسلام قصد بها فيما شرعت له ، تربية الضمير الاجتماعى الذى يحكم الميول والنزعات قبل أن يحكمها القانون الوضعى الذى قد يوجد فى النفس ما يبرر مخالفته . فإذا لم تحقق العبادات هذا الهدف البعيد غدت قشوراً بلا جوهر وزيفا خادعا . .

وفى ضوء هذا الفهم العميق مضى الشيخ محمد أبو زهرة يتحدث عن أركان الإسلام من صلاة وصوم وحج وزكاة وتطرق من هذا إلى حكمة الإسلام فى الكفارات التى هى فى جوهرها تكافل اجتماعى .

ثم تحدث عن الحرية الفردية التى تكونها نفس صاحبها بقيود الواجب قبل أن تقيدها قيود خارجية ، وشعوره بحق الناس ووجوب مراعاة مشاعرهم . فإذا لم يتوافر القيدان الداخليان تدخل القانون لا لتقييد الحرية ولكن لتقييد الفهم الخاطىء لها . . لتقييد الانطلاق فيها بغير مراعاة حقها فإن الإطلاق المطلق مقيد للحرية العادلة .

ثم تحدث عن الملكية باعتبارها (حق أعطاه الله تعالى وحده لعباده فى قيود وحدود) ، ولهذا يحترم حق صاحبها فلا تنزع منه .

وقد ناقش المؤلف العالم ، الرأى القائل بأن الملكية وظيفة اجتماعية فأقر هذا التعبير على أن يعرف أنها (بتوظيف الله تعالى لا بتوظيف الحكام ، لأن الحكام ليسوا دائما عادلين) .

ولكن ولى الأمر العادل (له أن يتدخل لتقرير القيود على الملكية إن لم يلاحظها المالك، وقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه تدخل فمنع بقاء الملكية عند المضارة مع تعويض) ص ٢٤.

وضرب المؤلف مثلا: واقعة سمـــرة ابن جندب مع الانصارى فى حضرة الرسول وقصة الضحاك ومحمد بن مسلمة فى مجلس عمر.

كما أوضح المؤلف نقطة هامة هى أن الملكية مع ما كفل لها الإسلام من ثبوت واحترام فإن الحقوق التى تجب عليها تتزايد فى الظروف القاهرة كالفقر أو المجاعة بما يقرب من إشاعتها وتعميمها تحقيقاً للتكافل الاجتماعى الذى يستهدفه الإسلام فى أحكامه وعباداته على السواء. وهنا ضرب المؤلف مثلا (سنة الرماده) فى عهد عمر بن الخطاب).

إن ملاك الرأى فى الملكية أنها حق الآحاد فى الحدود التى أشار إليها الدين، وهى بهذا (من قبيل احترام الشخصية الإنسانية، حتى لا يكون الآحاد كالجماد، ويكون البناء الاجتماعى كالأحجار بعضه بجوار بعضه من غير إرادة إنسانية.

إن الإسلام لم يجىء لتنظيم الدولة فقط، أو فرض سلطانها فى كل شىء، بل جاء لإيجاد مجتمع تتلاقى فيه الإرادات الإنسانية الحرة نحو هدف واحد وهو إقامة مجتمع سليم قوى، لا تفنى فيه قوة فى قوة أخرى) ص ٢٦.

ثم فصل المؤلف البيان فى الأموال التى يجوز امتلاكها والتى لا يجوز فيها الامتلاك وهو تفصيل طويل مدعم بالأسانيد الفقهية وهو مع التدعيم بناقش ويرجح. ثم يتكلم بتفصيل آخر عن ملكية الأراضى ومقدار قوة اليد عليها أهى يد اختصاص أم يد ملكية تامة. وقد رجع بأصول هذا الموضوع إلى عصر النبوة والفتح. وأبان وجوه الرأى فيه بعد النبي من خلفاء وفقهاء. ثم تحدث عن طرق كسب الملكية الأربعة من زرع وأحياء موات الأرض، وعمل، ومخاطرة للكسب والخسارة ورابعها: الانتظار. ووضح كلا مبينا حكم الإسلام فيها وهو حكم إقرار فيما يتعلق بالثلاثة الأولى، ومنع للرابع أى الانتظار لتعارضه مع التكافل الاجتماعى غاية الإسلام الأولى.

ثم أنشأ فصلا مستقلا عن قيود الملكية المانعة مثل الضرر المؤكد الوقوع والضرر الذى يغلب على الظن وقوعه، والضرر الكثير غير الغالب. أما إذا كان الضرر الناجم عن الحق الخاص قليلا (فالحق باق على أصل المشروعية، لأن ضرر المنع ضرر مقطوع به بالنسبة لصاحب الحق، وهو صاحب الإذن الخاص فلا يلتفت إلى الضرر القليل.. والشرع الإسلامى فى مقرراته اعتبر غلبة المصلحة ولم يعتبر ندرة الضرر أو قلته) ص ٦٦.

وقد استند المؤلف فى هذا إلى كتاب (الموافقات) للشاطبى.

ثم تكلم الأستاذ الشيخ أبو زهرة عن ميراث الملكية فأبان أن (الحقوق فى الشريعة الإسلامية تورث ما دامت قابلة لأن تنتقل من ذمة إلى ذمة، وتخلف ذمة ذمة أخرى فى الأموال) ص ٦٧. وكيف أن النبى صلى الله عليه وسلم (عد المواريث نصف العلم الإسلامى) ص ٦٧.

كما أبان حكمة الشارع الإسلامى فى جعل الوراثة فى الأسرة مجتمعة مع أولية بعضها على بعض وهى حكمة أجل وأكرم من نظرية الشيوعيين ونظرية الأفراديين وكلاهما أطراح للأسرة.

ثم تحدث الشيخ الجليل عن عدالة التوزيع الإسلامى للميراث ومنطقه فيه ... «ألا فانتمسك بالإسلام».

ثم انتقل الكتاب إلى الحديث عن التعاون لدفع أضرار العجز فالإسلام دين التكافل الاجتماعى عالج العجز فى الأسرة بإلزام الوارث بالنفقة، ومن إنسانية الإسلام وجوب النفقة مع اختلاف الدين إذا كانت نفقة الأصول والفروع (المذهب الحنفى).

ومن أصالة الإسلام فى هذا الباب أن أوجب النفقة على الأسرة أو الدولة لطالب العلم ذى الموهبة التى (تمكنه من السير فيه إلى أقصى مراحله لأن المواهب يجب أن تظهر) ص ٧٤.

ومن نبله فى هذا الباب أنه حين عرف من تجب عليه النفقة بأنه ذو اليسار المكسوب، لم يشترط أن يكون الولد بالنسبة لأبويه متيسراً لكى يجب أن يمينهما فى شيخوختهما بل الشرط فقط القدرة على العمل فمن لا يسوغ التأفف منهما لا يجوز تركهما جائعين.

ومن لفتات التقنين الإسلامى أن قضايا النفقات تكون من غير رسوم تدفع كما هو المقرر فى الفقه الإسلامى.

وكما أوجب الإسلام النفقة للعاجز على ذوى الفضل من أسرته فقد أوجبها على الأسرة الكبرى وهى المجتمع ممثلا فى الدولة إذا لم يكن فى القرابة قاصيها ودانيها من يستطيع الإنفاق على الفقير العاجز. وهنا يقول المؤلف العالم.

(وإذا لم تقم الدولة بواجبها فى ذلك فإن القضاء يحكم عليها ويلزمها كما قرر الفقهاء وذلك مبدأ لم يسبق به الإسلام) ص ٧٦.

ثم فصل الحديث عن (الزكاة) التى شرعت فى الإسلام فى السنة الثانية من الهجرة وبين مصادرها وأحكامها ومصارفها وهى ثمانية قال الإمام الشافعى بتوزيع الزكاة بينها بغير إغفال.

وفى كل ناحية لا بد للفقه الإسلامى من امتة. وافتته فى باب الزكاة أنها (تصرف فى البلد الذى جمعت فيه، ولا تنقل إلى غيره من بلاد الدولة الإسلامية إلا بما يفيض عن

حاجات هذا البلد وما يفيض عن المجموع يصرف فى الجهاد فى سبيل الله) ص ٩٥ .

وفى الصفحات الأخيرة من الكتاب تحدث المؤلف عن ألوان من التكافل فى المجتمع الصغير كالبيت والحى والقرية . فأبان حرمة الجوار فى الإسلام وحب الإخاء منذ لقاء المهاجرين بالأنصار ، قرابة اجتماعية ، ثم تحدث عن المبادىء التعاونية التى أقرها الإسلام ومنها تعاون أهل كل قرية فيما بينهم فى سداد الخراج وغيره وقد استنت مصر هذه السنة فى أول الفتح الإسلامى وقد أوضح المؤلف مزايا هذا النظام بل دعا إليه على أساس (إنه اختيارى توجيهى لا إجبار فيه يؤدى إلى ذهاب الأحقاد بين الزراع ، فلا يحرق واحد زرع أخيه لأنه زرعه ولا يقتل ماشية أخيه لشعوره بالأخوة الكريمة من غير ما إكراه) ص ٩٩ .

وفى الختام تحدث عن الكفارات والنذور وألوان من الصدقات اللازمة والصدقات المنثورة والوقف .

وخير ما يقال فى الكتاب ما ختم به صاحبه القول . فهو (نظرات فى التكافل الإسلامى ويلاحظ أن فيها توزيعا لمصادر القوى فى الدولة بحيث لا تطغى فيها قوة على قوة ، وفيها تمكن الجميع من أن يعملوا بمقدار طاقتهم مع احترام الحقوق الخاصة التى لم تتجاوز الحدود المرسومة من الشارع ، ثم كان فيها التأمين الاجتماعى على أوسع مدى من غير إرهاق لأحد) ص ١٠٥ .

وحسب الإسلام قدرة وصلاحية تأصيله هذه القواعد كلها على هدى الفطرة السليمة النقية وعلى ضوء صالح الفرد والمجموع .

دكتورة نعمات أحمد فؤاد

* * *

كتب جديدة

العبادات

تأليف : الإمام المهدى :

الناشر : مكتبة الكاملابى ـ القاهرة .

قدم للكتاب السيد الصديق المهدى الخليفة الحالى بمقدمة عرض فيها الدين والإنسان والدين والآمال والآلام ، والدين والأخلاق والمعاملات ، والإسلام والحضارة الإنسانية والحياة المادية ، ثم أجاب عن هذا السؤال لماذا أصبح الإسلام غريبا ؟ أما الكتاب نفسه فهو مجموعة من الإرشادات والتوجيهات التى كان يصدرها لأتباعه الإمام المهدى قائد الثورة المهدية السودانية وقد تضمنت منشورات المقيدة فى ترتيب الصلاة كما بما يفسدها ويصلحها ، والصلاة فى أسرار المناجاة ، ثم بحوثا تتعلق بأصول الأحاديث التى وردت فى منشور المصافاة وبأقوال الأئمة.

فتاوى مختارة

تقديم : ابراهيم محمد الأصيل

(الاجابة لجنة الفتوى)

أحكام شتى عن الصيام

السؤال :

أفطر فى شهر رمضان الماضى بعد تسعة أيام منه للمرض بعد أن أمره الطبيب بذلك وقد لازمه المرض حتى رمضان هذا العام فأفطر ، فماذا يجب عليه ؟

عبد الجواد شبنه / القاهرة

الجواب :

الفطر للمرض جائز شرعا لا إثم فيه ومن أفطر للمرض يجب عليه القضاء بمقدار ما أفطره من الأيام بعد زوال المرض عنه وما دام لم يقصر فى القضاء لا فدية عليه ، أما من قصر فى القضاء بأن شفى من مرضه وتمكن من القضاء ولم يقض ما فاته حتى دخل عليه رمضان العام الكامل فعليه فدية التأخير عن كل يوم أخر قضاءه ، والفدية هى مد عن كل يوم ، والكيلة بالكيل الموجود الآن تكفى عن ١٦ يوما تعطى للفقير والمسكين وهو من ليس عنده مال أو كسب يكفيه ويجوز إخراج القيمة وإعطاؤها للفقراء والمساكين فالكيلة تساوى ٥٠ قرشا يخرج هذا الثمن عن ١٦ يوما ، ويوزع على الفقراء والمساكين .

صوم رمضان بغير صلاة

السؤال :

يسأل عن يصوم رمضان ولكنه لا يصلى هل يصح صومه ؟ وهل يصح الصوم لمن لم يغتسل من الجنابة أم يكون صومه باطلا ؟

محمدين رجب / عنابة / الجمهورية الجزائرية

الجواب :

فرض الله تعالى كلا من الصلاة والصيام ولم يجعل فريضة أحدهما متوقفة على الأخرى

فمن صام ولم يصل فقد فعل بعض الفرائض وترك البعض الآخر ، يسقط عنه ما أداه ويزال مطالبا بالآخر .

وليست الطهارة من الحدث الأكبر شرطا لصحة الصوم فمن لم يغتسل من الجنابة وصام فصومه صحيح وإن كان مطالبا بالغسل ليتمكن من أداء الصلاة المفروضة عليه .

السؤال :

رجل مريض (بالربو) وفى الصباح يحصل له ضيق فى التنفس لأنه لم يتناول المسكن فهل له أن يفطر ؟

محمد عبد المجيد

الجواب :

إذا كان عدم تناول المسكن يترتب عليه زيادة فى المرض لا يحتملها وأخبر الطبيب الحاذق بذلك جاز له تناول المسكن والإفطار منعاً لزيادة المرض ثم إن أمكنه الصوم فى المستقبل نضى أفطره ، وإذا لم يمكنه القضاء فإنه يفدى عن كل يوم أفطره والفدية تكون بإخراج مد عن كل يوم والكيلة تجزيه عن ستة عشر يوما .

السؤال :

مريض بمرض الصدر وصف له الدكتور المعالج (بخيخة) ليستعملها عند الأزمة فكان يصوم ويستعمل هذه البخيخة فى اليوم عدة مرات فما حكم هذا الصيام ؟

عبد الحميد عمر البحيرى

الجواب :

إذا كانت هذه (البخيخة) تحوى مادة تصل عند استعمالها إلى الحلق تبطل الصوم وتجعله غير صحيح وما دام مريضا لا يقدر على الصوم فالله تعالى لم يلزمه بأن يصوم بل جعل الفطر مباحا له فإذا شفى من مرضه هذا فعليه قضاء ما فاته من الصيام وإن لم يستطع القضاء فعليه عن كل يوم مضى مد من الطعام والكيلة الواحدة تكفى عن ستة عشر يوما .

السؤال :

نذرت أن أصوم ثلاثين يوما ولكن لا قدرة لى الآن على الصيام لمرضى ، ولكن فى استطاعتى أن أفدى عن هذه الأيام فهل يصح الإطعام والفدية أم لا بسبب عدم صيامى ؟

أبو الفتوح محمد الشريف

الجواب :

يصح له الفدية عن كل يوم من طعام حيث عجز عن الصوم الذى التزمه بالنذر ولم يرج شفاؤه وقدرته عليه وتجزئ الكيلة عن ستة عشر يوما وله أن يخرج الفدية .

السؤال :

١ ــ إذا قبل الرجل امرأته وهو صائم أولمسها ، أولمس امرأة أخرى يحل له نكاحها فهل يفسد ذلك صومه ؟

٢ ــ عانق الرجل زوجته وهو صائم فأنزل بدون جماع فهل يفسد صومه ؟

٣ ــ إذا وطئ الرجل امرأته ثم نزع قبل أن ينزل فهل يجب عليه الغسل أو يجب عليه الوضوء فقط ؟

٤ ــ إذا كذب الرجل وهو صائم فهل يفسد صومه ؟

الجواب :

عن الأول : بأن تقبيل الزوجة أو لمسها وهو صائم لا يفسد الصوم ومن الورع ترك ذلك لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

وأن لمس المرأة الأجنبية وهو صائم لا يفسد الصوم كذلك ولكنه حرام فى رمضان وفى غيره وفى رمضان تكون الحرمة أشد .

وعن الثانى : بأنه إذا عانق الرجل زوجته وهو صائم فى رمضان فأنزل من غير جماع فسد صومه ووجب عليه قضاء هذا اليوم .

وعن الثالث : بأن الرجل إذا وطئ زوجته ثم نزع قبل أن ينزل وجب عليه الغسل لقوله عليه الصلاة والسلام إذ االتقى الختانان فقد وجب الغسل .

وعن الرابع : بأن الكذب حرام فى رمضان وفى غيره ولكنه لا يفسد الصوم وإنما ينقص الثواب فقط .

أنباء وآراء

قسم عال للدراسات الإسلامية والعربية

بكلية الشريعة بجامعة الأزهر

افتتح القسم العالى للدراسات الإسلامية والعربية بكلمتين للإمام الأكبر شيخ الأزهر والسيد مدير جامعة الأزهر، وأهمية هذا القسم مما لا يحتاج إلى توضيح، فهو كما قال السيد مدير الجامعة : إحياء للأزهر العتيق من جديد، فالجامع الأزهر هو أبو الجامعة والجامعة بدون الأزهر يتيمة .

وهذا نص القرار :

نائب رئيس الوزراء للأوقاف وشئون الأزهـــر .

بعـــد الإطلاع على القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التى يشملها والقوانين المعدلة له .

وعلى مذكرة جامعة الأزهر المؤرخة ٢٥ / ٢ / ١٩٦٥ :

« قـــرر »

المادة الأولى :

ينشأ فى كلية الشريعة بجامعة الأزهر قسم للدراسات الإسلامية والعربية، وتكون الدراسة فيه على مثال ما كان يدرس فى القسم العالى بالجامع الأزهر، بحيث تشمل التوحيد والفقه وأصوله وعلوم البلاغة، وكافة العلوم الإسلامية والعربية، ويطلق عليه « القسم العالى للدراسات الإسلامية والعربية » .

المادة الثانية :

يكون مقر هذه الدراسات فى بناء الجامع الأزهر ويتولى التدريس فيه أساتذة الجامعة الحاليون والسابقون، ومن يرى مـــدير الجامعة ندبهم لهذا الغرض من المتخصصين فى العلوم الإسلامية والعربية .

المادة الثالثة :

يتولى مجلس الجامعة تحديد مكافآت القائمين بالتدريس فى هذا القسم والقائمين على إدارته .

المادة الرابعة :

يعين مجلس الجامعة رئيس هذا القسم ، بعد ترشيح مدير الجامعة ، وأخذ رأى شيخ الأزهر .

المادة الخامسة :

يقبل فى هذا القسم الطلبة الحاصلون على الشهادة الثانوية الأزهرية أو ما يعادلها من الشهادات الأزهرية وغيرها ، وكذلك من يستطيع متابعة هذه الدراسة من مبعوثى الدول الإسلامية بعد امتحان خاص يجريه القسم .

المادة السادسة :

توزع برامج الدراسة فى هذا القسم على أربع سنوات ، يمنح الطالب فى نهايتها شهادة تسمى « الاجازة العالية للدراسات الإسلامية والعربية » ويكون لصاحبها الحقوق التى تعطى للحاصلين على درجة الاجازة العالية للكليات والمعاهد بجامعة الأزهر .

ويجوز لخريجى هذا القسم الحاصلين على ثمانين فى المائة من مجموع الدرجات الالتحاق بأقسام الدراسات العليا فى كليات : أصول الدين والشريعة والدراسات العربية .

المادة السابعة :

تطبق قواعد الامتحانات فى كليات الجامعة على هذا القسم ، مع مراعاة ما يلى :

(ا) لا تحسب أعمال سنة للطالب فى هذا القسم .

(ب) يكون الامتحان فى هذا القسم على دورين يحدد موعد كل منهما مجلس الجامعة وللطالب الحق فى تأدية الامتحان كله أو بعضه فى أى الدورين شاء .

المادة الثامنة :

تطبق على هذا القسم قواعد التأديب الخاصة بأعضاء هيئة التدريس وبالطلبة الواردة فى قوانين الجامعة ولوائحها .

المادة التاسعة :

إلى أن يعين رئيس لهذا القسم ، وإلى أن توضع برامجه ونظم الامتحانات فيه فى اللائحة التنفيذية للقانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ بشأن إعادة تنظيم الأزهر ، يتولى مدير الجامعة إدارة هذا القسم فى نطاق القواعد الواردة فى هذا القرار .

على أن يتخذ مدير الجامعة الاجراءات اللازمة لتحقيق هذا الغرض .

المادة العاشرة :

على الجهات المختصة تنفيذ هـــذا القرار ويعمل به من تاريخ صدوره .

٢٦ من شوال سنة ١٣٨٤ هـ

٢٧ من فبراير سنة ١٩٦٥ م

نائب رئيس الوزراء

للأوقاف وشئون الأزهر

(مهندس أحمد عبده الشرباصى)

خطة الدراسة بالقسم العالى للدراسات الإسلامية والعربية :

١ — يلقى على الطلبة يومياً أربعة دروس عدا يوم الخميس ، فيلقى فيه درسان فقط ، بالنسبة للسنة الثانية ، ويجوز أن يزداد عدد الدروس إلى أربعة دروس إذا دعت الضرورة إلى ذلك وتكون هذه الزيادة بناء على طلب شيخ القسم ، وموافقة السيد مدير الجامعة .

٢ — مدة الدرس الواحد ساعة ونصف ساعة .

٣ — المواد التى تدرس فى هذا القسم هى :

(ا) فقه المذاهب ـ وتكون الدراسة فى فى السنة الرابعة مقارنة فى جميع المذاهب .

(ب) أصول الفقه .

(ج) التفسير وعلومه .

(د) الحديث ومصطلح الحديث ورجاله.

(هـ) الأخلاق والتصوف .

(و) التاريخ الإسلامى .

(ز) الأدب العربى وتاريخه .

(ح) النحو والصرف .

(ط) علوم البلاغة — البيان والمعانى والبديع .

(ى) التوحيد والعقائد .

٤ — توزيع المنهاج على السنوات الأربع .

السنة الأولى

عدد الدروس أسبوعياً ، عشرون درساً موزعة على الوجه الآتى :

فقه المذاهب :

أربعة دروس ، منها درس واحد لتاريخ التشريع وحكمته وأشهر الفقهاء ، ويدرس فى بقية الدروس كتاب من أشهر الكتب فى المذهب ، شرح الهداية للمرغيانى فى الفقه الحنفى ، وشرح المنهاج للجلال المحلى فى فقه الشافعية والشرح الكبير فى فقه المالكية وشرح الإقناع فى فقه الحنابلة .

أصول الفقه :

درسان أسبوعياً ، يدرس فيهما مختصر : شرح الورقات مع التقديم لها بمقدمة مختصرة فى أصول الفقه وماهيته .

التفسير :

درسان فى الأسبوع ، يدرس فيهما كتاب تفسير القاضى البيضاوى .

الحديث ومصطلح الحديث ورجاله :

درسان فى الأسبوع ، ويقدم الأستاذ لعلم الحديث بمقدمة ، يشرح فيها مصطلح الحديث وأهم رجاله ، ثم يدرس كتاب الزبيدى .

المنطق وأدب البحث والمناظرة :

درسان فى الأسبوع ، ويدرس كتاب شرح الخبيصى ، ويجوز أن تقرأ بعض الفصول من البصائر النصيرية ، ومبادئ المنطق الحديث .

التاريخ الإسلامى :

درسان فى الأسبوع ، يدرس فيهما كتاب نور اليقين ، وتاريخ الخلفاء الراشدين الخضرى .

الأدب العربى وتاريخه :

درسان فى الأسبوع ، ويدرس فيهما جزء من كتاب الكامل للمبرد .

النحو والصرف :

درسان فى الأسبوع ، ويدرس فيهما كتاب شرح ابن عقيل .

علوم البلاغة :

درسان فى الأسبوع ، ويدرس فيهما كتاب الإيضاح للقزوينى .

مجموع الدروس عشرون درساً فى الأسبوع .

السنة الثانية

فقه المذاهب :

أربعة دروس فى الأسبوع ، ويدرس فيها كتاب من الكتب السابق تدريسها فى السنة الأولى ، دون المتقدمة المنوه عنها فيها .

أصول الفقه :

أربعة دروس فى الأسبوع ، المستصفى للغزالى ، والموافقات للشاطبى .

التفسير :

درسان فى الأسبوع ، تكملة لمنهاج السنة الأولى .

الحديث :

درسان فى الأسبوع ، تكملة لمنهاج السنة الأولى .

المنطق :

درسان فى الأسبوع ، تكملة لمنهاج السنة الأولى .

النحو والصرف :

درسان فى الأسبوع ، تكملة لمنهاج السنة الأولى .

علوم البلاغة :

درسان فى الأسبوع ، تكملة لمنهاج السنة الأولى .

التاريخ الإسلامى :

درسان فى الأسبوع ، ويدرس فيهما تاريخ الأمم الإسلامية .

الأدب وتاريخه :

درسان فى الأسبوع ، ويدرس فيهما كتاب النوادر لأبى على القالى .

عدد الدروس : اثنان وعشرون درسا .

وبعض فصول من كتاب إحياء علوم الدين للغزالى .

التوحيد والعقائد :

درسان فى الأسبوع يدرس فيهما كتاب المسايرة للكمال بن الهمام وبعض فصول من رسالة الشيخ محمد عبده .

النحو والصرف :

درسان تكملة لمنهاج السنتين السابقتين .

علوم البلاغة :

درسان تكملة لمنهاج السنتين السابقتين .

السنة الرابعة

فقه المذاهب :

أربعة دروس ، منها ثلاثة تكملة لمنهاج السنوات السابقة ودرس للفقه المقارن .

أصول الفقه :

أربعة دروس تكملة لمنهاج السنوات السابقة .

التفسير :

درسان فى الأسبوع ، تكملة للنهاج السابق ويضاف إليه بعض المنتخبات من كشاف الزمخشرى .

الحديث :

درسان فى الأسبوع ، تكملة للنهاج السابق ، وتلقى بعض المنتخبات من صحيحى البخارى ومسلم .

الأخلاق والتصوف :

درسان فى الأسبوع ، تكملة لمنهاج السنة الثالثة .

النحو والصرف :

درسان فى الأسبوع ، تكملة لمنهاج السنوات السابقة .

علوم البلاغة :

درسان فى الأسبوع تكملة للنهاج السابق وتلقى فيه مختارات من دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة والصناعتين والعمدة لابن رشيق .

التوحيد والعقائد :

درسان فى الأسبوع ، تكملة للنهاج السابق .

عدد الدروس الأسبوعية عشرون درساً .

السنة الثالثة

فقه المذاهب :

أربعة دروس تكملة لمنهاج السنتين السابقتين .

أصول الفقه :

أربعة دروس تكملة لمنهاج السنتين السابقتين .

التفسير :

درسان تكملة لمنهاج السنتين السابقتين .

الحديث :

درسان تكملة لمنهاج السنتين السابقتين .

الأخلاق والتصوف :

درسان وتدرس فيهما الرسالة القشيرية

CHAPITRE I

L'OBLIGATION

Une doctrine morale digne de ce nom repose en définitive sur l'idée d'*obligation*. C'en est là l'assise la plus fondamentale ; c'est le pivot, l'élément nucléaire autour duquel gravite tout le système éthique, et dont l'absence anéantirait l'essence même et la s bstance de la sagesse pratique. Car, s'il n'y avait pas d'obligation, il n'y aurait pas de responsabilité, et, s'il n'y avait pas de responsabilité, il n'y aurait pas de retour de justice. D'où chaos, désordre, anarchie, non seulement de fait, mais de droit et d'après le soi-disant principe moral.

On voit dans quelle direction certains théoriciens modernes (1) tendent à nous conduire.

Comment d'ailleurs concevoir une *règle morale* sans *obligation ?* N'est-ce pas une contradiction dans les termes ?

Ou bien ferons-nous de la conscience un simple instrument d'appréciation artistique ? Mais n'est-il pas évident qu'*éthique* et *esthétique* font deux ?

(1) Par ex, Guyau, Esquisse d'une Morale sans Obligation ni Sanction.

Dans un sens plus profond, il est vrai, tout ce qui est *bien* est *beau*. L'inverse est-il également vrai ? Nul doute que l'idée de la vertu a sa beauté intrinsèque que les âmes goûtent quand même elle ne charmerait pas les yeux. Mais elle est encore quelque chose de plus. De par sa nature, elle est *agissant et motrice*, elle nous incite à agir pour en faire une réalité concrète. Tandis que, réduit à son expression la plus simple, le sentiment du *beau* n'a rien à voir avec *l'action* ; surtout quand son objet ne relève pas de notre volonté. Ainsi notre admiration pour la toute-puissance divine ou pour la grandeur de la voûte céleste ne nous porte pas à en créer d'autres exemplaires. Même lorsque l'artiste conçoit l'idée d'une œuvre réalisable, cette idée ne le *force* pas absolument à la mettre à excécution, mais elle l'*invite* gentiment à la réaliser quand il veut et s'il en a le loisir. Ou si elle s'impose aux uns, elle ne s'impose pas aux autres avec une égale nécessité. En tout cas, loin de contrarier les sentiments, elle les exprime. Ajoutez qu'un défaut commis dans une œuvre d'art a beau choquer les *sens*, il ne révolte pas les *consciences*. On n'est pas immoral pour cela.

"La Morale du Korân"

Par

Dr. Mohammad Abdullah Draz

(5)

III. Etude Comparée.

Il faut avouer que le plan initial de ce travail fut conçou sous une forme restreinte, n'envisageant que l'exposé de la loi morale telle qu'elle se dégage du Koran, et éventuellement de l'enseignement du prophète, qui en est le premier commentateur accrédité. Mais M. Louis Massignon, Professeur au Collège de France et aux Hautes Etudes à Paris, nous a exprimé son désir de voir cette étude porter en même temps sur certaines doctrines des écoles islamiques célèbres; et, à cet effet, il a bien voulu mettere à notre disposition les rares et précieux ouvrages de sa bibliothèque, tant manuscrits qu'imprimés. De son côté, M. René Le Senne, Professeur à la Faculté des Lettres de l'Université de Paris, nous a suggéré l'idée de confronter la doctrine morale telle qu'elle ressort du Koran avec certaines doctrines occidentales. Nous nous sommes conformés bien volontiers à leurs heureuses suggestions. Grâce à quoi, notre œuvre apparaît aujourd'hui sous une forme plus ample et plus considérable que'elle ne l'eût été. C'est en quelque sorte un trait d'union, où se rencontrent les pensées éthiques de l'Orient et de l'Occident dans une comparaison intelligente et impartiale, exemptée de toute idée préconçue et de tout esprit d'école, et ayant pour unique arbitre dans chaque controverse le juste bon sens, éclairé par des documents bien établis.

Ce rapprochement entre les différentes cultures, servira-t-il de prélude, dans le domaine pratique, à une plus grande compréhension et à un humanisme élargi, dans lequel les bonnes volontés de part et d'autre se tendront les mains pour le bien de l'humanité ?

Souhaitons-le.

البلد الأمين

The land made Safe

« إن أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » . (آل عمران ٩٧ - ٩٦)

(Lo : The first sanctuary appointed for mankind was that at Becca (Mecca), a bllessed place, a guidance to the peoples, wherein are plain memorials (of Allah's guidance) ; the place where Abraham stood up to pray ; and who so ever entereth it is Safe. And pilgrimage to the House is a duty unto Allah for mankind, for him wyo can find a way thither).

(From page 5)

responsibilities of motherhood. She runs hither and thither frantically searching for a place where her offspring will be safe. She delivers the kitten and forgets everything as she licks them in her joy of fulfilment. They, on theirpart, have already begun to seek the means of sustenance and blindly grope for their mother's teats. They cannot see and they connot be helped in their quest by their mother, who cannot, like a human mother, place her nipple herself in the child's mouth. As soon as they find a teat, they suck it with all their strength, as if they knew that their very life depended upon it. Certainly no human or other being on earth taught the cat and the kitten all the varied and extremely complicated vital processes, on which the continuance of life depends.(1)

(1) The Quintessence of Islam.

(From page 12)

back to the cradle of his faith, the childhood of his Prophet ; it reminds him of the struggle between the old faith of idolatry and the new one (Islam), of the overthrow of the idols, and the establishment of the worship of the one true God. And, most of all, it bids the Muslim to remember that all his brother - Mus lims are worshipping twards the same sacred spot, that he is one of a great company of believers, united by one faith, filed with the same hopes, reverencing the same thing and worshipping the same God » (1).

(1) The comment mentioned in the book of "the religion of Islam" by Dr. Ahmed-Galwash - v 11 p. 62.

TRUE RELIGION

The Holy Quran says :—

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » .

(سورة البقرة ، الآية ١٧٧)

"It is not righteousness that ye turn your faces to the east and the west; but righteous is he who believeth in Allah and the last Day and the angels and the Scripture and the Prophets; and giveth his wealth, for love of Him, to Kinsfolk and to orphans and the needy and the wayfarer and to those who ask, and to set slavesfree; and observeth proper worship and payeth the poor due., And those who keep their treaty when they make one, and the patients in tribulation and adversity and time of stress. Such are they woh are sincere. Such are the God-fearing."

The above Quranic verse has dealt fully with the essence of Religious principles. It mentions the principles of Islamic faith, Practical Devotions, the basis of social and national life and Moralities. Islam calls man to follow his original Nature as designed by God. As the Quran says.

« وأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

(سورة الروم ، الآية ٣٠)

"So set thy purpose for religion as a man by nature upright; the nature (framed) of Allah, in which He has created man. There is no altering (the law of) Allah's creation. That is the right religion, but most men know not."

We have seen in this verse that the true religion is to follow man's original nature. The Holy Quran gives a perfect constitution and an excellent guidance to mankind in all walks of life; as the Quran says :—

« وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

"This is my way, leading straight; follow it; and follow not other ways, they should scatter you from His (straight) Path."

MOHIADDIN ALWAYE

Qur'an or observed by the messenger (peace be upon him) in his Pilgrimage.

In Pilgrimage the spirit of equality and fraternity reaches its climax. It is the highest manifestation of Islamic brotherhood and democracy. Nature dictates that brothers should have one common meeting ground for exchange of love and affection. Pilgrimage fulfills this object in the most excellent way as it is universal asemblage of the brethren-in-faith, in the central place of monotheism represented by the Holy Ka'aba. Not only is there uniformity of religion among the Muslims but there is also unity of dress, of living and unity of feelings in Ihram. The demonstration of equality furnished on this occasion is so complete that it is well-nigh impossible to distinguish a servant from a master. The whole of Muslims assume one aspect and one attitude and thus the noblest sight of equality and brotherhood is witnessed in pilgrimage especially at the hill of Arafat.(1) The Pilgrimage, indeed, represents the last stage of spiritual advancement. Som fanatic opponents who oppose the religion of Islam assumed that : the pilgrimage is a sign of Muhammad's tending to idolatry, and they asked how the destryger of idols could have reconciled his conscience to the circuits of the «Ka'aba» and the veneration of the "Black Stone".

Mr. stanley Lane Pool - a prominent Orientalist explained the subject by a famous comment which threw still more light when he said : « The fact is that Muhammad perceived (1) that the worship in the « Ka'aba » would prove of real value to the religion. He swept (2) away the more idolatrous and immoral part of the ceremonies, and retained the Pilgrimage to Mecca and the old veneration of the temple for reasons of which the wisdom is impossible to dispute. He well knew(3) the consolidating effect of forming a centre to which his followers should gather, and hence he reasserted the sanctity of the «Black Stone». He ordained (4) that everywhere throughout the world the Muslim should pray facing towards the « Ka'aba » and he enjoined (5) him to make the pilgrimage thither. Mecca represents all the influence of centuries of associations. It carries the Muslim *(See page 14)*

(1) See Magazine of (God is the light of the heavens and the earth) January 1959.

(1) Was realy orderd by revelation.
(2) Allah ordered him to do that.
(3) Was orderd by Allah.
(4) By revelation.
(5) Was ordered by Allah.

AL-HAJJ (Pilgrimage)

An Islamic World Conference

By : IBRAHIM - M - EL-ASSIL

« وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعـــام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » .

"And proclaim unto mankind the pilgrimage. They will come unto thee on foot and on every lean camel; they will come from every deep ravine. That they may witness things that are of benefit to them, and mention the name of Allah on appointed days days over the beast of cattle that He hath bestowed upon them. Then eat thereof and feed therewith the poor unfortunate. Then let them make on end of their unkemptness and pay their vows and go around the ancient House".

(22/27,28,29)

« وأتموا الحج والعمرة لله »

"Perform the pilgrimage and the visit (to Mecca) for Allah".

(2/196)

The pilgrimage constitutes a religious obligation on every Muslim, once in onés lifetime. The obligation is explicity limited by possession of the necessary means and the physical possibility of getting to Mecca.

The times of pilgrimage are those defined by God in His words :

« الحج أشهر معلومات »

"The pilgrimage is in the well-known months". (2/197).

These months are Shawwal, Dhû'l Qàda, and the first ten days of Dhû'l-Hijja.

As for the lesser pilgrimage (Umra), it is not limited to any definite time of the year. Here is one of the distinctions between the Hajj and Umra — It is said that the Prophet himself performed it once is Shawwâl and another time in Dhû'l-Qa'da, though he declared that Umra in Ramadân (the month of fasting) is equal to the Hajj in gaining God's blessing-without meaning, of course, that it would replace it. The rites of Pilgrimage were retained and prescribed in the Holy

" There is no god but Allah, and Muhammad is the Messenger of God ". If one declares his servitude to the One God to the exclusion of any other thing, and if he declares that Muhammad is the Messenger of God, he will necessarily believe in the message of Muhammad. The belief in this message will, in turn, lead to the belief in what is contained therein such as the belief in the existence of God, His Attributes, His Angels, His Books, His Messengers, and the Last Day.

QUESTION :

What is the difference in Islam between faith and law ?

ANSWER :

Faith is the theoretical side of the religion and it is its aspect which is required in belief before any other thing. Faith is based upon clear and unquestionable texts from the religious recourses. The meanings of these texts are agreed upon by the believers unanimously since the beginning of the religious call. The faith was the first thing the Prophet called for, and also all other Prophets of God, as the holy Qur'an clearly indicated.

We mentioned before that the basic principles of faith are the belief in God, His Angles, His Books, His Messengers, and the last Day.

As to the law, it is the system of rules which God, the Almighty, legislated to organize the relationship between man and his Lord, and among people themselves.

The divine legislation has tow aspects : The first is the aspect of worship which is a manifestation of the sincerity of the believers in their approach to God. This aspect includes « عبادة » (Ibadat) or all kinds of worship. The other aspect is « معاملات » (Muamalat) which deals with all worldly transations of people in their daily life.

The aspect of worship includes Prayer, Almsgiving, Fasting. and Pilgrimage. Since these four kinds of worship show the sincerity of the believer, his obedience to God, and his preservation to the religion they were considered as the pillars of the Religion, as the Prophet said:

" Islam was built on five pillars: to believe that there is no god but Allah and that Muhammad is the Messenger of Allah, the Prayers, the Almsgiving, the Fasting, and the Pilgrimage for whom who can afford it ".

justice. If the good actions overweigh the evil ones, forgivness will follow, and vice versa.

e) The forgiven people will have the reward of abiding in Paradise, and the evil ones will be punished in Hell.

QUESTION :

What is the effect of the belief in the Day of Judgment in the behaviour and actions of people ?

ANSWER :

This belief has vital effect in our behaviour in this life. It is a fact that man is incited to act or not to act according to whether his action brings about benefit or harm to him in his life in this world. Those who belive in the reward and punishment in the life hereafter are not content with the actions that bring about quick results. They rather try to do good, and avoid evil, even if their action will not cause quick results. They will defend truth and do goodness for its own sake.

Those who do not believe in the Day of Judgment cannot choose the way of goodness, for they do not believe in either reward or punishment on that Day. If they are asked to give charity to the needy, they refuse, thinking that charity decreases their wealth with no apparent benfit. In this way, they commit every sin if it brings to them a cheap benefit in this life, with no consideration to accountability for actions on the Day of Judgment.

This shows clearly how important is the influence of the belief in the Day of Judgment on the behaviour of men in this life.

QUESTION :

Is it mentioned in the Holy Qur'an that the basic principles of Islam are limited to the five ones mentioned before ?

ANSWER :

These basic principles in Islamic faith are originated in Holy Qur'an when it says :

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون .
كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » .

(The Messenger believes in what has been revealed to him from his Lord, and so do the believers. They all believe in God and His Angels and His Books and His Messengers . . .) And :

« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم
الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » .

(. . . And whoever disbelieves in God and His Angels and His Books and His Messengers and the Last Day, he indeed strays far away).

To believe in all this is summed up in these words :

Is it possible, then, to imagine that such a person who writs such things is a prophet, or a promised messiah, or even an ordinary Muslim ?

QUESTION :

What is the fifth basic principle of Islam ?

ANSWER :

The fifth basic principle of Islam is the belief in the Day of Judgment. This Day is the end toward which everyone will be returned. The Holy Quran says :

« وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى ربك المنتهى » .

(And that man can have nothing but what he strives for. And that his striving will soon be seen. Then he will be rewarded for it with the fullest reward. And that to you Lord is the Goal).

The Holy Qur'an states that the life of everyone with its reward or punishment, abiding in Paradise or Hell, depend upon his course of his life in this world.

The Almighty Allah says :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

(So he who does an atom's whight of good will see it. And he who does an atom's weight of evil will see it.) And :

« فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » .

(Then as for him who is inordinate, and prefers the life of this world : Hell is surely the abode. And as for him who fears to stand before his Lord and restrains himsel from low desires : The Paradise is surely the abode).

Therefore, the belief in the Day of Judgment is the most vital force that incites man to perfection and elevation in this world in order to attain the highest grade in the hereafter. The Qur'an speaks about the kinds of enjoyment in Paradise and the ways of punishment in Hell in our wordly imagination ; because this is the only way we could understand. However, the conditions of life in the hereafter should be understood that thay are different from those of this life. We must know these important facts about the Day of Judgment :

a) On the Day of Resurrection, God will put to extinction this world and all creatures therein.

b) God will revive all people again to another life.

c) All people will be brought to account for what they did in this life.

d) The deeds of people, whether good or evil, will be weighed in

Second : The teachings of the Probhets became by time incomplete, distorted, and partly changed. Those of the Prophet Muhammad are completely preserved, clear, and unchanged.

Third : Other messages before Islam were conveyed to people according to their conditions and abilities. It was a divine lawe that

God revealed His message according to the gradation of the evolution of humanity. When humanity began to reach its perfection, the prophet Muhammad was sent with the comblete message. The Islamic law abrogated previous divine laws, and Muhammad was declared to be the last of all prophets.

QUESTION :

If the Prophet Muhammad is the last Prophet, how true is the claim that Mirza Ghulam Ahmad is a prophet ?

ANSWER :

It is historically an established fact that Qadiani movement was a product of English diplomacy which was very much disturbed by the movement of Islamic strife against English colonialism under the leadership of Imam Ahmad ibn Irfan in Indian Peninsula. The English realized that the Religion is an activating force in the lives of the Muslims. They tried to find a man who sacrifices the religion to the service of English interests. Mirza Ghulam Ahmad was their man who claimed that he is the promised mes^siah. To serve his masters, he declared the abolition of the religious war against the colonial power. He said in one of his books :

"Since my youth, I kept striving with my speech and my pen to turn the hearts of Muslims toward sincerity to English government, and to abrogate the idea of "Jihad" or religious strife which is adopted by ignorant Muslims. He said also : "The more my followers increase, the more the number of the believers in "Jihad" decreases. To believe that I am a messiah is in itself a denial to Jihad".

In a message to Englieh government, Ghulam Ahmad said : "I wrote scores of books in Arabic, Persian, and urdu, in which I declard that "Jihad" is unlawful against the English government which was kind to us. It is a duty on every Muslim to obey this government sincerely. I had my books published on my own expense and distributed them in Islamic countries.

My followers are truly sincere toward the English government, and I believe that this government is a blessing for this country".

(Then, after them, we sent Moses with Our Messages to Pharaoh and his chiefs . . .).

The message of the Prophet Muhammad (peace be upon him) is general for all mankind, until the Day of Resurrection.

QUESTION :

Are the Messengers different in their nature form other people ? .

ANSWER :

The Holy Qur'an emphasised the human nature of the Messengers in more than one verse, such as the following :

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد » .

(Say (O Muhammad) : I am only a mortal like you, it is revealed to me that your God is one God . .)

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم »

(And We sent not before you any but men to whom We sent revelation...)

The only difference betweene the Messengers and other people is that the first are immune from committing sins, and that they were chosen by God to convey His messages to humankind. This in no way means that they were above the human nature. The Qur'an addresses the Prophet Muhammad by this verse in this connection :

« وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون » .

(And We granted abiding forever to no mortal before You. If you die, will they abide ?)

In this way, the Holy Qur'an gives its decisive position regarding those who claim the godhead of some messengers, of that they are the sons of God, or they are of both natures : human and divine. Islam is strict in its declaration that the only deity is God. The Verse says :

« قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد » .

(Say : He, Allah, is One. Allah is He on Whom all depend. He begets not, nor is He begotten. And none si like Him).

QUESTION :

What is the difference between the message of the prophet Muhammad and that of other Messengers ?

ANSWER :

We indicated before, some of the charactristics of Muhammad's message. However, we give here More details in this respect :

First : The message of the prophet Muhammad is general to all humankind in all times, while the message of other Prophets are limited to their own peoples.

not make any distinction between any of them and to Him do we submit).

Islam, also required to belive that Muhammad is the last of all prophets, and that his message is for all humankind.

The Qur'an says :

« ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » .

(Muhammad is not the Father of any of Your men, but he is the Messenger of God and the seal of the Prophets . . .).

And :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » .

(. . . this day I have perfected for you your religion and completed My favour to you and chosen for you Islam as a religion . . .).

Thus, the Holy Qur'an stated that the message of the Prophet Muhammad is not only the last of all divine messages and that he is the last Prophet, but stated also that his message is general to all nations till the end of this world. We read in the Qur'an as follow :

« قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً » .

(Say : O mankind ! surely I am the Messenger of God to you all . . .).

« وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم ومن بلغ » (أنعام ١٩)

(. . . And this Quran has been revealed to me that with it I may warn you and whomsover it reaches . . .).

« وماأرسلناك إلا رحمةللعالمين » (الأنبياء ١٠٧)

(And we have not sent you but as a mercy to the worlds).

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (سبأ ٢٨)

(And we have not, sent you but as a bearer of good news and as a warner to all mankind) ,

As to other prophets, the Quran speaks about them in terms of their being sent only to their own nations. we read in the Quran :

« لقد أرسلنا نوحا إلى قومه »

(we sent Noah to his own people . . .).

« وإلى عاد أخاهم هودا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » .

(And to Ad we sent their brother Hud. He said : O my people, serve Allah, you have no god other than Him . . .).

« وإلى ثمود أخاهم صالحا » .

(And to Thamud we sent their brother Salih).

« وإلى مدين أخاهم شعيبا » .

(And to Madian We sent their orother Shuaib).

« ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه » .

The Fundamental Beliefs of Islam

(4)

By : Abdul Wadood Shalaby

What is the fourth basic principle of Islamic faith ?

It is the belief in all the Prophets and Messengers sent by God to bring forth humankind from darkness into light. As Islam required its followers to believe in the Angels, who are the agents of God to His Messengers, it is also required them to believe in the Prophets who are the Messengers of God to the mankind. Those who believe in one of the Messengers should believe in all of them, and those who disbelieve in one of them are considered disbelieving in all of them. God, the Almighty says in His Holy Book :

« إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » .

(Lo ! Those who disbelive in Allah and His Messengers and seek to make a distinction between Allah and His Messengers and say : We believe in some and disbelieve in others ; and seek to choose a way in between — Those are truly disbelievers ; and we have prepared for the disblievers an humiliating chastisment).

Therefore, Islam demanded the belief in all Messengers and what was revealed to them. The distinction in them is a disbelief in Islam. The Holy Qur'an say :

« والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما انزل من قبلك » .

(And who believe in that which has been revealed to you and that which was revealed before you . . .) And :

« قولوا آمنا بالله وماأنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

(Say : We believe in God and in that which has been revealed to us, and in that which was revealed to Abraham, and Ismael and Isaac and Jacob and the tribes, and in that which was given to Moses and Jesus, and in that which was given to the Prophets from their Lord, we do

and requirements of its environment, for it is in its own environment that it must seek its fulfilment. This adjustment is brought about in two ways, which the Qur'an refers to repeatedly and describes as "taqdir" (destiny), and "hidayat" (guidance).

Taqdir means the proper assessment of something and prescribing a certain state or condition of existence for it. Nothing can move outside the limits of that fixed state. The planets cannot leavet heir orbit; the oceans cannot leave their bed ; the birds cannot live in water and the fish cannot exist on land; the tropical plants cannot be transplanted in the polar regions and polar bear cannot survive near the Equator. That is the Destiny ordered by a wise and beneficent Maker. Every being is equipped for life within its environment, and similarly every environment is so ordered that its prducts and effects are according to fixed laws, so that there is stable adjustment between the environment and the beings which exist in it and life is not endangered.

Every step in life is subject to guidance, wether external or internal, of some kind and some degree. In the present context it is necessary to refer to only that aspect of guidance from the Rabbil-Alameen (Cherisher and Sustainer of the Universe) which enables all beings to seek and obtain the means of their sustenance without which all life would cease. This guidance first comes to every being in the form of instinctive revelation and then it lights the lamps of senses and understanding which give man the illusion of power and independence and lead him to imagine that he guides himself. Man has a very short memory ; he forgets that when he came into the world it was no human guidance which taught him to cry and make his lungs function or to seek his means of sustenance from his mother's breast. No man told him that his mother's nipple was his fountain of life and no man taught him to use his jaws so as to suck that nipple hard and thus to drink from that fountain.

This divine guidance, in the form of ins tinct, is given to every being so that life may go on. Take, for instance, a cat. It is her first experience of pregnancy and yet, without any external guidance, She knows that she is going to give birth to beings like herself and that she must not only suckle them, so that they may live, but also protect them till they are strong enough to look after themselves. As the moment of arrival of these new beings opproaches, she knows that the time has come for her to assume the

(See page 14)

entire existence turns to their aid; the Sun and the moon, the heavens and the earth, the atmosphere and the elements, it would appear, are all in attendance to help the birth of an ant or the planting of a seed that drops from a farmer's hand.

As Soon as a being comes into existence it finds that nature has already prepared the means of nourishment and sustenance for it in the quantity, form and place best suited for that being. Notwithstanding the unparalleled pain of childbearing, the mother is filled with love for the offspring which no devotion can equal; nature has thus ensured continued existence and flowering. With an irresistible passion, the mother clasps the child to her bosom, and there the child finds its nourishment in sufficient quantity and of the right quality. The milk is at first thin because the child's stomach is weak; but as its digestion grows stronger, the milk thickens till nature dries it up altogether and thus announces that the child is ready for other less scarce and more suitable nourishment. So it is with mother's love, which is essential for the continuance of existence. Instinctively, it is at its intensest when the new born is but a helpless lump; it diminishes as the child grows stronger till it dies out altogether among the animals and is reduced almost to a memory even among human beings, with their family System.

Another striking aspect of this organisation for the continuance and fulfilment of life is its universality. The same laws apply equally to all beings, whether they are human, animal, vegetable or mineral. A piece of dry stone or a fresh fragrant rose, a tender plant or a lusty child, a humble ant or a proud elephant, an insignificant insect or a mighty man, they are all subject to the same universal cycle of helpless birth, tender infancy, strong maturity, inexorable decay and again helpless death, they disintegrate or wither or die. Different words are used but they imply the same meaning; they are different garbs to clothe the same reality; the same universal process of creation, sustenance, fulfilment and continued existence.

Even more marvellous than the ordered, provision of means of sustenance is nature's organisation of the inner capacity of biengs to utilise those means of sustenance. But for such inherent and trained capacity, all the means of sustenance would be useless and life would come to an end. Nature has, therefore, so fashioned every being and endowed it with such capacities that it is fully equipped for the conditions

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

CHIEF EDITOR :

AHMAD HASSAN AL - ZAYYAT

RAMADAN 1384

ENGLISH SECTION

EDITED BY :

A. M. MOHIADDIN ALWAYE

FEBRUARY 1965

THE QURANIC CONCEPTION OF GOD - II

- Cherisher and Sustainer of all the Worlds -

BY : MOULANA ABUL KALAM AZAD

Apart from the means of existence and the quantity and proportion in which they are available, one cannot but wonder at the evident order with which the entire universe is organised. Everything appears to have been created and ordered as if with one Single object, to creat life and to enable it to attain its fulfilment to its utmost capacity. The Sun is there to serve as a lamp and oven and also to lift water and store it in the heavens to be distributed when the need arises. The Sun could not, however, perform this last function with out the help of the wind, which, with its cool breath, congeals that water into rolls of cloud. The Sun then transmits heat to those clouds and makes them melt and yield water to a neady earth. The earth is there to catch that water and, with its help, to bring forth in the right form and at the right time the treasures which it ever stores in its bosom, like a woman's milk, for the furtherance of life; to every seed it offers life and to every plant nourishment, so that they, in their turn, may be the means for continuing and sustaining life so it is with every particle of existence and in every nook and corner of the Univers. Every force Seeks strength and every Cause effect, and no sooner do they begin to strive for fulfilment than

رئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
« العنوان »
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

مدير المجلة
عبد الرحيم فوده
« بدل الاشتراك »
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الثامن والتاسع - السنة السادسة والثلاثون - شوال وذو القعدة سنة ١٣٨٤ هـ - مارس ١٩٦٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

أثر الأدب في ثورة العرب

بقلم : أحمد حسن الزيات

لا يمكن أن تكون ثورة إلا إذا سبقتها نهضة، ولا يمكن أن تكون نهضة إلا إذا بشرت بها دعوة. والدعوة إما بعثة نبي أو رسالة مصلح. وليس للنبيين من عدة إلا أدب الوحي. ولا للمصلحين من أداة إلا وحي الأدب. فالنهضة والثورة تتفقان في المصدر، وتختلفان في المظهر: النهضة انتباهة والثورة انتفاضة. النهضة علاج يوقظ الوعي الغافي، ويقوى الجسم الضعيف، والثورة جراحة تستأصل الداء، وتقي المريض النكسة. النهضة نهر فياض يتنفس بالحياة ويفيض بالخصب ويهيء البلاد للعمران، والثورة سيل جارف يحطم الحواجز، ويقتلع الصخور ويهيء الأرض للربيع. النهضة دعوة باللسان ما دام هناك عقل مستعد، والثورة جهاد بالسيف متى تغلب على العقل هوى مستبد. والنهضة والثورة قوامهما - كما قلت - واحد: هو الأدب. يكون للنهضة غذاء يحي ونوراً يهدى، كما يكون للثورة وقوداً يشعل وناراً تطهر. فإذا زالت العقبات، واستقرت الأمور، وسكنت الثورة. انفرد الأدب بالنهضة ينفخها بروحه حتى لا تضرى، وينضحها بنداه حتى لا تجف. وضراوة النهضة وجفافها معناهما المادية. والمادية

هي علة الشقاء للإنسان الحديث . أصيبت بها المدنية الأوربية حين وقعت الجفوة بينها وبين الدين ، وانقطعت الصلة بينها وبين القلب فتباعدت القربى ، وتشعبت الحاجات ، وتنافست الأطماع ، وتكاشفت الأحقاد ، واضطرب الناس في سبيل الكدح ، وألهبتهم حوافز النهم ، حتى عجزوا بخلقتهم وطبيعتهم عن مسايرة الحضارة الخالية من الروح والضمير والحب ، فسعوا بالطائرات وعملوا بالآلات ، ونظروا (بالتلسكوب) وسمعوا (بالميكرفون) . وضاقت عليهم الأرض برحبها فضربوا في الآفاق ، واختصموا على بلاد المستضعفين وحكموا بينهم السلاح ، فكانت هذه المدنية المادية أشبه بسعير الآخرة ، تنضج الجلود ولا تزهق الأرواح ليستمر الاضطراب ويتجدد العذاب ويدوم للطبيعة الخداعة هذا الثوب البراق بفضل هذا الإنسان الأحمق الذي يعمل ولا يعرف لماذا . ويسرع ولا يدرى إلى أين ! ...

لا نستطيع إذن أن نفصل بين نهضتنا والأدب ، ولا بين حضارتنا والدين اتعاظا بالفشل المروع الذي نكبت به الحضارة الغربية ، وإيمانا بأن لنا نحن العـــرب رسالة روحية اصطفانا الله لأدائها جيلا بعد جيل ، ليبقى الاتصال بين السماء والأرض ، ويدوم المدد بين الله والإنسان .

سنظل مؤمنين مصدقين بما قال الله تعالى فينا : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

وسنعتقد دائما : أن روح العروبة هو الأدب ، وحدها بعد شتات في القرن السادس ، ثم أحياها بعد ممات في القرن العشرين .

وفي هذين القرنين سجل التاريخ للعرب نهضتين عظيمتين مهدت الأولى للإسلام وكانت فتحاً لعالم جديد ، ومهدت الأخرى للسلام وستكون فاتحة لعالم أفضل .

كانت النهضة الأولى موطنها الحجاز ، ومبعثها مكة ، ذلك لأن مكة كانت في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد محطاً للقوافل التجارية الآتية من الجنوب تحمل البضائع من الهند واليمن فيبتاعها المكيون ويصرفونها في أسواق الشام ومصر ، وكانت طرق مكة الموصلة آمنة لحرمة البيت ، ومكانة قريش ، فكان تجارهم يخرجون بقوافلهم الموقرة آمنين فينزلون الأسواق ويهبطون المدن فيستفيدون بسطة في العلم ، وقوة في الفهم ، وثروة في المال وخبرة بالحياة .

وكانوا بحكم إيلافهم رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى حوران ، أشد العرب

اختلاطا بالحبشة فى الجنوب ، وبالفرس فى الشرق ، وبالروم فى الشمال ، ثم كانوا على أثارة من العلم بالكتب المنزلة باليهودية فى يثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء وبالنصرانية فى الشام ونجران والحيرة .

ذلك إلى أن مكة كانت فى الجاهلية كما هى فى الإسلام موضع البيت المحرم ، ومكان الحج المفروض فتفد إليها قبائل العرب من أقطار شبه الجزيرة يقضون المناسك ، ويتبادلون المنافع . وبفضل هذا الاجتماع الدينى العام كانت تقوم سوق عكاظ السنوية فى شهر ذى القعدة على مسافة قريبة من مكة ، فيجتمع فيها الحجيج وهم فى حمى الأشهر الحرم ، وهى المدنة العامة المقدسة ، فيبيعون ويشترون . ثم تدعو طبيعة الاجتماع إلى المقارضة بالقول والمفاوضة فى الرأى والمبادهة بالشعر والمباهاة بالفصاحة . وكان الشعراء من أمثال : النابغة والأعشى ، والخطباء من أمثال : عمرو ابن كلثوم ، وقيس بن زهير ، والكهان من أمثال : قس بن ساعدة ، وأمية بن أبى الصلت ، يقومون فى هذه السوق مقامات مشهورة للمدح والفخر والوعظ . تحرض بعض النفوس على الشر ، وتوجه بعض النفوس إلى الخير ، وتسن للفتوة العربية خلال المجد ومناهج الحمد ، وتذيع فيما تذيع وحدة الخلق والعادة واللغة والغاية .

كان أثر عكاظ فى نهضة العرب أشبه بأثر الجناز فى نهضة الإغريق . كان الإغريق يقيمون الجناز للألعاب الرياضية فى مدينة (أولمبيا) كل أربع سنين كلما حجوا معبد (جوبتير) كبير الآلهة . وكانوا يحرمون القتال على أنفسهم مدة الحج واللعب على نحو ما كان يفعل العرب فى الأشهر الحرم . ثم أصبح هذا الملعب الرياضى ميدانا لرجال الفكر والشعر والخطابة والتمثيل كان له الأثر البالغ فى ازدهار الأدب الإغريقى على الجملة .

على أن عكاظا كان أثره فى نهضة العرب والأدب أقوى ، ومداه أبعد ، فقد كان الرواة ينصرفون منه إلى أحيائهم وقرامهم ، وعلى ألسنتهم ما حفظوا من شعر ، وما سمعوا من قصص ، وما اكتسبوا من علم ، وما شهدوا من وقائع فينشرونه بين الناس فى السوامر والأندية فيتفتح الوعى ، وتنشأ المعرفة .

وهكذا اجتمعت الأسباب الطبيعية لنهضة عرب الشمال قبل الإسلام من احتشادهم فى هذه الأسواق ، واجتماعهم لأداء الحج ، واختلاطهم بأولى الحضارات والديانات من الأمم المجاورة ، واحتفالهم بقرض الشعر وتأثرهم به ، وطموحهم إلى المجد وصميهم له ، حتى كان من ثمار تلك النهضة أولئك الأبطال الأعلام الذين قبلوا الإسلام وفهموه وفقهوه ونصروه ونشروه وقاموا على أمره ، كأبى بكر وعمر وعثمان

وعلى وعمرو وخالد وسعد . وليس أدل على نضج العقلية العربية فى ذلك الحين من هؤلاء . وكلهم من أقطاب الفكر والرأى والخطابة .

ولسلطان الأدب على النفوس فى هذه النهضة كانت معجزة الإسلام الوحيدة هى البلاغة وسلاحه القاطع هو التحدى ، ثم كانت من معارك الدعوة النبوية العظمى معركة الشعر . نشبت بين حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة من شعراء الإسلام ، وبين عبد الله بن الزبعرى وأبى سفيان ، وعمرو بن العاص من شعراء الشرك ، فلما اصطدمت الدعوة بالعناد ، ووضع المشركون فى طريقها السيف ، أمر الرسول بالجهاد فكانت الثورة وكان الفتح وكان السلام ، واستمر الأدب يؤازر الثورة كما آزر النهضة ، فكان يشجع القلوب بالشعر ويحمس الجنود بالقصص ، ويريض الأمور بالخطابة ، حتى ظهر الإسلام على الدين كله وتم نوره فى الشرق كله .

هذا إجمال القول فى النهضة العربية فى القرن السادس ، مهد لها الأدب ، ومهدت هى للإسلام ، وأتم الإسلام الألفة بين القلوب والوحدة بين القبائل ، ثم أشعل الثورة على الوثنية والارستقراطية والفساد حتى طهر الأرض وحرر الناس ، ومدن العالم .

أما نهضة العرب الأخرى فى القرن العشرين وأثر الأدب فيها فهى موضوع المقال التالى .

احمد حسن الزيات

فى الإسلام

« ... الإسلام يريد أن يكون الخلفاء والولاة أمناء للناس على حقوقهم ، وأموالهم ومرافقهم ، يدبرونها عن ملأ منهم ، وعن مشاورة ومؤامرة ، ويمضونها فى غير تجبر ولا تكبر ، ولا أثرة ولا استعلاء ، ويدبرونها كذلك لا على أنهم سادة يمتازون من الناس بأى لون من ألوان الامتياز ؛ بل على أنهم قادة يثق الناس بهم ويطمئنون إليهم ، ويرونهم كفاءة للقيام على أمورهم ، فيعهدون إليهم بهذه الأمور عن رضا واختيار ، لا عن قهر أو استكراه . ثم يراجعهم فى هذه الأمور من شاء منهم أن يراجعهم فيها ، فإن استبان لهم أنهم أخطئوا كان من الحق عليهم أن يعودوا إلى الصواب ، وإن استبان لهم أنهم انحرفوا كان من الحق أن يستقيموا على الطريقة ... وعلى هذا النحو ... مضى النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا اختاره الله لجواره مضى خلفاؤه على سنته ... » . (طه حسين)

حكمة العيد وما شرع له

لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون
شيخ الجامع الأزهر

وجه الإمام الأكبر فضيلة الشيخ حسن مأمون شيخ الجامع الأزهر تلك الكلمة الطيبة للمسلمين فى استقبال عيد الفطر المبارك :

أيها المسلمون : باسم الله أحييكم ، فى اليوم الذى حياكم الله به بجعله لكم عيداً تستقبلونه بالبهجة ، والانشراح ، وتميزونه فى الزينة والبهاء ، تتزاورون فى صفاء ، وتلتقون فى ولاء ، تتهادون فى سخاء ، وتتوادون فى وفاء ، وتتعاونون فى أريحية ، وتتكافلون بالعطية ، كلكم باسم الثغر ، منطلق الأسارير ، طروب القلب ، تتجلى صفاء نفسه على جوارحه بشاشة تلاق ، وحرارة عناق ، وعذوبة تحلب ، ورائق مجاملات ، وهكذا يريدكم الله دائماً كل وقت ، كالكم سعيد ، وكل يوم فى حياتكم عيد ، ولا يتم لكم أيها المسلمون ذلك إلا إذا فهمتم حكمة العيد وما شرع له ، ورعيتم سره ، وما يقصد منه ، فالعيد فى الإسلام يختلف عن العيد فى غيره : فكرة وهدفا وحكمة ومزية . فالأعياد فى الأمم قد تكون للترفيه المجرد الذى يمكن الناس من حرية لا تنال فى جد الحياة ، وكفاح العمل ، وقد تكون لاستقبال أحداث جميلة تمر بالأمة . فيصيبها منها خير وبركة ونعمة وازدهار .

وقد تكون استعادة لذكريات سارة لها فى ضمير الأمم إكبار لما لها فى حياتها من آثار كحرية نيلت بعد نضال ، أو استقلال استخلص من احتلال ، أو نصر مؤزر على عدو ظالم ، وعدوان غاشم ، وكل هذه الأعياد ترجع لسبب واحد تجتره الأمم كل عام ، وتتكرر فكرته الواحدة على الدوام ، ولكن أعياد الإسلام تميزت عن كل الأعياد ، بتجدد دواعيها ، فمع كل عيد مبررات الفرح به والبشاشة له والانشراح فيه ، فعيد الفطر الذى تستقبلونه اليوم يمثل الجزاء العاجل لمن قام بالواجب ، فمن حق المؤمن أن يفرح فيه لأنه أطاع أمر ربه ، فكف نفسه عن الشهوات ، وجاهد عادته بالجوع لتصفو ، وبالظمأ لتشرق ، وأصلح من مضغة قلبه فكف عن محارم ربه ، واستطاع أن يعيش شهراً كاملا صائم النهار ، قائم الليل ، مهذب النفس ، مثالى السلوك ، نقى السر رقيق الجهر ، جميل الفعل ، سخى البذل يحب لأخيه ما يحبه لنفسه ، فمن حقه أن يفرح لأنه انتصر على النفس ، وتغلب على الشيطان ، وأدى الواجب كما طلب منه ، ونفذ الأمر كما وجه إليه وإذا كان هذا فرحه بفطره . فكيف تكون فرحته بلقاء ربه .

أيها المسلمون : إنكم بهذا تستطيعون أن

فجعلوا كل حياتكم إسعاداً ، وتصيروا كل أيامكم أعياداً ، وذلكم يكون باستدامة طاعة ربكم ، والمجاهدة الدائمة لنفوسكم حتى تجدوا بعد كل طاعة فرحة ، ومع كل امتثال سروراً ، وعند كل جهاد عزة ، ومع كل كماح راحة ، وبهذا تكونون أهلا لفروضات الله الدائمة ، وتجلياته المتتابعة وتصيرون أحقاء بمودة الله ، جديرين بمعيته في كل الشئون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أيها المسلمون : لقد عرفتم في رمضان تعالى الإيمان ، فلا تضلوا منه ، ولا ترجعوا عنه وإلا فغيرة الله على حدوده ومحارمه في كل زمان ، ولا يتميز بها رمضان عن غير رمضان ، فاستبقوا فضائله في نفوسكم ، وآثاره في سلوككم واجعلوا منه رياضة على التقوى طيلة عامكم فقد كرره الله كل عام ليجدد لليقين طاقته ، ويقوى للمؤمن عزيمته ، وإياكم أن تفسدوا على نفوسكم حكمة الله في العيد فتجعلوا فرحه لهوا ، وبشره لعبا ، وزينته تفاخراً ، وإحسانه إساءة وأشعروا بفرحة العيد كل بائس ، وأدخلوا نعمة الأمل على كل يائس ، ولا تحوجوا فقيراً إلى ذل مسألة ، ولا تلجئوه إلى خجل مظهره وصلوا الأرحام التي قال فيها الرحمن : من وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته ، وكونوا للأيتام أبا بالإحسان إليهم وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم ، وليجد المكدودون عندكم راحتهم ، والضعفاء عندكم قوتهم ، واجعلوا شكر نعمة الله عليكم بركم بعياله ، وبهذا تنعمون بمجتمع سعيد فاضل متكافل متكامل يتوجه بكل طاقاته لأمجاد أمته وإعزاز ملته .

أيها المسلمون : إن هذا العيد لا يدرك فرحته ، ولا يحس البشر به إلا من قدم على هذا الجهاد من الصيام الحق ، والقيام الصدق والسلوك الورع ، أما من أسرف على نفسه وخالف عن أمر ربه فإنه يستقبله بحسرة ولا تغني ، وندم ولا يفيد ، تنقبض نفسه حين يرى انبساط المعاصي ، وتكون مظاهر السرور في عينيه قذى ونغمات اللهو في أذنيه جنادل فيندك كبرياؤه ، ويحتقر نفسه ، وهكذا يكون ذل المعصية أمام عز الطاعة وخزى الضلال أمام جلال الامتثال ، وتخاذل البغى أمام شموخ الهدى .

أيها المسلمون : قبل الله صيامكم وقيامكم ، وألزمكم كلمة التقوى ، وأصلح منكم العلن والنجوى ، وحياكم بتحياته الطيبات المباركات ، وجعل في وقوفكم بين يديه لصلاة العيد قرة عينكم ، وانشراح صدوركم وجعل تكبيركم له شارة حياتكم ، ورمز جهادكم فادعوه وأنتم ساجدون له : أن يوفق المسلمين في جميع البقاع ، إلى أحسن القول وخير العمل ، وأن يحقق لهم كل ما يصبون إليه من أمل ، وأن يمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وأن يوفق قادتهم إلى جمع كلمتهم حتى يتغلبوا على الأحداث ويردوا سهام أعدائهم إلى نحورهم .

وختاما أهنئكم أيها المسلمون في كل قطر وكل عام وأنتم بخير ؟

هيّا إلى العيد الأكبر

للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود

فى يوم من الأيام استدعى سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ابنه ليسير معه قليلا ، وبينما هما سائران ، خاطبه فى صراحة صريحة قائلا :

« يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى » .

فى هذا الإقليم الذى كانت الوالدة الحنون ، تسعى فيه محزونة حيرى مشفقة تبحث عن قطرات من الماء ، تحيى بها نفس هذا الغلام - الذى كان طفلا إذ ذاك - حتى لا يموت بين يديها ظمأ ..

فى هذا الإقليم الذى أنقذ الله الطفل وأمه فيه فتفجر الماء نبعا صافيا : فشرب الطفل ، وشربت أمه وحمدت الله وشكرته .

فى هذا الإقليم ، حاولت الأم جاهدة أن تحيى ابنها ، وفى هذا المكان نفسه حاول الأب ذبحه استجابة للنداء فى الرؤيا .

سبحانك ربى !!! أتنقذه صغيراً ، وتستبقيه قرة عين والديه : حتى تغلغلت محبته فى القلوب ، وغمرت كيان والديه : تأمر بذبحه ، أشد ما يكون الوالدان حرصا عليه ، ومحبة له ؟

وما ذنب هذا الغلام البرىء ؟

وما ذنب أمه ؟

وماذا جنى والده ، يختطف منه وقد أتاه على كبر ، وبشر به من لدن الله ، بشر به من مع وصفه بالحلم ، والحلم سيد الأخلاق ، فقال تعالى عنه : « وبشرناه بغلام حليم » .

إن حكمة الله فوق كل حكمة ، وتقديره ، سبحانه ، فوق كل تقدير . وما ذلك الأمر فى الرؤيا إلا أسلوب من أساليبه ، سبحانه ، فى التربية : يخص به الذين اصطفى من عباده : « إن الله اصطفى آدم ، ونوحا ، وآل إبراهيم .... » .

وهذا الاصطفاء يقتضى صفاء وتصفية وإسلاما كاملا لله سبحانه ، ولقد أسلم إبراهيم عليه السلام ، نفسه وقلبه ، وجمع كيانه لله سبحانه ، ونجح نجاحا كاملا ، فيما اختبره الله به من ألا يشرك مع الله أحداً فى الحب حتى ولو كان ابنه ؛ حتى ولو كان هذا الابن أتى على لهفة وشوق إليه .

ها هو ذا يفرد الله بالمحبة ، ويستعد

التضحية بابنه ، لا يتردد ، ولا يتباطأ . وإذا كان قد قال لابنه : « فانظر ماذا ترى ؟ » .

فما كان ذلك تخييرا للابن ، وإنما هو رغبة من الشيخ المؤمن فى أن يستجيب ابنه : طوعا لا كرها : فيكون الثواب والجزاء الحسن . لقد استجاب الشيخ وأسلم وجهه لله ، فكان بذلك مسلما . فما هو موقف الابن ؟

لقد حقق الابن أمل والده ، فأجاب فى غير تردد ولا تباطؤ : « يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » .

لقد أسلم الابن : أسلم وجهه لله ، طمعا فى رضائه . وأحب رضاء الله ، فوق حبه لنفسه ، وللحياة الدنيا بأسرها ...

فلما أسلما إسلاما خالصا صافيا مطلقا : جاء الفداء من الله ، سبحانه ، فناداه :

« يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا : إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم » .

هذا الإسلام مهما إنما هو لله سبحانه وتعالى وحده ؛ هذا هو الإسلام الذى استتبع الفداء ؛ هذا هو الإسلام الذى يستتبع حتما الفداء فى كل عصر ، وفى كل مصر ، هذا هو الإسلام الذى ينطوى فيه الإنسان إنطواءاً كليا تحت الراية الإلهية فيكون فى حماية الله ورعايته ، وعنايته : هو الذى يسجل بحفل تذبح فيه الذباح يأكل منها البائس والفقير ، وتصنع منها موائد شهية تقدم للآكلين شكراً لله على هذه الهداية ؛ وهذا التوفيق الذى كانت نتيجته : « الإسلام » .

إن هذا الدين الذى كمل فى القلب نضره بالنور ، وهذه النعمة التى أتمها الله ، وهذا الإسلام الذى رضيه سبحانه ... إن كل ذلك : لا بد له من عيد بل أعياد تعبر عن الشكر ، وعن الحمد ، وبمقدار قرب الإنسان من معنى الإسلام يكون عيده الأكبر . ولكل إنسان عيده بمقدار إخلاصه لله ، وخشيته منه ، وخضوعه له ، وعبوديته الصافية أو المشوبة .

ما هى الوسيلة الكبرى التى تنتهى بها إلى العيد الأكبر ؟ .

إن من بين الوسائل الكثيرة التى بينها الله لتنتهى بالإنسان إلى الإسلام ... ثم إلى العيد - إن أسلم حقا - وسيلة كبرى هى : « الحج » .

وما من شك فى أن العيد هو أولا وبالذات ، لحجاج بيت الله الكرام ، وهو على الخصوص لمن أسلم - فى الحج - إسلاما صحيحا منهم ؛ وبمقدار تصحيح الدين ، وتصحيح الإسلام : يكون العيد .

وإذا كانت الأمة الإسلامية كلها :

تحتفل فرحا بالعيد ، فإن ذلك : إنما هو احتفال بهذه النخبة النادرة القليلة ، التى كمل دينها ، وتمت نعمة الله عليها ، وغمرها نور الإسلام .

أما هذه الوسيلة الكبرى للإسلام الخالص ، وبالتالى العيد - أعنى الحج - فإنها تبدأ أول ما تبدأ بالتوبة النصوح الصادقة ، ودعاء الله أن يجعل حجه خالصا لوجهه الكريم . ومنذ هذه اللحظة يقطع صلته بالماضى الآثم ليبدأ مستقبلا صالحا كريما . وتبدأ شعائر الله فى الحج بالإحرام : فيغتسل الإنسان ، وينوى غسل الإحرام ، ويتم له بذلك الاغتسال الباطنى بالتوبة النصوح والاغتسال الظاهرى ، إنه أصبح من المتطهرين ، وتثبيتا لذلك وعلامة على انقطاع صلته بالماضى ، وتجردا إلى الله : يفارق الثياب المخيطة ، ويلبس ثياب الإحرام : بيضاء ، ناصعة ، ثم ينوى (الإحرام بالحج) ومعنى ذلك : أنه أصبح خالصا لله ، مستجيبا إلى ندائه الكريم بأن : لا يتجه إلى سواه ، فينطق فؤاده ، وتنطق جوارحه : (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك : إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك) هاهو ذا الآن قد لبى : أى : استجاب إلى الله ، ونفى الشريك عنه سبحانه وقصر الحمد عليه واستقر فى كيانه : أن ما به من نعمة فمن الله ؛ وأن الملك كله لله ، والدنيا والآخرة ، الملك والملكوت له سبحانه : لا شريك له . هذه التلبية هى شعاره الدائم ؛ هى سنته المستقرة ، ينطق بها إذا صعد ؛ وينطق بها إذا هبط ؛ وينطق بها إذا ركب ؛ وينطق بها إذا نزل ؛ إنها ذكر فى كل لحظة ، فتصبح بذلك يقينا تاما .

حتى إذا ما انتهت به الأسفار إلى بيت الله الحرام ، ودخل المسجد قال هذه الكلمات التى تعبر عن التلبية بصورة أخرى وهى : « بسم الله ، وبالله ، ومن الله ، وإلى الله ، وفى سبيل الله ، وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ويبدأ الطواف بيسم الله ، والله أكبر ، ها هو ذا يطوف بالبيت راجيا أن ينال نظرة من رب البيت : لعل الباب يفتح ، ولعل الأستار ترتفع ، لعل الأقنعة تتكشف فتزول ، لعل نسمات الرحمة تهب ، لعل رب البيت يأذن بالدخول ، لعل الرضا الكريم يغمر الأجواء والآفاق ، لعل الله يتقبل : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

ويبدأ السعى بين الصفا والمروة ، يبدأ بيسم الله ، والله أكبر : إنه يسعى امتثالا لأمر الله ، ويسعى وهو متذكر تلك السيدة الكريمة التى كانت تسعى فى طلب الماء رحمة

بابها : إنه يسعى طلبا للنبع الصافى الذى يتفجر من قلبه رحمة وإخلاصا : إنه يسعى ليشرب من الكأس التى يشرب منها الأبرار إنه يسعى ليشرب من العين التى يشرب بها عباد الله ، إنه يسعى فيمتلىء قلبه بالرحمة ، فيجد العين الصافية التى وجدها كل من حقق هدف الرسالة المحمدية « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ويجدها كل من قبل هدية الله إلى العالم ، وهدية الله إلى العالم : إنما هى سيدنا المصطفى صلوات الله عليه ، ورحمته وبركاته ، فقد قال :

(إنما أنا رحمة مهداة) .

إنه : صلوات الله عليه يمتزج بهذه الصفة الكريمة فيكون معها وحدة ، فهو رحمة ، وهو رحمة مهداة ، قبلها من قبلها : ففاز فى الدنيا والآخرة :

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا » .

(والحج عرفة) كما يقول صلوات الله عليه ، وفى عرفة تجتمع الأرواح وقد تزكت بالتوبة والإحرام ، والطواف ، والسعى : تتجه إلى الله فى ضراعة . وتدعوه سبحانه ، فى خضوع وتقف شاخصة ببصرها إلى السماء فى خشوع طالبة من الله الرحمة العامة الشاملة ، والرحمة الخاصة المنجية .

إن ربى قريب مجيب . إن ربى رحيم ودود . وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون .

أما بعد : فإن أعمال الحج فى أشهر الحج : تنتهى بهذه الصورة الرائعة صورة العزم المصمم على الابتعاد المطلق عن الإثم والمعصية ممثلة هذه الصورة فى رجم إبليس مصدر الشر والإثم : إن الحج ينتهى بقتل إبليس بالرجم - أو بتعبير أدق - ينتهى بقتل الشر حتى لا يتسلل مرة أخرى إلى النفس .

وأما بعد : فيقول صلوات الله عليه :

(من حج فلم يرفث ، ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه) فإذا ما خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه : استحق أن يحتفل بالعيد ، وأن يهنأ بالعيد ... وها نحن أولاء قد عرفنا الطريق إلى العيد فهيا بنا نسلكه أيها المسلمون « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » .

(اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا) .

وبالله التوفيق ؟

عبد الحليم محمود

التثليث والصلب والقيامة والفداء
ونظائرها في الفلسفات والأديان السابقة

للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

ترجع أم الأصول التي تقوم عليها المسيحية الحاضرة إلى العقائد الآتية :

١ — ألوهية المسيح ، وقد استقرت هذه العقيدة في المسيحية بعد مجمع نيقية الأول الذي انعقد بأمر قسطنطين أمبراطور الرومان سنة ٣٢٥ ميلادية ، وذلك أن الفرق المسيحية قبل هذا المجمع لم تكن على رأى واحد فيما يتعلق بشخصية المسيح ، فبعضها كان يقول بألوهيته ، وبعضها كان يقول ببشريته ، وكان على رأس الفرق القائلة ببشريته أتباع أريوس ، وفي سنة ٣٢٥ ميلادية أمر قسطنطين أمبراطور الرومان بأن يعقد مجمع « مسكوني » أي مجمع يضم ممثلين لجميع الكنائس في العالم المسيحي ، يفصل أمر الخلاف بين أريوس ومعارضيه ، ويتخذ ما ينبغي اتخاذه من قرارات أخرى في شئون العقيدة والشريعة ، فاجتمع في نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة ، ولكنهم لم يستطيعوا الإجماع على رأى ، ويظهر أن قسطنطين كان يجنح للرأى القائل بألوهية المسيح ؛ فاختار من بين المجتمعين ثمانية عشر وثلثمائة من أشد أنصار هذا المذهب ، وألف منهم مجلساً خاصاً ، وعهد إليهم بأمر الفصل في هذا الخلاف واتخاذ ما يرون اتخاذه من قرارات أخرى في الشئون الدينية ، على أن تصبح قراراتهم مذهباً رسمياً يعتنقه جميع المسيحيين فانتهوا إلى عدة قرارات كان من أهمها القرار الخاص بألوهية المسيح وتكفير أريوس وحرمانه وطرده من هيئة الكهنوت : (فقد كان أريوس حينئذ قسيساً بكنيسة الإسكندرية) ، وتكفير كل من يذهب إلى أن المسيح إنسان وحرق جميع الكتب التي تتضمن هذا الرأى وتحريم قراءتها .

وكان من أشد أنصار هذا القرار والداعين إليه بطريرك الإسكندرية

ومنذ ذلك الحين أصبح هذا الرأى عقيدة رسمية للدين المسيحي ، وأخذت المعتقدات الأخرى تنقرض شيئاً فشيئاً تحت تأثير ماكان يتعرض له أصحابها من اضطهاد وعذاب ، حتى انقرضت جميعها فلا توجد أية فرقة مسيحية لا تقول بألوهية المسيح . فهم الآن يعتقدون : أن الابن أو الكلمة أصل إلاهي ، وأن هذا الأصل قد تجسد في جسم المسيح ، وكل ما بينهم من خلاف في الوقت

الحاضر فى هذا الصدد ترجع إلى فهم هذا التجسد وما أضافه إلى الطبيعة الإلاهية الأولى ، فبعضهم يذهب إلى أن المسيح ليست له إلا طبيعة واحده ومشيئة واحدة ، وهما الطبيعة الإلاهية والمشيئة الإلهية ، وأن هذا التجسد لم يضف شيئا إليه ؛ وهذا هو رأى ثلاثة كنائس أرثوذكسية وهى : الكنيسة المصرية المرقسية ، والكنيسة السريانية والكنيسة الأرمنية . وبعضهم يذهب إلى أن المسيح له طبيعتان ، طبيعة إلهية ، وطبعية إنسانية ، أى اجتمع فيه اللاهوت والناسوت بحسب تعبيرهم ، ولكن ليست له إلا مشيئة واحدة وهى المشيئة الإلاهية ، لالتقاء الطبيعتين فى أقنوم إلهى واحد ؛ وهو الابن أو الكلمة ؛ وهذا هو رأى كنيسة صغيرة هى كنيسة الموارنة (أتباع يوحنا مارون) بلبنان ، أما ما عدا هؤلاء وأولئك من المسيحيين فيذهبون إلى أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين ؛ فهو يعمل ما يشبه الإله أن يعمل فى طبيعته ، وما يشبه الإنسان أن يعمل فى طبيعته ؛ وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتها بمشيئتين غير متضادتين .

٢ — ألوهية روح القدس : وقد استقرت هذه العقيدة فى المسيحية بعد المجمع القسطنطيني الأول ، وذلك أن الفرق المسيحية قبل هذا المجمع لم تكن على رأى واحد فيما يتعلق بطبيعة روح القدس ، فبعضها كان يذهب إلى القول بأنه حادث مخلوق .

وكان من أشهر الفرق التى ذهبت إلى القول بحدوثه أتباع مقدونيوس ، الذى كان بطريرك القسطنطينية فى القرن الرابع الميلادى فاجتمع من أجل ذلك فى القسطنطينية سنة ٣٨١م مجمع آخر اشتهر باسم المجمع القسطنطيني الأول ، وكان عدد أعضائه مائة وخمسين أسقفا ، وانتهى إلى إقرار الرأى القائل بألوهية روح القدس ، وكانت كنيسة الاسكندرية من أشد الكنائس تعصباً لهذا الرأى ، كما كانت من أشدها تعصباً للرأى القائل بألوهية المسيح .

وكان لأقوال بطريرك الاسكندرية والحجج التى أدلى بها فى هذا المجمع أثر كبير فى توجيهه إلى هذا القرار ، ويصف ذلك ابن البطريق (وهو مسيحى من رجال القرن الثالث الهجرى) فيقول : « قال تيموثاوس بطريرك الاسكندرية فى هذا المجمع : ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله ؛ وليس روح الله شيئا غير حياته ؛ فإذا قلنا : إن روح القدس مخلوق ، فقد قلنا : إن روح الله مخلوق ؛ وإذا قلنا : إن روح الله مخلوق فقد قلنا : إن حياته مخلوقة ؛ وإذا قلنا : إن حياته مخلوقة ؛ فقد زعمنا أنه غير حى ؛ وإذا زعمنا أنه غير حى ، فقد كفرنا ؛ ومن كفر به وجب عليه اللعن ، واتفقوا على لعن مقدونيوس

فلعنوه هو وأشياعه ... وبذلك زادوا في الأمانة التي وضعها الثلثمائة والثمانية عشر أسقفا الذين اجتمعوا في نيقية - الإيمان بروح القدس الرب المحيي .

وقد أصبح هذا الرأي عقيدة رسمية للدين المسيحي ، وأخذت المذاهب القائلة بحدوث روح القدس تنقرض شيئا فشيئا حتى انقرضت جميعها ، فلا توجد الآن أية فرقة مسيحية لا تقول بألوهية روح القدس ، وكل ما بينها من خلاف في الوقت الحاضر في هذا الصدد يرجع إلى تحديد الأصل الإلاهي الذي انبثق منه روح القدس ، فالكنيسة الغربية الكاثوليكية التي يرأسها بابوات روما تذهب إلى القول بأن : روح القدس منبثق عن الأب والابن معا ؛ بينما تذهب الكنيسة الشرقية اليونانية التي يرأسها بطاركة القسطنطينية (ويطلق عليها كذلك كنيسة الروم الأرثوذكس) إلى أنه منبثق عن الأب وحده .

٣ — عقيدة التثليث ، وبعد إقرار ألوهية المسيح وألوهية روح القدس أصبح الإله في المسيحية عبارة عن ثلاثة أقانيم أي أصول ، وهي الآب (أو الأصل) والابن (أو الكلمة) وروح القدس ، والأقنوم الثاني : وهو الابن أو الكلمة هو الذي تجسد في المسيح من التقاء روح القدس بمريم العذراء ، وهذه الأقانيم قديمة كلها وإن كان بعضها منبثقا عن بعض ، وذلك أن انبثاق بعضها عن بعض ليس انبثاق توالد ، بل انبثاق تلازم كانبثاق الضوء عن الشمس .

٤ — صلب المسيح وقيامته ورفعه : يجمع المسيحيون في الوقت الحاضر وتجمع أناجيلهم الأربعة المعتمدة لديهم ، على أن المسيح قد تآمر عليه الفريسيون من اليهود والحكام من الرومان ، وساعدهم في مؤامرتهم هذه يهوذا الإسخريوطي ، الذي كان أحد حواري المسيح الاثنى عشر ، ثم خان عهده وأرشد هؤلاء إلى مكانه وإلى شخصه ، وأن هذه المؤامرة قد انتهت بالحكم على المسيح بالإعدام صلبا فصلب ثم دفن ، وأنه قام من قبره بعد ثلاثة أيام من دفنه (وهذا هو مايعبر عنه المسيحيون بالقيامة ، ويحتفلون به في عيد يسمى عيد القيامة) وأنه ظل بعد ذلك مع حوارييه المسيحيين وتلاميذه وأنصاره أربعين يوما يعلمهم ويرشدهم ، ثم رفع إلى السماء وجلس على يمين أبيه ، يصرف شئون العالم ، وأنه سيتولى هو يوم القيامة حساب الناس على ما فعلوه في الحياة الدنيا .

٥ — عقيدة الفداء أو الخلاص : يجمع المسيحيون في الوقت الحاضر وتجمع أناجيلهم الأربعة المعتمدة لديهم أن المسيح قد صلب ليكفر بذلك عن الخطيئة الأزلية ، وهي الخطيئة التي ارتكبها آدم إذ عصى ربه وأكل من الشجرة ، فانتقلت الخطيئة بطريق

الوراثة إلى جميع نسله ، وكانت ستظل عالقة بهم إلى يوم يبعثون لولا أن افتدام المسيح بدمه ففى صلبه كان الخلاص للآدميين .

• • •

وغنى عن البيان أن هذه العقائد دخيلة فى المسيحية ويظهر أنها قد وفدت إليها من فلسفات قديمة ومن رواسب أديان ومعتقدات كانت سائدة فى البلاد التى انتشرت فيها المسيحية والتى احتك بأهلها المسيحيون ومن أهم الفلسفات والأديان التى تتضمن أشباها ر نظائر لهذه العقائد ويحتمل أن تكون المسيحيه قد تأثرت بها كلها أو بعضها الفلسفة الأفلاطونية والفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، والديانة البرهمية والديانة ، البوذية والديانة اليونانية القديمة .

١ — أما الفلسفة الأفلاطونية . فكانت تذهب بصدد الألوهية إلى أن الله تعالى قد وضع بينه وبين العالم وسيطين يعتبران دونه وخارجين عنه ، وعلى نحو ما داخلين فيه ، أى تتضمنهما ذاته ، صادرين عنه ، دونه فى الكمال ، وبذلك أصبح ممكنا ، عن طريق هذين الوسيطين ، أن يصدر عن الله الواحد الكامل - البرىء من التغير - هذا العالم الكثير الناقص المتغير ، وأول هذين الوسيطين العقل وثانيهما الروح الإلاهى . وبذلك أصبح الإله فى نظر أفلاطون ثلاثة أصول أو أقانيم : أولها : هو مصدر كل كمال ويحوى فى وحدته كل الكمالات ، وهو يقابل مايدعوه المسيحيون الآب ؛ والثانى : هو العقل : وهو يقابل ما يدعوه المسيحيون الابن أو الكلمة ؛ والثالث : هو الروح الإلهى : وهو ما يدعوه المسيحيون روح القدس .

فالتشابه ، بل التوافق ، واضح بين أقانيم أفلاطون والأقانيم المسيحية فى طبيعتها ، بل فى أسمائها نفسها . وكل ما بينهما من فرق ينحصر فى أن أقانيم أفلاطون ليست فى نظره سواء فى الجوهر والرتبة ؛ بينما هى متساوية عند المسيحيين ؛ فالابن الذى يتولد من الآب لا يمكن فى نظرهم أن يكون أدنى كمالا منه ، وإلا صار من طبيعة الكامل أن يصدر اضطرارا عنه غير الكامل ، وهذا حط من رتبته ؛ وكذلك روح القدس فهو عندهم مساو للآب والابن . ومعروف أن أفلاطون قد ظهر قبل المسيح بأكثر من أربعة قرون (٤٢٩ - ٣٤٧ قبل الميلاد) ، وأن نظريته هذه كانت سائدة لدى اليونان والرومان الذين انتشر بينهم الدين المسيحى . فكأنهم لم يعتنقوا هذا الدين إلا بعد أن طوعوه لتفكيرهم وصبغوه بألوان فلسفاتهم .

٢ — الفلسفة الأفلاطونية الحديثة : وذلك أن أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠ م) زعيم مدرسة الإسكندرية ، وهى المدرسة التى تنسب إليها الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، كان يرى فيما يتعلق بالكون ومنشئه أن الله هو منشئ الأشياء لا يتصف بوصف من

أوصاف الحوادث ، فليس بجوهر ولا عرض، وليس فكراً كفكرنا ، ولا إرادة كإرادتنا ، يتصف بكل كمال يليق به ، ويفيض على كل الأشياء نعمة الوجود ، ولا يحتاج هو إلى موجد ؛ وأن أول شيء صدر عن هذا المنشئ هو العقل ، وقد صدر عنه كأنه يتولد منه ، ولهذا العقل قوة الإنتاج ، ولكن ليس كمن يولد عنه ؛ ومن العقل تنبثق الروح التى هى وحدة الأرواح ، وعن هذا الثالوث يصدر كل شيء ، ومنه يتولد كل شيء .

فوجه الشبه واضح كل الوضوح بين هذا المذهب من جهة وعقيدة التثليث التى استقرت عليها المسيحية من جهة أخرى . وإذا لاحظنا أن هذا المذهب كان منتشراً ومعروفا قبل مجمع نيقية بأمد طويل ، وأنه كان المذهب الفلسفى لمدرسة الإسكندرية ، وأن بطريارك الإسكندرية الذى نشأ فى البيئة التى ساد فيها هذا المذهب كان من أكبر المدافعين عن عقيدة التثليث فى مجمع نيقية وفى المجمع القسطنطيني الأول كما تقدم بيان ذلك ، إذا لاحظنا هذا كله ترجح الاحتمال الذى ذكرناه : وهو أنه يظهر أن العقيدة المسيحية الطارئة قد نشأت عن تأثر بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة.

٣ ـــ الديانة البرهمية فى أوضاعها الأخيرة: وذلك أن الديانة البرهمية قد استقرت أوضاعها فى آخر الأمر على الاعتقاد بتثليث الآلهة وصلب الإله وتقديم نفسه ذبيحة لتخليص الإنسانية من خطاياها ، أى على العقائد نفسها التى استقر عليها الدين المسيحى ، غير أن ثالوثها يختلف عن ثالوث المسيحيين فى نشأة كل أقنوم من أقانيمه وعمله وصفاته ، ونظريتها فى الخلاص والفداء تختلف كذلك بعض الاختلاف عن نظرية المسيحيين .

وذلك أنها تقرر أن الإله براهما كان قبل الوجود ، وأنه خلق العالم وسمى نفسه الخالق ثم انبثق الإله سيفا ، وهو الإله المدمر الموكل بالخراب والفناء ، ولو ترك هذا الإله وشأنه لأفنى السماوات والأرض ومن فيهن . ولهذا انبثق من براهما إله ثالث حافظ يحدد هو الإله فيشنو أو كريشنا . وهذا الإله الأخير قد خلص بنى الإنسان بتقديم نفسه للصليب فداء عنهم . ومن ثم يصورونه مصلوبا مثقوب اليدين والرجلين ، وعلى قميصه صورة قلب إنسان معلق

فوجوه الشبه واضحة كل الوضوح بين هذه العقائد ، وما استقر عليه الدين المسيحى . فإذا لاحظنا أن البرهمية قد انتشرت فى بلاد الهند وغيرها قبل ظهور المسيحية بنحو خمسة عشر قرنا ، وأن عقائدها قد تركت آثاراً واضحة فى كثير من الأديان والنحل اللاحقة لها فى مختلف أرجاء العالم ، ترجح ما ذكرناه من احتمال تأثر المسيحية الطارئة فى عقائد التثليث والصلب والفداء بالدين البرهمى القديم .

٤ — الديانة البوذية فى أوضاعها الأخيرة : وذلك أن الديانة البوذية قد استقرت كذلك فى آخر الأمر على الاعتقاد بألوهية بوذا ، وأنه الابن الوحيد ، وأنه تجسد فى الناسوت وقدم نفسه ذبيحة ليكفر عن ذنوب البشر ، ومن ثم يسمونه : المسيح والمخلص والابن .

ولا يخفى ما بين هذه العقائد ونظائرها فى المسيحية من تطابق يكاد يكون كاملا . وهذا يرجح احتمال تأثر المسيحية الطارئة فى عقائد الابن والصلب والخلاص بالديانة البوذية التى ظهرت قبلها بنحو خمسة قرون .

٥ — الديانة اليونانية القديمة : تزعم الأساطير اليونانية أن الإله بروميثيه (بروميثيوس) هو إله النار وخالق الإنسان وحاميه ومؤسس حضارته وأنه صلب فى سبيله وذلك أنه لما طرده رئيس الآلهة جوبتير من السماء وهبط إلى الأرض وقف حياته على العناية ببنى الإنسان ، فعدل صورهم ، وأصلح حواسهم ، ووهبهم العقل والتفكير وعلمهم مالم يكونوا يعلمون . ورأى أن النار تعوزهم فاختلسها من السماء وأهداها لهم ؛ فأصبحت حظاً مشاعا بينهم وبين الآلهة ، وكانت مصدر حضارتهم ، وقد أثارت فعلته هذه نقمة جوبيتير فصلبه على صخرة فى جبال القوقاز . ولكن بروميثيه — وهو الإله قد كتب له الخلود — لم يكن الصلب بمستطيع إهلاكه . فلم يسع جوبيتير إلا أن يفكر فى عذاب يلازمه أبد الآبدين . ووكل تنفيذ ذلك إلى ابنه هيفيستوس وإلى نسر من النسور الجارحة . أما هيفيستوس فقد كلف عمل قطع محماة من الحديد يغرسها الفينة بعد الفينة فى بروميثيه . وأما النسر فقد كلف أن ينقض على بروميثيه فيمزق أحشاءه بمخالبه ، ينهش كبده ؛ فإذا ما بدل كبدا وأحشاء أخرى عاد إليه النسر ضحى اليوم التالى فكرر فعلته معه ... وهكذا دواليك حتى قيض له الإله هيركول (هرقل) فكانت قيامته ونجاته على يديه .

ولا يخفى ما بين هذه الأسطورة وأسطورة صلب المسيح من اتفاق فى كثير من العناصر . فجبل القوقاز الذى صلب فيه بروميثيه يقابل جلجثه (أو الكالفير) الذى تقول أناجيلهم : أن المسيح قد صلب فيه ؛ وصلب بروميثيه فى سبيل بنى الإنسان يقابله ما يقرر المسيحيون من صلب المسيح لتخلص بنى آدم من الخطيئة الأزلية ... الخ — وقد حاول الفلاسفة من آباء الكنيسة أن يبرروا هذا التشابه العجيب بين أسطورة كانت رائدة فى عقائد اليونان قبل المسيحية بعدة قرون وما يقولونه فى صدد المسيح ، فذهبوا إلى أن أسطورة بروميثيه ليست إلى مظهرا من إرهاصات المسيح وتبشيرا بمجىء المخلص للعالم ألهمت به الوثنية اليونانية إلهاما .

دكتور على عبد الواحد وافى

التطورات التشريعية للطلاق

للأستاذ محمد محمد المدني

أحكام أخرى تتصل بالطلاق

٧ — (ختام البحث)

بقى بعد ما ذكرناه فى الفصول السابقة أحكام أخر من شأنها أن تحد من كثرة الطلاق ، وأهمها :

١ - إيقاع الطلاق أمام القاضى أو بعد إذنه :

١ — الصيغ التى اعتبرها الشارع لا بد أن تؤدى مقتضياتها ما دامت قد صدرت عن يملكها مستوفية شروطها ، وهذا حكم شرعى يجمع عليه بين العلماء ، ومن بين ذلك صيغة الطلاق فاذا أوقع الزوج على زوجته طلاقا توافرت فيه الشروط المعتبرة شرعا ، فلا بد من وقوعه ، سواء أكان ذلك أمام القاضى ، أم كان بعيداً عنه ، وسواء أكان بإذنه أم بغير إذنه ، فالطلاق حق مباح للزوج فى الحدود التى رسمها الشارع له ، وقد استعمل حقه ، فليس للقاضى ، ولا للمشرع الوضعى ، أن يقول له : أنت أيها الزوج لم تستأذن فى إيقاع الطلاق فلا يقع طلاقك ، أو أنت أوقعته بعيداً عنى ، أو عمن هو نائب عنى ، فلا يقع طلاقك : ليس له هذا ولا ذاك ، لأنه حينئذ يكون حائلا بين أن تأخـــذ صيغة شرعية مقتضاها الذى رتبه الشارع عليها ، وليس ذلك لأحد من الناس مجتهدين كانوا أو غير مجتهدين .

وهذا هو ما يسمى عند علماء الأصول « بالحكم السببى » ، وهو فى قوة أن يقول المشرع : (جعلت الصيغة الفلانية سبباً فى الحكم الفلانى) فإذا وقعت الصيغة وقع فلا يجوز لأحد من الناس بعد ذلك أن يقطع هذا الارتباط الذى ربطه الشارع بين السبب والمسبب لأن ذلك من شأن الشارع فقط كما أجمع عليه العلماء .

٢ — لكن ولى الأمر قد يلاحظ فى أمر من الأمور أن الناس يسرفون فى شأنه ، أولا يتحرون الشروط التى شرطها الشرع فيه ، أو يتعسفون فى استعمال حقهم المشروع تعسفاً من شأنه أن يضر بالغير ؛ وقد يرى لمصلحة الأمة أن ينظم أمراً من الأمور المباحة على نحو يمكنه من تسجيل التصرفات ودراسة أحوال الناس من طريق إحصاء أحوالهم المعيشية أو الاجتماعية .

فلهذا أو ذاك يضع نظاما قانونيا يلزم به الناس ليحقق هذه الأغراض ، وله ذلك بشرط ألا يصادم ما هو مقرر بحكم الشرع .

ففي مسألتنا هذه يمكنه أن يشرع نظاما يلزم الناس ألا يوقعوا الطلاق إلا أمام من يمثل السلطة القضائية أو نحوها ، فيقول للأزواج : من أراد أن يطلق زوجته فلا يقدم على هذا التطليق إلا أمام القاضي ، أو بعد إذن القاضي ، ومن خالف ذلك فطلق زوجته بعيدا عن القاضي ، أو بغير إذنه ، فإن طلاقه يقع - لأن هذا هو حكم الشرع لكني أعاقبه بالعقوبة التي يقررها قانون هذا النظام ، لأنه خالف أمري ، وما هو من حق بمقتضى ولايتي .

فهو بهذا لا يكون خارجا على الشرع ، ولا معطلا لصيغة من الصيغ التي اعتبرها ، ولكنه إنما يقوم بدور تنظيمي يترتب على القيام به دفع ضرر ، أو تحقيق مصلحة .

والخلاصة : أن هناك فرقا بين أن يقول القانون : « لا يقع الطلاق إلا أمام القاضي أو بإذنه » وأن يقول : « لا يوقع الطلاق إلا أمام القاضي أو بإذنه » فالعبارة الأولى مصادمة لما قرره الشرع في شأن الحكم السببي ، أما العبارة الثانية فهي نهي قانوني للمكلف في شأن تنظيمي .

٣ - يأتي بعد ذلك ما يقال من أن إلزام الأزواج بالذهاب إلى القضاء - إذا أرادوا التطليق - سيجر إلى ذكر الأسرار ، وكشف كثير من المسائل التي يضر كشفها بالأسر ... إلخ .

وهذه مسألة تقديرية تختلف فيها الأنظار ، فقد يرى بعض الناس : أن القضاء عادة هو المرجع عند الاختلاف ، وأن هناك قضايا كثيرة من قضايا الأسر تنظر أمامه ، وتكشف فيها الأسرار ، ولا مندوحة من قبول ذلك ، لأنه قد يكون أهون الشرين ، وأخف الضررين .

٢ — الإشهاد على الطلاق :

وهذه المسألة لها شيء من الصلة بالمسألة السابقة وأصلها قوله تعالى في سورة الطلاق :

« يأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا . فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله » .

فقوله تعالى : « وأشهدوا ذوى عدل منكم »

راجع إلى قوله : « فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف » ، أى إلى الرجعة والطلاق كليهما والأمر فيه للوجوب لأنه ليس هناك قرينة تصرفه عن الأصل .

فمن أشهد على الطلاق فقد أتى بالطلاق على الوجه المأمور به شرعا ، وكذلك الرجعة.

ومن طلق ، أو راجع دون إشهاد فقد تعدى حدود ما أنزل الله فى هذه الآية .

بذلك يقول ابن عباس ، وعطاء ، وهو أحد قولين للشافعى ، وأحد قولين للإمام أحمد .

وذهب الشيعة الإمامية إلى وجوب الإشهاد على الطلاق ، وأن هذا الإشهاد ركن من أركانه ، فمن لم يشهد ذوى عدل على طلاقه فهو لغو كأن لم يكن .

فلو أخذ بهذا المذهب لخفف كثيرا من مآسى الطلاق ؛ إذ أن الغالب على الناس أنهم يتحرجون من حضور مجلس طلاق ليشهدوا عليه ، فيكون من هذا فرصة أمام الزوجين للتريث حتى يوجد من يشهد ، فلعل الله يحدث بعد ذلك أمراً يعود به إلى الزوجين الصفاء .

وربما كان ذلك سبيلا إلى نقل الخلاف إلى القضاء ليتحقق من أن الشاهدين ذوا عدل كما شرط القرآن ، أو ليس أحدهما أو كلاهما من ذوى العدل ، ومن ثم يحجم الناس - إلا قليلا - عن الشهادة على الطلاق لكيلا يتعرضون فى مجلس القضاء للنظر فى أنهم عدول أو غير عدول .

٣ — بطلان الطلاق فى الحيض .

وهذه مسألة يختلف فيها العلماء ، والمذاهب الأربعة تحكم بوقوع الطلاق فى الحيض ، ولكن هناك كثيراً من العلماء يرون عدم وقوعه ، ويستدلون على ذلك بأدلة كثيرة ، لا نطيل بذكرها ، حيث لا يتسع لها المقام ، وهى أدلة قوية يمكن التعويل عليها ، فيكون من ذلك تخفيف آخر لمشكلة الطلاق .

٤ — وجوب المتعة تعويضا للمطلقات :

١ — يقول الله تعالى فى سورة البقرة :

« لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن ، أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين » الآية ٢٣٦ .

« وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون ، أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ، وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير » الآية ٢٣٧ .

وهاتان الآيتان تدلان على أن المطلقة قبل الدخول :

• إذا لم يسم لها المهر كان لها المتعة حسب وسع الزوج.

• وإذا سمى لها المهر كان لها نصفه.

وفي ذلك اتجاه واضح إلى تعويض المرأة المطلقة بعد أن تهيأت للزواج من رجل ثم حرمت من هذا الزوج فلم يتم دخوله بها.

بل يرى بعض العلماء أن التي سمى لها المهر يرغب الشارع في إعطائها المهر كله، لا نصفه فقط، على سبيل الاستحباب، وذلك أنه يفسر الاسم الموصول في قوله تعالى: «أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح» بالزوج الذي طلق زوجته، ويقول: إن الله تعالى يرغبه في أن يعفو عن حقه في أخذ نصف المهر، أي يتنازل عنه ويعطيها المهر كاملا، وقد يؤيد ذلك قوله تعالى: «وأن تعفوا أقرب للتقوى، ولا تنسوا الفضل بينكم»، فإن الأنسب أنه موجه إلى الأزواج لا إلى المطلقات، ولا إلى أولياء الزوجات.

وقد أسند هذا الرأي إلى علي، وشريح، وسعيد بن المسيب، واختاره أبو حنيفة، والشافعي في مذهبه الجديد.

وقد روى الدار قطني عن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة من بني نصر، فطلقها قبل أن يدخل بها، فأرسل إليها بالصداق كاملا، وقال: أنا أحق بالعفو منها - قال الله تعالى: «إلا أن يعفون، أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح».

وأيدوا ذلك بحديث رواه عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ولي عقدة النكاح هو الزوج»[1].

٢ — ويقول الله عز وجل في سورة الأحزاب:

«يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها، فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا» الآية ٤٩.

وظاهر هذه الآية أن المطلقة قبل الدخول، لها المتعة، ولم تقيد بعدم تسمية المهر، كما في الآية رقم ٢٣٦ من سورة البقرة التي سبق إيرادها.

وبذلك تكون المتعة لها، وإن سمى لها المهر، فالمتعة شيء آخر غير المهر.

• فمن رأى حمل هذه الآية المطلقة في سورة الأحزاب، على الآية المقيدة في سورة البقرة، حكم بأن غير المدخول بها - التي سمى لها المهر - ليس لها متعة، وإنما حقها الواجب هو نصف المهر المسمى.

• ومن رأى حمل الآية المقيدة على الآية

(١) راجع ص ٢٢ من كتابنا «مناهج التفكير في الشريعة الإسلامية».

المطلقة - أى بالعكس - قال : إن المطلقة على عمومها ، والمقيد داخل فى المطلق باعتباره فرداً من أفراده ، وبذلك حكم بأن التى سمى لها المهر : لها متعة أيضا سوى نصف المهر .

وكل ذلك فى غير المدخول بها .

٣ — وقال الله فى سورة البقرة :

« وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين » الآية ٢٤١ .

وفى سورة الأحزاب :

« يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ؛ فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا » الآية ٢٨ .

والآية الأخيرة تدل على المتعة للمدخول بها .

والآية التى أوردناها قبلها ؛ تدل على أن المتعة عامة لكل مطلقة .

• ولهذا يرى ابن حزم : أن المتعة واجبة لكل مطلقة ، لا فرق بين مدخول بها وغير مدخول بها ، فيقول فى كتابه « المحلى » :

« المتعة فرض على كل مطلق ، واحدة ، أو اثنتين ، أو ثلاثا ، أو آخر ثلاث ، دخل بها أم لم يدخل ، فرض لها صداقها أم لم يفرض لها شيئا - يمتعها ، وكذلك المفتدية أيضا - أى التى طلبت من زوجها الطلاق على مال ، أى على سبيل الخلع - ولها المتعة أيضا ويجبره الحاكم على ذلك أحب أم كره ، برهان ذلك قول الله تعالى : « وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين » . وقوله تعالى : « ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين » ، فعم الله عز وجل كل مطلقة ولم يخص ، فأوجبه حقا لها على كل متق يخاف الله تعالى » .

• ويرى بعض العلماء أن المتعة واجبة لكل مطلقة إلا التى سمى مهرها ولم يدخل بها ، فإن نصف المهر متعة لها يغنى عن فرض متعة أخـــرى ، ويجمع بذلك بين النصوص .

وهذا هو مذهب الشافعى ، وقول لأحمد ، واختاره ابن تيمية .

• • •

بهذا يتبين أنه يمكن النظر فى تقرير تعويض للمطلقات استناداً إلى ما تقدم ، فيكون ذلك جبراً للمرأة المطلقة التى فرض عليها زوجها الطلاق ، وفوت عليها الطمأنينة فى بيت الزوجية ، ولا سيما إذا كبرت سنها ، وفات شبابها ، كما يكون فى ذلك أيضاً ردع للأزواج عن الإقدام على الطلاق إلا بحساب ؟

وقد انتهى البحث والحمد لله .

محمد محمد المدنى

نفحات القرآن

آية فيها نور للأبصار والبصائر

للأستاذ عبد اللطيف السبكي

«هو الذي جعل الشمس ضياء، والقمر نوراً، وقدره منازل، لتعلموا عدد السنين والحساب».

١ — من عناية الله بنا أن ضاعف لنا أمارات الهداية، وجعل من آياته المشهودة نظاما لحياتنا... ووسيلة إلى تعرف الأحكام في ديننا.

وأنت ترى في الآية التي معنا توجيها إلى ربط الدين والدنيا، بما يدلك على أن الله — سبحانه — لم يجعل أحدهما بمعزل عن الآخر ... بل أقام الدنيا دار عمل، وسبيل أمل ... فليس على صواب من يحسبها حياة زمنية ليس بعدها جزاء.

وليس على صواب كذلك من يبخس الدنيا حقها، ويحقر شأنها حتى يصورها في صورة ممقوتة، ويغرس في الأذهان أن الاتجاه إليها مأثمة.

فإن في هذا التصوير استهجانا لما أودع الله فيها من خير، وتجاهلا لما يتاح بها من نعيم الخلود ...

٢ — وانظر قول الله: «هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً».

فهـــذا توجيه لنا إلى أمور مشهودة، إذ لا يستطيع إنسان أن يجهل، أو يتجاهل فضل الشمس، أو القمر في هذا الوجود الذي نتقلب في آفاقه.

ذكر الله أنه جعل الشمس ضياء، والقمر نوراً ... وهـذا الإبداع مظهر لحكمته، ومناط لمنافع خلقه، وروعة في جمال ملكه.

وفرق ما بين الضوء، والنور: إن الأول أوضح سناء، وأطول مكثا، وهو لمنفعة النهار، وقد جعل الله النهار معاشا.

وأما النور فهو أقل وضوحا، وأسرع نهاية، وهو لمنفعة الليل، وقد جعل الله الليل لباساً، نستتر فيه للنوم، والاستجمام. وفي هذا يقول تعالى: «هو الذي جعل لكم

الليل لتسكنوا فيه ، والنهار مبصرا » ، وذلك التنويع هو الأصل المفروض غالبا .

ومع ما فى ضوء كل منهما من منافع حيوية لكل ذى روح ففى كليهما خصوصيات يصلح بها الجو ، وينمو بها الحيوان ، والنبات ، ويتوقف عليها نضج الثمار المختلفة الأنواع .

ولو تصورنا الدنيا مجردة من شمسها وقرها : كيف تكون بهجتها : « أو المقام فيها ، إنها لتكون ظلمة كظلمة الكهوف أو أشد » ، ولا تكون الدنيا مأوى صالحاً لذى روح .

ففضل الشمس والقمر فى الحياة ، هو عنوان الحياة .

وتلك إشارة القرآن فى قوله تعالى : « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ... وسخر لكم الليل والنهار » .

وقد يذكر النور دون تفريق بينه وبين الضوء .

بل يقصد منه بوجه عام أنه نعمة قدسية من جانب الله .

وعلى هذا التعميم جعله الله مورداً لتشبيه الإيمان به : « فالإيمان نور القلب ... والكفر والضلال فى أى لون من ألوانه ظلمة القلب ... والقرآن حافل بالآيات فى ذلك التشبيه حتى جعل الله المؤمن بنور الإيمان مبصراً ، وجعل الضال بظلمة ضلاله أعمى .

« وما يستوى الأعمى والبصير ... ولا الظلمات ولا النور » ... وهذا من البدائه .

وحينما أراد الله أن يضرب لنفسه مثلا لائقاً بعظمته ، وتصويراً لسابغ نعمه علينا اختار أن يصف نفسه بالنور ، فقال « الله نور السموات والأرض » فذكره النور ليس القصد منه أنه أقل من الضوء ، بل المعنى أوسع من ذلك التحديد .

ولفظ النور أعذب منطقا فى أسلوب الآية من لفظ الضوء .

والمراد : أن الله صاحب النور المطلق فى ملكوته ، سواء : أكان النور حسياً من الشمس ، والقمر ، والنجوم ، وكل ما يستضاء به ... أم كان نوراً معنويا بالهداية ، والتوفيق لطاعته .

فكل ذلك من معالم قدرته ، ومشاهد وجوده ، وألوهيته ... وكلها أمارات توحى إلى العقل بالطاعة ، وحسن الاستجابة .

ومن أجل هذا كان من دعوات الصالحين قديما أن يطلبوا نوره الكاشف عن صراطه المستقيم ، والعاصم لهم من عثرات الضلال ، فكانوا يقولون : اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وعن يمينى نورا وعن شمالى نورا ... الخ

وهذا الدعاء يترجم لنا استسلام العبد لربه واعتصامه بحوله وقوته ، حتى لا يكون

للشيطان عليه سبيل ، وقد وعد الله بذلك من ينيب إليه فى إخلاص . « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن : فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وإلى الله عاقبة الأمور » .

٤ — ذكر الله الشمس والقمر ... والشمس هى هى ... والقمر يكون أول أمره هلالا .. ثم يكون قمراً بعد ثلاث ليال ... وحينئذ يتجلى نوره ، ويتألق فى سمائه ، ولهذا ذكر بلفظ القمر لاتضاح شكله ، وقوة ظهوره ، فيكون الامتنان به أوقع فى السمع ، وفى النظر وفى الاقتناع ... ولم يكن القمر أثناء ظهوره لنا حبيساً فى نطاق محدود ، بل هو سائر فى مجراه ، وقدره الله متنقلا فى منازل كما أن الشمس كذلك ليست حبيسة ، بل هما يتعاقبان ، ولا يدرك أحدهما الآخر « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » .

وإنما ذكر عن القمر دون الشمس أن الله قدر له منازل ، ليفيدنا أن القمر مع سرعته بالنسبة للشمس ليس مندفعاً فى انطلاقه ، بل هو سير رتيب ونظام مقدر .

ونحن ندرك نموه شيئا ، فشيئاً ، وندرك تنقله من غرب إلى شرق حتى يكتمل تمامه ثم يكون مطلعه من الشرق إلى الغرب عكس ما بدأ ، ويختفى رويداً ، رويداً عكس ما بدأ كذلك ...

وهذا ما صرحت به آية أخرى « والقمر قدرناه منازل ، حتى عاد كالعرجون القديم » والعرجون هو شمروخ النخل ونحوه ، فإنه ينمو ، ثم يجف أخيراً بعد رطوبته ويصفر بعد نضارته وخضرته ثم يتقوى بعد اعتداله

وحكمة ذلك فى القمر أن تتميز به الأوقات ونحتسب به الأشهر ونعرف به عدد السنين وحسابنا فى موعد الصوم ، والحج والأسفار ومدة العدة للنساء ، وغير ذلك من شؤون الحياة يعرف فى سهولة بالنظام القمرى الميسور .

فضلا عما فى أحوال القمر من أثر فى حياة الزرع ونضج الثمار .. وكذلك فى الشمس .

غير أن عادة الناس أن يلحظوا ذلك فى القمر كثيراً لدورانه بين نور فى ظهوره ، وظلمة بغيابه ، فيتضح لهم أن له أثرا بينا فى شأن الزروع ، كما أن الظلام نفعاً فى بعضها .

٥ — وتوكيدا لهذه الحكم الربانية فى أحوال الشمس والقمر ، يقول سبحانه : « ما خلق الله ذلك إلا بالحق » فلا عبث ، ولا لهو فى صنع الله ، وإنما هى أوضاع مقدورة ، وإبداع صانع حكيم .

والله يفصل آياته ، ويبرزها على صفحة الكون ، وينسقها فى كتابه ، لتكون منار علم ، ومشرق هداية لمن تهيأت مداركهم للعلم ، وتحررت عقولهم من لوثة العناد ، والإصرار على التقليد فى الباطل ، والركون إلى الجهالة .

وتوكيدا ثانيا ـ يقول الله : « إن في اختلاف الليـل والنهـار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون » .

وبهذا التوكيد مرة ، بعد مرة تقوم الحجة علينا في التخلف عن دعوة الله ، فليست لنا معذرة بعد توافر الأمارات على ربوبيته ، وألوهيته ، وحكمته فيما خلق ، وإبداعه في كل ما تقع عليه العين ، ويحيط به النظر ، ويهدى إليه العلم في جنبات الكون : علويه وسفليه ، وفيما بين السماء والأرض من كائنات لا يحيط بها غير علمه .

٦ ـــ ولكن هذه الآيات إنما تجـدى جدواها وتستلزم نتائجها عند من يوجهون أنفسهم ، ويتحللون من أهوائهم ، فيكشف الله عنهم رجز الشيطان . ويعيذهم من همزاته ، ويزيدهم هدى ، ويؤاتيهم تقواهم ... كما وعد في كتابه : « والذين اهتدوا زادهم هـدى ، وآتاهم تقواهم » .

وانظر تجد أن آية الشمس والقمر ختمت بقوله تعالى : « لآيات لقوم يعلمون » ، وأن آية الليل والنهار واختلافهما طولا ، وقصرا وتعاقب كل منهما للآخر : ختمت بقوله : « لآيات لقوم يتقون » ، وفي ذكر العلم أولا ، ـ والتقوى ـ ثانيا ـ توجيه بين : إلى أن العلم مرموق ، ومطلوب وأنه سبيل إلى التقوى عن بينة ، وفهم ، وحسن تقدير ، فتقوى العالم تكون أصح ، وأزكى من تقوى الجاهل ومن خلال هذا تدرك أن الإشادة بالشمس والقمر ، والضوء والنور ... وأن التنبيه على اختلاف الليل والنهـــار : ليسا لمجرد ما ذكر من ظواهر النعمة ، بل الأمر أوسع من ذلك ... وأن هنا مجالا فسيحا للبحث العلمى العقلى في منـــازل الشمس والقمر ، وفي ارتباط كل منهما بالآخر ، وفي تدرج كليهما في فلكه الخاص ، وما وراء ذلك من علم بالكواكب والنجوم : مما حدثنا الله عنه تصريحا ، أو تلميحا .

وحينئذ : تدرك أن العلوم الكونية كالفلك ، والرياضة ضرورات ، لا يستغنى عنها الباحث في توجيهات القرآن ، ولا الراغب في المزيد من معرفة أهداف القرآن ، نعم : لم يجعل الله الاستيعاب فرضا عينيا ، وخفف عنـــا ، فألزمنا معرفة الأحكام ... لأنها الغاية الأولى في تصحيح الدين والمعاملة .

ولكن التبحر في المعرفة غاية لا تسقط فرضيتها عن الجميع ... بل هي رسالة القادرين على الاجتهاد في كل جانب من جوانب العلم الدين ، أو الدنيا .

فإن الإسلام لا يقف بنا عند حدود معينة في التفكير ـ ولا يرضى لنا أن نظل عيالا على جهود الغير في باب الثقافة ، والمعرفة . وكم أشاد بالعلم ، وبأهله : دون تقيد بنوع منه

دون نوع . وكم فضل أهل العلم على سواهم من أصحاب الحياة، وأرباب الأموال وكم وعدهم ربهم برضوانه عنهم، إذا عرفوا واعملوا بهديهم .

ومع أن الله أفاض على رسوله ما أفاض من معرفة، فقد حثه على التعلق بالعلم في قوله «وقل رب زدني علما» وهذا تشريع منه لخلقه عامة وللمسلمين خاصة .

وما ذلك إلا لما وراء العلم من خير للإنسانية، ولما وراءه بالذات من وصول إلى الحق، وهداية إلى الله .

وفي ضوء هذا نجد العلم الحديث يفيدنا في فهم الكثير من الآيات الكونية كما سلف.

وليس حتما أن يكون العلم الحديث صادرا من مسلمين ... فإن العلم هبة الله لفريق من عباده - ثم هو بعد ذلك ضوء ينتشر سناه بين المسلمين وغير المسلمين .

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول في ذلك «خذ الحكمة، ولا يضرك من أي وعاء خرجت» ... ويقول : «الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها !!» .

ولا جدل في أن علوم الدين خير ما يدركه الإنسان، وهي أكرم حصيلة ينالها من جهده في بحثه وهي الذخيرة الباقية مع صاحبها في أخراه، إن كان أمينا عليها ومهتديا بها في غير تصنع، ولا مراءاة والنبي يقول «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» .

وعلوم الدنيا وسيلة إلى أهم مدافعها في الحياة والحياة بحاجة إلى الكثير، لتكون هنيئة لنا، ومزرعة للآخرة . فإذا اقترن بعلوم الدنيا وعي صادق، وفطنة إلى مشرق العلم، وأنه منحة الله لمن هيأه له . كان ذلك سبيلا إلى الإيمان والإيمان والعلم على سواء ... ولا عداء بينهما إلا إذا كان علما ضارا . أو كان بريقا في جنبات إنسان مغرور : فإنه عندئذ يحول بين القلب وبين الاهتداء إلى مشرقه الأول ويكون علما في دائرة العيش الدنيوي ولا ينهض بصاحبه إلى نعيم الخلود في حياة الخلود. ذلك الذي أضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة» .

وذلك أيضا هو قول الله سبحانه عن علماء الدنيا . «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون» يعني أن جدوى العلم في الدين أقوم شأنا وأبقى نفعا ولا يساويه علم الدنيا . وبعد : فأنا نجد في الآية القصيرة كثيرا من المقاصد القدسية الهامة ... ونجد المجال الثقافي في كتاب الله فضفاضا يتسع للاقتباس في غير تكلف وهو مهيأ للأفهام .

وحسبنا ما ندركه، والله يهدينا، وينفعنا بالعلم، وبالعمل . ويحفظنا من الضلال، والجهالة .

عبد اللطيف السبكي

من بحوث مجمع البحوث

كتب ظاهر الرواية

للإمام محمد بن الحسن

بقلم الفاضل بن عاشور

— ٢ —

كان الإمام محمد ، صاحب أبي حنيفة ، قد انتصب لتدوين الفقه : تدوينا جامعا للفروع مستوعبا للمسائل ، مفصلا للأحكام على تفاصيل الصور : بطريقة لم يسبق اليها أحد قبله في تصنيف الفقه . وكان اعتماده في جميع الأحكام ، المفصلة على مسائلها ، المطبقة على صورها ، على ما قرره الإمام أبو حنيفة : مما روى عنه محمد بن الحسن مباشرة أو ماروى عنه أبو يوسف ، مما وافقاه فيه معا ، أو خالفاه معا ، أو خالفه أحدهما ووافقه الآخر .

فكان هذا المنهج الجديد في تدوين الفقه بإيراد الصور مفروضة الوقوع لا واقعة نازلة وتفريع الصورة من الصورة بتفرع افتراضات الإمكان العقلي لصور الوقائع ، متسلسلا بعضها عن بعض ، والاجتهاد في تقرير الحكم الشرعي المنطبق على كل صورة من تلك الصور المفروضة ، المتسلسلة على النحو الذي تولف عليه القرائن الآن ، قد أعطى التدوين الفقهي صورة جديدة من البسط تتمثل في استيعاب المسائل بطريقة افتراض ، بعد أن كان يقتصر فيها على النوازل الواقعة . كما تتمثل في بسط الأحكام ، وبسط انطباقها على مناط الحكم من الصورة المفروضة بكيفية تختلف عما كان يسير عليه الإفتاء الصادر عن المجتهدين الأولين مؤسسي المذاهب من الإيجاز ، والاقتصار . ولقد كان الإمام محمد بن الحسن يشعر كما يشعر الناس من حوله ، بما بدا في صنيعه الجديد : من خصوصيات وميزات لم تكن للأوضاع الفقهية من قبله . فكأن لسان الحال ، نطق عنهم وعنه ، بوصف للمنهج الذي انتهجه ، فجعل ذلك الوصف علما معنونا على ما ألف محمد بن الحسن ، فسمى كتابه « المبسوط » ، وبقيت هذه الكلمة كلمة « المبسوط » بعد وضعها العلمي ، الذي وضعت به على كتاب : محمد بن الحسن الشيباني لا تخلو عن لمح للمعنى الوصفي الذي نقلت عنه بما يمثل منهجا خاصا في تدوين الفقه . فأطلق اسم « المبسوط » على طائفة كثيرة من الكتب الفقهية التي انتهجت ذلك المنهج ، من أوضاع القرن الثالث والقرن الرابع والقرن الخامس .

سلك الإمام : محمد بن الحسن في تصنيف كتاب المبسوط . مسلك أخذ المواضيع الفقهية موضوعا موضوعا مستقلا كل موضوع منها عن الآخر ، على طريقة التبويب التي درج عليها الإمام مالك في الموطأ . واعتبر كل موضوع من تلك المواضيع : وحدة جامعة للمسائل المتفرعة منه والراجعة إليه ، بحيث أصبح الموضوع قائما بذاته مفرغا في قالب مستقل ، وكذلك أصدر محمد بن الحسن ما صنفه في الفقه كتبا كتبا بحسب المواضيع الفقهية : الصلاة ، والزكاة ، والمناسك ، والصرف ، والرهن والشفعة ، والوكالة ، والإقرار ، ونحو ذلك إلى عامة أبواب الفقه ، كما أوردها ابن النديم في الفهرست . فلما جمعت تلك الكتب ، وضم بعضها إلى بعض تكونت منها مجموعة تصانيف ، محتوية على أبواب الفقه بتفاريعها وتفاصيلها فأطلق على تلك المجموعة الكاملة ، الموزعة على كتب ، اسم شامل لمجموعها : هو اسم المبسوط . ولذلك فإن الفقهاء يذكرونه بهذين الاعتبارين . فمرة يعتبرونه كتابا واحدا ، وأخرى يعتبرونه جملة كتب فيقولون : قال محمد في كتاب العارية أو قال محمد في كتاب الوديعة ، ويعنون بذلك كتابا من مجموعة كتب المبسوط . وقد اهتم كثير من أئمة المذهب الحنفي باختصار المبسوط وكتبت على المختصرات شروح أهمها شرح شمس الأئمة السرخسي من رجال القرن الخامس على اختصار الحاكم الشهيد ، وهذا الشرح هو الذي اشتهر بمبسوط السرخسي . وقد طبع سنة ١٣٣١ هـ في ثلاثين جزءا بعناية المرحوم محمد بن سامي التونسي . ولما كانت كتب المبسوط قد صنفت على وحدة المواضيع الفقهية ، وتحرى فيه البسط وتقليب الفروض وبيان اختلاف الرأي : بين الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ، وصاحبيه ، فإن غرض الحرص على ضبط مذهب أبي حنيفة وتدوين قوله مفردا عن الخلاف ، قد دعا إلى وضع مصنف جديد مبني على الاقتصار في المسائل على قول أبي حنيفة والتزامه ، فألف ـ محمد للوفاء بهذا الغرض ـ كتابا جامعا لأبواب الفقه كلها على النحو المقصود وهو كتاب الجامع الصغير فجاء مشتملا على مسائل تقدم ذكرها في كتب المبسوط ، أعيدت لأجل تحقيق عزوها للإمام أبي حنيفة ، ومسائل لم تذكر قبل ذلك ولا توجد إلا في الجامع الصغير وهي الأقل ثم كأنه لاحظ أن من مسائل الفقه ما بني على قواعد ـ تخفى على أكثر الناس ـ من دقائق العربية وخفايا العلوم الأخرى ، بحيث يتبادر إلى أذهانهم خلاف حكمها لغفلتهم عما عليه الحكم من مبنى دقيق ، فألف لها كتابا يشتمل من كل باب على مسائل معدودة يوجز في تصويرها ثم في تقرير حكمها وسماه « الجامع الكبير » . ولذلك جاء هذا الكتاب صعبا يحار العقل في فهم وجوه تقريعه حتى تشرح له كما قال عنه الشيخ زاهد الكوثري . ولذلك كتبت شروح كثيرة على الجامع الكبير عد منها في كشف

الظنون ثمانية وثلاثين غير التلاخيص والمنظومات وشروحها . وقد قامت بنشر هذا الكتاب لجنة إحياء المعارف النعمانية بالهند وكان طبعه فى سنة ١٣٧٦ ه .

هذا وإن الأحكام الراجعة إلى موقف المسلمين باعتبارهم جامعة ، من غيرهم ، ونظام علاقتهم بهم سلما وحربا ، وضبط حقوق غير المسلمين باختلاف أحوالهم داخل بلاد الإسلام وخارجها ، وهى المسماة : أحكام السير أو المغازى لما كانت ناحية من العمل الفقهى الذى يشتغل فيه المجتهدون بوضع الأحكام الموافقة للاصول الدينية المنطبقة على الأحوال الواقعية . وكان شأن هذه الناحية عظيما جدا فى بلاد الإسلام فى ذلك القرن الثانى ، ولاسيما فى الشام والعراق ، وكانت أكثر الصور التى عرضت للإمام محمد فيما يرجع إلى تلك الأحكام قد عرضت له فى الأدوار الأخيرة من حياته بعد ولايته القضاء ، واعتباره مرجعا رسميا للدولة فى شئون علاقاتها الدولية ، فإن أكثر المسائل الراجعة إلى تلك الناحية من الفقه قد جمعها بعد أن صدرت كتبه ، ورويت عنه واشتهرت وشاعت ، فوضع لخصوص أحكام السير صنفا خاصا جامعا ، استوعب فيه أحكام العلاقات فى حالتى السلم والحرب ومسائل الأسرى . وحصانة السفراء والمهادنات والمعاهدات ، ومجرمى الحرب وغيرها من أدق المسائل التى لم يتنبه إليها فيبحث فيها الباحثون فى القانون الدولى إلا بعد ثمانية قرون أو أكثر ، وقد جعل محمد بن الحسن تصنيفه للسير على صورتى تصنيفه للمسائل فى كتبه الأخرى فجاء بكتاب شامل لما روى عن أبى حنيفة وغيره وأفرد كتابا خاصا بما روى عن أبى حنيفة من ذلك . وسمى الأول وهو الشامل «كتاب السير الكبير» والثانى «كتاب السير الصغير» وكان هذان الكتابان آخر تصانيفه . وقد شرح كل منهما شروحا أهمها شرح شمس الأئمة السرخسى على السير الكبير وقد طبع بالهند فى حيدراباد الدكن ١٣٣٦ فى أربعة أجزاء ثم أعيد طبع جزء منه من طرف معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ويلتحق بهذه الكتب الخمسة كتاب الزيادات الذى وضعه الإمام محمد إكمالا لها وتفريعا عن مسائلها ، وهو أيضا ذو شروح كثيرة . وتوجد نسخة خطية منه تعدل النودار بمخطوطات المكتبة العبدلية بتونس .

ومن هذه الكتب الستة : المبسوط والجامع الكبير والجامع الصغير والسير الكبير والسير الصغير والزيادات ، يتكون المرجع الأساسى للفقه الحنفى من كتب محمد بن الحسن وهو ما يعبر عنه «بظاهر الرواية» لأنها المروية عنه روايات مشهورة بطريق الثقات احترازا من كتبه الأخرى التى نقلت من طريق أقل اشتهارا . فكتب «ظاهر الرواية» هى التى نعدها لمقامها الأساسى فى روافد الثقافة الإسلامية .

محمد الفاضل بن عاشور

إشارات أبى العلاء

للأستاذ كامل شاهين

---

١ — لا تكاد تجد لشاعر فى العربية من الإشارات ما لأبى العلاء المعرى .

فأنت تعثر فى ثنايا شعره على إشارات مختلفة الألوان ...

تجد الإشارات العلمية ، والإشارات التاريخية ، والإشارات الأدبية والإشارات الدينية .. وقد تجد فى القصيدة الواحدة نمطين أو أكثر ، وقد تخلو القصيدة خلوا مطلقا منها .

فما الذى حمل أبا العلاء على اصطناع هذا اللون من التعبير ، حتى ليكاد يكون ظاهرة غريبة يمتاز بها الشعر العلائى ؟ .

أفيكون داعية ذلك إظهار المهارة ، والتكثر بالمعرفة لأن ظروفه قضت أن يرحل إلى بغداد ، وفى نفسه رغبة جامحة فى الشهرة ، وفى نفسه كذلك إيمان بأن شهرته لن تتسع إلا إذا بهر العلماء ، وأنه لن يبهر العلماء حتى يدخل عليهم بما لم ينالوا من حظ فى معرفة طرق التعبير ، أملا فى أن يقروا له بالعلم والشعر فى طلق واحد .

ذلك هو الظن بما صنع أبو العلاء فى شعره من ناحية الإشارات ، ويمكن أن يكون تفسيرا لما صنعه من ناحية الإغراب ومن ناحية اصطياد الجناس ، ومن ناحية إيهام التناسب ، ومن كل شذوذ عن المنهج العام للشعر فى عصره

ولقد ترى مثلا لذلك فى قصيدته العينية التى أرسلها إلى أبى حامد الإسفراينى الفقيه ، عند دخوله (أى أبى العلاء) بغداد .

وفى هذه القصيدة يصف رحلته وما عاناه من ندرة الماء حتى اضطر للتيمم ثم يشرح التيمم بنفس هادئ كأنه فى حلقة درس الفقه ويعرض لقصر الصلاة وجمعها فيقول :

وربَّ ظهر وصلناها على عجل
بعصرها فى بعيد الورد لمّاع
بضربتين لطهر الوجه واحدة
وللذراعين أخرى ذات إسراع
وكم قصرنا صلاة غير نافلة
فى مهمه كصلاة الكسف شعشاع

الشاعر لم ينس أنه مقدم على فقيه ، وقد رأى أنه لا بد أن يبهره بالإشارات الفقهية ، ثم هو لا تكفيه الإشارة بل يبسط الكلام فى راحة ، واطمئنان .

وأدعوك إلى النظر فى كلمة «ذات إسراع» لتتبين إصراره على أن يتقصى شروط التيمم ، وفى قوله «غير نافلة» لتعلم أنه يصر على الاحتراز من الصلاة النافلة فإنها لا قصر فيها وهذا ليس من شأن الشعر ، ولكن رغبته

فى بسط نفس الفقيه الاسفرايني دعته إلى أن يحمل من الشعر درسا من دروس الفقه . حتى إنه عند ما أراد أن يبين اتساع الفلاة التى اضطروا فيها إلى التيمم اختار لها تشبيها من الفقه أيضا ، فالمهمه كصلاة الكسوف ، وصلاة الكسوف كأطول ما تكون الصلاة ركوعا وسجودا وقراءة [1] .

وهذا التشبيه تشبيه يمعن فى الغرابة ، لا يلتقطه إلا فقيه ، ولا يستجيده ويلذه إلا فقيه .

ولم يكد ينتهى من ذلك حتى مضى يقول : إن خوف اللصوص والمغيرين فى هذا المهمه دعاهم إلى أن يصلوا سرا ، وألا يؤذنون بين يدى الصلاة .

وما جهرنا ، ولم يصدح مؤذننا
من خوف كل طويل الرمح شراع

ثم أراد أن يبين عدة أصحابه ، فأصابها فى عدد الجمرات التى يجمعها الحاج ليلا من المزدلفة ، ويرميها فى منى :

فى معشر كجمار الليل أجمعها
ليلا ، وفى الصبح ألقيها إلى القاع

وبعد أن يحدث عن غسل طمريه سبعا من مخالطة الكلاب ، يقبل على الاسفرايني معرفا بنفسه ، وأنه :

مؤدب النفس ، أكال على سغب
لحم النوائب ، شراب بأنقاع

ويخلص من ذلك التعريف الرائع الحلو ، إلى استفتاء الشيخ فى تعاطى الربا ، ويهجم فيزعم أنه يبيح الربا من غير أن يخرق الإجماع على حرمته :

أرضى وأسخط إلا أننى ربما
أبيت غير مجيز خرق إجماع

وبعد أن يبلغ هذا المدى من الإغراب ، وإرباك السامع ، وإهاجة أشواقه ، يقدم إليه (حل العقدة) فى قوله :

وذاك أنى أعطى الوسق منتحيا
من المودة ، معطى الود بالصاع

اعطنى صاعا من الود ، اعطك وسقا أى ستين صاعا ... فهذا هو الإرباء الحلال .

وإنه مع هـــذه النكت الفقهية المتصلة لا يخلى قصيدته من بعض الإشارات الأدبية وكأنه يرى أن أبا حامد ليس فقيها يعجبه هذا النحو من الكلام ليس غير ، فألم بطرف صالح منها فى مقام الحديث عن نفسه :

من قال : صادق لئام الناس . قلت له
قول ابن أسلت : قد أبلغت أسماعى

يشير إلى قول أبى قيس عامر بن الأسلت : قالت ـ ولم تقصد لقيل الخنا ـ :

مهلا ، لقـــد أبلغت أسماعى

(١) عن ابن عمر رضى الله عنه : انكسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام فلم يكد ، يركع ، وركع فلم يكد يرفع ، ورفع فلم يكد يسجد ، وسجد فلم يكد يرفع . ثم فعل فى الركعة الأخرى مثل فعله فى الركعة الأولى

ثم يبين رأيه في الهدايا ، وأنها كرامات لآخذها ما لم يرد بها الإغراء والإطماع وأنه ليس عنده ما يهديه إلا قصائده ، فعل المسيب ابن علس :

ولا هدية عندى غير ما حملت
عن المسيب أرواح لقعقاع

وهو يشير في ذلك لقول المسيب :

فلأهدين مع الرياح قصيدة
منى مغلغلة إلى القعقاع
ترد المناهل لا تزال غريبة
في القوم ، بين تمثل وسماع

ثم يتبعها إشارة أخرى في قوله :

ولم أكن ورسولى غير متهم
مثل الفرزدق في إرسال وقاع

ولقد كان وقاع غلاما للفرزدق يرسله في الجنايات وكرائه الأمور ، وأبو العلاء لا يرسل رسوله إلا في الطيبات منها .

قدر أبو العلاء أن سامعى قصيدته سيظلون فاغرى الأفواه ساهى العقول ، يتمتم الفقهاء منهم : (بضربتين لطهر الوجه ! .. في مهمة كصلاة الكسف !. قصرنا صلاة غير نافلة !. في معشر كجمار الرمى ! . . أبيت غير مجيز خرق إجماع !) ، ويتمتم الأدباء منهم : (قول ابن أسلت : قد أبلغت أسماعى . حملت عن المسيب أرواح لقعقاع . . لم أكن مثل الفرزدق في إرسال وقاع) .

فيقول هؤلاء : ما أفقهه شاعراً ، ويقول أولئك : ما أشعره فقيها . .

٢ — ولقد ينصرنا في هذا الظن أنه سلك هذه الطريق نفسها في قصيدته التي يدعى أنه ارتجلها عند ما بلغه — عند دخوله بغداد — موت الشريف الموسوى ، والد الشريفين الرضى والمرتضى ، مع فرق جدير بالاعتبار ، هو أنه أعرض عن الإشارات الفقهية إلى الإشارات العروضية والأدبية ، وكأنه يراعى بذلك الفرق بين الأسفراينى الفقيه والرضى الشاعر الكبير ؛ وتكفينا إشارته في هذا البيت الذى يبين أن البيت (بيت الشريف) لم يضر بموت أبى الشريفين ، هذا البيت الذى لا ندرى ، أنعجب لمعناه كيف التقطه أم لتشبيهه الذى استند فيه إلى العروض فأحسن الاستناد ، أم نعجب لشرة العلم كيف تسلطت على الرجل ، فكادت تفسد لفظه الحلو ، ونغمه المطرد ... فذاك إذ يقول :

أنتم ذوو النسب القصير ، فطولكم
باد ، على الكبراء والأشراف
والخمر إن قيل : ابنة العنب اكتفت
بأب عن الأسماء والأوصاف
ما زاغ بيتكم الرفيع ، وإنما
بالوجد أدركه خفى زحاف

فهذا البيت الذى قصر نسبه تطال ، مثله كمثل الخمر غنيت بأنها ابنة العنب عن كل وصف ولقب ... هذا البيت لا يهدمه موت

من مات منكم ، لثبات قواعده ، واشتداد معاقده ، وإنما أدركه بموت أبيكم - وإن كان مصابا عظيما - مثل ما يدرك البيت من الشعر ، إذا عرض له الزحاف الخفي . فهو لا يعيبه ولا ينقصه .

المعنى على ماترى ، جدة وروعة ، ولكن التشبيه بالزحاف الخفي ينقلنا إلى جو آخر ، ترى فيه الخبن ، والطي ، والعصب ، وما إلى ذلك مما يفسد جو الشعر . ويكاد يذهب بروعة المعنى .

ولكن أبا العلاء يريد أن يبهر بالشعر وبالعلم ، فيمزق الشعر بالعلم ، ليبهر أهل بغداد بهذه الإحاطة ، وهذا الشمول ، وهذا الدخول من كل باب .

٣ — ويسوقنا ذلك التعرف على القيمة الأدبية لهذه الإشارات .

لقد رأينا أن أبا العلاء لم يخطىء التشبيه حين شبه المهمه المترامى الأطراف بصلاة الكسف ، ولكنه على هذا شيء محدود بحدوده ، مقيد بمجاله ، فهو يطيب للفقهاء والمشتغلين بصناعة الحديث والذين يعنون بإقامة السنن على وجهها فيجدون فى صلاة الكسوف طولا بليغا لا يجدونه فى صلاة أخرى .

فإذا انتقلت من هذا المجال إلى مجال الأدباء أو أهل الأخبار والرواية ، لم تجد لديهم طربة لهذا التشبيه ولا هشاشة ، فتأثيره فيهم فاتر ، ولذلك يعد هذا التشبيه غير مقبول .

ومثل هذا يقال فى تشبيه ما نال الشريف بموته ، بما نال بيت الشعر من الزحاف الخفى ... عيب لا يكاد يدرك .

وهذا أيضا من التشبيهات ضيقة المجال ، فإنما يحلو مثله لعشاق العروض ، أما الأدباء المطبوعون والنحاة والفقهاء ، فلا يحلو فى آذانهم ، ولا تستطعمه أذواقهم ...

ومن هنا يعد من التشبيهات ذات اللون الخاص ، التى يتقبلها ذوق بعينه ، ثم هو ذوق العلماء لا ذوق الأدباء .

وكما أرضى أبو العلاء الفقهاء وأرضى العروضيين ، كذلك أرضى النحاة ، ولا أظن غير النحوى يرضى عن التورية فى مثل قوله :

ولى حاجة عند العراق وأهله
فإن تقضياها فالجزاء هو الشرط

وقوله :

فدونكم خفض الحياة فإننا
نصبنا المطايا فى الفلاة على القطع

ومن غير النحوى يأنس إلى الجزاء والشرط ، وإلى الخفض والنصب ، وإلى الإتباع والقطع ، ولعل إعجاب النحاة يبلغ مداه ، إذا أنشدهم أبو العلاء قوله فى شاعر يسمى صريع البين :

دعيت بصارع فتداركته
مبالغة فرد إلى فعيل

كما قالوا : عليم ؛ إذا أرادوا

تناهى العلم فى الله العليم

فهذا يعمل نحوى كالفراء ويونس أشبه منه بعمل شاعر ، وهذا يعجب النحاة ويبهرهم ، لكنه يضايق الأدباء ويغيظهم .

٤ — ولعلك تسأل، فما الرأى فى الإشارات الأدبية والتاريخية ، أهى كذلك لضيق مجالها وخصوص لونها ، تعد بعيدة عن الأدب الحى الذى تتقبله كل النفوس وترتضيه كل الأذواق .

والأمر فى ذلك يسير ، فإننا فى باب الأدب إنما نحتكم إلى أذواق الأدباء لا إلى أذواق الفقهاء والنحاة وأهل العروض .

ومادام أمرنا على ذاك ، فإن الإشارات الأدبية والتاريخية تنقاس بمقياس الذوق الأدبى ، والذوق الأدبى يتقبل مثل هذه الإشارات فى رحابة صدر واتئناس .

فأنت تجد راحة فى قول أبى العلاء لأهل بغداد :

ذم الوليد ، ولم أذمم جواركم

فقال : ما أنصفت بغداد حوشيتا

لئن لقيت وليدا والنوى قذف

يوم القيامة لم أعدمه تبكيتا

يعنى بالوليد : أبا عبادة البحترى، وأراد بذمه بغداد ، قوله :

ما أنصفت بغداد حين توحشت

لنزيلها وهى المحل الآنس

ويذكرنا هذا بقول أبى العلاء نفسه عن البحترى نفسه :

وقال الوليد : النبع ليس بمثمر

وأخطأ، سرب الوحش من ثمر النبع

فدعوى البحترى أن النبع لا ثمر له ... باطلة ، ألا ترى أن القسى تصنع من شجر النبع ، وهى تصيد السرب من الظباء والعانة من حمر الوحش . فهذا من ثمرها .

وهو يشير بذلك لقول البحترى :

وعيرتنى خلال العدم آونة

والنبع عريان ، ما فى عوده ثمر

فهاتان الإشارتان تلذان للأدباء ، ولا يحتورونهما ، ولا يضيقون بهما ، والوزن فى الشعر إنما هو لأربابه لا للدخلاء عليه ولا لأرباب الصناعات الأخرى .

ولكن الإشارات قد تتتابع وتخفى فيصيب منها الشعر ما يصيبه من الإغراب اللغوى ، أو الفلسفة الدقيقة ، وأنت واجد ذلك النوع من التتابع والخفاء فى مثل قول أبى العلاء ، فى إحدى درعياته :

لو أنها كانت على عصمة

فى الوقبى لم يدع بالأجذم

الضمير للدرع ، يقول : لو أن الدرع كانت على عصمة بن عاصم المازنى عند ما ضربه شيبان بن خصفة التيمى يوم الوقبى ما قطعت يده ، ولا لقب بالأجذم . ثم قال :

ضماناها النفس إحصانها
غير ضمانات أبي ضمضم

أبو ضمضم كان يتصدق بعرضه على عباد الله، فضمانه الإباحة وترك المحاماة، أما هذه الدرع فضمانها إحصانها لابسها، والمحاماة دونه ثم قال:

ما خلت هماما لو ابتاعها
يفر من خوف أبي ضمضم

همام بن غالب هو الفرزدق، وكان قد هجا جريرا فتوعده أبو جهضم عباد بن الحصين الحبطي، فقال الفرزدق:

أفي قملي من كليب هجوته
أبو جهضم تغلي على مراجله

يقول أبو العلاء، لو أنها على الفرزدق إذ هدده عباد بن الحصين ما فر خوفا بل لثبت واطمأن.

ثم قال أبو العلاء:

وحاجب لو حجبت شخصه
لم يمس في المنة من زهدم

حاجب هو ابن زرارة التميمي، وزهدم هو ابن حزن العبسي، أدركه يوم جبلة زهدم فانقض عليه وأسره، ثم غلبه عليه ذو الرقيبة: مالك بن عامر.

فلو كانت هذه الدرع على حاجب لقاتل عن نفسه زهدما، ولم يصبح في منة منه بتركه.

فمن من الأدباء يستطيع أن يتصل بهذه الأحداث جملة، فيعرف ماحدث لعصمة يوم الوقبي، ويعرف ضمانات ابن ضمضم، أو إباحات أبي ضمضم، ويعرف فرار الفرزدق من أبي جهضم، والمنة على حاجب من زهدم.

هذا التتابع في سوق الأحداث طريف، ولكنه لغرابته وعدم وضوح دلالته عند القارىء، وحاجته إلى التنقيب والكشف، يقلل من القيمة الأدبية للنص.

وهناك فرق بين رفض الإشارات الفقهية والنحوية وما جرى مجراها، وبين رفض بعض الإشارات الأدبية والتاريخية.

الأولى نرفضها جملة برغم وضوحها وانكشاف معناها، ونعدها من قبيل المهارة في الصناعة، أو الخداع والشعوذة.

أما الأشارات الأدبية فإننا نستحليها ونرحب بها ما دامت واضحة الدلالة، مصيبة موضعها، في اقتصاد وتخفف.

ونحن نرفضها إذا حال بيننا وبين الاستمتاع بها غموض وعدم إسفار أو إسراف وإلحاح والأمران كما ترى، منزعهما شديد الاختلاف، وبعد:

فقد حاول أبو العلاء أن يكتسب وجاهة عند العلماء والفقهاء والأدباء وأهل الخبر والرواية، ولكن لم يكسب إلا الكساد والحسد في بغداد، فعاد إلى بلده مقهورا، وأنشأ يغني لنفسه ويسجل نظراته في الوجود ورأيه في الحياة والأحياء في ديوانه اللزوميات لا يرجو ولا يخاف؟

كامل السيد شاهين

تيارات منحرفة في التفكير الديني المعاصر

للأستاذ علي العماري

— ٥ —

ويجرؤ المؤلف ، ويبلغ غاية التنكر للحق ، حين يحاول أن ينفي عن أهل الكتاب وصمة الكفر بالله ، مصادما الآيات القرآنية الصريحة التي لا تحتمل تأويلا .

فهذا عنوان فصل من فصول الكتاب : (اليهود والنصارى أهل كتاب ، وليسوا بمشركين ولا كافرين) . ويبتدئ الفصل بأن الأسى يملأ جوانحه ؛ لأن هناك فكرة خطيرة أعرمت فينا ، وهي أن بعض رجال الدين من المسلمين يعتبرون اليهود والنصارى مشركين أو كافرين ، وهذا الأمر - كما يقول - مرده إلى الجهل بأصول الأديان عامة ، وبدين الإسلام خاصة ، وما شاب أهل الجهل من تعصب بغوت ، لا تزال جذوره متأصلة في النفوس ، بغير علم ولا إدراك .

ثم يحز في نفسه - صانها الله من كل سوء - أن يكون مبعث هذه النزعة الضارة من أناس حملهم في الحياة الدعوة إلى السلام ولو تام ، ولكن جرى حملهم على غير ما يظن الناس فيهم ، وأن الذي دفعهم إلى ذلك - في تخريفه طبعا - إنما هو الدفاع عن مصالحهم الشخصية ، التي لا تقوم - فيما يزعم - إلا على بذر بذور الفرقة بين الناس ، وبث روح الخلاف بين العباد ، اتباعا لشريعة الصيد في الماء العكر . (ينبغي أن تؤمن أن المؤلف يصيد - دائما - في الماء الصافي) .

ويرى أنه من الضروري أن يسوق - هنا - الأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة - على حد تعبيره ، على أن اليهود والنصارى لا يعتبرون مشركين ، ولا كافرين !

والأدلة القاطعة التي ساقها (فخامته) تتلخص في أن القرآن اعترف بكتبهم السماوية ، وأوجب على كل مسلم الإيمان بها ، وقد سماهم في كثير من الآيات (أهل الكتاب) ، وأن طعامهم حل للمسلمين ، والمحصنات منهم . .

كما يستدل بأن أصل دينهم الذي أنزل الله به الكتب ، وأرسل به الرسل ليس فيه شرك ، ولكنهم بدلوا وغيروا ، وابتدعوا من الشرك ما لم ينزل به سلطانا ، فصار فيهم الشرك ، وكأنه ندم هنا أنه وصف (إخوانه) بأنهم

غيروا وبدلوا ، فأراد أن يكفر عن هذه (الجريمة) فقال فى الهامش : وكذلك ابتدع المسلمون ما لا يتفق ، وأصول الدين ، ولم ينزل به سلطان فى الكتاب المبين .

وإذن فليس (إخوانه) - كما يدعوهم - بدعا ، فإذا كانوا غيروا فالمسلمون - أيضا - غيروا - هذه هى خلاصة هذا الفصل ، وسأدع للمؤلف نفسه أن يحكم على خطئه بعد أن مر مرا سريعا على تخبطه فى هذا الفصل .

١ - آيات القرآن صريحة فى أن أهل الكتاب غيروا وبدلوا ، وأنهم كفروا بما أحدثوا فى الدين مما ينافى الوحدانية . قال الله تعالى فى سورة التوبة : « وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله ، أنى يؤفكون » .

وقال سبحانه فى سورة المائدة : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح : يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » . فسماهم القرآن (كفارا) و (مشركين) و (ظالمين) و (حرم عليهم الجنة) وتوعدهم بالنار ، وبالعذاب الأليم .

ومن عجب أن المؤلف أراد أن يتعالم فيدعى أن القرآن فرق بين أهل الكتاب ، والمشركين ، واستدل بقوله تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) ... هكذا كتبها ، ثم علق عليها بقوله : فجعل المشركين غير أهل الكتاب .

ونسى - فهمه الله - أن هذه الآية تثبت الكفر لأهل الكتاب وهو ينفى فى عنوان الفصل وفى كل أجزائه أن يكون أهل الكتاب كفارا .

وإنى أسأل المؤلف : هل يقبل من مسلم أن يقول - مع هذه الآيات - إن أهل الكتاب ليسوا كفارا ؟ وماذا يعرف حضرته عن حكم الإسلام على من أنكر آية ، بل آيات صريحة من القرآن ؟

٢ - ماذا يقول المؤلف وقد وصف القائلين بحكم القرآن فى هذه المسألة بما وصفهم من جهل ، وتعصب واصطياد فى الماء العكر ، وعمل على بذر بذور الفرقة بين الناس ، ماذا يقول إذا علم أن الرجل الذى اعتمد فى كتابه من ألفه إلى يائه على آرائه - بعد تحريفها - إذا علم أن هذا الرجل ، وهو السيد رشيد رضا ، من القائلين هذه المقالة .

(نرى المصلحين الذين زعموا أنهم أعادوا النصرانية إلى أصلها لم يستطيعوا أن يرجعوها إلى التوحيد الذى هو دين المسيح ، وسائر أنبياء بنى إسرائيل ، ورسل الله أجمعين ،

فهم لا يزالون يقولون بألوهية المسيح ، وبالتثليث ويعدون الموحد غير مسيحي كما يقول ذلك الفرقتان الكبيرتان الأخريان من فرق النصرانية فى هذا العصر ، وهم الكاثوليك والأرثوذكس ، فجميع فرق نصارى هذا العصر تقول إن الله هو المسيح ابن مريم ، وأن المسيح بن مريم هو الله ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا) .

٣ — هل يرى المؤلف أن القرآن الكريم بآياته الواضحة هذه عامل على بذر بذور الفرقة وأنه يعمل ذلك ليصطاد فى الماء العكر ؟ !

٤ — ما دخل اعتراف القرآن بكتبهم ، ودعوة المسلمين إلى الإيمان بهذه الكتب فى موضوع وصف أهل الكتاب بالكفر ؟

وقد قال وأعاد ، وكرر أنهم حرفوا هذه الكتب ، ولم يؤمنوا إيمانا صحيحا بما جاء فيها .

أما إحلال طعامهم ، وذبائحهم ، فسببه أنهم لا يعبدون صنما ، ولا يذبحون باسم صنم ، ولو أنهم ذبحوا ذبائحهم وأهلوا عليها باسم المسيح — مثلا — لما جاز لنا أكلها .

* * *

ويتفضل المؤلف فيوجه لنا نصيحة غالية ، نقلها عن السيد رشيد رضا ، قال : خير ما يتبعه المسلمون مع غيرهم من أهل الأديان الأخرى هو الأخذ بالقاعدة الصحيحة المعقولة التى وصفها العلامة الكبير السيد رشيد رضا للاتفاق بين المختلفين فى المذاهب والأجناس من المسلمين ، والمختلفين فى الأديان ، والأجناس الأخرى ، وهى : (نتعاون على ما نشترك فيه ، ويعذر بعضنا بعضا فيما نختلف عليه) .

قال المؤلف بعد ما ساق هذه القاعدة (الذهبية) : هذا ما أدعو إليه ، وأجهر به للناس كافة — على بصيرة — وقد بلغت ، اللهم فاشهد ، اللهم فاشهد .

ولا أدرى من أين نقل المؤلف هذا الكلام عن الشيخ رشيد ، فإنى أشك أن يكون هذا وضع هذه (القاعدة) على النحو الذى رسمه المؤلف ، وقد عودنا المؤلف أن يبتر النصوص ويحرف فيها ليصل إلى الهدف الأسمى ، وهو إرضاء إخوانه .

فقد يكون حسنا ، وجميلا أن يعذر بعض المختلفين فى المذاهب بعضا فيما اختلفوا فيه ، ولكن ما معنى أن يعذر أهل الأديان بعضا فى هذا ؟

أيريد المؤلف أن تقول لليهود حين يقولون ويرددون : إن عيسى ولد من زنا ، وللمسيحيين حين يقولون إن عيسى هو الله ، أو هو ابن الله ، أو يقول الفريقان : إن محمداً كاذب ، وإن القرآن ليس من عند الله ، أيريدنا أن تقول لهم : إنكم معذورون ، ويكون هذا هو كل ما يطلبه منا ديننا ؟

إن الذى ينبغى أن يعيه كل مسلم أن واجبنا

أن نبلغ الإسلام على وجهه الصحيح ، وأن نذيع فى الناس أن الله واحد لاشريك له ، وألا نعذر أحداً حين يكفر بالله .

ونحن نؤمن أن الإسلام هو الدين الحق ، ولادين غيره ، وأن محمداً أرسل للناس كافة ، وأن علينا أن نجهر بهذا كله . فكيف نؤدى ذلك إذا كان كل عملنا أن نكتفى مع المنكرين لهذا الدين، الصادين عنه ، العاملين على هدمه ، نكتفى بأن (نتندرم) ؟ !

إنى أكره ، بل وأحتقر كل من يجامل أحداً على حساب الدين ، وإن أمرنا بمعاملة أهل الكتاب معاملة عادلة لا يعنى أن نغضى عما يفترون على الله ، وعلى نبينـــا ، وعلى كتابنا .

والمؤلف قال : (إن خير مايقدمه المسلمون)، فلماذا لم يقدم هـذه النصيحة إلى هؤلاء الذين يحاربون الإسلام ، وتعاليمه فى كل مكان ، وبكل أسلوب ؟ !

أم أن هذا واجب، فقط - فى رأى المؤلف - على المسلمين دون غيرهم ؟ أم أن المؤلف يرى أن أصحاب الديانات الأخرى يسيرون على تعليم هذه القاعدة ، وأن المسلمين فقط هم الذين يخالفونها ، فهو يريد أن ينبههم إليها ، ويرغبهم فى اتباعها ؟ !

الحق أن المؤلف كشف عن نفسه ، ولم ينفع الدين بدافع عنهم ، وعدو عاقل خير من صديق جاهل - كما يقول المثل - .

وليقل من شاء من المستشرقين ، والمستغربين ما شاء فى تعاليم الإسلام ، وليتجه دعاة التجديد إلى ما يشاءون من تفاسير لهذه التعاليم لا تتفق وطبيعتها ، فإن الذى ينبغى أن نفعله ، وأن نقوله هو أن نبين الأمور على وجوهها الصحيحة ، وألا نميل مع أى إنسان لكى ندفع عن الإسلام تهمة يختلقونها ، فإننا لو ظللنا نفعل ذلك بعدنا شيئا فشيئا عن روح الإسلام ، وعن حقائقه .

وعلينا أن نقولها صريحة واضحة : الإسلام دين حق ، وكل تشريع جاء به حق ، وكل وسيلة اتخذها لنشر دعوته حق ، وليقل من شاء ما شاء .

والعجب أن أحداً من أهل الأديان الأخرى لا يجاملنا ، فلماذا يعمل فريق منا على أن يعطوا الدنية فى دينهم ، وهم على الحق ، وغيرهم على الباطل .

ليس بمسلم عندى من تحمله الرغبة فى جاه أو مال أو صيت على أن يجامل على حساب الدين ، وإن أضل المضلين أولئك الذين يحبون أن يقول الناس عنهم إنهم مجددون ، وهم لا يحبون أن يصدعوا بكلمة الحق ، إذا كانت تظهرهم بمظهر المتمسكين بالدين الصحيح .

وقاتل الله الدنيا ، ما دخلت فى شىء إلا أفسدته .

وعلى الله قصد السبيل .

علی العماری

خواطر حول قصة الفداء

للأستاذ منصور محمد محمد عويس

« فلما بلغ معه السعى قال : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت افعل ما تؤمر . ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » .

إن قصة الفداء عنوان كريم للتضحية والصبر والإخلاص لله عز وجل ، إنها مثل أعلى فى تعلق القلب بالله تعالى ، وانصراف العبد بكليته إلى الله ، وطرح ماسوى الله من القلب إذا صادف أمراً لله ، فلا شىء يحول بين العبد وربه ، ولو كان هذا الشىء ابنا لشيخ كبير طالما تعلق قلب الشيخ به ، ولكن لا عجب فالذى أمامنا نمط من أنماط القلوب الربانية فى مثاليتها العليا .

أجل فقلب الأب كبير بلغ من الصفاء ذروته ، قلب قرب وقرب ، واتصل واتصل قرب بالنبوة ، واتصل بالخلة « واتخذ الله إبراهيم خليلا » .

فهل نعجب من خليل الله أن لا يحول شىء بينه وبين الله ، ولو كان هذا الشىء ابنه الذى بلغ معه السعى ، وترك مرحلة الطفولة واستقبل مرحلة السعى والعمل ، إن إبراهيم عليه السلام جدير بهذه الصفة الكريمة وحقيق أن يسجل له فى القرآن الكريم : « واتخذ الله إبراهيم خليلا » .

وكما أن قلب الأب كبير فقلب الابن كذلك ففى قصة الفداء ترجمة عملية لقوله تعالى : « فبشرناه بغلام حليم » .

ومن العجيب فى قصة الفداء أننا لم نجد ترددا من الابن عند عرض الأمر عليه بصورة فيها أدب النبوة : « يا بنى إنى أرى فى المنام : أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ » .

فلم يقل له إسماعيل عليه السلام وهو لم يزل غلاما : إنى ممتثل ، ولكن ألا تدعو الله وترجوه أن يعفيك من هذا يا أبتاه ، فإذا لم يأذن بعد الدعاء فافعل ، لم يقل إسماعيل هذا ؛ بل كان أمره امتثالا ، وطاعة تامة ابتداء من أول الأمر .

وكما أن هذا هو حال الابن ، فكذلك الأب عليه السلام ، لم يحاول أن يدعو الله بإعفائه من هذا الأمر ، لم يقل مثلا : ابنى فلذة كبدى فأسألك يارب عفوك ورحمتك ، وأنت أرحم الراحمين ، وكان يمكن كبشر وكأب ، أن يحاول محاولة عاطفية كتلك المحاولة السابقة فى الدعاء الذى لم يدع به ، ومن ناحية أخرى يعمل على ألا يشذ عن الأمر ؛ بمعنى أن يدعو

الله تعالى ثم يقول : يا ربى إذا لم تستجب لى دعائى ورجائى فى هـذا ، فسأنفذ أمرك حتى ترضى يا ربى .

لم يكن إبراهيم عليه السلام فى موقف دعاء وابتهال ، لم يلجأ إلى هذا بل ترك الدعاء ، وهو صاحب العاطفة فى سموها ، وهو الذى لم يزل لسانه رطبا بذكر الله ، والدعاء والابتهال إلى الله عز وجل : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » ، « رب هب لى من الصالحين » .

أجل ترك مقام الدعاء وانتقل إلى مقام التنفيذ ، إلى مقام التضحية بأغلى ما لديه .

لأن الدعاء فى هذا المقام ... مقام الفداء والتضحية .. ينبىء عن التردد فى تنفيذ الأمر ومقام الخلة ، ومنزلة (واتخذ الله إبراهيم خليلا) لا تجتمع مع التردد فى تنفيذ أمر الله تعالى ، إنه يرى فى أمر الله إحكام وحكمة وخير ورحمة وإن لم يدرك العقل ذلك . إنه يرى فى تنفيذه لأمر الله قربة وشرف .

وإذا كان موقف إبراهيم عليه السلام موقف الممتثل لأمر الله فى عرضه للأمر على ابنه إسماعيل كان مثلا أعلى فى الأدب النبوى الكريم ؛ فلم يقل له : إن الله أمرنى أن أذبحك لأن رؤيا الأنبياء حق — بل جاء إليه بطريق العرض منه عليه ، ولم يسند الأمر بالذبح إلى الله عز وجل تأدبا ، وليترك للابن شرف الابتلاء ، فإن امتثل كان جديرا بأن ينال هو أيضا شرف الامتثال ، فلا يحرم من القبول والرضا . ولهذا فإن الابن فهم من أسلوب العرض أنه أمر من عند الله ، وهو بجانب هذا قد بادله هذا الأدب ، وبنى الفعل للمجهـــــول فقال (يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) ولم يقل له : افعل ما يأمرك به الله ، تأدبا مع الله .

ومن العجيب أيضا أن الأب صرح بالأمر وهو الذبح لضرورة توضيح الأمر ابتداء للابن ، ولكن الابن لم يصرح بمضمون الأمر بلفظه الصريح فلم يقل له : يا أبت اذبحنى ما دمت قد أمرت بذلك ، بل قال : (افعل ما تؤمر)...

لأنه يرى فى الذبح انتقالا إلى أن يكون فى عداد الصابرين . إنه وسيلة إلى أن يقبله الله مع الصابرين فى الدرجات العليا فكيف يصرح بمضمون الأمر ، والأمر انتقل من أن يوصف إسماعيل بالذبيح إلى أن يوصف بالصابر ، فهو يرى فى الحقيقة أن الذبح امتثال لأمر الله يضفى عليه وصفا كريما خلاف ما تراه العين المجردة .خلاف ما يراه البصر المحدود ، وإنما البصيرة النافذة البصيرة المشرقة المضيئة فهى تقول : إسماعيل الصابر ، فى الذبح ـ لو نفذ ـ حياة وأى حياة ، إنها حياة أبدية خالدة حياة الصابرين فى رضوان الله ونعيمه :

إنه لو قال: يا أبت اذبحنى..! لكان تحريكا لعاطفة ، والمجال مجال أمر وامتثال .

إنه لو قال: اذبحنى..! لكان تصريحا بصورة العمل ونظرة إليه ، ولكن العبرة ليست فى تلك الصورة ؛ بل فى الامتثال دون مراعاة لحظ النفس فى هذا الأمر، فما أرخص النفوس لله . إنه لو قال: (اذبحنى) لتوهم الاعتراض من الابن فى صورة خفية دقيقة ، ولتوجه النظر إلى صورة الدم فى كلمة الذبح - والنظر فى روحانيته العالية لا ينظر إلى الدم فى كلمة الذبح ولكن إلى الامتثال فى كلمة « افعل ما تؤمر » .

وإذا كان الابن عليه السلام قد لاحظ الأدب مع أبيه عليه السلام فى مناداته بقوله (يا أبت) فلم يقل له مباشرة : (افعل) بدون النداء بل ناداه بوصف الأبوة كأن لسان حاله يقول لأبيه : إن ذبحك إياى لن يخرجك عن وصفك بالأبوة فليس هذا الأمر تحطيما لتلك الصلة فأنت أبى فليس الأمر شرودا وتزمتا يقطع الصلات .

فالابن عليه السلام يقدر موقف الأب عليه السلام، إذ الأمر أمر الله، وتنفيذ الأمر لا يجرد الأب من أبوته ، ولا ينزع الصلة بينه وبين ابنه ، والصلة قائمة بين أبوة مثالية وبنوة مثالية ، لا مكان للحنق من الابن على الأب ، ولكن الأمر فوق هذا وأكبر .

إنه أمر الله تخشع له القلوب ، وتسجد له الجباه، وتمتثل له الأرواح والأجساد . وحينما تلمح العاطفة فى قوله (يا أبت) تلمح بجانب هذا ما يمنع انسياب تلك العاطفة انسيابا بلا حدود ولا رابط . كلا ، بل الأمر أمر والامتثال امتثال ، (افعل ما تؤمر) إنها كلمة وضعت حداً للعواطف ، وجعلت أمر الله فوق كل عاطفة .

وإذا كان الابن لم ينس فى امتثاله عاطفة البنوة فالأب أيضا فى امتثاله لم ينس عاطفة الأبوة فناداه : (يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) ، (يابنى) ، (يا أبت) نداءان يترجمان عن هذا العناق العاطفى ، وتنفيذ الأمر مع وجود العاطفة أقوى وأعظم ، فلم يكن الأمر فى لحظة من لحظات جفاف العاطفة ، وجدب الحياة الأسرية الرحيمة ، كلا وإنما الأمر ظهر فى تلك اللحظة التى يتبادل فيها كل من الأب والابن هذا الحنان وهذا الحب . وفى قوله : (ستجدنى) الآية ، إعانة من الابن لأبيه على طاعة الله عز وجل . كأنه يقول لأبيه : إن فى امتثالى تحقيقا لأملك فى أن أكون طائعاً لله تعالى ، لن أعوقك عن أداء أمر الله سأحقق أملك فىّ . ما أعظم تلك القلوب . إن الأب والابن كل منهما يتسابق فى تنفيذ أمر الله عز وجل ، وفى قوله : (إن شاء الله) إنكار

من الابن لذاته ... إنه يرى فى امتثاله ورضائه وصبره نعمة يسوقها الله إليه بفضل منه تعالى فتقديم روحـــه ، وصبره على هذا ليس إلا فضل من الله تعالى ، فهو ليس بذاته من الصابرين ، وليس بذاته محتسبا ، وإنما ذلك منة من الله وفضل ، ويتوج هـذا الإنكار للذات أنه حينما يجود بروحه امتثالا لأمره تعالى لايرى نفسه قد تفردت بالتضحية ؛ بل يرى أنه فى هذا إنما يضاف اسمه بفضل الله إلى من أشرق بهم الزمن من الصابرين إذن هو ليس وحده الفريد الصابر ، وانما يرجو من الله أن يلحق بهـذا الصنف الـكريم من الذين شرفهم الله بهـذه الصفة صفة الصبر : (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) .

ثم ماذا ؟ إنه أمر لا شك فيـه ، وتنفيذ لا تهاون فيه ، تنفيذ كله استسلام لله عز وجل وصدق ورضا ، واطمئنان قلب ، وبلوغ إلى ذروة الإيمـان وتمـام الإحسان فى الأعمال : (فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين) هنا تجلت رحمة الله الواسعة : (إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم) ، وسجل لإبراهيم عليه السـلام ما تتناقله الأجيال وما ثبت على مر الزمن من آيات الثناء والسلام : (وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم) ، فمن صدق مع ربه ، وحسن فى عمله ، وارتفع بروحـه بحيث لا يرى إلا الانصراف بكليته إلى الله تعالى ؛ فإن رحمة الله ترعاه ، ويأتيه اليسر والخير : (كذلك نجزى المحسنين) ، ولمـا صدق إبراهيم عليه السلام فى نيته نجى الله ابنه ، وزاده ابنا آخر فوق نجاة ابنه الـكبير : (وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين) .

وهنـا نلحظ معنى عاما فى تكريم الله لصفوة عباده .

فـكل ابتلاء ينجح فيه عباد الله يكون تكريمهم من الله تعالى مناسبا لنوع الإبتلاء فهنا فى قصة الفداء مثلا الابتلاء بذبح الولد ـ بالنسبة للنظر المحدود ـ بالنسبة للنظر المحدود فيه قطع لذكر الوالد وفيـه النقصان . ولما كانت النتيجه نجاحا فى الابتلاء فبالنسبة لما يترتب على الذبح من قطع الذكر فالتـكريم كان (وتركنا عليه فى الآخرين سـلام على إبراهيم) وبالنسبة للأمر الثانى : وهو النقصان ، كان التـكريم ماحيا لتوهم النقصان بل محققا للزيادة فى أسمى صورها (وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين) .

وهـكذا فمن ابتلى بالمـال وأنفقه على الفقراء والمحتاجين ، فإن التـكريم من الله تعالى أن يعطى المنفق أجرا من عنده ؛ فـما أنفقه مدخر عند ربه أن يضيع ثوابه ، وهذا نفى لمـا يتوهم من نقص المال بالصدقة ،

فما نقص مال من صدقة ، كما يعطى المنفق الأمان والسرور ، وينفى عنه الخوف والحزن كيف ... ؟ ! وقد كان بنفقته مزيلا لخوف البائس ، وحزن المحتاج . قال تعالى (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ، (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريراً فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً) ، (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) .

ولما كان القتال فى سبيل الله قد يكون فيه استشهاد ، فإن العين المجردة ترى ذلك موتا والموت انقطاع عن الحياة ، فمن استشهد فقد قدم روحه امتثالا لأمر الله ؛ فكان الجزاء مناسبا ، والتكريم ملائما ، فالناس يرون الشهداء قد فارقوهم بموت ؛ فيخبر الله أنهم تركونا إلى حياة كريمة مكرمة من الله تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله . ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم . ألا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون) ، فهل بعد ذلك يكون هناك مكان لحزن أو خوف ؟ . ومن كان فى قلبه الخوف من أهوال يوم القيامة كان له الاطمئنان والأمان والنجاة من المرهوب ، والفوز بالمرغوب : (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا : إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم : إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم) ، (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ، والأمثلة فى هذا كثيرة .

وقصارى القول : أن قصة الفداء فوق التفكير العقلى ، والاستنباط الذهنى ، والإدراك الفكرى : تعلن أن مقام الألوهية فوق كل مقام . الرب رب ، والإنسان إنسان . فمهما ترقى الإنسان فى المراتب الإنسانية العليا فإنما يترقى فى تحقيق مراتب العبودية لله .

تلك المراتب والدرجات تؤكد تلك العبودية لله بالطاعة لجلاله والامتثال لعظمته والخضوع لأمره فى صورته المثالية الواضحة المثيرة . إننا لن نحيط بكل معانى قصة الفداء ، ولكن علينا أن نردد قول الله تعالى : (واتخذ الله إبراهيم خليلا) .

فهكذا تكون الخلة ، وهكذا تتحقق نسبة إبراهيم عليه السلام إلى الأعمال الصالحات فى قدوة مثالية وصدق الله : (إن إبراهيم كان أمة) .

منصور محمد محمد عويس

القوم الصوفية بقلم: ا.م.م. ماكين

ترجمة الأستاذ فتحى عثمان

— ٣ —

هذا التيار المندفع نحو مفهوم «الجماعة» الصوفية بتأكيده الطابع المتميز للعرفة الصوفية كانت تصاحبه وتسايره محاولات لتعبئة الرأى العام بأكثر مبادىء الشريعة السائدة معاوضة وتشدداً! وهذا التطور الأخير طبع الفترة التالية من تاريخ الحركة بطابع الثورة، وعزز من الجهود النظارية لتأصيل الجماعة الصوفية منذ القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى فصاعدا ظهور رجلين من أقطابها الشامخين: الغزالى (المتوفى سنة ١١١١ م)، وابن العربى (المتوفى سنة ١٢٤٠ م)، وفى هذا الوقت كانت موسوعة «إخوان الصفا» قد نفذت إلى الجو الفكرى للمجتمع الإسلامى، وأشاعت العلم والفلسفة بين الجموع.

وقد عبر الباحثون المحدثون عن الحاجة إلى إعادة تقويم دور الغزالى المجدد فى الحركة الصوفية. وهكذا ظهر من الدراسات المتعمقة لطائفة منهم: أن الغزالى قد عمل على إحكام المحاولات التى بذلها أسلافه لإدخال الصوفية فى النطاق القرآنى للأفكار معززاً بتجربته الشخصية فى الطريق، وقد كتب لجهوده الفوز المبين، وعلى الرغم من أن تحوله إلى هذا المجال، وتأييده الجسور لقضية الصوفية الرفيعة قد جلب عليه بادىء الأمر حنق الفقهاء التقليديين، إلا أن الأمر اختلف من بعده، فتأكد الوفاق بين الصوفية المعتدلة [1] والتعاليم السنية»، واتسع الأفق العقلى للجماعة الصوفية بعد مضى أكثر من قرن بدرجة فائقة، نتيجة لما قدمه ابن العربى من عرض انتقائى تجميعى محكم يرفض الثنائية non-dualist، ولقد كان نهجه الفكرى يحمل تحدياً صارخا لأقيسة علماء الكلام المنطقية [2].

° ° °

ولقد استمدت حركة الصوفيين - بكونها طاقة حية عاملة - قوة بدرجة تفوق ما استمدت من التعبير النظرى، شأن كل الحركات المماثلة فى التاريخ. وأدى قيام نظرية

(١) ويمثل هذه النزعة مدرسة صوفية على رأسها الجنيد البغدادى (المتوفى سنة ٩١٠ م) وهى تؤكد التمييز الأساسى بين الشريعة، والتجربة الصوفية.

(٢) توصف فلسفته عادة بأنها قائمة على وحدة الوجود. وفى اصطلاحات لا تبدو دقيقة فى التعبير عن نهجه.

صوفية إيجابية محددة إلى تقديم أساس متين للحركة فى مجموعها ، ولكن المجادلات حول وحدة الوجود : « على الرغم من أنها كانت مقروءة ، ومحل إعجاب لدى المثقفين ، وعلى الرغم من أنها أثمرت شعراً له آثاره العميقة إلا أنها لم تكن تؤخذ مأخذ الجد من عدد كبير من أبناء الطرق الصوفية ، وهناك محاولة لها دلالتها لتأكيد الطابع العملى للطريق يشير إليها استعمال كلمة (قوم) بدلا من كلمة صوفية ، وقد جاءت كلمة « قوم » أكثر شمولا وأبعد مدى فى مضمونها الاجتماعى ، ووجدت الفكرة تعبيراً عنها فى الكتابات النظرية المبكرة التى استعملت عبارات مثل : محبة القوم ، سيد القوم ، طريق القوم ، أسرار القوم ، زعيم القوم ، وهى عبارات تستوعب مجموع حياة الصوفية ممتدة من أعمال العبادة ، وحضور مجالس الذكر إلى مسائل تتعلق بالمكاسب .

وكانت الأهداف التى عملت لها حركة القوم منذ البداية قد ذاعت عن طريق بعض النظم مثل حلقة الذكر ، أو مجلس الذكر الذى كان اجتماعا عاما لترديد الذكر ، وقد اتسعت رموزها لتتضمن الجماعة كلها ، وبذلك تأكد القول : بأن الصوفية لم تكن مجرد مذهب لقلة من الناس ؛ بل طريق الحياة للكثرة ، واعتبرت أسمى وسيلة لإرشاد الإنسانية بأوسع معانى كلمة (إرشاد) ، ومن هنا عرف أبو حفص النيسابورى (المتوفى سنة ٨٨٣م) الصوفية : « بأنها طريق للقلب والعقل » ، بينما وصفها الجنيد المشهور : « بأنها نصيحة الأمة كلها » ، وعلى هذا المفهوم وضع الغزالى ، فيما بعد ، تفسيره لأسلوب التربية فى الطريق بمثابة الصحيح كنهج سلكه الأنبياء حقا لإرشاد الناس .

وكان القوم يمثلون مجموعا من الاهتمامات لأتباع يتباينون فى مواهبهم العقلية ، لكن هناك تمييزا دقيقا ملحوظا بين الدعاة إلى طريق القوم ، وطابعهم التأكيد على العمل ، وبين المتصوفة العلماء من أهل المعرفة ، ويقابلون أهل العلم بالنسبة لفقهاء الشريعة ، ويشير الكلاباذى فى إجمال إلى الأقطاب وأصحاب النظريات والكتاب فى الصوفية بتعبير (رجال الصوفية) ، لكن مصادر (الطريقة) المتأخرة قد وضعت فيما بعد هذا التصنيف فى صورة أكثر تحديدا بالمقابلة بين سادة القوم ، وبين الأقطاب المتخصصين فى الموضوع الذين يطلق عليهم مثل هذه الأوصاف[1] : محقق القوم ، أهل التصوف أئمة التصوف ، وقد أوضح هذا جلال الدين السيوطى (المتوفى سنة ١٥٠٥ م)[2] حين

---

(١) ابن منيزيل : الكواكب ورقات ٩٢ أ ١٢١ أ ، ١٣٢ أ .

(٢) التأييد ص ١٨١ ، وانظر أيضا للمصدر السابق ص ٣٠ / ٤٠ حيث تجد مناقشة مثمرة فى الرابطة بين الصوفية والقوم .

كتب أن خاصة القوم (١) هم الصوفية ، ونحن نقف على أرض ثابتة حين نذهب إلى أن هذه الاختلافات كانت داخلية الطابع ، وأنها جاءت تعبيرا عن الدرجات المتنوعة للمواهب الشخصية ، ولجهود مجموعات بعينها .

وتشربت هذه النزعة للحركة فى أساسها العريض خلال العصر العباسى أعدادا من الأتباع من مختلف الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، ومنذ النصف الأخير من هذا العصر تقدمت الحركة بسرعة مذهلة واكتسبت فكرة « طريق القوم » أيام الغزالى تعبيرا أكثر ضبطا كأداة للتعليم الصوفى ، وتكفل بهذا أساسا عاملان لها تأثيرهما : الشيوخ وجماعاتهم من الفقراء ، وكان الأعضاء المنتمون لهذه « الأخوة » من الفقراء يضعون أنفسهم تحت توجيه الشيخ بعد أخذ العهد على أن يكونوا من مريديه ، وعلى الرغم من أن القشيرى والغزالى قد أيدا (الطريقة) كتنظيم اجتماعى روحى أخلاقى سليم ، إلا أنهما انتقدا بصراحة تدهورها فى أيامهما وللغزالى موعظة بينه فى « الإحياء » (٢) . تناول فيها العيوب التى تعرضت لها الطريقة بتأثير جماعة من الأدعياء من المشعوذين المقنعين أو أهل الإباحة الذين يتذرعون بالطريقة للعبث بأحكام الشريعة .

* * *

ومن الملامح المميزة لصورة « الطريقة » كتجمع صوفى ظهور فكرة « القطب » ، وهو الرأس الأعلى لجماعة الأولياء ، أو فى الحقيقة « الهيئة المقدسة للإدارة التى تضطلع بأعباء حكومة العالم غير البادية للعيان ، وأن المميزات والوظائف المتنوعة التى يختص بها أعضاء هذه الهيئة المقدسة تبدو ممثلة للمضمون الكامل لحركة الطريقة ، وفى مصادرنا عرض بليغ للموضوع ، وتبعا لهذه النقول نجد لكل مرتبة فى هذه الحكومة الدينية قطبا فى حين يكون القطب الموحد الأعظم هو « الغوث » الذى يناديه الناس للنجدة فى الشدائد والحوائج ، ويوصف القطب أحيانا بالخليفة و « الوارث » ، وذلك بالنظر إلى مركزه بالنسبة للنبى ، وإن لم يكن المنصب وقفا على أهل البيت وحدهم ، وتذكر هذه المصادر عموما (الحسن) السبط (٩٦٩ م) كأول من حمل هذا اللقب ، بينما يورد جولدزيهر أن بعض علماء الكلام قد أشار إلى فاطمة بنت النبى كأول من دعى بذلك ، ويبدو أن (مرجوليوث) يظن أن الكلمة استعملت فى عهد القشيرى تقريبا (توفى سنة ١٠٧٤م) وهو يرجح أن يوسف الهمدانى كان أول من حمل هذا الوصف ، ثم انتقلت التسمية

(١) يعزو لينجز استعمال تعبير (قوم) إلى نص حديث النبى صلى الله عليه وسلم يعرض للقوم الذين لا يشقى بهم جليسهم .

(٢) جـ ٣ ص ٣٤٧ / ٣٥٠ .

فيما بعد إلى كل مؤسسى الطرق المعروفين ، وتشير مصادرنا بالطبع إلى عبد القادر الجيلانى (المتوفى سنة ١١٦٦م) وأبى الحسن على الشاذلى (المتوفى ١٢٦٥ م) كأول من تسلم هـذا المنصب الإلهى ، وبين أصحاب النظريات الصوفية الأوائل قيل : إن الحاكم الترمذى (٨٩٣م) كان أول من نشر الاعتقاد فى حكومة دينية يقوم على رأسها القطب .

ويبدو لابن خلدون أن الفكرة مشتقة من النقول الإسماعيلية والشيعية التى تذهب إلى أن الله يتمثل فى الأرض عن طريق وصيه الذى يرشد الإنسانية كافة ، ومن بين الباحثين المحدثين يعزو ما نبرج هذا المفهوم فى شىء من التشكك إلى صورة الإمامة عند الشيعة بينما يرجع بها (بل) بصورة أخرى إلى تراث المهديه ، ويؤثر (جب) أن يتتبع فكرة القطب والولايه ليعود بها إلى أصول مسيحية غنوسطية ، وثمة حقيقة تستحق الذكر هنا : هى اللبس الواضح فى معظم الدراسات المعاصرة إذ تذهب إلى أن القطب رمز غير مرئى فى العالم غير المنظور فحسب فى حين أن تراجم الصوفيه تبين أن اللقب مع ما دونه من الألقاب مثل الأبدال(١) قد خلع على أولياء كانوا أحياء ، وهو تقليد يجرى عليه العمل ويبدو سائدا حتى يومنا هذا ، وكان هؤلاء يعتبرون الممثلين الأرضيين لجماعة روحية خالدة.

وقد نتج من هذا التركيب (شيخ الفقراء) تلك الظاهرة فى التطور الشورى للحركة الصوفية التى مهدت الطريق من القرن الثانى عشر فصاعدا لقيام جماعات الأخوة الدينية الكبرى التى رسخت قواعدها فيما بعد على أيدى معجبين لاحقين حافظوا على تسمية وتقاليد الأساتذة الأصليين الذين شرحوا الطريق ، وقد أجمل (د . ب . ماكدونالد) طبيعة هـذه الطرق ومجالاتها ودورها فى هذا الوصف بعبارته المنسقة التالية : ولقد كان التنظيم فى مجموعه متحررا من قيود المحاباة ومن الدنيويات ، وما يجره معها من أحابيل ومراقيل ؛ وكان المجموع - كما يمكن القول - حلما جميلا . وكانت الطرق مستقلة ، وتعمل على ترقية نفسها بنفسها ، وكانت هناك منافسة بينها ، ولكن لا تتحكم واحدة منها فى الأخرى ، ولكل منها طريقها الخاص فى الاعتقاد والسلوك ، لا تحكمها إلا حدود المضمون الروحى العالمى للإسلام ، وكانت الشاذلية إحدى الطرق التى سميت باسم منشئها الشهير أبى الحسن الشاذلى (المتوفى سنة ١٢٥٦م) .

(تم البحث)

فتحى عثمان

(١) ويقال : إن الإبدال سبعة ، وهم يكونون أحد أقسام الحكومة الدينية ، وهم قوم وصلوا إلى الكمال والاستقامة فى ترقيهم الروحى . أنظر مثلا ابن اياد : المفاخر ص ١٣٠ .

الإسلام والحياة

للأستاذ محيي الدين الألوائي

إن العالم اليوم ينساق - طوعا أو كرها - إلى المبادئ التي أقرتها التعاليم الإسلامية ، ونادى بها الرسول الأعظم : محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . قبل أربعة عشر قرنا مضت . وما السر الخفي وراء هذا الانسياق الفطري ؟ مع أن هناك محاولات تبذل لتشويه تعاليم الإسلام الحقة ، وتزييف إرشادات القرآن الصحيحة !! . كما نرى أناسا من الذين يزعمون الانتماء إلى حظيرة الدين الحنيف يبتعدون عن تعاليمه وإرشاداته . فأما سر هذا الانسياق فأن هذه المبادىء ، وتلك التعاليم فطرية إلهية تتمشى مع تطورات العالم وبيئاته وظروفه . « فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله » .

فإن فطرة الإنسان ، ونواميس الطبيعة لا تتغير ولا تتبدل مهما حاول المزيفون ، وسعى المخرفون لإبعاد الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها ، فالقرآن كتاب الله المرقوم ، والطبيعة الكونية كتاب الله المختوم فكما لا يستطيع إنسان كائنا من كان ، تغيير شيء من الفطريات الإلهية ، والطبائع العالمية ، لا يستطيع أحد أن يبدل شيئا من القوانين الآلهية المنشورة في كتاب الله السماوي المرقوم ، فإن عناصر الخلود ، وعوامل الصلاحية ، لكل زمان ومكان متوفرة في تعاليمه التي تؤدي إلى تحقيق أسباب المجد والرقي والحضارة والرفاهية للجنس البشري كله .

ولا تفقد القوانين في صلاحيتها وقابليتها بسبب سوء فهم الناس لها ، أو الإهمال في العمل بها ، ويعود السبب الحقيقي لانكماش الناس عن تعاليم الإسلام ، وابتعادهم عن توجيهاته إلى سببين رئيسيين ، أولا : عـــدم الفهم - أو سوئه - لأساليبه وإرشاداته كما يجب أن يكون ، واتباع الأهواء والمصالح الذاتية في تطبيق قوانينه ، وتأويل أوامره ، وثانيا : هروب بعض العلماء - وأشباههم - وراء الألفاظ والكلمات ، مع غض النظر عن الحقيقة والغايات والإكتفاء بالسطحيات والابتعاد عن اللب والروح ، وفوق هذا وذاك فإن انهيار الأمبراطورية الإسلامية جعل الوهن والضعف واليأس يتسرب

إلى قلوب ضعفاء الإيمان من العلماء والباحثين فانهارت قوائم العلمية والبحثية ، واكتفوا ببعض المظاهر والتقاليد من الإسلام ، وهم من روحه ولبه براء !.

وإن كتاب الله المقدس المنزل على خاتم الأنبياء والرسل يحمل هدايته للناس كافة إلى يوم الدين فهو المكفل من رب الناس بحفظه وبقائه وخلوده : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، وأعد الله سبحانه وتعالى عبده ورسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم لأن يحمل رسالته للعالم أجمعه : أنسه وجنه ، أبيضه وأسوده ، وليكون شمس الهداية ، ومنار النور والعرفان ، فيقول الله سبحانه وتعالى فى معرض بيان مكانته عليه السلام ورسالته بين سائر الأنبياء ورسالاتهم : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ، يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ، ولا يكتمون الله حديثا » ثم يقول : « ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » .

ويقول رب العباد فى كتابه الحكيم عن مكانة أمة محمد عليه الصلاة والسلام بين الأمم « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » ويفهم هذا صراحة من قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وقوله تعالى : « هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس » .

وأما عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم للعالمين جميعاً ، واستجابتها لكل حاجات البشر فى جميع مرافق الحياة فيبدو جلياً من قوله عز وجل مخاطباً رسوله الأجل « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، وقوله فيه : « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً » .

وفى ضوء كل هذا وذاك من الأدلة العقلية والنقلية لم يبق للباحثين عن حقيقة التعاليم الإسلامية ، وعن مدى قدرتها لبناء الحضارة الإنسانية الحقة ، وإقرار الأمن والطمأنينة فى الجنس البشرى إلا الرجوع إلى كتاب الله المرقوم الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » ، وهو السجل الخالد المحفوظ من كل تغيير وتبديل ، والمصون من كل تخريف وتحريف وسنة رسوله الذى قضت حكمته لأن يحمله رسالته الكبرى وجعله أسوة حسنة للبشرية

جمعاء ، « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا » لأنه رسول الإنسانية قاطبة » : « يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً » .

نظرة الإسلام الى الحياة :

يصف الكتاب الحكيم الحياة الدنيا بأسلوب معجز ، ليس فى استطاعة أى بليغ مهما أوتى من قدرة الدقة فى التعبير ، وليس فى مقدور أى كاتب ملهم مهما بلغت مقدرته فى إجادة التصوير ، أن يحيط بوصف الحياة الدنيا الواقعية بأحسن منه إذ قال : « كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح » . وإن الله سبحانه وتعالى لم يترك الإنسان لأحلام اليقظة تلعب بعقله ، وتعبث بخياله كما تشاء بل أقام له دلائل قاطعة ، وبراهين ساطعة ، على أن الحياة الدنيا مملوءة بالمحن ، وسريعة الزوال ، وأودع خالق البشر والقوى فيه من الطبائع والغرائز ما يحمله على تنازع البقاء وحب السيادة ، ولكن رسالة كل فرد من الجنس البشرى — فى نظر الإسلام — هى القيام بالأعمال الصالحة التى تعود فائدتها عليه وعلى الناس فى حدود العمران والنهوض والتقدم ، مع التمسك بالتقوى والإحسان والإيثار والمحبة ، لكيلا يندفع الإنسان إلى الافتتان بهذه الحياة المطلية بالغرور الكاذب ، ويكف عن التكالب وراء حطام الدنيا البراق .

وقد شيد الإسلام صرح الحياة الناجحة على أسس الإيمان الصحيح ، والعمل الصالح فيقول القرآن الكريم : « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فلا يكفى الإيمان وحده لنيل الفوز والظفر فى الدارين ولإقرار الأمن والطمأنينة فى العالم ولكن يجب أن يكون مقرونا بالعمل الصالح . العمل الصالح لله عز وجل ، ولنفسه ولوالديه ولأقاربه ، ولوطنه ولمواطنيه وللعالم الإنسانى كله ، ولا شك أن الإيمان منشأ العمل الصالح ، والعمل الصالح مظهره ، فلكل منشأ مظهره ، ومن هنا صارت الأعمال الصالحة بكل معانيها ومظاهرها لازمة لسعادة الدارين ، ولإقامة العدالة الإجتماعية فى الجنس البشرى .

وأما الإسلام فدين العقيدة والعمل ، فيجب — بمقتضى تعاليمه — على كل إنسان أن يعمل عملا يفيد صاحبه وغيره على حد سواء ، وتظهر هذه الحقيقة النبيلة واضحة فى جميع تعاليم الإسلام التى أكدت بصراحة ووضوح أن الإنسان نتيجة عمله ، وأن هذه

الحياة حياة عمل وسعى ، : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى » « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

ويقول الشاعر العربى :

حياة الورى حرب ، وأنت تريدها
سلاما ، وأسباب الكفاح كثير
أبى سنة العمران إلا تطاحنا
وكدحا ، ولو أن البقاء يسير

ويقول أمير الشعراء شوقى رحمه الله :

قف دون رأيك فى الحياة مجاهدا
إن الحياة عقيـــدة وجهاد

ويمد الإسلام الإنسان جسميا وذهنيا لأن يواجه الحياة وهو بصير بأحوالها وخبير بشئونها ، فإن الإيمان بخالق الكون ، ووحدانيته ، وتفرده بالعبودية ، ومنح العون الحقيقى والإيمان بالآخرة ويوم الدين يربى فى صاحبه روح الاعتماد ، فى الشدائد ، على الله سبحانه وتعالى فيواجهها مطمئن القلب ويقبل على أداء واجبه نحو ربه ونفسه وأمته ووطنه فى ثقة وإيمان ، ويعتمد فى نجاحه ، بعد اتخاذ الوسائل الظاهرية على معونة الله وتوفيقه ، ونظرة من هذا القبيل إلى الحياة الدنيا تبعث فى قلب الإنسان الشجاعة والصدق فى العمل ، وتغرس فى نفسه احترام حقوق الغير وعزته وكرامته ؛ لأن الناس سواسية أمام الله - لا تفاضل بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وكلهم مسئول أمامه « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

ويقرر الإسلام أن الإيمان يجب أن يكون منشأ للعمل كما يكون العمل مظهرا له ، فإنه لا يوجد مظهر بلا منشأ ، فلذا يقرن القرآن الكريم الايمان دائما ، بالعمل ، كما يقول فى سورة العصر « والعصر إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ، وفى ســـورة التين : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فيا حبذا لو تمكنت هذه الفكرة القرآنية السامية فى قلب كل إنسان يتطلع إلى النجاح فى هذه الحياة الدنيا فإن العمل الناشىء من صميم العقيدة الراسخة فى القلب هو الذى يؤدى إلى النجاح وبلوغ المرام .؟

محى الدين الألوائى
المدرس بكلية الطب - جامعة الأزهر

أثر اليتيمة فى أدب الأندلس

للأستاذ محمد رجب البيومى

— ٢ —

لقد ذكر ابن بسام فى مقدمة كتابه أنه اتخـذ تقسيم الثعالبي منهجاً له ، فهو يقسم الذخيرة أربعة أقسام كما قسم الثعالبي اليتيمة أربعة أقسام ، وهذا التقسيم جغرافى كتقسيم صاحبه فلـكل إقليم شعراؤه مهما اختلفت منازعهم الأدبية ! فقسم لقرطبة وما يليها من وسط الأندلس وقسم لإشبيلية وماجاورها من الغرب ، وقسم لبلنسية وما يليها من الشرق وقسم أخير للوافدين من المشارقة إلى الأندلس ! وهكذا سار سير الثعالبي حين جعل اليتيمة أقساما أربعة : قسم لأشعار أهل الشام وما يجاورها ، وقسم لأشعار أهل العراق ، وقسم فى محاسن أشعار أهل الجبل والقسم الرابع فى محاسن أهـــل خراسان وما وراء النهر ، وهذا الاحتذاء السافر يتضمن اعتراف ابن بسام بمنهج أستاذه فهو فى رأيه كما نقل صاحب الوفيات عنه ح ١ ص ٥٢١ .

« كان فى وقته راعى تلعات العلم ، وجامع أشتات النثر والنظم ورأس المؤلفين فى زمانه وإمام المصنفين بحكم أقرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضربت إليه آباط الإبل ، وطلعت دواوينه فى المشارق والمغارب طلوع النجم فى الغياهب » هذا الاحتذاء المقصود دفع المعاصرين من باحثينا الأفاضل إلى موازنات مختلفة بين الرجلين ؛ فالدكتور طه حسين يقول فى مقدمة الذخيرة الجزء الأول ا - ص ب « وهو يصطنع ما اصطنعه الثعالبي من السجع والتأنق فى تقديم الشعراء والكتاب ، والتعريف بهم ، والثناء عليهم والنقد لهم ، ولـكنه بعد هذا كله يخالف الثعالبي فى أمر ذى خطر ، فهو أبعد منه نظرا ، وأنفذ منه بصيرة وأعمق تفكيرا ، وهو على تكلفه فى اللفظ لا يخدع بالرواء الظاهر عما وراءه من جودة المعنى أو رداءته ومن صواب التفكير أو خطئه ولعله أن يكون أفقه من الثعالبي بالحياة الأدبية فى إقليم من الأقاليم ، فهو أدق منه ملاحظة لما يكون من الصلة القوية بين طبيعة الإقليم ، وماينتج فيه من أدب بل بين طبيعة الأجناس البشرية وما تنتج من أدب بل بين ما يكون من مجاورة الأمم المختلفة وما تنتج من الأدب الخ » .

والأستاذ على أدهم يقول فى العدد ٦٦٠ من الثقافة « ويبدو لى أن الثعالبي كان

على فضله وسعة اطلاعه أكثر خضوعا لأحكام القدماء من ابن بسام ، وأنه كثيرا ما يخدعه البهرج ويحسب الشحم فيمن شحمه ورم ، أما ابن بسام فإنه نافذ النظر ، سليم الذوق بارع الناقدة دقيق الملاحظة ، لا يخدعه الطلاء المموه ، ولا تضل تفكيره الألفاظ الضخمة المدوية أو الطنطنة العالية » .

ومن يقرأ الذخيرة يعرف أن مؤلفها يعلم كل العلم موقفه من صاحب اليتيمة ، فهو على اعترافه بمتابعته يعلن أنه خالفه فى أمرين جوهريين : الأول ما أفاض فيه ابن بسام حين قال : المجلد الأول ، القسم الأول ص ٢٣ .

وقد وعدت فى صدر هذا الكتاب بأن أتخلل أشعار الشعراء ورسائل الكتاب والوزراء بمعاصى أن يتعلق بأذيالها ويساير أفياء ظلالها ، من أنباء فتن ذلك الزمان البعيد - كان - طلقها ، المفرق لشمل الأمر فى هذه الجزيرة نسقها ، ونلمع بقبذ من مشهور وقائعها ونشير بأسماء طوائف زوابعها وتوابعها ، ليجمع هذا المجموع بين الشعر والخبر ، جمع الروضة بين الماء والزهر والزمان بين الأصائل والبكر ، فإنى رأيت أكثر ما ذكر الثعالبى من ذلك فى يتيمته محذوفا من أخبار قائليه ، مبتورا من الأسباب التى وصلت به وقيلت فيه فأمل قارىء كتابه منحاه وأحوجه إلى طلب ما أغفله من ذلك فى سواه » .

فهو ينعى على الثعالبى إغفال الحوادث والتواريخ ثم ينعى عليه مرة أخرى ذكر الفاحش من الأهاجى والماجن من القول فيقول بالقسم الثانى من المجلد الأول ص ٦٢ .

والقسم الثانى هو السباب الذى أحدثه جرير وطبقته وكان يقول : إذا هجوتم فأضحكوا وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتا ، ولا عيرت به قبيلة ، وهو الذى صنا هذا المجموع عنه وأعفيناه أن يكون فيه شىء منه ، فإن أبا منصور الثعالبى كتب منه فى يتيمته ماشانه وسمه ، وبقى عليه إثمه ، ونسأل بعد ذلك ، هل تقيد ابن بسام بمنهجه ! أما الذى يعرفه قارىء الذخيرة - ما نشر منها - فهو أنه لم يقدر على الإحاطة بالتواريخ والأخبار جميعها ، ولكنه بذل الجهد المستطاع ، وبقى ما بقى مما يتطلب البحث الجديد ، كما أن قارىء الذخيرة يعرف أن ابن بسام ترخص فى ذكر بعض الماجن من القول رغم حملته على الثعالبى بل العجيب أنه قبل هذه الحملة بصحيفتين فقط ص ٦١ يذكر أبياتا قذرة يقول : إنها من الكنايات المليحة التى تعرض بأمير المؤمنين على بن أبى طالب وكان له عنها محيد .

على أن ابن بسام مع هذا لا يقارن بمعاصره الفتح بن خاقان بحال ، مهما اضطرت

معاصرتهما كثيرا من النقاد إلى هذه المقارنة وإن عظم تأثرهما باليتيمة ويكفى أن نلخص السبب فى جملة واحدة هى أن ابن بسام جاد والفتح هازل ، فليس إلى إلتقائهما من سبيل!

ومن المفيد أن نوضح وجهة نظرنا فى ذلك، فننظر إليهما رجلين وأديبين ، لنرى الفتح يندفع فى استهتاره إلى ما يشين ، ثم يتطاول على الناس بالحق وبالباطل معا ، وهو حين عمد إلى التأليف لم يصدر عن رغبة فى اجتلاء حقائق الأدب والتاريخ ، ولكن اتخذ قلمه وسيلة للتكسب المقيت ! فهو يرسل إلى أدباء عصره ومشهورى مصره يحدثهم عن رغبته فى تأليف كتاب أدبى يتحدث عنهم، ويلتمس ما لديهم من الشعر والنثر ثم ينتظر ما يجىء ؛ فإن كان الرد مصحوبا بالبدر الثمينة والهدايا النفيسة أطلق أرسان المديح إلى أبعد الأشواط ، وإن تقاعس عنه ذوو الشمم ممن يأنفون أن يكونوا لعبة فى يد لاعب أو يترفعون أن يشتروا المدح الزائف بمال مقرر مفروض ! فإن الفتح يشويهم بسياطه ويستعدى عليهم الحكام والناس ، ويصدر فى كل ذلك عن ذوق مريض ! لقد أرسل إلى الوزير الفيلسوف النابغة أبى بكر بن الصائغ المعروف بابن باجه يسأله بعض أشعاره مع ما يطمع فيه من المال ، فما التفت إلى دعوته ، ورأى فيه وصوليا يبتز المال من طريق بغيض ! ومثل ابن باجه لا يتأتى له أن يقدر سلوك الفتح وأدبه معا فهو فى الأول متسول محترف ، مع ما عرف عنه من العربدة واصطحاب السفلة وغشيان الريب ، وهو فى الثانى ينمق أسجاعا فارغة لا يراها الفيلسوف تهدف إلى جلاء حقيقة ملموسة ، أو تساعد على فهم ظاهرة مستعصية ! فما الذى يجذبه إليه مع هذه القبائح ! لقد عز على الفتح أن يهمل ويغفل فكتب فى القلائد فصلا عن الفيلسوف أملاه الحقد والضغينة والثأر قال فى مقدمته « هو رمد عين الدين وكمد نفوس المهتدين اشتهر سخفا وجنونا وترك مفروضا ومسنونا فما يتشرع ، وما يأخذ فى غير الأضاليل وما يشرع ، ناهيك من رجل ما تطهر من جنابة ، ولا أظهر مخيلة إنابة ، ولا استنجى من حدث ولا أشجى فؤاده بتوار فى جـــدث ولا أقر بباريه ومصوره ولا فرد يباريه فى ميدان تهوره ، الإساءة لديه أجدى من الإحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان ، نظر فى تلك التعاليم ، وفكر فى أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ورفض كتاب الله الحكيم ، واقتصر على الهيئة ، وحكم للكواكب بالتدبير ، واجترأ عند سماع النهى والإيعاد ، واستهزأ بقوله تعالى « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى ميعاد » .

لوكان الفتح يعتقد ذلك فى ابن باجه عن صدق وإخلاص لوجد العذر من الناس فى تسجيل ما سطر ، وافق الحق أو جافاه ، ولكنه كشف نفسه حين تراجع الوزير عن موقفه منه كفا لشره فنفحه ببعض المال ، فأطفأ جذوة غضبه، واندفع إلى كتابة جديدة ملأها بالثناء الحافل ، ولم يدخر وسعا فى تنميق صفحة مضادة للأولى فى كتابه مطمح الأنفس يقول فيها عنه :

« نور فهم ساطع وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوجت بعصره الأعصار ، وتأرجت من طيب ذكره الأمصار ، وقام وزن المعارف واعتدل ، ومال للأفهام فننا وتهدل إذا قدح زند فهمه أورى بشرر الجهل محرق ، وإن طما بحر خاطره فهو لكل شىء مغرق ، مع نزاهة النفس وصونها ، وبعد الفساد من كونها ، والتحقيق الذى هو للإيمان شقيق ، والجد ، الذى يخلق العمر وهو مستجد ، وله أدب يود عطارد أن يلتحفه ، ومذهب يتمنى المشترى أن يعرفه ، ونظم تعشقه اللبات والنحور ، وتدعيه مع نفاسة جوهرها البحور » .

هذان نصان متعارضان يكشفان عن معدن الرجل ! وهما أيضا يكشفان عن خصائص أدبه ، ولا يشرفانه فى مجال الموازنة بينه وبين معاصره ابن بسام إذ أن صاحب الذخيرة قد تجافى عن بعض أخطاء يتيمة الدهر حين حاول تقييد الحوادث وتسجيل التواريخ ما استطاع !! أما الفتح فقد فهم بتأثير اليتيمة من ناحية ، وطبيعة الجو السائد من ناحية ثانية أن الكتابة معارض ألفاظ ، ومتاحف أسجاع ، وتطبيقات مدرسية للجناس والطباق والتورية ! أما أن تكشف عن حقيقة ، أو توضح فكرة ، فهذا مالا يبتغيه الفتح أو يعتقده ! ومع هذا فقد وجد من الأدباء من يقبلون تنميقه ، ويرتضون تلفيقه ، فلسان الدين بن الخطيب يقول عنه : « كان آية من آيات البلاغة لا يشق غباره ولا يدرك شأوه عذب الألفاظ ناصعها ، أصيل المعانى وثيقها لعوبا بأطراف الكلام ، معجزا فى باب الحلى والصفات» وابن سعيد يقول فى المغرب عنه : الدهر من رواة قلائده وحملة فرائده ، طلع من الأفق الأشبيلى شمسا طبق الآفاق ضياؤها وعم المشرق والمغرب سناها وسناؤها وكان فى الأدب أرفع الأعلام ، وحسنة الأيام ... وهو وأبو الحسن بن بسام صاحب الذخيرة فارسا هذا الأوان ، وكلاهما قس وسحبان ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييدا ، وعلما مفيدا وإطنابا فى الأخبار ، وإمتاعا فى الأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف وكلامه أكثر تعلقا وتعشقا بالأنفس ! »

ويزول العجب من هذين القولين حين نعرف أن لسان الدين بن الخطيب وابن سعيد

المغربى كليهما من تلاميذة الثعالبى وهواة اليتيمة ! وخطتهما فى التأليف ترتضى الإكثار من القول والمباهاة بالزركشة اللفظية والزخرفة البديعية ! وذلك داء العصر ومنحاه ، فلا غرو أن هاما بأسلوب الفتح بن خاقان ! ولو رجع بهما الزمن إلى هذا العصر لسمعا الدكتور أحمد أمين يقول عن صاحب القلائد فى ظهر الإسلام حـ ٣ ص ٢٨٣ :

(وأسلوب الذخيرة أقرب إلى نفوسنا فهو لا يلتزم السجع كما يفعل ابن خاقان ، وأسلوب الفتح هـــذا أجوف يلعب بالألفاظ والاستعارات لعب البهلوان ! !

لقد شغلت منذ أعوام بدراسة الفلسفة الإسلامية بالأندلس ، فطالعت نبذا من آراء ابن باجه وابن طفيل وابن رشد ، وعرفت أن هناك فيلسوفا آخر هو الفضل بن شرف فحاولت أن أقف على سيرته ، وطفقت أبحث عنه فى كتب التراجم ، حتى عثرت على قول الفتـــح .

« الناظم الناثر ، الكثير المعالى والمآثر ، الذى لا يدرك باعه ، ولا يترك اقتفـــاؤه وأتباعه ، إن نثر رأيت بحرا يزخر ، وإن نظم وقلد الأجياد درا تباهى به وتفخر ، وإن تكلم فى علوم الأوائل بهرج الأذهان والألباب ، وولج منها فى كل باب ، وقد كان أول ما نجم بالأندلس وظهر ، وعرف بحوك القريض واشتهر ، تسدد إليه السهام ، وتنقده الخواطر والأوهام فلا يصاب له غرض ، ولا يوجد فى جوهر إحسانه عرض وهو اليوم بدر هذه الآفاق ، وموقف الاختلاف والاتفاق ، مع جرى فى ميدان الطب إلى منتهاه ، وتصرف بين سمـــاكه وسهاه ، وتصانيف فى الحكم ألف منها ما ألف ، وتقدم فيها وما تخلف ، فمنها كتابه المسمى « يسر البر » ومنها الكتاب الملقب بنجح النصح ، وسواها من تصانيف اشتمل عليها الأوان وحواها » هذا كله ماقاله الفتح ، وقد أخذت أضرب كفا بكف بعد قراءته ، وأسال نفسى : ماذا قدم لى المؤرخ الكبير غير بديع وأسجاع وزركشة وابتداع ؟! وكان مما أسعدنى أن أجد الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى صاحب مجلة البيان رحمه الله يحار مع الفتح حيرتى ، وينشر مقالا بالرسالة (١٤٩) سنة ١٩٣٦ يقول فيه بعد أن نقل كلام الفتح « وقد جرى الفتح فى هذه الترجمـــة على شنشنته فى سائر تراجمه ، فلم يذكر اسم المترجم له ولا اسم أبيه ولا منشأه فضلا عن أنه أغفل تاريخ مولده ووفاته ، كذلك لم تر لغير الفتح ترجمة لهذا الأديب الكبير يصح أن تسمى ترجمة يعول عليها » . ا هـ)

تأصلت إذن طريقة اليتيمة فى المؤلفات الأندلسية ، احتذاها الفتح شبرا بشبر ، ووقع فى بعض أخطائها ابن بسام ، ولولا

تشبه بمؤلفات ابن حيان لجعلها هو الآخر مثالا يحتذيه أما الحجـــارى وابن سعيد والمراكشى وابن الخطيب والمقرى ، وأما أضرابهم من مؤرخى عصر الطوائف وما يليه فقد أصابهم من تأثيرها الساحر ما لا نزال نرى عقابيله فيما نقرأ لهم من التصانيف ، ! ولم يقتصر نمط اليتيمة على الأفق الأندلسى وحده ، ولكن بريقه الساطع قد جذب إليه مترجمى المشارقة ممن فتنوا به ، ونسجوا على منواله ، لقد حاول أبو منصور أن يجعل اليتيمة بأجزائها الأربعة ذيلا لكتاب البارع فى أخبار الشعراء الذى تقدم به هرون بن على بن المنجم المتوفى ٢٨٨ هـ » .

ثم جاء من بعد الثعالبى أبو الحسن على بن الحسن الباخرزى المتوفى سنة ٤٦٧ هـ وألف كتابه دمية القصر وقد جعله ذيلا لليتيمة نهج به نهجه وقلد عبارته وأسجاعه ثم جاء أبو المعالى سعد بن على الوراق الخطيرى المتوفى ٥٦٨ هـ وصنف كتاب (زينة الدهر) جاعلا إياه ذيلا على كتاب الباخرزى دمية القصر ثم ظهر الكاتب الأشهر العماد الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ فأصدر خريدة القصر وجريدة أهل العصر ... وكل هذه الذيول المطولة تنهل من مورد الثعالبى ، وتنهج نهجه !! وهى بعد مشرقية لا أندلسية ؛ ثم توالت المؤلفات التاريخية تحمل الطابع البديعى وكان العصر المملوكى فى الشرق وعصور الزوال بالأندلس قد استطابت هذا اللون وارتضته عن إجماع لا يخرج عنه إلا كاتب عبقرى كابن خلدون ! !

كان أبو منصور الثعالبى يبذل جهده الحافل فى جمع الأشعار البعيدة ، وسؤال من يلقاهم عمن يعرفون من الشعراء ، وإذا صادف أديبا مصريا أو أندلسيا أو فارسيا فرح به وأخذ ينقل عنه ما يروى ، وأنت تقرأ بعض تراجمه للشعراء ، فتجده لا يكاد يعرف عن الشاعر شيئا إلا ما سمع من أشعار ، فيضطر اضطرارا أن يكتب له ترجمة إنشائية تنحو منحى المقامات ، وتصلح لكل شاعر ينظم الشعر ، كما تباع الملابس فى المحلات التجارية ، ليشترى منها الآباء لأبنائهم غيبا ما يخالونه يتناسب ، وقد يلبس الابن حلته المشتراة فإذا بها ليست مما يصلح له ، ولكنه مضطر إلى ارتدائها ، كما اضطر القارىء أن يقبل تراجم الثعالبى للشعراء فى اليتيمة وإن لم تبرز قسماتهم وشياتهم على اتضاح ، والحق أن صاحب اليتيمة بذل طاقة قوية فى حفظ تراث الشعراء من بنى عصره ، ولولاه ما استطعنا أن نعرف شيئا عن أكثر من روى لهم من الشعراء لأن المغمورين لديه أضعاف أضعاف المشتهرين ! ولكن طريقته فى السؤال عن الأدباء واستهدائهم بعض أشعارهم قد انتقلت إلى من بعده ، فكان ابن بسام يكتب لأدباء زمانه طالبا نماذج

قوية من أشعارهم ليضمها إلى الذخيرة ، فيفد إليه ما يريد ! وكل مسئول لا محالة يهدى من قوله أطيب ما يستحسن فى رأيه ، وهذا حسن إذا جاء الأمر من بابه ، ولكنه انقلب تسولا شائنا على يد الفتح بن خاقان بل صار أداة إرهاب وهجو واستعداء ، وأذكر أن الطبيب الذائع والفيلسوف الماهر أبا العلاء زهر لم يتقبل أن يجيبه على شىء ، فكتب الفتح رسالة فاحشة فى ثلبه وتقدم بها إلى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، محاولا أن يتهمه بالإلحاد والمروق ، كما أن طريقة الثعالبى فى الاعتماد على الوافدين غير مأمونة فقد يروى أديب لشاعر ماليس له عن قصد وعن غير قصد ! ولابد أن تكون هناك نماذج كثيرة فى اليتيمة والدمية والخريدة والذخيرة والقلائد والمطمح ليست لأصحابها على وجه التأكيد ، مهما يكن من شىء فنحن فى معرض إنصاف الثعالبى نقرر أنه بذل أقصى ما يستطيع ، وأن هيامه بالأدب قد دفعه إلى تشييد معقل قوى من معاقله حفظ جانبا من تراث القرنين الرابع والخامس معا ؟ أما قصور تراجمه وتراجم من بعده عن أن تقدم التاريخ الحى فى أكثر ما دبج ، فيواجهنا بمهمة خطيرة ، إذ ينبغى أن يحرص ناشرو هذه المجلدات من علمائنا المحققين على استيفاء النقص ما أمكن ، فلابد ـ إن صدق الناشر المحقق فى إخراجه ـ أن يضع فى هامش كل ترجمة مايصل إليه جهده الباحث من أخبار صاحبها ذاكرا ما وقف عليه من المراجع والمصادر ! فإذا اتجه أصلاء المحققين من الناشرين هذه الوجهة فلابد أنهم سيجدون الجيد المفيد ، وبلك أن تتصور معى اليتيمة والخريدة وأضرابهما وقد عولجت هذا العلاج ، فأكلت ما تيسر من النقص ؛ وأصبحت مرجعا أدبيا وتاريخيا معا ؟ ومن المحقق أن بعض من ترجم لهم فى هذه الموسوعات لا نجد من المصادر المعاصرة ما يمدنا عنهم بشىء ، ولكن من المحقق أيضا أن كثيرا من هؤلاء قد كتب عنهم فهم يتطلبون عناية المحقق واهتمامه ، إن كان كفئا لعمله إذ من المقرر أن يضطلع بالنشر بحاثة متمرس ضليع قواد أما الذين يكتفون بالنشر الخاطف فهم وراقون !

لقد نشر الأستاذ الجليل أحمد يوسف نجاتى رحمه الله تسعة أجزاء من كتاب نفح الطيب عن دار المأمون قام بتحقيقها واستيفاء النقص فيما ورد من تراجمه ، فلم تتكاءده عقبة ما فى طريقه بل كان اطلاعه الثاقب الشامل ـ وإن أسرف أحيانا ـ يمده بجميع ما يريد ، ولو صدق محققو التراث الأدبى صدق الأستاذ نجاتى لتلافوا النقص ، وقوموا المائل ، ومهدوا الطريق . . .

محمد رجب البيومى

من شيم العلماء وشغفهم بالعلم

للأستاذ محمود الشرقاوي

— ٢ —

« إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور » .

هذه الآية الكريمة كانت وما تزال وستبقى بقاء الدهر هاديا ونبراساً لكل عالم يضيء قلبه بنور الإيمان والعلم ، وتعتز نفسه ، ويوقن ضميره بأن خشية الله تمنعه أن يخشى سواه ، وأن الله مانحه العزة — والعزة لله جميعاً — جزاء شجاعته في الحق ، وخشيته له وحده ، وقد رأينا أمثلة من ذلك في مقالنا السابق .

وفي تاريخ علمائنا أمثلة تفوق الحصر نستوحي منها ما يجب أن توحيه من العظة والعبرة واستلهام القدوة .

١ — قصة يعرفها مؤرخو الفقه والحديث ومؤرخو الإمام مالك على وجه خاص : خلاصتها أن مالكا روى حديثاً عن رسول الله عليه السلام يقول : (ليس على مستكره طلاق) وكان أبو جعفر المنصور يأخذ لنفسه البيعة من الناس ويحلفون له بذلك ، وأراد خصوم مالك أن يكيدوا له فدسوا عليه بأنه يقصد بروايته لحديث بطلان الطلاق من المقسمين به : البيعة . حتى يتحلل المقسمون من قسمهم وبيعتهم .

واستمع جعفر بن سليمان ، والى المدينة من قبل أبي جعفر إلى كيدهم فطلب إلى مالك أن يكف عن رواية هذا الحديث ، وزاد الأمر شدة وتعقيدا ، كما زاد جعفرا سخطاً وغضباً ، أن خرج على الخليفة — في الوقت نفسه — محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية ، وأخذ يدعو لنفسه ، فأمر جعفر مالكا أن يكف عن حديثه ، ولا يرويه لأحد ، ولكن مالكا أبى أن يكتم حديثاً تحقق روايته وثبوته عن رسول الله ، فجاء به جعفر ، وطرحه على الأرض ، وأمر بأن يضرب بالسياط ، وضرب مالك ، وشدت يده حتى انخلعت كتفاه ، ولكنه صبر على المحنة ، وأبى أن يخشى إلا الله ، وأن يخون أمانة العلم ، وتناقل الناس ما حل بمالك ؛ فسخطوا وبلغ سخطهم مسامع الخليفة فلما قدم للحج دعا إليه مالكا ، واعتذر له بكلمات صادقة غاضبة يقول فيها : والله ما أمرت بالذي كان ولا علمته ، وقد أمرت بعدو الله جعفر أن يؤتى به على قتب : « رحل » ، وأمرت بضيق محبسه والمبالغة في امتهانه ، ولا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه) .

ولكننا نجد مالكا وقد سمت نفسه إلى مثل عليا كريمة يطلب إلى الخليفة أن يعفو عن جعفر لقرابته من رسول الله ومن الخليفة .

وشبيه بهذه القصة ما جرى للإمام أحمد فى المحنة المشهورة : « خلق القرآن » .

٢ — وروى السيوطى أن الملك الكامل أراد أن يشهد فى قضية أمام القاضى ابن عين الدولة ، فقال له القاضى : السلطان يأمر ولا يشهد ، وأخذ السلطان يجادله حتى قال له : أما تريد أن تقبل شهادتى ... ؟ قال القاضى : لا أقبلها وأنا أعرف أن المغنية « عجيبة » تصعد إليك كل ليلة فتسمع غناءها وتمايلها إلى الصبح ... ؟ وغضب الملك فوجه للقاضى — بالفارسية — كلمة شتم ، وأدرك الشيخ ذلك فأعلن عزل نفسه عن القضاء ، وأشهد من حضر المجلس على هذا العزل ، ونهض بعضهم إلى السلطان يخوفه عاقبة ذلك ، فقام السلطان بنفسه إلى الشيخ فترضاه وطلب إليه أن يبقى فى القضاء .

٣ — وعاد جيش (بيبرس الجاشنكير) و (سلار) نائبى السلطان المظفر (قطز) مهزوما من إحدى وقائع التتار فى سوريا لم ينتصر كما انتصر قبله جيش سابق ، وأراد الأميران أن يجمعا مالا من الشعب ليعاودا الحرب ، فوقف لهما ابن دقيق العيد وأبى عليهما ذلك ، وقال رجل من المنافقين : إن شيخ الإسلام العز بن عبد السلام أفتى بذلك للسلطان من قبل ، فقال ابن دقيق العيد : إن شيخنا العز بن عبد السلام لم يفعل ذلك إلا بعد أن جمع (قطز) كل ما عنده وعند حريمه وأمرائه من الجواهر والأموال قبل أن يجمع شيئا من الشعب ، وكيف أبيح الآن لنائبى السلطان أن يأخذا أموال الشعب وأنا أعرف أن الأمراء يكنزون الذهب والجوهر ، وأن بعضهم كان فى جهاز بنته الكثير من الذهب واللؤلؤ وأوانى الفضة الخالصة ، ومنهم من يضع الجواهر فى (شبشب) زوجته ، يريد الأمير بيبرس ، والله لا أفعل ذلك أبدا ولا أفتى به .

(٤) وكان حكام مصر ، فى القرن الماضى ، من الجهل والغفلة والبلاهة بحيث يعتقدون أن (تلاوة) البخارى — مع ضعف العتاد ونقص الاستعداد — تكفل لجيوشهم النصر كأنهم لم يقرءوا ولم يسمعوا قول الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

كانت الحرب تدور بين مصر والحبشة ، ووقعت هزائم كبيرة على جيش إسماعيل ، وخرج هـذا يوما ومعه رئيس وزرائه شريف باشا وهو ضيق الصدر لما وقع بجيشه ، وتحدث إلى شريف فى أن يرشده ويشير عليه ، فقال له شريف : إنى إذا ضقت بشىء أو وقع لى مكروه دعوت العلماء الأطهار فقرءوا صحيح البخارى فتنفرج الشدة . عند

ذلك أمره إسماعيل أن يتكلم فى ذلك الشيخ العروسى شيخ الأزهر واجتمع العلماء أمام (القبلة القديمة) فى الأزهر يتلون صحيح البخارى، ولكن الهزائم ظلت تتوالى على جيش إسماعيل، فذهب إسماعيل ومعه وزيره شريف إلى مجلس العلماء، وقال لهم وهو غاضب: إما أن هذا الذى تقرءونه ليس صحيح البخارى وإما أن تكونوا لستم من العلماء الصالحين فإن الله لم يدفع بتلاوتكم شيئا، فوجم الشيوخ وبهتوا، ولكن صوتا من آخر الصف علا وجبه إسماعيل ووزيره بقوله: منك يا إسماعيل إنا حفظنا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم).

وترك إسماعيل ووزيره مجلس العلماء واجمين، ثم طلب إسماعيل أن يرى الشيخ فى قصره، فلما دخل عليه طلب إليه أن يعيد ما سمعه منه فى «الأزهر» فأعاده، ثم أخذ يلقى على سمع إسماعيل ما صنع من الشر والخروج على الشريعة، ثم قال بعد ذلك: ما ذنب البخارى وما حيلة العلماء..؟ وكان إسماعيل يسمع، وهو مطرق صامت لا يجيب.

هؤلاء العلماء قد استمعوا وائتموا بالآية الكريمة: إنما يخشى الله من عباده العلماء، وكانت لهم أسوة وقدوة فى هذه الكلمة المؤمنة الشجاعة التى قالها أبو ذر: (والله لو وضعتم الصمصامة على هذه - وأشار إلى قفاه - ثم ظننت أنى أنفذ كلمة سمعتها عن النبى عليه السلام قبل أن يجيزوا على لأنفذتها).

كرم وسماحة:

كذلك من شيم العلماء أن يكونوا كرماء سمحة نفوسهم.

١ — ذكر القرطبى، صاحب التفسير، أن الإمام الشافعى كان يمشى بثوب واحد وعلى رأسه طاقية، ومع ذلك كان يفرق ما يرد إليه من الهبات الضخمة الكبيرة عندورودها إليه، ولا يفارق مجلسه قبل أن يفرقها.

٢ — وكان أبو حنيفة يتاجر ويجمع ربحه فيشترى به لشيوخ المحدثين حاجتهم ثم يعطيهم ما بقى ويقول لهم: لا تحمدوا إلا الله فإنى ما أعطيتكم شيئا من مالى، فهو فضل الله عليكم يجريه على يدى.

وكان - كما وصفه تلميذه أبو يوسف - لا يكاد يسأل عن حاجة إلا قضاها.

ويقول سفيان بن عيينة إن أبا حنيفة: (وجه إلى هدايا استوحشت من كثرتها، فشكوت ذلك لبعض أصحابى فقال: لو رأيت ما بعث به إلى سعيد بن أبى عروبة). ويقول إنه ما كان يدع أحداً من المحدثين إلا بره براً واسعا.

٣ — وكان الشيخ قاضى القضاة «ابن دقيق العيد» فقيراً يصفه مؤرخوه بأنه كان يستدين، أكثر أيامه، وذكر المقريزى أنه - وهو قاضى القضاة - طلب من زوجته

درهما يشترى شمعة فلم تجد . ومن شعره يصف حاجته وفقره :

لعمرى لقد قاسيت بالفقر شدة
وقعت بها فى حيرة وشتات

فإن بحت بالشكوى هتكت مروءتى
وإن لم أبح بالصبر ، خفت مماتى

فأعظم به من نازل بملة
يزيل حيائى أو يزيل حياتى

ولكنه ، مع هذا الشمم وهذه الصيانة ، كان يبذل من ماله القليل فى معونة المحتاجين من تلاميذه ومعارفه . يقول تلميذه القونى : إنه كان يعطيه فى كثير من الأوقات الدراهم والدنانير . ويقول أحد نوابه فى القضاء - وهو الشيخ نجم الدين محمد عقيل - إنه عندما اختاره نائبا أعطاه مائتى درهم . ومن قصص كرمه وسماحته ما تحدث به تلميذه ، محمد الحواسيى القوصى ، حيث يقول : كان الشيخ يعطينى فى كل وقت شيئا من المال ، على قدر ما يستطيع ، وأصبحت يوما مفلسا فأرسلت إليه ورقة كتبت فيها : تلميذك محمد القوصى فى شدة ، فأرسل لى مالا . وفى اليوم الثانى أرسلت إليه ورقة كتبت فيها : تلميذك محمد الحواسيى فى شدة ، فأرسل لى مالا ، وفى اليوم الثالث كتبت له : تلميذك محمد فى شدة ، فأرسل يطلبنى ، ثم قال لى : محمد القوصى أعرف أنه أنت ، فمن هو محمد الحواسيى .. ؟ قلت : أنا ، فقال : ومن محمد الثالث .. ؟ فقلت : أنا .. ! فقال : تكذب على وتدلس .. ؟ ! قلت الضرورة والحاجة ياشيخى رفع الله عنك الضر ، فضحك وأعطانى .

* * *

هذه الشمائل الغراء والشيم الكريمة وضعت العلماء فى تلك المكانة الشامخة والمنزلة السامية والكرامة العزيزة التى تدرك مداها من هاتين القصتين :

١ - الخليفة « المعتضد » يطوف فى بستان ، ومعه ثابت بن قرة الحرانى ، وكان الخليفة يضع يده فى يد ثابت وهما يسيران ، ثم جذب يده من يد ثابت فقال ثابت : ما بدا يا أمير المؤمنين . ؟ وأجابه الخليفة : كانت يدى فوق يدك ، والعلم يعلو ولا يعلى .

٢ - دخل خوارزم شاه يوما قصره وهو راكب ، وكان أبو الريحان البيرونى داخل القصر فطلب أن يراه . وأبطأ البيرونى قليلا فظن خوارزم شاه أن البيرونى قد ساءه أن يستدعيه ، وثنى عنان فرسه ليذهب إليه وشاهد البيرونى وهو قادم ، وهم أن ينزل من على ظهر فرسه ، ولكن البيرونى سارع إليه وأقسم عليه ألا يفعل ، فأنشد خوارزم شاه :

العلم من أشرف الولايات
يأتيه كل الورى ، ولا يأتى

ثم قال : لولا رسوم الملك ما استدعيتك . فالعلم يعلو ولا يعلى ؟

محمود الشرقاوى

إلى أى مدى تتغير الأحكام الشرعية بتغير الأزمان؟

للأستاذ بدر عبد الباسط

— ٥ —

المصالح المرسلة :

إن أوسع أبواب الفقه قبولا لفكرة التطور باختلاف العصور هو باب المصالح المرسلة وإن هذا الباب هو - كذلك - أخطرها مسلكا وأكثرها تشعبا ويتطلب أن يكون المقنن أو المفتى أو القاضى أو الحاكم على بصيرة من دينه وأن يكون خبيراً بقواعد الشريعة العامة حتى لا تضل به الأهواء .

وقد بينت فى المقال السابق أن المصالح العامة التى حرص الإسلام على حفظها وصيانتها ، وتعتبر من مقاصد الشريعة فى جميع ما جاءت به من أحكام هى خمس ، وهى : حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال .

كما بينت أن المصالح - بالنظر إلى اعتبار الشارع - تنقسم إجمالا إلى ثلاثة أقسام :

١ — مصالح اعتبرها الشارع وأدار عليها الأحكام إما بالنص عليها بذاتها ، وإما باعتبارها صالحة لأن يدار عليها أحكام من جنس الأحكام التى نص أو أجمع على تعليل الحكم بها .

٢ — مصالح ألغاها الشارع ولم يقم لها وزنا كما مثلت بالربا وبالتبنى ، وغير ذلك كثير ، وعند تحقيق الأمر - من غير تعصب - تجد أن هذه المصالح قد اكتنفتها مفاسد تربو عليها فكانت حكمة الحكيم أن لا يقيم لها وزنا ، وهذه ما تعرف بالمصالح الملغاة .

٣ — مصالح لم يعتبرها الشارع ، ولم يلغها بل سكت عنها ، وهذه هى التى تعرف بالمصالح المرسلة .

فأما القسم الأول من هذه المصالح من جلب منفعة أو دفع مضرة ، فقد أجمع الفقهاء على الاحتجاج بالمصالح التى اعتبرها الشارع بنص أو إجماع ، كما احتج جمهور الأمة سلفا وخلفا بالمصالح التى شهد لها الشارع بالاعتبار ولو فى الجملة على اختلاف بينهم فى التوسع فى ذلك ، وأنكر الاحتجاج بها نفاة القياس .

وأما القسم الثانى : فالإجماع سلفا وخلفا على عدم الاحتجاج بها ، وإلا كان ذلك إبطالا للشرع ، وهذا لا يجرؤ عليه إلا مارق عن الدين يحادد الله ورسوله .

وأما القسم الثالث : فهو موضوع مقالنا .

والبحث فيه يتناول : التعريف ، موقف العلماء منه ، ووجهة نظر كل منهم ، هل هو دليل مستقل ؟ هل يجوز نسخ نص شرعى بمصلحة مرسلة ؟ وهل يجوز تخصيص النص بها ؟ .

وإليك بيان هذه الموضوعات .

تعريف المصلحة المرسلة : وهى مصالح من جلب خير ، أو دفع ضرر ، لم يشهد لها الشارع بالاعتبار أو الإلغاء ؛ بل سكت عنها ؛ وهى مصالح اقتضتها البيئات والضرورات وحاجات الناس بعد انقطاع الوحى ؛ وسماها بعض العلماء : بالاستصلاح ؛ كالإمام الغزالى ، وربما سماها بعضهم بالسياسة الشرعية كابن تيمية ، وتلميذه : ابن قيم الجوزية

موقف العلماء أمام الاحتجاج بهذا الدليل .

لو تتبعنا آراء الأئمة سلفا وخلفا لوجدناهم ـ جميعا ـ يقيمون للمصالح المرسلة واستصلاح شأن الأمة وزنا أى وزن على تفاوت بينهم فى التوسع فى اعتبارها ؛ ولعلى لا أكون مغاليا إذا قلت إن أطول الناس باعا فى ذلك قديما وحديثا هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولقد ساعده على ذلك فقهه لمقاصد الشريعة ، وما أفاء الله به عليه من قريحة نفاذة ، وبصيرة بنور الحق مبصرة ؛ كما أن الإمام مالكا من الأئمة المجتهدين له فى هذا الباب القدح المعلى ؛ ولعل أقل الأئمة أخذاً بهذا من السلف أبو بكر رضى الله عنه ومن الأئمة المجتهدين الإمام الشافعى رضى الله عنه ؛ فقد نقل عنه : « أن من استحسن فقد شرع » ، والقول بالمصالح المرسلة استحسان ؛ ولذا فالشافعية لا يقيمون للمصالح وزنا فى التشريع إلا إن جاء بها نص ، أو شهد لها الشرع بالاعتبار فيثبتون الحكم ـ حينئذ ـ بالقياس .

وذهب الغزالى من الشافعية إلى اعتبار المصالح المرسلة إذا اجتمعت فيها ثلاث صفات وهى :

أولا : أن تكون مصلحة ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها .

ثانيا : أن يكون تحقق هذه المصلحة قطعيا لا ظنيا .

ثالثا : أن تكون المصلحة عامة للأمة لا جزئية .

وبهذا فتح باب الاستحسان فى حدود ضيقة وإن تكن أوسع من الحدود التى عرفت عن إمامه الشافعى رضى الله عنه ؛ فأجاز قتل جماعة من المسلمين تترس بهم الكفار ولا سبيل إلى الوصول إلى الكفار إلا بقتل هذه الجماعة من المسلمين ، ولم يجز قتل فرد لإنقاذ جماعة فى سفينة ؛ لأن حياة كل من فى السفينة متساوية فقتل بعضهم لإحياء الآخرين ترجيح بلا مرجح ؛ ولأن سلامة من فى السفينة ليس مصلحة كلية ؛ ومثل ذلك يقول فى المرأة التى امتد طهرها بعد أن رأت الدم ، فإنها إن طلقت لا تنقضى عدتها حتى تبلغ سن اليأس ثم تعتد بالأشهر بحجة أن هذه حادثة جزئية ، وهناك ظن أن يعاودها الحيض ، والحنفية أخذوا بالمصالح المرسلة لكن لا تحت اسم المصلحة المرسلة ؛ ولكن تحت اسم الاستحسان

فإن كثيراً من مسائله التي خرجوا فيها على القواعد العامة يمكن ردها إلى الاستصلاح (المصالح المرسلة) فقد أجازوا الحجر على الطبيب الجاهل، والمفتي الماجن والمكاري المفلس اتقاء لشرهم مع أنهم كاملو الأهلية ؛ كما قالوا : إن وسائل الارتفاق (الانتفاع) تدخل في الوقف من غير ذكر مع أن الوقف يشبه البيع في أن في كل منهما نقل ملكية ، والبيع لا تدخل فيه حقوق الارتفاق إلا بالنص ؛ والذي حملهم على هذه التفرقة هو رعاية مصلحة الوقف لأن الوقف لا ينتفع به إلا بحقوق ارتفاقه .

والذي فتح باب المصالح المرسلة على مصراعيه هو الإمام مالك رضي الله عنه فإن الأحكام التي بنيت على هذا الأصل عنده كثيرة جداً نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر فتوى المالكية بجواز ضرب المتهم توصلا إلى إقراره . كما أجازوا قتل الثلث لإحياء الثلثين ؛ وتوسعوا في باب التطليق للضرر بما لم يتوسع فيه إمام من الأئمة .

وللحنابلة في هذا الباب حظ كبير ، ولاسيما ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ؛ وإن كانوا يردون هذا إلى القياس .

ومن هذا نرى كل المذاهب تعتبر الاستصلاح (المصلحة المرسلة) وبعد ذكر الأدلة من الطرفين وتمحيصها سأبين الحدود التي يجب أن تكون سياجا حتى لا نقع في تحكيم الهوى والغرض .

أدلة المانعين لحجية المصالح المرسلة :

تنحصر أدلة هؤلاء فيما يأتي :

أولا : إن الشريعة كملت يوم أنزل الله تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم» . فلا مصلحة إلا ولها شاهد من الشرع بأي نوع من أنواع الاعتبار الذي قررناه آنفا ؛ والمصلحة التي ليس لها أي شاهد من الشرع متوهمة لا يقام لها وزن .

ثانياً : إن فتح هذا الباب يفتح باب الأهواء والأغراض في الأحكام الشرعية ، ويمكن ذوي الأغراض السيئة من تحقيق مآربهم باسم الدين ؛ ولا يعدم هؤلاء أن يجدوا المفتي الماجن الذي يستجيب لأهوائهم إما رغبة في السلطان أو التظاهر الكاذب بالعلم والمعرفة وإما رهبة من سطوة بعض ذوي السلطان ممن لا دين عندهم ؛ فكان الخير كل الخير أن يسد هذا الباب دفعا للضرر وسداً للذرائع .

أدلة المحتجين بالمصالح المرسلة :

ترجع كلها إلى ما يأتي :

أولا : إن مصالح الناس وقضاياهم متجددة فلو لم تشرع الأحكام إلا على أساس اعتبار الشرع لها لعطل كثير من مصالح الناس في مختلف الأزمنة والأمكنة ؛ وهذا لا يتفق والمقصود الأول من التشريع وهو جلب المنافع ودرء المفاسد ؛ ولو لم تعتبر تلك المصالح لأصيبت الشريعة بالجمود .

ثانياً : إن من استقرأ فتاوى الصحابة - وهم أعرف الناس بأسرار الدين - وفتاوى التابعين ومن جاء بعدهم وجد أن كثيراً منها مبنى على اعتبار تلك المصالح وأن الشارع لم يشهد لها بالاعتبار أو الإلغاء، وقد ضربوا لذلك مثلا بما يأتى : جمع الصديق الأكبر رضى الله عنه الصحف المتفرقة التى كان مدوناً بها القرآن الكريم وحفظها عند أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها ؛ وقد فعل ذلك بعد تردد كبير إلى أن شرح الله صدره له ؛ ومنها استخلافه لعمر بن الخطاب رضى الله عنه وحربه لما نعى الزكاة ومن ذلك إمضاء عمر رضى الله عنه الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثا وقد كان واحدة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وخليفته وصدر من ولاية عمر نفسه كما نطقت بذلك الآثار ؛ وقد علل ذلك بقوله : « لقد تعجلوا بذلك أمراً كان لهم فيه أناة » فيفهم من ذلك أنه قضى بذلك عقوبة وتأديباً ؛ ومن ذلك تعطيله حد السرقة فى عام الرمادة وهو عام مجاعة أصاب الناس فى عهده حتى أنهم كانوا يرون كأن الجو ملئ رماداً لقلة المطر وشدة الجوع إلى كثير جداً جداً مما صدر من عمر ؛ ولا يمكن رده إلا برعاية المصلحة أو درء المفسدة .

ومن ذلك أيضاً أن عثمان رضى الله عنه جمع المصحف وأمر بإحراق المصاحف الخاصة التى كانت بأيدى بعض الصحابة ؛ وكذلك فإنه ورث زوجة الرجل الضار الذى طلق زوجته فى مرض موته حتى لا ترثه ثم مات وهى فى العدة مع أنها ليست زوجة .

ومن ذلك أن علياً كرم الله وجهه حرق غلاة الشيعة الذين ادعوا ألوهيته فقد صح أن قوما من أتباعه خرجوا عن الحد فى محبته إلى أن كفروا بربهم فاتخذوه رباً وقالوا له : أنت خالقنا ورازقنا فاستتابهم وتوعدهم فلم يرجعوا فحفر لهم حفراً ودخن عليهم لعلهم يرجعون فلم يفعلوا فحرقهم .

وهؤلاء الصحابة - رضوان الله عليهم - حرقوا من تشبهوا بقوم لوط مع أنه صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ما معناه « لا يعذب بالنار إلا خالقها » .

ثم جاء عصر التابعين فكان أن وضعت النقط على الحروف فى المصاحف ولم تكن كذلك فى العصر الأول ثم كان أن ابتدئ بوضع شكل علامات الإعراب على أواخر الكلمات ؛ ثم أذن للناس فى جمع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وفتاوى الصحابة ؛ وكان ذلك محظوراً ، ولو تتبعنا ذلك لطال البحث ، وقد تقدم أن قلت : إن الأئمة المجتهدين أخذ كل منهم بنصيب من هذا اللون من الاجتهاد ، فهل يسوغ بعد ذلك أن تهدر هذه المصالح المسكوت عنها ؟

والإجابة عن هذا السؤال فى المقال التالى إن شاء الله تعالى .

بدر المتولى عبد الباسط

الإقليمية في الأدب

للأستاذ محمد كامل الفقي

— ٢ —

لعل من إقليمية الأدب الناشئة بعد انقسام الدولة العباسية إلى دويلات، ما انطبع به الأدب العربي في عصر الفاطميين من أسلوب الدعاية وفرض الشعر في تمجيد الفاطميين وحكمهم، بما هو تجاوب واضح مع ارتياح الشعراء للعطاء الجزل، والمثوبة الخصبة، وبما هو صدى لأعياد الفاطميين ومواسمهم، إذ أبقوا على الأعياد المألوفة من قبل، وزادوا عليها عشرات وعشرات، فلهم مع عيدي الفطر والأضحى، عيد رأس السنة، ويوم عاشوراء، ومولد النبي صلى الله عليه وسلم، ومولد علي كرم الله وجهه، ومولد الحسن ومولد الحسين رضي الله عنهما، ومولد فاطمة الزهراء ومولد الخليفة (الحاضر)، وأول رجب، وأول شعبان، ونصف شعبان، وغرة رمضان، وسماط رمضان، وليلة الختم وعيد الغدير، وكسوة الشتاء، وكسوة الصيف وفتح الخليج، ويوم النيروز، ويوم الغطاس ويوم الميلاد، وغير ذلك، مما يدخل البهجة على الأمة، ويربط بينها وبين الحكام بأواصر ويجيء للشعراء مواسم بر، وموائد كرم. إذ ذاك يركب الخليفة في زي فاخر، وموكب فخم وينثر الأعطية والمنح، فيكون ذلك ملهما للشعراء أن يجيدوا المدائح ويتسابقوا إليها.

حتى النثر الفاطمي كان مرآة لحياة الترف الماثلة في القصور، والفن والزينة البادية فيها وفي المساجد والمدارس والمكتبات مما لا يزال في مرأى العين حتى أيامنا هذه. وليس في الإمكان أن يحيا الأديب والشاعر بمعزل عن مظاهر الفن وسماته، فإنه يمعن فيها نظره ويملأ من مفاتنه عينيه، وتشرق من خصائص الفن سمات في شعره لا يعز على الذواق أن يجتليها.

وإن ذلك ليذكرنا بما كان في العصر المملوكي إذ بدت الإقليمية في الأساليب الأنشائية من هندسة اللفظ وزخرفته وتحليته، فقد كان الشعب يرزح تحت حكم غاشم، فاضطر الأدباء إلى تنميق الأساليب، وتحوير الألفاظ، وحشد ألوان الصناعة كالتورية والاستخدام، والتلميح والإشارات والنكت، ليخفى في أستار ذلك ما في النفس من غيظ وحنق على حكم لا يجد الناس حيلة في الخلاص منه

إلا بعمل جاد تكون هذه الأساليب دعوة له وتهيئة إليه .

ذلك إلى أن نفوس الأدباء انطبعت فيها مرائى الزينة فى المبانى والمساجد والقصور وغيرها . فكانت تلك إقليمية فى أدب المماليك لا يغرب عن الذواق أن يميزه بها من سواه من أدب العصور .

هذا ولا ننسى ما اصطبغ به الشعر الفاطمى من صبغة تعليمية ، فقد استغله الشعراء فى ترويج المذهب الفاطمى ، وساقوه حججا وبراهين يدعون بها رأى الشيعة ، وقد رأينا ابن هانىء الأندلسى ، يؤيد فى شعره عقائد الإسماعيلية ، ويلهم الشعراء كيف يمدحون الخلفاء الفاطميين من ناحية عقائدهم ، ولعل ذلك سر إيثار الفاطميين له ، واعتزازهم به ، وتعويلهم عليه ، فقد أحلوه من أنفسهم المحل الذى أخمل به كل شاعر معه ، وعظمت الفجيعة فيه ، حتى قال المعز حين بلغه خبر موته : لا حول ولا قوة إلا بالله ، هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك .

وابن هانىء ، هو الذى يقول مؤيداً هذه العقائد ، ومؤسسا نظرية الدعوة :

أنت الورى فاعمر حياة الورى
باسم من الدعوة مشتق (١)

ويقول :

قد كان ينذر بالوعيد لطول ما
أصغى إليك وعلم التأويلا (١)

ويقول :

أهل النبوة والرسالة والهدى
فى البينات وسادة أطهار
والوحى والتأويل والتحريـ
ـم لا خلف ولا إنكار

ويقول :

ماذا تريد من الكتاب نواصب
ولها ظهور دونها وبطون

ففى الأبيات التى مرت بك تأكيد من ابن هانىء ، لعقيدة الفاطميين الشيعيين فى أن للشريعة ظاهراً وباطنا ، وأن التأويل لا يعلمه إلا الله ورسوله وخلفاؤه القائمون من قبله إماما فى إثر إمام ، وسائر الناس يشحذون علم التأويل من هؤلاء كل على قدر استعداده .

وهو الذى يقول أيضا فى بث هذه العقائد وإثباتها :

إذا كان أمن يشمل الأرض كلها
فلا بد فيها من دليل مقدم

ويقول :

ولاك لم يكن التفكر واعظا
والعقل رشدا والقياس دليلا

---

(١) يقول للممدوح : أنت الناس جميعا ، فاعمر حياتهم مجتمعة ، وإنك داع إلى الله يدعوهم إلى الهدى

(١) الضمير فى كان يعود إلى السيف ، والمعنى كان سيفك ينذر بالوعيد ويعلم التأويل لطول مصاحبته لك واستماعه لبيانك .

لو لم تكن سكن البلاد تضعضعت
وتزايلت أركانها تزييلا

فهو يؤسس أيضا الدعوة ونظرية الإمامة والعصمة للأئمة ، وعلم الإمام بالحقائق ، وأنه مظهر من نور الله .

ففي هذا السلوك في الشعر الفاطمي سمات ومعالم في الشعر ، وحدود تحجزه عما سواه ، وإقليمية ترى أنها خصائص وقومية .

ولا ننسى في الحديث عن النثر الفني في العهد الطولوني أن نقول: إن حظه كان أعظم من حظ الشعر ، وأن ذلك يتجلى كما يقول المرحوم الأستاذ (أحمد أمين) في رسائل (ابن عبدكان) ، ككتابه الذي كتبه على لسان (أحمد بن طولون) لابنه حين خرج عليه : « ففيه المسحة العراقية : جمعت بين طول نفس الجاحظ ، وجزالة عمرو ابن مسعدة . مع ميل إلى السجع كثيراً ، والمزاوجة دائما ، وإطناب في اللفظ ، وتكرار في المعنى » ، فأنت ترى في النثر في بعض الأمصار ، مسحة عراقية ، لها سمات ومزايا ، وليس ذلك فيما نفهمه إلا إقليمية في أدب ، بمعنى أنها خاصية في أسلوب أحد الأقاليم .

وقد قيل في الحديث عن (الحسن ابن عبد السلام) الشاعر المصري في العهد الفاطمي : إنه ربما ظهرت مصريته في ميله إلى الفكاهة .

وإذا رجعت إلى حكم السلاجقة الأتراك وأمعنت النظر في طابعه المميز . وجدت مظهر الشكوى والأنين من الشعراء . وسمعت من ثنايا الشعر ضجرهم وضيقهم بالحرمان في هذا العهد . رغم تذكيرهم الولاة . وبسط اليد وذل السؤال . حتى لو ألقى إليك شعر دون نسبة لعصره ما شق على سمعك وعلى ذوقك رده إلى حكم السلاجقة .

هذه إقليمية في أدب الممالك الإسلامية في العصر العباسي الثاني . ترى فيها تميزا لأدب قطر على قطر ، ولشعر مصر على شعر مصر وإن كان الكل يجرى على نطاق الدولة العربية التي تزهو حينا وتخمل حينا آخر .

وبهذا الذي سقناه يتضح أن لكل إقليم طابعا خاصا في أدبه يخضع لأسلوب حياته وشتى ملابساته . وفي هذا المعنى يقول (عبد الكريم النهشلي) أحد أدباء المغرب ، وقد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد ، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر . ويستحق عند بلد ما لا يستحق عند أهل غيره وتجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله . بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء . وحد الاعتدال . وجودة الصيغة وربما استعملت في بلد ألفاظ لا تستعمل

كثيرا فى غيره . كاستعمال أهل البصره بعض كلام أهل فارس فى أشعارهم ونوادر حكاياتهم » .

ويقول بعض مؤلفى الأدب المعاصرين فى الحديث عن الحواضر التى صارت بعد الانقسام مزاحمة لبغداد : « وكان أن توزع الشعراء على الأقاليم أكثر مما توزع الأدباء والعلماء فصار لشعراء كل إقليم من المزايا والخواص ما لم يكن لسائر الشعراء » [1] .

ولنا أن نتساءل بعد أن أشرقت معالم الإقليمية إلى أى مدى كانت ؟ أكان بها تمام التغاير فى الأدب ، ونهاية التخالف والتضاد . أم أنها كانت هينة الشأن ، تبدو فى خفر واستحياء . وترى ويرى معها السمت العربى والأسلوب العربى فى كل حال ؟ .

الحق أن الأدباء لم يتسللوا من إهابهم العربى مهما انبثوا فى هذه الأقاليم ، ومهما أتيحت لهم فرص الهجرة والانتقال . ومهما كابدوا من من الحكم الدخيل فارسيا كان أو تركيا .

صحيح أن الأحداث التى شتتت شمل العربى أضعفت شأن الجزيرة العربية وانتهت بها إلى شبه عزلة أخرتها ماديا وعلميا حتى قال المقدسى ، حين وصف لغة أهل الجزيرة العربية : « وأهل هذا الإقليم لغتهم العربية إلا بصحار ، فإن نداءهم وكلامهم بالفارسية وأكثر أهل عدن وجدة فرس ... »

ولكن هيء للعلماء والأدباء إذ ذاك ماظلت الصلة به قوية بين الأمصار ، وما نهنه من حدة التفرق والتصدع ، فقد كان من مظاهر الحركة العلمية والأدبية فى هذا العصر أن يهاجر العلماء والأدباء من قطر إلى قطر لايصرفهم عن ذلك عناء ولا تعب ، وصار تقليدا مرعيا بينهم أن يهرع العالم إلى بلد أخيه يأخذ منه وينقل عنه .

وبلغ الغاية فى ذلك المحدثون ، فقد كان أحدهم يقطع الأرض جادا فى طلب الحديث والتثبت منه ، وما تطير شهرة عالم فى بلد حتى يصبح كعبة يؤمها القصاد ، والمثل فى ذلك بالإمام البخارى الذى جاب ما بين مدن خراسان والجبال والعراق والحجاز والشام ومصر ، يأخذ ويناقش ويصوب ويتحرى وهو فى هذا المنهج المشكور أسوة وقدوة .

فإذا ما فتحت بلد فشد ما يهرع إليها العلماء والأدباء والفقهاء ينثرون بين ربوعها العلم والأدب والفقه ، فتراها بين ومضات بيئة خصبة تنبت وتزهر ، وآية ذلك صقلية التى صارت مركزا من مراكز الإشعاع الفكرى حيث طار إليها العلماء والأدباء على أثر الفتح الإسلامى لها ، فإذا هى متقبلة هذه النهضة فى حرص وانتفاع .

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى للأستاذ السباعى بيومى ص ٤٢٤ .

كذلك كان لإنشاء الطرق وتعبيدها وإقامة الرباطات والأديار فى الدولة العباسية بين بلد وآخر لتسهيل التجارة وتنظيم البريد أعظم الأثر فى تقريب أطراف المملكة الإسلامية وتذليل العقبات للرحالين المهاجرين مما مزج بين البلاد المتنائية، وعبد طريق الهجرة بين العلماء والأدباء، حتى لكأن المملكة الإسلامية وحدة متلاصقة على تعدد الملوك والحكام واختلاف أجناسهم، فإن كلا من العلماء والأدباء والفنانين لا يبالون بالحدود التى ترسمها السياسة، ويرى أكثر هؤلاء أن اللغة والدين أقوى وأشد بأسا.

لذلك ضعفت الشخصية الإقليمية وماتت الفوارق بين مصر ومصر؛ فلم نجد إلا قليلا تميزا ظاهرا لعلم مصر وأدبها على علم العراق وأدبه. أو علم خراسان وأدبه، وما وراء النهر والسند وأدبهما.

نجدها كلها متقاربة لاتفاقهم جميعا فى الدين واللغة والجنس، ولأن رحلة العلماء وشدة الاتصال قربت بين الفروق، وما يظهر امتياز فى ناحيـــة ما إلا استمدته الناحية الأخرى وجودته واستغلته، والشعراء القائمون على أبواب الملوك والأمراء ينتقلون من بلاط إلى بلاط فيوحدون مناهج الشعر.

كذلك نرى العلماء أمضوا جانبا من حياتهم فى قطر، وجانبا منها فى قطر آخر، فهم حينا فى مصر وحينا فى الشام، وطورا فى العراق وطورا فى فارس، حتى صار من العسير نسبة أحدهم إلى بلد دون صاحبه، ولهذه الوحدة أو شبهها اتجه أكثر مؤلفى التراجم إلى جمع علماء العالم الإسلامى باعتبارهم نتاج مملكة واحدة، هى كقطر واحد.

«نعم توجد شخصية لنتاج كل إقليم كالأدب المصرى والشامى والعراق وفارس وهكذا. ولكنها شخصية غامضة خفيـة لا ترى إلا بالمنظار الدقيق والبحث الطويل».

وأكثر ما يظهر هـذا فى منابع الظاهرة العلمية والأدبيـة حين تظهر، فظهورها فى إقليم خاضع ولا بد لمؤثرات اجتماعية فى هذا الإقليم كظهور المقامات فى فارس والموشحات بالأندلس والأسلوب المسجوع المحلى بالبديع فى الرى وما حولها والرسائل الشاملة لفروع الفلسفة ـ كرسائل إخوان الصفاء فى البصرة.

كل هذا له علل اجتماعية وتاريخية وإقليمية مرتبطة بهذه الظواهر ارتباط السبب بالمسبب ولكن لا تلبث بعد ظهورها أن تقلد فى سائر الأمصار ولو لم تكن العلة الأصلية موجودة وتقوم علة التقليد مقام الابتكار، وتختفى الشخصية الأولى وراء المظهر العام للوحـدة المشتركة»[1]؟

محمد كامل الفقى

(١) ظهر الاسلام جـ ١ ص ٢١٨.

الأزهرى الذى وجه الاستشراق الحديث وعلماءه وجهة جديدة :

الشيخ محمد عياد طنطاوى

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى

---

١ — لا يكاد أحد من العرب ممن كان له علاقة بروسيا فى القرن التاسع عشر يكون شخصية طريفة كشخصية أستاذ جامعة بطرسبرج الشيخ الطنطاوى ، فالدور الذى لعبه الشيخ فى تاريخ الاستعراب الأوربى ليس بيسير [١] .
كان الطنطاوى رجل الآداب العربية الحديثة العامل فى حقل الاستعراب الروسى [٢] ويبرز الطنطاوى فى تاريخ هذا الاستعراب والآداب الجديدة فى صورة فريدة لا نظير لها حتى الآن [٣] . فشخصية هذا « المستشار » تبرز بروزا فريدا فى تاريخ كرسى اللغة العربية وآدابها فى مـــدى قرن ونيف فى جامعة بطرسبرج [٤] .

هكذا يقول المستشرق الروسى كراتشكوفسكى عن الطنطاوى الذى كان شخصية فذة فى تاريخ الاستشراق ، والذى وضع أصولا ثابتة للدراسات الاستشراقية فى الغرب وقد شغل أذهان المستشرقين وكتاباتهم أمدا طويلا . ويعد أستاذ الكثيرين منهم .

٢ — كتبت دور الاستشراق عن الطنطاوى كتابات طويلة ، ونوهت بدوره الفعال فى خدمة اللغة العربية ، ووصفت أعماله العجيبة وصفا رائعا ، وسجلت دوائر المعارف العالمية الكثير من المعلومات عنه .

وعكف كراتشكوفسكى شيخ المستشرقين الروس عشر سنوات لكتابة دراسة عنه ، وأخيرا ألف بالروسية كتابه الرائع « حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى [١] » ، الذى عهد المجلس الأعلى للفنون والآداب فى الجمهورية العربية المتحدة إلى السيدة كلثوم عودة ،

---

(١) ص ١١٤ حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى لكراتشكوفسكى
(٢) ص ١٧ المرجع نفسه .
(٣) ص ١٠٨ المرجع نفسه .
(٤) ص ٩ المرجع نفسه .

(١) لكراتشكوفسكى دراسة عن الوأواء الدمشقى ، وعدة دراسات أخرى وهو الذى نشر كتاب البديع لابن المعتز وكان كتابه عن الطنطاوى أحب كتبه إلى نفسه وتوفى كراتشكوفسكى بعد الحرب العالمية الثانية بعد أن أنقذ مخطوطات مكتبة لينينجراد من الدمار الذى لحق المدينة فى الحرب العالمية الثانية

وهى عربية فلسطينية مقيمة فى روسيا، بترجمته إلى العربية ، وعهد إلى الأستاذين: عبد الحميد حسن ومحمد عبد الغنى حسن بمراجعة النص العربى وتحقيقه والتعليق عليه ، ثم قام بنشره عام ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ لجاء سفرا نفيسا فى نحو ١٨٠ صفحة ؛ ولكنه يمثل جهادا علميا جليلا فى الكشف عن حياة الطنطاوى ومواهبه وآثاره وثقافته ، وفى تفصيل خدماته للاستشراق والمستشرقين فى القرن التاسع عشر .

لقد تناولت الكتاب لقراءته ، فإذا بى أمام بطولة علمية حقة ، قام بها كراتشكوفسكى ، من أجل تسجيل حياة مواطن عربى ، مصرى ، أزهرى ؛ اعترافا بفضله على الثقافة الاستشراقية فى العصر الحديث ...

وكنت أقرأ الكتاب وكأننى أمام أحداث مصورة ؛ كل الألوان والظلال والسمات ، وكل خطوة خطاها هذا العالم الأزهرى الخالد ، منذ ميلاده حتى وفاته ، وكل حدث على أو فكرى أسهم فيه ؛ قد أبرزه كراتشكوفسكى بصورة زاهية أمينة ، معتمداً على كثير من المصادر والمخطوطات وسجلات المستشرقين ومؤلفاتهم ؛ وعلى مجموعة الشيخ محمد عياد الطنطاوى الخطية ، التى تبلغ نحو ١٥٠ مخطوطا عربيا ، مودعة فى مكتبة جامعة بطرسبرج ، والتى نرجو أن تقوم بعثات دار الكتب المصرية فى الخارج بتصويرها كلها أو بعضها مما له أهمية خاصة .

وكان كراتشكوفسكى يكتب عن الطنطاوى مأخوذا بروعة أعماله ، وجهاده العلمى ، ويسجل كل رأى فيه ، ويزن أعماله بميزان نقدى سليم منصف ، ويقول : لقد بدت لى فجأة شخصية شيخنا واضحة منيرة [1] .

وكان عمل المترجمة وعمل المراجعين موازيا لعمل المؤلف نفسه ؛ دقة تامة ، وأمانة علمية بارزة ، وتحرر لجميع الحقائق ، ووقوف صوفى ، كأنه الاستغراق ، أمام جميع النصوص . مما جعلنى مذهولا حقا أمام هذا العمل العلمى الفريد ، الذى يجب أن ينال تقدير الدولة ، وتقدير جامعاتها ، وبخاصة الأزهر ، وكم أود أن تكون أعمال الطنطاوى فى ميدان الاستشراق الحديث مادة للدراسة فى جميع معاهدنا وجامعاتنا ، وأن يطلق أستاذنا أحمد حسن الباقورى مدير جامعة الأزهر اسم الطنطاوى على أحد مدرجات الجامعة ، تخليداً لذكرى رجل نشأ بين صفوفه طالبا ، وعمل فى حلقاته العلمية مدرسا ، وقدره العالم كله عالما ومفكراً ومصدراً للحركة الاستشراقية فى العالم كله ، وأكسب وطنه مصر مجدا علميا باقيا على مر الزمان .

(١) ١١٧ المرجع السابق .

٣ - كان الطنطاوى أعظم من ضحوا من العرب فى خدمة الثقافة الإنسانية ، وخدمة البحث العلمى الحر . ولقد ولد فى قرية نجريد المصرية عام ١٢٢٥ هـ : ١٨١٠ م ؛ وكان أبوه تاجرا كثيرا التجول ، من محلة مرحوم بقرب طنطا ، وأمه من بلدة الصافية (١) .

وذهب إلى طنطا فى سن السادسة لحفظ القرآن الكريم ، وبدأ فى تلقى دروس العلم فى سن العاشرة فى حلقات الجامع الأحمدى . ثم رحل مع أبيه إلى القاهرة عام ١٢٣٨ هـ : ١٨٢٣ م ، ودخل الأزهر ، وفيه تتلمذ على : محمد الكومى ، ومحمد أبى النجا ، ومصطفى القناوى ، وإبراهيم الباجورى شيخ الأزهر (ت ١٨٦١ م) ، وحسن العطار) (ت ١٨٣٠ م) ، وإبراهيم السقا (ت ١٨٨٠ م) .

وكان من زملائه فى الدراسة : الشاعر الشيخ شهاب الدين (١٨٥٧ م) ، ورفاعة الطهطاوى (١٨٧٣م) ، ومحمد قطة العدوى (١٨٦٤ م) ، ومحمد الأشمونى ، وإبراهيم الدسوقى (١٨٨٣ م) ، الذى تتلمذ عليه كثير من المستشرقين .

وفى عام ١٨٢٧ م توفى أبوه ، فترك الطنطاوى الدراسة فى الأزهر ، تحت ضغط الظروف القاسية ، وعاد إلى طنطا ، ومنحه أستاذه مصطفى القناوى شيخ المسجد الأحمدى أجازة فى التدريس عام ١٨٢٨ م ، ثم عاد ودرس فى الأزهر عام ١٨٣٠ م ، وكان أول من قرأ المعلقات والمقامات فى حلقاته العلمية وهو فى العشرين من عمره ، وظل فى الأزهر عشر سنين ، وله تعليقات على مقامات الحريرى وشرح الزوزنى على المعلقات .

ومن تلاميذ الطنطاوى فى الأزهر : يوسف الأسير السورى (١٨٨٩) ، وابراهيم مرزوق (١٨٦٦ م) ، وعبد الهادى نجا الأبيارى .

واشتغل مع عمله فى الأزهر بالتدريس فى المدرسة الانجليزية بالقاهرة (مدرسة الإرسالية البروتستانتية) عام ١٨٣٥ م . وفيها اتصل بكثير من الأوربيين الوافدين على مصر ، ومن بينهم جماعة من المستشرقين مثل فرينل الفرنسوى (١٨٥٥) الذى ترجم لامية العرب للشنفرى إلى الفرنسية بمساعدة أستاذه الطنطاوى ، والذى علم أستاذه اللغة الفرنسية ؛ وكذلك بيرون وفيل وبرونر ، وأصبح الشيخ أثيراً عندهم ، واعتمدوا عليه اعتمادا كليا فى بحوثهم وتتلمذوا عليه تلمذة فعليه ،

(١) قرية تقع الآن فى مركز دسوق من أعمال محافظة كفر الشيخ .

وكتب فرينل يقول : إنه مدين للطنطاوى الشيخ المصرى الوحيد ، الذى يدرس لغته بمحبة واهتمام ، ويدرس كتب الآداب العربية القديمة » .

ومن تلاميذه : موخين ، وفرين الروسيان وبسببهما سافر الطنطاوى إلى روسيا عام ١٨٤٠ .

غادر الطنطاوى القاهرة فى ٢٤ من المحرم ١٢٥٦ هـ : فبراير ١٨٤٠ م إلى الإسكندرية حيث نزل فى ضيافة قنصل روسيا فيها «مديم» وفى ٢٦ مارس ركب باخرة نمساوية إلى استامبول ، ومنها إلى أوديسا ؛ وفى يوم ٢٩ يونيو ١٨٤٠ وصل إلى بطرسبرج .

كانت روسيا آنذاك تهتم باللغات الشرقية ، وأنشأت فى بلادها دراسات لها . وفى نحو عام ١٨٣٦ أنشأت معهداً للغات الشرقية وألحقته بجامعة بطرسبرج (بتروغراد ثم لنينغراد أو لنينجراد فيما بعد) ، وخصصت كرسيا فيه ـ لتدريس اللغة العربية ، بجانب اللغات الشرقية الأخرى كالفارسية والتركية ، والمغولية والصينية ، والفضل فى ذلك راجع إلى م . بوشكين وزير المعارف الروسية آنذاك ، وأرادت روسيا شغل كرسى اللغة العربية ، فكلفت قنصلها فى القاهرة ، ليقوم بالاتفاق مع من يعرف فيه القدرة على القيام بهذه المهمة ، فاتصل بالشيخ وحبب إليه السفر إلى روسيا لهذه الغاية ، فتردد الشيخ ، إلا أن أصدقاءه رغبوه فى القبول ، وأضيف إلى ذلك إلحاح القنصل وسخاء العرض ، فوافق على السفر ليأخذ مكانه بين أساتذة اللغات الشرقية فى بطرسبرج .

وقوبل الشيخ هناك بالحفاوة ، وجعل له مرتب سخى ، واشتغل منذ ٢ يوليو ١٨٤٠ بالتدريس فى معهد اللغات الشرقية . وبالعمل فى ديوان الخارجية فى بطرسبرج .

كتب سافيليف ـ الذى صار فيما بعد من أشهر علماء الآثار ، وأحد مؤسسى جمعية الآثار ـ يرحب بالطنطاوى : وبعث بمقال له ـ مذيل بتوقيعه ، وبتاريخ ١٧ أغسطس ١٨٤٠ إلى جريدة (فدومستى بطرسبرج) ، ونشرت الجريدة المقال فى عدد ١٨٩ بتاريخ ٢٢ / ٨ / ١٨٤٠ ، وجاء فيه :

(أنت تسألنى : من هذا الرجل الجميل ، فى لباس شرقى ، وعمامة بيضاء ، وله لحية سوداء كجناح الغراب ، وعينان تشعان بإشعاع غريب ، وعلى وجهه سمة الذكاء ، وقد لفحت الشمس بشرته ، وليست بالطبع شمس بلادنا الشمالية الباردة ؛ هو ضيف جديد من ضفة النيل ، الشيخ الفاضل محمد عياد الطنطاوى . إن اسمه معروف لدى كل

من يدرس اللغة العربية ، وكل السياح الذين انتفعوا بخدماته والمدينين له بنجاح أبحاثهم يذكرونه بالشكر ، ويكنون له المودة ، مذيعين شهرته فى أوربا . فن هنا نرى ما كسبته كلية اللغات الشرقية المحلية التى دعت الشيخ القاهرى ليحتل كرسى اللغة العربية الشاغر . ويمكنك الآن أن تتعلم اللغة العربية بدون أن تغادر بطرسبرج وفى الأسبوع الماضى ألقى الشيخ الطنطاوى أول محاضرة له فى قاعة الجامعة حضرها ما عـــدا تلاميذ المدرسة بعض المستشرقين غير المنتمين إليها) .

خلف الطنطاوى فى قسم اللغات الشرقية سلفه (ديمانج) الذى توفى عام ١٨٣٩ م ؛ وقضى ما يقرب من سبع سنوات مجاهداً فى تدريس اللغة العربية ثم عين بعد ذلك عام ١٨٤٧ أستاذاً لكرسى اللغة العربية فى جامعة بطرسبرج وعين المستشرق الروسى « نفروتسكى » مساعداً له . وظل أستاذاً لهذا الكرسى طيلة أربعـــة عشر عاماً (١٨٤٧ - ١٨٦١ م) ، وعلى يديه تتلمذ كثير من المستشرقين الروس والألمان والفنلنديين الذين كان من أشهرهم « فالين » .

وفى سبتمبر عام ١٨٥٥ أصيب الشيخ بشلل فى رجليه ، وظل يغالب المرض والمرض يغالبه سنوات صعاباً على نفسه . وأقام فى منزله رهين المرض .

كان يشرف على العناية بالشيخ زوجته المصرية « أم حسن » ، التى ولدت له فى ١٩ مايو ١٨٥٠ ولداً سماه « أحمد » .

وتوفيت زوجه المصرية عام ١٨٦٠ وابنه فى سن العاشرة ، ولما لم يكن الشيخ بمستطيع القيام على تربية ابنه طلب إدخاله فى داخلية إحدى المدارس الوسطى ، ودخل أحمد جمناز لاريناً فى ١٩ نوفمبر ١٨٦٠ على حساب الدولة ، ولم يلبث الشيخ غير قليل حتى أحيل على التقاعد فى ١٩ / ١ / ١٨٦١ ، ثم وافاه الأجل فى ٢٤ ربيع الثانى ١٢٧٨هـ : ٢٩ أكتوبر ١٨٦١ م ، ودفن فى قرية فولكوفا بجوار بطرسبرج بجوار مقبرة زوجه المصرية الوفية ، وكانت فى هذه القرية مقابر المسلمين . وتسمى المقابر التى دفن فى وسطها مقبرة التتر . وعين نفروتسكى خلفاً له فى كرسى اللغة العربية بالجامعة ، وصرفت الدولة معاش الشيخ إلى ابنه أحمد ، واختير نفروتسكى وصياً عليه . وفى عام ١٨٧١ باع أحمد مجموعة والده الخطية إلى مكتبة الجامعة . ثم تزوج أحمد وخلف بنتاً ولم يلبث كذلك إلا قليلاً وتوفى عام ١٨٨١ ، ودفن بجوار أمه ، وألحقت ابنته بدار أيتام الأشراف باسم هيلانة ، وصارت مسيحية منذ ذلك التاريخ أو أريد لها ذلك ، إذ كانت

طفلة صغيرة آنذاك ، ولا ندرى من أخبارها بعد ذلك شيئاً .

٤ — ترك الشيخ آثاراً كثيرة تبلغ الواحد والأربعين مؤلفا ، أحصاها كراتشكوفسكى ، وفى مقدمتها : تاريخ حياته وكتابه المخطوط « تحفة الأذكيا بأخبار بلاد روسيا » ، وورد اسمه فى مرجع آخر فهو كتاب كراتشكوفسكى هكذا « هدية النجباء فى تحقيق إقليم روسيا »(١) ، وقد ألفه الطنطاوى عام ١٨٥٠ م / ١٢٦٦ هـ ، وأهداه إلى السلطان عبد المجيد ، وكانت كتابته فيه دقيقة ، وملاحظاته فاحصة ، وإحساسه وروحه عاليين ولم يكن الكتاب سردا تاريخيا أو جغرافيا ، بل كان وصفا دقيقا حيا بيئيا لرحلته من القاهرة إلى بطرسبرج وزياراته لأقاليم روسيا ، وانفعالاته مع الإقليم والشعب فيها خلال إقامته طيلة العشر السنوات التى قضاها هناك منذ هجرته عام ١٨٤٠ حتى تاريخ تأليف الكتاب (١٨٥٠) ووصف رحلاته فى روسيا وفى دول البلطيق وفنلندا من حولها ، ويتضمن الكتاب كذلك دراسة مفصلة لتاريخ روسيا الحديث وصورا سريعة لطبوغرافية بطرسبرج فى ذلك الحين ؛ وهذا العمل مكتوب بصورة لامعة ولايزال محتفظا بقيمته العلمية إلى اليوم .

والطنطاوى كتاب عنوانه « النحو العربى » أو قواعد اللغة العربية » ، وهو أول كتاب كتبه كاتب عربى باللغة العربية للتدريس فى جامعات روسيا ومعاهدها العالية ، وهو موضع اهتمام المستشرقين ، ونال شهرة كبيرة فى كل دوائر الاستشراق الأوربى .

إلى كتب أخرى ألفها الشيخ ، وأحصاها كلها كراتشكوفسكى فى كتابه القيم .

٥ — كان الطنطاوى يجيد هذا العربية الفرنسية والروسية والفارسية والتركية واللغة التترية ، ويقول كراتشكوفسكى : إنه كان إلى جانب العربية له إلمام بست لغات أخر ، وإن هذا أفق كان بعيدا عن مواطنيه فى ذلك الحين(١) .

٦ — إن هذا الكتاب القيم لتاريخ حى من تاريخ مصر وأزهرها فى العصر الحديث فهو ينطق بعظمة الفكر المصرى فى أول عصر النهضة ، ويصور الحياة الثقافية فى مصر وحياة الأزهر العلمية فى القرن التاسع عشر تصويرا صادقا أمينا وهو من أجمل الكتب التى أخرجتها المطبعة العربية ؛ والفضل فى ذلك راجع إلى عمل المؤلف وعمل الترجمة

---

(١) ص ١١٥ بين المخطوطات العربية لكراتشكوفسكى طبع ليدن ١٩٠٣ .

(١) ١٠٢ تاريخ حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى

وحمل المراجعين الفاضلين الذى ينم عن جهد كبير بذلاه فيه .

والكتاب مقسم إلى :

١ — توطئة أو مقدمة تحدث فيها المؤلف عن مصادر حياة الطنطاوى وعن ظروف قيامه بهذه الدراسة .

٢ — ثم ثلاثة فصول : الأول عن « الطنطاوى فى مصر وسفره إلى روسيا » ، والثانى عن « الطنطاوى فى روسيا » ، والثالث عن « مصنفات الطنطاوى » .

٣ — ويلى ذلك ملحقات بعضها بقلم الطنطاوى نفسه ، وبعضها نصوص أخرى للمؤلف وغيره .

٤ — ثم رسائل من الطنطاوى إلى غوتولد المستشرق (١٨٩٧م) والأستاذ فى جامعة قازان .

٥ — ويلى ذلك كله تعليقات وتحقيقات بقلم المراجعين كتباها شرحا أو تعليقا على بعض نقاط وردت فى الكتاب .

وفى صدر الكتاب صورة للطنطاوى وسمها له مرتينوف عام ١٨٥٣ ، وصورة أخرى لقبره أخذها له بعض المستشرقين عام ١٩٢٣ ، وتقديم بقلم المراجعين الفاضلين .

٧ — وكنت أحب للمراجعين أن يذيلا الكتاب بكلمة عن كراتشكوفسكى وجهوده فى ميدان الاستشراق ، وبفهارس للموضوعات والأعلام .

ومع ما بذلاه من عناية وجهد فقد وقعت بعض أخطاء مطبعية فى الكتاب ، ومنها :

١ — لفظة جمادى الأولى التى وردت فى التعليق رقم ٣ فى الصفحة التاسعة ، وصحتها جمادى الآخرة .

٢ — تاريخ عام ١٨٥٧ وهو تاريخ وفاة الشاعر الشيخ شهاب الدين ، ورد فى الكتاب فى صفحة ٢٣ هكذا : ١٨٧٥ .

٣ — تاريخ عام ١٨٦٠ ورد فى صفحة ٧٧ هكذا : ١٦٨٠ .

٤ — لفظة يهنيه فى صفحة ١٥٤ وصحتها يهنئه ولا شك أن الكتاب جملة صورة مشرقة لجهد المراجعين الجليلين .

٨ — وبعد فقد مضى على وفاة الطنطاوى أكثر من مائة عام ، ومع ذلك لجهوده فى خدمة الاستشراق حديث الجامعات فى الغرب ، فمتى تذكر الجامعات العربية هذا الرجل الفذ ، ومتى ترد له بعض ديونه وتعترف بقيمة ما أداه للفكر العالمى والعربى من خدمات جليلة باقية على مر الأيام ؟.

محمد عبد المنعم خفاجى

الناحية العلمية من إعجاز القرآن

للأستاذ أحمد محمد الغمراوي

— ٣ —

بقى الجانب الثالث من جوانب الإعجاز العلمى فى القرآن . وهو أعجب الجوانب الثلاثة إلى الناس ، وأقربها أن يقنع كل ذى عقل : أن القرآن هو حقا من عند الله فاطر الكون . ذلك الجانب هو جانب التطابق بين يقينيات العلم الحديث فى ميادينه المختلفة وما يتصل بها من الآيات القرآنية .

والآيات القرآنية الكونية أقسام : منها الخاص ومنها العام ، والخاص أعجب الاثنين إلى الناس ، لكن العام إلى العلماء أعجب ، الخاص : قضايا محددة تعبر فى الظاهر عن حقيقة واحدة تقنع العوام والخواص على سواء ، أما العام : فهو وإن كان أيضا قضايا محددة إلا أنها قضايا كلية لا يقدرها قدرها إلا من يعلم أن أقصى مايطمح إليه العلم فى موضوعها هو الوصول إلى مثلها بعد استقراء طويل عريض لجزئيات كان كل منها يوما ما مجهولا حتى كشف عنه البحث العلمى الدقيق ، فالقضية الكلية الثابتة علميا هى فى العلم قانون تندرج تحته قضايا خاصة كثيرة تمثل كشوفا علمية لم تتم إلا بتعاون العلماء فى الحقبة المتطاولة من الزمان .

والقرآن الكريم فى كل من ميدانى الخاص والعام أسلوبه الحكيم فى الدلالة على ما يريد أن يدل عليه من أسرار الفطرة ليكون كل سر منها ، إذا أذن الله بالكشف عنه ، هاديا إلى الله فاطر الفطرة ومنزل القرآن ، ولما كان القرآن إنما أنزل لهداية الناس إلى من أنزله سبحانه ، فقد اقتضت الحكمة الإلهية فى آياته الكونية أن ينزل بأسلوب لا يصدم المسلم البديهى عند الناس فيكذبوه ، ولا ينافى الحقيقة الكونية فيكون ذلك داعيا إلى تكذيبه إذ ايسر الله سبيل الكشف عن تلك الحقيقة فانكشفت لأولى العلم فى مستقبل العصور ، وهذا من أعجب عجائب القرآن التى لا تنقضى ، ومن أدل الدلائل على أن القرآن حقا من عند الله ، فإن التعبير عن الحقيقة الكونية بأسلوب يطابقها تماما أو يدل عليها أولى العلم ثم لا يصدم الناس فيما يعتقدون ولو كان ما يعتقدونه مخالفا تلك الحقيقة

ـ هذا الأسلوب القرآنى فى التعبير عن الحقائق الكونية وفى دلالة أولى العلم عليها أمر يعجز عنها البشر ولا يقدر عليه إلا الله الذى أنزل القرآن بالحق هدى للناس .

ولعل أوضح مثل لهذه الظاهرة القرآنية العجيبة قوله تعالى : « والشمس تجرى لمستقر لها . ذلك تقدير العزيز العليم » الآية (٣٧) من سورة يس . وهى مسبوقة بقوله تعالى : « وآية لهم الليل ، نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » فكلمة « الشمس » فى الآية الكريمة إما أن تكون معطوفة على « الليل » فى الآية قبلها ويكون المعنى « وآية لهم الشمس ، تجرى لمستقر لها » ، وتكون جملة (تجرى لمستقر لها) كجملة (نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون) فى الآية قبلها تبيانا لوجه آية الله فى الليل وفى الشمس ؛ وإما أن تكون كلمة (الشمس) مبتدأ فى جملة مستأنفة خبره (تجرى لمستقر لها) ؛ وفى هذه الحالة يكون كونها آية لله من حيث إنها تجرى مفهوما من السياق ويدل عليه فى الآية القرآنية نفسها قوله تعالى (ذلك تقدير العزيز العليم) . وعلى أى الوجهين أعربنا الآية الكريمة فالقضية الكونية فيها هو أن الشمس تجرى ، وقضية أخرى أنها تجرى لمستقر لها . وقد سيقت القضيتان ليكون فى كل منهما أو فى مجموعهما هاد إلى الله ودليل على أن الذى أجرى الشمس وقدر مجراها هو الإله الحق الذى لا تجب عبادة إلا له ، فضلال أى ضلال أن يعبد الإنسان سواه ! .

فانظر إلى القضية الأولى ، قضية أن الشمس تجرى . كيف انطبقت على البديهى المشاهد من حركة الشمس فى السماء من المشرق إلى المغرب فى كل مكان يعيش فيه الإنسان ، فى نصف الكرة الأرضية الشمالى وفى نصفها الجنوبى ، من قطب إلى قطب . لكن هذه الحركة إنما هى فى الظاهر . وقد فسرتها الفلسفة اليونانية أو العلم القديم بما فسرت أو فسر ، مما خطأه علم الفلك الحديث إذ أثبت أن حركة الشمس فى الظاهر حول الأرض ـ كما هو معروف ـ هى حركة نسبية راجعة فى الحقيقة إلى حركة الأرض حول محورها أمام الشمس من المغرب إلى المشرق مرة فى اليوم ينشأ عنها النهار والليل ، كما أثبت للأرض حركة سنوية حول الشمس تنشأ عنها الفصول .

فهل فقدت الآية الكريمة شيئاً من دلالتها بهذا الذى أثبته العلم ؟ إن الذى جد بما أثبته العلم هو انتقال الحركة عن الشمس إلى الأرض فصار للأرض حركتان تفسران الليل والنهار واختلاف الفصول ، بدلا من حركة الشمس وحدها . والدلالة هى فى حركة الجرم العظيم حركة دائبة مقدرة تقديرا تنشأ عنه ظواهر

كونية متكررة فى اليوم وفى العام تنطق بذاتها وبعظمها وبانتظام تكررها وتكرر آثارها البالغة يوما بعد يوم وعاما بعد عام ، ألا بد لها من موجد قدير حكيم قدر ودبر ولا يزال يرعاها بتدبيره وحكمته ، وهو الآله الحق سبحانه . ولا ينقص من هذه الدلالة شيئاً أن يصبح الجرم العظيم الذى له تلك الحركة العجيبة هو الأرض فى حكم العلم الحديث بعد أن كان هو الشمس فى رأى العين ورأى الفلسفة اليونانية أو العلم القديم .

لكن هناك سؤال آخر لايقل أهمية عن السؤال السابق لأنه يتعلق بالصدق كما تعلق ذلك بالدلالة . فهل فقدت الآية الكريمة شيئا من صدقها وإن لم تفقد شيئا من دلالتها بذلك الذى أثبته العلم من التفسير الصحيح لظاهرة حركة الشمس من المشرق إلى المغرب ؟ إن الله سبحانه يقول عن كتابه (وإنه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) فمستحيل أن يكون فى القرآن شىء من الباطل قط لا فى كونياته ولا فى قصصه ولا فيما عدا ذلك مما تعرض له القرآن بعبارة أو بإشارة . بهذا تقضى هذه الآية الكريمة . والمؤمن بها الذى يحاذر أن يتفوه ماليس له به علم ليس أمامه فى الإجابة على السؤال إلا الجزم بأن آية سورة يس لا يمكن أن تفقد من صدقها شيئا بما كشف أو يكشف عنه العلم ، وليس له فى تفهمها إلاطريقان : طريق الحقيقة وطريق المجاز . والعدول عن الحقيقة إلى المجاز لابدله فى الكلام من قرينة تبرره وتدل على أن المعنى المجازى هو المراد . وليس فى الآية الكريمة ولافيما قبلها أو بعدها فى موضعها من سورة يس ما يدل على أن كلمة (تجرى) فى قوله تعالى (والشمس تجرى) مستعملة فى غيرما وضعت له أو أن من الممكن صرفها إلى حركة سريعة للأرض بدلا من حركة سريعة للشمس ، من باب إطلاق المسبب على السبب . فلم يبق إلا أن تكون كلمة (تجرى) فى الآية الكريمة على حقيقتها مسندة إلى الشمس حقيقة لامجازاً .

وهنا تتبين عجيبة من عجائب الإعجاز العلمى فى القرآن ، فقد جاء علم الفلك الحديث ، بعد نحو ثلاثة عشر قرنا من نزول القرآن ، فأثبت للشمس حركة غير هذه الحركة الظاهرة من المشرق إلى المغرب .

وأثبت أن هذه الحركة ذاتية للشمس ، وقدر سرعتها بركنيها : أى من حيث المقدار والاتجاه ، فأما المقدار فهو اثنا عشر ميلا فى الثانية ! وأما الاتجاه فهو نحو النجم المسمى « فيجا » فى الإنجليزية ، والنسر الواقع فى العربية .

أى أن علم الفلك الحديث أثبت أن الشمس ، على عظم كتلتها الهائلة ، تجرى

فى الفضاء بسرعة اثنى عشر ميلا فى الثانية فى اتجاه النسر الواقع .

« والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم » .

فأنت ترى الآن أن فى قوله سبحانه : « والشمس تجرى » معجزة علمية عظمى لم تكن تخطر لأحد على بال حتى كشف عنها علم الفلك الحديث ، والعلم الحديث لم يكشف عنها إلا فى القرن التاسع عشر بعد أن تهيأ له من آلات الرصد ، وأدوات التحليل الضوئى ومن المقدرة على تفسير النتائج التى توصل إليها من طريقها ، ما أدى به إلى الكشف عن ذلك السر العظيم : كتلة من النار قدر كتلة الأرض ٣٣٣ ألف مرة تقريبا تجرى فى ملكوت الله بسرعة تزيد على ضعف سرعة ما يسمونه بالقمر الصناعى فى دورته حول الأرض ! .

لقد افتتن الناس ، أو كادوا ، بهذه الأقمار أو القميرات الصناعية التى ليس للإنسان فيها إلا صنعها وإحكام إطلاقها مستعملا فى ذلك ما وهبه الله من علم ومقدرة ، أما دورانها حول الأرض فليس له فيه من فضل إذ هى إنما تدور طوعا لسنن الله فى الحركة من ناحية وفى الجاذبية بينها وبين الأرض من ناحية أخرى ، فكيف يمكن أن يكون فى هذه القميرات دليل على وجود الإنسان وما بلغ من رقى فى الصناعة والعلم ولا يكون فى الشمس وجريها فى الفضاء على ذلك الوجه العظيم الهائل دليل على وجود الله العزيز العليم سبحانه ، الذى خلق الشمس وأجراها وقدر لها مجراها فى الفضاء ؟ .

ثم كيف لا يكون فى إخبار القرآن بجرى الشمس هذا قبل أن يؤتى الإنسان من العلم والمقدرة ما يكشفه به ، بحيث تمر القرون بعد نزول القرآن والبشرية كلها فى غفلة عن جريها وجهل به - كيف لا يكون فى هذا كله دليل قاطع وبرهان ساطع على أن القرآن إنما أنزله رب الشمس سبحانه ، الذى فطرها وأجراها وقدر لها ذلك المجرى ؟ . إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون .

فانظر الآن كيف أثبت العلم الحديث صدق ما ينتجه الإيمان بالقرآن من قوله تعالى (والشمس تجرى) إذا اتبعت الدقة فى تطبيق القاعدة البلاغية القاضية بالايعدل — فى تفهم الآيات القرآنية الكونية — عن الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية فى نفس الكلام صحيح إن الاستنتاج قد وقع ونحن نعلم أن العلم قد أثبت صدق الآية حرفيا ، لكن هذا لا ينقص شيئا من العبرة التى ينبغى استخلاصها ألا وهى وجوب الاستمساك بما ينتجه التطبيق الدقيق لقواعد اللغة فى تفهم آى الذكر الحكيم فى ضوء المعروف من الحق

والمعروف من الحق فى هذه الحالة هو أن الحركة الظاهرة للشمس من المشرق إلى المغرب راجعه فى حقيقتها إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس من المغرب إلى المشرق.

ثم تأمل بالغ حكمة الله سبحانه فى أن جعل جرى الشمس حقيقة فى الفضاء يتفق خبره إذا ذكر فى القرآن مع ما علم سبحانه أن ستبدو به الشمس لعباده نتيجة لما قدره للأرض من حركة يومية حول محورها وحركة سنوية حول الشمس ، ليكون التطابق بين الخبر والجرى الظاهرى فيه عبرة وهدى للناس أثناء الحقبة المتطاولة التى علم سبحانه أن سوف تمر قبل أن يستطيع أولو العلم الكشف عن جرى الشمس الحقيق ، حتى إذا كشفوه وحققوا بذلك صدق الخبر الكونى القرآنى حرفيا ، كان ذلك معجزة علمية كبرى فى القرآن تقنع كل ذى عقل لم يغلبه الهوى والعناد أن القرآن حقا من عند الله .

والمعجزة العلمية الكبرى المتمثلة فى قوله تعالى (والشمس تجرى) ينطوى تحتها فى الواقع معجزة أخرى ، إذ قد خطأت علم الفلك القديم حين قال فى تفسير الشروق والغروب : إن الشمس معلقة أو مركوزة فى فلك مادى كرى هو الذى يدور بالشمس حول الأرض ، فجعل حركة الشمس غير ذاتية والآية الكريمة تقرر أن لها حركة ذاتية سريعة ؛ فإن الجرى لا يمكن إلا أن يكون ذاتيا ، وقد وجد التفسير الفلسفى أو الفلكى القديم طريقه إلى كتب التفسير ليس فقط فيما يتعلق بالشمس ولكن أيضا فيما يتعلق بالقمر وقد اعتبرها فلاسفة اليونان خطأ من السيارات التى فسروا حركاتها عبر السماء بما فسروا به حركة الشمس ، فافترضوها مركوزة فى أفلاك كريه شفافة مجوفة بعضها داخل بعض ومركزها جميعا الأرض فهى تدور كلها بحركات مختلفة من المشرق إلى المغرب حول الأرض التى جعلوها ساكنه لا حركة لها ، وتبعهم فى ذلك فلاسفة المسلمين والمفسرون .

وقد يكون من تكليف ما ليس فى الوسع أن ينتظر منهم استنباط جرى للشمس غير هذا الذى يرونه بأعينهم كل يوم ، لكن كان من المنتظر على الأقل أن يخطئوا الفلسفة اليونانية فى قولها : إن الشمس والقمر وبقية السيارات تجرى بالواسطة لا بالذات ، استنادا منهم إلى قوله تعالى : « والشمس تجرى » ، وقوله : « وكل فى فلك يسبحون » ، إذ لا قرينة فى الآى على أن الجرى والسبح معدول بهما عن الحقيقة إلى المجاز ؟

أحمد محمد الغمراوى

رحلات الخليل ابراهيم إلى الحجاز

للأستاذ على الخطيب

بين العراق وفلسطين ومصر والحجاز مرت خطا خليل الرحمن : إبراهيم عليه السلام ؛ ينطلق إلى إحداها مدفوعا بوحى ربه ، أو طلباً للارتفاق ، أو صلة لرحمه ، وتسجل « الأخبار الصحيحة » أخذا من الكتاب والسنة معا خمس رحلات له عليه السلام إلى مكة المكرمة بالأرض الحرام من الحجاز مستوعبة تفاصيلها ، ذاكرة أسبابها.

لقد ترك الخليل موطنه بالعراق حين أنكر قومه وأنكروه ، وأجمعوا أن يحرقوه فاعتزلهم مهاجراً إلى ربه ... إلى فلسطين ، ثم قدم مصر بزوجه فى قحط ، وحفظ الله عليه أهله فيها ، وعاد مكرما بسارة زوجه ، وقد أهدى إليها من ملكها « هاجر » ، فأهدتها بدورها لزوجها ، وهاجر فى ذلك أخت لـ « مارية » هدية المقوقس لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، فكلتا المرأتين هدية ملك إلى نبي ... وكلتا هما كانت من خيار النساء ... ولعل مارية كانت تذكر محمداً بالخليل ، فسمى ولده منها « إبراهيم » .

وحين عاد الخليل إلى فلسطين لم يكن قد أنجب بعد ، حتى إذا سكن لهاجر أنجب إسماعيل عليه السلام ، فاشتدت الغيرة بسارة ، وساءها أن تعلو عليها بالإنجاب أمة ، ولعلها ضايقت هاجر ، فإن الأخيرة حين أمر الخليل بإبداعها مهجرها بمكة كانت تمشى مرتعدة وقد اتخذت (منطقاً) لتعفى أثرها على « سارة » زوج الخليل كما يحدث ابن عباس رضى الله عنهما وكانت تلك أولى رحلات الخليل إلى الأرض الحرام .

يروى ابن عباس فى صحيح البخارى أن إبراهيم الخليل : « وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم ... وليس بمكة يومئذ أحد » ، ولكنها - وإن كانت قفراً - كانت الأرض الحرم الآمن فقد حرمها الله وجعلها أمنا من « يوم خلق الله السموات والأرض فهى حرام إلى يوم القيامة » ، كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم ، وضعهما إبراهيم إذن بخير بقعة فى الأرض ، صادعا فى ذلك لأمر ربه ، ولعله لم يستطع الغلبة على حنينه وحبه فأولاهما ظهره طاويا قلبه على شوق جارف ورحمة للأم والوليد ليس للجلد عليهما إلا رحمة من الله .

وأما الأم البارة فقد عصمها الإيمان أن تسىء الظن بالخليل ، وهى تناديه مراراً دون أن يلتفت إليها : « أين تذهب وتتركنا

بهذا الوادى الذى لا أنيس فيه ولا شىء ؟ » ثم تدرك مقام النبوة فتسأله : « آلله أمرك بهذا ؟ » فيجيبها : « نعم » ، فيغمرها الرضا بقضاء الله ، والأمن فى ظله ، فتقول : « انطلق فإنه لا يضيعنا ! » .

وبعد تلك الهجرة بشرت سارة بإسحاق ، وبشرت به فى حال لم تحدث لأحد فى العالمين ليس لأنها وردت على لسان الملائكة ... بل لما حوته البشارة من امتداد حياة إسحاق ، وامتداد حياتها هى حتى ترى حفيدها يعقوب « فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » وكان يمكن بعد تلك الحادثة أن تعود هاجر إلى فلسطين ... إلى قريب من مكان زوجها وقد ذهبت الحال الأليمة التى آذت سارة عليها السلام ، واستوت المرأتان فى منزلة الإنجاب ، وارتفعت سارة بمنزلة السيادة . لكن الله كان يريد أمراً آخر فى البقعة الحرام إذ جعل للخليل فيها رسالة بعد رسالته لقومه الفاجرين ، كان عليه أن يبنى البيت ، ويؤذن بالحج ، ويؤدى شعائره . كان الله يريد أن ينشأ البيت وبجانبه « لبنة » آدمية زكية ، هى لبنة النبوة ، تصون البيت ، وتؤدى واجبه ، وتحيط به فى نبوة بعد نبوة من ولد إبراهيم وذرية إسماعيل عليهما السلام ، ثم إن إبراهيم لم ينقطع عن زور أهله بمكة ... حقاً ... إننا نجهد زورات قد سلطت عليها الأضواء وتحدث عنها ابن عباس فى الصحيح منوطة بأحداثها . لكن لا يغيب عنا : مقام النبوة التى هى أدعى استجابة إلى صلة الأرحام ، وإبراهيم الخليل نبى كريم ، ووالد إنسان ، ورجل حنون شفوق بأهله فليس عجبا أن تتكرر زوراته ، وفى الصحيح أنه عليه السلام : « كان يزور أهله بمكة على البراق سريعا ثم يعود إلى أهله » .

وتأتى الرحلة الثانية إلى الحجاز من تلك الرحلات المفصلة التى وقعت أحداثها بمكة ، ونزل بهذه القرآن وتأتى حين شب إسماعيل ، وأدرك الحلم ، ورأى ابراهيم فى منامه أن يذبحه ، ووجد ذلك وحيا ، وأحس به أمرا فأسرع إلى تنفيذه فكان بمكة لتنفيذ الذبح (١) ذلك (البلاء المبين) الذى يبصر المؤمنين بما ينبغى أن يكون عليه المرء طاعة لربه ،

---

(١) ينبغى أن يعلم المسلمون أنه لا دليل علمى أو غير علمى بيد اليهود يثبت أن الذبيح هو إسحاق ، وإنما ذلك قصة ابتدعوها طلبا لمخالفة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وما اعتبر « قانونيا » من العهد يخلو من ذكر ذلك . وحسبنا الآية الكريمة بعد نصا قاطعا فى الأمر : « فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » نقل ابن كثير : أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق لأنه وقعت البشارة به وأنه سيولد له يعقوب ؛ فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ، ووعد الله حق لا خلف فيه . فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه فتعين أن يكون هو إسماعيل » اهـ .

وتضحية فى سبيل رضاه . إن إبراهيم الخليل لم يشاركه أحد من قبل ومن بعد موقف إبتلائه هذا . وحسبنا أن نعلم أن الخليل حتى لحظة الفداء ونزول الكبش ، وبعد أن استسلم إسماعيل للذبح وهم به الخليل كان فى روعه عليه السلام أن الذبح سيتم لا محالة ومن ذا الذى يمكنه من بنى البشر أن يصور نفسية الخليل تلك اللحظة أو يطيق أن يتخيل أمرها مهما أوتى من ضبط النفس وقوة الجنان . وهل بعد ذلك تقصير فى طاعة ؟! أو اقتصاد فى إخــــلاص . ؟ إنما ذلك الإخــــلاص كله ، والطاعة كلها ، وكان إبراهيم بهما خليل الرحمن .

ونحن لا ندرى كم عاشت هاجر ، لكنا نأخذ من ظاهر خبر صحيح أنها عاشت إلى ما بعد زواج إسماعيل الأول . لقد جاور هاجر وإسماعيل بطن أو أكثر من (جرهم) وكانوا خير جيرة لها وبينهم (... شب الغلام وتعلم العربية ، وأنفسهم ، وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ... وماتت أم إسماعيل ...) صحيح البخارى كتاب الأنبياء .

ويعنى هذا أن إسماعيل عليه السلام متعه الله بوالدته حتى اشتد عوده ، وأصبح يمكنته أن يستقل بالكدح ، ويسعى لرزقه ، فماتت أمه قريرة العين ، لا تخشى عليه ضياعا ، وتثق بالله فى أمره كله

لم تكن زيجة إسماعيل هذه بصالحة لأمره ولم تكن تلك الزوجة تصلح لمشاركة نبى حياته لقد كانت تلتوى أمام مشاهر النبوة العالية ، وآدابها السامية ، واكتشف الخليل ذلك فى زيارته لإسماعيل بعد هذا الزواج ، وعرف أنها كنود تضيق بالناس ، ولا تألف الكرم وتهوى الشح وتنفر من الضيف ، ولا تحمد لزوجها بعد ذلك كله جهدا ، ولا تشكر له صنيعا .

قدم إبراهيم فلم يجد إسماعيل فسألها عنه فقالت : (خرج يبتغى لنا ذهب يصيد) فلما سألها عن حالهم كان ردها : (نحن بشر ... نحن فى ضيق وشدة ...) وما كان إبراهيم عليه السلام لينتظر منها شيئا حتى تمضى فتقص له بلاءها ولكنها بدت امرأة لا تهتم بواجب ، وتفرط فى الأنانية ، وحب الذات ، وتغض من قدر إسماعيل ، فقال لها الخليل : (إذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، وقولى له : يغير عتبة بابه) ففعلت ، وأدرك إسماعيل فقال لها : (ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك فالحقى بأهلك !) .

ووفق إسماعيل فى الزيجة الثانية ، وتبين ذلك إبراهيم الخليل فى زيارته التالية وقد صادف كل الظروف الأولى عدا الزوجــــة الكنود ، فإسماعيل يصيد ، وفى البيت امرأة غير أنها تستبشر له وتدعوه إلى الطعام والشراب ، وتحمد لزوجها جهده ، وتحدثه عن الخير الذى تعيش فيه والأمن الذى تنعم

(البقية على الصفحة التالية)

نقد ابن تيمية لمذاهب الاتحادية والقائلين بوحدة الوجود

للأستاذ عبد الفتاح الديدي

— ١ —

نتساءل مقدما عن الأسباب التي حملت ابن تيمية على هذا النقد :

إن ابن تيمية كما نعرفه ، هو رجل من أتباع المدرسة الفقهية التي أنشأها ابن حنبل في تاريخ الفكر الإسلامي لأول مرة . وقديما حمل ابن حنبل على ذلك الفريق من المتصوفة الذي ذهب إلى حد القول بأن الفناء في الذات الإلهية يمكن أن يتم عن طريق المجاهدة وأخذ النفس بألوان من الرياضات على نحو ما علمنا من كل من أبي يزيد البسطامي والحلاج وأمثالهما من أصحاب الأذواق ، وأرباب الأحوال .

فالنزاع بين الفقهاء والصوفية يرجع إلى زمن متقدم جدا على العصر الذي عاش فيه ابن تيمية والهجمات التي تعرض لها الصوفية إنما كانت تتوالى عليهم بصور قوية ، حينا ، وفاترة حينا آخر طوال القرنين الثالث والرابع الهجريين .

ولئن كان ظهور الصوفية قد بدأ في منتصف القرن الثاني الهجري ، فإن النزاع الحقيقي قد بدأ

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

به ، وقد سألها إبراهيم : « ما طعامكم وما شرابكم ... ؟ قالت : طعامنا اللحم ، وشرابنا الماء ، قال : اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم » . ورحل الخليل وقد ترك لابنه رسالة ، وجاء إسماعيل وسألها : « هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته ، فسألني : كيف عيشنا فأخبرته : أنا بخير . قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم . هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال : ذاك أبي ، وأنت العتبة ... » اهـ .

وتدل هاتان الزيارتان على مدى اهتمام الخليل بأمر ولده ، ورعايته شأنه ، والمشاركة في إصلاح أمره في حنان موصول وبر كامل .

ثم أمر الخليل ببناء البيت فقدم مكة ، واتجه إلى ولده فوجده : « إسماعيل يبري نبلا تحت دوحة قريبا من زمزم .. فقال : يا إسماعيل ؛ إن ربك عز وجل أمرني أن أبني له بيتا ، فقال : أطع ربك عز وجل . قال : إنه قد أمرني أن تعينني عليه . فقال : إذن أفعل » .

وارتفع البيت ليكون مأثرة من ملة أبينا إبراهيم وشعيرة وطاعة إلى يوم الدين ؟

علي الخطيب
مجمع البحوث الإسلامية

فى مستهل القرن الثالث أى بعد أن اشتهر أمر مدرستى : الكوفة والبصرة وفى منتصف القرن الثالث بدأت تنشأ فى العاصمة العباسية ثقافة جديدة لها طابع خاص بها يوافق الثقافة العباسية الإسلامية . وانحدرت إلى العاصمة الجديدة بعض أفكار ونزعات تصوفية كان من آثارها تكوين مدرسة بغداد الصوفية التى يمثلها المحاسبى . وهذه المدرسة قد ورثت فى الغالب من معظم الاتهامات التى نسبت إليها ومع ذلك فقد عاشت إلى جوارها مدرسة الحنابلة الذين فطروا بطبيعة مذهبهم المتشدد فى الأمور الفقهية والكلامية على ضرب من الزهد . وهذا هو الذى أتاح فرصة مناوشة كل من الفريقين للآخر . فحمل ابن حنبل على الصوفية وقال : إنهم أصل البلية فى حوادث (جهم) . وتوالت الأزمات بين الفريقين، ووصل الأمر بالحنابلة أن حملوا الدولة على الوقوف من الصوفية نفس الموقف الذى اتخذته بازاء الزنادقة أيام المهدى . وأفلحوا فى النهاية فى التدخل فى أمر الحلاج والقضاء بقتله لما نسب إليه من الزندقة ولم يقف الأمر عند هذا الحد ؛ بل استمر النزاع متمثلا فى اعتقاد الفقهاء بأن الصوفية : أهل بواطن وقلوب وأصحاب أشواق ومواجيد مما لا سبيل إلى أن يسلم به كل إنسان . وهى فى غالب أمرها، مسائل خاصة : وتجارب ذاتية وشطحات روحية من الصعب تأييدها ، أو نقلها إلى الغير . ظل الأمر على هذا النحو حتى القرنين السادس والسابع الهجريين حينما جاء ابن تيمية ، فكان خاتمة لذلك الصراع الروحى الذى امتد طويلا بطريقة فكرية وفى بيان قوى ، ومما لا شك فيه أن الصراع لا يزال جاريا على أشده حتى يومنا هذا ولكن لم يأخذ قط بعد ابن تيمية مثل تلك الصورة القوية الفذة بحق . وهذا إن كان يدل على شىء ، فإنما يدل على أنه قد كان لنقده سبب تاريخى موروث ضمن العقيدة المذهبية التى كان يتشيع لها .

وعلى الرغم من أنه كان ينظر نظرة احترام وتقدير لبعض المتصوفة : كالغزالى وابن عربى وأبى الحسن بن سالم ، وعبد الله الأنصارى وعبد القادر الجيلانى كما يقول ماسينيون فى مادة تصوف بدائرة المعارف الإسلامية ولم يصفهما كما وصف غيرهما بالمروق من الدين ؛ فإنه لم يأل جهداً فى الحط من أقدار بعض المتصوفة الذين غالوا فى الاتجاه المخالف لاتجاه المدرسة الفقهية التى سار فى أثرها . ونحن نريد أن نكشف من هذا كله عن أثر دفين بنفسه للمذهب الذى شايعه ، وبتاريخه الطويل بما جعله يندفع فى هذا الاتجاه اندفاعا مؤيداً بالتعصب الدينى ، ومزوداً بالسلاح الفكرى اللازم .

أما السبب الثانى الذى كان يستوجب من

ابن تيمية كل هذه الثورة فيتصل اتصالا مباشراً بمسألة الصفات . وهى مسألة لها المحل الأول لدى مفكر إسلامى كابن تيمية ، فضلا عن أنها كانت الأصل فى كل خلاف نشأ بين الصوفية والفقهاء ، وموضع النزاع الدائم بينهما ولقد كان من المهم جداً بالنسبة إلى الإسلام أن يحدد موقفه من عقيدته فى الألوهية خاصة وقد جاء ليصلح أنظاراً دينية سابقة عليه وليبين الفساد فى بعض الآراء التى كانت معاصرة له . والواقع أن عقيدة الألوهية وما يتصل بها تعد من النقط الرئيسية فى كل دين خصوصاً فى الأوقات التى تعمل الفلسفة على تأييده فيها بالبرهان العقلى أو الفترات التى تنتاب الديانة فيها أزمات تدخل فى صميم العقيدة وابن تيمية من هذه الناحية متعصب لتعاليم الإسلام ، ومتمسك باعتقاد النبى عليه السلام نفسه فى الإله . فهو كما وصفه لاووست Laoust فى كتابه المسمى باسم Essai sur lesDoctrinesSociales et Politiques d'Ibn Taymia. ص١٥٥ : يؤمن بوحدة الله وبأنه ذات تتعالى عن التحديد الوصفى ، ويسمو على القياس العقلى ، وموقفه هذا مستمد من الآيتين : « قل هو الله أحد » « ليس كمثله شىء » يضاف إلى هذا : أن القرآن يصف الله : بأنه قد استوى على العرش ، ويذكر الحديث عنه أنه ينزل كل ليلة إلى سماء قريبة ، فيسمع صلاة الصالحين . فإذا اعتمد ابن تيمية على النص وأخذ بالإسناد التاريخى فيما يتعلق بمسألة الصفات فلا بد له — وهو الرجل المسلم الحنبلى — أن يدافع عن مبدأ واحد ، هو مبدأ « وحدة الذات الالهية » ، ولا ينفى هذا بطبيعة الحال تعدد مظاهر قوته ، ولا يتعارض مع الكثرة ، أو التسلسل التدريجى ؛ فالله واحد الذات ، متعدد الآثار فى آن معا . وفى القرآن يتكلم عن نفسه أحيانا بقوله : أنا ، وأحيانا أخرى بقوله : نحن . فالذات واحدة إذن أما الصفات فكثيرة ، (ونحن) هى بعض التعظيم ، فالواحد المعظم لنفسه يستعمل نحن .

وهذه نقطة حساسة جدا فى فهم ابن تيمية للصفات ، وأكره شىء إلى قلبه أن يوجد من المسلمين من ينكر الصفات على نحو ما فعل جهم من قبل ، أو كما يفعل القائلون بالاتحاد أو الوحدة ، وحين فضل ابن عربى على بقية أصحاب الاتحاد ، وميزه منهم ؛ لم يكن مدفوعا إلى هذا إلا لأن ابن عربى كما جاء فى مجموعة الرسائل والمسائل (فى ص ١٧٦) يفرق بين الظاهر والمظاهر ، وأول خطر أحسه ابن تيمية فى كلام الصوفية إنما عينه من وجهة النظر هذه ، فصفات الله عنده هى صفات الكمال سواء بسواء . إذا قيست بالنسبة إلى الله نفسه ، أو إلى الخلق ، وهذا الكمال القدسى لا يتفق مع وجود درجات

فى الصفات ، أو مع قول باختلاف فى قيم هذه الصفات ، ولذلك تراه يقول (ص ٢٦ جـ ٤) : مذهب هؤلاء الاتحادية كابن عربى وابن سبعين والقونوى والتلمسانى مركب من ثلاثة مواد :

١ — سلب الجهمية وتعطيلهم .

٢ — مجملات الصوفية : وهو ما يوجد فى كلام بعضهم من الكلمات المجملة المتشابهة كما ضلت النصارى بمثل ذلك فيما يروونه عن المسيح فيتبعون المتشابه ، ويتركون المحكم .

٣ — وأيضا كلمات المغلوبين على عقلهم ، الذين تكلموا فى حال السكر . فتراه من ذلك يولى مسألة الصفات جل اهتمامه ، وتعد هذه النقطة لكثرة ما تحدث فيها محل البدء فى نقده ، والواقع أنه لم يكن فى هذه المسألة مبتكرا أو فيلسوفا بالمعنى الصحيح ، وإنما كان مقلدا للمدرسة الحنبلية بصفة خاصة تلك المدرسة التى قالت انتصارا للسنة ، والتزاما بحرفية القرآن . ومما يدلك على ذلك تلك الرواية المشهورة التى جاءت فى كتاب (العقيدة والشريعة فى الإسلام) بقلم جولد تسهير (ص ٩٧ من الترجمة العربية) من أنه ذكر فى عظة من عظاته نصا يتعلق بنزول الله ، فعمل على نفى أن يكون النص من المتشابه ، وعلى أن يشهر عيانا فهمه لنزول الله فنزل بعض درجات المنبر قائلا « كنزولى هذا ») فمن هذه الناحية يمكن أن ندخل ابن تيمية فى تلك الطائفة المسماة : بالمشبهة أو المجسمة . قد يظن البعض أننا نتعارض بهذا مع ما قلناه : من أنه يأخذ فى مذهبه بالآية القائلة « ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير » سورة الشورى (١١) ولكن نلاحظ دائما أنه كان يأخذ بهذه الآية على نحو ما فسرها محمد بن سعدون المعروف بأبى عامر القرشى إذ يقول : « معناها ألا يمكن أن يقارب الله أحد فى الألوهية ؛ أما فيما يتعلق بالهيئة والصورة فهو مثلك ومثلى » وهذا تفسير يتفق تماما مع رغبة ابن تيمية فى تصوير الله بأنه غير عاجز كما تصوره الفلاسفة ، وغير مجانس للوجود المرئى كما تصوره الصوفية .

ونتكلم الآن عن السبب الثالث الذى دفع ابن تيمية إلى اتخاذ هذا الموقف . والحق أن ابن تيمية عاش فى فترة لم يكن فيها الإسلام بخير ، ولم تكن الفرق الصوفية جديرة باعتبار واحترام . ففى عهده بدأت الطرق الصوفية فى الانتشار وبدأت الخانقاوات والزوايا فى الزيادة بصورة لم تحصل من قبل ، كما تعددت ألوان المنشآت الإخوانية . ولم يكن النشاط الصوفى قاصرا على المجال الجمعى وحده ، وإنما كان يمتاز فى وقته بجانب فردى تمثل فى اتخاذ بعض الأفراد خطة خاصة فى الحياة

وأسلوبا معينا فى السلوك ، جعلوا به من أنفسهم صوفية من طراز متوحد .

ولقد عرف الإســـلام من قبل ضروبا مختلفة من التصوف أهمها وأميزها وأقربها إلى روح الإسلام وأحبها لفعل الخير هو ذلك التصوف المنظم كما كان عند الغزالى الذى عارض الطقوس المذهبية ، والأمور الشكلية لدى رجال الدين ، واتخذ من حب الله وحده دافعا إلى النقاوة والطهر والصفاء . ولكنه لم يعرف شيئاً من هذه الروح الخبيثة التى بدأت تندس فى أنحاء مختلفة من أقوال الصوفية فى عهده وأعمالهم المتصلة بجملة عقائدهم ، ونلخص أظهر المساوىء التى امتـــازت بها تصوفهم فى النقط الآتية :

أولا : حوروا فى الأسس التقليدية للشريعة الإسلامية بصورة مزعجة إذ قد كانت الشهادة على هذا النحو « لا إله إلا الله » فتحولت على أيديهم إلى هذه الجملة : ليس إلا الله .

ثانياً : وكان مما أثار غضب ابن تيمية أنهم مزجوا بين التصوف والخزعبلات ، كما يقول لاووست فى وصف حالة الصوفية فى الفترة التى عاصرها ابن تيمية (ص ٢٩) فنهم من كان يعد الرقص أنشودة روحية تقتاد النفس إلى النشوة والسكر وتفتح للبعد سبيلا للاتصال بالله . ومن هذه الفرق الأحدية والرفاعية واختص أعلامهم فى عرض الخـــوارق والمعجزات على مشهد من الأمراء .

ثالثا : تتصل الصوفية فى واقع الأمر بالميول الإسلامية الشعبية وتغذيها ، ومن ثم تمكن أصحابها من إقناع العامة بأنهم فى مرتبة الأنبياء ، وأن النبى هو قائدهم الأعلى ورئيسهم الأكبر . ومن هنا سادت بين الناس فكرة الاحتفال بالمولد ، وصارت مرضاة الله بين يدى الشيخ أو السيد أو الولى .

رابعاً : أدت حالات الزهد والانقطاع بالكثيرين من الأولياء إلى تفضيل الغلمان على النساء عند الأداء الجنسى ، كما أن منهم من بقى فى حال العزوبية التى تتعارض مع الدين الحنيف . (لاووست ص ٢٨) .

خامساً : يمثل التصوف على النحو الذى شاهده ابن تيمية فى عصره انحلالا ظاهرا فى العقيدة الموروثة . ويتيح للعناصر النصرانية من جهة ، واليونانية من جهة أخرى ، أن تتدخل فيما هو من أصول الدين الإسلامى . ولم يكن بد من أن يعلن ابن تيمية سخطه على هذه الفئة التى تضال المسلمين ، وتفسد الإيمان على أهله بحيث تسلمهم فى النهاية إلى الأمراض الاجتماعية الفتاكة التى تجعل منهم فريسة لكل طامع سياسى ، وذلك بعد البساطة الروحية التى امتازوا بها ، والقوة الدنيوية التى كانوا عليها . (البحث بقية)

عبد الفتاح الديدى

الإنسان
بين هوى النفس والشيطان

للأستاذ أحمد حنفي نصار القوصي

منذ هبط آدم عليه السلام من السماء ليكون خليفة في الأرض يعيش عليها ، ويعمرها هو وذرياته إلى نهاية الدنيا ، منذ ذلك الحين - ولما يمض غير قليل - انكشفت خصائص البشرية ، وبان ما يكمن فيها من استعداد وقدرة على عمل الخيرات ، واكتساب السيئات على حد سواء ، وقد ظهر ذلك جليا أول ما ظهر في قصة ولدى آدم عليه السلام من صلبه وهما قابيل وهابيل « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر قال : لأقتلنك ، قال : إنما يتقبل الله من المتقين ... فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين » .

ومنذ طرد إبليس من الجنة ، وأنزل إلى الأرض مذءوما مدحورا لمخالفته أمر ربه بالامتناع عن السجود لآدم عليه السلام بدأت حربه التي لا تنقطع ولا تفتر ضد بنى آدم ، ولزم هو وجنوده حد قوله فيما يحكى القرآن عنه إذ يقول : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ، ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين » وإذ يقول « فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين » .

وقد اقتضت حكمة الله ورحمته بعباده أن يسد هذه الثغرات ، وأن يستجيب لحاجة البشر الماسة إلى التبصرة والتذكير بين الحين والحين ، لعلمه المحيط بهم ، وعلمه بسطوة عدوهم ، وبما هم عليه من ضعف في مقاومته ومدافعة استغلاله لشهواتهم ، ولعبه بأهوائهم فاصطفى لإرشادهم رسلا ينزل عليهم آيات هدايته ليدعوهم إلى الإيمان بالله ، ويرشدوهم إلى الصراط المستقيم . يبينوا لهم حدود الله « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ولتكون مجازاة من كفر بالله ، ويلحد في آياته حقا وعدلا « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

وقد اختار الله رسله - وهو العليم الحكيم - من البشر ليألفهم الناس ويتيسر عليهم الاتصال بهم والأخذ عنهم والفهم منهم لاتحاد الجنس « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان

قومه ليبين لهم ، كما اختارهم رجالا ليقووا على احتمال المكاره والصبر على الشدائد التي تصادفهم في سبيل أداء أماناتهم بتبليغ رسالات الله « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم » .

ولا شك في أن الهدى في كل زمان يضاد ما عليه الناس من الباطل ، ويصدمهم في كثير مما يحبون ، فيعرض أكثرهم عنه لضلالهم وتمسكهم بأوضاعهم القائمة ، وعبوديتهم للعادات المتمكنة ، والأرث الذي يقدسونه جهلا وعمى ؛ برغم مجافاته للعقل والرشد « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ؟ ! والشيطان من وراء ذلك كله يسوقهم إلى المعصية بعصاه الخفية القوية سوقا ، ويستغل ضعفهم ، ويوسوس لهم بالتزيين والتلبيس والوعود الفاسدة ، والأماني الكاذبة « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » .

واستمر الشيطان مع الإنسان على الأرض عدوا له مبينا . فأما الشيطان فقد احتمى بخصائصه ، وبطبيعة خلقه ، وأخذ يعمل أفاعيله في الاحتيال بعزم وقوة ، وأما الناس فقد اختلفوا وانقسموا إلى قسمين : منهم من صدق برسالة الله فاستمع الموعظة ، واعتصم بحبل الله المتين بإيمان صادق ، وإرادة قوية ، محتقرا لمغريات الشيطان ، وأمانيه الكاذبة ، فنجا من حبائله ، وأخذ طريقه إلى النصر عليه . كلما حاول منازلته « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فإذا هم مبصرون » فكيد الشيطان بالنسبة لهؤلاء هباء ، ومنهم من يستجيب للوسواس ، ويخضع لداعي الشهوة ، ويغلبه على أمره هواه ؛ فيكذب برسالات الله ، ويعرض عنها وينأى بجانبه ، ويؤذي الرسول ، ويكيد له ، ويحاول تبديل كلمات الله « ولا مبدل لكلمات الله » فيصير من حزب الشيطان مع الهالكين .

وإذن لحزب الله رسله والمؤمنون ، وحزب الشيطان إبليس وجنوده من الجن وضلال الأنس وهما في صراع دائم وحرب مستعرة مستمرة لا تتوقف ما بقي على الأرض الأناسي والشياطين . لذلك كانت مهمة الرسل شاقة ، وطريقهم وعرا ، وكان لا بد لهم من تأييد السماء ، فكانت المعجزات على تنوعها لتصدقهم وتدعم موقفهم تجاه المضلين . وسواء منها ما كان في نوع العلم ، أو في نوع القدرة ، فهو خارج عن قدرة الأنس والجن جميعا ، لأن الجن من جملة من دعاه الأنبياء إلى الإيمان ، وأرسلت إليهم الرسل قال تعالى : « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا » ومعلوم أن النبي إذا دعا الجن إلى الإيمان فلا بد أن يأتي بآية خارجة عن مقدورهم ،

وإذن فلا بد أن تكون آيات الأنبياء خارجة عن مقدور الجن والإنس جميعاً .

ومع هـــذا فإن حزب الشيطان لم يقف مكتوف اليدين ، بل حاول من جانبه بكل جهـــده أن يشوش على معجزات الأنبياء بخوارق تشا كلها فى الظاهر من السحر والكهانة ، وما إلى ذلك ليوهموا أنها من جنس المعجزات فيختلط الأمر على الناس ، فلا يفرقون بين الحق والباطل ، حتى أنهم أوغلوا فى ذلك فألفوا الكتب فى السحر ، وطرق الاتصال بالشياطين ونحو ذلك قال تعالى « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان . ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » وأدرجوا فى بعض هذه الكتب - إمعانا فى الإضلال - معروفا لاشبهة فيه ليلبسوا الحق بالباطل كى يفهم الناس أنه جميعا غير منكر ، وعمل مشروع . ففتن بها كثير منهم وكأنهم لم يتبينوا من قبل الحـــدود الفاصلة بين المعجزات وما يلحق بها وغيرها من الأباطيل.

والمعلوم أن المعجزة أمر إلهى خارق للعادة اقترن بدعوى النبوة ، لتدل على صدق الرسول يظهرها الله على يديه ابتداء ، أو عنـــد التحدى ، أو يجريها إرهاصا توطئة ، وإعلاما بمجىء الرسول ، وكذلك تخرق العادة لأولياء الله المعروفين بالصلاح والتقوى من أتباع الرسـل عليهم السلام تأييداً لدين الله ، ودلالة على صحة ما جاء به الرسول .

وتسمى هذه كرامات التفرقة بينها وبين المعجزات ، وهى ولاشك لا تبلغ على أى حال إلى مثل معجزات المرسلين وإن شاركوهم فى بعض أعمالهم ، والكرامة كذلك لا تدل على عصمة الولى ، ولا على أنه تجب طاعته فى كل ما يقوله ، كما هو الحال مع المرسلين . وعلى ذلك فإن ما تقـــدم الرسول من الإرهاصات ، وما تأخر ، وجرى على يد الصالحين فى أمته من بعده سواء أحدث ابتداء أو ظهر عند التحدى للدين فهو من معجزاته . ومثل هـذا ما ذكر فى حديث رسولنا صلى الله عليه وسلم عن الثلاثة الذين تكلموا فى المهد ، وما حدث لأتباعه صلى الله عليه وسلم كمخاطبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سارية على المنبر مع بعد ما بينهما .

وما يكون من الكفار والسحرة والكهان والمشركين من أهل الكتاب والضلال من غيرهم فالأنبياء والأولياء قادرون على إبطاله ، وكشف زيفه بعون الله ، وأوضح دليل على ذلك ما ظهر على أعين الناس مجتمعين ضد سحرة فرعون على يد موسى عليه السلام .

وعلى كل فأفعال المفسدين على اختلافها من جنس الأفعال المقدورة للخلق من الجن والإنس والحيوان ليس فيها قلب جنس

ولا مسخ ولا إبطال خاصية بخلاف ما يجرى على يد الرسل فإنه من عمل الله لا يستطيعه مخلوق.

فالساحر قد يمرض بسحره أو يقتل والمرض والقتل أعراض يقبلها فى العادة الحيوان . وكذلك إحضار الطعام والمال من الغيب إنما هو نقل من مكان إلى مكان تفعله الجن والإنس ولكن الجن يفعلونه وهم فى خفاء عن الناس . وهذا كله ليس معجزاً لأنه فى مقدور المخلوق . وكذلك الأخبار ببعض الأمور الغائبة من مثل ما تفعله الشياطين مع الكهان فهذا تلفيق لا يخلو من الكذب أبداً لأن المصدر الشيطان وهو لا بد له من الكذب على الإنس سخرية بهم . وقد أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله : « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » ومع ذلك فكل ما يخبرون به فهو من جنس المعتاد للناس مما يعلم بالمنامات وشبهها وفيه خلط وزيف وهو على أى حال ليس بالحق اليقين .

وأما أخبار الأنبياء عليهم السلام فليس فيها كذب قط لأنها من عند الله ومن غيبه الذى لا يقدر عليه الجن والإنس قال تعالى « عالم الغيب ، فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول ؛ فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا » والأنبياء عليهم السلام فى ذاتهم صادقون والكذب فى حقهم مستحيل

ومن العجيب المؤلم حقا أنه إلى عصرنا هذا ـ وقد بلغ العقل البشرى رشده كما يقولون وعلم الإنسان بظواهر الكون قد اتسع ، وقطع شوطا بعيدا ـ لا تزال مثل هذه الترهات تجرى فى الناس ، وتأخذ طريقها إلى عقولهم ، فيؤخذ بها ضعاف الأحلام ، ويلتبس أمرها على كثير .

وكنا نظن أن علماء السلف عليهم الرضوان من أمة محمد عليه السلام قد تدبروا هذه المسائل من مئات السنين ، وبينوا الحدود بين معجزات النبيين وكرامات الصالحين وأفاعيل المضلين كنا نظن أنه لم يبق هناك داع للعودة إلى الكلام فى هذه الأمور ؛ ولكن الإنسان أثبت أنه برغم رقيه وحضارته لا يزال فى حاجة إلى الموعظة والتذكير وإلى من يضع يده دائما على الحق . وهو كذلك ـ من باب أولى ـ فى أمس الحاجة إلى التنبيه على ما يجد من مفاسد العابثين وألاعيب الشياطين .

ومن هذه المفاسد وليست آخرها ألعوبة « الشيطان بالإنسان فى خرافة تحضير أرواح الموتى » . تلك البدعة التى استحدثت وراجت سوقها من بضع سنين وصدق بها كثير من الناس حتى من مدعى المعرفة مأخوذين بسراب من ظواهر الأمور دون نظر أو تحقيق .؟

أحمد حنفى نصار القوصى

ما يقال عن الإسلام

الفنون الإسلامية

للأستاذ الدكتور احمد فؤاد الأهوانى

ليس الإسلام دينا يقتصر على العقائد والعبادات ولكنه إيمان وعمل ، لا ينفصل أحدهما عن الآخر .

ولا يمكن فهم الإسلام حق الفهم إلا بالإحاطة الشاملة الوثيقة بسائر ما كان يقوم به المسلمون فى أمور معاشهم ، وما يقومون به فى الوقت الحاضر ، وجماع ذلك كله يسمى بالحضارة ، فالإسلام حضارة معينة ، تشمل تلك النواحى المختلفة التى ذكرناها ، ومنها الفنون .

ولم يغب هذا المعنى عن قدماء المفكرين فى الإسلام ، غير أنهم لم يفردوا للفنون كتبا خاصة تنهض بدراستها ، والأغلب أن المفكرين فى الزمن القديم لم تتجه عنايتهم إلى هذه الدراسات العملية ، أو الفنية ، أو التكنولوجية ، وذلك لاعتقادهم أن الفكر المجرد والنظر الخالص أسمى من العمل وبخاصة الأعمال اليدوية ، ولم يكن هـذا الفصل بين النظر والعمل ، مع سمو النظر على العمل مقصوراً على المسلمين ، ولكنه ميراث طويل عن الحضارات القديمة .

ولما جاء المستشرقون فى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، شرعوا يطبقون المناهج الحديثة فى دراسة الفنون على الفن الإسلامى ، فكانوا بذلك أصحاب الفضل فى فتح هذا الباب أمام الباحثين العرب الذين تعلموا عنهم هذا اللون من الدراسة ، وكتب فى ذلك المرحوم الدكتور زكى محمد حسن كتابه عن الفنون الإسلامية معتمداً على تلك الدراسات الأجنبية .

وقد ترجم إلى اللغـة العربية منذ عشر سنوات تقريبا كتاب الفنون الإسلامية تأليف الأستاذ ديماند ، وقد أحسن المترجم بقوله « الفنون الإسلامية » فى العنوان بدلا من الأصل الأجنبى وهو « الفن المحمدى » ، ومعنى ذلك أن المؤلف يضع للإسلام اسماً هو « المحمدية » . وقد فعل ذلك الأستاذ جب ، المستشرق المعاصر المعروف ، حين ألف كتابه عن الإسلام وسماه « المحمدية » والراسخون فى العلم لا يقولون بذلك ، بل يقولون : الإسلام ، لأن الدين عند الله الإسلام ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل .

وقد أخذ معظم المستشرقين فى الوقت الحاضر بهذه الوجهة الصحيحة من النظر ، وهذا ما فعله اثنان من كبار المشتغلين بالفنون والآثار الإسلامية ، هما : «كرسويل» الإنجليزى الذى كان أستاذاً للفن الإسلامى بالجامعة المصرية ، و «جورج مارسيه» عضو الأكاديمية فى باريس ، ومدير متحف الفن بالجزائر قبل استقلالها ، وعنوان كتاب كرسويل «فن العمارة الإسلامى قديما» ، وعنوان كتاب مارسيه «الفن الإسلامى» ، أو «الفن فى الإسلام» ، أو «الفنون الإسلامية».

والأغلب أن المشتغلين بهذا اللون من الفنون يسمونه إسلاميا لا عربيا ، على حين أنهم حين يتحدثون عن العلوم يقولون «العلوم العربية» لا الإسلامية ، وذلك لسببين: الأول أن العلم لا وطن له ، وهو دراسة مغايرة للدين ولا تخضع له ، فيكون من التناقض القول بعلوم إسلامية أو مسيحية (المقصود هنا العلوم بمعناها الخاص كالحساب والهندسة والفلك والطب وغير ذلك) . والسبب الثانى أن تسميتهم العلوم بأنها عربية نسبة إلى اللغة العربية لا إلى الدين .

صفوة القول : إن الفنون إسلامية والعلوم عربية ، وهذا فى الأغلب الأعم ، اللهم إلا عند بعض المتحذلقين والمخالفين ، وهم عندنا قلة لا يحسب لها حساب ، ولا يؤخذ برأيها فى هذا الباب .

يفتتح الأستاذ جورج مارسيه كتابه بهذه العبارة : «تصور أنك تقوم بهذه التجربة ، إذ تمضى ساعة من فراغك تتصفح مجموعة من الصور هى عبارة عن مجموعات فوتوغرافية مأخوذة عن ألوان مختلفة من الفنون : هناك تماثيل إغريقية ، يتلوها نقوش على مقابر قدماء المصريين ، ثم سواتر مزركشة على الطريقة اليابانية ، ثم تقع عينك وأنت تقلب الصور ، على لوحة من الجص المنحوت مأخوذة عن إحدى صالات قصر الحمراء ، ثم على صفحة من مصحف كتب بقلم مصرى ثم على نقش محفور على إناء إيرانى من النحاس ومهما تبلغ ثقافتك الفنية من الضآلة ؛ فإنك ستتحقق على الفور أن هذه الصور الثلاث الأخيرة تنتمى إلى الفن الإسلامى» .

يريد المؤلف أن يقول : إن الفنون الإسلامية على تنوعها وتطورها على مر العصور ، وتباين الأقطار الإسلامية التى نشأت فيها من الشرق الأقصى إلى أقصى الغرب ، تمتاز بشخصية ، ووحدة وخصائص تجعل الناظر إليها يدرك ، ولا يخطىء أنها إسلامية .

ويذهب مارسيه إلى أن الفن الإسلامى يمتاز بصفتين أساسيتين هما : الشخصية والوحدة ، ولا مراء فى شخصية الفن الإسلامى هذه الشخصية الواضحة البارزة التى يسرت

الحكم على القطع الفنية على تنوعها بأنها إسلامية وقد جاءت للفنون الإسلامية هذه الشخصية من عدة عوامل على رأسها : الدين ففي ذلك العالم الإسلامي الذي امتدت رقعته من الصين شرقا إلى الأندلس غربا ، كان المسلمون يخضعون لديانة التوحيد ، ويتلون كتاباً واحداً باللغة العربية هو القرآن ، ويمارسون عبادات واحدة هي الصلوات الخمس كل يوم ، ويجتمعون معا لصلاة الجماعة في المساجد ، ومن أجل ذلك اتخذت المساجد هيئة خاصة في بنائها تستلزم وجود مئذنة للأذان ومنبر لخطبة الجمعة ، والمحراب لبيان اتجاه القبلة ، والميضأة لقضاء الحاجة والوضوء والنقوش التي تحلى بها جدران المساجد من الداخل ومن الخارج ومعظمها من الآيات القرآنية :

وقد كان القرآن وما زال وسيظل كتاب المسلمين المقدس ، يعظمونه لأنه كلام الله ، ويحفظونه في الصدور ، ويكتبونه في المصاحف بخط جميل ، وينقشون هوامش المصاحف بألوان من الرسوم الجميلة . ولم تقتصر الكتابات القرآنية من الناحية الفنية على تزيين جدران المساجد ، بل وضعت على كل ما يستخدمه المرء في منزله من أدوات ، بحيث يعيش المرء في داره محوطا بالشعارات الدينية ، وعلى رأسها شعار المسلمين وأساس دينهم وهو : (لا إله إلا الله) و (محمد رسول الله) . أو : (بسم الله الرحمن الرحيم) وغير ذلك . ونحن نعرف أن الدراهم والدنانير كان يضرب على أحد وجهيها في الأغلب : لا إله إلا الله .

وهكذا نجد أن شخصية الفن الإسلامي تستمد كيانها من الدين . بل إن بناء البيوت على هيئة خاصة ، من وجود فناء داخلي ، ونافورة مياه ، ومشربيات تطل على الخارج كل ذلك يمكن تفسيره دينيا كما يمكن تفسيره جغرافيا .

وفي ذلك يقول الأستاذ مارسيه بعد حديثه عن العامل الجغرافي وعامل الجو وأثرهما في الفن الإسلامي ما نصه (صفحة ٨) : (ومع ذلك فإن الذي حفظ قبل كل شيء آخر وحدة الفن الإسلامي بين الأقطار المختلفة هو الإسلام نفسه ، تلك الوحدة التي يحمل كل أثر فني طابعها . ذلك أن العامل الديني هو أكثر العوامل فعالية وأدومها) . هذا ولم يغب عن باله عامل آخر له أهمية عظمى وأثر كبير في الفن الإسلام ، وهو اللغة العربية . ويقول في هذا الصدد : (إن التقارب بين الفن ، ولغة الحديث أمر لا شك فيه . ذلك أن ما يجعل من اللغة العربية ـ على الرغم من بعد الشقة بين الشعوب وتنوعها ـ لغة حديث مشتركة هو أنها لغة مقدسة ، واللسان الذي نزل به الوحي المدون في القرآن) .

ولما كانت الفنون الإسلامية تستخدم في الأغلب الكتابة العربية للحلية، والتبرك، والتقرب إلى الله، فلا غرابة أن نجد هذه الكتابات على جميع الآثار من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. وانظر معى إلى هذه النغمة الجديدة التي تبغي أن تتخذ من الأحرف اللاتينية طريقة لكتابة اللغة العربية، وتريد ترجمة القرآن إلى لغات غير العربية، فكيف يكون الفن الإسلامي بعد ذلك عاملا من عوامل التوحيد؟ إنها - ولا نزاع - نغمات شاذة مغرضة تبغي هدم الإسلام عن طريق هدم اللغة العربية، والتخلص منها.

والفن لغة، يعبر بالخطوط والألوان والظلال والصور عن روح الأمة وتاريخها. والفن من أجل ذلك حى بحياة الأمم، يسمو مع نهوضها، وينحدر مع ضعفها ويتغير بتغير تاريخها. ولا يمكن أن يظل الفن ثابتاً خلال القرون الأربعة عشر التي مر بها الإسلام منذ ظهوره حتى الآن. والفنون الإسلامية مظهر من مظاهر التاريخ الإسلامي، وسجل لذلك التاريخ، وثمرة له، كما أننا نستطيع أن نستقرىء التاريخ الإسلامي من النظر إلى الآثار الإسلامية الباقية حتى اليوم، والمحفوظة في المتاحف. ثم إن الإنتاج الفني يفترض عموما حالة معينة من توازن المجتمع، وازدهار الدول وقوتها.

ولما كانت الفنون الإسلامية عبر تاريخها الطويل قد خضعت لتأثير السلاطين والخلفاء والأمراء الذين كانوا يرعون الفنون ويشيدون المساجد والمدارس باسمهم تخليداً لذكرهم، كان لابد من معرفة وثيقة بالتاريخ الإسلامي لمعرفة أسرار هذه الفنون.

لهذا السبب يقسم علماء الفنون كتبهم بحسب العصور التاريخية؛ ويمهدون لكتبهم بمقدمة في التاريخ الإسلامي. وهذا ما فعله الأستاذ كرسويل في كتابه عن العمارة الإسلامية ..

أما الأستاذ مارسيه فقد قسم بحثه إلى أربعة عصور، أو فترات دون الإفاضة في العرض التاريخي.

الفترة الأولى: من ظهور الإسلام إلى نهاية القرن الثالث.

والفترة الثانية: من القرن الرابع، أى عصر انقسام الدولة العباسية إلى دويلات، وازدهار الدولة في الأندلس، وظهور الفاطميين في شمال إفريقية ومصر، وتستمر هذه الفترة حول قرنين ونصف من الزمان.

ثم في الفترة الثالثة: تبدأ الدولة الإسلامية في التميز خلال القرون: من السابع إلى العاشر، ويبرز الفن الإيراني بوجه خاص والفن المملوكي.

وفي الفترة الرابعة: يظهر التأثير التركي

عقب نفوذ الأتراك فى العالم الإسلامى ، وهو يبحث فى كل عصر الفنون على النحو التالى : (١) العمارة الدينية ـ والمقصود منها المساجد أساساً ، ولكن فى بعض العصور وجدت مقابر . (٢) العمارة المدنية مثل القصور والبيوت . (٣) الزخرفة بأنواعها . (٤) الفنون المتحركة أو المنقولة وهى على عكس العمارة التى تعد من الفن الثابت ، ويدخل فى هذا الفن كل ما يمكن نقله مثل الأوانى النحاسية ، والمصنوعة من الفخار ، والأقمشة ، والأبسطة ، والسجاجيد ، وجلود الكتب وغير ذلك .

أما كتاب كرسويل فإنه مقتصر على العمارة يتحدث فيه عن فن العمارة أولا فى الدولة الأموية ، ثم ثانيا فى الدولة العباسية حتى نهاية القرن الثالث الهجرى .

ثم إن كرسويل لم يعرض التاريخ من حيث هو كذلك ، بل فى الحدود التى تسمح بإبراز الإنتاج الفنى . ولذلك استهل كتابه بقوله : « لايبدو أن بلاد العرب عند ظهور الإسلام كانت تملك شيئا يستحق اسم العمارة ، إذ لم يستقر فى الأرض سوى نسبة ضئيلة من السكان اتخذت لها بيوتا أشبه بالمغاور . وسمى الذين يعيشون فى بيوت من الآجر أهل المدر ، وسمى البدو الذين كانوا يعيشون فى خيام من الشعر أهل الوبر » .

هذا المدخل إلى العمارة الإسلامية يفصح عن اتجاه واضح نحو انتزاع أى عمارة عن العرب قبل الإسلام وعند ظهوره حتى يقال : إن المسلمين نقلوا هذا الفن عن البيزنطيين بوجه خاص ، وعن الفرس . وليس لدينا سند صحيح يبين مدى ما بلغته العمارة العربية قبل ظهور الإسلام مباشرة فى مكة والمدينة غير أن المستشرقين الذين يكتبون عن الإسلام ويحاولون تفسير الأسباب المادية لظهوره . يذهبون إلى أن العرب فى الجاهلية بلغوا مرتبة من الازدهار ثمرة التجارة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ليس لها مثيل ، ولو أن الفارق كان كبيرا بين الأغنياء والفقراء . وجدير بمن بلغ هذا الثراء الفاحش من أهل مكة أن يتخذ لنفسه دوراً أنيقة ، يقوم ببنائها مهرة الصناع من مصر أو اليمن أو الحبشة أو الشام ، تماما كما هى الحال فى الوقت الحاضر . مهما يكن من شىء فنحن بإزاء تفسيرين متناقضين يذكرهما المستشرقون ، الأول أن حالة العرب الجاهلية كانت فى غاية التأخر حضاريا ، والثانى : أنها كانت غاية فى الازدهار ، فترى بأى التفسيرين نأخذ ؟ .

على أى حال يتناقض كرسويل مع نفسه حين يتحدث فى الصفحة الأولى من كتابه عقب ذلك عن تجديد بناء الكعبة قبل بعثة

الرسول ، معتمداً فى ذلك على رواية قدماء المؤرخين العرب مثل الأزرق . وتذهب الروايات إلى أن قريشا جلبت الأخشاب التى بنت بها الكعبة من حطام سفينة غرقت عند الساحل ، واستخدمت نجاراً وبناء احمه باقوم كان على ظهر السفينة ، إلى آخر هذه الرواية .

وقد كانت الكعبة بناء كبيراً نسبيا ، لأن الأصنام التى كان العرب يعبدونها كانت موجودة فى داخل الكعبة ، فضلا عن صور الأنبياء (بحسب رواية الأزرق) . وقد ذكرنا من قبل أن المؤرخين العرب لم يوجهوا عنايتهم نحو تسجيل العمارة وهندسة البناء بمقدار ما كان يهمهم تسجيل الظواهر المتصلة بحياة الرسول الكريم

وخلاصة الرأى عند كرسويل فيما يختص بنشأة العمارة فى الإسلام ، أن فكرة عرب الجاهلية عن العمارة كانت ساذجة جداً ، وأن الكعبة ، وهى الهيكل المقدس عندهم ، لم تكن أكثر من بناء يحوطه أربعة جدران بارتفاع قامة الرجل وفى داخله بئر زمزم ولما ظهر الإسلام بنيت المساجد فى غاية البساطة لتحقق الغرض من اتخاذها مكاناً للعبادة . وأنشىء فى البصرة والكوفة والفسطاط أول المساجد وكانت ساذجة بدائية إلى أقصى حد . أما فى سوريا فإن أول مساجد اتخذها المسلمون إما أنها كانت كنائس ، أو أجزاء من كنائس شارك فيها المسلمون المسيحيين . ولا يمكن اعتبار بداية المساجد بمعنى الكلمة من حيث فن العمارة إلا فى خلافة عبد الملك ابن مروان أو الوليد بن عبد الملك ، وقد ظل العرب بعيدين عن أى مطامح فى فن العمارة مدة قرن من الزمان بعد ظهور الإسلام ، ثم نقلوا بعد ذلك عن الفن الساسانى فى العراق ، وعن الفن البيزنطى فى الشام .

وقد اعتمد كرسويل فى دراسته على أوراق البردى إلى جانب المصادر التاريخية المعروفة ، حين وصف بناء مسجد دمشق الذى قام به الوليد ، وشرح ، كما يقول المقدسى ، فى طلب مهرة الصناع لتنفيذ غرضه ، وجاء فى أوراق البردى التى عثر عليها بمصر ما يؤيد تلك الرواية ، إذ نقرأ فى إحداها أمراً بدفع أجور الصناع ، وفى أخرى أمراً آخر باستبقاء أربعين صانعا (أنظر صفحة ٥٤ من كتاب كرسويل).

والكتاب محلى بالرسوم واللوحات الهندسية لشرح عمارة المساجد ، وليس غرضنا وصف العمارة الإسلامية من حيث هى كذلك ، إلا بمقدار ما تفيد فى توضيح حالة المسلمين فى العصور المختلفة ، ومدى تعلقهم بدينهم ، وكيفية تصورهم لهذا الدين ، من خلال الفنون الإسلامية ، وقد أسهم علماء الغرب فى هذا المجال مساهمة محمودة لاشك فيها ؟

د . أحمد فؤاد الأهوانى

فتاوى مختارة

تقديم : ابراهيم محمد الأصيل

(الإجابة لجنة الفتوى بالأزهر)

الحج ونفقة الأقارب :

السؤال :

رجل يريد الحج وعنده أقارب محتاجون للقوت الضرورى فما الحكم ؟

شعبان عبد الرحمن الشيحى

الجواب :

هؤلاء الأقارب إذا كانت نفقتهم واجبة على من يريد الحج كزوجته وأولاده الصغار أو الكبار العاجزين عن الكسب أو الأبوين الفقيرين وليس عنده ما ينفقه عليهم إلا ما يريد الحج به لا يكون الحج واجبا عليه لأنه غير مستطيع حينئذ فإذا حج والحالة هذه كان آثما.

الحج من مال مكتسب من بلد غير اسلامى

السؤال :

لى أم تريد أن تؤدى فريضة الحج هذا العام، ولا عائق والحمد لله إلا شىء واحد هو مصدر الأموال المطلوبة للإنفاق على الحج، ومصدرها: أننى أعمل فى ألمانيا الغربية طول اليوم وأكد فى الحصول على المال بعرق الجبين. فهل هذه الأموال المجموعة من بلد غير إسلامى حلال أم حرام؟ وهل يجوز بها أداء فريضة الحج ؟

نايف أحمد مفلح / ألمانيا

الجواب :

كسب الرجل من عمله حلال ، بل هو من خير الحلال متى كان يعمل عملا مشروعا كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكون العمل الذى يقوم به السائل فى ألمانيا أو غيرها لا يمنع من الإنفاق منه على والدته فى قيامها بفريضة الحج فإن كسبه فى مقابل عمله ، فالمال إذاً ملك حلال له.

النيابة فى الحج .

السؤال :

هل يجوز شرعا أن أجهز حاجا لكى يحج نيابة عن أخى أو أبى المتوفى وما هى الشروط الواجب توافرها فى هذه الحالة ؟ وهل يعود ثواب ذلك على المتوفى ؟ وهل يعتبر كما لو كان المتوفى قد حج عن نفسه ؟

على لبيب عزيز

الجواب :

يجوز للسائل أن ينيب شخصاً للقيام بالحج عمن توفى سواء أكان أبا أو أخا .

ويجزى هذا الحج عن ذلك المتوفى وله ثوابه.

ويشترط فيمن يقوم بهذا الحج أن يكون حج عن نفسه من قبل .

هل يصح ممن ذهب لأداء فريضة الحج القصر فى الصلاة :

السؤال :

أحد الحجاج بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام فى صلاة الظهر وهو مؤتم بالإمام الراتب (المقيم) سلم من ركعتين على أنه مسافر وأن له أن يقصر فى الصلاة فما الحكم فى صلاته هذه هل هى صحيحة أم غير صحيحة وماذا كان يجب عليه لتصح صلاته على المذاهب الإسلامية الأربعة ؟

دكتور أحمد غلوش القاهرى

الجواب :

الشافعية والحنفية والإمام أحمد على أن المسافر إذا اقتدى بالمقيم فى جزء من صلاته ركعة أو دونها لزمه الإتمام . ومذهب مالك على أنه إن أدرك ركعة فأكثر لزمه الإتمام أو دونها فله القصر .

وعلى ذلك فالمصلى فى مسألتنا يلزمه الإتمام عند الجميع لأنه صلى مع الإمام المقيم ركعتين.

وحيث لم يتم وسلم من ركعتين فصلاته باطلة عند الأئمة الأربعة ، ويجب عليه فعلها ثانياً أداء إن أدرك وقت الصلاة وقضاء إن فاته .

الحج وعدة الوفاة :

السؤال :

سيدة توفى زوجها بتاريخ ٣/ ٢/ ١٩٦٥ وتريد أن تؤدى فريضة الحج مع ابنها هذا العام هل يجوز لها ذلك مع الإحاطة بأنها تبلغ من العمر ٥٩ عاما ؟ أكبر محمد

الجواب :

يجب على المتوفى عنها زوجها أن تقضى عدة الوفاة فى بيت الزوجية التى مات عنها زوجها فيه وذلك مقدم على أداء فريضة الحج التى يمكنها أن تؤديها فى وقت آخر إذا فاتت ولا كذلك عدة الوفاة وأيضاً فى العدة حق الله تعالى فيجب مراعاته .

هل تجوز الزكاة لابن أبيه :

السؤال :

هل يجوز إعطاء الزكاة من المال للابن إذا كان منفصلا فى معيشته عن أبيه ومعسراً ؟

محمد على سيد أحمد

الجواب :

الابن إذا وجبت نفقته على أبيه بأن كان

فقيراً وهو صغير أو مريض مرضا يمنعه من الكسب كان غنياً بنفقة أبيه فلا يعطيه حينئذ من الزكاة ـ أما إن كانت نفقته غير واجبة على أبيه بأن كان بالغا قادراً على الكسب لكن كسبه لا يكفيه فهو فى هذه الحالة فقير أو مسكين يجوز لأبيه أن يعطيه من الزكاة .

زكاة الأرض المستأجرة :

السؤال :

على من تجب زكاة الأرض المستأجرة على المؤجر أم المستأجر وما مقدارها ؟

عبد الفتاح سعد ـ كفر الدوار

الجواب :

الزكاة حق الزرع وهى نوع من الشكر على نعمة إثبات الزرع ، وقد جاء أصل هذه الزكاة فى قوله تعالى : « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتو حقه يوم حصاده »[(١)] ، وفى قوله تعالى : « أنفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكم من الأرض »[(٢)] .

(١) الآية ١٤١ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٢٤٧ من سورة البقرة .

فدلت الآيتان على أن الزكاة فى كل ما تخرجه الأرض، خراجية كانت يدفع عليها مال حكومى ، أم عشرية لا يدفع عليها مال ، قليلا كانت ما أخرجته الأرض أم كثيراً ، قوتا كان كالحنطة والأرز والذرة والفول ، أم فاكهة كالعنب والرمان والتفاح ، أم خضراً كالخيار والبطيخ وغيرها .

وقد بينت السنة أن زكاة الزرع هى عشر ما تخرجه الأرض إذا سقيت « بالراحة » أو نصفه إذا سقيت بالآلة ، وذلك فى قوله عليه السلام : « فيما سقت السماء العشر » .

وزكاة الزرع هذه ترتبط بالزراعة لا بالحول ، حتى لو زرعت الأرض أكثر من مرة فى العام الواحد وجب إخراج زكاة الزرع فى كل مرة ، اتحد الصنف أم اختلف .

والتعميم فى زكاة الزرع على هذا الوجه ـ هو الذى يحقق معنى التكافل الاجتماعى الذى يقصده الإسلام من مشروعية الزكاة ، والذى يقضى بعدم استئثار طائفة من الناس بنعم الأرض التى أعدها الله للزرع وامتن بها على جميع عباده .

والرأى المعتمد أن زكاة الأرض على المستأجر الذى يباشر الزرع[(١)] .

(١) انظر كتاب الفتاوى لفضيلة الإمام الراحل محمود شلتوت إذ له فى هذه المسألة بحث مستفيض .

الكتب

نقد وتعريف : محمد عبد الله السمان

إيمان فرعون

للأستاذ محمد محمد عبد اللطيف

من غرائب المصنفات تدم لنا الأديب المحقق الأستاذ محمد محمد عبد اللطيف (ابن الخطيب) قضية « إيمان فرعون » وهى قضية ليست شائكة وحسب ، ولكنها على جانب من الأهمية ، إذ أنها تثير مشكلات فلسفية وعقيدية ولغوية .

يرى الأديب المحقق أنه من المعلوم عقلا ونقلا أن فرعون كان من أئمة الكافرين ، وهكذا اعتقد كما اعتقدت الأمة الإسلامية جمعاء دون أن يشذ عن هذا الإجماع واحد من المفكرين أو من غير المفكرين ، ممن ينتسب إلى العلم أو ممن لا ينتسب .. ولكنه بينما كان يقرأ فى كتاب « فصوص الحكم لمحيى الدين بن عربى ، إذ به يقول قولا جازما بإيمان فرعون إيمانا لازما ، فاضطر إلى أن يواصل البحث والتنقيب عله يجد مؤيداً لابن عربى بين السابقين أو معارضا له ، فعثر على رسالة خطية للعلامة جلال الدين الدوانى تقول بما قال به ابن عربى ، وعلى رسالة أخرى للعلامة على بن سلطان القارى أسماها « فر العون من مدعى إيمان فرعون » فرأى أن يسوق هذا البحث .

الرسالة الأولى دفاع عن ابن عربى وتأييد لرأيه فى إيمان فرعون ، وحجته الآية المشهورة : « حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » وقوله تعالى : « ورحمتى وسعت كل شىء » و « أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » و « إن الله يغفر الذنوب جميعا » ثم أخذ فى تأويل الآيات التى تدين فرعون مثال قوله تعالى : « ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » وقوله تعالى عن فرعون : « فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » .

أما الرسالة الأخرى : فهى بمثابة تعقيب على الرسالة الأولى لدحض آرائها ، وتوضيح بطلانها بالكتاب والسنة والإجماع ، وأنكرت أن يكون هناك أى خلاف بين علماء

المسلمين فى تطويق فرعون بالكفر وخلوده فى النار ، كما اعتبر المؤلف كلام ابن عربى نفسه فى كتابه فصوص الحكم مدخولا مدسوساً عليه ، وتمسك بقوله تعالى : « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار ، أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما » تمسك بهذه الآية دليلا قاطعا على عدم قبول توبة فرعون . .

هذا وقد أثبت الأديب المحقق ابن الخطيب الذى بذل مجهوداً مشكوراً فى تحقيق النصوص والتعليق عليها ، أثبت بعد الرسالتين رأى السيوطى فى ابن العربى ، ومؤداه أن لا نقطع فيه برأى ، وأثبت أيضاً رأى ابن حجر فيه ، فذكر أن ابن العربى لم يرد إثبات إيمان فرعون بدليل ما سبق عنه فى الفتوحات ، وإنما قصد أن الأدلة فى كفره ليست قطعية .

وبعد ـ فالقضية قضية شائكة كما قلت ، لكن المعروف أنه لم يشذ عن إجماع علماء المسلمين فى موت فرعون على الكفر غير ابن العربى إن ثبت عليه ما نسب إليه فى كتابه الفصوص .

وأما تأييد بعض تلامذته لآرائه فلا يعتد به ، لأنهم على منواله ينسجون ، وحتى المعتزلة المعروفون بالتفكير الحر لم يذهبوا إلى ما ذهب إليه ابن العربى ، فالزمخشرى فى تفسيره يذكر أن إيمان فرعون لم يقبل منه حيث أخطأ وقته ، وقاله حين لم يبق له اختيار .

كنت أود أن الأستاذ المحقق لم يفته أن يعرفنا ـ كما عرفنا بابن العربى ـ بالعلامتين صاحبى الرسالتين ، ليقف القارئ من واقع حياتهما على منهجهما المذهبى ، والمعروف أن الأول العلامة الدوانى متشيع لابن العربى ، ولد فى دوان من بلاد كازرون ، وسكن شيراز وتوفى بها عام ٩١٨ هـ فى فارس حيث ولى قضاءها ، وله عدة مؤلفات معظمها مخطوط وعدة رسائل بالفارسية ترجم بعضها إلى الانجليزية . وأما العلامة القارى فهو على بن محمد سلطان المشهور بالملا على القارى ، فقيه حنفى ولد فى هراة وسكن مكة وتوفى بها عام ١٠١٤ هـ ، وله مؤلفات كثيرة ، منها تفسير للقرآن ، ورسالة فى الرد على ابن العربى فى كتابه الفصوص ولعلها التى نقلها لنا الأديب المحقق .

* * *

دولة الفكرة

للأستاذ فتحى عثمان

ومنذ أيام ظهر كتاب جديد للأستاذ فتحى عثمان هو عبارة عن بحث مركز فى دولة

الفكرة التى أقامها رسول الإسلام عقب الهجرة هذه الدولة التى يراها المؤلف حلم البشرية ، لا تقوم على حتمية ظروف الأرض أو الدم ، ولكنها تقوم على اختيار الإنسان بوعيه الكامل وإرادته الحرة ، ولقد كانت هذه الدولة التى أقامها رسول الإسلام فى المدينة عقب الهجرة تجربة حية مبكرة للدولة الأيديولوجية فى التاريخ ، لم تكن دولة مكة أو قريش ، ولا دولة المدينة أو الأوس والخزرج ، بل كانت دولة الإسلام المعروض على عقل كل إنسان .

فى هذا البحث عرض المؤلف للبناء القانونى للدولة ، أركانها الثلاثة : الأمة والسيادة والإقليم كما عرض للكيان المعنوى للدولة الإسلامية ، وأنها كانت أرحب فى آفاقها من الدم والأرض والسكان والإقليم ، وعرض لأيديولوجية الدولة المسلمة ، وأنها ترفض الولاء التقليدى ، لأنها تقوم على أمة العقل والفكر ، أمة الحجة والدليل ، أمة الحق وحده ، ثم عرض لعالمية الدولة الإسلامية ، وختم البحث بدراسة مستفيضة عن العقد الاجتماعى والتضامن الاجتماعى ، فناقش آراء الفلاسفة الذين أجهدوا عقولهم ليقيموا شرعة العدل ، مثل روسو وروباتشوف ، وديجى ، ثم عقب بقوله : إن الفلسفة التشريعية للأيديولوجية الإسلامية فى مبادئها العامة وموجهاتها العليا مصدرها الله وبيانها الوحى فى الكتاب والسنة ، فهى القانون الأعلى لكل من تقبل عقيدة الإسلام واقتنع بمنطق الإيمان .

* * *

كتب جديدة

مطلع النور

تأليف : عباس محمود العقاد

الناشر : دار العروبة بالقاهرة

يقع الكتاب فى مائتين وخمسين صفحة من القطع المتوسط ، وهو دراسة مدار البحث فيها على البعثة النبوية ، وما تقدمها من أحوال العالم ، وأحوال جزيرة العرب ، وأحوال الأسرة الهاشمية ، وأحوال أبويه الشريفين .

تناولت الدراسة فى الفصل الأول الطوالع والنبوءات وما تضمنته الكتب الدينية السابقة من بشارات برسول الله ، وفى الفصل الثانى مقدمات النبوة ، وفى الفصل الثالث النبوة المحمدية ، وفى الفصل الرابع سيد الأنبياء . وفى الفصل الخامس الإسلام دين الإنسانية ، وفى الفصل السادس الكعبة ، وفى الفصل السابع والأخير أسرة النبى صلوات الله عليه .

أنباء وآراء

حول جمع القرآن وتدوينه :

جاء فى مناقشة السيد الدكتور الأهوانى للأب الفريد هافنيت قوله : « ولكن هؤلاء العلماء ، وهم من المستشرقين ، لم يشكوا أبدا فى القرآن ، لأن تدوينه وحفظه تم فى زمان مبكر فى عهد عثمان بن عفان ، وروعيت فى كتابة المصحف ضمانات شديدة تبعد عنه أي شك » وتنبيها بالحقيقة أقول :

إن القرآن الكريم كتب ودون جميعه فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم غير أنه كان مفرقا فى العسب ، واللخاف ، والأكتاف ، والرقاع ، وأنه كان محفوظا جميعه فى عهد النبي حفظه عن ظهر قلب العدد الكثير الذين يثبت بهم التواتر المفيد للقطع واليقين ، وهــذا أمر استفاض به النقل الصحيح الموثوق به ، فلما توفى النبي ، وحدثت موقعة اليمامة التى استشهد فيها كثير من القراء أشار الفاروق عمر على الخليفة الأول أبى بكر أن يجمع القرآن فى صحف مجموعة ، وبعد مناقشة بينهما وافق الصديق على كتابة القرآن فى مكان واحد بدل كتابته مفرقا ، وقام بهذا العمل العظيم الصحابى الجليل : زيد بن ثابت أحد كتاب الوحى الأمناء بين يدى الرسول فجمعه بعد تحر وتوثق بالغين ، وقد حفظت هذه الصحف عند الصديق ، ثم عند عمر ، ثم عند حفصة حتى طلبها منها عثمان فى جمع المصاحف فى عهده .

فلما كان عهد عثمان واتسعت رقعة الإسلام ، واختلف بعض المسلمين فى القراءات كل يزعم أن قراءته خير من قراءة الآخر ، رأى عثمان ورأى معه الصحابة أن يكتب القرآن بحرف واحد وهو حرف ـ لغة ـ قريش ، وهو أحد الأحرف السبعة التى نزل بها جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم تيسيراً على العرب آنئذ وتسهيلا ، فندب لهذا العمل الموفق زيد بن ثابت ، ومعه ثلاثة من خيار المسلمين وحفاظهم وهم : عبد الله بن الزبير ، وسعيد ابن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فكتبوا المصاحف العثمانية من عين ما كتب فى الصحف التى جمعت فى عهد الصديق مقتصرين على حرف قريش ، ثم ردوا الصحف إلى حفصة ، ثم وجه عثمان إلى كل قطر من الأقطار الإسلامية المشهورة بمصحف ، وأمرهم بالتزام القراءة على ما فيه ، وأبق

لنفسه مصحفا وهو ما يعرف بالإمام ، وبهذا العمل الموفق قضى على الخلاف ، ووقى الله المسلمين شر الفتنة .

ومن ثم يتبين لنا أن القرآن كلـه كان مكتوباً محفوظاً فى عهد النبى ، وأن ما كتب فى عهد عثمان هى المصاحف العثمانية والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد فى الدنيا الذى توفرت له من الضمانات ، والإثبات التاريخى اليقينى ما لم يتوافر لغيره من الكتب ، فقد نقله عن النبى الجم الغفير من الصحابة ، وعنهم نقله وحفظه الألوف وهكذا تناقله الألوف عن الألوف حتى وصل إلينا كما أنزله الله سبحانه من غير زيادة ولا نقصان ، ولا تحريف ولا تبديل مصداقا لقول الحق تبارك وتعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وعسى أن تكون لى عودة لتجلية هذا الموضوع الجليل إن شاء الله تعالى ؟

د . محمد محمد أبو شهبه

الذين يعيشون فى الظلام ! ..

إنهم طائفة من الناس ، لا يستطيعون العيش إلا فى الظلام ...

فى ظلام الريب والظنون ... وتدبير المؤامرات ضد الآمنين ... وضد الناجحين .

مثلهم كمثل الخفافيش ، التى لا تخرج إلا تحت جنح الظلام ... حتى إذا ما انبلج النور اختفت ، وتوارت بالحجاب ... لأن عينيها الضعيفتين لا تقويان على مواجهة النور ! .

نرى هذه « الخفافيش البشرية » تعيث بيننا فسادا ... فى بيوتنا ... وفى دوائر أعمالنا . تجارتها الوقيعة ، وهدفها الوصول بأى ثمن ولو على أشلاء الأبرياء ! ...

أشد ما يغضبهم ، وينغص عليهم حياتهم ، أن يروا الناس فى صفاء ... متحابين ... فيكدرون صفوهم بما يروجونه حولهم من شائعات كاذبة ، واتهامات باطلة ، يفرقون بها بين المرء وزوجه ... وبين الأخ وأخيه وبين الابن وأبيه ... وبين الصديق وصديقه حتى إذا ما نجحت خطتهم الدنيئة ، طابت أنفسهم ، وقرت أعينهم ، وراحوا يبحثون عن صيد جديد ... وما أكثر ضحاياهم ؟ ...

ولو أن هؤلاء الذين يعيشون فى الظلام استعانوا بهذا الذكاء الخارق فى نواحى الخير والإصلاح بين الناس ، لكان خيراً لهم وأقوم ولكسبوا محبة الناس وعاشوا معهم ... فى النور !! ...

ولو أنهم نفقوا هذا الوقت الذى يضيعونه فى تدبير المؤامرات فيما ينفعهم ، وتذوقوا لذة الخير ... لما وجدوا أطيب منها مذاقا ! .

ليتهم يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ! .

عيسى متولى

في محيط العالم الإسلامي

يقدمه : محمد عبد الله السمان

لماذا العرب وحدهم ؟

ليست قضية فلسطين عربية محضة لأنها قطعة من أرض العرب ، فالحقيقة التى لا جدال فيها ، إن فلسطين أيضا بلد إسلامى لحما ودما ، فيها ثالث الحرمين ، وأرضها مهبط عديد من الأنبياء والرسل ـ صلوات الله عليهم .

وإذا كانت الشعوب العربية قد عقدت العزم على أن تنتصر لقضية فلسطين ، وأن تمحو الوصمة التى ألصقتها الصهيونية الآثمة بجبينها منذ سبعة عشر عاما . فتسترد الأرض السليبة ، وتستعيد كيان أكثر من مليون لاجىء ، فليس معنى هذا إعفاء الشعوب المسلمة قاطبة من واجب المشاركة فى الجهاد من أجل فلسطين ، فليس المجال مجال فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين ، وإنما هو فرض عين ، ما دام عدوانا ماقد وقع على أرض إسلامية كما يقول فقهاؤنا .

لماذا أسهم يهود العالم جميعا فى وجود إسرائيل ، ولم يزالوا يسهمون ، ويتقاعد المسلمون عن نصرة إخوانهم فى العقيدة ؟

أنسى المسلمون أن المؤمنين إخوة ، وأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وأن المسلمين يجب أن يكونوا يداً واحدة على من سواهم ...

وإذا كانت الشعوب المسلمة قد نسيت ، فأين علماء الدين ، وهم من الكثرة بمكان ؟ يصيحون دائما فى الشعوب ليوقظوا فيها إحساساتها ، ويحركوا مشاعرها نحو قضية فلسطين العربية المسلمة .

هذه ألمانيا الغربيــــة تتحدى أربعمائة مليون مسلم أو يزيدون ، وكأنما حق على هؤلاء الأربعمائة مليون قول الله عز وجل : « وتحسبهم أيقاظا ، وهم رقود » صدق الله العظيم .

° ° °

أخبار قصيرة :

• صدق الحاكم العام فى غزة على قانون التجنيد الإجبارى ، بعد أن أقره المجلس التشريعى الفلسطينى ، وأصبح بذلك نافذ المفعول .

• أصدر الرئيس الجزائرى : أحمد بن بيللا أمراً بالعفو عن عـــدد من المسجونين السياسيين أثناء زيارته لسجن ناربروس ، بمناسبة المؤتمر الذى عقدته منظمة المجاهدين

القدماء والأحياء ذكرى المعتقلين السياسيين الذين توفوا فى السجن أثناء ثورة الجزائر .

• تدرس وزارة الأوقاف بالقاهرة مشروع المساهمة فى إنشاء الجامعة الإسلامية الجديدة فى الباكستان . جامعة تعليمات إسلامية ، ومن الجدير بالذكر أن هذه الجامعة سيدرس فيها العلوم الإسلامية والعربية باللغة العربية .

• أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية أن الولايات المتحدة تعيد النظر الآن فى جميع علاقاتها بأندونيسيا ، وذلك بعد إغلاق جميع مكاتب الإعلام الأمريكية فى أندونيسيا .

• أصدر المؤتمر الإسلامى الذى انعقد فى مقديشيو عاصمة الصومال قرارات تقضى بإنشاء هيئة استشارية للشئون الدينية الخاصة بالمسلمين الأفريقيين ، وبإقامة معهد لتدريب رجال الهيئات الإسلامية ، وبإنشاء سوق مشتركة بين الدول الإسلامية فى آسيا وإفريقيا .

• وكذلك أصدر المؤتمر الإسلامى الذى انعقد فى جاكرتا عاصمة أندونيسيا بيانا دعا فيه الشعوب الإسلامية إلى التضامن فى الكفاح ضد الاستعمار بشكليه : القديم والجديد ، وندد البيان بالأعمال الإجرامية التى يباشرها الاستعمار فى الجنوب العربى وعمان وفى انجولا وموزبيق ، وقرر المؤتمر تشكيل سكرتارية دائمة للمؤتمر يكون مقرها فى أندونيسيا .

• صرح الرئيس الجزائرى أحمد بن بيلا خلال جولته فى غرب الجزائر بأن : رسالة الثورة الجزائرية عربية إسلامية منبثقة من صميم واقع بلادنا .

• بلغت المساعدات الاقتصادية الأمريكية لباكستان فى العام الماضى أكثر من ٤٠٠ مليون دولار ، ومن الجدير بالذكر أن الصين الشعبية قدمت لباكستان ، قرضا قدره ستون مليون دولار ، وأن الاتحاد السوفيتى أعلن استعداده أيضا لتقديم قرض قيمته سبعون مليون دولار .

• حث فرع منظمة الملايو الوطنية الحاكمة فى أراو بشمال الملايو حكومة ماليزيا على سحب اعترافها بإسرائيل .

• زار القاهرة وفد السلام اليابانى بعد زيارته للقدس ، يضم الوفد عشرين عضوا يرأسهم عميد جامعة ريكيو اليابانيه ، وذلك ضمن جولة إلى بلاد الشرق الأوسط الغرض منها الدعوة إلى السلام فى العالم ، ومناقشة المسائل الدينية ، قابل الوفد الامام الأكبر شيخ الأزهر ، والسيد المهندس أحمد عبده الشرباصى نائب رئيس الوزراء لشئون الأوقاف والأزهر ، الذى أوضح للوفد مبادىء الإسلام ، ودورها فى تدعيم السلام ودور وزارة الأوقاف فى نشر المعرفة والدين والتطور الذى تم فى جامعة الأزهر .

محمد عبد الله السمان

News From The Muslim World

By : Muhammad Abdullah El - Samman

⁕ The Secretary general of the Islamic Researches Academy of AL-Azhar has extended the invitations to fourty (40) countries and a number of important personalities from all over the world, to attend the Second conference of muslim Scholars, to be Commenced in Cairo from the middle of May 1965. It is undestood that the muslim Scholars will hold a Special Session of the Conferenee in Gaza Strip to discuss the Palestine problem. A large number of Palestinian Scholars and leaders, and the members of Palesteine Liberation Organisation, will attend the Session.

⁕ Just a few months ago an Islamic Conference was held in the capital of Somalia. The Conference has recommended in a resolution, to form an advisory body to look after the religious affairs of the African muslims. It also recommended to establish a training centre for muslim Scholars.

⁕ The Faculty of Islamic law of the Al-Azhar University has started an institute of higher Studies, in the premises of the ancient Al-Azhar Mosque. It will facilitate to teach Islamic studies and Arabic litrature for the foreign Students and the obtainers of Al - Azhar Secondary certificates or its equivalant. After the completion of four year course, they will be given a certificate equivalent to the Al-Alamia degree.

⁕ The grand Sheikh of AL-Azhar, H. E. Hassan Al-Mamoon precided a meeting of the Scholars of Islamic Jurisprudence. the meeting discussed the possiblity of preparing an encyclopedia of the legal Schools of the muslim jurisprudence and to translate it into living languages; to bring nearer the different Schools of Islamic faith and provied the non-muslims with the heritage of Islamic jurisprudence and thought.

⁕ keeping in view the historical importance of the city of Jerusalam, the Jordanian parlia-ment has passed a bill, banning the possession of land or building in that city by foreign or Jordanian Companies and religious Societies.

⁕ It is reported that Japan will undertake a project to build a railway line between Nigeria and Sudan to Connect the Lagos City (in the Nigeria) with port Sudan. The project will cost £ 30 million. This link will help the muslim pilgrims coming from west Africa.

Sheikh Al-Azhar Answers

H. E. Sheikh Hassan Mamoun, the grand Sheikh of Al-Azhar, received on March 21st. Mr. IB REHNE of the Danish State Radio. He asked his Eminence four questions about Islam and the message of Al-Azhar.

Q- Al-Azhar is regarded as the spiritual centre of Islamic world. Is it still so ?

A- Al-Azhar was, and is still and will be, the spiritual centre of the Islamic world for it devotes its message to the education and the preservation of Islamic heritage as preseribed in the holy Quran and the Sunna both of which are the chief source and foundations of Islamic legislation. Since the establishment of Al-Azhar up to the present day, it has undertaken the preaching of the Islamic call throug out the world. Also it is the theological stronghold of Islam to which Muslims from every part of the world come to study Islamic faith and return to their countries to be the messengers of Islam.

Q- Does Al-Azhar play, a poli-role in the Middle East ?

A- The U.A.R. Policy in the Middle East is founded on positive neutrality and Non-alignment and the liberation and unity of the Arab and Muslim people. Besides; Al-Azhar teaches these principles to the sons of the Middle Eastern countries and others. In all this Al-Azhar conforms to the teachings of Islam and the fundamental principles which are enjoined by the Quran and prescribed by the Sunna on condition that they are not opposed to the spirit of the legislation stated by God.

Q- To what extent does Islam correspond with modern Arab Socialism ?

A- Arab-socialism is represented in sufficiency and justice, which are the two main aims of the Islamic faith.

Q- Does the government ask the opinion of Al-Azhar before issueing a new Socialist law ?

A- Socialist laws issued by the government aim at granting the interests of both the individual and society, at the prevailing of justice, at the eliminating of class differences and at the establishing of equality of rights and duties among the citizens. Al-Azhar approves these principles for Islam approves and promulgates them. & Al-Azhar does not hesitate to co-operate with the Government in issuing any Islamic Legislation that aims at the common Good so long as it is not contradicted to any statement in the Quran and the Sunna.

Translated By :
FATHY HAMMAD
Member of the office of Sheikh Al-Azhar

The Qur'an says :

«وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» (٧ / ٥٩).

And whatsoever the messenger giveth you, take it and wahatsoever he forbiddeth, abstain (from it).(7/59)

It also says :

«وما ينطق عن الهوى. ان هو إلا وحي يوحى» (٣، ٤ / ٥٣).

« Nor doth he speak of (his own) desire. It is not save an inspiration that is inspired.»

The prophet also very often emphasised the impotance of tradition as a guide for his followers. He was happy at the reply of Mu'ath ben Jabal who said to him when he was appointed as on official in Yeman that he would follow his prophet's tradition if he failed to find guidance in the Qur'an.

Almost all the companions, however decided the cases with which they had to deal, on the basis of of the traditions, of the prophet, if they failed to find any guidance in the Qur'an, and followed their opinions only when they could not find any tradition on the subject, but as soon as they came to know of it, they changed their decisions if necessary and followed the tradition :

There are three kinds of traditions :

1) It may be a saying of the prophet which has a bearing on a religious.

2) It may be an action or practice of his.

3) or it may be his silent approval of the action or practice of some person.

There is an important notice in this connection that the idea at prophethood in Islam is very different from that in christianity and some other religions, as it has explained in the Qur'an at many places. In Islam the prophet is neither a God nor an angel nor a demi - god - He is a human being like other human beings, having the same needs and requirements as they have. The important difference between the prophet and other human beings is that he is gifted with a special capacity to receive inspiration from God, and possesses great keeping related to all that, self cotrol, self confidence and great capacity for influencing the thoughts and activities of peouple at large, and leading them to the righ path.

Tradition is the Second Source of Islamic Law

By

IBRAHIM M. EL - ASSIL

ISLAMIC RESEARCH ACADEMY

The Qur'an is the first source of Islamic Law. It is considered the eternal miracle of Islam and has been revealed in parts at different times during a period of twenty three years, as necessity demanded it. The Qur'an is comparatively short, so it contains the general principles by which all matters as dorgmatic, ritual legal political and social questions should be regulated.

It is therefore essential to interpret and elaborate the relevant texts.

The natural, and indeed the only possible interpreter whose judgement can be trusted is the prophet through whom they were revealed; According to the Qur'an itself this prophet was possessed not only the Qur'an but also the wisdom. Allah says :

« وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم » (٤/١١٣)

« Allah reveáleth unto thee the scripture and wisdom and teacheth thee that which thou knewest not» (113 / 4)

In addition to these important sources of Islamic Law there are the other two sources, analogy (qiyàs) and consensus (Ijmaà) when a new problem, which is not covered by a clear statement in Qur'an or tradition arises, the jurists look for a case resembling it in the Qur'an or in the tradition, and by reasoning on the basis of analogy, arrive at adicision, that process called analogy and it is counted as the third source of Islamic Law.

The well-known learned men of Islamic Law, in looking for a solve to a new problem, may gather togather and consult and if they agreed upon one opinion (by a majority, this process represents the fourth source of Islamic Law «Consensus of opinion) "Ijama".»

That is about the four sources of Islamic Law in general but in the following I shall confine my saying to the second source "tradition" Hadith.

The importance of tradition as an important source of Islamic Law has been laid down in the Qur'an, emphasised by the Prophet, recognized by his successors, and accepted by all the Muslim jurists.

In this way Islam achieves equality, fraternity, and sympathy amongst the individuals of the society. It does not open its breast to grudge between the members of the society, and sinks all differences to the bottom.

God has Said in his Holy book "the Qur'an" the great story of korah whom God had bestoweed richness on him, but he declared that nobody had a right in his money, and thought that he had gain it with his own efforts, and thus no body had a right to take onything from him. In the end he faced damage and was smashed.

Korah was of Moses folk but he oppressed, and behaved haughtily towards them, for God had given him such treasure that its keys would have burdened a company of men of strength, when his people said to him "excult not, for God loves not those who excult, but seek the future mansion, and neglect not your part in this world, but he bounteous to others as God has been bounteous to you, and seek not to commit excesses on the earth, for God loves not those who commit excesses. He said : It has been given me only on account of the knowledge that is in me.

Did he not know that God had destroyed before him generations they were mightier than he in strength and has amassed more abundant wealth ?. But the wicked shall not he asked of their crimes.

God imposed with the same intention to climinate class disparities between the rich and the poor, the Zakat of the lesser bairam. God considers it a duty which complete the obligation of fast.

In this way God enables the rich to lend a hand to the poor, and leads to them a happy life, filled with felicity, and free from misery.

Thus good temper oils the wheels of life, and no hatred is born in the hearts of the poor towards the rich, and no reproaches are heaped or borne on the back of the latter. This due makes the rich friends indeed to those who are in nead.

Some people do not find the opportunity to eat their fill except on the days of greater bairam.

On the day of Ashouraa alms are given to poor on occasion of these blessing days and auspicious nights

Thus Islam undertakes the rights of the poor, and grasps reciprocal responsibility to achieve justly social security amongst the people.

condition is to reach a certain limit which is considered the law portion to richness. The Muslim jurisprudents considered the wealth which is below this partition exonerated from this due.

Muhammad, the messenger says "Aim is imposed on the back of the rich".

It is paid provided that it is growing wealth in order one may pay it through one's wins. In this case his capital does not descrease. This condition is not imposed only on increasing money but also on money liable to increase, and prepared to grow.

One who keeps his money in the bank, and does not fructify his wealth, and invest his money in any project must pay this due because his money is capable of being increased, but its owner declines to make use of it.

The condition which should be fulfilled to have growing money is to reach a certain portion as it was mentioned, but it should pass one year in order to wipe out any suspect of being not increased.

It must be the remainder after its owner has been satisfied, because if one is in need of money to spend on himself or on his family, or to pay his debts one is not in any respect a rich man. Thus this one must not pay the poor due. If One is compelled to pay this due it will be taken in this case without One's free will, but forcibly.

God says in the holy Qur'an : "And they ask thee what they aught to spend, say that which is superfluous. Thus Allah maketh plain to you. His revelations that haply ye may reflect "Surah II. 219.

God wished moderation in what is paid to the poor in order to allow the poor to feel justice, and to enable the Rich to pay this due with satisfaction. One should pay two and a half percent of One's money, whether it is from gold or silver, or banknotes, or the costs of commercial goods. Four per cent of the harvests of the fields which owner irrigate them should be paid as a duty. In every twenty Ardels (unity of capacity) of cow, or barley, or rice which exceed the need of their owner, he should give half ardeb to the poor and needy.

The owner of the sheep, the cows, and the camels which pasture and graze nearly in all the year should pay a certain duty mentioned in the Islamic law.

One pound should be paid as zakat on every fourty pounds which one owns above One's necessity.

Lo ! Thy prayer is an assuagement for them. Allah is Hearer, knower.

God also says " Worship none save Allah (only) and be good to parents, and to kindred, and to orphans, and the needy, and speak kindly to mankind, and establish worship, and pay the poor due".

Thus Zakat is one of the pillars of Islam which fills the gap between the rich and the poor, and abolish loathsomeness, and hatred towards the former class.

No wonder Muhammad the messenger says "Islam is established on five pillars: the witness that there is no God save Allah, and Muhammad is the messenger of God, to establish worship, and to pay Zakat, or the poor due, to keep fast, and to visit the holy land, and go on pilgrimage to those who are capable to pay this visit.

A man from the tribe of Tamim came to Muhammad and said "Oh Messenger: I have much money, and numerous relatives, and I own a great city. Tell me, then, what can I do, and how do I spend my wealth ?. The messenger adressed him : You pay the poor due "Zakat" from your money because it purifies it, intimate relations with your relatives, know the right of the indigent, your neighbour, and the medicant.

Thus Zakat is a part from the money, or the wealth of the rich which God has enacted. It is paid in eight respects which God has nominated. The alms are only for the poor, and the needy, and those who collect them, and those whose hearts are to be reconciled, and to free captives, and the debtors, and for the cause of Allah, and for the wayfarer. It is a duty imposed by Allah.

A special portion of Alms was allotted to the people of Mecca, the former enemies of Islam, who were converted en mass after the capture of the city and whose hearts are reconciled.

The alms should be given to those who are absolute paupers, those who are in some temporary distress. This due is not only an ordinance from God but also a remedy for the shattered hearts, and stillness for the puzzled souls.

When God has imposed this due he has kept in view justice in the money of the rich, and mercy on the poor. God acts to fit the intrests of the rich to the sustain of the poor, and complies with the principle of economy in spending money, and paying heed to the conditions which should be fulfilled in every just tax.

The legislator has put a condition to impose the poor due. This

Social Security in ISLAM

By: Dr. GAMAL ELDIN ELRAMADI

Amongst the Islamic principles which Islam has imposed on the Muslims to achieve social security is to urge every capable man to work and not to remain idle because idleness seems as weeds which grow apace in the heart of the unemployed. It brings mischievous thoughts, and arouses revenge towards those who can gain easily their livings and pick up the threads of a happy life.

Islam appeals to make co-operation amongst the individuals of the society. This co-operation is a protective shield against seperation and crack. It avoids the arrival of disasters, the spread of misery, indigence, and penury.

Islam has prescribed some ways to cure these maladies, and wipe out these ailments, and thus rescue the Islamic society from the perils which threaten it and lead it to damage.

The ways which Islam has surveyed to abolish these pests and nuisances open the gates to sustain the poor, and miserable.

God does not consider this help a sort of contribution or alms but a legal right which should be paid to them. Not only God does not confine this right to the wealth of the rich but also God particularizes a special part for the poor in the revenue of the state.

We are going to explain brielfy what Islam has done to combat poverty, deal with the poor benevolently, and beneficently, and we will notice clearly that Islam is without misgiving, and doubt the religion of mercy, godliness, and sympathy. If the Muslims stick to their religion. and execute its orders, they will be exceedingly happy and will abolish misery, and solve the problems of poverty.

At first, Islam has enjoined Zakat, or the poor due which is one of the pillars of Islam. God says "But if they repent and establish worship, and pay the poor-due, then they are your brethren in religion. We detail our revelations for a people who have knowledge" (Surah the Repentance IX. II.) God says also "Take alms of their wealth wherewith thou mayst purify them and mayst make them grow, and pray for them"

when he was about to die. He said in his last minutes : "Keep up the Prayer. Keep up the Prayer..."

Observing the Prayer is so important in Islam that it is required to be performem in all eases : staying and travelling, in security and in case of danger. God, the Almighty; says : (Guard the Prayers and the Most Excellent Prayer, and, stand up truly obedient to God. But if you are in danger, say your Prayers on foot or on horseback. And when you are secure, remember God as He has taught you what you Knew not.)

He, the Almighty, spoke in the most threatning language about those who neglect the Prayers, in such as these Verses :

(But there came after them an evil generation, who wasted prayers and followed bad desires, so they will meet perdition).

"So woe to the praying ones, who are unmindful of their prayer".

It is repoted through Abdullah ibn Amr ibn al-As that the Prophet said : "Whoever Keeps up the Prayer, it will for him a light, an evidence of security, and a cause safety in the Day of gudgment. And whoever wastes the Prayer, it will not be a light for him, an evidence of security, of a cause of samety in the Day of Judgment. Such as this will be gathered among Qarun, Pharao, Haman, and Obayy ibn Khalaf." The great scholar Ib Al-Qayyim commented on this saying of the Prophet in this way : "That who wastes the Prayer is either occupied tco much by his money, his Kingdom, his high office, or his trade. The first will be among the company of Quran, the second among the company of Pharaoh, the third among the company of Haman, and the last among the company of Obuyy ibn Khalaf."

QUESTION

Did Islam lay special conditions in the performance of the Prayers ?

ANSWER

There are some conditions that should be realized before the performance of any Prayer, such as cleanliness of clothes, body, and place covering the private parts of the body and facing the direction of Kaaba in Mecca. There are some othere immaterial conditions that are required to be realized during the berformance of the Prayer, the most important as which is humility. The Prayer is not were words and movements like the quick movements of birds and animals. The accepted Prayer is the one that is performed in meditation, humility, and fear of God.

QUESTION

If prayer was common in all divine religions, what, then, is the difference between prayer in Islam and in other religions ?

ANSWER

Prayer in Islam is a perfect and organized institution. It is not mere words of appeal and call to God. It is rather both action and speech fulfilled by meditation, heart, tongue and whole body. Islam laid out some conditions in order that the Prayer be valid, that is, cleanliness, well dressing, and facing the direction of Ka'aba in Mecca. Prayer should be performed in definite times, and each prayer of a given time has special sequence. Some times the Prayer may be performed individually or with the congregation, and some times it should be performed with the congregation. It is called out for in a special manner and special words. Therefore, the Prayer of Islam has no parallel in any other religion.

Prayer in Islam includes all physical kinds of respect and veneration, such as raising hands, standing, bowing down, prostration, and appeal. People usually resort to one kind or another of these symbols of respect when they meet important personalities. But the Prayer included all known kinds of respect in successive actions, in gratitude to the Creator, and in adoration to His Mighty Presence. Thus, Prayer begins by the declaration "Allahu Akbar that is, God is the Greatest, accompanied by raising hands to the sides of the face, as a sign of respect. The praying one, then, stands reading "Al-Fatiha" which is known as "the Mother of the Qur'an", then he bows, and prostractes to the ground twice saying in all these movements "Allahu Akbar". The prostration in the Prayer indicates that people should venerate their Lord, Who is the Sole King and Creator, in a manner that is not allowed to be done to other than Him.

QUESTION

How important is the Prayer in relation to other kinds of worship in Islam ?

ANSWER

Prayer occupies the most important position in the Religion. The Prophet said : "The foundation of every matter is Islam; the pillar of Islam is Prayer; and the crouning end of it is the Jihad or strife in the cause of God." The Prayer is the first thing one is questioned about in the Day of gudgment according to the Profhet in one of his sayings. The Prayer wan commanded by the Prophet eves

God, the Almighty says to Abraham and Ismail, : (Purify My House for those who visit it and those who abide in it for devotion and those who bow down and those who prostrate themselves).

The Angels called out Mary, the mother of Jesus (peace be upon him), saying in this Qur'anic Verse :

O Mary, surely God has chosen you above the women of the world. O Mary, be obedient to your Lord and humble yourself and bow down with those who bow ".

Jesus (peace be upon him) spoke about the favours of God on him and said, according to the Qur'an :

And He has made me blessed wherever I may be, and He has enjoined on me prayer and poor-rate so long as I live.

God praises Ismail in this Verse :

(And he enjoined on his people prayer and almsgiving, and was one in whom his Lord was well pleased).

In his advise to his son, Luqman said in these Qur'anic words :

(O my son keep up prayer and enjoin good and forbid evil, and bear patiently that which befalls you. Surely this is an affair of great resolution).

When God made a covenant with the Children of Israel, He made prayer one of the most important obligations in that covenant. The Almighty says :

" And when we made a covenant with the Children of Israel : You shall serve none but God. And do good to your parents, and to the near of kin and to orphans and the needy, and speak good words to all men, and keep up prayer and pay the poor-rate . . . "

And :

(And certainly God made a covenant with the Children of Israel, and We raised among them twelve princes. And God said : Surely I am with you. If you keep up prayer and pay the poor-rate and believe in My messengers and assist them and offer to God a goodly gift, I will certoinly cover your evil deeds, and cause you to enter Paradise wherien rivers flow. But whoever among you disbelieves after that, he indeed strays from the right way).

From all these texts, it is evident that prayer is an old worship called for by all Prophets and all divine religions, and it was not an exclusive to Islam.

PILLARS OF ISLAM

(1)

By : Abdul Wadood Shalaby

What is the first worship obligated in Islam ?

Prayer is the first worship obligated in Islam. It was made obligatory before Hijra by about three years. The way it was made obligatory shows how important is it in the eyes of God. Prayer was legislated exclusively in heaven during the Night of Ascension " Isra' " by a direct order from God to His servant Muhammad.

It is a known fact that governments call out their ambassadors for consultation in important matters where correspondence is not sufficient. Muhammad is the Messenger of God to His service. Being called by his Lord to ascend to the high heavens to give him the order about Prayer is a great evidence of its importance. The Prophet said in his Tradition of Ascension :

" God, the Almighty, made obligatory on my people fifty prayers. I returned carrying this divine order and I passed by Moses (peace be upon him) when he said : What has God made obligatory on your people ? I said : Fifty prayers. Moses said : Go and consult your Lord, Exalted be He, for your people could not bear it. I returned to my Lord, and He put off some of the prayers. Then I went back and told Moses who said again : Go and consult your Lord, for your people could not bear it. When I returned to my Lord, He said : They " the Prayers " are five " in number " and fifty " in reward ". No change there will be to My order. When I went back to Moses and he asked me to consult my Lord again I said : I am ashamed of my Lord, Exalted be He".

QUESTION

Is Prayer an exclusive worship of Islam, or it was also practiced in other divine religions ?

Prayer is one of the oldest kinds of worship in all religions. When Abraham (peace be npon him) migrated with his family to the barren valley of Mecca, he said what is reported in the Holy Qur'an :

"Our Lord, that they may keep up prayer ; so make the hearts of some people yearn towards them, and provide them with fruits ; so that they may be grateful".

mercy and prosperity, He is the owner of life and death.

This belief creats in soul of man courage and bravery, because he will have no fear of any power and will not be subject to any one but the cherisher of the worlds. Also this belief creats in him humility, for he knows that there is no power and distinction except from God. He can not feel pride over others because he realizes that there is no distinction between man and man except through good actions.

This faith also creats in him will of power for he is not dismayed by misfortune nor despair. He knows that the power of God is above all the powers. Those who believe in the supreme authority of God will be free from greed, anvy, and he will follow the way of truth in his all actions because he is sure that his creator knows every thing. He is nearor to him than himself. The prophet Muhammad commanded :

« اعبد ربك كأنك تراه وإن لم تكن تراه فإنه يراك ».

(Serve your God as if you see him, if you see him not he sees you) The belief in the existence of God and His oneness obliges one to act according His Laws and orders and he will hasten to do good Services and actions, for the benefit of all human kind.

The belief in the Day of Judgment is another vital force that incites man to elevation in this life. It is a basic principle of Islamic faith. This Day is the end toward which every one will be returned. The holly Quran says :

« وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى ربك المنتهى ». (النجم : ٣٩ ـ ٤٢)

(And that man can have nothing but what he strives for. And that his striving will be seen. Then he will be rewarded for it with the fullest reward. And that to your Lord is the Goal.

The Holy Quran States that the life of everyone, with its reward or punishment, abiding in paradise or Hell, depend upon the course of his life in this world. The Almighty Allah Says :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » (الزلزلة ـ ٧ ، ٨)

(So he who does an atom's weight of good will see it; And he who does an atom's weight of evil will see it).

« فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » (النازعات ٣٧ ، ٤١)

(Then as for him who is inordinate, and prefers the life of this world; Hell is Surely the abode. And as for him who fears to stand before his Lord and restrains him self from lust the Paradise is surely abode).

The Effects of the Belief in the Oneness of God

BY : A. M. MOHIADDIN ALWAYE

The first basic principle of Islam is faith. The basis of Islamic faith is to believe in the existence of God and his oneness. This faith is realized by the first sentence of "shahada" of the witness: «لا إله إلا الله» (there is no god But Allah.) The belief in the oneness of God is the key of Islamic faith. The Holy Quran Says:—

« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » .

(Say: He is Allah, the one! Allah, the eternal, the absolute, He begets not, nor was begotten. And there is nonelike Him.) He is the creator of this universe. And there is no creator but He, no partner to Him. He is the onlyone who is distinguished by worship and he is the sole cherisher of human kind.

Nobody is asked for help or mercy save him. His mighty being is beyond limited human comprehensiom. He is the All Kind, All Knowing, He Knows all things both secret and open. He is Merciful and Beneficent, He is the Source of peace and safety. Quran describes attributes of Almighty, Allah, in this verse:

الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم . له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء . وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم .

(Allah! There is no god but He, The ever-living the self subsistent by whom all subsist. Slumber over takes Him not, nor sleep. To Him belongs what ever is in the heavens and what ever is in the earth. Who is he that can intercede with Him but by His permission? He Knows what is before them and what is behind them. And they encompass nothing of his Knowledge except what he pleases. His Knowledge extends over the heavens and the earth and the preservation of them both tires Him Not. And he is the Most High, the Great).

The believer in the oneness of God will have no fear from anybody and he will not submit him self to any thing but the Real Lord of this Universe. One who believes that there is no god But Allah is, undoubtedly, Knows that there is no harm and benefit except through Him, All authority and power are only to Him. He is the granter of

then granted its guidance.) The same turth is more fully stated elsewhere in the Qur'an as :

« سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى » .

(Praise the name of thy Lord the Most High, who hath created and then given order and proportion, who hath fixed a measure for every being and then granted it guidance).

It is this divine attribute of Cherisher and Sustainer of the Universe upon which much of the argument of the Quran is based, and it may be well, before proceeding further to state that argument briefly.

The first principle of the Quran's argument is an invitation to the intellect to understand and reflect. Over and over again it impress upon the reader that the only path to Truth lies through intellect and reason. Man must try to understand and reflect upon everything he feels or preceives with in himself and out side.

« وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

(For those of firm faith, there are Signs (i.e. Signposts of Truth) (enough) on earth and also within yourselves. Will you not see?).

وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

(How many are the Signs on earth and in the heavens which they (carelessly) pass by and from which they turn away (their faces).

If man will but make use of his intellect and reflect on the created Universe, the very first truth that will down upou his realisation will be the fundamental and universal law and discipline and part of an ordered System ; there is nothing without good reason or a beneficent ultimate purpose. Were it otherwise, there would not have been this universal discipline and order which so carefully, to the minutest detail, holds together everything in the universe in a single integrated whole.

« خلق الله السموات والأرض بالحق ، إن فى ذلك لآية للمؤمنين » .

(God has created the heavens and the earth with good purpose. Verily, in this there is a sign for those who believe.)

« ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

(and: Yet most of them do not know it)[1].

---

(1) The Quintessence of Islam.

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

CHIEF EDITOR :

AHMAD HASSAN AL - ZAYYAT

DHU'LQA'DAH 1384	ENGLISH SECTION EDITED BY : A. M. MOHIADDIN ALWAYE	MARCH 1965

THE QUR'ANIC CONCEPTION OF GOD - III

BY : MOULANA ABUL KALAM AZAD

The next stage of divine guidance is that throuh the faculties of sense, perception and mental understanding. Beings lower than man lack intellect and reason, but they possess the powers of senses and understanding in the fullest measure necessary for all the functions relating to selfpreservation and reproduction. These powers, it is also to be noted, are not the same kind or degree for all beings, to each is given exactly that power and in that measure which would enable it to live in the environment or that particular state in which taqdir has placed it. The ant is givin a relatively stronger sense of smell; the eagle has relatively stronger sight. It would be irrelevant to examine whether these different faculties of animals and insects were so from the first, whatever that might mean, or whether they developed to meet the requirements of the situation. what is to be noted is that these faculties could not have been so developed by any human or other earthly agancy; they are Naturegiven, and Nature has prescribed the laws of existence, adjustment, growth and development which are unalterable.

Thus it is that, after naming Allah, the first divine attribute that this sura directs our attention to is that of Rabbil Alameen, the lord who cherishes, nourishes and sustains everything and guides it to its fulfilment. It was this attribute to which Moses referred when he said:

«قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى»

(Our Lord is he who has given everything its form and nature and

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر فى أول كل شهر عربى

رئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
« العنوان »
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مدير المجلة
عبد الرحيم فوده
« بدل الاشتراك »
٤٠ قرشا فى الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء العاشر - السنة السادسة والثلاثون - ذى الحجة سنة ١٣٨٤ هـ - ابريل ١٩٦٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

أثر الأدب فى ثورة العرب

بقلم : أحمد حسن الزيات

— ٢ —

قلت فى المقال السابق : إن الأمة العربية فى تاريخها الطويل الحفيل لم يكن لها غير نهضتين : نهضة فى القرن السادس كانت بالدين انطلاقا من الجهل ، ونهضة فى القرن العشرين كانت بالعلم انبعاثا من الموت ، وكان الأدب فى كلتا النهضتين كما قررنا هو الباعث الأول كان فى الأولى ومضة المنارة التى تذهب الضلال ، وكان فى الأخرى نفخة الصور التى تسبق البعث ، فكيف كان العرب بعد أن تقدموا وقدموا الدنيا ، وكيف صاروا بعد أن تأخروا وأخروا الدين ؟ .

كان العرب فى القرن الرابع للهجرة قد بلغوا من السلطان والعمران ما لم تبلغه من قبلهم أمة ، كانت لهم فى عصر واحد ثلاث خلافات تشع الحرارة والنور فى القارات الثلاث : خلافة العباسيين ذات العلم الأسود ببغداد فى آسيا ، وخلافة الفاطميين ذات العلم الأبيض بالقاهرة فى إفريقيا ، وخلافة الأمويين ذات العلم الأخضر بقرطبة فى أوربا ، وكان العالم القديم كله من شرقه إلى غربه يعيش فى ظلال هذا الملك المعظم خاضعا للعرب الحاكمين خضوع الجيش للقائد أو القافلة للدليل ،

فلما أخلد العرب إلى الترف، وفقدوا بالانقسام والخصام والترف قوة الاتحاد، وقوة السلطان، وقوة الدين، وقوة العلم، أصبحت ديارهم وآثارهم نهبا مقسما بين المغول والترك والفرس والجركس والأسبان.

وفعل التتار فى العراق، والصليبيون فى الشام، والفرنج فى الأندلس، ما تفعله الزلازل والبراكين بالعمران المزدهر. ثم انحصر العالم العربى فى أواخر القرن الثامن عشر للميلاد فى العراق وسورية وبلاد العرب ومصر والسودان والمغرب، وآل السلطان والحكم فيه إلى الدولة العثمانية سنة ١٥١٦ م فحكمته بالعسف، والقهر، وأذلته بالجهل والفقر، وفرقت بين أجزائه بالعزل والقطيعة، وطردت اللغة العربية من الدواوين حتى من محاكم الشريعة، واستعملت التركية فى التعليم حتى فى دروس النحو! ثم انقطع ما بين العرب والدين الصحيح والأدب الحر فاعتراهم ما يشبه الخدر فى الحواس؛ فلم يشعروا بالوجود ولم يحفلوا بالحياة، حتى غشى الأرض ما غشى من طغيان عبد الحميد، وقاست العروبة ما قاست من اضطهاد الأتراك، فأخذ تاريخ المجد العربى يثور فى رءوس بعض الزعماء والقادة، ومأثور الأدب العربى يحيا فى نفوس بعض الشعراء والكتاب وانبعثت من وراء الرقابة الشديدة والجاسوسية اليقظة أصوات الأدباء تهيب فى خفوت وحذر بالراقدين أن يهبوا، وبالقاعدين أن ينهضوا، وسمع الناس أول ما سمعوا صرخات العرب المسيحيين لسوء سياسة الترك فيهم، وقسوة الحكام عليهم، كفتح الله مراش، ورزق الله حسون، وأديب اسحق، وإبراهيم اليازجى صاحب البائية المشهورة التى نظمها فى سنة ١٨٩٦ م ومطلعها:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طمى السيل حتى غاصت الركب
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم
تستغضبون ولا يبدو لكم غضب
ألستم من سطوا فى الأرض واقتحموا
شرقا وغربا وعزوا أينما ذهبوا
فما لكم ويحكم أصبحتم هملا
ووجه عزكم بالهون منتقب
لا دولة لكم يشتد أزركم
بها ولا ناصر للخطب ينتدب
أقداركم فى عيون الترك نازلة
وحقكم بين أيدى الترك مغتصب

والقصيدة كلها على هذا النسق من استنهاض العزم ثم لاسترجاع المجد الذاهب، واسترداد الحق المغصوب وهى مثل لما كانت تنشره الصحف وترويه المجالس فى مهاجر الأحرار بمصر وأوربا وأمريكا، وكانت هذه الصيحات المذكرة المنذرة تجد تشجيعا

من مدحت باشا والى تركية على العراق، ثم على سـورية، لأنه كان يطمع فى أن يستقل بالشام كما استقل محمد على بمصر، فقويت حركة الإصلاح، واتسعت دائرة المعارضة، واشترك فيها المسيحيون والمسلمون على سواء.

ونهض يومئذ المصلح الحلبى العظيم الشيخ عبد الرحمن الكواكبى المتوفى سنة ١٩٠٢ م فألف كتابيه القيمين: «طبائع الاستبداد» و«أم القرى»، دعا فى الأول إلى تحرير المجتمع العربى من العادات الضارة والاعتقادات الفاسدة، ودعا فى الآخر إلى خلافة عربية يكون مقرها جزيرة العرب، فكان لهذين الكتابين أثر قوى فى إنعاش الفكرة العربية، قطع الترك على المؤلف من جرائهما كل سبيل، وشردوه فى كل أفق.

ثم تجاوبت بأناشيد الذكرى والألم والأمل صيادح الشعر على ضفاف دجلة وبردى والأردن، فيقول الرصافى من قصيدة عنوانها: «تنبيه النيام»:

عجبت لقوم يخضعون لدولة
يسوسهم فى الموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها
وأموالها منهم ومنهم جنودها

ويقول الزهاوى من قصيدة نظمها فى سنة ١٨٩٧:

لقد عبثت بالشعب اطماع ظالم
يحمله من جوره ما يحمل
فيا ويح قوم فوضوا أمر نفسهم
إلى ملك عن فعله ليس يسأل

ويقول عبد الحميد الرافعى فى طرابلس من قصيدة مطلعها:

ما تصلح الدنيا ولا ناسها
ما لم يل الأقوام أجناسها
هبوا بنى العرب .. إلام الكرى
وقد دها الآمال دهاسها
طلبتم الإصلاح من عصبة
تو تر بالإفساد أقواسها
ألستم نسل القروم الألى
تفتعل الهامات أفراسها
فكم تقيمون على ذلة
وروضة الصبر ذوى آسها
فجردوا العزم الذى طالما
شق صدوراً طال وسواسها

ويقول سليمان الفاروقى فى فلسطين:

بنى انهضوا وأحيوا حياة عزيزة
حياة تعيد المجد للعرب ثانيا
ألا نهضة شرقية عربية
تزلزل أقواما وتوهى رواسيا؟
ألا رجل ذو مرة فيلكم
ويرأب صدعا فيكم بات واهيا؟

يقوم فلا يرتد أو يبلغ المدى
ويقضى ولكن يمت السيف قاضيا

ثم انضم إلى أدباء العرب الثائرين على طغيان السلطان أحرار الأدباء من الأتراك أنفسهم من أمثال : رضا توفيق ، وولى الدين يكن ، فكان من أولئك كله وقود جزل للثورة التى أشعلتها فى تركيا « جمعية الاتحاد والترقى » وكان أن أعلن فى نورها الدستور العثمانى فى سنة ١٩٠٨ ، ثم كان أن سقط فى نارها عبد الحميد فى سنة ١٩٠٩ .

وظن العرب أنهم سينعمون فى ظلال الدستور بالحرية والمساواة ، ولكن الظن كذب ، والأمل خاب ، وعاد الشعراء يقولون مع الفاروقى :

كنا نعلل بالدستور أنفسنا
بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقب
حتى إذا جاء لم يحدث لنا حدثا
ولا استجيب لنا فى مطلب طلب

واشتدت الخصومة بين العصبيتين : العربية والتركية ، واحتدمت ثورة الأدب ثانية فى المجلات والصحف ، وترددت أصداؤها فى المحافل والأندية ، وتجمعت القوى المتفرقة فتألفت الجمعيات السياسية فى العواصم المختلفة كجمعية المنتدى العربى ، وجمعية العهد فى الأستانة والجمعية القحطانية والجامعة العربية فى مصر ، والجمعية الإصلاحية فى بيروت ، وكلها كانت تعتمد فى الدعاية على الأدب فى شتى ضروبه ، وجميع مظاهره ، حتى شبت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ ، وكانت تركيا خصماً فيها لانجلترا وفرنسا وهما الدولتان الطامعتان منذ طويل فى اقتطاع الشرق العربى وابتلاعه من تركة الرجل المريض كما كانوا يسمون الدولة العلية ، وأراد الله جل شأنه أن يهيء الأمور لتحرير الأمة التى اختارها لإظهار دينه وإعلاء حقه ، فأسرف الأتراك فى البغى وأمعنوا فى الجور وحكموا بالإعدام ظالمين على صفوة من أقطاب الأدب والسياسة . شنقوهم سنة ١٩١٥ فى ساحات بيروت ودمشق ، فكان استشهادهم المروع مناحة للأدب فى كل قطر ، واستغل الاستعمار الراصد هذه النكبة ، فتقدمت انجلترا إلى الحسين بن على شريف مكة فى سنة ١٩١٦ بالوعد أن تجمع له الأقطار العربية كلها تحت تاجه ، فكانت ثورة الحجاز ، وكان انخذال الترك ، وكان استقلال العرب .

كذب الإنجليز وعدهم ، وصدق الله وعده ، وانتهى أمرهم إلى الانتداب والأمر قه وحده .

ذلك ما اتسع له القول فى جهاد الأدب لإنهاض العرب فى هذا القرن ، أما جهاده فى جمع كلمتهم وتحقيق وحدتهم فهو موضوع المقال التالى ؟

أحمد حسن الزيات

تحية الإمام الأكبر للمسلمين في عيد الأضحى

أيها المسلمون فى أنحاء الدنيا :

بسم الله أحييكم فى هذا اليوم الأغر ، يوم عيد المسلمين الأكبر ، يوم التضحية والفداء ، يوم العاشر من ذى الحجة - فإنه ما إن يطلع على العالم حتى تتعلق مشاعر المسلمين ببيت الله الحرام ، وتهفو قلوبهم إلى أم القرى مكة التى باركها الله ، ويتأهب الحجيج لأداء المناسك ، مستلهمين من الله العون على أداء فريضة الحج سائلين الله سبحانه أن يتم عليهم نعمته ، بعد أن لبوا نداء إبراهيم ، ودعوة نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم - إنهم ليذكرون هذ الحرم الآمن ، الذى أسكن إليه إبراهيم فترك بجواره وديعته إسماعيل ، فتعهده الله بالتربية وشب فى رمال الصحراء ، وترعرع بين الصفا والمروة « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

ثم يعود إبراهيم ليجد ابنه إسماعيل وقد صلب عوده ، وقويت بنيته ، فيعيد معه قواعد البيت العتيق ، « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ، حتى إذا تم بناء البيت أتم الله نعمته على العرب فأمر خليله إبراهيم أن يؤذن فى الناس بحج البيت المعمور ، ونادى إبراهيم ولبى الناس وما زالوا يلبون :

لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك قال تعالى : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ، ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند

ربه ، وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير، أو تهوى به الريح في مكان سحيق ، ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ، ثم محلها إلى البيت العتيق، ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فإلهكم إله واحد فله أسلموا ، وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير، فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر . كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم . كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين » .

أيها المسلمون :

وقد أراد الله سبحانه أن يكون بيته الحرام مثابة للناس وأمنا من عهد الخليل إبراهيم وأبي العرب إسماعيل قال تعالى : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ، واستمرت هذه الفريضة (فريضة الحج) وجددها الإسلام ، فجعلها أحد أركانه الخمسة . قال تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » .

يهرع المسلمون إلى هذا الحرم الآمن محرمين ملبين ، وحول البيت طوافين رافعين إليه أكف الضراعة ، وبين الصفا والمروة ساعين ، وعلى عرفات واقفين مستلهمين من الله مزيد الرحمات ذاكرين هذا اليوم الخالد يوم وقف رسول الإسلام والسلام : محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وقد فتح الله عليه جزيرة العرب، ودخل الناس في دين الله أفواجا وحج رسول الله حجة الوداع ، فخطب وخاطب الأجيال كلها من فوق جبل عرفات ، وقدامتطى صلوات الله وسلامه عليه ناقته العصباء ، فأرسى قواعد الإسلام ، ورسم للأمة طريقها ، وخط لها مناهجها .

أيها الناس : اسمعوا قولي ؛ فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا - وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم . ألا قد بلغت اللهم فاشهد » .

« فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها » .

وأبطل الرسول فى هذه الخطبة الجامعة ما بقى من الربا ـ فقال صلوات الله عليه وسلامه « وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا » .

أيها الناس : ان الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه أبدا ، ولكنه أن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى بما تحقرون من أعمالكم ـ فاحذروه على دينكم » .

وفى خطبة الوداع ـ أيها المسلمون ـ التى يودع الرسول فيها مكة بلده الحبيب ويكاد يودع بها العالم كله مرتحلا إلى الرفيق الأعلى يضع للأسرة نظاماً وهديا نبويا ، يحفظ كيانها ويدعم بنيانها ـ أما بعد .

« أيها المسلمون : اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم » ويذكر الرسول فيما يذكر أنه قد ترك للمسلمين أمرين لن يضلوا ما تمسكوا بهما : كتاب الله وسنته ، ويسجل الرسول على أمته تبليغ رسالة ربه : « ألا هل بلغت فقالوا : اللهم نعم فقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : اللهم فاشهد » .

أيها المسلمون فى كل مكان :

لكأنى برسول الله صلوات الله عليه وسلامه يعلمنا فى حجته هذه كيف نتخذ من اجتماع المسلمين الأكبر فى عرفات مؤتمرا إسلاميا نتدارس فيه مشاكل المسلمين ونجمع أمرنا على كلمة سواء ، كلمة الوحدة ، كلمة العروبة كلمة الاسلام ، وصدق الله إذ يقول : ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات .

أيها المستمعون الكرام :

لقد كان من نعم الله على عباده أن جعل لهم عقب كل فريضة سنوية عيدا يجتمعون فيه فيذكرون الله ويشكرونه على ما أولاهم من نعم وآلاء ، فأول شوال من كل عام عيد الفطر المبارك يستضيف الله فيه عباده الصائمين ليعترفوا بفضل الله على أن أعانهم على فريضة الصيام فيفرحوا بفضل الله عليهم فإن للصائم فرحتين : فرحة يوم فطره ، وفرحة يوم لقاء ربه .

وعيد الأضحى أيها المسلمون عيد أكبر يشكر المسلمون فيه ربهم على أن أعان حجاج بيته الحرام على أداء هذه الفريضة الجامعة ، وقد جعل الله شكره فى هذا اليوم الأغر بتقديم الهدى والضحايا قربانا لله بعد صلاة العيد قال تعالى : إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر . وهذه الهدايا وتلك

الضحايا التى يتقدم بها المسلمون إلى الله سبحانه وتعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منهم .

إن هذه الضحايا أيها المسلمون : إنما هى وتذكير بموقف خالد من مواقف البطولة شكر بالفداء موقف إبراهيم عليه السلام ، وقد رأى فى المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل فأسرع إلى تنفيذ ما أوحى به إليه ربه فى منامه ثم ما كان من إسماعيل وهو استجابة الابن البار استجابة مطلقة برا بأبيه وطاعة لربه ثم هو تذكير برحمة الله التى تنزل على عباده الصالحين ، « فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى قال : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجـــزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إبراهيم ، إنا كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين » ألا ما أروع التضحية وما أعظم الفداء .

أيها المسلمون : إننى من أرض الله المقدسة ومن بيت الله العتيق ، ومن أم القرى مكة المكرمة بعد أن أنعم الله على بحج بيته الحرام أسجد لله شكرا على ما أولانى من نعمة وأبعث إليكم فى بقاع الدنيا بتحياتى وتهنئتى لكم بالأصالة عن نفسى والنيابة عن أزهرنا المعمور ، وأبعث إلى جمهوريتنا العربية وفيها كعبة العلم (الأزهر الشريف) وإلى بلاد الدنيا جميعا بأطيب التهانى بعيد الأضحى المبارك سائلا الله سبحانه أن يجمع كلمة المسلمين ويوحد بينهم قادة وحكاما ومحكومين .

أيها السادة ... كل عام وأنتم جميعا بخير والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حسن مأمون
شيخ الأزهر

مظاهر رائعة
من عظمة الرسول عليه السلام

إيثاره المسلمين على نفسه وأهله فى حياته وبعد مماته

للأستاذ الدكتور
علي عبد الواحد وافي

كان عليه الصلاة والسلام فى مأكله ومشربه وملبسه وشئون حياته المنزلية الخاصة يعيش كما يعيش أفقر رجل من أصحابه. وقد وصفت حياته هذه السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها إذ تقول: «ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتاليين حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم». وتحدثت مرة أخرى عن ذلك مع عروة بن الزبير، وهو ابن أختها: أسماء بنت أبى بكر ذات النطاقين فقالت: «والله يا ابن أختى إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين وما أوقد فى أبيات رسول الله صلى عليه وسلم نار»: أى إنه كان يمر على زوجات الرسول عليه السلام شهران قريبان كاملان ويدخل الشهر الثالث بدون أن يكون قد أوقدت نار فى بيوتهن لطهو اللحم، أو لإعداد طعام من الأطعمة التى يقتضى إعدادها إيقاد نار. قال عروة فقلت لها: «ياخالة! فبم إذن عيشكم؟». فقالت: «يا ابن أختى كان معظم عيشنا بالأسودين: التمر والماء». - وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: دخلت يوما على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو مضطجع على حصير خشن، فجلست فإذا الحصير قد أثر فى جنبه، وإذا عليه إزار ليس عليه غيره، وإذا أنا بقبضة من الشعير بمقدار صاع فى ناحية من الغرفة. فابتدرت عيناى بالبكاء. فقال عليه السلام: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ فقلت: يا نبى الله ومالى لا أبكى؟! وهذا الحصير قد أثر فى جنبك، وهذا ملبسك عليك إزار ليس عليك غيره، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا هذه القبضة من الشعير. وذلك كسرى وذاك قيصر يعيشان فى الثمار والنعيم والثياب الفاخرة؛ وأنت نبى الله وصفوته! فقال عليه السلام: «يا ابن الخطاب أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا».

وكانت ابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها أفقر بناته جميعاً . فقد كانت بناته الأخريات زوجات لثريين من أثرياء قريش وهما : أبو العاص بن الربيع زوج زينب ، وعثمان بن عفان زوج رقية وأم كلثوم ، تزوج إحداهما أولا ، وبعد وفاتها تزوج الأخرى ، ومن ثم يسمى : (ذا النورين) . أما فاطمة فكانت زوجة لابن عمه : على بن أبي طالب . وكان رضى الله عنه من افقر رجال قريش فقد وقف حياته كلها على الجهاد فى سبيل الله ، وإعلاء كلمته ، والتفقه فى دينه ، وإشاعة الثقافة الإسلامية ، وصحبة الرسول عليه السلام ، ولم يشتغل فى حياته بتجارة ، ولا استثمار لأرض ، ولا استغلال لمال وكان أبوه (أبو طالب) عم الرسول عليه السلام فقيرا كثير العيال ؛ حتى لقد قام بعض أقربائه بكفالة أولاده ، فقام أخوه العباس بكفالة ابنه جعفر ؛ وقام محمد بن عبد الله قبل رسالته ، وبعد زواجه بخديجة بكفالة ابنه على والقليل من المال والعقار والمتاع الذى تركه أبو طالب بعد وفاته لم يرث منه على شيئا ؛ وإنما ورثه أخواه : طالب وعقيل ، لأنهما كانا حينئذ على دين أبيهما ، وكان على مسلما ولا يرث المسلم من الكافر ، ولا الكافر من المسلم ، ولذلك حينما قال أسامة بن زيد للرسول عليه السلام يوم فتح مكة : « هل ستنزل فى بيتك يارسول الله ؟ » (يعنى بيت عمه أبى طالب شقيق أبيه) ، أجاب عليه السلام بقوله : « وهل ترك لنا عقيل من منزل ؟! » ثم قال : « ولا يورث المؤمن الكافر ، ولا يرث الكافر المؤمن » .

هكذا كان حال ابنته فاطمة وحال صهره على من الفقر ورقة الحال ، وكانت حياتهما فى بيتهما كحياته عليه الصلاة والسلام فى بيته ، فكانا يعيشان فى المستوى نفسه الذى وصفته عائشة ووصفه عمر فى الحديثين السابق ذكرهما حتى إن عليا وفاطمة لم يكن لديهما غطاء يغطى جميع أجزاء جسميهما وهما نائمان ؛ فكانا إذا جذباه على كتفيهما انكشفت ساقاهما ، وإذا جذباه على ساقيهما انكشفت كتفاهما ، أما جهازهما وأثاث بيتهما فقد وصفه على رضى الله عنه إذ يقول : « إن الرسول عليه السلام لما زوجه ابنته فاطمة بعث معها بخميلة ووسادة حشوها من ليف ورحيين وسقاء وجرتين » وكانت فاطمة رضى الله عنها تقوم بنفسها بجميع شئون بيتها وخدمة زوجها ، ولم تكن لديها خادمة تساعدها فى أعمالها . وقد ذهبت مرة إلى أبيها عليه السلام وعلى يدها وأصابعها آثار الجهد ، وشكت إليه ما هى فيه ، ورجته أن يمنحها جارية من سبايا الحرب تساعدها فيما تقوم به ، فقال لها عليه السلام : « ألا أنبئك بكلمات تزيل

عنك الهم ، وتكشف عنك الكرب ، وحفظها بعض تسبيحات ودعوات تتجه بها إلى الله تعالى ليربط على قلبها ، ويشرح صدرها ويمنحها القوة على حملها ، فرجعت إلى بيتها ومعها بضع دعوات صالحات ترددهن كلما وهنت قواها وشق عليها متابعة ما تقوم به من عمل ، بدلا من الخادمة التى كانت تأمل أن ترجع بها قال ابن أبى ليلى : أخبرنا على أن فاطمة اشتكت ما تلقى من الرحى فبلغها أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بسبي فأتته تسأل خادما ، فلم توافقه (أى لم تجده) فذكرت ذلك لعائشة فجاء النبي ، فذكرت عائشة له ذلك فأتانا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبنا نقوم ، فقال على مكانكما ، حتى وجدت برد قدمه على صدرى فقال : «ألا أدلكما على خير مما سألتمانى ؟ إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا الله ثلاثا وثلاثين واحمداه ثلاثا وثلاثين وسبحاه ثلاثا وثلاثين . إن ذلك خير لكما مما سألتماه» ، وورد فى حديث آخر عن على فى هذه القصة قوله عليه السلام : «والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم . ولكن أبيعهم (يقصد الرقيق) وأنفق عليهم أثمانهم» . (وأهل الصفة جماعة من فقراء المسلمين منهم أبو هريرة وأبو ذر الغفارى ، كانوا ملازمين للرسول عليه السلام وكان مقامهم أمام بيوته . ويحدد مكانهم الآن بإطار أمام الروضة النبوية الشريفة) .

ولم يعش الرسول عليه السلام هو وأهله هذه العيشة ، ولم يحمل ابنته وزوجها على أن يعيشا هذه المعيشة ، لعجزه عن حياة الرغد والرخاء . فقد كان لديه من موارد الرزق التى أحلها الله تعالى له ما يتيح له أن يعيش هو وأهله وابنته وزوجها وأولادهما فى أرغد عيش .

فقد جعل الله تعالى له الحق فى خمس غنائم الحرب ينفق منه على نفسه وأهله وذوى قرباه . قال تعالى : «واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» (آية ٤١ من سورة الأنفال) . وجعل الله تعالى له الحق فى الفىء ، وهو ما يحصل عليه المسلمون من أعدائهم بدون حرب على أثر استسلام أو قبول الجلاء كفىء بنى النضير وبنى قريظة من اليهود . قال تعالى : «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» (آية ٧ من سورة الحشر) ، وأهل القرى هم اليهود الذين كانوا يسكنون يثرب وضواحيها . وقد أفاء الله على رسوله مالا كثيرا مما تركوه بعد إجلاء بعضهم ، والقضاء على بعضهم الآخر .

ويتحدث القرآن الكريم عن ذلك فيقول : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم » (وهم بنو قريظة الذين ظاهروا قريشا وأحلافها وغدروا بمحمد عليه السلام ونكثوا عهده فى أثناء غزوة الخندق ، فأمكن الله تعالى المسلمين منهم وأنزلهم من صياصيهم أى حصونهم) « وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شىء قديرا » (الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الأحزاب) . ومن خمس الغنائم وأموال الفىء التى جعل الله للرسول وذوى قرباه نصيبا كبيرا منها كان يستطيع عليه السلام ، لو أنفقها على نفسه وذوى قرباه ، أن يعيش هو وأهله وابنته وزوجها وأولادهما فى أرغد عيش . ولكنه عليه السلام كان ينفق معظم ما أحله الله تعالى له من هذين الموردين ومن غيرهما على الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل وذوى الحاجة من المهاجرين والأنصار وغيرهم ، ويؤثر هؤلاء على نفسه وأهله وابنته ، ويعيش هو وأهله وابنته عيشة الكفاف ، بل ما هو أدنى من عيش الكفاف ، على النحو الذى وصفناه .

وقد أبى عليه السلام إلا أن يؤثر المسلمين على نفسه وأهله وابنته ، وأبى إلا أن ينأى بنفسه وأهله وابنته عن مواطن الشبهة والريبة واستغلال المكانة والقرابة ، لا فى حياته فحسب ، بل بعد مماته كذلك ، فقد قرر عليه السلام أن ما يتركه بعد وفاته لا ترثه بناته ولا زوجاته ولا يرثه أحد من أقربائه ، وإنما يضم إلى بيت المال فيكون لجميع المسلمين .

وفى هذا يقول عليه السلام : « لا تقسم ورثتى دينارا ولا درهما ، ما تركت بعد نفقة أهلى ومئونة عاملى فهو صدقة » . ومن ثم لم يعط أبو بكر بنات الرسول ولا زوجاته ولا أحدا من أقربائه شيئا مما تركه الرسول بعد وفاته ، حتى بيوته عليه السلام نفسها فقد أبيح لزوجاته من بعده مجرد الاحتفاظ بسكنها فقط ما دمن على قيد الحياة ، وكانت كلما توفيت واحدة منهن ضم بيتها إلى المسجد الذى يعم نفعه جميع المسلمين ؛ وهكذا حتى دخلت بيوتهن جميعا فى المسجد النبوى وفى مكانها الآن قبر الرسول عليه السلام وما يقع أمامه من مسجده ؛ فقد كانت هذه المساحة مشغولة ببيوت أمهات المؤمنين ، وكذلك كان لكل واحدة منهن نفقتها فقط من تركة الرسول ، وبعد وفاتهن ضم ما كان ينفق منه عليهن إلى بيت المال ، وصرف

فى منافع المسلمين . ولم يرث بيوتهن ولا مصادر نفقاتهن أحد من أقربائهن .

* * *

وليس معنى هذا أن الرسول عليه السلام كان يعيش عيشة تحنث ورهبنة ؛ بل لقد كانت حياته حياة عمل وجد نشاط ، وكان قسط كبير منها وقفا على الجهاد وقيادة الجيوش وتدبير شئون المسلمين وتبليغ الرسالة ونشر الدعوة وتنظيم العلاقات بين المسلمين وغيرهم وعقد المعاهدات ... وما إلى ذلك من عظائم الأمور ، وكان يأخذ من الدنيا بعض ما أحله الله له ؛ ولا يدع العبادة تستأثر إلا بجزء من وقته . جاء إلى بيوت الرسول عليه السلام ثلاثة رهط من كبار الأتقياء وممن عزفوا عن جميع متع الحياة ، وتفرغوا للعبادة ، جاءوا إلى بيوت الرسول يسألون عن عبادته حتى تتم محاكاتهم له ويتداركوا ما عسى أن يكون قد فاتهم ، فلما أخبروا بمناهجه فى العبادة كأنهم تقالوها ، أى عدوها قليلة بالقياس إلى عبادتهم هم . وقالوا ملتمسين للرسول العذر ومبررين انكبابهم على عبادة الله : وأين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وقال أحدهم : أما أنا فإنى أقوم الليل أبدا ولا أهجع وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر أبدا ولا أفطر وقال ثالثهم : وأنا أعتزل النساء أبدا ولا أتزوج تبتلا وتقربا لله ؛ فدخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أنتم الذين تقولون كذا وكذا ؟ ؛ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكننى أصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

دكتور على عبد الواحد وافى

محمد وصحبه فى القـــرآن

« محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجـــراً عظيما » .

نفحات القرآن

حول ظلمات الكفر .. وأضواء الإيمان

للأستاذ عبد اللطيف السبكي

(أ) « إن الذين لا يرجون لقاءنا ، ورضوا بالحياة الدنيا ، واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون : أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » . ٧ - ٨ يونس

(ب) « إن الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، يهديهم ربهم بإيمانهم ، تجرى من تحتهم الأنهار ، فى جنات النعيم ... دعواهم فيها : سبحانك اللهم ... وتحيتهم فيها سلام ... وآخر دعواهم : أن الحمد لله رب العالمين » . ٩ - ١٠ يونس

١ — فى الشطر الأول : حديث عن الكافرين ، وسوء منتهاهم ...

وفى الشطر الثانى : نماذج من مباهج المؤمنين فى أخراهم .

وقد يخطر لإنسان أن القرآن تحدث كثيراً عن الإيمان وأهله ، وعن الكفر وأصحابه : حتى أصبح شأن الفريقين مستفاداً من آيات لا تبلغ هذه الكثرة التى نتلوها فى مقامات عدة ... فلا تكون هذه الكثرة إلا لمجرد التأكيد ، وإزالة الشبهات ...

ولكن ذلك زعم غير حصيف ... أو هو زعم من يضيق وعيه عن مرامى القرآن فى خطابه للناس وفى توجيهاته ...

فإن الله لم يخلقنا سدى ، ولم يتركنا هملا ، وإنما خلقنا تنفيذاً لحكمته ، ومظهراً لقدرته ، ورسم لنا فى الدنيا مناهج ، وأعد لنا فى الآخرة مآلا يختلف باختلاف مسالكنا فى الحياة .

فكان من تمام فضله على الناس : بل على الإنس ، والجن أن يبصرهم تشريعه بما يكفل هداهم ، ويكشف لهم من الغيب عنهم ما تقصر دونه أفهامهم ، أو تطغى عليه أهواؤهم ، وشواغلهم .

فإذا قرأنا كثرة من الآيات فى التوجيه إلى الإيمان والترغيب فى عقباه . . أو قرأنا كثيراً عن الكفر والتحذير من منتهاه : فإن

فى هذا التكرار مساندة المقول بالتذكير وفيه تقويم لما فى النفس من عوج لا يستقيم وحده : وفيه تجلية لصدأ القلوب من شوائب الغفلة ، أو عدوى التقليد لأهل النفاق .

فلا يكون تكرار القرآن لحديثه عن الإيمان أو غيره لمجرد التأكيد ، وإزالة الشبهات .

بل هو فى كل مقام : يراد منه استلفات التوجيه ، وإبراز الخفى ، وإثارة الوعى من غفلته حينا بعد حين .

وإن نظرة القارىء فى كل آية مستقلة عما يراد فيها لتحدث عنده تنبها جديدا ، وخشية مستمدة من نفس الآية باستقلالها ...

ولا تحمل على التأكيد لسواها إلا عند ما نجمع آية إلى آية أخرى فى موضوع واحد ، فقد يراعى التوافق فى الغرض المتحد ...

على أنك حينما تجمع بين الآيتين مثلا : فأيهما التى تراها تأسيساً ، والتى تراها تأكيداً ؟ ؟ ذلك مطلب عسير على الكثيرين : إلا إذا عرفنا تاريخ النزول على وجه الضبط ... وهيهات

وعلى هذا الأساس ننظر فى الآيتين السالفتين (ا ـ ب) .

(ا)

٢ ـ « إن الذين لا يرجون لقاءنا ... الآية » .

فى الكفر مقاطعة العبد لربه ، وحين المقاطعة الروحية لا يتجه العبد نحو ربه بخوف من عذابه ، ولا طمع فى ثوابه ، فإنه ينكر لقاء الله بعد الحياة الدنيا ، ولا يحسب أن هناك بعثا ولا حساباً ، فلا مثار عنده لرجاء بمعنى الخوف ، أو الطمع .

وهذا وصف من جملة صفات يذكرها القرآن عن الكافرين « لا يرجون لقاءنا » .

والانصراف عن الآخرة ، وإنكار ما بعد الموت يربط الإنسان بدنياه ، ويفرغ لها قلبه ، وحبه كله

فلا يتخلى عن التعلق بها ، بل ينحصر همه فيها ، وذلك وصف ثان من لوازم الكفران .

« ورضوا بالحياة الدنيا » .

وحين يتصور الخيال أن الدنيا هى المراح والمغدى ، وأن حبها هو المتاع والحظوة : تكون أثيرة عند المرء ، ويطمئن إليها كأنها الخلود الذى لا يتبدل ، والنعيم الذى لا يتحول فهى قبلته المرموقة ، وهى عبادته الشاغلة عما سواها ... وذلك وصف ثالث ذكرته الآية ، واطمأنوا بها » .

وإذا ما اجتمع حول المرء عوامل ثلاث ، مقاطعة لله ... وتفرغ للدنيا ... واطمئنان إلى مفاتنها : لا تجد بين جنبيه قلبا يفقه ... ولا نفسا تخشع ... ولا حياة لضمير ...

وعند ما ينحدر المرء إلى هذه المهواة يفقد كل معانى الإدراك المنشود ... ويبتعد عن كل تقدير، ويتجرد من ملامح الرشد .

وهذه هى المسماة فى القرآن بالغفلة عن آيات الله فى سمائه، وفى أرضه، وفى كتابه الذى ينادينا ولكن لا حياة لمن ينادى ... وتلك خصلة رابعة «والذين هم عن آياتنا غافلون» .

٣ — وفى هذا المستوى يكون الإنسان فى جهالته قد انحط إلى البهيمية، بل يكون أسوأ منها حالا، لأنها معذورة بحرمانها من خصائص البشرية التى استوفاها وأغفلها .

«أولئك كالأنعام، بل هم أضل : أولئك هم الغافلون» .

وهؤلاء الذين ورطوا أنفسهم فى الكفر وترددوا فى ظلماته: لابد لهم من مآل يستقرون فيه مهما يكن زعمهم فى عدم البعث أو الغفلة عن آيات الله .

فليكن مأواهم لائقا بمسلكهم ومثبتا لما جحدوه .

وهذ هو منطق العدل الذى قامت عليه شرعة الله فى سياسته لخلقه، وقد كاشفهم الله بذلك قبل أن تفلت من أيديهم الفرصة «أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون» هم الكاسبون لهذه المآثم ؛ فجزاؤهم من جنس عملهم .

٤ — والجزاء بعد العمل يعتبر مبادلة بين الله وعباده ... فما تقدمه تكافأ عليه «ولا يظلم ربك أحدا» .

٥ — وانظر بعد ذلك إلى الآية الثانية «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ... الآية» .

الإيمان : صلة وثيقة بين العبد وربه، وفرق ما بين المؤمن والكافر أشبه ما بين النور والظلام أو ما بين العلم والجهل، أو ما بين الحياة الفاخرة، والموت المسخوط الرخيص وخاصة إذا كان إيمانا مقرونا بصالح الأعمال، وذلك هو الإيمان الكامل الذى تعلنه الآية، ويعنى به القرآن أكثر من إيمان مجرد من عمل .

والإيمان المثمر لصالح الأعمال هو العلاقة الروحية التى تهش لها الفطرة السمحة وتطمئن إليها النفوس المشرقة، وتجنح إليها الإنسانية العالية الرحيمة .

وبذكر الإيمان، وعمل الصالحات: انبثق فى مجال الحديث نور، وفاح منه عبير، وابتسم فى مطلعه أمل .

لأنه حديث عن الإيمان، والمؤمنين، وليس أحب إلى الله من الإيمان، وذكر المؤمنين ... !

وأنت تلحظ هذه الملامح فى سياق الآية فقد تجاوزت عن ذكر الأعمال فى تفصيل

إلى ذكر المباهج التى يظفر بها المؤمنون .

وكان الحديث عن الكفار بذكر أعمالهم البغيضة ، ليقيم عليهم الحجة بما كسبوا حتى كانت النار مأواهم ، وفى هذا النمط صدود عنهم ، وتجهم فى شأنهم ، وانصراف إلى سواهم .

أما المؤمنون فيتبسط القرآن فى ذكراهم ويرطب الحديث عنهم بذكر تلك المباهج المرموقة ، التى كانت لهم جــزاء كريم عند ربهم .

٦ — وأولها « يهديهم ربهم بإيمانهم » كانت هدايتهم فى الدنيا إيمانا وعملا ... أما هدايتهم الآن : فهى توجيه إلى الجنة بعد البعث والحساب ... وهى تمكين لهم من منازلهم فيها ، وتحقيق لآمالهم التى تعلقوا بها ، واستجابة لطاعتهم فى الدنيا بإدراك ما تطلعوا إليه فى الآخرة .

وانظر فى لطافة التعبير : يهديهم ربهم !! فإنه يتعهدهم برعايته ، ويقرر اعترافهم بأنه ربهم . . !! وذلك هو عنوان الإيمان الذى كان السبب فى الجزاء .

٧ — وثانية المباهج « تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم » .

إذا أتيح للإنسان فى دنياه أن يعيش وقتا ما بين زروع وأنهار ، وفى صحة ورخاء : عاشت بنفسه مسرة تملك عليه نفسه ، وتجمع إليه ألوان الهناءة ، فينسى همومه ، ويكاد يحسب أن الدنيا تطوعت له .

ونحن نعلم أن نعيم الجنة فوق تقديرنا له وأن متع الدنيا دون ما هنالك بكثير وكثير .

فما بالك إذا عرف المؤمنون أن لهم خلودا فى الجنات ، يتقلبون فى نعيمها ، ويحظون بمشاهدها ، ويتفيئون ظلالها ، ويتملئون بأعينهم ، وأحاسيسهم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

٨ — ثالثة المباهج « دعواهم فيهــا : سبحانك اللهم » .

والدعوى هنا هى الدعاء ويكون بالتسبيح والتمجيد تلذذا ، وطربا ، وبهجة بما هم فيه ، وشكرا على ما منحهم ، وليس ذلك تكليفا ، فقد تجاوزوا حياة التكليف إلى الخلود فى نعيم مقيم :

وليس دعاؤهم طلبا لشىء ، فقد أغناهم الله عن الطلب : وكلما تعلقت رغبتهم بشىء ، تفضل الله عليهم به ، دون سؤال : وفى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (إذا شغل عبدى ثناؤه على عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين) .

وإذا كان هذا فى أهل الدنيا : فما ظنك بأهل الجنة .

٩ — وبهجة رابعة « وتحيتهم فيها سلام » المعنى : تحية الله لهم : سلام وأمان من كل ما

كان يخشاه المرء فى دنياه : ونحو هذا « سلام قولا من رب رحيم » .

وتحيتهم من الملائكة كذلك : سلام يرددونه عليهم ، كلما تلاقوا معهم : للتكريم والتهنئة « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

وتحية المؤمنين فيما بينهم كذلك : سلام يتبادلونه فى صفاء ، وحبور ، ومسرة تتجدد فلا يشوبها كدر ، ولا تلاحقها غضاضة : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل ، إخوانا على سرر متقابلين ، لا يمسهم فيها نصب ، وماهم منها بمخرجين » .

١٠ — وخاتمة المباهج « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .

فى كل ما يصادفونه من نعمة ... وفى كل ما ينتهون إليه من شأن يحمدون الله رب العالمين .

وهذا شعار يدين به أهل الجنة على سواء . فالكل شاعر بحظه فى جوار الله ، والكل آمن على سعادته فى رحاب الله ...

ومهما يكن بينهم من تفاضل : فلا حسد ، ولا أنانية ، ولا جشع ، ولا غير هذا ..

بل العيون قريرة ، والنعماء وفيرة ، والحياة فضفاضة الجوانب ، والأمل مديد غير مقطوع : « وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية . فى جنة عالية . لا تسمع فيها لاغية . فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة . ونمارق مصفوفة — وسائد — وزرابى مبثوثة ، بسط مفروشة .

وهذا قبس موجز عن نعيم الجنة ...

ونعيمها — كما سلف — فوق ما تراه العين فى الدنيا ، وفوق ما سمعت الأذن ، وفوق ما يخطر على قلب بشر ...

وإن كانت مطامح النفس ، والعين لا تقف عند حدود ، فنى الجنة كما قرر الكتاب الكريم ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين : من مستطاب لا يحيط به خيالنا .

١١ — وفى نهاية الحديث بذكر الحمد على لسان المؤمنين فى الجنة توجيه لنا إلى الاعتراف لله بفضله ، وتقرير الحمد له على ما ندرك من خيره ... كما وجهنا فى مقامات أخر إلى الابتداء بذكر اسمه — تعالى —

فيكون العبد فى سائر شئونه مستعينا بذكر الله ، ومنتهيا إلى حمد الله .

وهكذا يكون اللسان رطباً بالثناء ، وبالشكر ، والدعاء .

فلا يكون العبد جافا مع ربه ، ولا مقاطعاً للتوجه نحوه .

وقد قال سبحانه : « فاذكرونى أذكركم » .؟

عبد اللطيف السبكى

نقد ابن تيمية لمذاهب الاتحادية والقائلين بوحدة الوجود

للأستاذ عبد الفتاح الديدي

— ٢ —

أما السبب الرابع الذى من أجله هاجم ابن تيمية جماعة المتصوفة فيرجع إلى تاريخ التصوف ذاته . فنحن نعرف من هذا التاريخ أنه وجدت فئات تقول بالحلول والاتحاد وبوحدة الوجود . والحلول من شأنه أن يجعل مجانسة بين الوجودين : الإنسانى والإلهى أو الناسوت واللاهوت كما جاء فى شعر الحلاج أما الاتحاد فيقصد أصحابه تصيير ذاتين واحدة أو امتزاج الاثنين فى كائن واحد كابن الفارض الذى أفناه حبه لمحبوبه عن نفسه ؛ فلم يشعر إلا بالاتحاد التام به فقال :

متى حلت عن قولى « أنا هى » أو أقل
وحاشا لمثلى أنها فىّ حلّت

فإذا كان الحلول اثنينيا فالاتحاد واحدى . وبذلك تكون كل من النظرتين ملحدة بالنسبة إلى الدين الإسلامى ، فهو لا يعترف بإمكان هذه الواحدية كما لا يقر بالمجانسة بين الاثنين ولعل ابن تيمية لم يخفف من حكمه على ابن عربى إلا لأنه كما جاء فى النص السابع من نصوص الحكم يقول : بأن الله أحدى بذاته ولا يقبل التبعيض ، ولكنه يحمل عليه حملا شديدا فى بعض أجزاء نقده ، وعلى مذهبه فى الوحدة ، فيقول مثلا : (ص ٢٥ جـ ٤ م . ر . م .) فكيف بمن يزعم أن اليهود والنصارى هم أعيان وجود الرب الخالق ، وليسوا غيره ولا سواه ؟ ولا يتصور أن يعذب إلا نفسه وأن كل ناطق فى الكون فهو عين السامع ؟ وأن الناكح عين المنكوح ؟ » ومن ذلك أيضا (بالجزء الأول جـ ٧٧ م . ر . م .) نقده لقول ابن عربى ظاهره خلقه ، وباطنه حقه ، فيقول : « هو قول أهل الحلول ، وهو متناقض فى ذلك ، فانه يقول بالوحدة ؛ فلا يكون هناك موجودان : أحدهما باطن ، والآخر ظاهر » وهذه النقطة بالذات تحتاج الى توضيح أكثر من هذا وخاصة فيما يتصل بمذهب ابن عربى ، وسنتحدث عنها عند الكلام عن فهم ابن تيمية للاتحاد والوحدة ، ومقدار نفاذه فى مذهب ابن عربى .

هذه الأسباب الأربعة هى التى دفعت ابن تيمية دفعا إلى مهاجمة القائلين بالاتحاد والوحدة من المتصوفة . وسأتكلم الآن عن عناصر هذا النقد وهى ثلاثة عناصر :

١ — العنصر الأول هو العنصر الخطابي وهذا يبدو بوضوح في أنحاء كثيرة من نقد ابن تيمية . فكثيرا ما تراه يحاول التأثير في نفوس الناس بطرق ليست من الصدق أو المنطق في شيء ، ويضطر في أغلب الأحيان إلى الاعتماد على السب والشتم . كثيرا ما يقول « وهذا مع أنه من أعظم الكفر والكذب الباطل في العقل والدين » ، أو يحاول الإغراء فيقدم لرأيه قائلا : « والذي عليه أهل السنة والجماعة وعامة عقلاء بني آدم من جميع الأصناف » . ويحاول في جملة أنحاء من نقده إظهار ما في التصوف من عناصر مسيحية وذلك كيما يجعل الناس تزهد فيه ، وتعتقد في أهله الكفر ، ويشعرون بالكراهية نحوه مثل كراهيتهم للعقائد المخالفة للإسلام . فمثلا تراه يعلق على بيتي الحلاج .

« سبحان من أظهر ناسوته
سر سنا لاهوته الثاقب »
« حتى بدا في خلقه ظاهرا
في صورة الآكل والشارب »

بقوله : « فهذه قد تعين بها الحلول الخاص كما تقوله النصارى في المسيح » ، وهذا الكلام حين يكون في معرض البحث والدراسة لهذه الطائفة يكون معقولا إلى حد ما ، وحتى حينما يقوله رجل كما سينيون في كتبه نشك في مقدار صدقه . أما إذا جاءت في معرض ؛ النقد فلا معنى لها إلا مجرد محاولة التجريح ، خاصة ، وأن موقف الإسلام من هذه النقطة بالذات في المذهب المسيحي مناقضة على الإطلاق .

٢ — أما العنصر الثاني فهو العنصر الديني فتجده في حلوله التي يقدمها لمعظم المشاكل يعتمد على وجهة النظر الدينية بمفردها ويتكئ عليها مسلما بها في إذعان ، وبغير مناقشة . وهذا الموقف محسوس منذ بدأ نقده حتى ليمكن القول بأنه : كان يتهرب من المناقشة الموضوعية ويلتصق التصاقا بالنظرية الدينية التي يسلم بها كل إنسان مضطرا تحت تأثير الخوف : إما من الله أو من السلطة الحاكمة . ولنضرب مثلا بمشكلة الخير والشر ؛ فأصحاب الوحدة والاتحاديون يقولون لهذه المشكلة تفسيرا لا يضع من قيمة الشر ، ولا يحط من قدر الأفعال المنكرة بوصفها داخلة ضمن النطاق الإلهي : وكان أغلبهم يحتج بالقدر على المعاصي ويجد مبررا لأعماله من هذا الطريق . ويرد ابن تيمية عليهم قائلا : « إذ لا يمكنه أن يجعل القدر حجة لكل أحد ؛ فان ذلك مستلزم الفساد الذي لا صلاح معه ، والشر الذي لا خير فيه . إذ لو جاز أن يحتج كل أحد بالقدر لما عوقب معتد ، ولا اقتص من باغ » . وهذا الرد بطبيعة الحال ديني خاص ولا يمكن مجال

أن يقنع واحدا لا يؤمن بالثواب والعقاب الآخروبين: وحينما يريد أن يجيب إجابة معقولة على هذه المشكلة يدخل فى كلام لا معنى له أو هو بعينه الذى يرد عليه كقوله: «فالأمر الكونى ليس هو أمرا للعبد أن يفعل ذلك الأمر؛ بل هو أمر تكوين لذلك الفعل فى العبد أو أمر تكوين لكون العبد على ذلك الحال، ثم يتبعه بمقولة دينية: «فهو سبحانه هو الذى خلق الانسان هلوعا: إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا، وهو الذى جعل المسلمين مسلمين كما قال الخليل:

(ربنا، واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) فهو سبحانه جعل العباد على الأحوال التى خلقهم عليها، وأمره لهم بذلك أمر تكوين بمعنى أنه قال لهم: كونوا كذلك فيكونون كذلك». ويقول بعد هذا كلاما طويلا يختمه بهذه العبارة الصريحة: «وليس فى القدر حجة لابن آدم، ولا عذر بل القدر يؤمن به ولا يحتج به، والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين، متناقض، فإن القدر إن كان حجة وعذرا لزم أن لا يلام أحد ولا يعاقب ولا يقتص منه، وحينئذ فهذا المحتج بالقدر يلزمه إذا ظلم فى نفسه وماله وعرضه وحرمته أن لا ينتصر من الظالم، ولا يغضب عليه، ولا يذمه. وهذا أمر ممتنع فى الطبيعة لا يمكن أحداً أن يفعله؛ فهو ممتنع طبعا محرم شرعا. ولو كان القدر حجة وعذرا لم يكن إبليس ملوما معاقبا، ولا فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الكفار». الخ

هذا التعليل الذى يسوقه ابن تيمية (ص ٨٩):

٣ — والعنصر الثالث هو العنصر الفلسفى والمنطقى: والحق: يقال إن ابن تيمية وإن كان كارها للفلسفة ومندذا بها فى كل مناسبة لعلمه بأن كثيرا من أفكار الوحدة والاتحاد إنما جاءت من اليونان (راجع ص ١١٣ (١) دائرة المعارف الإسلامية) فإنه كان عقلية خصبة وقوية فى نفس الوقت. ولذلك يقول عنه ماسينيون (فى ص ٣٨٦ ج ١ من كتاب الحلاج) فى مسألة الحلاج: يعد ابن تيمية رجل الشرع الوحيد الذى اتخذ موقفا منطقيا متماسكا: وهذا صحيح إلى حد كبير؛ فإننا نجد ابن تيمية يعقد فصولا برمتها من الرسائل التى ينقد فيها الاتحاد والوحدة لبحث فكرة فى المنطق أو معالجة موضوع من موضوعاته الفكرية واللغوية معا:

أنظر مثلا حينما يحاول ابن تيمية أن يكشف الضعف فى القول بوحدة الوجود من طريق إثبات خطأ القضية: «أن الوجود واحد»، فهو هنا منطقى يحاول أن يظهر الخطأ العقلى فى فهم حكم من الأحكام. هو يذهب بعيدا عن التفسيرات المختلفة التى تتعلق بهذه

النقطة ويتحامى عن صلة الفكرة بجملة المذاهب التوحيدية ويأخذ فى تحليل القضية البسيطة التى تحكم على الوجود بأنه واحد .

وهذا ليس غريبا كما قد يبدو لأول وهلة عن روح ابن تيمية . فهو فى كثير من مواضع نقده يأخذ فى الإبانة عن معرفته بأصول المنطق ، وقواعد الاستدلال . ويترك النقطة الرئيسية التى يتحدث فيها كيما ينساق بالقارىء إلى بحوث منطقية ولغوية صرفة . ولهذا نجده علاوة على جملة ما هاجم به الصوفية ، وأصحاب الوحدة منهم خاصة ، يبذل عناية شديدة بالناحية العقلية فى أساليب كتابهم وإذا استطعنا بسهولة أن نجد عناصر خطابية أو عناصر فلسفية ، أو عناصر دينية فى أسلوب ابن تيمية النقدى ؛ فإننا سنكون بنفس السهولة قادرين على اكتشاف عناصر منطقية خالصة فى طريقة مهاجمته لهؤلاء القوم . وهو إذ يفعل هذا ، نراه يرتكن على نقده لعدة من أهم القضايا التى يرتكز عليها مفهوم الوحدة الوجودية عندهم من هذا مثلا : « الكثرة وهم » فهذه قضية من وضع « ابن سبعين » على الخصوص وهو إذ قام بوضعها فإنما جعلها فى مقابل قول المسلمين : « لا إله إلا الله » ، وابن تيمية فى عرضه لنقد هذه القضية كان مرتكنا على فطرة تكاد تكون قريبة الشبه من بعض أصحاب المنطق الحديث ، فهو يعمل حسابا للذات الإنسانية حين تحكم بوصفها العنصر المدرك فى هذا الوجود . يقول : « هذا تناقض ، فإن قوله « وهم » يقتضى متوهما ، فإن كان المتوهم هو الوهم ، فيكون الله هو الوهم ؛ وإن كان المتوهم هو غير الوهم فقد تعدد الوجود . وكذلك : إن كان المتوهم هو الله فقد وصف الله بالوهم الباطل ، وهذا مع أنه كفر ، فإنه يناقض قوله : الوجود واحد ، وإن كان المتوهم غيره ؛ فقد أثبت غير الله ، وهذا يناقض أصله . ثم متى أثبت غيراً لزمت الكثرة فلا تكون الكثرة وهما بل تكون حقا . (ص ٧٨ ج ١ م . ر . م .) .

فالقول بأن الكثرة وهم فيها خطأ منطقى يلاحظ إذا ما قمنا بتحليل معنى كل من هاتين اللفظتين . فكلمة الوهم تقتضى الواهم . وما دام هناك واهم فلا يمكن أن يكون هو نفسه الله . إذن فهناك شىء آخر غير الله وهناك أكثر من وجود واحد .

والمهم هو أن نعرف الآن أن ابن تيمية لم يكن قويا كل القوة فى هذا الجانب لأحد أمرين : إما رغبته فى تشويه صورة التصوف وإما جهله ، أو خطؤه فى فهم بعض آراء أصحاب الوحدة والاتحاد والحلول والفروق الدقيقة فيما بينها . فكثيرا ما نراه يخلط بين

أشياء ما كان يخلط بينها لو صدق النية ، أو لو أحسن الفهم .

أنظر مثلا تعليقه على بيتى ابن الفارض :

وشاهد إذا استجليت ذاتك من ترى
بغير مراء فى المراء الصقيلة
أغيرك فيها لاح ، أم أنت ناظر
إليك بها عند انعكاس الأشعة

فهذا التمثيل فى نظره فاسد لسببين :

أولا : لأن الناظر فى المرآة مثال نفسه فيرى نفسه ويرى المرآة ، ولا يمكن أن يرى نفسه بغير أن تتوسط المرآة .

وثانياً : لأن هذه المرآة لا بد أن تكون خارج نفسه فيرى نفسه ، أو مثال نفسه فى شىء سواه ، وإذا كان الأمر على هذا النحو فثمت تناقض ظاهر لأن الكون عندهم كما يقول : ليس فيه غير ولا سوى ، فليس هناك مظهر مغاير للطبيعة ، ولا مرآة مغايرة للرائى ، (ص ٨٧ م . ر . م . ج ١) .

فالواقع أن ابن الفارض لم يكن من أصحاب الوحدة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وكل ما تدل عليه أقواله ، هو أنه قد أفنى نفسه فى حب الله ، وعن كل ما سوى الله ، فلم ير - بالتالى - فى الوجود غيره ، وهذه وحدة شهود لا وحدة وجود ، وفرق بين فيض العاطفة وشطحات الجذب ، وبين نظرية فلسفية فى الإلهيات ... أى أن ثمة فرقا بين الحلاج صاح الذى فى حالة من أحوال جذبه بقوله : « أنا الحق » أو ابن الفارض الذى أفناه حبه لمحبوبه عن نفسه ، فلم يشعر إلا بالاتحاد التام به وبين ابن عربى الذى يعبر فى صراحة لا مواربة فيها ولا لبس لا عن وحدته هو بالذات الإلهية ، ولا عن فنائه فى محبوبه ، بل عن وحدة الحق والخلق ، إذن لم يكن لمذهب وحدة الوجود وجود فى الإسلام بصورته الكاملة قبل ابن عربى كما يقول الدكتور أبو العلا عفيفى (ص ٢٥ فصوص الحكم) ، وابن الفارض ليس إلا من أصحاب الاتحاد الذين يفترضون الثنائية مقدما ، فالاتحاد بهذا المعنى يتضمن وجود كائنين يصيران شيئا واحداً .

ولنضرب مثلا آخر من نقده لابن عربى : فهو يزعم أنه يثبت الذات ، ويقول بتجليها عند المشاهدة والمكاشفة ، فى حين أنه يحكم بعكس ذلك ، ويأتى بدليل على تناقضه فى هذا من قوله :

ما غبت عن قلب ولا عن عين
ما بينكم وبيننا من بين

فيعلق على هذا البيت بقوله : حتى لو تغاضينا عن هذا التناقض الظاهر فى أحكامهم ، فإننا

فى البيت، أو فى هذا المعنى الذى يجىء به الشاعر تكون بإزاء قول يقتضى المغاير، أى أن يغاير المخلوق خالقه وأن يكون المخاطب غير المخاطب والشاهد غير المشهود. ويذهب فى تفصيله لرأيه قائلا «ما بينكم وبيننا من بين» فيه إثبات ضمير المتكلم وضمير المخاطب وهذا إثبات لاثنين وإن قالوا مظاهر ومجال، قيل: فإن كانت المظاهر والمجالى غير الظاهر المتجلى فقد ثبتت الثنائية وبطل التعدد، وإن كان هو إياها فقد بطلت الوحدة فالجمع بينهما تناقض (ص ١٠١ جـ ٣ م ر م) والواقع أن هذه المغايرة لا قيمة لها لو فطن ابن تيمية لمعنى البيت فهما صحيحا فأية مغايرة تلك التى تكون بين كائنين لكل منهما نفس المكان والزمان، فكلمة «ما» فى أول البيت حددت الزمان وكلمة بين حددت المكان، ولم يعد من الممكن الفصل بين الحق والخلق بهذا المعنى على الرغم من التفرقة المعنوية الظاهرة بين كل منهما. فالشيئان اللذان يحتلان مكانا واحدا وزمانا واحدا لا يمكن إلا أن يكونا شيئا واحدا، وبالتالى نعرف أنه لا تناقض هناك فى كلام ابن عربى فاذا كان للعلوم الفلسفية أثرها فى تفكير شيخ الإسلام ابن تيمية - كما يقول مصطفى عبد الرازق (ص ١٢١ فيلسوف العرب والمعلم الثانى) فإن تفكيره أحيانا لا يستوفى التمحيص الفلسفى».

وهناك نقطة هامة فى الاستدلال القرآنى أغفلها ابن تيمية إغفالا تاما وهى أن الآيات التى كان يستشهد بها من حين لحين يمكن أن يوجد لها مقابل يؤيد مذهب الصوفية تأييدا كليا وجزئيا، وذلك راجع بطبيعة الحال إلى ما فى الشريعة من ازدواج كما يقول جولد تسهير، فمن العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهبا عقيديا متجانسا أو نشتق جانبا واحداً فى تأييد مطلق لتيار معين، والآيات والأحاديث التى يستشهد بها الصوفية والتى تؤيد أقوالهم أكثر من أن تحصى وأذيع من أن تحتاج لتعريف جديد، وبهذا نعرف أن ابن تيمية لم يكن حريصا كل الحرص، وأن السلاح الذى استخدمه لحرب القائلين بالاتحاد والوحدة لم يحسم فى الأمر تماما؟

عبد الفتاح الديدى

ضجة مفتعلة ينكرها الدين والواقع

للأستاذ محمد الغزالى

تقبعت بشىء غير قليل من الدهشة اللغط الطويل الذى احترف إثارته بعض الناس حول ما يسمى بقوانين الأحوال الشخصية .

وأريد أن أنفى أولا وجود هذه التسمية فى ميدان الفقه الإسلامى وأن أرفض الإيحاء المقترن بها .

فشرائع الأسرة ليست أحوالا شخصية تهم أصحابها وحدهم من حقهم أن يبقوها إذا شاءوا أو يغيروها إذا شاءوا .

وإذا كان هذا العنوان اصطلاحا فنياً محضاً فهو ليس من وضع علماء الإسلام ، ويبدو أنه مترجم عن اللغة الفرنسية ولاوجود لكلمة قوانين الأحوال الشخصية فى كتبنا الفقهية كلها .

وندع هذا الاستطراد إلى موضوع حديثنا وهو ما شرع الله فى الزواج والطلاق والحضانة والميراث . فنقول فى حسم . إن أى تفكير فى تغيير هذه الشرائع مرفوض جملة وتفصيلا وأن كلمة « تطوير » قوانين الأحوال الشخصية التى لهج البعض بترددادها ليست غير احتيال منكور للانسلاخ من أحكام الإسلام التى نطقت بها النصوص ، وانعقد على تفسيرها الإجماع .

فالزواج بالواحدة إلى الأربع مباح يقيناً لمن يستطيع العدل .

والطلاق من الرجل لا يمكن لأحد أن يسلبه إياه .

وللمرأة نصف نصيب الرجل فى الميراث .

والرجل هو رب البيت والقوام عليه والراعى الأكبر لأولاده .

وما يطلبه النساء اليوم من تغيير لهذه المبادىء الإسلامية ضرب من الغرور يجب أن يقمع دون هوادة .

وسنرى عند التأمل فى أحوال المجتمع المصرى أن المزاعم حول انهيار الأسرة المصرية بسبب إباحة التعدد والطلاق مكذوبة من أساسها .

وأن الأسرة المصرية أشرف سيرة وأنقى جواً من الأسرة الأوربية والأمريكية وأنه - إذا كان هناك ما يعكر صفو الأسرة - فهو سلوك المنحلين الذين أطرحوا تعاليم الدين ظهريا ويريدون إغراء غيرهم بالمروق منها والتمرد عليها .

أما الأمة فهى تود لو عاشت ظاهراً وباطناً فى حدود دينها العظيم .

لقد سمعنا كلاما كثيراً حول إساءة الناس لحق التعدد ، ولإباحة الطلاق . .

ولا نرد على هذا الكلام بأكثر من ذكر الإحصاءات الرسمية التى تنطق بعكس ما يدعيه هؤلاء ... وإلى القراء الكرام الجدول المثبت فى صفحة ٣٠ من الكتاب الذى أصدرته مصلحة الإحصاء والتعداد ١٩٦٠ — ١٩٦١ .

جدول ١٧ – عقود الزواج وإشهادات الطلاق

ونسبتها لكل ألف من السكان

السنوات	عقود الزواج: العدد	عقود الزواج: النسبة ٪	إشهادات الطلاق: العدد	إشهادات الطلاق: النسبة ٪
١٩٤٥	٢٧٥٦٨٦	١٤٫٩	٧٩٩٩١	٤٫٣
١٩٤٦	٢٨٧٩٢٩	١٥٫٣	٨٠٤١٥	٤٫٣
١٩٤٧	٢٦٠٥٨٦	١٣٫٧	٧٥٤٠٤	٤٫٠
١٩٤٨	٢٧٢١٢٨	١٤٫٠	٧٦١٥٤	٣٫٩
١٩٤٩	٢٨٠٤٦٣	١٤٫١	٧٣٨٢٧	٣٫٧
١٩٥٠	٢٧٢٧٩٥	١٣٫٤	٧٤٨٨١	٣٫٧
١٩٥١	٢٥٢٠٢٦	١٢٫١	٧٥٢٧٧	٣٫٦
١٩٥٢	٢٣١٨٤٦	١٠٫٨	٦٩٠٣٨	٣٫٢
١٩٥٣	٢١٦٢٦٨	٩٫٨	٦٢٢٩٦	٢٫٨
١٩٥٤	٢١٩٠٠٦	٩٫٧	٥٩٥٨٠	٢٫٦
١٩٥٥	٢٢٦٣٦٤	٩٫٨	٦٠٣٣١	٢٫٦
١٩٥٦	٢٢٢٠١١	٩٫٤	٥٧١٨٧	٢٫٤
١٩٥٧	٢٤١٤٣٦	١٠٫٠	٥٩٩٤٨	٢٫٥
١٩٥٨	٢٢٨٠١٨	٩٫٢	٦٠٠٤٤	٢٫٤

من هذه الأرقام يتضح لكل ذى بصيرة :

أولا : أن عدد عقود الزواج فى تناقص مستمر برغم أن الزيادة فى عدد السكان مطاردة . لقد زاد عدد السكان خلال هذه السنوات الأربع عشرة نحو ثمانية ملايين من السكان .

وكان ينبغى أن يصل عدد عقود الزواج إلى أربعمائة ألف ... لا أن يهبط العدد إلى مائتى ألف . فالأزمة المخوفة هى قلة الزواج لا كثرته كما يرجف النساء وأشياعهن من الرجال المخدوعين ...

ثانياً : إن إشهادات الطلاق التي تمت سنة ١٩٥٨ وعددها ستون ألفاً يجب أن تذكر الحقائق الآتية ، أنها تشمل الطلاق قبل الدخول ، وبعده ، والطلاق الرجعي والبائن ، والطلاق بالتراضي أو بحكم القاضي ، وأن التصفية النهائية لهذه الأحوال المتباينة تظهر في الجدول المثبت صفحة ١٣ من الكتاب الرسمي السابق لمصلحة الإحصاء والتعداد .

جدول ٥ — تعداد السكان حسب الحالة الزوجية والنسبة المئوية لكل حالة إلى الجملة

(الأرقام بالألف)

الحالة الزوجية	١٩٤٧				١٩٣٧				١٩٢٧			
	ذكور	النسبة ٪	إناث	النسبة ٪	ذكور	النسبة ٪	إناث	النسبة ٪	ذكور	النسبة ٪	إناث	النسبة ٪
لم يتزوج أبدا	١٢٠٢	٢٣	٦٦٢	١١	١٠٢٨	٢٤	٤٩٧	١١	٨٩٨	٢٣	٣٦١	٩
متزوج	٣٦٢٨	٧١	٣٧٦٦	٦٥	٣٠٩٧	٧٢	٣١٨٠	٦٧	٢٧٧٧	٧٢	٢٨٩٦	٦٨
مطلق	٦٩	١	١٢٧	٢	٦٠	١	٩٧	٢	٦٦	٢	١٢٠	٣
أرمل	١٣٨	٣	١١٣١	٢٠	١٢٩	٣	٩٣٢	٢٠	١٠٥	٣	٨٧٠	٢٠
غير مبين	٨٨	٢	٩٧	٢	١٠	—	٧	—	١٢	—	٩	—
الجملة	٥١٢٥	١٠٠	٥٧٨٣	١٠٠	٤٣٢٤	١٠٠	٤٧١٣	١٠٠	٣٨٥٨	١٠٠	٤٢٥٦	١٠٠

(١) لا يشمل الذكور دون الثامنة عشرة ، والإناث دون السادسة عشرة .

من هذه الأرقام يتبين أن نسبة المطلقين الذين تخلوا عن تكوين الأسر نهائيا إلى مجموع المتزوجين أرباب الأسر هي ١ : ٧٢ .

فهل هذا هو الباعث على الصراخ والعويل من فوضى الأحكام الإسلامية كما يفترى هؤلاء الكاذبون على دين الله ودنيا الناس .

إن لغة الأرقام تكشف عن الفراغ الهائل في منطق المتهجمين على « قوانين الأحوال الشخصية » كما يسمونها .

وتبين أن هناك بواعث أخرى كامنة في النفوس هي سر اللغط الذى يتجـــدد بين الحين والحين ضد تعاليم الإسلام في هذا المجال .

ولقد ألقيت نظرة على بعض التفاصيل في إشهادات الطلاق فوجدت أن ثلاثة أرباع المطلقين لا أولاد لهم البتة . لأنهم إذا طلقوا قبل الدخول أو بعده والزوجة عقيم . أو لما تلد .

وقلت للمسئول في وزارة الشئون إن هذا الإحصاء قاطع بفساد الادعاء أن الطلاق سبب الأسباب في تشرد الطفولة ...

فقال : لا تنس أن الربع الباقي في حالات الطلاق يخلف وراءه ثلاثين ألف ولد .

فقلت : هل المطلقون الذين لهم أولاد صعاليك جميعا . ففيم إذن قضايا النفقة والحضانة التي تشغل المحاكم .

إن الطلاق أبغض الحلال إلى الله ، وما نريد أن يلجأ إليه أحد إلا عند اليأس من صلاح ذات البين .

لكن القول بأن الطلاق سبب أول أو ثان أو ثالث لتشرد الأطفال في مجتمعنا جرأة مستنكرة وتخبط شائن .

ونعاود السؤال : إذا كان عدد الذين يتزوجون أكثر من واحدة قرابة ٢ ٪ وعدد الذين يطلقون يهبط بعد التصفية التي كشف عنها الإحصاء إلى مثل هـذه النسبة ففيم عويل النساء ؟ .

وفيم فزع بعض الكتبة الذين طالت ألسنتهم في الإسلام وتعاليمه ؟ .

ثم لماذا لم نسمع لهؤلاء صوتا يضيق بإباحة الزنا في الظروف التي حددها القانون ؟ .

إن الجؤار هناك والصمت هنا دلالة ضمير حائر ونصيحة مغشوشة ومن ثم فنحن نلفت الأنظار إلى ما ينطوى عليه هذا التناقض الغريب .

قال لي بعض المتحمسين لتقييد الطلاق : إن سهولة الطلاق في الإسلام يسرت لمن يبغضون زوجاتهم من النصارى أن يتركوا دينهم ويدخلوا في الإسلام حتى يتخلصوا بالطلاق من الزوجات اللاتي يكرهون .

قلت كأن التشريع المقترح محاولة لمنع هؤلاء الفارين من الجحيم إلينا ! .

لو أن هناك عقلا راشداً لاتخذنا هذا المسلك دليلا على أن سلب الرجل حق الطلاق مزلقة لسلبه دينه .

إن عشرات الأمم المسيحية احترمت الواقع وأباحت للرجل الطلاق بعيداً عن التعاليم المتوارثة بين كهنة الكنيسة فكيف نفكر نحن أن نضع أيدى المسلمين فى الأغلال التى طرحها غيرهم ؟ .

وماذا يقع لو قيدنا الطلاق كما يقترح هؤلاء القاصرون ؟ .

أما يترك نفر من المسلمين دينهم فراراً من الزوجة التى لا يطيقون ؟ .

وبذلك تكون أولى بركات القانون المراد منه أن نعوق غير المسلمين عن الإسلام ، وأن ندفع بعض المسلمين إلى الارتداد حين يعجزون عن ترك زوجاتهم وذلك كله تحت عنوان إرضاء المرأة أو حماية الأسرة !!! .

إن هـذا التشريع ـ لو صدر ـ فسيكون ذريعة إلى مفاسد هائلة ، وجرائم فاتكة .

وإنا لموقنون أن أولى الأمر لن ينخدعوا بهذا الضجيج المصطنع مهما تتابع الصياح واستطال الإلحاح .

بل أن أملنا يتجاوز التزام تعاليم الإسلام بشأن الأسرة إلى إشاعة تعاليم الإسلام فى أرجاء المجتمع كله فتتناول صنوف المعاملات ، وتنفخ روح الشرف والحق فى قوانين العقوبات وسائر التصرفات .

ويومئذ تكون بلادنا قد نجحت فى صد الاستعمار الثقافى وعادت سيرتها الأولى تضيء الطريق للحائرين .

محمد الغزالى

رجل الدهر

إنى مخبركم عن صاحب لى ملأت لى منه يدى ، وطويت على حبه نفسى ، وجعلته عنى من بين صحبى . فقد كان بصيراً بورد الأمور وصدرها ، ويعرف من مطلع كل أمر ما يكون مقطعه ، وتقوم أدنى فراسة منه مقام البينة ، ويصيب بالظن ما يخطىء غيره بالعيان .

كان أكتم ما يكون للسر إذا باحت الألسنة من الأسرار بمصونها ، وانفرجت صدور الثقات عن مكنونها ، كان أبيا لو خطبت له إمارة على أن يكون مهرها ذل ساعة ، لآثر أن يزف إلى قبره على أن تزف إليه الإمارة . كان صلب العود على النوب ، إذا رماه الدهر بخطب يبلوه ، بلى منه الخطاب بالنفس المرة والخلق الوعر ، والصدر الذى تضل فى ساحة صبره كل نائبه .

صادق عنبر

إلى أي مدى تتغير الأحكام الشرعية بتغير الأزمان؟

للأستاذ بدر عبد الباسط

— ٦ —

المصالح المرسلة :

انتهيت فى المقال السابق إلى تعريف المصالح المرسلة ، والفرق بينها وبين المصالح الملغاة كما بينت آراء العلماء فى جواز الاحتجاج بها ووجهة نظر كل منهم والذى نبحثه اليوم هو الإجابة عن هذا السؤال ، هل المصالح المرسلة دليل مستقل ، ويتبع هذا بيان المدى الذى نعتمد فيه على المصالح المرسلة فى التشريع والفتوى .

• • •

وقبل الإجابة على هذا السؤال يحسن أن نعيد النظر فيما ساقه العلماء من أدلة تبين وجهة نظرهم فى جواز الاحتجاج بها ؛ وإذا نحن تجردنا عن الهوى وقارنا بين الآراء المختلفة ونظرنا فى أدلتهم وجدنا أن المانعين أخذوا بالأحوط فى أمر التشريع وابتعدوا جهد الطاقة عن فتح باب التشهى فى الأحكام ؛ وقالوا : إن الشريعة بأصولها العامة ونصوصها المرنة فيها غنية عن فتح هذا الباب الذى لا يدرى أحد إلى أية نهاية ينتهى بنا ، ولا سيما فى هذا العصر الذى لا يأمن فيه ذو دين على دينه والذى كثر فيه أدعياء الاجتهاد الأخرق والمفتون الماجنون والمتاجرون بالدين إما رغبة أو رهبة .

وأما الذين أجازوا الاجتهاد فى التشريع والفتيا على المصالح المرسلة فوجهة نظرهم تتلخص فى أن عدم الاعتداد بها جمود قد يحمل الناس على النفور من الشريعة جملة وتفصيلا ، وفى هذا من الضرر ما يربو على الضرر الذى ساقه المانعون .

والذى تطمئن إليه نفسى أن فى كلا القولين مغالاة ، وأنه فى الإمكان أن نجتمع على كلمة سواء ؛ وذلك لأن من دقق النظر فيما نقل عن السلف من مسائل ردها بعض العلماء إلى القول برعاية المصالح نجد أن الشارع اعتبر تلك المصلحة بأى وجه من وجوه الاعتبار التى تحدثت عنها تفصيلا فى المقال الرابع وإجمالا فى المقال الخامس ؛ ولذا يبدو لى أن المصالح ليست منقسمة إلى ثلاثة أقسام معتبرة وملغاة ومرسلة بل هى منقسمة إلى قسمين :

معتبرة وملغاة ، وإن المصالح المسماة بالمصالح المرسلة لابد وأن يكون لها شاهد من الشرع ولو فى الجملة كأن يرتب الشارع حكما على مصلحة من جنس هذه المصلحة إلى غير ذلك من وجوه الاعتبار ، وأما القول بأن هذه المصالح ليس لهـــا شاهد أصلا من الشرع بالاعتبار أو الإلغاء فهذا ما ينقضه الواقع ؛ ولنتتبع المسائل التى نسبت إلى الصحابة والتابعين وقيل إنها مردودة إلى المصالح المرسلة لنرى أهى - حقا - لا شاهد لها من الشرع .

١ — جمع الصديق رضى الله عنه الصحف التى كان مدونا بها القرآن الكريم ، وهذا الأمر أبعد ما يكون عن المصالح المرسلة ؛ فهذا يرجع إلى أصـل ثابت بالنص من الكتاب والسنة أليس من أصـول الدين المحافظة على الكتاب بأية وسيلة من الوسائل « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (١) « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشـــتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون » (٢) ، وهذه الآية وإن كانت فيمن سبقنا من الأمم ولكن فيها تحذير لنا من الكتمان وعدم الإبلاغ ؛ والآيات فى هذا المقام كثيرة كلها تحض على عدم تحريف كلام الله ووجوب إبلاغه والمحافظة عليه ، ولما كان جمع الصحف خشية الضياع هو الوسيلة إلى ذلك لذا رأى الخليفة الأول رضى الله عنه وجوبه فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وإذا كان رضى الله عنه تردد فى ذلك فهو تردد المؤمن المتخوف حتى إذا استبان له وجــه الحق أقدم إقدام المؤمن المتثبت ؛ وهذا هو خلق المؤمن لا يقدم على الأمر متهوراً ولكنه يقدم عليه متثبتاً .

٢ — استخلافه رضى الله عنه لعمر رضى الله عنه .

وهذا - أيضاً - يرجع إلى أصل ثابت بالنص وهو اتقاء الفتنة : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » (١) ، والظرف الذى استخلفه فيه كانت الدولة الإسلامية الناشئة تحارب أكبر دولتين عرفهما التاريخ القديم وهما فارس والروم ؛ فهل يترك الأمر ليفتح باب الفتنة فى أخطر مراحل التاريخ على أن الخلافة فى نهاية الأمر مردها إلى البيعة ؛ ولم يكن هـــذا الاستخلاف من أبى بكر إلا نصحا للأمة باختيار من يرى أنه قادر على حمل هذا العبء

(١) سورة الحجر الآية ٩ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨٧ .

(١) سورة الأنفال الآية ٢٥ .

فى هذا الوقت ؛ ولو كان فى هذا الاستخلاف شهوة لنفسه لكان له فى ولده أو أهل بيته وقرابته من يكل إليهم هذا الأمر الخطير ؛ ولقد كان الخير لهذه الأمة ما أقدم عليه أبو بكر فتاريخ عمر مفخرة لكل مسلم بل هو مفخرة للإنسانية كلها .

٣ — حرب أبى بكر رضى الله عنه لمانعى الزكاة ؛ وماذا فى ذلك من مصلحة مرسلة ؟ !! أليست الزكاة ركناً من أركان الإسلام وعلى ولى الأمر أن يراقب الأمة فى تنفيذ حكم الله ، وإلا فما هى وظيفته ، أهى أبهة الحكم ومظاهر السلطان ، ثم ألم يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجبى الزكاة من المسلمين « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » [1] .

٤ — إمضاء عمر رضى الله عنه الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثا وقد كان واحدة .

وهذه المسألة — أيضا — لها شاهد من الشرع ؛ فقد أسند عبد الرازق عن عبادة ابن الصامت إن أباه طلق زوجته ألف تطليقة فانطلق عبادة فسأل النبى صلى الله عليه وسلم : فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « بانت بثلاث فى معصية الله تعالى ؛ وبقى تسعمائة وسبع وتسعون عدوانا وظلما إن شاء عذبه بها وإن شاء غفر له » .

وفى بعض الروايات من حديث طلاق ابن عمر لامرأته فى الحيض أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله « أرأيت لو طلقتها ثلاثا أكان يحل لى أن أراجعها فقال : لا كانت تبين منك وكانت معصية » .

فأنت ترى أن ما أخذ به عمر فى أمر الطلاق الثلاث له أصل عن صاحب الشرع ؛ ولعل كثرة التطليق بالثلاث بلفظ واحد فى عهده جعله يلتمس دليلا فيه شىء من التشديد والتأديب حتى وجده ؛ وصحة خبر عند أحد المجتهدين وعدم صحته عند غيره أمر كثير الوقوع ؛ على أن قوله تعالى : « الطلاق مرتان » [1] ، يحتمل من وجه بعيد أن الطلقتين مجتمعتان أو متفرقتان ؛ وعمر رضى الله عنه أخذ بهذا الاحتمال نظراً لما رآه من المصلحة ، ولا سيما بعد أن سقته الحديثين المتقدمين ، ولهذا رأينا من جاء بعده من الخلفاء أنفذوا رأيه ؛ وذلك لما رأوه من أدلة تشهد له عن صاحب الشرع .

وهذا الذى قررناه يؤكد ماسبق أن قررته فى أوائل هذا البحث أنه يجوز الأخذ بالرأى المرجوح — إن لم يكن ساقطا — إذا كان الأخذ به

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٣ .

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٩ .

يحقق مصلحة راجحة أو يدفع ضرراً أعظم .

٥ — منعه رضى الله عنه المؤلفة قلوبهم من أخذ الزكاة .

وهذا - أيضا - ليس من قبيل المصالح المرسلة بل هو أعمال للنص ؛ وذلك لأن الذين حرمهم من سهمهم فى الزكاة وهم : الزبرقان بن بدر ، والأقرع بن حابس وجماعتهما لم يكونوا يستحقون الزكاة بذواتهم وإنما استحقوها بصفتهم من المؤلفة قلوبهم ومن المعروف عند من له خبرة بأصول الفقه أنه تعليق الحكم بمشتق يؤذن بعلية المصدر ؛ وهو - هنا - التأليف ؛ وهؤلاء قوم أسلموا من عهد رسول الله وأعطاهم الرسول صلوات الله وسلامه من سهم المؤلفة قلوبهم لحاجة الدولة إلى التأليف وحاجتهم هم إلى التثبيت ؛ وحينما منعهم عمر كانت الدولة الإسلامية تضرب كسرى على أم رأسه كما تضرب قيصر على قفاه ، فهل هى فى حاجة إلى تأليف أمثال الزبرقان والأقرع ولا سيما وقد مضى على دخولهم الإسلام مدة كافية يتذوقون فيها الإيمان من غير أن يكون لهم حافز من مال ؛ ولو أن عمر رضى الله عنه وجد فى عهده داع إلى التأليف لكان أول من يعطيهم من مال الزكاة ؛ فمنع المؤلفة قلوبهم لم يكن استصلاحا وإنما كان تطبيقا دقيقاً للنص الشرعى .

٦ — وضع الخراج على الأرض المفتوحة وعدم توزيعها على الغزاة الفاتحين .

وقد أغنانا رضى الله عنه مؤونة الرد على من يقول : إنه فعل ذلك تشهيا أو استصلاحا فقد استدل على وجهة نظره بآيات سورة الحشر التى وردت فى أمر الفىء من الآية السابعة إلى الآية العاشرة وفيها « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » وفى الآية العاشرة « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » ولهذا كان يقول لمن عارضه : وماذا نترك للذرارى ... ؟ إلى أن واجههم بآيات سورة الحشر فنزلوا على رأيه نزولا على حكم الله لا على حكم عمر .

٧ — تدوين الدواوين وإنشاء السجون .

وهذا أيضا - له شاهد من الشرع فإن حفظ مال الأمة وإعداد القوة من مقاصد الشريعة وتدوين الدواوين وسيلة إلى حفظ الأموال ومعرفة القادرين على الجهاد ، وكما قلنا : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ؛ وإنشاء السجون نفى من الأرض ؛ وقد شهد الشارع لهذا المبدأ

فقد قال تعالى فى شأن الساعين فى الأرض بالفساد : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض »[١] ».

٨ — نفيه نصر بن حجاج ولم يكن قد ارتكب جريمة .

وهذا - أيضا - يرجع إلى أصل شرعى وهو اتقاء الفتنة ، ولم يكن نفيه عقوبة له وإنما خشية افتتان النساء به ، ولا سيما أن كثرة من الرجال المقيمين بالمدينة كانوا غائبين فى الغزوات ، ولا شك أنه كفل له أسباب الراحة ، وهذا إجراء وقائى يقره الإسلام فإن الوقاية خير من العلاج .

٩ — تعطيل حد السرقة عام الرمادة .

وهذا - أيضا - له شاهد من الشرع ؛ فإن المجاعة شبهة قوية كافية لإسقاط حد السرقة تحقيقا لقوله صلى الله عليه وسلم « ادرءوا الحدود بالشبهات » .

١٠ — جمع عثمان بن عفان رضى الله للمصحف وكتابته وأمره بحرق ما سواه .

وما قلناه فى جمع أبى بكر للمصحف يقال هنا والأمر بإحراق ما عدا مصحف عثمان سد باب الفتنة وهو أصل مشروع ؛ والاحتياط الذى اتخذه عثمان عند كتابة المصحف كفيل فى صيانة الكتاب العزيز عن التحريف .

١١ — توريثه زوجة الفار وهو الذى طلق زوجته فى مرض موته حتى لا ترثه .

وهذا الحكم له شاهد من الشرع بطريق القياس على حرمان القاتل من ميراث المقتول لأنه استعجل أمرا قبل أوانه ، فنأخذ من ذلك أن من مبادئ الشريعة أن سيء القصد - متى قامت الدلائل على سوء قصده - يعامل بغير قصده .

١٢ — تحريق على كرم الله وجهه لغلاة الرافضة الذين ادعوا ألوهيته فلقبح جريمتهم وله أصل شاهد له من الشرع وهو تسميل عيون المرتدين الذين قابلوا إحسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم بقتل رعاة إبل الصدقة واستياقها ، على أن جريمة غلاة الرافضة أفحش ، ولقد لجأ رضى الله عنه إلى ذلك زيادة منه فى التبرؤ من دعواهم الكاذبة .

١٣ — تحريق الصحابة لمن ارتكبوا جريمة قوم لوط عليه السلام .

إن الذى يرجع إلى آراء الصحابة فى هذه المسألة يجدهم حريصين على الاستناد إلى نص شرعى فى هذه المسألة فقد اختلف رأيهم فى هؤلاء المجرمين نظرا لأنه لم يرد نص صريح فى تحديد

---

(١) المائدة ٣٣

عقوبة لهم ، لأن هذه الجريمة الشنعاء لم تكن معروفة في البيئة العربية حين كان ينزل القرآن . فلما اختلط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى سرت العدوى إلى المجتمع الإسلامي واختلفوا في تحديد العقوبة التي تنزل بهم فمن قائل يعاقبون بحد الزنا الجلد إن لم يكن محصنا والرجم إن كان محصنا ، لأنه انتهاك حرمة فرج آدمي محرم ، ومن قائل أنه يرمى من شاهق جبل لأن الله عاقب قوم لوط بأن قلب ديارهم فجعل عاليها سافلها « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها(١) » « فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل(٢) » .

ومن قائل بالتحريق لأن الله حرق قرى قوم لوط ، ففي سورة هود « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد(٣) » وفي قوله تعالى « وما هي من الظالمين ببعيد إشارة إلى أن التحريق جزاء من ارتكب مثل جريمتهم .

فأنت ترى أن ما فعله الصحابة مع هؤلاء كان له شاهد من الشرع .

(١) هود ٨٢ .
(٢) الحجر ٧٣ ، ٧٤
(٣) هود ٨٢ ، ٨٣

١٤ — وضع النقط وعلامات الإعراب في المصحف في عهد التابعين .

يرجع هذا إلى أصل شرعي وهو المحافظة على الكتاب من التحريف والتبديل وهو من أوائل مقاصد الشريعة ، ومقدمة الواجب والوسيلة إليه واجبة كما قررناه أكثر من مرة .

١٥ — تدوين الحديث وفتاوى الصحابة في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

هذا - أيضا - يرجع إلى حفظ الشريعة وفيه امتثال لما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه « نضر الله وجه امرىء سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها » .

ولما زال المانع من التدوين وهو خشية اختلاط القرآن بالسنة بعد أن انتشر الحفاظ في بقاع الأرض وكثرت المصاحف وأمن من اللبس كان من الواجب أن تدون السنة خشية اندراسها ، وحفظ الدين من مقاصد التشريع الأولى كما قلت آنفا .

بعد هذا يمكن أن أقرر مطمئنا أن ما يسمى بالمصلحة المرسلة لا بد وأن يكون لها شاهد باعتبار الشارع بأي نوع من وجوه الاعتبار ، وليس من الواجب أن نعتبرها بذاتها بل يكفي أن يعتبر نوعها أو جنسها ، ومن هنا أستطيع أن أجزم أن المصلحة المرسلة

ليست دليلا مستقلا ، بل هي ترجع إما إلى الكتاب والسنة أو الإجماع أو القياس مع التوسع في تطبيقه .

هذا ومن اعتبر المصلحة دليلا مستقلا أجاز أن يخصص بها عمومات الكتاب والسنة من باب أولى ، وذلك لأن دلالة العام ظنية - عند الجمهور سوى الحنفية - والمصلحة ظنية والظنى يخصص الظنى .

* * *

وبعد فإن باب الاستصلاح في الشريعة خطير جدا ، وعندى أنه - صيانة للشريعة من عبث العابثين وتبرئة لها من الجمود - لابد عند عروض مثل هذه الأحوال للفتيا أو للتقنين أن يعرض الأمر على جماعة عرفوا بالعدالة أولا وبالتعمق في فهم الشريعة ثانياً مع قوم متخصصين في دراسة حقائق هذه المسائل لمعرفة ما فيها من مضار ومنافع وأن تعقد مقارنة وموازنة صادقة بين الضرر والنفع ، فإذا اطمأنوا إلى أن ناحية النفع أرجح من ناحية الضرر يجيء دور رجال الفقه الإسلامي للنظر في هذه المصلحة من ناحية اعتبار الشارع لها ، فإن كانت مصلحة ملغاة صرف النظر عنها مهما كان فيها من نفع ، فالله أعلم بمصالح عباده من أنفسهم ، فإذا لم تكن ملغاة ، نظروا ثانية : هل لها شاهد من الشرع بأى وجه من وجوه الاعتبار ، فإن وجد هذا الشاهد ولو بعيداً أخذنا به ، وإلا رجعنا إلى قواعد الشريعة العامة وكالأصل في الأشياء الإباحة ، « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » إلى غير ذلك من القواعد الفقهية المستنبطة من تتبع أحكام الله للعباد .

ثم إن دعوى تطوير الأحكام الشرعية اتباعا للأهواء والأغراض خروج على الدين لايقره مسلم مهما ألبسناه من زخارف القول وصدق الله العظيم إذ يقول : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » [1] ؟

بدر المتولى عبد الباسط

(١) سورة المائدة الآية ٤٩ ، ٥٠ .

القدرة اللغوية عند أبي العلاء

للأستاذ كامل السيد شاهين

١ — حدث صاحب الأمالي عن أبي بكر ابن أبي حاتم عن الأصمعي، أن خلفاً الأحمر قال يوما لأصحابه: ما تقولون في بيت النمر بن تولب:

ألم بصحبتي وهم هجود
خيال طارق من أم حصن

لو كان موضع (أم حصن)، أم حفص، كيف كان يكون قوله:

لها ما تشتهي، عسل مصفى
إذا شاءت، وحواري بسمن

قالوا: لا نعلم، فقال: وحواري بلمص[1] انتهى.

ووقف أبو العلاء على هذا الخبر، وكأنه استشعر أن في سؤال خلف، وعجز أصحابه، وإفادته إياهم بالقافية المناسبة، إدلالا من خلف بالمعرفة.. فأبى عليه شيطان اللغة إلا أن يعبث بخلف وعلمه، فأدار حرف الروي في البيت الأول على سائر حروف المعجم، واستطاع أن يلائم بين البيت الثاني والبيت الأول في حرف الروي.

قال أبو العلاء بعد أن ساق حكاية خلف وأصحابه:

«ويفرع على هذه الحكاية فيقال:

لو كان مكان أم حصن، أم جزء، وآخره همزة، ما كان يقال في القافية الثانية؟ فإنه يحتمل أن يقول: وحواري بكشء، من قولهم: كشأت اللحم إذا شويته حتى ييبس، ولو قال: وحواري بنسء، لجاز، وأحسن ما يتأول فيه أن يكون من نسأ الله في أجله أي لها خبز مع طول حياة، وهذا أحسن من أن يحمل على أن النسء: اللبن الكثير الماء، وقد قيل إن النسء الخمر، وفسروا بيت عروة بن الورد على الوجهين:

سقوني النسء ثم تكنفوني
عداة الله من كذب وزور

(١) أمالي القالي، ج ١ ص ١٠٧، والحواري: الدقيق الأبيض، والخبز، واللمص: الفالوذ.

ولو حمل حوارى بفسء على اللبن أو الخمر لجاز ، لأن الحوارى تؤكل بذلك ، أى لما الحوارى مع الخمر ، وقد حدث محدث أنه رأى « بسيل » ملك الروم ، وهو يغمس خبزا فى خمر ويصيب منه » .

ثم يمضى أبو العلاء فيغير الروى إلى حرف الباء ، فيجعلها : أم حرب ، ويجيء البيت الثانى : وحوارى بصرب ، أو بإرب ، أو بكشب [1] .

ثم يغيره إلى أم صمت ، وأم شث ، وأم لج وأم شح ، وأم دخ ، وأم سعد ، وأم وقذ ، وأم عمرو ، وأم كرز ، حتى يصل إلى أواخر الحروف ، فيأتيك بأم دو ، وأم كره ، وأم شرى .

أفلست ترى أبا العلاء بهذا يتحدى خلفا ، ويزعم له أنه أعرف منه باللغة ، وأنه إذا كان خلف يستطيع أن يغير الروى فى صورة فأبو العلاء قادر على أن يغيره فى خمس وعشرين .. وأنه فى كل صورة منها لا يكتفى بوجه واحد بل يزيدك على الوجه وجهين أو أكثر .

ثم إن لنا أن نسأل : ما الذى أغرى أبا العلاء بهذه المعاياة ؟ ، أو ليس ذلك لأنه يعرف من نفسه قدرة لغوية خاصة لم تتح لكثير من مشهورى الرواة وعلماء اللغة ؟ .

ومهما يكن من شيء فمعرفة أبى العلاء باللغة يمكننا أن نستبينها فى رسالة الغفران ، وفى الفصول والغايات .. ويظهر أن هذه القدرة تهيأت له فى صدر شبابه ، لأن فى قصائده السقطيات ما يدلك دلالة واضحة على استبحار الشاعر وتمكنه .

٢ — وليست معرفة أبى العلاء باللغة معرفة قاموسية ، بل هى إلى ذلك معرفة شعور وإحساس وخبرة بأجواء الألفاظ وفوحها والقارىء لقصيدته [1] التى مطلعها :

مكة أقوت من بنى الدردبيس
فما لجنى بها من حسيس

وفيها يذكر الجنى (خيتعور) الملقب بـ (أبى هدرش) ما آل إليه أمر مكة بعد نزول القرآن ، وظهور النبى عليه الصلاة والسلام ، من بعد ما كانت مسرحا للجنان الذين يصفهم بأنهم :

بيض ، بهاليل ، ثقال ، يعا
ليل ، كرام ، ينطقون الهسيس

---

(١) الصرب بالصاد المهملة : اللبن الحامض ، والإرب : العضو من الشواء أو القديد ، والكشب : أكل الشواء .

(١) هى قصيدة نظمها أبو العلاء على لسان الجنى وفيها ضروب من الغواية التى يرتكبها الشياطين لأبناء آدم .

يرى كيف اختار قافيتها (سينا) ، لما فيها من الصفير ، ولأن لفظها من جوهر الغنة[1] ولأنها تناسب ما في حديث الشيطان من الوسوسة والخفاء الذي يورث الرهبة والمخافة ثم جاء بها ساكنة ليكون ذلك أمد في لفظها وأجرى للنفس بها ، وأظهر للصفير فيها .

ثم أشاعها في القصيدة كلها حتى تحس كأن الجو كله من حولك جو شيطاني خفي هامس غامض مريب .

وفي تسمية الجني (خيتعورا) ، وتلقيبه (أبا هدرش) ، وجعل بني الجن (بني الدردبيس) إشعار بأن لدى أبي العلاء إحساساً لغويا يهيء له وضع ألفاظ مناسبة لما بين يديه .

على أن المعاني التي تناولها أبو العلاء في هذه القصيدة من التشيطن بسبب قوي ، فهو يصف : كيف كان يغار على العروس فيختلجها بواشك الصرعة ، قبل أن تزف ، وكيف كان يزين الشاب وللشيخ أن يفرغ كيسا في الخنا بعد كيس ، وكيف كان يخرج الحسناء مطرودة من بيتها بلا سبب إلا سوء الظن ، ويغرى زوجها بأن يبت طلاقها ، حتى إذا صارت إلى غيره هاجت نفسه إليها :

تذكره منها وقد زوجت
ثغرا كدر في مدام غريس

ويتحدث عن الراهب المتبتل كيف يخدعه عن فصحه بعدما مل أكل السمك ، قال :

وتخدع القسيس عن فصحه
من بعد ما مل بالانقليس
أصبح مشتاقا إلى لذة
معللا بالصرف أو بالخفيس
أقسم لا يشرب إلا دوين
السكر ، والبازل تالي السديس
قلنا له ازدد قدحا واحداً
ما أنت أن تزداده بالوكيس
فعب فيها ، فوهي لبه
وعُـدَّ من آل اللعين الرجيس
حتى يفيض الفم منه على
نُمْرُقتيه بالشراب القليس

فأبو هدرش يخدع هذا القسيس الراهب بعد ما صام فصحه طاهرا متقشفا ، معرضا عن اللحم الحرام إلى الأنقليس (الحوت) الحلال ، وأصبح في شوق إلى الخمر صرفا أو ممزوجة ، ثم خدع نفسه فأقسم ألا ينال منها إلا دون السكر ، ولكن كلما هم بالكف أغراه الشيطان بالمزيد . قدح واحد ! ما أنت

---

(١) جمهرة ابن دريد .

إن تردده بالخاسر ، حتى عب ، فغدا واهى اللب ، من آل الشيطان الرجيس !

شرب القسيس حتى تحبب ، وكان عاقبة ذلك أن فاض فمه بالخمر القليس على نمرقيته فياله من منظر مخجل ، ووارحتا لبنى آدم المساكين من كيد الشياطين !

* * *

وكذلك يفعل أبو العلاء فى موضع آخر عندما يُشهدك امرأة عجوزا همة توصى ولدها ألا يتزوج ، فإنها شاخت ويبس جنباها ، وأصبح شعرها أبيض قصيرا متفرقا كأنه الثغام ... وهى تخشى أن تهزأ منها زوجه الشابة بما فيها من طراءة الصبا ووفرة الشعر :

فن إلى المكارم والمعالى
ولا تثقل مطاك بعبء حنه
فإنى قد كبرتُ ، وما كِذاب
ملائمـــة عجوزا مقسئنة
ترى تنومها وترى ثُغامى
فتهزأ من مُنهبلة مُسنة (١)

ثم تذكر شبابها الدابر ، وما كان عليه شعرها من وفرة وسواد .

فإن يبيض للحدثان فودى
فقد أغدو بفود كالدجنه

(١) المقسئنة : اليابسة . والمنهبلة : الضعيفة القوى والتنوم : شجر عزيز الفروع سابغها .

إذا ما السارحات نظرن فيه
عجبن لما سرحن وما دهنه

ثم تحذره من خـــداع الدلالات الدواهى اللاتى

يقلن : فلانة ابنة خـــير قوم
شفاء للعيون إذا شفنه
وأنها رزان رجاح بجدولة القد جدل الأعنة ... فأولئك يتجرن بالكذب .
أولئك ما أتين بنصح خل
ولا دن المليك ولا يدنه
ولو طاوعتهن لجئن يوما
بأخت الغول ، والنصف الضفنة (١)

فالحديث حديث نساء عن نساء ، ولذلك التمس له أبو العلاء قافية تجمع النون المشددة والهاء الساكنة : قافية نسوية غنثة وجاء بها على زنة الوافر ، والوافر يصلح للأداء العاطـــفى غضبا أم حماسا أم رقة وحنينا .

وعندما عرض للأوصاف القبيحة استعان عليها باللفظ المستفظع الذى يفيدك القبح بمخارجه من قبل أن يكشف عن معناه فهى مقسئنه ، وهى منهبلة . والدلالات يجئن بالنصف الضفنة : ويزيد على ذلك أنه

(١) الضفنة : المسترخية المترهلة المستفيضة البطن .

يعطي نوعا من الطرافة والتفكه لا تعطيه الكلمات المكافئة لها في المعنى :

بينما تجده إذ يعرض للأوصاف الحسنة يجيء بألفاظ حلوة مشوقة (رزان الحلم رجاح ، شفاء للعيون ، جدلت كجدل الأعنة ، كعاب ، تنوم) .

واختيار الألفاظ ووضعها في المواضع التي تشيع فيها الجو المناسب ، من أدق المعايير التي يوزن بها الشاعر القادر ، والشاعر العاجز .

وأبو العلاء دائما قادر على أن يخلط الجد بالهزل ، وروح الفكاهة لا يفارق هذا الضرير السوداوي المزاج .

فبينما تراه جاداً كل الجد ، إذ تراه يهتك هذا الجد بفكاهة تدفعك إلى ضحك يهز كيانك هزا : وهذا مالا تظفر به إلا عند أمثال الفرزدق من الفحول القروم . خذ مثلا لذلك قوله :

نار لها ضرمية كرمية
تأريثها إرث من الأسلاف

تسقيك والأرى الضريب ولو غدت
نهي الإله لثلثت بسلاف

وهنا نجد نارا متضرمة ، شبت للقرى ، يورثها الأبناء بعد الآباء . ونجد بعد الطعام سقيا ، من اللبن المخلوط ، والعسل المصفى...

ولولا نهي الإله لكانت السلاف ثالثتهما ثم يقول :

وإذا تضيفت النعام ضياءها
حمل الهبيد لها مع الألطاف

ماذا ؟ إذا جاءت النعام على ضوء النار تبتغي القرى ، وجدت ضيافتها هبيدا أي حنظلا ، وألطافا أخرى ، من قطع الحديد والمرو ! يحملها الغلمان على الصحاف ، ويسعون بها بين يدي ضيوفهم من النعام ! .

ألا يذكرنا هذا بقوله في الشريف الموسوي يذكر كرمه وهو في قبره :

إن زاره الموتى كساهم في البلى
أكفان أبلج مكرم الأضياف

ونظير ذلك قوله في الحديث عن أمه :

لولا رجاء لقائها لما تبعت
عنسي دليلا كسر الغمد إصليتا

وصف الدليل بأنه ممشوق ضامر كالسيف الماضي .

ثم قال .

ولا صحبت ذئاب الإنس طاوية
تراقب الجدي في الخضراء مسبوتا

جعل اللصوص ذئاب الإنس . ولما كانوا ذئابا فإنهم يطمعون الجداء . وهؤلاء اللصوص الطاوون يترقبون جدي السماء وهو برج

من أبراجها ينتظرون نعاسه ليصيدوه ويأكلوه.

وربما يكون فى كلام الجنى السابق وفى حديث العجوز ما يعزز إدعاءنا فى مقدرة أبى العلاء على إشاعة الفكاهة.

٤ — والقدرة اللغوية مكنت أبا العلاء من الظفر بالتجنيس فى عفوية تارة، وعلى استكراه تارة، ولقد يعد أبو العلاء أحذق من تعاطى هذا النوع من المهارة اللفظية فى العربية.

وقد تعاطاه أبو تمام قبله، ولكنه كان يقرح فيه جفنه، فإذا ناله نال وجبينه يتفصد عرقا.

وتعاطاه الصفى الحلى، وابن نباته بعده، ولكنهما كانا يرصدانه ويعدانه إعداد، فأما أبو العلاء فكان إذا أراده صاده، لوفرة محصوله، وطواعية اللغة فى يديه.

* * *

والتجنيس فى ذاته قتب أشرس، ذلك بأنه لا يحس حتى يكون موقع الكلمتين المتجانستين من العقل موقعا حميدا.

والمعانى لا تدين فى كل موضع لما يجتذبها التجنيس إليه، إذ الألفاظ خدم المعانى والمصرفة فى حكمها، ولن تجد حكما أعدل من أن ترسل المعانى على سجيتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ التى تناسبها، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها [1].

وأنت تجد لأبى العلاء الحلو المقبول الذى يزيد فى الترنم ويلذ فى الأفواه، وتجد منه الوبيل المستوخم، الذى خزم من أنفه، ثم أنيخ على الصخر الأصم.

وتتبع الجناس عند أبى العلاء أمر يطول ولكنا نضرب أمثلة للحسن، وأخرى للقبيح:

فأما الحسن فتجده فى مثل قوله فى حديثه عن الإبل:

أأبغى لها شراً، ولم أر مثلها
سفائن ليل، أو سفائن آل

وقوله فى شأن حنين الإبل:

لعل كراها قد أراها جذابها
ذوائب طلح بالعقيق وضال

وقوله فى شأن الحمام:

ترى كل خطباء الجناح كأنها
خطيب تنمى فى الغضيض من الينع
إذا وطئت عوداً برجل حسبتها
ثقيلة حجل، تلمس العود ذا الشرع [2]

وقوله فى شأن إحدى الأعرابيات:

ألفت الملا، حتى تعلمت بالفلا
رنو الطلا، أو صنعة الآل بالخدع

---

(١) أسرار البلاغة.

(٢) العود الأول: الغصن، والثانى: عود الغناء الذى يضرب عليه. والحجل: الخلخال.

وأما الرذل المقيت ، فتجده فى مثل قوله :

وعمرو هند كأن الله صوره
عمرو بن هند ، يسوم الناس تعنيتا

فالعمر الأول واحد العمور ، وهى خرزة حمراء كثيرة الماء تكون فى القرطة ، وعمرو بن هند أحد ملوك الحيرة ، كان لصرامته وشدة سطوته يلقب (بمضرط الحجارة) .

فماذا يشق من أمر هذه الخرزة على العاشقين فيمنتهم إعنات عمرو بن هند للناس؟!

وأشد منه عند الله والناس مقتا قوله فى المطايا :

مطا يامطايا وجدكن منازل
متى زل عنها ليس عنى بمقلع

مطا ، بمعنى مد ، يامطايا : نداء ومنادى ، ومنازل فاعل مطا ، أى مد وجدكن ربوع من ديار الحبيبة .

بمعنى قدر ، وزل عنها أى أخطأها ، يريد أن قدراً أخطأها فبقيت ماثلة ، وأصابنى فبليت وما بقيت .

قال الخوارزمى : ولقد أحسن فى التجنيس وأبدع ! . وعجبى لهذا الأديب الفاضل كيف يستحسن هذا النوع من التجنيس ، ورق العقارب أكثر منه وضوحا ... على أن المعنى بعد ذلك بالغ غاية السقم .

ومن الجناس الرذل ما هو حسن فى ذاته ، ولكن عاد الموضوع عليه بالاستهجان ... كما ترى فى قول أبى العلاء يرثى :

خلو فؤادى بالمودة إخلال
وإبلال جسمى فى طلابك إبلال

ولى حاجة عند المنية ، فتمكها
بروحى ، والأهواء مذكن أهوال

فالجناس فى هذا المقام خطيئة نكراء ، فإن الطالب للجناس المتحرى له لابد أن يكون فارغ القلب بعيداً عن الانفعال ... فإن المنفعل لا يمكن أن يغلب من انفعاله ليتمكم فى دروب المحسنات ، وبخاصة هذا النمط الصعب ...

وليت شعرى عن أبى جعفر المنصور ، إذ قال فى شأن أبى ذؤيب ، وقد استرسل من رثاء أولاده إلى وصف حمر الوحش ... قال أبو جعفر : (الآن سلا أبو ذؤيب) .

فماذا كان يقول لو سمع المعرى يبتدئ رثاءه لأمه بالخلو والإخلال والإبلاء والإبلال والأهواء والأهوال ؟

— • —

وإذ كان التزام ما لا يلزم ، من أبرز مظاهر القدرة اللغوية ، وقد ذهب أبو العلاء فى هذا النوع بشهرة لا تنازع فقد أعرضنا عن الإطالة بشرحها فى هذا المجال؟

كامل السيد شاهين

ماوراء المحسوس في فلسفة الجمال ومذاهب الفن

للأستاذ فتحي عثمان

جولة استطلاع لآراء الفلاسفة ومذاهب الفن ، تومىء فى جلاء إلى إشعاعات ما وراء المحسوس التى تومض من خلال الكلمات والتعريفات والتحليلات ، مهما اختلفت المنازع والمذاهب والأفكار !!

إن ديدرو مثلا Diderot (١٧١٣/١٧٨٤م) يرى أن الفن عملية فكرية حقا ، ولكنه لا يلبث أن يصرح فى مواضع أنه : « لا بد من الحيا الفنية بما تستلزمه من رهف الإحساس وقوة العاطفة ، والدكتور غنيمى هلال يفسر ذلك بأن ديدرو ربما كان يريد من الفنان أن يكون قوى الذوق والعاطفة فى أثناء الإحساس والالتقاط ، لكنه عندما يمارس التعبير الفنى يجب أن يغلب عقله وإدراكه فى نقل التجربة وفى تصويرها ، إذ أن العاطفة المشبوبة كالإحساسات الحادة عليه خرساء لا تبين عن نفسها ، وقد يكون هذا نواة لرأى بندتو كروتشيه فى ضرورة تمثيل العاطفة قبل محاولة التعبير الفنى عنها .

وقد خاض ديدرو محاولات دقيقة للتمييز والتفرقة فى مجالات المعانى والمعنويات ، لقد فرق بين الجمال واللذة ، إذ أقام معنى الجمال على إدراك العلاقات بين الأشياء والأجزاء ، أما ما يصل عن طريق حاستى الذوق والشم كالأطعمة والروائح فهو يوصف باللذة والطيب لا بالجمال ! كما فرق ديدرو بين الجمال والمنفعة فالإعجاب بالجمال ذاتى فى مبدئه لا يعبأ بالمنفعة أفلا يحدث فى كثير من الأحيان أن يهجر المرء الشىء النافع من أجل شىء جميل ؟ على أن ديدرو يرى أن الحق والخير والجمال بينها وشائج وثيقة وإذا أضيفت إلى الحق والخير بعض الصفات النادرة الوضاءة فسيصير الحق جميلا والخير جميلا ، وهو يعرف الذوق بأنه قوة مكتسبة بالتجارب المتكررة ، بها يتيسر فهم الحق أو الخير فى حالة يصير بها كلاهما جميلا بحيث ينتج به التأثير السريع القوى ، بل إنه ليرى أن واجب كل فنان كريم هو تصوير الفضيلة محبوبة ، والرذيلة بغيضة !

وجاء كانت (١٧٢٤ / ١٨٠٤ م) Kant ففرق بين الحكم الجمالي والحكم العقلي أو الخلقي ... إن الحكم الجمالي يصدر عن الذوق والذوق يصدره عن رضا لا تدفع إليه منفعة في حين أن اللذة الحسية تتطلب التملك والرضا الخلقي يتطلب تحقيق موضوعه ، إن الجمال هو الصورة الغائية لموضوعه !.

وإذا كان الحكم تقريرا الحقيقة عن طريق التجربة ، أو برهنة نظرية على قضية علمية يسلم بها ضرورة ، أو بمجرد احتمال منطقي ، فإن الجمال هو خاصة تقرير ما يدرك ضرورة إدراكا ذاتيا ابتداء ، لكنه موضوعي من ناحية التصور بافتراض عموم الشعور به لدى ذوي الأذواق ، فالجميل هو ما يعترف له بهذه الصفة لأنه مصدر شعور ذاتي بالرضا به دون حاجـــة إلى أفكار وأقيسة يتطلبها الحكم الموضوعي .

على أن « كانت » يقرر صلة صريحة بين الجمال — طبيعيا كان أم فنيا — وبين الخلق فهو يقرر : أن الحكم الجمالي يصدر عن الذوق وفيه إرضاء للوعي الجمالي بأن يكون الشيء الجميل مصدر متعة جمالية ، والأمر الذي يكاد يحس المرء أنه خاضع له ومستجيب حين يصدر الحكم الجمالي ليس أمرا منطقيا أو تجريبيا — كما هو الحال في القضايا الرياضية أو الطبيعية ، وإنما هو أمر يقارن بالأمر الخلقي في صدوره عن الوعي الجمالي الفردي . فالشخص الذي يفكر في شيء جميل ، يخضع له خضوعا قريبا من خضوعه للعقل حين يفكر في الطبيعة ، وقريبا من خضوعه للمبدأ الخلقي في ذاته . وتتضمن المثالية في الجمال التعبير عما هو خلقي ، أي عما هو رمز لما فوق الحس من الحقائق ، وبدون هذا لا يمكن لموضوع الجمال أن يصل إلى درجة يكون فيها عالميا .

وجاء فيشته (١٧٦٢ : ١٨١٤ م) Fichte متأثرا بكانت ، وقد كان يرى في الفن تحريراً للذات من حيث هي ، وفي هذا التحرير تمهيد للحرية الحقيقية . وأما شوبنهور Shopenhauer (١٧٨٨ : ١٨٦٠ م) فقد ارتأى أن التأمل في الجمال تأملا روحيا خالصا يهيء للاهتداء إلى الزهد المطلق أو الخلق المؤسس على الرحمة ، وقد كان للشاعر الفرنسي بودلير (١٨٢١ : ١٨٦٧م) Baudelaire وجهة نظر في علاقة الفن بالمنفعة وبالأخلاق ، فالفن نافع لأنه الفن . وإذا كانت الرذيلة فاتنة فيجب أن توصف بأنها فاتنة ، على أن الرذيلة تجر وراءها أمراضا وآلاما خلقية فريدة يجب وصفها كذلك .

وهكذا يخوض الفلاسفة في آفاق المثالية لاستجلاء مفهوم الجمال وخصائصه ، وتتردد

فى كلماتهم نفثات تشير إلى العالم الذى يرتادونه وراء المحسوس، سواء أكان هذا العالم هو الوجدان أو الفكر . وقد كان هيجل Hegel (١٧٧٠ : ١٨٣١ م) ذهنى المنزع ، وعنده أن فكرة الجمال قد مرت فى ثلاث مراحل : ففى المرحلة الأولى سيطرت المادة على الفكرة فكان الجمال يتجلى فى العمارة - وهذه هى المرحلة الرمزية ويمثلها عند هيجل الفن الشرقى والمصرى ، أما المرحلة الثانية ففيها يتعادل المضمون مع الشكل ويصور النحت فكرة الجمال فى هذه المرحلة - وهى المرحلة الكلاسيكية ، ويمثلها عند هيجل الفن الإغريقى ثم تغلب الفكرة على الصورة فى آخر المراحل ، وتبرز الفنون الذهنية كالموسيقى والشعر ، ويطلق هيجل على هذه المرحلة المرحلة المسيحية . على أن هيجل يرى أن للفن أصوله ووسائله ، وإذا كان لا ينبغى له أن يؤذى الإحساس فإنما يطلب الخلقى ذلك منه باسم الجمال الذى يستهدفه الفن دون سواه .

وعن طريق التحليل الذهنى أيضا توصل بندبتو كروتشيه (١٨٦٦ : ١٩٥٢ م) Benedette Groce أن للفكر أربعة ألوان من النشاط : جانب منها نظرى أوله الحدس intuition أو التصور الصادق : وهو نشاط الفكر فى مجال الجمال ، وبجانب ذلك هناك الإدراك : وهو وقوف الفكر على ما هو كونى وتوحيده مع الوعى الفردى فهو نشاط الفكر فى مجال المنطق ، وفى الجانب العملى نجد : الإرادة ، فإذا تعلقت بما هو فردى فإنها تتناول مجال النشاط الاقتصادى ، وإذا تعلقت بما هو عالمى فإنها تتناول مجال الأخلاق .

والفكر يخلق الجمال بإنتاجه الفنى عن طريق الحدس ، ويراه كروتشيه فى ذلك مستقلا عن العالم الخارجى على أن العمل الفنى ليس نتيجة الشعور فحسب ، ولكنه نتيجة ذكاء وفكر وإرادة أيضا ، إنه قد يعتمد على الشعور والعاطفة ولكن على أن يتخذ الفنان من هذا موضـــوع تفكير ، فتفقد العاطفة بهذا التفكير والتأمل حدتها الذاتية التى كانت لها فى البدء ، ويفقد الشعور عنصر الاضطراب الذاتى ، إذ من خصائص الفن تحقيق موضوعية الشعور الذاتى [١] .

هذه النزعة المثالية فى فلسفة الجمال صار لها عنوانها المميز ومقوماتها الخاصة فهى النزعة التعبيرية Expressionism التى كان من آثارها فى النقد ظهور المدرسة الانطباعية أو usImpressioni ، أما فى الفن فقد برزت الرمزية بعد عام ١٨٨٠م ، إذ الرمز هو تعبير غير مباشر عن الأغوار النفسية المستترة التى لا تنهض بتحليلها ألفاظ اللغة فى دلالاتها

---

١ — من المراجع الأساسية : مؤلفا الدكتور غنيمى هلال : المدخل إلى النقد الأدبى الحديث ، الأدب المقارن

المحدودة ، في حين يكون الرمز هو الصلة بين الذات والأشياء بحيث تتولد المشاعر عن طريق الإثارة النفسية لا عن طريق القسمية والتصريح والنزوع إلى الرمز أصل وركيزة في فلسفة «كانت» ، وعلى النقيض نجد النزوع إلى التجسيم الذى يبرز في (البرناسيه) فالشعر يحاول مثلا أن يلحق بالموسيقى عند الرمزيين بدل أن يرتبط بالتصوير من نحت أو رسم .

على أن الرومانتيكية كانت هي التي جاءت لتضع في المقام الأول الحساسية والخيال والتعبير الشخصى وإثبات الذات وتمجيد الغريزة ، وتميل في تعبيراتها إلى المبالغة والتضخيم ، وكانت الحركة الرومانتيكية في التصوير أسبق منها في الأدب ، يقول ديلاكروا (المتوفى عام ١٨٦٣ م) : « إذا كان المقصود من الرومانتيكية التعبير الحر عن انطباعاتى الشخصية ، وابتعاد عن الأنماط والنماذج التي يعاد نسخها في المدارس دون أدنى تغيير ، ونفورى من المواصفات الأكاديمية ، فإنه من الواجب ألا أعترف فقط أنى رومانتيكى ، بل إنى كنت رومانتيكيا منذ الخامسة عشرة » ، وهكذا جاءت الرومانتيكية ثورة على القواعد والقوالب الكلاسيكية ، وانتصارا للنزعة الفردية ، وإعلاء للحساسية والعواطف على العقل ، فإذا كان الناس جميعا يشتركون في التمتع بالعقل ، فإن ما يميز كل شخصية في صميمها وذاتيتها هو الجانب الوجدانى وبخاصة اللاشعورى منه ، وقد بلغت الرومانتيكية ذروتها سنة ١٨٣٠ م ، وتزعمها في الأدب (هوجو) وفي الموسيقى (برليوز) وفي التصوير (ديلاكروا) ، وكان جمهورها من الطبقة البورجوازية بعد أن كان جمهور الفن الكلاسيكى من الطبقة الارستقراطية ، وكان عصرها عصر الحركات القومية والوطنية والدستورية في أوربا ، والخيال عند أصحاب النزعة الرومانتيكية هو الذى يولد الصور ، وهو يستطيع أن يستقل بتكوين هذه الصور دون ضرورة لاستلهام مثال من الأشياء يوجد أمامه ، ومن هنا يكون كمال الشعر في لغته التصويرية لا في تقريراته العقلية ، حتى يرى (كوليردج) مثلا : أن الشعر الكلاسيكى قد ضحى بالعاطفة المنطلقة المشبوبة من أجل الدقائق الذهنية والوثبات الفكرية ، إن الفنان الرومانتيكى ينبغى أن يعبر عن الطبيعة والأشياء من خلال ذاته ، فنفسه مرآة لما حوله ومن حوله ، والصور هي وسائل تجسيم المشاعر والأفكار !

وإذا كانت النزعة الرومانتيكية قد دارت عليها الدورة ، فإن ما خلفها كان شأنه شأنها وشأن ما سبقها من منازع ومذاهب في فلسفة الجمال والفن ، لا يفتأ يومض ببريق الأشعة العجيبة الصادرة من عالم عجيب وراء المحسوس؟

فتحى عثمان

تيارات منحرفة في التفكير الديني المعاصر

للأستاذ على العماري

٥ — قضية المرأة :

لم تتعرض نصوص الإسلام وشرائعه للزراية ، والتحريف، والتهجم الحاقد ، فى قضية من القضايا كما تعرضت فى هذه القضية .

والمرأة - كما لا ينكر أحد من العقلاء - ذات رسالة سامية فى الحياة ، لها مكانتها فى نفوس الرجال ، ولها احترامها وتقديرها ، أما ، وزوجا ، وأختا ، وبنتا .

ولئن كانت القوانين الوضعية فى مختلف العصور ، والأمم ، عنيت بالنص على ما ينبغى أن تعامل به المرأة ، من البر ، والإكرام ، والتقدير ، والاحترام ، وعنيت بإعطائها حقها ، وتمكينها من أداء رسالتها ، فإن الشرائع السماوية قد عنيت بكل ذلك على أتم وجه ، وأعدله .

والإسلام - بخاصة - من بين هذه الشرائع بلغ فى ذلك ما لم تبلغه شريعة سماوية ، ولا قانون وضعى .

وآية واحدة فى كتاب الله تبين المدى الواسع ، والمنزل الكريم الذى وضع الله فيه بنات حواء ، وتشير - مع إيجازها - إلى غاية ما تطمح إليه كل امرأة عاقلة ، مؤمنة بربها ، خبيرة برسالتها ، بصيرة بما يضرها وبما ينفعها ، تلك هى قوله تعالى فى سورة البقرة : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » .

وكما نهج القرآن الكريم لأتباعه طريقة سمحة كريمة فى معاملة المرأة كان الرسول عليه الصلاة والسلام يكثر من الوصاة بالنساء خيرا ، حتى روى أن آخر ما أوصى به صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى لجلج لسانه ، وخفى كلامه ، وهو يحتضر ، وهذه الثلاث هى : الصلاة ، والرقيق ، والنساء وقد بدأ وصيته بالنساء بقوله : الله ، الله فى النساء ، وهو أسلوب يشعر بمدى اهتمامه عليه السلام بهذه الوصية .

عرض الإسلام لكل شأن من شئون النساء فى قضايا كلية واضحة ، ومسائل جزئية واضحة أيضا فجاء فى القرآن الكريم ، وفى السنة النبوية المطهرة ، نصوص تبين ما للمرأة ، وما عليها .

كل ذلك حق ، ولكن فريقا من المنحرفين ، والمنحرفات ، يتنكرون لنصوص الإسلام ، أو يحاولون التخلص منها ، أو تحريفها حين يخوضون فى هذه القضية .

فمنذ ما يقرب من عشرين عاما بلغت الجرأة

بعالم أزهرى أن يطرح الدين بعيداً عن قضية المرأة، فأرسلها دون وحى أو استحياء، إنه (ليستحى أن يقحم الدين فى مسألة نفض يده منها) هكذا جاء فى كتاب (من هنا نبدأ) للأستاذ: خالد محمد خالد، وما نظن إلا أنه نادم الآن على كل ما قاله فى فصله الغريب (الرئة المعطلة).

الدين نفض يده من قضية المرأة، كأن الإسلام أنزل للرجال دون النساء، وكأنه - كبعض النظم الوضعية الفاسدة - لا يعترف للمرأة بوجود فى هذه الحياة، وهذا شر ما يرمى به نظام من النظم سواء كان من وضع البشر، أو من وضع السماء، فكيف نتهم به الإسلام. وهو الدين الخالد الذى جاء من العليم الخبير، الحكم العدل ؟!.

وهذا المؤلف الذى استحى أن يقحم الدين فى قضية المرأة - بادئ ذى بدء - عاد فتمسح بالدين فى آخر الحديث، فقال: على أن هناك حجة حاسمة، تغنينا عن كل حجة ودليل، هى ذلك التفويض المطلق الذى منحه الدين للناس، حين قال الرسول: أنتم أعلم بشئون دنياكم، أليست هذه الحقوق السياسية من شئون الدنيا.

وعجيب أمر هؤلاء الذين يفسرون الإسلام بأهوائهم كلما واجههم قائل فى شأن من الشئون بنصوص تضيق بها صدورهم، فيلجئون إلى هذا الحديث: أنتم أعلم بشئون دنياكم، وهم يعرفون - إن أحسنا الظن بهم - المناسبة التى قيل فيها هذا الحديث، والمدى الذى لا يمكن أن يتعداه ما يشير إليه، ولكنهم يجهلون، أو يتجاهلون

حقوق المرأة السياسية من شئون الدنيا، كأن المرأة حين تمارس هذه الحقوق تمارسها فى معزل عن المجتمع، وتقوم بها بعيداً عن الرجال، وكأن الإسلام لم يحد لظهور المرأة بين الرجال حدوداً، ولم يضع لتصرفاتها ووظيفتها فى الحياة تعاليم، وشرائع، وكأن الرسول لم يقل فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى: لن يفلح قوم ولوا أمورهم امرأة، وكأنه لم يقل: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة.

ولكن المؤلف لا يعترف إلا (بالتطور) فكل ما وصلت إليه المرأة استجابة لقانون التطور، من تحد السفور المعيب، والاختلاط المريب هو - عند المؤلف - (الفضيلة)، فهو يقول: (ليس هناك إثم أشد، ولا خطيئة أخش من مقاومة التطور)، هكذا بدون قيد ولا شرط، فلا بأس أن يكون التطور إلى أسوأ، وأن يكون مجافياً للتعاليم الإسلامية، والفضائل الإسلامية.

هذا فى - الحقيقة - أنموذج فقط، للانحراف فى هذه القضية، وإنما عنينا بهذا الأنموذج - على قدمه نوعاً - لندل على المدى الذى بلغه الكائدون للإسلام من بلبلة الأفكار، وإشاعة الشك فى نصوص الدين، فالمؤلف عالم، وعالم تخرج فى الأزهر الشريف، فإذا صدر منه مثل هذا القول كان من الخطورة بمكان.

فإذا جئنا إلى أيامنا هذه وجدنا عالما آخر، وهو رجل فاضل، وعالم متمكن، وباحث لا نشك فى قدرته على البحث المفيد، ولا نرتاب فى دينه، ولا خلقه، وجدناه مسوقا بغير قصد - إن كان ما نقل عنه صحيحاً - إلى ما لا ينبغى أن يصدر عن مثله، فى علمه، وفضله.

جاء فى إحدى الصحف اليومية أن رئيس لجنة الأحوال الشخصية (وهو الشيخ فرج السنهورى) سئل: لماذا أعطيتم المرأة حق طلب الطلاق إذا تزوج امرأة أخرى غيرها؟ فأجاب أعطينا المرأة هذا الحق من أجل إسكات النابحات فقط.

فهذه الإجابة فى منتهى الغرابة، والخطورة:

أولا: يقول (أعطينا) كأن من حقه أن يعطى، وأن يمنع، وكان عليه أن يقول: إننا رأينا أن نأخذ بهذا الحكم من أحكام الإسلام.

ثانياً: هل يؤثر حكم على حكم آخر لمجرد الرغبة فى إسكات الطالبات بهذا الحكم الأول؟

إننا لو سلكنا هذا المسلك للجأنا إلى الأخذ بالضعيف، والحكم الذى لا مستند له، ولكان إرضاء الناس آثر عندنا من التزام ما يظهر لنا من قوة الدليل

ومتى كان إرضاء فريق من الناس باعثاً من بواعث الأحكام، فى أى نظام من النظم، إلا أن يكون نظاما لا يستهدف المصلحة العامة، وإنما يستهدف إرضاء من لا يرضون بغير ما يوافق أهواءهم.

ثالثاً: ماقيمة هذا الحق الذى يعطى، لأن فريقا من (النابحات) طلبنه؟ أليس هناك - أيضا - جماعات من (النابحين)؟!

رابعا: إذا كن (نابحات) وكلنا يعرف مدلول هذه الكلمة، فلماذا نعنى أنفسنا بإجابة رغباتهن؟.

أليس المثل العربى يقول: الكلب ينبح، والقافلة تسير؟!

خامسا: لقد قيل: إن الدليل الذى استندت إليه اللجنة دليل واهن ضعيف، فإلى متى نلجأ إلى ثنيات الطريق؟.

ولا أظن أنه يذهب عن أكثر هؤلاء المشرعين فيما يتعلق بالأحوال الشخصية أن جماهير المسلمين تنفر من كل حكم يضعف مستنده من الدين.

إنى أعد قانون الأحوال الشخصية الذى تعمل به المحاكم الآن قانونا ميتا فى ضمائر المسلمين، ولطالما استفتانى رجال، وكان كل منهم يطلب إلى مع توجيه سؤاله ألا أفتيه بما تسير عليه المحاكم الشرعية الآن، فقلبه لا يطمئن به، وقليل من الناس من يتقبل هذه الأحكام ربما للضرورة القصوى، وربما لأنه يستهين بعامة أحكام الدين.

إن مسألة كمسألة الطلاق ينبغى أن نلتزم فيها رأى جمهور الفقهاء، فإن ذلك أصون للعلاقة الزوجية، وأنظف لها فى ضمير الرجل والمرأة على السواء، ولقد رأيت من النساء من استبد بها القلق على حياتها الزوجية الطاهرة لأن

زوجها يعاشرها بعد طلاق استند فى الخلاص منه إلى رأى ضعيف من آراء بعض الفقهاء.

ثم نرى الخلط، والخبط، والانحراف، والجرأة، والضلال، والسفه.

فهذا مستشار يعجب لماذا لا تأخذ المرأة فى الميراث نصيبا كنصيب الرجل، وينادى بذلك ويدعو إليه، وهو - بطبيعة عمله - يعرف تمام المعرفة النص الواضح الصريح الذى جاء فى القرآن الكريم خاصا بهذا الحكم، كأنه يقول لنا: لاداعى للتمسك بنصوص القرآن.

ولا بأس عليه فقد سمعنا عالما كبيراً يذيع على الناس أنه من حقنا أن نهمل النص إذا اقتضت المصلحة إهماله.

وهذا عالم يرى أن ضرب الرجل امرأته للتأديب (وحشية)، وينسى أو يتناسى أن القرآن الكريم جعل هذه العقوبة إحدى الوسائل لإصلاح المرأة فى نص لا يتحمل التأويل.

وكاتب يرى أن قول الرسول الكريم فى النساء إنهن (ناقصات عقل ودين) من الأقوال (البشعة).

وكاتبة ترى أن القرآن لم يفسر إلى الآن بمعانيه الحقيقية، وينبغى أن ينشط علماء العصر، وأن يفسروه بهذه المعانى، حتى تأخذ المرأة كل حقوقها.

وكاتبة أخرى ترى وجوب المساواة التامة بين الرجل والمرأة، فإذا قيل لها: إن الطبيعة، والنصوص الدينية تأبى كلها هذه المساواة، فالله سبحانه وتعالى يقول: «وللرجال عليهن درجة»، ويقول: «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم»، أجابت بأن (الميثاق) كفل المرأة هذه المساواة، ونسيت أن (الميثاق) قرر مبدأ المساواة، كما قرره الإسلام، وأنه ما كان للميثاق، وهو عمل حكومة مسلمة لأمة مسلمة أن يخرج عن أصول الدين.

والحق أن الكاتبات المتطرفات يسئن إلى الميثاق بمثل هذا المنطق حين يدعين أنه أعطى لهن ما لم يعطه الإسلام، والميثاق برىء مما يرفن.

فهل الميثاق أعطى المرأة حق أن تطلق زوجها متى أرادت؟ وهل الميثاق أعطى لها حق أن تتزوج من اثنين فى آن واحد؟ وهل الميثاق فرض عليها أن تقوم بنفقة زوجها وأولادها؟

إن عيب الكاتبات المتطرفات عندنا - مع جهلهن بأحكام الدين - أنهن لا يتورعن أن يطوعن لرغباتهن كل القوانين، وكل النظم، وينسين فى هذه الحماقة المدى الذى يستطعن أن يتساوين فيه مع الرجال لتصلح حياة الأسرة، وحياة المجتمع.

ونعود إلى قصة (ضرب المرأة)، ذلك أن امرأة ضربت زوجها، ورفع الأمر إلى القضاء، فأدانها القاضى قائلا: إن للزوج حقا فى تأديب زوجته جسمانيا، وضربها، فثار أحد الكتاب لذلك، واعتبره مظهراً من (مظاهر إهدار حقوق المرأة، والتفنن

فى ظلمها) وأن المرأة (لذلك تريد أن تمارس حقها السياسى لترفع الإصر والأغلال التى عليها وتقضى على "فوارق الظالمة ، المتعسفة) .

وإذن ، فمن حق المرأة - عند هذا الكاتب وأمثاله ، ومثيلاته - أن تؤدب زوجها بالهجر ، والضرب ، حتى لا تكون هناك فوارق ظالمة متعسفة ، ونسى الكاتب ، أو تناسى أن القاضى الفاضل إنما استمد حكمه من قول الله تعالى : « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا » .

ولو تأمل (الجاملون) للمرأة ، و(المتملقون) لها ، و(الواقعون تحت سلطانها) هذه الآية جيداً ، ثم نظروا فى نصوص الشريعة الأخرى لرأوا أن هذا (الضرب) لابد منه فى بعض الحالات ، وأنه فى أضيق الحدود .

فالآية الكريمة بدئت بأمر يخشى منه على كيان الأسرة ، وهو (النشوز) من المرأة طبعا ، ، ثم ذكرت لهذا الداء الوبيل ألوانا من العلاج ، لايلجأ إلى ثانيها إلا بعد إخفاق أولها ، فالوعظ ، ثم الهجر فى المضجع ، ثم الضرب ، وقد فسره العلماء بالضرب الخفيف ، ثم لم يقف النص عند هذا الحد ، بل نهى بل نهى الرجال أن يكون لهم سبيل إلى إيذاء متى أطعنهم ، وعدلن عن هذا النشوز الذى يهدد حياة الأسرة ، ثم ذكر الرجال بأن الله على كبير ، فإذا كان منهم من يخدعه سلطانه ، وقوامته على بيته ، ويظن فى نفسه العلو ، والاستكبار فليتذكر أن الله أعلى وأكبر وأنه محاسبه إذا بغى وتجبر .

على أن الضرب لم يشرع إلا فى حالات خاصة ، ولنوع خاص من النساء ، وقد بين الرسول الكريم أن الضرب أمر توجبه الضرورة ، وأن على الإنسان أن يتفاداه ما استطاع ، فإذا لم يجد حيلة للإصلاح إلا الضرب فلا حيلة إلا اللجوء إليه .

وينبغى أن يعترف أنصار المرأة ، بل والمتطرفات من المناديات بمساواة المرأة للرجل بحقيقة مشاهدة ملموسة ، وهى أن من النساء من لا يصلحها إلا الضرب ، ولولا خوفها من بطش زوجها لفسدت ، وأفسدت وأن الإسلام لو حظر على الرجل هذا الحق لتعذر على رب الأسرة أن يقوم حقا على بيته

على أن المؤسف أن هذا الأمر ليس خاصا بالجاهلات ، أو الساكنات فى أجواف الصحارى ، وعلى قمم الجبال ، بل إن من النساء المتعلمات المتحضرات من لا يقيمها على الجادة ، إلا الخوف من رجلها .

وصدق الله العظيم ، ورغم ألوف المكابرين والمكابرات ، والمنحرفين والمنحرفات .

علي العماري

الحرّيّة كما يُريدها الإسلام

للأستاذ عبد المنعم النمر

الحرية روح هذه الحياة وريحانتها، والنعمة الكبرى التي أكرم الله بها الإنسان دون غيره من المخلوقات، ولقد خلق الله آدم في الجنة وميزه بحرية الإرادة والتفكير، فكانت هذه الحرية، هي الأساس لتعمير هذا الكون، وكل ما قام ويقوم فيه من حضارات.

لذلك عنى الإسلام بحرية الإنسان، عنايته بتكريمه، وأقام تكاليفه وتوجيهاته، على أساس أن الإنسان حر الإرادة والتفكير والاختيار.. حتى وجدناه يرفع المؤاخذة والحساب، عن كل إنسان سلب حريته، لأنه في نظره، يكون حينئذ قد سلب إنسانيته ومسئوليته.

والحرية في نظر الإسلام؛ لا يحدها حد إلا قانون السماء، ويتمتع بها الحاكم والمحكوم، في ظل هذا القانون على سواء، وقد جعل الإسلام أمر مبرزة في المسلمين، مباشرتهم لهذه الحرية، في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفي التوجيه والتقويم، وهدد كل جماعة منهم، لا تباشر هذه الحرية، بالشقاء والبعد عن رحمة الله، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لكم» هذه هي منزلة الحرية، واستعمالها في نظر الإسلام.. ومن أجل هذا عُنى عناية شديدة، بغرسها في النفوس، حتى تؤتى أكلها الطيب في الحياة، ويعيش المسلمون كراما أعزاء...

ولقد كان المنبت الأول لهذه الحرية عقيدة التوحيد، التي تربط الإنسان في خوفه ورجائه بالله الذي يملك وحده الضر والنفع، فلا يذل الإنسان نفسه لمخلوق مثله، لا يملك له ضرا ولا نفعا «وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يردك بخير فلا راد لفضله» فالموحد المؤمن الصادق يعيش حر النفس، مهما تعترضه النكبات والأهوال... حتى عقيدة التوحيد نفسها جعل الإسلام حرية التفكير، أساس اعتناقها وقبولها، حين دعا العقول إلى تدبر ما حولها من بديع صنع الله، لتصل في حرية واقتناع،

إلى وحدة خالقها ، بل نجد القرآن يقرر هذه الحرية في صراحة حين قال « لا إكراه في الدين » « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» وبذلك وضع الإسلام أساس حرية الإنسان فيما يعتقد ، وهذا هو الشيء الطبيعي، الذي يتمشى مع تكريم الله له ، إذ ليس من تكريمه في شيء أن يجبر على أن يقول أو يفعل ما لا يعتقده ولا يقتنع به .

ومن أجل تدعيم هذه الحرية ، وفي سبيلها ، شرع الله القتال والجهاد ، واعتبر الذين يموتون في سبيل الدفاع عنها شهداء ، ولو كان دفاعهم متمثلا في كلمة حق ، يقولونها لسلطان جائر ، واعتبر كلَّ إنسان متهاون في حريته ، راض بذله واستكانته ، ظالماً لنفسه ، مستحقاً للعذاب في جهنم وبئس المصير يقول الله تعالى « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم . قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » ويهيب بالمسلمين إلى أن يناصروا الضعفاء المغلوبين على حريتهم ، ويقاتلوا من أجلهم ، فيقول : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا » .

ثم نجد الإسلام يدعم هذه الحرية ، ويقيم حياة المسلمين العملية على أساسها ، حين يأمر نبيه أن يشاور أصحابه فيقول له : « وشاورهم في الأمر » ويمدح المؤمنين الذين يعيشون في ظل هذه الحرية فيقول « وأمرهم شورى بينهم» ويجعل الشورى قرينة للصلاة والزكاة.. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم المثال الأعلى للحاكم المسلم ، الذي يعتز بهذه الحرية ويقدرها ، ويعلمها أصحابه في دروس عملية واقعية ، وعرف صحابته رضوان الله عليهم منه هذا ، فكانوا يعلنون آراءهم المعارضة لرأيه أحيانا دون خوف ، وكان لا يجد غضاضة في أن ينزل عن رأيه في بعض الظروف ، ويأخذ بآرائهم ، تقديراً منه لوجهات نظرهم ، كما حدث في مواطن متعددة معروفة ، قابل عمر ابن الخطاب مرة أبا هريرة ، منصرفا من مجلس الرسول ، ليبلغ الناس حديثا عنه صلى الله عليه وسلم يقول فيه : « من قال لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه دخل الجنة » ، فخشى عمر أن يتكل الناس على ظاهر هذا الحديث ولا يعملون ، وعمر وراءه ، فصد أبا هريرة وزجره ، ورجع أبا هريرة يبكى ويشكو لرسول الله ما فعل وعمر وراءه ... فقال الرسول : « ما حملك يا عمر على ما فعلت » فقال عمر : « بأبي أنت وأمي يارسول الله ، لقد خشيت أن يتكل الناس عليها ، فخلهم

يعملون» . فماذا كان موقف الرسول من هذه المعارضة ؟ هل غضب ؟ لا ... بل قدر وجهة نظر عمر ، وأخذ بها ، وتنازل عن رأيه فى التبليغ ، وقال : «خلهم يعملون يا عمر» صلى عليك الله وسلم يا رســـول الحرية ومعلم البشرية ...

وعلى يد رسول الحرية ، وفى مدرسته القرآنية الكبرى ، تعلم الصحابة معنى الحرية وتقديرها ، فعاشوا أحراراً ، وحرصوا على الحرية حكاما ومحكومين ، حتى وجدنا الخليفة منهم ، يطلب من الناس أن يقوموه ويرشدوه إذا أخطأ ، فيقف رجل من عامة المسلمين ، يوجه كلامه لعمر ، الخليفة الحازم ، ويقول له : «والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا» ، فلا يغضب عمر بل يفرح ويقول «أحمد الله أن جعل فى أمة محمد من يقوم عمر بحد سيفه» ، ونرى فى هذه الظاهرة مظهراً كريماً للأمة الرشيدة... وفى ملأ من الناس تنتقده امرأة ، فيقبل انتقادها ، ويعلن أمامها وأمامهم ، فى صراحة المؤمن الواثق من نفسه «أصابت امرأة وأخطأ عمر» .

وهناك أمثلة كثيرة وضاءة فى التاريخ الإسلامى وهى كلها تؤكد حرص المسلمين الصادقين ، على تقرير حق الإنسان فى الحرية ، وعلى تقديرهم لها ، حتى مع الأمم التى فتحوها ، وحتى مع الذين يخالفونهم فى عقيدتهم ... لأنهم كانوا واضحين ، حريصين دائماً على العدل وعلى مصلحة شعوبهم .

ولعلنا نعرف بعد هذا ، أن الإسلام لا يرضى عن أى إجراء يتخذه المســـلم ، يعتدى به على حرية الفرد أو الجماعة ، وأن أية محاولة يتخذها حاكم مسلم لخنق حرية المسلمين ، يبرأ منها الإسلام ، وأن الذين يدعون الحكم بالإسلام ثم يسلبون شعوبهم حرياتهم ، وينكلون بالأحرار المؤمنين ، لا يمثلون رأى الإسلام فى شىء ، وإن أعلنوا أنهم يحكمون بقوانينه .

إن الحرية فى نظر الإسلام ، تعادل حياة الإنسان وكرامته ، ومن لا حرية له فلا حياة له ولا كرامة ، وإن طلاب الحرية وعاشقيها لا يجدون فى قاموس الحرية أروع ولا أعظم مما سجله الرسول وخلفاؤه الراشدون ، من تقديرهم للحرية ، واعتزازهم بها . وإلى الذين يحاولون الاعتداء على حريات المسلمين باسم الإسلام أسوق حكمة عمر بل صرخته الخالدة من أجل الحرية «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» .

عبد المنعم النمر

بمناسبة ذكرى الفيلسوف الإسلامى « إقبال » :

رسالة "إقبال" إلى شباب الإسلام

للأستاذ محيى الدين الألوائى

إن الفيلسوف الهندى المسلم ، والشاعر الإسلامى الملهم ، « محمد إقبال » كان أحد الشخصيات البارزة التى جاد بها القرن العشرون للعالم الإسلامى خاصة ، والعالم الإنسانى عامة . دعا قومه إلى الألفة والود ، والعالم الإسلامى كله إلى الأخوة والوحدة ، والعالم الإنسانى إلى النور والعرفان .

ولد « محمد إقبال » فى الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ١٢٨٩ هـ فى مدينة سيالكوت [١] ، فى ولاية بنجاب فى شبه القارة الهندية ، وكانت عائلته منحدرة من « كشمير » ، فأما أبوه فكان متصوفا عاملا ، وتقيا ورعا ، وقد تأثر إقبال منذ صباه بالأخلاق الصوفية ، التى تحلى بها والده الفاضل ، وقيل : إنه قال لإقبال حين رآه يكثر قراءة القرآن : إن أردت أن تفقه القرآن فاقرأه كأنه أنزل عليك .

واستمد إقبال آراءه الفكرية ، ومذاهبه الفلسفية ، وحميته الإسلامية من المنابع القرآنية ، وتدل كثرة اقتباسه من القرآن فى شعره على أن القرآن كان على قلبه ولسانه وله فضل كبير فى إيقاظ الهمم ، وتشحيذ العزائم فى قلوب الملايين من المسلمين ، ودعوتهم إلى ينبوع التعاليم القرآنية ، فى داخل الهند وخارجها ، وبمناسبة احتفاء العالم بذكراه العاطرة نرى من المناسب أن نقوم بتطواف سريع حول رسالته إلى شباب الإسلام الذى فى يده مقاليد المستقبل ومفتاح الرقى والنهضة فى العالم العربى والإسلامى بوجه خاص ، والعالم الإنسانى بوجه عام ، فيقول إقبال مخاطبا الشباب المسلم :

« المسلم المثالى هو الذى يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه وعقيدته ، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية ، وبين عباد الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص ، وبين الأوطان والألوان ، والشعوب بآفاقيته وإنسانيته ،

(١) الواقعة بالباكستان الغربية بعد تقسيم شبه القارة .

وبين عباد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرده وتمرده على موازين المجتمع الزائفة ، وقيم الأشياء الحقيرة ، وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده وإيثاره وكبح نفسه ، ويعيش برسالته ولرسالته ، ذلك المسلم الحق ، الذى مهما اختلفت الأوضاع ، وتطورت الحياة لايزال يؤمن بالحقيقة الثابتة التى لا تتغير ولا تتحول ـ هذا الشاب المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ، بل خلق ليوجه العالم ، ويملى عليه إرادته ، لأنه صاحب الرسالة ، وحامل العلم اليقين ، فليس مقامه مقام التقليد والاتباع ، بل مقام الإمامة والقيادة ، وإذا تنكر له الزمان ، وعصاه المجتمع ، لم يكن له أن يستسلم ويخضع ، ويضع أوزاره ، ويسالم الدهر ، بل عليه أن يثور عليه ، وينازله ، حتى يقضى الله فى أمره وبذلك يرد الأمر إلى نصابه ، ويقيم عوج الدهر المشوم ، ويصلح الفاسد » ، وفى هذا يقول الدكتور محمد إقبال متمثلا :

« سألنى ربى هل ناسبك هذا العصر ، وانسجم مع عقيدتك ورسالتك ؟ قلت : لا يارب ، قال : حطمه ، ولا تبال ! ! » ، وأخيراً يرى إقبال أن الخضوع والاستكانة للأحوال الفاسدة ، والأوضاع القاهرة ، والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأقزام ، وفى هذا يقول فى بعض أشعاره :

« المسلم الضعيف يعتذر دائما بالقضاء والقدر ، أما المؤمن القوى بنفسه فهو قضاء الله الغالب ، وقدره الذى لا يرد »[1] .

ويقول إقبال فى بيان مقصد حياة المسلم ، وموقفه من مواجهة الصعاب ، فى سبيل إعلاء كلمة الله ، لأنه خليفة الله فى الأرض :

« إن المسلم القوى الذى نشأته الصحراء ، وأحكمته رياحها الهوجاء ، أضعفته رياح العجم فصار فيها كالناى ، نحولا ونواحا ، وإن الذى كان يذبح الليث كالشاة تهاب وطء النملة رجلاه ، والذى كان تكبيره يذيب الأحجار ، انقلب وجلا من صفير الأطيار ، والذى هزىء عزمه بشم الجبال غل يديه ورجليه بأوهام الاتكال ، والذى كان ضربه فى رقاب الأعـــداء صار يضرب صدره فى اللأواء ، والذى نقشت قدمه على الأرض ثورة كسرت رجـــلاه عكوفا فى الخلوة ، والذى كان يمضى على الدهر حكمه ، ويقف الملوك على بابه رضى من الدهر بالقنوع ، ولذلة الاستجداء والخنوع » ، وأردف قوله فى بيان فطرة المسلم المتخلق بالآداب المحمدية إذ قال على لسان والده له :

« إن فطرة المسلم الرحمة ، والرحمة يده ولسانه فى هذه الدنيا ، وإن الرسول بعث رحمة للعالمين ، فإن بعدت عن سنته فلست منا

---

(١) رسالة . شاعر الإسلام د . اقبال .

أنت طائر فى بستاننا ، تفرد بتغريدنا ، فإن تكن ذا نغمة فنى بستاننا فغن بها ، كل حى تهلكه العناصر المضادة ، فإن تكن بلبلا ، فنى الروض طيرانك وتغريدك ، وإن تكن عقابا ففى الصحارى مسرحك ومصيدك ، وإن تكن كوكبا فأضئ فى حبالك ، ولا تحد عن أفلاكك ، إن طينة المسلم الطاهرة لؤلؤة ، من بحر النبى ماؤها ولألاؤها » :

وكذلك تطارق إقبال إلى حياة الأمة التى تريد مركزاً مرموقا ، وحياة شريفة ، فقال : « إن الحياة طائر لا عش له ، إنها ليسعه إلا الطيران ، إنها طائر طليق ، وفى القفص حبيس ، يخلط تغريده بنواحه ، الحياة تعقد العقد فى أمورها ثم تحل ما انعقد بتدبيرها ، إن الحياة السريعة تقيد قدمها فى الطين لتزيد لذة نمائها وسيرها كل حين ، فإن فى حرقتها ألحانا لا تنفد ، وإن وليد يومها الأمس والغد ، هى كالرائحة حركة لا تقر ، ولكن تسكن الصدر ، فتصير نفسا حيا عقد الحياة فيها ورق وثمر كالحبة ، تفتح عينها على نفسها ، فإذا هى شجرة ، وتلبث الحياة خلعة من الماء والطين ، فإذا هى حواس مدركة ، كذلك سنة ميلاد الأمم أن تجتمع الحياة فى مركز ، المركز من الدائرة كالروح من الجسد ، إن خطها مضمر فى نقطتها ، بالمركز انتظام الأقوام . وبالمركز يقدر لها الدوام ، وإن سرنا فى الحرم ، وفيه بكاؤنا وغناؤنا لا جرم : بستاننا من نداء زاهر وزرعنا من زمزمه ناضر ، وبه علا فى الدنيا صوتنا ، ووصل قديمنا حديثنا إن التئام الملة البيضاء من الطواف بالحرم به توحدت كثرتنا ، واستحكمت بقيد الوحدة عزيمتنا :

يا شاكيا جور الزمان ،

ويا أسير الوهم والحسبان

اجعل قيصك ثوب الإحرام ،

وأطلع الصبح فى هذا الظلام (١)

وتكملة لرسالته فى الحياة وتأدية لواجباته نحو الأمة وتنبيها للشباب من غفلاته ، يبين مقاصد الأمة فى الحياة ، فى حروف واضحة وكلمات :

« إن مقصد الحياة سر بقائها ، وبه يأتلف ما تفرق من قواها ، وإذا تنبهت الحياة لمقصدها وجهت أسباب العالم إليه وتوجهت نحوه تجنى وتنتقى وترد ، فإن الكون يعمل جاهداً حتى يبلغ مقصداً من مقاصده ، فهو يغرس ألف مقصبة ليظفر بأنة من ناى ، وكم صور ورمى وكسر حتى أثبت صورتك فى لوح الحياة ، وكم بث نواحا فى النفس حتى سمع صوت أذان ، وكم حارب الأحرار ، ونصر الأشرار ، وبذر الإيمان فى طين الإنسان حتى قرأ على لسانك كلمة التوحيد » (٢)

(١) كتاب « إقبال » الدكتور عبد الوهاب عزام

(٢) « محمد إقبال » للدكتور عبد الوهاب عزام .

(البقية على الصفحة التالية)

محمد رسول الله

للأستاذ مصطفى عبد الواحد

- ٢ -

« ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان » !

وإذا لم يكن فى تراث الحنفاء من العرب ما يصلح مصدراً لدعوة محمد ، فقد اتجهت طائفة من المستشرقين ، بل يكادون يجمعون على ذلك فى حديثهم عن الإسلام ، إلى أن محمداً قد أتيح له الاتصال بالنصرانية ودراسة مبادئها ، عن طريق أتباع الكنيسة النسطورية ، وأنه تلقى مبادىء الدين عن هؤلاء ، وما كانت دعوة الإسلام - فى نظرهم - إلا اقتباساً من المسيحية لونته البيئة ، وأثرت فيه الظروف . .

يردد ذلك القول الكثير من المستشرقين ، حتى من نظنهم علمانيين لا يدورون فى فلك التبشير ولا يخدمون أغراض الاستعمار الصليبى ، مثل بروكلمان فى كتابه « تاريخ الأدب العربى [1] » .

ولا بأس ! فلنقف أيضاً عند هذا الرأى ، ليس معنا إلا نور العقل ، وبرهان التاريخ وضياء الإنصاف ، ولنطارح مع ذلك الحماسة والعاطفة ! .

(١) انظر الجزء الأول من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ص ١٣٥ .

(البقية على الصفحة السابقة)

وأفاض إقبال فى بيان تبعه شباب الإسلام فى إعلاء الحق ونشر التوحيد ، وحفظ كيان الأمة ، والعمل لرفاهية البشرية وأخيرا وجه كلمته الحاسمة لأمته بقوله :

« إن هـذا العالم مسخر للإنسان وإن للإنسان فيه جهادا ، وإن لذة الإنسان وكماله فى هـذا الجهاد ، وإن الله جعل هذه الدنيا نصيب الأخيار ، وجلا محاسنها لعين المؤمن ، هذه الدنيا طريق للقافلة ، هذه الدنيا امتحان لقوة الإيمان ، فسخرها لئلا تسخرك إن فكر الإنسان يسبح فى العالم ليسخر قواه ويتصرف فيه فنون التصرف ، فاركب الهواء واصدع الجبال ، واستخرج اللؤلؤ من البحار [1] » .

هذا ما سمح به المقام ، ووسعه المقال ، من ذكرى إقبال الفيلسوف المفضال . ؟

محيى الدين الألوائى

(١) نفس المرجع السابق .

من أين له ذلك ؟

ونبادر إلى السؤال : كيف تسنى لمحمد أن يدرس النصرانية ويطلع على مصادرها ؟ لا أن يسمع بها بمجرد السماع ، فذلك أمر شائع فى كل البيئات لا يثمر علما ولا يؤدى إلى تأثر .

إنه ليستطيع الإنسان المحاكاة ويقدر على الاستمداد والتأثر ، لابد له من اتصال قريب يعمق المعرفة ويباشر الوجدان ، ولابد له من ترديد النظر وإجالة الرأى واختيار الفكرة ، ليدرك دوره بعد ذلك وليخرج على الناس بشىء يستطيع الدعوة إليه . .

فمن أين لمحمد الاتصال بالمسيحية ، بل ودراستها والتعمق فى أصولها ، حتى خرج على الناس بهذا « المزيج » الجديد ؟ ! .

هل كان ذلك الاتصال فى مكة ؟

ولا يمكن أحداً القول بأنه كان فى مكة جالية مسيحية ، فضلا عن كنيسة أو مركز دينى يدعو ويؤثر ، بل إن الملاحظ أن المسيحية كانت لا تثير حماس العرب ، قبل الإسلام ، ولا تقع عندهم بموقع .

وقد كانت تجربتهم القريبة مع دولة مسيحية قبل مولد الرسول عام الفيل ، عندما عبر أحد العرب عن سخطه على محاولة أبرهة أن يصرف العرب عن البيت الحرام إلى كنيسة بناها بصنعاء ، فأثارت فعلة العربى الساذج غضب أبرهة ، فأقبل ليهدم الكعبة ، فكان من أمره ما كان مما هو محفوظ مشهور . .

والذين تنصروا من العرب كانوا من الندرة بحيث حفظت أسماؤهم ودونت أخبارهم ، مما لم يجعل للتبشير بالمسيحية فى الجزيرة العربية نشاطا قبل الإسلام .

الرحلة فى حياة النبى :

ولكن المستشرقين يوفرون على أنفسهم مشقة الجواب ، ويبادرون إلى تحديد المصدر الذى درس الرسول عن طريقه النصرانية .

فهم يقرأون فى سيرة النبى - صلوات الله عليه - أنه سافر إلى الشام ، فيجدون فى ذلك دليل رأيهم ، ويرون أنه فى سفره إلى الشام لابد جالس الرهبان وتأثر بتوجيههم وعرف مبادىء الدين عنهم .

ذلك فرض « يحتمل المناقشة ، ولكن المستشرقين يرقون به إلى درجة الحقيقة الثـــابتة ، ويؤسسون على ذلك رأيهم فى الإسلام .

وليس هكذا تناقش المبادىء أو تحاكم الأديان والدعوات !

أما أن الرسول قد رحل إلى الشام قبل نبوته ، فذلك أمر ثابت فى سيرته ، لا ينكره الأصدقاء . ولكن دراسته النصرانية عن هذا الطريق أمر طريف يثير السخرية ولا يتقرر عند العقلاء .

إذ أن الروايات تجمع على أن الرسول سافر إلى الشام مرتين فحسب ، كانت الأولى وهو فى الثانية عشرة من عمره ، وكانت الثانية فى تجارته لخديجة .

فكيف يستطيع محمد فى زورتين للشام ، وكان فى إحداهما غلاما ، أن يتبصر فى النصرانية ويتعمق إلى حد أن « يؤلف » دينا على أساس تلك الدراسة ، يحوى عقائد وعبادات وشرائع !.

أما كان الأجدر بهذا « الاقتباس » رجل رحالة مثل « أبى سفيان » الذى كان يكثر الخروج إلى الشام ، ويتردد فى تجارته بين الأقطار ؟!.

ولماذا يتسنى ذلك لمحمد ولا يتسنى لأكثر العرب بحثا عن الدين وخروجا إلى الشام كذلك ، وهو « أمية بن أبى الصلت » .

وقد كان أمية من رجحان العقل بحظ وافر ، وكان لفرط تشوقه إلى الحق وبحثه فى العقيدة ، يهتدى بالفطرة إلى الغرض السليم وهو وحدانية الإله وضرورة اليوم الآخر حتى قال فيه الرسول بعد البعثة : « كاد أمية أن يسلم » .

كما كان يكثر الجلوس إلى الرهبان فى زوراته للشام ، وكان له منهم الأصدقاء الأوداء .

فلم أخطأه التوفيق ولم يقم بالدعوة التى قام بها محمد ، إذا كان الأمر استفادة من رحلات الشام فى نظر المستشرقين ؟!

قد يقولون : لا لم تكونا رحلتين إلى الشام فقط ؛ بل إنها رحلات ورحلات ، ينقص منها الرواة عن عمد رغبة فى إنكار هذا التأثر !.

ونجيب : فليكن ! ولنفرضوها رحلات عديدة ، مخالفين بذلك الحقيقة والتاريخ ، مضربين عن المقارنة بينه وبين الرحالة العرب فأى مدى ، ترى ، تصل إليه تلك الرحلات فى نفس محمد ؟ .

إلى إتقان النصرانية وإجادة شعائرها ، أو الاقتناع بها والولاء لها . ؟

وهل يجاوز فى ذلك أن يصير راهبا أو متنسكا

لكن ذلك أو أقل منه لم يؤثر عن محمد فى أولى ولا آخرة ، ولم ير فى يوم مؤديا لطقوس أو مفيضا فى عقيدة أو مجادلا فى شأن من تلك الشئون .

وكل ما أثر عنه فى الجاهلية من أمر الدين نوع من التأمل والتفكير فى خلوته السنوية لا يصل به البحث إلا إلى بقايا دين إبراهيم من أمر التوحيد والتنزيه .

فصلة محمد فى الجاهلية بالنصرانية صلة مبتوتة لا دليل عليها ولا شاهد .

ويقول المستشرقون : لسنا نريد أنه دان بالنصرانية ، ولكن المقصود أن اتصاله برهبان الشام وجلوسه إليهم قد لقنه مبادىء الدين ودفعه إلى التفكير فى العقيده مما كان حصيلة دعوة الإسلام ، التى خرج بها على الناس :

وعند هذا الحد نصل إلى نقطة حاسمة ، تتصل بمضمون الإسلام ، تقتضينا مزيدا من التأمل ومزيدا من الإنصاف والحق .

وهل هناك عناصر مسيحية فى الإسلام ؟

إن كان المراد أن دعوة الإسلام ترديد لمبادىء النصرانية [١] ومحاكاة لها كما كانت فى عهد الرسول ، فذلك قول زائف لا يثبت أمام النظر السطحى فضلا عن التفكير والتأمل إذ أن الخلاف بين الإسلام والمسيحية ، خلاف جذرى يتصل بأمر العقيدة ، ويفترق عند حدود فاصلة ، لا يمكن معها ادعاء تأثر أو محاكاة .

فعند « لا إله إلا الله » كان الافتراق الفاصل ، الذى ميز دعوة الإسلام ، وحدد لها غايتها وخط طريقها .

فشتان بين دين يأتى من أول يوم ليدعو إلى عقيدة التوحيد ، لا يحيد عنها ولا يسمح بمساومة حولها ولا إغضاء عن وضوحها ولا شائبة تشوب صفوها أو تغض من قدسيتها وجلالها ، وبين دين يختلف أتباعه فى العقيدة ويفترقون ، ويؤمن أكثرهم بتعدد الإله وتثليثه ...

لقد كانت عقيدة التوحيد أهم مبادىء الإسلام وأخطرها ، وكانت محور الخلاف بين محمد وقومه ...

« أجعل الآلهة إلها واحداً ، إن هذا لشىء عجاب » .

وكل شىء عداها كان يمكن أن تقبله العرب أو تناقشه ...

« وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذاهم يستبشرون » .

والذى يتبصر فى القرآن يرى دعوة التوحيد قد شغلت منه جانباً كبيراً ، وأنها قضية العقيدة الإسلامية الأولى التى كافح الوحى من أجلها .

ولو كان أمر التوحيد فى الإسلام هينا لوفر الإسلام على نفسه العناء الذى لقيه فى دعوة العرب إليه ، ولقبل عرض الكفار حين قالوا للرسول : نعبد إلهك يوما وتعبد آلهتنا يوما ، ولكن القرآن يرفض ذلك بإصرار وحسم : « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد » .

فلو أن الإسلام التقى مع المسيحية فى العقيدة فى الله ، ثم اختلف معها فى فرع من الشريعة أو جانب من العبادة لهان الأمر فى دعوة المستشرقين ، ولكن خلافا أصيلا

---

(١) يذكر بروكلمان من مصادره فى بحثه عن القرآن هذه الكتب : عناصر نصرانية فى القرآن تأليف هرتز والمصادر الأصيلة للقرآن تأليف تزدال طبع فى لندن سنة ١٩٠٥ و « طابع الإنجيل فى القرآن » تأليف ولكر طبع سنة ١٩٢١ و « رسالة محمد وأصالته » لجرنباوم .

فى العقيدة ، لا يمكن معه القول باستفادة أو تأثر ...

لقد كانت عقيدة التوحيد محور الخلاف بين الإسلام والنصرانية ، وبها يقف الإسلام من النصرانية موقف التقويم والإرشاد ، فقد كانت المسيحية فى انتظار الإسلام : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة » .

ولذلك يتجه القرآن إلى أهل الكتاب فى ثقة يحذرهم من الغلو والافتراء ، ويهديهم إلى جانب الرشاد فى العقيدة :

« يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد » .

فمن من العرب الأميين ، مهما رحل إلى الشام وجالس الرهبان أو أقام معهم فى صوامعهم كان يستطيع أن يتحدث إلى النصارى بهذه اللهجة ليهدى إلى جانب الحق ويكشف ما أصاب العقيدة من ضلال ويبين لهم استحالة الولد على الله ؟ ! .

وهل يريد المستشرقون أن الإسلام نزعة إصلاح فى المسيحية ؟ .

إن المذاهب المتفرعة أو محاولات الإصلاح لا بد أن تلتقى عند الجذور الأولى مع المذهب الأصيل ، ولا بد أن تتفق فى أمر العقيدة ، ثم يفسح المجال بعد ذلك للزيادة والابتكار أو الخلاف والتشعب .

ولكن محمداً فى دعوته للإسلام لا يصدق عليه مقياس تأثر أو استفادة من النصرانية إذ أن نظرته إلى أمر العقيدة أعلى درجة وأفسح مجالا ، وموقفه مما تقدم من الأديان موقف الحكم والهيمنة « مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » .

وقد كان القرآن ، منذ العهد المكى ، واضحا فى موقفه من النصرانية ، وحاسما فى أمر العقيدة ، وفاصلا فى حقيقة عيسى ابن مريم عليه السلام .

فالله واحد ، لا شك فى ذلك ولا تردد « قل هو الله أحد » ، « إن إلهكم لواحد » ، « رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا » ، « وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد » .

كذلك كان موقف القرآن من عيسى عليه السلام ، وهو الجانب الخطير فى العقيدة المسيحية واضحاً أشد الوضوح .

فمن البداية يؤكد القرآن أنه لا ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، وأن ادعاء ذلك افتراء وبهتان « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئاً إدا ، تكاد السموات يتفطرن

منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ، إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا » (١) .

وكيف يكون له سبحانه ولد ، والولد يستلزم أن يكون له صاحبة ، تنزه عن ذلك وتقدس ، « وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » (٢) « وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا (٣) » فعلاقة الكون كله بالله علاقة الصنعة بالصانع ، لا فرق بين بشر وحجر .

« أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم (٤) » .

وعلى هذا الأساس يفسر القرآن حقيقة عيسى ابن مريم ويكشف عن قصته اللبس والغموض .

فمريم ابنة عمران امرأة صالحة متعبدة أحصنت فرجها « وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » (٥) اختارها الله سبحانه لتكون فى ولادتها لعيسى من غير أب شاهدا على قدرته التي لا تحد « وجعلناها وابنها آية للعالمين (٦) » .

(١) سورة مريم .

(٢) سورة الجن .

(٣) سورة الإسراء

(٤) سورة الأنعام .

(٥) سورة التحريم .

(٦) سورة الأنبياء

وحينئذ فلا غموض فى أمر عيسى ولا اختلاف . « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » (١) بل إن آدم فى ذلك أعجب وأغرب .

والقرآن يذكر أن عيسى دعا قومه إلى عبادة الله ربه وربهم ، « وأن الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم » (٢) .

ولكن الخلاف فى أمره وغموض التصور فى تلك العصور من التاريخ ، أدى بقومه إلى ألوان من الاتجاهات وعديد من الآراء جانبها الحق ونأى عنها الرشاد ... « فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم (٣) » .

بهذا نطق القرآن فى مكة ، وبهذا حدد الإسلام موقفه من المسيحية ولم يلتق معها فى العقيدة التي هى حجر الأساس فى بناء الدين والتي يتفرع عليها الاتجاه والعمل .

فأين تقع معرفة محمد بالمسيحية من الدين الذى جاء به ، وأين هى الاستفادة من النصرانية التي يدعيها المستشرقون المنصفون ؟

مصطفى عبد الواحد

(١) سورة آل عمران .

(٢) سورة مريم .

(٣) سورة مريم .

الناحية العلمية من إعجاز القرآن

للأستاذ أحمد محمد الغمراوى

— ٤ —

بعد أن أوردنا ما أثبته علم الفلك الحديث للشمس من جرى حقيقى قدره اثنا عشر ميلا فى الثانية فى الفضاء مصداقا لقوله تعالى : « والشمس تجرى » ، فكان ذلك مثلا باهرا للإعجاز العلمى فى القرآن ، لم نتعرض للشطر الثانى من الآية الكريمة : « والشمس تجرى لمستقر لها » ، إذ من الواضح أن المستقر الذى ينتهى إليه الجرى أمر من أمور الغيب التى لا يعلمها إلا الله العزيز العليم ، الذى قدر ذلك الجرى على هيئته ، لينتهى إلى غايته فى الوقت الذى استأثر سبحانه بعلمه ، إذ هو فيما يبدو متعلق بالأشراط الفلكية لقيام الساعة إن لم يكن هو وقت قيامها .

إن السنة الكونية التى يسميها العلم بقانون الجاذبية العام بين الأجرام والتى لا يدرى العلماء لها تفسيراً ولا تعليلا — هذه السنة تقضى بأن جرى الشمس بتلك السرعة لابد أن يكون راجعاً إلى جاذب هائل يجذبها فى الاتجاه الذى تجرى فيه كما تجذب هى سياراتها ، وكما تجذب السيارات ذوات الأقمار أقمارها ، وليس يعلم إلا الله ما هو ذلك الجاذب الهائل ، ليس يعلم إلا الله هل هو جرم واحد بالغ العظم يجذبها فيكون مستقرها أن تصطدم ، وتستقر فيه ، أو هو عدة أجرام فى مواقع مختلفة كل منها عظيم يجذبها فى اتجاهه فيكون لمجموع قوى الجذب فى الاتجاهات المختلفة تأثير قوة واحدة يجرى بها الله الشمس فى مجراها الذى يعرفه العلم الآن سرعة واتجاها ، ويكون مستقرها الذى سوف تصير حتما إليه راجعا : إما إلى تغيرات فى تلك القوى تنشأ عن تغيرات فى مواقع تلك الأجرام المتحركة تؤدى بها فى النهاية إلى توازن تصير به الشمس إلى السكون ، وإما إلى تدخل جاذب جديد يعرض للشمس فى مجراها فى اتجاه مضاد بحيث تكون نتيجة تدخله استيقاف الشمس وسكونها فى النهاية عند الموقف أو المستقر الذى قدره لها الله العزيز العليم ، من غير اصطدام بأحد تلك الأجرام .

وعروض هذا الجاذب الجديد جائز فى الحالة الأولى أيضا ، حالة احتمال أن يكون الجاذب

الهائل جرما واحداً بالغ العظم ، فالله سبحانه أعلم أى هذه الاحتمالات يكون .

لكن مهما يكن منها - أو من غيرها ، وهذا من باب الاحتياط - فلابد أن يتم على الوجه الذى تتحقق به جميع الآثار التى جاءت فى القرآن المجيد وفى الحديث الصحيح من مقدمات الساعة ، كطلوع الشمس من مغربها فى حديث أبى ذر ، أو من أحداث قيام الساعة نفسها كجمع الشمس والقمر فى سورة القيامة .

فانظر إلى ذلك الجرى الذى أثبته القرآن للشمس وحققه علم الفلك الحديث بعد نزول القرآن بقرون وقرون ، ثم إلى ذلك المستقر الذى أخبر القرآن ، فى أوجز لفظه وأفصحه وأوضحه ، أنه غاية ذلك الجرى ونهايته ، وإن لم يعرف العلم عنه شيئا بعد - انظر إليهما معا كيف إنهما فى ضوء سنة الجاذبية العامة قد استلزما أن تكون الساعة وأشراطها وأحداثها لا خرقا ، ولكن طبقاً للسنن الكونية التى فطر الله عليها الكون ، ومن الممكن للفلكى الحديث المتمكن من العلم ومن فقه كونيات القرآن معاً أن يسترشد بتلك الأشراط والأحداث الفلكية ، كما جاءت فى كتاب الله وعلى لسان رسوله فيستنبط منها ومن الثابت اليقينى فى العلم ، كثيراً مما لابد منه كى تتحقق الآثار بالترتيب الذى ينبغى أن تكون عليه ، أما الذى لا يمكن لأحد أن يعرفه تطمهما بلغ من العلم والفقه والبصر فهو الوقت الذى قدر لتلك الآثار والأشراط والأحداث أن تقع فيه على التتابع أو التجمع الذى قدره الله لها ، فإن الله سبحانه قد استأثر بعلم ذلك الوقت كما أخبر فى كتابه العزيز .

وتنكير المستقر فى قوله تعالى : (عظم المستقرلها) ، يشير إلى شأنه وهول آثاره التى ستكون ، كالذى نبه إليه الإمام عبد القاهر من دلالة التنكير فى قوله تعالى : (وأمطرنا عليهم مطراً) فى قصص قوم لوط ، والقرينة على هذه الدلالة فى إحدى الآيتين تختلف عنها فى الأخرى لاختلاف المقام فى كل ، كما يدل عليه السياق ، فالمقام فى آية قصة قوم لوط مقام تحذير من عاقبة الإصرار على الغواية وتكذيب الرسل ، فكانت القرينة قوله تعالى : « فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » فى آية (٨٤) من سورة الأعراف ، وقوله تعالى : « فساء مطر المنذرين » فى آية (١٧٣) من الشعراء ، وآية (٥٨) من النمل « وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) الأعراف .

« وأمطرنا عليهم مطراً ، فساء مطر المنذرين » النمل والشعراء .

أما المقام فى آية يس فهو مقام تحذير إجمالى

من تكذيب الرسل ، وتنبيه تفصيلى إلى بعض آيات الله الكونية الدالة عليه سبحانه وعلى كمال قدرته وحكمته ، وجلال فضله ونعمته على عباده . فكانت القرينة قوله تعالى : « ذلك تقدير العزيز العليم » فى الآية ٣٨ : « والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم » .

والإشارة فى « ذلك » هى طبعاً لكون الشمس تجرى لمستقر ، أى الجرى وغايته معاً لا لأحدهما وحده ، وغريب أن يكون غاب عن الفخر الرازى شمول التقدير للأمرين جميعاً ، إذ جعل اسم الإشارة راجعاً إلى الجرى أو إلى المستقر على الاحتمال ، كما تراه فى موضعه من الجزء السابع من تفسيره .

وكما دل التنكير على عظم شأن المستقر الذى تنتهى إليه الشمس فى جريها الحقيقى فإنه أيضا قد سمح لأكثر المفسرين أن يذهبوا فى معنى المستقر إلى ما يتفق وجرى الشمس الظاهرى وتغير مواقعها فى الشروق والغروب طوال العام ، وترددها فى ذلك كل عام بين أقصى موقعين تبلغهما فى الشتاء والصيف لا تتعداهما بحال ، فكل موقع من هذين الأقصيين هو لها مستقر فى الشتاء مرة وفى الصيف أخرى ، هذا هو خبر ما قاله الأكثرون ، ولولا تنكير « مستقر » ما استقام لهم هذا لأنهم يقررون أن الشمس إذ تبلغ أحد الموقعين تبدأ ترجع أدراجها حتى تبلغ الموقع الآخر فى ستة أشهر وليس هذا باستقرار إلا على وجه مجازى يبيحه التنكير .

وفى المفسرين القدامى من قال : إنه لا استقرار للشمس فى حركتها حتى يجئ يوم القيامة فتبطل حركتها وتستقر ، وهذا أقرب تفسير إلى الصواب لولا أن أهله قصدوا بحركة الشمس هذه الحركة اليومية الظاهرة الراجعة فى الحقيقة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس والراجع اختلاف المشارق والمغارب فيها إلى اختلاف مواقع الأرض من الشمس فى حركة الأرض السنوية ودورانها حول الشمس مرة فى العام فهم طبعا لم يقصدوا الحركة الحقيقية العظيمة المسرعة التى أثبتها العلم للشمس وأنبأ بها القرآن قبل أن يولد علم الفلك الحديث فكان ذلك للقرآن معجزة علمية كبرى ينبغى أن يتذكرها دائما كل مسلم مثقف ويجعلها نصب عينيه ليزداد بها يقينا : أن القرآن من عند الله حقا ، وليعرف عن اقتناع أن ليس هناك شطط ولا تكلف فى المطابقة الصحيحة الدقيقة بين يقينيات العلم وكونيات القرآن .

فهذه المطابقة ، بالصورة التى رأيتها فى هذا المقال والذى قبله ، قد بينت صنوفا

من الإعجاز فى آية يس لا يكاد الإنسان يقضى حقها عجبا ، آية من أربع كلمات تحوى فى كلمتين معجزة علمية : (والشمس تجرى) ، وتحوى فى كلمتين أخريين (لمستقر لها) نبوءة مذهلة ستتحقق من غير شك لأنها قرينة المعجزة العلمية الصادرة عن فاطر الشمس سبحانه ؛ ثم تحوى فى الكلمات الأربع إعجازا بلاغيا فى مراعاة مقتضى الحال ، إذ تتحمل فى كل من شطريها تأويلا يتفق مع الظاهر للناس من حركة الشمس حتى يهتدى بها الناس جميعا ، من عرف سر هذه الحركة النسبية ومن لم يعرف ، من عرف هذا السر اهتدى به وبالمعجزة العلمية التى حوتها الآية ، ومن لم يعرف اهتدى بموافقة الآية للحركة التى يرى.

* * *

ودوران الأرض حول محورها ودورانها حول الشمس : ما موقف القرآن منهما ؟ وهل فيه دلالة عليهما ؟

إن هذا التسآل ليس فيه افتيات كما قد يظن بعض من يخشى أن نحمل آى القرآن ما لا تحتمل ، بل هو تسآل ينبغى أن يكون . إن الله قد أنبأ بالحركة الذاتية للشمس ليكون فيها وفى الإنباء بها آية للناس ، فمن المعقول أن يدل الله فى كتابه على الحركة الذاتية للأرض التى يخلق بها سبحانه هذه الحركة الظاهرة للشمس ، ليكون فى الدلالة على حركة الأرض فى القرآن الكريم آية أخرى للناس تهدى إلى الله وتشهد للقرآن مرة أخرى : أنه حقا من عند الله ، فقد لبث الناس عامتهم وخاصتهم قرونا بعد نزول القرآن ، وهم يعتقدون أن الأرض ثابتة لا حراك بها إذ ليس للأرض حركة محسوسة فى الظاهر كحركة الشمس النسبية من المشرق إلى المغرب التى فسرها فلاسفة اليونان تفسيرهم الذى خطأه علم الفلك الحديث من جميع الوجوه .

وفى الحق أن هذا المعقول أن يكون قد كان فصلا فى القرآن ، ففى القرآن الكريم دلالات متعددة على حركة الأرض بنوعيها جاءت عن طريق الإشارة ، لا صريح العبارة مراعاة لمقتضى الحال فى خفائها وعدم إحساس الناس بها ، فلو أن القرآن العزيز صارحهم بحركة الأرض وهم يحسونها ساكنة لكذبوه وحيل بينهم وبين هدايته ، فكان من الحكمة البالغة ومن الإعجاز البلاغى فى الأسلوب أن ينبه الناس فى كتاب الله إلى آيته سبحانه فى حركة الأرض حول محورها وفى حركتها حول الشمس بمختلف الإشارات إلى نتائج كل من الحركتين ، منا عليهم بها وحثا لهم على اكتناه أسبابها .

ومن أعجب مظاهر المن والحث مجتمعين القسم : قسم الخالق سبحانه بمخلوقاته حين غفل الناس من آياته فيها لما تعودوا وألفوا

منها حتى غطت العادة والألفة على مواقع النعمة ومواطن الحكمة ومواضع العبرة فيما خلق لعباده ، فإذا أقسم الله سبحانه فى كتابه العزيز بالليل وبالصبح وبالضحى وبالنهار أفلا يكون فى هذا أكبر داع لهم أن يتأملوها ويتساءلوا : ماذا أودع الله فيها من مجالى حكمته ومظاهر عظمته وقدرته حتى استحقت أن يقسم لعباده بها وهو خالقهم وخالقها ؟ فإذا بحثوا وعرفوا أنها ناشئة عن حركة للأرض فى كل يوم أمام الشمس ، أفلا يكون فى ذلك القسم دليل إلى تلك الحركة .

على أن الله سبحانه لم يجرد القسم من إشارة تدل على طبيعة السر الذى أودع فى المقسم به . فقد وصف الليل عند القسم به بالإدبار تارة : (والليل إذ أدبر) فى قراءة نافع وحفص ومن إليهما ، (والليل إذا دبر) فى قراءة أكثر القراء العشرة [1] ، ووصفه بالإقبال والإدبار كليهما فى قوله تعالى (والليل إذا عسعس) لأن الفعل معنـــاه : أقبل ظلامه أو أدبر كما فى القاموس ، ووصفه بالسرى فى سورة الفجر : (والليل إذا يسر) فى قراءة أكثر العشرة وقفاً ، (والليل إذا يسرى) فى قراءة ابن كثير ومن إليه . وكلها أوصاف تقتضى الحركة وهى كناية عجيبة عن حركة الأرض اليومية لا تفهم على حقيقتها إلا إذا تذكرنا أن الظلمة هى الأصل فى جو الأرض فى النصف غير المقابل للشمس ، وإلا إذا تصورنا الأرض تدور حول محورها دورة فى اليوم من المغرب إلى المشرق أمام الشمس ليتعاقب فيها الليل والنهار على كل مكان فى الأرض على جانبى خط الاستواء إلى قريب من القطبين .

ومن عجيب أمر القسم بالصبح وبالنهار فى القرآن الكريم أنهما لم يوصفا بإقبال ولا بإدبار ، لأن ذلك لو كان لما جاء بمعنى جديد إذ هو لازم حتما من إدبار الليل وإقباله ، ولكنهما وصفا بالوصف الخاص بهما ، الناشئ عن سلوك الضوء ، ضوء الشمس فى الغلاف الهوائى المحيط بالأرض وولوجه فيه تدريجا عن طريق الانكسار فى طبقات الهواء العليا الأخف إلى طبقات الهواء السفلى الأكثف ، من الفجر إلى الإسفار ، ثم انتشاره بعد طلوع الشمس تدريجا أيضا بالانعكاس على الأخص وبالانكسار أيضا حتى يعم النهار ولولا الغلاف الهوائى ما كان هنـــاك فجر ولا صبح ولا إسفار فى أول النهار قبل طلوع الشمس ، ولا شفق فى آخر النهار بعد غروبها ، فليس شئ من ذلك بكائن على القمر مثلا بعد أن فقد هواءه لضعف جاذبيته الناشئ

(١) من كتاب البدور الزاهرة فى القراءات العشر المتواترة للشيخ : عبد الفتاح القاضى شيخ معهد القراءات بالأزهر .

عن صفر كلفن مع سرعة حركة الجزئيات في أى غاز .

من أجل ذلك جاء القسم بالصبح إذا أسفر بعد القسم بالليل إذا أدبر في سورة المدثر ، وجاء القسم بالنهار إذا جلى الشمس في الآية الكريمة (والنهار إذا جلاها) من سورة الشمس ، وليس على القمر نهار كالذى نعرفه على الأرض تنجلى فيه الشمس ، فسماء القمر تظل مظلمة في نهاره الطويل طول نصف شهره عندنا ، كما هو الحال في نهارنا أيضا إذا علونا الغلاف الجوى بهوائه وسحبه كما استنتجه العلماء من أن الضوء لا يرى بذاته ولكن بالانعكاس عن المرئيات ، وكما شاهده طيارو الفضاء حين دارت بهم القمير ات الصناعية حول الأرض أعلى من غلافها الجوى بكثير .

ومن عجب أن هذا الذى يستنتجه العلماء وشاهده طيارو الفضاء من ظلمة السماء قاطبة بالنهار إذا علونا الأرض وجاوزنا غلافها الهوائى ـ هذه الحقيقة التى لم يكن ليصدق بها أحد من قبل قد دل عليها القرآن المجيد صراحة في كلمتين هما (وأغطش ليلها) في قوله تعالى: (أأنتم أشد خلقا أم السماء ؟ بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها) فالضمير في (ليلها) راجع إلى السماء التى تتكلم الآيات الكريمة عنها وحدها ، فالله سبحانه ينبئنا أنه أظلم ليل السماء لا ليل الأرض ، ومع ذلك فقد فات المفسرين دلالة هذه الإضافة ، وهم معذورون إذ صرفوها إلى ما يعرفون من هذا الليل ، وجعلوها من المجاز ولو لزموا النص ودلالته لاهتدوا إلى حقيقة عجيبة غريبة أنبأ بها القرآن ولم يحققها الإنسان إلا منذ سنوات لما بدأ عصر الفضاء هذا ، فأثبت بذلك من حيث لا يدرى معجزة علمية أخرى للقرآن ليس إلى جحودها سبيل .

فإذا ما تجاوزنا القسم وإشارته واسترددنا من الدلالة على حركة الأرض اليومية في القرآن وجدناها في قوله تعالى : (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا) في الآية (٥٤) من سورة الأعراف . فالمغشى يصح أن يكون الليل أو النهار لأن التعبير يحتملهما كما يقول الزمخشرى ، وإذن فهو يشملهما إذ لو كان أحدهما هو وحده المغشى لا الآخر لجاء التعبير القرآنى نصا في ذلك لا يحتمل غيره ، لأنه كلام الخالق سبحانه لا كلام مخلوق يجوز أن يأتى لفظه أضيق أو أوسع من المعنى الذى قصده ، وإذن فكل من الليل والنهار يطلب الآخر طلبا حثيثا بإذن الله كى يغشاه حتى يغشاه ، ثم يكون ذلك على وجه التجدد المستمر كما تفيده صيغة المضارعة في الفعلين مع الحالية في الفعل الثانى . فتأمل معى جلال هذه الكلمات القرآنية الخمس كيف صورت أدق تصوير تلك الظاهرة الكونية العجيبة

ظاهرة زحف النهار إثر الليل حالا محله من طرف ، وزحف الليل إثر النهار حالا محله من الطرف الآخر فى كل بقعة من بقاع الأرض أثناء دورتها اليومية حول نفسها أو حول محورها أمام الشمس نتيجة لذلك الدوران الذى يدل على عظم جلاله وجماله مرجع الضمير فى قوله تعالى (يغشى الليل النهار) .

ثم هذا الدوران نفسه قد دل القرآن عليه بما يكاد يكون نصا صريحا فى قوله تعالى : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) فى الآية (الخامسة) من سورة الزمر . والتكوير اللف واللى ، يقال : كار العمامة على رأسه وكورها ، كما يقول الزمخشرى فى تفسيره . إلا أنه جعل يلتمس لذلك معنى مجازيا لما غاب عنه ما ظل مجهولا للناس أجمعين القرون بعده من أن الله سبحانه يلف الليل على النهار بلف محورى حقيقى للأرض التى هى محل الليل ، ويلف النهار على الليل بلى حقيقى لأشعة ضوء الشمس فى غلاف الأرض الهوائى الذى تملأه الظلمة وهى تدور . وفى الفعل (يكور) المكرر مرتين فى الآية الكريمة معجزة علمية أخرى ، إذ قد دل بوضوح على كروية الأرض بكروية جوها الذى يشغله ويتعاوره الليل والنهار على التجدد فى كل بقعة من بقاع الأرض . وفى هذا غناء عن الاستشهاد بكلمة (دحاها) فى قوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) فى الآية (٣٠) من سورة النازعات .

فإن احتجت إلى مزيد من الدلالة فى القرآن على الحركة اليومية للأرض فأنت واجد حاجتك بإذن الله فى قوله تعالى (ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون) ومعنى الكلمات الأربع الأولى ظاهر مما تقدم ، فلا محل للإشكال الذى ذكره الفخر الرازى أما الشاهد فهو فى الكلمات الأربع الأخرى : (وكل فى فلك يسبحون) وقد جاءت فى إثر الأربع الأولى كما ترى فهى تشمل الليل والنهار المذكورين فيها ، كما تشمل الشمس والقمر المذكورين فى مفتتح الآية الكريمة : (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون) من سورة يس . فالليل والنهار يسبحان فى فلك ، لكل فلك يدور فيه ألا وهو فلك الأرض أو بالأحرى فلك جوها الذى يدور بدورانها مرة حول محورها أمام الشمس كل يوم .

أما حركة الأرض السنوية حول الشمس ففى القرآن الكريم دلالتان عليها على الأقل : إحداهما عن طريق الإشارة إلى أثرها فى الليل والنهار من حيث تداخل أحدهما فى الآخر من جهة الطول والقصر على تتابع الفصول الناشئة عن تلك الحركة ، وذلك فى مثل

قوله تعالى : « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » فى الآية (١٣) من سورة فاطر . وقوله تعالى : « ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » فى الآية (٢٩) من سورة لقمان . وقوله تعالى : « ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » فى الآية (٦١) من سورة الحج . وتكرار المعنى هكذا فى آيات متعددة توكيد له من ناحية ، وتنبيه من الله لعباده أن يتطلبوا سر هذه الظاهرة الكونية التى يحسونها من ناحية أخرى . والسر هو فى تلك الحركة كما عرفها الفلكيون والجغرافيون خاضعة للسنن الكونية الثلاث المعروفة بقوانين « كبلر » لدوران السيارات حول الشمس ، وللقانون الجاذبية العامة التى كشفها وكشف قانونها « نيوتن » .

أما الدلالة الثانية فهى أهم لأنها إشارة تكاد تكون فى صراحة عبارة تنص على أن للأرض حركة غير حركتها اليومية . تلك هى دلالة قوله تعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء » فى الآية (٨٨) من سورة النمـــل .

والسحاب، كما هو معروف لا، يتحرك بذاته ولكن ينتقل محمولا على الرياح ، فكذلك الجبال يراها الرائى فيظنها جامدة فى مكانها وهى تمر مسرعة محمولة أيضا . وليس لها حامل إلا الأرض . فالأرض إذن هى المسرعة بها كما تسرع الرياح بالسحاب ، وكلا الأمرين صنع الله الذى أتقن كل شىء . فالاستنتاج فى الواقع قريب غير بعيد ، يسره الله لأهله بذلك التشبيه العجيب الذى دل أو ينبغى أن يدل الناظر إلى أن فى حركة الأرض الحاملة الجبال من آيات الله ومن المنافع لعبـــاده ما يشبه الآيات والمنافع التى أودعها الله فى حركة الرياح الحاملة للسحاب ، والتى نوه الله بها فى آيات كثيرة من كتابه الحكيم .

وليس عجيبا أن يفوت المفسرين جميعا هذا المعنى على قربه لمن يعرف ما أثبته العلم الأرض من حـركة حول الشمس ، لأنهم ـ رحمهم الله ـ لم يكونوا يعرفون أن الارض حركة ما ، لا يومية ولا سنوية . ومن هنا صرفوا المعنى عما يقتضيه المفعول المطلق فى الآية الكريمة وما يستلزمه قوله تعالى : « صنع الله الذى أتقن كل شىء » ، من أن الظاهرة التى لفت الله إليها الإنسان فى قوله : « وترى الجبـال ... » الآية . هى ظاهرة كونية فيها من إتقان الصنع ما يدل على جلال حكمته وقدرته سبحانه ، وما ينافى ما سماه قدامى المفسرين نقضا لسنن الله فى الكون يوم القيامة أو بين يدى يوم القيامة ، من نسف الجبال نسفا إلى آخـر

ما قطعت الآيات القرآنية المتعلقة بالساعة وأشراطها والزمخشرى وحده هو الذى أدرك بذوقه البيانى عدم التلاؤم بين قوله تعالى (صنع الله الذى أتقن كل شىء) وبين ما سيحل بالجبال بين يدى الساعة ، فقدر محذوفا يليق فى رأيه بذلك الصنع المتقن إذ قال « والمعنى ويوم ينفخ فى الصور وكان كيت وكيت أثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين ثم قال (صنع الله) يريد به الإثابة والمعاقبة وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التى أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب ، إلى آخر ما قال مما رفضه غيره مثل أبى حيان فى تفسيره ونسبه إلى مذهب الزمخشرى فى الاعتزال .

ولو عرف الزمخشرى وأبو حيان ما نعرفه اليوم من دوران الأرض حول الشمس بتلك الكيفية الباهرة ، وما يحكمها من تلك السنن الإلهية الدقيقة القاهرة ، وما يترتب عليها من المنافع للناس إذن لكبروا الله ولسارعوا إلى المعنى المتبادر من الآية ومن تشبيهها التمثيلى ومن القرائن الحسية والبلاغية فيها ، وليفهموا الخطاب فى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) على أنه خطاب للإنسان الآن وفى كل عصر آت يدله على آية من آيات الله الكبرى عله يهتدى بها إلى الله ، كما دله فى الآية التى قبلها بآيتين على مثيلة أو مثيلات لها تهدى إلى الله أو من شأنها أن تهدى إليه سبحانه وهى قوله تعالى : (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) . والسياق ودلالته ينبغى على الأقل أن يشمل هذه الآية ودلالتها فيما يشمل ، وإذن تسقط حجة المحتج بأن آية (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وكل أتوه داخرين) فى موضعها بين الآيتين ، تشهد بأن يجعل آية الجبال خاصة بما يتعلق بالجبال من أحداث يوم القيامة .

وبعد ، فإن من لطيف المناسبة أن تشير آية (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا) إلى ظاهرة تنشأ عن إحدى حركتى الأرض ، وأن تشير آية (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) إلى الحركة الأخرى تلك الإشارة الواضحة العجيبة : ومن حكمة الله البالغة أن جعل بين الآيتين آية تتعلق بيوم البعث لتصرف الأذهان بها عن المعنى الذى لم تكن لتعقله قبل أن يأذن الله بالكشف عن سنة الله فى حركة الأرض حول الشمس كسيار من السيارات التى أقسم الله بها ، تنبيها إلى آياته فيها ، إذ يقول سبحانه : (فلا أقسم بالخنس ، الجوارى الكنس) فى الآيتين (١٥ ، ١٦) من سورة التكوير ؟

محمد أحمد الغمراوى

آذان الفجر في بلاط الشهداء

للأستاذ محمد رجب البيومي

« تروى الأساطير التاريخية أن صوت الأذان الإسلامى قد ظل يسمع عند الفجر بساحة بلاط الشهداء مائة عام ، وأن حمائم بيض كانت ترفرف ساعتئذ ويراها الناس » .

يروع الحجا هذا الأذان المحير   من الأرض ، يتلى أم لدى الخلد يذكر
تخيلته من جنة الخلد صادحا   وإلا فما هذا الأريج المعطر
يضىء به الفجر ائتلاقا على الربى   كأن شعاع الفجر صبح منور
ترده الأرواح نشوى كأنما   لها قبل يوم الحشر فى الفجر محشر
تنزل من عليا السماء وضيئة   كأوسمة من سدة العرش تنثر
حمائم ليست كالحمام وإنما   يرف مع الورقاء روح مطهر
تراقبها فى الفجر تهبط من عل   فتخشع إجلالا لها حين تنظر
ترى الأفق مزهواً بها متخايلا   فصفحته الحمراء ورد منضر
وكانت دماً يوم الوغى فتفتحت   وروداً بها عطر الشهادة يبهر
كأن نسيم الفجر يحمل عطرها   شذاً كاد منه الميت فى القبر ينشر
حمائم جنات النعيم هديلها   هتاف بترداد الأذان مكرر
أبت أن تمس الأرض مسا ، وإنما   لها فنن فى الخلد ريان أنضر
دنت ذات طوق فى احتفاء لأختها   تذكرها الأمس القريب فتذكر
تسائلها : ماذا أصاب هداتنا   فضلوا سبيل الحق والنهج مسفر
أتيناهمو بالنور يهدى شعاعه   ملايين فى ظلمائها تتعثر
شعوباً بأوربا تكاثف جهلها   وكاد دجاها فوقها يتحجر
لقد ألفوا الليل البهيم فإن يروا   مشاعل ضوء تطمس الليل يذعروا
أتيناهمو كالأصدقاء وعندنا   من الدين والأخلاق سفر مسطر
لم مالنا لا نبتغى أن نذلهم   فما فى بنى الإسلام من يتجبر

عليهم جميعاً ما علينا ، وإنها ... مساواة دستور يطاع فيأسر
إذا نزل الغيث الروى فكلنا ... سننهل منه إذ يفيض فيذخر
ألم يشرب الطغيان بغياً دماءهم ... فهم فى سطاه كالسوائم تنحر
شراذم أميون إلا قساوساً ... إذا استظهروا الإنجيل لم يتدبروا
يرون قذارات الجسوم فضيلة ... مقدسة ، يا ويل من يتطهر
معاذ الهدى أن نسلب القوم دينهم ... مراغمة ، بل راشد يتخير
لديه طريق الحق ، إن يستجب له ... مضى قدماً فيه ، وما ثم مجبر !
فيا ليتهم قادوا لرشد يقودهم ... إلى حيث ينجو بالرشاد مفكر
ثعابين فى الأحراش يرشح سمها ... تحكم فيها أفعوان مسيطر
دعاها إلينا ، شارل مارتل ، فارتمت ... كطوفان موج خلفه يتحدر
أتينا نميط الشر عنها فصدها ... عن الخير شر فى النفوس مقرر
لهم صرخات بالعراء كأنهم ... نمور بأدغال تصيح وتزأر
تردوا جلود الوحش فى الكون فاغتدى ... لهم نسب عند الوحوش مؤصر
شعور تعم الجسم والوجه أرسلت ... عليهم ففيها للقذارة مظهر
إذا غمر الشعر الكثيف صدورهم ... تجلى من الإنسان ذئب مصور
ولما تلاقينا ودوى هتافنا ... يشق عنان الأفق : الله أكبر
ولما تراءينا ولاحت سيوفنا ... تضىء مثار النقع والجو أكدر
تجلت لجيش الغافقى مهابة ... وتم له مرأى بديع ومخبر
وخاضت خيول الله فى ساحة الوغى ... تجدل ما شاء الكفاح وتأسر
ولاح بريق النصر يومض فجره ... وبعد هنيهات يفيض فيبهر
رأوا حتفهم يدنو فراموا مكيدة ... تقوم مقام الحرب والكيد أقدر
سرت صيحة أن الغنائم هوجمت ... ففر من الميدان قوط وبربر
لئن حسبوا فقد النضار خطورة ... لقد جلبوا العار الذى هو أخطر
لقد كشفوا الإسلام ، لولا عصابة ... رأت أن وعد الموت حتم مقدر
وأن لقاء الله أنفس مأرب ... لمستشهد يلقى الجنان فيؤجر
ولم أر مثل الغافقى قد انبرى ... ومقلته من جاحم الغيظ تسعر

بعاطسه استشهادنا فتأججت ... مواجده ، وانقض غضبان يثأر
فيوم هوت فيه الشوامخ رهبة ... فلا صرح إلا مائل يتبعثر
تزين به الصرعى أكاليل عزة ... فيا مصرعاً فيه الأكاليل تضفر
مشوقا تصبته الشهادة فارتقى ... لها ، ومحياه من البشر يزهر
وكان مرد الموت سهلا ، فلم يشأ ... فرارا ، وأنى ، وهو فى الروع قسور
لئن كان فى الدنيا أميرا فإنه ... كذاك أمير فى الجنان مؤمر

* * *

ورفت عليها من قريب حمامة ... تسامرها ، والطير فى الخلد يسمر
يهيب بها : كفى ملامك عنهمو ... فنحن عن الجانين نعفو ونغفر
لقد جهلوا ما نفتديه من الهدى ... وكل جهول لا محالة يعذر
ولو درسوا أخلاقنا لتقدموا ... إلينا على شوق ، ولم يتأخروا

* * *

فصاحت بها : أختاه ، لم يخف ديننا ... عن الناس ، وهو المستفيض المشهر
ألم يسألوا الأسبان ، عما ترومه ... وهم إخوة ، إن يسألوا الرأى أخبروا
ألم تك أسبانيا مباءة فسق ... يعيث بها الإقطاع عهراً فيفجر
أليس رقيق الأرض فيها شراذما ... مع الطين تشويها السياط فتصهر
طغى النبلاء المتخمون على الورى ... فكل نبيل فى التجبر قيصر
يسير وأحراس الرقيق تحوطه ... وما منهمو إلا الذليل المسخر
وأخرى من الكهان عز دواؤها ... تسيل جراحا بالمكيدة تنغر
لقد شرعت سود المآثم والخنى ... لدن أيقنت : أن الكنائس متجر
إذا فاض بالشكوى أجير معذب ... تلوا نص إنجيل به يتخدر
شرور تلظت نارها فلوى بها ... من الفاتحين الأريحيين عسكر
أحالوا ديار القوط فردوس جنة ... ترعرع فيها العالم المتحضر
مدارس التثقيف فاضت حياضها ... وطوفانها الجياش بالعلم يزخر
محاكم للحق النزيه تسودها ... مساواة شرع بالعدالة يجهر
مصحات طب ينتحيها أخو الضنى ... فينشط لا يثنى خطاه مكدر

(البقية على الصفحة التالية)

خاتمة المطاف

للأستاذ علي الخطيب

العفة هبة المرأة التي بها تعز ، والحب مطلبها الذي به تسعد ، وجلال حياتها أن يتوج عفافها بحب تنعم به ، ويشيع فيها الثقة والاحترام

وإذا كان الرجل تقوده عيناه إلى الجمال فإن عقله يدفعه إلى العفة ، وتبلغ سعادته القمة حين يطمئن لوجودهما معاً في إنسانة فيسكن إليها سعيداً ، ويهواها دواما ، والرجل الشرقي — بخاصة — إذا فقد العفة في المرأة لا يجذبه جمالها في الغالب ، وإنما يبحث من جديد ، ويفضل العفة في النهاية ، ويضحي بالجمال ، لما استقر في نفسه من « شرف » البيت ، والشغف بالولد والحرص على تربيته فالعائلية عميقة الجذور في نفسه ... تتكامل شخصيته بوجودها ، ويرتاح بتحقيقها .

ولقد فتن الشرق من بعد الغرب ...

فتنته حرية المرأة ...

(البقية على الصفحة السابقة)

حدائق تكسوها الرياحين بهجة / وأدواحها اللفاء تزهو وتثمر

ولو لم تتح للناس أندلس لما / غدا لجمال الكون في الكون منظر

ولو لم تتح للناس أندلس لما / غدا لسمو الفكر في الناس مظهر

تحرر شعب من براثن قيده / وأعجب بوثب الشعب إذ يتحرر

وعاد رقيق الأرض للأرض سيداً / له من نداها كوثر يتفجر

ألم يسألوا الأسبان هنا فيعرفوا / رسالتنا ، إن صاح بالشك منكر

أردنا ارتقاء بالمذاكيه للذرى / فأمكن منهم حسهم فتدهوروا

• • •

ومرت هنيهات فطارت لأوجها / حمائم ، كانت نشوة تتخطر

قضت ساعة الذكرى وخفت لأيكها / وقد تسعد اللذات من يتذكر

دعاها إلى الفردوس رضوان فاغتدت / لقد صدق في ربى الخلد يؤثر

وما زال في سمعي ، وقد غاب طيفها ، / يرن هتاف الفجر : الله أكبر

محمد رجب البيومي

وليس المهم أن نتساءل ... عن فلسفة هذه الحرية ... وإنما نحن سنمرهنا بواقعها واقعها المرير الذى نفرت منه ... أخيراً ... المرأة ...

لقد بدت المرأة الغربية تملأ علينا خيالنا بحوريات الجنان .. حين خطرت فى بلاد الشرق سائحة ... أو بدت على « الشاشة » مشخصة ... أو ماست بـ « الأزياء » عارضة جميلة إذا سترت جسدها ، أو حسرت عن جيد ، أو كشفت عن ساق ... تبدو فى ذلك كله « حرة » تختار ما تريد (وتهوى) من تشاء ، (وتسكن) إلى من تختار .

واستخدمت أدوات التزيين الغربية فجرت على وجهها ظلالا ، ورموشاً ، وألوانا .

وجذب الفن شعرها ... وأبدع تشكيله ، وزوده بقلانس ذوات شعور مختلفة القص والاسترسال ... تتوزع مع أوقات الليل والنهار يصاحبها ملبس أنيق ، وعطر خلاب ... يتجدد بذلك كله مطلعها حتى كأن الواحدة منهن سبع نساء ...

وخطرت من قبل ذلك وبعده إلى معاهد الرقص نخفت حركتها ، ورشق هيكلها ... وفى معاهد التجميل ... ألقت بشحمها ، واختصرت سنها ، واكتسبت نضارة الوجه وجمال القوام علق ، وضايها الثوب فأبرز هذا الجمال ، أو فضفض فباح بلدانة جسدها وأثار الخيال .

واغتبط الرجل فى كل أنحاء الدنيا !

ولم (يقوّم) هذا المظهر الجميل بمقدار ما طرح فى بيت الزوجية من (سعادة) أو بنى من (خلق) ... أو قدم من (تربية) .

ولكنه (قوم) فى سطحية انطباعات مشاعره حين رؤياه هذا الجمال المشرق ... والملبس الفاتن .. والجرأة القاهرة .

وكان الشرق ورجاله ـ إلا من عصم الله ـ أول من حمى فأخطأ التقويم ، واعتبر هذا « المظهر » عنوان التقدم ... فنادى به ... وصرخ فى وجـــه من تصدى الطريق ... وبعد جيل ... نادى بعضهم : الشرف شىء . والجنس شىء آخر .

وكانت المرأة فى الشرق قد بهرت بهذا المظهر ، وكانت فتنته على أعصابها قاهرة ، وزت منها الحكمة ، ووأدت منها البصيرة ، وغالبا ما كان الرجل بجوارها يهوى ذلك ... فاندفعت تقلد ... وتبدع ... وسارت فى الطريق . طريق ملىء بالجمال ... فواح بالعطر ، لكن أرضه ستر فوق بركان ، غامض بذير معالم ... متشعب الأنحاء ... ملتوى الاتجاهات ... تتقصف فيه السائرات ، وكم ضاعت فيه نساء بعد أن ضيعن كل شىء ... وذهبن دون دمعة وداع ... أو رثاء حبيب ، تبق أو ذكرى فى نفس زوج ... أو عطف تمتلىء به روح ولد ... وفطنت المرأة الغربية التى بدأت بفتح الطريق ... حتى انتهت إلى آخره ... فارتدت منه بوجه حزين انسابت

منه الدموع .. وعلته الغبرة ... وبدا عليه الجهد والذلة ... خاوية اليدين ... تلتفت إلى ماض مظلم كئيب ... ولا تجد أمامها مستقبلا يشرق بأدنى أمل ، فالتفتت إلى أخواتها ... أخواتها الذليلات ... يطلبن محاولة أخيرة ، وقد كان ...

لقد كان أقسى شيء على نفسها أن تهون على المجتمع نفسه ... وتفتقد فيه النصير ... فلا رجل أخلاق ... ولا مصلح اجتماع ... بعد بدأ ... وقد نبذ الكل قضيتها ... وكان واضحا لها ... أن الرجل قد استغلها حين ظنت هي أنها قادرة على كل شيء ... وأنها لن تكون غريرة بيد الرجال ... ونسيت أن أخواتها يدرن حول رجلها مثيرات ... وفيهن خير منها ... ولهن نفس الحرية ... وعندهن نفس الثقة ... وينشدن نفس الطلب ... وكان الصراع وسقطت المرأة ، وملأت المدن أطفالا غير شرعيين ، وأصبحت مدينة لندن بالذات يولد بها طفل غير شرعي بين كل سبعة أطفال شرعيين ، وتدفقت الفتيات الحوامل على المدينة حيث يمكنهن إخفاء الفضيحة فى زحام العاصمة ، كما يقول دكتور ستيوارت مدير إدارة الرعاية الطبية بلندن (١) .

(١) الأهرام ١٢/٥/١٩٦٠ . وكالات الأنباء ص ١ ع ٨ .

وزحفت المشكلة إلى آخر مكان يمكن أن يتصور إنسان أن تهبط فيه ، فدور العلم حصن الأخلاق ... استسلمت بدورها للإغراء .. وانقادت للشهوات ، وانهارت حياة سبعمائة طالبة بجامعة شيفيلد صرعى النزق ، فأسرع طبيب الجامعة يصرف لهن حبوب منع الحمل بعد أن ارتفع عدد الأطفال غير الشرعيين الذين تنجبهم الطالبات بمعدل اثنى عشر طفلا سنويا (١) .

ولا يمكن أن يكون « علم النفس » هو سبب ذلك كله ، فالعلم ذو وقار ، وإذا كان علم النفس يعترف بضرر « الكبت » ويقر آلام « المراهقة » ويعترف بمشاعر « النقص » فإنه أيضا غير عاجز عن وضع الحلول القيمة المفيدة التى تخفف الكبت ، وتساعد المراهق وتزيل مشاعر النقص ، وتقيم قواعد الأخلاق الكريمة .

فى الحق إنه ليس العلم ... ولكنها .. فتنة العلماء ... !

تلك الفتنة التى واصلت سيرها حتى اقتحمت أدمغة المشرعين فى مستواهم « الوطنى » العالى فأعدوا فى الدانمرك : « مشروع قانون ينص على اعتبار جريمة الزنا غير كافية للحصول على الطلاق ، وقد تم وضع مشروع القانون بعد دراسة استمرت سبع سنوات قامت بها لجنة حكومية من خمسة أعضاء ، وتهدف

(١) الأهرام ١٧/٢/٦٥ ص ١ ع ٣ .

من ذلك إلى إيجاد تشريع مشترك للزواج بين الدول الخمس : الدانمرك ، والنرويج ، والسويد ، وفنلندا ، وإيسلندا ، (١) .

فهل أعجب ذلك المرأة التى قطعت الطريق وذاقت ثماره ، ربما لو تخلت عن عقلها جانبا لصرخت مغتبطة بما حازته فى هذا القانون ، ولكنها على العكس ، ضاقت بذلك كله ، وشعرت بالهوان ، ولم تستسلم للطعم ، ورفضت فى شمم هذه النهاية ، التى تستوى فيها بالأنعام وأحست :

أنه لا يمكن بعد ذلك أن تجد رجلا يحبها عن إخلاص، ويشاركها حياتها فى غبطة ويسكن إليها فى حب ، وهو يعلم يقينا : أن هذه المرأة يمكن أن تغرر بحبه ، وتهوى غيره ، وتستسلم لهذا الغير ، وتعطيه الجسد والفؤاد دون أن يكون لزوجها عليها حق الطاعة أو حق العفاف ... بله كرامة الشرف وصيانة القلب ... ويعنى هذا أن تفقد المرأة فى طريق حياتها (الأمين) الذى يستقيم بجوارها بعد والديها ... إلى نهاية الحياة .

وأنه لا يمكن بعد ذلك أن تطمع فى ولد تخصه بحبها ، وتطرح عليه من كرامتها ، وقد فر الزوج خوفا من ضياع الشرف ، ولوثة الولد ... ورأت المرأة الغربية الحديثة أنها ستمضى وتخلف دنياها لا كجداتها ـ اللواتى بنين الأسرة من ثلاث طبقات : الوالدين .

والأبناء ... والأحفاد ... فى نزاهة وشرف لا ... ستمضى دون أن تضع لبنة ... حتى فى الطبقة الأولى .

وثارت ضيقة بهذا كله ، وحملت الصحف صباح ٢٤ / ٤ / ١٩٦٥ ثورتها . ونقلت أخبار اليوم عنوانها :

« مظاهرة نسائية احتجاجا على الحرية الجنسية فى السويد » .

وقد شملت ثورة النساء السويديات أنحاء البلاد احتجاجا على إطلاق الحريات الجنسية فى بلادهن .. وتقدمن باحتجاجهن إلى المسئولين ، وبلغن فى استكهولم وحدها نحو مائة ألف امرأة .

إن نساء السويد بالذات يتوقعن الكارثة ويحسسن بها أكثر من الأخريات .. لقد بلغن قمة الحضارة .. والمساواة .. ولم يعطين الوطن أطفالا .. وتلك نكبة السويد التى يتناقص عددها عاما بعد عام ... فحق للمرأة أن تسترد من الذين سلبوها بالخداع كل شىء ـ حقها فى حياة كريمة شيئا بعد شىء . ونحن نقول لهذه المرأة بالغرب : سدد الله خطاك .. وربما قالها رجال فى الشرق ... للمرأة الشرقية بعد مئات السنين ... حين ينتهى بها الطريق وتأتى خاتمة المطاف .

على الخطيب

مجمع البحوث الإسلامية

---

(١) الأهرام ٢١/١٢/١٩٦٤ ص ٥ ع ٢ .

دسائس اليهود

للأستاذ محمود محمد شبكة

رحب اليهود فى المدينة بالضيف القادم والنزيل الوافد، ولم يكن هذا الترحيب ناتجا عن شعور بالكرم، أو إحساس بالمروءة. وإنما كان مرده ومبعثه أن اليهود ظنوا محمدا صلى الله عليه وسلم الرجل الذى يمكن أن يستمال، والداعى الذى يمكن أن يستغل.

ظنوا أنه من الممكن أن يتحالفوا مع الرسول ضد النصرانية التى أجلتهم عن أرض الميعاد (فلسطين) ومن أجل ذلك هشوا لاستقباله وخفوا للترحيب به، وقد بادلهم الرسول تحية بتحية، ووثق صلته بهم وتقرب إليه رؤساؤهم وكبراؤهم بوصف أنهم أهل كتاب موحدون، وعقد معهم معاهدة صداقة وتحالف فيها تقرير لحرية العقيدة وحرية الرأى.

وقد كانت هذه المعاهدة الملزمة والمعاملة الحسنة كفيلة بأن تسل الأحقاد من نفوسهم وتنزع الضغينة من قلوبهم لو أن نفوسهم كانت صافية، ولكن أنى لليهودى أن تصفو نفسه، ويستريح ضميره، وهذه دعوة محمد تفتح لها مغالق القلوب، ويدخل فيها الناس أفواجا، وقد بدأت القلة تكثر، والسلطان يعظم، والنفوذ الروحى يمتد، لقد كان اليهود يؤملون الاستعانة بمحمد على النصارى، وإذا بمحمد أقوى من هؤلاء وأولئك.

حينئذ تحرك داؤهم القديم، وظهر حقدهم الدفين، وبخاصة حين أسلم عبد الله بن سلام وهو حبر من أحبارهم، وبدءوا يحاربون الرسول وصحبه بالجدل والدس والوقيعة، ويرجون من وراء ذلك أن تنحل الرابطة وينفرط العقد، وتتفرق الجماعة، ولكن هيهات هيهات، لقد أحكم الإسلام الرابطة، ووثق الألفة، وصفى النفوس.

مر يهودى يدعى شاس بن قيس على نفر من الأوس والخزرج وهم يجتمعون فغاظه ما هم فيه من ألفة ومحبة فقال: قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد وما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم من قرار، وجاء إلى شاب من اليهود فقال له: أعمد إليهم، فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعاث، وأنشدهم ما كانوا يتقاولون به من الأشعار، ففعل الشاب، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتواعدوا على المقاتلة، ونادى هؤلاء: يا آل الأوس ونادى هؤلاء: يا آل الخزرج، ثم خرجوا

للحرب ، وقد أخذوا السلاح ، واصطفوا للقتال ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج فيمن كان معه من المهاجرين فقال : يامعشر المسلمين : الله الله . اتقوا الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم إلى الإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم » . حينئذ أدرك القوم أن ما حدث كان دسيسة يهودى فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس الرجال من الخزرج ، ونزل فى شاس بن قيس وأمثاله قول الله تبارك وتعالى : « قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا ، وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون » . ونزل فى شأن الأنصار قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله ، وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

ولقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يتحدث إلى يهودى يسمى فنحاص ويدعوه إلى الإسلام ، فرد عليه فنحاص هذا بقوله : والله يا أبا بكر ما لنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنا عنه أغنياء ، وما هو عنا بغنى ، ولو كان غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ، ويعطيناه ، ولو كان غنيا ما أعطانا ! يشير اليهودى ، إلى قوله تعالى : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » .

لكن أبا بكر على ما كان عليه من دماثة خلق ، وطول أناة لم يطق صبراً على هذا الجواب فثارت حفيظته واشتد غضبه وضرب وجه فنحاص ضربا شديدا ، وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدو الله ، وشكا فنحاص أمره إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأنكر ما قاله لأبى بكر فنزل قوله تعالى « لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء . سنكتب ما قالوا ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول : ذوقوا عذاب الحريق » .

ولقد بلغت باليهود الجرأة والوقاحة أن حاولوا فتنة الرسول نفسه حينما ذهب إليه أحبارهم وسادتهم وقالوا له : إنك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا ، وإنا إن اتبعناك اتبعك اليهود

ولم يخالفونا ، وإنا بيننا وبين قومنا خصومة فتحتكم إليك فتقضى لنا فنتبعك ونؤمن بك فنزل فيهم قوله تعالى « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم . وإن كثيرا من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية يبغون .!؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ » .

ولم يقف الأمر باليهود عند هذا الحد بل حاول بنو النضير اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم حينما ذهب إليهم يستعينهم فى دية قتيلين ، ولكن الله سبحانه وتعالى حفظه من كيدهم ونجاه من شرهم كذلك انضم بنو قريظة إلى المشركين فى غزوة الأحزاب بغية القضاء على المسلمين كما حاولت زينب بنت الحارث قتل الرسول بعد أن وقع الصلح بينه وبين أهل خيبر بأن أهدت إليه شاة مسمومة ، فجلس وأصحابه حولها ليأكلوها وتناول عليه السلام الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها ، وكان بشر بن البراء قد تناول منها مثل ما تناول الرسول ، فأما بشر فأساغها وازدردها وأما الرسول فلفظها وهو يقول:

إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم ثم دعا بزينب فاعترفت ، وقالت : لقد بلغت من قومى ما لم يخف عليك . فقلت : إن كان ملكا استرحت منه ، وإن كان نبيا فسيخبر .

أما بشر فقد مات من أكلته هذه ، وكان لهذه الفعلة أثرها العميق فى نفوس المسلمين إذ جعلتهم يخشون غدر اليهود فرادى بعد أن تخلصوا منهم جماعات .

ويقول الأستاذ محمد خليفة التونسى فى كتابه «الخطر اليهودى» . (اليهودى يهودى قبل كل شىء مهما تكن جنسيته ومهما يعتنق من مبادىء وعقائد فى الظاهر ليخدم باعتناقها نفسه وأمته فهو يتجنس بالجنسية الأمريكية أو الانجليزية أو الفرنسية ويؤيد جنسيته طالما كان ذلك فى مصلحته اليهودية فإذا تعارضت المصلحتان لم يكن إلا يهوديا فعضد يهوديته وضحى بجنسيته الأخرى ، واليهودى ، يسلم أو يتنصر نفاقا ليفسد الإسلام والمسيحية أو يوجه تعاليم هذا الدين الجديد وتقاليده وجهة تعود بالخير على اليهودية أو يبث روح المروءة لهم ، والعطف عليهم) .

وهذا الكلام ينطبق تماما على شخصين كلاهما كان له خطره الفاحش وضرره البالغ فقد أسلما تظاهراً وخداعا أولهما : كعب الأحبار ، وثانيهما : عبد الله بن سبأ ، أما كعب فهو من يهود اليمن أظهر إسلامه حينما تضاءلت اليهودية فى بلاد اليمن ، ورأى الإسلام ينمو ويزدهر وتغزو دعوته الآفاق

أسلم ليجد لحقده متنفساً ولسمومه مجالا .
والمحققون من الباحثين يؤكدون اشتراك كعب الأحبار فى مقتل عمر ، أو على الأقل كان يعلم بالمؤامرة التى دبرت لاغتيال خليفة رسول الله ، ويستدلون على ذلك بالحديث الذى دار بينه وبين عمر بن الخطاب قبل وفاته حينما هدده أبو لؤلؤة ، وقال له : لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب ، ثم انصرف عنه ، فقال عمر : لقد توعدنى العبد آنفاً .

فلما كان من الغد جاء كعب الأحبار فقال : يا أمير المؤمنين . أعهد ، فإنك ميت فى ثلاثة أيام . فقال : وما يدريك ؟ . قال : أجده فى كتاب الله التوراة ، فقال عمر : الله إنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة ، فقال : اللهم لا ، ولكن أجد صفتك وحليتك وأنه قد فنى أجلك وعمر لا يحس وجعاً ولا ألما .

فلما كان من الغد جاء كعب الأحبار وقال له : يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقى يومان ، ثم جاء من غد الغد وقال : ذهب يومان وبقى يوم وليلة ، وهى لك إلى صبيحتها . فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة فطعن .

فهل يشك أحد بعد ذلك فى أن لهذا الرجل علما تاما بالمؤامرة ، ومعرفة أكيدة بالوقت المحدد لاغتيال عمر ، إن التوراة مقروءة متداولة وليس فيها شىء مما قاله كعب عن صفات عمر .

والتوراة كتاب أنزل ليبين للناس أحكام الدين وأصول الشريعة لا ليتحدث عن وفاة رجل لم يكن خرج إلى الحياة بعد .

ويقول الخضرى رحمه الله : (لو كنت ممن يحقق فى هذه القضية ما ترددت لحظة فى أن لكعب يداً فى مقتل عمر ، أو أنه كان عالما بما تم عليه الاتفاق بين المتآمرين) ، وقد استطاع كعب أن يفيض علينا ثروة واسعة من الأخبار الإسرائيلية التى هى فى حقيقتها محض كذب وافتراء . والعجب أن كثيراً من علماء المسلمين تقبلوا هذه المفتريات بقبول حسن دون معرفة لحقيقتها ودراية بمصادرها .

أما عبد بن سبأ فهو ابن أمة سوداء ولذلك لقب بابن السوداء ، وهو من يهود اليمن كذلك ، أسلم فى أيام عثمان بن عفان ، ثم استغل الفتنة وصار يتنقل فى الأمصار يحرض على الخليفة ، ويغرى به ، ويذيع عنه قالة السوء ، ذهب إلى البصرة فأخرجه منها عبد الله بن عامر حينما علم بحقيقة أمره ثم ذهب إلى الشام فأخرجه معاوية فاتجه إلى مصر ، وفيها وجد من يساعده على بدعه ومكائده ، فكان يتحدث إلى الناس بأن النبى محمدا أحق بالرجعة من عيسى ويذكر قوله تعالى : « إن الذى فرض عليك القرآن

لرادك إلى معاد » ، وكان يقول : إن لكل نبي وصياً وعلى وصي محمد ، وعلى خاتم الأوصياء ، كما أن محمداً خاتم الأنبياء ومن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثب على وصيه ، ومنعه حقه ، وتناول أمر هذه الأمة بغير الحق .

ثم قال : إن عثمان اغتصب الأمر بغير الحق من صاحبه (على) فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه وابدءوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس . ثم أخذ ينتقص من أقدار الأئمة ويذم أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ولما بلغ ذلك علياً قال : مالى وما لهذا الخبيث الأسود الذى يكذب على الله ورسوله ، ثم يقوم إلى على وهو يخطب فيقول له : (أنت أنت) فيقول له على : ويلك من أنا . فيقول : أنت الله . ومن هنا بدأ فكرة تأليه على ، وقد أمر أمير المؤمنين بقتله بعد أن سمع منه هذا الكلام . ولكنه اكتفى بنفيه إلى المدائن .

هؤلاء هم اليهود فى مؤامراتهم ودسائسهم وحقدهم على الإسلام وأهله ، وعلى الرسول وصحابته . وما زالوا حتى يومنا هذا وحتى يرث الله الأرض ومن عليها يواصلون مؤامراتهم ومكائدهم . فقد استطاعوا بمساعدة الاستعمار الاعتداء على شعب مسالم وادع هو شعب فلسطين . وأخرجوه من بلده ظلماً وعدواناً ، وارتكبوا فى سبيل ذلك من المخازى والفضائح ما يندى له الجبين ولم تقف أطماعهم عند هذا الحد بل امتدت أبصارهم إلى توسيع الرقعة وتشجيع الهجرة والتمكن فى الأرض والإضرار بالعرب ففكروا فى تحويل مجرى نهر الأردن علماً بأنه ليس لليهود أى حق سياسى أو قانونى فى تحويل هذا النهر . فإن القانون الدولى ينص على أنه لا يحق لأية دولة من الدول المشتركة فى مجرى نهر واحد أن تحول مجرى هذا النهر بحيث يتسبب عن هذا التحويل إضرار بالدول الأخرى المشتركة فيه [١] .

ولكن متى اعترفت إسرائيل بالقانون ؟ ومتى أقرت المعاهدات واستجابت للنداء ؟ ولذلك جاءت قرارات العرب فى مؤتمر القمة الأول والثانى ضربة قاضية ولطمة قاسية أطاحت بأمل إسرائيل وأفسدت خططها وأحبطت مؤامرات اليهود ؛ بل وقربت من نهايتهم وعلى نفسها تجنى براقش ؟

محمود محمد شبكه

---

(١) نهر الأردن والمؤامرة الصهيونية ص ٢٠٧ .

تمبكتــــو

أقــدم مراكز الإســلام فى غرب إفريقية

للأستاذ محمد جلال عباس

مقــدمة :

على أحد المدرجات الجنوبية للصحراء الكبرى ، وعلى ارتفاع يبلغ نحو ٢٦٠ مترا فوق سطح البحر تقع مدينة « تمبكتو » ، على بعد بضعة كيلو مترات من رأس المنحنى الشمالى لنهر النيجر (نيل السودان كما سماه الجغرافيون العرب) تحيط بها رمال الصحراء الكبرى من الشمال ، ويصلها ذراع من النهر يحف بجنوبها . يجرى بالمياه الدافقة فى فصل الفيضان وتستمر به المياه سائر فصول السنة ولذلك أصبحت تمبكتو توصف بأنها ميناء الصحراء ، وذلك لأنها ملتقى الإبل بالقوارب.

كانت هذه المدينة هى أول مركز ازدهر بالثقافة الإسلامية فى غرب إفريقية ، بدأت بالإسلام ، وازدهرت بثقافته ، وأصبحت مركزا لنشره ، ومحط أنظار الراغبين فى علومه ثم أصابها الاضمحلال ، ولكنها أخفت بين جدرانها نورا أشعته فى فترات مختلفة ، ثم أخذ الازدهار يعود إليها فى ظل جمهورية « مالى » المستقلة .

وسوف نتناول فى هذا المقال دراسة لنشأة المدينة وتاريخها وتطورها ونشير إلى أمجادها الإسلامية .

أسطورة حول تسمية المدينة :

اتخذ قوم من الطوارق موقع التقاء الرمال بماء نيل السودان مضربا لخيامهم فى فصل الجفاف التام حيث كانوا يجدون السقاية لإبلهم وأغنامهم ، واعتادوا ذلك كل عام ، وظلوا هكذا عشرات السنين ، وحدثنى بهذا الحديث بعض شيوخ المدينة ، وقد اتفق أكثرهم على أن زعيما من زعماء عشيرة الطوارق « المقشرن »(١) . رأى يوما على شط النهر حسناء من قبائل « الصنغاى » شـديدة السمرة جميلة الجسد ، كانت تمتاز بين بنات قبيلتها بأن موضع الحبل السرى مقطوع قطعا سليما لم يخلف بروزا بل كان غائرا مثل « البكت » (٢) فأعجب الزعيم الطارقى بجمالها وأحبها ، وقرر الإقامة

(١) تحريف لكلمة المقشرين أى البيض لأن الطوارق كانوا شديدى بياض البشرة .

(٢) بكت فى لغة الصنغاى معناها الصحن الصغير

الدائمة هناك من أجلها ، وأقام له بالموقع أول بناء ثابت من اللبن ليقطنه بجوار ديار عشيقته .

وقد قال البعض : إن هذا الأمير الطارق قد استرق هذه الفتاة ، وقال آخرون : إنه قد تزوجها بعد أن دخل أهلها الإسلام ، وقالت جماعة أخرى : إنه حاول خطفها فقتلت فى المعركة ، ولكن الذى أجمعوا عليه هو أن صفة هذه الفتاة (ذات الصحن) أو بلغة الصنغاى (سن بكت) قد أطلقت على المدينة تذكارا لهذه الحسناء التى من أجلها بنى أول بيت فى المدينة ونما العمران من حوله . وهذا هو الاسم الذى عرفت به المدينة لدى الكتاب العرب الأوائل .

نشأة المدينة ونموها :

يتفق حديث تسمية المدينة ذلك مع ما ذكره عبد الرحمن السعدى فى تاريخه من أن الموقع كان منزلا لبعض رعاة الصحراء يلجئون إليه لرعى أغنامهم فى فصل الجفاف ويرحلون عنه فى الخريف (فصل المطر) ولما أصبح الموقع معروفا نشأت به سوق صغيرة . كان الطوارق يقايضون فيها أغنامهم بالحبوب التى يحملها الصنغاى فى قواربهم الصغيرة ، ثم عرف الموقع على مدى أبعد وكبرت المدينة ونمت وأضحت سوقا هامة يفد عليها التجار بطريق النهر ليلتقوا بقوافل الصحراء الآتية من الشمال .

وقد تحولت الخيام التى كان يضربها الطوارق فى الموقع إلى أكواخ من الحشائش وفروع الشجيرات ثم تطورت إلى بيوت مبنية من قوالب اللبن فى أوائل القرن الثانى عشر (١) .

وجاء انتقال المدينة من مرحلة النشأة الأولى إلى مرحلة النمو فى عهد المرابطين الذين أشاعوا فى الصحراء وأطرافها بعض الاستقرار ثم ازدادت أهميتها كمركز تجارى خلال القرن الثالث عشر بازدياد حركة النقل على طرق القوافل التى كانت تصلها بالشمال وأهمها طريق مراكش الذى كان يعبر الصحراء شمالا مارا : بأروان ، وتاودنى ، وتغازا ، ثم يعبر جبال الأطلس إلى مراكش . وطريق الشرق الذى كان يتجه من تمبكتو إلى أجادس ، ثم شمالا إلى واحة مرزوق فى الصحراء الليبية حيث كان يصل إلى مصر شرقا أو إلى طرابلس شمالا . وكان فرع منه يتجه إلى كانو ، ومنها إلى بداية طريق الأربعين فى الفاشر ثم إلى مصر أيضا (٢) .

وعلى هذه الطرق كان ينقل إلى تمبكتو الملح والأقمشة من الشمال ومن الصحراء ، ويصدر منها الذهب الذى اشتهرت به بلاد السودان وتعتبر تجارة الملح من العوامل الهامة التى ساعدت على ازدهار مدينة تمبكتو فى خلال القرنين : الثانى عشر والثالث عشر ، وذلك لأن منطقة النيجر كلها كانت تعتمد على الملح الوارد من تغازا التى تبعد نحو ٦٠٠ ميلا شمال غربى تمبكتو .

---

(١) فيج ص ١١٦ .

(٢) فيتزجيرالد (والتر) ص ٤١٥ .

وكادت أهمية تمبكتو تضيع كمركز تجارى حينما استولى ملوك مراكش على منطقة مناجم الملح فى تغازا لولا أن اكتشفت مناجم جديدة للملح فى « تاودنى » الأقرب إلى تمبكتو مما سهل نقله إليها وعوضتها بذلك تاودنى خيرا من مناجم تغازا .

ومن العوامل التى ساعدت على ازدهار تمبكتو كمركز تجارى هو ضم منطقتها إلى مملكة مالى ثم إلى امبراطورية الصنغاى حيث كانت غالبية صادرات هاتين المملكتين من الذهب والعاج والأخشاب الثمينة والجلود هى السلع المطلوبة فى المغرب ، وكانت تمبكتو تصدر هذه السلع مقابل الملح والأقمشة المطرزة والجلود المصنعة والأوانى الفضية وغيرها من السلع الثمينة التى كانت تستخدم فى بلاط الملوك ، وكذلك الخيول التى كانت من مظاهر الأبهة والعظمة فى هاتين المملكتين .

اكتساب المركز الدينى والعلمى

ولقد ارتبط ازدهار المدينة كمركز تجارى باكتسابها مركزاً دينياً وعلمياً هاما ، إذ سرعان ما اقتفى العلماء أثر التجار فأخذوا يشخصون إليها من المغرب الأقصى والأندلس ؛ بل ومن مصر ، وغدامس ، وطوات ، وتافيلت وغيرها (١) .

وجاء انتقال مركز نشاط الثقافة الإسلامية إلى تمبكتو تدريجيا ، ذلك أن بعض العلماء والدعاة أقاموا فيها منذ نشأتها ، غير أن مركزها ككعبة للعلوم الإسلامية لم تكتسبه إلا منذ القرن الرابع عشر ، ولقد مرت حركة انتقال مركز الثقافة العربية والإسلامية إلى تمبكتو بالمراحل التالية :

١ — نزل أبناء قبيلة جدالة الذين كانوا يعتبرون فقهاء الصحراء فى منطقة « ادرار موريتانيا » حيث اتخذوا كومبى أو قنبى مركزاً لهم ، وظلوا فى كومبى سنين طويلة يستقبلون الراغبين فى دراسة الفقه وعلوم الدين ليتخرجوا على أيديهم مبشرين بالإسلام ومعلمين لقواعده الصحيحة فى البلاد الأخرى وقد نزل بعض هؤلاء التلاميذ مع الطوارق المقشرن إلى تمبكتو منذ فجر نشأتها ، وكانوا من عشيرة تسمى السوك توارثت علوم الدين والعربية حتى يومنا هذا فى تمبكتو وجاد وغيرها من مدن شمال مالى .

٢ — فى خلال القرن الثالث عشر استولت قبائل « السوسو » على « كومبى » فسادت بها الاضطرابات التى أدت إلى هجرة علماء وفقهاء جداله منها إلى المدن المجاورة ومنها « والاته » وتمبكتو ، ولكن نصيب والاته من العلماء فاق بكثير نصيب تمبكتو فظلت والاته تحتل مركز الصدارة والتفوق نحو نصف قرن من الزمان (١) .

(١) السعدى ص ٢٢ .

(١) بوفيل ص ٨٩ — ٩٠

٣ — تعرضت والاته فى أواخر القرن الثالث عشر إلى غزوات متعددة من طوارق الصحراء بما أشاع فيها الاضطراب فهجرها «الكونتا» علماء جداله إلى تمبكتو حيث كان الحكم فيها قد استتب لملوك مالى فى عهد «منسى موسى» (١٣٠٧ — ١٣٣٢) وهنا دخلت تمبكتو مرحلة الازدهار بالثقافة العربية والإسلامية، وظلت كذلك حتى القرن السادس عشر حينما وصلها الغزو المغربى من الشمال.

العصر الذهبى لتمبكتو

بلغت تمبكتو ذروة مجدها فى عهد منسى موسى أشهر ملوك مالى بفضل عنايته الشخصية بالمدينة وتشجيعه العلماء على الإقامة فيها، وبعد عودته من الحج أحضر معه أيضاً عدداً من علمـــاء المدينة المنورة وكميات كبيرة من الكتب من مصر.

ويذكر عبد الرحمن السعدى أن فقيها اسمه عبدالرحمن التميمى جاء من الحجاز بصحبة منسى موسى صاحب مالى، فأقام بتنبكت زمناً، ولما رأى رجالها يتفوقون عليه فى معظم العلوم غادرها إلى فاس حيث درس مزيداً من علوم الشرع وعاد ثانية لإقامة مجلس علم بتمبكتو (١).

وكان أهم حدث فى تاريخ تمبكتو الثقافى أن السلطان منسى موسى استدعى أبا إسحق الساحلى الغرناطى الأصل من المغرب لبناء قصر الملك ومسجد كبير فى تمبكتو، ومنذ بناء هذا المسجد وعلماء جداله يجلسون فيه للدرس، وقد كثر تلاميذهم الوافدين من كل فج: من درعه، وسوس، وسجلماسه، بل ومن فاس فى المغرب الأقصى وطوات وغدامس وفزان.

وفى أوائل القرن الخامس عشر استطاع الطوارق بقيادة زعيمهم «عقيل مالوال» أن يستولوا بتمبكتو، وعينوا عليها رجلا من صنهاجه يدعى عمر، كان محباً للعلم والدين، فأرسل سراً إلى سونى على أول ملوك الصنغاى يدعوه إلى غزو تمبكتو لإعادة الاستقرار إليها، فدخلها سونى على سنة ١٤٦٨، غير أن عقيل مالوال هرب بعد أن صحب معه عدداً كبيراً من العلماء والفقهاء الذين عادوا واحداً تلو الآخر إلى تمبكتو فيما بعد لأن المقام لم يطب لهم وسط طوارق الصحراء (١).

ولقد عاشت تمبكتو فى ظل ملوك الصنغاى فترة ازدهار علمى ودينى لما كان يحرزه علماء الدين فيها من مركز لدى الملوك، وبنى فيها «أسكيا داوود» مسجداً كبيراً جديداً أتى له بالأخشاب من غابات الجنوب، وأقام فيه صوامع للفقهاء العبادة والدرس، وأصبح هذا المسجد جامعة إسلامية مرموقة معروفة بعلمائها وفقهائها الذين كانوا يتلقون الرسائل من مصر والمغرب والحجاز للإفتاء فى أمور الدين وكثير من المسائل الفقهية المشكلة.

---

(١) السعدى ص ٨٣ — ٨٤.

(١) روبرت كورنيفان ص ٢٠٥.

واشتهر فى عهد ملوك الصنغاى من علماء سنكورى : الحاج جبر القاضى ، ابن عبد الرحمن ابن أبى بكر ، وعمر السالك تندبغ ، الذى تولى القضاء فى عهد أسكيا محمد وأحمد بابا التمبكتى الذى ترك مئات الرسائل والكتب .

ومما ذكره أحمد كاتى فى كتابه تاريخ الفتاش أنه : فى ذلك العهد كانت المدينة مليئة بطلاب العلم من أبناء السودان الذين تملأ نفوسهم الرغبة فى التحصيل وتقصى الحقائق ، وذكر أحمد كاتى فى موضع آخر من كتابه أن : أحد المعلمين مثل على زكريا (ناكارى) كان يجنى كل خميس قرابة ١٧٢٥ مثقالا من تلاميذه البالغ عددهم ١٢٥ حيث كان كل منهم يقدم ما بين خمس وعشر ، وكان هؤلاء التلاميذ يجمعون الحطب الذى يشعلون فيه النار لتضئ لهم أثناء دروس الليل (١) .

واهتم كل من أسكيا داوود وأسكيا محمد بكتب العلم والفقه والدين فكان أسكيا داوود يحتفظ فى بلاطه بآلاف الكتب المخطوطة ، وكان ينفق الكثير على الخطاطين الذين ينسخون من هذه الكتب نسخا ليوزعها على علماء تمبكتو (٢)

وقد قامت بين علماء الأزهر فى مصر وبين علماء تمبكتو مراسلات عديدة ، وعرف جلال الدين السيوطى عندهم حيث كان يطلق عليه اسم بابا ساتناو ويوصف بأنه العالم المصرى ، ومما يؤكد هذه الصلة أن أحمد بابا التمبكتى العالم الفقيه السودانى كان من بين رسائله رسالة فى الرد على المسألة المصرية تتضمن فتوى فى بعض أسئلة وصلته حول الفرائض (أى الميراث) .

الغزو المراكشى وعهد الاضطراب

وفى أواسط القرن السادس عشر ظهرت لدى ملوك المغرب الأقصى أطماع توسعية فيما وراء الصحراء للسيطرة على تجارة الذهب والملح ، وعلى مراكـــز التجارة فى بلاد السودان ، وأدت هذه الأطماع إلى أن أرسل السلطان المنصور محمد ملك مراكش حملة بقيادة قائده الأسبانى الأصـل : جودر باشا بدأت سنة ١٥٨٥ بغزو تغازا مركـــز استخراج وتجارة الملح وطردت منها قوات الأسكيا اسحق الثانى نهائيا ، واستمر الغزو المراكشى بقيادة جودر باشا بجيوش مرتزقة من الأندلسيين المسلحين بأسلحة نارية ، وانتهت الغزوات بهزيمة الصنغاى فى تاودنى وتعقبتهم جيوش جودر باشا إلى النيجر حيث حاربوا على مشارق تمبكتو وجاو ، وجفى وأشاعوا فيها الفوضى والفساد .

وقد خلف جودر باشا فى قيادة الجيوش المغربية قائد يسمى : احمد بن زرقون الذى

(١) محمد كاتى : كتاب تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ترجمة هوداس وديلافوس بباريس سنة ١٩٦٣ ص ٧٨ ، ٣١٦٤ .

(٢) محمد كاتى ص ١٢٢ .

استطاع أن يخضع تمبكتو وينفذ أمر السلطان المنصور محمد بأن يأتيه بعلمائها أسارى مكبلين، وكان أن نقل علماء تمبكتو وعلى رأسهم أحمد بابا إلى البلاط المراكشي حيث أرغمهم السلطان على التفرغ لكتابة ما يعلمون ويحفظون من علوم، وعاشوا هكذا فى فاس متفرغين لإحياء العلوم فيها.

ونقل المغاربة أيضا ما كان فى تمبكتو من كتب ورسائل مما وقعت فى أيديهم.

وبذلك فقدت تمبكتو مركزها العلمى وعاشت قرنا كاملا من الفوضى والاضطراب فى عهد باشوات مراكش ولكنها احتفظت بين جدرانها ببعض العلماء الذين كانوا يتابعون الدراسة والدرس سرا.

ومضات النور

وتتابع فى بلاد السودان الغربى ظهور ممالك إسلامية نهض بها زعماء القبائل الكبيرة مثل: البامبارا، الذين كونوا مملكة السيجو بزعامة كالاديان كوليبالى (١٦٥٠ - ١٦٨٢) الذى حاول ضم تمبكتو ولكنه لم يستطع فاكتفى بفرض الجزية على باشواتها، ثم استطاع «انجولو ديارا» أحد أحفاده بعد نحو قرن من الزمان أن يستولى عليها سنة ١٧٧٠ (١).

وقد شجع ديارا وورثته العلماء على الظهور من مخابئهم للإفتاء فى أمور الدين، والنشر العلم والتبشير بالإسلام بين من لم يعتنقه من أبناء القبائل.

وخلف البامبارا فى حكم تمبكتو ملوك الفولانى وأهمهم: سيكو أحمدو (١٨١٠ - ١٨٤٤) الذى استطاع أن يستولى على تمبكتو، وشجع علماءها، واعتمد عليهم فى بعض الفتاوى، وخاصة الشيخ احمد البكاوى الذى كان بينه وبين سيكو أحمد رسائل كثيرة وخلافات فقهية عديدة (١)

وفى سنة ١٨٣٣ استطاع الحاج عمر القوتى أن يكون أمبراطورية أخذ يوسع أراضيها حتى شملت تمبكتو التى استولى عليها سنة ١٨٦٢ وشجع على إحياء علوم الدين فيها بل واستعان ببعض رجالها مثل: الحاج البكاى انقيتى فى نشر الإسلام على الطريقة القادرية بين بعض القبائل الوثنية مثل الدوجون والتوكولور (٢).

ثم أتاها الاستعمار:

فى ذلك الوقت من القرن التاسع عشر كان الفرنسيون يتقدمون من الجنوب ومن الغرب إلى بلاد السودان، وقد اتخذ الحاج عمر من تمبكتو قاعدة خلفية لهجومه المضاد على الفرنسيين الذين كانوا قد استولوا على مدينة كاى، غير أن مقاومته هو وأبناؤه قد خارت أمام القوات الفرنسية خاصة وأنه

(١) روبرت كورنيفان ص ٣٦١

(١) فينسنت مونتى ص ٩٠

(٢) روبرت كورنيفان ص ٣٦٤

لم يكن قد استطاع تحقيق الاستقرار الكامل فى أرض مملكته ، وظل الفرنسيون يتقدمون فى أراضى السودان الغربى (مالى) فاستولوا على باماكو سنة ١٨٨٣ ثم استولوا على سيجو عاصمة مملكة الحاج عمر سنة ١٨٩١ وهاجموا تمبكتو آخر قواعد الحاج عمر الخليفة سنة ١٨٩٤ ، ولكن المعركة أمامها بين الفرنسيين وبين أحمدو بن الحاج عمر الذى كان أبوه قد عينه على هذه المدينة استمرت سنة كاملة دخل الفرنسيون بعدها المدينة بعد تخريبها وفرار الكثير من أهلها إلى الصحراء .

ورغم المحاولات العديدة التى قام بها الفرنسيون القضاء على الشخصية الإسلامية للمدينة إلا أن تمبكتو ظلت محتفظة بطابعها الإسلامى ، ونجح العلماء والمشايخ فى أن يحافظوا على العلم والدين بالمهادنة أحيانا وبالتلويح بالثورة والتهديد أحيانا أخرى وقد اضطر الفرنسيون أمام فشلهم فى سياستهم الصريحة أن يتبعوا طرق الخداع فأنشأوا فيها مدرسة عربية سنة ١٩١٦ وأدخلوا فيها الفرنسية تدريجيا حتى طغت على العربية وأصبحت العربية فيها لغة أجنبية ، وكان قصدهم من ذلك هو جذب بعض أبناء القبائل من الحسانية والحراتين والصنغاى إلى التعليم الحديث وإبعادهم عن التعليم الدينى فى مجالس المساجد وخلوات الفقهاء وبيوت العلماء (١) على أن مجالس العلم الخاصة والعراقين كانت تجذب كل أبناء القرية فظلت المدرسة على فخامة بنائها وضخامته لا تضم إلا عددا صغيراً من التلاميذ من أبناء الموظفين الذين يعملون فى المدينة .

وأيضا حاول الفرنسيون عزل تمبكتو عن العالم الإسلامى ، ولكن لم يستطيعوا ، فقد ظل علماء تمبكتو على اتصال دائم بعلماء الجزائر ، بل واتصلوا بمصر أيضا فى عهد جمال الأفغانى ومحمد عبده وخلفهم السيد رشيد رضا ، وكانوا على صلة أيضا بجمعية الشبان المسلمين ، وكان بعض أبناء المدينة يأتون إلى مصر للدراسة سيرا على الأقدام آلاف الكيلو مترات ويعودون حاملين كتب السلفية والكتب الحديثة التى طورت علوم الدين هناك .

اليوم والغد :

بهذا الاستعراض لتاريخ تمبكتو نرى أنها نشأت بالإسلام وازدهرت به وحافظت عليه ، وهى اليوم أهم مركز للثقافة العربية فى جمهورية مالى . اتخذتها الحكومة بعد الاستقلال مركزا لنشر الثقافة العربية فدعمت المدرسة العربية بها وجعلت اللغة

(١) فرجينا تومسون وريتشاردأدولف ص ٤٢٩

(البقية على الصفحة التالية)

ما يقال عن الإسلام

العروبة والإسلام

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

١ – فرانشسكو جبريلى يعد عميد المستشرقين فى إيطاليا فى الوقت الحاضر ، وهو أستاذ الأدب العربى واللغة العربية بجامعة روما ، له عدة كتب وكثير من البحوث والمقالات فى المجلات المتخصصة ، ومن هذه الكتب « الخليفة هشام » (صدر سنة ١٩٣٥) ، و « قصة الأدب العربى » (روما ١٩٥١) ، و « مظاهر من الحضارة العربية الإسلامية » : عبارة عن مجموعة محاضرات ألقيت براديو إيطاليا ١٩٥٧ ، وأخيراً كتابه عن « العرب » صدر باللغة الإيطالية سنة ١٩٥٧ ، وترجم إلى اللغة الفرنسية ، وطبع سنة ١٩٦٣ فى باريس ، وهو معجب بالعرب ، والمسلمين ، منصف لهم ، يجيد العربية ويعرفها كأحد أبنائها ، ويتمثل بآيات من القرآن الكريم ، ويأبى أن يترجمها إذ يبدو أن رأيه فى القرآن أنه لا يترجم ، ومن الآيات التى استشهد بها فى مقدمته « فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » كل ما فى الأمر أنه كتبها بحروف لاتينية لا بالرسم العثمانى .

والقضية التى يعرض لها جبريلى فى هذا الكتاب الصغير الحجم قضية خطيرة حقاً ، لم ينقطع الحديث عنها منذ ظهور الإسلام

(البقية على الصفحة السابقة)

العربية إجبارية فى جميع مدارسها بل ومدارس الأقليم الشمالى كله ، واتخذت منها فى الصيف الماضى مركزا لتدريب معلمى اللغة العربية من الوطنيين وتأهيلهم تأهيلا تربويا على أيدى أساتذة من مصر ، ليكونوا نواة لنشر اللغة العربية - لغة الإسلام الذى تدين به الغالبية العظمى من السكان .

وبذلك تخطو تمبكتو فى عهد مالى المستقلة نحو استعادة بعض أمجادها الماضية كمركز إشعاع الثقافة العربية والإسلامية فى إفريقية الغربية .

فهى بحق كما وصفها عبد الرحمن السعدى المدينة الوحيدة فى العالم التى « ما دنستها عبادة الأوثان ، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن » ؟

محمد محمود عباس

حتى اليوم ، وهى قضية الصلة بين العروبة والإسلام ، أهما شىء واحد أم شيئان مختلفان ، وإن كانا مختلفين فما حقيقة الخلاف بينهما ؟ وما هى المواضع التى تلتقى فيها العروبة والإسلام .

وقد برزت هذه القضية فى الأيام الأخيرة منذ ظهور نغمة القومية العربية ، تلك الموجة التى امتدت حتى شملت الناطقين بالضاد من الخليج إلى المحيط ، وبعبارة أخرى : الدول التى تضمها جامعة الدول العربية .

ونحن نعلم أن كثيراً من المفكرين وذوى الرأى وأصحاب القلم كتبوا فى القومية العربية وانقسموا فريقين : أحدهما يقرر أن العروبة التى ننادى بها فى الوقت الحاضر لا صلة لها بالدين ، إسلاميا كان أم مسيحيا ، والآخر يذهب إلى أن أهل هذه المنطقة لظروف تاريخية أصبح الإسلام جزءاً لا يتجزأ من كيانهم ، ولذلك امتزجت العروبة والإسلام فى حضارتهم ، فاتخذوا من العربية لسانا ومن الإسلام دينا .

وكاتب هذه السطور من هذا الفريق الثانى وله فى هذا الموضوع كتاب بعنوان «القومية العربية» صدر منذ بضع سنوات .

وقد أعجبنى الأستاذ : فرانشسكو جبرييلى لأنه يلتقى معى فى هذا الرأى ، ويدافع عن هذه الوجهة من النظر بأدلة رائعة ، وقبل أن نبسط رأيه نقول : إن الكتاب يقع فى ثمانية فصول الأول : عن العرب قبل الإسلام والثانى : محمد والإسلام والثالث : الخلفاء الراشدون والفتوحات الإسلامية ، والرابع : الامبراطورية العربية ، والخامس : الامبراطورية الإسلامية ، والسادس فى العرب والمغرب ، والسابع : فى العرب والترك ، والثامن : فى تأخر العرب والنهضة الحديثة ، ويتضح من تسلسل هذه الفصول على النحو المذكور أن العروبة فكرة ينظر إليها فى هذا الكتاب فى ضوء الأحداث التاريخية التى مرت عبر الزمان منذ الجاهلية إلى ظهور الإسلام وانتشاره وتكوين الامبراطورية العربية الكبرى فى العصر الأموى ، ثم فى صدر الدولة العباسية وبعد ذلك أخذ الإسلام يستقر وينتشر بعيداً بعض الشىء عن العروبة حتى أصبح السلطان الأخير للترك ، وأخيراً عادت القومية العربية إلى الظهور ، مما نعيش فيه بالفعل .

٢ — وليس ثمة نزاع فى أن أى باحث يتعرض للعروبة من زاويتها التاريخية لا بد له أن ينظر فى حال العرب فى الجاهلية ، أى قبل الإسلام ، من جهة موطنهم الجغرافى والبيئة الصحراوية التى كانوا يعيشون فيها وظروفهم السياسية التى أوجبت عليهم الاتصال بالفرس من جهة والروم من جهة أخرى

وهما أعظم دولتين متصارعتين فى ذلك الزمان ، وحياتهم الروحية وعباداتهم من وثنية منتشرة بين معظم قبائلهم ، يعبدون الأصنام ، إلى جانب فرق من النصارى واليهود ، وحياتهم الاقتصادية واشتغالهم بالتجارة بين اليمن والشام ومصر ووقوعهم على خط الطرق التجارية الوافدة من أقصى الشرق هذا إلى نمو لغتهم وشعرهم واحتفاظ هذه اللغة بالقيم الروحية والمثل العليا التى يمجدها العرب

وكل ذلك حسن ، إلا أنه كما يقول الأستاذ جبرييلى (صفحة ٣٢) : إن أى حب رومانسى لماضى العرب لا يمكن أن ينكر هذه الحقيقة ، وهى أنه : لولا رسالة محمد ودعوته إلى الإسلام ، فإنهم كانوا فى أكبر الظن سيقبعون خلال عصور طويلة وسط صحرائهم تشغلهم الحروب القبلية وتفنى أبناءهم ، ويتطلعون إلى بيزنطة وفارس وكأنهما منارات بعيدة للحضارة لا يستطيعون بلوغها ، فلما جاء الإسلام إذا بهم يقرعون أبواب هاتين الدولتين قرعا عنيفاً بصوت الآمر النافذ الكلمة والسلطان . وهذا لا ينفى أن عرب الجاهلية كانت لهم خصال أصيلة من عشق الحرية ، وحفظ الجوار وإكرام الضيف إلى ما عرف عنهم من نخوة ومروءة ، مما قبله الإسلام ودعا إليه وأجازه

ومعنى ذلك أن الروح العربية سرت فى شرايين الدين الجديد دون أن تفقد شخصيتها فى هذا الدين ولكن الإسلام هو الذى علت كلمته وارتفع صوته من فوق منبر التاريخ .

٣ — ولا ينفصل الحديث عن الإسلام فى نشأته وظهوره عن التعرض لسيرة النبى عليه السلام ، ومن أجل ذلك عقد المؤلف فصلا خاصاً عن « محمد والإسلام » ، بدأه بقوله : « إن الإسلام ظاهرة مع أنه يتجاوز تاريخ العرب إلا أنه يستمد جذوره منهم ، وقد وجد فيهم وقت ظهوره القوة المحركة لانتشاره ذلك الانتشار الذى لم يتمكن أحد من صده . وظل الإسلام والعروبة قرنين من الزمان - من السابع الميلادى إلى التاسع الميلادى - صنوين ، وامتدت العقيدة الإسلامية فى قلب آسيا وعلى ضفاف حوض البحر الأبيض بسرعة سريعة ، حتى إذا اتضح أن ملكة الفتح وسلطان شعب واحد لا يتلاءمان مع انتشار الدين ، توقف هذا التلاقى بين الإسلام والعروبة ، ولو ظلت العروبة على الدوام إسلامية فى شمولها ، لسار الإسلام بهذه الشعوب بطرق أخرى ، واحتفظ بطابع من ذلك الجو العربى لا يمحى » .

وليس لنا اعتراض على ما قرره المؤلف ، اللهم إلا فى تقدير الزمن الذى بدأ الإسلام ينفصل فيه عن العروبة ، والرأى عندنا

أن حركة المد العربى ظلت متوافقة مع حركة المد الإسلامى حتى القرن السادس الهجرى على الأقل، ثم بدأت موجة أخرى من التراجع العربى، مع استمرار المد الإسلامى، ويكفى أن نقرأ لأبى الريحان البيرونى - وهو فارسى - فى القرن الخامس الهجرى يقول ما فحواه: إن الهجو بالعربية أحب إليه من المدح بالفارسية، لنعلم أن العروبة كانت لا تزال مسيطرة على العالم الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى، ولعل هذا يجرنا إلى تحديد معنى العروبة، فنقول: إنها لغة أولا وقبل كل شىء، فكل من يصطنع الأمة العربية لسانا فهو عربى، مسلماً كان أم غير مسلم، ولكن الظروف التاريخية جعلت معظم سكان المنطقة العربية من المسلمين فالتقى الإسلام بالعروبة على أرض الإمبراطورية الإسلامية، ويمكن أن يضاف إلى اللغة العربية المميزة للعروبة: الحضارة والآمال والآلام المشتركة، بل والدين باعتبار أن لغة الإسلام وكتاب المسلمين هو القرآن الذى أنزل بلسان عربى مبين، والذى أنزل قرآناً عربياً، ولذلك ذهب أغلب المسلمين، - وهو الرأى الراجح الذى نأخذ به - إلى أنه لا يجوز ترجمة القرآن، وإن جازت ترجمة معانيه، وأنه لا تجوز الصلاة إلا بقراءة القرآن بالعربية، وإن أفتت قلة قليلة من الفقهاء بجواز قراءة الفاتحة مترجمة، وعندنا أن هذا باطل، والدليل على ذلك: أن المسلمين فى صدر الإسلام لم يقبلوا الإسلام بغير العربية، فكانت النتيجة أن هذه اللغة أصبحت لغة عالمية، يرددها المسلمون من حدود الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً، وكانت اللغة العربية إلى ذلك لغة الحضارة، ألفت بها العلوم المختلفة من طب وهندسة وفلك وغير ذلك..

ولكن النعرة الشعوبية، من الفرس تارة، ومن الترك تارة أخرى، ظلت تهاجم العروبة هجوماً لا هوادة فيه طوال قرون وقرون، حتى أفلح الفرس فى محو اللغة العربية من أرض إيران بحيث لا يتكلمها اليوم إلا رجال الدين فقط، أما بقية الشعب فيجهلونها جهلا تاماً، ونحن نخشى أنه على مر الزمن سيتحلل الشعب كذلك من إسلاميته، لأن الذى كان يربط المسلم بدينه هو القرآن العربى، ولم يعد القرآن بعد فقدانهم اللغة العربية هو القرآن الذى يؤثر فى النفوس، لأن قراءته مترجماً لا تحدث نفس الأثر.

٤ — هذه هى الدعوى الأساسية التى يبسطها المؤلف فى كتابه، نعنى المد العربى الإسلامى، ثم الجزر العربى على الرغم من انتشار الإسلام، إلى أن ينتهى إلى النهضة العربية الحديثة.

هذا العرض الشامل التاريخي لا بد أن يتعرض للسياسة ، من جهة أن تفسير الحوادث التاريخية لا بد أن يتضمن تفسيراً سياسياً ، من قيام دول ، وسقوط أخرى ، ونشوب حروب وما إلى ذلك ، ولما كان الكتاب صغير الحجم لم يكن من الميسور أن يتبسط فى التأويلات السياسية ، فضلا عن أن السياسة ليست مقصودة عنده لذاتها ، وإنما غرض المؤلف أن يستعرض الحركة العربية ، منذ الجاهلية إلى الإسلام إلى العصر الحاضر ، فى شتى مظاهرها الحضارية وبخاصة من جهة مظهرها الدينى ، باعتبار أن الإسلام هو الذى صبغ العروبة وطبعها بطابع لا يمحى .

من أجل ذلك يجد القارىء عرضاً سريعا جدا لحياة الرسول ، ودعوته ، وهجرته ، وغزواته ، وفتح مكة ، ثم النزاع على الخلافة بين الأنصار والمهاجرين ، وتولى أبى بكر الصديق ، ثم عمر بن الخطاب من بعده ، ومع الشيخين استقرت دعائم الإسلام ، وتمت الفتوحات الكبرى ، وانتصار العرب على الفرس والروم ، فلما تولى عثمان حدثت الفتنة الكبرى ، وقتل الخليفة الثالث ، وتولى على بن أبى طالب فوجد أمامه مشاكل سياسية كحرب طلحة والزبير وعائشة ، ثم حرب معاوية وما انتهت إليه هذه الحرب من مقتل على بيد الخوارج ، وبذلك انتهى عهد الخلفاء الراشدين ، وأصبح الملك مع معاوية ملكا عضوضا ، وتأسست الأمبراطورية العربية وكانت عاصمتها دمشق .

ويذكر المؤلف أن تاريخ الأمويين غامض وأنه زيف على يد العباسيين الذين كان الفرس من ورائهم ، وأن التاريخ الأموى يجب أن يكتب من جديد فى ضوء العروبة ، حقا العباسيون عرب ، وخلفاؤهم يمتون بصلة إلى العباس عم النبى عليه السلام ، إلا أن النفوذ الفارسى بوجه خاص كان يحركهم ، إذ قامت الدعوة بخراسان ، وجند الفرس هم الذين انتصروا على مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وكان الوزراء حتى خلافة الرشيد من البرامكة ، وهم أسرة من نبلاء الفرس ، مكنوا لأنفسهم فى الأرض ، وأصبحت لهم دولة داخل الدولة ، حتى خشى الرشيد على سلطانه منهم ، ففتك بهم وقضى عليهم . ولكن الخلفاء بعد أن اتخذوا جندا من الأتراك ، ومن الفرس ، أصبحوا هم أنفسهم ألعوبة فى يد القواد العسكريين ، ومنذ القرن الرابع الهجرى بدأ نفوذ الترك يستشرى ويتغلب على النفوذ العربى . وانقسمت الأمبراطورية إلى دويلات وتفككت الأمبراطورية ، على الرغم من ازدهار الحضارة الإسلامية .

• — يفتتح المؤلف الفصل الأخير عن تدهور العرب ونهضتهم بقوله : إن سيطرة الترك التي استمرت على العرب منذ القرن السادس عشر الميلادى حتى العشرين ، والتى جاء الاستعمار الأوربى فى عقبها ، تتميز ببلوغ التدهور العربى أوجه ، ويبدو أن العرب انطووا على أنفسهم فى أول الأمر ، ورضوا بهذا المصير ، وخضعوا للشعب الأجنبى عنهم جنسا ولغة ، ولكنه مشارك لهم دينا ، والذى استطاع أن يمتص حضارتهم، ولم يلبث أن ظهر فى مصر والشام والحجاز تيارات وطنية عربية ، ثم يقول المؤلف - وهو على حق - : إن التيار الانفصالى فى مصر على يد : محمد على لم يكن تياراً عربياً ، أما التيار العربى الأصيل ، البعيد عن كل أثر أجنبى فهو الذى ظهر فى الحجاز باسم الحركة الوهابية ، التى تعد إحياء للمذهب الحنبلى ، وخلاصة الدعوة الوهابية الرجوع إلى الإسلام فى فطرته الأولى . وإلغاء كل مادخل على الإسلام من مظاهر مدنية بعيدة عن جوهر الدين ، ويمضى المؤلف بعد ذلك فى استعراض الحوادث السياسية أثناء القرن التاسع عشر فى مصر والحجاز والشام ، وحروب محمد على مع السلطان ، وكيف وقف عند حدود مصر سنة ١٨٤٠ ، وكيف تطورت الحوادث بعد ذلك حتى الحرب العالمية الأولى ، وانهزام الأتراك . وانفصال ولاياتها عنها ، وظهور النزعات الاستقلالية فى البلاد العربية ، ويستمر المؤلف فى عرضه حتى الستينات من هذا القرن ، فيذكر ثورة عبد الناصر وتطورها حتى سنة ١٩٦١ .

٦ — وأحسب - وقد لخص للكتاب بما أرجو أن يكون تلخيصا أمينا - أنه قد حان الوقت لتوجيه بعض الانتقادات للمؤلف ، واقفين عند أمور ثلاثة :

الأولى : أن العرض السياسى كان طاغياً على المؤلف ، وبخاصة فى النصف الأخير من الكتاب ، مع أنه فى النصف الأول منه لم يقف عند حدود السياسة فقط بل تجاوزها إلى ألوان الحضارة العربية كلها ، ثم إن المؤلف وقد فطن إلى أن العروبة لا يمكن أن تنفصل عن الإسلام ، كان جديراً به أن يمضى فى هذا الطريق ، فيبين لنا كيف يمكن أن يتفاعل الإسلام مع العروبة مرة أخرى فتقوم النهضة العربية الحاضرة على أساس من تعاليم الإسلام .

الثانى : أنه أشار إلى الوهابية باعتبار أنها الحركة العربية الخالصة من كل أثر أجنبى ، وحدثنا عن تاريخ هـذا الداعية وصلته بالسعوديين أمراء نجد ، ولكنه لم يحدثنا عن تيارات عربية إسلامية مماثلة ظهرت فى العالم العربى ، نذكر منها حركة الأفغانى

والشيخ محمد عبده فى مصر ، والسنوسية فى شمالى إفريقية .

وهذه الحركات الثلاث تعزف جميعاً على قيثارة واحدة ، وتصدر نغمة واحدة ، مع اختلاف التفاصيل ، فهى كلها حركات تجديد وإصلاح ، وهى كلها تبغى الرجوع بالإسلام إلى فطرته الأولى وتخليصه من الشوائب التى دخلت عليه وتاسدة غريبة عنه ، وهى كلها تدعو إلى الوقوف فى وجه التقليد وفتح باب الاجتهاد ، غير أن الوهابية - لأنها كانت متطرفة فى التمسك باليمين الإسلامى - كانت متزمتة غاية التزمت حتى لقد أمرت بهدم شواهد قبور الصحابة فى المدينة .

أما السنوسية : فقد اتجهت وجهة تربية دينية ودعاية ، فأنشأت الكتاتيب والمدارس والأربطة فى شتى أنحاء ليبيا وتونس والجزائر ، وكان لها أثر لا نزاع فيه فى التمسك بالإسلام فى مواجهة النزعات الصليبية الوافدة على شمال أفريقيا ، وتعد حركة جمال الدين ومحمد عبده حركة إصلاح معتدلة ، تقوم على تفسير الدين تفسيرا اجتماعيا وفلسفيا يتلاءم مع روح العصر الحاضر ، وتفسير المنار الذى بدأه الشيخ محمد عبده ، وتبعه فى ذلك الشيخ رشيد رضا أشهر من أن ينوه به ، والاتجاهات المعاصرة فى التفسير التى نقرأها ونسمعها فى المذياع إنما هى ثمرة هذا الاتجاه الجديد .

الثالث : أن المؤلف لم يذكر الأزهر - وهو منارة الإسلام وراية العروبة وحصن العربية - بحرف واحد فى كتابه ، قد يقول قائل : إنه يكتب عن العرب لا عن الإسلام ، ولا شأن للأزهر بالعرب ، ونحن نقول فى الجواب : إن الإسلام والعروبة لا ينفصلان ، وإن الدفاع عن الإسلام ، دفاع عن العروبة وبخاصة إذا كان هذا النوع من الإسلام قائما على كتاب الله الكريم بالأمة التى أنزل بها ، ونعوذ بالمسلمين أن يفرطوا فى كتابهم العربى أو يقبلوا ترجمته ، ونحن نعلم : أن المسلمين من شتى بقاع العالم ، من أندونيسيا والهند والباكستان إلى مراكش والكونغو والصومال يحضرون دروس العلم بالأزهر فيتعلمون اللغة العربية كما يتعلمون الدين ، ويعودون إلى بلادهم أئمة للمسلمين وهداة الدين ، فإذا كان العرب سائرين اليوم فى طريق النهضة ، فلا جرم أن الأزهر قوة دافعة فى طريق هذه النهضة .

وبعد ، فإن الأستاذ جبرييل مشكور لحسن دفاعه عن العرب فى قضيتهم التى يرى أنها لا تزال فى بدايتها ، وأنها كما يقول فى ختام كتابه : تتفجر عن طاقات جديدة تشهد بأن رسالة العرب فى البحر الأبيض وفى الشرق الأدنى لم تتحقق بعد . ؟

أحمد فؤاد الأهوانى

الكتب

نقد وتعريف : محمد عبد الله السمان

ترانيم الليل :

للأستاذ على الجندى

ديوان جديد للمؤلف يقع فى ثلثمائة وأربعين صفحة من القطع الكبير ، قدم له الأديب الكبير الدكتور شوقى ضيف الأستاذ بكلية آداب القاهرة بمقدمة موجزة أشار فيها إلى أن المؤلف الشاعر يوقع ترانيمه وألحانه على أوتار قيثارتنا الشعرية الموروثة عن الآباء والأسلاف ، والتى تهزنا وتروعنا بما تقدمه لنا من غذاء للعقول وشفاء للقلوب والنفوس ، لا لأنها تراث الأسلاف والآباء فحسب ، ولكن لأنها أيضا تحمل رحيقا موسيقيا صافيا ، يلذ الآذان كما يلذ الأفئدة ، فتصغى إليه منتشية بألحانه وأنغامه. والديوان ستة أبواب :

الأول : تحت راية الوطن ، تضمن قصائد فى فرحة وادى النيل بالثورة ، ومصر والسودان الشقيقتين ، وقسم التحرير ودولة الإقطاع ، وبورسعيد الخالدة ، ونشيد العمال ، وما إلى ذلك من القضايا السياسية .

الثانى : فى ظلال العروبة ، فيه قصائد عن أمة العرب ، والدولة المزعومة ، وفرنسا الرعناء وبنزرت الباسلة ، وبطل الريف ، وما إلى ذلك من القضايا التى تمس كيان العروبة تاريخيا وسياسيا .

والثالث : صور من الحياة ، فيه قصائد تناولت مأساة حسناء ، وتقاليع العم سام ، والثعبان العاشق ، وكعك العيد ، والسائقات الفاتنات ، وما إلى ذلك من صور الحياة الاجتماعية التى لمسها الشاعر بنفسه ، وأهاجت فيه شاعريته .

والرابع : زفرات ، فيه قصائد تناولت انقلاب القيم ، والزمن الوغد والشعر قبل الثورة ، وغربة الحياة ، وشكوى الأديب ، وما إلى ذلك من الصور الحية المليئة بالأسى ، والتى أثارت أشجان الشاعر .

والباب الخامس . ذكريات الصبا أو بين أفنان الجمال ، فيه قصائد عن مصدر الحب والجمال ، والعاتبة الغضبى ، والفنانة الحسناء والتوحيد فى الحب ، وحورية التليفزيون ،

والحب بين جمال الجسد وجمال الروح ، وما إلى ذلك من الصور الناطقة التى جاءت ترجمة عميقة لذكريات الصبا عند الشاعر .

والباب السادس الأخير : خواطر وأفكار فيه قصائد من الروح الظمأى ، وموكب الربيع ، وحواء المستأسدة ، والزمن الكافر وفلسفة النحل ، ودولة الشعر بين الماضى والحاضر ، وما إلى ذلك من الصور المتفرقة التى تناولت شتى جوانب الحياة من فن وسياسة وأدب واجتماع .

• • •

من قصيدته « الدولة المزعومة » :

أبناء اسرائيل قد أصبحوا
حاتما فرصها الأجدل
فى كل يوم لهم صفعة
بسود أقفائهم تنزل
هم القرود مسخوا على الدنى
أتى بذاك الخبر المنزل
أذل من ذل على أرضنا
أسفل من قيل له : أسفل

الحق أن ديوان الشاعر الكبير الأستاذ على الجندى عميد كلية دار العلوم السابق ، ديوان جمع فأوعى ، فهو بمثابة موسوعة تناولت جوانب عديدة من الحياة ، فى مجالات السياسة والمجتمع ، والنفس ، والعقل والجمال وقد حتى حفلى قصائد ديوانه مزيجا من الآراء الفلسفية والنظريات الاجتماعية .

كنا نود أن لا يخلو الديوان من باب للإسلاميات ، يتناول فيه قضايا الإسلام ، وقضايا شعوبه ، فهو من أقدر شعرائنا على سد هذا الفراغ ، ومن يدرى فربما كان شاعرنا الكبير فى طريقه إلى اخراج ديوان خاص بالإسلام الذى أصبح فى مسيس الحاجة إلى ثورة شعرية جديدة ، لا تتغنى بأمجاده السالفة ، ولكن تزفر بآلامه ، وآلام شعوبه

• • •

كتب جديدة

النبوة والأنبياء فى القرآن :

تأليف : أبو الحسن الندوى

الناشر : مكتبة وهبة ـ عابدين

المؤلف ليس فى حاجة إلى التعريف ، فهو رئيس ندوة العلماء بالهند ، وأحد علماء المسلمين القلائل فى العالم ممن عرفوا بغزارة العلم ، وسعة المعرفة ، والارتباط بقضايا الإسلام والمسلمين السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى مجال التفكير الإسلامى الخصب.

فى هذا الكتاب عرض فضيلة المؤلف لحاجة الإنسان إلى الأنبياء ، ولسمات النبوة وخصائص الأنبياء ، وللأنبياء كأئمة الهدى وقادة للإنسانية .

يذكر المؤلف في مقدمته أن البحث في النبوة والأنبياء من البحوث والدراسات التي تشهد بحاجة الطبقة المثقفة إليها ، وهو يعتقد أن أقوى سبب الانحراف هذه الطبقة ، هو بعدها عن منهج النبوة ، وجهلها لقيمها وفضلها على الحياة المدنية والعقل الإنساني .

• • •

الفاروق عمر :

تأليف : اللواء الركن محمود شيت خطاب

الناشر : مطبعة العاني ـ بغداد

المؤلف أحد وزراء العراق ، ومن الأدباء المؤرخين ، له زهاء عشرين مؤلفا في التاريخ الإسلامي ، وفي كتابه الأخير هذا ترجمة وافية شاملة لسيرة عملاق من عمالقة التاريخ في الإسلام ، عرض في هذه الترجمة للفتح الإسلامي قبل عمر ، ثم بقيادة عمر ، ثم تحليل دقيق لقيادة عمر نفسها ومعالمها وخصائصها ، ولمكانة عمر في التاريخ .

الكتاب : ١٩٢ صفحة من القطع الكبير

• • •

رجال حول الرسول :

تأليف : خالد محمد خالد

الناشر : دار الكتب الحديثة ـ القاهرة

هذا هو الجزء الثالث من السلسلة التي بدأها الأستاذ خالد منذ عامين باحثا عن جوانب العظمة في أصحاب الرسول ـ صلوات الله عليه ـ وقد تضمن الجزءان الأول والثاني بحوثا عن واحد وعشرين صحابيا ، أما هذا الجزء فتقرأ فيه عن اثنى عشر صحابياً : منهم خالد بن الوليد الذي لا ينام ولا يترك أحد ينام ، ومنهم عمير بن وهب شيطان الجاهلية وحواري الإسلام ، ومنهم زيد بن ثابت جامع القرآن ، ثم خالد بن سعيد وهو فدائي من الرعيل الأول ، ثم قيس بن سعد بن عبادة ، وأبو الدرداء ، وزيد بن الخطاب ، وطلحة والزبير وخبيب ، وعمير بن سعد ، وأبو أيوب الأنصاري ، كل صحابي أبرز المؤلف فيه جوانب عظمته ، وخصه بسمة مميزة .

الكتاب ٢٠٠ صفحة من القطع المتوسط

• • •

تطوير الخطابة المنبرية :

تأليف : علي رفاعي

الناشر : مكتبة صبيح بالأزهر :

المؤلف فضيلة الأستاذ الشيخ علي رفاعي مراقب عام الوعظ بالأزهر من خيرة العلماء الذين أسهموا بنصيب وافر في تطوير الخطابة المنبرية ، وله مؤلفات بلغت اثنى عشر كتابا ، وأعانت ـ ولم تزل تعين ـ

خطباء المنابر من العلماء وغـــير العلماء على مهمتهم ، وهذا الـكتاب الأخير ـ كما يشير المؤلف إلى ذلك ـ على مستوى الشعوب الإسلامية ، يساير نهضاتها ويرسم طريق الوصول إلى أهدافها .

فى الـكتاب بحث عن أهمية الخطابة المنبرية وبعض النماذج التى عرض فيها للتحليل العلمى والصوغ الخطابى لهـا ، ثم زهاء أربعين خطبة منبرية فى شتى جوانب الحياة العلمية ، ثم بضعة نماذج لدروس التفسير .

الـكتاب ٢٢٤ صفحة من القطع المتوسط

محمد عبد الله السمان

الصراع الأدبى

بين القـــديم والجديد

للأستاذ : على محمد حسن العمارى

يعرف قراء هذه المجلة الأستاذ : على محمد حسن العمارى بمـا قدمه إليهم فيها من بحوث أدبية ودينية تعتز هذه المجلة بها وبمـا ينشره دائمـا فيها لغزارة علمه وسعة اطلاعه ويقظة ذهنه ووجدانه .

وقد ألف عدة كتب فى البلاغة والأدب ، وكان آخر ما أصدره لجمهرة القراء والمثقفين خاصة كتاب : « الصراع الأدبى بين القديم والجديد » وقد تتبع هذا الصراع منذ نشأ فى العصر الجاهلى ، ثم فى العصر العباسى . . ثم فى هذا العصر الذى انحرفت فيه الاتجاهات الأدبية عند بعض الـكتاب والشعراء انحرافات ضارة بقوميتنا العربية وديننا الإسلامى ، والقارىء لهذا الـكتاب يجد الكاتب من خلاله عالمـا بموضـــوع بحثه غنيا بالشواهد والأسانيد التى يدعم بها قضاياه ، نافذ البصر والبصيرة إلى الدوافـــع التى تمكن وراء الاتجاهات التى يتناولها بحثه أو تعقيبه ، وقد كتب مقدمته الأستاذ الكبير احمد حسن الزيات .

ونرجو أن نعرض لموضوع هذا الـكتاب بالتفصيل فى القريب العاجل إن شاء الله .

(المجـــلة)

فى محيط العالم الإسلامى

قصة محزنة :

حدث أخيراً أن أصيبت دولة الصومال المسلمة بمجاعة هزت كيان زهاء مليون مسلم والمؤلم فى الخبر أن جمعية الصليب الأحمر هى التى أخذت على عاتقها الدعوة إلى إنقاذ الألوف التى هزها الجوع وفتك بعدد منها ، بينما العالم الإسلامى بأسره لم يحس بهذه المأساة ، ويظهر أنه ليس مستعدا لأن يحس بها .

وإذا كانت العوامل السياسية الجائرة أصرت على أن لا تقوم لوحدة المسلمين قائمة فأى عقبة يمكن أن تقف فى سبيل وحدة روحية تربط بين قلوب المسلمين وعواطفهم لتؤدى واجبها ـ على الأقل فى مثل هذه المأساة ؟! .

• صنعاء : صدر قرار جمهورى بإقرار الدستور المؤقت لليمن وينص هذا الدستور على أن اليمن جمهورية عربية إسلامية ديمقراطية ، كما ينص على تكوين مجلس جمهورى يرأسه رئيس الجمهورية ، ومجلس الشورى يضم تسعة وستين عضوا ، يتولى اختيار أعضاء المجلس الجمهورى ، ويقوم بوضع الدستور الدائم وعرضه على الاستفتاء العام خلال فترة الانتقال ومدتها سنتان .

• داكار : وافقت حكومة السنغال على انسحاب عشرة آلاف جندى فرنسى من بلادها من تلك القوات الفرنسية التى لم تزل بالسنغال بعد استقلالها . ومن الجدير بالذكر أن السنغال كانت إحدى المستعمرات الفرنسية فى غربى إفريقيا .

• الخرطوم : رفضت حكومة السودان الموافقة على زيارة وفد حكومة تشومبى للسودان لإجراء محادثات بشأن التوتر الذى يسود الحدود بين الكنغو والسودان ، بسبب الاعتداءات المتكررة من قوات حكومة تشومبى على حدود السودان بدعوى مطاردة الثوار .

• القدس : بدأ العمل فى المرحلة الثانية لإصلاح المسجد الأقصى ، ومن المقرر أن تنتهى هذه المرحلة خلال سنوات أربع .

• جاكرتا : رفضت حكومة أندونيسيا إجراء استفتاء فى إيريان الغربية طبقاً للاتفاق الذى تم تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة ،

وقد صرح الرئيس سوكارنو بأن العالم أجمع يعترف بأن إيريان الغربية جزء لا يتجزأ من الأراضى الأندونيسية وليس لهولاندة أى حق فيها .

• غزة : بدأ تجنيد الدفعـــة الأولى من الفلسطينيين بقطاع غزة من مواليـد عامى ٢٧ ، ٤٤ ، تنفيذاً لقانون التجنيد الإجبارى للفلسطينيين ، الذى أقره المجلس التشريعى فى أواخر فبراير الماضى ، ويقضى بأن تكون الخدمة العسكرية إجبارية لكل فلسطينى من سن ١٨ - ٣٠ سنة .

• القاهرة : أقيم فى القاهرة المؤتمر الثالث لتنظيم الأسرة ، اشترك فيه عدد من المؤسسات والهيئات الأجنبية ، منها المجلس الأعلى للدراسات السكانية بأمريكا ، ومؤسسة فورد ، وجامعة جراتز بالنمسا ، والجمعية الدولية للأسرة .

• الفاتيكان : أنشأت الفاتيكان قسما جديداً للشئون الإسلامية ، فى سكرتاريتها المختصة بشئون الديانات غير المسيحية ، وقد عين رئيساً لهذا القسم القس الفرنسى الأب جوزيف كوك الخبير بالشئون الإسلامية .

• لندن : صدر فى لندن مصور عن الفن الإسلامى أعده دافيد تاليوت رايس ، كما صدر كتاب جديد باللغة الإنجليزية للكاتبة دورثا واسل عنوانه : القاهرة فى العصور الوسطى ، وتبلغ صفحات هذا الكتاب ٣٤٩ صفحة .

القاهرة : من المنتظر أن يضاف إلى تلاوة القرآن . فى محطة إذاعة القرآن برنامج لتفسير القرآن يقدمه كبار العلماء والمختصون بالدراسات الإسلامية .

فى محيط الأزهر

• استقبل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر بعثة الحج اليوغسلافية برياسة الحاج مصطفى شوا مدير المعهد الإسلامى بسيرايفو وذلك بمناسبة مرور البعثة بالقاهرة فى طريقها إلى الأراضى المقدسة لتأدية فريضة الحج ، وقد تناول الحديث شئون الإسلام والمسلمين بيوغوسلافيا .

• تقرر لأول مرة قبول طلاب المنازل الحاصلين على الشهادة الإعدادية والابتدائية فى امتحان الشهادة الثانوية الأزهرية المعادلة هذا العام .

• أصدر السيد المهندس أحمد عبده الشرباصى نائب رئيس الوزراء لشئون الأوقاف والأزهر — قراراً بأن يكون امتحان القبول بالمعاهد الأزهرية والمعهد

النموذجي للبنين في القرآن الكريم تحريريا اعتباراً من العام الدراسي القادم .

* طلبت جامعة الأزهر إلى مجلس الدولة إبداء الرأي في التماس الذين لا يحملون أية مؤهلات دراسية ، وسبق لهم أن تقدموا للحصول على العالمية المؤقتة ورسبوا فيها ، ويرغبون في الالتحاق بالسنة الرابعة النظامية بالقسم العالي للجامع الأزهر ، ومن المعروف أن قانون تنظيم جامعة الأزهر كان قد اشترط لها ضرورة الحصول على الشهادة الثانوية كأدنى مؤهل دراسي للالتحاق بالسنة الأولى الدراسية .

* نوقشت في أبريل الماضي بجامعة الأزهر الرسالة المقدمة من الأستاذ فتحي عبد القادر الدريني الأستاذ بكلية الشريعة بدمشق ، والموفد إلى جامعة الأزهر في بعثة علمية لتحضير رسالة الأستاذية في الفقه والأصول . موضوع الرسالة « التعسف في استعمال الحق بين الشريعة والقانون » بلغت صفحاتها ٥٢٣ من القطع الكبير ، ألفت اللجنة برئاسة الشيخ طه الديناري ، وعضوية الدكتورين : محمد مختار القاضي ، وجاد الرب رمضان ، وقد قررت اللجنة منح الأستاذ الدريني درجة الامتياز مع مرتبة الشرف .

السمان

فهرس أبجدى عام

لموضوعات المجلد السادس والثلاثين

News From The Muslim World

By : Mohammad Abdullah El-Sammam

• The Yemeni Republican Council has approved a provisional draft constitution of the Republic of Yemen. This Constitution bears a historical Significance as it means a land mark in the history of the Arab world. The new constitution declares that Yemen is an Islamic Democratic Arab Republic. The transition period is two years.

• The Afghanistan Parliament ratified recently a new Constitution for the country. The constitution states that the religion of Afghanistan is the Sacred faith of Islam. The state disposes, of religious matters in accordance with the Hanafi Command ments'. Those members of the nation who do not follow the the Islamic faith are free to conduct their religious Ceremonies within the limits of the laws formulated to maintain the decorum and tranquility of the public (chapter 1, Article 2.)

• The Palestine Liberation Organisation observed this month the aniversary of the palestine tragedy. President Jamal Abdul Nasser Said in his message to the Palestine Day Conference that the Arabs would exploit all their Sources of wealth to face the Israeli danger and that they would work hard to realize development.

• The Prime Minister of Malaysia, Tunku Abdul Rahiman, Said, in Kuala Lumpar, that he would write to the leaders of the Arab Nations and tell them that Malaysia had no intention of establishing deplomatic relations with Israel.

• The Vatican has announced the establishment of a Section for Islamic Affairs. This Section will be attached to its special Secrateriate which deals with the affairs of world religious other than christianity.

• The Muslim students association of the United States and Canada has passed a resolution, at its Second Convention, which was held in Urbana, Illinois, about the necessity of promation of friendship among Muslim Organisations in the World. The resolution says : " Muslims Should be Urged to remember that they are the representatives of Islam and that their behaviour is regarded, by the non-Muslims, as Muslim behaviour."

Caliph : The matter stands quite clear then. We leave it to you to decide. You do not curse the Pharaoh a confirmed enemy of God. Do you think it is in any way lawful to curse those who keep up prayers and abserve the month of Ramadan and give alms ? Surely we can punish the transgressors, but can never curse.

Representatives : well and good. But better for you and us both if you cut off your connections with them.

Caliph : The Kufites anp Basrites once led on army against your ancestors. They put to death many of them. Did you forsake those people ?

Representatives : No.

Caliph : If that is so, we do not understand why you compel us to do what you did not yourselves.

He who professes to believe in the oneness of God and the prophet hood of Muhammad, God and his Apostle are ready to take him under protection. And is it not a pity to find this, that it is only you who refuse to extend your sympathies to believers ? Is it, then, the regeneration of Islam you are driving at ?

The proxies could make no reply.

They acknowledged in express words their satisfaction, and said : « we beg to be excused for our outspokenness. We are very much thankful to you for your leading a patient ear to so lengthy a talk».

A woman accuses the son of caliph Mamun in open court Mamun was once holding court when there appeared a woman. A child was clinging to her breast. She cared not for the formal ceremonious etiquette of the court, and at once burst out into tears and cried aloud, saying : « O, Caliph ! the house of a widow has been seized for no fault.

Do Justice to my complaint and keep in vieev the Day of Judgment where I shall stand up and raise my voice admist the crowd against you if you do not make good the wrong done to me ».

The courtiers were quite astonished to hear the woman speaking so loudly in the presence of the Caliph.

The Caliph, on hearing this complaint, was startled, as if taken aback by some unexpected calamity.

« Well, who has done such a glaring injury to you ? Tell us his name ».

The woman blushingly said Princé Abbas, your son ».

(Continued on page 11)

Aspects of Socialism and Equality
- From the History of Early Muslims -

By
IBRAHIM M. EL-ASSIL
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY

On his ascending the throne of caliphate, Omar bin Abdul'Aziz had to face of a rebellion raised by Bistam, a Kharijite, due to some difference of opinion. The caliph wrote a short note to him, which ran as follows :

" We learn that your sole aim is to regenerate the faith of Islam.

We also, let it be known to you are bending our energies to the same end. Would not you, then, appreciate the idea of holding a debote between both the rival parties ? If we can advance convincing arguments, you will have to give allegiance to our authority. But if you get the better of us, we would consider the matter"

Upon this Bistam commissioned two proxies to the court of the Caliph.

The debate was convened, and the following words passed between the Caliph and the representatives :

Caliph : well, what reasons have you to justify yourselves to disturb the peace of the country ?

Representatives : You have ridden rough-shod over the desires and wishes of the people in general and your relatives in particular. You have confiscated their landed properties. If they did a wroug thing, is it not quite justified, according to Islamic jurisprudence, to curse them ?

Caliph : You do not seem to catch the point. I have taken back only what they had received either through unlawful means or because they did not deserve it. I do not see any necessity of upbraiding the unbelievers and wrong-doers, nor is it supported by any verse or authority either of the Qur'an or the Traditions.

Did you ever curse Pharaoh ? Do you believe honestly that it is incumbent upon you to do so ?

Representatives : We never curse the Pharooh, nor is this an article of faith with us.

pillar is the practise of the obligatory prayers five times during the day, but how many perform the farz let alone the sunnat or nafl prayers? the third pillar is Zakat or charity, while this primarily means to give a percentage of your income to the poor in a certain month of the year we should not forget charity in our daily lives as well. . . how many times has a suppliant been thrust aside with a curse given instead of a coin, even if we cannot give money surely we can give a kind word, little as it may be, for charity also means love, understanding, tolerance, kindness and mercy ; the fourth pillar is fasting during the month of Ramadan when all Muslims must fast from dawn to dusk, but do we also abstain from indulging in anger, lying and cheating ; the fifth and final pillar is the Hajj or pilgrimage to Mecca, this is indeed a difficult task which often causes great sacrifice but it is the envy of all the other religions, for it is the bond that once a year brings thousands of Muslims together from all parts of the world to worship and pay homage to the One God, Allah.

All these things are the main roots of Islam and if we would only cultivate them in ourselves, then from these roots would spring forth the divine towering tree of our eternal faith whose green branches would give shade to our souls and whose fragrance would refresh our heart, it would give shelter from the storm of life and abundant sustenance to a hungry spirit. Water these roots with your tears of contrition, prune its branches with love and discrimination, fertilise it with your very being, adore and cherish it in truth, and you will then live as only a Muslim can live. . . in happiness and and contentment.

RASCHID AL-ANSARI
(ROBERT WELLESLEY)

FUNDAMENTALS OF ISLAM

BY : RASHID AL-ANSARI

Many of us seem to forget the fundimentals of Islam and become lost in the wandering pathways of useless speculation on the finer points of Islamic theology and thouhgt until at last we are far from the basic teachings of Islam, finding ourselves living a life of petty restrictions that have very little meaning. Then, as we say, you cannot see the forest for the trees . . . in other words the whole becomes obscured by the part. It is a little like a carpenter who pays meticulous attention to the seat of a chair, carving it and polishing it, and in the process completely forgetting all about the legs of the chair ! And how can you have a chair without legs ? It is a ridiculous thought. Even so does Islam lose its dignity and simplicity when insistence is put on form and not on spirit. It is therefore important that we should keep in mind what are sometimes known as the Pillars of Faith and the Pillars of Wisdom.

In the Seven Pillars of Faith the first pillar is belief in Allah, the Eternal and One God who has no equal ; the second pillar is belief in in His angels, of whom we are each said to have our Guardian Angel ; the third pillar is belief in the Books sent from Allah for our guidance, of which it is a fact that the Qoran is the only one to retain its original purity ; the fourth pillar is belief in all the prophets of Allah, such as Moses, Abraham, Jesus and Muhammad (may peace be upon them), who brought the message of Allah to a wayward world ; the fifth pillar is belief in the Hereafter, of the continuation of life after the body dies, thus Allah bestows on us a certain immortality, for only Allah is truely immortal, the sixth pillar is belief in the ultimate will of Allah, that though we must strive and do our best in every possible way we must always remember to surrender ourselves to His will, it is the neglect of this that causes a lot of the evil present in this world today ; the seventh pillar is the belief in the Day of Judgement, when we will face the radiant and supreme wisdom of our Lord to beseech His mercy on our souls.

Then we come to the Five Pillars of Wisdom, the first pillar being the belief in the one God alone, Allah, and His last messenger Muhammad (may peace be upon him) who was yet the first ; the second

a painful punishment. On the day when it will be heated in the fire of Hell, then their foreheads and their sides and their backs will be branded with it : This is what you hoared up for yourselves, to taste what you used to hoard.")

And :

(And let not those who are niggardly in spending that which God has granted them out of his grace think that it is good for them. May, it is evil for them. They shall have a collar of niggardliness on their necks on the Day of Resurrection . . .)

And the Prophet said :

"Whomever God granted wealth and he withheld the poor-rate, his wealth shall be pictured for him on the Day Judgment as a big sanke with two lorns, and it will fold around his body and hold up his cheecks saying : I am your hoarded money, I am your wealth."

It is also reported through Abdullah ibn Omar that the Prophet said :

" O immigrants and helpers ! There are five evils I take refuge in God not to befall you. If adultry appears among people, they will be stricken with such ills as not happened to their past generations. If they do not give right measure in their scales, they will be tried with poverty, scarcity of provisions, and injustice of their rulers. If they prevent the poor-rate, they will be denied rain from the sky, except for the sake of their animals. If they do not fulfil the Covenant of God and His Messenger, God will raise against them those take away some of what they possess. And if their rulers do not rule according to the Law of God, the fighting among them will be severe."

(Continued from page 15)

The caliph had earned a good name for justice. The story told by the woman, by name Mughira, set the blood of Mamun boiling ; his face glowed with anger. He at once ordered 'Abbas to stand by the side of the plaintiff, so that every distinction be wiped out.' Abbas, being guilty, could not clear his position. But Mughira was so eloquent in giving vent to her compelled right that her very eyes, sparkling with passionate anger, seemed to speak for the worth in her bosom.

The nobles could not reconcile the audacity of the woman with forebearance of the Caliph. One of them could not help saying :

« O, woman ! Such conduct does not become in the presence of the caliph. You are so rude ».

a due share for the beggar and for one who is a needy."

In the chapter of "Al-Qalam" the pen", the Holy Qur'an relates the story of the people who owned a garden and who intended to cut out its fruits to deny the rights of the poor in those fruits, and how they were doomed :

"But a visitation came from your lord, came out on it (the garden) while they slept. So it became as black, barren land."

The Holy Qur'an also says :

« أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين »

"Have you seen who belies religion? That is the one who is rough to the orphan. And urges not the feeding of the needy."

In another verse, the Holy Qur'an warns the disbelievers who are characterised by withholding the poor-rate in this way :

"... And woe to the disbelievers! Who give not the poor-rate, and who deny the Hereafter."

The Holy Book urges us to pay the poor-rate in this verse :

"... And keep up prayer and pay the poor-rate and offer to God a goodly gift ..."

«Anas», the companion of the Prophet reported that a man came to the Prophet and saide : "O Messenger of God! I possess a good amount of wealth and I have a great number of relatives. Tell me how should I spend?» The Prophet said: "You have to pay the poor-rate out of your wealth, for it is a cleanliness for it, and keep your relation to your relatives, and know the right of the unfortunate, the neighbour, and the beggar."

"Aysha" also reported that the Prophet said : "I swear that there are three things, the performer of which is participating in three shares in Islam : Prayer, fasting, and almsgiving." It is reported in "Al-Bukhari" and "Muslim" that Garir ibn Abdullah said : "I paid the oath of allegiance to the Prophet that I will keep up prayer, pay the poor-rate, and give good council to every Muslim."

Those who withhold almsgiving are spoken of in they Holy Qur'an in this sharp language :

«والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون»

("... And those who hoard up gold and silver and spend it not in God's way, announce to them

"They ask you as to what they can spend. Say: What ever wealth you spend, it is for the parents and the near of Kin and the orphans and the needy and the wayfarer. And whatever good you do, God surely is Knower of it.")

When Muslims were settled and the circle of their life was expanded through Immigration to Medina, the amount of Zakat was fixed regarding all kind of wealth. So the amount of almsgiving regarding the harvests that were irrigated by rain was the tenth of it, and those which were irrigated by mashines was half tenth. The fourth of the tenth was the amount prescribed on gold and silver, and the same was fixed regarding the articles of trade. Those amounts were payable yearly. As to the almsgiving on animals such as camels, sheep and cows, the amounts are fixad in a special manner.

The reason behind the difference of the amount of Zakat, regarding the different amounts of wealth, is due to the difference of effort which is paid toward the earning of wealth. The more one pays in his effort to earn wealth, the less he gives in the amount of Zakat, and vice versa.

QUESTION :

What are the proofs to evidence the prescription of Zakat (almsgiving) in the Holy Qur'an and the Sunna?

ANSWER :

We said before that there are eighty two verses in the Holy Qur'an in which almsgiving is mentioned together with prayer. Among these verses we read :

«والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة »

"And the believers, men and women, are friends one of another. They enjoin good and forbid evil and keep up prayer and pay the poor-rete . . . " and :

«الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . »

" Those who, if we establish them in the earth, well keep up prayer and pay the poor-rate and enjoin good and forbid evil. ."

In the chapter of Al-Muddathir, the Holy Qur'an relates the profession of the people of Hell, and tells us about the reason of their miserable situation :

" . . . They ask one another - About the guilty : What has brought you into hell ? They will say : We were not of those who performed prayer. Nor we did feed the poor." God, the Almighty, praises the praises the believers in this way :

« وفي أموالهم حق للسائل والمحروم »

"And in their wealth there was

you (alon) and seek your help, I say: To my servant what he a asked for. And when he says: Guide us to the right way, the way of those on whom you bestowed your favour, not those you are angry of them nor those who are stray, I say: Surely to My servant what he requested,

No wonder, then, to state that the Prayer supports the believer with big spiritual power. Dr. Alexis Carrel says in this respect: "The Prayer is a great sourse of vitality. As a physician I have seen many patients who were cured through prayer when the drugs failed to feal them.

Certainly the prayer is like the mineral of radium, a source of power and vitality."

Through prayer we are connected with the Originator of the universe, who help us over the difficulties of life. Our appeal to God in our Prayer is certainly a spiritual force which help us and give us peace and happiness.

What is the second worship prescribed in Islam ?

The second worship prescribed in Islam is almsgiving "Zakat". It is one of the five pillars of Islamic faith. It is mentioned to gether with prayer in eighty two verses in the Holy Quran. It is prescribed in both the Holy Quran and the Sunna. It is reported through "Ibn Abbas" that the Prophet (peace be upon him) said to his companion "Mu'adh ibn Jabal" when the Prophet sent him in a mission to Yemen: "You are going to reach a people who are followers of divine books. So call them to witness that there is no god but Allah and that I am the Messenger of God. If they accept, tell them that God has prescribed on them five prayers daily. If they obey, this, then tell them that God has preseribed on them a poor-rate in their wealth, to be taken from the rich among them and given back to the poor. If they accept to pay the poor-rate, do not follow the best and the dearest things of their wealth to take the poor-rate out of them. And guard against the call of the oppressed one, for the appeal of the oppressed supplicant is liable to reach God promptly."

Zakat was prescribed in Mecca undefined and unristricted to a special amount. It was left to the personal feeling of the rich toward the poor. The Quran says:

« ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو »

("... An they ask you as to what they can spend. Say: What you can spare . . .") and:

« يسألونك ماينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم »

PILLARS OF ISLAM

(2)

By : Abdul Wadood Shalaby

What is the reason behind making the Prayer five times every a day ?

God preseribed the Prayer on the believers in a timely order for five times a day, in order to be a continuous spiritual exercise. This was illustrated by the Prophet when he asked some of his companions :

Suppose that you wash yourself up five times a day in a nearby river, would that leave out any dirt on you ? They answered : Certainly not. He said : This is like the five daily Prayers. They wash away all sins. The Prophet pictured that meaning in another time. He was sitting under a tree and beside him there was his companion "Salman Al-Farisi," and the Prophet picked up a dry branch out of the tree and shook it until all its leaves fell down, and said : O Salman ! You may be wondering why I do this ? Know then that if the Muslim maks a good ablution and performs the Five Prayers his sins will fall away from him just as the leaves of this branch. Then the Prophet recited this Verse :

« أقم الصــلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » .

("And keep up Prayer at the two ends of the day and in the first hours of the night. Surely good deeds take away evil deeds. This is a reminder for the mindful.")

Besides taking away sins, the Prayers transfer man from the world of hate and strife to the peaceful moments of humility and fear in the eyes of God. The Five Prayers are like five spiritual meals of appeal to God, which illumine his heart, and take the praying one from earth to heaven. They enable man to ask the Only Creator, the Self-Sufficient, who answers the applicant who appeals to Him Who said : I divided the Prayer between Myself and My servant. The portion of My servant is that I answer him. So when he says in his Prayer : Praise be to God, the lord of the Worlds, I say : My servant praised Me. When he says : The Beneficent, the Merciful, I say : My servant exalted Me. When he says : The Owner of the Day of Judgment, I say : My servant glorified Me. When he says : We worship

man kind as it embellished life by providing man with a brilliant and superior idealogy which covers the entire field of human conditions. By this brilliant system of life the prophet Muhammad lifted up a nation sunk so low as were the Arabs and made of them, in a short period of time, torch - bearers of a high culture and a great civilization. This system could unify the discordant elements of a society into a harmonious nation.

The ideal life that Islam seaks man to pursue is an ideal of developing and growing of itself to satisfy his future needs. And it gives a new meaning to life and impels man to strive for the attainment of the highest spiritual values

This ideal should link man's everyday life with the life hereafter. The Holy Quran states :

« وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى »
(سوره النجم ـ ٣٩)

« And that man can have nothing but what he strives for ; And that his striving will be seen; Then he will be rewarded for it with the fullest reward ; And that to your lord is the Goal ».

And :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »

« So he who does an atom's weight of good, will see it ; And he who does an atom's weight of evil, will see it »

The Cardinal principle of Islamic faith is to belive in the existence of God and His Oneness. This belief creats in Soul of man Courage, bravery humanity, brotherhood and equality. This faith also creats in him will of power for he is not dismayed by misfortune nor despair. The believer in the oneness of God will hava no fear from anybody and he knows that there is no harm and benefit except through Him,All authority and power are only to Him, He is the granter of mercy and prosperity, He is the owner of life and death. This belief, undoubtedly, will lead man to a stable, properious and happy life in this world and incite him to perfection and elevation, in order to attain the highest grade in the hereafter.

ISLAM AND LIFE

(1)

By : A. M. Mohiaddin Alwaye

Islam is a complete System of life suited to all times and climes and acceptable to all those that dwell under the sun. It is but natural for such a universal message to adopt itself to the varying conditions of human life. Islam consists of faith to regulate man's relation with his Lord and Sustainer, as it consists of legislation to regulate human behaviour in the capacity of an individual, a society and a nation. Its legislation should take into consideration all the needs of the human society, individually and collectively and should regulate all kinds of human relations.

Islam calls man to follow his original nature as designed by God. The Quran mentions that the true religion is to follow the nature, in which Allah has created man.

The Quran Says :

« فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

(سورة الروم : الآية ٣٠)

«So set thy purpose for religion as a man by nature upright, the nature (framed) of Allah, in which He has created man. There is no altering (the law of) Allah's Creation. That is the right religion, but most man know not ». The Holy Quran stated that Islam is a perfect constitution and an excellent guidance to mankind in all walks of life :

« وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

« This is my way : leading straight ; follow it, and follow not other ways, they should scatter you from His - Straight - path ».

Islam sought to liberate the mind of man from doubt and superstition and it rid him of the fear and suspicion. It made plain to him that nature can be his friend and not his enemy. As it created new interests and avenues for man to exploit. In short, Islam is a progressive liberation movement which freed mankind from the ideological bankruptcy and the failure of equality. It offered spiritual food to a Spirituall starved

فلينظر الانسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعاً لكم ولأنعامكم . »

"Let man consider his food (and how we provide it). We (first) pour forth water in abundance, then split the earth in clefts and cause to grow therein corn and grapes and nutritious plants and olives and dates and enclosed gardens of thick foliage and fodder, provision for you and for your cattle." (LXXX: 24 - 32).

« وأن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه ، من بين فرث ، ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ، ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون : الآية)

"And verily in the cattle (too) there is a lesson for you. From within their bodies, between excretions and blood, We produce milk which is pure and agreeable to drink. And from the fruits of the date-palm and the vine you obtain both strong drink and good nourishment. Therein also is a sign for the intelligent. And (consider again,) thy Lord inspired the bee to dwell in the hills and in the trees and in the structures (men) put up, and then to suck the juice of all kinds of flowers and to follow the directions of its Lord till there issues from within its body a drink of diverse hues, wherein is healing for men. Verily, herein is a sign for those who reflect" (XVI : 66 - 69).

The argument can go on into infinity, for His mercy and the signs of Truth are infinite.

From an all-pervading Providence, the Quran proceeds directly to the unity of God. To whom can man bow in adoration and submission but to the Lord, Who cherishes and sustains the entire Universe and Whose limitless bounty and mercy one acknowledges with every beat of one's heart.

« يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو »

"O mankind, reflect upon Allah's grace. Is there a creator other than Allah who gives you sustenance from the heavens and the earth ? No, there is no God but He" (XXXV : 3).

The argument naturally leads also to the need, for man, of a moral code, of revelation and of a messenger from God. It is not possible that the Lord, Who has provided every necessary thing for man's material well-being, should not also have provided a discipline and order for his spiritual sustenance and progress. The spirit has needs just as much as the body, and it cannot be that God should provide all the wherewithal for the development of the body but nothing for that of the spirit.[1]

(1) The Quintessence of Islam.

proposition; his reason revolts against it, his nature strives f♭r constructive belief and faith and, in so doing, can pass through but cannot dwell in the barren regions of doubt and disbelief.

The Qur'an's approach in this matter is not dialectical; it deos not propound metaphysical these and frame logical arguments for them so as to compel an adversary to submission; it addresses itself always to man's natural instinct. According to the Qur'an, the sentiment of God worship is ingrained in human nature. If a man is inclined to turn away from it, it is but a laps on his part, and it is necessary to redirect his attention. Arguments will no doubt have to be used for this purpose but they must be such as will not merely create a ferment in his intellect and reason but will knock at the inner recesses of his heart and awaken his natural instinct. Once his instinct is awake and active, he will need no argument or sermon to take him to his goal.

• بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره • .

"Man('s very exis ence) is witness against himself, however he may Seek excuses." (LXXV : 14-15)

• قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فيقولون الله ، فقل أفلا تتقون • .

(Who provides you with nourishment from the sky and the earth? who has power over your hearing and sight? And who brings out a living being out of a lifeless one and a lifeless being out of a living one? And who rules and regulates every thing (with Such discipline and order)? (X : 31).

• أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أ إله مع الله بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى . . . •

(Who created the heavnes and the earth? Who sends down for you rain from the sky, then causes to grow orchards, full of beauty and delight, whose trees it is not in your power to cause to grow? Is there another God (to be worshiped) besides Allah? (But alas,) there are people who stray from the right path. Say then, who fixed the earth as an abode and ran rivers in its folds and for (giving) it (balance), placed firm mountains and erected a barrier between two waters (i. e. between oceans or between an ocean and a river)? Can there be any God other than Allah? And yet (alas,) there are many that know not) (XXVII:60-61)

and reason and were based, instead, on irrational dogmas. The Quran offered a rational conception for the worship of God.

2— The call of the Quran is basically addressed to intelligent understanding and rational reflection; it particularly invites man to look carefully at everything in the universe and to reflect upon it.

3— If man will use his powers of understanding and reflection he will realise that everything in the universe has been created with a particular purpose and that it is related to the rest of the universe under a superior discipline and order.

4— Once man begins so to reflect on the purposefulness of creation, the scales will drop from his eyes, his mind will shed ignorance, and the path to Truth will unfold itself before him.

Of all the manifestations of nature, the Quran has drawn mostly, for its argument, on the spirit and power of a Supreme Norisher and Sustainer, which is evident in the organisation of the universe as a whole, in every separate nook and corner and in every single being with in it. That the universe should so function that everything in it assists in the fundamental function of sustaining and continuing life, that everything that happens should prove to be a life giving force and, finally, that there should be evident an inherent organisation which takes into account every possible state and circumstance and makes every necessary adjustment cannot but instil in the instinct of man the assurance that there must be a Lord and Sustainer of the Universe. Otherwise such a perfect and flawless organisation for the sustenance and continuance of life in a wholly intelligent and ordered manner could not be possible.

Could such a universe com into existence by itself without any purpose, will or life force behind it? It is blind nature, lifeless matter and senseless electrons which have made this perfectly conceived and organised universe, without there being any intelligent will behind it? Can it be that the function of norishment and sustenance is performed with out anyone to perform it, that there is a vast, complicated edifice but no architect, that things damaged are set right again without a repairer, that there are manifestations of mercy but no merciful being, that there are evident signs of intelligence, and wisdom without there being awise intelligence, that there is an organisation without an organiser, a drawing without an artist, a deed without a doer? Man's instinct refuses to accept such a

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

CHIEF EDITOR :

AHMAD HASSAN AL - ZAYYAT

DHU'L-HIJJAH 1384	ENGLISH SECTION EDITED BY : A. M. MOHIADDIN ALWAYE	APRIL 1965

THE QUR'ANIC CONCEPTION OF GOD - IV

BY : MOULANA ABUL KALAM AZAD

This doctrine of purposeful creation is applied to, among others, the law of reward and Punishment. Everything carries with it a particular effect or result, and all such effects or results are immutable. So must it be with man's actions; they too lead to their due results, good or bad, which cannot be avoided. The law of nature which distinguishes between good and bad in everything else cannot ignore man's Conduct.

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون . وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » .

(Do they who do evil think that we shall make them as (equal to) those who believe and who do good, equal to them in life and death ? (If So,) bad is their judgment. And God has created the heavens and the earth justly, So that every Soul Should be given a return according to what it has earned. And no injustice shall be done to any one.) (XL V : 21 - 22).

So it is with life after death. Everything in the universe has a purpose and an end, and it must necessarily be so with human existence also. It cannot be that man, "God's finest handiwork", was created just to live for a brief while and then be destroyed altogether.

The following, in brief, is the argument of the Quran :

1 — When the Quran was revealed, the current conceptions of God and systems of faith and worship were untouched by intellect